UNIVERSAL
LIBRARY
OU_234910
UNIVERSAL
LIBRARY

(فهرسة الجزء الاول من تفسير فتح البيان)

صحيفة

١٨ سورة الفاتحة

٣٩ سورة البقرة

(تمت)

(فهرسة الجزء الاول من تفسير الحافظ ابن كثير)

صحيفة

١٣ سورة الفاتحة

٥٥ تفسير سورة البقرة

(تمت)

ترجمة مؤلف هـذا الكتاب البديع محكم
النسج على أبهج وجه وأتقن
صنيع المسمى فتح البيان
في مقاصد
القرآن

(ترجمة المؤلف أدام الله مجده)

هو السيد السند الامام العلامة الاصولي المتكلم المحدث الفهامة زينة اهل الاستقامة فريد العصر نادرة الدهر خاتمة النقاد حامل لواء الاسناد بقية أهل الاجتهاد بلا خلاف وعناد كشاف أصداف الفرائد قطاف أزهار الفوائد فاتح أقفال العلوم مانح أنفال المنطوق منها والمفهوم مضحك كائم النكت من نوادره مفتح نواظر الظرف فى موارده ومصادره عز الاسلام والمسلمين محيي المائت من سنن سيد المرسلين الجوهر الجوهر النضار النضار الشريف الشريف أبو الطيب صديق بن حسن بن على البخارى القنوجى الحسينى نسبا على السمالك عاليا والسنى مذهبا الى الصواب هاديا أولاه الله تعالى خلعة العناصر والوجود وأراه بعين عنايته عالم المظاهر فى مناظر الشهود يوم الاحد وقت الضحى لعله التاسع عشر من جمادى الاولى سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف الهجرية على صاحبها الصلاة والتحية ببلدة بريلى موطن جده القريب من جهة الام ثم جاءت به أمه الكريمة من بريلى الى قنوج موطن آبائه الرقاة الى سماء العلا والاوج ولما طعن فى السنة السادسة من عمره انتقل والده الشريف الى جوار رحمة الله وبقى فى حجر أمه يتيما وبخل الزمان باتيان مثله فى السيادة والشرافة كانه صار عقيما الى ان ترعرع فقرأ من الفارسية والصرف والنحو بعض رسائلها وأتقن نبذة من مسائلها ونزل ببلدة (كانپور) وتعلم هنالك الفوائد الضيائية ومختصر المعانى وغيرها من كتب المعانى والمبانى ثم شمر عن ساق الجد لتحصيل العلوم وشد الرحل الى دهلى وأخذ عن الشيخ محمد صدر الدين خان المفتى بها وأتم الدرس وأكمل مراتب الفنون ومقاصدها بذهنه الثاقب ونافذ الحدس وعاد من دهلى الى قنوج وسافر منها الى بلدة بهوپال وألقى بها عصا التسيار طالبا للرزق الحلال وكان زمام الحكومة اذ ذاك بيد اقتدار المملكة العالية الهمم نواب سكندر بيكم غفر الله لها وأجزل لها الاجر الاعظم وصحب بهذه البلدة الحمية الشيخ حسين بن محسن اليمنى حماه الله تعالى وأقام سلسلة الاسانيد لكتب الحديث الشريف واستحصل سند القرآن الكريم عن الشيخ محمد يعقوب الدهلوى المهاجر المتوفى بمكة المكرمة رحمه الله تعالى فى سنة ١٢٨١ وأخذ الاجازة عن الشيخ المعمر عبد الحق الهندى تلميذ الامام الربانى القاضى محمد بن على بن محمد اليمانى الشوكانى رحمهما الله تعالى واستكتب اسناد الامهات الست والمسانيد والمعاجم وغير ذلك من كتب التفاسير والاصول والفقه وغير ذلك وأجازه كل واحد من هؤلاء الائمة بما هو مذكور فى ثبتهم الجامع لجميع اصناف العلوم وأنواع الفنون واشتغل بالدرس والتأليف وصار رأسا فى المعقول والمنقول واماما فى على الفروع والاصول وجد واجتهد فى اتقان القرآن والسنة وتدوين علومهما واشاعة ذلك وبذل المال الكثير فى اذاعتها بالطبع والتقسيم وما هنالك وله مصنفات عديدة ومجاميع ممتعة مفيدة منها ما كتب فى أوان التحصيل ومنها ما ألف بعد ذلك وهى كلها نافعة جدا مشتملة من الحقائق والفوائد على ما لم يشتمل عليه كتاب من كتب علماء هذا العصر من العرب

والعجم

والعجم وذلك فضل الله يخص به من يشاء من عباده ذوى الهمم والكرم فمن ذلك هذا التفسير المسمى بفتح البيان فى مقاصد القرآن وكتاب الروضة الندية فى شرح الدرر البهية وحصول المأمول من علم الاصول الى غير ذلك من الكتب والرسائل الجمة باللسان العربى ومسك الختام شرح بلوغ المرام وحجج الكرامة فى آثار القيامة وهداية السائل الى أدلة المسائل ومنهج الوصول الى اصطلاح أحاديث الرسول وهى باللسان الفارسى وفتح المغيث بفقه الحديث وغير ذلك وهى باللسان الهندية وله حماه الله تعالى فى كل من هذه الالسنة يد صالحة وجارحة عاملة وفى الكتابة سرعة عجيبة وفى التآليف ملكة غريبة يكتب الكراريس العديدة فى يوم واحد ويصنف الكتب الضخيمة فى أيام قليلة ويمر على الدواوين مر السحاب ويطالع الجامع فى طرفة عين مع امعان النظر فى كل باب وله عافاه الله تعالى أولاد صالحة ذكور واناث ودولة كثيرة وأمتعة وأثاث لم يلهه عن الدين وعلومه التكاثر بل اكتسب الهند وأهلها من جوده ما يفاخر به التفاخر فهو شمس بازغة وغيره من العلماء كالنجوم وهو سماء رفيع والامراء كالرسوم له نسب عال يتصل الى سيد الانبياء وحسب عال من جهة الاجداد والآباء عالم ابن عالم وفاضل ابن فاضل وباذل للعلم والخير وأى باذل كم له من آثار حسنة على أكف القبول مرفوعة وثمار ممتعة لا مقطوعة ولا ممنوعة يعرفه الصغير والعرب ويخضع له الامم مع الادب من أنكر فضله فهو عن اللب محروم ومن جهله فهو فى ضلاله يدوم جعل الله محسودا بين الاقران من الفضلاء والانسان ولم يجعل حاسد الاحد من نوع الانسان وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ويعطى من يريد ما أراد ومن نقم رحمة الله على عباده ورام البلوغ الى مقاصده ومراده فدونه خرط القتاد ومن حين ارتقى الى هذه المعارج وبلغ تيك المدارج ظهرت فى أيامه السعيدة العادلة محسنات بديعة طائلة وانشاآت بالمنافع حافلة وتقدم الناس فى فنون العرفان وخلعوا عنهم رداء التقليد وفازوا بمقاصد الحديث والقرآن ولقد طالما أعطى فأقنى وأنطى فأغنى فجميع الناس يقصد مغناه ويرتوى من جدواه هو البحر الخضم الطامى والطود الاشم السامى الذى لم يخب قط ذا أمل ولم يلق يوما عما زكا من الاعمال وجل البر شعاره والتقوى دثاره وفى طاعة الرحمن أفكاره حاوى محاسن الشيم والشمائل جامع شتات الفضل والفضائل الذى له الايادى المثلى والمآثر الحسنى افتخرت بهوپال برياسته وكياسته بل تهلل وجه الاسلام برياسته وفراسته فكم له فى عزته يد بيضاء وما أثر غراء قد ابتهج الكون بوجوده فكل أيامه به سعيدة وسارت فى الآفاق مكارمه فكل يحمد وجوده وجوده ذو طلعة يجلو غياهب الحزن مرآها وهمة يعنو لها من عراقيل الامور أقصاها لا يجيل خاطره المنير فى أمر الا سدده ولا يرى وجها للفعل الخير الا وابتدره وورده فانه مطبوع على الكرم والاحسان ومجبول على نفع كل انسان فكانه والمعالى توأمان أو صنوان متلازمان أدام الله فخره وجعل هذا التفسير مما يجدد على طول المدى ذكره وأجره وكان تأليفه فى بلدة بهوپال المحمية فى سنة ١٢٨٩ الهجرية القدسية فى عهد دولة

ذات الهمة العلية صاحبة المكارم الجلية عين هذا الزمان الاخرو يمينه لو حلف الدهر ليأتين بمثلها حنثت يمينه فهى درة يتيمة كلها كرم وجود ومامن فضل الاوهو فى ذاتها الكريمة مشهود وموجود موارد كرمها سائغة وملابس نعمها سابغة مع أياد روائح ونعم غوادى كنسائم الحدائق غب الامطار الغوادى فأين للسحائب المركومة فيض بنانها وأين للرياض الممطورة بهجة جنانها أعنى بها اولية النعم حضرتنا تاج الهند المكرم الرئيس البطل الاعظم من الطبقة العليا لكواكب الهند نواب شاهجهان بيكم أدام الله بركات عهدها ومحامد بلدها على ملازميها ورعيتها وعمها لجميع المسلمين ونفع بها كافة المؤمنين المتبعين فهى التى بعثت جناب المؤلف أدام الله بركاته وعم مجده وافاداته على تأليف هذا التفسير للقرآن الكريم وامرت بادارة مطبع جديد لطبع هذا الرقيم الذى ينسب الى اسمه الشريف ويقال له المطبع الصديقى عند الحمد والتعريف وأعانت بأنواع المكرمات وجاءت باصناف الصالحات الباقيات أحييت ماطمس من السنن الغراء البيضاء وأفنت ما كان شائعا من البدع المضلة والمحدثات الظلماء طهرت هذه الارض المحروسة عن أدناس الاشراك والمعاصى وزينتها بلباس التقوى حتى أقر بها كل دان وقاصى فعصرها عروس الدهر لدى ذى العينين وعهدها فؤاد جسد الاسلام بلا مين كم عمرت من مدارس العلم وكم أجارت العلماء مع كمال الحزم والحلم لايطيق لسانى القاصر ابراز مكارمها المشهورة ولايهتدى خاطرى الفاتر الى كشف محامدها المأثورة لله درها فيما علمت وعملت وعلى الله أجرها حيثما حلت من أعباء البرايا وأثقال الرعايا ما حلت كان الله لها مدى الزمان وكانت له ما ترنم البلابل على الاغصان وآخر دعوانا أن الحمد لله رب الملوك والاعيان ورازق الانسان والحيوان وموفقهم للخير والاحسان فى كل زمان ومكان بحسب الاستطاعة والامكان وصلى الله وسلم على رسوله محمد سيد ما فى الوجود والاكوان وعلى آله وصحبه برك الاسلام وغرة جباه الايمان نمقه صحيح هذا التفسير فى دار الطباعة الراجى رحمة ربه العالى السيد ذو الفقار أحمد النقوى البوفالى وفقه الله تعالى وتبارك للعمل على كتابه العزيز الكريم ورزقه اتباع نبيه الرؤف الرحيم

(الجزء الاول)

من التفسير المسمى فتح البيان

في مقاصد القرآن للسيد الامام المجتهد المحقق

الهمام المؤيد من مولاه القدير الباري أبي الطيب صديق

ابن حسن القنوجي البخاري ملك مدينة بهوبال

حالا بالاقطار الهندية لازالت

كواكب فضله في

الآفاق زاهرة

مضيه

آمين

وبهامشه تفسير الامام الجليل الكبير الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسمعيل بن عمر

ابن كثير القرشي الدمشقي سنة سبعمائة وأربعة وسبعين

وهذا التفسير جليل فسر بالاحاديث والآثار مسندة من أصحابها مع الكلام على

ما يحتاج اليه جرحا وتعديلا اه من كشف الظنون

(الطبعة الاولى)

(بالمطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر المحمية)

سنة ١٣٠٠ هجريه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وقال تعالى الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر باسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا فلعلك باخع نفسك وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون واختتمه بالحمد فقال بعد ماذكر مآل أهل الجنة وأهل النار وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ولهذا قال تعالى وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون كما قال تعالى الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الارض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير فله الحمد فى الاولى والآخرة أى فى جميع ماخلق وماهو خالق هو المحمود فى ذلك كله كما يقول المصلى اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ماشئت من شئ بعد وله ذا يلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس أى يسبحونه

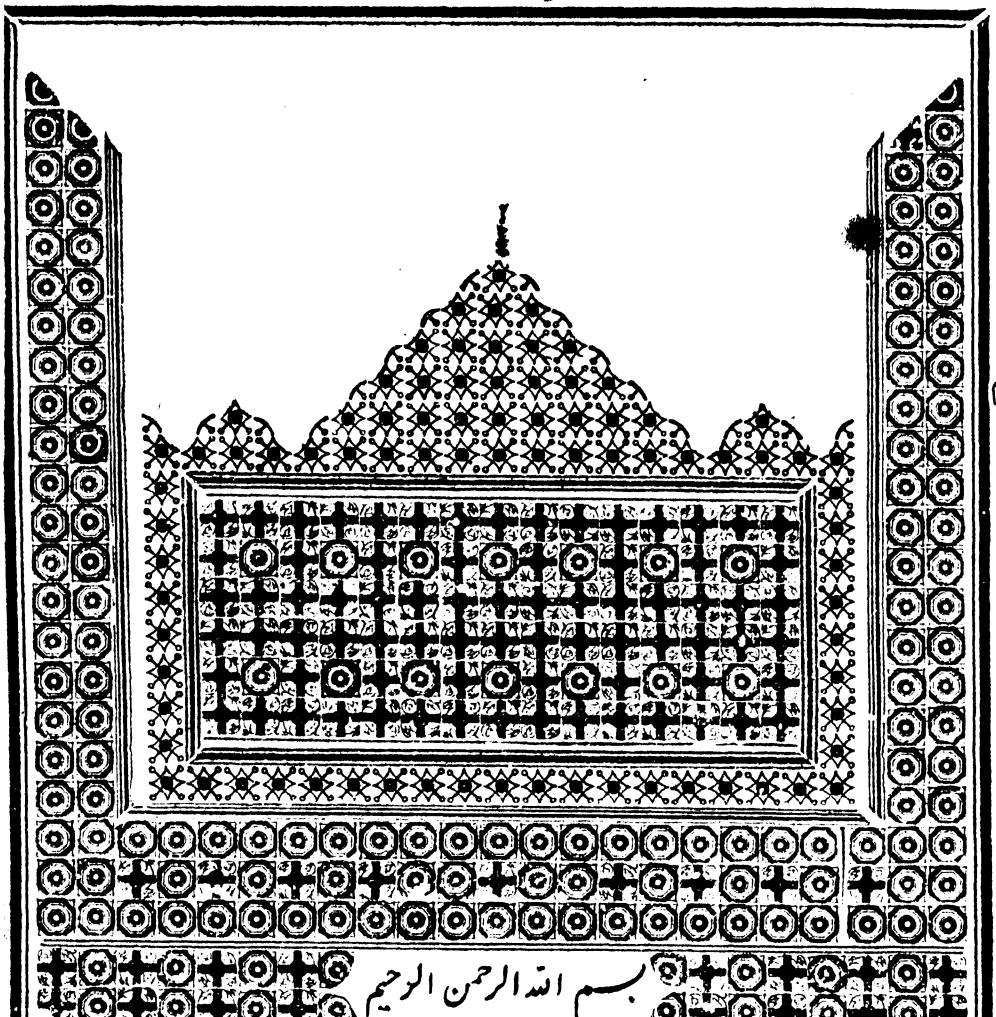

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق * وبين له من معالم العلم وشعائر الشرائع ومشاعر الملل كل ماجل ودق * ونزل عليه كتابا معجزا أخرس مصاقع الخطباء من العرب العرباء * وخطابا مفحما أعجز بواقع البلغاء من عصابة الادباء * باظهر بينات وأبهر حجج * قرآنا عربيا غير ذى عوج * أمر فيه وزجر * وبشر وأنذر * وذكر المواعظ ليتذكر * وقص عن أيام الامم الخالية ليعتبر * وضرب فيه ضروب الامثال ليتدبر * ودل على آيات التوحيد ليتفكر * أنزله بحسب المصالح والحكم نجما * وجعله بالتحميد مفتتحا وبالاستعاذة مختتما * وأوحاه متشابها ومحكما * مزاياه ظاهرة باهرة فى كل وجه كل زمان * دائرة من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان * كادت

الرواسى

ويحمدونه عددا أنفاسهم لما يرون من عظيم نعمه عليهم وكمال قدرته وعظيم سلطانه وتوالى مننه ودوام احسانه اليهم كما قال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين والحمد لله الذى أرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس

على الله حجة بعد الرسل وختمهم بالنبي الامي العربي المكي الهادي لاوضح السبل أرسله الى جميع خلقه من الانس والجن من لدن بعثته الى قيام الساعة كما قال تعالى قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون وقال تعالى لأنذركم به ومن بلغ فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم واسود واحمر وانس وجان فهو نذير له ولهذا قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله تعالى كما قال تعالى فذرني ومن (٣) يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت الى الاحمر والاسود قال مجاهد يعني الانس والجن فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله الى جميع الثقلين الانس والجن مبلغا لهم عن الله تعالى ما أوحاه اليه من هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نبههم الى تفهمه فقال تعالى أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وقال تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب وقال تعالى أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (فالواجب) على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون وقال تعالى ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا باعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم واقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما امروا به من اتباع كتاب الله فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به وان نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل الينا وتعليمه وتفهمه وتفهيمه قال الله تعالى ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم

الرواسي لهيبته تمور * ويذوب من خشيته الحديد ويميع منه صم الصخور * فمن تمسك بعروته الوثقى وحبله المتين * وسلك جادته الواضحة وصراطه المبين * فقد فاز بمناه * ومن نبذه وراء ظهره وعصاه * واتخذ الهه هواه * فقد هوى في تخوم الشقاء وتردى في مهاوي الردى ولا اشتباه * فأي عبارة تبلغ أيسر ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم * وأي اشارة تصلح لبيان أقل ما ينبغي له من التوصيف والتكريم * كلا والله ان بلاغة البلغاء وسحرة البيان وان طالت ذيولها * وفصاحة الفصحاء ومهرة قحطان وان سالت سيولها تتقاصر عن الوفاء بادنى أوصافه وان جالت بميادينها خيولها * وتتصاغر عن التشبث بأقصر أطرافه وان أفلقت في اطرائها فحولها * فتعود ألسنتهم عنه قاصرة * وصفقتهم في أسواقه خاسرة * كيف وتلك الآيات والدلائل * وتيك البينات والمخايل * وهذه العبارات العبقرية * وما في تضاعيفها من أسرار البرية * مما لا تحيط به ألباب البشر * ولا تدرك كنهه طباع العالم الاكبر والاصغر * بحيث لو اجتمعت الانس والجن على معارضته ومباراته * لعجزوا عن الاتيان بمثل أقصر آية من آياته * فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه كلام الملك العلام * من الاطراء والاكرام * أوفق بما يقتضيه الحال من الاجلال والاعظام * والصلاة والسلام على من أرسله الله الى الخلق هاديا وبشيرا * ونزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرا * فهداهم به الى الحق وهم في ضلال مبين * وسلك بهم مسالك الهداية حتى أتاهم اليقين * أكمل به بنيان النبوة والجلالة * وختم به ديوان الوحي والرسالة * وأتم به مكارم الاخلاق ومحاسن الافعال * على ألطف أسلوب وأحسن أحوال * أعلى به من الدين معالمه * ومن الحق مراسمه * وبين من البرهان سبيله * ومن الايمان دليله * وأقام للحق حجته * وأنار للشرع محجته * حتى انشرحت الافئدة بانوار البينات * وانزاح عن الضمائر صدأ الشبهات * فهو حجة نيرة واضحة المكنون * وآية بينة لقوم يعقلون * بل برهان جلي لا ريب فيه * ومنهج سوي لا يضل من ينتحيه * مظهر لتفاصيل الشرائع والاديان بالاستحقاق * مفسر لمشكلات آيات الانفس والآفاق * كاشف عن خفايا حظائر القدس * مطلع على خبايا سرائر الانس بحر علم لا ينزف * وعلم فضل لا ينشف * به يتوصل الى سعادة الدنيا والآخرة * وبه تكتسب الملكات الفاخرة * كلامه شفاء للسقام * ومرهم للاوهام * وحديثه قاطع للخصام *

٣ قنوج كسنور ومنهم من يبدل النون ميما في التهذيب انه موضع في بلد الهند والصواب انه بلد بالهند كبيرة متسعة ذات أسواق تجلب اليها البضائع الفاخرة فتحه السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الغزنوي بعد محاصرة شديدة وقرأت في الاصابة للحافظ ابن حجر العسقلاني في القسم الثالث من السين مانصه روى أبو موسى في الذيل من طريق عمر بن أحمد الاسفرايني حدثنا مكي أحمد البردعي سمعت اسحق بن ابراهيم الطوسي يقول وهو ابن سبع وتسعين سنة قال رأيت سرباتك ملك الهند في بلدة تسمى قنوج وقيل بالميم بدل النون فقلت (٤) كم أتى عليك من السنين الى آخر الحديث فراجعه انتهى من تاج العروس

تعقلون ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الارض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالايمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي والله المؤمل المسؤل أن يفعل بنا هذا انه جواد كريم فان قال قائل فما أحسن طرق التفسير فالجواب ان أصح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فانه قد بسط في موضع آخر فان أعياك ذلك فعليك بالسنة فانها شارحة للقرآن وموضحة له بل قد قال الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رحمه الله تعالى كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما وقال تعالى وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون وقال تعالى وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا اني أوتيت القرآن ومثله معه يعني السنة والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل بالقرآن الا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن النظم وقد استدل الامام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك والغرض انك تطلب تفسير القرآن منه فان لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه الى اليمن فبم تحكم قال بكتاب الله قال فان لم تجد قال بسنة رسول الله قال فان لم تجد قال أجتهد رأيي قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله وهذا الحديث في المسند والسنن باسناد جيد كما هو مقرر في موضعه وحينئذ اذا لم

عند تفاوت الافهام وتباين الاقدام * عليه يدور فلك الاوامر والنواهي * واليه يستند في معرفة حقائق الاشياء كما هي * أفلح من اتبعه ووالاه * وخاب من أعرض عنه وعاداه * وصلى الله وسلم على آله البررة * وصحبه الخيرة * مصابيح الامم * ومفاتيح الكرم * خلفاء الدين * وخلفاء اليقين * الذين بلغوا من محاسن الفضائل غاية الغايات * ووصلوا من مكارم الفواضل نهاية النهايات * قارعوا على الاسلام فكشفوا عنه القوارع والكروب * وسارعوا الى الايمان فصرفوا عنه العوادي والخطوب * فابتسم ثغر الدين * وانتظم أمر المسلمين * واتضح الوعد من الله وحق عليه نصر المؤمنين * لا يتسنى العروج الى معارجهم الرفيعة * ولا يتأتى الرقي الى مدارجهم المنيعة * لعلو شأنهم ونهاية الاعضال * وصعوبة مرامهم وعزة المنال * فهم شموس الهدى على فلك السعادة * وبدور الدجى لهم الحسنى وزيادة * وعلى من تبعهم بالاحسان * صلاة وسلاما دائمين ما تناوب النيران وتعاقب الملوان * (وبعد) * فيقول الفقير الى مولاه الغني به عمن سواه عبده وابن أمته وعبده (أبو الطيب صديق بن حسن بن علي القنوجي) أصلح الله حاله وما له قبل أن يخرج الامر من يده ان أعظم العلوم مقدارا وأرفعها شرفا ومنارا وأعلاها على الاطلاق وأولاها تفضيلا بالاستحقاق وأساس قواعد الشرائع والعلوم ومقياس ضوابط المنطوق والمفهوم ورأس الملل الاسلامية وأسها وأصل النحل الايمانية وأستقصها وأعز ما يرغب فيه ويعرج عليه وأهم ما تناخ مطايا الطلب لديه هو علم التفسير لكلام العزيز القدير لكونه أوثق العلوم بنيانا وأصدقها قيلا وأحسنها تبيانا وأكرمها نتاجا وأنورها سراجا وأصحها حجة ودليلا وأوضحها محجة وسبيلا وقد حاموا جميعا حول طلابه وراموا طريقا الى جنابه والتمسوا مصباحا على قبابه ومفتاحا الى فتح بابه وهو علم باحث عن نظم نصوص القرآن وآيات سور الفرقان بحسب الطاقة البشرية وبوفق ما تقتضيه القواعد العربية قال الفناري الاولى ان يقال علم التفسير معرفة أحوال كلام الله سبحانه وتعالى من حيث القرآنية ومن حيث دلالته على ما يعلم أو يظن انه مراد الله تعالى بقدر الطاقة الانسانية انتهى وهذا يتناول أقسام البيان بأسرها ولا يرد عليه ما يرد على سائر الحدود ومباديه العلوم اللغوية وأصول التوحيد وأصول الفقه وغير ذلك من العلوم الجمة * والغرض منه معرفة معاني

نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك الى أقوال الصحابة فانهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والاحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لاسيما علماءهم وكبراءهم كالائمة الاربعة الخلفاء الراشدين والائمة المهتدين المهديين وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم قال الامام أبو جعفر بن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح حدثنا الاعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال قال عبد الله يعني ابن مسعود والذي لا اله غيره ما نزلت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لاتيته وقال (٥) الاعمش أيضا عن أبي وائل عن ابن مسعود قال كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن وقال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له حيث قال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا وكيع ثنا سفيان عن الاعمش عن مسلم كذا قال قال عبد الله يعني ابن مسعود نعم ترجمان القرآن ابن عباس ثم رواه عن يحيى بن داود عن اسحق الازرق عن سفيان عن الاعمش عن مسلم بن صبيح عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال نعم الترجمان للقرآن ابن عباس ثم رواه عن بندار عن جعفر ابن عون عن الاعمش به كذلك فهذا اسناد صحيح الى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح وعمر بعده عبد الله بن عباس ستا وثلاثين سنة فانظر بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود وقال الاعمش عن أبي وائل استخلف علي عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة وفي رواية سورة النور ففسرها تفسير الوسمعته الروم والترك والديلم لاسلموا ولهذا غالب ما يرويه اسمعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس ولكن في بعض الاحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال بلغوا عني ولو آية

النظم ومعرفة الاحكام الشرعية العملية * وفائدته حصول القدرة على استنباط الاحكام الشرعية على وجه الصحة * وموضوعه كلام الله سبحانه الذي هو منبع كل حكمة ومعدن كل فضيلة * وغايته التوصل الى فهم معاني القرآن واستنباط حكمه ليفوز به الى السعادة الدنيوية والاخروية وشرف العلم وجلالته باعتبار شرف موضوعه وغايته فهو أشرف العلوم وأعظمها ذكره أبو الخير وابن صدر الدين * والقرآن الكلام العربي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتحدى باقصر سورة منه المنقول تواترا * ودليله الكتاب والسنة ولغة العرب العرباء * واستمداده من علمي أصول الدين والفقه وهو قسمان تفسير وهو ما لا يدرك الا بالنقل كأسباب النزول وتأويل وهو ما يمكن ادراكه بالقواعد العربية فهو مما يتعلق بالدراية والسر في جواز التأويل بشروطه دون التفسير أن التفسير كشهادة على الله وقطع بانه عنى بهذا اللفظ هذا المعنى ولا يجوز الا بتوقيف ولذا جزم الحاكم بان تفسير الصحابي مطلقا في حكم المرفوع والتأويل ترجيح لاحد المحتملات بلا قطع فاغتفر أفاد ذلك جماعة من أهل العلم ذكرهم سليمان الجمل في حاشية الجلالين وقد تصدى لتفسير عويصاته أساطين الامة وتولى لتيسير معضلاته سلاطين الائمة من الصحابة والتابعين وأئمة اللغة والنحويين ثلة من الاولين وأمة من الآخرين فغاصوا في بحار لجه وخاضوا في أنهار ثجه فنظموا في سلك التقرير فرائده وأبرزوا في معرض التحرير فوائده وألفوا كتبا جليلة المقدار وصنفوا براجيلة الآثار وفصلوا مجمله وبينوا معضله مع تحقيق للمقاصد وفق ما يرتاد وتنقيح للمعاقد فوق ما يعتاد * فالمفسرون من الصحابة الخلفاء الاربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب والرواية عن علي أكثر وعن الثلاثة في ندرة جدا والسبب فيه تقدم وفاتهم وروى عن ابن مسعود أكثر مما روى عن علي ومات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين وأما ابن عباس المتوفى سنة ثمان وستين بالطائف فهو ترجمان القرآن وحبر الامة ورئيس المفسرين دعا له النبي صلى الله عليه وسلم فقال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل وقد روى عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة لكن أحسن الطرق عنه طريقة علي بن أبي طلحة الهاشمي المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة واعتمد على هذه البخاري في صحيحه وأوهى الطرق عنه طريق الكلبي أبي النضر محمد بن السائب فان انضم اليه رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب

وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو ولهذا كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما فهمه من هذا الحديث من الاذن في ذلك ولكن هذه الاحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فانها على ثلاثة أقسام أحدها ما علمنا صحته مما بايدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح والثاني ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه والثالث ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من (٦) هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود الى أمر ديني ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرا ويأتي عن المفسرين خلافه بسبب ذلك كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم وعصا موسى من أي الشجر كانت وأسماء الطيور التي أحياها الله لابراهيم وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى الى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الادب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا فانه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعف القولين الاولين وسكت عن الثالث فدل على صحته اذ لو كان باطلا لرده كما رد هما ثم أرشد على ان الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فقال في مثل هذا قل ربي أعلم بعدتهم فانه ما يعلم ذلك الا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه فلهذا قال فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك فانهم لا يعلمون من ذلك الا رجم الغيب فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الاقوال في ذلك المقام وان تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فتشتغل به عن الاهم فالاهم فاما من حكى خلافا في مسئلة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص اذ قد يكون الصواب في الذي تركه أو

وكذلك طريق مقاتل بن سليمان الازدي وطريق الضحاك عنه منقطعة فانه لم يلقه ومن جيد الطرق عنه طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب وطريق ابن اسحق صاحب السير وأما أبي بن كعب المتوفى سنة عشرين على خلاف فيه فعنه نسخة كبيرة عن طريق أبي العالية وهذا اسناد صحيح ومن الصحابة من ورد عنه اليسير من التفسير غير هؤلاء منهم أنس بن مالك المتوفى بالبصرة سنة احدى وتسعين وأبو هريرة المتوفى بالمدينة سنة سبع وخمسين وعبد الله بن عمر بن الخطاب المتوفى بمكة المكرمة سنة ثلاث وسبعين وجابر بن عبد الله المتوفى بالمدينة سنة أربع وسبعين وأبو موسى الاشعري المتوفى سنة أربع وأربعين وابن عمرو بن العاص المتوفى سنة ثلاث وستين وهو أحد العبادلة الذين استقر عليهم أمر العلم في آخر عهد الصحابة وزيد بن ثابت الانصاري كاتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المتوفى سنة خمس وأربعين * وأما المفسرون من التابعين فمنهم أصحاب ابن عباس وهم علماء مكة المكرمة ومنهم مجاهد بن جبر المتوفى سنة ثلاث ومائة واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وسعيد بن جبير المتوفى سنة أربع وتسعين وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة خمس ومائة وطاوس بن كيسان اليماني المتوفى سنة ست ومائة وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة أربع عشرة ومائة ومنهم أصحاب ابن مسعود وهم علماء الكوفة كعلقمة بن قيس المتوفى سنة اثنتين ومائة والاسود بن يزيد المتوفى سنة خمس ومائة ومنهم أصحاب زيد بن أسلم كعبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس ومنهم الحسن البصري المتوفى سنة احدى وعشرين ومائة وعطاء بن أبي سلمة ميسرة الخراساني ومحمد بن كعب القرظي المتوفى سنة سبع عشرة ومائة وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي المتوفى سنة تسعين والضحاك بن مزاحم وعطية بن سعيد العوفي المتوفى سنة احدى عشرة ومائة وقتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة سبع عشرة ومائة والربيع بن أنس والسدي ثم بعد هذه الطبقة الذين صنفوا كتب التفاسير التي تجمع أقوال الصحابة والتابعين كسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وعبد الرزاق وآدم بن أبي اياس واسحق بن راهويه وروح بن عبادة وعبد الله بن حميد وأبي بكر بن أبي شيبة وآخرين * ثم بعد هؤلاء طبقة أخرى منهم عبد الرزاق وعلي بن أبي طلحة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن ماجه والحاكم

يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الاقوال فهو ناقص أيضا فان صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب أو جاهلا فقد أخطأ وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها الى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور والله الموفق للصواب *(فصل)* اذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الائمة في ذلك الى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فانه كان آية في التفسير كما قال محمد بن اسحق ثنا ابان بن صالح عن مجاهد قال عرضت (٧) المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته الى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها وقال ابن جرير أنبأنا أبو كريب أنبأنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ولهذا كان سفيان الثوري يقول اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ومسروق بن الاجدع وسعيد بن المسيب وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة والضحاك ابن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عبارتهم تباين في الالفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافا فيحكيها أقوالا وليس كذلك فان منهم من يعبر عن الشئ بلازمه أو بنظيره ومنهم من ينص على الشئ بعينه والكل بمعنى واحد في أكثر الاماكن فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي وقال شعبة بن الحجاج وغيره أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير يعني انها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح أما اذا أجمعوا على الشئ فلا يرتاب في كونه حجة فان اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض ولا على من بعدهم ويرجع في ذلك الى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه محمد بن جرير رحمه الله تعالى حيث قال ثنا محمد بن بشار ثنا يحيى بن سعيد ثنا سفيان حدثني عبد الاعلى هو ابن عامر الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار وهكذا أخرجه الترمذي

والحاكم وابن مردويه وأبو الشيخ بن حيان وابن المنذر في آخرين * ثم انتصبت طبقة بعدهم الى تصنيف تفاسير مشحونة بالفوائد محذوفة الاسانيد مثل أبي اسحق الزجاج وأبي علي الفارسي ومكي بن أبي طالب وأبي العباس المهدوي وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استدرك الناس عليهما * ثم ألف في التفسير طائفة من المتأخرين فاختصروا الاسانيد ونقلوا الاقوال بتراء فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل ثم صار كل من سنح له قول يورده ومن خطر بباله شئ يعتمده ثم ينقل ذلك خلف عن سلف ظانا أن له أصلا غير ملتفت الى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن هم القدوة في هذا الباب قال السيوطي رأيت في تفسير قوله سبحانه غير المغضوب عليهم ولا الضالين نحو عشرة أقوال مع ان الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم وجميع الصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى حتى قال ابن أبي حاتم لا أعلم في ذلك خلافا من المفسرين ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في شئ من العلوم * ومنهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه كأن القرآن أنزل لاجل هذا العلم لا غير مع أن فيه تبيان كل شئ فالنحوي تراه ليس له الا الاعراب وتكثير الاوجه المحتملة فيه وان كانت بعيدة وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر والاخباري ليس له شغل الا القصص واستيفاؤها والاخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة ومنهم الثعلبي والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعا وربما استطرد الى اقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية أصلا والجواب عن الادلة للمخالفين كالقرطبي وصاحب المظهري وصاحب العلوم العقلية خصوصا فخر الدين الرازي قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وخرج من شئ الى شئ حتى يقضي الناظر العجب قال أبو حيان في البحر جمع الامام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ولذلك قال بعض العلماء فيه كل شئ الا التفسير والمبتدع ليس له الا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث انه لو لاح له شارد من بعيد اقتنصه أو وجد موضعا له فيه أدنى مجال سارع اليه كما نقل عن البلقيني أنه قال استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش منها انه قال في قوله سبحانه وتعالى فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز أي فوزا أعظم من دخول الجنة اشار به الى عدم الرؤية

والنسائى من طرق عن سفيان الثورى به ورواه أبو داود عن مسدد عن أبى عوانة عن عبد الاعلى به مرفوعا وقال الترمذى هذا حديث حسن وهكذا رواه ابن جرير أيضا عن يحيى بن طلحة اليربوعى عن شريك عن عبد الاعلى به مرفوعا ولكن رواه عن محمد بن حميد عن الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس الملائى عن عبد الاعلى عن سعيد عن ابن عباس فوقفه وعن محمد بن حميد عن جرير عن ليث عن بكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس من قوله فالله أعلم وقال ابن جرير أنبأنا العباس بن عبد العظيم العنبرى ثنا حيان ابن هلال ثنا سهل أخو حزم ثنا أبو عمران الجونى (٨) عن جندب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال فى القرآن

فقد أخطأ وقد روى هذا الحديث أبو داود والترمذى والنسائى من حديث سهيل بن أبى حزم القطيعى وقال الترمذى غريب وقد تكلم بعض أهل العلم فى سهيل وفى لفظ لهم من قال فى كتاب الله برأيه فاصاب فقد أخطأ أى لانه قد تكلف مالا علم له به وسلك غير ما أمر به فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الامر لكان قد أخطأ لانه لم يات الامر من بابه كمن حكم بين الناس على جهل فهو فى النار وان وافق حكمه الصواب فى نفس الامر لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ والله أعلم وهكذا سمى الله القذفة كاذبين فقال فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى فى نفس الامر لانه أخبر بما لا يحل له الاخبار به ولو كان أخبر بما يعلم لانه تكلف مالا علم له به والله أعلم ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبى معمر قال قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى اذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم وقال أبو عبيد القاسم بن سلام ثنا محمد بن يزيد عن العوام فان ابن حوشب عن ابراهيم التيمى ان أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى وفاكهة وأبا فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى اذا أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم منقطع وقال أبو عبيد أيضا ثنا يزيد عن حميد عن أنس ان عمر بن الخطاب قرأ على المنبر وفاكهة وأبا فقال هذه الفاكهة قد عرفناها فما الاب ثم رجع الى نفسه فقال ان هذا لهو التكلف يا عمر وقال محمد بن سعد بنا سليمان بن حرب بنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفى ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ وفاكهة وأبا فقال

والملحد لا تسأل عن كفره والحاده فى آيات الله وافترائه على الله ما لم يقله كقول بعضهم فى تفسير قوله تعالى ان هى الا فتنتك ما على العباد أضر من ربهم وينسب هذا القول الى صاحب قوت القلوب ومن ذلك القبيل الذين يتكلمون فى القرآن بلا سند ولا نقل عن السلف ولا رعاية للاصول الشرعية والقواعد العربية كتفسير محمود بن حمزة الكرمانى ضمنه أقوالا هى عجائب عند العوام وغرائب عما عهد عن السلف الكرام وهى أقوال منكرة لا يحل الاعتقاد عليها ولا ذكرها الا للتحذير ومن ذلك قول من قال فى ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به انه الحب والعشق ومن ذلك قولهم فى ومن شر غاسق اذا وقب انه الذكر اذا قام وقولهم فى من ذا الذى يشفع عنده معناه من ذلى أى من الذل وذى اشارة الى النفس ويشف من الشفاء جواب من وع أمر من الوعى وسئل البلقينى عمن فسر بهذا فأفتى بأنه ملحد (قلت) وقد نبغت فى هذا الزمان طائفة تفسر القرآن برأيها وتحذف منه الآيات المتواليات تسمى بالنيفرية وهم الذين أنكروا وجود الملائكة والجن والشياطين الى غير ذلك وقد عمت فتنتهم بلاد الهند الاسلامية فرق الله جمعهم وبدد شملهم وأنزل بهم بأسه الذى لا يرده عن القوم المجرمين * وأما كلام الصوفية فى القرآن فليس بتفسير قال ابن الصلاح فى فتاواه وجدت عن الامام الواحدى أنه قال صنف السلمى حقائق التفسير ان كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر قال النسفى فى عقائده النصوص تحمل على ظواهرها والعدول عنها الى معان يدعيها أهل الباطن الحاد وقال التفتازانى فى شرحه سميت الملاحدة باطنية لادعائهم ان النصوص ليست على ظواهرها بل لها معان باطنة قال صاحب مفتاح السعادة الايمان بالقرآن هو التصديق بأنه كلام الله سبحانه قد أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبرائيل عليه السلام وأنه دال على صفة أزلية له سبحانه وأن ما دل هو عليه بطريق القواعد العربية مما هو مراد الله سبحانه حق لا ريب فيه ثم تلك الدلالة على مراده سبحانه بواسطة القوانين الادبية الموافقة للقواعد الشرعية والاحاديث النبوية مراد الله تعالى وقد ثبت فى الحديث ان لكل آية ظهرا وبطنا وذلك المراد الآخر لما لم يطلع عليه كل أحد بل من أعطى فهما وعلما من لدنه تعالى يكون الضابط فى صحته أن لا يرفع ظاهر المعانى المنفهمة عن الالفاظ بالقوانين العربية وأن لا يخالف القواعد الشرعية ولا يباين اعجاز القرآن ولا يناقض النصوص الواقعة فيها

فما الاب ثم قال هو التكلف فما عليك أن لا تدريه وهذا كله محمول على انه ما رضي الله عنهما انما اراد استكشاف علم كيفية الاب والا فكونه نبتا من الارض ظاهر لا يجهل كقوله تعالى فانبتنا فيها حبا وعنبا الآية وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة ان ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فابى ان يقول فيها اسناده صحيح وقال أبو عبيد حدثنا اسمعيل بن ابراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة فقال له ابن عباس فما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فقال له الرجل انما سألتك (٩) لتحدثني فقال ابن عباس هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما فكره ان يقول في كتاب الله ما لا يعلم وقال ابن جرير أيضا حدثني يعقوب يعني ابن ابراهيم حدثنا ابن علية عن مهدي ابن ميمون عن الوليد بن مسلم قال جاء طلق بن حبيب الى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال ١ أحرج عليك ان كنت مسلما لما قمت عني أو قال أن تجالسني وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب انه كان اذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال انا لا نقول في القرآن شيأ وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب انه كان لا يتكلم الا في المعلوم من القرآن وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال سال رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة وقال ابن شوذب حدثني يزيد بن أبي يزيد قال كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال وكان أعلم الناس فاذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع وقال ابن جرير حدثني ٢ أحمد بن عبدة الضبي حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن عمر قال لقد أدركت فقهاء المدينة وانهم ليعظمون القول في التفسير منهم سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع وقال أبو عبيد حدثنا عبد الله بن صالح عن ليث عن هشام بن عروة قال ما سمعت أبي يؤول آية من كتاب الله قط وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين سألت عبيدة يعني السلماني عن آية من القرآن فقال ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل القرآن فاتق الله وعليك بالسداد وقال أبو عبيد حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال اذا حدثت عن الله حديثا فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده حدثنا هشيم عن مغيرة عن ابراهيم

فان وجدت فيه هذه الشرائط فلا طعن فيه والا فهو بمعزل عن القبول قال الزمخشري من حق التفسير أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليما من القادح وكما ينبغي في التفسير شرائط ينبغي في المفسر أيضا شرائط لا يحل التعاطي لمن عرى عنها أو هو فيها راجل وهي أن يعرف اللغة والنحو والتصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقراآت وأصول الدين وأصول الفقه وأسباب النزول والقصص والناسخ والمنسوخ والفقه والاحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم وعلم الموهبة وهو علم يورثه الله سبحانه لمن عمل بما علم انتهى * ثم ان تفسير القرآن ثلاثة أقسام الاول ما لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه من معرفة كنه ذاته ومعرفة حقائق أسمائه وصفاته وهذا لا يجوز لاحد الكلام فيه الثاني ما أطلع الله سبحانه نبيه عليه من أسرار الكتاب واختصه به فلا يجوز الكلام فيه الا له صلى الله عليه وسلم أو لمن أذن له قيل وأوائل السور من هذا القسم وقيل من الاول وهو الراجح * والثالث علوم علمها الله نبيه وأمره بتعليمها وهذا ينقسم الى قسمين منه ما لا يجوز الكلام فيه الا بطريق السمع كاسباب النزول والناسخ والمنسوخ واللغات والقراآت وقصص الامم وأخبار ما هو كائن ومنه ما يؤخذ بطريق النظر والاستنباط من الالفاظ وهو قسمان قسم اختلفوا في جوازه وهو تأويل الآيات المتشابهات وقسم اتفقوا عليه وهو استنباط الاحكام الاصلية والفرعية والاعرابية وكذلك فنون البلاغة وضروب المواعظ والحكم والاشارات لا يمتنع استنباطها منه لمن له أهلية ذلك وما عدا هذه الامور هو التفسير بالرأي الذي نهي عنه * وفيه خمسة أنواع * الاول التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير * الثاني تفسير المتشابه الذي لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى * الثالث التفسير المقرر للمذهب الفاسد بان يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا له فيرد اليه بأي طريق أمكن وان كان ضعيفا * الرابع التفسير بان مراد الله سبحانه كذا على القطع من غير دليل * الخامس التفسير بالاستحسان والهوى والتقليد (أقول) ان التفسير الذي ينبغي الاعتماد به والرجوع اليه هو تفسير كتاب الله جل جلاله باللغة العربية حقيقة ومجازا ان لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية فان ثبتت فهي مقدمة على غيرها وكذلك اذا ثبت تفسير ذلك من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو أقدم من كل شيء بل حجة متبعة لا يسوغ مخالفتها لشيء

(٢ - فتح البيان ل)

قال كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر قال قال الشعبي والله ما من آية الا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله عز وجل وقال أبو عبيد حدثنا هشيم حدثنا عمرو بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال اتقوا التفسير فانما هو الرواية عن الله فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه فاما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لانهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه وهذا هو الواجب على كل أحد فانه كما يجب السكوت عما لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى لتبيننه للناس ولا تكتمونه ولما جاء في الحديث الذي روى من طرق من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار وأما الحديث الذي رواه أبو جعفر ابن جرير حدثنا عباس بن عبد العظيم حدثنا محمد بن خالد بن عثمة حدثنا أبو جعفر بن محمد الزبيري حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيأ من القرآن الا آيا بعدد علمهن اياه جبرائيل عليه السلام ثم رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي عن معن بن عيسى عن جعفر بن خالد عن هشام به فانه حديث منكر غريب وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري قال البخاري لا يتابع في حديثه وقال الحافظ أبو الفتح الازدي منكر الحديث وتكلم عليه الامام أبو جعفر بما حاصله ان هذه الآيات مما لا يعلم الا بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه عليها جبرائيل وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث فان من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ومنه ما يعلمه العلماء ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما صرح بذلك ابن عباس فيما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا مؤمل حدثنا سفيان عن أبي الزناد قال قال ابن عباس التفسير على أربعة أوجه وجه تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه أحد الا الله قال ابن جرير وقد روى نحوه في حديث في اسناده نظر حدثني يونس بن عبد الاعلى الصدفي أنبأنا ابن وهب سمعت عمرو بن الحرث يحدث عن الكلبي عن أبي صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنزل القرآن على أربعة أحرف حلال

(١٠) وسكتوا عما جهلوه وهذا هو الواجب على كل أحد فانه كما يجب السكوت عما لا علم له به

آخر ثم تفاسير علماء الصحابة المختصين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانه يبعد كل البعد أن يفسر أحدهم كتاب الله تعالى ولم يسمع في ذلك شيأ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى فرض عدم السماع فهو أحد العرب الذين عرفوا من اللغة دقها وجلها وأما تفاسير غيرهم من التابعين ومن بعدهم فان كان من طريق الرواية نظرنا في صحتها سواء كان المروي عنه الشارع أو أهل اللغة وان كان بمحض الرأي فليس ذلك بشيء ولا يحل التمسك به ولا جعله حجة بل الحجة ما قدمناه ولا نظن بعالم من علماء الاسلام أن يفسر القرآن برأيه فان ذلك مع كونه من الاقدام على ما لا يحل مما لا يحل قد ورد النهي عنه في حديث من فسر القرآن برأيه فاصاب فقد أخطأ ومن فسر القرآن برأيه فاخطأ فقد كفر أو كما قال الا أنا لم نتعبد بمجرد هذا الاحسان للظن على أن نقبل تفسير كل عالم كيفما كان بل اذا لم نجده مستندا الى الشارع ولا الى أهل اللغة لم يحل لنا العمل به مع التمسك بحمل صاحبه على السلامة ونظير ذلك اختلاف العلماء في المسائل العلمية فلو كان احسان الظن مسوغا للعمل بما ورد عن كل واحد منهم لوجب علينا قبول الاقوال المتناقضة في تفسير آية واحدة أو في مسئلة علمية واللازم باطل فالملزوم مثله واذا عرفت هذه الفوائد فاعلم ان كتب التفاسير كثيرة ذكر منها ملا كاتب الحلبي في كشف الظنون ما يزيد على ثلثمائة تفسير مرتبا على حروف الهجاء وزدنا عليه في كتابنا الاكسير في أصول التفسير فمنها تفسير ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد الرازي الحافظ المتوفى سنة خمس وتسعين ومائتين وانتقاه الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة احدى عشرة وتسعمائة في مجلد ومنها تفسير ابن جرير أبي جعفر محمد الطبري المتوفى سنة عشرة وثلثمائة قال السيوطي في الاتقان وكتابه أجل التفاسير وأعظمها فانه يتعرض لتوجيه الاقوال وترجيح بعضها على بعض والاعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الاقدمين اه وقد قال النووي أجمعت الامة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري وعن أبي حامد الاسفرايني أنه قال لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا ومنها تفسير ابن كثير الامام الحافظ أبي الفداء اسمعيل بن عمر القرشي الدمشقي المتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة تلميذ شيخ الاسلام بن تيمية الحراني رحمه الله تعالى وهو كبير في عشر مجلدات فسر بالاحاديث والآثار مسندة عن أصحابها مع الكلام على ما يحتاج اليه جرحا وتعديلا ومنها تفسير ابن

المنذر

وحرام لايعذر أحد بالجهالة به وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه الا الله عز وجل ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب والنظر الذى أشار اليه فى اسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبى فانه متروك الحديث لكن قد يكون انما وهم فى رفعه ولعله من كلام ابن عباس كما تقدم والله أعلم * (مقدمة) * مفيدة تذكر فى أول التفسير قبل الفاتحة قال أبو بكر بن الانبارى حدثنا اسمعيل بن اسحق القاضى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال نزل فى المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والاحزاب ومحمد والفتح (١١) والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويا أيها النبى لم تحرم والملك وسأل سائل والقلم انا أرسلنا والحاقة وسأل سائل والمدثر والمزمل وهل أتى والقيامة والمرسلات وعم يتساءلون والنازعات وعبس وويل للمطففين وانا أنزلناه فى ليلة القدر والبلد والشمس وليلها والسماء ذات البروج والتين والقارعة ولايلاف قريش وأرأيت والكوثر وقل يا أيها الكافرون وتبت والاخلاص وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ونزل بمكة طه والواقعة وحم عسق والمؤمن والزخرف والدخان والجاثية والاحقاف والذاريات والغاشية والكهف والنحل وانا أرسلنا نوحا والأنبياء واقترب للناس والحج ويس والفرقان والشعراء والقصص والروم والعنكبوت والمطففين والفيل ولإيلاف قريش وألهاكم التكاثر والهمزة والماعون والكافرون والفلق والناس وقل هو الله أحد وتبت والنجم والانشقاق والروم والعنكبوت والمطففين والانشقاق والبروج والطارق والغاشية والفجر ولا أقسم بهذا البلد وأنتم حل بهذا البلد والشمس وليلها والليل اذا يغشى والضحى وألم نشرح والعصر والعاديات وألهاكم التكاثر أرأيت الذى يكذب والهمزة والفيل وقريش والماعون والكوثر والكافرون والنصر وتبت والاخلاص والمعوذتان وأما ما نزل بالمدينة فالبقرة وآل عمران والانفال والاحزاب والمائدة والممتحنة والنساء واذا زلزلت والحديد ومحمد والرعد والرحمن وهل أتاك حديث الغاشية وسبح اسم ربك الأعلى والليل اذا يغشى والبينة والحشر والنور والحج والمنافقون والمجادلة والحجرات والتحريم والجمعة والتغابن والصف والفتح وبراءة والنحل والأحقاف والذاريات والغاشية والكهف والأنعام وسبأ وتبارك الذى بيده الملك والسجدة ولقمان والصافات والزمر والمؤمن وحم السجدة والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والجاثية والأحقاف والذاريات والغاشية والكهف والأنعام وسبأ وتبارك الذى بيده الملك والسجدة ولقمان والصافات والزمر والمؤمن وحم السجدة والشورى والزخرف والدخان

فى الاحزاب وما كان لمؤمن ولا مؤمنة والسادس الى الواو ومن قوله تعالى فى الفتح الظانين بالله ظن السوء والسابع الى آخر القرآن قال سلام ابو محمد علمنا ذلك فى أربعة أشهر قالوا وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربع القرآن فالاول الى آخر الانعام والثانى الى وليتلطف من سورة الكهف والثالث الى آخر الزمر والرابع الى آخر القرآن وقد حكى الشيخ أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان خلافا فى هذا كله فالله أعلم (وأما التحزيب والتجزئة) فقد اشتهرت الاجزاء من ثلاثين كما فى الربعات بالمدارس وغيرها وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد فى تحزيب الصحابة (١٢) للقرآن والحديث فى مسند الامام أحمد وسنن أبى داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة انه سئل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته كيف تحزبون القرآن قالوا ثلث وخمس وسبع وتسع واحدى عشر وثلاثة عشر وحزب المفصل حتى تختم

(فصل) واختلف فى معنى السورة مما هى مشتقة فقيل من الابانة والارتفاع قال النابغة

ألم تر ان الله أعطاك سورة

ترى كل ملك دونها يتذبذب

فكان القارئ ينتقل بها من منزلة الى منزلة وقيل لشرفها وارتفاعها كسور البلدان وقيل سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزأ منه مأخوذ من اسار الاناء وهو البقية وعلى هذا فيكون أصلها مهموزا وانما خففت الهمزة فابدلت الهمزة واوا لانضمام ما قبلها وقيل لتمامها وكمالها لان العرب يسمون الناقة التامة سورة (قلت) ويحتمل ان يكون من الجمع والاحاطة لآياتها كما يسمى سور البلد لاحاطته بمنازله ودوره وجمع السورة سور بفتح الواو وقد يجمع على سورات وسوارات وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها وانفصالها أى هى بائنة عن أختها ومنفردة قال الله تعالى ان آية ملكه وقال النابغة ضعيف

توهمت آيات لها فعرفتها * لستة اعوام وذا العام سابع

وقيل لانها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه كما يقال خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم قال الشاعر خرجنا من النقبين لاحى مثلنا * بآيتنا نزجى اللقاح المطافلا

وقيل سميت آية لانها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها قال سيبويه وأصلها أيية مثل أكمة وشجرة تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مدة وقال الكسائى أصلها آيية على وزن آمنة فقلبت ألفا ثم حذفت لالتباسها وقال الفراء أصلها أيية بتشديد الياء الاولى

وايفاء للحق وليس على ما جمعوه وصنفوه مزيد ولكن لابد فى كل زمان من تجديد ما طال به العهد وقصر للطالبين فيه الجد والجهد ايقاظا للنائمين وتحريضا للمتثبطين فحررت بعون الله تعالى وحسن توفيقه فيما سألوه واستنجحوه كتابا فى أيسر زمان وأحسن تقدير متوسطا بين الطويل الممل والقصير المخل وجمعته جمعا حسنا بعبارة سهلة وألفاظ يسيرة مع تعرض للترجيح بين التفاسير المتعارضة فى مواضع كثيرة وبيان للمعنى العربى والاعرابى واللغوى مع حرص على ايراد صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير النبوى ومن عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من سلف الامة وأئمتها المعتبرين كابن عباس حبر هذه الامة ومن بعده من الائمة مثل مجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وأبى العالية والقرظى والكلبى والضحاك ومقاتل والسدى وغيرهم من علماء اللغة والنحو كالفراء والزجاج وسيبويه والمبرد والخليل والنحاس ولكن الثابت الصحيح من التفسير المرفوع الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وان كان المصير اليه متعينا وتقديمه متحتما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة الى جميع القرآن والثابت من التفسير عن الصحابة ومن تبعهم بالاحسان ان كان من اللفظ الذى قد نقله الشرع الى معنى مغاير للمعنى اللغوى فهو مقدم على غيره وان كان من الالفاظ التى لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم فاذا خالف ذلك المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذى قاله على مقتضى لغة العرب العرباء فبالاولى تفاسير من بعدهم من تابعيهم وسائر الائمة وأيضا كثيرا ما يقتصر الصحابى ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآنى باعتبار المعنى اللغوى ومعلوم ان ذلك لا يستلزم اهمال سائر المعانى التى تفيدها اللغة العربية ولا اهمال ما يستفاد من العلوم التى يتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعانى والبيان فان التفسير بذلك هو تفسير باللغة لا تفسير بمحض الرأى المنهى عنه وقد قال سفيان ليس فى تفسير القرآن اختلاف انما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا وقال أبو الدرداء لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها وأخرج ابن سعد أن عليا قال لابن عباس اذهب اليهم يعنى الخوارج ولا تخاصمهم بالقرآن فانه ذو وجوه ولكن خاصمهم بالسنة وأيضا لا يتيسر فى كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن ولا اعتبار بما لا يصح كالتفسير المنقول باسناد

فقلبت ألفا كراهية للتشديد فصارت آية وجمعها آى وايا وآيات وأما الكلمة فهى اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولا وله ونحو ذلك وقد تكون أكثر وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ليستخلفنهم وانلزمكموها فاسقيناكموه وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل والفجر والضحى والعصر وكذلك الم وطه ويس وحم فى قول الكوفيين وحم عسق عندهم كلمتان وغيرهم لا يسمى هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور وقال أبو عمرو الدانى لا أعلم كلمة هى وحدها آية الا قوله تعالى مدهامتان بسورة الرحمن

(فصل) قال القرطبى اجمعوا على (١٣) انه ليس فى القرآن شئ من التراكيب الاعجمية واجمعوا أن فيه اعلاما من الاعجمية كابراهيم ونوح ولوط واختلفوا هل فيه شئ من غير ذلك بالاعجمية فأنكر ذلك الباقلانى والطبرى وقالا ما وقع فيه ما يوافق الاعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سورة الفاتحة) يقال لها الفاتحة أى فاتحة الكتاب خطا وبها تفتتح القراءة فى الصلوات ويقال لها أيضا أم الكتاب عند الجمهور ذكره أنس والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك قال الحسن وابن سيرين انما ذلك اللوح المحفوظ وقال الحسن الآيات المحكمات هن أم الكتاب ولذا كرها أيضا أن يقال لها أم القرآن وقد ثبت فى الصحيح عند الترمذى وصححه عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى والقرآن العظيم ويقال لها الحمد ويقال لها الصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى الحديث فسميت الفاتحة صلاة لانها شرط فيها ويقال لها الشفاء لما رواه الدارمى عن أبى سعيد مرفوعا فاتحة الكتاب شفاء من كل سم ويقال لها الرقية لحديث أبى سعيد فى الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك انها رقية وروى الشعبى عن ابن عباس أنه سماها اساس القرآن قال واساسها بسم الله الرحمن الرحيم وسماها سفيان بن عيينة بالواقية وسماها يحيى بن أبى كثير الكافية لانها تكفى عما عداها ولا يكفى ما سواها عنها كما جاء فى بعض الاحاديث المرسلة أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها عوضا منها ويقال لها سورة الصلاة والكنز ذكرهما

ضعيف ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وان صح اسناده اليه وبهذا تعرف انه لابد من الجمع بين الامرين والتحلى بالوصفين وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين وهذا هو المقصد الذى أردته والمسلك الذى قصدته وأذكر الحديث معزوا الى راويه من غير بيان حال الاسناد لانى آخذه من الاصول التى نقلت عنها كذلك كما يقع فى تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى وبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفا ولا يبينوه ولا ينبغى ان يقال فيما أطلقوه انهم قد علموا ثبوته فان من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الاسناد بل هذا هو الذى يغلب به الظن لانهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك كما يقع منهم كثيرا التصريح بالصحة والحسن فمن وجد الاصول التى يروون عنها ويعزون ما فى تفاسيرهم اليها فلينظر فى أسانيدها موفقا ان شاء الله تعالى *واعلم ان تفسير السيوطى المسمى بالدر المنثور قد اشتمل على غالب ما فى تفسيرات السلف من التفاسير المرفوعة الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وتفاسير الصحابة ومن بعدهم وما فاته الا القليل النادر وقد اشتمل هذا التفسير منى على جميع ما تدعو اليه الحاجة مما يتعلق بالتفسير مع اختصار لما تكرر لفظا واتحد معنى بقولى ومثله أو ونحوه وضممت الى ذلك فوائد لم يشتمل عليها زبر أهل الرواية ووجدتها فى غيرها من تفاسير علماء الدراية وعوائد لاحت لى من تصحيح أو تحسين أو تضعيف أو تعقب أو جمع أو ترجيح مع تحرير للمقاصد بحسب ما يراد ولا يزاد وتقرير للمعاقد بحيث لا يضاد ولا يصاد ولم آل جهدا فى حسن تحريره وتهذيبه وسعيا فى لطافة مزجه بالمفسر وترتيبه بالفاظ تنفتح لها الآذان وتنشرح بها الصدور ومعان تتهلل بها وجوه الاوراق وتتبسم ثغور السطور رغبة الى الدخول من أبوابه والكون من أحزابه ونشاطا الى القعود فى محرابه وبذلا للقوة فى ايراد مباحث قلت عناية المتأخرين بها من المفسرين وقد بالغ فى الاعتناء بها المحققون من المتقدمين لاسيما السمعيات التى هى المطلب الاعلى والمقصد الاقصى فى أصول الدين والعروة الوثقى والعمدة القصوى لاهل الحق واليقين مع تنقيح للكلام وتوضيح للمرام يهتز له علماء البلاد فى كل ناد ولا يغض منه الا كل هائم فى واد من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلله فما له من هاد ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة مقتصرا فيه على أرجح الاقوال *واعراب ما يحتاج اليه عند السؤال وترك التطويل

الزمخشري في كشافه وهي مكية قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية وقيل مدنية قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري ويقال نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة والاول أشبه لقوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والله أعلم/ وحكى أبو الليث السمرقندي ان نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة وهو غريب جدا نقله القرطبي عنه وهي سبع آيات بلا خلاف وقال عمرو بن عبيد ثمان وقال حسين الجعفي ستة وهذان القولان شاذان وانما اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة (١٤) وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية كما هو قول اهل المدينة من القراء والفقهاء على ثلاثة أقوال كما سيأتي تقريرها في موضعه ان شاء الله تعالى وبه الثقة قالوا وكلماتها خمس وعشرون كلمة وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفا قال البخاري في أول كتاب التفسير وسميت أم الكتاب لانه يبدأ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة وقيل انما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله الى ما تضمنته قال ابن جرير والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لامر اذا كانت له توابع تتبعه هو لها امام جامع أما فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أما واستشهد بقول ذي الرمة على رأسه أم لنا نقتدي بها

جماع أمور ليس نعصى لها أمرا

يعني الرمح قال وسميت مكة أم القرى لتقدمها امام جميعها وجمعها ما سواها وقيل لان الارض دحيت منها ويقال لها أيضا الفاتحة لانها تفتتح بها القراءة وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الامام وصح تسميتها بالسبع المثاني قالوا لانها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة وان كان للمثاني معنى آخر غير هذا بما كما سيأتي بيانه في موضعه ان شاء الله تعالى قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون انبأنا ابن أبي ذئب وهاشم بن هاشم عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في أم القرآن هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم ثم رواه عن اسمعيل بن عمر عن ابن أبي ذئب به وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري حدثني يونس بن عبد الاعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هي أم القرآن وهي

بذكر أقوال غير مرضية وقصص لا تصح وأعاريب محلها كتب العربية وحيث ذكرت فيه شيأ من القراآت فهو من السبع المشهورات الا ما شاء الله وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها أو لورودها واذا قرع سمعك ما لم تسمع به من المحصلين فلا تسرع وقف وقفة المتأملين لعلك تطلع بوميض برق الهي وتألق نور رباني من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة على برهان له جلي أو بيان من سلف صالح واضح وضي وقد تلقيت هذا التفسير بحمد الله من تفاسير متعددة عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم وانتشرت واشتهرت مآثرهم جمعني الله واياهم وجميع المسلمين ومن أخلفهم في مستقر رحمته من فراديس جنته فهذا التفسير وان كبر حجمه فقد كثر علمه وتوفر من التحقيق قسمه وأصاب غرض الحق سهمه مفيد لمن أقبل على تحصيله مفيض على من تمسك بذيل اجماله وتفصيله وقد اشتمل على جميع ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد مع زوائد فرائد وقواعد شوارد من صحيح الدراية وصريح الرواية فان أحببت ان تعتبر صحة هذا فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة انظر تفاسير المعتمدين على الرواية ثم ارجع الى تفاسير المعتمدين على الدراية ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لب اللباب وعجب العجاب وذخيرة الطلاب ونهاية مآرب أرباب الالباب وأسوة المتبعين وقدوة الناسكين وهدى للمتقين وقد جاء بحمد الله كنزا مدفونا من جواهر الفوائد وبحرا مشحونا بنفائس الفرائد في لطائف طالما كانت مخزونة وعن الاضاعة مصونة بتقارير ترتاح لها نفوس المحصلين الكاملين وتنزاح منها شبه المبطلين وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين وتضحى أنوارها في قلوب السعداء وتطلع نيرانها على أفئدة الاعداء لا يعقل بيناتها الا العالمون ولا يجحد بآياتها الا القوم الظالمون * (وسميته فتح البيان في مقاصد القرآن) * وهو اسم له تاريخي مستمد من الله سبحانه بلوغ الغاية والوصول بعد هذه البداية الى النهاية راجيا منه جل جلاله ان يديم به الانتفاع ويجعله من الذخائر التي ليس لها انقطاع ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم * اعلم ان الاحاديث في فضائل القرآن كثيرة جدا ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الاجر الموعود به في الاحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه فان ذلك هو الثمرة من قراءته قال القرطبي ينبغي له ان يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع

فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني وقال الحافظ ابو بكر أحمد بن موسى بن مردويه في تفسيره حدثنا أحمد بن محمد بن زياد حدثنا محمد بن غالب بن حارث حدثنا اسحق بن عبد الواحد الموصلي حدثنا المعافى بن عمران عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين سبع آيات بسم الله الرحمن الرحيم احداهن وهي السبع المثاني والقرآن العظيم وهي أم الكتاب وفاتحة الكتاب وقد رواه الدارقطني أيضا عن أبي هريرة مرفوعا بنحوه أو مثله وقال كلهم ثقات وروى البيهقي عن علي وابن عباس وأبي (١٠) هريرة انهم فسروا قوله سبعا من المثاني بالفاتحة وان البسملة هي الآية السابعة منها وسيأتي تمام هذا عند البسملة وقد روى الاعمش عن ابراهيم قال قيل لابن مسعود لم تكتب الفاتحة في مصحفك فقال لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة قال أبو بكر بن أبي داود يعني حيث يقرأ في الصلاة قال واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها وقد قيل ان الفاتحة أول شيء أنزل من القرآن كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة وقيل يا أيها المدثر كما في حديث جابر في الصحيح وقيل اقرأ باسم ربك الذي خلق وهذا هو الصحيح كما سيأتي تقريره في موضعه وبالله المستعان (ذكر ما ورد في فضل الفاتحة) قال الامام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال كنت أصلي فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه حتى صليت قال فأتيته فقال ما منعك ان تأتيني قال قلت يا رسول الله اني كنت أصلي قال ألم يقل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ثم قال لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل ان تخرج من المسجد قال فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت يا رسول الله انك قلت لاعلمنك أعظم سورة في القرآن قال نعم الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته وهكذا رواه البخاري عن مسدد وعلي بن المديني كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان به ورواه في موضع آخر من التفسير وابو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عن شعبة به ورواه الواقدي عن محمد بن معاذ الانصاري عن خبيب بن عبد الرحمن

بما يقرأ ويعمل بما يتلو فما أقبح بحامل القرآن ان يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه فكيف يعمل بما لا يفهم معناه وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه فما مثل من هذه حالته الا كمثل الحمار يحمل أسفارا وينبغي له ان يعرف المكي من المدني ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الاسلام وما ندبهم اليه في آخره وما فرض في أول الاسلام وما زاد عليهم من الفرائض في آخره فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن انتهى وقد جمعت في بيان ناسخ القرآن والحديث ومنسوخهما مؤلفا سميته افادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ وهو بالفارسية وأجاب الشوكاني رحمه الله تعالى عمن سأله عن العوام والنساء الذين يقرؤن القرآن من غير معرفة حلاله وحرامه ومعانيه هل لهم الاجر الوارد من غير نقص أم لا فقال الاجر على تلاوة القرآن ثابت لكنه اذا كان بتدبر معانيه فأجره مضاعف وأما أصل الثواب بمجرد التلاوة فلا شك في حصوله والله سبحانه لا يضيع عمل عامل منهم انتهى فيمكن حمل ما ذكرهنا أولا على مضاعفة الاجر الموعود به لا مجرد الاثابة على نفس التلاوة وأما ما جاء عن الصحابة والتابعين في فضل التفسير فعن علي انه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم وقال انه كان يعرف تفسير قوله تعالى ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وقال مجاهد أحب الخلق الى الله أعلمهم بما أنزل الله وقال الشعبي رحل مسروق في تفسير آية الى البصرة فقيل له ان الذي يفسرها رحل الى الشام فتجهز ورحل الى الشام حتى علم تفسيرها وقال عكرمة في قوله سبحانه ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته قال ابن عبد البر هو ضميرة بن حبيب وقال ابن عباس مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يمنعني الا مهابته فسألته فقال هي حفصة وعائشة وقال اياس بن معاوية مثل الذين يقرؤن القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤا ما في الكتاب وللسلف رحمهم الله من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر وعن عثمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيركم من تعلم القرآن وعلمه رواه البخاري وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتعتع

عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى عن أبي بن كعب فذكر نحوه وقد وقع في الموطا للامام مالك بن أنس رحمه الله ما ينبغي التنبيه عليه فانه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي ان أبا سعيد مولى ابن عامر بن كريز أخبرهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبي بن كعب وهو يصلي في المسجد فلما فرغ من صلاته لحقه قال فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على يدي وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ثم قال صلى الله عليه وسلم اني لأرجو أن لا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها قال أبي رضي الله عنه فجعلت أبطئ في المشي رجاء ذلك ثم قلت يا رسول الله ما السورة التي وعدتني قال كيف تقرأ اذا افتتحت الصلاة قال فقرأت عليه الحمد لله رب العالمين حتى أتيت على آخرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي هذه السورة وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المعلى كما اعتقده ابن الاثير في جامع الاصول ومن تبعه فان ابن المعلى صحابي أنصاري وهذا تابعي من موالي خزاعة وذا الحديث متصل صحيح وهذا ظاهره انه منقطع ان لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب فان كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم والله أعلم على انه قد روى عن أبي بن كعب من غير وجه كما قال الامام احمد حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن ابراهيم حدثنا العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب وهو يصلي فقال يا أبي فالتفت ثم لم يجبه ثم قال أبي فخفف أبي ثم انصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك أي رسول الله قال وعليك السلام ما منعك أي أبي اذ دعوتك أن تجيبني قال أي رسول الله اني كنت في الصلاة قال أولست تجد فيما أوحى الله الي استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم قال بلى يا رسول الله لا أعود قال اتحب ان أعلمك سورة لم تنزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها قلت نعم أي رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لأرجو ان لا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها قال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي يحدثني وأنا أتباطأ مخافة أن يبلغ قبل ان يقضي الحديث فلما دنونا من الباب قلت أي رسول الله ما السورة التي وعدتني قال ما تقرأ في الصلاة قال

فيه وهو عليه شاق له أجران متفق عليه وعن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين رواه مسلم وعن أبي أمامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اقرؤا القرآن فانه يأتي يوم القيامة شفيعا لاصحابه رواه مسلم وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلك عند آخر آية تقرأها رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وأخرج الدارمي والترمذي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الذي ليس في جوفه شئ من القرآن كالبيت الخرب قال الترمذي هذا حديث صحيح وعن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن عن ذكري ومسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه رواه الترمذي والدارمي والبيهقي في شعب الايمان وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ألف حرف ولام حرف وميم حرف رواه الترمذي وصححه والدارمي وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لو جعل القرآن في اهاب ثم ألقي في النار ما احترق رواه الدارمي وعن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار رواه أحمد والترمذي واستغربه وابن ماجه والدارمي وفيه حفص بن سليمان يضعف في الحديث وعن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من الابل في عقلها متفق عليه وقد وردت أحاديث كثيرة في الاعتصام بالكتاب والسنة * وأما أحاديث فضائل القرآن سورة سورة فلا خلاف بين من يعرف الحديث انها موضوعة مكذوبة وقد أفرد بها واضعها أخزاه الله بانه الواضع لها وليس بعد الاقرار شئ ولا اغترار بمثل ذكر الزمخشري لها في آخر كل سورة فانه وان كان امام اللغة والآلات على اختلاف أنواعها فلا يفرق في الحديث بين أصح الصحيح وأكذب الكذب ولا يقدح ذلك في علمه الذي بلغ فيه غاية التحقيق ولكل علم رجال وقد وزع الله سبحانه

فقرأت عليه أم القرآن قال والذى نفسى بيده ما أنزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها انها السبع المثانى ورواه الترمذى عن قتيبة عن الدراوردى عن العلائى عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه فذكره وعنده انها من السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيته ثم قال هذا حديث حسن صحيح وفى الباب عن أنس بن مالك ورواه عبد الله بن الامام أحمد عن اسمعيل بن أبى معمر عن أبى أسامة عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة عن أبى بن كعب فذكره مطولا بنحوه أو قريبا منه وقد رواه الترمذى والنسائى جميعا عن أبى عمار (١٧) حسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الانجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى وهى مقسومة بينى وبين عبدى نصفين هذا لفظ النسائى وقال الترمذى حديث حسن غريب وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا هاشم يعنى ابن البريد حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أهراق الماء فقلت السلام عليك يا رسول الله فلم يرد على قال فقلت السلام عليك يا رسول الله فلم يرد على قال فقلت السلام عليك يا رسول الله فلم يرد على قال فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وأنا خلفه حتى دخل رحله ودخلت أنا المسجد فجلست كئيبا حزينا فخرج على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطهر فقال عليك السلام ورحمة الله وبركاته وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وعليك السلام ورحمة الله ثم قال ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة فى القرآن قلت بلى يا رسول الله قال اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها هذا اسناد جيد وابن عقيل هذا يحتج به الائمة الكبار وعبد الله بن جابر هذا الصحابى ذكر ابن الجوزى انه هو العبدى والله أعلم ويقال انه عبد الله بن جابر الانصارى البياضى فيما ذكره الحافظ بن عساكر واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض كما هو المحكى عن كثير من العلماء منهم اسحق بن راهويه وأبو بكر بن العربى وابن الحضار من المالكية وذهبت طائفة أخرى الى انه لا تفاضل فى ذلك لان الجميع كلام الله ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل

الفضائل بين عباده والزمخشرى نقل هذه الاحاديث عن تفسير الثعلبى وهو مثله فى عدم المعرفة بعلم السنة وقد أخطأ من قال انه يجوز التساهل فى الاحاديث الواردة فى فضائل الاعمال وذلك لان الاحكام الشرعية متساوية الاقدام لا فرق بين واجبها ومحرمها ومسنونها ومكروهها ومندوبها فلا يحل اثبات شئ منها الا بما تقوم به الحجة والا فهو من التقول على الله بما لم يقل ومن التجرى على الشريعة المطهرة بادخال ما لم يكن منها فيها وقد صح تواترا ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار فهذا الكذاب الذى كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محتسبا للناس بحصول الثواب لم يربح الا كونه من أهل النار وأما الذى يقرأ القرآن ولا يعرف معناه كالعوام فالاجر على تلاوة القرآن ثابت لكنه اذا كان يتدبر معانيه ويمكنه فهمها فاجره مضاعف وأما أصل الثواب بمجرد التلاوة فلا شك فيه والله سبحانه لا يضيع عمل عامل وتلاوة القرآن كتابه سبحانه من أشرف الاعمال لفاهم ولغير فاهم واذا أضاع أحد ما اشتمل عليه القرآن من الاحكام أثم من جهة الاضاعة لا من جهة التلاوة والله أعلم * عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزل القرآن على خمسة أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا الحلال وحرموا الحرام واعملوا بالمحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالامثال أخرجه البغوى وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار رواه الترمذى وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المراء فى القرآن كفر وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمع النبى صلى الله عليه وآله وسلم قوما يتدارؤن فى القرآن فقال انما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وانما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه الى عالمه رواه أحمد وابن ماجه قال البغوى فى تفسيره قد جاء الوعيد فى حق من قال فى القرآن برأيه وذلك فيمن قال من قبل نفسه شيأ من غير علم فاما التاويل وهو صرف الآية الى معنى يحتمل موافق لما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط فقد رخص فيه لاهل العلم أما التفسير وهو الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها فلا يجوز الا بالسماع بعد ثبوته من طريق النقل * وأصل التفسير من التفسرة وهو الدليل الذى ينظر فيه الطبيب فيكشف

عليه وان كان الجميع فاضلا نقله القرطبي عن الاشعري وأبي بكر الباقلاني وأبي حاتم ابن حبان البستي وأبي حيان ويحيى بن يحيى وروايه عن الامام مالك أيضا حديث آخر قال البخاري في فضائل القرآن حدثنا محمد بن المثنى حدثنا وهب حدثنا هشام عن محمد بن معبد عن أبي سعيد الخدري قال كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت ان سيد الحي سليم وان نفرنا غيب فهل منكم راق فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية فرقاه فبرأ فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبنا فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي قال لا ما رقيت الا بام الكتاب قلنا لا تحدثوا شيأ (١٨) حتى نأتي أو نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال وما كان يدريه انها رقية اقسموا واضربوا لي بسهم وقال أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا هشام حدثنا محمد بن سيرين حدثني معبد بن سيرين عن أبي سعيد الخدري بهذا وهكذا رواه مسلم وأبو داود من رواية هشام وهو ابن حسان عن ابن سيرين به وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث ان أبا سعيد الخدري هو الذي رقى ذلك السليم يعني اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلا * حديث آخر روى مسلم في صحيحه والنسائي في سننه من حديث أبي الاحوص سلام بن سليم عن عمار بن زريق عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبرائيل اذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره الى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفا منهما الا أوتيته وهذا لفظ النسائي * ولمسلم نحوه حديث آخر قال مسلم حدثنا اسحق بن ابراهيم الحنظلي هو ابن راهويه حدثنا سفيان مصاحفهم ابن عيينة عن العلاء يعني ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثا غير تمام فقيل لابي هريرة انا نكون خلف الامام فقال اقرأ بها في نفسك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فاذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي واذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدي فاذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدني عبدي وقال

عن علة المريض كذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصتها واشتقاق التأويل من الاول وهو الرجوع يقال أولته فآل أي صرفته فانصرف انتهى والفرق بينهما ان التفسير موقوف على النقل المسموع والتأويل موقوف على الفهم الصحيح وفي الحديث أنزل القرآن على سبعة أحرف واختلفوا في المراد بها على أقوال ذكرتها في الاكسير والسور باعتبار الناسخ والمنسوخ على أقسام ذكر سليمان الجمل بعض ذلك في حاشيته على الجلالين وقد أوضحت المرام في افادة الشيوخ بما لا مزيد عليه وتفصيل حروف القرآن ذكرها النسفي في كتابه مجمع العلوم ومطلع النجوم وليست هذه من التفسير في شيء وأما علوم القرآن فقد استوعبها السيوطي في الاتقان على وجه البسط والايقان. ولا دخل لكلها في فن التفسير وعقد النظام النيسابوري في تفسيره مقدمات أكثرها بمعزل عن علم التفسير ولهذا لم نتكلم عليها في تفسيرنا هذا الا في الشيء اليسير وها أنا أشرع الآن بحمد الله في تحرير ما هو بصائر أولي النهى والتمييز في تفسير الكتاب العزيز وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير والمعطي كل مسؤل

* (سورة الفاتحة) *

أي فاتحة الكتاب معناها أول ما من شأنه أن يفتتح به الكتاب ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام والتاء للنقل من الوصفية الى الاسمية أو هي مصدر بمعنى الفتح أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر واشعارا بأصالته كأنه نفس الفتح والاضافة بمعنى اللام كما في جزء الشيء لا بمعنى من كما في خاتم فضة لما عرفت ان المضاف جزء من المضاف اليه لا جزئي له وسميت بذلك لان القرآن افتتح بها اذ هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف وأول ما يتلوه التالي من الكتاب العزيز وان لم تكن أول ما نزل من القرآن وقد اشتهرت بهذا الاسم في أيام النبوة قيل انها مكية وهو قول أكثر العلماء وقيل مدنية وهو قول مجاهد وقيل انها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلوات الخمس ومرة بالمدينة حين حولت القبلة جمعا بين الروايات والاول أصح قاله البغوي ورجحه البيضاوي وأسماء السورة توقيفية وكذا ترتيب السور والآيات أي تتوقف على نقلها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل غير ذلك وانما هذا على الراجح والسورة طائفة من القرآن لها اول واخر مترجمة باسم خاص بها بتوقيف والسورة قد يكون لها اسم واحد وقد يكون لها اسمان أو أكثر وأسماء السور في المصاحف لم يثبتها الصحابة في

مرة فوض الى عبدى فاذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله هذا لعبدى ولعبدى ماسأل وهكذا رواه النسائى عن اسحق بن راهويه وقدر وياه أيضا عن قتيبة عن مالك عن العلاء عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة عن أبى هريرة وفى هذا السياق فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ماسأل وهكذا رواه ابن اسحق عن العلاء وقد رواه مسلم من حديث ابن جريج عن العلاء عن أبى السائب هكذا ورواه أيضا من حديث ابن أبى أويس عن العلاء (١٩) عن أبيه وأبى السائب كلاهما عن أبى هريرة وقال الترمذى هذا حديث حسن وسألت أبا زرعة عنه فقال كلا الحديثين صحيح من قال عن العلاء عن أبيه وعن العلائى عن أبى السائب وقد روى هذا الحديث عبد الله بن الامام أحمد من حديث العلاء عن أبيه عن أبى هريرة عن أبى بن كعب مطولا وقال ابن جرير حدثنا صالح بن مسمار المروزى حدثنا زيد بن الحباب حدثنا عنبسة بن سعيد عن مطرف بن طريف عن سعيد ابن اسحق عن كعب بن عجرة عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين وله ماسأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال حمدنى عبدى واذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى على عبدى ثم قال هذا لى وله مابقى وهذا غريب من هذا الوجه * الكلام على مايتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه * احدها انه قد أطلق فيه لفظ الصلاة والمراد القراءة كقوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا أى بقراءتك كما جاء مصرحا به فى الصحيح عن ابن عباس وهكذا قال فى هذا الحديث قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لعبدى ولعبدى ماسأل ثم بين تفصيل هذه القسمة فى قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة فى الصلاة وانها من أكبر أركانها اذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة فى قوله وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا والمراد صلاة الفجر كما جاء مصرحا به فى الصحيحين انه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار فدل هذا كله على أنه لابد من القراءة فى الصلاة وهو اتفاق من العلماء ولكن اختلفوا فى مسئلة نذكرها فى الوجه الثانى وذلك انه هل يتعين

مصاحفهم وانما هو شئ ابتدعه الحجاج كما ابتدع اثبات الاعشار والاسباع وسميت هذه أم القرآن لكونها أصلا ومنشأله اما المبدئية له واما الاشتمال عليها على مافيه من الثناء على الله عز وجل والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والاحكام العملية التى هى سلوك الصراط المستقيم والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الاشقياء والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب وسميت أيضا أم الكتاب لانه يبدأ بقراءتها فى الصلاة قاله البخارى فى الصحيح وقال أبو السعود مناط التسمية ماذكر فى أم القرآن لاما أورده البخارى فانه مما لاتعلق له بالتسمية كما أشير اليه قال ابن كثير وصح تسميتها بالسبع المثانى لانها سبع آيات وتثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة أو لتكرر نزولها وأخرج أحمد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم هى أم القرآن وهى السبع المثانى وهى القرآن العظيم وأخرج ابن جرير عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال هى أم القرآن وهى فاتحة الكتاب وهى السبع المثانى وأخرج نحوه ابن مردويه والدارقطنى من حديثه وقال كلهم ثقات ومن أسمائها كما حكاه فى الكشاف سورة الكنز والوافية وسورة الحمد وسورة الصلاة وتسمى الكافية لانها تكفى عن سواها فى الصلاة ولا يكفى سواها عنها وسورة الشفاء والشافية لقوله صلى الله عليه وآله وسلم هى الشفاء من كل داء وأخرج الثعلبى عن الشعبى ان رجلا اشتكى اليه وجع الخاصرة فقال عليك بأساس القرآن وأخرج البيهقى فى الشعب عن أنس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله أعطانى فيما من به على فاتحة الكتاب وقال هى كنز من كنوز عرشى وأخرج اسحق بن راهويه فى مسنده عن على نحوه مرفوعا وذكر القرطبى للفاتحة اثنى عشر اسما وقد ذكر السيوطى فى الاتقان خمسة وعشرين اسما للفاتحة وهى سبع آيات بلا خلاف كما حكاه ابن كثير فى تفسيره قال القرطبى أجمعت الامة على انها سبع آيات الا ماروى عن حسين الجعفى انها ست وهو شاذ وعن عمرو ابن عبيد انه جعل اياك نعبد آية فهى عنده ثمان وهو شاذ انتهى وانما اختلفوا فى البسملة كما سيأتى وقد أخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة وابن الانبارى فى المصاحف عن محمد بن سيرين ان أبى بن كعب وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب والمعوذتين ولم يكتب ابن مسعود شيأ منهن وقد خالف فى ذلك اجماع الصحابة وسائر أهل البيت ومن بعدهم وأخرج ابن جرير عن ابراهيم قال كان عبد الله بن مسعود

للقراءة فى الصلاة غير فاتحة الكتاب أم تجزئ هى أو غيرها على قولين مشهورين فعند أبى حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم انها لا تتعين بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه فى الصلاة واحتجوا بعموم قوله تعالى فاقرؤا ما تيسر من القرآن وبما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة فى قصة المسىء فى صلاته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اذا قمت الى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن قالوا فأمره بقراءة ما تيسر ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها فدل على ما قلنا والقول الثانى انه تتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ولا تجزئ الصلاة بدونها وهو (٢٠) قول بقية الأئمة مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج والخداج هو الناقص كما فسر به فى الحديث غير تمام واحتجوا أيضا بما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب وفى صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن والاحاديث فى هذا الباب كثيرة * ووجه المناظرة ههنا يطول ذكره وقد أشرنا الى مأخذهم فى ذلك رحمهم الله ثم ان مذهب الشافعى وجماعة من أهل العلم انه يجب قراءتها فى كل ركعة وقال آخرون انما تجب قراءتها فى معظم الركعات وقال الحسن وأكثر البصريين انما تجب قراءتها فى ركعة واحدة من الصلوات أخذا بمطلق الحديث لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والاوزاعى لا تتعين قراءتها بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر من القرآن والله أعلم وقد روى ابن ماجه من حديث أبى سفيان السعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد مرفوعا لا صلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد وسورة فى فريضة أو غيرها وفى صحة هذا نظر وموضع تحرير هذا كله فى كتاب الاحكام الكبير والله أعلم * الوجه الثالث هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم فيه ثلاثة أقوال للعلماء أحدها انه تجب عليه قراءتها كما تجب على امامه لعموم الاحاديث المتقدمة والثانى لا تجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها لا فى صلاة الجهرية ولا فى صلاة السرية لما رواه الامام

لا يكتب فاتحة الكتاب فى المصحف وقال لو كتبتها لكتبت فى أول كل شىء وقد ورد فى فضل هذه السورة أحاديث منها ما أخرجه البخارى وأحمد وأبو داود والنسائى من حديث أبى سعيد بن المعلى ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد قال فأخذ بيدى فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت يا رسول الله انك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قال نعم الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته وأخرج أحمد والنسائى والترمذى وصححه من حديث أبى بن كعب ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ثم أخبره انها الفاتحة وأخرج أحمد فى المسند من حديث عبد الله بن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له ألا أخبرك بأخير سورة فى القرآن قلت بلى يا رسول الله قال اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها وفى سنده ابن عقيل وقد احتج به كبار الائمة وبقية رجاله ثقات وابن جابر هذا هو العبدى كما قال ابن الجوزى وقيل الانصارى البياضى كما قال ابن عساكر وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى سعيد ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لما أخبره بأن رجلا رقى سليما بفاتحة الكتاب وما كان يدريه انها رقية الحديث وأخرج مسلم والنسائى عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده جبرائيل اذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره الى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما الا أوتيته وأخرج مسلم والنسائى والترمذى وصححه عن أبى هريرة من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج ثلاثا غير تمام وأخرج البزار فى مسنده بسند ضعيف عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شىء الا الموت وأخرج سعيد بن منصور فى سننه والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى سعيد الخدرى قال ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم وأخرج أبو الشيخ نحوه من حديثه وحديث أبى هريرة مرفوعا وأخرج الدارمى والبيهقى فى شعب الايمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك بن عمير قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى

فاتحة

أحمد بن حنبل فى مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من كان له امام فقراءة الامام له قراءة ولكن فى اسناده ضعف ورواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر من كلامه وقد روى هذا الحديث من طرق ولا يصح شئ منها عن النبى صلى الله عليه وسلم والله أعلم والقول الثالث انه تجب القراءة على المأموم فى السرية لما تقدم ولا يجب ذلك فى الجهرية لما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما جعل الامام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا واذا قرأ فانصتوا وذكر بقية الحديث وهكذا رواه بقية أهل السنن أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال واذا قرأ فانصتوا وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضا فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعى رحمه الله والله أعلم ورواية عن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا ابراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا غسان بن عبيد عن أبى عمران الجونى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شئ الا الموت تفسير الاستعاذة وأحكامها قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم وقال تعالى ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون وقال تعالى ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة فى معناها وهو ان الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الانسى والاحسان اليه ليرده عنه طبعه الطيب الاصل الى الموالاة والمصافاة ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطانى لامحالة اذ لا يقبل مصانعة ولا احسانا ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة وقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو

فاتحة الكتاب شفاء من كل داء وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى وابن السنى فى عمل اليوم والليلة وابن جرير والحاكم وصححه عن خارجة بن الصلت التميمى عن عمه انه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أقبل راجعا من عنده فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثق بالحديد فقال أهله أعندك ما تداوى به هذا فان صاحبكم قد جاء بخير قال فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام فى كل يوم مرتين غدوة وعشية أجمع بزاقى ثم أتفل فبرأ فأعطانى مائة شاة فأتيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له فقال كل فمن أكل برقية باطلة فقد أكلت برقية حق وعن ابن عباس قال فاتحة الكتاب ثلثا القرآن وأخرج الطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن وأخرج عبد بن حميد فى مسنده بسند ضعيف عن ابن عباس يرفعه الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فاتحة الكتاب تعدل ثلثى القرآن وأخرج الحاكم وصححه وأبو ذر الهروى فى فضائله والبيهقى فى الشعب عن أنس قال كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى مسيره فنزل فمشى رجل من أصحابه الى جنبه فالتفت اليه النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال ألا أخبرك بافضل القرآن فتلا عليه الحمد لله رب العالمين وأخرج أبو نعيم والديلمى عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاتحة الكتاب تجزئ ما لا يجزئ شئ من القرآن ولو أن فاتحة الكتاب جعلت فى كفة الميزان وجعل القرآن فى الكفة الاخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن مرسلا قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والفرقان الى غير ذلك من الاحاديث * ثم الاستعاذة قبل القراءة سنة عند الجمهور لقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم واختلفوا فى لفظها المختار ولا يأتى بكثير فائدة ومعنى أعوذ بالله ألتجئ اليه وأمتنع به مما أخشاه من عاذ يعوذ والشيطان أصله من شطن أى تباعد من الرحمة أو من شاط اذا هلك واحترق والاول أولى والشيطان اسم لكل عات من الجن والانس والرجيم من يرجم بالوسوسة أو مرجوم بالشهب عند استراق السمع أو بالعذاب أو مطرود عن الرحمة والاستعاذة تطهر القلب عن كل شئ شاغل عن الله ومن لطائفها أن قوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اقرار من العبد بعجزه وضعفه

حزبه ليكونوا من أصحاب السعير وقال أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام انه له لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين وقال تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون * قالت طائفة من القراء وغيرهم يتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ولدفع الاعجاب بعد فراغ العبادة وممن ذهب (٢٢) الى ذلك حمزة فيما نقله عنه ابن فلوفا وأبو حاتم السجستاني حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جنادة الهذلي المغربي في كتاب العبادة الكامل وروى عن أبي هريرة أيضا وهو غريب ونقله محمد بن عمر الرازي في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال وهو قول ابراهيم النخعي وداود بن علي الاصبهاني الظاهري وحكى القرطبي عن أبي بكر ابن العربي عن المجموعة عن مالك رحمه الله ان القارئ يتعوذ بعد الفاتحة واستغربه ابن العربي وحكى قولا ثالثا وهو الاستعاذة أولا وآخرا جمعا بين الدليلين نقله الرازي والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة انما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها * ومعنى الآية عندهم فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم أي اذا أردت القراءة كقوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الآية أي اذا أردتم القيام والدليل على ذلك الاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا محمد بن الحسن بن انس حدثنا جعفر بن سليمان عن علي ابن علي الرفاعي اليشكري عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك ثم يقول لا اله الا الله ثلاثا ثم يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه وقد رواه أهل السنن الاربعة من رواية جعفر بن سليمان عن علي بن علي وهو الرفاعي وقال الترمذي هو أشهر شئ في هذا الباب وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق والنفخ بالكبر والنفث بالشعر كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن عاصم الغزي عن نافع بن جبير

وبقدرة الباري على دفع جميع المضرات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اختلف أهل العلم هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها أو هي بعض آية من أول كل سورة أو هي كذلك في الفاتحة فقط دون غيرها أو انها ليست بآية في الجميع وانما كتبت للفصل والاقوال وأدلتها مبسوطة في موضع الكلام على ذلك وقد اتفقوا على انها بعض آية في سورة النمل وقد جزم قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما بانها آية من الفاتحة ومن كل سورة وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها من السور وقالوا انها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها وبالاول قال ابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد في أحد قوليه واسحق وعلي بن أبي طالب والزهري ومحمد بن كعب والثوري وهو القول الجديد للشافعي ولذلك يجهر بها عنده وبالثاني قال الاوزاعي ومالك وأبو حنيفة وأصحابه قال أبو السعود وهو الصحيح من مذهب الحنفية وقد أثبتها السلف في المصحف مع الامر بتجريد القرآن عما ليس منه ولذا لم يكتبوا آمين وقد أخرج أبو داود وباسناد صحيح عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يعرف فصل السورة وفي رواية انقضاء السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية وفي اسناده عمر بن هرون البلخي وفيه ضعف وروى نحوه الدارقطني مرفوعا عن أبي هريرة وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا قرأتم الحمد لله فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم فانها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم احدى آياتها رواه الدارقطني وقال رجال اسناده كلهم ثقات ورواه البخاري في تاريخه وروى موقوفا أيضا وأخرج مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنزلت علي آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر الحديث قال البيهقي أحسن ما احتج به أصحابنا في ان البسملة من القرآن وانها من فواتح السور سوى سورة براءة ما رويناه في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل في المصاحف وانهم كتبوا فيها البسملة على رأس كل سورة سوى سورة براءة فكيف يتوهم

امطعم عن أبيه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل في الصلاة قال الله أكبر كبيرا ثلاثا الحمد لله كثيرا ثلاثا سبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا اللهم اني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه قال عمرو همزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر وقال ابن ماجه حدثنا علي بن المنذر حدثنا ابن فضيل حدثنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اللهم اني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه قال همزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر وقال الامام أحمد حدثنا اسحق بن يوسف حدثنا شريك عن يعلى بن عطاء عن رجل حدثه انه سمع أبا أمامة الباهلي يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام الى الصلاة كبر ثلاثا ثم قال لا اله الا الله ثلاث مرات وسبحان الله وبحمده ثلاث مرات ثم قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه وقال الحافظ أبو يعلى احمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده حدثنا عبد الله ابن عمر بن أبان الكوفي حدثنا علي ابن هشام بن البريد عن يزيد بن زياد عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال تلاحى رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فتمزع أنف أحدهما غضبا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعلم شيأ لو قاله لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن يوسف ابن عيسى المروزي عن الفضل ابن موسى عن يزيد بن زياد بن أبي الجعدية وقد روى هذا الحديث احمد بن حنبل عن أبي سعيد عن زائدة وأبو داود عن يوسف بن موسى عن جرير بن عبد الحميد والترمذي والنسائي في اليوم والليلة عن بندار عن ابن مهدي عن الثوري والنسائي أيضا من حديث زائدة بن قدامة ثلاثتهم عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما غضبا شديدا حتى يخيل الى ان أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبي صلى الله عليه وسلم اني لاعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب فقال ما هي يا رسول الله قال يقول اللهم اني أعوذ بك من الشيطان الرجيم قال فجعل معاذ يأمره فأبى وجعل يزداد غضبا وهذا لفظ أبي داود وقال الترمذي مرسل يعني ان عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق معاذ بن جبل

متوهم انهم كتبوا فيها مائة وثلاث عشرة آية ليست من القرآن وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس انه كان يعد البسملة آية من الفاتحة ويقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآن رواه الشافعي * وكما وقع الخلاف في اثباتها وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة وقد أخرج النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة انه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ اني لاشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم قال الترمذي وليس اسناده بذاك وقد أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس بلفظ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ثم قال صحيح وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال كانت قراءته مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد ببسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم وأخرج أحمد في المسند وأبو داود في السنن وابن خزيمة في صحيحه والحاكم في مستدركه عن أم سلمة انها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقطع قراءته بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وقال الدارقطني اسناده صحيح وبهذا قال من الصحابة أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومن التابعين فمن بعدهم سعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وعكرمة وعطاء وطاوس ومجاهد وعلي بن الحسين وسالم ابن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي وابن سيرين وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم ومكحول وغيرهم واليه ذهب الشافعي واحتج من قال انه لا يجهر بالبسملة في الصلاة بما في صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين وفي الصحيحين عن أنس قال صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ولمسلم لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول القراءة ولا في آخرها وأخرج أهل السنن نحوه عن عبد الله بن مغفل والى هذا ذهب الخلفاء الاربعة وجماعة من الصحابة كابن مسعود وعمار بن ياسر وابن مغفل وغيرهم ومن التابعين الحسن والشعبي وابراهيم النخعي وقتادة والاعمش والثوري واليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم وأحاديث الترك وان

فانه مات قبل سنة عشرين (قلت) وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل فان هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم قال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الاعمش عن عدي بن ثابت قال قال سليمان بن صرد رضي الله عنه استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس فاحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه فقال النبي صلى الله عليه وسلم اني لاعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اني لست بمجنون وقد رواه أيضا مع مسلم وأبي داود النسائي من طرق متعددة عن الاعمش به وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا وموطنها كتاب الاذكار وفضائل الاعمال والله أعلم وقد روى ان جبريل عليه السلام أول ما نزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالاستعاذة كما قال الامام أبو جعفر ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال أول ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال يا محمد استعذ قال استعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال قل بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال اقرأ باسم ربك الذي خلق قال عبد الله وهي أول سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم بلسان جبريل وهذا الاثر غريب وانما ذكرناه ليعرف فان في أسناده ضعفا وانقطاعا والله أعلم

(مسئلة) وجمهور العلماء على ان الاستعاذة مستحبة ليست بمحتمة يأثم تاركها وحكى الرازي عن عطاء ابن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال وقال ابن سيرين اذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في اسقاط الوجوب واحتج الرازي لعطاء بظاهر الآية فاستعذ وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي صلى الله عليه وسلم عليها ولانها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ولان الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب وقال بعضهم كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم دون أمته وحكى عن مالك انه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ لقيام رمضان في أول الليلة منه (مسئلة) وقال الشافعي في الاملاء يجهر بالتعوذ وان أسر فلا يضر وقال في الام بالتخيير لانه أسر ابن عمر وجهر

كانت أصح ولكن الاثبات أرجح مع كونه خارجا من مخرج صحيح فالاخذ به أولى ولا سيما مع امكان تاويل النزغ وهذا يقتضي الاثبات الذاتي أعني كونها قرآنا والوصفي أعني الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور في الصلاة والحاصل ان البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها من السور وحكمها من الجهر والاسرار حكم الفاتحة فيجهر بها مع الفاتحة في الصلاة الجهرية ويسر بها مع الفاتحة في الصلاة السرية وبهذا يحصل الجمع بين الروايات ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالا وردا وتعقبا ودفعا ورواية ودراية موضع غير هذا وقد استوفاه الشوكاني في شرحه للمنتقى وله جواب عن سؤال نظما ونثرا * ومتعلق الباء محذوف وهو اقرأ أو اتلو وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد الى التخصيص ويظهر رجحان تقدير الفعل متأخرا في مثل هذا المقام ولا يعارضه قوله تعالى اقرأ باسم ربك لان المقام مقام القراءة فكان الامر بها أهم وأما الخلاف بين أئمة النحو في كون المقدر اسما أو فعلا فلا يتعلق بذلك كثير فائدة والباء للاستعانة أو للمصاحبة تبركا ورجح الثاني الزمخشري والاسم هو اللفظ الدال على المسمى ومن زعم ان الاسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة وسيبويه والباقلاني وابن الفورك وحكاه الرازي عن الحشوية والكرامية والاشعرية فقد غلط غلطا بينا وجاء بما لا يعقل مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل لا من الكتاب ولا من السنة ولا من لغة العرب بل العلم الضروري حاصل بان الاسم الذي هو أصوات منقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذي هو مدلوله والبحث مبسوط في علم الكلام وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة وقال الله عز وجل ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى والله علم عربي مرتجل جامد عند الاكثر خاص لذات الواجب الوجود تفرد به الباري سبحانه لم يطلق على غيره ولا يشركه فيه أحد وعند الزمخشري اسم جنس صار علما بالغلبة والاول هو الصحيح ولم يقل بالله للفرق بين اليمين والتيمن أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة ههنا فانها تكون تارة بذاته تعالى وتارة باسمه عز وعلا فوجب تعيين المراد بذكر الاسم وعند المحققين انه اسم الله الاعظم وقد ذكره الله تعالى في ألفين وثلثمائة وستين موضعا من القرآن والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله عز وجل قال أبو علي الفارسي

الرحمن

أبو هريرة واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الاولى هل يستحب التعوذ فيها على قولين ورجح عدم الاستحباب والله اعلم فاذا قال المستعيذ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة وزاد بعضهم أعوذ بالله السميع العليم وقال آخرون بل يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ان الله هو السميع العليم قاله الثوري والاوزاعي وحكي عن بعضهم انه يقول أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور والاحاديث الصحيحة كما تقدم أولى بالاتباع من هذا والله أعلم (مسئلة) ثم الاستعاذة في الصلاة انما هي للتلاوة وهو قول (٢٥) أبي حنيفة ومحمد وقال أبو يوسف بل للصلاة فعلى هذا يتعوذ المأموم وان كان لا يقرأ ويتعوذ في العيد بعد الاحرام وقبل تكبيرات العيد والجهور بعدها قبل القراءة ومن لطائف الاستعاذة انها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطييب له وهو لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه الا الله الذي خلقه ولا يقبل مصانعة ولا يداري بالاحسان بخلاف العدو من نوع الانسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني وقال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا وقد نزلت الملائكة لمقابلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهري البشري كان شهيدا ومن قتله العدو الباطني كان طريدا ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورا ومن قهره العدو الباطني كان مفتونا أو مزورا ولما كان الشيطان يرى الانسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان

(فصل) والاستعاذة هي الالتجاء الى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر والعياذة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي

يا من ألوذ به فيما أؤمله * ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره * ولا يهينون عظما أنت جابره

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم ان يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فان الشيطان لا يكفه عن الانسان الا الله ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الانس ومداراته باسداء الجميل اليه ليرده طبعه عما هو فيه من الاذى وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن

الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم انما هو في جهة المؤمنين قال تعالى وكان بالمؤمنين رحيما وعن ابن عباس قال هما اسمان أحدهما أرق من الآخر وقيل معناهما ذو الرحمة جمع بينهما للتأكيد وقيل غير ذلك والاول أولى وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم والرحمة ارادة الخير والاحسان لاهله وقيل ترك عقوبة من يستحق العقاب واسداء الخير والاحسان الى من لا يستحق فهو على الاول صفة ذات وعلى الثاني صفة فعل وأسماء الله تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادي التي هي انفعالات وافراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة وهل الرحمن مصروف أو لا فيه قولان مال التفتازاني الى جواز الامرين وقد ورد في فضلها أحاديث ينبغي البحث عن أسانيدها والكلام عليها وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الوضوء وعند الذبيحة وعند الاكل وعند الجماع وغير ذلك (الحمد لله) هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري على قصد التبجيل وبهذا فارق المدح وقال الزمخشري انهما اخوان والحمد أخص من الشكر موردا وأعم منه متعلقا وبه صرح في الفائق لكن الاوفق ما عليه الاكثر انهما غير مترادفين بل متشابهان معنى أو اشتقاقا كبيرا وتعريفه لاستغراق افراد الحمد وانها مختصة بالرب سبحانه على معنى ان حمد غيره لا اعتداد به لان المنعم هو الله عز وجل أو على ان جنس حمده هو الفرد الكامل فيكون الحصر ادعائيا ورجح الزمخشري ان التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق واليه نحا أبو السعود والصواب ما ذكرناه وعليه الجمهور وقد جاء في الحديث اللهم لك الحمد كله قال ابن جرير الحمد ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده ان يثنوا عليه فكأنه قال قولوا الحمد لله ثم رجح اتحاد الحمد والشكر مستدلا على ذلك بما حاصله ان جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر قال ابن كثير وفيه نظر لانه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين ان الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون الا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والاركان انتهى ولا يخفى أن المرجع في مثل هذا الى معنى الحمد في لغة العرب لا الى ما قاله جماعة من العلماء المتأخرين فان ذلك لا يرد على ابن جرير ولا تقوم به الحجة هذا اذا لم يثبت للحمد حقيقة شرعية فان ثبتت وجب تقديمها روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال الحمد لله كلمة الشكر واذا قال العبد الحمد لله قال

لانه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لانه شرير بالطبع ولا يكفه عنك الا الذى خلقه وهذا المعنى فى ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة قوله فى الاعراف خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين فهذا فيما يتعلق بمعاملة الاعداء من البشر ثم قال واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب ان يحضرون وقال تعالى فى سورة حم السجدة ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى (٢٦) بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم والشيطان فى لغة العرب مشتق من شطن اذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير وقيل مشتق من شاط لانه مخلوق من نار ومنهم من يقول كلاهما صحيح فى المعنى ولكن الاول أصح وعليه يدل كلام العرب قال أمية بن أبى الصلت فى ذكر ما أوتى سليمان عليه السلام أيما شاطن عصاه عكاه

ثم يلقى فى السجن والاغلال فقال ايما شاطن ولم يقل أيما شائط وقال النابغة الذبيانى وهو زياد بن عمرو ابن معاوية ابن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة ابن سعد بن ذبيان نأت بسعاد عنك نوى شطون

فباتت والفؤاد بها رهين يقول بعدت بها طريق بعيدة وقال سيبويه العرب تقول تشيطن فلان اذا فعل فعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا تشيط فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح ولهذا يسمون كل من تمرد من جنى وانسى وحيوان شيطانا قال الله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وفى مسند الامام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الانس والجن فقلت أو للانس شياطين قال نعم وفى صحيح مسلم عن أبى ذر أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الاسود فقلت يا رسول الله ما بال الكلب الاسود من الاحمر والاصفر فقال الكلب الاسود شيطان وقال ابن وهب أخبرنى هشام ابن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ركب برذونا فجعل يتجبر به فجعل يضربه فلا يزداد الا تجبرا فنزل

الله شكرنى عبدى وروى ابن جرير عن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم اذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك وأخرج عبد الرزاق فى المصنف والحكيم الترمذى فى نوادر الاصول والخطابى فى الغريب والبيهقى فى الادب والديلمى فى مسند الفردوس عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وأخرج الطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف عن النواس بن سمعان قال سرقت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لئن ردها الله على لاشكرن ربى فرجعت فلما رآها قال الحمد لله فانظروا هل يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوم أو صلاة فظنوا انه نسى فقالوا يا رسول الله كنت قد قلت لئن ردها الله على لاشكرن ربى قال ألم أقل الحمد لله وقد ورد فى فضل الحمد أحاديث منها ما أخرجه أحمد والنسائى والحاكم وصححه البخارى فى الادب المفرد عن الاسود بن سريع قال قلت يا رسول الله الا أنشدك محامد حمدت بها ربى تبارك وتعالى فقال اما ان ربك يحب الحمد وأخرج الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه وابن حبان والبيهقى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من عبد ينعم عليه بنعمة الا كان الحمد أفضل منها وأخرج مسلم والنسائى وأحمد عن أبى مالك الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وأخرج البيهقى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شئ أحب الى الله من الحمد وفى الباب أحاديث وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع وأخرج مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الاكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها وايثار الرفع على النصب الذى هو الاصل للايذان بان ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لاثبات مثبت وان ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيده قراءة النصب

(رب العالمين) قال فى الصحاح الرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال فى غيره الا بالاضافة وقد قالوه فى الجاهلية للملك وقال الزمخشرى الرب المالك كما يقال رب الدار ورب الشئ

اى

عنه وقال ماخلتموني الا على شيطان مازلت عنه حتى أنكرت نفسي اسناد صحيح والرجيم فعيل بمعنى مفعول أي انه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وقال تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الا الملا الاعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب وقال تعالى ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين الى غير ذلك من الآيات وقيل (٢٧) رجيم بمعنى راجم لانه يرجم الناس بالوساوس والرباثث والاول أشهر وأصح

(بسم الله الرحمن الرحيم) افتتح بها الصحابة كتاب الله واتفق العلماء على انها بعض آية من سورة النمل ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة أو من أول كل سورة كتبت في أولها أو انها بعض آية من كل سورة أو انها كذلك في الفاتحة دون غيرها أو انها انما كتبت للفصل لا أنها آية على أقوال للعلماء سلفا وخلفا وذلك مبسوط في غير هذا الموضع وفي سنن أبي داود باسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في مستدركه أيضا وروى مرسلا عن سعيد بن جبير وفي صحيح بن خزيمة عن أم سلمة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية لكنه من رواية عمر بن هرون البلخي وفيه ضعف عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عنها وروى له الدارقطني متابعا عن أبي هريرة مرفوعا وروى مثله عن علي وابن عباس وغيرهما وممن حكى عنه انها آية من كل سورة الا براءة ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري وبه يقول عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه واسحق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام رحمهم الله وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور وقال الشافعي في قول في بعض طرق مذهبه هي آية من الفاتحة وليست من غيرها وعنه انها بعض آية من أول كل سورة وهما غريبان وقال داود هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها وهذا رواية عن الامام أحمد بن حنبل وحكاه أبو بكر الرازي

أي مالكه قال القرطبي والرب السيد ومنه قوله تعالى اذكرني عند ربك وفي الحديث ان تلد الامة ربها والرب المصلح والمدبر والمربي والجابر والقائم قال والرب المعبود والعالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه وهو اسم لما يعلم به غالب فيما يعلم به الصانع من المصنوعات قال أبو السعود وهو الاحق الاطهر أو اسم لكل موجود سوى الله تعالى قاله قتادة فيدخل فيه جميع الخلق وهو ظاهر كلام الجوهري وقيل أهل كل زمان عالم قاله الحسين بن مفضل وقال ابن عباس العالمون هم الجن والانس وقيل اسم جمع عالم بالفتح وليس جمعا له لان العالم عام في العقلاء وغيرهم والعالمين مختص بالعقلاء والخاص لا يكون جمعا لما هو أعم منه قاله ابن مالك وتبعه ابن هشام في توضيحه وذهب كثير الى انه جمع عالم على حقيقة الجمع وقال الفراء وأبو عبيد العالم عبارة عما يعقل وهم أربعة أمم الانس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم عالم لان هذا الجمع انما هو جمع ما يعقل حكاها القرطبي وذكر أدلتها وقال ان القول الاول أصح هذه الاقوال لانه شامل لكل مخلوق موجود دليله قوله تعالى قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما وقيل عنى به الناس فان كل واحد منهم عالم وفيه بعد قال الزجاج العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة وعلى هذا يكون جمعه بالياء والنون تغليبا للعقلاء على غيرهم وعن ابن عباس في الآية قال اله الخلق كله السموات كلهن ومن فيهن والارضين كلهن ومن فيهن وما بينهن مما يعلم ولا يعلم وفيه دليل على ان رب العالمين جرى مجرى الدليل على وجود الاله القديم وبيان لشمول ربوبيته تعالى لجميع الاجناس فآثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات في كل آن من آنات الوجود غير متناهية فسبحانه ما أعظم شأنه لا تلاحظه العيون بانظارها ولا تطالعه العقول بافكارها شأنه لا يضاهى واحسانه لا يتناهى ونحن في معرفته حائرون وفي اقامة مراسم شكره قاصرون وأتى بجمع القلة تنبيها على أنهم وان كثروا قليلون في جنب عظمته وكبريائه تعالى واختلف في مبلغ عدد العالم على أقوال لم يصح شيء منها والحق ما قاله سبحانه وتعالى وما يعلم جنود ربك الا هو (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة والرحمن أشد مبالغة من الرحيم وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وقد تقرر ان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى وقال ابن الانباري والزجاج ان

عن أبي الحسن الكرخي وهما من اكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا فاما الجهر بها ففرع على هذا فمن رأى انها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها وكذا من قال انها آية في أولها واما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا فذهب الشافعي رحمه الله الى انه يجهر بها مع الفاتحة والسورة وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفا وخلفا فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية وحكاه ابن عبد البر والبيهقي عن عمر وعلي ونقله الخطيب عن الخلفاء الاربعة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وهو غريب (٢٨) ومن التابعين عن سعيد بن جبير وعكرمة وأبي قلابة والزهري وعلي بن الحسين وابنه محمد وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس ومجاهد وسالم ومحمد بن كعب القرظي وعبيد وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وأبي وائل وابن سيرين ومحمد بن المنكدر وعلي بن عبد الله ابن عباس وابنه محمد ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم وعمر بن عبد العزيز والازرق بن قيس وحبيب بن أبي ثابت وأبي الشعثاء ومكحول وعبد الله بن معقل بن مقرن زاد البيهقي وعبد الله بن صفوان ومحمد ابن الحنفية زاد ابن عبد البر وعمرو ابن دينار والحجة في ذلك انها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر ابعاضها وأيضا فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أنه صلى جهر في قراءته بالبسملة وقال بعد ان فرغ اني لاشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم ثم قال الترمذي وليس اسناده بذلك وقد رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ثم قال صحيح وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك انه سئل عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقال كانت قراءته مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد ببسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم وفي مسند الامام أحمد وسنن أبي داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وقال الدارقطني اسناد صحيح وروى الامام أبو عبد الله الشافعي والحاكم في مستدركه عن أنس ان

الرحمن عبراني والرحيم عربي وخالفهما غيرهما قال القرطبي وصف نفسه بهما لانه لما كان باتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة اليه فيكون أعون على طاعته وأمنع وقيل فائدة تكريره هنا بعد الذكر في البسملة ان العناية بالرحمة اكثر من غيرها من الامور وان الحاجة اليها أكثر فنبه سبحانه بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وانه هو المتفضل بها على خلقه وفيه اثبات الصفات الذاتية كما في التي قبلها اثبات الصانع وحدوث العالم (مالك) قد اختلف العلماء أيما أبلغ ملك أو مالك والقراءتان مرويتان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر ذكرهما الترمذي فذهب الى الاول أبو عبيد والمبرد ورجحه الزمخشري والى الثاني أبو حاتم والقاضي أبو بكر بن العربي والحق ان لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة الى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية فأحدهما أقوى من الآخر في بعض الامور والفرق بين الوصفين بالنسبة الى الرب سبحانه ان الملك صفة لذاته والمالك صفة لفعله وقيل بينهما عموم مطلق فكل ملك مالك ولا عكس لعموم ولاية الملك التزاما لا مطابقة قاله التفتازاني وقيل هما بمعنى وقد أخرج الترمذي عن أم سلمة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ ملك بغير ألف وأخرج نحوه ابن الانباري عن أنس وأخرج أحمد والترمذي عن أنس أيضا ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يقرؤن مالك بالالف وأخرج نحوه سعيد بن منصور عن ابن عمر مرفوعا وأخرج نحوه أيضا وكيع في تفسيره وعبد بن حميد وأبو داود عن الزهري يرفعه مرسلا وأخرجه أيضا عبد الرزاق في تفسيره وعبد بن حميد وأبو داود عن ابن المسيب مرفوعا مرسلا وقد روى هذا من طرق كثيرة فهو أرجح من الاول ومالك بمعنى المستقبل قاله القرطبي واضافته الى ما بعده حقيقية او لفظية والتعويل على القرائن والمقامات قاله الكرخي وهذا أمس بالعربية وأقعد في طريقها قاله أبو القاسم الزجاجي قال الخطيب والتقييد بقوله (يوم الدين) لا ينافي الاستمرار لانه من غير اعتبار حدوث في أحد الازمنة انتهى واليوم في العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان وفي الشرع عما بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس

معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك فلما صلى المرة الثانية بسمل وفي هذه الاحاديث والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها فاما المعارضات والروايات الغريبة وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرها فله موضع آخر وذهب آخرون الى انه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الاربعة وعبد الله بن معقل وطوائف من سلف التابعين والخلف وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل وعند الامام مالك انه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جهرا ولا سرا واحتجوا بما في صحيح مسلم عن عائشة (٢٩) رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين وبما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ولمسلم لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها ونحوه في السنن عن عبد الله بن معقل رضي الله عنه فهذه ما أخذ الائمة رحمهم الله في هذه المسئلة وهي قريبة لانهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر ولله الحمد والمنة

(فصل) في فضلها قال الامام العالم الحبر الغالب أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره حدثنا أبي حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا زيد بن المبارك الصنعاني حدثنا سلام بن وهب الجندي حدثنا أبي عن طاوس عن ابن عباس ان عثمان بن عفان سال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الاكبر الا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب وهكذا رواه ابو بكر بن مردويه عن سليمان بن احمد عن علي بن المبارك عن زيد بن المبارك به وقد روى الحافظ ابن مردويه من طريقين عن اسمعيل بن عياش عن اسمعيل بن يحيى عن مسعر عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عيسى بن مريم عليه السلام اسلمته أمه الى الكتاب ليعلمه فقال له المعلم اكتب فقال ما أكتب قال بسم الله قال له عيسى وما بسم الله قال المعلم ما أدري قال له عيسى الباء بهاء الله والسين سناؤه والميم مملكته والله الآلهة والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة وقد رواه ابن جرير من حديث ابراهيم بن العلاء الملقب بابن زبريق عن اسمعيل بن عياش عن

الشمس والمراد هنا مطلق الوقت والدين الجزاء خيرا كان أو شرا ويوم الدين يوم الجزاء من الرب لعباده يقال كما تدين تدان أي كما تفعل تجازى ويدل له قوله تعالى وما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيأ والامر يومئذ لله والاضافة هذه على طريق الاتساع لادنى ملابسة أي مالك الامر كله في يوم الجزاء للعباد لان الامر فيه لله وحده ولذا خص بالذكر وعن ابن مسعود وناس من الصحابة انهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب وقال قتادة يوم يدين الله العباد بأعمالهم وقيل في معنى الدين غير ذلك والاولى ما ذكرناه وهذه الاوصاف التي أجريت على الله من كونه ربا للعالمين موجدا لهم ومنعما بالنعم كلها ومالكا للامر كله يوم الجزاء بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله الحمد لله دليل على ان من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه فان ترتب الحكم على الوصف مشعر بعليته له وفي هذه الآية اثبات المعاد (اياك نعبد واياك نستعين) أي نخصك بالعبادة ونوحدك ونطيعك خاضعين لك ومنك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا وفي هذه الآية ابطال الجبر والقدر معا كما أشار اليه الثعلبي في تفسيره واياك عند سيبويه اسم مضمر والكاف حرف خطاب ولا محل له من الاعراب وهو الاصح وقد ارتضاه القاضي وعند الخليل اسم مضمر أضيف اياه اليه لانه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل وقال الكوفيون اياك بكمالها اسم وجملة الاقوال فيه سبعة عد منها الخفاجي خمسة فقط وتقديم المفعول على الفعل لقصد الاختصاص والحصر والقصر وقيل للاهتمام والصواب انه لهما ولا تزاحم بين المقتضيات والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل والعبودية أدنى منها وسمي العبد عبدا لذلته وانقياده ولا تستعمل الا في الخضوع لله تعالى قال ابن كثير وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف والاستعانة طلب المعونة وهي ضرورية وغير ضرورية والعدول عن الغيبة الى الخطاب لقصد الالتفات وتلوين النظم من باب الى باب وفيه الترقي من البرهان الى العيان والانتقال من الغيبة الى الشهود ومن المعقول الى المحسوس اللهم اجعلنا من الواصلين الى العين دون السامعين للاثر وقد يكون من الخطاب الى الغيبة ومن الغيبة الى التكلم كقوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم أي بكم وقوله والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه أي فساقه وقد يكون من التكلم الى الغيبة فهذه أربعة

اسمعيل بن يحيى عن ابن ابى مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر عن عطية عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نذكره وهذا غريب جدا وقد يكون صحيحا الى من دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد يكون من الاسرائيليات لا من المرفوعات والله أعلم وقد روى جويبر عن الضحاك نحوه من قبله وقد روى بن مردويه من حديث يزيد بن خالد عن سليمان بن بريدة وفى روايه عن عبد الكريم ابى أمية عن ابى بريدة عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنزلت على آية لم تنزل على نبى غير سليمان بن داود وغيرى وهى بسم الله الرحمن الرحيم (٣٠) وروى باسناده عن عبد الكريم الكبير بن المعافى بن عمران عن أبيه عن عمر بن ذر عن عطاء بن أبى رباح عن جابر بن عبد الله قال لما نزل بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم الى المشرق وسكنت الرياح وهاج البحر وأصغت البهائم بآذانها ورجمت الشياطين من السماء وحلف الله تعالى بعزته وجلاله ان لا يسمى اسمه على شئ الا بارك فيه وقال وكيع عن الاعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود قال من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فيجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد ذكره ابن عطية والقرطبى ووجهه ابن عطية ونصره بحديث لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها لقول الرجل ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه من أجل انها بضعة وثلاثون حرفا وغير ذلك وقال الامام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم قال سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبى صلى الله عليه وسلم قال عثر بالنبى صلى الله عليه وسلم فقلت تعس الشيطان فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل تعس الشيطان فانك اذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال بقوتى صرعته واذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب هكذا وقع فى رواية الامام أحمد وقد روى النسائى فى اليوم والليلة وابن مردويه فى تفسيره من حديث خالد الحذاء عن أبى تميمة وهو الهجيمى عن أبى المليح بن اسامة بن عمير عن أبيه قال كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم فذكره وقال لا تقل هكذا فانه يتعاظم حتى يكون كالبيت ولكن قل بسم الله فانه يصغر حتى يكون كالذبابة فهذا من تأثير بركة بسم الله ولهذا تستحب فى أول كل عمل وقول فتستحب فى أول الخطبة لما جاء كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم وتستحب البسملة عند دخول

أقسام ذكرها البيضاوى والتحقيق انها استة وهى ظاهرة لان الملتفت منه والملتفت اليه اثنان وكل منهما اما غيبة او خطاب او تكلم والعرب يستكثرون منه لفوائد تستدعيه ويرون الكلام اذا انتقل من أسلوب الى أسلوب آخر كان أدخل فى القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه واملا لاستلذاذ اصغائه وأكثر ايقاظا له كما تقرر فى علم المعانى وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح الا للحذاق المهرة وقليل ماهم ومما اختص به هذا الموضع انه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء وأجرى عليه تلك الصفات تعلق العلم بمعلوم على الذات سمى الصفات حريا بالثناء وغاية التذلل والاستعانة فى المهمات فخوطب ذلك المعلوم للتميز بتلك الاوصاف فقيل اياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك والمجئ بالنون فى الفعلين لقصد الاخبار من الداعى عن نفسه وعن جنسه من العباد أو عن سائر الموحدين وفيه اشعار على التزام الجماعة وقدمت العبادة على الاستعانة لتوافق رؤس الآى ولتكون الاولى وسيلة الى الثانية وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب واطلاق العبادة والاستعانة لقصد التعميم لتتناول كل معبود به ومستعان فيه واستحسنه الزمخشرى وقال لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض وتكرير الضمير للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة منهما ولابرازا لالتذاذ بالمناجاة والخطاب وأخرج مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى واذا قال الرحمن الرحيم قال اثنى على عبدى واذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى وربما قال فوض الى عبدى واذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم الخ قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل وعن أبى طلحة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى غزاة نلقى العدو فسمعته يقول يا مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين قال فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها أخرجه البغوى والباوردى معا فى معرفة الصحابة والطبرانى فى الاوسط وأبو نعيم فى الدلائل (اهدنا الصراط المستقيم) افراد لمعظم أفراد المعونة المسؤلة بالذكر وتعيين لما هو الاهم أو بيان لها أى أرشدنا وقيل ثبتنا على المنهاج الواضح او اهدنا فى الاستقبال كما هديتنا فى الحال وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على

الخلاء لما ورد من الحديث فى ذلك وتستحب فى أول الوضوء لما جاء فى مسند الامام احمد والسنن من رواية أبى هريرة وسعيد بن زيد وأبى سعيد مرفوعا لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه وهو حديث حسن ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا ومنهم من قال بوجوبها مطلقا وكذا تستحب عند الذبيحة فى مذهب الشافعى وجماعة وأوجبها آخرون عند الذكر ومطلقا فى قول بعضهم كما سيأتى بيانه فى موضعه ان شاء الله وقد ذكر الرازى فى تفسيره فى فضل البسملة أحاديث منها عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أتيت أهلك فسم الله فانه ان وجد لك ولد كتب لك بعدد انفاسه وانفاس ذريته حسنات وهذا لا أصل له ولا رأيته فى شئ من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها وهكذا يستحب عند الاكل لما فى صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لربيبه عمر بن أبى سلمة قل بسم الله وكل بيمينك وكل مما يليك ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه وكذلك تستحب عند الجماع لما فى الصحيحين عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن أحدكم اذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه ان يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا ومن ههنا ينكشف لك ان القولين عند النحاة فى تقدير المتعلق بالباء فى قوله بسم الله هل هو اسم أو فعل متقاربان وكل قد ورد به القرآن أما من قدره باسم تقديره بسم الله ابتدائى فلقوله تعالى وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربى لغفور رحيم ومن قدره بالفعل أمرا أو خبرا نحو ابدأ بسم الله أو ابتدأت بسم الله فلقوله تعالى اقرأ باسم ربك الذى خلق وكلاهما صحيح فان الفعل لا بد له من مصدر فلك ان تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذى سميت قبله ان كان قياما أو قعودا أو أكلا أو شربا أو قراءة أو وضوءا أو صلاة فالمشروع ذكر اسم الله فى الشروع فى ذلك كله تبركا وتيمنا واستعانة على الاتمام والتقبل والله أعلم ولهذا روى ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس قال ان أول ما نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال يا محمد قل استعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال قل بسم الله الرحمن الرحيم قال قال له جبريل بسم الله يا محمد يقول اقرأ بذكر الله ربك وقم واقعد بذكر الله تعالى لفظ ابن جرير وأما مسئلة الاسم هل هو المسمى أو غيره ففيها للناس

الهداية بمعنى سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية والثبات عليه لان الالطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى قال الله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى الآية وقال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والهداية هى الارشاد والتوفيق والتبيين أو الالهام أو الدلالة بلطف على ما يوصل الى البغية ثم هى قد تعدى فعلها بنفسه كما هنا وكقوله وهديناه النجدين وقد تعدى بالى كقوله اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وقوله فاهدوهم الى صراط الجحيم وانك لتهدى الى صراط مستقيم وقد تعدى باللام كقوله هدانا لهذا وقوله يهدى للتى هى أقوم وقال الزمخشرى أصله ان يتعدى باللام أو بالى انتهى وفرق كثير من المتأخرين بين المتعدى بنفسه وغير المتعدى فقالوا معنى الاول الايصال ومعنى الثانى الدلالة والصراط بالصاد الخالصة لغة قريش وهى الجادة والسين قراءة ابن كثير فى كل القرآن ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل فالتذكير لغة تميم والتأنيث لغة الحجاز وجمعه صرط وقد تشم الصاد صوت الزاى تحريا للقرب من المبدل منه وقد قرئ بهن جميعا وفصاحتهن الصاد وهى الثابتة فى الامام أى فى مصحف عثمان رضى الله عنه كتابة وخطا المسمى اماما عند القراء والمفسرين وغيرهم فان الامام لغة ما يؤتم و يقتدى به فيتبع وان لم يكن من العقلاء ولهذا أطلق على اللوح والكتاب كما قال تعالى ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة فسمى الكتاب اماما على وجه وقد كان سنة ثلاثين لما سار حذيفة رضى الله تعالى عنه لبعض الغزوات وعاد قال لعثمان رضى الله تعالى عنه انى رأيت أمرا عجيبا رأيت الناس يقول بعضهم لبعض قراءتى خير من قراءتك فان تركوا ليختلفوا فى القرآن فيكون لذلك أمر فجمع عثمان الصحابة رضى الله عنهم واستشارهم فاشاروا عليه بجمعهم على مصحف واحد فأرسل الى حفصة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ترسل الصحف لتنسخ وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه جمعها لما كثر قتل الصحابة رضى الله تعالى عنهم باليمامة وهو الجمع الاول فأرسلتها اليه فأمر عثمان رضى الله تعالى عنه زيد بن ثابت وابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث فنسخوها فى مصاحف اختلف فى عددها كما فى شرح الرائية للسخاوى رحمه الله تعالى وأرسل الى كل مصر مصحفا وحرق ما سواها فسمى كل من تلك المصاحف اماما الا المصحف الذى كان عند عثمان رضى الله تعالى عنه وحده كما قيل ذكره الخفاجى. والمستقيم المستوى والمراد به طريق الحق وملة الاسلام قال

ثلاثة أقوال أحدها ان الاسم هو المسمى وهو قول أبي عبيدة وسيبويه واختاره الباقلاني وابن فورك وقال الرازي وهو محمد ابن عمر المعروف بابن خطيب الري في مقدمات تفسيره قالت الحشوية والكرامية والاشعرية الاسم نفس المسمى وغير نفس التسمية وقالت المعتزلة الاسم غير المسمى ونفس التسمية والمختار عندنا ان الاسم غير المسمى وغير التسمية ثم نقول ان كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى وان كان المراد بالاسم ذات المسمى فهذا يكون من باب ايضاح الواضحات وهو عبث فثبت ان الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى بأنه قد يكون الاسم موجودا والمسمى مفقودا كلفظه المعدوم وبانه قد يكون للشئ أسماء متعددة كالمترادفة وقد يكون الاسم واحدا والمسميات متعددة كالمشترك وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى وأيضا فالاسم لفظ وهو عرض والمسمى قد يكون ذاتا ممكنة أو واجبة بذاتها وأيضا فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللافظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك ولا يقوله عاقل وأيضا فقد قال الله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله تعالى وأيضا فقوله ولله الاسماء أضافها اليه كما قال فسبح باسم ربك العظيم ونحو ذلك فالاضافة تقتضي المغايرة وقوله تعالى فادعوه بها أي فادعوا الله باسمائه وذلك دليل على انها غيره واحتج من قال الاسم هو المسمى بقوله تعالى تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام والمتبارك هو الله تعالى والجواب ان الاسم معظم فهو لتعظيم الذات المقدسة وأيضا فاذا قال الرجل لزينب طالق يعني امرأته طلقت ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق والجواب ان المراد ان الذات المسماة بهذا الاسم طالق قال الرازي وأما التسمية فانها جعل الاسم معينا لهذه الذات فهي غير الاسم أيضا والله أعلم (الله) علم على الرب تبارك وتعالى يقال انه الاسم الاعظم لانه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار

ابن كثير أجمعت الامة من أهل التأويل جميعا على ان الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وهو كذلك في لغة جميع العرب وهي الملة الحنيفية السمحة المتوسطة بين الافراط والتفريط وعن جابر بن عبد الله انه قال هو دين الاسلام وهو أوسع مما بين السماء والارض وعن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط فاذا أراد الانسان أن يفتح شيأ من تلك الابواب قال ويحك لا تفتحه فانك ان تفتحه تلجه فالصراط الاسلام والسوران حدود الله والابواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم قال ابن كثير هو اسناد حسن صحيح وعن ابن مسعود هو كتاب الله وقيل السنة والجماعة وعن أبي العالية هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحباه من بعده وعن الفضيل بن عياض انه طريق الحج وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة وعن ابن عباس ان معناه ألهمنا دينك الحق وهو الاولى لاعتبار العموم (صراط الذين أنعمت عليهم) بدل كل من كل وفائدته التوكيد والتنصيص على ان صراط المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة والاستواء على أكد وجه وأبلغه بحيث لا يذهب الوهم عند ذكره الا اليه والانعام ايصال النعمة والاحسان الى الغير اذا كان من العقلاء ونعم الله تعالى مع استحالة احصائها ينحصر أصولها في دنيوي وأخروي وأطلقه ليشمل كل انعام فان نعمة الاسلام عنوان النعم كلها فمن فاز بها فقد حاز خيرها بحذافيرها ثم المراد بالموصول هم الاربعة المذكورة في سورة النساء حيث قال ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وقال ابن عباس هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيروا ولم يبدلوا وقيل هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وقيل هم الانبياء خاصة وقيل مطلق المؤمنين والاول أولى وفيه الاشارة الى الاقتداء بالسلف الصالح وهو غير التقليد (غير المغضوب عليهم) بدل كل من كل أي غير صراط الذين غضبت عليهم وهم اليهود لقوله تعالى فيهم من لعنه الله وغضب عليه قال القرطبي الغضب في اللغة الشدة وفي صفة الله ارادة العقوبة

المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم فاجرى الاسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى وفى الصحيحين عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان لله تسعة وتسعين اسما مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة وجاء تعدادها فى رواية الترمذى وابن ماجه وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان وقد ذكر الرازى فى تفسيره عن بعضهم ان لله خمسة آلاف اسم ألف فى الكتاب والسنة الصحيحة وألف فى التوراة وألف فى الانجيل وألف فى الزبور وألف فى اللوح المحفوظ وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ولهذا لا يعرف فى كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل فذهب من ذهب من النحاة الى انه اسم جامد لا اشتقاق له وقد نقله القرطبى عن جماعة من العلماء منهم الشافعى والخطابى وامام الحرمين والغزالى وغيرهم وروى عن الخليل وسيبويه أن الالف واللام فيه لازمة قال الخطابى ألا ترى انك تقول يا الله ولا تقول يا الرحمن فلولا انه من أصل الكلمة لما جاز ادخال حرف النداء على الالف واللام وقيل انه مشتق واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج

لله در الغانيات المدة
سبحن واسترجعن من تألهى

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر وهو التأله من أله يأله الهة وتألها كما روى عن ابن عباس انه قرأ ويذرك والهتك قال عبادتك أى انه كان يعبد ولا يعبد وكذا قال مجاهد وغيره وقد استدل بعضهم على كونه مشتقا بقوله تعالى وهو الله فى السموات وفى الارض كما قال تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله ونقل سيبويه عن الخليل ان أصله اله مثل فعال فادخلت الالف واللام بدلا من الهمزة قال سيبويه مثل الناس أصله اناس وقيل أصل الكلمة لاه فدخلت الالف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه قال الشاعر

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب * عنى ولا أنت ديانى فتخزونى

قال القرطبى بالخاء المعجمة أى فتسوسنى وقال الكسائى والفراء أصله الاله حذفوا الهمزة وادغموا اللام الاولى فى الثانية كما قال لكنا هو الله ربى أى لكن انا وقد قرأها كذلك الحسن قال القرطبى ثم قيل هو مشتق من وله اذا تحير والوله ذهاب العقل يقال رجل واله وامرأة ولهى

فهو صفة ذاته أو نفس العقوبة ومنها حديث ان الصدقة لتطفئ غضب الرب فهو صفة فعله وغضب الله لا يلحق عصاة المؤمنين وانما يلحق الكافرين والعدول عن اسناد الغضب اليه تعالى كالانعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية فى نسبة النعم والخيرات اليه عز وجل دون اضدادها وفى عليهم عشر لغات وكلها صواب قاله ابن الانبارى (ولا الضالين) لازائدة قاله الطبرى والزمخشرى وقيل هى تاكيد حكاه مكى والمهدوى وقيل بمعنى غير قاله الكوفيون والمحلى أى وغير الضالين عن الهدى وهم النصارى لقوله عز وجل قد ضلوا من قبل الاية وأصل الضلال الغيبوبة والهلاك ومنه ضل اللبن فى الماء أى غاب وقال القرطبى هو فى لسان العرب الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وحسنه وابن حبان وصححه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان المغضوب عليهم هم اليهود وان الضالين النصارى ورواه أبو الشيخ عن عبد الله بن شقيق مرفوعا وابن مردويه عن أبى ذر مثله وبه قال ربيع بن انس ومجاهد وابن جبير وانما سموا بها لاختصاص كل منهما بما غلب عليه وقيل أراد المغضوب عليهم بالبدعة والضالين عن السنة قاله القرطبى وقيل اللفظ يعم الكفار والعصاة والمبتدعة لقول الله تعالى فى القاتل عمدا وغضب الله عليه وقال فماذا بعد الحق الا الضلال وقال الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وقيل غير ذلك وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة مخل ببدلية ما أضيف اليه مما قبله فالمصير الى التفسير النبوى متعين وهو الذى أطبق عليه أئمة التفسير من السلف قال ابن أبى حاتم لا أعلم خلافا بين المفسرين فى هذا التفسير ويشهد له آيات من القرآن كما تقدم قال القرطبى سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم هى مناط الدين أحدها علم الاصول واليه الاشارة بقوله الحمد لله الى الرحيم ومعرفة النبوات وهى قوله أنعمت عليهم ومعرفة المعاد وهى قوله مالك يوم الدين وثانيها علم الفروع وأعظمه العبادات وهى اياك نعبد والعبادة مالية وبدنية وثالثها علم الاخلاق وهو قوله اياك نستعين الى المستقيم ورابعها علم القصص والاخبار عن الامم السالفة السعداء منهم والاشقياء وهو المراد بقوله أنعمت عليهم الى آخر السورة انتهى ملخصا وللامامين الغزالى والرازى فى تقرير اشتمالها على علوم القرآن بسط كثير حتى استخرج الرازى منها عشرة آلاف مسئلة وأول

ومولوهة اذا أرسل فى الصحراء فالله تعالى يحير أولئك والفكر فى حقائق صفاته فعلى هذا يكون ولاه فابدلت الواو هـمزة كما قالوا فى وشاح اشاح ووسادة اسادة وقال الرازى وقيل انه مشتق من ألهت الى فلان أى سكنت اليه فالعقول لا تسكن الا الى ذكره والارواح لا تفرح الا بمعرفته لانه الكامل على الاطلاق دون غيره قال الله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا قال وقيل من لاه يلوه اذا احتجب وقيل اشتقاقه من أله الفصيل أولع بأمه والمعنى ان العباد مألوهون مولعون بالتضرع اليه فى كل الاحوال قال وقيل مشتق من أله الرجل يأله اذا فزع من أمر نزل (٣٤) به فألهه اى اجاره فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه

السورة مشتمل على الحمدلة وآخرها على الذم للمعرضين عن الايمان وذلك يدل على ان مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الاقبال على الله ورأس الآفات وأس المخالفات هو الاعراض عنه والبعد عن طاعته وعاقبة ذلك الغضب والضلال واعلم ان السنة الصحيحة الصريحة الثابتة بالتواتر قد دلت على مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة فمن ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال آمين مد بها صوته ولابى داود رفع بها صوته وقد حسنه الترمذى وأخرجه أيضا النسائى وابن أبى شيبة وابن ماجه والحاكم وصححه وفى لفظ من حديثه انه صلى الله عليه وآله وسلم قال رب اغفر لى آمين أخرجه الطبرانى وأخرج مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا قرأ يعنى الامام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وأحمد وابن أبى شيبة وغيرهم ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا أمن الامام فامنوا فان من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه زاد الجرجانى فى أماليه وما تأخر قيل هم الحفظة وقيل غيرهم من الملائكة ويعنى الذنوب الصغائر دون الكبائر وفى الباب احاديث بين صحيح منها وضعيف وآمين اسم فعل بمعنى اللهم اسمع واستجب لنا وتقبل عند أكثر أهل العلم قاله القرطبى وفى الصحاح معناه كذلك فليكن وبه قال ابن عباس وعنه قال قلت يا رسول الله ما معنى آمين قال رب افعل أخرجه جويبر فى تفسيره وعن هلال بن يساف ومجاهد قالا آمين اسم من أسماء الله وقال الترمذى معناه لا تخيب رجاءنا وقيل هو خاتم الله على عباده يدفع به عنهم الآثام رواه الطبرانى عن على بسند ضعيف وعنه صلى الله عليه وآله وسلم انه كالختم على الكتاب رواه أبو داود والاول أولى قيل وليس من القرآن اجماعا بدليل انه لم يثبت فى المصاحف وفيه لغتان المد وهو اسم أعجمى لانه بزنة قابيل وهابيل والقصر على وزن يمين قال مجنون ليلى

يارب لا تسلبنى حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا

أى بالمد وقال جبير لما سال فطحلا

تباعد عنى فطحل اذ سألته * أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

لقوله تعالى وهو يجير ولا يجار عليه وهو المنعم لقوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله وهو المطعم لقوله تعالى وهو يطعم ولا يطعم وهو الموجد لقوله تعالى قل كل من عند الله وقد اختار الرازى أنه اسم غير مشتق البتة قال وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الاصوليين والفقهاء ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه منها انه لو كان مشتقا لاشترك فى معناه كثيرون ومنها أن بقية الاسماء تذكر صفات له فتقول الله الرحمن الرحيم الملك القدوس فدل انه ليس بمشتق قال فأما قوله تعالى العزيز الحميد الله على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان ومنها قوله تعالى هل تعلم له سميا وفى الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامدا غير مشتق نظر والله أعلم وحكى الرازى عن بعضهم ان اسم الله تعالى عبرانى لا عربى ثم ضعفه وهو حقيق بالتضعيف كما قال وقد حكى الرازى هذا القول ثم قال واعلم ان الخلائق قسمان واصلون الى ساحل بحر المعرفة ومحرومون قد بقوا فى ظلمات الحيرة وتيه الجهالة فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم وأما الواجدون فقد وصلوا الى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال فذكره فتاهوا فى ميادين الصمدية وبادوا فى عرصة الفردانية فثبت ان الخلائق كلهم والهون فى معرفته وروى عن الخليل بن أحمد انه قال لان الخلق يألهون اليه بنصب اللام وكسرها لغتان وقيل انه مشتق من الارتفاع فكانت العرب تقول لكل شئ مرتفع لاها وكانوا يقولون اذا طلعت الشمس لاهت وقيل انه مشتق من أله الرجل اذا تعبد وتأله اذا تنسك وقرأ ابن عباس ويذرك والهتك وأصل ذلك الاله فحذفت الهمزة التى هى فاء الكلمة فالتقت اللام التى هى عينها مع اللام الزائدة فى أولها للتعريف فأدغمت

احداهما فى الاخرى فصارتا فى اللفظ لاما واحدة مشددة وفخمت تعظيما فقيل الله (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم وفى كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا وفى تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك كما تقدم فى الاثر عن عيسى عليه السلام انه قال والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة وقد زعم بعضهم انه كان غير مشتق اذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال وكان بالمؤمنين رحيما وحكى ابن الانبارى فى الزاهر عن المبرد أن الرحمن اسم عبرانى ليس بعربى وقال أبو اسحق الزجاج فى معانى (٣٥) القرآن وقال أحمد بن يحيى الرحيم عربى والرحمن عبرانى فلهذا جمع بينهما قال أبو اسحق وهذا القول مرغوب عنه وقال القرطبى والدليل على انه مشتق ما خرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته قال وهذا نص فى الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق قال وانكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له قال القرطبى ثم قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد وقيل ليس بناء فعلان كفعيل فان فعلان لا يقع الا على مبالغة الفعل نحو قولك رجل غضبان للرجل المملوء غضبا وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول قال أبو على الفارسى الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم انما هو من جهة المؤمنين قال الله تعالى وكان بالمؤمنين رحيما وقال ابن عباس هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أى أكثر رحمة ثم حكى عن الخطابى وغيره انهم استشكلوا هذه الصفة وقالوا العله أرفق كما فى الحديث ان الله رفيق يحب الرفق فى الامر كله وانه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وقال ابن المبارك الرحمن اذا سئل أعطى والرحيم اذا لم يسئل يغضب وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه عن حديث أبى صالح الفارسى الخوزى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يسأل الله يغضب عليه وقال بعض الشعراء

الله يغضب ان تركت سؤاله * وبنى آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن جرير حدثنا السرى بن يحيى التميمى حدثنا عثمان

فذكره مقصورا قال الجوهرى وتشديد الميم خطأ ولكنه روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد وبه قال الحسن بن الفضل من أم اذا قصد اى نحن قاصدون خيرك يا الله وهو مبنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين ويقال منه أمتن فلان تأمينا وهذه الكلمة لم تكن قبلنا الا لموسى وهرون كذا ذكر الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول عن أنس بن مالك مرفوعا وقيل بل هى خاصة بهذه الامة لما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما حسدتكم اليهود على شئ ما حسدتكم على السلام والتأمين أخرجه ابن ماجه وفى الباب أحاديث وقد اختلف أهل العلم فى الجهر بها وفى ان الامام يقولها أم لا وذلك مبين فى مواطنه وكذلك اختلفوا فى وجوب قراءة الفاتحة فذهب جمهور العلماء منهم مالك والشافعى وأحمد الى وجوبها وانها متعينة فى الصلاة لا تجزئ الا بها لقوله صلى الله عليه وآله وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب أخرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت وذهب أبو حنيفة الى أنها لا تتعين على المصلى بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة أو ثلاث آيات قصار لقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه والاول أرجح ويدل عليه حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تجزئ صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب أخرجه الدارقطنى وقال اسناده صحيح والكلام فى هذا يطول وقد بينه الشوكانى فى نيل الاوطار وأوضحناه فى مسك الختام وسياتى ان شاء الله تعالى فى آخر الاعراف شئ مما يتعلق بهذا المقام هذا وقد اتفق أهل العلم على أن أعظم المقصود من تنزيل الكتاب العزيز هو اخلاص التوحيد لله عز وجل وقطع علائق الشرك كائنة ما كانت وذلك لا يحتاج الى ان تنقل فيه أقوال الرجال أو يستدل عليه بالادلة فانه الامر الذى بعث الله لاجله رسله وأنزل فيه كتبه وفى هذا الاجمال ما يغنى عن التفصيل ومن شك فى هذا فعليه بالتفكر فى القرآن الكريم فانه سيجده من أعظم مقاصده وأكبر موارده فان عجز عن ذلك فلينظر فى سورة من سوره فان قلت اريد منك مثالا اقتدى به وأمشى على طريقته وأهتدى الى التفكر الذى أرشدتنى اليه بتقديم النظر فيه فنقول ها نحن نقرب لك المسافة ونسهل عليك ما استصعبته هذه فاتحة الكتاب العزيز التى يكررها كل مصل فى كل صلاة ويفتتح بها التالى لكتاب الله والمتعلم له فان فيها الارشاد الى اخلاص التوحيد فى ثلاثين موضعا * الاول قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم فان

ابن زفر سمعت العزرمي يقول الرحمن الرحيم قال الرحمن لجميع الخلق الرحيم قال بالمؤمنين قالوا ولهذا قال ثم استوى على العرش الرحمن وقال الرحمن على العرش استوى فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته وقال وكان بالمؤمنين رحيما فخصهم باسمه الرحيم قالوا فدل على ان الرحمن أشد مبالغة فى الرحمة لعمومها فى الدارين لجميع خلقه والرحيم خاصة بالمؤمنين لكن جاء فى الدعاء المأثور رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وقال تعالى واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به فلا يقال له الا مسيلمة الكذاب فصار يضرب به المثل فى الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر وأهل الوبر من أهل البادية والاعراب وقد زعم بعضهم ان الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لانه أكد به والمؤكد لا يكون الا أقوى من المؤكد والجواب ان هذا ليس من باب التاكيد وانما هو من باب النعت ولا يلزم فيه ما ذكروه وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذى لم يسم به أحد غيره ووصفه أولا بالرحمن الذى منع من التسمية به لغيره كما قال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وانما تجهرم مسيلمة اليمامة فى التسمى به ولم يتابعه على ذلك الا من كان معه فى الضلالة وأما الرحيم فانه تعالى وصف به غيره حيث قال لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم كما وصف غيره بذلك من أسمائه كما قال تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا والحاصل ان من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم الاختصاص الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لانه أخص وأعرف من الرحيم لان التسمية أولا انما تكون بأشرف الاسماء فلهذا ابتدأ بالاخص فالاخص فان قيل فاذا كان الرحمن أشد مبالغة فهلا اكتفى به عن الرحيم فقد روى عن عطاء الخراسانى ما معناه انه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن جىء بلفظ الرحيم ليقطع الوهم بذلك فانه لا يوصف بالرحمن الرحيم الا الله تعالى كذا رواه ابن جرير عن عطاء ووجهه بذلك والله أعلم وقد زعم بعضهم ان العرب لا تعرف الرحمن حتى ردّ الله عليهم ذلك بقوله

علماء المعانى والبيان ذكروا أنه يقدر المتعلق متاخرا ليفيد اختصاص البداية باسم الله تعالى لا باسم غيره وفى هذا المعنى ما لا يخفى من اخلاص التوحيد * الثانى والثالث الاسم الشريف أعنى لفظ الله عز وجل فان مفهومه كما حققه علماء هذا الشان الواجب الوجود المختص بجميع المحامد فكان فى هذا المفهوم اشارة الى اخلاص التوحيد أحدهما تفرده بوجوب الوجود وثانيهما اختصاصه بجميع المحامد فاستفيد من الاسم الشريف الذى أضيف اليه لفظ اسم هذان الامران * الرابع تحلية الرحمن باللام فانها من أدوات الاختصاص سواء كانت موصولة كما هو شان آلة التعريف اذا دخلت على المشتقات او لمجرد التعريف كما يكون اذا دخلت على غيرها من الاسماء والصفات وقد أوضح هذا المعنى أهل البيان بما لا مزيد عليه * الخامس اللام الداخلة على قوله الرحيم والكلام فيها كالكلام فى الرحمن * السادس اللام الداخلة على قوله الحمد لله فانها تفيد أن كل حمد له لا يشاركه فيه غيره وفى هذا أعظم دلالة على اخلاص توحيده * السابع لام الاختصاص الداخلة على الاسم الشريف وقد تقرر ان الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى لقصد التعظيم فلا ثناء الا عليه ولا جميل الا منه ولا تعظيم الا له وفى هذا من أدلة اخلاص التوحيد ما لا يقادر قدره * الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر قوله رب العالمين فان لفظ الرب باعتبار معناه اللغوى مشعر أتم اشعار باخلاص توحيده هذا باعتبار معناه الافرادى دون الاضافى ثم فى معناه الاضافى دلالة أخرى فان كونه رب العالمين يدل على ذلك أبلغ دلالة ثم فى لفظ العالمين معنى ثالث لما تقرر لغة وشرعا أن العالم هو اسم لما عدا الله عز وجل فيدخل فى هذا كل شىء غير الله سبحانه فلا رب غيره وكل ما عداه فهو مربوب وصيغ الحصر اذا تتبعتها من كتب المعانى والبيان والتفسير والاصول بلغت ثلاث عشرة صيغة فصاعدا ومن شك فى هذا فليتتبع كشاف الزمخشرى فانه سيجد فيه ما ليس له ذكر فى كتب المعانى والبيان كالقلب فانه جعله من مقتضيات الحصر ولعله ذكر ذلك عند تفسيره للطاغوت وغير ذلك مما لا يقتضى المقام بسطه ومع الاحاطة بصيغ الحصر المذكورة تكثر الادلة الدالة على اخلاص التوحيد وابطال الشرك بجميع أقسامه ولو أراد رجل أن يجمع ما ورد فى هذا المعنى من الكتاب والسنة لكان مجلدا ضخما ثم فى تعريفه باللام معنى رابع كمثل ما قدمنا فانها تفيد زيادة

قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن ولا الرحيم رواه البخارى وفى بعض الروايات لا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة وقال تعالى واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا والظاهر ان انكارهم هذا انما هو جحود وعناد وتعنت فى كفرهم فانه قد وجد فى أشعارهم فى الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن قال ابن جرير وقد أنشد بعض الجاهلية الجهال ألا ضربت تلك الفتاة هجينها * الا قضب الرحمن ربى (٣٧) يمينها وقال سلامة بن جندب الطهوى

عجلتم علينا اذ عجلنا عليكم

وما يشا الرحمن يعقد ويطلق

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر ابن عمارة حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال الرحمن النعلان من الرحمة وهو من كلام العرب قال الرحمن الرحيم الرفيق الرقيق لمن أحب أن يرحمه والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه وكذلك اسماؤه كلها وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد ابن بشار حدثنا حماد بن مسعدة عن عوف عن الحسن قال الرحمن اسم ممنوع وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو الاشهب عن الحسن قال الرحمن اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه تسمى به تبارك وتعالى وقد جاء فى حديث أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقطع قراءته حرفا حرفا بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة ومنهم من وصلها بقوله الحمد لله رب العالمين وكسرت الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور وحكى الكسائى من الكوفيين عن بعض العرب انها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمزة فيقولون بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين فنقلوا حركة الهمزة الى الميم بعد تسكينها كما قرئ قوله تعالى الم الله لا اله الا هو قال ابن عطية ولم ترد هذه قراءة عن أحد فيما علمت (الحمد لله رب العالمين) القراء السبعة على ضم الدال فى قوله الحمد لله هو مبتدأ وخبر وروى عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج انهما قالا الحمد لله بالنصب وهو على اضمار فعل وقرأ ابن أبى عبلة الحمد لله بضم الدال واللام اتباعا للثانى الاول وله شواهد لكنه شاذ وعن الحسن وزيد بن على الحمد لله بكسر الدال

الاختصاص وتقرر ذلك المفهوم فى هذا الموضع ثم فى صيغة الجمع معنى خامس بزيادة تأكيد وتقرير فان العالم ان كان اسما لما عدا الله لم يكن جمعه الا لمثل هذا المعنى وعلى فرض انه اسم للاجناس فهو لا يقتضى ذهاب هذا المعنى المستفاد من أصل الجمع * الثالث عشر والرابع عشر قوله الرحمن الرحيم وتقرير الكلام فيهما كما سلف * الخامس عشر * والسادس عشر * قوله مالك يوم الدين فان لفظ مالك معناه الافرادى من غير نظر الى معناه الاضافى يفيد استحقاقه باخلاص توحيده ثم فى معناه الاضافى الى يوم الدين معنى ثان فان من كان له الملك فى مثل هذا اليوم الذى هو يوم الجزاء لكل العباد وفيه يجتمع العالم أولهم وآخرهم سابقهم ولاحقهم جنهم وانسهم وملائكتهم فيه اشارة الى استحقاقه اخلاص توحيده * السابع عشر ما يستفاد من نفس لفظ الدين من غير نظر الى كونه مضافا اليه * الثامن عشر ما يستفاد من تعريفه فان فى ذلك زيادة احاطة وشمول فان ذلك الملك اذا كان فى يوم هو يوم الدين الذى يشتمل على كل دين كان من له هذا الملك حقيقا بان يخلص العباد توحيده ويفردونه بالعبادة كما تفرد بملك يوم له هذا الشأن فان قلت ان هذين المعنيين الكائنين فى لفظ الدين باعتبار أصله وباعتبار تعريفه قد أخذا فى المعنى الاضافى حسبما ذكرته سابقا قلت لا تزاحم بين المقتضيات ولا يستنكر النظر الى الشئ باعتبار معناه الافرادى تارة وباعتبار معناه الاضافى اخرى وليس ذلك بممنوع ولا محجور عند من يعرف العلم الذى تستفاد منه دقائق العربية واسرارها وهم أهل علم المعانى والبيان * التاسع عشر والموفى عشرين والحادى والعشرون قوله اياك نعبد فان تقديم الضمير معمولا للفعل الذى بعده يفيد اختصاص العبادة به ومن اختص بالعبادة فهو الحقيق باخلاص توحيده ثم مادة هذا الفعل أعنى لفظ نعبد تفيد معنى آخر ثم المجئ بنون الجماعة الموجبة لكون هذا الكلام صادرا عن كل من تقوم به العبادة من العابدين كذلك فكانت الدلالات فى هذه الجملة ثلاثا الاولى فى اياك مع النظر الى الفعل الواقع بعده الثانية ما تفيده مادة نعبد مع ملاحظة كونها واقعة لمن ذلك الضمير عبارة عنه واشارة اليه الثالثة ما تفيده النون مع ملاحظة الامرين المذكورين ولا تزاحم بين المقتضيات (الثانى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون) قوله واياك نستعين فان تقديم الضمير معمولا لهذا الفعل له معنى ثم مادة هذا الفعل لها معنى آخر فان

اتباعا للاول الثانى قال ابو جعفر بن جرير معنى الحمد لله الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد فى تصحيح الآلات لطاعته وتمكين جوارح أجسام المكلفين لاداء فرائضه مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق وغذاهم به من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه ومع ما نبههم عليه ودعاهم اليه من الاسباب المؤدية الى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا وقال ابن جرير رحمه الله الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه (٣٨) وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال قولوا الحمد لله قال وقد قيل ان قول القائل الحمد لله ثناء عليه باسمائه الحسنى وصفاته العلى وقوله الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه ثم شرع فى رد ذلك بما حاصله ان جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر وقد نقل السلمى هذا المذهب انهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية وقال ابن عباس الحمد لله كلمة كل شاكر وقد استدل القرطبى لابن جرير بصحة قول القائل الحمد لله شكرا وهذا الذى ادعاه ابن جرير فيه نظر لانه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين ان الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون الا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والاركان كما قال الشاعر

أفادتكم النعماء منى ثلاثة
يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم الحمد أو الشكر على قولين والتحقيق ان بينهما عموما وخصوصا فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه لانه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية يقول حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه وهو أخص لانه لا يكون الا بالقول والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه لانه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم وهو أخص لانه لا يكون الا على الصفات المتعدية لا يقال شكرته لفروسيته ويقول شكرته على كرمه واحسانه الى هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين والله أعلم وقال أبو نصر اسمعيل بن حماد الجوهرى الحمد نقيض الذم تقول حمدت الرجل أحمده حمدا ومحمدة فهو حميد ومحمود والتحميد أبلغ من الحمد والحمد أعم من الشكر وقال فى الشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح وأما المدح فهو أعم من

من كان لا يستعان بغيره لا ينبغى ان يكون له شريك بل يجب افراده بالعبادة والاخلاص توحيده اذ وجود من لا يستعان به كعدمه وتقرير الكلام فى الثلاث الدلالات كتقريره فى اياك نعبد فلا نعيده (الخامس والعشرون والسادس والعشرون والسابع والعشرون) قوله اهدنا الصراط المستقيم فان طلب الهداية منه وحده باعتبار كون هذا الفعل واقعا بعد الفعلين اللذين تقدم معمولهما فكان له حكمهما وان كان قد تغير أسلوب الكلام فى الجملة حيث لم يقل نستهدى او نطلب الهداية حتى يصح ان يكون ذلك الضمير المتقدم المنصوب معمولا له تقديرا لكن مع بقاء المخاطبة وعدم الخروج وعما يقتضيه لم يقطع النظر عن ذلك الضمير الواقع على تلك الصورة لتوسطه بين هذا الفعل اعنى اهدنا وبين من أسند اليه ثم فى ضمير الجماعة معنى يشير الى استحقاقه سبحانه اخلاص التوحيد على الوجه الذى قدمناه فى الفعلين السابقين ثم فى كون هذه الهداية هى هداية الصراط المستقيم التى هى الهداية بالحقيقة ولا اعتبار بهداية الى صراط لا استقامة فيه معنى ثالث يشير الى ذلك المدلول (الثامن والعشرون) قوله صراط الذين أنعمت عليهم فان من يهدى الى هذا الصراط الذى هو صراط من أنعم الله عليهم يستحق أن لا يشتغل بغيره ولا ينظر الى سواه لان الايصال الى طرائق النعم هو المقصود من المشى والمراد بحركات السائرين وذلك كناية عن الوصول الى النعم نفسها اذ لا اعتبار بالوصول الى طرائقها من دون وصول اليها فكان وقوع الهداية على الصراط المستقيم نعمة بمجردها لان الاستقامة اذا تصورت عند تصور الاعوجاج كان فيها راحة بهذا الاعتبار فكيف اذا كان ذلك كناية عن طريق الحق فكيف اذا كان حقا موصلا الى الفوز بنعم الله سبحانه (التاسع والعشرون) قوله غير المغضوب عليهم ووجه ذلك ان الوصول الى النعم قد يكون منغصا مكدرا بشئ من غضب المنعم سبحانه فاذا صفا ذلك عن هذا الكدر وانضم الى الظفر بالنعم الظفر بما هو أحسن منها موقعا عند العارفين وأعظم قدرا فى صدور المتقين وهو رضا رب العالمين كان فى ذلك من البهجة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه ولا الوقوف على حقيقته ولا تصور معناه واذا كان المولى لهذه النعمة والمتفضل بها هو الله تعالى ولا يقدر على ذلك غيره ولا يتمكن منه سواه فهو المستحق لاخلاص توحيده وافراده بالعبادة (الموفى ثلاثين) قوله ولا الضالين ووجهه أن الوصول الى النعم مع الرضا قد يكون مشوبا بشئ

الحمد لانه يكون للحي وللميت وللجماد أيضا كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ويكون قبل الاحسان وبعده وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضا فهو أعم (ذكر أقوال السلف في الحمد) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو معمر القطيعي حدثنا حفص عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال عمر رضي الله عنه قد علمنا سبحان الله ولا اله الا الله فما الحمد لله فقال علي كلمة رضيها الله لنفسه ورواه غير أبي معمر عن حفص فقال قال عمر لعلي وأصحابه عنده لا اله الا الله وسبحان الله والله أكبر قد عرفناها فما الحمد لله قال علي كلمة أحبها الله تعالى لنفسه ورضيها لنفسه (٣٩) وأحب أن تقال وقال علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران قال ابن عباس الحمد لله كلمة الشكر واذا قال العبد الحمد لله قال شكرني عبدي رواه ابن أبي حاتم وروى أيضا هو وابن جرير من حديث بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس انه قال الحمد لله هو الشكر لله هو الاستحذاء له والاقرار له بنعمته وهدايته وابتدائه وغير ذلك وقال كعب الاحبار الحمد لله ثناء الله وقال الضحاك الحمد لله رداء الرحمن وقد ورد الحديث بنحو ذلك قال ابن جرير حدثنا سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقية بن الوليد حدثني عيسى بن ابراهيم عن موسى بن أبي حبيب عن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك وقد روى الامام أحمد بن حنبل حدثنا روح حدثنا عوف عن الحسن عن الاسود بن سريع قال قلت يا رسول الله ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي تبارك وتعالى فقال أما ان ربك يحب الحمد ورواه النسائي عن علي بن حجر عن ابن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن عن الاسود بن سريع به وروى أبو عيسى الحافظ الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث موسى بن ابراهيم بن كثير عن طلحة بن خراش عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم افضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وقال الترمذي حسن غريب وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله الا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ وقال القرطبي في تفسيره وفي نوادر الاصول عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك

من الغواية مكدرا بنوع من أنواع المخالفة وعدم الهداية وهذا باعتبار أصل الوصول الى نعمة من النعم مع رضا المنعم بها فانه لا يستلزم سابق كون المنعم عليه على ضلالة لا باعتبار هذه النعمة الخاصة من هذا المنعم عز وجل ولما كان الامر في الاصل هكذا كان في وصول النعم الى المنعم عليه من المنعم بها مع كونه راضيا عليه غير غاضب عنه اذا كان ذلك الوصول مصحوبا بكون صاحبه على ضلالة في نفسه قصور عن وصولها الى من كان جامعا بين كونه واصلا الى المنعم فائزا برضا المنعم عليه خالصا من كدر كونه في نفسه على ضلالة وتقرير الدلالة من هذا الوجه على اخلاص التوحيد كتقريرها في الوجه الذي قبله فهذه ثلاثون دليلا مستفادة من سورة الفاتحة باعتبار ما يستفاد من تراكيبها العربية مع ملاحظة ما يفيده ما اشتملت عليه من تلك الدقائق والاسرار التي هي راجعة الى العلوم الآلية وداخلة فيما تقتضيه تلك الالفاظ بحسب المادة والهيئة والصورة مع قطع النظر عن التفسير بمعنى خاص قاله بعض السلف أو وقف عنده من بعدهم من الخلف فان قلت هذه الأدلة التي استخرجتها من هذه السورة المباركة وبلغت بها الى هذا العدد وجعلتها ثلاثين دليلا على مدلول واحد لم نجد لك فيها سلفا ولا سبقك بها غيرك قلت *هذي شكاة ظاهر عنك عارها* واعتراض غير واقع موقعه ولا مصادف محزه فان القرآن عربي وهذا الاستخراج لما ذكرناه من الادلة هو على مقتضى اللغة العربية وبحسب ما تقتضيه علومها التي دونها الثقات ورواها العدول الاثبات وليس هذا من التفسير بالرأي الذي ورد النهي عنه والزجر لفاعله بل من الفهم الذي يعطاه الرجل في كتاب الله كما أشار اليه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في كلامه المشهور وما كان من هذا القبيل فلا يحتاج فيه الى سلف وكفى بلغة العرب وعلومها المدونة بين ظهراني الناس وعلى ظهر البسيطة سلفا وبالجملة فهذه ثلاثون موضعا في فاتحة الكتاب يفيد كل واحد منها اخلاص التوحيد مع أن فاتحة الكتاب ليست الا سبع آيات فما ظنك بما في سائر الكتاب العزيز فذكرنا لهذه المواضع في فاتحة الكتاب كالبرهان على ما ذكرناه من أن في الكتاب العزيز من ذلك ما يطول تعداده وتتعسر الاحاطة به

(سورة البقرة)

قال القرطبي وغيره أي لكان الهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا لان ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمران رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم ان عبدا من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا الى الله فقالا يارب ان عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها قال الله وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدي قالا يارب انه قال لك الحمد يارب كما ينبغي (٤٠) لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها وحكى القرطبي عن طائفة انهم قالوا قول العبد الحمد لله رب العالمين أفضل من قوله لا اله الا الله لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد وقال آخرون لا اله الا الله أفضل لانها التفصيل بين الايمان والكفر وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله كما ثبت في الحديث المتفق عليه وفي الحديث الآخر أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا اله الا الله وحده لا شريك له وقد تقدم عن جابر مرفوعا أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وحسنه الترمذي والالف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى كما جاء في الحديث اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله واليك يرجع الامر كله الحديث والرب هو المالك المتصرف ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للاصلاح وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى ولا يستعمل الرب لغير الله بل بالاضافة تقول رب الدار رب كذا وأما الرب فلا يقال الا لله عز وجل وقد قيل انه الاسم الاعظم * والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل والعالم جمع لا واحد له من لفظه والعوالم أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر وكل قرن منها وجيل يسمى عالما أيضا قال بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس الحمد لله رب العالمين الحمد لله الذي له الخلق كله السموات والارض وما فيهن وما بينهن مما نعلم ومما لا نعلم وفي رواية سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رب الجن والانس وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج وروى عن علي نحوه قال ابن أبي حاتم باسناد لا يعتمد عليه واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى ليكون للعالمين نذيرا وهم الجن والانس قال الفراء وأبو عبيد

قال القرطبي مدنية نزلت في مدد شتى وقيل هي أول سورة نزلت بالمدينة الا قوله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فانها آخر آية نزلت من السماء ونزلت يوم النحر في يوم حجة الوداع بمنى قاله ابن عباس وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن وقد ورد في فضلها أحاديث وآثار كثيرة في الصحاح والسنن وغيرها ومن فضائلها ما هو خاص بآية الكرسي وما هو خاص بخواتيم هذه السورة وما هو في فضلها وفضل آل عمران وما هو في فضل السبع الطوال وليطلب ذلك من مواطنه وهي مائتان وست وقيل وسبع وثمانون آية قال ابن العربي فيها ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر أخذها بركة وتركها حسرة لا تستطيعها البطلة وهم السحرة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) قال القرطبي اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور فقال الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين هي سر الله في القرآن ولله في كل كتاب من كتبه سر فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ولا نحب أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها ونمرها كما جاءت وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب قال وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر وفائدة ذكرها طلب الايمان بها ولا يلزم البحث عنها فهي مما استأثر الله بعلمه وقال ابو حاتم لم نجد الحروف في القرآن الا في أوائل السور ولا ندري ما أراد الله عز وجل وقال جمع من العلماء كثير بل نحب أن نتكلم فيها ونلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تخرج عليها واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة فروى عن ابن عباس وعلي أيضا ان الحروف المقطعة من القرآن اسم الله الاعظم الا أنا لا نعرف تأليفه منها وقال قطرب والمبرد والفراء وغيرهم واختاره جمع عظيم من المحققين هي اشارة الى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن انه مؤتلف من الحروف التي بنى كلامهم عليها ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم اذ لم يخرج عن كلامهم قال قطرب كانوا ينفرون عند استماع القرآن فلما نزل الم المص استنكروا هذا اللفظ فلما أنصتوا له صلى الله عليه وآله وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم

العالم عبارة عما يعقل وهم الانس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم عالم وعن زيد بن أسلم وأبي مجيز العالم كل ماله روح ترفرف وقال قتادة رب العالمين كل صنف عالم وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة ابن مروان بن الحكم وهو أحد خلفاء بني أمية وهو يعرف بالجعد ويلقب بالحمار انه قال خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الارض عالم واحد وسائرهم لا يعلمهم الا الله عز وجل وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى رب العالمين قال الانس عالم والجن عالم وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف أو أربعة عشر ألف عالم هو يشك الملائكة على الارض (٤١) وللارض أربع زوايا في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم الله لعبادته رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وهذا كلام غريب يحتاج مثله الى دليل صحيح وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد ابن مسلم حدثنا الفرات يعني ابن الوليد عن معتب بن سمي عن سبيع يعني الحميري في قوله تعالى رب العالمين قال العالمين ألف أمة فستمائة في البحر وأربعمائة في البر وحكى مثله عن سعيد بن المسيب وقد روى نحو هذا مرفوعا كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى في مسنده حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبيد بن واقد القيسي أبو عباد حدثني محمد بن عيسى بن كيسان حدثنا محمد ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قل الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها فسأل عنه فلم يخبر بشيء فاغتم لذلك فأرسل راكبا يضرب الى اليمن وآخر الى الشام وآخر الى العراق يسأل هل رؤي من الجراد شيء أم لا قال فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبر ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خلق الله ألف أمة ستمائة في البحر وأربعمائة في البر فأول شيء يهلك من هذه الامم الجراد فاذا هلك تتابعت مثل النظام اذا قطع سلكه محمد بن عيسى هذا وهو الهلالي ضعيف وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب انه قال لله ألف عالم ستمائة في البحر وأربعمائة في البر وقال وهب بن منبه لله ثمانية عشر ألف عالم الدنيا عالم منها وقال مقاتل العوالم ثمانون ألفا وقال كعب الاحبار لا يعلم عدد العوالم الا الله عز وجل نقله كله البغوي وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري انه قال ان لله أربعين ألف عالم الدنيا من شرقها الى مغربها عالم واحد منها وقال الزجاج العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة قال

وقال جماعة هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بعينها كقول ابن عباس وغيره الالف من الله واللام من جبريل والميم من محمد وذهب الى هذا الزجاج فقال أذهب الى ان كل حرف منها يؤدي عن معنى وقد تكلمت العرب بحروف مقطعة كقوله فقلت لها قفي فقالت قاف أي وقفت وفي الحديث من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة قال شقيق هو أن يقول في اقتل أق كما قال صلى الله عليه وآله وسلم كفى بالسيف شا أي شافيا وقال بعضهم الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والمعنى ان الله الواحد أنزل ثلاثين جزأ من القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بلغ أربعين سنة التي بعثه عندها الى الخلق وقال زيد بن أسلم هي أسماء للسور وقال الكلبي هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه وقيل ان النطق بالحروف أنفسها كانت العرب مستوية فيها بخلاف النطق بأساميها وهو خاص بمن خط وقرأ والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أمي فأتى بها كذلك زيادة في الاعجاز وقيل غير ذلك مما لا يأتي عليه الحصر وقد ذكر شطرا منها الرازي في تفسيره ومن أدق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف ما ذكره الزمخشري في الكشاف حيث قال انك اذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الاسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء وهي الالف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ثم اذا نظرت في هذه الاربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف بيان ذلك ان فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ومن المجهورة نصفها الالف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون ومن الشديدة نصفها الالف والكاف والطاء والقاف ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء ومن المنفتحة نصفها الالف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون ومن المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء ومن المنخفضة نصفها الالف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء ثم اذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها

القرطبي وهذا هو الصحيح انه شامل لكل العالمين كقوله قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين والعالم مشتق من العلامة (قلت) لانه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز فيا عجبا كيف يعصى الاله أم كيف يجحده الجاحد وفي كل شئ له آية * تدل على انه واحد وقوله تعالى الرحمن الرحيم تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الاعادة قال القرطبي انما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب كما قال تعالى نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي (٤٢) هو العذاب الاليم وقوله تعالى ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم قال فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد (مالك يوم الدين) قرأ بعض القراء ملك يوم الدين وقرأ آخرون مالك وكلاهما صحيح متواتر في السبع ويقال مالك بكسر اللام وباسكانها ويقال مليك أيضا وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ ملكي يوم الدين وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى وكلاهما صحيحة حسنة ورجح الزمخشري ملك لانها قراءة أهل الحرمين ولقوله لمن الملك اليوم قوله الحق وله الملك وحكى عن أبي حنيفة انه قرأ ملك يوم الدين على انه فعل وفاعل ومفعول وهذا شاذ غريب جدا وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيأ غريبا حيث قال حدثنا أبو عبد الرحمن الازدي حدثنا عبد الوهاب بن عدي بن الفضل عن أبي المطرف عن ابن شهاب انه بلغه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وابا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرؤن مالك يوم الدين قال ابن شهاب وأول من احدث الا ملك مروان قلت مروان عنده علم بصحة ما قرأه لم يطلع عليه ابن شهاب والله أعلم وقد روى من طرق متعددة أو ردها ابن مردويه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأها مالك يوم الدين ومالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعون وقال قل أعوذ برب الناس ملك الناس وملك مأخوذ من الملك كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقال قوله الحق وله الملك وقال الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لانه

من هذه الاجناس المعدودة مذكورة بالمذكورة منها فسبحان الذي دقت في كل شئ حكمته وقد علمت أن معظم انشئ وجله ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الالفاظ التي منها تراكيب كلامهم اشارة الى ما ذكرت من التبكيت لهم والزام الحجة اياهم ومما يدل على انه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا في تراكيب الكلام ان الالف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والاعراف والرعد ويونس وابراهيم وهود ويوسف والحجر انتهى وتبعه في ذلك جماعة من أهل التفسير منهم الخازن والنسفي والبيضاوي والخطيب وأبو السعود وغيرهم (أقول) هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها وبيانه انه اذا كان المراد منه الزام الحجة والتبكيت كما قال فهذا متيسر بأن يقال لهم هذا القرآن هو من الحروف التي يتكلمون بها ليس من حروف مغايرة لها فيكون هذا تبكيتا والزاما يفهمه كل سامع منهم من دون الغاز وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة فان هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه الا بسماع جميع هذه الفواتح هو أيضا مما لا يفهمه أحد من السامعين ولا يتعقل شيأ منه فضلا أن يكون تبكيتا له والزاما للحجة اياه فان ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه ولم يفهم السامع هذا ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه الى بعض هذا فضلا عن كله ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها وذلك النصف مشتملا على أنصاف تلك الانواع من الحروف المتصفة بتلك الاوصاف هو أمر لا تعلق به فائدة لجاهلي ولا اسلامي ولا مقر ولا منكر ولا مسلم ولا معارض ولا يصلح أن يكون مقصدا من مقاصد الرب سبحانه الذي أنزل كتابه للارشاد الى شرائعه والهداية به وهب ان هذه صناعة عجيبة ونكتة غريبة فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا ببلاغة حتى يكون مفيدا أنه كلام بليغ او فصيح وذلك لان هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى تتصف بهذين الوصفين وغاية ما هنالك انها من جنس حروف كلامهم ولا مدخل لذلك فيما ذكر وأيضا لو فرض أنها كلمات متركبة بتقدير شئ قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك لانها تعمية غير مفهومة للسامع

قد تقدم الاخبار بانه رب العالمين وذلك عام فى الدنيا والآخرة وانما أضيف الى يوم الدين لانه لا يدعى أحد هنالك شيأ ولا يتكلم أحد الا باذنه كما قال تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا وقال تعالى وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا وقال تعالى يوم يأتى لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد وقال الضحاك عن ابن عباس مالك يوم الدين يقول لا يملك أحد معه فى ذلك اليوم حكما كملكهم فى الدنيا قال ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر الا من عفا عنه وكذلك قال غير من الصحابة (٤٣) والتابعين والسلف وهو ظاهر وحكى ابن جرير عن بعضهم انه ذهب الى ان تفسير مالك يوم الدين انه القادر على اقامته ثم شرع يضعفه والظاهر انه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم وان كلا من القائلين لهذا القول وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر ولا ينكره ولكن السياق أدل على المعنى الاول من هذا كما قال تعالى الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا والقول الثانى يشبه قوله تعالى ويوم يقول كن فيكون والله أعلم والملك فى الحقيقة هو لله عز وجل قال الله تعالى هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا اخنع اسم عند الله رجل يسمى بملك الاملاك ولا مالك الا الله وفيهما عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقبض الله الارض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول انا الملك أين ملوك الارض أين الجبارون أين المتكبرون وفى القرآن العظيم لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فاما تسمية غيره فى الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا وكان وراءهم ملك وفى الصحيحين مثل الملوك على الاسرة اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا والدين الجزاء والحساب كما قال تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو المبين وقال أئنا لمدينون أى مجزيون محاسبون وفى الحديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت أى حاسب نفسه لنفسه كما قال عمر رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتأهبوا للعرض الاكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية (اياك نعبد واياك نستعين) قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من اياك وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهى قراءة شاذة مردودة لان اياضوء الشمس وقرأ

الا بأن يأتى من يريد بيانها بمثل ما يأتى به من أراد بيان الالغاز والتعمية وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة فى ورد ولا صدر بل من عكسهما وضدهما واذا عرفت هذا فاعلم ان من تكلم فى بيان معانى هذه الحروف جازما بأن ذلك هو ما أراده الله عز وجل فقد غلط أقبح الغلط وركب فى فهمه ودعواه أعظم الشطط فانه ان كان تفسيره لها بما فسرها به راجعا الى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت فان العرب لم يتكلموا بشئ من ذلك واذا سمعه السامع منهم كان معدودا عنده من الرطانة ولا ينافى ذلك انهم قد يقتصرون على حرف أو حروف من الكلمة التى يريدون النطق بها فانهم لم يفعلوا ذلك الا بعد ان تقدمه ما يدل عليه ويفيد معناه بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم وأين هذه الفواتح الواقعة فى أوائل السور من هذا واذا تقرر لك انه لا يمكن استفادة ما ادعوه من لغة العرب وعلومها لم يبق حينئذ الا أحد أمرين الاول التفسير بمحض الرأى الذى ورد النهى عنه والوعيد عليه وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصد عنه والتنكب عن طريقه وهم أتقى لله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه لعبة لهم يتلاعبون به ويضعون حماقات أنظارهم وخزعبلات أفكارهم عليه الثانى التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع وهذا هو المهيع الواضح والسبيل القويم بل الجادة التى ما سواها مردوم والطريقة العامرة التى ما عداها مهدوم فمن وجد شيأ من هذا فغير ملوم أن يقول بل عفو ويتكلم بما وصل اليه علمه ومن لم يبلغه شئ من ذلك فليقل لا أدرى أو الله أعلم بمراده فقد ثبت النهى عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظا عربية وتراكيب مفهومة وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين فى قلوبهم زيغ فكيف بمن نحن بصدده فانه ينبغى أن يقال فيه انه متشابه المتشابه على فرض ان للفهم اليه سبيلا ولكلام العرب فيه مدخلا فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير وانظر كيف فهم اليهود عند سماع الم فانهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز الى ما يصطلحون عليه من العدد الذى يجعلونه لها كما أخرج ابن اسحق والبخارى فى تاريخه وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال مر أبو ياسر بن أخطب فى رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة الم ذلك الكتاب لا ريب فيه فأتى

بعضهم أياك بفتح الهمزة وقرأ بعضهم أياك بفتح الهمزة وتشديد الياء وقرأ بعضهم هياك بالهاء بدل الهمزة كما قال الشاعر

فهياك والامر الذى ان تراحبت * موارده ضاقت عليك مصادره ونستعين بفتح النون أول الكلمة فى قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والاعمش فانهما كسراها وهى لغة بنى أسد وربيعة وبنى تميم والعبادة فى اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبعير معبد أى مذلل وفى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف وقدم المفعول وهو اياك وكرر للاهتمام والحصر أى لا نعبد الا اياك ولا نتوكل الا عليك وهذا هو كمال (٤٤) الطاعة والدين كله يرجع الى هذين المعنيين وهذا كما قال بعض السلف الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة اياك نعبد واياك نستعين فالاول تبرؤ من الشرك والثانى تبرؤ من الحول والقوة والتفويض الى الله عز وجل وهذا المعنى فى غير آية من القرآن كما قال تعالى فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا وكذلك هذه الآية الكريمة اياك نعبد واياك نستعين وتحول الكلام من الغيبة الى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة لانه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدى الله تعالى فلهذا قال اياك نعبد واياك نستعين وفى هذا دليل على ان أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى وارشاد لعباده بان يثنوا عليه بذلك ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء فى الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب وفى صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل اذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى واذا قال الرحمن الرحيم قال الله اثنى على عبدى فاذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدنى عبدى واذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما اياك نعبد يعنى اياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك واياك نستعين

أخاه حيى بن أخطب فى رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه الم ذلك الكتاب فقال أنت سمعته فقال نعم فمشى حيى فى أولئك النفر الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا يا محمد ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك الم ذلك الكتاب قال بلى قالوا أجاءك بهذا جبريل من عند الله قال نعم قالوا لقد بعث الله من قبلك الانبياء ما نعلمه بين لنبى منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك فقال حيى بن أخطب وأقبل على من كان معه الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه احدى وسبعون سنة أفتدخلون فى دين نبى انما مدة ملكه وأجل أمته احدى وسبعون سنة ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا محمد هل مع هذا غيره قال نعم قال وماذا قال المص قال هذه أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه احدى وستون ومائة سنة هل مع هذا يا محمد غيره قال نعم قال وماذا قال الر قال هذه أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان هذه احدى وثلاثون سنة ومائتان فهل مع هذا غيره قال نعم المر قال فهذه أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه احدى وسبعون سنة ومائتان ثم قال لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا ثم قاموا فقال أبو ياسر لاخيه حيى ومن معه من الاحبار ما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله احدى وسبعون واحدى وستون ومائة واحدى وثلاثون ومائتان واحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فانظر ما بلغت اليه أفهامهم من هذا الامر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب فى شئ وتامل أى موضع أحق بالبيان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الموضع فان هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه عند سماع الم ذلك الكتاب من ذلك العدد موجبا للتثبيط عن الاجابة له والدخول فى شريعته فلو كان لذلك معنى يعقل ومدلول ينهم لدفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ظنوه بادى بدء حتى لا يتأثر عنه ما جاؤا به من التشكيك على من معهم فان قلت هل ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الفواتح شئ يصلح للتمسك به قلت لا أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تكلم فى شئ من معانيها بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد

على طاعتك وعلى أمورنا كلها وقال قتادة اياك نعبد واياك نستعين يأمركم ان تخلصوا له العبادة وان تستعينوا على أموركم وانما قدم اياك نعبد على واياك نستعين لان العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة اليها والاهتمام والحزم تقديم ماهو الاهم فالاهم والله أعلم فان قيل فما معنى النون فى قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين فان كانت للجمع فالداعى واحد وان كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام وقد أجيب بان المراد من ذلك الاخبار عن جنس العباد والمصلى فرد منهم ولاسيما ان كان فى جماعة أو امامهم فاخبر عن نفسه وعن اخوانه المؤمنين بالعبادة التى خلقوا لاجلها وتوسط لهم بخير ومنهم من قال يجوز أن تكون للتعظيم كأن العبد قيل له اذا كنت داخل العبادة فانت شريف وجاهك عريض فقل اياك نعبد واياك نستعين وان كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا ولو كنت فى مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع الى الله عز وجل وفقرهم اليه ومنهم من قال اياك نعبد ألطف فى التواضع من اياك عبدنا لما فى الثانى من تعظيم نفسه من جعله نفسه وحده أهلا لعبادة الله تعالى الذى لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته ولا يثنى عليه كما يليق به والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لا تنسابه الى جناب الله تعالى كما قال بعضهم لا تدعنى الا بيا عبدها فانه أشرف أسمائى وقد سمى الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعبده فى أشرف مقاماته فقال الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب وانه لما قام عبد الله يدعوه سبحان الذى أسرى بعبده ليلا فسماه عبدا عند انزاله عليه وعند قيامه فى الدعوة واسرائه به وأرشده الى القيام بالعبادة فى أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وقد حكى الرازى فى تفسيره عن بعضهم ان مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة لكون العبادة تصدر من الخلق الى الحق والرسالة من الحق الى الخلق قال ولان الله يتولى مصالح عبده والرسول يتولى مصالح أمته وهذا القول خطأ والتوجيه أيضا ضعيف لا حاصل له ولم يتعرض له الرازى بتضعيف ولا رد وقال بعض الصوفية العبادة اما لتحصيل ثواب أو درء عقاب قالوا وهذا ليس بطائل اذ مقصوده تحصيل مقصوده واما للتشريف بتكاليف الله تعالى وهذا أيضا عندهم ضعيف بل العالى لن يعبد الله لذاته المقدسة

عدد حروفها فاخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وصححه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف وله طرق عن ابن مسعود وأخرج ابن أبى شيبة والبزار بسند ضعيف عن عوف بن مالك الاشجعى نحوه مرفوعا فان قلت هل روى عن الصحابة شئ من ذلك باسناد متصل بقائله أم ليس الا ما تقدم من حكاية القرطبى عن ابن عباس وعلى قلت قد روى عن ابن مسعود انه قال الم حرف اشتقت من حروف اسم الله وعنه قال هى اسم الله الاعظم وعن ابن عباس فى قوله الم وحم ون قال اسم مقطع وعنه فى فواتح السور قال هو قسم أقسم الله وهو من أسماء الله وعن الربيع بن أنس قال ألف مفتاح اسمه الله ولام مفتاح اسمه لطيف وميم مفتاح اسمه مجيد وقد روى نحو هذه التفاسير عن جماعة من التابعين فيهم عكرمة والشعبى والسدى وقتادة ومجاهد والحسن فان قلت هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال فى تفسير شئ من هذه الفواتح قولا صح اسناده اليه قلت لا لما قدمنا الا أن يعلم انه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فان قلت هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه ولا مدخل للغة العرب فلم لا يكون له حكم الرفع قلت تنزيل هذا منزلة المرفوع وان قال به طائفة من أهل الاصول وغيرهم فليس مما تنشرح له صدور المنصفين ولاسيما اذا كان فى مثل هذا المقام وهو التفسير لكلام الله سبحانه فانه دخول فى أعظم الخطر مما لا برهان عليه صحيح الا مجرد قولهم انه يبعد من الصحابى كل البعد ان يقول بمحض رأيه فيما لا مجال للاجتهاد فيه وليس مجرد هذا الاستبعاد مسوغا للوقوع فى خطر الوعيد الشديد على انه يمكن أن يذهب بعض الصحابة الى تفسير بعض المتشابه كما تجده كثيرا فى تفاسيرهم المنقولة عنهم ونجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه ثم ههنا مانع آخر وهو ان المروى عن الصحابة فى هذا مختلف متناقض فان عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكما لا وجه له وان عملنا بالجميع كان عملا بما هو مختلف متناقض ولا يجوز ثم ههنا مانع غير هذا المانع وهو أنه لو كان شئ مما قالوه مأخوذا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا تفقوا عليه ولم يختلفوا كسائر ما هو مأخوذ عنه فلما اختلفوا فى هذا علمنا انه لم يكن مأخوذا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثم لو كان عندهم شئ عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا ما تركوا حكايته عنه

المرصوفة بالكمال قالوا ولهذا يقول المصلي أصلي لله ولو كان لتحصيل الثواب ودرء العقاب لبطلت الصلاة وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا كون العبادة لله عز وجل لا ينافي أن يطلب معها ثوابا ولا يدفع عذابا كما قال ذلك الاعرابي أما اني لا احسن دندنتك ولا دندنة معاذ انما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبي صلى الله عليه وسلم حولها ندندن (اهدنا الصراط المستقيم) قراءة الجمهور بالصاد وقرئ السراط وقرئ بالزاي قال الفراء وهي لغة بني عذرة وبني كلب لما تقدم الثناء على المسؤل تبارك وتعالى ناسب ان يعقبه السؤال كما قال فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل وهذا أكمل أحوال السائل ان يمدح مسؤله ثم يسأل حاجته وحاجة اخوانه المؤمنين بقوله اهدنا الصراط المستقيم لانه أنجح للحاجة وأنجع للاجابة ولهذا أرشد الله اليه لانه الاكمل وقد يكون السؤال بالاخبار عن حال السائل واحتياجه كما قال موسى عليه السلام رب اني لما أنزلت الي من خير فقير وقد يتقدمه مع ذلك وصف مسؤل كقول ذي النون لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤل كقول الشاعر

أأذكر حاجتي أم قد كفاني
حياؤك ان شيمتك الحياء
اذا أثنى عليك المرء يوما
كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا الارشاد والتوفيق وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا اهدنا الصراط المستقيم فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا وهديناه النجدين أي بينا له الخير والشر وقد تعدى بالى كقوله تعالى اجتباه وهداه الى صراط مستقيم فاهدوهم الى صراط الجحيم وذلك بمعنى الارشاد والدلالة وكذلك قوله وانك لتهدي الى صراط مستقيم وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة الحمد لله الذي هدانا لهذا أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا وأما الصراط المستقيم فقال الامام أبو جعفر بن جرير أجمعت الامة من أهل التأويل جميعا على ان الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وذلك في لغة جميع العرب فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفى أمير المؤمنين على صراط اذا اعوج الموارد مستقيم قال والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر قال ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامة أو اعوجاج فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه ثم اختلفت عبارات

ورفعه اليه لاسيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه ولا مدخل لها ولا يقال قد اختلفوا في غيره من الاحكام فيلزم عدم الاخذ به لانا نقول اختلافهم في ذلك من قبيل الاخذ بالاخص أو الاعم أو المتقدم أو المتأخر وفي كثير مما اختلفوا فيه ان علموا بالنص تركوا ذلك بخلاف ما هنا والله تعالى أعلم والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الائمة ان لا يتكلم بشيء من ذلك مع الاعتراف بأن في انزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي اليها أفهامنا واذا انتهت الى السلامة في مدائك فلا تجاوز وسيأتي لنا عند تفسير قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات كلام طويل الذيول وتحقيق تقبله صحيحات الافهام وسليمات العقول (ذلك الكتاب) أي القرآن وقيل فيه اضمار أي هذا الكتاب الذي وعدتك به أو وعدت به على لسان موسى وعيسى أن أنزله عليك قال ابن عباس في الآية يعني هذا الكتاب وبه قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم وابن جريج وحكاه البخاري عن أبي عبيدة والاشارة الى الكتاب المذكور بعده والعرب قد تستعمل الاشارة الى البعيد الغائب مكان الاشارة الى القريب الحاضر ومنه قوله تعالى ذلك عالم الغيب والشهادة وقوله تلك حجتنا آتيناها ابراهيم وقوله تلك آيات الكتاب وقوله ذلكم حكم الله قال أبو السعود وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو شأنه وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف انتهى وقيل ان الاشارة الى غائب واختلف في ذلك الغائب فقيل هو الكتاب الذي كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والاجل والرزق وقيل الكتاب الذي كتبه الله على نفسه في الازل كما في صحيح مسلم عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده ان رحمتي تغلب غضبي وفي رواية سبقت وقيل الاشارة الى ما قد نزل بمكة وقيل الى ما في التوراة والانجيل وقيل الى قوله قبله الم ورجحه الزمخشري وقد وقع الاختلاف في ذلك الى تمام عشرة أقوال حسبما حكاه القرطبي وأرجحها ما صدرناه والكتاب مصدر بمعنى المكتوب وأصله الضم والجمع ومنه يقال للجند كتيبة لاجتماعها والكتاب يجمع الحروف بعضها الى بعض وهو اسم من أسماء القرآن (لا ريب فيه) أي لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق وقيل هو خبر بمعنى النهي أي لا ترتابوا فيه والريب

المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط وان كان يرجع حاصلها الى شئ واحد وهو المتابعة لله وللرسول فروى انه كتاب الله
قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنى يحيى بن يمان عن حمزة الزيات عن سعيد وهو ابن المختار الطائى عن ابن أخى الحرث
الاعور عن الحرث الاعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصراط المستقيم كتاب الله
وكذلك رواه ابن جرير من حديث حمزة بن حبيب الزيات وقد تقدم فى فضائل القرآن فيما رواه احمد والترمذى من رواية الحرث
الاعور عن على مرفوعا وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وقد روى موقوفا على على
رضى الله عنه وهو أشبه والله أعلم
وقال الثورى عن منصور عن أبى وائل عن عبد الله قال الصراط المستقيم كتاب الله وقيل هو الاسلام قال الضحاك عن ابن عباس قال قال جبريل لمحمد عليهما السلام قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم يقول ألهمنا الطريق الهادى وهو دين الله الذى لا اعوجاج فيه وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس فى قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم قال ذلك الاسلام وقال اسمعيل ابن عبد الرحمن السدى الكبير عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم اهدنا الصراط المستقيم قالوا هو الاسلام وقال عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر اهدنا الصراط المستقيم قال هو الاسلام أوسع مما بين السماء والارض وقال ابن الحنفية فى قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم قال هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم اهدنا الصراط المستقيم قال هو الاسلام وفى هذا الحديث الذى رواه الامام احمد فى مسنده حيث قال حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء حدثنا الليث يعنى ابن سعد عن معاوية بن صالح ان عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه عن أبيه عن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط فاذا أراد الانسان أن يفتح شيأ من تلك الابواب قال ويحك لا تفتحه فانك ان تفتحه تلجه فالصراط الاسلام والسوران حدود الله والابواب المفتحة محارم الله

والريب الشك مع التهمة مصدر وهو قلق النفس واضطرابها ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الشك ريبة وان الصدق طمأنينة ومنه ريب الزمان وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه وقيل الريب هو الشك مطلقا وقال ابن أبى حاتم لا أعلم فى هذا خلافا وقد يستعمل الريب فى التهمة والحاجة حكى ذلك القرطبى ومعنى هذا النفى العام ان الكتاب ليس بمظنة للريب لوضوح دلالته وضوحا يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لا ينبغى الارتياب فيه بوجه من الوجوه (هدى) أى رشاد وبيان وانه يذكر وهو الكثير وبعضهم يؤنث أى هو هدى أو هذه هدى أو هو هاد لهم الى الحق والهدى مصدر وهذا وزن نادر فى المصادر لم يرد منه فيما قيل الا الهدى والتقى والسرى والبكا بالقصر فى لغة وزاد الشاطبى لغى بالضم فى لغة أيضا قال الزمخشرى وهو الدلالة الموصلة الى البغية بدليل وقوع الضلال فى مقابلته انتهى قال القرطبى الهدى هديان هدى دلالة وهو الذى يقدر عليه الرسل واتباعهم قال الله تعالى ولكل قوم هاد وقال وانك لتهدى الى صراط مستقيم فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه وتفرد سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق فقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم انك لا تهدى من أحببت فالهدى على هذا يجئ بمعنى خلق الايمان فى القلب ومنه قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم وقوله ولكن الله يهدى من يشاء (للمتقين) أى من ثبتت لهم التقوى وتخصيص الهدى بالمتقين لما انهم المنتسبون من أنواره المنتفعون بآثاره وان كانت هدايته شاملة لكل ناظر من مؤمن وكافر ولذا أطلقت فى قوله هدى للناس قاله أبو السعود قال ابن فارس وأصلها فى اللغة قلة الكلام وقال فى الكشاف المتقى فى اللغة اسم فاعل من قولهم وقاد فاتقى والوقاية الصيانة وهو فى الشريعة الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك انتهى قال ابن مسعود وهم المؤمنون وعن معاذ بن جبل انه قيل له من المتقون فقال قوم اتقوا الشرك وعبادة الاوثان وأخلصوا لله العبادة وعن أبى هريرة ان رجلا قال له ما التقوى قال هل وجدت طريقا ذا شوك قال نعم قال فكيف صنعت قال اذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه قال ذلك التقوى وعن أبى الدرداء قال تمام التقوى ان يتقى الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خيفة أن يكون حراما يكون حجابا بينه وبين الله وقد روى نحو

وذلك الداعى على راس الصراط كتاب الله والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث الليث بن سعد به ورواه الترمذى والنسائى جميعا عن على بن حجر عن بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير ابن نفير عن النواس بن سمعان به وهو اسناد حسن صحيح والله أعلم وقال مجاهد اهدنا الصراط المستقيم قال الحق وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث أبى النضر هاشم بن القاسم انا حمزة بن المغيرة عن عاصم الاحول عن أبى العالية اهدنا الصراط ٤٨ المستقيم قال هو النبى صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده قال عاصم

هذا عن جماعة من التابعين وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن عطية السعدى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا لما به بأس فالمصير الى ما أفاده هذا الحديث واجب ويكون هذا معنى شرعيا للمتقى أخص من المعنى الذى قدمناه عن صاحب الكشاف زاعما أنه المعنى الشرعى وقد أطال القوم فى ذكر تعاريف التقوى ورسوم المتقى لا حاجة لنا الى التطويل بذكر تلك الاقوال فالمرفوع يغنى عن المرقوع والصباح يغنى عن المصباح (الذين يؤمنون بالغيب) هو وصف للمتقين كاشف وأصل الايمان فى اللغة التصديق قال تعالى وما أنت بمؤمن لنا أى بمصدق وتعديته بالباء لتضمنه معنى الاعتراف وقد يطلق بمعنى الوثوق وكلا الوجهين حسن هنا والغيب فى كلام العرب كل ما غاب عنك قال القرطبى واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا فقالت فرقة الغيب هو الله سبحانه وضعفه ابن العربى وقال آخرون القضاء والقدر وقال آخرون القرآن وما فيه من الغيوب وقيل القلب أى يصدقون بقلوبهم وقيل الغيب الخفاء وقال آخرون الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهدى اليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار قال ابن عطية وهذه الاقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها قال وهذا هو الايمان الشرعى المشار اليه فى حديث جبريل حين قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرنى عن الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت انتهى وهذا الحديث هو ثابت فى الصحيح بلفظ والقدر خيره وشره وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وأبو نعيم كلاهما فى معرفة الصحابة عن نزيلة بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة واستقبلنا مسجدا يليه فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد استقبل البيت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال أولئك قوم آمنوا بالغيب وأخرج البزار وأبو يعلى والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال كنت جالسا مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال أتدرون أى المؤمنين أفضل أهل الايمان ايمانا فقالوا يا رسول الله الملائكة قال هم كذلك ويحق لهم وما يمنعهم

هذا معنى ما ذكرناه للحسن فقال صدق أبو العالية ونصح وكل هذه الاقوال صحيحة وهى متلازمة فان من اتبع النبى صلى الله عليه وسلم واقتدى بالذين من بعده أبى بكر وعمر فقد اتبع الحق ومن اتبع الحق فقد اتبع الاسلام ومن اتبع الاسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا ولله الحمد وقال الطبرانى حدثنا محمد بن الفضل السقطى حدثنا ابراهيم بن مهدى المصيصى حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن الاعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال الصراط المستقيم الذى تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى أعنى اهدنا الصراط المستقيم أن يكون معنيا به وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل وذلك هو الصراط المستقيم لان من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للاسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمره الله وقد به والانزجار عما زجره عنه واتباع منهاج النبى صلى الله عليه وسلم ومنهاج الخلفاء الاربعة وكل عبد صالح وكل ذلك من الصراط المستقيم فان قيل فكيف يسأل المؤمن الهداية فى كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا فالجواب أن لا ولولا احتياجه ليلا ونهارا الى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى الى ذلك فان العبد مفتقر فى كل ساعة وحالة الى الله تعالى فى تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازديادة منها واستمراره عليها فان العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا

الا ماشاء الله فارشده تعالى الى ان يسأله فى كل وقت ان يمده بالمعونة والثبات والتوفيق فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فانه تعالى قد تكفل باجابة الداعى اذا دعاه ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر اليه آناء الليل وأطراف النهار وقد قال تعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل الآية فقد أمر الذين آمنوا بالايمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل لان المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الاعمال المعينة على ذلك والله أعلم وقال تعالى آمرا لعباده المؤمنين ان يقولوا ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت (٤٩)

الوهاب وقد كان الصديق رضى الله عنه يقرأ بهذه الآية فى الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرا فمعنى قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم أى استمر بنا عليه ولا تعدل بنا الى غيره (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قد تقدم الحديث فيما اذا قال العبد اهدنا الصراط المستقيم الى آخرها ان الله يقول هذا لعبدى ولعبدى ما سأل وقوله تعالى صراط الذين أنعمت عليهم مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النحاة ويجوز ان يكون عطف بيان والله أعلم والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون فى سورة النساء حيث قال تعالى ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما وقال الضحاك عن ابن عباس صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك نظير ما قال ربنا تعالى ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم الآية وقال

وقد أنزلهم الله المنزلة التى أنزلهم بها قالوا يا رسول الله الانبياء الذين اكرمهم الله برسالته ونبوته قال هم كذلك ويحق لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التى أنزلهم بها قالوا يا رسول الله الشهداء الذين استشهدوا مع الانبياء قال هم كذلك وما يمنعهم وقد أكرمهم الله بالشهادة قالوا فمن يا رسول الله قال أقوام فى أصلاب الرجال يأتون من بعدى يؤمنون بى ولم يرونى ويصدقونى ولم يرونى يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه فهؤلاء أفضل أهل الايمان ايمانا وفى اسناده محمد بن أبى حميد وفيه ضعف وأخرج حسن ابن عرفة فى جزئه المشهور والبيهقى فى الدلائل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر نحو الحديث الاول وفى اسناده المغيرة ابن قيس البصرى وهو منكر الحديث وأخرج نحوه الطبرانى عن ابن عباس مرفوعا والاسمعيلى عن أبى هريرة مرفوعا أيضا والبزار عن أنس مرفوعا وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده عن عوف بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا ليتنى قد لقيت اخوانى قالوا يا رسول الله ألسنا اخوانك قال بلى ولكن قوم يجيئون من بعدكم يؤمنون بى ايمانكم ويصدقونى تصديقكم وينصرونى نصركم فيا ليتنى قد لقيت اخوانى وعن أبى جمعة الانصارى قال قلت يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا آمنا بك واتبعناك قال ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء بل قوم يأتون من بعدكم يأتيهم كتاب الله بين لوحين فيؤمنون بى ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا أخرجه أحمد والدارمى والباوردى وابن قانع معا فى معجم الصحابة والبخارى فى تاريخه والطبرانى والحاكم عن أبى أمامة الباهلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طوبى لمن رآنى وآمن بى وطوبى لمن آمن بى ولم يرنى سبع مرات أخرجه الطيالسى وأحمد والبخارى فى تاريخه والطبرانى والحاكم وأخرج أحمد وابن حبان عن أبى سعيد ان رجلا قال يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال طوبى لمن رآنى وآمن بى وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى وأخرج الطيالسى وعبد بن حميد عن ابن عمر نحوه وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث أنس نحو حديث الباهلى المتقدم وعن ابن مسعود أنه قال والذى لا اله غيره ما آمن أحد أفضل من ايمان بغيب ثم قرأ الم الآية وللتابعين أقوال والراجح ما تقدم من ان الايمان الشرعى يصدق على جميع ما ذكر هنا وذكر الحافظ ابن حجر

أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس صراط الذين أنعمت عليهم قال هم النبيون وقال ابن جريج عن ابن عباس هم المؤمنون وكذا قال مجاهد وقال وكيع هم المسلمون وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه والتفسير المتقدم عن ابن عباس رضى الله عنهما أعم وأشمل والله أعلم وقوله تعالى غير المغضوب عليهم ولا الضالين قرأ الجمهور غير بالجر على النعت قال الزمخشرى وقرئ بالنصب على الحال وهى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب وروبت عن ابن كثير وذو الحال الضمير فى عليهم والعامل أنعمت والمعنى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم

ممن تقدّم وصفهم ونعتهم وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت ارادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون الى الحق وأكد الكلام بلا ليدل على ان ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى وقد زعم بعض النحاة ان غير ههنا استثنائية فيكون على هذا منقطعا لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم وما أوردناه اولى لقول الشاعر

كأنك من جمال بني اقيش * يقعقع عند رجليه بشن (٥٠) أي كأنك جمل من جمال بني اقيش فحذف الموصوف واكتفى

بالصفة وهكذا غير المغضوب عليهم أي غير صراط المغضوب عليهم اكتفى بالمضاف اليه عن ذكر المضاف وقد دل عليه سياق الكلام وهو قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ثم قال تعالى غير المغضوب عليهم ومنهم من زعم ان لا في قوله تعالى ولا الضالين زائدة وان تقدير الكلام عنده غير المغضوب عليهم والضالين واستشهد ببيت العجاج

* في بئر لا حور سرى وما شعر *

أي في بئر حور والصحيح ما قدمناه ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن عن أبي معاوية عن الاعمش عن ابراهيم عن الاسود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه كان يقرأ غير المغضوب عليهم وغير الضالين وهذا اسناد صحيح وكذلك حكي عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك وهو محمول على انه صدر منهما على وجه التفسير فيدل على ما قلناه من انه انما جيء بلا لتأكيد النفي لئلا يتوهم انه معطوف على الذين أنعمت عليهم وللفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحد منهما فان طريقة أهل الايمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى لان من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم والنصارى لما كانوا قاصدين شيأ لكنهم لا يهتدون الى طريقة

في الفتح كلاما مفيدا في حديث عمر بن الخطاب المتقدم باعتبار ما ورد في الصحابة وحاصله ان فضيلة الصحابة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومجرد زيادة الأجر لا يستلزم أفضلية غير الصحابة على الصحابة لان الاجر انما يقع مفاضلة بالنسبة الى ما يناظره من العمل ومشاهدة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يعدلها عمل هذا حاصل ما أشار اليه وهو محتاج اليه لانه كثيرا ما يستشكل الجمع بين الاحاديث والله أعلم قال ابن جرير في هذه الآية والاولى أن يكونوا موصوفين بالايمان بالغيب قولا واعتقادا وعملا وتدخل الخشية لله في معنى الايمان الذي هو تصديق القول بالعمل والايمان كلمة جامعة للاقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الاقرار بالفعل وقال ابن كثير ان الايمان الشرعي المطلوب لا يكون الا اعتقادا وقولا وعملا هكذا ذهب اليه اكثر الائمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغير واحد اجماعا أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة انتهى وقد أنكر أكثر المتكلمين زيادة الايمان ونقصانه وقال أهل السنة ان نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والايمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة الاعمال ونقصانها وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر النصوص من الكتاب والسنة التي جاءت بزيادة الايمان ونقصانه وبين أصله من اللغة والدليل على ان الاعمال من الايمان قوله صلى الله عليه وآله وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ولشيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام كلام في معنى الغيب وعالمه في كتاب العقل والنقل حاصله ان من زعم ان عالم الغيب الذي أخبر به الله والرسل هو العالم العقلي الذي يثبته هؤلاء الفلاسفة فهو من أضل الناس فان ابن سينا ومن سلك سبيله في هذا كالشهرستاني والرازي وغيرهما يقولون ان الالهيين يثبتون العالم العقلي ويردون على الطبيعيين منهم الذين لا يثبتون الا العالم الحسي ويدعون ان العالم العقلي الذي يثبتونه هو ما أخبرت به الرسل من الغيب الذي أمروا بالايمان به مثل وجود الرب والملائكة والجنة وليس الامر كذلك فان ما يثبتونه من العقليات اذا حقق الامر لم يكن لها وجود الا في العقل وسميت مجردات ومفارقات لان العقل يجرد الامور الكلية عن المغيبات واما تسميتها مفارقات فكان أصلها ان النفس الناطقة تفارق البدن وتصير حينئذ عقلا وكانوا يسمون ما جامع المادة بالتدبير لها كالنفس قبل

الموت

والنصارى لانهم لم يأتوا الامر من بابه وهو اتباع الحق ضلوا وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم من لعنه الله وغضب عليه وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل وهذا جاءت الاحاديث والآثار وذلك واضح بين فيما قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة قال

سمعت سماك بن حرب يقول سمعت عباد بن حبيش يحدث عن عدى بن حاتم قال جاءت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذوا عمتى وناسا فلما أتوا بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوا له فقالت يارسول الله نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة مالى من خدمة فمن على منّ الله عليك قال من وافدك قالت عدى بن حاتم قال الذى فر من الله ورسوله قالت فمن على فلما رجع ورجل الى جنبه ترى انه على قال سليه حملانا فسألته فامر لها قال فأتتنى فقالت لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها فانه قد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه فأتيته فاذا عنده امرأة وصبيان وذكر قربهم من النبى صلى الله عليه وسلم قال فعرفت انه ليس بملك كسرى ولا قيصر فقال ياعدى ما أفرك ان يقال لا اله الا الله فهل من اله الا الله ما أفرك ان يقال الله اكبر فهل شئ أكبر من الله عز وجل قال فاسلمت فرأيت وجهه استبشر وقال ان المغضوب عليهم اليهود وان الضالين النصارى وذكر الحديث ورواه الترمذى من حديث سماك بن حرب وقال حسن غريب لانعرفه الا من حديثه قلت وقد رواه حماد بن سلمة عن سماك عن مرى بن قطرى عن عدى بن حاتم قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى غير المغضوب عليهم قال هم اليهود ولا الضالين قال النصارى هم الضالون وهكذا رواه سفيان بن عيينة عن اسمعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن عدى بن حاتم به وقد روى حديث عدى هذا من طرق وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها وقال عبد الرزاق أنا معمر عن بديل العقيلى أخبرنى عبد الله بن شقيق انه أخبر ممن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بوادى القرى على فرسه وساله رجل من بنى القين فقال يارسول الله من هؤلاء قال المغضوب عليهم وأشار الى اليهود والضالون هم النصارى وقد رواه الجريرى وعروة وخالد الحذاء عن عبد الله بن شقيق فأرسلوه ولم يذكروا من سمع النبى صلى الله عليه وسلم ووقع فى رواية عروة تسمية عبد الله بن عمر وفالله أعلم وقد روى ابن مردويه من حديث ابراهيم ابن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن أبى ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغضوب عليهم قال اليهود قلت الضالين قال النصارى وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم غير المغضوب عليهم هم اليهود ولا الضالين هم النصارى وقال الضحاك وابن جريج عن ابن عباس

الموت نفسا وما فارقها بالكلية فلم يتعلق بها لا تعلق تدبير ولا غيره عقلا ولا ريب ان النفس الناطقة قائمة بنفسها باقية بعد الموت منعمة أو معذبة كما دل على ذلك نصوص الكتاب والسنة واجماع سلف الامة وأئمتها ثم تعاد الى الابدان والمقصود هنا ان ما يثبتونه من العقليات اذا حققت لم يكن الا ما ثبت فى عقل الانسان ولهذا كان منتهى تحقيقهم الوجود المطلق وهو الوجود المشترك بين الموجودات وهذا انما يكون مطلقا فى الاذهان لا فى الاعيان والمتفلسفة يجعلون الكلى المشترك موضوع العلم الالهى وأما الوجود الواجب فتارة يقولون هو الوجود المقيد بالقيود السلبية كما يقوله ابن سينا وتارة يجعلونه المجرد عن كل قيد سلبى وثبوتى كما يقوله بعض الملاحدة من باطنية الرافضة والاتحادية وتارة يجعلونه نفس وجود الموجودات فلا يجعلون للممكنات وجودا غير الوجود الواجب وغايتهم أنهم يجعلون فى أنفسهم شيأ ويظنون ان ذلك موجود فى الخارج ولهذا يدهم الشياطين فان الشياطين تتصرف فى الخيال وتلقى فى خيالات الناس أمورا لا حقيقة لها ومحققوهؤلاء يقولون أرض الحقيقة هى أرض الخيال وأما ما أخبرت به الرسل صلوات الله عليهم من الغيب فهو أمور موجودة ثابتة أكمل وأعظم مما نشاهده نحن فى هذه الدار وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس ولكن بعد الموت وفى الدار الآخرة ويمكن ان يشاهدها فى هذه الدار من يختصه الله بذلك ليست عقلية قائمة بالعقل ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التى نشاهدها أن تلك غيب وهذه شهادة قال تعالى الذين يؤمنون بالغيب وكون الشئ غائبا وشاهدا أمر اضافى بالنسبة الينا فاذا غاب عنا كان غيبا واذا شاهدناه كان شهادة ليس هو فرقا يعود الى ان ذاته تعقل ولا نشاهد ولا تحس بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يشاهد بحال فانما يكون فى الذهن والملائكة يمكن ان يشاهدوا ويروا الرب تعالى ويمكن رؤيته بالابصار والمؤمنون يرونه يوم القيامة وفى الجنة كما تواترت النصوص فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم واتفق على ذلك سلف الامة وأئمتها وامكان رؤيته يعلم بالدلائل العقلية القاطعة لكن ليس هو الدليل الذى سلكه طائفة من أهل الكلام كأبى الحسن وأمثاله حيث ادعوا ان كل موجود يمكن رؤيته بل قالوا ويمكن ان يتعلق به الحواس الخمس السمع والبصر والشم والذوق واللمس فان هذا مما يعلم فساده بالضرورة عند جماهير العلماء وهذا من أغاليط بعض المتكلمين هذا

غير المغضوب عليهم اليهود ولا الضالين النصارى وكذلك قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقال ابن أبي حاتم ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافا وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من ان اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون الحديث المتقدم وقوله تعالى في خطابه مع بني اسرائيل في سورة البقرة بئس ما اشتروا به أنفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغيا ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين وقال في المائدة قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل وقال تعالى لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا لا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون وفي السيرة عن زيد بن عمرو ابن نفيل انه لما خرج هو وجماعة من أصحابه الى الشام يطلبون الدين الحنيف قالت له اليهود انك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله فقال أنا من غضب الله أفر وقالت له النصارى انك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال لا أستطيعه فاستمر على فطرته وجانب عبادة الاوثان ودين المشركين ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى واما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية لانهم وجدوه أقرب من دين اليهود اذ ذاك وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي رضي الله عنه *(مسئلة)* والصحيح من مذاهب العلماء انه يغتفر الاخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما وذلك ان الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الاضراس ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا مترقبا ولان كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم واما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد فلا اصل له والله أعلم *(فصل)* اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين وعلى ارشاده عبيده الى سؤاله والتضرع اليه والتبرئ من حولهم وقوتهم والى اخلاص العبادة له وتوحيده بالالوهية تبارك

(ويقيمون الصلوة) أي يداومون عليها والاقامة في الاصل الدوام والثبات وليس من القيام على الرجل وانما هو من قولك قام الحق أي ظهر وثبت واقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها في أوقاتها وحفظها من ان يقع فيها خلل في فرائضها وحدودها وزيغ في أفعالها واتمام أركانها والصلاة أصلها في اللغة الدعاء من صلى يصلي اذا دعا ذكر هذا الجوهري وغيره وقال قوم هي مأخوذة من الصلا وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العجب ذكر هذا القرطبي وهذا هو المعنى اللغوي وأما المعنى الشرعي فهو هذه الصلاة التي هي ذات الاركان والاذكار قال ابن عباس المراد به الصلوات الخمس وقال قتادة ان اقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها (ومما رزقناهم ينفقون) أي يخرجون ويتصدقون في طاعة الله وفي سبيله والرزق عند الجمهور ما صلح للانتفاع به حلالا كان أو حراما خلافا للمعتزلة فقالوا ان الحرام ليس برزق وللبحث في هذه المسئلة موضع غير هذا والانفاق اخراج المال من اليد وأنفق الشيء أنفده اخوان ولو استقريت الالفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالا على معنى الذهاب والخروج وفي المجيء من التبعيضية هنا نكتة سرية هي الارشاد الى ترك الاسراف والتبذير وتقديم المفعول للاهتمام به والمحافظة على رؤس الآي قال أبو بكر الباقلاني ذهب الاشاعرة كلهم الى نفي السجع عن القرآن وذهب كثير ممن خالفهم الى اثباته انتهى قال البقاعي الثاني فاسد وأطال في بيان ذلك بلا طائل والحق أنه في القرآن من غير التزام له في الاكثر وكائن من نفاه نفي التزامه أو أكثريته ومن أثبته أراد وروده فيه في الجملة فاحفظه ولا تلتفت لما سواه والذي عليه العلماء انه تطلق الفواصل عليه دون السجع قاله الخفاجي قال ابن عباس يعني زكاة أموالهم وعن قتادة يعني الانفاق في فرائض الله التي افترض عليهم في طاعته وسبيله كالزكاة والنذر وفي الجهاد وعلى النفس وقال ابن مسعود هي نفقة الرجل على أهله واختار ابن جرير ان الآية عامة في الزكاة والنفقات وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الاقارب وغيرهم وصدقة الفرض والنفل وعدم التصريح بنوع من الانواع التي يصدق عليها مسمى الانفاق يشعر أتم اشعار بالتعميم (والذين يؤمنون) أي يصدقون (بما أنزل اليك) المراد به ما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو القرآن باسره والشريعة عن آخرها والتعبير بالماضي مع كون بعضه

وتعالى وتنزيهه ان يكون له شريك أو نظير أو مماثل والى سؤالهم اياه الهداية الى الصراط المستقيم وهو الدين القويم وتنبيههم عليه حتى يقضى لهم بذلك الى جواز الصراط الحسية يوم القيامة المفضى بهم الى جنات النعيم فى جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين واشتمالها على الترغيب فى الاعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون وما أحسن ما جاء اسناد الانعام عليه فى قوله تعالى صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وحذف الفاعل فى الغضب فى قوله تعالى غير المغضوب عليهم وان كان هو الفاعل لذلك فى الحقيقة كما قال تعالى ألم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم الآية وكذلك اسناد الضلال الى من قام به وان كان هو الذى أضلهم بقدره كما قال تعالى من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وقال من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون الى غير ذلك من الآيات الدالة على انه سبحانه هو المنفرد بالهداية والاضلال لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم من ان العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحا فى الرد عليهم وهذا حال أهل الضلال والغى وقد ورد فى الحديث الصحيح اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم يعنى فى قوله تعالى فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فليس بحمد الله لمبتدع فى القرآن حجة صحيحة لان القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل منزها بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولا اختلاف لانه من عند الله تنزيل من حكيم حميد *(فصل)* يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين مثل يس ويقال أمين بالقصر أيضا ومعناه اللهم استجب والدليل على استحباب التامين ما رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال آمين مد بها صوته ولابى داود رفع بها صوته وقال الترمذى هذا حديث حسن وروى عن على وابن مسعود وغيرهم وعن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال آمين حتى يسمع من يليه من الصف الاول رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه فيرتج بها المسجد والدارقطنى

مترقبا لتغليب المحقق على المقدر أو لتنزيل ما فى شرف الوقوع منزلة الواقع قال القاضى الانزال نقل الشئ من أعلى الى أسفل وهو انما يلحق المعانى بتوسط لحوقه الذوات الحاملة لها قال الامام المراد من انزال القرآن ان جبريل عليه السلام فى السماء سمع كلام الله فنزل به على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يقال نزلت رسالة الامير من القصر والرسالة لا تنزل ولكن كان المستمع فى علو فنزل وأدى فى سفل وقول الامير لا يفارق ذاته اه قال الخفاجى وذهب بعض السلف الى أنه من المتشابه أى يجزم بالنزول من غير معرفة بكيفيته وهو الحق اذ مثل هذا من التدقيقات الفلسفية لا ينبغى ذكره فى التفسير اه حاصله قلت ويرد على مذهب بعض السلف ما ورد فى الاحاديث الصحيحة من بيان كيفية الوحى وبدئه وبه ترجم البخارى وهو أول باب عنون به كتابه الصحيح وقد نطق به القرآن ولا شك أن كلامه سبحانه المنزل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مسموع بالآذان مقروء بالالسنة محفوظ فى الصدور مكتوب فى المصاحف له حرف وصوت كما دلت عليه السنة المطهرة فى غير موضع من دواوين الاسلام وزبر الايمان وليس هذا موضع بسطه وسيأتى الكلام عليه تحت تفسير قوله تعالى حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير (وما أنزل من قبلك) وهو الكتب السالفة المنزلة على الانبياء من قبل كالتوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم وغيرها والايمان بالكل جملة فرض عين وبالقرآن تفصيلا فرض كفاية قيل هو مؤمنو أهل الكتاب وفيهم نزلت وقد رجح هذا ابن جرير ونقله السدى عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم وبقوله تعالى والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون والآية الاولى نزلت فى مؤمنى العرب وقيل ان الآيتين جميعا فى المؤمنين على العموم وعلى هذا فالجملة عطف على الجملة الاولى صفة للمتقين بعد صفة أو مرفوعة على الاستئناف أو عطف على المتقين والتقدير هدى لهم وللذين يؤمنون والحق ان هذه الآية فى المؤمنين كالتى قبلها وليس مجرد ذكر الايمان بما أنزل الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزل الى من قبله بمقتض لجعل ذلك وصفا لمؤمنى أهل الكتاب ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا ولا فى نظم القرآن ما يقتضى ذلك وقد ثبت الثناء على من جمع بين الامرين من المؤمنين فى غير آية فمن ذلك قوله يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب

وقال هذا اسناد حسن وعن بلال انه قال يارسول الله لا تسبقني بآمين رواه أبو داود ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق انهما شددا الميم من آمين مثل آمين البيت الحرام قال أصحابنا وغيرهم ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ويتأكد في حق المصلي وسواء كان منفردا أو اماما أو مأموما وفي جميع الاحوال لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أمن الامام فامنوا فانه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه ولمسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت احداهما الاخرى غفر له ما تقدم من ذنبه قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان وقيل في الاجابة وقيل في صفة الاخلاص وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعا اذا قال يعني الامام ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قلت يارسول الله ما معنى آمين قال رب افعل وقال الجوهري معنى آمين كذلك فليكن وقال الترمذي معناه لا تخيب رجاءنا وقال الاكثرون معناه اللهم استجب لنا وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن يساف ان آمين اسم من أسماء الله تعالى وروى عن ابن عباس مرفوعا ولا يصح قاله أبو بكر بن العربي المالكي وقال أصحاب مالك لا يؤمن الامام ويؤمن المأموم لما رواه مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال واذا قال يعني الامام ولا الضالين فقولوا آمين الحديث واستأنسوا أيضا بحديث أبي موسى عند مسلم واذا قرأ ولا الضالين فقولوا آمين وقد منا في المتفق عليه اذا أمن الامام فأمنوا وانه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن اذا قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين وقد اختلف أصحابنا لا نزاع في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية وحاصل الخلاف ان الامام ان نسي التأمين جهر المأموم به قولا واحدا وان أمن الامام جهرا فالجديد انه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة ورواية عن مالك لانه ذكر من الاذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة والقديم انه يجهر به وهو مذهب الامام أحمد بن حنبل والرواية الاخرى عن مالك لما تقدم حتى يرتج المسجد ولنا قول آخر ثالث انه ان كان المسجد صغيرا لم يجهر المأموم لانهم يسمعون قراءة الامام وان كان كبيرا جهر ليبلغ التامين من في ارجاء المسجد والله أعلم

الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل وقوله تعالى وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم وقوله تعالى آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقال والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم (وبالآخرة) أي بالدار الآخرة تأنيث الآخر الذي هو نقيض الاول كما أن الدنيا تأنيث الادنى غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الاسماء وهي صفة الدار بدليل قوله تعالى تلك الدار الآخرة وسميت آخرة لتأخرها عن الدنيا وكونها بعدها (هم يوقنون) الايقان اتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه قال في الكشاف فالمراد انهم يوقنون بالبعث والنشور وسائر أمور الآخرة من دون شك وفي تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير اشعار بالحصر وان ما عدا هذا الامر الذي هو أساس الايمان ورأسه ليس بمستأهل عندهم للايقان به والقطع بوقوعه وفيه تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب فان اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول الى مرتبة اليقين (أولئك) أي الذين هذه صفتهم وما فيه من البعد للاشعار ببعد درجتهم ورفعة مرتبتهم في الفضل وهو مبتدأ وخبره (على هدى من ربهم) أي على رشاد ونور وقيل على استقامة فحوها من عنده وأوتوها من قبله وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير والترقي الى الافضل فالافضل والابهام المفهوم من التنكير في هدى لكمال تفخيمه أي على هدى أي هدى لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره وهذا كلام مستأنف بياني ويمكن أن يكون خبرا عن الذين يؤمنون بالغيب فيكون متصلا بما قبله قال في الكشاف قوله على هدى مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه ونحوه هو على الحق وعلى الباطل وقد صرحوا بذلك في قوله جعل الغواية مركبا واعتلى الجهل واقتعد غارب الهوى اه وقال أبو السعود واير اد كلمة الاستعلاء على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للايذان بقوة تمكنهم منه وكمال رسوخهم فيه انتهى وقال الخفاجي الاستعارة في الحرف تبعية متعلقة وهو المعنى الكلي الشامل له كما حققوه والتمثيل ضرب المثل والاتيان بمثال ومطلق التشبيه والمركب منه وهذا ظاهر

وقد روى الامام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت عنده اليهود فقال انهم لن يحسدونا على شئ كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الامام آمين ورواه ابن ماجه ولفظه ما حسدتكم اليهود على شئ ما حسدتكم على السلام والتأمين وله عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما حسدتكم اليهود على شئ ما حسدتكم على قول آمين فاكثروا من قول آمين وفي اسناده طلحة بن عمرو وهو ضعيف وروى ابن مردويه عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت آمين في الصلاة وعند الدعاء لم يعط أحد قبلي الا أن يكون موسى كان موسى يدعو وهرون يؤمن فاختموا الدعاء بآمين فان الله يستجيبه لكم قلت ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة وهي قوله وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على ان هرون آمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى قد أجيبت دعوتكما فدل ذلك على ان من امن على دعاء فكأنما قاله فلهذا قال من قال ان المأموم لا يقرأ لان تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها ولهذا جاء في الحديث من كان له امام فقراءة الامام له قراءة رواه أحمد في مسنده وكان بلال يقول لا تسبقني بآمين يا رسول الله فدل هذا المنزع على ان المأموم لا قراءة عليه في الجهرية والله أعلم ولهذا قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن الحسن حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام حدثنا اسحق بن ابراهيم حدثنا جرير عن ليث عن ابن أبي سليم عن كعب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قال الامام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال آمين فوافق آمين أهل الارض آمين أهل السماء غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه ومثل من لا يقول آمين كمثل رجل غزا مع قوم فاقترعوا فخرجت سهامهم ولم يخرج سهمه فقال لم لم يخرج سهمي فقيل انك لم تقل آمين

(بسم الله الرحمن الرحيم) رب يسر وأعن يا كريم *(تفسير سورة البقرة)* *(ذكر ما ورد في فضلها)* قال الامام أحمد حدثنا

لا نزاع فيه وانما النزاع في الاستعارة التبعية هل تكون تمثيلية أم لا فذهب الفاضل المحقق الى جوازه متمسكا بما صرح العلامة في مواضع من كشافه كما صرح به هنا وقد سبقه اليه الطيبي وقال انه مسلك الشيخين الزمخشري والسكاكي ولم يرتضه المدقق في الكشف فأول ما في عباراتهم وتبعه فيه السيد وشنع على الفاضل حتى كأنه أبو عذرته وهي المعركة العظمى التي عقدت لها المجالس وصنفت فيها الرسائل مما هو أشهر من قنابل والحاصل ان استعارة على استعارة تبعية تستلزم كون الاستعلاء مشبها به وتركب الطرفين يستلزم ان لا يكون مشبها به فلا يجتمعان ومن الفضلاء من ردّه وانتصر للسعد سعد جدّه فقال هو ممنوع والحاصل انه يجري في الحرف التمثيل بمعنى انتزاع الحالة من الامور المتعددة ولا يجري فيه التشبيه في المفصل المركب قصدا والذي يخطر بالبال بعد طي شقة القيل والقال ان الخلاف بينهم في حرف واحد اذ لا خلاف في ان التمثيل التفصيلي المعروف يستدعي تركب الطرفين حقيقة وان التمثيل الآخر الذي هو محل النزاع هل يشترط فيه التركيب بعد الاتفاق على انه لا يلزم التصريح بأجزائه لفظا ولا تقديرا فذهب الشريف الى انه يشترط فيه أن تكون أجزاؤه مرادة منوية فلا يكون ما اقتصر عليه من الحرف ونحوه مما هو عمدة المعنى المجازي مستعملا في معنى مجازي بل حقيقة والا كان مجازا مفردا لا تمثيلا أو لا يشترط فيه ذلك بل يكفي تركب المأخذ المنتزع منه ذلك ويكون الحرف المذكور مع ما يدل عليه بالالتزام من طرفي التشبيه وما يتمم به متجوزا فيه والا لم يصح دخول على على الهدى كما مشى عليه السعد ومن مشى على جادته فالنزاع كاللفظي انتهى حاصله قلت وقد أطال المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام واختلف من بعدهم في ترجيح الراجح من القولين وقد جمع العلامة الشوكاني في ذلك رسالة مستقلة سماها الطود المنيف في ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف فليرجع اليها من أراد ان يتضح له المقام ويجمع بين أطراف الكلام على التمام وحاصلها ان الحق في جانب السعد وان الصواب بيده وقد تقدمه الى مثل هذا العلوي في حاشيته على الكشاف وليس للسعد فيه زيادة على ما يفيده كلام الزمخشري الا مجرد الايضاح ولم يأت بشئ من طرفه يستحق المؤاخذة عليه انتهى أقول فالحق اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية وذلك هو محل النزاع وقد اعترف الشريف بان المقام صالح لهما لكن ادعى

عارم حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل عن أبيه عن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا واستخرجت الله لا اله الا هو الحي القيوم من تحت العرش فوصلت بها او فوصلت بسورة البقرة ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة الا غفر له واقرؤها على موتاكم انفرد به أحمد وقد رواه أحمد أيضا عن عارم عن عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمي عن أبي عثمان وليس بالنهدي عن أبيه عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرؤها على موتاكم يعني يس فقد تبين بهذا الاسناد (٥٦) معرفة المبهم في الرواية الاولى وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة في الرواية الثانية أبو داود والنسائي وابن ماجه وقد روى الترمذي من حديث حكيم بن جبير وفيه ضعف عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شئ سنام وان سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي وفي مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تجعلوا بيوتكم قبورا فان البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان وقال الترمذي حسن صحيح وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام حدثني ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يخرج من البيت اذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه سنان ابن سعد ويقال بالعكس وثقه ابن معين واستنكر حديثه أحمد ابن حنبل وغيره وقال ابو عبيد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن أبي الاحوص عن عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال ان الشيطان ينفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة خطب ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث شعبة ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا أبو اسمعيل الترمذي حدثنا أيوب بن سليمان بن بلال حدثني أبو بكر بن أبي أويس عن سليمان بن بلال عن محمد بن عجلان عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ألفين أحدكم يضع احدى رجليه على الاخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرؤها فان الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة

امتناع اجتماعهما ويدل لك على ان الاستعارة التبعية تمثيلية الاستقراء وبه يشعر قول امام الفن السكاكي صاحب المفتاح وهذا صريح فيما صرح به السعد والله أعلم (وأولئك) في تكرير اسم الاشارة دلالة على ان كلا من الهداية الماضية والفلاح الآتي بحيث لو انفرد أحدهما لكفى مميزا على حياله (هم المفلحون) أي المنجحون الناجون الفائزون نجوا من النار وفازوا بالجنة والمفلحون الظافرون بالمطلوب والفلاح أصله في اللغة الشق والقطع قاله أبو عبيد قال القرطبي وقد يستعمل في الفوز والبقاء وهو أصله أيضا في اللغة فمعناه الفائزون بالجنة والباقون فيها وقال في الكشاف المفلح الفائز بالبغية كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه انتهى وقد استعمل الفلاح في السحور ومنه الحديث الذي رواه أبو داود حتى كاد يفوتنا الفلاح قلت ما الفلاح قال السحور وكان معنى الحديث ان السحور به بقاء الصوم فلهذا سمي فلاحا وضمير الفصل ويسمى عماد الله فوائد ذكرها الخفاجي منها الدلالة على اختصاص المسند اليه بالمسند دون غيره وقد ورد في فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث ثم ذكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من ذكر فريق الخير قاطعا لهذا الكلام عن الكلام الاول معنونا له بما يفيد ان شأن جنس الكفرة عدم اجداء الانذار لهم وانه لا يترتب عليه ما هو المطلوب منهم من الايمان وان وجود ذلك كعدمه فقال (ان الذين) التعريف للعهد أو للجنس والثاني أولى (كفروا) أي جحدوا وأنكروا وأصل الكفر في اللغة الستر والتغطية ومنه سمي الكافر كافرا لانه يغطي بكفره ما يجب أن يكون عليه من الايمان (سواء عليهم) أي متساو لديهم سواء اسم مصدر بمعنى الاستواء وارتفاعه على انه خبر لان (أأنذرتهم) أي خوفتهم وحذرتهم والانذار الابلاغ والاعلام مع التخويف فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرا قرئ بتحقيق الهمزتين وابدال الثانية الفا قال البيضاوي وهذا الابدال لحن ورد عليه علي القاري بان ما قاله تقليد للكشاف خطأ لان القراءة به متواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فانكارها كفر وتمام هذا البحث في الجمل (أم لم تنذرهم لا يؤمنون) اي لا يصدقون قال القرطبي واختلف العلماء في تاويل هذه الآية فقيل هي عامة ومعناها الخصوص فمن حقت عليه كلمة العذاب وسبق في علم الله انه يموت على كفره أراد الله تعالى أن يعلم الناس ان فيهم من هذا حاله دون ان يعين أحدا وقال ابن عباس والكلبي نزلت في رؤساء اليهود حيي بن

وان أصغر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن نصر عن أيوب بن سليمان به وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة الا خرج منه الشيطان وله ضراط وقال ان لكل شئ سناما وان سنام القرآن سورة البقرة وان لكل شئ لبابا وان لباب القرآن المفصل وروى أيضا من طريق الشعبي قال قال عبد الله ابن مسعود من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها وفي رواية لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا (٥٧) شئ يكرهه ولا يقرئن على مجنون الا أفاق وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل شئ سناما وان سنام القرآن البقرة وان من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ومن قرأها في بيته نهارا لم يدخله شيطان ثلاثة أيام رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم بن حبان في صحيحه وابن مردويه من حديث الازرق بن علي حدثنا حسان بن ابراهيم حدثنا خالد بن سعيد المدني عن أبي حازم عن سهل به وعند ابن حبان خالد ابن سعيد المديني وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر عن سعيد المقبري عن عطاء مولى أبي أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال ما معك يا فلان فقال معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة قال نعم قال اذهب فانت أميرهم فقال رجل من أشرافهم والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة الا اني خشيت ان لا أقوم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلموا القرآن واقرؤه فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه في كل مكان ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكي على مسك هذا لفظ رواية الترمذي ثم قال هذا حديث حسن ثم رواه من حديث الليث عن سعيد عن عطاء مولى أبي أحمد مرسلا فالله أعلم قال البخاري وقال الليث حدثني يزيد بن الهاد عن محمد بن ابراهيم عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده اذ جالت الفرس فسكت فقرأ فجالت الفرس فسكت

الخطب وكعب بن الاشرف ونظرائهما وقال الربيع بن أنس نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الاحزاب والاول أصح فان من عين أحدا فانما مثل عن كشف الغيب بموته على الكفر انتهى (ختم الله على قلوبهم) أي طبع الله عليها واستوثق فلا تعي خيرا ولا تفهمه والختم والكتم اخوان وأصل الختم مصدر معناه التغطية على الشئ والاستيثاق منه حتى لا يدخله شئ ولا يخرج منه ما حصل فيه ومنه ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك حتى لا يوصل الى ما فيه ولا يوضع فيه غيره فشبه هذا المعنى بضرب الخاتم على الشئ تشبيه معقول بمحسوس والجامع انتفاء القبول لمانع منع منه وكذا يقال في الختم على الاسماع واسناد الختم الى الله قد احتج به أهل السنة على المعتزلة وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما ذكره صاحب الكشاف والكلام على مثل هذا مقرر في مواطنه (وعلى سمعهم) أي مواضعه وانما وحد السمع مع جمع القلوب كما تقدم والابصار كما سيأتي لانه مصدر يقع على القليل والكثير أو لوحدة المسموع وهو الصوت وانما خص هذه الاعضاء بالذكر لانها طرق العلم فالقلب محله وطريقه اما السماع واما الرؤية (وعلى أبصارهم غشاوة) الغشاوة الغطاء وهذا البناء لما يشتمل على الشئ كالعصابة والعمامة ومنه غاشية السرج وهي غطاء التعامي عن آيات الله ودلائل توحيده قيل المراد بالختم والغشاوة ههنا هما المعنويان لا الحسيان ويكون الطبع والختم على القلوب والاسماع والغشاوة على الابصار كما قاله جماعة قال تعالى فان يشأ الله يختم على قلبك وقال ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة (ولهم عذاب عظيم) يعني في الآخرة وقيل الاسر والقتل في الدنيا والعذاب الدائم في العقبى والعذاب هو كل ما يؤلم الانسان وهو مأخوذ من الحبس والمنع يقال في اللغة أعذبه عن كذا حبسه ومنعه ومنه عذوبة الماء لانها حبست في الاناء حتى صفت وقيل هو الايجاع الشديد والعظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير فكان العظيم فوق الكبير كما أن الحقير دون الصغير ويستعملان في الجثث والاحداث جميعا (ومن الناس) جمع انسان أو اسم جمع لانسان قاله سيبويه والجمهور وأصله اناس وذهب الكسائي الى أنه اسم تام وقال سلمة كل من ناس وانا ناس مادة مستقلة والفرق بين الجمع واسم الجمع ان اسم الجمع مادل على ما فوق الاثنين ولم يكن على أوزان الجموع سواء كان له مفرد أولا ويشترط فيه أيضا أن لا يفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرة ولا

فسكنت ثم قرأ حالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريبا منها فاشفق ان تصيبه فلما اخذه رفع رأسه الى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ يا ابن حضير قال قد أشفقت يا رسول الله على يحيى وكان منها قريبا فرفعت رأسي وانصرفت اليه فرفعت رأسي الى السماء فاذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال وتدري ماذاك قال لا قال تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لاصبحت ينظر الناس اليها لا تتوارى منهم وهكذا رواه الامام العالم أبو عبيد القاسم ابن سلام في كتاب فضائل القرآن عن عبد الله (٥٨) بن صالح ويحيى بن بكير عن الليث به وقد روى من وجه آخر عن أسيد ابن حضير كما تقدم والله أعلم وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه وذلك فيما رواه أبو عبيد حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عمه جرير بن يزيد ان أشياخ أهل المدينة حدثوه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح قال فلعله قرأ سورة البقرة قال فسألت ثابتا فقال قرأت سورة البقرة وهذا اسناد جيد الا ان فيه ابهاما ثم هو مرسل والله أعلم

(ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران)

قال الامام أحمد حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول تعلموا سورة البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة قال ثم سكت ساعة ثم قال تعلموا سورة البقرة وآل عمران فانهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف وان القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفني فيقول ما أعرفك فيقول أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك وان كل تاجر من وراء تجارته وانك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتان لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بما كسينا هذا فيقال بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلا وروى ابن ماجه من حديث بشر ابن المهاجر بعضه وهذا اسناد حسن على شرط مسلم فان بشرا هذا خرج له مسلم ووثقه ابن معين وقال النسائي ما به بأس الا ان الامام

بالياء كزنج وزنجي فانه اسم جنس جمعي ويعرف باطراد تصغيره من غير رد الى المفرد وقد يراد باسم الجمع الجمع الوارد على خلاف القياس وهذا في عرف النحاة وأما أهل اللغة فاسم الجمع عندهم يسمى جمعا حقيقة ذكره الخفاجي سمي به لانه عهد اليه فنسي أو لانه يستأنس بمثله ولام التعريف فيه للجنس أو للعهد (من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) ذكر سبحانه في أول هذه السورة المؤمنين الخلص ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلص ثم ذكر ثالثا المنافقين في الآيات الثلاث عشرة وهم الذين لم يكونوا من احدى الطائفتين بل صاروا فرقة ثالثة لانهم وافقوا في الظاهر الطائفة الاولى وفي الباطن الطائفة الثانية ولذا نزل فيهم ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار قيل نزلت في عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وجد بن قيس وأصحابهم والمراد باليوم الآخر الوقت الذي لا ينقطع بل هو دائم أبدا وهو يوم القيامة (وما هم بمؤمنين) نفى عنهم الايمان بالكلية في جميع الازمنة كما تفيده الجملة الاسمية ففيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره (يخادعون الله) أي يخالفونه (والذين آمنوا) والخداع في أصل اللغة الفساد حكاه ثعلب عن ابن الاعرابي وقيل أصله الاخفاء حكاه ابن فارس وغيره والمراد أنهم صنعوا صنع الخادعين وان كان العالم الذي لا يخفى عليه شئ لا يخدع وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل والمراد بالمخادعة من الله انه لما أجرى عليهم أحكام الاسلام مع أنهم ليسوا منه في شئ فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه باظهار الاسلام وابطان الكفر مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه والمراد بمخادعة المؤمنين لهم هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الاسلام ظاهرا وان كانوا يعلمون فساد بواطنهم كما أن المنافقين خادعوهم باظهار الاسلام وابطان الكفر وقد يكون الخداع حسنا اذا كان الغرض منه استدراج الغير من الضلال الى الرشد ومن ذلك استدراجات التنزيل على لسان الرسل في دعوة الامم قاله الطيبي والآية من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبه حالهم في معاملتهم لله بحال المخادع مع صاحبه من حيث القبح أو من باب المجاز العقلي في النسبة الايقاعية وأصل التركيب يخادعون رسول الله أو من باب التورية حيث ذكر معاملتهم لله بلفظ الخداع والمراد بقوله (وما يخدعون الا أنفسهم) الاشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لانفسهم لان الخداع انما يكون مع من لا يعرف البواطن وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فانما يخدع نفسه وما يشعر

أحمد قال فيه هو منكر الحديث قد اعتبرت أحاديثه فاذا هي تاتي بالعجب وقال البخاري يخالف في بعض حديثه وقال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه ولا يحتج به وقال ابن عدي روى مالا يتابع عليه وقال الدارقطني ليس بالقوي (قلت) ولكن لبعضه شواهد فمن ذلك حديث أبي امامة الباهلي قال الامام أحمد حدثنا عبد الملك بن عمر حدثنا هشام عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلام عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اقرؤا القرآن فانه شافع لاهله يوم القيامة اقرؤا الزهراوين البقرة وآل عمران فانهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما (٥٩) فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة ثم قال اقرؤا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة وقد رواه مسلم في الصلاة من حديث معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام ممطور الحبشي عن أبي امامة صدي بن عجلان الباهلي به الزهراوان المنيرتان والغياية ما أظلك من فوقك والفرق القطعة من الشئ والصواف المصطفة المتضامة والبطلة السحرة ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها والله أعلم ومن ذلك حديث النواس بن سمعان قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر عن الوليد ابن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير قال سمعت النواس بن سمعان الكلابي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما ورواه مسلم عن اسحاق بن منصور عن يزيد ابن عبد ربه به والترمذي من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشي به وقال حسن غريب وقال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير قال قال حماد أحسبه عن أبي منيب عن عمه ان رجلا قرأ البقرة وآل عمران فلما قضى صلاته قال له كعب أقرأت البقرة وآل عمران قال نعم قال فوالذي نفسي بيده ان فيهما اسم الله الذي اذا دعي به استجاب قال فاخبرني به قال لا والله لا أخبرك به ولو أخبرتك به لا وشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن سليم

بذلك والمراد انهم يمنونها الامانى الباطلة وهى كذلك تمنيهم والنفس ذات الشئ وحقيقته ثم قيل للقلب والروح والدم والماء نفس والمراد بالانفس هنا ذواتهم أو قلوبهم ودواعيهم وآراؤهم (وما يشعرون) أى لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم قال أهل اللغة شعرت بالشئ فطنت قال فى الكشاف الشعور علم الشئ علم حس من الشعار ومشاعر الانسان حواسه وقيل الشعور ادراك الشئ من وجه يدق و يخفى من الشعر لدقته والاول أولى قال ابن عباس انهم المنافقون من الاوس والخزرج ومن كان على أمرهم عن ابن سيرين قال لم يكن عندهم شئ أخوف من هذه الآية (فى قلوبهم مرض) المرض كل ما يخرج به الانسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير فى أمر قاله ابن فارس وقيل هو الالم فيكون على هذا مستعارا للفساد الذى فى عقائدهم اما شكا ونفاقا أو جحدا وتكذيبا (فزادهم الله مرضا) أى كفرا ونفاقا والمراد بزيادة المرض الاخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من النعم و يتكرر له من من الله الدنيوية والدينية ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك وترادف الحسرة وفرط النفاق وفسر ابن عباس المرض بالشك والنفاق وقال ابن زيد هذا مرض فى الدين وليس مرضا فى الاجسام وقال عكرمة وطاوس المرض الرياء والقراء مجمعون على فتح الراء من مرض الا أبا عمرو فانه قرأ بالسكون (ولهم عذاب) أى نكال (أليم) أى مؤلم يخلص وجعه الى قلوبهم قال ابن عباس كل شئ فى القرآن أليم فهو الموجع انتهى ووصف به العذاب للمبالغة (بما كانوا يكذبون) أى يبدلون و يحرفون قاله ابن مسعود وقيل المعنى بتكذيبهم الله و رسوله فى السر وقيل بكذبهم اذ قالوا آمنا وهم غير مؤمنين والكذب هو الخبر عن الشئ على خلاف ما هو به وهو حرام كله لانه علل به استحقاق العذاب (واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض) يعنى المنافقين والقائل لهم هو الله أو الرسول أو المؤمنون والمعنى لا تفسدوا بالنفاق وموالاة الكفر وتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم و بالقرآن فانكم اذا فعلتم ذلك فسد ما فى الارض بهلاك الابدان وخراب الديار و بطلان الذرائع وخراب العالم كما هو مشاهد عند ثوران الفتن وهيج الحروب والتنازع والفساد خروج الشئ عن الحالة اللائقة به والاعتدال والصلاح ضده وكلاهما يعمان كل ضار ونافع (قالوا انما نحن مصلحون) يعنى يقولونه كذبا وانما من أدوات القصر كما هو مبين فى علم

ابن عامر انه سمع أبا امامة يقول ان أخالكم أرى فى المنام ان الناس يسلكون فى صدع جبل وعر طويل وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان يهتفان هل فيكم قارئ يقرأ سورة البقرة وهل فيكم قارئ يقرأ سورة آل عمران قال فاذا قال الرجل نعم دنتا منه باعذاقهما حتى يتعلق بهما فيخطران به الجبل وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن أبى عمران انه سمع أم الدرداء تقول ان رجلا ممن قرأ القرآن أغار على جار له فقتله وانه أقيد به فقتل فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم ان آل عمران انسلت منه وأقامت (٦٠) البقرة جمعة فقيل لها ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد قال فخرجت كأنها

السحابة العظيمة قال أبو عبيد أراه يعنى انهما كانتا معه فى قبره يدفعان عنه ويؤنسانه فكانتا من آخر ما بقى معه من القرآن وقال أيضا حدثنا أبو مسهر الغسانى عن سعيد ابن عبد العزيز التنوخى ان يزيد بن الاسود الجرشى كان يحدث انه من قرأ البقرة وآل عمران فى يوم برئ من النفاق حتى يمسى ومن قرأهما فى ليلة برئ من النفاق حتى يصبح قال فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه وحدثنا يزيد عن ورقاء ابن اياس عن سعيد بن جبير قال قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه من قرأ البقرة وآل عمران فى ليلة كان أو كتب من القانتين فيه انقطاع ولكن ثبت فى الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما فى ركعة واحدة (ذكر ما ورد فى فضل السبع الطوال) * قال أبو عبيد حدثنا هشام بن اسمعيل الدمشقى عن محمد بن شعيب عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى المليح عن واثلة بن الاسقع عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السبع مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الانجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور وفضلت بالمفصل هذا حديث غريب وسعيد بن أبى بشير فيه لين وقد رواه أبو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث عن سعيد بن أبى هلال قال بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره والله أعلم ثم قال حدثنا اسمعيل بن جعفر عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب عن حبيب بن هند الاسلمى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أخذ السبع فهو حبر وهذا أيضا غريب وحبيب بن هند بن اسماء بن هند بن حارثة الاسلمى وروى عنه عمرو بن عمرو وعبد الله بن أبى بكرة وذكره أبو حاتم الرازى ولم يذكر فيه جرحا فالله أعلم وقد رواه الامام أحمد

المعانى والصلاح ضد الفساد وهذا الجواب منهم رد للناصح على أبلغ وجه لانهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما فى قلوبهم من المرض (ألا انهم هم المفسدون) فى الارض بالكفر وهو أشد الفساد رد لما ادعوه أبلغ رد للاستئناف به وتصديره بحرف التأكيد وبالاحرف تنبيه ينبه بها المخاطب وهى المنبهة على تحقيق ما بعدها قال ابن مسعود الفساد هنا الكفر والعمل بالمعصية (ولكن لا يشعرون) وذلك لانهم يظنون ان ما هم عليه من النفاق وابطان الكفر صلاح وهو عين الفساد وقيل لا يشعرون ما أعد الله لهم من العذاب والاول أولى (واذا قيل لهم) أى للمنافقين (آمنوا) نصحوهم من وجهين أحدهما النهى عن الفساد وهو عبارة عن التخلى عن الرذائل وثانيهما الامر بالايمان وهو عبارة عن التحلى بالفضائل فان كمال الايمان بمجموع الامرين (كما آمن الناس) يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين والانصار وقيل الناس عبد الله بن سلام وأصحابه وما مصدرية أو كافة واللام للعهد أو للجنس واستدل به على قبول توبة الزنديق وأن الاقرار باللسان ايمان (قالوا) أى أجابوا بأحق جواب وأبعده عن الحق والصواب (أنؤمن كما آمن السفهاء) أى الجهال الهمزة للانكار واللام مشار بها الى الناس أو للجنس بأسره وهم مندرجون فيه نسبوا الى المؤمنين السفه استهزاء واستخفافا فاستجيبوا بذلك الى تسجيل الله عليهم بالسفه بأبلغ عبارة وآكد قول وحصر كما قال تعالى (ألا انهم هم السفهاء) أى الجهال وأصل السفه والسفاهة رقة الحلوم وفساد البصائر وسخافة العقول وخفة النهى وانما سمى الله المنافقين سفهاء لانهم كانوا عند أنفسهم عقلاء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء ورد أبلغ رد فى تجهيلهم (ولكن لا يعلمون) أنهم كذلك اما حقيقة أو مجازا تنزيلا لاصرارهم على السفه منزلة عدم العلم وانما ذكر العلم هنا والشعور فيما قبل لانه أكثر طباقا بذكر السفه والتمييز بين الحق والباطل يفتقر الى نظرة وفكرة والنفاق يدرك بأدنى تفطن وتأمل من قولهم وفعلهم عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود (واذا لقوا الذين آمنوا) أى المهاجرين والانصار ومعنى لقيه ولاقيته استقبلته قريبا (قالوا آمنا) كايمانكم (واذا خلوا الى شياطينهم) أى رجعوا اليهم قيل هو من الخلوة وقيل الى بمعنى الباء وقيل بمعنى مع وخلوت بفلان والبه اذا انفردت معه أو من خلا لذم أى مضى عنك ومنه القرون الخالية أو من خلوت به اذا سخرت منه وعدى بالى لتضمين معنى الانهاء والمراد بالشياطين رؤساؤهم

عن سليمان بن داود وحسين كلاهما عن اسمعيل بن جعفر به ورواه أيضا عن أبي سعيد عن سليمان بن بلال عن حبيب بن هند عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أخذ السبع الاول من القرآن فهو حبر قال أحمد وحدثنا حسين حدثنا ابن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله قال عبد الله بن أحمد وهذا أرى فيه عن أبيه عن الاعرج ولكن كذا كان في الكتاب فلا أدري أغفله أبي أو كذا هو مرسل وروى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثا وهم ذو عدد وقدم عليهم أحدثهم سنا لحفظه سورة البقرة ٦١ . وقال له اذهب فأنت أميرهم وصححه

رؤساؤهم وكهنتهم وقيل المراد بالشياطين المماثلون منهم للشياطين في التمرد والعناد المظهرون لكفرهم أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم (قالوا انا معكم) في الدين والاعتقاد أي انا مصاحبوكم في دينكم وموافقوكم عليه (انما نحن مستهزؤن) أي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بما نظهر لهم من الاسلام لنأمن من شرهم ونقف على سرهم ونأخذ من غنائمهم تاكيد لما قبله أو بدل منه أو استئناف قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه والهزء السخرية واللعب والاستخفاف يقال هزأت واستهزأت بمعنى وأصله الخفة وهو القتل السريع وهزأ يهزأ مات فجاءة وتهزأ به ناقته أي تسرع به وتخف والمراد رؤوسهم للاسلام ودفعهم للحق (الله يستهزئ بهم) أي ينزل بهم الهوان والحقارة وينتقم منهم ويستخف بهم انتصافا منهم لعباده المؤمنين وجزاء لاستهزائهم بهم فسمى الجزاء باسمه لانه في مقابلته وورد ذلك في القرآن كثيرا ومنه جزاء سيئة سيئة مثلها فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم والجزاء لا يكون سيئة والقصاص لا يكون اعتداء لانه حق ومنه ومكروا ومكر الله وانهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا وتعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك وهو في السنة كثير كقوله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله لا يمل حتى تملوا وانما قال الله يستهزئ بهم لانه يفيد التجدد وقتا بعد وقت وهو أشد عليهم وأنكى لقلوبهم وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الاسمية لانه يألفه ويوطن نفسه عليه قال ابن عباس يفتح لهم باب الجنة فاذا انتهوا اليه سد عنهم وردوا الى النار (ويمدهم) أي يتركهم ويمهلهم ويطيل لهم المدة كما قال انما نملي لهم ليزدادوا اثما والمد الزيادة قال يونس بن حبيب يقال مد في الشر وأمد في الخير ومنه وأمددناهم بأموال وبنين وأمددناهم بفاكهة وقال الاخفش مددت له اذا تركته وأمددته اذا أعطيته (في طغيانهم) أي في ضلالهم واصل الطغيان مجاوزة الحد ومنه انا لما طغى الماء والغلو في الكفر (يعمهون) أي يترددون في الضلالة متحيرين والعمه والعامه الحائر المتردد والعمه في القلب كالعمى في العين قال في الكشاف العمه مثل العمى الا ان العمى في البصر والرأي والعمه في الرأي خاصة انتهى فبينهما عموم وخصوص مطلقا (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) يعني المنافقين استبدلوا الكفر بالايمان وانما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعا على سبيل الاستعارة فالشراء ههنا مستعار

التومذي ثم قال أبو عبيد حدثنا هشيم أنا أبو بشر عن سعيد بن جبير في قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني قال هي السبع الطوال البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف ويونس قال وقال مجاهد هي السبع الطوال وهكذا قال مكحول وعطية بن قيس وأبو محمد الفارسي وشداد بن أوس ويحيى بن الحرث الذماري في تفسير الآية بذلك وفي تعدادها وان يونس هي السابعة *(فصل)* والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بها لكن قوله تعالى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الآية يقال انها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل وكان خالد بن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن قال بعض العلماء وهي مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهي وقال العادون آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان واحدى وعشرون كلمة وحروفها خمسة وعشرون ألفا وخمسمائة حرف فالله أعلم قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس نزلت بالمدينة سورة البقرة وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير قال نزلت بالمدينة سورة البقرة وقال الواقدي حدثني الضحاك بن عثمان عن أبي الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال نزلت البقرة بالمدينة وهكذا قال غير واحد من الائمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا الحسن بن علي بن الوليد الفارسي حدثنا خلف بن هشام حدثنا عيسى بن ميمون عن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة والتي يذكر فيها آل

عمران وكذا القرآن كله هذا حديث غريب لا يصح رفعه وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص وهو ضعيف الرواية لا يحتج به
وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود انه رمى الجمرة من بطن الوادي فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ثم قال هذا مقام الذي أنزلت
عليه سورة البقرة أخرجاه وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد قال رأى النبي صلى الله عليه
وسلم في أصحابه تأخرا فقال يا أصحاب سورة البقرة وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم يا أصحاب الشجرة
يعني أهل بيعة الرضوان وفي رواية يا أصحاب لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه وكذلك يوم
اليمامة مع أصحاب مسيلمة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة فجعل المهاجرون والانصار ينادون يا أصحاب سورة البقرة حتى
فتح الله عليهم رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين

(بسم الله الرحمن الرحيم الم)

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور فمنهم من قال هي مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع ابن خثيم واختاره أبو حاتم بن حبان ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء في معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انما هي أسماء السور قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره وعليه اطباق الاكثر ونقله عن سيبويه انه نص عليه ويعتضد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة الم السجدة وهل أتى على الانسان وقال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد انه قال الم وحم والمص ونص فواتح افتتح الله بها القرآن وكذا قال غيره عن مجاهد وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود عن شبل عن ابن أبي نجيح عنه انه قال الم اسم من أسماء القرآن وهكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ولعل هذا يرجع الى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انه اسم من أسماء السور فان كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فانه يبعد ان يكون المص اسما للقرآن كله لان المتبادر الى فهم سامع من يقول قرأت المص انما ذلك عبارة عن سورة الاعراف لا لمجموع القرآن والله اعلم وقيل هي اسم من أسماء الله تعالى فقال الشعبي فواتح السور من

للاستبدال كقوله تعالى فاستحبوا العمى على الهدى فاما ان يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا لان المنافقين لم يكونوا مؤمنين وما كانوا على الهدى فيبيعوا ايمانهم والعرب قد تستعمل ذلك في كل من استبدل شيأ بشيء وأصل الضلالة الحيرة والجور عن القصد وفقد الاهتداء ويطلق على النسيان ومنه قوله تعالى فعلتها اذا وانا من الضالين وعلى الهلاك كقوله تعالى اذا ضللنا في الارض والهدى التوجه الى القصد وقد استعير الاول للعدول عن الصواب في الدين والثاني للاستقامة عليه قال ابن عباس في الآية اشتروا الكفر بالايمان وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا وقال قتادة قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى الى الضلالة ومن الجماعة الى الفرقة ومن الامن الى الخوف ومن السنة الى البدعة (فما ربحت تجارتهم) أي ما ربحوا في تجارتهم وأصل الربح الفضل عن رأس المال والتجارة صناعة التاجر وأسند الربح اليها على عادة العرب في قولهم ربح بيعك وخسرت صفقتك وهو من الاسناد المجازي وهو اسناد الفعل الى ملابس للفاعل كما هو مقرر في علم المعاني والمراد بحوا وخسروا (وما كانوا مهتدين) أي مصيبين في تجارتهم لان رأس المال هو الايمان فلما أضاعوه واعتقدوا الضلالة فقد ضلوا عن الهدى وقيل في شرائهم الضلالة وقيل في سابق علم الله (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) المثل قول يشبه قولا آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره ولهذا ضرب الله الامثال في كتابه وهو أحد أقسام القرآن السبعة ولما ذكر حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان لانه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ولان المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية في الايضاح وشرطه أن يكون قولا فيه غرابة من بعض الوجوه واستوقد بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب فالسين والتاء زائدتان ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها (فلما أضاءت ما حوله) يعني النار والاضاءة فرط الانارة وفعلها يكون لازما ومتعديا (ذهب الله بنورهم) الذهاب زوال الشيء (وتركهم) أي ابقاهم وترك في الاصل بمعنى طرح وخلى (في ظلمات) جمع ظلمة والظلمة عدم النور (لا يبصرون) هذا المثل للمنافقين لبيان ما يظهرونه من الايمان مع ما يطمنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الاسلام كمثل المستوقد الذي اضاءت ناره ثم طفئت فانه يعود الى الظلمة ولا تنفعه تلك الاضاءة اليسيرة فكان بقاء المستوقد في ظلمات

أسماء الله تعالى وكذلك قال سالم بن عبد الله واسمعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير وقال شعبة عن السدى بلغنى ان ابن عباس قال الم اسم من أسماء الله الاعظم هكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث شعبة ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدى عن شعبة قال سألت السدى عن حم وطس والم فقال قال ابن عباس هى اسم الله الاعظم وقال ابن جرير وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو النعمان حدثنا شعبة عن اسمعيل السدى عن مرة الهمدانى قال قال عبد الله فذكر نحوه وحكى مثله عن على وابن عباس وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى وروى ٦٣ ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث ابن علية عن خالد الحذاء عن عكرمة أنه قال الم قسم ورويا أيضا من حديث شريك بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن أبى الضحى عن ابن عباس الم قال أنا الله أعلم وكذا قال سعيد بن جبير وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الم قال أما الم فهى حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى الم قال هذه الاحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الالسن كلها ليس منها حرف الا وهو مفتاح اسم من أسمائه وليس منها حرف الا وهو من آلائه وبلائه وليس منها حرف الا وهو فى مدة أقوام وآجالهم قال عيسى بن مريم عليه السلام وعجب فقال اعجب انهم ينطقون باسمائه ويعيشون فى رزقه فكيف يكفرون به فالالف مفتاح اسم الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد فالالف آلاء الله واللام لطف الله والميم مجد الله والالف سنة واللام ثلاثون سنة والميم أربعون سنة هذا لفظ ابن أبى حاتم ونحوه رواه ابن جرير ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الاقوال ويوفق بينها وانه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وان الجمع ممكن فهى أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته كما افتتح سورا كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه قال ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاته وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبى العالية لان الكلمة الواحدة تطلق على معانى كثيرة كلفظة الامة فانها تطلق ويراد بها الدين كقوله تعالى انا وجدنا آباءنا على أمة وتطلق ويراد

لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردده قال ابن عباس فى الآية نزلت فى المنافقين يقول مثلهم فى نفاقهم كمثل رجل أوقد نارا فى ليلة مظلمة فى مفازة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف فبيناهو كذلك اذ طفئت ناره فبقى فى ظلمة حائرا متخوفا فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الايمان وأمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وناكحوا المسلمين وقاسموهم فى الغنائم فذلك نورهم فلما ماتوا عادوا الى الظلمة والخوف وقيل ذهاب نورهم ظهور عقيدتهم للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل فى القبر أو على الصراط والاول أولى وانما وصفت هذه النار بالاضاءة مع كونها نارا بطل لان الباطل كذلك يسطع لهب ناره لحظة ثم تخفت ومنه قولهم للباطل صولة ثم يضمحل وقد تقرر عند علماء البلاغة ان لضرب الامثال شأنا عظيما فى ابراز خفيات المعانى ورفع أستار محجبات الدقائق ولهذا استكثر الله تعالى ذلك فى كتابه العزيز وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من ذلك فى مخاطباته ومواعظه قال ابن جرير وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت وقال تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا (صم) أى عن استماع الحق لانهم لا يقبلونه واذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه والصمم الانسداد (بكم) أى خرس عن النطق بالخير فهم لا يقولونه والابكم الذى لا ينطق ولا يفهم فاذا فهم فهو الاخرس وقيل الابكم والاخرس واحد (عمى) أى لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى والعمى ذهاب البصر كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا ان تنطق به ألسنتهم وان ينظروا اليه بعيونهم جعلوا كمن تعطلت حواسه وذهب أدراكه كما قال الشاعر

صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به * وان ذكرت بسوء كلهم أذن

(فهم لا يرجعون) أى عن ضلالتهم ونفاقهم (أو كصيب من السماء) أو حرف الشك لقصد التخيير بين المثلين أى مثلوهم بهذا أو هذا وهى وان كانت فى الاصل للشك فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوى من غير شك وقال الفراء وغيره انها بمعنى الواو والصيب المطر واشتقاقه من صاب يصوب اذا نزل وكل ما نزل من الاعلى الى الاسفل فهو صيب والسماء فى الاصل كل ما علاك فاظلك ومنه قيل لسقف البيت سماء والسماء أيضا المطر سمى بها

بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله تعالى وجد عليه أمة من الناس يسقون وقوله تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا وتطلق ويراد بها الحين من الدهر كقوله تعالى وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أي بعد حين على أصح القولين قال فكذلك هذا هذا حاصل كلامه موجها ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية فان أبا العالية زعم ان الحرف دل على هذا وعلى هذا معا ولفظة الامة وما اشبهها من الالفاظ المشتركة في الاصطلاح انما دل في القرآن في كل موطن على ٦٤ معنى واحد دل عليه سياق الكلام فاما حمله على مجموع محامله اذا أمكن فمسئلة

مختلف فيها بين علماء الاصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم ثم ان لفظة الامة تدل على كل من معانيها في سياق الكلام بدلالة الوضع فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الاضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم الا بتوقيف والمسئلة مختلف فيها وليس فيها اجماع حتى يحكم به وما أنشدوه من الشواهد على صحة اطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فان في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا كما قال الشاعر

قلنا قفي لنا فقالت قاف

لا تحسبي انا نسينا الايجاف

تعني وقفت وقال الآخر

ما للظليم عال كيف لايا

ينقد عنه جلده اذ ايا

فقال ابن جرير كأنه أراد أن يقول اذ يفعل كذا وكذا فاكتفى بالياء من يفعل وقال الآخر

بالخير خيرات وان شرا فا

ولا أريد الشر الا ان اتا

يقول وان شرا فشر ولا أريد الشر الا ان تشاء فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام والله أعلم اصطكت

قال القرطبي وفي الحديث من اعان على قتل مسلم بشطر كلمة الحديث قال سفيان هو ان يقول في اقتل اق وقال خصيف عن مجاهد انه قال فواتح السور كلها ق وص وحم وطسم والر وغير ذلك هجاء موضوع وقال بعض أهل العربية هي حروف من حروف المعجم استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تمة الثمانية والعشرين حرفا كما يقول القائل ابني يكتب في ا ب ت ث أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير * قلت مجموع الحروف

لنزوله منها واطلاق السماء على المطر واقع كثيرا في كلام العرب وقيل من السماء بعينها وانما ذكر الله تعالى من السماء وان كان المطر لا ينزل الا منها للرد على من زعم ان المطر ينعقد من ابخرة الارض فابطل مذهب الحكماء بقوله من السماء ليعلم ان المطر منها لا كما هو زعمهم الباطل (فيه ظلمات) أي في الصيب وبه قال جمهور المفسرين وقال السيوطي في السحاب وهو خلاف ظاهر نظم الآية وقيل في بمعنى مع وانما جمع الظلمات اشارة الى انه انضم الى ظلمة الليل ظلمة الغيم والمطر (ورعد) اسم لصوت الملك الذي يزجر السحاب وقد أخرج الترمذي من حديث ابن عباس قال سألت اليهود النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرعد ما هو قال ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث يشاء الله قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع قال زجره بالسحاب اذا زجره حتى ينتهي الى حيث أمر قالت صدقت الحديث بطوله وفي اسناده مقال وعلى هذا التفسير أكثر العلماء وقيل هو اضطراب أجرام السحاب عند نزول المطر منها والى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعا للفلاسفة وجهلة المتكلمين وقيل غير ذلك قال ابن عباس الرعد اسم ملك يسوق السحاب والبرق لمعان سوطه من نور يزجر به السحاب وقيل الرعد اسم ملك يزجر السحاب اذا تبددت جمعها وضمها فاذا اشتد غضبه يخرج من فيه النار فهي البرق (وبرق) النار التي تخرج منه أي مخراق بيد الملك الذي يسوق السحاب والبه ذهب كثير من الصحابة وجمهور علماء الشريعة للحديث السابق وقال بعض المفسرين تبعا للفلاسفة ان البرق ما ينقدح من اصطكاك أجرام السحاب المتراكمة من الابخرة المتصعدة المشتملة على جزء ناري يلهب عند الاصطكاك (يجعلون) أي أصحاب الصيب (أصابعهم في آذانهم من الصواعق) اطلاق الاصابع على بعضها مجاز مشهور والعلاقة الجزئية والكلية لان الذي يجعل في الاذن انما هو رأس الاصبع لا كلها والصواعق ويقال الصواقع هي قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذي يزجر السحاب عند غضبه وشدة ضربه لها ويدل على ذلك حديث ابن عباس المذكور قريبا وبه قال كثير من علماء الشريعة ومنهم من قال انها نار تخرج من فم الملك وقال الخليل هي الوقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه وقال أبو زيد الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد وقال بعض المفسرين تبعا للفلاسفة ومن قال بقولهم انها نار لطيفة تنقدح من السحاب اذا

المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفا وهى ا ل م ص ر ك ه ى ع ط س ح ق ن يجمعها قولك نص حكيم قاطع له سر وهى نصف الحروف عددا والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف قال الزمخشرى وهذه الحروف الاربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعنى من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة ومن المطبقة والمفتوحة ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف القلقلة وقد سردها مفصلة ثم قال فسبحان الذى دقت فى كل شئ حكمته وهذه الاجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها (٦٥) وقد علمت ان معظم الشئ وجله ينزل منزلة كله ومن ههنا لخص بعضهم فى هذا المقام كلاما فقال لاشك ان هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثا ولا سدى ومن قال من الجهلة ان فى القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيرا فتعين ان لها معنى فى نفس الامر فان صح لنا فيها عن المعصوم شئ قلنا به والا وقفنا حيث وقفنا وقلنا آمنا به كل من عند ربنا ولم يجمع العلماء فيها على شئ معين وانما اختلفوا فمن ظهر له بعض الاقوال بدليل فعليه اتباعه والا فالوقف حتى يتبين هذا مقام * المقام الآخر فى الحكمة التى اقتضت ايراد هذه الحروف فى أوائل السور ما هى مع قطع النظر عن معانيها فى أنفسها فقال بعضهم انما ذكرت ليعرف بها أوائل السور حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لان الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة وقال آخرون بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها اسماع المشركين اذ تواصوا بالاعراض عن القرآن حتى اذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه حكاه ابن جرير أيضا وهو ضعيف أيضا لانه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور لا يكون فى بعضها بل غالبها ليس كذلك ولو كان كذلك أيضا لانبغى الابتداء بها فى أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم ان هذه السورة والتى تليها أعنى البقرة وآل عمران مدنيتان ليستا خطابا للمشركين فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه وقال آخرون بل انما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور التى ذكرت فيها بيانا لاعجاز القرآن وان الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع انه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها وقد حكى هذا المذهب الرازى فى تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين وحكى القرطبى عن الفراء وقطرب نحو هذا

اصطكت أجرامها وسيأتى فى سورة الرعد ان شاء الله تعالى فى تفسير الرعد والبرق والصواعق ما له مزيد فائدة وايضاح وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا سمع صوت الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك أخرجه الترمذى وقال حديث غريب (حذر الموت) أى مخافة الهلاك والموت ضد الحياة (والله محيط بالكافرين) أى عالم بحالهم وقيل يجمعهم ويعذبهم والاحاطة الاخذ من جميع الجهات حتى لا يفوت المحاط به بوجه من الوجوه (يكاد البرق) أى يقرب يقال كاد يفعل ولم يفعل (يخطف أبصارهم) أى يختلسها والخطف استلاب الشئ والاخذ بسرعة (كلما أضاء لهم) يعنى البرق (مشوا فيه) أى فى اضاءته ونوره (واذا أظلم عليهم قاموا) أى وقفوا متحيرين (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) أى بصوت الرعد (وأبصارهم) بوميض البرق (ان الله على كل شئ قدير) أى هو الفاعل لما يشاء لا منازع له فيه والآية على عمومها بلا استثناء وفيه دليل على ان الحادث حال حدوثه والممكن حال بقائه مقدوران لا كما زعم المعتزلة من أن الاستطاعة قبل الفعل وهذا مثل آخر ضربه الله للمنافقين والمنافقون أصناف منهم من يظهر الاسلام ويبطل الكفر ومنهم من قال فيه النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان وورد بلفظ أربع وزاد واذا خاصم فجر وورد بلفظ اذا عاهد غدر وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين ان هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين (يا أيها الناس) لم يقع النداء فى القرآن بغير يا من الادوات والنداء فى الاصل طلب الاقبال والمراد به هنا التنبيه وأى مبنى على الضم فى محل نصب والناس نعت لأى على اللفظ وحركته اعرابية وحركة أى بنائية واستشكل رفع التابع مع عدم عامل الرفع والنداء على سبع مراتب نداء مدح كقوله يا أيها النبى ويا أيها الرسول ونداء ذم كقوله يا أيها الذين هادوا يا أيها الذين كفروا ونداء تنبيه كقوله يا أيها الانسان يا أيها الناس ونداء اضافة كقوله يا عبادى ونداء نسبة كقوله يا بنى آدم يا بنى اسرائيل ونداء تسمية كقوله يا داود يا ابراهيم ونداء تضيف كقوله يا أهل الكتاب قاله الكرخى قال ابن عباس يا أيها الناس خطاب لاهل مكة ويا أيها الذين آمنوا خطاب لاهل المدينة وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين والحق ان ما قاله ابن عباس أكثرى لا كلى فان

وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر واليه ذهب الشيخ الامام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية قال الزمخشري ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وانما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالصريح في أماكن قال وجاء منها على حرف واحد كقوله ص ن ق وحرفين مثل حم وثلاثة مثل الم وأربعة مثل المر والمص وخمسة مثل كهيعص وحمعسق لان أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ماهو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك قلت ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان اعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه الم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه المص كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين حم تنزيل من الرحمن الرحيم حمعسق كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله عزيز الحكيم وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب اليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم وأما من زعم انها دالة على معرفة المدد وانه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له وطار في غير مطاره وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته وهو ما رواه محمد بن اسحق بن يسار صاحب المغازي حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رياب قال مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة الم ذلك الكتاب لا ريب فيه فاتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه الم ذلك الكتاب لا ريب فيه فقال أنت سمعته قال نعم قال فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ألم يذكر أنك تتلو فيما انزل الله عليك الم ذلك الكتاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى فقالوا جاءك بهذا جبريل من عند الله فقال نعم قالوا لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم

البقرة والنساء والحجرات مدنيات وفاقا وقد قال في كل منها يا أيها الناس (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) قال ابن عباس وحدوا وكل ما ورد في القرآن من العبادة قيل معناه التوحيد وأصل العبادة غاية التذلل وقد تقدم تفسيرها والمعنى ابتدع خلقكم من غير مثال سبق وانما خص نعمة الخلق وامتن بها عليهم لان جميع النعم مترتبة عليها وهي أصلها الذي لا يوجد شيء منها بدونها وأيضا فالكفار يقرون بان الله هو الخالق ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فامتن عليهم بما يعترفون به فلا ينكرونه وفي أصل معنى الخلق وجهان أحدهما التقدير يقال خلقت الاديم للسقاء اذا قدرته قبل القطع الثاني الانشاء والاختراع والابداع (والذين من قبلكم) بالذات أو الزمان أي وخلقهم (لعلكم تتقون) ولعل أصلها الترجي والطمع والتوقع والاشفاق وذلك مستحيل على الله تعالى ولكنه لما كان في المخاطبة منه للبشر كان بمنزلة قوله لهم افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع وبهذا قال جماعة من أهل العربية منهم سيبويه وقيل بمعنى لام كي أي لتتقوا وبهذا قال جماعة منهم قطرب والطبري وقيل انها بمعنى التعرض للشيء كأنه قال متعرضين للتقوى واليه مال أبو البقاء وغيره (الذي جعل لكم الارض فراشا) أي خلق لكم الارض بساطا ووطاء مذللة ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها والحزن ما غلظ من الارض وجعل هنا بمعنى صير وجاء بمعنى صار وطفق وأوجد والتصيير يكون بالفعل تارة وبالقول والعقد أخرى والفراش وطاء يستقرون عليها واستدل به أكثر المفسرين على ان شكل الارض بسيط ليس بكري (والسماء بناء) أي سقفا مرفوعا قيل اذا تامل الانسان المتفكر في العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج اليه فالسماء مرفوعة كالسقف والارض مفروشة كالبساط والنجوم كالمصابيح والانسان كمالك البيت وفيه ضروب النبات المهياة لمنافعه وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه فيجب على الانسان المسخر له هذه الاشياء شكر الله تعالى عليها والسماء اسم جنس يقع على الواحد والمتعدد وقيل جمع سماة والبناء مصدر سمي به المبني بيتا كان أو قبة أو خباء وأصل البناء وضع لبنة على أخرى فجعل السماء كالقبة المضروبة عليهم والسقف للبيت الذي يسكنونه كما قال وجعلنا السماء سقفا محفوظا (وأنزل من السماء) يعني السحاب (ماء) يعني المطر (فاخرج به) أي بذلك الماء (من الثمرات) جمع ثمرة (رزقا لكم) والمعنى أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات وأنواعا من النبات ليكون ذلك متاعا

مامدة ملكه وما أجل أمته غيرك فقام حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه احدى وسبعون سنة أفتدخلون فى دين نبى انما مدة ملكه وأجل أمته احدى وسبعون سنة ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد هل مع هذا غيره فقال نعم قال ماذاك قال المص قال هذا أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه احدى وثلاثون ومائة سنة هل مع هذا يا محمد غيره قال نعم قال ماذاك قال الر قال هذا أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه احدى وثلاثون ومائتا سنة فهل مع هذا يا محمد قال نعم قال ماذا قال المر قال هذه أثقل وأطول الالف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان (٦٧) فهذه احدى وسبعون ومائتان ثم قال لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ماندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا ثم قال قوموا عنه ثم قال أبو ياسر لاخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الاحبار مايدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله احدى وسبعون واحدى وثلاثون ومائة واحدى وثلاثون ومائتان واحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع سنين فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون ان هؤلاء الآيات نزلت فيهم هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فهذا الحديث مدار على محمد بن السائب الكلبى وهو ممن لايحتج بما انفرد به ثم كان مقتضى هذا المسلك ان كان صحيحا ان يحسب ما لكل حرف من الحروف الاربعة عشر التى ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وان حسبت مع التكرر فاطم وأعظم والله أعلم (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) قال ابن جريج قال ابن عباس ذلك الكتاب أى هذا الكتاب وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وابن جريج ان ذلك بمعنى هذا والعرب تعارض بين اسمى الاشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر وهذا معروف فى كلامهم وقد حكاه البخارى عن معمر بن المثنى عن أبى عبيدة وقال الزمخشرى ذلك اشارة الى الم كما قال تعالى لافارض ولا بكر عوان بين ذلك وقال تعالى ذلكم حكم الله يحكم بينكم وقال ذلكم الله وأمثال ذلك مما اشير به الى ماتقدم ذكره والله أعلم وقد ذهب بعض المفسرين فيما حكاه القرطبى وغيره ان ذلك اشارة الى القرآن الذى وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بانزاله عليه أو التوراة أو الانجيل أو نحو ذلك فى أقوال عشرة وقد ضعف هذا المذهب كثيرون والله أعلم والكتاب القرآن ومن قال ان المراد بذلك الكتاب الاشارة الى

متاعا لكم ولعلفا لدوابكم الى حين وهو قادر على ان يوجد الاشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الاسباب والمواد ولكن له فى الانشاء مدرجا من حال الى حال صنائع وحكما يجد فيها الاولى الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك فى ايجادها دفعة (فلا تجعلوا لله أندادا) جمع ند وهو المثل والنظير وفى جعله جمع ند نظر (وأنتم تعلمون) بعقولكم ان هذه الاشياء والامثال لايصح جعلها انداد الله وانه واحد خالق لجميع الاشياء وانه لامثل له ولاند ولاضد وفى الآية دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى فى الادب المفرد والنسائى وابن ماجه وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال قال رجل للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ماشاء الله وشئت قال جعلتنى لله ندا ماشاء الله وحده وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاتقولوا ماشاء الله وشاء فلان قولوا ماشاء الله ثم شاء فلان وأخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال قلت يارسول الله أى الذنب أعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك (وان كنتم فى ريب) أى شك (٢) لان الله عليم بانهم شاكون (مما نزلنا على عبدنا) أى القرآن أنزله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه التفات من الغيبة الى التكلم للتفخيم لان قبله اعبدوا ربكم فكان حق المقام ان يقول مما نزل على عبده والعبد ماخوذ من التعبد وهو التذلل وعبدنا اضافة تشريف لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل التدريج والتنجيم (فأتوا بسورة) أى من سورة والسورة الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص سميت بذلك لانها مشتملة على كلماتها كاشتمال سور البلدة عليها وأقل ما تتألف منه السورة ثلاث آيات استدل به من قال انه يتعلق الاعجاز باقل من سورة ورد به على من قال من المعتزلة بانه يتعلق بجميع القرآن (من مثله) الضمير عائد على القرآن عند جمهور أهل العلم وقيل على التوراة والانجيل لان المعنى انها تصدق مافيه وقيل يعود على النبى صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى من بشر مثل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمى لايكتب ولايقرأ والاول أوجه وأولى ويدل عليه ان ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة فى التحدى وانما وقع الكلام فى المنزل لا فى المنزل عليه (وادعوا شهداءكم) جمع شهيد بمعنى الحاضر او القائم بالشهادة أو المعاون والمراد هنا الآلهة أى استعينوا بآلهتكم التى تعبدونها (من دون الله) وقيل المعنى وادعوا ناسا يشهدون لكم ومعنى

التوراة والانجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزع وتكلف مالا علم له به والريب الشك قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لاريب فيه لاشك فيه وقال أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع ابن أنس ومقاتل بن حيان والسدى وقتادة واسمعيل بن أبى خالد وقال ابن أبى حاتم لا أعلم فى هذا خلافا وقد يستعمل الريب فى التهمة قال جميل *بثينة قالت يا جميل (٦٨) أربتنى *فقلت كلانا يا بثين مريب واستعمل أيضا فى الحاجة كما قال بعضهم قضينا من تهامة كل ريب

وخيبر ثم أجمنا السيوفا

ومعنى الكلام هنا ان هذا الكتاب هو القرآن لاشك فيه انه نزل من عند الله كما قال تعالى فى السجدة الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين وقال بعضهم هذا خبر ومعناه النهى أى لاترتابوا فيه ومن القراء من يقف على قوله تعالى لاريب ويبتدئ بقوله تعالى فيه هدى للمتقين والوقف على قوله تعالى لاريب فيه أولى للآية التى ذكرناها ولانه يصير قوله تعالى هدى صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون فيه هدى وهدى يحتمل من حيث العربية ان يكون مرفوعا على النعت ومنصوبا على الحال وخصت الهداية للمتقين كما قال قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين الا خسارا الى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لانه هو فى نفسه هدى ولكن لاينال الا الابرار كما قال تعالى يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين وقد قال السدى حتى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هدى للمتقين يعنى نورا للمتقين وقال أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال هدى للمتقين قال هم المؤمنون الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعتى وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس للمتقين قال الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك مايعرفون من الهدى ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به وقال سفيان الثورى

دون ادنى مكان من الشئ واتسع فيه حتى استعمل فى تخطى شئ الى شئ آخر ومنه مافى هذه الآية وله معان أخر منها التقصير عن الغاية والحقارة والعرب تقول هذا دون ذلك أى أقرب منه (ان كنتم صادقين) فيما قلتم انكم تقدرون على المعارضة وهذا تعجيزا لهم وبيان لانقطاعهم أو ان محمدا صلى الله عليه وآله وسلم يقوله من تلقاء نفسه والاول أولى والصدق خلاف الكذب وهو مطابقة الخبر للواقع أو للاعتقاد أو لهما على الخلاف المعروف فى علم المعانى (فان لم تفعلوا) فيما مضى (ولن تفعلوا) ذلك فيما يأتى وتبين لكم عجزكم عن المعارضة وذلك ان النفوس الآبية اذا قرعت بمثل هذا التقريع استفرغت الوسع فى الاتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ولو قدروا على ذلك لاتوا به فحيث لم يأتوا بشئ ظهرت المعجزة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وبان عجزهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة والقرآن من جنس كلامهم وكانوا حراصا على اطفاء نوره وابطال أمره ثم مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة من أحدهم ورضوا بسبى الذرارى وأخذ الاموال والقتل واذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واذا كان الامر كذلك وجب ترك العناد وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها لانها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة فى أيام النبوة وفيما بعدها والى الآن وقد كرر الله سبحانه تحدى الكفار لهذا فى مواضع من القرآن منها هذا ومنها قوله تعالى فى سورة القصص قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين وقال فى سورة سبحان قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وقال فى سورة هود أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقال فى سورة يونس أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الاعجاز فى القرآن هو كونه فى الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر أو كان العجز عن المعارضة الصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه والحق الاول فان القرآن يأتى تارة بالقصة باللفظ الطويل ثم يعيدها باللفظ الوجيز ولايخل بالمقصود وانه فارقت أساليبه أساليب الكلام وأوزانه أوزان الاشعار والخطب والرسائل ولهذا تحدت العرب به فعجزوا عنه وتحيروا فيه واعترفوا بفضله وهم معدن البلاغة وفرسان الفصاحة

عن رجل عن الحسن البصري قوله تعالى للمتقين قال اتقوا ما حرم الله عليهم وأدوا ما افترض عليهم وقال أبو بكر بن عياش سألني الاعمش عن المتقين قال فاجبته فقال لي سل عنها الكلبي فسألته فقال الذين يجتنبون كبائر الاثم قال فرجعت الى الاعمش فقال يرى انه كذلك ولم ينكره وقال قتادة للمتقين هم الذين نعتهم الله بقوله الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة الآية والتي بعدها واختيار ابن جرير ان الآية تعم ذلك كله وهو كما قال وقد روى الترمذي وابن ماجه من رواية أبي عقيل عبد الله بن عقيل عن عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس عن عطية السعدي قال قال (٦٩) رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا لما به بأس ثم قال الترمذي حسن غريب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله ابن عمران عن اسحق بن سليمان يعني الرازي عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبي حمزة قال كنت جالسا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل قال بلى سمعته يقول يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد فينادي مناد أين المتقون فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر قلت من المتقون قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الاوثان وأخلصوا لله العبادة فيمرون الى الجنة ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الايمان وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد الا الله عز وجل قال الله تعالى انك لا تهدي من أحببت وقال ليس عليك هداهم وقال من يضلل الله فلا هادي له وقال من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا الى غير ذلك من الآيات ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والارشاد اليه قال الله تعالى وانك لتهدي الى صراط مستقيم وقال انما أنت منذر ولكل قوم هاد وقال تعالى وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وقال وهديناه النجدين على تفسير من قال المراد بهما الخير والشر وهو الارجح والله أعلم وأصل التقوى التوقي مما يكره لان أصلها وقوى من الوقاية قال النابغة

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه * فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر

فالفت فنا عادونه الشمس واتقت * باحسن موصولين كف ومعصم

وقد قيل ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن

حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أصله لمغدق وان أعلاه لمثمر والكلام في هذا مبسوط في مواطنه (فاتقوا النار) بالايمان بالله وكتبه ورسله والقيام بفرائضه واجتناب مناهيه وقيل المعنى فاحترزوا من انكار كونه منزلا من عند الله فانه مستوجب للعقاب بالنار (التي وقودها الناس والحجارة) أي حطبها والوقود بالفتح الحطب وبالضم التوقد وقيل كل من الفتح والضم يجري في الآلة والمصدر والمراد بالحجارة الاصنام التي كانوا يعبدونها لانهم قرنوا أنفسهم بها في الدنيا فجعلت وقود النار معهم ويدل على هذا قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقيل المراد بها حجارة الكبريت لانها أكثر التهابا قاله ابن عباس وقيل جميع الحجارة وفيه دليل على عظم تلك النار وقوتها وفي هذا من التهويل ما لا يقادر قدره من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة فاوقدت بنفس ما يراد احراقه بها (أعدت للكافرين) أي لمن كان مثل ما انتم عليه من الكفر قاله ابن عباس والمعنى جعلت عدة لعذابهم وهيئت لذلك وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية وقودها الناس والحجارة قال أوقد عليها ألف عام حتى احمرت وألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعا مثله وأخرج أحمد ومالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزأ من نار جهنم قالوا يا رسول الله ان كانت لكافية قال فانها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلهن مثل حرها وعن أبي هريرة قال أتروها حمراء مثل ناركم هذه التي توقدون انها لاشد سوادا من القار والآية دلت على انها مخلوقة الآن اذ الاخبار عن اعدادها بلفظ الماضي دليل على وجودها والا لزم الكذب في خبر الله تعالى فما زعمته المعتزلة من أنها تخلق يوم الجزاء مردود وتأويلهم بأنه يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق الوقوع ومثله كثير في القرآن مدفوع بأنه خلاف الظاهر ولا يصار اليه الا بقرينة والاحاديث الصحيحة المتقدمة تدفعه (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته وتثبيط

كعب عن التقوى فقال له أما سلكت طريقا ذا شوك قال بلى قال فما عملت قال شمرت واجتهدت قال فذلك التقوى وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال خل الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التقى واصنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى لا تحقرن صغيرة * ان الجبال من الحصى وأنشد أبو الدرداء يوما يريد المرء أن يؤتى مناه * ويأبى الله الا ما أرادا يقول المرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما استفادا وفى سنن ابن ماجه عن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استفاد المرء (٧٠) بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة ان نظر اليها سرته وان أمرها

عباده الكافرين عن معاصيه والتبشير الاخبار بما يظهر أثره على البشرة وهى الجلدة الظاهرة من البشر والسرور والمأمور بالتبشير قيل هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو كل أحد كما فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم بشر المشائين فى الظلم الى المساجد بالنور التام يوم القيامة والصالحات الاعمال المستقيمة والمراد هنا الاعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم وفيه رد على من يقول ان الايمان بمجرده يكفى فالجنة تنال بالايمان والعمل الصالح قيل هو ما كان فيه أربعة أشياء العلم والنية والصبر والاخلاص يعنى عن الرياء قاله عثمان (ان لهم جنات) جمع جنة وهى البساتين وانما سميت جنات لانها تجن من فيها أى تستره بشجرها أو تسترها بالاشجار والاوراق وقيل الجنة ما فيه نخل والفردوس ما فيه كرم وهى اسم لدار الثواب كلها وهى مشتملة على جنات كثيرة (تجرى) أى على ظهر الارض من غير حفيرة بل هى متماسكة بقدرة الله (من تحتها) أى تحت الجنات لاشتمالها على الاشجار أى من تحت أشجارها قال مسروق انها تجرى من غير أخدود الانهار جمع نهر وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات والمراد الماء الذى يجرى فيها الان الانهار لا تجرى وأسند الجرى اليها مجازا فالجارى حقيقة هو الماء كما فى قوله تعالى واسأل القرية التى كنا فيها أى أهلها والنهر يجوز فيه فتح الهاء وسكونها وكذا كل ما عينه حرف حلقى وجمع الاول أنهر وجمع الآخر أنهار واخرج ابن أبى حاتم وابن حبان والطبرانى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا) أى أطعموا من الجنة طعاما والمراد بثمرة النوع لا الفرد قاله سعد التفتازانى وأطال الكلام فيه (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فى الدنيا (وأتوا به متشابها) وصف آخر للجنات أو جملة مستأنفة والمراد انه شبيه ونظيره لا انه هو لان ذات الحاضر لا يكون عين ذات الغائب لاختلافهما وذلك ان اللون يشبه اللون وان كان الجسم والطعم والرائحة والمأدبة متخالفة والضمير فى به عائد الى الرزق وقيل المراد انهم أتوا بما يرزقونه فى الجنة متشابها فما يأتيهم فى أول النهار يشابه الذى يأتيهم فى آخره فيقولون هذا الذى رزقنا من قبل فاذا أكلوا وجدوا له طعما غير طعم الاول عن ابن عباس ليس فى الدنيا مما فى الجنة شئ الا الاسماء وعن الحسن فى قوله متشابها قال خيارا كله يشبه بعضه بعضا لا رذال فيه ألم تروا الى ثمار الدنيا

أطاعته وان أقسم عليها أبرته وان غاب عنها نصحته فى نفسها وماله (الذين يؤمنون بالغيب) قال أبو جعفر الرازى عن العلاء بن المسيب ابن رافع عن أبى اسحق عن أبى الاحوص عن عبد الله قال الايمان التصديق وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما يؤمنون يصدقون وقال معمر عن الزهرى الايمان العمل وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس يؤمنون يخشون قال ابن جرير والاولى أن يكونوا موصوفين بالايمان بالغيب قولا واعتقادا وعملا وقد تدخل الخشية لله فى معنى الايمان الذى هو تصديق القول بالعمل والايمان كلمة جامعة للايمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الاقرار بالفعل * قلت أما الايمان فى اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل فى القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين وكما قال اخوة يوسف لابيهم وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وكذلك اذا استعمل مقرونا مع الاعمال كقوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأما اذا استعمل مطلقا فالايمان الشرعى المطلوب لا يكون الا اعتقادا وقولا وعملا كيف هكذا ذهب اليه أكثر الائمة بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد اجماعا ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى ان الذين يخشون ربهم بالغيب وقوله من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب والخشية خلاصة الايمان والعلم كما قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال بعضهم يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين

واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن وقال اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون فعلى هذا يكون قوله بالغيب حالا أى فى حال كونهم غيبا عن الناس وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع الى ان الجميع مراد قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى يؤمنون بالغيب قال يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا غيب كله وكذا قال قتادة بن دعامة وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمذانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أما الغيب فغاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر فى القرآن وقال محمد ابن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بالغيب قال بما جاء منه يعنى من الله تعالى وقال سفيان الثورى عن عاصم عن ذر قال الغيب القرآن وقال عطاء بن أبى رباح من آمن بالله فقد آمن بالغيب وقال اسمعيل ابن أبى خالد يؤمنون بالغيب قال بغيب الاسلام وقال زيد بن أسلم الذين يؤمنون بالغيب قال بالقدر فكل هذه متقاربة فى معنى واحد لان جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الايمان به وقال سعيد ابن منصور حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا فذكرنا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به فقال عبد الله ان أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بينا لمن رآه والذى لا اله غيره ما آمن أحد قط ايمانا أفضل من ايمان بغيب ثم قرأ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب الى قوله المفلحون وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طرق عن الاعمش به وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وفى معنى هذا الحديث الذى رواه أحمد حدثنا أبو المغيرة نا الاوزاعى حدثنى أسد بن عبد الرحمن عن خالد بن دريك عن بن محيريز قال قلت لابى جمعة حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم أحدثك حديثا جيدا تغدينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال يا رسول الله هل أحد خير منا أسلمنا معك وجاهدنا معك قال نعم قوم

كيف تزدلون بعضه وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبزقون يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس طعامهم جشاء ورشحهم كرشح المسك وفى لفظ ورشحهم المسك اخرجه مسلم والمعنى ان فضول طعامهم يخرج فى الجشاء وهو تنفس المعدة والرشح العرق (ولهم فيها أزواج مطهرة) أى فى الجنات من الحور العين المطهرة من البول والغائط والحيض والولد وسائر الاقذار وقيل هن عجائز الدنيا الغمص العمش طهرن من قذرات الدنيا وقيل طهرن من مساوى الاخلاق والمعنى انه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قذر الحيض والنفاس والغائط والبزاق والنخامة وسائر الادناس التى لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا والازواج جمع زوج وهو ما يكون معه آخر فيقال زوج للرجل والمرأة وزوجة بالتاء قليل وانها لغة تميم قاله الفراء والزوج أيضا الصنف والتثنية زوجان والطهارة النظافة (وهم فيها خالدون) أى ماكثون أبدا والخلد والخلود البقاء الدائم الذى لا ينقطع وقد يستعمل مجازا فيما يطول دام أو لم يدم والمراد هنا الاول لما يشهد له الآيات والاحاديث والمعنى لا يخرجون منها ولا يموتون وعن ابن عباس فى قوله وهم فيها خالدون قال يخبرهم ان الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له وعن سعيد بن جبير خالدون يعنى لا يموتون وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت يا أهل الجنة لا موت كل خالد فيما هو فيه وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو قيل لاهل النار انكم ماكثون فى النار عدد كل حصاة فى الدنيا لفرحوا ولو قيل لاهل الجنة انكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الابد وقد أخرج ابن ماجه وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة والبزار وابن أبى حاتم وابن حبان والبيهقى وابن مردويه عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا هل مشمر للجنة فان الجنة لا خطر لها هى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام فى أبد فى دار سليمة وفاكهة خضراء الحديث والاحاديث فى وصف الجنة كثيرة جدا ثابتة فى الصحيحين وغيرهما وكذلك فى صفات نساء أهل الجنة مما لا يتسع المقام لبسطه فلينظر فى

من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني * طريق أخرى قال أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا اسمعيل عن عبد الله ابن مسعود حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا معاوية بن صالح عن صالح بن جبير قال قدم علينا أبو جمعة الانصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيت المقدس يصلي فيه ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة رضي الله عنه فلما انصرف خرجنا نشيعه فلما أراد الانصراف قال ان لكم جائزة وحقا أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا هات رحمك الله قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة فقلنا يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا آمنا بالله واتبعناك قال ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا مرتين ثم رواه من حديث ضمرة بن ربيعة عن مرزوق بن نافع عن صالح بن جبير عن أبي جمعة بنحوه وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوجادة التي اختلف فيها أهل الحديث كما قررته في أول شرح البخاري لانه مدحهم على ذلك وذكرانهم أعظم أجرا من هذه الحيثية لاطلاقا وكذا الحديث الآخر الذي رواه الحسن بن عرفة العبدي حدثنا اسمعيل بن عياش الحمصي عن المغيرة بن قيس التميمي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الخلق عجب اليكم ايمانا قالوا الملائكة قال ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم قالوا فالنبيون قال ومالهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم قالوا فنحن قال وما لكم لا تؤمنون وانا بين أظهركم قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ان أعجب الخلق الى ايمانا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفا فيها كتاب يؤمنون بما فيها قال أبو حاتم الرازي المغيرة بن قيس البصري منكر الحديث (قلت) ولكن قد روى أبو يعلى في مسنده وابن مردويه في تفسيره والحاكم في مستدركه من حديث محمد بن ابي حميد وفيه ضعف عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله أو نحوه وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعا والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن محمد المسندي حدثنا اسحق بن ادريس أخبرني ابراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الانصاري أخبرني جعفر بن محمود عن جدته بديلة

أدواء الاسلام وقد ألف الحافظ محمد بن أبي بكر القيم الجوزي كتابا في أحوال الجنة سماه حادي الارواح الى بلاد الافراح لم يؤلف في الاسلام قبله مثله وهو أجمع ما جمع في هذا الباب وقد لخصته بحذف الزوائد والاسانيد وسميته مثير ساكن الغرام الى روضات دار السلام فليرجع اليه وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صفات أهل الجنة في الصحيحين وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة ان أهل الجنة لا يبصقون ولا يتمخطون ولا يتغوطون (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة) أنزل الله هذه الآية ردا على الكفار لما أنكروا ما ضرب به سبحانه من الامثال كقوله مثلهم كمثل الذي استوقد نارا وقوله أو كصيب من السماء فقالوا ان الله أجل وأعلى من أن يضرب الامثال وقد قال الرازي انه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا أورد ههنا شبهة أوردها الكفار قدحا في ذلك وأجاب عنها وتقرير الشبهة انه جاء في القرآن ذكر النحل والعنكبوت والنمل وهذه الاشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فاشتمال القرآن عليها يقدح في فصاحته فضلا عن كونه معجزا وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الاشياء لا يقدح في الفصاحة اذا كان ذكرها مشتملا على حكمة بالغة انتهى ولا يخفى ان تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه وارجاع الانكار الى مجرد الفصاحة لا مستند له ولا دليل عليه وقد تقدمه الى شئ من هذا صاحب الكشاف والظاهر ما ذكرناه أولا لكون هذه الآية جاءت بعقب المثلين اللذين هما مذكوران قبلها ولا يستلزم استنكارهم لضرب الامثال بالاشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قادحا في الفصاحة والاعجاز والحياء تغير وانكسار يعتري الانسان من تخوف ما يعاب به ويذم كذا في الكشاف وتبعه الرازي في مفاتيح الغيب وقال القرطبي الاستحياء الانقباض عن الشئ والامتناع منه خوفا من مواقعة القبيح وهذا محال على الله انتهى وقد اختلفوا في تأويل ما في هذه الآية من ذكر الحياء فقيل ساغ ذلك لكونه واقعا في الكلام المحكي عن الكفار وقيل هو من باب المشاكلة كما تقدم وقيل هو جار على سبيل التمثيل وضرب المثل اعتماده وصنعه والبعوض صغار البق الواحدة بعوضة سميت بذلك لصغرها قاله الجوهري وغيره وهو من عجيب خلق الله في غاية الصغر شديد اللسع وله ستة أرجل وأربعة أجنحة وله ذنب وخرطوم مجوف وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية (فما فوقها) يعني الذباب والعنكبوت وما هو أعظم

بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد ايلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام قال ابراهيم فحدثني رجال من بني حارثة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك قال أولئك قوم آمنوا بالغيب هذا حديث غريب من هذا الوجه (ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) قال ابن عباس ويقيمون الصلاة أي يقيمون الصلاة بفروضها وقال الضحاك عن ابن عباس اقامة الصلاة اتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والاقبال عليها فيها وقال قتادة اقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال مقاتل بن حيان اقامتها المحافظة على مواقيتها واسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهذا اقامتها وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس ومما رزقناهم ينفقون قال زكاة أموالهم وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومما رزقناهم ينفقون قال نفقة الرجل على أهله وهذا قبل ان تنزل الزكاة وقال جويبر عن الضحاك كانت النفقات قربانا يتقربون بها الى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات هن الناسخات المثبتات وقال قتادة ومما رزقناهم ينفقون فانفقوا مما أعطاكم الله هذه

أعظم منهما في الجثة قال الكسائي والفراء الفاء هنا بمعنى الى وقيل معناه فما دونها وأصغر منها وهذا القول أشبه بالآية لان الغرض بيان ان الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الصغير الحقير وقد ضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلا للدنيا بجناح البعوضة وهو أصغر منها وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات فقيل هو أحقر من ذرة وأجمع من نملة وأطيش من فراشة وألح من ذبابة (فأما الذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن (فيعلمون أنه) يعني ضرب المثل (الحق) أي الثابت الواقع موقعه وهو المقابل للباطل والحق واحد الحقوق والمراد هنا الاول وقد اتفق المسلمون على انه يجوز اطلاق هذا اللفظ على الله سبحانه (من ربهم) لا يجوز انكاره لان ضرب الامثال من الامور المستحسنة في العقل وعند العرب (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي بهذا المثل والارادة نقيض الكراهة وقيل هي نزوع أي اشتياق النفس وميلها الى فعل بحيث يحملها عليه أو هي قوة هي مبدأ النزوع والاول مع الفعل والثاني قبله وارادته سبحانه ترجيح أحد مقدوريه على الآخر بالايقاع أو معنى يوجب هذا الترجيح والارادة صفة له ذاتية قديمة زائدة على العلم (يضل به كثيرا) أي من الكفار وذلك انهم يكذبونه فيزدادون به ضلالا (ويهدي به كثيرا) يعني المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه حق وهو كالتفسير للجملتين السابقتين المصدرتين بأما فهو خبر من الله سبحانه وقيل هو حكاية لقول الكافرين كانهم قالوا ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس الى ضلالة والى هدى وليس هذا بصحيح فان الكافرين لا يقرون بان في القرآن شيأ من الهداية ولا يعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة وقد أطال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال المذكور هنا وفي نسبته الى الله سبحانه وقد نقح الرازي في تفسيره في هذا الموضع تنقيحا نفيسا وجوده وطوله واوضح فروعه وأصوله فليرجع اليه فانه مفيد جدا وأما صاحب الكشاف فقد اعتمد هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره فجعل اسناد الاضلال الى الله سبحانه لكونه سببا فهو من الاسناد المجازي الى ملابس للفاعل الحقيقي وحكى القرطبي عن أهل الحق من المفسرين ان المراد بقوله يضل يخذل (وما يضل به الا الفاسقين) يعني الكافرين وقيل المنافقين وقيل اليهود ولا خلاف في ان هذا من كلام الله سبحانه قاله القرطبي فيه دلالة لمذهب أهل السنة أن الهدى والضلال من الله والفسق

 الاموال عوار وودائع عند ملائها ابن آدم يوشك ان تفارقها واختار ابن جرير ان الآية عامة في الزكاة والنفقات فانه قال وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم ان يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين زكاة كانت ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك لان الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الانفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه (قلت) كثيرا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والانفاق من الاموال فان الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال اليه ودعائه والتوكل عليه والانفاق هو من الاحسان الى المخلوقين

بالنفع المتعدّى اليهم وأولى الناس بذلك القرابات والاهلون والمماليك ثم الاجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون ولهذا ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والاحاديث فى هذا كثيرة وأصل الصلاة فى كلام العرب الدعاء قال الاعشى

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها * وان ذبحت صلى عليها وزمزما

وقال أيضا وقابلها الريح فى دنها * وصلى على دنها وارتسم

(٧٤)

انشدهما ابن جرير مستشهدا على ذلك وقال الآخر وهو الاعشى أيضا

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا
يارب جنب أبى الاوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى
نوما فان لجنب المرء مضطجعا

يقول عليك من الدعاء مثل الذى دعيته لى وهذا ظاهر ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والافعال المخصوصة فى الاوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة قال ابن جرير وأرى ان الصلاة سميت صلاة لان المصلى يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه من حاجاته وقيل هى مشتقة من الصلوين اذا تحركا فى الصلاة عند الركوع والسجود وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفان عجب الذنب ومنه سمى المصلى وهو التالى للسابق فى حلبة الخيل وفيه نظر وقيل هى مشتقة من الصلى وهو الملازمة للشئ من قوله تعالى لا يصلاها أى لا يلزمها ويدوم فيها الا الاشقى وقيل مشتقة من تصلية الخشبة فى النار لتقوم كما ان المصلى يقوم وجهه بالصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر واشتقاقها من الدعاء أصح لزوم وأشهر والله أعلم وأما الزكاة فسيأتى الكلام عليها فى موضعه ان شاء الله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) قال ابن عباس والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك أى يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاؤهم به من ربهم وبالآخرة هم يوقنون أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان وانما سميت الآخرة لانها بعد الدنيا وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هنا هل هم الموصوفون

الخروج عن الشئ ذكر معنى هذا الفراء وقد زعم ابن الاعرابى انه لم يسمع قط فى كلام الجاهلية ولا فى شعرهم فاسق وهذا مردود عليه فقد حكى ذلك عن العرب وانه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس والجوهرى وابن الانبارى وغيرهم وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال خمس فواسق الحديث وقال فى الكشاف الفسق الخروج عن القصد ثم قال والفاسق فى الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة اه وقال القرطبى الفسق فى عرف الاستعمال الشرعى الخروج عن طاعة الله عز وجل فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان اه وهذا هو أنسب للمعنى اللغوى ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض قال الرازى فى تفسيره واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن أو كافر فعند أصحابنا هو مؤمن وعند الخوارج انه كافر وعند المعتزلة انه لا مؤمن ولا كافر واحتج المخالف بقوله بئس الاسم الفسوق بعد الايمان وقوله ان المنافقين هم الفاسقون وقوله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان وهذه المسئلة طويلة مذكورة فى علم الكلام اه (الذين ينقضون عهد الله) النقض افساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد والنقاضة ما نقض من حبل الشعر وقيل أصل النقض الفسخ وفك المركب والمعنى متقارب والمعنى يتركون ويخالفون واصل العهد حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال والعهد قيل هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره وهو قوله ألست بربكم قالوا بلى وقيل هو وصية الله الى خلقه وأمره اياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه اياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألسن رسله ونقضهم ذلك ترك العمل به وقيل بل هو نصب الادلة على وحدانيته بالسموات والارض وسائر مخلوقاته ونقضه ترك النظر فيه وقيل هو ما عهده الى الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس (من بعد ميثاقه) الضمير للعهد أو لله تعالى قاله السمين وعلى الاول مصدر مضاف الى المفعول وعلى الثانى مضاف للفاعل ومن لابتداء الغاية فان ابتداء النقض بعد الميثاق والميثاق العهد المؤكد باليمين مفعال من الوثاقة وهى الشدة فى العقد والربط جميعا والجمع المواثيق والمياثيق واستعمال النقض فى ابطال العهد على سبيل الاستعارة (ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل) القطع معروف والمصدر فى الرحم القطيعة واختلفوا ما هو الشئ الذى أمر الله بوصله فقيل الارحام وموالاة المؤمنين وقيل وصل القول بالعمل

بما تقدم من قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ومن هم على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير أحدها ان الموصوفين أولاهم الموصوفون ثانيا وهم كل مؤمن مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم قاله مجاهد وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والثانى هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات كما قال تعالى سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء احوى وكما قال الشاعر

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم (٧٥) فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد

والثالث أن الموصوفين أولا مؤمنو العرب والموصوفون ثانيا بقوله والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون لمؤمنى أهل الكتاب نقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واختاره ابن جرير رحمه الله ويستشهد لما قال بقوله تعالى وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله الآية وبقوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وبما ثبت فى الصحيحين من حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ومن بى ورجل مملوك ادى حق الله وحق مواليه ورجل أدب جاريته فاحسن تاديبها ثم أعتقها وتزوجها

لزوم الجماعات المفروضة وقيل أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب البعض الآخر وقيل المراد به حفظ شرائعه وحدوده التى أمر فى كتبه المنزلة على ألسن رسله بالمحافظة عليها وقيل سائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر فانه يقطع الوصلة بين الله وبين عبده فهى عامة وبه قال الجمهور وهو الحق والامر هو القول الطالب للفعل وقيل مع العلو وقيل مع الاستعلاء وبه سمى الامر الذى هو واحد الامور تسمية للمفعول به بالمصدر فانه مما يؤمر به (ويفسدون فى الارض) يعنى بالمعاصى وتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التى بها نظام العالم وصلاحه فالمراد بالفساد فى الارض الافعال والاقوال المخالفة لما أمر الله به كعبادة غيره والاضرار بعباده وتغيير ما أمر بحفظه وبالجملة فكل ما خالف الصلاح شرعا أو عقلا فهو فساد وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء والقطع بالوصل كان عملهم فسادا لما نقصوا أنفسهم من الفلاح والربح عن قتادة قال ما نعلم الله أوعد فى ذنب ما أوعد فى نقض هذا الميثاق فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه فليوف به لله وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أحاديث ثابتة فى الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة النهى عن نقض العهد والوعيد الشديد عليه (أولئك هم الخاسرون) أى المغبونون باهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الابدية وأصل الخسار والخسران النقصان والخاسر هو الذى نقص نفسه من الفلاح والفوز قال مقاتل الخاسرون هم أهل النار وقال ابن عباس كل شئ نسبه الله الى غير أهل الاسلام مثل خاسر ومسرف وظالم ومجرم وفاسق فانما يعنى به الكفر وما نسبه الى أهل الاسلام فانما يعنى به الذم (كيف) هو للسؤال عن الاحوال والمراد هنا الاحوال التى يقع عليها الكفر على الطريق البرهانى من العسر واليسر والسفر والاقامة والكبر والصغر والعز والذل وغير ذلك وهذا الاستفهام هو للانكار عليهم والتعجيب من حالهم وفيه تبكيت وتعنيف لهم (تكفرون بالله) بعد نصب الدلائل ووضع البراهين الدالة على وحدانيته والخطاب على طريقة الالتفات ثم ذكر الدلائل فقال (وكنتم أمواتا) يعنى نطفا فى أصلاب آبائكم وعلقا ومضغا (فاحياكم) يعنى فى الارحام بنفخ الروح وفى الدنيا (ثم يميتكم) أى عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) بالنشور يوم نفخ الصور واختلف المفسرون فى ترتيب هاتين الموتتين

وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال الا بما لا مناسبة وهى ان الله وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين فكما انه صنف الكافرين الى صنفين كافر ومنافق فكذلك المؤمنون صنفهم الى صنفين عربى وكتابى (قلت) والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى عن رجل عن مجاهد ورواه غير واحد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد انه قال أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين وآيتان فى نعت الكافرين وثلاثة عشر فى المنافقين فهذه الآيات الاربع عامات فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى وكتابى من انسى وجنى وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الاخرى بل كل واحدة مستلزمة للاخرى وشرط معها فلا يصح الايمان بالغيب

واقام الصلاة والزكاة الامع الايمان بما جاءه الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والايقان بالآخرة كما ان هذا لا يصح الا بهذا وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل الآية وقال تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد الآية وقال تعالى يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم وقال تعالى قل يا أهل الكتاب (٧٦) لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقال تعالى والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم الى غير ذلك من الآيات الدالة على جميع أمر المؤمنين بالايمان بالله ورسله وكتبه لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية وذلك انهم يؤمنون بما بايديهم مفصلا فاذا دخلوا فى الاسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الاجر مرتين وأما غيرهم فانما يحصل له الايمان بما تقدم مجملا كما جاء فى الصحيح اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ولكن قولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم ولكن قد يكون ايمان كثير من العرب بالاسلام الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل وأعم وأشمل من ايمان من دخل منهم فى الاسلام فهم وان حصل لهم أجران من تلك الحيثية فغيرهم يحصل له من التصديق ما يضيف ثوابه على الاجرين اللذين حصلا لهم والله أعلم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) يقول تعالى أولئك أى المتصفون بما تقدم من الايمان بالغيب واقام الصلاة والانفاق من الذى رزقهم الله والايمان بما أنزل الى الرسول ومن قبله من الرسل والايقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الاعمال الصالحة وترك المحرمات على هدى أى على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى وأولئك هم المفلحون أى فى الدنيا والآخرة وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أولئك على هدى من ربهم أى على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم به وأولئك هم المفلحون أى الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا

والحياتين والحاصل ان المراد بالموت الاول العدم السابق وبالحياة الاولى الخلق وبالموت الثانى الموت المعهود وبالحياة الثانية الحياة للبعث فجاءت الفاء وثم على بابهما من التعقيب والتراخى على هذا التفسير وهو أحسن الاقوال وقد ذهب الى هذا جماعة من الصحابة فمن بعدهم قال ابن عطية وهذا القول هو المراد بالآية وهو الذى لا محيد للكفار عنه واذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين ثم احياء فى الدنيا ثم أموتا فيها لزمهم الاقرار بالحياة الاخرى قال غيره والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا وقيل ان المراد كنتم أمواتا فى ظهر آدم عليه السلام ثم أخرجكم من ظهره كالذر ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم وقيل كنتم أمواتا أى نطفا فى اصلاب الرجال ثم يحييكم حياة الدنيا ثم يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم فى القبور ثم يميتكم فيها ثم يحييكم الحياة التى ليس بعدها موت قال القرطبى فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات وثلاث احياآت وكونهم موتى فى ظهر آدم واخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفا فى أصلاب الرجال فعلى هذا يجئ أربع موتات وأربع احياآت وقد قيل ان الله أوجدهم قبل خلق آدم كالبهائم وأماتهم فيكون على هذا خمس موتات وخمس احياآت وموتة سادسة للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد فى الحديث ولكن ناسا أصابتهم النار بذنوبهم فاماتهم الله اماتة حتى اذا كانوا فحما أذن فى الشفاعة فجئ بهم الى أن قال فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل وهو فى الصحيح من حديث أبى سعيد (ثم اليه ترجعون) أى تردون فى الآخرة الى الله سبحانه فيجازيكم باعمالكم قال فى الكشاف عطف الاول بالفاء وما بعده بثم لان الاحياء الاول قد تعقب الموت بغير تراخ وأما الموت فقد تراخى عن الاحياء والاحياء الثانى كذلك متراخ عن الموت ان أريد به النشور تراخيا ظاهرا وان أريد به احياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه والرجوع الى الجزاء أيضا متراخ عن النشور انتهى ولا يخفاك انه ان أراد بقوله ان الاحياء الاول قد تعقب الموت انه وقع على ما هو متصف بالموت فالموت الآخر وقع على ما هو متصف بالحياة وان أراد انه وقع الاحياء الاول عند أول اتصافه بالموت بخلاف الثانى فغير مسلم فانه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثانى عند آخر أوقات حياته فتأمل هذا وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال لم تكونوا شيأ فخلقكم ثم يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة (هو الذى خلق لكم

وقال ابن جرير وأما معنى قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم فان معنى ذلك فانهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديده اياهم وتوفيقه لهم وتأويل قوله تعالى وأولئك هم المفلحون أى المنجحون المدركون ماطلبوا عند الله بأعمالهم وايمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب والخلود فى الجنات والنجاة مما أعد الله لاعدائه من العقاب وقد حكى ابن جرير قولا عن بعضهم انه أعاد اسم الاشارة فى قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون الى مؤمنى أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى والذين يؤمنون بما أنزل اليك الآية على ما تقدم من الخلاف وعلى هذا فيجوز (٧٧) ان يكون قوله تعالى والذين يؤمنون بما أنزل اليك منقطعا مما قبله وان يكون مرفوعا على الابتداء وخبره أولئك هم المفلحون واختار انه عائد الى جميع من تقدم ذكره من مؤمنى العرب وأهل الكتاب لما رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب ثم جمع الفريقين فقال أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون وقد تقدم من الترجيح ان ذلك صفة للمؤمنين عامة والاشارة عائدة عليهم والله أعلم وقد نقل عن مجاهد وأبى العالية والربيع ابن أنس وقتادة رحمهم الله وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى حدثنا أبى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبيد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم واسمه سليمان ابن عبد الله عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم وقيل له يارسول الله انا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس أو كما قال قال أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار قالوا بلى يارسول الله قال الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الى قوله تعالى المفلحون هؤلاء أهل الجنة قالوا انا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال ان الذين كفروا سواء عليهم الى قوله عظيم هؤلاء أهل النار قالوا السناهم يارسول الله قال أجل (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) يقول تعالى ان الذين كفروا أى غطوا الحق وستروه وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواء عليهم انذارك وعدمه فانهم لا يؤمنون بما جئتهم به كما قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل اية حتى

لكم مافى الارض) قال ابن كيسان أى خلق من أجلكم مافيها من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار لتنتفعوا به فى مصالح الدين والدنيا أما الدين فهو الاعتبار والتفكر فى عجائب مخلوقات الله الدالة على وحدانيته وأما الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها وقيل اللام للاختصاص وقيل للملك والاباحة وفيه دليل على ان الاصل فى الاشياء المخلوقة الاباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الاصل ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر وفى التأكيد بقوله (جميعا) أقوى دلالة على هذا وقد استدل بهذه الآية على تحريم أكل الطين لانه تعالى خلق لنا مافى الارض دون نفس الارض وقال الرازى فى تفسيره ان لقائل ان يقول ان فى جملة الارض مايطلق عليه انه فى الارض فيكون جامعا للوصفين ولا شك ان المعادن داخلة فى ذلك وكذلك عروق الارض ومايجرى مجرى البعض لها ولان تخصيص الشئ بالذكر لايدل على نفى الحكم عما عداه اه وقد ذكر صاحب الكشاف ماهو أوضح من هذا فقال فان قلت هل لقول من زعم ان المعنى خلق لكم الارض ومافيها وجه صحة قلت ان أراد بالارض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية جاز ذلك فان الغبراء ومافيها واقعة فى الجهات السفلية اه وأما التراب فقد ورد فى السنة تحريمه وهو أيضا ضار ليس مما ينتفع به أكلا ولكنه ينتفع به فى منافع أخرى وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الاكل بل كل مايصدق عليه انه ينتفع به بوجه من الوجوه وأما السم القاتل ففيه نفع لاجل دفع الحيوانات المؤذية وقتلها فلا يرد انه لانفع فيه (ثم استوى الى السماء) أى قصد وأقبل على خلقها وقيل عمد وقال ابن عباس ارتفع وقال الازهرى صعد أمره وكذا ذكره صاحب المحكم وذلك ان الله خلق الارض أولا ثم عمد الى خلق السماء وأصل ثم يقتضى تراخيا زمانيا ولا زمان هنا فقيل هى اشارة الى التراخى بين رتبتى خلق الارض والسماء قاله القرطبى والاستواء فى اللغة الاعتدال والانتصاب والاستقامة وضده الاعوجاج قاله فى الكشاف والرازى ويطلق على الارتفاع والعلو على الشئ قال تعالى فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك وقال لتستووا على ظهوره وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية وقد قيل ان هذه الآية من المشكلات وقد ذهب كثير من الائمة الى الايمان بها وترك التعرض لتفسيرها وخالفهم آخرون وقد استدل بقوله ثم استوى على ان خلق الارض

يروا العذاب الاليم وقال تعالى فى حق المعاندين من أهل الكتاب ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك الآية أى ان من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ومن أضله فلا هادى له فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الاوفر ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمنك ذلك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب انما انت نذير والله على كل شئ وكيل وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص ان يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فاخبره الله تعالى انه لا يؤمن الا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الاول ولا يضل الا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الاول وقال محمد ابن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ان الذين كفروا أى بما أنزل اليك وان قالوا انا قد آمنا بما جاءنا قبلك سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون أى أنهم قد كفروا بما عندهم من ذلك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق وقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك انذارا وتحذيرا وقد كفروا بما عندهم من علمك وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال نزلت هاتان الآيتان فى قادة الاحزاب وهم الذين قال الله فيهم ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها والمعنى الذى ذكرناه أولا وهو المروى عن ابن عباس فى رواية على بن أبى طلحة أظهر ويفسر بقية الآيات التى فى معناها والله أعلم وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا فقال حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى حدثنا أبى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم عن عبد الله بن عمرو قال قيل يا رسول الله انا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد أن نيأس فقال ألا أخبركم ثم قال ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون هؤلاء أهل النار قالوا السنا منهم يا رسول الله قال أجل وقوله تعالى لا يؤمنون محله من الاعراب انه جملة مؤكدة للتى قبلها سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون أى هم كفار فى كلا الحالين فلهذا أكد ذلك بقوله تعالى لا يؤمنون ويحتمل أن يكون لا يؤمنون خبر الان تقديره ان الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم

متقدم على خلق السماء وكذلك الآية التى فى حم السجدة وقال تعالى فى النازعات أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها فوصف خلقها ثم قال والارض بعد ذلك دحاها فكأن السماء على هذا خلقت قبل الارض وكذلك قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض وقد قيل ان خلق جرم الارض متقدم على السماء ودحوها متأخر وقد ذكر نحو هذا جماعة من أهل العلم وهذا جمع جيد لا بد من المصير اليه ولكن خلق ما فى الارض لا يكون الا بعد الدحو والآية المذكورة هنا دلت على انه خلق ما فى الارض قبل خلق السماء وهذا يقتضى بقاء الاشكال وعدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع قاله الشوكانى قلت ذكر رحمه الله فى السورتين المذكورتين ان ثم للتراخى الرتبى لا للتراخى الزمانى أو ان بعد بمعنى مع كما فى قوله عتل بعد ذلك زنيم أو انها بمعنى قبل كقوله ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أى من قبل الذكر فيزول ما ذكره رحمه الله تعالى من بقاء الاشكال وقال الفراء الاستواء فى كلام العرب على وجهين أحدهما ان يستوى الرجل وينتهى شبابه وقوته أو يستوى من اعوجاج وقال البيهقى الاستواء بمعنى الاقبال صحيح لان الاقبال هو القصد والقصد هو الارادة وذلك جائز فى صفات الله وقال سفيان بن عيينة أى قصد اليها وقيل علا دون تكييف ولا تحديد واختاره الطبرى وقال أبو العالية استوى ارتفع وقال قتادة ان السماء خلقت أولا حكاه عنه الطبرى والبحث فى ذلك يطول وقد استوفاه الرازى فى تفسيره وأجاب عنه بوجوه ثم قال الجواب الصحيح ان قوله ثم ليس للترتيب ههنا وانما هو على جهة تعديد النعم والله أعلم (فسواهن) أى عدل خلقهن فلا اعوجاج فيه ولا فطور وقيل معناه سوى سطوحهن بالاملاس وقيل جعلهن سواء (سبع سموات) مستويات لا صدع فيها ولا فطور وفى هذا التصريح بان السموات سبع وأما الارض فلم يأت فى ذكر عددها الا قوله تعالى ومن الارض مثلهن فقيل فى العدد وقيل فى غلظهن وما بينهن وقال الماوردى ان الارض سبع ولكن لم ينفتق بعضها من بعض والصحيح انها سبع كالسموات وعلى انها سبع أرضين متفاصلة بعضها فوق بعض تختص دعوة الاسلام بأهل الارض العليا ولا تلزم من فى غيرها من الارضين وان كان فيها من يعقل من خلق مميز وفى مشاهدتهم السماء واستمدادهم للضوء منها قولان أحدهما انهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها وهذا قول من جعل الارض مبسوطة والثانى انهم لا يشاهدون السماء

لا يؤمنون جملة معترضة والله أعلم (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) قال السدى ختم الله أى طبع الله وقال قتادة فى هذه الآية استحوذ عليهم الشيطان اذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون وقال ابن جريج قال مجاهد ختم الله على قلوبهم قال الطبع ثبتت الذنوب على القلب فحفت به من كل نواحيه حتى تلتقى عليه فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم قال ابن جريج الختم على القلب والسمع قال ابن جريج وحدثنى عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا يقول الران أيسر من الطبع والطبع أيسر من الاقفال والاقفال أشد من ذلك كله وقال الاعمش أرانا مجاهد بيده فقال كانوا يرون أن القلب فى مثل هذه يعنى الكف فاذا أذنب العبد ذنبا ضم منه وقال باصبعه الخنصر هكذا فاذا أذنب ضم وقال باصبع أخرى فاذا أذنب ضم وقال باصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها ثم قال يطبع عليه بطابع وقال مجاهد كانوا يرون أن ذلك الرين ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن وكيع عن الاعمش عن مجاهد بنحوه قال ابن جرير وقال بعضهم انما معنى قوله تعالى ختم الله على قلوبهم اخبار من الله عن تكبرهم واعراضهم عن الاستماع لما دعوا اليه من الحق كما يقال ان فلانا أصم عن هذا الكلام اذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبرا قال وهذا لا يصح لان الله تعالى قد أخبر انه هو الذى ختم على قلوبهم واسماعهم قلت وقد أطنب الزمخشرى فى تقرير ماورده ابن جرير ههنا وتاول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدا وماجرأه على ذلك الا اعتزاله لان الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق اليها قبيح عنده يتعالى الله عنه فى اعتقاده ولو فهم قوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على انه تعالى انما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال والله أعلم قال القرطبى وأجمعت الامة على ان الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال بل طبع الله عليها بكفرهم وذكر حديث تقليب القلوب

السماء فان الله تعالى خلق لهم ضياء يستمدون منه وهذا قول من جعل الارض كرية وفى الآية قول ثالث حكاه الطيبى عن أبى صالح عن ابن عباس انها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض تفرق بينها البحار وتظل جميعها السماء انتهى وسيأتى تحقيق ماهو الحق فى آخر سورة الطلاق ان شاء الله تعالى وقد ثبت فى الصحيح قوله صلى الله عليه وآله وسلم من أخذ من الارض شبرا ظلما طوقه الله من سبع أرضين وهو ثابت من حديث عائشة وسعيد ابن زيد وقد أطنب الرازى فى تفسيره فى بيان السموات هل هى سبع أو ثمان وذكر مذاهب الحكماء فى ذلك وأجابهم بوجوه ثم قال اعلم ان هذا الخبط مما ينبهك على انه لا سبيل للعقول البشرية الى ادراك هذه الاشياء وانه لا يحيط بها الا علم فاطرها وخالقها فوجب الاقتصار فيه على الدلائل السمعية فان قال قائل فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفى العدد الزائد قلنا الحق ان تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفى الزائد انتهى وفى هذا اشارة الى ماذكره الحكماء من الزيادة على السبع ونحن نقول انه لم يأتنا عن الله ولا عن رسوله الا السبع فنقتصر على ذلك ولا نعمل بالزيادة الا اذا جاءت من طريق الشرع ولم يات شئ من ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة فى هذه الآية قالوا ان الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيأ قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها سبع أرضين فى يومين الاحد والاثنين فخلق الارض على حوت وهو الذى ذكره فى قوله ن والقلم والحوت قائم على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة فى الريح وهى الصخرة التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الارض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الارض فارسى عليها الجبال فقرت فذلك قوله تعالى وجعل لها رواسى أن تميد بكم وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وسخرها وما ينبغى لها فى يومين فى الثلاثاء والاربعاء وذلك قوله أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض الى قوله وبارك فيها يقول أنبت شجرها فيها وقدر فيها أقواتها يقول أقوات أهلها فى أربعة أيام سواء للسائلين يقول من سال فهكذا الامر ثم استوى الى السماء وهى دخان وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين فى الخميس والجمعة وانما سمى يوم الجمعة لانه جمع فيه خلق السموات والارض وأوحى فى كل سماء أمرها قال خلق فى كل سماء خلقها من

ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وذكر حديث حذيفة الذى فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فاى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة مادامت السموات والارض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الحديث قال ابن جرير والحق عندى فى ذلك ماصح بنظيره الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ماحدثنا به محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ابن عجلان (٨٠) عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن اذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستعتب صقل قلبه وان زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون هذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة والليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم ابن اسمعيل والوليد بن مسلم ثلاثتهم عن محمد بن عجلان به وقال الترمذى حسن صحيح ثم قال ابن جرير فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذنوب اذا تتابعت على القلوب أغلقتها واذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للايمان اليها مسلك ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذى ذكر فى قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم نظير الختم والطبع على ماتدركه الابصار من الاوعية والظروف التى لا يوصل الى مافيها الا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لا يصل الايمان الى قلوب من وصف الله انه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم الا بعد فض خاتمه وحل رباطه عنها واعلم ان الوقف التام على قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وقوله وعلى أبصارهم غشاوة جملة تامة فان الطبع يكون على القلب وعلى السمع والغشاوة وهى الغطاء الذى يكون على البصر كما قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم يقول فلا يعقلون ولا يسمعون يقول وجعل على أبصارهم غشاوة يقول على أعينهم فلا يبصرون وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سعد حدثنا أبى حدثنى عمى الحسين بن

الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد ومالا يعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظا من الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش أخرجه البيهقى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن جرير وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من حديث أبى هريرة فى الصحيح قال أخذ النبى صلى الله عليه وآله وسلم بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من طرق عند أهل السنن وغيرهم عن جماعة من الصحابة أحاديث فى وصف السموات وان غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء الى سماء خمسمائة عام وانها سبع سموات وان الارض سبع أرضين ولم يات فى التنزيل ولا فى السنة المطهرة تصريح بان فيهن من يعقل من العوالم والاوادم وأنبيائهم والآثار من الصحابة ومن بعدهم ان جاءت بسند صحيح لا تصلح للاحتجاج على ذلك فكيف بما لم يصح سنده أو صح ولكن لم يتابع عليه أو توبع ولكن لم يساعده نص من الله ورسوله وكذلك ثبت فى وصف السماء آثار من جماعة من الصحابة وقد ذكر السيوطى فى الدر المنثور بعض ذلك فى تفسير هذه الآية وانما تركنا ذكره هنا لكونه غير متعلق بهذه الآية على الخصوص بل هو متعلق بما هو أعم منها (وهو بكل شئ عليم) أى يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات وانما أثبت سبحانه لنفسه العلم بكل شئ لانه يجب ان يكون عالما بجميع ما ثبت انه خالقه (واذ قال ربك) أى واذكر يا محمد اذ قال وكل ما ورد فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله وقيل اذ زائدة والاول أوجه (للملائكة) جمع ملك بوزن فعل قاله ابن كيسان وقيل جمع ملأك بوزن مفعل قاله أبو عبيدة وأراد بالملائكة الذين كانوا فى الارض وذلك ان الله تعالى خلق الارض وأسكن فيها الجن وأسكن فى السماء الملائكة فافسدت الجن فى الارض فبعث اليهم طائفة من الملائكة فطردتهم الى جزائر البحار ورؤس الجبال وأقاموا مكانهم وقيل القول لمطلق الملائكة وكان ذلك تعليما للمشاورة وتعظيما لآدم وبيانا لكون الحكمة تقتضى ايجاد ما يغلب خيره على شره واللام فى للملائكة للتبليغ وهو أحد المعانى التى جاءت لها اللام (انى جاعل فى الارض خليفة) أى خالق بدلا منكم ورافعكم الىّ وجاعل هنا من جعل المتعدى الى مفعولين وذكر

الحسن عن أبيه عن جده عن ابن عباس ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم والغشاوة على أبصارهم قال وحدثنا القاسم حدثنا الحسين يعني ابن داود وهو سنيد حدثني حجاج هو ابن محمد الاعور حدثني ابن جريج قال الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر قال الله تعالى فان يشأ الله يختم على قلبك وقال وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة قال ابن جرير ومن نصب غشاوة من قوله تعالى وعلى أبصارهم غشاوة يحتمل انه نصبها باضمار فعل تقديره وجعل على ابصارهم غشاوة ويحتمل ان يكون نصبها على الاتباع على محل وعلى سمعهم كقوله تعالى وحور عين وقول الشاعر (٨١) علفتها تبنا وماء باردا * حتى شتت همالة عيناها وقال الآخر

ورأيت زوجك في الوغا
متقلدا سيفا ورمحا

تقديره وسقيتها ماء باردا ومعتقلا رمحا * لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة باربع آيات ثم عرف حال الكافرين بآيتين شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق كما أنزل سورة براءة فيهم وسورة المنافقين فيهم وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريفا لاحوالهم ليجتنب ويجتنب من تلبس بها أيضا فقال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون) النفاق هو اظهار الخير واسرار الشر وهو أنواع اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار وعملي وهو من أكبر الذنوب كما سيأتي تفصيله في موضعه ان شاء الله تعالى وهذا كما

المطرزي انه بمعنى الخالق وذلك يقتضي انه متعد الى مفعول واحد وصيغة اسم الفاعل بمعنى المستقبل والارض هنا هي هذه الغبراء ولا يختص ذلك بمكان دون مكان وقيل انها مكة كما ورد في مرسل ضعيف وقال ابن كثير انه مدرج والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة ويجوز ان يكون بمعنى المخلوف أي يخلفه غيره قيل هو آدم كما دل عليه السياق وقيل كل من له خلافة في الارض ويقوى الاول قوله خليفة دون الخلائف واستغنى بذكر آدم عن ذكر من بعده والصحيح أنه انما سمي خليفة لانه خليفة الله في أرضه لاقامة حدوده وتنفيذ قضاياه قيل خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب لا للمشورة ولكن لاستخراج ما عندهم قيل وفيه ارشاد عباده الى المشاورة وان الحكمة تقتضي اتخاذ ما يغلب خيره وان كان فيه نوع شر وانه لا رأي مع وجود النص وهو أصل في المسائل التعبدية قال بعض المفسرين ان في الكلام حذفا والتقدير اني جاعل في الارض خليفة يفعل كذا وكذا فكر هو ذلك و (قالوا) أي استكشافا عما خفي عليهم من الحكمة الباهرة وليس باعتراض على الله ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة فانهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله بل عباد مكرمون وانما عرفوا ذلك باخبار من الله أو تلقى من اللوح المحفوظ أو قياس لاحد الثقلين على الآخر (أتجعل فيها من يفسد فيها) بالمعاصي بمقتضى القوة الشهوانية والفساد ضد الصلاح (ويسفك الدماء) بغير حق بمقتضى القوة الغضبية كما فعل الجن وسفك الدم صبه قاله ابن فارس والجوهري والمهدوي ولا يستعمل السفك الا في الدم (ونحن نسبح) أي نقول سبحان الله وبحمده وهي صلاة الخلق وعليها يرزقون عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل أي الكلام أفضل قال ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده أخرجه مسلم وقال ابن عباس كل ما جاء في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة فيكون المعنى ونحن نصلي لك وأصل التسبيح في كلام العرب التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم فيكون المعنى ونحن ننزهك عن كل سوء ونقيصة (بحمدك) أي حامدين لك أو متلبسين بحمدك فانه لولا انعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك (ونقدس لك) وأصل التقديس التطهير أي ونطهرك عن النقائص وعن كل ما لا يليق بك من سوء ومما نسبه اليك الملحدون وافتراه الجاحدون وذكر في الكشاف ان معنى التسبيح والتقديس واحد وهو تبعيد الله من السوء وفي القاموس وغيره من

(١١ - فتح البيان ل) قال ابن جريج المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ومدخله مخرجه ومشهده مغيبه وانما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لان مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرها وهو في الباطن مؤمن فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وكان بها الانصار من الاوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الاصنام على طريقة مشركي العرب وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة اسلافهم وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الاوس فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلم من أسلم من الانصار من قبيلتي الاوس

والخزرج وقل من أسلم من اليهود الا عبد الله بن سلام رضى الله عنه ولم يكن اذ ذاك نفاق أيضا لانه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الاسلام وأهله قال عبد الله بن أبى بن سلول وكان راسا فى المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية وكانوا قد عزموا على ان يملكوه عليهم فجاءهم الخبر وأسلموا واشتغلوا عنه فبقى فى نفسه من الاسلام وأهله فلما كانت وقعة بدر قال هذا أمر قد توجه فاظهر الدخول فى الاسلام (٨٢) ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الاعراب فاما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد هاجر لانه لم يكن أحد يهاجر مكرها بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يعنى المنافقين من الاوس والخزرج ومن كان على أمرهم وكذا فسرها بالمنافقين من الاوس والخزرج أبو العالية والحسن وقتادة والسدى ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد ايمانهم وهم كفار فى نفس الامر وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين أى يقولون ذلك قولا ليس وراءه شئ آخر كما قال تعالى اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله أى انما يقولون ذلك اذا جاؤك فقط لا فى نفس الامر ولهذا يؤكدون فى الشهادة ذلك بان ولام التاكيد فى خبرها أكدوا أمرهم قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر وليس الامر كذلك كما كذبهم الله فى شهادتهم وفى خبرهم هذا بالنسبة الى اعتقادهم بقوله تعالى والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وبقوله وماهم بمؤمنين وقوله تعالى يخادعون الله والذين آمنوا أى باظهارهم ما أظهروه من الايمان مع اسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم انهم يخدعون الله بذلك وان ذلك نافعهم عنده وانه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على

كتب اللغة ما يرشد الى ماذكرناه والتأسيس خير من التأكيد خصوصا فى كلام الله سبحانه وقيل معناه نطهر أنفسنا لطاعتك وعبادتك والاول أولى وعن ابن مسعود وناس من الصحابة نقدس لك أى نصلى لك وقال مجاهد نعظمك ونكبرك واللام زائدة والجملة حال أى فنحن أحق بالاستخلاف ولما كان سؤالهم واقعا على صفة تستلزم اثبات شئ من العلم لانفسهم أجاب الله سبحانه عليهم فقال انى أعلم مالا تعلمون وفى هذا الاجمال ما يغنى عن التفصيل لان من علم مالا يعلم المخاطب له كان حقيقا بان يسلم له ما يصدر عنه وعلى من لا يعرف أن يعترف لمن يعلم بان أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم وتقتضيه المصلحة الراجحة والحكمة البالغة ولم يذكر متعلق قوله تعلمون ليفيد التعميم ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب ويعترف بالعجز ويقر بالقصور عن ابن عباس قال ان الله أخرج آدم من الجنة قبل ان يخلقه قال وقد كان فيها أى فى الارض قبل ان يخلق بالفى عام الجن بنو الجان فأفسدوا فى الارض وسفكوا الدماء فلما أفسدوا فى الارض بعث الله عليهم جنودا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور فلما قال انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما فعل أولئك الجان فقال انى أعلم مالا تعلمون أخرجه الحاكم وصححه عنه وفى الباب آثار من الصحابة كثيرة وعن قتادة كان فى علم الله انه سيكون من الخليفة انبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة وقيل أعلم انهم يذنبون ويستغفرون فاغفر لهم وقيل أعلم من وجود المصلحة والحكمة مالا تعلمون أنتم وقد ثبت فى كتب الحديث المعتبرة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة فى صفة خلقه سبحانه لآدم وهى موجودة فلا نطول بذكرها قيل خاطبهم بذلك لاجل ان يصدر منهم ذلك السؤال فيجابون بذلك الجواب وقيل لاجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم وظاهره انهم استنكروا استخلاف بنى آدم فى الارض لكونهم مظنة للافساد فى الارض وانما قالوا هذه المقالة قبل أن تتقدم لهم معرفة ببنى آدم بل قبل وجود آدم فضلا عن ذريته لعلم قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه لانهم لا يعلمون الغيب قال بهذا جماعة من المفسرين (وعلم آدم الاسماء كلها) سمى آدم لانه خلق من أديم الارض وهو وجهها وقيل لانه كان آدم اللون والادمة هى السمرة ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه اسماء الاشياء كلها قال فى الكشاف وما آدم الا اسم أعجمى وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر وعازر وعابر وشالخ وفالغ وأشباه

شئ الا انهم هم الكاذبون ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله ومايخادعون الا أنفسهم ومايشعرون يقول ومايغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون الا أنفسهم ومايشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ومن القراء من قرأ ومايخدعون الا أنفسهم وكلا القراءتين ترجع الى معنى واحد قال ابن جرير فان قال قائل كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعا وهو لا يظهر بلسانه خلاف ماهو له معتقد الا تقية قيل لا تمتنع العرب أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقية لينجو مما هو له خائف مخادعا فكذلك المنافق سمى مخادعا لله وللمؤمنين باظهاره ما أظهره بلسانه تقية بما يخلص به من القتل والسبى والعذاب العاجل وهو لغير ما أظهره مستبطن وذلك من فعله وان كان خداعا للمؤمنين فى عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع لانه يظهر لها بفعله ذلك بها انه يعطيها أمنيتها ويسقيها كأس سرورها وهو موردها حياض عطبها ومجرعها به كأس عذابها ومزيرها من غضب الله وأليم عقابه مالا قبل لها به فذلك خديعته نفسه ظنا منه مع اساءته اليها فى أمر معادها انه اليها محسن كما قال تعالى ومايخدعون الا أنفسهم ومايشعرون اعلاما منه عباده المؤمنين ان المنافقين باساءتهم الى أنفسهم فى استخاطهم عليها ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين ولكنهم على عمى من أمرهم مقيمين وقال ابن أبى حاتم أنبأنا على بن المبارك فيما كتب الى حدثنا زيد بن المبارك حدثنا محمد ابن ثور عن ابن جريج فى قوله تعالى يخادعون الله قال يظهرون لا اله الا الله يريدون ان يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفى أنفسهم غير ذلك وقال سعيد عن قتادة ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا ومايخادعون الا أنفسهم ومايشعرون نعت المنافق عند كثير خنع الاخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله يصبح على حال ويمسى على غيره ويمسى على حال ويصبح على غيره ويتكفأ تكفأ السفينة كلما هب ريح هبت معها (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية فى قلوبهم مرض قال شك فزادهم الله مرضا قال شكا وقال ابن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة

ذلك اه واشتقاقه من الادمة وغيرها تعسف قاله البيضاوى وقال السمين بعد كلام طويل ان ادعاء الاشتقاق فيه بعيد لان الاسماء الاعجمية لا يدخلها اشتقاق ولا تصريف اه والاسماء هى العبارات والمراد أسماء المسميات قال بذلك أكثر العلماء وهو المعنى الحقيقى للاسم والتأكيد بقوله كلها يفيد انه علمه جميع الاسماء ولم يخرج عن هذا شئ منها كائنا ما كان وقال ابن جرير انها أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم ثم رجح هذا وهو غير راجح وقيل صنعة كل شئ قال ابن عباس علمه اسم كل شئ حتى القصعة والقصيعة وقيل خلق الله كل شئ من الحيوان والجماد وغير ذلك وعلم آدم الاسماء كلها فقال يا آدم هذا بعير وهذا فرس وهذه شاة حتى أتى على آخرها وقيل علمه اللغات كلها أى جميع اللغات لكن بنوه تفرقوا فى اللغات فحفظ بعضهم العربية ونسى غيرها والمراد علم الاسماء لفظا ومعنى مفردا ومركبا حقيقة ومجازا والمراد بالاسم مايدل على معنى ذاتا كان أو عرضا فهو أعم من الاسم والفعل والحرف وقال فى المظهرى وعندى ان الله علم آدم الاسماء الالهية كلها ثم رجح هذا بكلام طويل وهو غير راجح مع مافيه من البعد والتكلف ولم يقل به أحد من المفسرين وياباه ظاهر النظم وسياقه واستدل بالآية من قال ان اللغات توقيفية وضعها الله وعلمها بالوحى (ثم عرضهم على الملائكة) يعنى تلك الاشخاص وانما قال عرضهم ولم يقل عرضها تغليب العقلاء عليهم واختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات أو الاسماء والظاهر الاول لان عرض نفس الاسماء غير واضح وعرض الشئ اظهاره قال ابن عطية والذى يظهر أن الله علم آدم الاسماء وعرض عليه مع ذلك الاجناس أشخاصا ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن أسماء مسمياتها التى قد تعلمها آدم فقال لهم آدم هذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا قال الماوردى فكان الاصح توجه العرض الى المسمى ثم فى زمن عرضهم قولان أحدهما انه عرضهم بعد ان خلقهم الثانى انه صورهم بقلوب الملائكة ثم عرضهم (فقال أنبئونى) أى اخبرونى أمر تعجيز والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة وايثاره على الاخبار للايذان برفعة شأن الاسماء وعظم خطرها (باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) انى لم أخلق خلقا الا كنتم أفضل منهم وأعلم أمره سبحانه للملائكة بهذا لقصد التبكيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك (قالوا) يعنى الملائكة (سبحانك) تنزيها لك وذلك لما ظهر عجزهم وفيه اشعار بان سؤالهم كان استفسارا ولم يكن اعتراضا

أو سعيد بن جبير عن ابن عباس في قلوبهم مرض قال شك وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن البصري وأبو العالية والربيع ابن أنس وقتادة وعن عكرمة وطاوس في قلوبهم مرض يعني الرياء وقال الضحاك عن ابن عباس في قلوبهم مرض قال نفاق فزادهم الله مرضا قال نفاقا وهذا كالاول وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قلوبهم مرض قال هذا مرض في الدين وليس مرضا في الاجساد وهم المنافقون والمرض الشك الذي دخلهم في الاسلام فزادهم الله مرضا قال زادهم رجسا وقرأ فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم ٨٤ مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم قال شرا الى شرهم وضلالة الى ضلالتهم

وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن وهو الجزاء من جنس العمل وكذلك قاله الاولون وهو نظير قوله تعالى أيضا والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم وقوله بما كانوا يكذبون وقرئ يكذبون وقد كانوا متصفين بهذا وهذا فانهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه باعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه أكره ان يتحدث العرب ان محمدا يقتل أصحابه ومعنى هذا خشية ان يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الاعراب عن الدخول في الاسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم وان قتله اياهم انما هو على الكفر فانهم انما ياخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون ان محمدا يقتل أصحابه قال القرطبي وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم قال ابن عطية وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي اسمعيل والابهري وعن ابن الماجشون ومنها ما قال مالك انما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين في لسين لامته ان الحاكم لا يحكم بعلمه قال القرطبي وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على ان القاضي لا يقتل بعلمه وان اختلفوا في سائر الاحكام قال ومنها ما قال الشافعي انما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الاسلام مع العلم بنفاقهم لان ما يظهرونه يجب ما قبله ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل ومعنى هذا ان

وسبحان مصدر لا يكاد يستعمل الا مضافا منصوبا بإضمار فعله كمعاذ الله (لا علم لنا الا ما علمتنا) أي انك أجل من ان نحيط بشيء من علمك الا ما علمتنا (انك أنت العليم) أي بخلقك وهو من أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات (الحكيم) أي في أمرك وله معنيان أحدهما انه القاضي العدل الثاني المحكم للامر كي لا يتطرق اليه الفساد (قال) يعني الله تعالى (يا آدم) استدل به على ان آدم نبي متكلم (أنبئهم باسمائهم) وذلك لما ظهر عجز الملائكة فسمى كل شيء باسمه وذكر وجه الحكمة التي خلق لاجلها بان قال لهم هذا الجرم يسمى القصعة وحكمته وضع الطعام فيه وهكذا (فلما أنباهم باسمائهم) فيه دليل على مزية العلم وانه شرط في الخلافة وفضل آدم على الملائكة قال الامام لما أراد الله اظهار فضل آدم على الملائكة لم يظهره الا بالعلم فلو كان في الامكان شيء أشرف من العلم كان اظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم ولذلك أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له لاجل فضيلة العلم قلت ويؤخذ من هذا استحباب القيام للعالم وقال الطيبي أفادت هذه الآية أن علم اللغة فوق التخلي بالعبادة فكيف علم الشريعة (قال) يعني الله تعالى (ألم أقل لكم) يا ملائكتي (اني أعلم غيب السموات والارض) يعني ما كان وما سيكون وذلك انه سبحانه علم أحوال آدم قبل ان يخلقه وفي اختصاصه بعلم غيب السموات والارض رد لما يتكلفه كثير من العباد من الاطلاع على شيء من علم الغيب كالمنجمين والكهان وأهل الرمل والسحر والشعوذة (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أي ما تظهرون وما تسرون كما يفيده معنى ذلك عند العرب ومن فسره بشيء خاص فلا يقبل منه ذلك الا بدليل (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) قيل هذا خطاب مع ملائكة الارض والاصح انه خطاب مع جميع الملائكة وهو الظاهر من قوله فسجد الملائكة كلهم أجمعون والسجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع وغايته وضع الوجه على الارض والاسجاد ادامة النظر وفي هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد الله له ملائكته وقيل ان السجود كان لله ولم يكن لآدم وانما كانوا مستقبلين له عند السجود ولا ملجئ لهذا فان السجود للبشر قد يكون جائزا في بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح وقد دلت هذه الآية على ان السجود لآدم وكذلك الآية الاخرى أعني قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين وقال تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا فلا يستلزم تحريمه لغير الله

من قالها جرت عليه أحكام الاسلام ظاهرا فان كان يعتقدها وجد ثواب ذلك فى الدار الآخرة وان لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه فى الدنيا وكونه كان خليط اهل الايمان ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني حتى جاء أمر الله الآية فهم يخالطونهم فى بعض المحشر فاذا حقت الحقوقية تميز وا منهم وتخلفوا بعدهم وحيل بينهم وبين ما يشتهون ولم يمكنهم ان يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الاحاديث ومنها ما قاله بعضهم انه انما لم يقتلهم لانه كان لا يخاف من شرهم مع وجوده عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات ٨٥ فاما بعده فيقتلون اذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون قال مالك المنافق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزنديق اليوم قلت وقد اختلف العلماء فى قتل الزنديق اذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون اسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد ان ظهر عليه على أقوال متعددة موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الاحكام *(تنبيه)* قول من قال كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين انما مستنده حديث حذيفة بن اليمان فى تسمية أولئك الاربعة عشر منافقا فى غزوة تبوك الذين هموا ان يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظلماء الليل عند عقبة هناك عزموا على ان ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله اليه أمرهم فاطلع على ذلك حذيفة ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم فاما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم الآية وقال تعالى لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ففيها دليل على انه لم يغربهم ولم يدرك على أعيانهم وانما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها فى بعضهم كما قال تعالى ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبى بن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذى سبق فى صفات المنافقين ومع هذا مات صلى الله عليه وسلم وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيه فقال انى أكره ان تتحدث

فى شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان يكون كذلك فى سائر الشرائع ومعنى السجود هنا وضع الجبهة على الارض واليه ذهب الجمهور وقال قوم هو مجرد التذلل والانقياد والاول أولى وقد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعليمه الاسماء أم بعده وقد أطال البحث فى ذلك البقاعى فى تفسيره وظاهر السياق انه وقع التعليم وتعقبه الامر بالسجود وتعقبه اسكانه الجنة ثم اخراجه منها واسكانه الارض وفى هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة فى تفضيل الانبياء على الملائكة وهذه القصة ذكرت فى القرآن فى سبع سور فى هذه السورة والاعراف والحجر والاسراء والكهف وطه وص ولعل السر فى تكريرها تسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانه كان فى محنة عظيمة فى قومه وأهل زمانه فكأنه قال أولا ترى ان أول الانبياء وهو آدم كان فى محنة عظيمة للخلق ذكره الخطيب والظاهر انه لاظهار شرف آدم وفضله على سائر الخلق حتى الملائكة وليس فى هذه القصة ما يدل على محنة آدم (فسجدوا) وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال الى العصر قيل أول من سجد لآدم جبرائيل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون والله أعلم (الا ابليس) استثناء متصل لانه كان من الملائكة على ما قاله الجمهور قال شهر بن حوشب وبعض الاصوليين كان من الجن الذين كانوا فى الارض فيكون الاستثناء على هذا منقطعا واستدلوا على هذا بقوله تعالى لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وبقوله تعالى الا ابليس كان من الجن والجن غير الملائكة وأجاب الاولون بانه لا يمتنع ان يخرج ابليس عن جملة الملائكة لما سبق فى علم الله من شقائه عدلا منه لا يسئل عما يفعل وليس فى خلقه من نار ولا تركب الشهوة فيه حين غضب الله عليه ما يدفع انه من الملائكة وأيضا على تسليم ذلك لا يمتنع ان يكون الاستثناء متصلا تغليبا للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على ابليس الذى هو فرد واحد بين أظهرهم وسمى به لانه أبلس من رحمة الله أى يئس وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحرث فلما عصى غير اسمه فسمى ابليس وغيرت صورته قال ابن عباس كان ابليس من الملائكة بدليل انه استثناه منهم وقيل انه من الجن وانه أصل الجن كما ان آدم أصل الانس والاول أصح لان الخطاب كان مع الملائكة فهو داخل فيهم ثم استثناه منهم وعليه أكثر المفسرين كالبغوى والواحدى والقاضى وقالوا المعنى كان من الجن فعلا ومن الملائكة نوعا أو لان الملائكة

العرب ان محمدا يقتل أصحابه وفى رواية فى الصحيح انى خيرت فاخترت وفى رواية لو أعلم انى لو زدت على السبعين يغفر له لزدت (واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الطيب الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون قال هم المنافقون أما لا تفسدوا فى الارض قال الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبى

العالية فى قوله تعالى واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قال يعنى لا تعصوا فى الارض وكان فسادهم ذلك معصية الله لانه من عصى الله فى الارض أو أمر بمعصيته فقد أفسد فى الارض لان صلاح الارض والسماء بالطاعة وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وقال ابن جريج عن مجاهد واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قال اذا ركبوا معصية الله فقيل لهم لا تفعلوا كذا وكذا قالوا انما نحن على الهدى مصلحون وقال وكيع وعيسى بن يونس وعثام بن على عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الاسدى عن سلمان الفارسى واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون قال سلمان لم يجىء أهل هذه الآية بعد وقال ابن جرير حدثنى أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبد الرحمن بن شريك حدثنى أبى عن الاعمش عن زيد بن وهب وغيره عن سلمان الفارسى فى هذه الآية قال ما جاء هؤلاء قال ابن جرير يحتمل ان سلمان رضى الله عنه أراد بهذا ان الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادا من الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم لا انه عنى انه لم يمض ممن تلك صفته أحد قال ابن جرير فاهل النفاق مفسدون فى الارض بمعصيتهم فيها ربهم وركوبهم فيها ما

قد يسمون جنا لاختفائهم (أبى) امتنع من فعل ما أمر به من السجود فلم يسجد فيه رد على الجبرية اذ لا يوصف بالاباء الا من هو قادر على المطلوب (واستكبر) أى تعظم عن السجود لآدم والاستكبار الاستعظام للنفس وقد ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم ان الكبر بطر الحق وغمط الناس وفى رواية غمص الناس وانما قدم الاباء عليه وان كان متاخرا عنه فى الترتيب لانه من الافعال الظاهرة بخلاف الاستكبار فانه من أفعال القلوب واقتصر فى سورة ص على ذكر الاستكبار وفى سورة الحجر على ذكر الاباء (وكان من الكافرين) أى من جنسهم فى علم الله تعالى وانما وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته وقيل ان كان هنا بمعنى صار قال ابن فورك انه خطأ تردّه الاصول وأفادت الآية استقباح التكبر والخوض فى سر الله تعالى وان الامر للوجوب وان الذى علم الله من حاله انه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة اذ العبرة بالخواتيم وان كان بحكم الحال مؤمنا وهذه مسئلة الموافاة المنسوبة الى أبى الحسن الاشعرى ومعناها أن العبرة بالايمان الذى يوافى العبد عليه أى يأتى متصفا به فى آخر حياته وأول منازل آخرته وحيث أطلقت مسئلة الموافاة فالمراد بها ذلك وهى مما اختلف فيها الشافعية والحنفية والماتريدية وللسبكى فيها تأليف مستقل ومن فروعها انه يصح أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله ويبتنى عليها مسئلة الاحباط فى الاعمال بالردة قال الخفاجى مسئلة الموافاة من أمهات المسائل وفصلها النسفى فى شرح التمهيد فقال ما حاصله ان الشافعى يقول ان الشقى شقى فى بطن أمه وكذا السعيد فلا تبديل فى ذلك ويظهر ذلك عند الموت ولقاء الله وهو معنى الموافاة والماتريدية يقولون يمحو الله ما يشاء ويثبت فصير السعيد شقيا والشقى سعيدا الا انهم يقولون من مات مسلما مخلدا فى الجنة ومن مات كافرا مخلدا فى العذاب باتفاق الفريقين فلا ثمرة للخلاف أصلا الا أن يقال ان من كان مسلما وورث أباه المسلم اذا مات كافرا يرد ما أخذه الى بقية الورثة المسلمين وكذا الكافر وتبطل جميع أعماله والمنقول فى المذهب خلافه فحينئذ لا ثمرة له الا انه يصح منه أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله بقصد التعليق فى المستقبل حتى لا يكون شاكا فى الايمان حالا ولا حاجة لتاويله والماتريدية يمنعون ذلك مطلقا اه (وقلنا) هو من خطاب الاكابر والعظماء أخبر سبحانه عن نفسه بصيغة الجمع لانه ملك الملوك (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أى اتخذا الجنة ماوى ومنزلا ومسكنا وهو محل السكون وأما

فى الارض فاهل النفاق مفسدون فى الارض بمعصيتهم فيها ربهم وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكهم فى دينه الذى لا يقبل من أحد عمل الا بالتصديق به والايقان بحقيقته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله اذا وجدوا الى ذلك سبيلا فذلك افساد المنافقين فى الارض وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها وهذا الذى قاله حسن فان من الفساد فى الارض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض

وفساد كبير فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ثم قال ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا فالمنافق لما كان ظاهره الايمان اشتبه أمره على المؤمنين فكان الفساد من جهة المنافق حاصل لانه هو الذي غر المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له ووالى الكافرين على المؤمنين ولو انه استمر على حاله الاول لكان شره أخف ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لافلح وأنجح ولهذا قال تعالى واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون أي نريد (٨٧) أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء كما قال محمد بن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون أي انما نريد الاصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب يقول الله ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون يقول ألا ان هذا الذي يعتمدونه ويزعمون انه اصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادا (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) يقول تعالى واذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أي كايمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنون به وعنه وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الاوامر وترك الزواجر قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء يعنون لعنهم الله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم قاله أبو العالية والسدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة وبه يقول الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم يقولون أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء والسفهاء جمع سفيه لان الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء في قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما قال عامة علماء التفسير هم النساء والصبيان وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال ألا انهم هم السفهاء فاكد وحصر السفاهة فيهم ولكن لا يعلمون يعني ومن تمام جهلهم انهم لا يعلمون بحالهم

ما قاله بعض المفسرين ان قوله اسكن تنبيه على الخروج لان السكنى لا يكون ملكا وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء ان من أسكن رجلا منزلا له فانه لا يملكه بذلك وان له ان يخرجه منه فهو معنى عرفي والواجب الاخذ بالمعنى العربي اذا لم يثبت في اللفظ حقيقة شرعية والزوج هي حواء بالمد وهي في اللغة الفصيحة بغير هاء وقد جاء بها قليلا كما في صحيح مسلم قال يا فلان هذه زوجتي فلانة الحديث وكان خلق حواء من ضلع الايسر فلذا كان كل انسان ناقصا ضلعا من الجانب الايسر فجهة اليمين اضلاعها ثمانية عشر وجهة اليسار اضلاعها سبعة عشر وقصة خلقها مبسوطة في كتب السنة لا نطول بذكرها هنا فيه دلالة على ان الجنة مخلوقة الآن واختلفوا في الجنة التي أمر آدم بسكناها فقيل انها جنة كانت في الارض وقيل هي دار الجزاء والثواب لانها المعهودة وقيل هي جنة بارض فلسطين أو بين فارس وكرمان خلقها الله امتحانا لآدم وحمل الاهباط على النقل منها الى أرض الهند كما في قوله تعالى اهبطوا مصرا الما ان خلق آدم كان في الارض بلا خلاف ولم يذكر في هذه القصة رفعه الى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير لما أنه من أعظم النعم ولانها لو كانت دار الخلد لما دخلها ابليس وقيل انها كانت في السماء السابعة بدليل اهبطوا ثم ان الاهباط الاول كان منها الى السماء الدنيا والثاني منها الى الارض وقيل الكل ممكن والادلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع قاله أبو السعود قلت وقد استوعب الحافظ ابن القيم في كتابه حادي الارواح الى بلاد الافراح دلائل الفريقين من غير تصريح برجحان أحد القولين والله تعالى أعلم (وكلا منها) أي اجمعا بين الاستقرار والاكل من رزق الجنة (رغدا) رغد العيش اتسع ولان أي رزقا واسعا لينا وأرغد القوم أخصبوا والرغيدة الزبد (حيث شئتما) أي في أي مكان من الجنة شئتما وسع الامر عليهما ازاحة للعلة والعذر في التناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها التي لا تنحصر (ولا تقربا هذه الشجرة) يعني للاكل والقرب الدنو قال الاصمعي والنهي عن القرب فيه سد للذريعة وقطع للوسيلة ولهذا جاء به عوضا عن الاكل ولا يخفى ان النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الاكل لانه قد يأكل من ثمرة الشجرة من هو بعيد عنها اذا حمل اليه فالاولى أن يقال المنع من الاكل مستفاد من المقام والشجر ما كان له ساق من نبات الارض وواحده شجرة واختلف أهل العلم في تعيين هذه الشجرة فقيل هي الكرم وقيل هي السنبلة

في الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) يقول تعالى واذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا آمنا أظهروا لهم الايمان والموالاة والمصافاة غرورا منهم للمؤمنين ونفاقا ومصانعة وتقية وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم واذا خلوا الى شياطينهم يعني اذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا الى شياطينهم فضمن خلوا معنى انصرفوا التعديته بالى ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به ومنهم (٨٨) من قال الى هنا بمعنى مع والاول أحسن وعليه يدور كلام ابن جرير وقال السدي عن أبي مالك خلوا يعني مضوا وشياطينهم سادتهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود ورؤس المشركين والمنافقين قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واذا خلوا الى شياطينهم يعني هم رؤساءهم في الكفر وقال الضحاك عن ابن عباس واذا خلوا الى أصحابهم وهم شياطينهم وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس واذا خلوا الى شياطينهم من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد واذا خلوا الى شياطينهم الى أصحابهم من المنافقين والمشركين وقال قتادة واذا خلوا الى شياطينهم قال الى رؤسهم وقادتهم في الشرك والشر ونحو ذلك فسره أبو مالك وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس قال ابن جرير وشياطين كل شئ مردته ويكون الشيطان من الانس والجن كما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وفي المسند عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعوذ بالله من شياطين الانس والجن فقلت يا رسول الله أو للانس شياطين قال نعم وقوله تعالى قالوا انا معكم قال محمد بن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أي انا على مثل ما أنتم عليه انما نحن مستهزؤن أي انما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم وقال الضحاك عن ابن عباس قالوا انما نحن مستهزؤن ساخرون باصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك قال الربيع بن أنس وقتادة وقوله تعالى جوابا لهم

قاله ابن عباس وله عنه طريق صحيحة وقيل التين وقيل الحنطة وقيل اللوز وقيل النخلة وقيل هي شجرة العلم وقيل الكافور وقيل الاترج وقيل هي شبه البر وتسمى الدعة وهذا مروي عن جماعة من الصحابة فمن بعدهم وقيل عن جنس من الشجرة وقيل ليس في ظاهر الكلام مايدل على التعيين اذ لا حاجة اليه لانه ليس المقصود تعرف عين تلك الشجرة وما لا يكون مقصودا لا يجب بيانه (فتكونا من الظالمين) يعني ان أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما فمن جوز ارتكاب الذنوب على الانبياء قال ظلم نفسه بالمعصية والظلم أصله وضع الشئ في غير موضعه ومن لم يجوز ذلك على الانبياء حمل الظلم على انه فعل ما كان الاولى ان لا يفعله وكلام أهل العلم في عصمة الانبياء واختلاف مذاهبهم في ذلك مدون في مواطنه وقد أطال البحث في ذلك الرازي في تفسيره في هذا الموضع فليرجع اليه فانه مفيد (فأزلهما الشيطان) أي استزل آدم وحواء (عنها) أي الجنة ودعاهما الى الزلة وهي الخطيئة أي استزلهما وأوقعهما فيها وقيل من الازالة وهي التنحية أي نحاهما وقيل من الزوال وقد اختلف أهل العلم في الكيفية التي فعلها الشيطان في ازلالهما فقيل انه كان ذلك بمشافهة منه لهما واليه ذهب الجمهور واستدلوا على ذلك بقوله تعالى وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين والمقاسمة ظاهرها المشافهة وقيل لم يصدر منه الا مجرد الوسوسة والمفاعلة ليست على بابها بل للمبالغة وقيل غير ذلك (فأخرجهما مما كانا فيه) أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة الى المعصية وقيل الضمير للجنة وعلى هذا فالفعل مضمن معنى أبعدهما وانما نسب ذلك الى الشيطان لانه هو الذي تولى اغواء آدم حتى اكل من الشجرة (وقلنا اهبطوا) أي انزلوا الى الارض خطاب لآدم وحواء وخوطبا بما يخاطب به الجمع لان الاثنين أقل الجمع عند البعض من أئمة العربية وقيل انه خطاب لهما ولابليس وللحية فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود وأهبطت حواء بجدة وابليس بالايلة من أعمال البصرة والحية باصبهان وقيل خطاب لهما ولذريتهما لانهما لما كانا أصل هذا النوع الانساني جعلا بمنزلته ويدل على ذلك قوله (بعضكم لبعض عدو) فان هذه الجملة الواقعة حالا مبينا للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبوط تفيد ذلك يعني العداوة التي بين المؤمنين من ذرية آدم وبين ابليس واليه الاشارة بقوله تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا والعدو خلاف الصديق وهو من عدا اذا ظلم والعدوان الظلم الصراح وقيل انه مأخوذ

ومقابلة على صنيعهم الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون وقال ابن جرير أخبر تعالى انه فاعل بهم ذلك يوم القيامة فى قوله تعالى يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب الآية وقوله تعالى ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما الآية قال فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل قال وقال آخرون بل استهزاؤه (٨٩) بهم توبيخه اياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه والكفر به قال وقال آخرون هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل لمن يخدعه اذا ظفر به أنا الذى خدعتك ولم يكن منه خديعة ولكن قال ذلك اذا صار الامر اليه قالوا وكذلك قوله تعالى ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين والله يستهزئ بهم على الجواب والله لا يكون منه المكر ولا الهزء والمعنى ان المكر والهزء حاق بهم وقال آخرون قوله تعالى انما نحن مستهزؤن الله يستهزئ بهم وقوله يخادعون الله وهو خادعهم وقوله فيسخرون منهم سخر الله منهم ونسوا الله فنسيهم وما أشبه ذلك اخبار من الله تعالى انه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه اياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذى عليه استحقوا العقاب فى اللفظ وان اختلف المعنيان كما قال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله وقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه فالاول ظلم والثانى عدل فهما وان

من المجاوزة يقال عداه اذا جاوزه والمعنيان متقاربان فان من ظلم فقد تجاوز قال ابن فارس العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة والعداوة التى بين ذرية آدم والحية هى ما روى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا ما سالمناهن منذ حاربناهن أخرجه أبو داود وله عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف من ثارهن فليس منى وفى رواية الا الجان الابيض الذى كأنه قضيب فضة وعن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان بالمدينة جنا قد أسلموا فاذا رأيتم منهم شيأ فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان وفى رواية ان بهذه البيوت عوامر فاذا رأيتم منها شيأ فحرجوا عليه ثلاثا فان ذهب والا فاقتلوه فانه كافر (ولكم فى الارض مستقر) المراد بالمستقر وضع الاستقرار ومنه أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وقد يكون بمعنى الاستقرار ومنه الى ربك يومئذ المستقر فالآية محتملة للمعنيين ومثلها قوله جعل لكم الارض قرارا (ومتاع) المتاع ما يستمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها أى بلغة ومستمتع (الى حين) أى الى وقت انقضاء آجالكم واختلف المفسرون فى قوله حين فقيل الى الموت وقيل الى قيام الساعة وأصل معنى الحين فى اللغة الوقت البعيد ومنه هل أتى على الانسان حين من الدهر والحين الساعة ومنه أو تقول حين ترى العذاب والحين القطعة من الدهر ومنه فذرهم فى غمرتهم حتى حين أى حتى تفنى آجالهم ويطلق على السنة وقيل على ستة أشهر ومنه تؤتى أكلها كل حين ويطلق على المساء والصباح ومنه حين تمسون وحين تصبحون قال ابن العربى الحين المجهول لا يتعلق به حكم والحين المعلوم سنة (فتلقى آدم من ربه كلمات) ومعنى التلقى أخذه لها وقبوله لما فيها وعلمه بها وقيل فهمه لها وفطانته لما تضمنته وأصل معنى التلقى الاستقبال أى استقبل الكلمات الموحاة اليه وقيل ان معنى تلقى تلقن ولا وجه له فى العربية واختلف السلف فى تعيين هذه الكلمات فعن ابن عباس قال هى قوله ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وعنه قال علم شأن الحج وهى الكلمات وعن عبد الله بن زيد قال لا اله الا انت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى انك أنت أرحم الراحمين وروى نحوه عن أنس وسعيد بن جبير (فتاب عليه) أى فتجاوز عنه وغفر له وأصل التوبة من تاب يتوب اذا رجع (انه هو التواب) أى الرجاع

اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما قال والى هذا المعنى وجهوا كل ما فى القرآن من نظائر ذلك قال وقال آخرون ان معنى ذلك ان الله أخبر عن المنافقين انهم اذا خلوا الى مردتهم قالوا انا معكم على دينكم فى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به وانما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم مستهزؤن فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه فى الدنيا يعنى من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذى لهم عنده فى الآخرة يعنى من العذاب والنكال ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره لان المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالاجماع واما على وجه الانتقام

والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك قال وبنحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس حدثنا أبو كريب حدثنا أبو عثمان حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى الله يستهزئ بهم قال يسخر بهم للنقمة منهم وقوله تعالى ويمدهم في طغيانهم يعمهون قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يمدهم يملي لهم وقال مجاهد يزيدهم وقال تعالى أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقال سنستدرجهم من حيث (٩٠) لا يعلمون قال بعضهم كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة وهي في الحقيقة نقمة وقال تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين قال ابن جرير والصواب نزيدهم على وجه الاملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم كما قال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون والطغيان هو المجاوزة في الشئ كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية وقال الضحاك عن ابن عباس في طغيانهم يعمهون في كفرهم يترددون وكذا فسره السدي بسنده عن الصحابة وبه يقول أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد في كفرهم وضلالتهم قال ابن جرير والعمه الضلال يقال عمه فلان يعمه عمها وعموها اذا ضل قال وقوله في طغيانهم يعمهون في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالا لا يجدون الى المخرج منه سبيلا لان الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها فلا يبصرون رشدا ولا يهتدون سبيلا وقال بعضهم العمى في العين والعمه في القلب وقد يستعمل العمى في القلب أيضا قال الله تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وتقول عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه وجمعه عمه وذهبت ابله العمهاء اذا لم ير أين ذهبت (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أولئك الذين

على عباده بقبول التوبة (الرحيم) بخلقه (قلنا اهبطوا منها جميعا) اما في زمان واحد أو في أزمنة متفرقة لان المراد الاشتراك في أصل الفعل وهذا هو الفرق بين جاؤا جميعا وجاؤا معا يعني هؤلاء الاربعة أو آدم وحواء وذريتهما وكرر قوله اهبطوا للتوكيد والتغليظ وقيل انه لما تعلق به حكم غير الحكم الاول كرره ولا تزاحم بين المقتضيات فقد يكون التكرير للامرين معا أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال ما سكن آدم الجنة الا ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس وعنه ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى أهبط من الجنة وعن الحسن قال لبث آدم في الجنة ساعة من نهار تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا وأخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها وقد ثبت أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما في محاجة آدم وموسى عليهما السلام وحج موسى بقوله أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أخلق وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال أول ما أهبط الله آدم الى أرض الهند وعنه الى أرض بين مكة والطائف وعن علي أطيب ريح الارض الهند هبط بها آدم فعلق شجرها من ريح الجنة وقد روى عن جماعة من الصحابة ان آدم أهبط الى أرض الهند منهم جابر وابن عمر وعلي وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم حكايات في صفة هبوط آدم من الجنة وما أهبط معه وما صنع عند وصوله الى الارض ولا حاجة لنا ببسط جميع ذلك وقد ذكر طرفا منها الحافظ ابن القيم في الحادي (فاما يأتينكم مني هدى) أي رشد وبيان وشريعة وقيل كتاب ورسول وقيل التوفيق للهداية (فمن تبع هداي فلا خوف عليهم) فيما يستقبلهم وقيل عند الفزع الاكبر (ولا هم يحزنون) أي على ما خلفوا وفاتهم من الدنيا وقال ابن جبير لا خوف عليهم في الآخرة ولا يحزنون للموت والخوف هو الذعر ولا يكون الا في المستقبل والحزن ضد السرور قال اليزيدي حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم (والذين كفروا) أي جحدوا عطف على فمن تبع قسيم له (وكذبوا بآياتنا) أي بالقرآن (أولئك أصحاب النار) أي يوم القيامة وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران والملازمة (هم فيها خالدون) أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها وبقي قسم ثالث وهو من آمن ولم يعمل الطاعات فليس داخلا في الآيتين وقد تقدم تفسير الخلود (يا بني اسرائيل) اتفق المفسرون على ان اسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم

اشتروا الضلالة بالهدى قال أخذوا الضلالة وتركوا الهدى وقال ابن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى أى الكفر بالايمان وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا وقال قتادة استحبوا الضلالة على الهدى وهذا الذى قاله قتادة يشبهه فى المعنى قوله تعالى فى ثمود فاما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وحاصل قول المفسرين فيما تقدم ان المنافقين عدلوا عن الهدى الى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلالة وهو معنى قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى أى بذلوا الهدى ثمنا للضلالة وسواء فى ذلك من كان منهم قد حصل له الايمان ثم رجع عنه الى الكفر كما قال تعالى فيهم ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم فانهم أنواع وأقسام ولهذا قال تعالى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين أى ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة وما كانوا مهتدين أى راشدين فى صنيعهم ذلك وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى الى الضلالة ومن الجماعة الى الفرقة ومن الامن الى الخوف ومن السنة الى البدعة وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة بمثله سواء (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون) يقال مثل ومثل ومثيل أيضا والجمع امثال قال الله تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون

عليهم السلام ومعناه عبد الله لان اسر فى لغتهم هو العبد وايل هو الله وكذلك جبريل وهو عبد الله وميكائيل عبد الله قال القفال ان اسرا بالعبرانية فى معنى انسان فكأنه قيل رجل الله وقيل معناه صفوة الله والاول أولى والمعنى يا أولاد يعقوب والخطاب مع جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب فى أيام محمد صلى الله عليه وآله وسلم قيل ان له اسمين وقيل ان اسرائيل لقب له وهو اسم أعجمى غير منصرف وقد تصرفت فيه العرب بلغات كثيرة أفصحها لغة القرآن وهى قراءة الجمهور استدل به على دخول أولاد الاولاد فى الوقف على الاولاد (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) أى اشكروا وانما عبر عنه بالذكر لان من ذكر النعمة فقد شكرها ومن جحدها فقد كفرها والذكر بالكسر هو ضد الانصات وبالضم ضد النسيان وجعله بعض أهل العلم مشتركا بين ذكر القلب واللسان وقال الكسائى ما كان بالقلب فهو مضموم الذال وما كان باللسان فهو مكسور الذال قال ابن الانبارى والمعنى فى الآية اذكروا شكر نعمتى فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة وهى اسم جنس وحدها أنها المنفعة المفعولة على جهة الاحسان الى الغير وقيل المنفعة الحسنة والاول أولى والكلام على قيود هذا الحد وضروب النعمة مستوفى فى تفسير الرازى فليراجعه والنعم المخصوصة ببنى اسرائيل كثيرة من جملتها أنه جعل منهم أنبياء وأنزل عليهم الكتاب والمن والسلوى وأخرج لهم الماء من الحجر ونجاهم من آل فرعون وفلق لهم البحر وأغرق فرعون وظللهم بالغمام وغير ذلك من نعم كثيرة وقيل ان هذه النعمة هى ادراك المخاطبين بها زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاول أولى قال ابن الفارس فيه دليل على أن لله على الكفار نعمة خلافا لمن قال لا نعمة لله عليهم وانما النعمة للمؤمنين (وأوفوا بعهدى) أى امتثلوا أمرى يقال أوفى ووفى مشددا ووفى مخففا ثلاث لغات بمعنى وقيل يقال وفيت ووفيت بالعهد وأوفيت بالكيل لا غير واختلف أهل العلم فى العهد المذكور فى هذه الآية ما هو فقيل هو المذكور فى قوله تعالى خذوا ما آتيناكم بقوة وقيل هو ما فى قوله ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقيل هو قوله ولقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس وقيل ان المراد من هذا العهد ما أثبته فى الكتب المتقدمة من وصف محمد صلى الله عليه وآله وسلم وانه سيبعثه على ما صرح بذلك فى سورة المائدة بقوله ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل الى قوله لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار وقال فى سورة الاعراف ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها

وتقدير هذا المثل ان الله سبحانه شبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة الى العمى بمن استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبيناه كذلك اذ طفئت ناره وصار فى ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر فلهذا لا يرجع الى ما كان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى واستحبابهم العمى على الرشد وفى هذه المثل دلالة على انهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع والله أعلم وقد حكى هذا الذى قلناه الرازى فى تفسيره عن السدى ثم قال والتشبيه ههنا فى غاية الصحة لانهم

بايمانهم اكتسبوا أولا نورا ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك فوقعوا فى حيرة عظيمة فانه لا حيرة أعظم من حيرة الدين وزعم ابن جرير ان المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الاوقات واحتج بقوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين والصواب ان هذا اخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم وهذا لا ينفى انه كان حصل لهم ايمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ههنا وهى قوله تعالى ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون فلهذا وجه هذا المثل بانهم استضاؤا بما أظهروه من (٩٢) كلمة الايمان أى فى الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة قال وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت أى كدوران الذى يغشى عليه من الموت وقال تعالى ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقال تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا وقال بعضهم تقدير الكلام مثل قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارا وقال بعضهم المستوقد واحد لجماعة معه وقال آخرون الذى ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر

وان الذى حانت بفلج دماؤهم

هم القوم كل القوم يا أم خالد

قلت وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد الى الجمع فى قوله تعالى فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون وهذا أفصح فى الكلام وأبلغ فى النظام وقوله تعالى ذهب الله بنورهم أى ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرهم وهو الاحراق والدخان وتركهم فى ظلمات وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق لا يبصرون لا يهتدون الى سبيل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك صم لا يسمعون خيرا بكم لا يتكلمون الاستيلاء بما ينفعهم عمى فى ضلالة وعماية البصيرة كما قال تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فلهذا لا يرجعون الى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة *ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه* قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة فى قوله تعالى فلما أضاءت ما حوله زعم ان ناسا دخلوا فى الاسلام مقدم نبى الله صلى الله عليه وسلم المدينة ثم انهم نافقوا وكان مثلهم كمثل رجل كان

للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل وأما عهد الله معهم فهو أن ينجز لهم ما وعدهم من وضع ما كان عليهم من الاصر والاغلال التى كانت فى أعناقهم وقال واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق الآية وقال واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد وقال ابن عباس ان الله تعالى كان عهد الى بنى اسرائيل فى التوراة انى باعث من بنى اسمعيل نبيا أميا فمن تبعه وصدق بالنور الذى يأتى به أى بالقرآن غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة وجعلت له أجرين أجرا باتباع ما جاء به موسى وجاءت به سائر أنبياء بنى اسرائيل وأجرا باتباع ما جاء به محمد النبى الامى من ولد اسمعيل وتصديق هذا فى القرآن فى قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون الى قوله أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وكان على بن عيسى يقول تصديق ذلك فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته وتصديقه أيضا فيما روى أبو موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بعيسى ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فله أجران ورجل أدب أمته فأحسن تاديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ورجل أطاع الله وأطاع سيده فله أجران ولنذكر الآن بعض ما جاء فى كتب الانبياء المتقدمين من البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالاول جاء فى الفصل التاسع من السفر الاول من التوراة ان هاجر لما غضبت عليها سارة ترا آلها ملك الله فقال لها يا هاجر أين تريدين ومن أين أقبلت قالت أهرب من سيدتى سارة فقال لها ارجعى الى سيدتك واخضعى لها فان الله سيكثر زرعك وذريتك وستحبلين وتلدين ابنا وتسميه اسمعيل من أجل ان الله سمع تبتلك وخشوعك وهو يكون عين الناس وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة اليه بالخضوع وهو يشكر على رغم جميع اخوته واعلم ان الاستدلال بهذا الكلام أن هذا الكلام خرج مخرج البشارة وليس يجوز أن يبشر الملك من قبل الله بالظلم والجور وبامر لا يتم الا بالكذب على الله تعالى ومعلوم أن اسمعيل وولده لم يكونوا متصرفين فى الكل أعنى فى معظم الدنيا ومعظم الامم ولا كانوا مخالطين للكل على سبيل

في ظلمة فاوقد نارا فلما أضاءت ماحوله من قذى أو أذى فابصره حتى عرف ما يتقى منه فبينما هو كذلك اذ طفئت ناره فاقبل لا يدرى ما يتقى من أذى فذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فاسلم فعرف الحلال والحرام والخير والشر فبينما هو كذلك اذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية قال أما النور فهو ايمانهم الذي كانوا يتكلمون به وأما الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك وقال مجاهد فلما أضاءت ماحوله أما اضاءة النار فاقبالهم الى المؤمنين والهدى وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب وقال ابن أبي حاتم وروى عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم في قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا الى آخر الآية قال هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الايمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا نارا ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين انهم كانوا يعتزون بالاسلام فينا كحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فاضاء ما حوله النار ما أوقدها فاذا خمدت ذهب نورها وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الاخلاص بلا اله الا الله أضاء له فاذا شك وقع في الظلمة وقال الضحاك ذهب الله بنورهم أما نورهم فهو ايمانهم الذي تكلموا به وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله فهي لا اله الا الله أضاءت لهم فاكلوا بها وشربوا وآمنوا في الدنيا وأنكحوا النساء وحقنوا دماءهم حتى اذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية

الاستيلاء الا بالاسلام لانهم كانوا قبل الاسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في أوائل العراق وأوائل الشام الا على أتم خوف فلما جاء الاسلام استولوا على الشرق والغرب بالاسلام وما زجوا الامم ووطئوا بلادهم وما زجتهم الامم وجوا بينهم ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة فلو لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صادقا لكانت هذه المخالطة منهم للامم ومن الامم لهم معصية لله تعالى وخروجا عن طاعته الى طاعة الشيطان والله يتعالى عن أن يشرع بما هذا سبيله والثاني جاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس ان الرب الهكم يقيم لكم نبيا مثلي من بينكم ومن اخوانكم وفي هذا الفصل ان الرب تعالى قال لموسى اني مقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوانهم وأيما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها عني ذلك الرجل باسمي أنا أنتقم منه وهذا الكلام يدل على ان النبي الذي يقيمه الله تعالى ليس من بني اسرائيل كما أن من قال لبني هاشم انه سيكون من اخوانكم امام عقل منه أنه لا يكون من بني هاشم ثم ان يعقوب عليه السلام هو اسرائيل ولم يكن له أخ الا العيص ولم يكن للعيص ولد من الانبياء سوى أيوب وانه كان قبل موسى عليه السلام فلا يجوز أن يكون موسى عليه السلام مبشرا به واما اسمعيل فانه كان أخا لاسحق والد يعقوب ثم ان كل نبي بعث بعد موسى كان من بني اسرائيل فالنبي عليه السلام ما كان منهم لكنه كان من اخوانهم لانه من ولد اسمعيل الذي هو أخو اسحق عليهم السلام فان قيل قوله من بينكم يمنع من أن يكون المراد محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لانه لم يقم من بين بني اسرائيل قلنا بل قد قام من بينهم لانه عليه السلام ظهر بالحجاز فبعث بمكة وهاجر الى المدينة وبها تكامل أمره وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كخيبر وبني قينقاع والنضير وغيرهم وأيضا فان الحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا اذ ذاك بالشام فاذا قام محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالحجاز فقد قام من بينهم وأيضا فانه اذا كان من اخوانهم فقد قام من بينهم فانه ليس ببعيد منهم والثالث قال في الفصل العشرين من هذا السفر ان الرب تعالى جاء في طور سيناء وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وصف عن يمينه عنوات القديسين فتحهم العز وحببهم الى الشعوب ودعا لجميع قديسية بالبركة وجه الاستدلال ان جبل فاران وهو بالحجاز لان في التوراة ان اسمعيل تعلم الرمي في برية فاران ومعلوم أنه انما سكن بمكة اذا ثبت هذا فنقول ان قوله فتحهم العز لا يجوز أن يكون المراد اسمعيل

ان المعنى ان المنافق تكلم بلا اله الا الله فاضاءت له فى الدنيا فناكح بها المسلمين وغازاهم بها ووارثهم بها وحقن بها دمه وماله فلما كان عند الموت سلبها المنافق لانه لم يكن لها أصل فى قلبه ولا حقيقة فى عمله وتركهم فى ظلمات لا يبصرون قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وتركهم فى ظلمات لا يبصرون يقول فى عذاب اذا ماتوا وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وتركهم فى ظلمات أى يبصرون الحق ويقولون به حتى اذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفؤه بكفرهم ونفاقهم فيه فتركهم فى ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى (٩٤) ولا يستقيمون على حق وقال السدى فى تفسيره بسنده وتركهم فى ظلمات فكانت الظلمة نفاقهم وقال الحسن البصرى وتركهم فى ظلمات لا يبصرون فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله عمل السوء فلا يجد له عملا من خير عمل به يصدق به قول لا اله الا الله صم بكم عمى قال السدى بسنده صم بكم عمى فهم خرس عمى وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس صم بكم عمى يقول لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه وكذا قال أبو العالية وقتادة بن دعامة فهم لا يرجعون قال ابن عباس أى لا يرجعون الى هدى وكذا قال الربيع بن أنس وقال السدى بسنده صم بكم عمى فهم لا يرجعون الى الاسلام وقال قتادة فهم لا يرجعون أى لا يتوبون ولا هم يذكرون * (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شئ قدير)

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وترددهم كصيب والصيب المطر قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة وأبو العالية ومجاهد وسعيد ابن جبير وعطاء والحسن البصرى وقتادة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى والسدى والربيع بن أنس وقال الضحاك هو السحاب والاشهر هو المطر نزل من السماء فى حال ظلمات وهى الشكوك والكفر والنفاق ورعد وهو ما يزعج القلوب من الخوف فان من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى يحسبون كل صيحة عليهم وقال ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم

عليه السلام لانه لم يحصل عقيب سكنى اسمعيل عليه السلام هنالك عز ولا اجتمع هنالك ربوات القدسيين فوجب حمله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم قالت اليهود المراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير نارا أيضا ومن جبل فاران أيضا فانتشرت فى هذه المواضع قلنا هذا لا يصح لان الله تعالى لو خلق نارا فى موضع فانه لا يقال جاء الله من ذلك الموضع الا اذا تبع تلك الواقعة وحى نزل فى ذلك الموضع أو عقوبة وما أشبه ذلك وعندكم أنه لم يتبع ظهور النار وحى ولا كلام الا من طور سيناء فما كان ينبغى الا أن يقال جاء الله من طور سيناء فاما أن يقال ظهر من ساعير ومن جبل فاران فلا يجوز وروده كما لا يقال جاء الله من الغمام اذا ظهر فى الغمام احتراق ونيران كما يتفق ذلك فى أيام الربيع وأيضا ففى كتاب حبقوق بيان ما قلنا وهو جاء الله من طور سيناء والقدس من جبل فاران لما انكشفت السماء من بهاء محمد وامتلأت الارض من حمده يكون شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعزه تسير المنايا أمامه ويصحب سباع الطير أجناده قام فمسح الارض وتامل الامم وبحث عنها فتضعضعت الجبال القديمة واتضعت الروابى الدهرية وتزعزعت ستور أهل مدين ركبت الخيول وعلوت مراكب الانقياد والغوث وستنزع فى قسيك اغراقا ونزعا وترتوى السهام بامرك يا محمد ارتواء وتخور الارض بالانهار ولقد رأتك الجبال فارتاعت وانحرف عنك شؤبوب السيل ونفرت المهارى نفيرا ورعبا ورفعت أيديها وجلا وفرقا وتوقفت الشمس والقمر عن مجراهما وسارت العساكر فى برق سهامك ولمعان بيانك تدوخ الارض غضبا وتدوس الامم زجرا لانك ظهرت بخلاص أمتك وانقاذ تراب آبائك هكذا نقل عن ابن رزين الطبرى أما النصارى فقال أبو الحسين رحمه الله تعالى فى كتاب الغرر قد رأيت فى نقولهم وظهر من جبال فاران لقد تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود وترتوى السهام بامرك المحمود لانك ظهرت بخلاص أمتك وانقاذ مسيحك فظهر مما ذكرنا ان قوله تعالى فى التوراة ظهر الرب من جبال فاران ليس معناه ظهور النار منه بل معناه ظهور شخص موصوف بهذه الصفات وما ذاك الا رسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فان قالوا المراد مجىء الله تعالى ولهذا قال فى آخر الكلام وانقاذ مسيحك قلنا لا يجوز وصف الله تعالى بانه يركب الخيول وبان شعاع منظره مثل النور وبانه جاز المشاعر القديمة وأما قوله وانقاذ مسيحك فان محمدا عليه السلام أنقذ المسيح من كذب اليهود والنصارى والرابع

قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون والبرق هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الاحيان من نور الايمان ولهذا قال يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيأ لان الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وارادته كما قال هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط بهم ثم قال يكاد البرق يخطف أبصارهم أي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للايمان وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يكاد البرق يخطف (٩٥) أبصارهم يقول يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين وقال ابن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس يكاد البرق يخطف أبصارهم أي لشدة ضوء الحق كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا أي كلما ظهر لهم من الايمان شيء استأنسوا به واتبعوه وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كلما أضاء لهم مشوا فيه يقول كلما أصاب المنافقين من عز الاسلام اطمأنوا اليه واذا أصاب الاسلام نكبة قاموا ليرجعوا الى الكفر كقوله تعالى ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وقال محمد ابن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا أي يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فاذا ارتكسوا منه الى الكفر قاموا أي متحيرين وهكذا قال أبو العالية والحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس والسدي بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله اعلم وهكذا يكونون يوم القيامة عند ما يعطى الناس النور بحسب ايمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى ومنهم من يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا وقال في حق المؤمنين يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار الآية وقال تعالى يوم لا يخزي الله

ما جاء في كتاب شعيا في الفصل الثاني والعشرين منه قوما فاز هري مصباحك يريد مكة فقد دنا وقتك وكرامة الله تعالى طالعة عليك فقد تجلل الارض الظلام وغطى على الامم الضباب والرب يشرق عليك اشراقا ويظهر كرامته عليك تسير الامم الى نورك والملوك الى ضوء طلوعك وارفعي بصرك الى ما حولك وتاملي فانهم مستجمعون عندك ويجيئونك ويأتيك ولدك من بعيد لانك أم القرى فاولاد سائر البلاد كأنهم أولادك تتزين ثيابك على الارائك والسرر حينئذ ترين ذلك تسرين وتبتهجين من أجل انه يميل اليك ذخائر البحر ويجيء اليك عساكر الامم ويساق اليك كباش مدين ويأتيك أهل سبا ويتحدثون بنعم الله ويمجدونه وتسير اليك أغنام فاران ويرفع الى مذبحي ما يرضيني وأحدث حينئذ لبيت مجدتي مجدا فوجه الاستدلال ان هذه الصفات كلها موجودة لمكة فانه قد جيء اليها عساكر الامم ومال اليها ذخائر البحر وقوله أحدث لبيت مجدتي مجدا معناه ان العرب كانت تلبي قبل الاسلام فتقول لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك ثم صار في الاسلام لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك فهذا هو الحمد الذي جدده الله لبيت محمدته فان قيل المراد بذلك بيت المقدس وسيكون ذلك فيما بعد قلنا لا يجوز أن يقول الحكيم قد دنا وقتك مع أنه ما دنا بل الذي دنا أمر لا يوافق رضاه ومع ذلك لا يحذر منه وأيضا فان كتاب شعيا مملوء من ذكر البادية وصفتها وذلك يبطل قولهم الخامس روى السمان في تفسيره في السفر الاول من التوراة أن الله تعالى أوحى الى ابراهيم عليه السلام قال قد أجبت دعاءك في اسمعيل وباركت عليه فكبرته وعظمته جدا جدا وسيلد اثني عشر عظيما وأجعله لامة عظيمة والاستدلال به أنه لم يكن في ولد اسمعيل من كان لامة عظيمة غير نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاما دعاء ابراهيم عليه السلام واسمعيل فكان لرسولنا عليه الصلاة والسلام لما فرغا من بناء الكعبة وهو قوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم ولهذا كان يقول عليه الصلاة والسلام انا دعوة أبي ابراهيم وبشارة عيسى وهو قوله ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فانه مشتق من الحمد والاسم المشتق من الحمد ليس الا لنبينا فان اسمه محمد وأحمد ومحمود قيل ان صفته في التوراة ان مولده بمكة ومسكنه بطيبة وملكه بالشام وأمته الحامدون والسادس قال المسيح للحواريين أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط

النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شئ قدير * (ذكر الحديث الوارد في ذلك) * قال سعيد بن أبي عروبة في قوله تعالى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات الآية ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول من المؤمنين من يضئ نوره من المدينة الى عدن أبين بصنعاء ودون ذلك حتى ان من المؤمنين من لا يضئ نوره الا موضع قدميه رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث عمران بن داود القطان عن قتادة بنحوه وهذا كما قال المنهال بن عمرو عن قيس ابن السكن عن عبد الله بن مسعود قال يؤتون (٩٦) نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نورا على ابهامه يطفأ مرة ويقد مرة وهكذا رواه ابن جرير عن ابن مثنى عن ابن ادريس عن أبيه عن المنهال وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن علي بن محمد الطنافسي حدثنا ابن ادريس سمعت أبي يذكر عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود نورهم يسعى بين أيديهم قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نورا من نوره في ابهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا محمد بن اسمعيل الاحمسي حدثنا أبو يحيى الحماني حدثنا عتبة بن اليقظان عن عكرمة عن ابن عباس قال ليس أحد من أهل التوحيد الا يعطى نورا يوم القيامة فاما المنافق فيطفأ نوره فالمؤمن مشفق مما يرى من اطفاء نور المنافقين فهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا وقال الضحاك بن مزاحم يعطى كل من كان يظهر الايمان في الدنيا يوم القيامة نورا فاذا انتهى الى الصراط طفئ نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا ربنا اتمم لنا نورنا فاذا تقرر هذا صار معلوم الناس أقساما مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الاربع في أول البقرة وكفار خلص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسمان خلص وهم المضروب لهم المثل الناري ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الايمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي وهم أخف حالا من الذين قبلهم وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري وهي قلب المؤمن المفطور على الايمان

روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه انما يقول كما يقال له وتصديق ذلك ان أتبع الا ما يوحى الي وقوله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الي أما الفارقليط ففي تفسيره وجهان أحدهما انه الشافع المشفع وهذا أيضا صفته عليه الصلاة والسلام الثاني قال بعض النصارى الفارقليط هو الذي يفرق بين الحق والباطل وكان في الاصل فاروق كما يقال راووق للذي يروق به وأما ليط فهو التحقيق في الامر كما يقال شيب أشيب ذو شيب وهذا أيضا صفة شرعنا لانه هو الذي يفرق بين الحق والباطل والسابع قال دانيال لبخت نصر حين سأله عن الرؤيا التي كان رآها من غير ان قصها عليه رأيت أيها الملك منظرا هائلا رأسه من الذهب الابريز وساعده من الفضة وبطنه وفخذاه من نحاس وساقاه من حديد وبعض رجليه من حديد وبعضها من خزف ورأيت حجرا يقطع من غير قاطع وصك رجل ذلك الصنم ودقها دقا شديدا فتفتت الصنم كله حديده ونحاسه وفضته وذهبه وصارت رفاتا وعصفت بها الرياح فلم يوجد لها أثر وصار ذلك الحجر الذي صك ذلك الرجل من ذلك الصنم جبلا عاليا امتلأت به الارض فهذا رؤياك أيها الملك وأما تفسيرها فأنت الرأس الذي رأيته من الذهب ويقوم بعدك مملكة أخرى دونك والمملكة الثالثة التي تشبه النحاس تنبسط على الارض كلها والمملكة الرابعة تكون قوتها مثل الحديد واما الرجل التي كان بعضها من حديد وبعضها من خزف فان بعض المملكة يكون عزيزا وبعضها يكون ذليلا وتكون كلمة الملك متفرقة ويقيم الله السماء في تلك الايام مملكة أبدية لا تتغير ولا تزول وانها تزيل جميع الممالك وسلطانها يبطل جميع السلاطين وتقوم هي الى الدهر الدهر فهذا تفسير الحجر الذي رأيت أنه يقطع من جبل بلا قاطع حتى دق الحديد والنحاس والخزف والله أعلم بما يكون في آخر الزمان فهذه هي البشارات الواردة في الكتب المتقدمة بمبعث رسولنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وبارك وسلم ذكره الرازي وقال الزجاج المراد بالعهد ما أخذ عليهم في التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو أداء الفرائض وقيل أراد جميع ما أمر الله به من غير تخصيص ببعض التكاليف دون بعض ولا مانع من حمله على جميع ذلك (أوف بعهدكم) أي بما ضمنت لكم من الجزاء وقيل بالقبول والثواب عليه بدخول الجنة (وايای فارهبون) أي فخافون في نقضكم العهد والرهب والرهبة الخوف ويتضمن الامر به معنى التهديد وتقديم

واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة اليه من غير كدر ولا تخليط كما سياتى تقريره فى موضعه ان شاء الله ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون انهم على شئ وليسوا على شئ وهم أصحاب الجهل المركب فى قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا الآية ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فقسم الكفار ههنا الى قسمين داعية ومقلد كما ذكرهما فى أول سورة الحج ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد وقال ومن الناس من يجادل (٩٧) فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وقد قسم الله المؤمنين فى أول الواقعة وفى آخرها وفى سورة الانسان الى قسمين سابقون وهم المقربون وأصحاب يمين وهم الابرار فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات ان المؤمنين صنفان مقربون وأبرار وان الكافرين صنفان دعاة ومقلدون وان المنافقين أيضا صنفان منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان استدلوا به على ان الانسان قد تكون فيه شعبة من ايمان وشعبة من نفاق اما عملى لهذا الحديث أو اعتقادى كما دلت عليه الآية كما ذهب اليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سياتى ان شاء الله قال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية يعنى شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فاما القلب الاجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره وأما القلب الاغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فاى المادتين غلبت على الاخرى غلبت عليه وهذا اسناد جيد حسن وقوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على

معمول الفعل يفيد الاختصاص قال صاحب الكشاف وهو آكد فى افادة التخصيص من اياك نعبد والفاء جواب أمر مقدر أى تنبهوا فارهبون أو زائدة وسقطت الياء من قوله فارهبون لانها رأس آية (وآمنوا بما أنزلت) يعنى القرآن (مصدقا لما معكم) أى لما فى التوراة من التوحيد والنبوة والاخبار ونعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم (ولا تكونوا أول كافر به) المراد أهل الكتاب لانهم العارفون بما يجب للانبياء وما يلزم من التصديق أى لا تكونوا يا معشر اليهود أول كافر بهذا النبى صلى الله عليه وآله وسلم مع كونكم قد وجدتموه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل مبشرا به فى الكتب المنزلة عليكم وقد حكى الرازى فى تفسيره فى هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الكتب السابقة وقيل الضمير فى به عائد الى القرآن المدلول عليه بقوله بما أنزلت وقيل عائد الى التوراة المدلول عليها بقوله لما معكم والخطاب لجماعة والكافر لفظه واحد وهو فى معنى الجمع أى أول الكفار أو أول فريق كافر ومفهوم الصفة غير مراد هنا فلا يرد أن المعنى بل آخر كافروا نما ذكرت الاولية لانها أفحش لما فيها من الابتداء بالكفر بل يجب ان تكونوا أول فريق مؤمن به لانكم أهل نظر فى معجزاته والعلم بشأنه وصفاته (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) أى لا تستبدلوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم التى فى التوراة عوضا يسيرا من الدنيا لان الدنيا بالنسبة الى الآخرة كالشئ اليسير الحقير الذى لا قيمة له والذى كانوا يأخذونه من الدنيا كالشئ اليسير بالنسبة الى جميعها فهو قليل القليل وهذه الآية وان كانت خطابا لبنى اسرائيل ونهيا لهم فهى متناولة لهذه الامة بفحوى الخطاب أو بلحنه فمن أخذ من المسلمين رشوة على ابطال حق أمر الله به أو اثبات باطل نهى الله عنه أو امتنع من تعليم ما علمه الله وكتم البيان الذى أخذ الله عليه ميثاقه به فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا (وايای فاتقون) بالايمان واتباع الحق والاعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادى لما فى الآية الثانية فصلت بالرهبة التى هى من مقدمات التقوى أولان الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين واما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذى هو المنتهى وباقى الكلام فيه كالكلام فى قوله وايای فارهبون وقد تقدم قريبا (ولا تلبسوا الحق بالباطل) أى ولا تكتبوا فى التوراة ما ليس فيها فيختلط الحق المنزل

كل شئ قدير قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم قال لماتركوا من الحق بعد معرفته ان الله على كل شئ قدير قال ابن عباس أي ان الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير وقال ابن جرير انما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شئ في هذا الموضع لانه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم انه بهم محيط وعلى اذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ومعنى قدير قادر كما معنى عليم عالم وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين الى ان هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون أو في قوله تعالى أو كصيب من السماء بمعنى الواو كقوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٩٨) أو تكون للتخيير أي أضرب لهم مثلا بهذا وان شئت بهذا قال القرطبي أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشري ان كلا منهما مساو للآخر في اباحة الجلوس اليه ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلا بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم (قلت) وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فانهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة ومنهم ومنهم ومنهم يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الافعال والاقوال فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لاحوالهم وصفاتهم والله أعلم كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفي الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة الى أن قال أو كظلمات في بحر لجي الآية فالاول للدعاة الذين هم في جهل مركب والثاني لذوي الجهل البسيط من الاتباع المقلدين والله أعلم بالصواب (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بانه تعالى هو المنعم على عبيده باخراجهم من العدم الى الوجود واسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة فبان جعل لهم الارض فراشا أي مهدا كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات والسماء بناء وهو السقف كما قال في الآية الاخرى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وأنزل لهم من السماء ماء والمراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم اليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقا لهم ولانعامهم كما قرر هذا في غير موضع من

بالباطل الذي كتبتم وقيل لا تخلطوا الحق من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالباطل من تغيير صفته واللبس الخلط وقيل هو مأخوذ من التغطية أي لا تغطوا الحق بالباطل والاول أولى والباء للالصاق على الاول وقيل للاستعانة واستبعده أبو حيان وقال فيه صرف عن الظاهر من غير ضرورة قال السمين ولا أدري ما هذا الاستبعاد مع وضوح هذا المعنى الحسن والباطل في كلام العرب الزائل والباطل الشيطان والمراد به هنا خلاف الحق والمراد النهي عن كتم حجج الله التي أوجب عليهم تبليغها وأخذ عليهم بيانها ومن فسر اللبس أو الكتمان بشئ معين ومعنى خاص كما تقدم فلم يصب ان أراد أن ذلك هو المراد دون غيره لا ان أراد انه مما يصدق عليه (وتكتموا الحق) لما فيه من الضرر والفساد وفيه ان العالم بالحق يجب عليه اظهاره ويحرم عليه كتمانه وفيه تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله فصار هذا الخطاب وان كان خاصا في الصورة عاما في المعنى فعلى كل أحد أن لا يلبس الحق بالباطل ولا يكتم الحق (وأنتم تعلمون) فيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل وذلك أغلظ للذنب وأوجب للعقوبة وهذا التقييد لا يفيد جواز اللبس والكتمان مع الجهل لان الجاهل يجب عليه أن لا يقدم على شئ حتى يعلم بحكمه خصوصا في أمور الدين فان التكلم فيها والتصديق للاصدار والايراد في أبوابها انما أذن الله به لمن كان رأسا في العلم فردا في الفهم وما للجهال والدخول فيما ليس من شانهم والقعود في غير مقاعدهم واعلم ان كثيرا من المفسرين جاؤا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الامور المتعلقة بكتاب الله سبحانه وذلك انهم أرادوا ان يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاؤا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الانصاف وينزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الاهم من التاليف كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه ومن تاخره وان هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف ان هذا القرآن ما زال ينزل مفرقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى أن قبضه الله عز وجل اليه وكل عاقل فضلا عن عالم لا يشك ان هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالا وتحليل أمر كان

القرآن ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم فهذا يستحق ان يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك الحديث وكذا حديث معاذ أتدرى ما حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ الحديث وفى الحديث الآخر لا يقولن أحدكم ماشاء الله (٩٩) وشاء فلان ولكن ليقل ماشاء الله ثم شاء فلان وقال حماد بن سلمة حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعى بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة أم المؤمنين لأمها قال رأيت فيما يرى النائم كأنى أتيت على نفر من اليهود فقلت من أنتم قالوا نحن اليهود قلت انكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله قالوا وانكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد قال ثم مررت بنفر من النصارى فقلت من أنتم قالوا نحن النصارى قلت انكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله قالوا وانكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال هل أخبرت بها أحدا قلت نعم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فان طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وانكم قلتم كلمة كان ينهى كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ماشاء الله وحده هكذا رواه ابن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة به وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به نحوه وقال سفيان بن سعيد الثورى عن الاجلح بن عبد الله الكندى عن يزيد بن الاصم عن ابن عباس قال قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ماشاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا قل ماشاء الله وحده رواه ابن مردويه وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الاجلح به وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والله أعلم وقال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال الله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم

كان حراما واثبات أمر لشخص أو اشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله وتارة يكون الكلام مع المسلمين وتارة مع الكافرين وتارة مع من مضى وتارة مع من حضر وحينا فى عبادة وحينا فى معاملة ووقتا فى ترغيب ووقتا فى ترهيب وآونة فى بشارة وآونة فى نذارة وطورا فى أمر دنيا وطورا فى أمر آخرة ومرة فى تكاليف آتية ومرة فى أقاصيص ماضية واذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ومتباينة هذا التباين الذى لا يتيسر معه الائتلاف فالقرآن النازل فيها هو باعتبار نفسه مختلف كاختلافها فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون والماء والنار والملاح والحادى وهل هذا الا من فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من فى قلبه مرض أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور فانه اذا وجد أهل العلم يتكلمون فى التناسب بين جميع آى القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه وأنه لا يكون القرآن بليغا معجزا الا اذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة وتبين الامر الموجب للارتباط فان وجد الاختلاف بين الآيات رجع الى ما قاله المتكلمون فى ذلك فوجده تكلفا محضا وتعسفا بينا انقدح فى قلبه ما كان عنه فى عافية وسلامة هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتبا على هذا الترتيب الكائن فى المصحف فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب وأيسر حظ من معرفته يعلم علما يقينا أنه لم يكن كذلك ومن شك فى هذا وان لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع الى كلام أهل العلم العارفين باسباب النزول المطلعين على حوادث النبوة فانه ينشرح صدره ويزول عنه الريب بالنظر فى سورة من السور المتوسطة فضلا عن المطولة فانه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت فى حوادث مختلفة وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها وما نزل فيها فى الترتيب بل يكفى المقصر أن يعلم ان أول ما نزل اقرأ باسم ربك الذى خلق وبعده يا أيها المدثر يا أيها المزمل وينظر أين موضع هذه الآيات والسور فى ترتيب المصحف واذا كان الامر هكذا فأى معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعا أنه قد تقدم فى ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخرا وتأخر ما أنزله الله متقدما فان هذا عمل لا يرجع الى ترتيب نزول القرآن بل الى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة وما أقل نفع مثل هذا وأن رثرثته وأحقر فائدته بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الاوقات وانفاق الساعات فى

وبه عن ابن عباس فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون أي لا تشركوا بالله غيره من الانداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم اليه الرسول صلى الله عليه وسلم من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه وهكذا قال قتادة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم حدثنا أبي عمرو حدثنا أبي الضحاك بن مخلد أبو عاصم حدثنا شبيب بن بشر حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قول الله عز وجل فلا تجعلوا لله أندادا قال الانداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول والله وحياتك يا فلان وحياتي ويقول لولا كلبة هذا الأتانا اللصوص البارحة ولولا البط في الدار لأتى اللصوص وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت وقول الرجل لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلان هذا كله به شرك وفي الحديث ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماشاء الله وشئت قال أجعلتني لله ندا وفي الحديث الآخر نعم القوم أنتم لولا أنكم تندون تقولون ماشاء الله وشاء فلان قال أبو العالية فلا تجعلوا لله أندادا أي عدلا شركاء وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبو مالك واسمعيل بن أبي خالد وقال مجاهد فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون قال تعلمون أنه اله واحد في التوراة والانجيل * ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحرث الاشعري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني اسرائيل أن يعملوا بهن وأنه كاد أن يبطئ بها فقال له عيسى عليه السلام انك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بهن فاما أن تبلغهن واما ان أبلغهن فقال يا أخي انى أخشى ان سبقتني أن أعذب أو يخسف بي قال فجمع يحيى بن زكريا بني اسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ فان مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته الى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وان الله خلقكم ورزقكم

المقام

أمر لا يعود بنفع على فاعله ولا على من يقف عليه من الناس وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وانشاآته أو الى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة مدحا وأخرى هجاء وحينا تشبيبا وحينا رثاء وغير ذلك من الانواع المتخالفة فعمد هذا المتصدي الى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعه ثم تكلف تكلفا آخر فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد والخطبة التي خطبها في الحج والخطبة التي خطبها في النكاح ونحو ذلك وناسب بين الانشاء الكائن في العزاء والانشاء الكائن في الهناء وما يشابه ذلك لعد هذا المتصدي لمثل هذا مصابا في عقله متلاعبا بأوقاته عابثا بعمره الذي هو رأس ماله واذا كان مثل هذا بهذه المنزلة وهو ركوب الاحموقة في كلام البشر فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه الذي أعجزت بلاغته بلغاء العرب وأبكمت فصاحته فصحاء عدنان وقحطان وقد علم كل مقتصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربي وأنزله بلغة العرب وسلك فيه مسالكهم في الكلام وجرى فيه مجاريهم في الخطاب وقد علمنا أن خطبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتي بفنون مختلفة وطرائق متباينة فضلا عن المقامين فضلا عن المقامات فضلا عن جميع ما قاله مادام حيا وكذلك شاعرهم ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي يعثر في ساحتها كثير من المحققين وانما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن لان الكلام هنا قد انتقل مع بني اسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام فاذا قال متكلف كيف ناسب هذا ما قبله قلنا الا كيف

فدع عنك تنهابا صحيحا في حجراته * وهات حديثا ما حديث الرواحل

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) المراد هنا الصلاة المعهودة وهي صلاة المسلمين يعني الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها على أن التعريف للعهد ويجوز أن يكون للجنس ومثلها الزكاة والايتاء الاعطاء والزكاة مأخوذة من الزكاء وهو النماء وسمي اخراج جزء من المال زكاة أي زيادة مع أنه نقص منه لانها تكثر بركته أو يكثر أجر صاحبه وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال زكى فلان أي طهر والظاهر ان الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها قد نقلها الشرع الى معان شرعية هي المرادة بما هو مذكور في الكتاب والسنة منها وقد تكلم أهل العلم على ذلك بما لا يتسع

فاعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأمركم بالصلاة فان الله ينصب وجهه لوجه عبده مالم يلتفت فاذا صليتم فلا تلتفتوا وأمركم بالصيام فان مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك وان خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وأمركم بالصدقة فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه الى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه وقال لهم هل لكم ان أفتدى نفسى منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه وأمركم بذكر الله كثيرا وان مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه وان العبد أحصن مايكون (١٠١) من الشيطان اذا كان فى ذكر الله قال

المقام لبسطه وقد اختلف أهل العلم فى المراد بالزكاة هنا فقيل المفروضة لاقترانها بالصلاة وقيل صدقة الفطر والظاهر أن المراد ماهو أعم من ذلك (واركعوا مع الراكعين) أى صلوا مع المصلين يعنى محمدا صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم والركوع فى اللغة الانحناء وكل منحن راكع ويستعار الركوع أيضا للانحطاط فى المنزلة وانما خص الركوع بالذكر هنا لان اليهود لاركوع فى صلاتهم وقيل لكونه كان ثقيلا على أهل الجاهلية وقيل انه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة والركوع الشرعى هو أن ينحنى الرجل ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض بها على ركبتيه ثم يطمئن راكعا ذاكرا بالذكر المشروع وقد ورد فى ذلك من الاحاديث الصحيحة الثابتة فى الصحيحين وغيرهما ماهو معروف وفى الآية حث على اقامة الصلاة فى الجماعة وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم على خلاف بينهم فى كون ذلك عينا أو كفاية وذهب الجمهور الى أنه سنة مؤكدة مرغب فيها وليس بواجب وهو الحق للاحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة وثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم الذى يصلى مع الامام أفضل من الذى يصلى وحده ثم ينام والبحث طويل الذيول كثير النقول استوفاه الشوكانى رحمه الله تعالى فى شرحه للمنتقى (أتأمرون الناس بالبر) الهمزة للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين وليس المراد توبيخهم على نفس الامر بالبر فانه فعل حسن مندوب اليه بل سبب ترك فعل البر المستفاد من قوله (وتنسون أنفسكم) تتركونها فلا تأمرونها به مع تزكية النفس والقيام فى مقام دعاة الخلق الى الحق ايها ما للناس وتلبيسا عليهم نزلت فى علماء اليهود والبر الطاعة والعمل الصالح وسعة الخير والمعروف والصدق فالبر اسم جامع لجميع أعمال الخير والطاعات والنسيان هو هنا بمعنى الترك وفى الاصل خلاف الذكر والحفظ أى زوال الصورة التى كانت محفوظة عن المدركة والحافظة وانما عبر عن الترك بالنسيان لان نسيان الشئ يلزمه تركه فهو من استعمال الملزوم فى اللازم أو السبب فى المسبب وسر هذا التجوز الاشارة الى أن ترك ماذكر لا ينبغى أن يصدر عن العاقل الا نسيانا والنفس الروح ومنه قوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها يريد الارواح والنفس الجسد والمعنى وتعدلون عما لها فيه نفع (وأنتم تتلون

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله فانه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه الا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثى جهنم قالوا يارسول الله وان صام وصلى فقال وان صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين باسمائهم على ماسماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله هذا حديث حسن والشاهد منه فى هذه الآية قوله وان الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيأ وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لاشريك له وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع تعالى وهى دالة على ذلك بطريق الاولى فان من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها بحكمة علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه واتقانه وعظيم سلطانه كما قال بعض الاعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى فقال ياسبحان الله ان البعر ليدل على البعير وان أثر الاقدام لتدل على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير * وحكى الرازى عن الامام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والاصوات والنغمات وعن أبى حنيفة ان بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم دعونى فانى مفكر فى أمر قد اخبرت عنه ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجئ وتسير بنفسها وتخترق الامواج العظام حتى تتخلص

منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير ان يسوقها أحد فقالوا هذا شئ لا يقوله عاقل فقال ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الاشياء المحكمة ليس لها صانع فبهت القوم ورجعوا الى الحق وأسلموا على يديه وعن الشافعى انه سئل عن وجود الصانع فقال هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الابريسم وتأكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر والانعام فتلقيه بعرا وروثا وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شئ واحد وعن الامام أحمد ابن حنبل انه سئل عن ذلك فقال ههنا حصن (١٠٢) حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الابريز فيه ماء وكذلك اذا انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح يعنى بذلك البيضة اذا خرج منها الدجاجة وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد

تأمل فى نبات الارض وانظر
الى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأحداق هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز

فيا عجبا كيف يعصى الاله
أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شئ له آية
تدل على أنه واحد

وقال آخرون من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دورة ولها فى أنفسها سير يخصها ونظر الى البحار المكتنفة للارض من كل جانب والجبال الموضوعة فى الارض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء وكذلك هذه الانهار السارحة من قطر الى قطر للمنافع وما ذرأ فى الارض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والارايح والاشكال والالوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم واحسانه اليهم وبره بهم لا اله غيره ولا رب سواه عليه توكلت واليه أنيب والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جدا (وان كنتم فى

الكتاب) جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت اى كيف تتركون البر الذى تأمرون الناس به وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل وشدة الوعيد عليه كما ترونه فى الكتاب الذى تتلونه وتدرسونه والآيات التى تقرؤنها من التوراة والتلاوة القراءة وهى المراد هنا وأصلها الاتباع (أفلا تعقلون) استفهام للانكار عليهم والتقريع لهم وهو أشد من الاول وأشد ولشد ما قرع الله فى هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم فاستنكر عليهم أولا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم من ذلك الامر الذى قاموا به فى المجامع ونادوا به فى المجالس ايهاما للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حجه ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه وموصلون الى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم وكاشفة لعوارهم وهاتكة لاستارهم وهى أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة والخصلة الفظيعة على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذى أنزل عليهم وملازمة لتلاوته وهم فى ذلك كما قال المعرى

وانما حمل التوراة قارئها * كسب الفوائد لا حب التلاوات

ثم انتقل معهم من تقريع الى توبيخ ومن توبيخ الى توبيخ فقال انكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك ذائدا لكم عنه زاجرا لكم منه فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد اهمالكم لما يوجبه العلم والعقل فى أصل اللغة المنع ومنه عقال البعير لانه يمنعه عن الحركة ومنه العقل فى الدية لانه يمنع الولى عن قتل الجانى والعقل نقيض الجهل ويصح تفسير ما فى الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المزرية ويصح أن يكون معنى الآية أفلا تنظرون بعقولكم التى رزقكم الله اياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم والعقل قوة تهيئ قبول العلم ويقال للعلم الذى يستفيده الانسان بتلك القوة العقل وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية وابن حبان وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل من هؤلاء قال هؤلاء خطباء من أمتك

ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا اله الا هو فقال مخاطبا للكافرين وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثل ما جاء به ان زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فانكم لا تستطيعون ذلك قال ابن عباس شهداءكم أعوانكم وقال السدي عن أبي مالك شركاءكم أي قوما آخرين يساعدونكم على ذلك اى استعينوا (١٠٣) بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم وقال مجاهد وادعوا شهداءكم قال ناس يشهدون به يعني حكام الفصحاء وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين وقال في سورة سبحان قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وقال في سورة هود أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقال في سورة يونس وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وكل هذه الآيات مكية ثم تحداهم بذلك أيضا في المدينة فقال في هذه الآية وان كنتم في ريب أي شك مما نزلنا على عبدنا يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثله يعني من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي ونقله عن عمرو بن مسعود وابن عباس والحسن البصري وأكثر المحققين ورجح ذلك بوجوه من أحسنها انه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الاميين ممن لا يكتب ولا يعانى شيأ من العلوم وبدليل قوله تعالى فأتوا بعشر سور مثله وقوله لا يأتون بمثله وقال بعضهم من مثل محمد صلى الله عليه وسلم يعني من رجل أمي مثله والصحيح الاول لان التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الامم وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال

كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون وثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به اقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان مالك ما أصابك ألم تكن تأمر نا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه وفي الباب أحاديث معناها جميعا أن يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم ما دخلتم النار وانما دخلنا الجنة بتعليمكم قالوا انا كنا نأمركم ولا نفعل وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء والاصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه (واستعينوا بالصبر والصلاة) قيل ان المخاطبين بهذا هم المؤمنون وقيل اليهود لما عاقهم عن الايمان الشره وحب الرياسة فأمروا بالصبر وهو الصوم لانه يكسر الشهوة والصلاة لانها توزع الخشوع وتنفي الكبر وأفرد الصلاة بالذكر تعظيما لشأنها والمعنى استعينوا على حوائجكم الى الله وقيل على ما يشغلكم من أنواع البلايا وقيل على طلب الآخرة بالصبر والصبر في اللغة الحبس والمراد هنا استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات وقصرها على الطاعات على دفع ما يرد عليكم من المكروهات وقيل الصبر هنا هو خاص بالصبر على تكاليف الصلاة وأداء الفرائض واستدل هذا القائل بقوله تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها وليس في هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفي ما يفيده الالف واللام الداخلة على الصبر من الشمول كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما يصدق عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة ونافلة وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا حزنه أمر فزع الى الصلاة وعن ابن عباس أنه نعي له أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما السجود ثم قام الى راحلته وهو يقول واستعينوا بالصبر والصلاة وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الصبر والترغيب فيه والجزاء للصابرين ولم نذكرها ههنا لانها ليست بخاصة بهذه الآية بل هي واردة في مطلق الصبر وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ههنا منها شطرا صالحا وفي الكتاب العزيز من الثناء

تعالى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ولن لنفي التأبيد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبدا وهذه أيضا معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبرا جازما قاطعا مقدما غير خائف ولا مشفق ان هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين وكذلك وقع الامر لم يعارض من لدنه الى زماننا هذا ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لاحد والقرآن كلام الله خالق كل شئ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الاعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير فأحكمت (١٠٤) ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحادى ولا يدانى فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا أي صدقا في الاخبار وعدلا في الاحكام فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الاكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم الا بها كما قيل في الشعر ان أعذبه أكذبه وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شئ من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيأ الا قدرة المتكلم المعين على الشئ الخفي أو الدقيق أو ابرازه الى الشئ الواضح ثم تجد له فيه بيتا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا واجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير فانه ان تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة الزجاج أو وجيزة وسواء تكررت أم لا وكل تكرر حلا وعلا لا يخلق عن كثرة الرد ولا يمل منه العلماء وان أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات وان وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق الى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون وقال وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون وقال في الترهيب أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم

على ذلك والترغيب فيه الكثير الطيب وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير عن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا حزنه أمر فزع الى الصلاة وأخرج أحمد والنسائي وابن حبان عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كانوا يعني الانبياء يفزعون اذا فزعوا الى الصلاة وعن ابن عباس انه كان في مسيره فنعي اليه ابن له فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع فقال فعلنا كما أمرنا الله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وقد روى نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين واختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله (وانها لكبيرة) فقيل انه راجع الى الصلاة وان كان المتقدم هو الصبر والصلاة فقد يجوز ارجاع الضمير الى أحد الامرين المتقدم ذكرهما كما قال تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه اذا كان أحدهما داخلا تحت الآخر بوجه من الوجوه وقيل انه عائد الى الصلاة من دون اعتبار دخول الصبر تحتها لان الصبر هو عليها كما قيل سابقا وقيل ان الضمير راجع الى الصلاة وان كان الصبر مرادا منها لكن لما كانت آكد وأعم تكليفا وأكثر ثوابا كانت الكناية بالضمير عنها ومنه قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله كذا قيل وقيل ان الضمير راجع الى الاشياء المكنوزة ومثل ذلك قوله واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها فأرجع الضمير هنا الى الفضة والتجارة لما كانت الفضة أعم نفعا وأكثر وجودا والتجارة هي الحاملة على الانفضاض والفرق بين هذا الوجه والوجه الاول أن الصبر هناك جعل داخلا تحت الصلاة وهنا لم يكن داخلا وان كان مرادا وقيل ان المراد الصبر والصلاة ولكن أرجع الضمير الى أحدهما استغناء به عن الآخر ومنه قوله تعالى وجعلنا ابن مريم وأمه آية أي ابن مريم آية وأمه آية وقيل رجع الضمير اليهما بعد تأويلهما بالعبادة وقيل رجع الى المصدر المفهوم من قوله واستعينوا وهو الاستعانة وقيل رجع الى جميع الامور التي نهى عنها بنو اسرائيل والاول هو الظاهر الجاري على قاعدة كون الضمير للاقرب والكبيرة التي يكبر أمرها ويتعاظم شأنها على حاملها لما يجده عند تحملها والقيام بها من المشقة ومنه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه (الا) استثناء مفرغ وشرطه أن يسبق بنفي فيؤول الكلام هنا بالنفي أي انها لا تخف ولا تسهل الا (على الخاشعين) يعني المؤمنين وقيل الخائفين وقيل المطيعين المتواضعين لله والخاشع هو المتواضع قال في الكشاف الخشوع هو الاخبات والتطامن وأما الخضوع فاللين والانقياد انتهى وقال

الارض فاذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير وقال في الزجر فكلا أخذنا بذنبه وقال في الوعظ أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنا عنهم ما كانوا يمتعون الى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة وان جاءت الآيات في الاحكام والاوامر والنواهي اشتملت على الامر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء كما قال ابن مسعود وغيره من السلف اذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك فانها خير يأمر به أو شر ينهى عنه ولهذا قال تعالى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والاغلال التي كانت عليهم الآية (١٠٥) وان جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الاهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لاوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الاليم بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت الى فعل الخيرات واجتناب المنكرات وزهدت في الدنيا ورغبت في الاخرى وثبتت على الطريقة المثلى وهدت الى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من نبي من الانبياء الا قد أعطى من الآيات ما أمن على مثله البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة لفظ مسلم وقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذي أوتيته وحيا أي الذي اختصيت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الالهية فانها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به

الزجاج الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه وخشعت الاصوات أي سكنت وخشع ببصره اذا غضه وقال سفيان الثوري سألت الاعمش عن الخشوع فقال يا ثوري أنت تريد أن تكون اماما للناس ولا تعرف الخشوع ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطئ الرأس لكن الخشوع أن ترى الشريف والدني في الحق سواء وتخشع لله في كل فرض افترض عليك انتهى وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته انه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم في الصلاة وملازمتهم لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة واتعابهم لانفسهم اتعابا عظيما في الاسباب الموجبة للحضور والخضوع لانهم لما يعلمونه من تضاعف الاجر وتوفر الجزاء والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب تسهل عليهم تلك المتاعب ويتذلل لهم ما يركبونه من المصاعب بل يصير ذلك لذة لهم خالصة وراحة عندهم محضة (الذين يظنون) اي يستيقنون وقيل يعلمون والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى اني ظننت اني ملاق حسابيه وقوله وظنوا انهم مواقعوها وقيل ان الظن في الآية على بابه ويضمر في الكلام يذنوبهم فكأنهم يوقعوا لقاءه مذنبين ذكره الماوردي والاول أولى وأصل الظن الشك مع الميل الى أحد الطرفين وقد يقع موقع اليقين في مواضع منها هذه الآية ومعنى (انهم ملاقوا ربهم) ملاقوا جزائه والمفاعلة هنا ليست على بابها ولا أرى في حمله على أصل معناه من دون تقدير المضاف بأسا أي يوقنون أنهم يرونه وفي هذا مع ما بعده من قوله (وأنهم اليه راجعون) اقرار بالبعث وما وعد الله به في اليوم الآخر وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) انما كرر ذلك سبحانه توكيدا للحجة عليهم وتحذيرا لهم من ترك اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم قرنه بالوعيد وهو قوله واتقوا يوما قيل المراد بالنعمة أيادي الله عندهم وايامه قاله سفيان بن عيينة وعن مجاهد التي أنعم بها على بني اسرائيل فيما سمى وفيما سوى ذلك فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى وأنجاهم من عبودية آل فرعون وكان عمر بن الخطاب اذا تلى هذه الآية قال مضى القوم وانما يعني أنتم (وأني فضلتكم على العالمين) يعني على عالمي زمانكم فلا يتناول من مضى ولا من يوجد بعدهم وهذا التفضيل وان كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف

(١٤ ل — فتح البيان) ما لا يدخل تحت حصر ولله الحمد والمنة وقد قرر بعض المتكلمين الاعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة فقال ان كان هذا القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الاتيان بمثله ولا في قواهم معارضته فقد حصل المدعى وهو المطلوب وان كان في امكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلا على أنه من عند الله لصرفه اياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك وهذه الطريقة وان لم تكن مرضية لان القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا الا انها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمناقحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر وانا أعطيناك الكوثر وقوله تعالى فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين أما

الوقود بفتح الواو وفهو ما يلقى فى النار لاضرامها كالحطب ونحوه كما قال تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وقال تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون والمراد بالحجارة ههنا هى حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهى أشد الاحجار حرا اذ حميت أجارنا الله منها وقال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى وقودها الناس والحجارة قال هى حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والارض فى السماء الدنيا يعدها للكافرين رواه ابن جرير وهذا لفظه وابن أبى حاتم والحاكم فى مستدركه وقال على شرط الشيخين وقال (١٠٦) السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة اتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أما الحجارة فهى حجارة فى النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار وقال مجاهد حجارة من كبريت أنتن من الجيفة وقال أبو جعفر محمد بن على حجارة من كبريت وقال ابن جريج حجارة من كبريت أسود فى النار وقال لى عمرو بن دينار أصلب من هذه الحجارة وأعظم وقيل المراد بها حجارة الاصنام والانداد التى كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الاية حكاه القرطبى والرازى ورجحه على الاول قال لان أخذ النار فى حجارة الكبريت ليس بمستنكر فجعلها هذه الحجارة أولى وهذا الذى قاله ليس بقوى وذلك ان النار اذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها ولا سيما على ما ذكره السلف من انها حجارة من كبريت معدة لذلك ثم ان أخذ النار بهذه الحجارة أيضا مشاهد وهذا الجص يكون أحجارا فيعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك وكذلك سائر الاحجار تفخرها النار وتحرقها وانما سيق هذا فى حر هذه النار التى

للابناء قيل فيه ورود العام المراد به الخصوص لان المراد بالعالمين عالمو زمانهم وقيل على جميع العالمين بما جعل فيهم الانبياء وقال فى الكشاف على الجم الغفير من الناس كقوله باركنا فيها للعالمين يقال رأيت عالما من الناس يراد الكثرة انتهى قال الرازى فى تفسيره وهذا ضعيف لان لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل وكلما كان دليلا على الله كان علما وكان من العالم وهذا تحقيق قول المتكلمين العالم كل موجود سوى الله وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات انتهى أقول هذا الاعتراض ساقط اما أولا فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه وأما ثانيا فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجودا بما يحصل معه مفهوم الدليل على الله الذى يصح اطلاق اسم العلم عليه وهو كائن فى كل فرد من افراد المخلوقات التى يستدل بها على الخالق وغايته ان جمع العالم يستلزم ان يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات وأما انهم مفضلون على كل المحدثات فى كل زمان فليس فى اللفظ ما يفيد هذا ولا فى اشتقاقه ما يدل عليه وأما من جعل العالم أهل العصر فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور لا على أهل كل عصر فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ولا على ما بعده من العصور ومثل هذا الكلام ينبغى استحضاره عند تفسير قوله تعالى وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين وعند قوله تعالى ولقد اخترناهم على علم على العالمين وعند قوله تعالى ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين فان قيل ان التعريف فى العالمين يدل على شموله لكل عالم قلت لو كان الامر هكذا لم يكن ذلك مستلزما لكونهم أفضل من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس فان هذه الاية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات (واتقوا يوما) أى واخشوا عذاب يوم أمر معناه الوعيد والمراد باليوم يوم القيامة أى عذابه (لا تجزى) لا تكفى ولا تقضى (نفس عن نفس شيأ) يعنى حقا لزمها وقيل معناه لا تنوب نفس عن نفس يوم القيامة ولا ترد عنها شيأ مما أصابها بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وقيل ان طاعة المطيع لا تقضى عن العاصى ما كان واجبا عليه والنفس الاولى هى المؤمنة والثانية هى الكافرة ومعنى التنكير التحقير أى شيأ يسيرا حقيرا (ولا يقبل منها شفاعة) أى فى ذلك اليوم وذلك أن اليهود قالوا يشفع لنا آباؤنا فرد الله عليهم ذلك والشفاعة مأخوذة من الشفع وهو الاثنان تقول

استشفعته

وعدوانها وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال تعالى كلما خبت زدناهم سعيرا وهكذا رجح القرطبى أن المراد بها الحجارة التى تسعر بها النار لتحمى ويشتد لهبها قال ليكون ذلك أشد عذابا لاهلها قال وقد جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كل مؤذ فى النار وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف ثم قال القرطبى وقد فسر بمعنيين احدهما ان كل من آذى الناس دخل النار والآخر أن كل ما يؤذى فى النار يتأذى به أهلها من السباع والهوام وغير ذلك وقوله تعالى اعدت للكافرين الاظهر ان الضمير فى اعدت عائد الى النار التى وقودها الناس والحجارة ويحتمل عوده الى الحجارة كما قال ابن مسعود ولا منافاة بين القولين فى المعنى لانهما

متلازمان وأعدت أي أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن اسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أعدت للكافرين اى لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى أعدت أي أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها تحاجت الجنة والنار ومنها استأذنت النار ربها فقالت رب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل الى قعرها وهو عند مسلم وحديث صلاة الكسوف وليلة الاسرى وغير ذلك من (١٠٧) الاحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا وافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الاندلس *(تنبيه ينبغي الوقوف عليه)* قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله وقوله في سورة يونس بسورة مثله يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة لانها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الاصوليين كما هو مقرر في موضعه فالاعجاز حاصل في طوال السور وقصارها وهذا ما أعلم فيه نزاعا بين الناس سلفا وخلفا وقد قال الرازي في تفسيره فان قيل قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ونحن نعلم بالضرورة ان الاتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن فان قلتم ان الاتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر كان مكابرة والاقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة الى الدين قلنا فلهذا السبب أخترنا الطريق الثاني وقلنا ان بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الاعجاز فقد حصل المقصود وان لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم الى توهين أمره معجزا فعلى التقديرين يحصل المعجز هذا لفظه بحروفه والصواب ان كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة قال الشافعي رحمه الله لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وقد روينا عن عمرو بن العاص انه وفد على مسيلمة الكذاب قبل ان يسلم فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين فقال له عمرو لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال وما هي فقال والعصر ان الانسان لفي خسر ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال ولقد أنزل علي مثلها قال وما هو فقال يا وبر يا وبر انما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقر ثم قال كيف ترى يا عمرو فقال له عمرو والله انك لتعلم انى

استشفعته أي سألته ان يشفع لي أي يضم جاهه الى جاهك عند المشفوع اليه ليصل النفع الى المشفوع له وضمير منها يرجع الى النفس المذكورة ثانيا أي ان جاءت بشفاعة شفيع ويجوز ان يرجع الى النفس المذكورة أولا أي اذا شفعت لم يقبل منها (ولا يؤخذ منها عدل) أي فدية وهو مماثلة الشيء بالشيء والعدل بفتح العين الفداء وبكسرها المثل وقيل بالفتح المساوي للشيء قيمة وقدرا وبالكسر المساوي له في جنسه وجرمه وأما العدل واحد الاعدال فهو بالكسر لا غير قاله السمين والضمير يرجع الى النفوس المدلول عليها بالنكرة في سياق النفي والنفس تذكر وتؤنث والمعنى كما قال السدي لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيأ (ولا هم ينصرون) أي لا يمنعون من العذاب والنصر العون والانصار الاعوان ومنه من أنصاري الى الله والنصر أيضا الانتقام يقال انتصر زيد لنفسه من خصمه اى انتقم منه لها والنصر أيضا الاتيان يقال نصرت أرض بني فلان أي أتيتها (واذ نجيناكم من آل فرعون) أي واذكروا اذ خلصنا اسلافكم وأجدادكم فاعتدوه نعمة ومنة عليهم لانهم نجوا بنجاة أسلافهم وهذا شروع في تفصيل نعم الله عليهم وفصلت بعشرة أمور تنتهي بقوله واذ استسقى موسى والنجاة النجوة من الارض وهي ما ارتفع منها ثم سمي كل فائز وخارج من ضيق الى سعة ناجيا وان لم يلق على نجوة وآل فرعون قومه والا ل يضاف الى ذوي الخطر ولا يضاف الى البلدان فلا يقال من آل المدينة وجوزه الاخفش واختلفوا هل يضاف الى المضمر أم لا فمنعه قوم وسوغه آخرون وهو الحق وفرعون قيل هو اسم ذلك الملك بعينه وقيل انه اسم لكل ملك من ملوك العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح كما يسمى من ملك الفرس كسرى ومن ملك الروم قيصر ومن ملك الحبشة النجاشي وقيل فرعون اسم علم لمن كان يملك مصر من القبط والعماليق واسم فرعون موسى المذكور هنا قابوس في قول أهل الكتاب وقال وهب اسمه الوليد بن مصعب بن الريان وعمر أكثر من أربعمائة سنة وعاش موسى مائة وعشرين سنة قال المسعودي لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية وقال الجوهري ان كل عات يقال له فرعون وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ومكر وقال في الكشاف تفرعن فلان اذا عتى وتجبر (يسومونكم) أي يكلفونكم ويولونكم قاله أبو عبيدة وقيل يذوقونكم ويلزمونكم اياه وأصل السوم الدوام ومنه

لا أعلم أنك تكذب (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) لما ذكر تعالى ما أعده لاعدائه من الاشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا ايمانهم بأعمالهم الصالحة وهذا معنى تسمية القرآن مثانى على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه فى موضعه وهو أن يذكر الايمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الاشقياء أو عكسه وحاصله ذكر الشئ ومقابله وأما ذكر الشئ ونظيره فذلك التشابه كما سنوضحه ان شاء الله فلهذا قال تعالى وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجرى من تحتها الانهار فوصفها بأنها تجرى من تحتها الانهار أى من تحت أشجارها وغرفها وقد جاء فى الحديث ان انهارها تجرى فى غير أخدود وجاء فى الكوثر ان حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ولا منافاة بينهما فطينها المسك الاذفر وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر نسأل الله من فضله انه هو البر الرحيم وقال ابن أبى حاتم قرأ على الربيع بن سليمان حدثنا أسد ابن موسى حدثنا أبو ثوبان عن عطاء ابن قرة عن عبد الله بن ضمرة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهار الجنة تفجر من تحت تلال آخر من تحت جبال المسك وقال أيضا حدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن الاعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال قال عبد الله انهار الجنة تفجر من جبل مسك وقوله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا هذا الذى رزقنا من قبل قال انهم أوتوا بالثمرة فى الجنة فلما نظروا اليها قالوا هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا وهكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ونصره ابن جرير وقال عكرمة قالوا هذا الذى رزقنا من قبل قال معناه مثل الذى كان بالامس وكذا قال الربيع بن أنس وقال مجاهد يقولون ما أشبهه به قال ابن جرير وقال آخرون بل تأويل ذلك هذا الذى رزقنا من قبل ثمار الجنة من قبل هذه الشدة مشابهة بعضه بعضا لقوله تعالى وأتوا به متشابها قال سنيد بن داود حدثنا شيخ من أهل المصيصة عن الاوزاعى عن يحيى بن أبى كثير قال يؤتى أحدهم بالصحفة من الشئ فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذى أتينا به من قبل فتقول الملائكة كل فاللون واحد والطعم مختلف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عامر بن يساف عن يحيى بن أبى كثير قال عشب الجنة الزعفران

سائمة الغنم لمداومتها الرعى وفى الكشاف أصله من سام السلعة اذا طلبها كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ويريدونكم عليه انتهى (سوء العذاب) أى أشده وأسوأه وأفظعه وان كان كله سيأ والسوء كل ما يغم الانسان من أمر دنيوى أو أخروى (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) الذبح فى الاصل الشق وهو فرى أوداج المذبوح قيل ذبحوا منهم اثنى عشر ألفا وقيل سبعين ألفا وهل نساء جمع نسوة أو جمع امرأة من حيث المعنى قولان والمراد بتركهن أحياء ليستخدموهن ويمتهنوهن وانما أمر بذبح الابناء واستحياء النساء لان الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على يده وعبر عن البنات باسم النساء لانه جنس يصدق عليهن وقالت طائفة انه أمر بذبح الرجال واستدلوا بقوله نساءكم والاول أصح بشهادة السبب ولا يخفى ما فى قتل الابناء واستحياء البنات للخدمة ونحوها من انزال الذل بهم والصاق الاهانة الشديدة بجميعهم لما فى ذلك من العار والاشارة بقوله (وفى ذلكم) الى جملة الامر من الانجاء والذبح قاله ابن عطية (بلاء من ربكم عظيم) اى اختبار وامتحان والبلاء يطلق تارة على الخير وتارة على الشر فان أريد به هنا الشر كانت الاشارة الى ما حل بهم من النقمة بالذبح ونحوه وان أريد به الخير كانت الاشارة الى النعمة التى أنعم الله عليهم بالانجاء وما هو مذكور قبله من تفضيلهم على العالمين وقد اختلف السلف ومن بعدهم فى مرجع الاشارة فرجح الجمهور الاول ورجح الآخرون الآخر قال ابن كيسان أبلاه وبلاه فى الخير والشر وقيل الاكثر فى الخير أبلية وفى الشر بلوته وفى الاختبار ابتليته وبلوته قاله النحاس استدل به بعض من يقول بالتناسخ وقال ان القوم كانوا هم بأعيانهم فلما تطاولت عليهم مدة التلاشى والبلى نسوا فذكروا قال الكرمانى وهذا محال وجهل بكلام العرب فان العرب تخاطب بمثل هذا وتعنى الجد الاعلى والاب الابعد (وإذ فرقنا بكم البحر) أى فلقناه وأصل الفلق الفرق والفصل ومنه فرق الشعر ومنه وقرآنا فرقناه أى فصلناه والباء فى بكم بمعنى اللام أو السببية والمراد أن فرق البحر كان بسبب دخولهم فيه لما صار ما بين الماءين صار الفرق بهم وأصل البحر فى اللغة الاتساع أطلق على البحر الذى هو مقابل البر لما فيه من الاتساع بالنسبة الى النهر والخليج ويطلق على الماء الملح وقال السيوطى فى نفحات الاقران البحر هو القلزم وكنيته أبو خالد كما روى عن قيس بن عباد قول ابن عساكر كأنه كنى بذلك

لطول

لطول بقائه وروى أبو يعلى بسند ضعيف عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال فلق البحر لبنى اسرائيل يوم عاشوراء انتهى (فأنجيناكم) أى أخرجناكم منه (وأغرقنا آل فرعون) فيه ووافق ذلك يوم عاشوراء فصام موسى ذلك اليوم شكرا لله عز وجل والمراد بآل فرعون هنا هو وقومه واتباعه والغرق الرسوب فى الماء وتجوز به عن المداخلة فى الشئ تقول غرق فلان فى اللهو فهو غرق قاله السمين (وأنتم تنظرون) يعنى الى اهلاكهم وقيل الى مصارعهم أى حال كونكم ناظرين اليهم بأبصاركم أو المعنى ينظر بعضكم الى بعض آخر من السالكين فى البحر وقيل نظروا الى أنفسهم ينجون والى آل فرعون يغرقون قيل ان البحر قذفهم حتى نظروا اليهم وهذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخرلها أطم الجبال ونعمة عظيمة لاوائل بنى اسرائيل موجبة عليهم شكرها باللسان والبنان كذلك اقتصاصها على ما هى عليه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الأبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لاعتابهم أن يتلقوها بالاذعان ويقبلوها بصميم الجنان فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها فما لها من عصابة ما أعصاها وطائفة ما أطغاها وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم قالوا هذا يوم صالح نجى الله فيه بنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصومه (واذ واعدنا) قراءة الجمهور واعدنا قال النحاس وهى أجود وأحسن وليس هو من الوعد والوعيد فى شئ وانما هو من باب الموافاة يعنى من المواعدة وهو من الله الامر ومن موسى القبول وذلك ان الله وعده بمجئ الميقات و (موسى) اسم أعجمى عبرى معرب غير منصرف فموسى بالعبرية الماء والشجر سمى موسى لانه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين سينا فسمى موسى (أربعين ليلة) قال الزجاج تمام أربعين ليلة وهى عند أكثر المفسرين ثلاثون من ذى القعدة وعشر من ذى الحجة وبه قال أهل العالية وانما خص الليالى بالذكر دون الايام لانها غرر الشهور ولان الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة وقيل لان الاشهر العربية وضعت على سير القمر وقيل لان الظلمة أقدم من الضوء والمعانى متقاربة (ثم اتخذتم العجل) أى جعلتم العجل الها قال الحسن البصرى

عباس لا يشبه شئ مما فى الجنة ما فى الدنيا الا فى الاسماء وفى رواية ليس فى الدنيا مما فى الجنة الا الاسماء ورواه ابن جرير من رواية الثورى وابن أبى حاتم من حديث أبى معاوية كلاهما عن الاعمش به وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى وأتوا به متشابها قال يعرفون اسماءه كما كانوا فى الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان قالوا فى الجنة هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا وأتوا به متشابها يعرفونه وليس هو مثله فى الطعم وقوله تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس مطهرة من القذر والاذى وقال مجاهد من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنى والولد وقال قتادة مطهرة من الاذى والمأثم وفى رواية عنه لا حيض ولا كلف وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبى صالح وعطية والسدى نحو ذلك وقال ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الاعلى أنبأنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال المطهرة التى لا تحيض قال وكذلك خلقت حواء عليها السلام فلما عصت قال الله تعالى الى خلقتك مطهرة وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة وهذا غريب وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا ابراهيم بن محمد حدثنى جعفر بن محمد بن حرب واحمد بن محمد الخوارى قالا حدثنا محمد بن عبد الكندى حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيعى حدثنا عبد الله بن المبارك عن شعبة عن قتادة عن أبى نضرة عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة قال من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق هذا حديث غريب وقد رواه الحاكم فى مستدركه عن محمد بن يعقوب عن الحسن بن على بن عفان عن محمد بن عبيد به وقال صحيح على شرط الشيخين وهذا الذى ادعاه فيه نظر فان عبد الرزاق بن عمر البزيعى هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البستى لا يجوز الاحتجاج به قلت والاظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم

والله أعلم وقوله تعالى وهم فيها خالدون هذا هو تمام السعادة فانهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا اخراله ولا انقضاء بل فى نعيم سرمدى أبدى على الدوام والله المسؤل أن يحشرنا فى زمرتهم انه جواد كريم بر رحيم (ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فاما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض أولئك هم الخاسرون) قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعنى قوله تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا وقوله او كصيب من السماء الآيات الثلاث قال المنافقون الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الامثال فأنزل الله هذه الآية الى قوله تعالى هم الخاسرون وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب قال المشركون ما بال العنكبوت والذباب يذكران فأنزل الله ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها وقال سعيد عن قتادة اى ان الله لا يستحيى من الحق أن يذكر شيأ ما قل أو كثر وان الله حين ذكر فى كتابه الذباب والعنكبوت قال اهل الضلالة ما اراد الله من ذكر هذا فأنزل الله ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها قلت العبارة الاولى عن قتادة فيها اشعار أن هذه الآية مكية وليس كذلك وعبارة رواية سعيد عن قتادة أقرب والله اعلم وروى ابن جريج عن مجاهد نحو هذا الثانى عن قتادة وقال ابن أبى حاتم روى عن الحسن واسمعيل بن ابى خالد نحو قول السدى وقتادة وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى هذه الآية قال هذا مثل ضربه الله للدنيا ان البعوضة تحيا ما جاعت فاذا سمنت ماتت وكذلك مثل هؤلاء القوم شئ الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن اذا امتلؤا من الدنيا رويا اخذهم الله عند ذلك ثم تلى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شئ هكذا رواه ابن جرير ورواه ابن ابى حاتم من حديث ابى جعفر عن الربيع بن أنس عن ابى العالية بنحوه فالله اعلم فهذا اختلافهم فى سبب النزول وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدى لانه أمس بالسورة وهو مناسب ومعنى الآية انه تعالى أخبر أنه لا يستحيى اى لا يستنكف وقيل لا يخشى ان يضرب مثلا ما اى اى مثل كان باى شئ كان صغيرا كان او كبيرا وما ههنا للتقليل وتكون بعوضة منصوبة على البدل كما تقول لاضربن ضربا ما فيصدق بادنى شئ او تكون ما نكرة موصوفة ببعوضة واختار ابن جرير أن

كان اسم عجل بنى اسرائيل الذى عبدوه بهموت وقيل بهبوت (من بعده) أى بعد مضى موسى الى الطور وقد ذكر بعض المفسرين انهم عدوا عشرين يوما وعشرين ليلة وقالوا قد اختلف موعده فاتخذوا العجل وهذا غير بعيد منهم فقد كانوا يسلكون طرائق من التعنت خارجة عن قوانين العقل مخالفة لما يخاطبون به بل ويشاهدونه بأبصارهم فلا يقال كيف يعدون الايام والليالى على تلك الصفة وقد صرح لهم فى الوعد بأنها أربعون ليلة والمعنى من بعد عبادتكم العجل وسمى العجل عجلا لاستعجالهم عبادته كذا قيل وليس بشئ لان العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر وقد كان جعله لهم السامرى على صورة العجل (وأنتم ظالمون) أى وأنتم ضارون لأنفسكم بالمعصية حيث وضعتم العبادة فى غير موضعها وقيل انما سماهم ظالمين لانهم أشركوا بالله وخالفوا موعد نبيهم قيل والذين عبدوه منهم ثمانية آلاف وقيل كلهم الا هرون مع اثنى عشر ألفا وهذا أولى (ثم عفونا عنكم) أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم والعفو يجوز أن يكون بعد العقوبة والغفران لا يكون معها وهذا هو الفرق بينهما وهو من الاضداد يقال عفت الريح الاثر أى أذهبته وعفا الشئ أى كثر ومنه حتى عفوا وقال أبو السعود العفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجئ لازما قال

عرفت المنزل الخالى * عفا من بعد أحوال
عفاه كل هتان * كثير الوبل هطال

(من بعد ذلك) أى من بعد عبادتكم العجل (لعلكم تشكرون) ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذى وقعتم فيه وتستمرون بعد ذلك على الطاعة وأصل الشكر فى اللغة الظهور قال الجوهرى الشكر الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح والشكر ان خلاف الكفران (واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان) الكتاب التوراة بالاجماع من المفسرين واختلفوا فى الفرقان فقال الفراء وقطرب المعنى آتينا موسى التوراة ومحمدا الفرقان وقد قيل ان هذا غلط أوقعهما فيه أن الفرقان مختص بالقرآن وليس كذلك فقد قال تعالى ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان قال الزجاج ان الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره تأكيدا وقيل ان الواو صلة وهى قد تزاد فى النعوت وقيل ان المعنى ذلك المنزل جامع بين كونه كتابا وفارقا بين الحق والباطل وهو كقوله آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل

ما موصولة وبعوضة معربة باعرابها قال وذلك سائغ فى كلام العرب انهم يعربون صلة ما ومن باعرابهما لانهما يكونان معرفة تارة ونكرة اخرى كما قال حسان بن ثابت يكفى بنا فضلا على من غيرنا * حب النبى محمد ايانا قال ويجوز ان تكون بعوضة منصوبة بحذف الجار وتقدير الكلام ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بين بعوضة الى ما فوقها وهذا الذى اختاره الكسائى والفراء وقرأ الضحاك وابراهيم بن عبلة بعوضة بالرفع قال ابن جنى وتكون صلة لما وحذف العائد كما فى قوله تماما على الذى أحسن أى على الذى هو أحسن وحكى سيبويه ما انا بالذى قائل لك شيأ اى بالذى هو قائل لك شيأ وقوله تعالى فما فوقها فيه قولان احدهما فما دونها فى الصغر والحقارة كما اذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع (١١١) نعم وهو فوق ذلك يعنى فيما وصفت وهذا قول الكسائى وأبى عبيد قاله الرازى وأكثر المحققين وفى الحديث لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافرا منها شربة ماء والثانى فما فوقها لما هو أكبر منها لانه ليس شئ أحقر ولا أصغر من البعوضة وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير فانه يؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها الا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة فأخبر انه لا يستصغر شيأ يضرب به مثلا ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب وقال مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون وقال تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء وقال تعالى ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ الآية ثم قال وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل الآية كما قال ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم الآية وقال ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون الآية وقال وتلك الامثال نضربها للناس وما

شئ وقيل الفرقان الفرق بينهم وبين قوم فرعون أنجى الله هؤلاء وأغرق هؤلاء وقال ابن زيد الفرقان انفراق البحر والشرع الفارق بين الحلال والحرام وقيل الفرقان الفرج من الكرب أو النصر وقيل انه الحجة والبيان بالآيات التى أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما وهذا أولى وأرجح ويكون العطف على بابه كأنه قال آتينا موسى التوراة والآيات التى أرسلناه بها معجزة له (لعلكم تهتدون) يعنى بالتوراة أى لكى تهتدوا للتدبر والتفكر فيه والعمل والاعتقاد بما يحويه (واذ قال موسى لقومه) يعنى الذين عبدوا العجل والقوم يطلق تارة على الرجال دون النساء ومنه قوله تعالى لا يسخر قوم من قوم ثم قال ولا نساء من نساء ومنه ولوطا اذ قال لقومه أراد الرجال وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى انا أرسلنا نوحا الى قومه والمراد هنا بالقوم عبدة العجل وهذا شروع فى بيان كيفية العفو والقوم ليس له واحد من لفظه ومفرده رجل (يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) يعنى الها تعبدونه فكأنهم قالوا ما نصنع فقال (فتوبوا الى بارئكم) أى ارجعوا الى خالقكم واعزموا وصمموا بالتوبة والبارئ الخالق وقيل البارئ هو المبدع المحدث والخالق هو المقدر الناقل من حال الى حال وفى ذكر البارئ هنا اشارة الى عظيم جرمهم أى فتوبوا الى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره وأصل التركيب الخلوص الشئ عن غيره اما على سبيل التقصى كبرئ المريض من مرضه والمديون من دينه أو الانشاء كبرأ الله آدم من الطين (فاقتلوا أنفسكم) أى اجعلوا القتل متعقبا للتوبة تماما لها قال القرطبى وأجمعوا على انه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده قيل قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا وقيل وقف الذين عبدوا العجل ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم فتاب الله على الباقين منهم عن ابن عباس قال أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم واحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل كل من قتل منهم كانت له توبة وكل من بقى كانت له توبة وعن على قال قالوا لموسى ما توبتنا قال يقتل بعضكم بعضا فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه لا يبالى من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفا فأوحى الله الى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقى

يعقلها الا العالمون وفى القرآن أمثال كثيرة قال بعض السلف اذا سمعت المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لان الله قال وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وقال مجاهد فى قوله تعالى ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها الامثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها وقال قتادة فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم اى يعلمون انه كلام الرحمن وانه من عند الله وروى عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك وقال ابو العالية فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم يعنى هذا المثل واما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا كما قال فى سورة المدثر وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك الا هو وكذلك قال ههنا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة يضل به كثيرا يعنى به المنافقين ويهدى به كثيرا يعنى به المؤمنين فيزيد هؤلاء ضلالة الى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقا يقينا من المثل الذى ضرب به الله بما ضرب لهم وانه لما ضرب له موافق فذلك اضلال الله اياهم به ويهدى به يعنى المثل كثيرا من أهل الايمان والتصديق فيزيدهم هدى الى هداهم وايمانا الى ايمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا انه موافق لما ضرب به الله له مثلا واقرارهم به وذلك هداية من الله لهم به وما يضل به الا الفاسقين قال هم المنافقون وقال أبو العالية وما يضل به الا الفاسقين قال هم أهل النفاق وكذا قال الربيع بن أنس وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس وما يضل به الا الفاسقين قال يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به وقال قتادة وما يضل به الا الفاسقين فسقوا فأضلهم الله على فسقهم وقال ابن ابى حاتم حدثنا عن اسحاق بن سليمان عن أبى سنان عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن سعد يضل به كثيرا يعنى الخوارج وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد قال سألت أبى فقلت قوله تعالى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه الى آخر الآية فقال هم الحرورية وهذا الاسناد ان صح عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فهو تفسير على المعنى لان الآية اريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على على بالنهروان فان أولئك لم يكونوا حال نزول الآية وانما هم داخلون

(ذلكم) يعنى هذا القتل وتحمل هذه الشدة (خير لكم) لان الموت لا بد منه (عند بارئكم) من حيث انه طهرة من الشرك ووصلة الى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية (فتاب عليكم) أى فعلتم ما أمرتم به فتجاوز عنكم وهذه الفاء فاء التفسير وفاء التفصيل وهذا من كلام الله تعالى خاطبهم به على طريق الالتفات من التكلم الذى يقتضيه السياق الى الغيبة وقيل انه من جملة كلام موسى لقومه والاول أولى (انه هو التواب) أى الرجاع بالمغفرة القابل للتوبة البالغ فى قبولها منهم (الرحيم) بخلقه (واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك) أى لا نصدقك بان ما نسمعه كلام الله (حتى نرى الله جهرة) أى عيانا ظاهر السياق أن القائلين بهذه المقالة هم قوم موسى قيل هم السبعون الذين اختارهم ممن لم يعبدوا العجل وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله قالوا له بعد ذلك هذه المقالة معتذرين عن عبادة أصحابهم العجل فخرج بهم موسى وقيل عشرة آلاف من قومه والمؤمن به والجهرة استعيرت للمعاينة وأصلها الظهور (فأخذتكم الصاعقة) لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل قيل هى الموت وفيه ضعف وقيل سبب الموت واختلفوا فى ذلك السبب فقيل ان نارا نزلت من السماء فأحرقتهم وقيل جاءت صيحة من السماء وقيل أرسل جموعا من الملائكة فسمعوا بحسهم فخروا صعقين ميتين يوما وليلة والاول أولى والمراد بأخذ الصاعقة اصابتها اياهم وسيأتى فى الاعراف انهم ماتوا بالرجفة أى الزلزلة ويمكن الجمع بأنه حصل لهم الجميع وقيل المراد بالصاعقة الموت واستدل عليه بقوله الآتى ثم بعثناكم من بعد موتكم ولا موجب للمصير الى هذا التفسير لان المصعوق قد يموت كما فى هذه الآية وقد يغشى عليه ثم يفيق كما فى قوله تعالى وخر موسى صعقا فلما أفاق ومما يوجب بعد ذلك قوله (وأنتم تنظرون) فانها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كثير معنى بل قد يقال انه لا يصح ان ينظروا الموت النازل بهم الا أن يكون المراد نظر الاسباب المؤثرة للموت قيل انهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذى ماتوا عنده والمعنى ينظر بعضكم الى بعض كيف يأخذه الموت وكيف يحيا وانما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم لانهم طلبوا ما لم يأذن به الله من رؤيته فى الدنيا (ثم بعثناكم من بعد موتكم) المراد بذلك الاحياء لهم لوقوعه بعد الموت فبعثوا بعد الموت ليستوفوا آجالهم قاله أنس ولو أنهم كانوا قد ماتوا الانقضاء آجالهم لم يبعثوا الى يوم القيامة

بوصفهم فيما مع من دخل لانهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الامام والقيام بشرائع الاسلام والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضا وتقول العرب فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرتها ولهذا يقال للفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد وثبت في الصحيحين عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الغراب والحدأة والعقرب والفارة والكلب العقور فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن فسق الكافر أشد وأفحش والمراد من الآية الفاسق الكافر والله أعلم بدليل انه وصفهم بقوله تعالى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون وهذه الصفات صفات الكفار المباينة

الرعد أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر اولوا الالباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما امر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب الآيات الى أن قال والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه فقال بعضهم هو وصية الله الى خلقه وأمره اياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه اياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به وقال آخرون بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد صلى الله عليه وسلم اذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وانكارهم ذلك وكتمانهم عالم ذلك الناس بعد اعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وهو قول مقاتل بن حيان وقال آخرون بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق وعهده الى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الادلة الدالة على ربوبيته وعهده اليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم ان يأتي بمثله الشاهدة لهم على صدقهم قالوا ونقضهم ذلك تركهم الاقرار بما قد تبينت لهم صحته بالادلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم ان ما أتوا به حق وروى عن مقاتل بن حيان أيضا نحو هذا وهو حسن واليه مال الزمخشري فانه قال فان قلت فما المراد بعهد الله قلت ما ركز في

القيامة وأصل البعث الاثارة للشئ من محله وقد تكون عن اغماء ونوم ولهذا قيد البعث بالموت وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم الى انكار الرؤية في الدنيا والآخرة وذهب من عداهم الى جوازها في الدنيا والآخرة ووقوعها في الآخرة وقد تواترت الاحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا ان العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار وقواعد لا يغتر بها الا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب وسيأتيك بيان ما تمسكوا به من الادلة القرآنية وكلها خارج عن محل النزاع بعيد من موضع الحجة وليس هذا موضع المقال في هذه المسئلة وقد استوعب الحافظ ابن القيم الكلام عليها في كتابه حادي الارواح بما يشفي العليل ويروي الغليل فليرجع اليه (لعلكم تشكرون) انعامنا بذلك اى بالبعث بعد الموت قاله أبو السعود أو ما كفرتموه قاله البيضاوي (وظللنا عليكم الغمام) اى جعلناه كالظلة والغمام جمع غمامة قاله الاخفش قال الفراء ويجوز غمائم قال ابن عباس غمام أبرد من هذا وأطيب وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر وكان معهم في التيه وقال قتادة كان هذا الغمام في البرية ظلل عليهم من الشمس وجعل لهم عمودا من نور يضئ لهم بالليل اذا لم يكن قمر والتيه وادي بين الشام ومصر وقدره تسعة فراسخ مكثوا فيه أربعين سنة متحيرين لا يهتدون الى الخروج (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) يعني في التيه قال قتادة أطعمهم ذلك حين برزوا الى البرية فكان المن يسقط عليهم في محلتهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك فان تعدى ذلك فسد ما يبقى عنده حتى اذا كان يوم سادسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه اليوم سادسه ويوم سابعه فيبقى عنده لانه كان يوم عيد لا يشخص فيه لامر المعيشة ولا اطلبة شئ وهذا كله في البرية وقد ذكر المفسرون ان هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا وسيأتي بسطه في سورة المائدة وكان عدد الذين تاهوا ستمائة ألف وماتوا كلهم في التيه الا من لم يبلغ العشرين ومات فيه موسى وهرون وكان موت موسى بعد هرون بسنة والمن قيل هو الترنجبين وعلى هذا أكثر المفسرين وهو طل ينزل من السماء

عقولهم من الحجة على التوحيد كان أمر وصاهم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى اذ أخذ المشاق عليهم من الكتب المنزلة عليهم كقوله وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وقال آخرون العهد الذى ذكره تعالى هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذى وصف فى قوله واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا الآيتين ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به وهكذا روى عن مقاتل بن حيان ايضا حكى هذه الاقوال ابن جرير فى تفسيره وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه الى قوله أولئك هم الخاسرون (١١٤) قال هى ست خصال من المنافقين اذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال اذا حدثوا كذبوا واذا وعدوا أخلفوا واذا أؤتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به ان يوصل وأفسدوا فى الارض واذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث اذا حدثوا كذبوا واذا وعدوا أخلفوا واذا أؤتمنوا خانوا وكذا قال الربيع بن أنس أيضا وقال السدى فى تفسيره باسناده قوله تعالى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه قال هو ما عهد اليهم فى القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه وقوله ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل قيل المراد به صلة الارحام والقرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم ورجحه ابن جرير وقيل المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه وقال مقاتل بن حيان فى قوله تعالى أولئك هم الخاسرون قال فى الآخرة وهذا كما قال تعالى أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار وقال الضحاك عن ابن عباس كل شئ نسبه الله الى غير أهل الاسلام من اسم مثل خاسر فانما يعنى به الكفر وما نسبه الى أهل الاسلام فانما يعنى به الذنب واسم

على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ ذكر معناه فى القاموس وقيل المن العسل وقيل شراب حلو وقيل خبز الرقاق قاله وهب وقيل هو مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ومنه ما ثبت فى صحيح البخارى ومسلم من حديث سعيد بن زيد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان الكمأة من المن الذى أنزل على موسى وقد ثبت مثله من حديث أبى هريرة عند احمد والترمذى ومن حديث جابر وأبى سعيد وابن عباس عند النسائى وقد قالوا يا موسى قد قتلنا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأرسل الله عليهم السلوى قيل هو السمانى كحبارى طائر يذبحونه فيأكلونه يعنيهما عليهم الجنوب قال ابن عطية السلوى طائر باجماع المفسرين قال القرطبى ما ادعاه من الاجماع لا يصح وقد قال المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير انه العسل وبه قال الجوهرى وقال ابن يحيى السلوى طائر يشبه السمانى وخاصيته ان أكل لحمه يلين القلوب القاسية يموت اذا سمع صوت الرعد كما ان الخطاف يقتله البرد فيلهمه الله تعالى ان يسكن جزائر البحر التى لا يكون فيها مطر ولا رعد الى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر فى الارض قال الاخفش السلوى لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته وقال الخليل واحده سلواة وقال الكسائى السلوى واحد وجمعه سلاوى وقيل هو السمانى بعينه فكان الرجل يأخذ ما يكفيه يوما وليلة فاذا كان يوم الجمعة يأخذ ما يكفيه ليومين لانه لم يكن ينزل يوم السبت شئ (كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات) اى حلالات أو مستلذات (ما رزقناكم) ولا تدخروا لغد استدل به على أن الضيف لا يملك ما قدم له وانه لا يتصرف الا باذن (وما ظلمونا) اى وما بخسوا حقنا (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بأخذهم أكثر مما حد لهم فاستحقوا بذلك عذابى وقطع مادة الرزق الذى كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا تعب فى الدنيا ولا حساب فى العقبى فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر وتقديم الانفس يفيد الاختصاص وفيه ضرب تهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فى الظلم واستمرارهم على الكفر (واذ قلنا ادخلوا هذه القرية) سميت قرية لاجتماع الناس فيها وقد يطلق عليهم مجازا وقوله تعالى واسأل القرية يحتمل الوجهين مشتقة من قريت اى جمعت لجمعها الاهلها تقول قريت الماء فى الحوض اى جمعته

وقال ابن جرير فى قوله تعالى أولئك هم الخاسرون الخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله اياه رحمته التى خلقها لعباده فى القيامة أحوج ما كانوا الى رحمته يقال منه خسر الرجل يخسر خسرا وخسرانا وخسارا كما قال جرير بن عطية

ان سليطا فى الخسار انه * أولاد قوم خلقوا اقنه

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) يقول تعالى محتجا على وجوده وقدرته وانه الخالق المتصرف فى عباده كيف تكفرون بالله أى كيف تجحدون

وجوده أو تعبدون معه غيره وكنتم أمواتا فاحياكم أى قد كنتم عدما فاخرجكم الى الوجود كما قال تعالى أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون وقال تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا والايات فى هذا كثيرة وقال سفيان الثورى عن أبى اسحق عن أبى الاحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا قال هى التى فى البقرة وكنتم أمواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كنتم أمواتا فاحياكم أمواتا فى أصلاب آبائكم لم تكونوا شيأ حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم قال وهى مثل قوله تعالى أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون الى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة فهذه ميتتان وحياتان فهو كقوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم وهكذا روى عن السدى بسنده عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعن أبى العالية والحسن ومجاهد وقتادة وأبى صالح والضحاك وعطاء الخراسانى نحو ذلك وقال الثورى عن السدى عن أبى صالح كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون قال يحييكم فى القبر ثم يميتكم وقال ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال خلقهم فى ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم خلقهم فى الارحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة وذلك كقوله تعالى قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين وهذا غريب والذى قبله والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس وأولئك الجماعة من التابعين وهو كقوله تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه الآية كما قال تعالى فى الاصنام أموات غير أحياء وما يشعرون الآية وقال وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون (هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم) لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلا آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والارض فقال هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات أى قصد الى السماء والاستواء هنا متضمن معنى القصد والاقبال لانه عدى بالى فسواهن أى فخلق السماء

واسم ذلك الماء قرى بكسر القاف قال جمهور المفسرين القرية هى بيت المقدس وبه قال مجاهد وقال ابن عباس هى أريحاء قرية الجبارين قال ابن الاثير قرية بالغور قريبة من بيت المقدس وجزم القاضى وغيره بالاول وقيل كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون لانه هو الذى فتح اريحاء بعد موسى لان موسى مات فى التيه وعلى الاول القائل موسى عليه السلام وقيل قرية من قرى الشام (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) أمرا باحة ورغدا كثيرا واسعا أى أكلا رغدا (وادخلوا الباب) الذى أمرتم بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة وقيل هو باب القبة التى كان يصلى اليها موسى وبنو اسرائيل ومن قال ان القرية اريحاء قال ادخلوا من أى باب كان من أبوابها وكان لها سبعة أبواب (سجدا) أى منحنين كالراكعين أو خضعا متواضعين والسجود قيل هو هنا الانحناء وقيل التواضع والخضوع واستدلوا على ذلك بانه لو كان المراد السجود الحقيقى الذى هو وضع الجبهة على الارض لامتنع الدخول المأمور به لانه لا يمكن الدخول حال السجود قال فى الكشاف انهم أمروا بالسجود عند الانتهاء الى الباب شكرا لله وتواضعا واعترضه أبو حيان فى النهر الماد فقال لم يؤمروا بالسجود بل هو قيد فى وقوع المأمور به وهو الدخول والاحوال نسب تقييدية والاوامر نسب اسنادية انتهى ويجاب عنه بان الامر بالمقيد أمر بالقيد فمن قال أخرج مسرعا فهو أمر بالخروج على هذه الهيئة فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفا للامر ولا ينافى هذا كون الاحوال نسبا تقييدية فان اتصافها بكونها قيودا مأمورا بها هو شئ زائد على مجرد التقييد (وقولوا حطة) قيل الحطة فى الاصل اسم للهيئة من الحط كالجلسة والقعدة وقيل هى اتوبة معناه الاستغفار وقال ابن فارس فى المجمل حطة كلمة أمروا بها لو قالوها لحطت أوزارهم اى لا يدرى معناها قال الرازى فى تفسيره أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة وذلك لان التوبة صفة القلب فلا يطلع الغير عليها واذا اشتهر واحد بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكى توبته لمن شاهد منه الذنب لان التوبة لا تتم الا به انتهى وكون التوبة لا تتم الا بذلك لا دليل عليه بل مجرد عقد القلب عليها يكفى سواء اطلع الناس على ذنبه أم لا وربما كان التكتم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها الا الله عز وجل أحب الى الله وأقرب الى مغفرته وأما رفع ما عند الناس من اعتقادهم

سبعا والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم أى وعلمه محيط بجميع ما خلق كما قال ألا يعلم من خلق وتفصيل هذه الآية فى سورة حم السجدة وهو قوله تعالى قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم فنى هذا دلالة على انه تعالى ابتدأ بخلق الارض أولا ثم خلق السموات سبعا وهذا شأن البناء ان يبدأ بعمارة أسافله (١١٦) ثم أعاليه بعد ذلك وقد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره بعد هذا ان شاء الله فأما قوله تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم فقد قيل ان ثم ههنا انما هى لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل كما قال الشاعر

قل لمن ساد ثم ساد أبوه

ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقيل ان الدحى كان بعد خلق السموات والارض رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس وقد قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم قال ان الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيأ غير ما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين فى الاحد والاثنين فخلق الارض على حوت والحوت هو الذى يظلمون ذكره الله فى القرآن ن والقلم والحوت فى الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة فى الريح وهى الصخرة التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الارض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الارض فأرسى عليها الجبال فقرت فالجبال تفخر على الارض فذلك قوله تعالى وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين فى الثلاثاء والاربعاء وذلك حين يقول قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها يقول أنبت شجرها وقدر فيها أقواتها لأهلها فى أربعة أيام سواء للسائلين

بقاءه على المعصية فذلك باب آخر (نغفر لكم خطاياكم) اى نسترها عليكم من الغفر وهو الستر لان المغفرة تستر الذنوب وخطايا جمع خطية (وسنزيد المحسنين) اى نزيدهم ثوابا أو احسانا الى احسانهم المتقدم وهو اسم فاعل من احسن وقد ثبت فى الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) قيل انهم قالوا حنطة وقيل قالوا بلسانهم حطاسمقاثا اى حنطة حمراء استخفافا منهم بأمر الله وقيل غير ذلك والصواب انهم قالوا حبة فى شعيرة قالوا ذلك استهزاء أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وفى رواية عن ابن عباس عند ابن جرير وابن المنذر حنطة فى شعيرة والاول أرجح لكونه فى الصحيحين وبدلوا الفعل أيضا حيث دخلوا يزحفون على استاههم قال الكيا الهراسى فيه دليل على انه لا يجوز تغيير الاقوال المنصوص عليها وأنه يتعين اتباعها وقال الرازى يحتج به فيما ورد من التوقيف فى الاذكار والاقوال وانه غير جائز تغييرها وربما احتج به على المخالف فى تجويز تحريمة الصلاة بلفظ التعظيم والتسبيح وفى تجويز القراءة بالفارسية وفى تجويز النكاح بلفظ الهبة وما جرى مجرى ذلك (فانزلنا على الذين ظلموا) هو من وضع الظاهر موضع المضمر لنكتة تقدر فى كل محل بما يناسبه تعظيما كقوله أولئك حزب الله ألا ان حزب الله وتحقيرا كقوله أولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان أو ازالة لبس أو غير ذلك وهى مبسوطة فى الاتقان للجلال السيوطى وكما تقرر فى علم البيان وهى هنا تعظيم الامر عليهم ومبالغة فى تقبيح فعلهم وشأنهم (رجزا من السماء) يعنى عذابا والرجز العذاب قيل أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم فى ساعة واحدة سبعون ألفا وأخرج مسلم وغيره من حديث اسامة ابن زيد وسعد بن مالك وخزيمة بن ثابت قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان هذا الطاعون رجز و بقية عذاب عذب به اناس من قبلكم فاذا كان بارض وأنتم بها فلا تخرجوا منها واذا بلغكم انه بأرض فلا تدخلوها ومن المعلوم ان الطاعون ضرب الجن للانس فهو أرضى لا سماوى وانما قيل فيه من السماء لان القضاء به يقع فيها قال الجلال السيوطى فهلك منهم فى ساعة سبعون ألفا أو أقل انتهى وهذا الوباء غير الذى حل بهم فى التيه (بما كانوا يفسقون) أى يعصون و يخرجون عن أمر الله تعالى وفى الاعراف

يقول من سأل فهكذا الامر ثم استوى الى السماء وهى دخان وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين فى الخميس والجمعة وانما سمى يوم الجمعة لانه جمع فيه خلق السموات والارض وأوحى فى كل سماء أمرها قال خلق الله فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد ومما لا يعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظا تحفظ من الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فذلك حين يقول خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ويقول كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى أبو معشر عن سعيد بن أبى سعيد عن عبد الله بن سلام انه قال ان الله بدأ الخلق يوم الاحد فخلق الارضين فى الاحد والاثنين وخلق الاقوات والرواسى فى الثلاثاء والاربعاء وخلق السموات فى الخميس والجمعة وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة وقال مجاهد فى قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا قال خلق الله الارض قبل السماء فلما خلق الارض ثار منها دخان فذلك حين يقول ثم استوى الى السماء وهى دخان فسواهن سبع سموات قال بعضهن فوق بعض وسبع أرضين يعنى بعضها تحت بعض وهذه الآية دالة على ان الارض خلقت قبل السماء كما قال فى آية السجدة قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم فهذه وهذه دالتان على ان الارض خلقت قبل السماء وهذا مما لا أعلم فيه نزاعا بين العلماء الا ما نقله ابن جرير عن قتادة انه زعم أن السماء خلقت قبل الارض وقد يتوقف فى ذلك القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها قالوا فذكر خلق السماء قبل الارض وفى صحيح البخارى ان ابن عباس سئل عن هذا بعينه فاجاب بان الارض خلقت قبل السماء وان الارض انما دحيت بعد خلق السماء وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديما وحديثا وقد حررنا ذلك فى سورة النازعات وحاصل ذلك ان الدحى مفسر بقوله تعالى

يظلمون تنبيها على انهم جامعون بين هذين الوصفين (واذ استسقى موسى لقومه) أى طلب السقيا لقومه وذلك انهم عطشوا فى التيه فسألوا موسى أن يستسقى لهم ففعل والاستسقاء انما يكون عند عدم الماء وحبس القطر ومعناه فى اللغة طلب السقيا وفى الشرع ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى صفته من الصلاة والدعاء وهذا تذكير لنعمة أخرى كفروها (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ولها شعبتان تتقدان فى الظلمة نورا واسمها عليق وقيل نبعة حملها آدم معه من الجنة فتوارثها الانبياء حتى وصلت الى شعيب فأعطاها موسى كذا قيل والله أعلم والحجر يحتمل ان يكون معينا فيكون اللام للعهد وهو الذى فر بثوبه فلما سألوه السقيا ضربه ويحتمل أن لا يكون معينا فتكون للجنس وهو أظهر فى المعجزة وأقوى للحجة (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) يعنى على عدد أسباط بنى اسرائيل والمعنى فضربه فانفجرت والانفجار الانشقاق وانفجر الماء انفتح قال المفسرون انفجرت وانبجست بمعنى واحد وقيل انبجست عرقت وانفجرت سالت قال ابن عطية ولا خلاف انه كان حجرا مربعا يخرج من كل جهة ثلاث عيون اذا ضرب موسى سالت العيون واذا استغنوا عن الماء جفت (قد علم كل أناس مشربهم) المشرب موضع الشرب وقيل هو المشروب نفسه وفيه دليل على انه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركهم غيرهم قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها الى غيرها والاسباط ذرية الاثنى عشر من أولاد يعقوب وكل عين تسيل فى قناة الى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة العسكر اثنا عشر ميلا (كلوا) أى قلنا لهم كلوا المن والسلوى (واشربوا) أى الماء المتفجر من الحجر (من رزق الله) فهذا كله من رزقه كان يأتيهم بلا مشقة ولا كلفة (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) عثى يعثى عثيا وعثا يعثو عثوا وعاث يعيث عيثا الغاث بمعنى أفسد قال فى الكشاف العثى أشد الفساد فقيل لهم لا تعادوا فى الفساد فى حال فسادكم لانهم كانوا متمادين فيه انتهى وفى هذه الآية معجزة عظيمة لموسى عليه السلام حيث انفجر من الحجر الصغير ما روى منه الجم الكثير ومعجزة لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم أعظم منه لانه انفجر الماء من بين أصبعيه فروى منه الجم الغفير لان انفجار الماء من بين الدم واللحم أعظم من انفجاره من الحجر (واذ قلتم) أى اذكروا يا بنى اسرائيل اذ قال أسلافكم وهذا

والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ففسر الدحي باخراج ما كان مودعا فيها بالقوة الى الفعل لما أكملت سورة المخلوقات الارضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الارض فاخرجت ما كان مودعا فيها من المياه فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها وكذلك جرت هذه الافلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة والله سبحانه وتعالى أعلم وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الاية الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير أيضا من رواية ابن جريج قال أخبرني اسمعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الاحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب وان أبا هريرة انما سمعه من كلام كعب الاحبار وانما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا وقد حرر ذلك البيهقي (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون) يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الاعلى قبل ايجادهم فقال تعالى واذ قال ربك للملائكة أي واذكر يا محمد اذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم ان اذ ههنا زائدة وان تقدير الكلام وقال ربك وردّه ابن جرير قال القرطبي وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج هذا اجتراء الاستلذاذ من أبي عبيدة اني جاعل في الارض خليفة أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى هو الذي جعلكم خلائف الارض وقال ويجعلكم خلفاء الارض وقال ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون وقال فخلف من بعدهم خلف وقرئ في الشاذ اني جاعل في الارض خليفة حكاها الزمخشري وغيره ونقل القرطبي عن زيد بن علي وليس المراد ههنا بالخليفة ادم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين وعزاه القرطبي الى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في تفسيره وغيره والظاهر انه لم يرد آدم عينا اذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة أتجعل فيها

تذكير لجناية أخرى صدرت منهم واسناد الفعل الى فروعهم وتوجيه التوبيخ اليهم لما بينهم وبين أصولهم من الاتحاد (يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) هذا تضجر منهم مما صاروا فيه من النعمة والرزق الطيب والعيش المستلذ ونزوع ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش ويحتمل أن لا يكون هذا منهم تشوقا الى ما كانوا فيه وبطرا لما صاروا اليه من المعيشة الرافهة بل هو باب من تعنتهم وشعبة من شعب تجرفهم كما هو دأبهم وهجيرهم في غالب ما قص علينا من أخبارهم وقال الحسن البصري انهم كانوا أهل كراث وأبصال وأعداس فنزعوا الى عكرهم عكر السوء واشتاقت طباعهم الى ما جرت عليه عادتهم فقالوا لن نصبر على طعام واحد أي نوع منه والمراد بالطعام الواحد هو المن والسلوى وهما وان كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاما واحدا وقيل لتكررهما في كل يوم وعدم وجود غيرهما معهما ولا تبدلة بهما والبقل كل نبات ليس له ساق والشجر ما له ساق وقال في الكشاف البقل ما أنبتته الارض من الخضر والمراد به أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها انتهى وجمعه بقول والقثاء معروف الواحدة قثاءة وفيها لغتان كسر القاف وضمها والمشهور الكسر والفوم قيل هو الثوم وقد قرأه ابن مسعود بالثاء وروى نحو ذلك عن ابن عباس وقيل الفوم الحنطة واليه ذهب أكثر المفسرين كما قال القرطبي وقد رجح هذا ابن النحاس قال الجوهري وممن قال بهذا الزجاج والاخفش وقال بالاول الكسائي والنضر بن شميل وقيل الفوم السنبلة وقيل الحمص وقيل الفوم كان حبا يخبز والعدس والبصل معروفان قيل انما طلبوا هذه الانواع لانها تعين على تقوية الشهوة أو لانهم ملوا من البقاء في التيه فسألوا هذه الاطعمة التي لا توجد الا في البلاد وكان غرضهم الوصول الى البلاد لا تلك الاطعمة والاول أولى (قال) يعني موسى عليه السلام لهم وقيل القائل هو الله والاول اولى (أتستبدلون الذي هو أدنى) أي اخس وأردأ وهو الذي طلبوه والاستبدال وضع الشيء موضع الآخر قال الزجاج ادنى مأخوذ من الدنو أي القرب وقيل من الدناءة وقيل أصله أدون من الدون أي الردىء والهمزة للانكار مع التوبيخ والمراد أتضعون هذه الاشياء التي هي دون موضع المن والسلوى اللذين هما خير منها من جهة

من يفسد فيها ويسفك الدماء فانهم أرادوا ان من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص او بما فهموه من الطبيعة البشرية فانه أخبرهم انه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون أو فهموا من الخليفة انه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم قاله القرطبي أو انهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بانهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيأ لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم بانه سيخلق في الارض خلقا قال قتادة وقد تقدم اليهم انهم يفسدون فيها فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء الآية (١١٩) وانما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع ان منهم من يفسد في الارض ويسفك الدماء فان كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك اي نصلي لك كما سيأتي اي ولا يصدر منا شئ من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال اني أعلم ما لا تعلمون اي اني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فاني سأجعل فيهم الانبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والاولياء والابرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم وقد ثبت في الصحيح ان الملائكة اذا صعدت الى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادي فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون وذلك لانهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر فيمكث هؤلاء ويصعد اولئك بالاعمال كما قال عليه الصلاة والسلام يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل فقولهم أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم اني أعلم ما لا تعلمون وقيل معنى قوله تعالى جوابا لهم اني أعلم ما لا تعلمون اني لي حكمة منفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها وقيل انه جواب ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فقال اني أعلم ما لا تعلمون أي من وجود ابليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به وقيل بل تضمن قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك طلبا منهم ان يسكنوا الارض بدل بني آدم فقال الله تعالى لهم اني أعلم ما لا تعلمون من ان بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم ذكرها الرازي مع غيرها من الاجوبة والله أعلم * ذكر أقوال المفسرين ببسط

الاستلذاذ والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه والحل الذي لا تطرقه الشبهة وعدم الكلفة بالسعي له والتعب في تحصيله (بالذي هو خير) أي أشرف وأفضل وهو ما هم فيه (اهبطوا مصرا) أي انزلوا مصرا وانتقلوا من هذا المكان الى مكان آخر فالهبوط لا يختص بالنزول من المكان العالي الى الاسفل بل قد يستعمل في الخروج من أرض الى أرض مطلقا قاله الشهاب وظاهر هذا ان الله أذن لهم بدخول مصر وقيل ان الامر للتعجيز والاهانة لانهم كانوا في التيه لا يمكنهم هبوط مصر لانسداد الطرق عليهم اذ لو عرفوا طريق مصر لما أقاموا أربعين سنة متحيرين لا يهتدون الى طريق من الطرق فهو مثل قوله تعالى كونوا حجارة أو حديدا قال الخليل وسيبويه أراد مصرا من الامصار ولم يرد المدينة المعروفة وهو خلاف الظاهر بل يجوز صرفه مع حصول العلمية والتأنيث لانه ثلاثي ساكن الاوسط وبه قال الاخفش والكسائي والمصرف في الاصل الحد الفاصل بين الشيئين وقيل المصر البلدة العظيمة (فان لكم ما سألتم) يعني من نبات الارض (وضربت عليهم) أي على فروعهم وأخلافهم (الذلة) أي الهوان وقيل الجزية وزي اليهودية وفيه بعد والاول أولى والمعنى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان بسبب قتلهم عيسى في زعمهم والذلة بالكسر الصغار والحقارة والذلة بالضم ضد العز (والمسكنة) أي الفقر والفاقة وسمي الفقير مسكينا لان الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة ومعنى ضرب الذلة والمسكنة الزامهم بذلك والقضاء به عليهم قضاء مستمرا لا يفارقهم ولا ينفصل عنهم مع دلالته على ان ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها أو لازم لهم لزوم الدرهم المضروب لسكته وهذا الخبر الذي أخبر الله تعالى به وهو معلوم في جميع الازمنة فان اليهود أقماهم الله أذل الفرق وأشدهم مسكنة وأكثرهم تصاغرا لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رؤسهم راية ولا ثبتت لهم ولاية بل مازالوا عبيد العصى في كل زمن وطروقة كل فحل في كل عصر ومن تمسك منهم بنصيب من المال وان بلغ في الكثرة أي مبلغ فهو متظاهر بالفقر مرتد بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه اطماع الطامعين في ماله امابحق كتوفير ما عليه من الجزية أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجار على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه فلا ترى أحدا من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود كأنهم فقراء وان كانوا أغنياء مياسير (وباءوا) رجعوا يقال باء بكذا أي

ما ذكرناه * قال ابن جرير حدثني القاسم بن الحسن حدثني الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك عن الحسن وأبي بكر عن الحسن وقتادة قالوا قال الله للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قال لهم اني فاعل هذا ومعناه انه أخبرهم بذلك وقال السدي استشار الملائكة في خلق آدم رواه ابن أبي حاتم وقال وروي عن قتادة نحوه وهذه العبارة ان لم ترجع الى معنى الاخبار ففيها تساهل وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير احسن والله أعلم في الارض قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سابط ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دحيت الارض من مكة وأول من طاف بالبيت الملائكة فقال الله اني جاعل في الارض يعني (١٢٠) مكة وهذا مرسل وفي سنده ضعف وفيه مدرج وهو أن المراد بالارض مكة والله أعلم فان الظاهر ان المراد بالارض أعم من ذلك خليفة قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ان الله تعالى قال للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال يكون له ذرية يفسدون في الارض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قال ابن جرير فكان تأويل الآية على هذا اني جاعل في الارض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وان ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه وأما الافساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه قال ابن جرير وانما معنى الخلافة التي ذكرها الله انما هي خلافة قرن منهم قرنا قال والخليفة الفعيلة من قولك خلف فلان فلانا في هذا الامر اذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون ومن ذلك قيل للسلطان الاعظم خليفة لانه خلف الذي كان قبله فقام بالامر فكان منه خلفا قال وكان محمد بن اسحق يقول في قوله تعالى اني جاعل في الارض خليفة يقول ساكنا وعامرا يعمرها ويسكنها خلقا ليس منكم قال ابن جرير وحدثنا أبو كريب حدثنا عثمان ابن سعيد حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال ان اول من سكن الارض الجن فافسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله اليهم ابليس فقتلهم ابليس ومن معه حتى الحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فاسكنه اياها فلذلك قال اني جاعل في الارض خليفة وقال سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن ابن سابط اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال يعنون به بني آدم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

رجع والمراد أنهم رجعوا (بغضب من الله) أو صاروا أحقاء بغضبه وقال أبو عبيدة والزجاج احتملوه وقيل أقروا به وقيل استحقوه وقيل لازموه وهو الاوجه يقال بوأته منزلا فتبوأ أي الزمته فلزمه (ذلك) أي ما تقدم من ضرب الذلة ومابعده (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق) أي بسبب كفرهم بالله وقتلهم الانبياء بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال انه لا يكون قتل الانبياء بحق في حال من الاحوال لامكان العصمة بل المراد نعي هذا الامر عليهم وتعظيمه وانه ظلم ثبت في نفس الامر ويمكن ان يقال انه ليس بحق في اعتقادهم الباطل لان الانبياء لم يعارضوهم في مال ولا جاه بل أرشدوهم الى مصالح الدين والدنيا كما كان من شعيا وزكريا ويحيى فانهم قتلوهم وهم يعلمون ويعتقدون انهم ظالمون وانما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى عن ابن مسعود قال كانت بنو اسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار (ذلك) تكرير الاشارة لقصد التأكيد وتعظيم الامر عليهم وتهويله ومجموع مابعد الاشارة الاولى والاشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة ومابعده وقيل يجوز أن يكون الاشارة الثانية الى الكفر والقتل فيكون مابعدها سببا للسبب قاله الزمخشري وهو بعيد جدا (بما عصوا) أمري (وكانوا يعتدون) الاعتداء تجاوز الحد في كل شئ أي يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي (ان الذين آمنوا) قيل ان المراد بهم المنافقون بدلالة جعلهم مقترنين باليهود والنصارى والصابئين أي آمنوا في الظاهر والاولى ان يقال ان المراد الذين صدقوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصاروا من جملة أتباعه وكأنه سبحانه أراد ان يبين ان حال هذه الملة الاسلامية وحال من قبلها من سائر الملل يرجع الى شئ واحد وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا استحق ماذكره الله من الاجر ومن فاته ذلك فاته الخير كله والاجر دقه وجله والمراد بالايمان ههنا هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله لما سأله جبريل عليه السلام عن الايمان فقال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره ولا يتصف بهذا الايمان الا من دخل في الملة الاسلامية فمن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا بالقرآن فليس بمؤمن ومن آمن بهما صار مسلما مؤمنا ولم يبق يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا (والذين هادوا) معناه صاروا يهودا قيل هو نسبة لهم الى يهوذ ابن

قال الله للملائكة انى أريد أن اخلق فى الارض خلقا وأجعل فيها خليفة وليس لله عز وجل خلق الا الملائكة والارض وليس فيها خلق قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وقد تقدم ما رواه السدى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة ان الله أعلم الملائكة بما تفعله ذرية آدم فقالت الملائكة ذلك وتقدم آنفا ما رواه الضحاك عن ابن عباس ان الجن أفسدوا فى الارض قبل بنى آدم فقالت الملائكة ذلك فقاسوا هؤلاء بأولئك وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن بكير بن الاخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال كان الجن بنو الجان فى الارض قبل أن يخلق آدم بألفى سنة فأفسدوا فى الارض وسفكوا الدماء فبعث الله جندا من الملائكة (١٣١) فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور فقال

ابن يعقوب بالذال المعجمة فقلبتها العرب دالا مهملة وقيل معنى هادوا تابوا التوبتهم عن عبادة العجل ومنه قوله تعالى انا هدنا اليك أى تبنا وقيل ان معناه السكون والموادعة وقال فى الكشاف معناه دخل فى اليهودية (والنصارى) قال سيبويه مفرده نصران ونصرانة كندمان وندمانة ولكن لا يستعمل الا بياء النسب فيقال رجل نصرانى وامرأة نصرانية وقال الخليل واحد النصارى نصرى وقال الجوهرى ونصران قرية بالشام تنسب اليها النصارى ويقال نادرة فعلى هذا فالياء للنسب وقال فى الكشاف ان الياء للمبالغة كالتى فى أحمرى سموا بذلك لانهم نصروا المسيح (والصابئين) جمع صابئ وقيل صاب والصابئ فى اللغة من خرج ومال من دين الى دين ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ سموا هذه الفرقة صابئة لانها خرجت من دين اليهود والنصارى وعبدوا الملائكة وقيل عبدوا الكواكب وقال البيضاوى انهم قوم بين اليهود والمجوس انتهى ثم جعل هذا اللقب علما لطائفة من الكفار وقيل هم يدعون أنهم على دين صابئ بن شيث بن آدم والاول أولى قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتابه فى الرد على المنطقيين ان حران كانت دار هؤلاء الصابئة وفيها ولد ابراهيم عليه السلام أو انتقل اليها من العراق على اختلاف القولين وكان بها هيكل العلة الاولى هيكل العقل الاول هيكل النفس الكلية هيكل زحل هيكل المشترى هيكل المريخ هيكل الشمس وكذلك الزهرة وعطارد والقمر وكان هذا دينهم قبل ظهور النصرانية فيهم ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة المشركين حتى جاء الاسلام ولم يزل بها الصابئة والفلاسفة فى دولة الاسلام الى آخر وقت ومنهم الصابئة الذين كانوا ببغداد وغيرها أطباء وكتابا وبعضهم لم يسلم ولما قدم الفارابى حران فى اثناء المائة الرابعة دخل عليهم وتعلم منهم وأخذ عنهم ما أخذ من المتفلسفة وكان ثابت بن قرة الحرانى صاحب الزيج قد شرح كلام ارسطو فى الالهيات وقد رأيته وبينت بعض ما فيه من الفساد فان فيه ضلالا كثيرا وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور دين النصرانية وكانوا يصلون الى القطب الشمالى ولهذا يوجد فى دمشق مساجد قديمة فيها قبلة الى القطب الشمالى وتحت جامع دمشق معبد كبير له قبلة الى القطب الشمالى كان لهؤلاء فان الصابئة نوعان صابئة حنفاء موحدون وصابئة مشركون فالاول هم الذين أثنى الله عليهم بهذه الآية فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا من هذه

الله للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال انى أعلم ما لا تعلمون وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة الى قوله أعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون قال خلق الله الملائكة يوم الاربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة فكفر قوم من الجن فكانت الملائكة تهبط اليهم فى الارض فتقاتلهم بغيهم وكان الفساد فى الارض فمن ثم قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ويسفك الدماء كما سفكوا قال ابن أبى حاتم وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مبارك بن فضالة أخبرنا الحسن قال قال الله للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قال لهم انى فاعل فآمنوا بربهم فعلمهم علما وطوى عنهم علما علمه ولم يعلموه فقالوا بالعلم الذى علمهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال انى أعلم ما لا تعلمون قال الحسن ان الجن كانوا فى الارض يفسدون ويسفكون الدماء ولكن جعل الله فى قلوبهم ان ذلك سيكون فقالوا بالقول الذى علمهم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله أتجعل فيها من يفسد فيها كان الله أعلمهم انه اذا كان فى الارض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء فذلك حين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام الرازى حدثنا ابن المبارك عن معروف يعنى ابن خربوذ المكى عمن سمع أبا جعفر محمد بن على يقول السجل ملك وكان هروت وماروت من أعوانه وكان له فى كل يوم ثلاث لحظات فى ام الكتاب فنظر نظرة لم تكن له نابصر فيها خلق آدم وما كان فيه من الامور فاسر ذلك الى هروت وماروت وكانا من أعوانه فلما قال تعالى انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها

ويسفك الدماء قالا ذلك استطالة على الملائكة وهذا أثر غريب وبتقدير صحته الى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقر فهو نقله عن أهل الكتاب وفيه نكارة توجب رده والله أعلم ومقتضاه ان الذين قالوا ذلك انما كانوا اثنين فقط وهو خلاف السياق وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم أيضا حيث قال حدثنا أبي حدثنا هشام بن أبي عبيد الله حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير قال سمعت أبي يقول ان الملائكة الذين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك كانوا عشرة آلاف فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم وهذا أيضا اسرائيلي منكر كالذي قبله والله أعلم قال ابن جريج انما تكلموا بما أعلمهم الله انه كائن من خلق آدم فقالوا أتجعل (١٢٢) فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قال ابن جرير وقال بعضهم انما قالت الملائكة ما قالت أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء لان الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم ان ذلك كائن من بني آدم فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم فأجابهم ربهم اني أعلم ما لا تعلمون يعني ان ذلك كائن منهم وان لم تعلموه أنتم ومن بعض ما ترونه لي طائعا قال وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك فكأنهم قالوا يا رب خبرنا مسئلة استخبار منهم لا على وجه الانكار واختاره ابن جرير وقال سعيد عن قتادة قوله تعالى واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا استشار الملائكة في خلق آدم فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقد علمت الملائكة انه لا شيء أكره عند الله من سفك الدماء والفساد في الارض ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون فكان في علم الله انه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنوا الجنة قال وذكر لنا عن ابن عباس انه كان يقول ان الله لما أخذ في خلق آدم عليه السلام من قالت الملائكة ما الله خالق خلقا أكرم عليه منا ولا أعلم منا فابتلوا بخلق آدم وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والارض بالطاعة فقال الله تعالى ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقوله تعالى ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال التسبيح والتقديس الصلاة وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال يقولون نصلي لك وقال مجاهد ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال نعظمك ونكبرك وقال الضحاك التقديس التطهير وقال محمد بن اسحق ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال

الملل الاربع المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل وكذلك الذين دانوا بالانجيل قبل النسخ والتبديل والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين لملة ابراهيم امام الحنفاء قبل نزول التوراة والانجيل وهذا بخلاف المجوس والمشركين فانه ليس فيهم مؤمن فلهذا قال تعالى ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد فذكر الملل الست هؤلاء وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة لم يذكر في الست من كان مؤمنا وانما ذكر ذلك في الاربعة فقط ثم ان الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين وأما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيأ ويؤمنون بان الله محدث لهذا العالم ويقرون بمعاد الابدان فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أثنى الله عليهم ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب يقرون بحدوثه وكذلك المشركون من الهند وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين هو ارسطو انتهى المقصود منه (من آمن بالله واليوم الآخر) في زمن نبينا (وعمل صالحا) بشريعته (فلهم أجرهم) أي ثواب أعمالهم والاجر في الاصل مصدر يقال أجره الله يأجره أجرا وقد يعبر به عن نفس الشيء المجازى به والآية الكريمة تحتمل المعنيين (عند ربهم) عند ظرف مكان لازم للاضافة لفظا ومعنى أي لهم أجرهم ثابتا عند ربهم وقد تقدم تفسير قوله تعالى (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي في الآخرة حين يخاف الكفار من العذاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب (واذ أخذنا ميثاقكم) أي عهدكم يا معشر اليهود والمراد انه أخذ سبحانه عليهم الميثاق أن يعملوا بما شرعه لهم في التوراة أو بما هو أعم من ذلك أو أخص (ورفعنا فوقكم الطور) يعني الجبل العظيم والطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة فيه قال ابن عباس وكان بنو اسرائيل أسفل منه وقيل هو اسم لكل جبل بالسريانية وفي القاموس يطلق على أي جبل كان وصرح به السمين ويطلق أيضا على جبال مخصوصة بأعيانها وهذا الجبل الذي رفع فوقهم كان من جبال فلسطين وعن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال وما لم ينبت فليس بطور وقد ذكر كثير

لانعصي ولانأتي شيأ تكرهه وقال ابن جرير التقديس هو التعظيم والتطهير ومنه قولهم سبوح قدوس يعني بقولهم سبوح تنزيه له وبقولهم قدوس طهارة وتعظيم له وكذلك قيل للارض أرض مقدسة يعني بذلك المطهرة فمعنى قول الملائكة اذا ونحن نسبح بحمدك ننزهك ونبرئك مما يضيفه اليك أهل الشرك بك ونقدس لك ننسبك الى ما هو من صفاتك من الطهارة من الادناس وما أضاف اليك أهل الكفر بك وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الكلام أفضل قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده وقال روى البيهقي عن عبد الرحمن بن قرط ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به سمع تسبيحا في السموات العلا سبحان العلي الاعلى سبحانه وتعالى (١٢٣) قال اني أعلم مالا تعلمون قال قتادة فكان

من المفسرين أن موسى لما جاء بني اسرائيل من عند الله بالالواح قال لهم خذوها والتزموها فقالوا لا الا أن يكلمنا الله بها كما كلمك فصعقوا ثم أحيوا فقال لهم خذوها والتزموها فقالوا لا فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله وكذلك كان عسكرهم فجعل عليهم مثل الظلة وأوتوا بحر من خلفهم ونار من قبل وجوههم وقيل لهم خذوها وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها والا سقط عليكم الجبل فسجدوا توبة لله وأخذوا التوراة بالميثاق قيل وسجدوا على انصاف وجوههم اليسرى وجعلوا يلاحظون الجبل بأعينهم اليمنى وهم سجود فصار ذلك سنة في سجود اليهود قيل فكأنه حصل لهم بعد هذا القسر والالجاء قبول واذعان اختياري أو كان يكفي في الامم السابقة مثل هذا الايمان قال ابن جرير عن بعض العلماء لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق قال ابن عطية والذي لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الايمان لأنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة انتهى وهذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قدار تسم لديه من قواعد مذهبية قد سكن قلبه اليها كغيره وكل عاقل يعلم أنه لا سبب من أسباب الاكراه أقوى من هذا أو أشد منه ونحن نقول أكرههم الله على الايمان فآمنوا مكرهين ورفع عنهم العذاب بهذا الايمان وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عمن تكلم بكلمة الاسلام والسيف مصلت قد هز حامله على رأسه وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لمن قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا عن قتله بأنه قالها تقية ولم يكن عن قصد صحيح أفلا شققت عن قلبه وقال لأسامة أمرت أن انقب عن قلوب الناس قال القفال انه ليس اجبارا على الاسلام لان الجبر ما سلب الاختيار بل كان اكراها وهو جائز ولا يسلب الاختيار كالمحاربة مع الكفار فأما قوله لا اكراه في الدين وقوله أفأنت تكره الناس فقد كان قبل الامر بالقتال ثم نسخ ذكره الشهاب

(خذوا ما آتيناكم) أي قلنا لهم خذوا ما أعطيناكم (بقوة) القوة الجد والاجتهاد (واذكروا ما فيه) أي ادرسوا ولا تنسوه والمراد بذكر ما فيه أن يكون محفوظا عندهم ليعملوا به (لعلكم تتقون) أي لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى أو رجاء منكم أن تكونوا متقين (ثم توليتم) أصل التولي الادبار عن الشيء والاعراض بالجسم ثم استعمل في الاعراض عن الامور والاديان والمعتقدات اتساعا ومجازا (من بعد ذلك)

في علم الله انه سيكون في تلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنوا الجنة وسيأتي عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال في حكمة قوله تعالى قال اني أعلم مالا تعلمون وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة لينفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش الى غير ذلك من الامور المهمة التي لا تمكن اقامتها الا بالامام ومالا يتم الواجب الا به فهو واجب والامامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر أو بالايماء اليه كما يقول آخرون منهم أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكي على ذلك امام الحرمين الاجماع والله أعلم أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدي ذلك الى الشقاق والاختلاف وقد نص عليه الشافعي وهل يجب الاشهاد على عقد الامامة فيه خلاف فمنهم من قال لا يشترط وقيل بلى ويكفي شاهدان وقال الجبائي يجب أربعة وعاقد ومعقود له كما ترك عمر رضي الله عنه الامر شورى بين ستة فوقع الامر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف ومعقود له وهو عثمان واستنبط وجوب الاربعة الشهود من الاربعة الباقين وفي هذا نظر والله أعلم ويجب أن يكون ذكرا بالغا عاقلا مسلما عدلا مجتهدا بصيرا سليم الاعضاء خبيرا بالحروب والآراء قرشيا على الصحيح ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطا خلافا للغلاة الروافض ولو فسق الامام هل ينعزل أم لا فيه خلاف والصحيح انه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام الا ان تروا كفرا بواحا

عندكم من الله فيه برهان وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف وقد عزل الحسن بن علي رضي الله عنه نفسه وسلم الامر الى معاوية لكن هذا لعذر وقد مدح على ذلك فاما نصب امامين في الارض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان وهذا قول الجمهور وقد حكى الاجماع على ذلك غير واحد منهم امام الحرمين وقالت الكرامية يجوز اثنين فأكثر كما كان علي ومعاوية امامين واجبي الطاعة قالوا واذا جاز بعث نبيين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الامامة لان النبوة أعلى رتبة بلا خلاف وحكى امام الحرمين عن الاستاذ أبي اسحق انه جوز نصب امامين فأكثر اذا تباعدت الاقطار واتسعت الاقاليم (١٢٤) بينهما وتردد امام الحرمين في ذلك قلت وهذا يشبه حال الخلفاء بني العباس بالعراق والفاطميين بمصر والامويين بالمغرب ولنقرر هذا كله في موضع آخر من كتاب الاحكام ان شاء الله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شئ دونهم وهذا كان بعد سجودهم له وانما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بانه يعلم ما لا يعلمون ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى وعلم آدم الاسماء كلها قال السدي عمن حدثه عن ابن عباس وعلم آدم الاسماء كلها قال علمه أسماء ولده انسانا انسانا والدواب فقيل هذا الحمار وهذا الجمل هذا الفرس وقال الضحاك عن ابن عباس وعلم آدم الاسماء كلها قال هي هذه الاسماء التي يتعارف بها الناس انسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الامم وغيرها وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس وعلم آدم الاسماء كلها قال علمه اسم الصحفة والقدر قال نعم حتى الفسوة والفسية وقال مجاهد وعلم آدم الاسماء كلها قال علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شئ وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف انه علمه أسماء كل شئ وقال الربيع في رواية عنه أسماء الملائكة وقال حميد الشامي أسماء النجوم وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته كلهم واختار ابن

أي المشاق أو رفع الطور أو اتيناهم التوراة والمراد هنا اعرافهم عن المشاق المأخوذ عليهم من بعد البرهان لهم والترهيب بأشد ما يكون وأعظم ما تجوز به العقول وتقدره الافهام وهو رفع الجبل فوق رؤسهم كأنه ظلة عليهم (فلولا) حرف امتناع لوجود تختص بالجمل الاسمية (فضل الله عليكم) بأن تداركتكم بلطفه والفضل الزيادة والخير والافضال والاحسان قاله ابن فارس في المجمل (ورحمته) حتى أظهرتم التوبة (لكنتم من الخاسرين) أي المغبونين بذهاب الدنيا والهالكين بالعذاب في العقبى والخسران النقصان (ولقد علمتم) أي عرفتم فيتعدى لواحد فقط والفرق بينهما أن العلم يستدعي معرفة الذات وما هي عليه من الاحوال والمعرفة تستدعي معرفة الذات أو الفرق أن المعرفة يسبقها جهل بخلاف العلم ولذلك لا يجوز اطلاقها عليه سبحانه (الذين اعتدوا منكم) أي جاوزوا الحد (في السبت) يقال سبت اليهود لانهم يعظمونه ويقطعون فيه أعمالهم وأصل السبت في اللغة القطع لان الاشياء قطعت فيه وانقطع العمل وقيل هو مأخوذ من السبوت وهو الراحة والدعة وقال في الكشاف السبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت يوم السبت انتهى وفيه نظر فان هذا اللفظ موجود واشتقاقه مذكور في لسان العرب قبل فعل اليهود ذلك وقد ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت فرقتين فرقة اعتدت في السبت أي جاوزت ما أمر الله به من العمل فيه فصادوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه والفرقة الاخرى انقسمت الى فرقتين ففرقة جاهرت بالنهي واعتزلت وفرقة لم توافق المعتدين ولا صادوا معهم لكنهم جالسوهم ولم يجاهروهم بالنهي ولا اعتزلوا عنهم فمسخهم الله جميعا ولم ينج الا الفرقة الاولى فقط وهذه من جملة المحن التي امتحن الله بها هؤلاء الذين بالغوا في المعرفة وعاندوا أنبياءهم ومازالوا في كل موطن يظهرون من جماقاتهم وسخف عقولهم وتعنتهم نوعا من أنواع التعسف وشعبة من شعب التكلف فان الحيتان كانت في يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم فاحتالوا لصيدها وحفروا الحفائر وشقوا الجداول فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الاحد فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة وكانت هذه القصة في زمن داود بقرية بأرض أيلة (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أمر تحويل وتسخير وتكوين وهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم عن الحقيقة البشرية الى حقيقة

جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لانه قال ثم عرضهم وهذا عبارة عما يعقل وهذا الذى رجح به ليس بلازم فانه لا ينفى ان يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شئ قدير وقد قرأ عبد الله بن مسعود ثم عرضهن وقرأ أبى بن كعب ثم عرضها أى المسميات والصحيح انه علمه أسماء الاشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية يعنى أسماء الذوات والافعال الكبر والصغر ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن (١٢٥) أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وقال لى خليفة حدثنا يزيد ابن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ فاشفع لنا الى ربك فيريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحيى ائتوا نوحا فانه أول رسول بعثه الله الى أهل الارض فيأتونه فيقول لست هناكم ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحيى فيقول ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناكم فيقول ائتوا موسى عبدا كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتونه فيقول لست هناكم ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحيى من ربه فيقول ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيأتونه فيقول لست هناكم ائتوا محمدا عبدا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى فانطلق حتى أستأذن على ربى فيؤذن لى فاذا رأيت ربى وقعت ساجدا فيدعنى ما شاء الله ثم يقال ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود اليه فاذا رأيت ربى مثله ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فاقول ما بقى فى النار الا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود هكذا ساق البخارى هذا الحديث ههنا وقد رواه مسلم والنسائى من حديث هشام وهو ابن أبى عبد الله الدستوائى عن قتادة به وأخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه من حديث سعيد وهو ابن أبى عروبة عن قتادة ووجه ايراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال ثم عرضهم على الملائكة يعنى المسميات كما قال عبد الرزاق عن

حقيقة القردة أى كونوا مبعدين عن الرحمة مطرودين عن الشرف وقيل فيه تقديم وتأخير معناه كونوا خاسئين قردة ولهذا لم يقل خاسئات والخاسئ المبعد ومنه قوله تعالى ينقلب اليك البصر خاسئا أى مبعدا وقوله اخسئوا فيها أى تباعدوا تباعد سخط ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر والمراد هنا كونوا بين المصير الى أشكال القردة مع كونهم مطرودين صاغرين فقردة خبر الكون وخاسئين خبر آخر وقيل انه صفة لقردة والاول أظهر وعن ابن عباس قال مسخهم الله قردة بمعصيتهم ولم يعش مسيخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل قال الحسن انقطع ذلك النسل وقال مجاهد مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وانما هو مثل ضربه الله لهم كقوله مثل الحمار يحمل أسفارا وقال ابن عباس صار شباب القوم قردة والمشيخة صاروا خنازير واختلف فى مرجع الضمير فى قوله (فجعلناها) فقيل المسخة والعقوبة وقيل الامة وقيل القرية وقيل القردة وقيل الحيتان والاول أظهر (نكالا) أى عقوبة وعبرة والنكال الزجر والعقاب والنكل القيد لانه يمنع صاحبه (لما بين يديها وما خلفها) أى عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم الى يوم القيامة وقيل من الذنوب التى عملوا قبل وبعد قاله ابن عباس (وموعظة للمتقين) من قومهم أو لكل متق سمعها الموعظة مأخوذ من الاتعاظ والازجار والوعظ التخويف وقال الخليل الوعظ التذكير بالخير (واذ قال موسى لقومه) توبيخ آخر لاخلاف بنى اسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت من أسلافهم أى اذكروا وقت قول موسى لاصولكم وقد قتل لهم قتيل لا يدرى قاتله وسألوه أن يدعو الله أن يبينه لهم فدعاه والقتيل اسمه عاميل (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قيل ان قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدم فى التلاوة ومؤخر فى المعنى على قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ويجوز أن يكون قوله اذ قلتم مقدما فى النزول ويكون الامر بالذبح مؤخرا قال الكرخى وانما أخر أول القصة تقديما لذكر مساويهم وتعديدا لها ليكون أبلغ فى توبيخهم على القتل ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل فأمروا ان يضربوا ببعضها هذا على فرض أن الواو تقتضى الترتيب وقد تقرر فى علم العربية أنها لمجرد الجمع من دون ترتيب ولا معية والبقرة اسم للانثى ويقال للذكر ثور وقيل انها تطلق عليهما وأصله من البقر وهو الشق

معمر عن قتادة قال ثم عرض تلك الاسماء على الملائكة فقال أنبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرض الخلق على الملائكة وقال ابن جريج عن مجاهد ثم عرض أصحاب الاسماء على الملائكة وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة عن الحسن وأبى بكر عن الحسن وقتادة قالا علمه اسم كل شئ وجعل يسمى كل شئ باسمه وعرضت عليه أمة أمة وبهذا الاسناد عن الحسن وقتادة فى قوله تعالى ان كنتم صادقين انى لم أخلق خلقا الا كنتم أعلم منه فأخبرونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (١٢٦) وقال الضحاك عن ابن عباس ان كنتم صادقين ان كنتم تعلمون انى لم أجعل فى الارض خليفة وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ان كنتم صادقين ان بنى آدم يفسدون فى الارض ويسفكون الدماء وقال ابن جرير وأولى الاقوال فى ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله ومعنى ذلك فقال أنبئونى بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ان كنتم صادقين فى قيلكم انى ان جعلت خليفتى فى الارض من غيركم عصانى وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء وان جعلتم فيها أطعتمونى واتبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس فاذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الامور الكائنة التى لم توجد أحرى ان تكونوا غير عالمين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشئ من علمه الا بما شاء وأن يعلموا شيأ الا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا سبحانك وهذا لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم أى العليم بكل شئ الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء للك الحكمة فى ذلك والعدل التام قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس سبحان الله قال تنزيه الله نفسه عن السوء قال ثم قال عمر لعلى وأصحابه عنده لا اله الا الله قد عرفناها فما سبحان الله فقال له على كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال قال وحدثنا أبى حدثنا ابن فضيل بن النضر بن عدى قال سأل رجل ميمون ابن مهران عن سبحان الله قال اسم يعظم الله به ويحاشا به من السوء وقوله تعالى قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم

لانها تشق الارض بالحرث قال الازهرى البقر اسم جنس وجمعه باقر (قالوا أتتخذنا هزوا) أى نحن نسألك أمر القتيل وأنت تأمرنا بذبح بقرة وانما قالوا ذلك لبعد ما بين الامرين فى الظاهر ولم يعلموا ما وجه الحكمة فيه والهزو هنا اللعب والسخرية وانما يفعل ذلك أهل الجهل لانه نوع من العبث الذى لا يفعله العقلاء ولهذا أجابهم موسى بالاستعاذة بالله سبحانه من الجهل (قال) يعنى موسى (أعوذ بالله) أى أمتنع به (أن أكون من الجاهلين) أى بالجواب لا على وفق السؤال أو من المستهزئين بالمؤمنين وهذا أبلغ من قولك أن أكون جاهلا (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) أى ما سنها وهذا السؤال عن صفة البقرة لا عن حقيقتها فانها معروفة وهذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة فقد كانوا يسلكون هذه المسالك فى غالب ما أمرهم الله به ولو تركوا التعنت والاسئلة المتكلفة لاجزأهم ذبح بقرة من عرض البقر ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم (قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر) أى لا هى كبيرة ولا صغيرة والفارض المسنة التى لم تلد ومعناه فى اللغة الواسع قال فى الكشاف وكأنها سميت فارضا لانها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها انتهى ويقال للشئ القديم فارض والبكر الصغيرة الفتية التى لم تحمل ولم تلد ويطلق فى اناث البهائم وبنى آدم على ما لم يفتحله الفحل ويطلق أيضا على الاول من الاولاد (عوان بين ذلك) أى نصف بين سنين والعوان المتوسطة بين سنى الفارض والبكر وهى التى قد ولدت بطنا أو بطنين ويقال هى التى قد ولدت مرة بعد مرة والجمع عون بالضم والاشارة الى الفارض والبكر وهما وان كانتا مؤنثتين فقد أشير اليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكور كأنه قال ذلك المذكور وجاز دخول بين المقتضية لشيئين لان المذكور متعدد (فافعلوا ما تؤمرون) به أى من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال وهذا تجديد للامر وتأكيد له وزجر لهم عن التعنت فلم ينفعهم ذلك ولا نجع فيهم بل رجعوا الى طينتهم وعادوا الى عكرهم واستمروا على عادتهم المألوفة و(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) اللون واحد الالوان وجمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء قال بعضهم حتى قرنها وظلفها وقال الحسن وسعيد بن جبير انها كانت صفراء القرن والظلف فقط وهو خلاف الظاهر والمراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة وروى عن الحسن أن صفراء معناه سوداء

قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون قال زيد بن أسلم قال أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت اسرافيل حتى عدد الاسماء كلها حتى بلغ الغراب وقال مجاهد فى قول الله قال يا آدم أنبئهم باسمائهم قال اسم الحمامة والغراب واسم كل شئ وروى عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام فى سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الاشياء قال الله تعالى للملائكة ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون أى ألم أتقدم اليكم انى أعلم الغيب الظاهر والخفى كما قال تعالى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى وكما قال اخبارا عن الهدهد انه قال لسليمان ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء (١٢٧) فى السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم وقيل فى قوله تعالى وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون غير ما ذكرناه فروى الضحاك عن ابن عباس وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون قال أعلم السر كما أعلم العلانية يعنى ما كتم ابليس فى نفسه من الكبر والاغترار وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قال قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء الآية فهذا الذى أبدوا وما كنتم تكتمون يعنى ما أسر ابليس فى نفسه من الكبر وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى واختار ذلك ابن جرير وقال أبو العالية والربيع ابن أنس والحسن وقتادة هو قولهم لم يخلق ربنا خلقا الا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون فكان الذى أبدوا هو قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وكان الذى كتموا بينهم قولهم لن يخلق ربنا خلقا الا كنا أعلم منه وأكرم فعرفوا ان الله فضل عليهم آدم فى العلم والكرم وقال ابن جرير حدثنا يونس حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قصة الملائكة وآدم فقال الله للملائكة كما تعلموا هذه الاسماء فليس لكم علم انما أردت أن أجعلهم لما فسدوا فيها هذا عندى قد علمته فكذلك أخفيت عنكم أنى أجعل فيها من يعصينى ومن يطيعنى قال وقد سبق من الله لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين قال ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل وقال ابن جرير وأولى الاقوال فى ذلك قول ابن عباس وهو أن معنى قوله تعالى وأعلم ما تبدون وأعلم مع علمى غيب السموات والارض ما تظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون فى أنفسكم فلا يخفى على شئ سواء عندى سرائركم وعلانيتكم والذى أظهرته

وهذا من بدع التفاسير ومنكراتها ولبئت شعرى كيف يصدق على اللون الاسود الذى هو أقبح الالوان انه يسر الناظرين وكيف يصح وصفه بالفقوع الذى يعرف كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجرى على الاسود بوجه من الوجوه فانهم يقولون فى وصف الاسود حالك وحلكوك ودجوجى وغربيب قال الكسائى يقال فقع لونها اذا خلصت صفرته وقال فى الكشاف الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه ومعنى (تسر الناظرين) تدخل عليهم السرور اذا نظروا اليها اعجابا بها واستحسانا للونها قال وهب كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها يعجبهم حسنها وصفاء لونها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) أى سائمة أو عاملة وعلى هذا فليس هذا السؤال تكريرا للسؤال الاول كما ادعاه بعضهم قاله الخطيب (ان البقر تشابه علينا) أى التبس واشتبه أمرها علينا أى ان جنس البقر تشابه علينا لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة (وانا ان شاء الله لمهتدون) وعدوا من أنفسهم بالاهتداء الى ما دلهم عليه والامتثال لما أمروا به قيل لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الدهر (قال انه يقول انها بقرة لا ذلول) أى ليست مذللة والذلول التى يذللها العمل (تثير الارض) أى تقلبها للزراعة (ولا تسقى الحرث) أى ليست بسانية يعنى من النواضح التى يسنى عليها ويسقى الزرع وحرف النفى الآخر تأكيد للاول أى هذه بقرة غير مذللة بالحرث ولا بالنضح ولهذا قال الحسن كانت البقرة وحشية وقال قوم ان قوله تثير فعل مستأنف والمعنى ايجاب الحرث لها والنضح بها والاول أرجح لانها لو كانت مثيرة ساقية لكانت مذللة ريضة وقد نفى الله ذلك عنها (مسلمة) أى بريئة من العيوب والمسلمة هى التى لا عيب فيها وقيل مسلمة من العمل وهو ضعيف لان الله سبحانه قد نفى ذلك عنها والتأسيس خير من التأكيد والافادة أولى من الاعادة (لا شية فيها) أى لا لون فيها غير لونها والشية ما أخوذة من وشى الثوب اذا نسج على لونين مختلفين وثور موشى فى وجهه وقوائمه سواد ويقال ثور أشيه وفرس أبلق وكبش أخرج وتيس أبرق وغراب أبقع كل ذلك بمعنى أبلق والمراد ان هذه البقرة خالصة الصفرة ليس فى جسمها لمعة من لون آخر فلما سمعوا هذه الاوصاف التى لا يبقى بعدها ريب ولا يخالج سامعها شك ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه أقصروا من غوايتهم وانتبهوا من رقدتهم وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم (قالوا الآن جئت بالحق)

بالسنتهم قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها والذى كانوا يكتمون ما كان عليه منطويا ابليس من الخلاف على الله فى أوامره والتكبر عن طاعته قال وصح ذلك كما تقول العرب قتل الجيش وهزموا وانما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات ذكر أن الذى نادى انما كان واحدا من بنى تميم قال وكذلك قوله وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر انه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم وقد دل على ذلك أحاديث أيضا (١٢٨) كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم وحديث موسى عليه السلام

رب أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة فلما اجتمع به قال أنت آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته قال وذكر الحديث كما سيأتى ان شاء الله وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر ابن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس قال كان ابليس من حى من احياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة وكان اسمه الحرث وكان خازنا من خزان الجنة قال وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى قال وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها اذا ألهبت قال وخلق الانسان من طين فأول من سكن الارض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله اليهم ابليس فى جند من الملائكة وهم هذا الحى الذين يقال لهم الجن فقتلهم ابليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل ابليس ذلك اغتر فى نفسه فقال قد صنعت شيأ لم يصنعه أحد قال فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة القصة الذين كانوا معه فقال الله تعالى للملائكة الذين كانوا معه انى جاعل فى الارض خليفة فقالت الملائكة مجيبين له أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما أفسدت الجن وسفكت الدماء وانما بعثنا عليهم لذلك فقال الله تعالى انى أعلم ما لا تعلمون يقول انى قد اطلعت على قلب ابليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره قال ثم أمر بتربة آدم فرفعت فخلق الله آدم من طين لازب واللازب اللازج الطيب من حمأ مسنون منتن وانما كان حمأ مسنونا بعد التراب فخلق منه آدم بيده قال فمكث أربعين ليلة جسدا ملقا وكان ابليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل فيصوت فهو قول الله تعالى من صلصال كالفخار يقول كالشىء المنفرج

أى أوضحت لنا الوصف وبينت لنا الحقيقة التى يجب الوقوف عندها فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات قيل أل فى الآن للتعريف الحضورى وقيل زائدة لازمة (فذبحوها) وامتثلوا الامر الذى كان يسيرا فعسروه وكان واسعا فضيقوه (وما كادوا يفعلون) ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة فكان ذلك مظنة للاستبعاد محلا للمجىء بعبارة مشعرة بالتثبط والتعنت الكائن منهم وقيل انهم ما كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الاوصاف وقيل لارتفاع ثمنها وقيل لخوف انكشاف أمر المقتول والاول أرجح وقد استدل جماعة من المفسرين والاصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل امكان الفعل وليس ذلك عندى بصحيح لوجهين الاول ان هذه الاوصاف المزيدة بسبب تكرار السؤال هى من باب التقييد للمأمور به لا من باب النسخ وبين البابين بون بعيد كما هو مقرر فى علم الاصول الثانى انا لو سلمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقييد لم يكن فيه دليل على ما قالوه فانه قد كان يمكنهم بعد الامر الاول ان يعمدوا الى بقرة من عرض البقر فيذبحوها ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان والصفرة ولا دليل يدل على أن هذه المحاورة بينهم وبين موسى عليه السلام واقعة فى لحظة واحدة بل الظاهر أن هذه الاسئلة المتعنتة كانوا يتواطؤن عليها ويديرون الرأى بينهم فى أمرها ثم يوردونها وأقل الاحوال الاحتمال القادح فى الاستدلال وعن عبيدة السلمانى قال كان رجل من بنى اسرائيل عقيما لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعى عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم الى بعض فقال ذو الرأى منهم علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم فأتوا موسى فذكر ذلك له فقال ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الآية قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا الى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك فقال هذا ابن أخيه ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيأ ولم يورث قاتل بعده وعن ابن عباس ان القتيل وجد بين قريتين وان البقرة كانت لرجل كان بر أباه فاشتروها بوزنها ذهبا وقد روى فى هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة وفى

الذى ليس بصمت قال ثم يدخل فى فيه ويخرج من دبره ويدخل من دبره ويخرج من فيه ثم يقول لست شيأ للصلصلة واشئ ما خلقت ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت على لأعصينك قال فلما نفخ الله فيه من روحه أتت النفخة من قبل رأسه فجعل لا يجرى شئ منها فى جسده الا صار لحما ودما فلما انتهت النفخة الى سرته نظر الى جسده فأعجبه ما رأى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر فهو قول الله تعالى وخلق الانسان عجولا قال ضجرا لا صبر له على سراء ولا ضراء قال فلما تمت النفخة فى جسده عطس فقال الحمد لله رب العالمين بالهام الله فقال الله له يرحمك الله يا آدم قال ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع ابليس خاصة دون الملائكة الذين فى السموات اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم أجمعون الا ابليس أبى واستكبر لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار فقال لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سنا وأقوى خلقا خلقتنى من نار وخلقته من طين يقول ان النار أقوى من الطين قال فلما أبى ابليس أن يسجد أبلسه الله أى آيسه من الخير كله وجعله شيطانا رجيما عقوبة لمعصيته ثم علم آدم الاسماء كلها وهى هذه الاسماء التى يتعارف بها الناس انسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشباه ذلك من الامم وغيرها ثم عرض هذه الاسماء على أولئك الملائكة يعنى الملائكة الذين كانوا مع ابليس الذين خلقوا من نار السموم وقال لهم أنبئونى بأسماء هؤلاء أى يقول أخبرونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ان كنتم تعلمون لم أجعل فى الارض خليفة قال فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب الذى لا يعلمه غيره الذى ليس لهم به علم قالوا سبحانك تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره تبنا اليك لا علم لنا الا ما علمتنا تبريا منهم من علم الغيب الا ما علمتنا كما علمت آدم فقال يا آدم أنبئهم

القصة أحكام منها الاستدلال بقوله ان الله يأمركم على أن الامر لا يدخل فى عموم الامر فان موسى لم يدخل فى الامر بدليل قوله فذبحوها ومنها الاستدلال على أن السنة فى البقرة الذبح ومنها الاستدلال على جواز ورود الامر مجملا وتأخير بيانه ومنها دلالة قوله لا فارض ولا بكر وقوله مسلمة على جواز الاجتهاد واستعمال غالب الظن فى الاحكام لان ذلك لا يعلم الا بالاجتهاد ومنها ان المستهزئ يستحق سمة الجهل ومنها دلالة قوله ان شاء الله على الاستثناء فى الامور ومنها دليل أهل السنة فى أن الامر لا يستلزم المشيئة ومنها الدلالة على حصر الحيوان بالوصف وجواز السلم فيه ومنها دلالة قوله فافعلوا ما تؤمرون على أن الامر على الفور ويدل على ذلك انه استقصرهم حين لم يبادروا الى فعل ما أمرهم به وقال فذبحوها وما كادوا يفعلون (واذ قتلتم نفسا) أى واذكروا يا بنى اسرائيل وقت قتل هذه النفس وما وقع فيه من القصة والخطاب لليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وآله وسلم واسناد القتل والتدارئ اليهم لان ما يصدر عن الاسلاف ينسب للاخلاف توبيخا وتقريعا قال الرازى فى تفسيره اعلم أن وقوع القتل لا بد أن يكون متقدما لامره تعالى بالذبح فأما الاخبار عن وقوع القتل وعن أنه لا بد أن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدما على الاخبار عن قصة البقرة فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة فى التلاوة على الاولى خطأ لان هذه القصة فى نفسها يجب أن تكون متقدمة على الاولى فى الوجود فأما التقدم فى الذكر فغير واجب لانه تارة يقدم ذكر السبب على الحكم وأخرى على العكس من ذلك فكأنهم لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بذبح البقرة فلما ذبحوها قال واذ قتلتم نفسا من قبل ونسب القتل اليهم لكون القاتل منهم انتهى والقتيل اسمه عاميل ذكره الكرمانى وقيل نكار حكاه الماوردى وقاتله ابن أخيه وقيل أخوه (فادارأتم فيها) اختلفتم وتنازعتم لان المتنازعين يدرأ بعضهم بعضا أى يدفعه (والله مخرج ما كنتم تكتمون) أى ما كتمتم بينكم من أمر القتل فالله مظهره لعباده ومبينه لهم وعن المسيب بن رافع قال ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات الا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات الا أظهرها الله وتصديق ذلك فى كتاب الله والله مخرج ما كنتم تكتمون وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو أن رجلا عمل عملا فى صخرة صماء

(١٧ ل - فتح البيان) باسمائهم يقول أخبرهم بأسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم أيتها الملائكة خاصة انى أعلم غيب السموات والارض ولا يعلم غيرى وأعلم ما تبدون يقول ما تظهرون وما كنتم تكتمون يقول أعلم السر كما أعلم العلانية يعنى ما كتم ابليس فى نفسه من الكبر والاغترار هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها وهذا الاسناد الى ابن عباس يروى به تفسير مشهور وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل ابليس على ملك السماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وانما سموا الجن لانهم خزان الجنة وكان ابليس مع ملكه خازنا فوقع فى صدره وقال ما أعطانى الله هذا الا لمزية لى

على الملائكة فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة اني جاعل في الارض خليفة فقالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال يكون له ذرية يفسدون في الارض و يتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون يعني من شان ابليس فبعث الله جبريل الى الارض ليأتيه ببعض منها فقالت الارض اني أعوذ بالله منك ان تنقص مني أو تشينني فرجع ولم يأخذ وقال يا رب انها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فعاذها فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الارض وخلط ولم يأخذ (١٣٠) من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء و بيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبل التراب حتى عاد طينا لازبا واللازب هو الذي يلتزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة اني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فخلقه الله بيده لئلا يتكبر ابليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه بخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه فكان أشدهم فزعا منه ابليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول من صلصال كالفخار و يقول لامر ما خلقت ودخل من فيه فخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لاهلكنه فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل ان ينفخ فيه الروح قال للملائكة اذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله يرحمك ربك فلما دخلت الروح في عينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل الروح الى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح رجليه عجلان الى ثمار الجنة فذلك حين يقول الله تعالى خلق الانسان من عجل فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا أبليس أبى أن يكون مع الساجدين أي واستكبر وكان من الكافرين قال الله له ما منعك ان تسجد اذ أمرتك لما خلقت بيدي قال أنا خير منه لم أكن لاسجد لبشر خلقته من طين قال الله له اخرج منها فما يكون لك يعني ما ينبغي لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين والصغار هو الذل قال وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرض الخلق على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الارض و يسفكون الدماء فقالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال الله يا آدم أنبئهم بأسمائهم

لا باب لها ولا كوة خرج عمله الى الناس كائنا ما كان وأخرج البيهقي من حديث عثمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به الموقوف أصح و لجماعة من الصحابة والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى (فقلنا اضربوه ببعضها) يعني القتيل واختلف في تعيين البعض الذي أمروا بان يضربوا به القتيل فقيل بلسانها وقيل بعجب الذنب وقيل بفخذها اليمنى وقال ابن عباس بالعظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الاذن ولا حاجة الى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ويكفينا أن نقول أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها فأي بعض ضربوه به فقد فعلوا ما أمروا به وما زاد على هذا فهو من فضول العلم اذ لم يرد به برهان وليس في الكتاب العزيز والسنة المطهرة ما يدل على ذلك البعض ما هو وذلك يقتضي التخيير (كذلك يحيي الله الموتى) أي كمثل هذا الاحياء يوم القيامة فلا فرق بينهما في الجواز والامكان والغرض من هذا الرد عليهم في انكار البعث وهذا يقتضي أن يكون الخطاب مع العرب لا مع اليهود لانهم يقرون بالبعث والجزاء وعلى هذا الجملة اعتراض في خلال الكلام المسوق في شأن اليهود (ويريكم آياته) أي علاماته ودلائله الدالة على كمال قدرته وهذا يحتمل أن يكون خطابا لمن حضر القصة ويحتمل أن يكون خطابا للموجودين عند نزول القرآن والرؤية هنا بصرية (لعلكم تعقلون) أي تمنعون أنفسكم عن المعاصي وقد أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن وهب ابن منبه قصة طويلة في ذكر البقرة وصاحبها لا حاجة الى التطويل بذكرها وقد استوفاها السيوطي في الدر المنثور (ثم) موضوعة للتراخي في الزمان ولا تراخي هنا فهي محمولة على الاستبعاد مجازا (قست قلوبكم) أي يبست وجفت وقيل غلظت واسودت وصلبت وقساوة القلب انتزاع الرحمة منه والقسوة الصلابة واليبس وهي عبارة عن خلوها من الانابة والاذعان لآيات الله مع وجود ما يقتضي خلاف هذه القسوة من احياء القتيل وتكلمه وتعيينه لقاتله وفيه استعارة تبعية تمثيلية تشبيها الحال القلوب في عدم الاعتبار والاتعاظ بالقسوة والاشارة بقوله (من بعد ذلك) الى ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلب ورقته التي جاءهما موسى أو احياء القتيل بعد ضربه ببعض البقرة وهذا مؤكد للاستبعاد المذكور أشد تأكيد (فهي) أي القلوب في الغلظة والشدة (كالحجارة) أي كالشيء الصلب الذي لا تحلل فيه قيل أو في قوله (أو أشد قسوة) بمعنى الواو

فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون قال قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها فهذا الذى أبدوا وأعلم ما تكتمون يعنى ما أسر ابليس فى نفسه من الكبر فهذا الاسناد الى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السدى ويقع فيه اسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أو انهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم والحاكم يروى فى مستدركه بهذا الاسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخارى والغرض ان الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل ابليس فى خطابهم لانه وان لم يكن من عنصرهم الا انه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم فلهذا دخل فى الخطاب لهم وذم فى مخالفة الامر وسنبسط المسئلة ان شاء الله تعالى عند قوله الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ولهذا قال محمد بن اسحق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال كان ابليس قبل ان يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الارض وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما فلذلك دعاه الى الكبر وكان من حى يسمون جنا وفى رواية عن خلاد عن عطاء عن طاوس أو مجاهد عن ابن عباس أو غيره بنحو وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعنى ابن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال كان ابليس اسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة من ذوى الاجنحة الاربعة ثم أبلس بعد وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج قال قال ابن عباس كان ابليس من أشراف الملائكة أكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا وكان له سلطان الارض وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس سواء وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس ان من الملائكة قبيلا يقال لهم الجن وكان ابليس منهم وكان يسوس ما بين السماء والارض فعصى فمسخه الله شيطانا رجيما رواه ابن جرير وقال قتادة عن سعيد بن المسيب كان ابليس رئيس ملائكة سماء الدنيا وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عدى بن أبى عدى عن عوف عن الحسن قال ما كان ابليس من الملائكة طرفة عين قط وانه لأصل الجن كما ان آدم أصل الانس وهذا اسناد صحيح عن الحسن وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء وقال شهر بن حوشب كان ابليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به الى السماء رواه ابن جرير وقال سنيد بن داود حدثنا هشيم أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى عن موسى بن نمير وعثمان بن عبد ابن كامل عن سعيد بن مسعود قال كانت الملائكة تقاتل الجن فسبى ابليس وكان صغيرا فكان مع الملائكة يتعبدهما فلما أمروا

كما فى قوله تعالى آثما أو كفورا وقيل هى بمعنى بل واختاره أبو حيان وعلى أن أو على اصلها أو بمعنى الواو فالعطف على قوله كالحجارة أى هذه القلوب هى كالحجارة أو هى أشد قسوة منها فشبهوها بأى الامرين شئتم فانكم مصيبون فى هذا التشبيه وقد أجاب الرازى فى تفسيره عن وقوع أو ههنا مع كونها للتردد الذى لا يليق بعلام الغيوب بثمانية أوجه (وان من الحجارة) قال فى الكشاف انه بيان لتفضل قلوبهم على الحجارة فى شدة القسوة وتقرير لقوله أو أشد قسوة انتهى وفيه أن مجىء البيان بالواو غير معروف ولا مألوف والاولى جعل ما بعد الواو تذييلا أو حالا (لما يتفجر منه الانهار) قيل أراد به جميع الحجارة وقيل أراد به الحجر الذى كان يضرب عليه موسى ليسقى الاسباط والتفجر التفتح بالسعة والكثرة (وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء) يعنى العيون الصغار التى هى دون الانهار التفجر التفتح والشق واحد الشقوق وهو يكون بالطول أو بالعرض بخلاف الانفجار فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق والمراد أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار والانشقاق (وان منها لما يهبط من خشية الله) أى أن من الحجارة لما ينحط من المكان الذى هو فيه الى أسفل منه من الخشية التى تداخله وتحمل به وقيل ان الهبوط مجاز عن الخشوع منها والتواضع الكائن فيها انقياد الله عز وجل فهو مثل قوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله واختاره ابن عطية وقد حكى ابن جرير عن فرقة ان الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الارادة للجدار وذكر الجاحظ ان الضمير فى قوله وان منها راجع الى القلوب لا الى الحجارة وهو فاسد فان الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بان قلوب هؤلاء بلغت فى القسوة وفرط اليبس الموجبين لعدم قبول الحق والتأثر للمواعظ الى مكان لا تبلغ اليه الحجارة التى هى أشد الاجسام صلابة وأعظمها صلادة فانها ترجع الى نوع من اللين وهو تفجرها بالماء وتشققها عنه وقبولها لما توجبه الخشية لله من الخشوع والانقياد بخلاف تلك القلوب وفى قوله (وما الله بغافل عما تعملون) من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى فان الله عز وجل اذا كان عالما بما يعملونه مطلعا عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد (أفتطمعون) الهمزة للاستفهام وتدخل على ثلاثة من حروف العطف الفاء كما هنا والواو كقوله الا تى أولا يعلمون وثم كقوله أثم اذا ما وقع واختلف فى مثل هذه التراكيب فذهب الجمهور

بالسجود لآدم سجدوا فابى ابليس فلذلك قال تعالى الا ابليس كان من الجن وقال ابن جرير حدثنا محمد بن سنان البزاز حدثنا أبو عاصم عن شريك عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس قال ان الله خلق خلقا فقال اسجدوا لآدم فقالوا لا نفعل فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ثم خلق خلقا آخر فقال انى خالق بشرا من طين اسجدوا لآدم قال فأبوا فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ثم خلق هؤلاء فقال اسجدوا لآدم قالوا نعم وكان ابليس من أولئك الذين أبوا ان يسجدوا لآدم وهذا غريب ولا يكاد يصح اسناده فان فيه رجلا مبهما ومثله لا يحتج به والله أعلم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا ابو اسامة حدثنا صالح بن حيان حدثنا عبد الله بن بريدة قوله تعالى وكان من الكافرين من الذين أبوا فاحرقتهم النار وقال أبو جعفر رضى الله عنه عن الربيع عن أبى العالية وكان من الكافرين يعنى من العاصين وقال السدى وكان من الكافرين الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد وقال محمد بن كعب القرظى ابتدأ الله خلق ابليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة فصيره الله الى ما أبدى عليه خلقه من الكفر قال الله تعالى وكان من الكافرين وقال قتادة فى قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم ان أسجد له ملائكته وقال بعض الناس كان هذا سجود تحية وسلام واكرام كما قال تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد كان هذا مشروعا فى الامم الماضية ولكنه نسخ فى ملتنا قال معاذ قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لاساقفتهم وعلمائهم فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال لا لو كنت آمرا بشرا ان يسجد لبشر لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ورجحه الرازى وقال بعضهم بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وفى هذا التنظير نظر والاظهر أن القول الاول أولى والسجدة لآدم اكراما واعظاما واحتراما وسلاما وهى طاعة لله عزوجل لانها امتثال لامره تعالى وقد قواه الرازى فى تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبلة اذ لا يظهر فيه شرف والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الارض وهو ضعيف كما قال وقال قتادة فى قوله تعالى فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين حسد عدو الله ابليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة وقال أنا ناري وهذا طيني وكان

الى أن الهمزة مقدمة من تأخير لان لها الصدر والتقدير فأتطمعون وألا يعلمون وثم أذا وذهب الزمخشري الى أنها داخلة على محذوف دل عليه سياق الكلام والتقدير هنا أتسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون (أن يؤمنوا لكم) مع أنهم لم يؤمنوا بموسى هذا الاستفهام فيه معنى الانكار كأنه أيسهم من ايمان هذه الفرقة من اليهود والخطاب لاصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم أوله صلى الله عليه وآله وسلم والجمع للتعظيم (وقد كان فريق منهم) قيل المراد بالفريق هم الذين كانوا مع موسى عليه السلام يوم الميقات والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه (يسمعون كلام الله) أى التوراة وقيل انهم سمعوا خطاب الله لموسى عليه السلام حين كلمه وعلى هذا فيكون الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى (ثم يحرفونه) أى يغيرونه ويبدلونه والتحريف الاماله والتحويل وثم للتراخى اما فى الزمان أو فى الرتبة والمراد من التحريف أنهم عمدوا الى ما سمعوه من التوراة فجعلوا حلاله حراما أو نحو ذلك مما فيه موافقة لاهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واسقاط الحدود عن أشرافهم أو سمعوا كلام الله لموسى عليه السلام فزادوا فيه ونقصوا وهذا اخبار عن اصرارهم على الكفر وانكار على من طمع فى ايمانهم وحالهم هذه الحال أى ولهم سلف حرفوا كلام الله وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم (من بعد ما عقلوه) أى علموا صحة كلام الله ومراده فيه (وهم يعلمون) أى ذلك الذى فعلوه هو تحريف مخالف لما أمرهم الله به من تبليغ شرائعه كما هى فهم وقعوا فى المعصية عالمين بها وذلك أشد لعقوبتهم وأبين لضلالتهم واعلم أن التوراة والانجيل اللذين عند اليهود والنصارى الآن اختلف فيهما هل هما مبدلان ومحرفان لفظا أو تأويلا فاما التوراة فأفرط فيها قوم وقالوا كلها أو جلها مبدل وذهبت طائفة من الفقهاء والمحدثين الى ان ذلك انما وقع فى التأويل فقط كما صرح به البخارى واختاره الفخر الرازى وغيره لقوله تعالى قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين وهو أمر للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بالاحتجاج بها والمبدل لا يحتج به ولما اختلفوا فى الرجم لم يكتفهم تغيير آيته منها وتوسطت طائفة وهو الحق فقالوا بدل بعض منهما وحرف لفظه وأول بعض منهما بغير المراد منه وانه لم يعط منها موسى لبنى اسرائيل غير سورة واحدة وجعل ما عداها عند أولاد هرون فلم تزل عندهم حتى قتلوا عن آخرهم

بدء الذنوب الكبر استكبر عدو الله ان يسجد لآدم عليه السلام قلت وقد ثبت في الصحيح لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر وقد كان في قلب ابليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وابعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس قال بعض المعربين وكان من الكافرين أي وصار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال فكان من المغرقين وقال فتكونا من الظالمين وقال الشاعر

بتيهاء قفر والمطي كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

أي وقد صارت وقال ابن فورك تقديره وقد كان في علم الله من الكافرين (١٣٣) ورجحه القرطبي وذكر ههنا مسئلة

في وقعة بختنصر وبعد ذلك جمع عزير بعضا منها ممن حفظها فهو الذي عندهم اليوم وليس أصلها وفيه زيادة ونقص وخلاف ترجمة وتأويل وأما الانجيل ففيه تبديل وتحريف في بعض ألفاظه ومعانيه وهو مختلف النسخ والاناجيل أربعة كما فصله بعضهم في كتاب عقده لذلك سماه المنيد في التوحيد (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) نزلت في اليهود قال ابن عباس ان منافقي اليهود كانوا اذا لقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا لهم آمنا بالذي آمنتم به وان صاحبكم صادق وقوله حق وانا نجد نعته وصفته في كتابنا (واذا خلا بعضهم الى بعض) يعني كعب بن الاشرف وكعب بن أسد ووهب ابن يهودا رؤساء اليهود لاموا منافقي اليهود على ذلك وعن عكرمة انها نزلت في ابن صوريا و (قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) وذلك ان ناسا من اليهود أسلموا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به اباؤهم وقيل ان المراد ما فتح الله عليهم في التوراة في صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والفتح عند العرب القضاء والحكم والفتاح القاضي بلغة اليمن والفتح النصر ومن ذلك قوله تعالى يستفتحون على الذين كفروا وقوله ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ومن الاول ثم يفتح بيننا بالحق وهو خير الفاتحين أي الحاكمين ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين وقيل معناه الانزال وقيل الاعلام أو التبيين أو المن أي ما من به عليكم من نصركم على عدوكم (ليحاجوكم به) أي ليخاصمكم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويحتجوا عليكم بقولكم فيقولون لكم قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم ألا تتبعونه (عند ربكم) في الدنيا والآخرة وقيل عند بمعنى في وقيل عند ذكر ربكم والاول أولى والمحاجة ابراز الحجة أي لا تخبروهم بما حكم الله به عليكم من العذاب فيكون ذلك حجة لهم عليكم فيقولون نحن أكرم على الله منكم وأحق بالخير منه والحجة الكلام المستقيم وحاجت فلانا حججته أي غلبته بالحجة (أفلا تعقلون) ما فيه الضرر عليكم من هذا التحديث الواقع منكم لهم وهذا من تمام مقولهم ثم وبخهم الله سبحانه فقال (أولا يعلمون) أي اليهود (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) ما يخفون وما يبدون ويظهرون من جميع أنواع الاسرار وأنواع الاعلان ومن ذلك اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان وتحريف الكلم عن مواضعه قال ابن عباس هذه الآيات في المنافقين من اليهود وقال أبو العالية ما يسرون من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله

فقال قال علماؤنا من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته خلافا لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه ثم استدل على ما قال بأنا لا نقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه انه يوافي الله بالايمان وهو لا يقطع لنفسه بذلك يعني والولي هو الذي يقطع له بذلك في نفس الامر قلت وقد استدل بعضهم على ان الخارق قد يكون على يدي غير الولي بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضا بما ثبت عن ابن صياد انه قال هو الدخ حين خبأه رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين وبما كان يصدر عنه انه كان يملأ الطريق اذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمرو بما ثبتت به الاحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أنه يأمر السماء ان تمطر فتمطر والارض ان تنبت فتنبت وتتبعه كنوز الارض مثل اليعاسيب وانه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه الى غير ذلك من الامور المهولة وقد

قال يونس بن عبد الاعلى الصدفي قلت للشافعي كان الليث بن سعد يقول اذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة فقال الشافعي قصر الليث رحمه الله بل اذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة وقد حكى الرازي وغيره قولين العلماء هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الارض أو عام في ملائكة السموات والارض وقد رجح كلا من القولين طائفة وظاهر الآية الكريمة العموم فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا أبليس فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم والله أعلم (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا

بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين) يقول الله تعالى اخبارا عما أكرم به ادم بعد أن امر الملائكة بالسجود له فسجدوا الا ابليس انه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ما شاء رغدا أى هنيئا واسعا طيبا وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث محمد بن عيسى الدامغانى حدثنا سلمة بن الفضل عن مكائيل عن ليث عن ابراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال قلت يا رسول الله أرأيت آدم أنبيا كان قال نعم نبيا رسولا يكلمه الله قبيلا يعنى عيانا قال اسكن أنت وزوجك الجنة وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم أهى فى السماء أو فى الارض فالاكثرون على الاول وحكى القرطبى عن المعتزلة والقدرية القول بانها فى الارض وسيأتى (١٣٤) تقرير ذلك فى سورة الاعراف ان شاء الله تعالى وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة وقد صرح بذلك محمد بن اسحق حيث قال لما فرغ الله من معاتبة ابليس أقبل على آدم وقد علمه الاسماء كلها فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم الى قوله انك أنت العليم الحكيم قال ثم ألقيت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره ثم أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الايسر ولأم مكانه لحما وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن اليها فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها الى جنبه فقال فيما يزعمون والله أعلم لحمى ودمى وزوجتى فسكن اليها فلما زوجه الله وجعل له سكنا من نفسه قال له قبيلا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ويقال ان خلق حواء كان بعد دخول الجنة كما قال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أخرج ابليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحشا ليس له زوج يسكن اليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها ما أنت قالت امرأة قال ولم خلقت قالت لتسكن الى قال لها الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه ما اسمها يا آدم قال حواء قالوا ولم حواء قال انها خلقت من شئ حى قال الله يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وأما قربا ولا تقربا هذه الشجرة فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم وقد اختلف فى هذه الشجرة ما هى فقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى الكرم وكذا قال سعيد ابن جبير والسدى والشعبى وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس وقال السدى أيضا فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن

وسلم وتكذيبهم وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين آمنا وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف (ومنهم أميون) أى ومن اليهود والامى منسوب الى الأمة الامية التى هى على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا تحسن القراءة للمكتوب ومنه حديث انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب وقال أبو عبيدة انما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا الى أم الكتاب فكأنه قال ومنهم أهل كتاب وقيل هم نصارى العرب وقيل هم قوم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها وقيل هم المجوس حكاه المهدوى وقيل غير ذلك والراجح الاول وقيل أميون أى عوام ومن هذا شأنه لا يطمع فى ايمانه (لا يعلمون الكتاب الا أمانى) أى أنهم لا علم لهم به الا ما هم عليه من الامانى التى يتمنونها ويعللون بها أنفسهم والامانى جمع امنية وهى ما يتمناه الانسان لنفسه فهؤلاء لا علم لهم بالكتاب الذى هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون ولا يقرؤن المكتوب والاستثناء منقطع أى لكن الامانى ثابتة لهم من كونهم مغفورا لهم بما يدعونه لانفسهم من الاعمال الصالحة أو بما لهم من السلف الصالح فى اعتقادهم وقيل الامانى الاكاذيب المختلقة قاله ابن عباس أى ولكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليدا من المحرفين أو مواعيد فارغة سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلها الا من كان هودا وقيل الامانى التلاوة ومنه قوله تعالى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته أى اذا تلى ألقى الشيطان فى تلاوته أى لا علم لهم الا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر وقراءة عارية عن معرفة المعنى وقيل الامانى التقدير قال الجوهرى يقال منى له أى قدر قال فى الكشاف والاشتقاق من منى اذا قدر لان المتمنى يقدر فى نفسه ويحرز ما يتمناه وكذلك المختلق والقارئ يقدر ان كلمة كذا بعد كذا انتهى وقيل هو من التمنى وهو قولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة وغير ذلك مما تمنوه والمعنى لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم (وان هم الا يظنون) أى ليسوا على يقين والظن هو التردد الراجح بين طرفى الاعتقاد الغير الجازم كذا فى القاموس أى ما هم الا يترددون بغير جزم ولا يقين وقيل الظن هنا بمعنى الكذب وقيل هو مجرد الحدس لما ذكر الله سبحانه أهل العلم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلون على الامانى ويعتمدون على الظن الذى لا يقفون من تقليدهم على غيره ولا ينظرون بسواه (فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم

عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ولا تقربا هذه الشجرة هي الكرم وتزعم يهودانها الحنطة وقال ابن جرير وابن أبي حاتم حدثنا محمد بن اسمعيل بن سمرة الاحمسي حدثنا أبو يحيى الحماني حدثنا أبو النضر أبو عمر الخراز عن عكرمة عن ابن عباس قال الشجرة التي نهي عنها آدم عليه السلام هي السنبلة وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك عن الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال هي السنبلة وقال محمد بن اسحق عن رجل من أهل العلم عن حجاج عن مجاهد عن ابن عباس قال هي البر وقال ابن جرير وحدثني المثنى بن ابراهيم حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا القاسم حدثني رجل من بني تميم ان ابن عباس كتب الى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم والشجرة التي تاب عندها آدم فكتب اليه أبو الجلد سألتني عن الشجرة التي نهي عنها آدم وهي السنبلة وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم وهي الزيتونة وكذلك فسره الحسن البصري ووهب بن منبه وعطية العوفي وأبو مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبي ليلى وقال محمد بن اسحق عن بعض أهل اليمن عن وهب بن منبه انه كان يقول هي البر ولكن الحبة منها في الجنة كالكلا البقر وألين من الزبد وأحلى من العسل وقال سفيان الثوري عن حصين عن أبي مالك ولا تقربا هذه الشجرة قال النخلة وقال ابن جرير عن مجاهد ولا تقربا هذه الشجرة قال التينة وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية كانت الشجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي ان يكون في الجنة حدث وقال عبد الرزاق حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهران قال سمعت وهب ابن منبه يقول لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة ونهاه عن أكل الشجرة وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من بعض وكان لها ثمر تأكله الملائكة تخلد عم وهي الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة قال الامام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله والصواب في ذلك ان يقال ان الله عز وجل نبأ ونهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لان الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة وقد قيل كانت شجرة البر وقيل كانت شجرة العنب وقيل كانت شجرة التين وجائز ان تكون واحدة منها وذلك علم اذا علم لم ينفع العالم به علمه وان جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم وكذلك رجح الابهام الرازي في تفسيره وغيره وهو الصواب وقوله تعالى فأزلهما الشيطان عنها يصح ان يكون الضمير في قوله عنها عائدا الى الجنة فيكون

بأيديهم) الويل الهلاك قال الفراء الاصل في الويل وي أي حزن كما تقول وي لفلان أي حزن له فوصلته العرب باللام قال الخليل ولم يسمع على بنائه الا ويح وويس وويه وويل ووي وكله متقارب في المعنى وقد فرق بينها قوم وهي مصادر لم تنطق العرب بأفعالها وجاز الابتداء به وان كان نكرة لان فيه معنى الدعاء وقال ابن عباس الويل شدة العذاب وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره أخرجه الترمذي وقال حديث غريب والخريف السنة والكتابة معروفة والمعنى انهم يكتبون الكتاب المحرف ولا يبينون ولا ينكرونه على فاعله أو ما يكتبونه من التأويلات الزائغة وقوله بأيديهم تأكيد لان الكتابة لا تكون الا باليد فهو مثل قوله ولا طائر يطير بجناحيه وقوله يقولون بافواههم قال ابن السراج هو كناية عن أنه من تلقائهم دون ان ينزل عليهم وفيه أنه قد دل على أنه من تلقائهم قوله يكتبون الكتاب فاسناد الكتابة اليهم يفيد ذلك (ثم يقولون هذا) أي جميعا على الاول وبخصوصه على الثاني وثم للتراخي الرتبي فان نسبة المحرف والتأويل الزائغ الى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل (من عند الله ليشتروا به) أي بما كتبوا (ثمنا قليلا) أي المآكل والرشاء والاشتراء الاستبدال ووصفه بالقلة لكونه فانيا لا ثواب فيه أو لكونه حراما لا تحل به البركة فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا بالتحريف ولا بالكتابة لذلك المحرف حتى نادوا في المحافل بانه من عند الله لينالوا بهذه المعاصي المتكررة هذا العرض النزر والعوض الحقير واستدل به النخعي على كراهة كتابة المصحف بالاجرة (فويل لهم مما كتبت أيديهم) تأكيد لقوله فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ومع ذلك فيه نوع مغايرة لان هذا وقع تعليلا فهو مقصود وذلك وقع صلة فهو غير مقصود والكلام في هذا كالذي فيما قبله من جهة أن التكرير للتأكيد (وويل لهم مما يكسبون) قيل من الرشاء ونحوها وقيل من المعاصي وكرر الويل تغليظا عليهم وتعظيما لفعلهم وعتكا لاستمرارهم وقال السعد التفتازاني انما كرر لافيد أن الهلاك مرتب على كل واحد من الفعلين على حدة لا على مجموع الامرين والكسب مسبب جاء النظم على هذا الترتيب وقد ذكر صاحب الدر المنثور آثارا عن جماعة من السلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مستدلين بهذه الآية

معنى الكلام كما قرأ عاصم فازالهما اى فنحاهما وقد يصح أن يكون عائدا على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة فازلهما أى من قبل الزلل فعلى هذا يكون تقدير الكلام فازلهما الشيطان عنها أى بسببها كما قال تعالى يؤفك عنه من أفك أى يصرف بسببه من هو مأفوك ولهذا قال تعالى فأخرجهما مما كانا فيه أى من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنى والراحة وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين أى قرار وأرزاق وآجال الى حين أى الى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى بأسانيده وأبى العالية ووهب بن منبه وغيرهم ههنا أخبارا اسرائيلية عن قصة الحية وابليس وكيف جرى من دخول ابليس الى الجنة ووسوسته وسنبسط ذلك ان شاء الله فى سورة الاعراف فهناك القصة أبسط منها ههنا والله الموفق وقد قال ابن أبى حاتم ههنا حدثنا على بن الحسن ابن اشكاب حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول مابدا منه عورته فلما نظر الى عورته جعل يشتد فى الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن يا آدم منى تفر فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ولكن استحياء قال وحدثنى جعفر بن أحمد بن الحكم القرشى سنة أربع وخمسين ومائتين حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثنا على بن عاصم عن سعيد عن قتادة عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذاق آدم من الشجرة فر هاربا فتعلقت شجرة بشعره فنودى يا آدم أفرارا منى قال بل حياء منك قال يا آدم اخرج من جوارى فبعزتى لا يساكننى فيها من عصانى ولو خلقت مثلك ملأ الارض خلقا ثم عصونى لاسكنتهم دار العاصين هذا حديث غريب وفيه انقطاع بل اعضال بين قتادة وأبى بن كعب الشرك رضى الله عنه وقال الحاكم حدثنا أبو بكر بن باكويه عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمرو عن زائدة عن عمار بن أبى معاوية البجلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما أسكن آدم الجنة الا ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال عبد بن حميد فى تفسيره حدثنا روح عن هشام عن الحسن قال لبث آدم فى الجنة ساعة من نهار تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة فأخرج آدم معه غصنا من شجر الجنة على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الاكليل من ورق الجنة وقال السدى قال الله

ولا دلالة فيها على ذلك ثم ذكر آثارا عن جماعة منهم أنهم جوزوا ذلك ولم يكرهوه (وقالوا) أى اليهود (لن تمسنا) أى تصيبنا (النار الا أياما معدودة) استثناء مفرغ أى قدرا مقدرا يحصرها العد ويلزمها فى العادة القلة ثم يرفع عنا العذاب وقد اختلف فى سبب نزول هذه الآية قال ابن عباس ان اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا فى النار وانما هى سبعة أيام معدودة ثم ينقطع العذاب فأنزل الله فى ذلك هذه الآية وعن عكرمة قال اجتمعت يهود يوما فخاصموا النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا لن تمسنا النار الا أربعين يوما ثم يخلفنا فيها ناس وأشاروا الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وردد يديه على رأسه كذبتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها لا نخلفكم فيها ان شاء الله أبدا ففيهم نزلت هذه الآية وأخرج أحمد والبخارى والدارمى والنسائى من حديث أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم سأل اليهود فى خيبر من أهل النار قالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدا والمراد بقوله (قل أتخذتم عند الله عهدا) الانكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار الا أياما معدودة أى لم يتقدم لكم مع الله عهد بهذا ولا أسلفتم من الاعمال الصالحة ما يصدق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك وعدم اخلاف العهد أى ان اتخذتم عهدا (فلن يخلف الله عهده) هذا جواب الاستفهام المتقدم فى قوله أتخذتم وقال ابن عطية هذا اعتراض بين أثناء الكلام قال الرازى العهد فى هذا الموضع يجرى مجرى الوعد وانما سمى خبره سبحانه عهدا لان خبره أوكد من العهود المؤكدة (أم تقولون) أم متصلة وحينئذ الاستفهام للتقرير المؤدى الى التبكيت أو منقطعة والاستفهام لانكار الاتخاذ ونفيه (على الله ما لا تعلمون بلى) اثبات لما بعد حرف النفى مختص به خبرا واستفهاما أى بلى تمسكم النار أبدا لا على الوجه الذى ذكرتم من كونه أياما معدودة (من كسب سيئة) المراد بها الجنس هنا ومثله قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ومن يعمل سوأ يجز به ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود فى النار بل لابد أن يكون سببه محيطا به فقال (وأحاطت به خطيئته) أى أحدقت به من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة وسدت عليه مسالك النجاة قيل هى

اهبطوا منها جميعا فهبطوا ونزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الاسود وقبضة من ورق الجنة فبثه بالهند فنبتت شجرة الطيب فانما
أصل ما يجاء به من الطيب من الهند من قبضة الورق التي هبط بها آدم وانما قبضها آدم أسفا على الجنة حين أخرج منها وقال عمران
ابن عيينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أهبط آدم بدحنا أرض بالهند وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو
زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن عطاء عن سعيد عن ابن عباس قال أهبط آدم عليه السلام الى أرض يقال لها دحنا
بين مكة والطائف وعن الحسن البصري قال أهبط آدم بالهند وحواء بجدة وابليس بدستميسان من البصرة على أميال
وأهبطت الحية باصبهان رواه ابن أبي حاتم وقال محمد بن أبي حاتم حدثنا محمد بن
سعيد بن سابق حدثنا عمر بن أبي
قيس عن الزبير بن عدي عن ابن
عمر قال أهبط آدم بالصفا وحواء
بالمروة وقال رجاء بن سلمة أهبط آدم
عليه السلام يداه على ركبتيه
مطاطئا رأسه وأهبط ابليس منكسا
بين أصابعه رافعا رأسه الى السماء
وقال عبد الرزاق قال معمر
أخبرني عوف عن قسامة بن زهير عن
أبي موسى قال ان الله حين أهبط آدم
من الجنة الى الارض علمه صنعة كل
شيء وزوده من ثمار الجنة فثماركم
هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير
وتلك لا تتغير وقال الزهري عن
عبد الرحمن بن هرمز الاعرج عن أبي
هريرة قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم خير يوم طلعت فيه الشمس
يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل
الجنة وفيه أخرج منها رواه مسلم
والنسائي وقال الرازي اعلم ان في
هذه الآية تهديدا عظيما عن كل
المعاصي من وجوه الاول أن من
تصور ما جرى على آدم بسبب اقدامه
على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل
شديد من المعاصي قال الشاعر

يا ناظرا يرنو بعيني راقد
ومشاهد اللامر غير مشاهد
أنسيت ربك حين أخرج آدما
منها الى الدنيا بذنب واحد

قال ابن القيم ولكن تأسى العدو فهل ترى * نعود الى أوطاننا ونسلم

قال الرازي عن فتح الموصلي
انه قال كنا قوما من أهل الجنة فسبانا ابليس الى الدنيا فليس لنا الا الهم والحزن حتى نرد الى الدار التي أخرجنا منها فان قيل فاذا كانت
جنة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن ابليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك طردا
قدريا والقدري لا يخالف ولا يمانع فالجواب ان هذا بعينه استدل به من يقول ان الجنة التي كان فيها آدم في الارض لا في السماء
كما قد بسطنا هذا في أول كتابنا البداية والنهاية وأجاب الجمهور بأجوبة أحدها انه منع من دخول الجنة مكرما فاما على وجه

الشرك قاله ابن عباس ومجاهد وقيل هي الكبيرة وتفسيرها بالشرك أولى لما ثبت في
السنة تواترا من خروج عصاة الموحدين من النار ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود وان
كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وعليه اجماع المفسرين وبهذا يبطل
تشبث المعتزلة والخوارج قال الحسن كل ما وعد الله عليه النار فهو الخطيئة استدل
به على أن المعلق على شرطين لا ينجز بأحدهما (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)
والخلود في النار هو للكفار والمشركين فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية
بالكفر والشرك (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي جمعوا بين الايمان والعمل الصالح
فان قلت لو دل الايمان على العمل لكان ذكر العمل الصالح بعد الايمان تكرارا قلت
آمنوا يفيد الماضي وعملوا يفيد المستقبل فكأنه قال آمنوا ثم داموا عليه آخرا ويدخل
فيه جميع الاعمال الصالحة (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) لا يخرجون منها
ولا يموتون وأتى بالفاء في الشق الاول دون الثاني ايذانا بتسبب الخلود في النار عن الشرك
وعدم تسبب الخلود في الجنة عن الايمان بل هو بمحض فضل الله تعالى (واذ أخذنا)
الخطاب مع بني اسرائيل وهم اليهود المعاصرون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بما وقع من
اسلافهم توبيخا لهم بسوء صنيع أسلافهم أي اذكروا اذ أخذنا ميثاقهم وقيل الخطاب
للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين والاول أولى لأن المقام مقام تذكيرهم وهذا
شروع في تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود مما يتادى بعدم ايمان أخلافهم
ليؤديهم التأمل في احوالهم الى قطع الطمع في ايمانهم (ميثاق بني اسرائيل) الذين كانوا
في زمن موسى وقد تقدم تفسير الميثاق المأخوذ على بني اسرائيل وقال مكي ان الميثاق
الذي أخذه الله عليهم هنا هو ما أخذه عليهم في حياتهم على ألسن انبيائهم وهو قوله
(لا تعبدون الا الله) خبر بمعنى النهي وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من الاعتناء بشأن
المنهي عنه وتأكد طلب امتثاله حتى كأنه امتثل وأخبر عنه وعبادة الله اثبات توحيده
وتصديق رسله والعمل بما أنزل الله في كتبه (وبالوالدين احسانا) أي معاشرتهما
بالمعروف والتواضع لهما وامتثال امرهما وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من
الحقوق ومنه البر بهما والرحمة لهما والتنزل عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله
ويوصل اليهما ما يحتاجان اليه ولا يؤذيهما وان كانا كافرين وأن يدعوهما الى الايمان

تصل الذنوب الى الذنوب وترتجى * درج الجنان ونيل فوز العابد

السرقة والاهانة فلا يمتنع ولهذا قال بعضهم كما جاء فى التوراة انه دخل فى فم الحية الى الجنة وقد قال بعضهم يحتمل انه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة وقال بعضهم يحتمل انه وسوس لهما وهو فى الارض وهما فى السماء ذكرها الزمخشرى وغيره وقد أورد القرطبى ههنا أحاديث فى الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك فاجادوأفاد (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) قيل ان هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وروى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظى وخالد بن معدان وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد (١٣٨) بن أسلم وقال أبو اسحق السبيعى عن رجل من بنى تميم قال أتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التى تلقى آدم من ربه قال علم شأن الحج وقال سفيان الثورى عن عبد العزيز بن رفيع أخبرنى من سمع عبيد بن عمير وفى رواية قال أخبرنى مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال قال آدم يارب خطيئتى التى أخطأت شئ كتبته على قبل أن تخلقنى أو شئ ابتدعته من قبل نفسى قال بل شئ كتبته عليك قبل أن أخلقك قال فكما كتبته على فاغفر لى قال فذلك قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس فتلقى آدم من ربه كلمات قال قال آدم عليه السلام يارب ألم تخلقنى بيدك قيل له بلى ونفخت فى من روحك قيل له بلى وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل له بلى وكتبت على أن أعمل هذا قيل له بلى قال أرأيت ان تبت هل أنت راجعى الى الجنة قال نعم وهكذا رواه العوفى وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهكذا فسره السدى وعطية العوفى وقد روى ابن أبى حاتم ههنا حديثا شبيها بهذا فقال حدثنا على بن الحسين بن اشكاب منهم حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آدم عليه السلام أرأيت يارب ان تبت ورجعت أعائدى الى الجنة قال نعم فذلك قوله فتلقى آدم من ربه كلمات وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال ان آدم لما أصاب الخطيئة قال أرأيت يارب ان تبت وأصلحت قال الله اذا أدخلك الجنة فهى الكلمات ومن الكلمات أيضا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد انه كان يقول فى قول الله تعالى فتلقى

بالرفق واللين وكذا ان كانا فاسقين يأمرهما بالمعروف من غير عنف ولا يقول لهما أف (وذى القربى) أى القرابة عطف على الوالدين لأن حقهما تابع لحقهما والاحسان اليهم انما هو بواسطة الوالدين والقربى مصدر كالرجعى والعقبى وهم القرابة والاحسان بهم صلتهم والقيام بما يحتاجون اليه بحسب الطاقة وبقدر ما تبلغ اليه القدرة (واليتامى) جمع يتيم واليتيم فى بنى آدم من فقد أبوه وفى سائر الحيوانات من فقدت أمه وأصله الانفراد يقال صبى يتيم أى منفرد من أبيه فاذا بلغ الحلم زال عنه اليتم وتجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمور لصغره ويتمه وخلوه عمن يقوم بمصلحته اذ لا يقدر هو أن ينتفع بنفسه ولا يقوم بحوائجه (والمساكين) جمع مسكين وهو من أسكنته الحاجة وذللته وهو أشد فقرا من الفقير عند أكثر أهل اللغة وكثير من أهل الفقه وروى عن الشافعى أن الفقير أسوأ حالا من المسكين وقد ذكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة فى مواطنها (وقولوا للناس حسنا) أى قولا حسنا سماه حسنا مبالغة وقرئ حسنا بضمتين وهى لغة أهل الحجاز وحسنى بغير تنوين على انه مصدر كبشرى والمراد به ما فيه تخلق وارشاد حكاه الاخفش قال النحاس وهذا لا يجوز فى العربية لا يقال من هذا شئ الا بالالف واللام نحو الفضلى والكبرى والحسنى وهذا قول سيبويه وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود حسنا قال الاخفش هما بمعنى واحد مثل البخل والبخل والرشد والرشد فهو صفة مشبهة لا مصدر كما فهم من عبارة القاموس فسقط ما للكرخى هنا والظاهر أن هذا القول الذى أمرهم الله به لا يختص بنوع معين بل كل ما صدق عليه انه حسن شرعا كان من جملة ما يصدق عليه هذا الامر وقد قيل ان ذلك هو كلمة التوحيد وقيل الصدق وقيل الامر بالمعروف وقيل هو اللين فى القول والعشرة وحسن الخلق والنهى عن المنكر وقيل غير ذلك قيل ان الخطاب للحاضرين من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فلهذا عدل عن الغيبة الى الخطاب قاله ابن عباس وقيل ان المخاطبين به هم الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام وانما عدل من الغيبة الى الخطاب على طريق الالتفات وتقدم تفسير قوله (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وهو خطاب لبنى اسرائيل فالمراد الصلاة التى كانوا يصلونها والزكاة التى كانوا يخرجونها قال ابن عطية وزكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يقبل ولا تنزل على ما لا يقبل والخطاب فى قوله (ثم توليتم) قيل للحاضرين

آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال الكلمات اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى انك خير الغافرين اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب انى ظلمت نفسى فارحمنى انك خير الراحمين اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب انى ظلمت نفسى فتب على انك أنت التواب الرحيم وقوله تعالى انه هو التواب الرحيم أى انه يتوب على من تاب اليه وأناب كقوله ألم يعلموا ان الله يقبل التوبة عن عباده وقوله ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه الآية وقوله ومن تاب وعمل صالحا وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده لا اله الا هو التواب الرحيم (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يقول تعالى مخبرا عما أنذر به آدم وزوجته وابليس حين أهبطهم من الجنة والمراد الذرية انه سينزل الكتب ويبعث الانبياء والرسل كما قال أبو العالية الهدى الانبياء والرسل والبينات والبيان وقال مقاتل بن حيان الهدى محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحسن الهدى القرآن وهذان القولان صحيحان وقول أبى العالية أعم فمن اتبع هداى أى من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل فلا خوف عليهم أى فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال فى سورة طه قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى قال ابن عباس فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى كما قال ههنا والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون أى مخلدون فيها لا يحيد

منهم فى عصر النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم مثل سلفهم فى ذلك وفيها التفات من الغيبة الى الخطاب أى أعرضتم عن العهد ومن فوائد الالتفات تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد كما هو مقرر فى محله والاعراض والتولى بمعنى واحد وقيل التولى بالجسم والاعراض بالقلب (الا قليلا منكم) منصوب على الاستثناء وهو من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن أسلم منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه (وأنتم معرضون) كاعراض آبائكم أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به ثم أخبر عنهم انهم ما وفوا بذلك (واذ أخذنا ميثاقكم) قيل هو خطاب لمن كان فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود والمراد اسلافهم المعاصرون لموسى على سنن التذكيرات السابقة وهذا شروع فى بيان ما فعلوا بالعهد المتعلق بحقوق العباد بعد بيان ما فعلوا بالعهد المتعلق بحقوق الله وما يجرى مجراها وقيل لآبائهم وفيه تقريع لهم وتوبيخ (لا تسفكون) أى لا تريقون والسفك الصب وقد تقدم (دماءكم) أى لا يفعل ذلك بعضكم ببعض أو لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم فهو من باب المجاز بأدنى ملابسة أو لانه يوجبه قصاصا فهو من باب اطلاق المسبب على السبب (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لا يخرج بعضكم بعضا من داره وقيل لا تفعلوا شيأ فتخرجوا بسببه من داركم والدار المنزل الذى فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال وقال الخليل كل موضع حل قوم فهو دار لهم وان لم يكن فيه أبنية وقيل سميت دارا لدورها على سكانها كما يسمى الحائط حائطا لاحاطته على ما يحويه (ثم أقررتم) من الاقرار أى حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم انه حق (وأنتم تشهدون) يا معشر اليهود الشهادة هنا بالقلوب وقيل هى بمعنى الحضور أى انكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك وعلى هذا اسناد الاقرار اليهم مجاز وكان الله سبحانه قد أخذ فى التوراة على بنى اسرائيل ان لا يقتل بعضهم بعضا ولا ينفيه ولا يسترقه (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من دياركم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان) أى أنتم هؤلاء الحاضرون المشاهدون تخالفون ما أخذه الله عليكم فى التوراة وأصل المظاهرة المعاونة مشتقة من الظهر لأن بعضهم

لهم عنها ولا محيص وقد أورد ابن جرير ههنا حديثا ساقه من طريقين عن أبى سلمة سعيد بن يزيد عن أبى نضرة المنذر بن مالك بن قطعة عن أبى سعيد واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم اماتة حتى اذا صاروا حمما أذن فى الشفاعة وقدروا مسلم من حديث شعبة عن أبى سلمة به وذكر هذا الاهباط الثانى لما تعلق به بعده من المعنى المغاير للاول وزعم بعضهم انه تأكيد وتكرير كما يقال قم قم وقال آخرون بل الاهباط الاول من الجنة الى السماء الدنيا والثانى من سماء الدنيا الى الارض والصحيح الاول والله أعلم (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايای فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقا

لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون) يقول تعالى آمرا بني اسرائيل بالدخول في الاسلام ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ومهيجا لهمم بذكر أبيهم اسرائيل وهو نبي الله يعقوب عليه السلام وتقديره يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا يا ابن الشجاع بارز الابطال يا ابن العالم اطلب العلم ونحو ذلك ومن ذلك أيضا قوله تعالى ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا فاسرائيل هو يعقوب بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب قال حدثني عبد الله بن عباس قال حضرت عصابة من اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم هل تعلمون (١٤٠) ان اسرائيل يعقوب قالوا اللهم نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد وقال الاعمش عن اسمعيل بن رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس ان اسرائيل كقولك عبد الله وقوله تعالى واذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم قال مجاهد نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون وقال أبو العالية نعمته ان جعل منهم الانبياء والرسل وأنزل عليهم الكتب قلت وهذا كقول موسى عليه السلام لهم يا قوم اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين يعني في زمانهم وقال محمد ابن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم أي بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون وقومه وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم قال بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي صلى الله عليه وسلم اذا جاءكم أن أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والاغلال التي كانت في أعناقكم والنفي بذنوبكم التي كانت من احداثكم وقال الحسن البصري هو قوله تعالى ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار الآية وقال اخرون هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة انه سيبعث من بني اسمعيل نبيا عظيما يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين وقد أورد الرازي بشارات كثيرة عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال أبو العالية وأوفوا بعهدي قال عهده الى

يقوى بعضا فيكون له كالظهير ومنه قوله تعالى وكان الكافر على ربه ظهيرا وقوله والملائكة بعد ذلك ظهير والمعنى تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم والاثم في الاصل الذنب وجمعه آثام ويطلق على الفعل الذي يستحق به صاحبه الذم واللوم وقيل هو ما تنفر منه النفس ولا يطمئن اليه القلب والآية تحتمل ما ذكرنا وتحتمل ان يتجوز به عما يوجب الاثم اقامة للسبب مقام المسبب والعدوان التجاوز في الظلم وهو مصدر كالكفران والغفران والمشهور ضم فائه وفيه لغة بالكسر (وان يأتوكم) أي الفريق الذي تخرجونه من دياره وقت الحرب حال كونه (أسارى) جمع أسير وهو من يؤخذ قهرا فعيل بمعنى مفعول أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح وبه قرأ حمزة قال أبو حاتم ولا يجوز أسارى وقال الزجاج يقال أسارى كما يقال سكارى قال ابن فارس يقال في جمع أسير أسرى وأسارى انتهى فالعجب من أبي حاتم حيث ينكر ما ثبت في التنزيل وقرأ به الجمهور والاسير مشتق من السير وهو القد الذي يشد به الحمل فسمي أسيرا لانه يشد وثاقه ثم سمي كل أخيذ أسيرا وان لم يشد (تفادوهم) أي بالمال وهو استنقاذهم بالشراء وقيل تبادلوهم وهو مفاداة الاسير والفداء هو ما يؤخذ من الاسير ليفك به أسره يقال فداه وفاداه أعطى فداءه وأنقذه (وهو) ضمير الشأن ويسمى ضمير القصة ولا يرجع الا على ما بعده وفائدته الدلالة على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه (محرم عليكم اخراجهم) قال المفسرون كان الله سبحانه قد أخذ على بني اسرائيل في التوراة أربعة عهود ترك القتل وترك الاخراج وترك المظاهرة وفداء أسراهم فأعرضوا عن كل ما أمروا به الا الفداء فوبخهم الله على ذلك بقوله (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) أي ان وجدتموهم في يد غيركم فديتموهم وأنتم تقتلونهم بأيديكم فكان ايمانهم الفداء وكفرهم قتل بعضهم بعضا فذمهم على مناقضة أفعالهم لانهم أتوا ببعض ما يوجب عليهم وتركوا البعض وهذا هو مناط التوبيخ حسب ما يفيده ترتيب النظم الكريم لان من قضية الايمان ببعضه الايمان بالباقي لكون الكل من عند الله داخلا في الميثاق (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) يا معشر اليهود (الا خزي في الحياة الدنيا) الخزي الهوان والعذاب وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به الملاعين اليهود موفرا فصاروا في خزي عظيم بما ألصق بهم من الذل والمهانة بالاسر والقتل وضرب الجزية والجلاء فكان خزي بني قريظة القتل والسبي وخزي بني النضير الاجلاء

عباده دين الاسلام وان يتبعوه وقال الضحاك عن ابن عباس أوف بعهدكم قال أرض عنكم وأدخلكم الجنة وكذا قال السدى والضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس وقوله تعالى واياى فارهبون أى فاخشون قاله أبو العالية والسدى والربيع بن أنس وقتادة وقال ابن عباس فى قوله تعالى واياى فارهبون أى أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم من المسخ وغيره وهذا انتقال من الترغيب الى الترهيب فدعاهم اليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون الى الحق واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ولهذا قال

وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم يعنى به القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم النبى الامى العربى بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا مشتملا على الحق من الله تعالى مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل قال أبو العالية رحمه الله فى قوله تعالى وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم يقول يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم يقول لانهم يجدون محمدا صلى الله عليه وسلم مكتوبا عنده فى التوراة والانجيل وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك وقوله ولا تكونوا أول كافر به قال بعض المعربين أول فريق كافر به أو نحو ذلك قال ابن عباس ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم قال أبو العالية يقول ولا تكونوا أول من كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم يعنى من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم ببعثه وكذا قال الحسن والسدى والربيع بن أنس واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله به عائد على القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله بما أنزلت وكلا القولين صحيح لانهما متلازمان لان من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كفر بالقرآن وأما قوله أول كافر به فيعنى به أول من كفر به من بنى اسرائيل لانه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير وانما المراد أول من كفر به من بنى اسرائيل مباشرة فان يهود المدينة أول بنى اسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم انهم أول من كفر به من جنسهم وقوله تعالى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا يقول لا تعتاضوا عن الايمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها فانها قليلة فانية كما قال عبد الله بن المبارك أنبأنا عبد الرحمن ابن زيد بن جابر عن هرون بن يزيد قال سئل الحسن يعنى البصرى عن قوله تعالى ثمنا قليلا قال الثمن القليل الدنيا بحذافيرها وقال ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ان آياته كتابه الذى أنزله اليهم

والنفى من منازلهم الى أريحا وأذرعات من أرض الشام (ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) يعنى النار لانهم جاؤا بذنب شديد ومعصية فظيعة وهذا اخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون فى عذاب موفر لازم لهم بالجزية والصغار والذلة والمهانة (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد وتهديد عظيم (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) بأن آثروها عليها لأن الجمع بين لذات الدنيا والآخرة غير ممكن فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة قال قتادة استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة (فلا يخفف عنهم العذاب) أبدا ما داموا (ولا هم ينصرون) أى لا يمنعون من عذاب الله لا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم ولا يثبت لهم نصر فى أنفسهم على عدوهم (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى أعطيناه التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة شروع فى بيان بعض اخر من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية لاظهار كمال الاعتناء به (وقفينا من بعده بالرسل) أى اتبعنا والتقفية الاتباع والارداف وهو أن يقفو أثر الآخر مأخوذ من القفا وهو مؤخر العنق والمراد أن الله سبحانه أرسل على اثره رسلا جعلهم تابعين له وكانت الرسل من بعد موسى الى زمن عيسى متواترة يظهر بعضهم فى اثر بعض والشريعة واحدة وهم أنبياء بنى اسرائيل المبعوثون من بعده كالشموئيل بن بابل والياس ومنشا ئل واليسع ويونس وزكريا ويحيى وشعياء وحزقيل وداود وسليمان وأرمياء وهو الخضر وعيسى بن مريم فهؤلاء الرسل بعثهم الله وانتخبهم من أمة موسى وأخذ عليهم ميثاقا غليظا أن يؤدوا الى أمتهم صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفة أمته وكانوا يحكمون بشريعة موسى الى أن بعث الله عيسى فجاءهم بشريعة جديدة وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله (وآتينا عيسى بن مريم البينات) أى الدلالات الواضحات وهى الادلة التى ذكرها الله فى آل عمران والمائدة وهى الآيات التى وضع على يديه من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وخلقه من الطين كهيئة الطير وابراء الأسقام والاخبار بكثير من الغيوب وما ورد عليه من التوراة والانجيل الذى أحدث الله اليه وقيل هى الانجيل واسم عيسى بالسريانية ايشوع ومريم بالسريانية بمعنى الخادم ثم سمى به فلذلك لم ينصرف وفى لسان العرب هى المرأة التى تكره مخالطة الرجال قال أبو السعود وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال ووزنه مفعل اذا لم يثبت فعيل ذكر السيوطى فى التحبير أن مدة ما بين موسى وعيسى ألف وتسعمائة

وان الثمن القليل الدنيا وشهواتها وقال السدى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا يقول لا تأخذوا طمعا قليلا ولا تكتموا اسم الله فذلك الطمع هو الثمن وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا يقول لا تأخذوا عليه أجرا قال وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الاول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا وقيل معناه لا تعتاضوا عن البيان والايضاح ونشر العلم النافع فى الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة فأما تعليم

العلم بأجرة فان كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله فان لم يحصل له منه شئ وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه واذا لم يتعين عليه فانه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء كما فى صحيح البخارى عن أبى سعيد فى قصة اللديغ ان أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله وقوله فى قصة المخطوبة زوجتكها بما معك من القرآن فأما حديث عبادة بن الصامت انه علم رجلا من أهل الصفة شيأ من القرآن فأهدى له قوسا فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أحببت أن تطوق بقوس من نار فاقبله فتركه رواه أبو داود وروى مثله عن أبى ابن كعب مرفوعا فان صح اسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم أبو عمر بن عبد البر على انه لما علمه الله لم يجز بعد هذا ان يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس فأما اذا كان من أول الامر على التعليم بالاجرة فانه يصح كما فى حديث اللديغ وحديث سهل فى المخطوبة والله أعلم وقوله واياى فاتقون قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو عمرو الدورى حدثنا أبو اسمعيل المؤدب عن عاصم الاحول عن أبى العالية عن طلق بن حبيب قال التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله ومعنى قوله واياى فاتقون انه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق واظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) يقول تعالى ناهيا لليهود عما كانوا يعتمدونه من تلبيس الحق بالباطل وتمويهه به وكتمانهم الحق واظهارهم الباطل ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون فنهاهم عن الشيئين معا وأمرهم باظهار الحق والتصريح به ولهذا

سنة وخمس وعشرون سنة (وأيدناه بروح القدس) التأييد التقوية وروح القدس من اضافة الصفة الى الموصوف أى الروح المقدسة والقدس الطهارة والمقدس المطهر قيل هو جبريل قاله ابن مسعود أيد الله به عيسى وسمى جبريل روحا وأضيف الى القدس لانه كان بتكوين الله له من غير ولادة وقيل القدس هو الله عز وجل وروحه جبريل وقيل المراد بروح القدس الاسم الذى كان يحيى به عيسى الموتى واسم الله الاعظم وقيل المراد به الانجيل وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه أيده الله به لما فيه من القوة وقد ثبت فى الصحيح ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال اللهم أيد حسان بروح القدس وكان جبريل يسير مع عيسى حيث سار فلم يفارقه حتى صعد به الى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم) أى بما لا يوافقها ويلائمها وأصل الهوى الميل الى الشئ قال الجوهرى وسمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه الى النار وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المقرون بهمزة التوبيخ (استكبرتم) عن اجابته احتقارا للرسل واستبعادا للرسالة والسين زائدة للمبالغة (ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) الفاء للتفصيل ومن الفرق المكذبين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومن الفرق المقتولين يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام وسائر من قتلوه (وقالوا قلوبنا غلف) جمع أغلف المراد به هنا الذى عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام اليه فلا يعى ولا يفقه قال فى الكشاف هو مستعار من الاغلف الذى لم يختن كقوله قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وقيل ان الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمر أى قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك وقد وعينا علما كثيرا فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره فرد الله عليهم ما قالوه فقال (بل لعنهم الله بكفرهم) أى طردهم وأبعدهم من كل خير وأصل اللعن فى كلام العرب الطرد والابعاد (فقليلا ما يؤمنون) وصف ايمانهم بالقلة لانهم الذين قص الله علينا من عنادهم وبجرفتهم وشدة لجاجهم وبعدهم من اجابة الرسل ما قصه ومن جملة ذلك انهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض وقال معمر المعنى لا يؤمنون الا بقليل مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره قال الواقدى معناه لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا قال الكسائى تقول العرب مررنا بأرض قلما تنبت الكراث والبصل أى لا تنبت شيأ وأخرج أحمد بسند جيد عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القلوب أربعة قلب اجرد

قال الضحاك عن ابن عباس ولا تلبسوا الحق بالباطل تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب وقال أبو العالية ولا تلبسوا الحق بالباطل يقول ولا تخلطوا الحق بالباطل وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويروى عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه وقال قتادة ولا تلبسوا الحق بالباطل قال ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالاسلام وأنتم تعلمون ان دين الله الاسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله وروى عن الحسن البصري نحو ذلك وقال محمد بن اسحق حدثني محمد ابن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وتكتموا الحق وأنتم تعلمون أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاءه وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم وروى عن أبي العالية نحو ذلك وقال مجاهد والسدي وقتادة والربيع ابن أنس وتكتموا الحق يعني محمدا صلى الله عليه وسلم قلت وتكتموا يحتمل أن يكون مجزوما ويحتمل أن يكون منصوبا أي لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال لا تأكل السمك وتشرب اللبن قال الزمخشري وفي مصحف ابن مسعود وتكتمون الحق أي في حال كتمانكم الحق وأنتم تعلمون حال أيضا ومعناه وأنتم تعلمون الحق ويجوز أن يكون المعنى وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من اضلالهم عن الهدى المفضي بهم الى النار ان سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروج عليهم والبيان الايضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين قال مقاتل قوله تعالى لأهل الكتاب وأقيموا الصلاة أمرهم ان يصلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم وآتوا الزكاة أمرهم ان يؤتوا الزكاة أي يدفعونها الى النبي صلى الله عليه وسلم واركعوا مع الراكعين أمرهم ان يركعوا مع الراكعين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقول كونوا معهم ومنهم وقال علي بن طلحة عن ابن عباس يعني بالزكاة طاعة الله والاخلاص وقال وكيع عن أبي جناب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله وآتوا الزكاة قال ما يوجب الزكاة قال مائتان فصاعدا وقال مبارك بن فضالة عن الحسن في قوله تعالى وآتوا الزكاة قال فريضة واجبة لا تنفع الاعمال الا بها وبالصلاة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي حيان التيمي عن الحرث العكلي في قوله تعالى وآتوا الزكاة قال صدقة الفطر وقوله تعالى واركعوا مع الراكعين أي وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة وأبسط دلك في كتاب الاحكام الكبير ان شاء الله تعالى وقد تكلم القرطبي

أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فأما القلب الاجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره وأما القلب الاغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح فأي المادتين غلبت على الاخرى غلبت عليه وقال قتادة لا يؤمن منهم الا القليل لان من آمن من المشركين كان أكثر منهم وقيل فزمانا قليلا يؤمنون فيه وعلى حد قوله آمنوا وجه النهار واكفروا آخره (ولما جاءهم) أي اليهود (كتاب من عند الله) هو القرآن (مصدق لما معهم) من التوراة والانجيل انه يخبرهم بما فيهما وما يصدقه ولا يخالفه (وكانوا من قبل) مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم (يستفتحون) أي يستنصرون به والاستفتاح الاستنصار أي كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة وقيل الاستفتاح هنا بمعنى الفتح أي يخبرونهم بانه سيبعث ويعرفونهم بذلك (على الذين كفروا) يعني مشركي العرب وذلك انهم كانوا اذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو يقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لاعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم (فلما جاءهم ما عرفوا) يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وعرفوا انه نبي من غير بني اسرائيل (كفروا به) أي جحدوه وأنكروه بغيا وحسدا (فلعنة الله على الكافرين) أي عليهم وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على ان اللعنة لاقتهم لكفرهم واستحقت عليهم وشملتهم واللام للعهد أو للجنس ودخلوا فيه دخولا أوليا (بئس ما اشتروا به أنفسهم) أي بئس الشيء وقال الفراء بئسما بجملته شيء واحد ركب كخمسة عشر أي بئسما باعوا به حظ أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق (أن يكفروا بما أنزل الله) يعني القرآن (بغيا) أي حسدا قال الاصمعي البغي مأخوذ من قولهم قد بغى الجرح اذا فسد وقيل أصله الطلب ولذلك سميت الزانية بغيا وهو علة لقوله يكفروا قاله القاضي وقال الزمخشري هو علة لقوله اشتروا وقوله الآتي ان ينزل علة لقوله بغيا أي لان ينزل والمعنى انهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن الخسيس حسدا ومنافسة (أن ينزل الله من فضله) وليس بواجب عليه (على من يشاء من عباده فباؤا)

على مسائل الجماعة والامامة فاجاد (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) يقول تعالى كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم فتنتبهوا من رقدتكم وتتبصروا من عمايتكم وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم قال كان بنو اسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله ويتقوا ه وبالبر ويخالفون فغيرهم الله عز وجل وكذلك قال السدى وقال ابن جريج أتأمرون الناس بالبر أهل (١٤٤) الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ويدعون العمل بما يأمرون به الناس فغيرهم الله بذلك فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة وقال محمد بن اسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وتنسون أنفسكم أي تتركون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم اى وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى اليكم في تصديق رسولي وتنقضون ميثاقي وتجحدون ما تعلمون من كتابي وقال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية يقول أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما أمرتم به من اقام الصلاة وتنسون أنفسكم وقال أبو جعفر ابن جرير حدثني علي بن الحسن حدثنا أسلم الحرمي حدثنا مخلد بن الحسين عن أيوب السختياني عن أبي قلابة في قول الله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب قال أبو الدرداء رضي الله عنه لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع الى نفسه فيكون لها أشد مقتا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المفسرين في هذه الآية هؤلاء اليهود اذا جاء الرجل سألهم عن الشئ ليس فيه حق ولا رشوة أمروه بالحق فقال الله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون والغرض ان الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له بل على تركهم له فان الامر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والاولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب فكل

أي فرجعوا وصاروا أحقاء (بغضب على غضب) قيل الغضب الاول لعبادتهم العجل والثاني لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل لكفرهم بعيسى عليه السلام والانجيل ثم لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن وقيل لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم البغي عليه وقال ابن عباس الاول بتضييعهم التوراة وتبديلها والثاني بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل غير ذلك والتنكير للتعظيم (وللكافرين عذاب مهين) ذو اهانة مأخوذ من الهوان قيل وهو ما اقتضى الخلود في النار (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) وهو القرآن وقيل كل كتاب أي صدقوا بالقرآن أو صدقوا بما أنزل الله من الكتب (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أي التوراة (ويكفرون) الواو للحال (بما وراءه) أي بما سواه من الكتب قاله الفراء وبما بعده يعني الانجيل والقرآن قاله أبو عبيدة قال الجوهري وراء بمعنى خلف وقد يكون بمعنى قدام وامام فهي من الاضداد ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك أي قدامهم وفي الموازنة للآمدي وراء ليست من الاضداد انما هو من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء خلفا كان أو قداما اذا لم تره ولم تشاهده فاما اذا رأيته فلا يكون وراءك ومنه قوله تعالى وكان وراءهم ملك أي انه كان امامهم وصح ذلك لانهم لم يعاينوه ولم يشاهدوه انتهى قال الخفاجي وهذا لا ينافي قول البيضاوي ولذلك عد من الاضداد لان معناه انه لما أطلق على خلف وقدام وهما ضدان عد ضدا تسمحا على عادة أهل اللغة وان كان موضوعا لمعنى شامل لهما لانه مصدر بمعنى الستر فيهما لكنه قد يستعمل بمعنى الساتر وقد يستعمل بمعنى المستور ولذا قال في القاموس هو من الاضداد أولا وقيل انه مضاف الى الفاعل مطلقا لان الرجل يوارى ما خلفه على من هو قدامه وما قدامه على من هو خلفه انتهى (وهو الحق) يعني القرآن (مصدقا لما معهم) يعني التوراة (قل) يا محمد (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الانبياء وهذا تكذيب لهم لان الايمان بالتوراة مناف لقتل أشرف خلقه وهذا الخطاب وان كان مع الحاضرين من اليهود فالمراد به أسلافهم ولكنهم لما كانوا يرضون بافعال سلفهم كانوا مثلهم وفي الآية دليل على ان من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها (ولقد جاءكم موسى) هذا داخل تحت الامر السابق أي وقل لهم لقد جاءكم موسى والغرض منه بيان كذبهم هكذا أفاده البيضاوي وكثير من

من الامر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف وذهب بعضهم الى أن مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها وهذا ضعيف وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية فانه لا حجة لهم فيها والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وان لم يفعله وينهى عن المنكر وان ارتكبه قال مالك عن ربيعة سمعت سعيد بن جبير يقول لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شئ ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر قال مالك وصدق من ذا الذى ليس فيه شئ (قلت) لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعل المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة فانه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهذا جاءت الاحاديث فى الوعيد على ذلك كما قال الامام أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقى والحسن بن على العمرى قالا حدثنا هشام بن عمار حدثنا على بن سليمان الكلبى حدثنا الاعمش عن أبى تميمة الهجيمى عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضئ للناس ويحرق نفسه هذا حديث غريب من هذا الوجه حديث آخر قال الامام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا وكيع حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد هو ابن جدعان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار قال قلت من هؤلاء قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ورواه عبد ابن حميد فى مسنده وتفسيره عن الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة به ورواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث يونس بن محمد المؤدب عن حماد بن سلمة به وكذا رواه يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به ثم قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن ابراهيم حدثنا موسى بن هرون حدثنا اسحق بن ابراهيم التسترى ببلخ حدثنا مكى بن ابراهيم حدثنا عمر بن قيس عن على بن زيد عن ثمامة عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مررت ليلة أسرى بى على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وأخرجه ابن حبان فى صحيحه وابن أبى حاتم وابن مردويه أيضا من حديث هشام الدستوائى عن المغيرة يعنى ابن حبيب ختن مالك بن دينار عن مالك بن دينار عن ثمامة عن أنس بن مالك قال لما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم

المفسرين وفيه نظر أشار له أبو السعود (بالبينات) أى بالدلالات الواضحة والمعجزات الظاهرة والبينات يجوز أن يراد بها التوراة أو التسع الآيات المشار اليها بقوله تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ويجوز أن يراد بها الجميع (ثم اتخذتم العجل من بعده) أى من بعد النظر فى تلك البينات أو من بعد موسى لما ذهب الى الميقات ليأتى بالتوراة (وأنتم ظالمون) أى حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عنادا بعد قيام الحجة عليكم وانما كرره تبكيتا لهم وتأكيدا للحجة عليهم (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) قد تقدم تفسير أخذ الميثاق ورفع الطور والامر بالسماع معناه الطاعة والقبول وليس المراد مجرد الادراك بحاسة السمع ومنه قولهم سمع الله لمن حمده أى قبل وأجاب (قالوا سمعنا) أى سمعنا قولك بحاسة السمع (وعصينا) يعنى أمرك بقلوبنا أى لا نقبل ما تأمرنا به ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم سمعنا ما هو معهود من تلاعبهم واستعمالهم المغالطة فى مخاطبة أنبيائهم وذلك بأن يحملوا قوله تعالى اسمعوا على معناه الحقيقى أى السماع بالحاسة ثم أجابوا بقولهم سمعنا أى أدركنا ذلك باسماعنا عملا بموجب ما تأمرنا به ولكنهم لما كانوا يعلمون ان هذا غير مراد الله عز وجل بل مراده بالأمر بالسماع الامر بالطاعة والقبول لم يقتصروا على هذه المغالطة بل ضموا الى ذلك ما هو الجواب عندهم فقالوا وعصينا (وأشربوا فى قلوبهم العجل) أى تداخل حبه فى قلوبهم ورسخ فيها صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن وفيه تشبيه بليغ أى جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه وانما عبر عن حب العجل بالشرب دون الاكل لان شرب الماء يتغلغل فى الاعضاء حتى يصل الى باطنها والطعام يتجاوزها ولا يتغلغل فيها قال أبو السعود فى قلوبهم بيان لمكان الاشراب كما فى قوله تعالى انما يأكلون فى بطونهم نارا والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير قد انتهى قيل ان موسى أمر أن يبرد العجل ويذرى فى النهر وأمرهم أن يشربوا منه فمن بقى فى قلبه شئ من حب العجل ظهر سخالة الذهب على شاربه وما أبعده والاشراب مخالطة المائع للجامد ثم اتسع فيه حتى قيل فى الالوان نحو أشرب بياضه حمرة (بكفرهم) الباء للسببية أى بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك قيل كانوا عبدة عجل أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن فى قلوبهم ما سول لهم السامرى (قل

مر بقوم تقرض شفاههم فقال يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا الاعمش عن أبي وائل قال قيل لأسامة وأنا ردفه ألا تكلم عثمان فقال انكم ترون أني لا أكلمه الا أسمعكم اني لا أكلمه فيما بيني وبينه ما دون أن افتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من افتتحه والله لا أقول لرجل انك خير الناس وان كان علي أميرا بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قالوا وما سمعته يقول قال سمعته يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمر بالمعروف (١٤٦) وتنهانا عن المنكر فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن

المنكر وآتيه ورواه البخاري ومسلم من حديث سليمان بن مهران الاعمش به نحوه وقال أحمد حدثنا سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يعافي الأميين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء وقد ورد في بعض الآثار انه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم وقال تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد ابن عقبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان أناسا من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون بم دخلتم النار فوالله ما دخلنا الجنة الا بما تعلمنا منكم فيقولون انا كنا نقول ولا نفعل ورواه ابن جرير الطبري عن أحمد ابن يحيى الخباز الرملي عن زهير بن عباد الرواسي عن أبي بكر الزاهري عبد الله بن حكيم عن اسمعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن الوليد بن عقبة فذكره وقال الضحاك عن ابن عباس انه جاءه رجل فقال يا ابن عباس اني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر قال أبلغت ذلك قال أرجو

بئسما يأمركم به ايمانكم) الذي زعمتم انكم تؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بما وراءه فان هذا الصنع وهو قولكم سمعنا وعصينا في جواب ما أمرتم به في كتابكم وأخذ عليكم الميثاق به مناد عليكم بأبلغ نداء بخلاف ما زعمتم وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب هو من أعظم ما يدل على انكم كاذبون في قولكم نؤمن بما أنزل علينا الا صادقون فان زعمتم ان كتابكم الذي آمنتم به أمركم بهذا فبئس ما يأمركم به ايمانكم بكتابكم وفي هذا من التهكم ما لا يخفى (ان كنتم مؤمنين) بزعمكم والمعنى لستم بمؤمنين لأن الايمان لا يأمر بعبادة العجل والمراد آباؤهم أي فكذلك لستم بمؤمنين بالتوراة وقد كذبتم محمدا والايمان به الا يأمر بتكذيبه (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله) أي نعيمها لأن الدار الآخرة في الحقيقة هي انقضاء الدنيا وهي للفريقين وهذا رد عليهم لما ادعوا أنهم يدخلون الجنة ولا يشاركهم في دخولها غيرهم والزام لهم بما تبين به أنهم كاذبون في تلك الدعوى وأنها صادرة منهم لا عن برهان (خالصة) مصدر كالعافية والعاقبة وهو بمعنى الخلوص والمراد أنه لا يشاركهم فيها غيرهم اذا كانت اللام في قوله (من دون الناس) للجنس أو لا يشاركهم فيها المسلمون ان كانت اللام للعهد وهذا أرجح لقولهم في الآية الاخرى وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وهو مؤكد له لأن دون تستعمل للاختصاص يقال هذا لك دونك أو من دونك أي لا حق لك فيه وقد تأتي في غير هذا للانتقاص في المنزلة أو المكان أو المقدار (فتمنوا الموت) أي فاطلبوه واسألوه وانما أمرهم بتمني الموت لأن من اعتقد انه من أهل الجنة كان الموت أحب اليه من الحياة اذ لا سبيل الى دخولها الا بعد الموت ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أجمعوا (ان كنتم صادقين) في قولكم ودعواكم ولهذا قال سبحانه (ولن يتمنوه أبدا) هو ظرف زمان يصدق بالماضي والمستقبل تقول ما فعلت أبدا ذكره السمين وقال هنا لن وفي الجمعة لا لان لن أبلغ في النفي من لا ودعواهم هنا بالغة قاطعة فناسب ذكر لن فيها ودعواهم في الجمعة قاصرة مردودة وهي زعمهم أنهم أولياء الله فناسب ذكر لا فيها (بما قدمت أيديهم) أي بما قدمته من الذنوب التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب بل غير طامع في دخول الجنة فضلا عن كونها خالصة له مختصة به وانما أضاف العمل الى اليد لأن أكثر جنايات الانسان تكون من يده وقيل ان الله سبحانه صرفهم عن التمني ليجعل ذلك آية لنبيه

قال ان لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل قال وما هن قال قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم أحكمت هذه قال لا قال فالحرف الثاني قال قوله تعالى لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون أحكمت هذه قال لا قال فالحرف الثالث قال قول العبد الصالح شعيب عليه السلام وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح أحكمت هذه الآية قال لا قال فابدأ بنفسك رواه ابن مردويه في تفسيره وقال الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا زيد بن الحرث حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب عن المسيب بن رافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

من دعا الناس الى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل فى ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال أو دعا اليه اسناده فيه ضعف وقال ابراهيم النخعى انى لأكره القصص لثلاث آيات قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وقوله يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون وقوله اخبارا عن شعيب وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون) يقول تعالى آمرا عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال مقاتل بن حيان فى تفسير هذه الآية (١٤٧) استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة فأما الصبر فقيل انه الصيام نص عليه مجاهد قال القرطبى وغيره ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث وقال سفيان الثورى عن أبى اسحق عن جرى بن كليب عن رجل من بنى سليم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الصوم نصف الصبر وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصى ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن حمزة بن اسمعيل حدثنا اسحق بن سليمان عن أبى سنان عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال الصبر صبران صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله قال وروى عن الحسن البصرى نحو قول عمر وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار عن سعيد بن جبير قال الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه الا الصبر وقال أبو العالية فى قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة قال على مرضات الله واعلموا انهما من طاعة الله وأما قوله والصلاة فان الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الامر كما قال تعالى أتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر الآية وقال الامام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلى قال قال عبد العزيز أخو حذيفة قال حذيفة يعنى ابن اليمان رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر صلى ورواه أبو داود عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتى وقد رواه ابن جرير من حديث ابن جريج عن عكرمة بن عمار عن محمد بن أبى عبيد بن أبى قدامة عن عبد العزيز بن اليمان عن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ورواه بعضهم عن

لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالتمنى هنا هو التلفظ بما يدل عليه لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس اليه فان ذلك لا يراد فى مقام الحاجة ومواطن الخصومة ومواقف التحدى وفى تركهم للتمنى أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانهم قد كانوا يسلكون من التعجرف والتجرى على الله وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة فى غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل فلم يتركوا عادتهم هنا الا لما قد تقرر عندهم من أنهم اذا فعلوا ذلك التمنى نزل بهم الموت اما لامر قد علموه أو للصرفة من الله عز وجل وقد يقال قد ثبت النهى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن تمنى الموت فكيف أمره الله أن يأمرهم بما هو منهى عنه فى شريعته ويجاب بأن المراد هنا الزامهم الحجة واقامة البرهان على بطلان دعواهم عن ابن عباس قال قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان كنتم فى مقالتكم صادقين فقولوا اللهم أمتنا فوالذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم الا غص بريقه فمات مكانه وعند لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار (والله عليم بالظالمين) فيه تخويف وتهديد لهم وانما خصهم بالظلم لانه أعم من الكفر لان كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافرا فلهذا كان أعم وكانوا أولى به (ولتجدنهم) اللام للقسم والنون للتاكيد أى والله لتجدنهم يا محمد وهذا أبلغ من قوله ولن يتمنوه أبدا (أحرص الناس على حياة) زيادة على عدم تمنى الموت والحرص أشد الطلب وتنكير حياة للتحقير أى أنهم أحرص الناس على حقير حياة وأقل لبث فى الدنيا فكيف بحياة كثيرة وليث متطاول وقال فى الكشاف انه أراد باتنكير حياة مخصوصة وهى الحياة المتطاولة وتبعه فى ذلك الرازى والخازن فى تفسيرهما (ومن الذين أشركوا) عطف على ما قبله بحسب المعنى كأنه قيل أحرص من الناس ومن الذين أشركوا ووجه ذكرهم بعد ذكر الناس مع كونهم داخلين فيهم للدلالة على مزيد حرص المشركين من العرب ومن شابههم من غيرهم فمن كان أحرص منهم وهم اليهود كان بالغا فى الحرص الى غاية لا يقادر قدرها وانما بلغوا فى الحرص الى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين لانهم يعلمون بما يحل بهم من العذاب فى الآخرة بخلاف المشركين من العرب ونحوهم فانهم لا يقرون بذلك فكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود والاول وان كان فيه خروج من الكلام فى اليهود الى غيرهم من مشركى العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكلف ولا ضير فى استطراد ذكر

عبد العزيز بن أخي حذيفة ويقال أخي حذيفة مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة حدثنا سهل بن عثمان العسكري حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال قال عكرمة بن عمار قال محمد بن عبد الله الدؤلي قال عبد العزيز قال حذيفة رجعت الى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي وكان اذا حزبه أمر صلى حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن أبي اسحق سمع حارثة بن مضرب سمع عليا رضي الله عنه يقول لقد رأيتنا ليلة بدر ومافينا الا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ويدعو حتى أصبح قال ابن جرير وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه مر بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له اشكم درد (١٤٨) ومعناه أيوجعك بطنك قال نعم قال قم فصل فان الصلاة شفاء قال ابن جرير وقد حدثنا محمد بن الفضل ويعقوب ابن ابراهيم قالا حدثنا ابن علية حدثنا عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس نعى اليه أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يشي الى راحلته وهو يقول واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج واستعينوا بالصبر والصلاة قال انهما معونان على رحمة الله والضمير في قوله وانها لكبيرة عائد الى الصلاة نص عليه مجاهد واختاره ابن جرير ويحتمل أن يكون عائدا على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك كقوله تعالى في قصة قارون وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون وقال تعالى ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم أي وما يلقى هذه الوصية الا الذين صبروا وما يلقاها أي يؤتاها ويلهمها الا ذو حظ عظيم وعلى كل تقدير فقوله تعالى وانها لكبيرة أي مشقة ثقيلة الا على الاعمة الخاشعين قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس يعني المصدقين بما أنزل الله وقال مجاهد المؤمنين حقا وقال أبو العالية الا على الخاشعين الخائفين وقال مقاتل بن حيان الا على الخاشعين يعني به المتواضعين وقال الضحاك وانها لكبيرة قال انها لثقيلة الا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوته المصدقين بوعده ووعيده وهذا يشبه ما جاء في الحديث لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله عليه وقال ابن جرير معنى الآية واستعينوا أيها الاحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وباقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من رضا الله العظيمة اقامتها الا على الخاشعين أي المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين

حرص المشركين بعد ذكر حرص اليهود وقال الرازي ان الثاني أرجح ليكون ذلك أبلغ في ابطال دعواهم وفي اظهار كذبهم في قولهم ان الدار الآخرة لنا لا لغيرنا انتهى ويجاب عنه بأن هذا الذي جعله مرجحا قد أفاده قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس ولا يستلزم استئناف الكلام في المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس (يود أحدهم) بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف وهم المجوس أي يتمنى أحدهم (لو يعمر ألف سنة) أي تعمير ألف سنة وانما خص الالف بالذكر لان العرب كانت تذكر ذلك عند ارادة المبالغة ولانها نهاية العقود ولانها تحية المجوس فيما بينهم يقولون زي هزارسال أي عش ألف سنة أو ألف نيروز أو ألف مهرجان فهذه تحيتهم وهذا كناية عن الكثرة فليس المراد خصوص هذا العدد والمعنى أن اليهود أحرص من المجوس الذين يقولون ذلك (وما هو بمزحزحه) أي بما عده قيل هو راجع الى أحدهم كما جرى عليه الجلال وعلى هذا يكون قوله أن يعمر فاعلا لمزحزحه وقيل هو لما دل عليه يعمر من مصدره أي وما التعمير بمزحزحه ويكون قوله أن يعمر بدلا منه وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت هو عماد وقيل هو ضمير الشأن والهاء فيه للنار سمي تبعا للكوفيين وقيل ما نافية وهو مبتدأ خبره بمزحزحه على زيادة الباء وقيل ما هي الحجازية والضمير اسمها وما بعده خبرها والاول أرجح وكذلك الثاني والثالث ضعيف جدا لأن العماد لا يكون الا بين شيئين ولهذا يسمونه ضمير الفصل والرابع فيه أن ضمير الشان يفسر بجملة سالمة عن حرف جر كما حكاه ابن عطية عن النحاة والزحزحة التنحية يقال زحزحته فتزحزح أي نحيته فتنحى وتباعد (من العذاب) من بمعنى عن أي النار (أن يعمر) أي لو عمر طول عمره لا ينقذه من العذاب (والله بصير بما يعملون) لا يخفى عليه خافية من أحوالهم (قل من كان عدوا لجبريل) أي بسبب نزوله بالقرآن المشتمل على سبهم وتكذيبهم هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت في اليهود قال ابن جرير الطبري وأجمع أهل التأويل جميعا أن هذه الآية نزلت جوابا على اليهود اذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك فقال بعضهم انما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمر نبوته ثم ذكر روايات في ذلك وجبريل اسم ملك وهو أعجمي فلذلك لم ينصرف والقول باشتقاقه من جبروت الله بعيد لأن الاشتقاق لا يكون في الاسماء

من مخافته هكذا قال والظاهر أن الآية وان كانت خطابا فى سياق انذار بنى اسرائيل فانهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص وانما هى عامة لهم ولغيرهم والله أعلم وقوله تعالى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون هذا من تمام الكلام الذى قبله أى ان الصلاة أو الوصاة الثقيلة الا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم أى يعلمون انهم محشورون اليه يوم القيامة معروضون عليه وانهم اليه راجعون أى أمورهم راجعة الى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات فاما قوله يظنون أنهم ملاقوا ربهم قال ابن جرير رحمه الله العرب قد تسمى اليقين ظنا والشك ظنا نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة والمغيث صارخا والمستغيث (١٤٩) صارخا وما أشبه ذلك من الاسماء التى يسمى بها الشئ وضده كما قال دريد ابن الصمة

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج
سراتهم فى الفارسى المسرد

يعنى بذلك تيقنوا بألفى مدجج يأتيكم وقال عمير بن طارق

فان يعبروا قومى وأقعد فيكم
وأجعل منى الظن غيبا مرجما

يعنى وأجعل منى اليقين غيبا مرجما قال والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين أكثر من أن تحصر وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية ومنه قول الله تعالى ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ثم قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان عن جابر عن مجاهد كل ظن فى القرآن يقين أى ظننت وظنوا وحدثنى المثنى حدثنا اسحق حدثنا أبو داود الحبرى عن سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال كل ظن فى القرآن فهو علم وهذا سند صحيح وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم قال الظن ههنا يقين قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والسدى والربيع بن أنس وقتادة نحو قول أبى العالية وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم علموا أنهم ملاقوا ربهم كقوله انى ظننت أنى ملاق حسابيه يقول علمت وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (قلت) وفى الصحيح ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وترتع فيقول بلى فيقول الله تعالى أفظننت انك ملاقى فيقول لا فيقول الله اليوم أنساك كما نسيتنى وسيأتى مبسوطا عند قوله تعالى نسوا الله فنسيهم ان شاء الله تعالى (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من ارسال الرسل منهم وانزال الكتب عليهم وعلى

الاعجمية وكذا قول من قال انه مركب تركيب الاضافة أو تركيب مزج نحو حضرموت وفيه ثلاث عشرة لغة أفصحها وأشهرها بزنة قنديل والضمير فى قوله (فانه) يحتمل وجهين الاول أن يكون لله ويكون الضمير فى قوله (نزله) لجبريل أى فان الله سبحانه نزل جبريل (على قلبك) وفيه ضعف كما يفيده قوله مصدقا لما بين يديه الثانى أنه لجبريل والضمير فى قوله نزله للقرآن أى فان جبريل نزل القرآن على قلبك وخص القلب بالذكر لانه موضع العقل والعلم وخزانة الحفظ وبيت الرب وقد قيل انه فى الدماغ (باذن الله) أى بعلمه وارادته وتيسيره وتسهيله وقال ابن الخطيب تفسير الاذن هنا بالامر أى بامر الله أولى من تفسيره بالعلم لانه حقيقة فى الامر مجاز فى العلم ويجب الحمل على الحقيقة ما أمكن واذا كان نزوله باذن الله فلا وجه للعداوة وانما يكون لها وجه لو كان النزول برأيه (مصدقا لما بين يديه) هو التوراة كما سلف أو جميع الكتب المنزلة وفى هذا دليل على شرف جبريل وارتفاع منزلته وانه لا وجه لمعاداة اليهود له حيث كان منه ما ذكر من تنزيل الكتاب على قلبك أو من تنزيل الله له على قلبك وهذا وجه الربط بين الشرط والجواب أى من كان معاديا لجبريل منهم فلا وجه لمعاداته له فانه لم يصدر منه الا ما يوجب المحبة دون العداوة أو من كان معاديا له فان سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل وليس ذلك بذنب له وان كرهوه فان هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم وعدوان لان هذا الكتاب الذى نزل به هو مصدق لكتابهم وموافق له (وهدى وبشرى للمؤمنين) أى فى القرآن هداية للمؤمنين الى الاعمال الصالحة التى يترتب عليها الثواب وبشرى لهم بثوابها اذا أتوا بها وعذاب وشدة على الكافرين ثم أتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط وجزاء تتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب والوعيد الشديد له فقال (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل) العداوة من العبد هى صدور المعاصى منه لله تعالى والبغض لأوليائه والعداوة من الله للعبد هى تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له قال الكرمانى قدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لان عداوة الرسل بسبب نزول الكتب ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر الله فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب وانما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما وأنهما وان كانا من الملائكة فقد صارا باعتبار

سائر الامم من أهل زمانهم كما قال تعالى ولقد اخترناهم على علم على العالمين وقال تعالى واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى وأنى فضلتكم على العالمين قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان فان لكل زمان عالما وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة واسمعيل بن أبى خالد نحو ذلك ويجب الحمل على هذا الأن هذه الامة أفضل منهم لقوله تعالى خطابا لهذه الامة كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم وفى المسانيد (١٥٠) والسنن عن معاوية بن حيدة القشيرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله والاحاديث فى هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وقيل المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس ولا يلزم تفضيلهم مطلقا حكاه الرازى وفيه نظر وقيل انهم فضلوا على سائر الامم لاشتمال أمتهم على الانبياء منهم حكاه القرطبى فى تفسيره وفيه نظر لان العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الانبياء فابراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه عليه (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) لما ذكرهم تعالى بنعمه أولا عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال واتقوا يوما يعنى يوم القيامة لا تجزى نفس عن نفس شيأ أى لا يغنى أحد عن أحد كما قال ولا تزر وازرة وزر أخرى وقال لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وقال يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ وبهذا أبلغ المقامات ان كلا من الوالد وولده لا يغنى أحدهما عن الآخر شيأ وقوله تعالى ولا يقبل منها شفاعة يعنى من الكافرين كما قال فما تنفعهم شفاعة الشافعين وكما قال عن أهل النار فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وقوله تعالى لا يؤخذ منها عدل أى لا يقبل منها فداء كما قال تعالى ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به وقال ان الذين كفروا لو أن لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم وقال تعالى ان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها وقال فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم الآية فأخبر

مالهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما ذكره صاحب الكشاف وقرره علماء البيان وفى جبريل ثلاث عشرة لغة ذكرها ابن جرير الطبرى وغيره وفى ميكائيل ست لغات وهما اسمان أعجميان قيل معناهما عبد الله لان جبر وميك بالسريانية هو العبد والايل هو الله والعرب اذا نطقت بالعجمى تساهلت فيه وقال ابن جنى خلطت فيه والاولى ما ذكرناه (فان الله عدو للكافرين) فاما عداوتهم لله فانها لا تضره ولا تؤثر وعداوته لهم تؤديهم الى العذاب الاليم الدائم الذى لا ضرر أعظم منه (ولقد أنزلنا اليك) يا محمد (آيات بينات) أى واضحات دالة على معانيها وعلى كونها من عند الله مفصلات بالحلال والحرام والحدود والاحكام أو علامات دالة على نبوتك (وما يكفر بها) أى ما يجحد بهذه الآيات (الا الفاسقون) اى الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به والظاهر أن المراد جنس الفاسقين ويحتمل أن يراد اليهود لان الكلام معهم والاول أولى لانهم داخلون فيه دخولا أوليا (أو كلما عاهدوا عهدا) استفهام انكار (نبذه فريق) أصل النبذ الطرح والالقاء ومنه سمى اللقيط منبوذا ومنه سمى النبيذ وهو التمر والزبيب اذا طرحا فى الماء وهو حقيقة فى الاجرام واسناده الى العهد مجاز (منهم) يعنى اليهود (بل أكثرهم لا يؤمنون) يعنى كفر فريق منهم بنقض العهد وفريق منهم بالجحد للحق والمعنى على انكار اللياقة والمناسبة أى لا ينبغى منهم نبذ العهد كلما عقدوه (ولما جاءهم رسول من عند الله) يعنى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم هذا أشنع عليهم مما قبله (مصدق لما معهم) أى بصحة التوراة وأن التوراة بشرت بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان مجرد مبعثه مصدقا للتوراة فاتفقت التوراة والقرآن (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب) أى اليهود (كتاب الله) أى التوراة قال السدى لما جاءهم صلى الله عليه وآله وسلم عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة لموافقة القرآن لها وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن أولا أنهم لما كفروا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم فى التوراة الايمان به وتصديقه واتباعه وبين لهم صفته كان ذلك منهم نبذ للتوراة ونقضا لها ورفضا لما فيها ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن أى لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله

تعالى أنهم ان لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فانه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذى جاه ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الارض ذهبا كما قال تعالى من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة وقال لا بيع فيه ولا خلال قال سنيد حدثنى حجاج حدثنى ابن جريج قال قال مجاهد قال ابن عباس ولا يؤخذ منها عدل قال بدل والبدل الفدية وقال السدى اما عدل فيعدلها من العدل يقول لو جاءت بملء الارض ذهبا تفتدى به ما تقبل منها وكذا قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله ولا يقبل منها عدل يعنى فداء قال ابن أبى حاتم وروى عن أبى مالك والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك وقال عبد الرزاق أنبأنا الثورى عن الاعمش عن ابراهيم النخعى عن أبيه عن على رضى الله عنه فى حديث طويل قال والصرف والعدل التطوع والفريضة وكذا قال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبى العاتكة عن عمير بن هانئ وهذا القول غريب ههنا والقول الاول أظهر فى تفسير هذه الآية وقد ورد حديث يقويه وهو ما قال ابن جرير حدثنى نجيح بن ابراهيم حدثنا على ابن حكيم حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمرو بن قيس الملائى عن رجل من بنى أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء قال قيل يا رسول الله ما العدل قال العدل الفدية وقوله تعالى ولا هم ينصرون أى ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا وجاء ولا يقبل منهم فداء هذا كله من جانب التلطف ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم كما قال فما لهم من قوة ولا ناصر أى أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ ولا يخلص منه أحدا ولا يجير منه أحد كما قال تعالى وهو يجير ولا يجار عليه وقال فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد وقال مالكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون وقال فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم الآية وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى مالكم لا تناصرون مالكم اليوم لا تمانعون منا هيهات ليس ذلك لكم اليوم قال ابن جرير وتأويل قوله ولا هم ينصرون يعنى أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ولا يقبل منهم عدل ولا فدية بطلت هنالك المحاباة وانضمحلت الرشا والشفاعات وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم الى الجبار العدل الذى لا ينفع لديه الشفعاء ولا النصراء فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها وذلك نظير قوله تعالى وقفوهم انهم مسؤلون مالكم لا تناصرون بل هم اليوم

الذى جاء به هذا الرسول والاول أولى لان النبذ لا يكون الا بعد التمسك والقبول ولم يتمسكوا بالقرآن (وراء ظهورهم) هذا مثل يضرب لمن يستخف بالشئ فلا يعمل به تقول العرب اجعل هذا خلف ظهرك ودبر أذنك وتحت قدمك أى اتركه وأعرض عنه (كأنهم لا يعلمون) تشبيه لهم بمن لا يعلم شيأ مع كونهم يعلمون علما يقينا من التوراة بما يجب عليهم من الايمان بهذا النبى ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا بما عمل من لا يعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لا يعلم وهم علماء اليهود تجاهلوا وحملهم على ذلك عداوة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا قليلا (واتبعوا) عطف على نبذ (ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) يعنى اليهود والتلاوة القراءة قال الزجاج على عهد سليمان وقيل المعنى فى زمن ملكه وقيل فى قصصه وصفاته وأخباره قال الفراء تتلو على وفى فى هذا الموضع والاول أظهر وقيل يضمن تتلوا معنى تتقول أى تتقول على ملك سليمان وهذا أولى فان التجوز فى الافعال أولى من التجوز فى الحروف وقد كانوا يظنون أن هذا هو علم سليمان وانه يستجيزه ويقول به فرد الله ذلك عليهم وقال (وما كفر سليمان) يعنى بالسحر ولم يعمل به وسليمان علم أعجمى فلذلك لم ينصرف وقال أبو البقاء فيه العجمة والتعريف والالف والنون وهذا انما يثبت اذا دخله الاشتقاق والتصريف وقد تقدم أنهما لا يدخلان فى الاسماء الاعجمية وفيه تنزيه سليمان عن السحر ولم يتقدم أن أحدا نسب سليمان الى الكفر ولكن لما نسبته اليهود الى السحر صار بمنزلة من نسبه الى الكفر لان السحر يوجب ذلك وقالوا ان سليمان ملك الناس بالسحر والهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال (ولكن الشياطين كفروا) أى بتعليمهم قرأ ابن عامر والكوفيون سوى عاصم ولكن بالتخفيف ورفع الشياطين والباقون بالتشديد والنصب عن ابن عباس قال ان الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء فاذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب معها ألف كذبة فأثر بتها قلوب الناس واتخذوها دواوين فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود فأخذها فدفنها تحت الكرسى فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال ألا أدلكم على كنز سليمان الذى لا كنز لاحد مثله فكنزه المنع قالوا نعم فاخرجوه فاذا هو سحر فتناسختها الامم وأنزل الله عذر سليمان فيما قالوا من السحر فقال واتبعوا الآية أخرجه الحاكم وصححه وأخرج النسائى وابن أبى حاتم عنه قال كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم

مستسلمون (واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) يقول تعالى اذكروا يا بني اسرائيل نعمتي عليكم اذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب أي خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وذلك ان فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته رأى نارا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر الا بيوت بني اسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني اسرائيل ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بني اسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه ان شاء الله تعالى فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني اسرائيل وان تترك البنات وأمر باستعمال بني اسرائيل في مشاق الاعمال وأرذلها وههنا فسر العذاب بذبح الابناء وفي سورة ابراهيم عطف عليه كما قال يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص ان شاء الله تعالى وبه الثقة والمعونة والتأييد ومعنى يسومونكم يولونكم قاله أبو عبيدة كما يقال سامه خطة خسف اذا أولاه اياها قال عمرو بن كلثوم

اذا الملك سام الناس خسفا
أبينا أن نقر الخسف فينا

وقيل معناه يديمون عذابكم كما يقال سائمة الغنم من ادامتها الرعي نقله القرطبي وانما قال ههنا يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ليكون ذلك تفسيرا للنعمة عليهم في قوله يسومونكم سوء العذاب ثم فسره بهذا لقوله ههنا واذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأما في سورة ابراهيم فلما قال وذكرهم بايام التفرقة الله أي بآلائه ونعمه عليهم فناسب ان يقول هناك يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والايادي علي وفرعون علم كل من ملك مصر كافرا من العماليق وغيرهم كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا وكسرى لمن ملك الفرس وتبع لمن ملك اليمن كافرا والنجاشي لمن ملك الحبشة وبطليموس لمن ملك الهند ويقال كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان وقيل مصعب بن الريان فكان من سلالة عمليق بن الأود بن ارم بن سام بن نوح وكنيته أبو مرة وأصله فارسي من اصطخر وأيا ما كان فعليه لعنة الله وقوله تعالى

الاسم الاعظم وكان يكتب كل شئ بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحرا وكفرا وقالوا هذا الذي كان سليمان يعمل به فأكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم واتبعوا الآية (يعلمون الناس السحر) وهو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي يحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير وهو مشتق من سحرت الصبي اذا خدعته وقيل أصله الخفاء فان الساحر يفعله خفية وقيل أصله الصرف لان السحر مصروف عن جهته وقيل أصله الاستمالة لان من سحرك استمالك وقال الجوهري السحر الاخذة وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر والساحر العالم وقال الغزالي السحر نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية في مطالع النجوم فيتخذ من تلك الخواص هيكل على صورة الشخص المسحور ويترصد له وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ويتوصل بسببها الى الاستغاثة بالشياطين وتحصل من مجموع ذلك بحكم اجراء الله العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور انتهى وقد ذكر أبو السعود أنواعا من السحر فليرجع اليه وقد اختلف هل له حقيقة أم لا فذهبت المعتزلة وأبو حنيفة الى أنه خدع لا أصل له ولا حقيقة وذهب من عداهم الى أن له حقيقة مؤثرة وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سحر سحره لبيد بن الاعصم اليهودي حتى كان يخيل اليه أنه يأتي الشئ ولم يكن قد أتاه ثم شفاه الله سبحانه والكلام في ذلك يطول وعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السحر من الكبائر وعده بالشرك كما في الصحيحين (و) أي ويعلمون الناس (ما أنزل على الملكين) فهو معطوف على السحر والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه أو على ما تتلوا وما بينهما اعتراض أي واتبعوا ما أنزل الخ قال السدي هذا سحر آخر خاصموه به فان كلام الملائكة فيما بينهم اذا علمته الانس فصنع وعمل به كان سحرا (ببابل) أي في بابل وهو اسم أرض أو بلد في سواد العراق أو أرض الكوفة قاله ابن مسعود وقيل جبل دماوند وقيل نهاوند وقيل نصيبين وقيل المغرب ومنع الصرف للعجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية سميت بذلك لتبلبل ألسنة الخلائق بها والبلبلة

وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم قال ابن جرير وفى الذى فعلنا بكم من انجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم أى نعمة عظيمة عليكم فى ذلك وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله تعالى بلاء من ربكم عظيم قال نعمة وقال مجاهد بلاء من ربكم عظيم قال نعمة من ربكم عظيمة وكذا قال ابو العالية وأبو مالك والسدى وغيرهم وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة وقال وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون قال ابن جرير وأكثر ما يقال فى الشر بلوته أبلوه بلاء وفى الخير أبليه ابلاء وبلاء قال زهير بن أبى سلمى

جزى الله بالاحسان ما فعلا بكم
وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

قال فجمع بين اللغتين لانه أراد فانعم الله عليهما خير النعم التى يختبر بها عباده وقيل المراد بقوله وفى ذلكم بلاء اشارة الى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الابناء واستحياء النساء قال القرطبى وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى القول الاول ثم قال وقال الجمهور الاشارة الى الذبح ونحوه والبلاء ههنا فى الشر والمعنى وفى الذبح مكروه وامتحان وقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون معناه وبعدان أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام خرج فرعون فى طلبكم ففرقنا بكم البحر كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلا كما سيأتى فى مواضعه ومن أبسطها فى سورة الشعراء ان شاء الله فأنجيناكم أى خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ فى اهانة عدوكم قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أبى اسحق الهمدانى عن عمرو بن ميمون الاودى فى قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر الى قوله وأنتم تنظرون قال لما خرج موسى ببنى اسرائيل بلغ ذلك فرعون فقال لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة قال فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا فدعا بشاة فذبحت ثم قال لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع الى ستمائة ألف من القبط فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع اليه ستمائة ألف من القبط فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون أين أمرك ربك قال أمامك يشير الى البحر فاقتحم يوشع فرسه فى البحر حتى بلغ الغمر فذهب به الغمر ثم رجع فقال أين أمر ربك يا موسى فوالله ما كذبت ولا كذبت فعل

التفرقة وقيل ان ما فى قوله وما أنزل على الملكين نافية والواو عاطفة على قوله وما كفر سليمان وفى الكلام تقديم وتأخير والتقدير وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل (هاروت وماروت) فهاروت وماروت بدل من الشياطين على قراءة التشديد والنصب فى قوله ولكن الشياطين كفروا ذكره ابن جرير وأما على قراءة التخفيف والرفع فهو منصوب على الذم وهو بدل بعض ومن فسرهما بقبيلتين من الجن يكون عنده بدل كل وقال ابن جرير فان قال لنا القائل وكيف وجه تقديم ذلك قيل تقديمه ان يقال واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون معنيا بالملكين جبريل وميكائيل لان سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل الى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر وأخبرهم ان السحر من عمل الشياطين وانها تعلم الناس ذلك ببابل وان الذى يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت والآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم انتهى يعنى انه بدل من الناس أى يعلمان الناس خصوصا هاروت وماروت وقال القرطبى فى تفسيره بعد ان حكى معنى هذا الكلام ورجح ان هاروت وماروت بدل من الشياطين ما لفظه هذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت الى سواه فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة افهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الانس النساء وخاصة فى حال طمثهن قال الله ومن شر النفاثات فى العقد ثم قال ان قيل كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدل انما يكون على حد المبدل منه ثم أجاب عن ذلك بان الاثنين قد يطلق عليهما الجمع أو انهما خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما ويؤيد هذا انه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن الملكين بكسر اللام ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه ان ينزل السحر الى أرضه فتنة لعباده على ألسن ملائكته وعندى انه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر فان الله سبحانه ان يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت ولهذا يقول الملكان انما نحن فتنة ويؤيده ما قال أبو السعود ان مقام وصف

ذلك ثلاث مرات ثم أوحى الله الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم يقول مثل الجبل ثم سار موسى ومن معه واتبعهم فرعون فى طريقهم حتى اذا تتامّوا فيه أطبقه الله عليهم فلذلك قال وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون وكذلك قال غير واحد من السلف كما سيأتى بيانه فى موضعه وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء كما قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء (١٥٤) فقال ما هذا اليوم الذى تصومون قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحق بموسى منكم فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصومه وروى هذا الحديث البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه من طرق عن أيوب السختيانى به نحو ما تقدم وقال أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو الربيع حدثنا سلام يعنى بن سليم عن زيد العمى عن يزيد الرقاشى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فلق الله البحر لبنى اسرائيل يوم عاشوراء وهذا ضعيف من هذا الوجه فان زيدا العمى فيه ضعف وشيخه يزيد الرقاشى أضعف منه (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة وكانت أربعين يوما وهى المذكورة فى الاعراف فى قوله تعالى وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر قيل انها ذو القعدة بكماله وعشر من ذى الحجة وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وانجائهم من البحر وقوله تعالى واذ آتينا موسى الكتاب يعنى التوراة والفرقان وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة لعلكم تهتدون وكان ذلك أيضا بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الاعراف ولقوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون وقيل الواو زائدة والمعنى ولقد آتينا موسى الكتاب الفرقان وهذا غريب وقيل عطف عليه وان

الشياطين بالكفر واضلال الناس مما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهى عن الكفر مع ما فيه من الاخلال بنظام الكلام فان الابدال فى حكم تنحية المبدل منه وقال هاروت وماروت عطف بيان للملكين علمان لهما وقرئ بالرفع على هما هاروت وماروت انتهى المراد منه قال ابن جرير وذهب كثير من السلف الى انهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا الى الارض فكان من أمرهما ما كان وكان عبد الرحمن بن أبزى يقرؤها وما أنزل على الملكين داود وسليمان وقال الضحاك هما علجان من أهل بابل وهاروت وماروت اسمان أعجميان لا ينصرفان وهما سريانيان ويجمعان على هواريت وموايت وهوارية وموارية وليس من زعم اشتقاقهما من الهرت والمرت وهو الكسر بصيب لعدم انصرافهما ولو كانا مشتقين كما ذكر لانصرفا أخرج البيهقى فى شعب الايمان من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشرفت الملائكة على الدنيا فرأت بنى آدم يعصون فقالت يا رب ما أجهل هؤلاء وما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك فقال الله لو كنتم فى مسلاخهم لعصيتمونى قالوا كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال فاختاروا منكم ملكين فاختاروا هاروت وماروت ثم أهبطا الى الارض وركبت فيهما شهوات بنى آدم ومثلت لهما امرأة فاعصما حتى واقعا المعصية فقال الله اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فنظر أحدهما لصاحبه قال ما تقول قال أقول ان عذاب الدنيا منقطع وان عذاب الآخرة لا ينقطع فاختارا عذاب الدنيا فهما اللذان ذكر الله فى كتابه وما أنزل على الملكين الآية وقد روى هذه القصة عن ابن عمر بالفاظ وفى بعضها انه يروى ذلك ابن عمر عن كعب الاحبار كما أخرجه جماعة من أهل الاثر وأخرج الحاكم وصححه عن على بن أبى طالب ان هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة والعجم أناهيد قال ابن كثير وهذا الاسناد رجاله ثقات وهو غريب جدا وعن ابن عباس الزهرة امرأة وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه ان المرأة التى فتن بها الملكان مسخت فهذه هى الكوكبة الحمراء يعنى الزهرة وقيل وكانت من لخم أو من أهل فارس ملكة فى بلدها وكانت من أجمل النساء فمسخها الله كوكبا وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عنه فذكر قصة طويلة وفيها التصريح بان الملكين شربا الخمر وزنيا بالمرأة وقتلاها وعن ابن مسعود قال انها أنزلت اليهما الزهرة فى صورة

كان المعنى واحدا كما فى قول الشاعر وقدّمت الاديم لراقشيه * فالفى قولها كذبا ومينا وقال الاخر
ألا حبذا هند وأرض بها هند * وهند أتى من دونها النأى والبعد فالكذب هو المين والنأى هو البعد وقال عنترة
حييت من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعد أم الهيثم فعطف الاقفار على الاقواء وهو هو (واذ قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم) هذه صفة توبته تعالى على بنى اسرائيل من عبادة العجل قال الحسن البصرى رحمه الله فى قوله تعالى واذ

امرأة وانهما وقعا فى الخطيئة وقد روى فى هذا الباب قصص طويلة وروايات مختلفة استوفاها السيوطى فى الدر المنثور وذكر ابن كثير فى تفسيره بعضها ثم قال وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع فى تفصيلها الى أخبار بنى اسرائيل اذ ليس فيها حديث مرفوع متصل الاسناد الى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن اجمال القصة من غير بسط ولا اطناب فيها فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى والله تعالى أعلم انتهى وقال أبو السعود هما معذبان ببابل قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان يضربان بسياط الحديد الى قيام الساعة وهذا مما لا تعويل عليه لما أن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لادلة العقل والنقل انتهى ومثله فى الخازن ونحوه فى المظهرى وهذا القول يقتضى ان هذه القصة غير صحيحة وانها لم تثبت بنقل معتبر وتبع أبو السعود فى ذلك البيضاوى التابع فى ذلك للفخر الرازى والسعد التفتازانى وغيرهما ممن أطال فى ردها لكن قال الشيخ زكريا الانصارى الحق ما أفاده شيخنا حافظ عصره الشهاب ابن حجر ان لها طرقا تفيد العلم بصحتها فقد رواها مرفوعة الامام أحمد وابن حبان والبيهقى وغيرهم وموقوفة على على وابن مسعود وابن عباس وغيرهم بأسانيد صحيحة قال الخفاجى قال المحدثون وجميع رجاله غير موثوق بهم لكن قال خاتمة الحفاظ الشهاب ابن حجر ان له طرقا كثيرة جمعتها فى جزء مفرد يكاد الواقف عليها يقطع بصحتها لكثرتها وقوة مخارجها وقال بعضهم بلغت طرقه نيفا وعشرين انتهى قلت والبيضاوى لما استبعد هذا المنقول ولم يطلع عليه قال انه محكى عن اليهود ولعله من رموز الاولين ذكره الخطيب وكذا أهل الكلام طعنوا فى هذه القصة وعدوها من المحالات لمسخ الانسان كوكبا كما بينوه فى كتبهم وحاول البيضاوى التوفيق بانها تمثيلات كقصة ابسال وسلامان وحرير مقطان وغير ذلك مما وضعه المتقدمون والمتأخرون اشارة الى أن القوى لو ركبت فى تلك لعصت وأسماء الله وما جاته تلحق السفلى بالعلوى ونحوه هذا وقد أطنب الشيخ ابن حجر المكى فى جواب الرازى واستبعاده لهذه القصة فى كتابه الزواجر بما لا مزيد عليه وقال القرطبى بعد سياق بعض تلك قلنا هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره لا يصح

قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فقال ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال الله تعالى ولما سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا الآية قال فذلك حين يقول موسى ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والربيع ابن أنس فتوبوا الى بارئكم أى الى خالقكم قلت وفى قوله ههنا الى بارئكم تنبيه على عظم جرمهم أى فتوبوا الى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره وقد روى النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث يزيد بن هرون عن الاصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال فقال الله تعالى ان توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهرون ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول وهذا قطعة من حديث الفتون وسياتى فى سورة طه بكماله ان شاء الله وقال ابن جرير حدثنى عبد الكريم بن الهيثم حدثنا ابراهيم بن بشار حدثنا سفيان بن عيينة قال قال أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال موسى لقومه توبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم قال أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم قال وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل كل من قتل منهم كانت له توبة وكل من بقى كانت له

توبة وقال ابن جرير أخبرني القاسم بن أبي برة انه سمع سعيد بن جبير ومجاهدا يقولان في قوله تعالى فاقتلوا أنفسكم قالا قام بعضهم الى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل وان الله أوحى الى موسى أن حسبي فقد اكتفيت فذلك حين ألوى موسى بثوبه وروى عن علي رضي الله عنه نحو ذلك وقال قتادة أمر القوم بشديد من الامر فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضا حتى بلغ الله فيهم نقمته فسقطت الشفار من أيديهم فامسك عنهم القتل (١٥٦) فجعل لحيهم توبة وللمقتول شهادة وقال الحسن البصري أصابتهم ظلمة

حندس فقتل بعضهم بعضا ثم انكشف عنهم فجعل توبتهم في ذلك وقال السدي في قوله فاقتلوا أنفسكم قال فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف فكان من قتل من الفريقين شهيدا حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا حتى قتل منهم سبعون ألفا وحتى دعا موسى وهرون ربنا أهلكت بني اسرائيل ربنا البقية البقية فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم فكان من قتل منهم من الفريقين شهيدا ومن بقي مكفرا عنه ذلك قوله فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم وقال الزهري لما أمرت بنو اسرائيل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى فاضطربوا بالسيوف وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه حتى اذا فتر بعضهم قالوا يا نبي الله ادع الله لنا وأخذوا بعضد يه يسندون يديه فلم يزل أمرهم على ذلك حتى اذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو اسرائيل للذي كان من القتل فيهم فأوحى الله جل ثناؤه الى موسى ما يحزنك أما من قتل منهم فحي عندي يرزقون وأما من بقي فقد قبلت توبته فسر بذلك دليل

منه شئ فانه قول تدفعه الاصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه الى رسله لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون ثم ذكر ما معناه ان العقل يجوز وقوع ذلك منهم لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك الا بالسمع ولم يصح انتهى وأقول هذا مجرد استبعاد وقد ورد الكتاب العزيز في هذا الموضع بما تراه ولا وجه لاخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات وما ذكره من ان الاصول تدفع ذلك فعلى فرض وجود هذه الاصول فهي مخصصة بما وقع في هذه القصة ولا وجه لمنع التخصيص وقد كان ابليس بتلك المنزلة العظيمة وصار أشر البرية وأكفر العالمين (وما يعلمان من أحد) أي هاروت وماروت أو الرجلان والاول أولى قال الزجاج تعليم انذار من السحر لا تعليم دعاء اليه قال وهو الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر ومعناه انهما يعلمان على النهي فيقولان لهم لا تفعلوا كذا وقد قيل ان قوله يعلمان من الاعلام لا من التعليم وقد جاء في كلام العرب تعلم بمعنى أعلم كما حكاه ابن الانباري وابن الاعرابي وهو كثير في أشعارهم (حتى يقولا) أي الا أن ينصحاه اولا أو أن يقولا (انما نحن فتنة) هو على ظاهره أي ابتلاء واختبار من الله لعباده ومحنة وقيل انه استهزاء منهما لانهما انما يقولان لمن قد تحقق ضلاله والاول أولى والمعنى انما نحن ابتلاء فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيقته كفر ومن توقى عن العمل به واتخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقي على الايمان فلا تكفر باعتقاد حقيقته وجواز العمل به قاله أبو السعود قال الخفاجي فيه اشارة الى أن الاجتناب واجب احتياطا وكما لا يحرم الفلسفة للمنصوب للذب عن الدين برد الشبهة وان كان أغلب أحواله التحريم كذلك تعلم السحر ان فرض فشوه في صقع وأريد تبيين فساده لهم ليرجعوا الى الحق وهو لا ينافي اطلاق القول بالتحريم فاعرفه انتهى قلت أخرج البزار باسناد صحيح والحاكم وصححه عن ابن مسعود من أتى كاهنا أو ساحرا وصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد وأخرج البزار عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن عقد عقدة ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد وأخرج عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تعلم شيأ من السحر قليلا أو كثيرا كان آخر عهده من الله وفي قولهما (فلا تكفر) أبلغ انذار وأعظم تحذير أي ان هذا ذنب يكون من فعله كافرا فلا تكفر وفيه

عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما رجع موسى الى قومه وكانوا سبعين رجلا قد اعتزلوا مع هرون العجل لم يعبدوه فقال لهم موسى انطلقوا الى موعد ربكم فقالوا يا موسى ما من توبة قال بلى اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم الآية فاخترطوا السيوف والجزرة والخناجر والسكاكين قال وبعث عليهم ضبابة قال فجعلوا يتلامسون بالايدى ويقتل بعضهم بعضا قال ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدرى قال ويتنادون فيها رحم الله عبدا صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه قال فقتلاهم شهداء وتيب على أحيائهم (١٥٧) ثم قرأ فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم

دليل على ان تعلم السحر كفر وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد وبين من تعلمه ليكون ساحرا ومن تعلمه ليقدر على دفعه وبه قال أحمد (فيتعلمون منهما) يعنى من الملكين (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أى سحرا يكون سببا فى التفريق بينهما كالتمويه والتخييل والنفث فى العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده البغضاء والنشوز والخلاف بين الزوجين ابتلاء من الله تعالى وفى اسناد التفريق الى السحرة وجعل السحر سببا لذلك دليل على ان للسحر تأثيرا فى القلوب بالحب والبغض والجمع والفرقة والقرب والبعد وقد ذهب طائفة من العلماء الى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة لان الله ذكر ذلك فى معرض الذم للسحر وبين ما هو الغاية فى تعليمه فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره وقالت طائفة أخرى ان ذلك خرج مخرج الاغلب وان الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه وقيل ليس للسحر تأثير فى نفسه أصلا لقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله) والحق انه لا تنافى بين القولين المذكورين فان المستفاد من جميع ذلك ان للسحر تأثيرا فى نفسه وحقيقة ثابتة ولم يخالف فى ذلك الا المعتزلة وأبو حنيفة كما تقدم وهذا استثناء مفرغ من أعم الاحوال (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) يعنى السحر لانهم يقصدون به العمل أولان العلم يجر الى العمل غالبا وفيه تصريح بان السحر لا يعود على صاحبه بفائدة ولا يجلب اليه منفعة بل هو ضرر محض وخسران صرف وشر بحت قال أبو السعود فيه ان الاجتناب عما لا تؤمن غوائله خير كتعلم الفلسفة التى لا يؤمن ان تجر الى الغواية وان قال من قال

عرفت الشر لا للشر * ولكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر * من الناس يقع فيه

انتهى (ولقد علموا) يعنى اليهود (لمن اشتراه) أى اختار السحر والمراد بالشراء هنا الاستبدال أى من استبدل ما يتلوا الشياطين (ماله فى الآخرة من خلاق) أى من نصيب كما عند أهل اللغة كذا قال الزجاج (ولبئس ما شروا به أنفسهم) أى باعوها وقد أثبت لهم العلم فى قوله ولقد علموا ونفاه عنهم فى قوله (لو كانوا يعلمون) واختلفوا فى توجيه ذلك فقال قطرب والاخفش ان المراد بقوله ولقد علموا الشياطين والمراد بقوله لو كانوا يعلمون الانس وقال الزجاج ان الاول للملكين وان كان بصيغة الجمع فهو مثل قولهم الزيدان

(واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق اذ سألتم رؤيتى جهرة عيانا مما لا يستطاع لكم ولا لامثالكم كما قال ابن جريج قال ابن عباس فى هذه الآية واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة قال علانية وكذا قال ابراهيم بن طهمان عن عباد ابن اسحق عن أبى الحويرث عن ابن عباس انه قال فى قول الله تعالى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة أى علانية أى حتى نرى الله وقال قتادة والربيع بن أنس حتى نرى الله جهرة أى عيانا وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه قال فسمعوا كلاما فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة قال فسمعوا صوتا فصعقوا يقول ماتوا وقال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة الصاعقة صيحة من السماء وقال السدى فى قوله فاخذتكم الصاعقة الصاعقة نار وقال عروة بن رويم فى قوله وأنتم تنظرون قال صعق بعضهم وبعض ينظرون ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء وقال السدى فأخذتكم الصاعقة فماتوا فقام موسى يبكى ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبنى اسرائيل اذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فأوحى الله الى موسى ان هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ثم ان الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل ينظر بعضهم الى بعض كيف يحيون قال فذلك قوله تعالى ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون وقال الربيع بن أنس كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم وكذا

قال قتادة وقال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحق قال لما رجع موسى الى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لاخيه وللسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا الى الله وتوبوا الى الله مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه الا باذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا لقاء الله قالوا يا موسى اطلب لنا الى ربك نسمع (١٥٨) كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى اذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى اذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ اليه من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فماتوا جميعا وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه ويقول رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياى قد سفهوا أفتهلك من ورائى من بنى اسرائيل بما يفعل السفهاء منا أى ان هذا لهم هلاك واخترت منهم سبعين رجلا الخير فالخير أرجع اليهم وليس معى منهم رجل واحد فما الذى يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا انا هدنا اليك فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب اليه حتى رد اليهم أرواحهم وطلب اليه التوبة لبنى اسرائيل من عبادة العجل فقال لا الا أن يقتلوا أنفسهم هذا سياق محمد بن اسحق وقال اسمعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير لما تاب بنو اسرائيل من عبدى عبادة العجل وتاب الله عليهم يقتل بعضهم بعض كما أمرهم الله به أمر الله موسى أن يأتيه فى كل أناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل ووعدهم موسى فاختار موسى سبعين رجلا على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا وساق البقية وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه الى بنى اسرائيل فى قوله واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة والمراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه وقد أغرب الرازى فى تفسيره حين حكى فى قصة هؤلاء السبعين انهم بعد احيائهم قالوا يا موسى

قاموا والثانى المراد به علماء اليهود وانما قال لو كانوا يعلمون لانهم تركوا العمل بعلمهم (ولو انهم آمنوا) أى اليهود بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من القرآن (واتقوا) ما وقعوا فيه من السحر والكفر (لمثوبة من عند الله) أى لكان ثواب الله اياهم (خير) لهم يعنى هذا الثواب والمثوبة وزنها مفعولة قاله الواحدى أو مفعلة كمشورة ومترية وكان من حقها الاعلال فيقال مثابة كمقالة الا انهم صححوها قاله السمين (لو كانوا يعلمون) ذلك هو اما للدلالة على انه لا علم لهم أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) أى راقبنا واحفظنا ويجوز أن يكون من ارعنا سمعك أى فرغه لكلامنا ووجه النهى عن ذلك ان هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبا قيل انه فى لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت وقيل غير ذلك فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم راعنا طلبا منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة وكانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وآله وسلم كذلك مظهرين انهم يريدون المعنى العربى مبطنين انهم يقصدون السب الذى هو معنى هذا اللفظ فى لغتهم وفى ذلك دليل على انه ينبغى تجنب الالفاظ المحتملة للسب والنقص وان لم يقصد المتكلم بها هذا المعنى المفيد للشتم سدا للذريعة ودفعا للوسيلة وقطعا لمادة المفسدة والتطرق اليه ثم أمرهم الله بان يخاطبوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض فقال (وقولوا انظرنا) أى أقبل علينا وانظر الينا وهو من باب الحذف والايصال وقيل معناه انتظرنا وتأن بنا وقرأ الاعمش انظرنا بمعنى أخرنا وامهلنا حتى نفهم عنك وأمرهم بعد هذا النهى والامر بامر آخر وهو قوله (واسمعوا) أى اسمعوا ما أمرتم به ونهيتم عنه معناه اطيعوا الله فى ترك خطاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم بذلك اللفظ وخاطبوه بما أمرتم به ولا تخاطبوه بما يسر اليهود بل تخير والخطاب به صلى الله عليه وآله وسلم من الالفاظ حسنها ومن المعانى أدقها ويحتمل ان يكون معناه اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة قال ابن جرير والصواب من القول عندنا فى ذلك أن الله نهى المؤمنين ان يقولوا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم راعنا لانها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم نظير الذى ذكر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ولا تقولوا

انك لاتطلب من الله شيأ الا أعطاك فادعه أن يجعلنا أنبياء فدعا بذلك فاجاب الله دعوته وهذا غريب جدا اذ لا يعرف فى زمان موسى نبى سوى هرون ثم يوشع بن نون وقد غلط أهل الكتاب أيضا فى دعواهم ان هؤلاء رأوا الله عز وجل فان موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون القول الثانى فى الآية قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير هذه الآية قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالالواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم فقال ان هذه الالواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه فقالوا ومن يأخذه بقولك أنت لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا فيقول هذا كتابى فخذوه فانه لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى وقرأ قول الله ان نؤمن لك حتى نرى الله جهرة قال فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون قال ثم أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قول الله ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون فقال لهم موسى خذوا كتاب الله فقالوا لا فقال أى شئ أصابكم فقالوا أصابنا اناما متنا ثم أحيينا قال خذوا كتاب الله قالوا لا فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم وهذا السياق يدل على انهم كفروا بعد ما أحيوا وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين أحدهما انه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الامر جهرة حتى صاروا مضطرين الى التصديق والثانى انهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف قال القرطبى وهذا هو الصحيح لان معاينتهم للامور الفظيعة لا تمنع تكليفهم لان بنى اسرائيل قد شاهدوا أمورا عظاما من خوارق

عبدى ولكن قولوا فتاى وما أشبه ذلك ثم توعد اليهود بقوله (وللكافرين عذاب أليم) ويحتمل ان يكون وعيدا شاملا لجنس الكفرة (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يودون انزال الخير عليهم من الله سبحانه وقد قيل بأن الخير الوحى وقيل غير ذلك والظاهر أنهم لا يودون أن ينزل على المسلمين أى خير كان فهو لا يختص بنوع معين كما يفيده وقوع هذه النكرة فى سياق النفى وتأكيد العموم بدخول من المزيدة عليها وان كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص (والله يختص برحمته) أى يميز (من يشاء) تمييزه والرحمة قيل هى القرآن والاسلام وقيل النبوة وقيل جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الاضافة الى ضميره تعالى (والله ذو الفضل العظيم) فكيف لا يودون ان يختص برحمته من يشاء من عباده وكل خير نالة عباده فى دينهم ودنياهم فانه منه ابتداء وتفضلا عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك بل له الفضل والمنة على خلقه (ما ننسخ من آية) كلام مستأنف قاله أبو السعود وقال البهنسى لم يعطف لشدة ارتباطه بما قبله والنسخ فى كلام العرب على وجهين أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا أعنى من اللوح المحفوظ ولا مدخل لهذا المعنى فى هذه الآية ومنه انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون اى نأمر بنسخه الثانى الابطال والازالة وهو المقصود هنا وهذا القسم الثانى ينقسم الى قسمين عند أهل اللغة أحدهما ابطال الشئ وزواله واقامة آخر مقامه ومنه نسخت الشمس الظل اذا أذهبته وحلت محله وهو معنى قوله ما ننسخ من آية وفى صحيح مسلم لم تكن نبوة قط الا تناسخت أى تحولت من حال الى حال والثانى ازالة الشئ دون ان يقوم مقامه آخر كقولهم نسخت الريح الأثر ومن هذا المعنى فينسخ الله ما يلقى الشيطان أى يزيله وروى عن أبى عبيد ان هذا قد كان يقع فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت تنزل عليه السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب ومنه ما روى عن أبى وعائشة ان سورة الاحزاب كانت تعدل سورة البقرة فى الطول قال ابن فارس النسخ نسخ الكتاب والنسخ ان يزيل أمرا كان من قبل يعمل به ثم ينسخه بحادث غيره كالآية تنزل بأمر ثم تنسخ بأخرى وكل شئ خلف شيأ فقد انتسخه يقال نسخ الشيب الشباب وتناسخ الورثة أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم

العادات وهم فى ذلك مكلفون وهذا واضح والله أعلم (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضا بما أسبغ عليهم من النعم فقال وظللنا عليكم الغمام وهو جمع غمامة سمى بذلك لانه يغم السماء أى يواريها ويسترها وهو السحاب الابيض ظللوا به فى التيه ليقيهم حر الشمس كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس فى حديث الفتون قال ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبى مجلز والضحاك والسدى نحو قول ابن عباس وقال الحسن وقتادة وظللنا عليهم الغمام كان هذا فى

البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس وقال ابن جرير قال آخرون وهو غمام أبرد من هذا وأطيب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وظللنا عليهم الغمام قال ليس بالسحاب هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة ولم يكن الا لهم وهكذا رواه ابن جرير عن المثنى بن ابراهيم عن أبي حذيفة وكذا رواه الثوري وغيره عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وكأنه يريد والله أعلم انه ليس من زي هذا السحاب بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظرا كما قال سند في تفسيره عن حجاج ابن محمد عن ابن جريج قال قال ابن عباس وظللنا عليهم الغمام قال غمام أبرد من هذا وأطيب وهو الذي يأتي الله فيه في قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر قال ابن عباس وكان معهم في التيه وقوله تعالى وأنزلنا عليكم المن اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كان المن ينزل عليهم على الاشجار فيغدون اليه فيأكلون منه ما شاؤا وقال مجاهد المن صمغة وقال عكرمة المن شيء أنزله الله عليهم مثل الطل شبه الرب الغليظ وقال السدي قالوا يا موسى كيف لنا بما ههنا أين الطعام فأنزل الله عليهم المن فكان يسقط على شجرة الزنجبيل وقال قتادة كان المن ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل يسقط عليهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدى ذلك فسد ولم يبق حتى اذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لانه كان يوم عيد لا يشخص فيه لامر معيشته ولا يطلبه لشيء وهذا كله في البرية وقال الربيع بن أنس المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء أنسيته ثم يشربونه وقال وهب بن منبه وسئل عن المن فقال خبز رقاق مثل الذرة أو مثل النقي وقال أبو جعفر بن جرير حدثني محمد بن اسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا اسرائيل عن جابر عن عامر وهو الشعبي قال عسلكم هذا جزء من سبعين جزأ من المن وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انه العسل ووقع في شعر أمية بن أبي الصلت حيث قال فرأى الله انهم بمضيع * لا بذي مزرع ولا ممثورا فسناها عليهم غاديات * ويرى مزنهم خلايا وخورا عسلا ناطفا وماء فراتا * وحليبا ذا بهجة مزمورا

(١٦٠)

وكذا تناسخ الازمنة والقرون وقال ابن جرير معنى ما ننسخ ما ننقل من حكم آية الى غيره فنبدله ونغيره وذلك ان يحول الحلال حراما والحرام حلالا والمباح محظورا والمحظور مباحا ولا يكون ذلك الا في الامر والنهي والحظر والاطلاق والمنع والاباحة فاما الاخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة الى أخرى فكذلك معنى نسخ الحكم الى غيره انما هو تحويله الى غيره وسواء نسخ حكمها أو خطها اذ هي في كلتي حالتيها منسوخة انتهى وقد جعل علماء الاصول مباحث النسخ من جملة مقاصد ذلك الفن فلا نطول بذكره بل نحيل من أراد الاستيفاء عليه على كتابنا حصول المأمول من علم الاصول فليرجع اليه وقد اتفق أهل الاسلام على ثبوته سلفا وخلفا وهو جائز عقلا وواقع سمعا ولم يخالف في ذلك أحد الا من لا يعتد بخلافه ولا يؤبه بقوله وقد اشتهر عن اليهود أقماهم الله انكاره وهم محجوجون بما في التوراة فان الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة اني قد جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك واطلعت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه ثم قد حرم على موسى وعلى بني اسرائيل كثيرا من الحيوان وثبت في التوراة ان آدم كان يزوج الاخ من الاخت وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره وثبت فيها ان ابراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه ثم قال الله له لا تذبحه وان موسى عليه السلام أمر بني اسرائيل ان يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم وحرم عليهم العمل يوم السبت ولم يحرمه على من كان قبلهم ونحو هذا كثير في التوراة الموجودة بايديهم والقرآن الكريم نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والانجيل وغيرهما ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعا وانساؤها اذهابها من القلوب (أو ننساها) بفتح النون والسين والهمز ومعنى هذه القراءة نؤخرها عن النسخ من قولهم نسأت هذا الامر اذا أخرته قال ابن فارس ويقولون نسأ الله في أجلك وأنسأ الله أجلك وقد انتسأ القوم اذ تأخروا وتباعدوا ونسأتهم انا أي أخرتهم وقيل معناه نؤخر نسخ لفظها أي نتركه في أم الكتاب فلا يكون وقيل نذهبها عنكم لا تقرأ ولا تذكر وقرئ ننسها بضم النون من النسيان الذي بمعنى الترك أي نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها ومنه قوله تعالى نسوا الله فنسيهم أي تركوا عبادته فتركهم في العذاب وحكى الازهري ان معناه نأمر بتركها يقال

قال الخاطف هو السائل والحليب المزمور الصافى منه والفرض أن عبارات المفسرين متقاربة فى شرح المن فمنهم من فسره بالطعام ومنهم من فسره بالشراب والظاهر والله أعلم انه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد فالمن المشهور ان أكل وحده كان طعاما وحلاوة وان مزج مع الماء صار شرابا طيبا وان ركب مع غيره صار نوعا آخر ولكن ليس هو المراد من الآية وحده والدليل على ذلك قول البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير بن حريث عن سعيد ابن زيد رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن (١٦١) وماؤها شفاء للعين وهذا الحديث رواه

أنسيته الشئ أى أمرته بتركه ونسيته تركته وقال الزجاج ان القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك لا يقال أنسى بمعنى ترك قال وما روى عن ابن عباس أو ننسها أى نتركها لا نبدلها فلا يصح والذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى أو ننسها نمحها لكم تركها من نسى اذا ترك ثم تعديه وقد ثبت فى البخارى وغيره عن أنس ان الله أنزل فى الذين قتلوا فى بئر معونة ان بلغوا قومنا ان قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا ثم نسخ وهكذا ثبت فى مسلم وغيره عن أبى موسى قال كنا نقرأ سورة نشبهها فى الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير انى حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوفه الا التراب وكنا نقرأ سورة نشبهها باحدى المسبحات أولها سبح لله ما فى السموات فأنسيناها غير انى حفظت منها يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسئلوا عنها يوم القيامة وقد روى مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة ومنه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق وأحمد وابن حبان عن عمر (نأت بخير منها أو مثلها) أى نأت بما هو أنفع للناس منها فى العاجل والآجل أو فى احدهما أو بما هو مماثل لها من غير زيادة ومرجع ذلك الى اعمال النظر فى المنسوخ والناسخ فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم فى العاجل وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أنفع فى الآجل وقد يستويان فتحصل المماثلة وقال الشافعى الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة وتابعه على ذلك طائفة واستدل بهذه الآية وليس بصحيح والحق جواز نسخ الكتاب بالسنة والكلام فى هذا معروف فى أصول الفقه (ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير) هذه الآية تفيد أن النسخ من مقدوراته وان انكاره انكار للقدرة الالهية والخطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم والمراد هو وأمته وفيه دليل على جواز النسخ والاستفهام للتقرير وهكذا قوله (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض) أى له التصرف فيهما بالايجاد والاختراع ونفوذ الامر فى جميع مخلوقاته فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من أحكامه التى تعبدهم بها وشرعها لهم وقد يختلف ذلك باختلاف الاحوال والازمنة والاشخاص وهذا وان كان خطابا للنبى صلى الله عليه وآله وسلم لكنه فيه تكذيب لليهود المنكرين للنسخ (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) بينهما عموم وخصوص من وجه فان الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا عن المنصور وفيه اشارة الى تعلق الخطابين السابقين

الامام أحمد عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك وهو ابن عمير به وأخرجه الجماعة فى كتبهم الا أبا داود من طرق عن عبد الملك وهو ابن عمير به وقال الترمذى حسن صحيح ورواه البخارى ومسلم من رواية الحكم عن الحسن العرنى عن عمرو ابن حريث به وقال الترمذى حدثنا أبو عبيدة بن أبى السفر ومحمود بن غيلان قالا حدثنا سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين تفرد باخراجه الترمذى ثم قال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث محمد بن محمد بن عمرو والا من حديث سعيد بن عامر عنه وفى الباب عن سعيد بن زيد وأبى سعيد وجابر كذا قال وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من طريق آخر عن أبى هريرة فقال حدثنا أحمد بن الحسن ابن أحمد البصرى حدثنا أسلم بن سهل حدثنا القاسم بن عيسى حدثنا

طلحة بن عبد الرحمن عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين وهذا حديث غريب من هذا الوجه وطلحة بن عبد الرحمن هذا السلمى الواسطى يكنى بأبى محمد وقيل أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى روى عن قتادة أشياء لا يتابع عليها ثم قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة ان ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا الكمأة تجدرى الارض فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين

والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم وهذا الحديث قد رواه النسائي عن محمد بن بشار به وعنه عن غندر عن شعبة عن أبي بشر جعفر بن اياس عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة به وعن محمد بن بشار عن عبد الاعلى عن خالد الحذاء عن شهر بن حوشب بقصة الكمأة فقط وروى النسائي أيضا وابن ماجه من حديث محمد بن بشار عن أبي عبد الصمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد عن مطر الوراق عن شهر بقصة العجوة عند النسائي وبالقصتين عند ابن ماجه وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة فانه لم يسمع منه بدليل ما رواه النسائي في الوليمة عن علي بن الحسين الدرهمي عن عبد الاعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي هريرة قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يذكرون الكمأة وبعضهم يقول جدري الارض فقال الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين وروى عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر كما قال الامام أحمد حدثنا اسباط بن محمد حدثنا الاعمش عن جعفر بن اياس عن شهر بن حوشب عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم وقال النسائي في الوليمة أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر جعفر بن اياس عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين ثم رواه أيضا وابن ماجه من طرق عن الاعمش عن أبي بشر عن شهر عنهما به وقد رويا أعني النسائي وابن ماجه من حديث سعيد بن أبي سلمة كلاهما عن الاعمش عن جعفر بن اياس عن أبي نضرة عن أبي سعيد رواه النسائي وحديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين ورواه ابن مردويه عن أحمد بن عثمان عن عباس الدوري عن لاحق بن صواب عن عمار بن رزيق عن الاعمش كابن ماجه وقال ابن مردويه أيضا حدثنا أحمد بن عثمان حدثنا عباس الدوري حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الاحوص عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي سعيد الخدري قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كمأت فقال الكمأة من المن وماؤها

بالامة أيضا وهذا صنع من لا ولي لهم غيره ولا نصير سواه فعليهم ان يتلقوه بالقبول والامتثال والتعظيم والاجلال وقد ذهب جمهور أهل الاصول الى جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة وخالف في ذلك الشافعي وتابعه على ذلك طائفة واختلف المانعون فمنهم من منعه عقلا كالحرث المحاسبي وعبد الله بن سعيد القلانسي وهو رواية عن أحمد بن حنبل ومنهم من منعه سمعا كالشيخ أبي حامد الاسفرايني احتج الجمهور بان التكليف بمتواتر السنة كالتكليف بالآية القرآنية وبان ذلك قد وقع في هذه الشريعة المطهرة واحتج الآخرون بقوله تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها وتقرير الدلالة من وجهين أحدهما ان ما ينسخ به القرآن يجب أن يكون خيرا أو مثلا والسنة ليست كذلك ثانيهما انه قال نأت والضمير لله سبحانه فيجب ان لا ينسخ الا بما يأتي به الله وهو القرآن وأجاب الاولون عن ذلك بان المراد بقوله نأت بخير منها أو مثلها أي بحكم خير منها أو مثلها في حق المكلف باعتبار الثواب وهذا صحيح ولا يخالفه الضمير في قوله نأت فان القرآن والسنة جميعا من عند الله سبحانه قال الله تعالى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى والكلام في المسئلة طويل وهو مدون في الاصول بما لا يتسع المقام لبسطه فالحق الجواز واما نسخ الكتاب بما صح من آحاد السنة فقد منعه الجمهور لان الآحاد لا تفيد القطع والكتاب مقطوع به وذهب جماعة من متأخري الحنفية الى جواز نسخ القرآن بالخبر المشهور وقال في جمع الجوامع ان نسخ القرآن بالآحاد جائز غير واقع وقال أبو بكر الباقلاني والغزالي وأبو عبد الله البصري انه جائز في عصره صلى الله عليه وآله وسلم لا بعده وذهب جمع من الظاهرية الى جوازه ووقوعه وأقول ان النزاع ان كان في قطعية المتن فلا شك ان القرآن كذلك وما صح من آحاد السنة ليس بقطع وان كان النزاع في الدلالة فان كان القرآن المنسوخ عموما أو محتملا فدلالة ما صح من الآحاد والذي يصلح ان يكون محلا للنزاع هنا هو الثاني لا الاول على انه قد وقع نسخ القطعي بالظني فان استقبال بيت المقدس ثبت ثبوتا قطعيا متواترا ثم ان اهل قباء استداروا الى الكعبة وهم في الصلاة بخبر واحد ولم ينكر عليهم ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك ثبت نسخ الوصية للوالدين والاقربين بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لا وصية لوارث وكذلك نسخ قوله تعالى لا يحل لك النساء من بعد بقول عائشة رضي الله تعالى عنها ما توفي

شفاء للعين وأخرجه النسائي عن عمرو بن منصور عن الحسن بن الربيع به ثم ابن مردويه رواه أيضا عن عبد الله بن اسحق عن الحسن بن سلام عن عبيد الله بن موسى عن شيبان عن الاعمش به وكذا رواه النسائي عن أحمد بن عثمان بن حكيم عن عبيد الله بن موسى وقد روى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كما قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن ابراهيم حدثنا حمدون بن أحمد حدثنا جويرة بن أشرس حدثنا حماد عن شعيب بن الحبحاب عن أنس ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تداروا في الشجرة التي اجتثت من فوق الارض مالها من قرار فقال بعضهم نحسبه الكمأة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وفيها شفاء من السم وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة وقد روى الترمذي والنسائي من طريقه شيأ من هذا والله أعلم وروى عن شهر عن ابن عباس كما رواه النسائي أيضا في الوليمة عن أبي بكر أحمد بن علي ابن سعيد عن عبد الله بن عون الخراز عن أبي عبيدة الحداد عن عبد الجليل بن عطية عن عبد الله ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين فقد اختلف كما ترى فيه على شهر بن حوشب ويحتمل عندي انه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم فان الاسانيد اليه جيدة وهو لا يتعمد الكذب وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم من رواية سعيد بن زيد رضي الله عنه وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس السلوى طائر يشبه بالسماني كانوا يأكلون منه وقال السدي في خبره ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة السلوى طائر يشبه السماني وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا قرة بن خالد عن جهضم عن ابن عباس قال السلوى هو السماني وكذا قال مجاهد والشعبي والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى وعن عكرمة اما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك وقال قتادة السلوى كان من طير الى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدى فسد ولم يبق عنده حتى اذا كان

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما يشاء ونسخ قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحي الي محرما الآية بنهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن أكل كل ذي ناب والكلام في هذا يطول ومحله مطولات كتب الاصول فان استيفاء الكلام في هذه المسئلة يحتاج الى رسالة مستقلة والله أعلم وعدة الآيات المنسوخات قد بلغها بعضهم الى خمسمائة آية لكن قال الشيخ أحمد ولي الله الدهلوي وعلى ما حررنا لا يتعين النسخ الا في خمس آيات انتهى وعندي ان في هذه الخمس نظرا أيضا كما بينته في دليل الطالب وأما الاحاديث المنسوخة فعدتها عند ابن الجوزي أحد وعشرون حديثا وعند الحافظ ابن القيم أقل من عشرة أحاديث كما أفاد في اعلام الموقعين وقال النسخ الواقع في الاحاديث الذي أجمعت عليه الامة لا يبلغ عشرة أحاديث البتة ولا شطرها انتهى وقال الزرقاني في شرح الموطا مذهب المحدثين والاصوليين والفقهاء انه متى أمكن الجمع بين الحديثين وجب الجمع انتهى وفي الدراسات لمحمد معين قد تكلمت على بطلان النسخ الاجتهادي في أجزاء مفردة سميتها غاية الفسخ لمسئلة النسخ وهو الاكثر في دعاوى المتأخرين لاسيما الفقهاء الحنفيين والنسخ المعول عليه عند المتقدمين هو المرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما غيره فتعدية وتجاوز من التعبد الى التشريع انتهى وتفصيل ذلك ذكرناه في افادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ (أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أم بمعنى بل وفي هذا توبيخ وتقريع أي سؤالا مثل ما سئل موسى حيث سألوه أن يريهم الله جهرة الى غير ذلك وسألوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتي بالله والملائكة قبيلا ورويت في سبب نزول هذه الآية روايات لا نطول بذكرها (ومن يتبدل الكفر بالايمان) أي يستبدل ويأخذه بدله بترك النظر في الآيات البينات واقتراح غيرها والباء للعوض كما استظهره السفاقسي لا للسبب كما قال به أبو البقاء قيل خطاب للمؤمنين أعلمهم ان اليهود أهل غش وحسد (فقد ضل سواء السبيل) من اضافة الصفة الى الموصوف أي الطريق المستوى أي المعتدل أي الحق ومعنى ضل أخطأ وسواء هو الوسط من كل شئ قاله أبو عبيدة ومنه قوله تعالى في سواء الجحيم وقال الفراء السواء القصد أي ذهب عن قصد الطريق وسمته أي طريق طاعة الله (ود كثير من أهل الكتاب) أي تمنى كثير من اليهود فيه اخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنتهم وردهم عن الاسلام

يوم سادسة ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسة ويوم سابعة لانه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشئ ولا يطلبه وقال وهب بن منبه السلوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت الى سبت وفى رواية عن وهب قال سألت بنو اسرائيل موسى عليه السلام لحما فقال الله لاطعمنهم من أقل لحم يعلم فى الارض فأرسل عليهم ريحا فاذرت عندمساكنهم السلوى وهو السمانى مثل ميل فى ميل قيد رمح فى السماء فجمعوا الغد فتن اللحم وخبز الخبز وقال السدى لما دخل بنو اسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام كيف لنا بما ههنا أين الطعام فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على الشجر الزنجبيل والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه فكان يأتى احدهم فينظر الى الطير فان كان سمينا ذبحه والا أرسله فاذا سمن أتاه فقالوا هذا الطعام فأين الشراب فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتى عشرة عينا فشرب كل سبط من عين فقالوا هذا الشراب فأين الظل فظلل عليهم الغمام فقالوا هذا الظل فأين اللباس فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى وقوله واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين وروى عن وهب بن منبه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدى وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج قال قال ابن عباس خلق لهم فى التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن قال ابن جريج فكان الرجل اذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد الا أنهم كانوا يأخذون فى يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسدا قال ابن عطية السلوى كما طيرا باجماع المفسرين وقد غلط الهذلى فى قوله انه العسل وأنشد فى ذلك مستشهدا

وقاسمها بالله جهدا لانتم * ألذ من السلوى اذا ما أثورها

قال فظن ان للسلوى عسلا قال القرطبى دعوى الاجماع لا يصح لان المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير قال انه العسل واستدل ببيت الهذلى هذا وذكر انه كذلك فى لغة كنانة لانه يسلى به ومنه عين سلوان وقال الجوهرى السلوى العسل واستشهد ببيت الهذلى أيضا والسلوانة بالضم خرزة كانوا يقولون اذا صب عليها ماء المطر

والتنكيل عليهم فى دينهم (لو) مصدرية (يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم) يحتمل أن يتعلق بقوله ودّ أى ودوا ذلك من عند أنفسهم ويحتمل ان يتعلق بقوله حسدا أى حسدا ناشئا من عند أنفسهم وهو علة لقوله ودّ والحسد تمنى زوال نعمة الانسان (من بعد ما تبين لهم الحق) يعنى فى التوراة ان قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودينه حق لا يشكون فيه فكفروا به بغيا وحسدا (فاعفوا واصفحوا) والعفو ترك المؤاخذة بالذنب والصفح ازالة أثره من النفس صفحت عن فلان اذا أعرضت عن ذنبه وقد ضربت عنه صفحا اذا أعرضت عنه وقيل هما متقاربان والعطف على هذا للتأكيد وحسنه تغاير اللفظين وفيه الترغيب فى ذلك والارشاد اليه وقد نسخ ذلك بالامر بالقتال قاله أبو عبيدة (حتى يأتى الله بأمره) أى افعلوا ذلك الى أن يأتى الكم الامر من الله سبحانه فى شأنهم بما يختاره ويشاؤه وما قد قضى به فى سابق علمه وهو قتل من قتل منهم واجلاء من أجلى وضرب الجزية على من ضربت عليه والسلام على من أسلم (ان الله على كل شئ قدير) فيه وعيد وتهديد لهم عظيم (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير) حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وتقديم الخير الذى يثابون عليه حتى يمكن الله لهم وينصرهم على المخالفين لهم (تجدوه عند الله) يعنى ثوابه وأجره حتى التمرة واللقمة مثل أحد (ان الله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه شئ من قليل الاعمال وكثيرها وفيه ترغيب فى الطاعات واعمال البر وزجر عن المعاصى (وقالوا) أى أهل الكتاب من اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى) قال الفراء يجوز أن يكون هودا بمعنى يهوديا وأن يكون جمع هائد والنصارى جمع نصران أو نصرى والمراد يهود المدينة ونصارى نجران وقدمت اليهود على النصارى لنظر التقدم مهم زمانا قيل فى هذا الكلام حذف وأصله وقالت اليهود لن يدخل الجنة الا من كان يهوديا وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا هكذا قال كثير من المفسرين وسبقهم الى ذلك بعض السلف وظاهر النظم القرآنى ان طائفتى اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول وانهم يختصون بذلك دون غيرهم ووجه القول بأن فى الكلام حذفا ما هو معلوم من ان كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الاخرى وتنفى عنها انها على شئ من الدين فضلا عن دخول الجنة

فشربها العاشق سلى قال الشاعر شربت على سلوانة ماء مزنة * فلا وجديد العيش يامى ما أسلوا واسم ذلك الماء السلوان وقال بعضهم السلوان دواء يشفى الحزين فيسلو والاطباء يسمونه مفرح قالوا والسلوى جمع بلفظ الواحد أيضا كما يقال سمانى للمفرد والجمع وويلى كذلك وقال الخليل واحدة وأنشد وانى لتعرونى لذكراك هزة * كما انتفض السلواة من بلل القطر وقال الكسائى السلوى واحدة وجمعه سلاوى نقله كله القرطبى وقوله تعالى كلوا من طيبات ما رزقناكم أمر اباحة وارشاد وامتنان وقوله تعالى وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أى أمرناهم (١٦٥) بالاكل مما رزقناهم وان يعبدوا كما قال كلوا من رزق ربكم واشكروا له فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم على سائر أصحاب الانبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه فى اسفاره وغزواته منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا ايجاد أمر مع ان ذلك كان سهلا على النبى صلى الله عليه وسلم ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملؤا كل وعاء معهم وكذا لما احتاجوا الى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فامطرتهم فشربوا وسقوا الابل وملؤا أسقيتهم ثم نظروا فاذا هى لم تجاوز العسكر فهذا هو الاكمل فى اتباع الشئ مع قدر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم (واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) يقول تعالى لائما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الارض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام فأمروا بدخول الارض المقدسة التى هى ميراث لهم عن أبيهم اسرائيل وقتال من فيها من العمالق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى فى سورة المائدة ولهذا كان أصح القولين ان هذه البلدة هى بيت المقدس كما نص على ذلك السدى والربيع بن أنس وقتادة وأبو

كما فى هذا الموضع فانه قد حكى الله عن اليهود انهم قالت ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ (تلك أمانيهم) أى شهواتهم الباطلة التى تمنوها على الله بغير حق والامانى جمع أمنية قد تقدم تفسيرها والاشارة بقوله تلك الى ما تقدم لهم من الامانى التى آخرها انه لا يدخل الجنة غيرهم وقيل ان الاشارة الى هذه الامنية الآخرة والتقدير مثال تلك الامنية أمانيهم على حذف المضاف ليطابق أمانيهم (قل هاتوا) يقال للمفرد المذكر هات وللمؤنث هاتى وهو اسم فعل بمعنى احضر وقيل اسم صوت بمعنى هاتى التى بمعنى احضر وقيل فعل أمر وهذا هو الصحيح (برهانكم) أى حجتكم على دعواكم ان الجنة لا يدخلها الا من كان يهوديا أو نصرانيا دون غيرهم والبرهان الدليل الذى يحصل عنده اليقين قال ابن جرير طلب الدليل هنا يقتضى اثبات النظر ويرد على من ينفيه والبرهان مشتق من البره وهو القطع ومنه برهة من الزمان أى القطعة منه وقيل نونه أصلية لثبوتها فى برهن يبرهن برهنة والبرهنة البيان ووزنه فعلال لا فعلن (ان كنتم صادقين) أى فى تلك الامانى المجردة والدعاوى الباطلة قال الرازى دلت الآية على ان المدعى سواء ادعى نفيا واثباتا فلا بد له من الدليل والبرهان وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد انتهى ثم رد عليهم فقال (بلى) وهو اثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة أى ليس كما تقولون بل يدخلها (من أسلم وجهه لله) أى استسلم وقيل أخلص وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الانسان ولانه موضع السجود ومجمع الحواس والمشاعر الظاهرة وفيه يظهر العز والذل وقيل ان العرب تخبر بالوجه عن جملة الشئ وان المعنى هنا الوجه وغيره وقيل المراد بالوجه هنا المقصد أى من أخلص مقصده ومجموع الشرط والجزاء رد على أهل الكتاب وابطال لتلك الدعوى (وهو محسن) موحد أى متبع فى عمله لله (فله أجره عند ربه) أى ثواب عمله وهو الجنة (ولا خوف عليهم) أى فى الآخرة وامانى الدنيا فالمؤمنون أشد خوفا وحزنا من غيرهم لاجل خوفهم من العاقبة (ولا هم يحزنون) على ما فاتهم من الدنيا أو للموت (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ) قاله رافع بن حرملة (وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه اثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم قيل نزلت فى يهود المدينة ونصارى نجران تناظروا عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم وارتفعت أصواتهم

مسلم الاصفهانى وغيره واحد وقد قال الله تعالى حاكيا عن موسى يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا الآيات وقال آخرون هى أريحاء ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد وهذا بعيد لانها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء وأبعد من ذلك قول من ذهب الى انها مصر حكاه الرازى فى تفسيره والصحيح الاول انها بيت المقدس وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح ولما فتحوها أمروا (١٦٦) ان يدخلوا الباب باب البلد سجدا أى شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر وردّ بلدهم عليهم وانقاذهم من التيه والضلال قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس انه كان يقول فى قوله تعالى وادخلوا الباب سجدا أى ركعا وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا سفيان عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله وادخلوا الباب سجدا قال ركعا من باب صغير رواه ابن أبى حاتم من حديث سفيان به ورواه ابن أبى حاتم من حديث سفيان وهو الثورى به وزاد فدخلوا من قبل استاههم وقال الحسن البصرى أمروا ان يسجدوا على وجوههم حال دخولهم واستبعده الرازى وحكى عن بعضهم ان المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته وقال خصيف قال عكرمة قال ابن عباس كان الباب قبل القبلة وقال ابن عباس ومجاهد والسدى وقتادة والضحاك هو باب الحطة من باب ايلياء بيت المقدس وحكى الرازى عن بعضهم انه عنى بالباب جهة من جهات القبلة وقال خصيف قال عكرمة قال ابن عباس فدخلوا على شق وقال السدى عن أبى سعيد الازدى عن أبى الجاز الكندى عن عبد الله بن مسعود قيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا مقنعى رؤسهم أى رافعى رؤسهم خلاف ما أمروا وقوله تعالى وقولوا حطة قال الثورى عن الاعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وقولوا حطة قال مغفرة استغفروا وروى عن عطاء والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه وقال الضحاك عن ابن عباس وقولوا حطة قال قولوا هذا الامر حق كما قيل لكم وقال عكرمة قولوا لا اله الا الله وقال الاوزاعى كتب ابن عباس الى رجل قد سماه فسأله عن قوله تعالى وقولوا حطة فكتب

وقالوا هذا القول وفيه أن كل طائفة ينفى الخير عن الاخرى ويتضمن ذلك اثبات ذلك لنفسها تحجر الرحمة الله سبحانه قال فى الكشاف ان الشئ هو الذى يصح ويعتد به قال وهذه مبالغة عظيمة لان المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشئ واذا نفى اطلاق اسم الشئ عليه فقد بولغ فى ترك الاعتداد به الى ما ليس بعده وهكذا قولهم أقل من لا شئ (وهم يتلون الكتاب) أى التوراة والانجيل وليس فيهما هذا الاختلاف فكان حق كل منهم أن يعترف بحقية دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه فان كتب الله تعالى متصادقة وقيل المراد جنس الكتاب وفى هذا أعظم توبيخ وأشد تقريع لان الوقوع فى الدعاوى الباطلة والتكلم بما ليس عليه برهان هو وان كان قبيحا على الاطلاق لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله أشد قبحا وأفظع جرما وأعظم ذنبا (كذلك) أى مثل ذلك الذى سمعت به بعينه لا قولا مغايرا له (قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) المراد بهم كفار العرب الذين لا كتاب لهم قالوا مثل مقالة اليهود اقتداء بهم لانهم جهلة لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون انه من أهل العلم وقيل المراد بهم طائفة من اليهود والنصارى وهم الذين لا علم عندهم وقال عطاء هم أمم كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب قالوا فى أنبيائهم انهم ليسوا على شئ (فالله يحكم بينهم يوم القيامة) أى بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين أخبر سبحانه بأن هو المتولى لفصل هذه الخصومة التى وقع فيها الخلاف عند الرجوع اليه فيعذب من يستحق التعذيب وينجى من يستحق النجاة قال الرازى واعلم ان هذه الواقعة بعينها قد وقعت فى امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فان كل طائفة تكفر الاخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن انتهى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على ان هذا الظلم غير متناه وانه بمنزلة لا ينبغى أن يلحقه سائر أنواع الظلم أى لا أحد أظلم ممن يمنع مساجد الله أى من يأتى اليها للصلاة والتلاوة والذكر وتعليمه (وسعى فى خرابها) قال أبو البقاء الخراب اسم مصدر بمعنى التخريب وقال غيره هو مصدر خرب المكان يخرب خرابا وهو هنا السعى فى هدمها ورفع بنيانها ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التى وضعت لها فيكون أعم من قوله ان يذكر فيها اسمه فيشمل جميع ما يمنع من الامور التى بنيت لها المساجد لتعلم العلم وتعليمه والتعود للاعتكاف وانتظار الصلاة ويجوز أن يراد ما هو أعم من الامرين من باب عموم المجاز

الله أن أقروا الذنب وقال الحسن وقتادة أى احطط عنا خطايانا نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين وقال هذا جواب الامر أى اذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات وحاصل الامر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وان يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها والشكر على النعمة عندها والمبادرة الى ذلك من المحبوب عند الله تعالى كما قال تعالى اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر وفسره ابن عباس بانه نعى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجله فيها وأقره على ذلك عمر رضى الله عنه ولا منافاة بين ان يكون قد أمر بذلك عند ذلك ونعى اليه روحه الكريمة أيضا ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدا عند النصر كما روى انه كان يوم الفتح فتح مكة داخلا اليها من الثنية العليا وانه لخاضع لربه حتى ان عثنونه ليمس مورك رحله شكرا لله على ذلك ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثمانى ركعات وذلك ضحى فقال بعضهم هذه صلاة الضحى وقال آخرون بل هى صلاة الفتح فاستحبوا للامام وللامير اذا فتح بلدا أن يصلى فيه ثمانى ركعات عند أول دخوله كما فعل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لما دخل ايوان كسرى صلى فيه ثمانى ركعات والصحيح انه يفصل بين كل ركعتين بتسليم وقيل يصليها كلها بتسليم واحد والله أعلم وقوله تعالى فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم قال البخارى حدثنى محمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قيل لبنى اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا حطة حبة فى شعرة ورواه النسائى عن محمد بن اسمعيل بن ابراهيم عن عبد الرحمن به موقوفا وعن محمد بن عبيد بن محمد عن ابن المبارك بعضه مسندا فى قوله تعالى حطة قال فبدلوا وقالوا حبة وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه انه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله لبنى اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا حبة فى شعرة وهذا حديث صحيح رواه البخارى عن اسحق بن نصر ومسلم

المجاز كما قيل فى قوله تعالى انما يعمر مساجد الله (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين) هذا استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى ما كان ينبغى للمانعين دخولها فى جميع الاحوال الا حال خوفهم وخشوعهم وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى وزيارتهم قال ابن عباس لم يدخلها بعد عمارتها رومى ولا نصرانى الا خائفا ان علم به قتل وقيل أخيفوا بالجزية والقتل فالجزية على الذمى والقتل على الحربى وقيل خوفهم هو فتح مدائنهم الثلاث قسطنطينية وروميه وعمورية والاول أولى وفيه ارشاد للعباد من الله عز وجل انه ينبغى لهم ان يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد وبين كافر وكافر كما يفيده عموم اللفظ ولا ينافيه حصول السبب الخاص وان يجعلوهم بحالة اذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من ان يفطن لهم أحد من المسلمين فينزلون بهم ما يوجب الاهانة والاذلال وليس فيه الاذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم بل هو كناية عن المنع لهم منا من دخول مساجدنا وقيل معناه ما كان الحق ان يدخلوها الا خائفين من المؤمنين ان يبطشوا بهم فضلا ان يمنعوهم منها أو ما كان لهم فى علم الله وقضائه فيكون وعدا للمؤمنين بالنصر واستخلاص المساجد منهم وقد أنجز وعده (لهم فى الدنيا خزى) يعنى الصغار والذل والقتل والسبى وقيل هو ضرب الجزية عليهم واذلالهم وقيل غير ذلك وقد تقدم تفسيره (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) يعنى النار قال ابن عباس ان قريشا منعوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام يعنى فى ابتداء الاسلام فأنزل الله ومن أظلم الآية نزلت فى خراب بيت المقدس على يد فلطيوس الرومى ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون فى عهد عمر رضى الله تعالى عنه وقال السدى هم الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس وليس فى الارض رومى يدخله اليوم الا وهو خائف ان يضرب عنقه وقد أخيف باداء الجزية فهو يؤديها وأما خزيهم فى الدنيا فانه اذا قام المهدى وفتحت القسطنطينية قتلهم فذلك الخزى وعن قتادة أنهم الروم وعن كعب أنهم النصارى لما ظهروا على بيت المقدس حرقوه وفيه انه لا خلاف بين أهل العلم بالسير ان عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح بدهر طويل والنصارى كانوا بعد المسيح فكيف يكونون مع بختنصر فى تخريب بيت المقدس وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال هم المشركون حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وآله

عن محمد بن رافع والترمذي عن عبد الرحمن بن حميد كلهم عن عبد الرزاق به وقال الترمذي حسن صحيح وقال محمد بن اسحق كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دخلوا الباب الذي أمروا ان يدخلوا فيه سجدا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعيرة وقال أبو داود وحدثنا أحمد بن صالح وحدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الله بن وهب حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله (١٦٨) عليه وسلم قال الله لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ثم قال أبو داود وحدثنا أحمد بن مسافر حدثنا ابن أبي فديك عن هشام بمثله هكذا رواه منفردا به في كتاب الحروف مختصرا وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا ابراهيم بن مهدي حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزاز حدثنا محمد بن اسمعيل بن أبي فديك عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان من آخر الليل أجزنا في ثنية يقال لها ذات الحنظل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مثل هذه الثنية الليلة الا كمثل الباب الذي قال الله لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وقال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن البراء سيقول السفهاء من الناس قال اليهود قيل لهم ادخلوا الباب سجدا قال ركعا وقولوا حطة أي مغفرة فدخلوا على استاههم وجعلوا يقولون حنطة حمراء فيها شعيرة فذلك قول الله تعالى فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم وقال الثوري عن السدي عن أبي سعد الازدي عن أبي الكنود عن ابن مسعود وقولوا حطة فقالوا حنطة حبة حمراء فيها شعيرة فأنزل الله فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم وقال أسباط عن السدي عن مرة عن ابن مسعود انه قال انهم قالوا هطا سمعاثا أزبة مزبافهي بالعربية حبة حنطة حمراء منقوبة فيها شعرة سوداء فذلك قوله تعالى فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم وقال الثوري عن الاعمش عن المنهال عن سعيد عن ابن عباس في قوله تعالى ادخلوا الباب سجدا قال ركعا من باب صغير فدخلوا من قبل استاههم وقالوا حنطة فذلك قوله تعالى فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم وهكذا

وسلم عن البيت يوم الحديبية قال أبو صالح ليس للمشركين ان يدخلوا المسجد الا خائفين عن قتادة قال يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وقال مساجد الله وانما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام لان الحكم عام وان كان السبب خاصا ورجح الطبري القول الاول وقال ان النصارى هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس بدليل ان مشركي العرب لم يسعوا في خراب المسجد الحرام وان كانوا قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الاوقات من الصلاة فيه وأيضا الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذم أهل الكتاب ولم يجر لمشركي مكة ذكر ولا للمسجد الحرام فتعين ان يكون المراد بهذه بيت المقدس ورجح غيره القول الثاني بدليل ان النصارى يعظمون بيت المقدس أكثر من اليهود فكيف يسعون في خرابه وهو موضع حجهم قال الرازي وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب الى رعاية النظم وهو انه لما حولت القبلة الى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة الى الكعبة ولعلهم سعوا أيضا في تخريب الكعبة وفي تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهذا التأويل أولى مما قبله انتهى وفي أحكام القرآن انه كل مسجد قال وهو الصحيح لان اللفظ عام ورد بصيغة الجمع فتخصيصه ببعض المساجد أو ببعض الازمنة محال قلت وهذا هو الصواب فان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ويدخل فيه السبب الخاص دخولا أوليا (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) المشرق موضع الشروق والمغرب موضع الغروب وهما اسما مكان وقيل اسما مصدر أي الاشراق والاغراب أي هما ملك لله وما بينهما من الجهات والمخلوقات فيشمل الارض كلها أي أي جهة تستقبلونها فهناك وجه الله أي المكان الذي يرتضى لكم استقباله وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه اليها بقوله سبحانه فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره قال في الكشاف والمعنى انكم اذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس فقد جعلت لكم الارض مسجدا فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها وافعلوا التولية فيها فان التولية ممكنة في كل مكان لا يختص أماكنها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان انتهى وهذا التخصيص لا وجه له فان اللفظ أوسع منه وان كان المقصود به بيان السبب فلا بأس وأين هنا اسم شرط وهي ظرف مكان وتكون اسم استفهام أيضا فهي مشترك

روى عن عطاء ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن رافع وحاصل ماذكره المفسرون ومادل عليه السياق انهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فامروا أن يدخلوا سجدا فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤسهم وأمروا أن يقولوا حطة أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزؤا فقالوا حنطة فى شعيرة وهذا فى غاية مايكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته ولهذا قال فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون وقال الضحاك عن ابن عباس (١٦٩) كل شئ فى كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب وهكذا روى عن مجاهد وأبى مالك والسدى والحسن وقتادة انه العذاب وقال أبو العالية الرجز الغضب وقال الشعبى الرجز اما الطاعون واما البرد وقال سعيد بن جبير هو الطاعون وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن ابراهيم بن سعد يعنى ابن أبى وقاص عن سعد ابن مالك واسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهم قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعون رجز عذب به من كان قبلكم وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى به وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث حبيب بن أبى ثابت اذا سمعتم الطاعون بارض فلا تدخلوها الحديث قال ابن جرير أخبرنى يونس بن عبد الاعلى عن ابن وهب عن يونس عن الزهرى وأخبرنى عامر بن سعد بن أبى وقاص عن اسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الامم

بينهما وثم اسم اشارة للمكان البعيد خاصة مثل هنا وقال أبو البقاء نائب عن هنالك وليس بشئ (ان الله واسع عليم) فيه ارشاد الى سعة رحمته وأنه يوسع على عباده فى دينهم ولا يكلفهم ماليس فى وسعهم وقيل واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شئ كما قال وسع كل شئ علما وقال الفراء الواسع الجواد الذى يسع عطاؤه كل شئ عن ابن عباس قال أول مانسخ من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة قال الله تعالى ولله المشرق والمغرب الآية فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه الله الى البيت العتيق ونسخها فقال ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر قال كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يصلى على راحلته تطوعا أينما توجهت به ثم قرأ ابن عمر هذه الآية أينما تولوا فثم وجه الله وقال فى هذا أنزلت هذه الآية وأخرج نحوه عنه ابن جرير والدارقطنى والحاكم وصححه وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يصلى على راحلته قبل المشرق فاذا أراد ان يصلى المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى وأخرج عبد بن حميد والترمذى وضعفه وابن ماجه وابن جرير وغيرهم عن عامر بن ربيعة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الاحجار فيعمل مسجدا فيصلى فيه فلما ان أصبحنا اذا نحن قد صلينا على غير القبلة فقلنا يارسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فانزل الله ولله المشرق والمغرب الآية فقال مضت صلاتكم عن ابن عباس قال قبلة الله أينما توجهت شرقا أو غربا وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال مابين المشرق والمغرب قبلة أخرجه ابن أبى شيبة والترمذى وصححه وابن ماجه (وقالوا اتخذ الله ولدا) القائل هم اليهود والنصارى فاليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله وقيل هم كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله أخرج البخارى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال قال الله تعالى كذبنى ابن آدم وشتمنى فاما تكذيبه اياى فيزعم أنى لا أقدر أعيده كما كان وأما شتمه اياى فقوله لى ولد فسبحانى ان أتخذ صاحبة أو ولدا وأخرج نحوه أيضا من حديث أبى هريرة وفى الباب أحاديث والمراد بقوله (سبحانه) تنزيه الله تعالى عما نسبوا اليه من اتخاذ الولد وفيه رد على

(٢٢ ل - فتح البيان)

قبلكم وهذا الحديث أصله مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم بن أبى النضر عن عامر بن سعد بنحوه (واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين) يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى اجابتى لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاه لكم وتيسيرى لكم الماء واخراجه لكم من حجر يحمل معكم وتفجيرى الماء لكم منه من ثنتى عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذى

أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد واعبدوا الذي سخر لكم ذلك ولا تعثوا في الارض مفسدين ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها وقد بسطه المفسرون في كلامهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية منه ثلاث عيون وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة الا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الاول وهذا قطعة من الحديث الذي رواه النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وهو حديث الفتون الطويل وقال (١٧٠) عطية العوفي وجعل لهم حجرا مثل رأس الثور يحمل على ثور فاذا نزلوا منزلا وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فاذا سار واحملوه على ثور فاستمسك الماء وقال عثمان ابن عطاء الخراساني عن أبيه كان لبني اسرائيل حجر فكان يضعه هرون ويضرب به موسى بالعصا وقال قتادة كان حجرا طوريا من الطور يحملونه معهم حتى اذا نزلوا ضربه موسى بعصاه وقال الزمخشري وقيل كان من رخام وكان ذراعا في ذراع وقيل مثل رأس الانسان وقيل كان من الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان يتقدان في الظلمة وكان يحمل على حمار قال وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع الى شعيب فدفعه اليه مع العصا وقيل هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل فقال له جبريل ارفع هذا الحجر فان فيه قدرة ولك فيه معجزة لحمله في مخلاته قال الزمخشري ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر وعن الحسن لم يأمره ان يضرب حجرا بعينه قال وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس فقالوا القيامة ان فقد موسى هذا الحجر عطشنا فأوحى الله اليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسها بالعصا لعلهم يعتبرون والله أعلم وقال يحيى بن النضر قلت لجويبر كيف علم كل أناس مشربهم قال كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا فينتضح من كل عين على رجل فيدعو ذلك الرجل سبطه الى تلك العين وقال الضحاك قال ابن عباس لما كان بنو اسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهارا وقال الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال ذلك في التيه ضرب لهم

القائلين بانه اتخذ ولدا لان اتخاذ الولد لبقاء النوع والله منزه عن الفناء والزوال (بل له ما في السموات والارض) أي بل هو مالك لما فيهما فكيف ينسب اليه الولد وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه والولد من جنسهم لا من جنسه ولا يكون الولد الا من جنس الوالد (كل له قانتون) أي مطيعون ومقرون له بالعبودية والقانت المطيع الخاضع أي كل من في السموات والارض كائنا ما كان من أولي العلم وغيرهم مطيعون له خاضعون لعظمته خاشعون لجلاله لا يستعصى شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته والقنوت في أصل اللغة القيام قال الزجاج فالخلق قانتون أي قائمون بالعبودية اما اقرارا واما ان يكونوا على خلاف ذلك فاثر الصنعة بين عليهم وقيل أصله الطاعة ومنه والقانتين والقانتات وقيل السكوت ومنه قوموا لله قانتين ولهذا قال زيد بن أرقم كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت وقوموا لله الآية فامرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام وقيل القنوت الصلاة والاولى ان القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة قيل هي ثلاثة عشر معنى وهي مبينة وقد نظمها بعض أهل العلم واختلف في حكم الآية فقيل هو خاص وقيل عام لان لفظة كل تقتضي الشمول والاحاطة (بديع السموات والارض) أبدع الشيء أنشأه لا عن مثال وكل من أنشأ ما لم يسبق اليه قيل له مبدع والاصل بديع سمواته أي بدعت لجيئها على شكل فائق حسن غريب (واذا قضى أمرا) أي أحكمه وأتقنه قال الازهري قضى في اللغة على وجوه مرجعها الى انقطاع الشيء وتمامه قيل هو مشترك بين معان يقال قضى بمعنى خلق ومنه فقضاهن سبع سموات وبمعنى أعلم ومنه وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب وبمعنى أمر ومنه وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبمعنى ألزم ومنه قضى عليه الفناء وبمعنى أوفاد ومنه فلما قضى موسى الاجل وبمعنى أراد ومنه فاذا قضى أمرا والتقدير اذا قضى أمرا يكون ويحصل فلفظ يكون المقدر هو العامل في اذا والامر واحد الامور وقد ورد في القرآن على أربعة عشر معنى الاول الدين ومنه حتى جاء الحق وظهر أمر الله الثاني بمعنى القول ومنه فاذا جاء أمرنا الثالث العذاب ومنه لما قضى الامر الرابع عيسى ومنه فاذا قضى أمرا أي أوجد عيسى عليه السلام الخامس القتل ومنه فاذا جاء أمر الله السادس فتح مكة فتربصوا حتى يأتي الله بامره السابع قتل بني قريظة وجلاء النضير ومنه فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بامره والثامن

موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها وقال مجاهد نحو قول ابن عباس وهذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الاعراف ولكن تلك مكية فلذلك كان الاخبار عنهم بضمير الغائب لان الله تعالى يقص على رسوله صلى الله عليه وسلم ما فعل بهم وأما في هذه السورة وهي البقرة فهي مدنية فلهذا كان الخطاب فيها متوجها اليهم وأخبر هناك بقوله فانبجست منه اثنتا عشرة عينا وهو أول الانفجار وأخبر ههنا بما آل اليه الحال آخرا وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا وذلك هناك والله أعلم وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية (١٧١) ومعنوية قد سأل عنها الزمخشري في تفسيره وأجاب عنها بما عنده والامر في ذلك قريب والله أعلم (واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سالتم) يقول تعالى واذكروا نعمتي عليكم في انزالي عليكم المن والسلوى طعاما طيبا نافعا هنيأ سهلا واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالاطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم قال الحسن البصري فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه وكانوا قوما أهل اعداس وبصل وبقل وفوم فقالوا يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها وانما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى لانه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو ما كل واحد فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة

القيامة ومنه أتى أمر الله التاسع القضاء ومنه يدبر الامر العاشر الوحي ومنه ينزل الامر بينهن والحادي عشر أمر الخلائق ومنه ألا الى الله تصير الامور والثاني عشر النصر ومنه هل لنا من الامر من شئ والثالث عشر الذنب ومنه فذاقت وبال أمرها والرابع عشر الشأن ومنه وما أمر فرعون برشيد هكذا أورد هذه المعاني باطول من هذا بعض المفسرين وليس تحت ذلك كثير فائدة فاطلاقه على الامور المختلفة لصدق اسم الامر عليها (فانما يقول له كن فيكون) الظاهر في هذا المعنى الحقيقي وانه يقول سبحانه هذا اللفظ وليس في ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله ومنه قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيأ ان يقول له كن فيكون وقال تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون وقال وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وقد قيل ان ذلك مجاز وانه لا قول وانما هو قضاء يقضيه فعبر عنه بالقول وقال البيضاوي ليس المراد حقيقة أمر وامتثال بل تمثيل حصول ما تعلقت به ارادته بلا مهلة لطاعة المأمور المطيع بلا وقف انتهى وهذا من أنفاسه الفلسفية وكم له من أشباه ذلك وأمثاله (وقال الذين لا يعلمون) قيل هم اليهود وقيل النصارى ورجحه ابن جرير لانهم المذكورون في الآية وقيل مشركو العرب وعليه أكثر المفسرين (لولا) حرف تحضيض أي هلا (يكلمنا الله) مشافهة من غير واسطة بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فنعلم انه نبي أو بواسطة الوحي الينا الا اليك وهذا منهم استكبار وتعنت (أو تأتينا) لذلك (آية) أي علامة على نبوته وهذا منهم جحود (كذلك) أي مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد (قال الذين من قبلهم) قيل هم اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب أو الامم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود والنصارى أو اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى (مثل قولهم) وذلك ان اليهود سألوا موسى ان يريهم الله جهرة وان يسمعهم كلام الله وسألوه من الآيات ما ليس لهم مسئلته (تشابهت قلوبهم) أي في التعنت والعمى والعناد والاقتراح وقال الفراء في اتفاقهم على الكفر والا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة (قد بينا الآيات) أي نزلناها بينة بان جعلناها كذلك في أنفسها كما في قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل لا أنا بيناها بعد ان لم تكن بينة (لقوم يوقنون) أي يعترفون بالحق وينصفون في القول ويذعنون لاوامر الله سبحانه لكونهم مصدقين له سبحانه

وأما الفوم فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء وكذا فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم عنه بالثوم وكذا الربيع بن أنس وسعيد بن جبير وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن رافع حدثنا أبو عمارة يعقوب بن اسحق البصري عن يونس عن الحسن في قوله وفومها قال قال ابن عباس الثوم قال وفي اللغة القديمة فوموا لنا بمعنى اختبزوا قال ابن جرير فان كان ذلك صحيحا فانه من الحروف المبدلة كقولهم وقعوا في عاثور شر وعافور شر وأثافي وأثاثي ومغافير ومغاثير وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما والله أعلم وقال آخرون الفوم الحنطة وهو البر الذي يعمل منه الخبز قال ابن أبي

حاتم حدثنا يونس بن عبد الاعلى قراءة أنبأنا ابن وهب قراءة حدثني نافع بن أبي نعيم ان ابن عباس سئل عن قول الله وفومها ما فومها قال الحنطة قال ابن عباس أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول

قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا * وردا المدينة عن زراعة فوم وقال ابن جرير حدثنا علي بن الحسن حدثنا مسلم الجهني حدثنا عيسى بن يونس عن رشيد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس في قول الله تعالى وفومها قال الفوم الحنطة بلسان بني هاشم وكذا قال علي بن أبي طلحة والضحاك عن ابن عباس وعكرمة عن ابن عباس ان الفوم الحنطة وقال سفيان الثوري عن ابن جريج عن مجاهد وعطاء وفومها قالا وخبزها وقال هشيم عن يونس عن الحسن وحصين عن أبي مالك وفومها قال الحنطة وهو قول عكرمة والسدي والحسن البصري وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم فالله أعلم وقال الجوهري الفوم الحنطة وقال ابن دريد الفوم السنبلة وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز قال وقال بعضهم هو الحمص لغة شامية ومنه يقال لبائعه فامي مغير عن فومي قال البخاري وقال بعضهم الحبوب التي تؤكل كلها فوم * وقوله تعالى قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الاطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع * وقوله تعالى اهبطوا مصرا هكذا هو منون مصروف مكتوب بالالف في المصاحف الائمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف قال ابن جرير ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لاجماع المصاحف على ذلك وقال ابن عباس اهبطوا مصرا قال مصرا من الامصار رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد البقال سعيد بن المرزبان عن عكرمة عنه قال وروى عن السدي وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك وقال ابن جرير وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود اهبطوا مصر من غير اجراء يعني من غير صرف ثم روى عن أبي العالية والربيع بن أنس انهما فسرا ذلك بمصر فرعون وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والربيع وعن الاعمش أيضا قال ابن جرير ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الاجراء أيضا ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى قواريرا قواريرا ثم توقف في المراد ما هو أمصر

مؤمنين بآياته متبعين لما شرعه لهم (انا أرسلناك بالحق) أي بالصدق وقال ابن عباس بالقرآن وقيل بالاسلام وقيل معناه لم نرسلك عبثا بل أرسلناك بالحق (بشيرا) أي مبشر الاوليائي وأهل طاعتي بالثواب العظيم (ونذيرا) أي منذرا ومخوفا لاعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الاليم (ولا تسئل عن اصحاب الجحيم)) قرأ الجمهور بالرفع مبنيا للمجهول أي حال كونك غير مسؤل وقرئ بالرفع مبنيا للمعلوم قال الاخفش ويكون في موضع الحال عطفا على بشيرا ونذيرا أي حال كونك غير سائل عنهم لان علم الله بكفرهم بعد انذارهم يغني عن سؤاله عنهم وقرأ نافع ولا تسأل بالجزم والمعنى ولا يصدر منك السؤال عن هؤلاء ومن مات منهم على كفره ومعصيته تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه أي ان هذا أمر فظيع وخطب شنيع يتعاظم المتكلم ان يجري على لسانه ويتعاظم السامع ان يسمعه وفي القاموس الجحيم النار الشديدة التأجج وكل نار بعضها فوق بعض والجحيم ما عظم من النار قاله أبو مالك والمعنى لا تسأل عن حالهم التي تكون لهم في القيامة فانها شنيعة ولا يمكنك في هذه الدار الاطلاع عليها وهذا فيه تخويف لهم وتسلية له صلى الله عليه وآله وسلم وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليت شعري ما فعل أبواي فنزل هذه الآية فما ذكرهما حتى توفاه الله قال السيوطي هذا مرسل ضعيف الاسناد ثم رواه من طريق ابن جرير عن داود بن أبي عاصم مرفوعا وقال هو معضل الاسناد لا تقوم به ولا بالذي قبله حجة (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) أي ليس غرضهم ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليك من الآيات ويوردونه من التعنتات فانك لو جئتهم بكل ما يقترحون وأجبتهم عن كل تعنت لم يرضوا عنك حتى تدخل في دينهم وتتبع ملتهم والملة اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه على ألسن أنبيائه وهكذا الشريعة وقال ابن عباس هذا في أمر القبلة أيسوا منه ان يوافقهم عليها والرضا ضد الغضب وهو من ذوات الواو ولقولهم الرضوان (قل ان هدى الله) أي الاسلام (هو الهدى) الحقيقي لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة والكتب المحرفة ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (ولئن) هذه تسمى اللام الموطئة للقسم وعلامتها ان تقع قبل أدوات الشرط وأكثر مجيئها مع ان وقد تأتي مع غيرها نحو لما آتيتكم من

كتاب

فرعون أم مصر من الامصار وهذا الذى قاله فيه نظر والحق أن المراد مصر من الامصار كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك لان موسى عليه السلام يقول لهم هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير فى أى بلد دخلتموها وجدتموه فليس يساوى مع دناءته وكثرته فى الامصار ان أسأل الله فيه ولهذا قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم أى ما طلبتم ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والاشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا اليه والله أعلم (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق (١٧٣) ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) يقول تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة أى وضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدرا أى لا يزالون مستذلين من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء مستكينون قال الضحاك عن ابن عباس وضربت عليهم الذلة والمسكنة قال هم أصحاب القبالات يعنى الجزية وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن وقتادة فى قوله تعالى وضربت عليهم الذلة قال يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وقال الضحاك وضربت عليهم الذلة قال الذل وقال الحسن أذلهم الله فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين ولقد أدركتهم هذه الامة وأن المجوس لتجبيهم الجزية وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدى المسكنة الفاقة وقال عطية العوفى الخراج وقال الضحاك الجزية وقوله تعالى وباؤا بغضب من الله قال الضحاك استحقوا الغضب من الله وقال الربيع بن أنس حدث عليهم غضب من الله وقال سعيد بن جبير وباؤا بغضب من الله يقول استوجبوا سخطا وقال ابن جرير يعنى بقوله وباؤا بغضب من الله انصرفوا ورجعوا ولا يقال باء الا موصولا اما بخير واما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يبوء به بوأ وبواء ومنه قوله تعالى انى أريد أن تبوء باثمى واثمك يعنى تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دونى فمعنى الكلام اذا رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط وقوله تعالى ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق يقول تعالى هذا الذى جازيناهم من الذلة والمسكنة واحلال الغضب بهم من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله واهانتهم حملة الشرع وهم الانبياء وأتباعهم

كتاب لمن تبعك منهم (اتبعت أهواءهم) أى أهواء اليهود والنصارى (بعد الذى جاءك من العلم) أى البيان بان دين الله هو الاسلام وان القبلة هى قبلة ابراهيم وهى الكعبة ويحتمل ان يكون تعريضا لامته وتحذيرا لهم ان يواقعوا شيأ من ذلك أو يدخلوا فى أهواء أهل الملل ويطلبوا رضا أهل البدع أخرج الثعلبى عن ابن عباس قال ان يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى قبلتهم فلما صرف الله القبلة الى الكعبة شق ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله هذه الآية وجواب القسم قوله (مالك من الله من ولى) يلى أمرك ويقوم بك (ولا نصير) ينصرك ويمنعك من عقابه وفى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتنصدع منه الافئدة ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه والقائمين ببيان شرائعه ترك الدهان لاهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء التاركين للعمل بالكتاب والسنة المؤثرين لمحض الرأى عليهما فان غالب هؤلاء وان أظهر قبولا وأبان من أخلاقه لينا لا يرضيه الا اتباع بدعته والدخول فى مداخله والوقوع فى حبائله فان فعل العالم ذلك بعد ان علمه الله من العلم ما يستفيد به ان هدى الله هو ما فى كتابه وسنة رسوله لا ما هم عليه من تلك البدع التى هى ضلالة محضة وجهالة بينة ورأى منهار وتقليد على شفا جرف هار فهو اذا ذاك ماله من الله من ولى ولا نصير ومن كان كذلك فهو لا محالة مخذول وهالك بلا شك وشبهة (الذين آتيناهم الكتاب) هم اليهود والنصارى قاله قتادة وقيل هم المسلمون والكتاب هو القرآن وقيل من أسلم من أهل الكتاب وقال ابن عباس نزلت فى أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب وكانوا أربعين رجلا ثمانية من رهبان الشام منهم بحيرى الراهب والباقى من الحبشة وقيل هم المؤمنون عامة (يتلونه حق تلاوته) أى يقرؤنه كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرفونه ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل المراد بالتلاوة أنهم يعملون بما فيه فيحللون حلاله ويحرمون حرامه فيكون من تلاه يتلوه اذا اتبعه أى يتبعونه حق اتباعه ومنه قوله تعالى والقمر اذا تلاها أى اتبعها قاله ابن عباس وقال عمر بن الخطاب يعنى اذا مر بذكر الجنة يسأل الجنة واذا مر بذكر النار تعوذ من النار وقال زيد بن أسلم يتكلمون به كما أنزل ولا يكتمونه عن قتادة قال هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن الحسن قال يعملون بمحكمه

فانتقصوهم الى أن أفضى بهم الحال الى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا انهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق ولهذا جاء فى الحديث المتفق على صحته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكبر بطر الحق وغمط الناس وقال الامام أحمد رحمه الله حدثنا اسمعيل عن ابن عون عن عمرو بن سعيد عن حميد بن عبد الرحمن قال قال ابن مسعود كنت لا أحجب عن النجوى ولا عن كذا ولا عن كذا فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده مالك بن مرارة الرهاوى فأدركته من آخر حديثه وهو يقول يا رسول الله قد قسم لى من الجمال ما ترى فما أحب ان أحدا من الناس فضلنى بشراكين فما فوقهما أليس ذلك هو البغى فقال لا ليس ذلك من البغى ولكن البغى من بطر أو قال سفه الحق وغمط الناس يعنى رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم ولهذا لما ارتكب بنو اسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتلهم أنبياءه أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد وكساهم ذلا فى الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقا قال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن الاعمش عن ابراهيم عن أبى معمر عن عبد الله ابن مسعود قال كانت بنو اسرائيل فى اليوم تقتل ثلثمائة نبى ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار وقد قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبى وائل عن عبد الله يعنى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبى أو قتله نبى أو قتل نبيا وامام ضلالة وممثل من الممثلين وقوله تعالى ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون وهذه علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به انهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهى والاعتداء المجاوزة فى حد المأذون فيه والمأمور به والله أعلم (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لما بين تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى فى فعل ما لا اذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال نبه تعالى على أن من أحسن من الامم السالفة واطاع فان له جزاء الحسنى وكذلك الامر الى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبى الامى فله السعادة الابدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم

و يؤمنون بمتشابهه و يكلون ما أشكل عليهم الى عالمه وقيل يتدبرونه حق تدبره و يتفكرون فى معانيه وحقائقه وأسراره (أولئك يؤمنون به) أى يصدقون به فان كانت الآية فى أهل الكتاب فالمعنى ان المؤمن بالتوراة الذى يتلوها حق تلاوتها هو المؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لان فى التوراة نعته وصفته وان كانت فى المؤمنين عامة فالمعنى ظاهر (ومن يكفر به) أى يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (فأولئك هم الخاسرون) أى خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالايمان (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) قدم مثل هذا فى صدر السورة وقد تقدم تفسيره وهذا من العام الذى يراد به الخاص كقوله تعالى ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ومعنى الآية ولا تنفعها شفاعة اذا وجب عليها العذاب ولم تستحق سواه وقيل انه رد على اليهود فى قولهم ان آباءنا يشفعون لنا ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبى الامى ذكر معناه ابن كثير فى تفسيره وقيل للتوكيد وتذكير النعم وفيه عظة لليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقال البقاعى فى تفسيره انه لما طال المدى فى استقصاء تذكيرهم بالنعم ثم فى بيان عوارهم وهتك أستارهم وختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم باعمالهم وأحوالهم وأقوالهم أعاد ما صدر به قصتهم من التذكير بالنعم والتحذير من حلول النقم يوم يجمع الامم ويدوم فيه الندم لمن زلت به القدم ليعلم أن ذلك فذلكة القصة والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة انتهى وأقول ليس هذا بشئ فانه لو كان سبب التكرار ما ذكره من طول المدى وانه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك لكان الاولى بالتكرار والاحق باعادة الذكر هو قوله سبحانه يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايای فارهبون فان هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم والخطاب لهم فى هذه السورة هى أيضا أولى بان تعاد وتكرر لما فيها من الامر بذكر النعم والوفاء بالعهد والرهبة لله سبحانه وبهذا تعرف صحة ما قدمناه لك عند أن شرع الله سبحانه فى خطاب بنى اسرائيل من هذه السورة فراجعه ثم حكى البقاعى بعد كلامه السابق عن الحرانى انه قال كرره تعالى اظهارا لمقصد التئام آخر الخطاب بأوله ليتخذ هذا الافصاح والتعليم أصلا لما يكن بان يرد من نحوه

يحزنون وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار فى قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمر بن أبى عمر العدوى حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال قال سلمان رضى الله عنه سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر الى آخر الآية وقال السدى ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا الآية نزلت فى أصحاب سلمان الفارسى بينما هو يحدث النبى صلى الله عليه وسلم اذ ذكر أصحابه فاخبره خبرهم فقال كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون انك ستبعث نبيا فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبى الله صلى الله عليه وسلم يا سلمان هم من أهل النار فاشتد ذلك على سلمان فانزل الله هذه الآية فكان ايمان اليهود (١) أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا وايمان النصارى ان من تمسك بالانجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منهم حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم فمن لم يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والانجيل كان هالكا قال ابن أبى حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو هذا قلت وهذا لا ينافى ما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر الآية (٢) فانزل الله بعد ذلك ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين فان هذا الذى قاله ابن عباس اخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا الا ما كان موافقا لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن بعثه بما بعثه به فاما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون الى التوراة فى زمانهم * واليهود من الهوادة وهى المودة أو التهود وهى التوبة كقول موسى عليه السلام انا هدنا اليك أى تبنا فكأنهم سموا بذلك فى الاصل لتوبتهم ومودتهم فى بعضهم لبعض وقيل لنسبتهم الى يهودا أكبر أولاد يعقوب وقال أبو عمرو بن

نحوه فى سائر القرآن حتى كان الخطاب اذا انتهى الى غاية خاتمة يجب ان يلحظ القلب بداية تلك الغاية فيتلوها ليكون فى تلاوته جامعا لطرفى الثناء وفى تفهمه جامعا لمعانى طرفى المعنى انتهى وأقول لو كان هذا سبب التكرار لكان الاولى به ما عرفناك واما قوله وليتخذ ذلك أصلا لما يرد من التكرار فى سائر القرآن فمعلوم ان حصول هذا الامر فى الاذهان وتقرره فى الافهام لا يختص بتكرار آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها فلم تتم حينئذ النكتة فى تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما ولله الحكمة البالغة التى لا تبلغها الافهام ولا تدركها العقول فليس فى تكلف هذه المناسبات المتعسفة الا ما عرفناك به هنا لك فتذكر

(واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لبنى اسرائيل والابتلاء الاختبار والامتحان أى ابتلاه بما أمره به وهو استعارة تبعية واقعة على طريق التمثيل أى فعل معه فعلا مثل فعل المختبر والغرض من هذا التذكير توبيخ أهل الملل المخالفين وذلك لان ابراهيم يعترف بفضله جميع الطوائف قديما وحديثا فحكى الله عن ابراهيم أمورا توجب على المشركين واليهود والنصارى قبول قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لان ما أوجبه الله على ابراهيم جاء به محمد وفى ذلك حجة عليهم * وابراهيم اسم أعجمى معناه فى السريانية أب رحيم كذا قال الماوردى قال ابن عطية ومعناه فى العربية ذلك قال السهيلى وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السريانى والعربى وفيه لغات وكان مولد ابراهيم بالسوس من أرض الاهواز وقيل ببابل وقيل بكوثى وهى قرية من سواد الكوفة وقيل بحران ولكن أباه نقله الى أرض بابل وهى أرض نمروذ الجبار وقد أورد صاحب الكشاف هنا سؤالا فى رجوع الضمير الى ابراهيم مع كون رتبته التأخير وأجاب عنه بانه قد تقدم لفظا فرجع اليه والامر فى هذا أوضح من ان يشتغل بذكره أو نرد فى مثله الاسئلة أو يسود وجه القرطاس بايضاحه وقد اختلف العلماء فى تعيين الكلمات فقيل هى شرائع الاسلام وقيل ذبح ابنه وقيل أداء الرسالة وقيل هى خصال الفطرة وقيل قوله انى جاعلك للناس اماما وقيل الطهارة قال الزجاج وهذه الاقوال ليست بمتناقضة لان هذا كله مما ابتلى به ابراهيم انتهى وظاهر النظم القرآنى أن الكلمات هى قوله انى جاعلك وما بعده ويكون ذلك بيانا للكلمات وجاء عن بعض السلف ما يوافق ذلك وعن آخرين ما يخالفه والحق أنه اذا لم يصح شئ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا جاءنا من طريق تقوم

---

(١) (٢) قوله انه من تمسك الخ وقوله بعد ذلك فانزل الله الخ كذا بالاصل وفى المحلين كلام لعله سقط من الناسخ فحرر اه

العلماء لانهم يتهوّدون أي يتحركون عند قراءة التوراة فلما بعث عيسى صلى الله عليه وسلم وجب على بني اسرائيل اتباعه والانقياد له فاصحابه وأهل دينهم النصارى وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم وقد يقال لهم أنصار أيضا كما قال عيسى عليه السلام من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقيل انهم انما سموا بذلك من أجل انهم نزلوا أرضا يقال لها ناصرة قاله قتادة وابن جريج وروى عن ابن عباس ايضا والله أعلم والنصارى جمع نصران كندامى وندمان وسكارى جمع سكران ويقال للمرأة نصرانة قال الشاعر * نصرانة لم تحنف * فلما بعث الله (١٧٦) محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين ورسولا الى بني آدم على الاطلاق وجب عليهم تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر وهؤلاء هم المؤمنون حقا وسميت أمة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمنين لكثرة ايمانهم وشدة ايقانهم ولانهم يؤمنون بجميع الانبياء الماضية والغيوب الآتية وأما الصابئون فقد اختلف فيهم فقال سفيان الثوري عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين وكذا رواه ابن أبي نجيح عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك وقال أبو العالية والربيع ابن أنس والسدي وأبو الشعثاء جابر بن زيد والضحاك واسحق بن راهويه الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤن الزبور ولهذا قال أبو حنيفة واسحق لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم وقال هشيم عن مطرف كنا عند الحكم بن عتيبة فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين انهم كالمجوس فقال الحكم ألم أخبركم بذلك وقال عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن عبد الكريم سمعت الحسن ذكر الصابئين فقال هم قوم يعبدون الملائكة وقال ابن جرير ايضا حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحسن قال أخبر زياد ان الصابئين يصلون الى القبلة ويصلون الخمس قال فأراد أن يضع عنهم الجزية قال فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة وقال أبو جعفر الرازي بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرؤن الزبور ويصلون للقبلة وكذا قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن أبي الزناد عن أبيه قال الصابئون قوم مما يلي العراق وهم بكوثى وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون

بها الحجة في تعيين تلك الكلمات لم يبق لنا الا أن نقول انها ما ذكره الله سبحانه في كتابه قال اني جاعلك للناس اماما ويكون ذلك بيانا للكلمات أو السكوت واحالة العلم في ذلك على الله سبحانه واما ما روي عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم في تعيينها فهو أولا أقوال الصحابة ولا تقوم بها الحجة فضلا عن أقوال من بعدهم وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك وان له حكم الرفع فقد اختلفوا في التعيين اختلافا يمنع معه العمل ببعض ما روي عنهم دون البعض الآخر بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما روي عن ابن عباس فكيف يجوز العمل بذلك وبهذا تعرف ضعف قول من قال انه يصار الى العموم ويقال تلك الكلمات هي جميع ما ذكر ههنا فان هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف والمتناقض وما لا تقوم به الحجة وعلى هذا فيكون قوله اني جاعلك مستأنفا كأنه قيل ماذا قال له وقال ابن جرير ما حاصله أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشيء منها انه المراد على التعيين الا بحديث أو اجماع ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له ثم قال ان الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب يعني ان الكلمات هي قوله اني جاعلك للناس اماما وقوله وعهدنا الى ابراهيم وما بعده ورجح ابن كثير انها تشمل جميع ما ذكر وفيه بعد (فأتمهن) أي قام بهن أتم قيام وامتثل أكمل امتثال واختلف هل كان هذا الابتلاء قبل النبوة أو بعدها فقيل بالاول بدليل السياق فانه يدل على أن قيامه عليه السلام بهن كالسبب لان يجعله الله اماما والسبب يتقدم على المسبب وقيل بالثاني لان التكليف لا يعلم الا من جهة الوحي الالهي وذلك بعد النبوة وقيل ان فسر الابتلاء بالكوكب والقمر والشمس كان ذلك قبل النبوة وان فسر بما وجب عليه من شرائع الدين كان ذلك بعد النبوة (قال اني جاعلك للناس) أي لاجلهم (اماما) يقتدى بدينك وهديك وسنتك والامام هو الذي يؤتم به ومنه قيل للطريق امام وللبناء امام لانه يؤتم بذلك أي يهتدى به السالك والامام لما كان هو القدوة للناس لكونهم يأتمون به ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ اذ لم يبعث بعده نبي الا كان من ذريته مأمورا باتباعه في الجملة وابراهيم يعترف بفضله جميع الطوائف قديما وحديثا فاما اليهود والنصارى فانهم مقرون بفضله ويتشرفون بالنسبة اليه وانهم من أولاده وأما العرب في الجاهلية فانهم

من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون الى القبلة كل يوم خمس صلوات وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال الذى يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا وقال عبد الله بن وهب قال عبد الرحمن بن زيد الصابئون دين من الاديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا اله الا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى الا القول لا اله الا الله قال ولم يؤمنوا برسول فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه هؤلاء الصابئون يشبهونهم يعنى فى قول لا اله الا الله وقال الخليل هم قوم يشبه دينهم دين النصارى الا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم (١٧٧) على دين نوح عليه السلام وحكى القرطبى عن مجاهد والحسن وابن أبى نجيح انهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم قال القرطبى والذى تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وانها فاعلة ولهذا أفتى ابو سعيد الاصطخرى بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم واختار الرازى ان الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى ان الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء أو بمعنى ان الله فوض تدبير أمر هذا العالم اليها قال وهذا القول هو المنسوب الى الكشرانيين الذين جاءهم ابراهيم عليه السلام رادا عليهم ومبطلا اقوالهم وأظهر الاقوال والله أعلم قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه انهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وانما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه ولهذا كان المشركون ينسبون من أسلم بالصابئ أى انه قد خرج عن سائر أديان أهل الارض اذ ذاك وقال بعض العلماء الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبى والله أعلم (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) يقول تعالى مذكرا بنى اسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالايمان به وحده لا شريك له واتباع رسله وأخبر تعالى انه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رؤسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ويأخذوه بقوة وجزم وامتثال كما قال تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون فالطور هو الجبل كما فسره به

أيضا يعترفون بفضله وينشرفون على غيرهم به لانهم من أولاده ومن ساكنى حرمه وخدام بيته ولما جاء الاسلام زاده الله شرفا وفضلا فحكى الله عن ابراهيم امورا توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لان ما أوجبه الله على ابراهيم هو من خصائص دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفى ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركى العرب فى وجوب الانقياد لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والايمان به وتصديقه (قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) يحتمل أن يكون ذلك دعاء من ابراهيم أى واجعل من بعض ذريتى أئمة ويحتمل أن يكون هذا من ابراهيم لقصد الاستفهام وان لم يكن بصيغته أى ومن ذريتى ماذا يكون يا رب فاخبره أن فيهم عصاة وظلمة وانهم لا يصلحون لذلك ولا يقومون به ولا ينالهم عهد الله سبحانه وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة امامة الكل وان كانوا على الحق عن قتادة قال هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظالما فاما فى الدنيا فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمين وغادوهم وناكحوهم فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه وعن مجاهد قال لا أجعل اماما ظالما يقتدى به وعن ابن عباس قال يخبره انه ان كان فى ذريته ظالما لا ينال عهده ولا ينبغى له أن يوليه شيأ من أمره والنيل الادراك وهو العطاء والذرية مأخوذة من الذر لان الله أخرج الخلق من ظهر آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم كالذر وقيل مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم اذا خلقهم وفى الكتاب العزيز فاصبح هشيما تذروه الرياح وقال الخليل انما سموا ذرية لان الله تعالى ذرأها على الارض كما ذرأ الزراع البذر قال ابن فارس يؤخذ من هذا اباحة السعى فى منافع الذرية والقرابة وسؤال من بيده ذلك واختلف فى المراد بالعهد فقيل الامامة وقيل النبوة وقيل عهد الله أمره وقيل الامان من عذاب الآخرة ورجحه الزجاج والاول أظهر كما يفيده السياق وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الامام لابد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد لانه اذا زاغ عن ذلك كان ظالما ويمكن أن ينظر الى ما يصدق عليه اسم العهد وما يفيده الاضافة من العموم فيشمل جميع ذلك اعتبارا بعموم اللفظ من غير نظر الى السبب ولا الى السياق فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم فى كل من تعلق بالامور الدينية وقد اختار ابن جرير ان هذه الآية وان كانت ظاهرة فى

فى الاعراف ونص على ذلك ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس وغيرواحد وهذا ظاهر وفى رواية عن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال وما لم ينبت فليس بطور وفى حديث الفتون عن ابن عباس انهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا وقال السدى فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا اليه وقد غشيهم فسقطوا سجدا فسجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر فرحمهم الله فكشفه عنهم فقالوا والله ما سجدة أحب الى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم فهم يسجدون كذلك (١٧٨) وذلك قول الله تعالى ورفعنا فوقكم الطور وقال الحسن فى قوله خذوا ما آتيناكم بقوة يعنى التوراة وقال أبو العالية والربيع ابن أنس بقوة أى بطاعة وقال مجاهد بقوة بعمل بما فيه وقال قتادة خذوا ما آتيناكم بقوة القوة الجد والاقذفته عليكم قال فاقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة ومعنى قوله والاقذفته عليكم أى اسقطه عليكم يعنى الجبل وقال أبو العالية والربيع واذكروا ما فيه يقول اقرؤا ما فى التوراة واعملوا به وقوله تعالى ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله يقول تعالى ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه فلولا فضل الله عليكم ورحمته أى بتوبته عليكم وارساله النبيين والمرسلين اليكم لكنتم من الخاسرين بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) يقول تعالى ولقد علمتم يا معشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره اذ كان مشروعا لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت فلما جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحبل فلم تخلص منها يومها ذلك فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت فلما فعلوا ذلك مسخهم الله الى صورة القردة وهى أشبه شئ بالاناسى فى الشكل الظاهر وليست بانسان حقيقة فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم وهذه القصة مبسوطة فى سورة الاعراف حيث يقول

الخبر انه لا ينال عهد الله بالامامة ظالما ففيها اعلام من الله لابراهيم الخليل انه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه انتهى ولا يخفاك انه لا جدوى لكلامه هذا فالاولى ان يقال ان هذا الخبر فى معنى الامر لعباده أن لا يولوا أمور الشرع ظالما وانما قلنا انه فى معنى الامر لان اخباره تعالى لا يجوز أن يتخلف وقد علمنا انه قد نال عهده من الامامة وغيرها كثيرمن الظالمين (واذ جعلنا البيت مثابة للناس) أى لاجلهم أو لاجل مناسكهم والبيت هو الكعبة غلب عليه كما غلب النجم على الثريا ويدخل فيه جميع الحرم لوصفه بكونه آمنا كما سيأتى ومثابة مصدر من ثاب يثوب مثابا ومثابة أى مرجعا يرجع الحجاج اليه بعد تفرقهم عنه وقيل المثابة من الثواب أى يثابون هنالك وقال مجاهد المراد انهم لا يقضون منه أوطارهم قال الاخفش ودخلت الهاء لكثرة من يثوب اليه فهى كعلامة ونسابة وقال غيره هى للتأنيث وليست للمبالغة وهو مصدر أو اسم مكان قولان (وأمنا) هو اسم مكان أى موضع أمن وهو أظهر من جعله اسم الفاعل على سبيل المجاز كقوله حرما آمنا فان الآمن هو الساكن والملتجئ والاول لا مجاز فيه وقد استدل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لا يقام الحد على من لجأ اليه ويؤيد ذلك قوله تعالى ومن دخله كان آمنا وقيل ان ذلك منسوخ وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وانه لم يحل القتال فيه لاحد قبلى ولم يحل لى الا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الا من عرفها ولا يختلى خلاه فقال العباس يا رسول الله الا الاذخر فانه لقينهم وبيوتهم فقال الا الاذخر أخرجه البخارى ومسلم وكان الناس يامنون فيه من أذى المشركين فانهم كانوا لا يتعرضون لاهل مكة ويقولون هم أهل الله وقال ابن عباس فى الآية معاذا وملجأ (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) قرئ على انه فعل ماض أى واتخذوه مصلى وقرئ على صيغة الامر ويجوز أن يكون تقديره وقلنا اتخذوا والمقام فى اللغة موضع القيام قال النحاس هو من قام يقوم يكون مصدرا واسما للموضع ومقام من أقام ومن للتبعيض وهذا هو الظاهر وقيل بمعنى فى وقيل زائدة على قول الاخفش وليس بشئ اختلف فى تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذى يعرفه الناس ويصلون عنده ركعتى الطواف وقيل

المقام

تعالى واسالهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تاتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تاتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون القصة بكمالها وقال السدى أهل هذه القرية هم أهل أيلة وكذا قال قتادة وسنورد أقوال المفسرين هنالك مبسوطة ان شاء الله وبه الثقة وقوله تعالى فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وانما هو مثل ضربه الله كمثل الحمار يحمل أسفارا ورواه ابن جرير عن المثنى عن أبى حذيفة وعن (١٧٩) محمد بن عمر الباهلى وعن أبى عاصم عن عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد به وهذا سند جيد عن مجاهد وقول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره قال الله تعالى قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت الآية وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعل الله منهم القردة والخنازير فزعم ان شباب القوم صاروا قردة وان الشيخة صاروا خنازير وقال شيبان النحوى عن قتادة فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فصار القوم قردة تعاوى لها أذناب بعد ما كانوا رجالا ونساء وقال عطاء الخراسانى نودوا يا أهل القرية كونوا قردة خاسئين فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون يا فلان ألم ننهكم فيقولون برؤسهم أى بلى وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة بالمصيصة حدثنا محمد بن مسلم يعنى الطائفى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال انما كان الذين اعتدوا فى السبت فجعلوا قردة فواقا ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل وقال الضحاك عن ابن عباس فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول اذا لا يحيون فى الارض الا ثلاثة أيام قال ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق فى الستة الايام التى ذكرها الله فى كتابه فمسخ هؤلاء القوم فى صورة القردة وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء ويحوله كما يشاء وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية فى قوله كونوا قردة خاسئين قال يعنى أذلة صاغرين وروى عن مجاهد وقتادة والربيع وأبى مالك نحوه وقال محمد بن اسحق عن داود بن أبى الحصين عن عكرمة قال قال ابن عباس ان

المقام الحرم كله روى ذلك عن عطاء ومجاهد وقيل عرفة والمزدلفة وقال الشعبى الحرم كله مقام والمعنى اتخذوا مصلى كائنا عند مقام ابراهيم والعندية تصدق بجهاته الاربع والتخصيص بكون المصلى خلفه انما استفيد من فعل النبى صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة بعده أخرج البخارى وغيره من حديث أنس عن عمر بن الخطاب قال وافقت ربى فى ثلاث ووافقنى ربى فى ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت هذه الآية وقلت يا رسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساؤه فى الغيرة فقلت لهن عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت كذلك وأخرجه مسلم وغيره مختصرا من حديث ابن عمر عنه وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا حتى اذا فرغ عمد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وفى مقام ابراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة فى الامهات وغيرها والاحاديث الصحيحة تدل على أن مقام ابراهيم هو الحجر الذى كان يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه اسمعيل به ليقوم فوقه كما فى البخارى من حديث ابن عباس وهو الذى كان ملصقا بجدار الكعبة وأول من نقله عمر ابن الخطاب كما أخرجه عبد الرزاق والبيهقى باسناد صحيح وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق مختلفة وأخرج ابن أبى حاتم من حديث جابر فى وصف حج النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لما طاف النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له عمر هذا مقام ابراهيم قال نعم وأخرج نحوه ابن مردويه قيل كان أثر أصابع رجلى ابراهيم فيه فاندرست بكثرة المسح بالايدى وانما أمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله وقد روى البخارى فى بدء قصة المقام أثرا طويلا عن ابن عباس وقد ورد فى حديث الترمذى أن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما واختلفوا فى قوله مصلى فمن فسر المقام بمشاهد الحج ومشاعره قال مصلى مدعى من الصلاة التى هى الدعاء ومن فسر المقام بالحجر قال معناه واتخذوا من مقامه قبلة أمروا بالصلاة عنده وهذا هو الصحيح لان لفظ الصلاة اذا أطلق لا يعقل منه الا الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود ولان مصلى الرجل هو الموضع الذى يصلى فيه (وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع

الله انما افترض على بنى اسرائيل اليوم الذى افترض عليكم فى عيدكم يوم الجمعة فخالفوا الى السبت فعظموه وتركوا ما أمروا به فلما أبوا الا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه فحرم عليهم ما أحل لهم فى غيره وكانوا فى قرية بين أيلة والطور يقال لها مدين فحرم الله عليهم فى السبت الحيتان صيدها وأكلها وكانوا اذا كان يوم السبت أقبلت اليهم شرعا الى ساحل بحرهم حتى اذا ذهب السبت ذهبن فلم يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا حتى اذا كان يوم السبت أتين شرعا حتى اذا ذهب السبت ذهبن فكانوا كذلك حتى طال عليهم الامد وقرموا الى الحيتان عمد رجل منهم (١٨٠) فأخذ حوتا سرا يوم السبت فخزمه بخيط ثم أرسله فى الماء وأوتده وتدا فى الساحل فاوثقه ثم تركه حتى اذا كان الغد جاء فأخذه أى انى لم آخذه فى يوم السبت فانطلق به كله حتى اذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك ووجد الناس ريح الحيتان فقال أهل القرية والله لقد وجدنا ريح الحيتان ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل قال ففعلوا كما فعل وصنعوا سرا زمانا طويلا لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالاسواق فقالت طائفة منهم من أهل البقية ويحكم اتقوا الله ونهوهم عما كانوا يصنعون فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم بسخطنا اعمالهم ولعلهم يتقون قال ابن عباس فبيناهم على ذلك أصبحت تلك البقية فى أنديتهم ومساجدهم فقدوا الناس فلم يروهم قال ففقال بعضهم لبعض ان للناس شأنا فانظروا ما هو فذهبوا ينظرون فى دورهم فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوها ليلا فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم فاصبحوا فيها قردة والله ان نسلهم ليعرفون الرجل بعينه وانه لقرد والمرأة بعينها وانها القردة والصبى بعينه وانه لقرد قال قال ابن عباس فلولا ما ذكر الله انه نجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الله الجميع منهم قال وهى القرية التى قال جل ثناؤه لمحمد صلى الله عليه وسلم واسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر الآية وروى الضحاك عن ابن عباس نحوا من هذا وقال السدى فى قوله تعالى ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين قال هم أهل أيلة وهى القرية التى كانت حاضرة البحر فكانت الحيتان اذا كان يوم السبت وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا فى السبت

السجود) معنى عهدنا هنا أمرنا أو أوحينا وقيل ألزمنا وأوجبنا ومن أغرب ما نقل فى تسمية اسمعيل أن ابراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولدا ويقول فى دعائه اسمع يا ايل ويا ايل بلسان السريانية هو الله فلما رزق الولد سماه به وقيل هو اسم اعجمى وفيه لغتان اللام والنون ويجمع على سماعلة وسماعيل وأساميع والمراد بالتطهير قيل من الاوثان قاله ابن عباس وقيل من الآفات والريب وقول الزور والرجس قاله مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وقيل من الكفار وقيل من النجاسات وطواف الجنب والحائض وكل خبيث والظاهر انه لا يختص بنوع من هذه الانواع وأن كل ما يصدق عليه مسمى التطهير فهو يتناوله اما تناولا شموليا أو بدليا والاضافة فى قوله بيتى للتشريف والتكريم والمراد بالبيت الكعبة والطائف الذى يطوف به أى الدائر حوله وقيل الغريب الطارئ على مكة والعاكف المقيم وأصل العكوف فى اللغة اللزوم واللبث والاقبال على الشئ وقيل هو المجاور دون المقيم من أهلها والمراد بقوله الركع السجود المصلون وخص هذين الركنين بالذكر لانهما أشرف أركان الصلاة عن ابن عباس قال اذا كان قائما فهو من الطائفين واذا كان جالسا فهو من العاكفين واذا كان مصليا فهو من الركع السجود وعن عمر بن الخطاب انه سئل عن الذين ينامون فى المسجد فقال هم العاكفون وفى الآية مشروعية طهارة المكان للطواف والصلاة قال الرازى والكيا الهراسى وفيها دلالة على أن الطواف للغرباء أفضل والصلاة للمقيم أمثل قلت ولم يظهر لى وجه ذلك قالا وفيها دلالة على جواز الصلاة فى نفس الكعبة حيث قال بيتى خلافا لمالك قلت وفيه أن الطواف لا يكون فى نفس الكعبة قال الرازى وفيها دلالة على أن الطواف قبل الصلاة قلت وقد سبقه بذلك ابن عباس وفيها دلالة على جواز المجاورة بمكة لان قوله والعاكفين يحتمله والسجود جمع ساجد نحو قاعد وقعود وهو مناسب لما قبله وقيل انه مصدر نحو الدخول والقعود والمعنى ذوى السجود ذكره أبو البقاء والاول أولى ولتقارب الاخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بينهما وجمع صفتين جمع سلامة وأخريين جمع تكسير لاجل المقابلة وهو نوع من الفصاحة (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا) أى مكة وقيل الحرم (بلدا آمنا) والمراد الدعاء لاهله من ذريته وغيرهم كقوله عيشة راضية أى راض صاحبها أو الاسناد الى المكان مجاز كما فى ليل نائم أى نائم فيه قاله السعد التفتازانى وعلى هذا المراد أمن الملتجئ اليه فاسند اليه مبالغة وقد

ثبت

شيالم يبق فى البحر حوت الاخرج حتى يخرجن خراطيمهن من الماء فاذا كان يوم الاحد لزمن سفل البحر فلم يرمنهن شئ حتى يكون يوم السبت فذلك قوله تعالى واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم فاشتهى بعضهم السمك فعمل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهرا الى البحر فاذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها فى الحفيرة فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيمكث فيها فاذا كان يوم الاحد جاء فاخذه فعمل الرجل يشوى السمك فيجد جاره روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك فقال لهم علماؤهم ويحكم انما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم فقالوا انما صدناه يوم الاحد حين أخذناه فقال الفقهاء لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل قال وغلبوا أن ينتهوا فقال بعض الذين نهوهم لبعض لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا يقول لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم فقال بعضهم معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون فلما أبوا قال المسلمون والله لا نساكنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بجدار ففتح المسلمون بابا والمعتدون فى السبت بابا ولعنهم داود عليه السلام فجعل المسلمون يخرجون من بابهم والكفار من بابهم فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم فلما أبطؤا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط فاذا هم قردة يثب بعضهم على بعض ففتحوا عنهم فذهبوا فى الارض فذلك قول الله تعالى فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وذلك حين يقول لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم الآية فهم القردة (قلت) والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الائمة بيان خلاف ما ذهب اليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم انما كان معنويا لا صوريا بل الصحيح انه معنوى صورى والله تعالى أعلم وقوله تعالى فجعلناها نكالا قال بعضهم الضمير فى فجعلناها عائد على القردة وقيل على الحيتان وقيل على العقوبة وقيل على القرية حكاها ابن جرير والصحيح أن الضمير عائد على القرية أى فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم فى سبتهم نكالا أى عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون فأخذه الله نكال الآخرة والاولى وقوله تعالى لما بين يديها وما خلفها أى من القرى

ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ان ابراهيم حرم مكة وانى حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها كما أخرجه أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم من حديث جابر وقد روى هذا المعنى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من طريق جماعة من الصحابة وثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض وهى حرام الى يوم القيامة أخرجه البخارى وأهل السنن من حديث أبى هريرة تعليقا وابن ماجه من حديث صفية بنت شيبة وفى الباب أحاديث غير ما ذكرنا ولا تعارض بين هذه الاحاديث فان ابراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرمها وانها لم تزل حرما آمنا نسب اليه أنه حرمها أى أظهر للناس حكم الله فيها والى هذا الجمع ذهب ابن عطية وابن كثير وقال ابن جرير انها كانت حراما ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأله ابراهيم تحريمها وتعبدهم بذلك انتهى وكلا الجمعين حسن (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) انما سأل ابراهيم ذلك لان مكة لم يكن بها زرع ولا ثمرة فاستجاب الله له وجعل مكة حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شئ عن محمد بن مسلم الطائفى قال بلغنى انه لما دعا ابراهيم للحرم نقل الله الطائف من فلسطين ومن للتبعيض أى بعض الثمرات ولم يقل من الحبوب لما فى تحصيله من الذل الحاصل بالحرث وغيره فاقتصاره على الثمرات لتشريفهم وقيل من للبيان وليس بشئ اذ لم يتقدم مبهم يبين بها والمراد بالامن المذكور فى قوله مثابة للناس وأمنا هو الامن من الاعداء والخسف والمسخ والمراد هنا من الامن هو الامن من القحط ولهذا قال وارزق أهله من الثمرات ذكره الكرخى والمعنى وارزق من آمن من أهله دون من كفر وسبب هذا التخصيص ان ابراهيم لما سأل ربه أن يجعل النبوة والامامة فى ذريته فأجابه الله بقوله لا ينال عهدى الظالمين وصار ذلك تأديبا له فى المسئلة فلا جرم خص هنا بدعائه المؤمنين دون الكافرين ثم أعلمه أن الرزق فى الدنيا يستوى فيه المؤمن والكافر بقوله (قال ومن كفر فامتعه) أى سأرزق الكافر أيضا (قليلا) اى فى الدنيا مدة حياته وعن محمد بن كعب القرظى قال دعا ابراهيم للمؤمنين وترك الكفار ولم يدع لهم بشئ فقال تعالى ومن كفر فامتعه الآية وعن ابن عباس قال كان ابراهيم احتجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ومن كفر فانا أرزقهم أيضا كما أرزق المؤمنين أخلق خلقا لا أرزقهم ثم قرأ ابن عباس

قال ابن عباس يعني جعلناها عبرة لما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى كما قال تعالى ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ومنه قوله تعالى أولم يروا انا نأتي الارض ننقصها من أطرافها الآية على أحد الاقوال فالمراد لما بين يديها وما خلفها في المكان كما قال محمد بن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى وكذا قال سعيد بن جبير لما بين يديها وما خلفها قال من بحضرتها من الناس يومئذ وروى عن اسمعيل بن أبي خالد وقتادة وعطية العوفي فجعلناها نكالا لما بين يديها قال ما قبلها من الماضين في شأن السبت وقال أبو العالية والربيع وعطية وما خلفها لما بقي بعدهم من الناس من بني اسرائيل أن يعملوا مثل عملهم وكان هؤلاء يقولون المراد لما بين يديها وما خلفها في الزمان وهذا مستقيم بالنسبة الى من يأتي بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم وأما بالنسبة الى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم وهذا العلل أحد من الناس لا يقوله بعد تصوره فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان وهو ما حولها من القرى كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والله أعلم وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها أي عقوبة لما خلا من ذنوبهم وقال ابن أبي حاتم وروى عن عكرمة ومجاهد والسدي والفراء وابن عطية لما بين يديها من ذنوب القوم وما خلفها لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب وحكى الرازي ثلاثة أقوال أحدها ان المراد بما بين يديها وما خلفها من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها والثاني المراد بذلك من بحضرتها من القرى والامم والثالث انه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده وهو قول الحسن (قلت) وأرجح الاقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وما حل بها كما قال تعالى ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى الآية وقال تعالى ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة الآية وقال تعالى أفلا يرون انا نأتي الارض ننقصها من أطرافها فجعلهم عبرة ونكالا لمن في زمانهم وموعظة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم ولهذا قال

كلا نمد هؤلاء وهؤلاء الآية فالظاهر ان هذا من كلام الله سبحانه ردا على ابراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم ويحتمل أن يكون كلاما مستقلا بيانا لحال من كفر ويكون في حكم الاخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية أي من كفر فاني أمتعه في هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق الى منتهى أجله وذلك قليل لانه ينقطع (ثم اضطره) أي الزمه المضطر لكفره بعد هذا التمتع (الى عذاب النار) أخبر سبحانه انه لا ينال الكفرة من الخير الا تمتعهم في هذه الدنيا وليس لهم بعد ذلك الا ما هو شر محض وأما على قراءة من قرأ فامتعه واضطره بصيغة الامر فهي مبنية على ان ذلك من جملة كلام ابراهيم وانه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالامتاع قليلا ثم دعا عليهم بان يضطرهم الله الى عذاب النار وحاصل معنى اضطره ألزمه حتى أصيره مضطرا لذلك لا يجد عنه مخلصا ولا منه متحولا (وبئس المصير) أي المرجع هي والواو فيه ليست للعطف والا لزم عطف الانشاء على الاخبار بل للاستئناف كما قال في المغني في قوله واتقوا الله ويعلمكم الله (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل) حكاية حال ماضية استحضارا لصورتها العجيبة والقواعد جمع قاعدة وهي الاساس قاله أبو عبيدة والفراء وهي صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من المقابل للقيام ومنه قعد لك الله وقال الكسائي هي الجدر والمراد برفعها رفع ما هو مبني فوقها لا رفعها في نفسها فانها لم ترفع لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه أو المراد بها ساقات البناء فان كل ساف قاعدة لما يبنى عليه ويرفعها بناؤها أو المراد رفع مكانته ودعاء الناس الى حجه وفي ابهام القواعد وتبيينها ثانيا بقوله من البيت تفخيم لشأنها (ربنا) أي قائلين ربنا وقرأ أبي وابن مسعود يقولان ربنا (تقبل منا) أي طاعتنا اياك وعبادتنا لك (انك أنت السميع) لدعائنا (العليم) بنياتنا وقد أكثر المفسرون في تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف في كيفية بناء البيت ومن أي أحجار الارض بني وفي أي زمان عرف ومن بحجه وما ورد فيه من الادلة الدالة على فضله أو فضل بعضه كالحجر الاسود وفي الدر المنثور من ذلك ما لم يكن في غيره فليرجع اليه وفي تفسير ابن كثير بعض من ذلك ولما لم يكن ما ذكروه متعلقا بالتفسير لم نذكره وفي القسطلاني على البخاري بنيت الكعبة عشر مرات الاول بناء الملائكة الثاني بناء آدم الثالث بناء ابنه شيث بالطين والحجارة وغرق في الطوفان الرابع بناء ابراهيم

وموعظة للمتقين وقوله تعالى وموعظة للمتقين قال محمد بن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس وموعظة للمتقين الذين من بعدهم الى يوم القيامة وقال الحسن وقتادة وموعظة للمتقين بعدهم فيتقون نقمة الله ويحذرونها وقال السدى وعطية العوفى وموعظة للمتقين قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم (قلت) المراد بالموعظة ههنا الزاجر اى جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم كما قال الامام أبو عبد الله بن بطة حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بادنى الحيل وهذا اسناد جيد وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح والله أعلم (واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) يقول تعالى واذكروا يا بنى اسرائيل نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة وبيان القاتل من هو بسببها واحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم (ذكر بسط القصة) قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلمانى قال كان رجل من بنى اسرائيل عقيما لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذو الرأى منهم والنهى على م يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله ان أكون من الجاهلين قال فلو لم يعترضوا لاجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا الى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا فاخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك فقال هذا الابن أخيه ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئا فلم يورث قاتل بعد ورواه ابن

الخامس بناء العمالقة السادس بناء جرهم والذى بناه منهم هو الحرث بن مضاض الاصغر السابع بناء قصى خامس جد النبى صلى الله عليه وآله وسلم الثامن بناء قريش التاسع بناء عبد الله بن الزبير فى أوائل سنة أربع وستين العاشر بناء الحجاج انتهى حاصله قال سليمان الجمل وهذا بحسب ما اطلع عليه والا فقد بناه بعد ذلك بعض الملوك سنة ألف وتسع وثلاثين كما نقله بعض المؤرخين قال الرازى فيه ان بناء المسجد قربة وفيه استجباب الدعاء بقبول الاعمال (ربنا واجعلنا مسلمين لك) أى ثابتين عليه أو زدنا منه قيل المراد بالاسلام هنا مجموع الايمان والاعمال (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) من للتبعيض أو للتبيين قال ابن جرير انه أراد بالذرية العرب خاصة وكذا قال السهيلى قال ابن عطية وهذا ضعيف لان دعوته ظهرت فى العرب وغيرهم من الذين آمنوا به والامة الجماعة فى هذا الموضع وقد تطلق على الواحد ومنه قوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله وتطلق على الدين ومنه انا وجدنا آباءنا على أمة وتطلق على الزمان ومنه واذكر بعد أمة قيل أراد بالامة أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بدليل قوله وابعث فيهم رسولا منهم (وأرنا مناسكنا) هى من الرؤية البصرية والمناسك جمع نسك وأصله فى اللغة الغسل يقال نسك ثوبه اذا غسله وهو فى الشرع اسم للعبادة وقيل واحدها منسك والمراد هنا مناسك الحج وقيل مواضع الذبح وقيل جميع التعبدات قال على لما فرغ ابراهيم من بناء البيت قال قد فعلت اى رب فأرنا مناسكنا ابرزها لنا وعلمناها فبعث الله جبريل فحج به وفى الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة ومن بعدهم يتضمن ان جبريل أرى ابراهيم المناسك وفى أكثرها ان الشيطان تعرض له (وتب علينا) أى تجاوز عنا والمراد بالتوبة التثبيت لانهما معصومان لا ذنب لهما وقيل المراد توب على الظلمة منا (انك أنت التواب) اى المتجاوز عن عباده (الرحيم) بهم (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) ضمير فيهم راجع الى الامة المسلمة المذكورة سابقا وقرأ أبى فى آخرهم ويحتمل ان يكون الضمير راجعا الى الذرية وهم العرب من ولد اسمعيل وقد أجاب الله لابراهيم عليه السلام هذه الدعوة فبعث فى ذريته رسولا منهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد أخبر عن نفسه انه دعوة ابراهيم كما أخرجه أحمد من حديث العرباض بن سارية وغيره ومراده هذه الدعوة وقد أجمع على ذلك المفسرون لان ابراهيم انما دعا لذريته وهو بمكة ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم فدل

جرير من حديث أيوب عن محمد بن سيرين عن عبيدة بنحو من ذلك والله أعلم ورواه عبد بن حميد في تفسيره أنبأنا يزيد بن هرون به ورواه آدم بن أبي اياس في تفسيره عن أبي جعفر هو الرازي عن هشام بن حسان به وقال آدم بن أبي اياس في تفسيره أنبأنا أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية في قول الله تعالى ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة قال كان رجل من بني اسرائيل وكان غنيا ولم يكن له ولد وكان له قريب وكان وارثه فقتله ليرثه ثم ألقاه على مجمع الطريق وأتى موسى عليه السلام فقال له ان قريبي قتل وأتى الى أمر عظيم وانى لا أجد أحدا يبين لي من (١٨٤) قتله غيرك يا نبي الله قال فنادى موسى في الناس فقال أنشد الله من كان عنده من هذا علم الا بينه لنا فلم يكن عندهم علم فاقبل القاتل على موسى عليه السلام فقال له أنت نبي الله فسل لنا ربك ان يبين لنا فسأل ربه فاوحى الله ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة فعجبوا من ذلك فقالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض يعني لا هرمة ولا بكر يعني ولا صغيرة عوان بين ذلك اى نصف بين البكر والهرمة قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها اى صاف لونها تسر الناظرين اى تعجب الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون قال انه يقول انها بقرة لا ذلول اى لم يذللها العمل تثير الارض ولا تسقي الحرث يعني وليست بذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث يعني ولا تعمل في الحرث مسلمة يعني مسلمة من العيوب لا شية فيها يقول لا بياض فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون قال ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت اياها ولكن شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم قيل ولولا ان القوم استثنوا فقالوا وانا ان شاء الله لمهتدون لما هدوا اليها ابدا فبلغنا انهم لم يجدوا البقرة التي نعتت لهم الا عند عجوز وعندها يتامى وهي القيمة عليهم فلما علمت انه لا يزكوا لهم غيرها أضعفت عليهم الثمن فاتوا موسى فاخبروه انهم لم يجدوا هذا النعت الا عند فلانة وانهم سألت اضعاف ثمنها فقال موسى ان الله قد خفف عليكم فشددتم على انفسكم فاعطوها رضاها وحكمها ففعلوا واشتروها فذبحوها فامرهم موسى عليه السلام ان يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع اليه روحه فسمى لهم

على ان المراد به محمد صلى الله عليه وآله وسلم والرسول هو المرسل قال ابن الانباري يشبه ان يكون أصله ناقة مرسال ومرسلة اذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق ويقال جاء القوم أرسالا أي بعضهم في اثر بعض (يتلو عليهم آياتك) وهو القرآن (ويعلمهم الكتاب) أي معاني الكتاب من دلائل التوحيد والنبوة والاحكام الشرعية والكتاب هو القرآن (والحكمة) أي ويعلمهم الحكمة وهي الاصابة في القول والعمل ووضع كل شئ موضعه والمراد بالحكمة هنا المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم للشريعة وقال قتادة هي السنة وقيل هي الفصل بين الحق والباطل وقال ابن قتيبة هي العلم والعمل ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما وقال ابن دريد كل كلمة وعظتك أو دعتك الى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة وقيل ان المراد بالآيات ظاهر الالفاظ والكتاب معانيها والحكمة الحكم وهو مراد الله بالخطاب وقيل غير ذلك (ويزكيهم) التزكية التطهير من الشرك وسائر المعاصي (انك أنت العزيز الحكيم) أي الذي لا يعجزه شئ قاله ابن كيسان وقال الكسائي العزيز الغالب والحكيم العالم (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه) الاستفهام للانكار قال الزجاج وابن جني سفه بمعنى جهل أي جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها انها مخلوقة لله فيجب عليه عبادته وقال أبو عبيدة المعنى أهلك نفسه وقال الاخفش أي فعل بها من السفه ما صار به سفيها وقال الزمخشري امتهنها واستخف بها عن أبي العالية قال رغبت اليهود والنصارى عن ملته واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله وتركوا ملة ابراهيم الاسلام وبذلك بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وعن قتادة مثله فمن رغب عن الايمان بهذا الرسول الذي هو دعوة ابراهيم فقد رغب عن ملة ابراهيم فيه اشارة الى لزوم اتباع ملته فيما لم يثبت نسخه (ولقد اصطفيناه في الدنيا) تعليل للحصر قبله واللام جواب قسم محذوف والغرض منه الحجة والبيان لقوله ومن يرغب والاصطفاء الاختيار أي اخترناه في الدنيا بالرسالة والخلة كما شاهدوه ونقله جيل بعد جيل (وانه في الآخرة لمن الصالحين) أمر مغيب فاحتاج الاخبار به الى فضل تأكيد قيل مع الانبياء في الجنة أو الذين لهم الدرجات العلى فكيف يرغب عن ملته راغب (اذ قال له ربه أسلم) يحتمل ان يكون متعلقا بقوله اصطفيناه أي اخترناه وقت أمرنا له بالاسلام ويحتمل ان يتعلق بمحذوف هو اذكر قال في الكشاف كانه

قاتله ثم عاد ميتا كما كان فاخذ قاتله وهو الذى كان أتى موسى عليه السلام فشكى اليه فقتله الله على أسوإ عمله وقال محمد بن جرير حدثنى محمد بن سعيد حدثنى أبى حدثنى عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس فى قوله فى شأن البقرة وذلك أن شيخا من بنى اسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثرا من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم وكان الشيخ لا ولد له وكان بنو أخيه ورثته فقالوا ليت عمنا قد مات فورثنا ماله وانه لما تطاول عليهم أن لا يموت عمهم أتاهم الشيطان فقال لهم هل لكم الى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله وتغرموا أهل المدينة التى لستم بها ديته وذلك انهما كانتا (١٨٥) مدينتين كانوا فى أحدهما وكان القتيل اذا قتل وطرح بين المدينتين قيس ما بين القتيل والقريتين فايتهما كانت أقرب اليه غرمت الدية وانهم لما سول لهم الشيطان ذلك وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم عمدوا اليه فقتلوه ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التى ليسوا فيها فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشيخ فقالوا عمنا قتل على باب مدينتكم فوالله لتغرمن لنا دية عمنا قال أهل المدينة نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا وانهم عمدوا الى موسى عليه السلام فلما أتوه قال بنو أخى الشيخ عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم وقال أهل المدينة نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا وان جبرائيل جاء بأمر السميع العليم الى موسى عليه السلام فقال قل لهم ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فتضربوه ببعضها وقال السدى واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قال كان رجل من بنى اسرائيل مكثرا من المال فكانت له ابنة

قيل اذكر ذلك الوقت ليعلم انه المصطفى الصالح الذى لا يرغب عن ملة مثله وزاد أبو السعود وانه ما نال ما نال الا بالمبادرة للاذعان والانقياد لما أمره به واخلاص سره قال ابن عباس قال الله له ذلك حين خرج من السرب وذلك عند استدلاله بالكوكب واطلاعه على أمارات الحدوث فيها وافتقارها الى محدث مدبر ومعنى أسلم انقد لله وأخلص دينك وعبادتك له أو استقم وفوض أمورك الى الله أو أذعن وأطع أو اثبت على ما أنت عليه من الاسلام (قال أسلمت لرب العالمين) أى فوضت أمرى اليه قال ابن عباس وقد حقق ذلك حيث لم يستعن باحد من الملائكة حين ألقى فى النار (ووصى بها ابراهيم بنيه) الضمير فى بها راجع الى الملة الحنيفية أو الى الكلمة أى أسلمت لرب العالمين قال القرطبى وهو أصوب لانه أقرب مذكور أى قولوا أسلمنا انتهى والاول أرجح لان المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الاسلام فالتوصية بذلك أليق بابراهيم وأولى بهم قيل كانوا ثمانية منهم اسمعيل وهو أول أولاده وقيل أربعة عشر (ويعقوب) معطوف على ابراهيم أى ووصى يعقوب بنيه كما أوصى ابراهيم بنيه وكانوا اثنى عشر وقرئ بنصب يعقوب فيكون داخلا فيما أوصاه ابراهيم قال القشيرى وهو بعيد لان يعقوب لم يدرك جده ابراهيم وانما ولد بعد موته (يا بنى) قيل انه من مقول ابراهيم وقيل من مقول يعقوب (ان الله اصطفى لكم الدين) المراد بالدين ملته التى لا يرغب عنها الا من سفه نفسه وهى الملة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفى قوله (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) ايجاز بليغ والمراد الزموا الاسلام ولا تفارقوه حتى تموتوا وهذا استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لا تموتوا على حالة غير حالة الاسلام وليس فيه نهى عن الموت الذى هو قهرى ولهذا قال السيوطى نهى عن ترك الاسلام وأمر بالثبات عليه الى مصادفة الموت انتهى والمعنى ان موتهم لا على حال الثبات على الاسلام موت لا خير فيه وان حق هذا الموت ان لا يحصل فيهم عن فضيل بن عياض قال مسلمون أى محسنون بربكم الظن ويدل عليه ما روى عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول لا يموتن أحدا الا وهو يحسن الظن بربه أخرجاه فى الصحيحين (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت) أى ما كنتم حاضرين حين احتضر يعقوب وقرب من الموت وأم هذه قيل هى المنقطعة وقيل هى المتصلة وفى الهمزة الانكار المفيد للتقريع

(٢٤ ل ـ فتح البيان) وكان له ابن أخ محتاج فخطب اليه ابنته فابى أن يزوجه فغضب الفتى وقال والله لاقتلن عمى ولآخذن ماله ولانكحن ابنته ولا كان ديته فأتاه الفتى وقد قدم تجار فى بعض أسباط بنى اسرائيل فقال يا عم انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم لعلى أن أصيب منها فانهم اذا رأوك معى أعطونى فخرج العم مع الفتى ليلا فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع الى أهله فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه كأنه لا يدرى أين هو فلم يجده فانطلق نحوه فاذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فاخذهم وقال قتلتم عمى فأدوا الى ديته فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه وينادى واعماه فرفعهم الى موسى فقضى عليهم

بالدية فقالوا له يارسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية فوالله ان ديته علينا لهينة ولكن نستحي أن نعير به فذلك حين يقول تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقال لهم موسى ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا نسألك عن القتيل وعمن قتله وتقول اذبحوا بقرة أتهزأ بنا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قال ابن عباس فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لاجزأت عنهم ولكن شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك والفارض الهرمة التي لا تولد والبكر التي لم تلد الا ولدا واحدا والعوان النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها قال نقي لونها تسر الناظرين قال تعجب الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها من بياض ولا سواد ولا حمرة قالوا الآن جئت بالحق فطلبوها فلم يقدروا عليها وكان رجل في بني اسرائيل من أبر الناس بأبيه وان رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه وكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح فقال له الرجل تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا فقال له الفتى كما أنت حتى يستيقظ أبي فآخذه منك بثمانين ألفا قال الآخر أيقظ أباك وهو لك بستين ألفا فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألف وزاد الآخر على ان ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف فلما أكثر عليه قال والله لا أشتريه منك بشيء أبدا وأبى أن يوقظ أباه فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ ان جعل له تلك البقرة فمرت به بنو اسرائيل يطلبون البقر وأبصروا البقرة عنده فسألوه واصحابهما أن يبيعهم اياها ببقرة بقرة فأبى فاعطوه ثنتين فابى فزادوه حتى بلغوا عشرا فقالوا والله لا نتركك حتى نأخذها منك فانطلقوا به الى موسى عليه السلام فقالوا يا نبي الله انا وجدنا هاعند هذا وأبى أن يعطينا ها وقد أعطيناه ثمنا فقال له موسى أعطهم بقرتك فقال يارسول الله أنا أحق بمالي فقال صدقت وقال للقوم أرضوا صاحبكم فاعطوه وزنها ذهبا فأبى فاضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهبا فباعهم اياها وأخذ ثمنها فذبحوها قال اضربوه ببعضها فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش فسألوه من قتلك

والتوبيخ والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون الى ابراهيم والى بنيه انهم على اليهودية والنصرانية فرد الله ذلك عليهم وقال لهم أشهدتم يعقوب وعلمتم ما أوصى به بنيه فتدعون ذلك عن علم أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون والشهداء جمع شاهد ولم ينصرف لان فيه ألف التأنيث التي لتأنيث الجماعة والمراد بحضور الموت حضور مقدماته وسمي يعقوب لانه هو وأخوه العيص كانا توأمين في بطن واحد فتقدم العيص وقت الولادة في الخروج مسابقة ليعقوب فتأخر يعقوب عنه ونزل على اثره وعقبه في الخروج (اذ قال لبنيه) يعني لاولاده الاثني عشر (ما تعبدون) أي أي شيء تعبدون وانما جاء بما دون من لان المعبودات من دون الله غالبها جمادات كالاوثان والنار والشمس والكواكب (من بعدي) أي من بعد موتي (قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق) واسمعيل وان كان عما ليعقوب فان العرب تسمي العم أبا والخالة أما وعم الرجل صنو أبيه وقرئ أبيك فقيل أراد ابراهيم وحده ويكون اسمعيل واسحق عطفا على أبيك وان كان هو أباه حقيقة وابراهيم جده ولكن لابراهيم مزيد خصوصية وقيل أبيك جمع كما روي عن سيبويه ان أبين جمع سلامة ومثله أبون وقدم اسمعيل على اسحق لانه أسبق منه في الولادة باربع عشرة سنة وانه جد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم (الها واحدا ونحن له مسلمون) أي مخلصون التوحيد والعبودية (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) تلك اشارة الى ابراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه وما بعده بيان لحال تلك الامة وحال المخاطبين بان لكل من الفريقين كسبه لا ينفعه كسب غيره ولا ينال منه بشيء ولا يضره ذنب غيره وفيه الرد على من يتكل على عمل سلفه ويروح نفسه بالاماني الباطلة ومنه ما ورد في الحديث من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه والمراد انكم لا تنتفعون بحسناتهم ولا تؤاخذون بسيئاتهم وفيه ابطال مذهب من يجيز تعذيب أولاد المشركين تبعا لآبائهم قال ابن فارس وفيه اثبات الكسب للعبد (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) أي عن أعمالهم كما لا يسئلون عن أعمالكم ومثله ولا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا ما سعى (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) وهذا فن آخر من فنون كفرهم واضلالهم لغيرهم اثر بيان ضلالاتهم في نفسهم قال ابن عباس نزلت في رؤساء اليهود كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وفي نصارى نجران السيد والعاقب

فقال لهم ابن أخي قال أقتله فأخذ ماله وأنكح ابنته فاخذوا الغلام فقتلوه وقال سنيد حدثنا حجاج هو ابن محمد عن ابن جريج عن مجاهد وحجاج عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا ان سبطا من بني اسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس فكانوا اذا أمسوا لم يتركوا أحدا منهم خارجا الا أدخلوه واذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وأشرف فاذا لم ير شيأ فتح المدينة فكانوا مع الناس حتى يمسوا قال وكان رجل من بني اسرائيل له مال كثير ولم يكن له وارث غير أخيه فطال عليه حياته فقتله ليرثه ثم حمله فوضعه على باب المدينة ثم كمن في مكان هو وأصحابه قال فاشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر فلم ير شيأ ففتح الباب فلما رأى القتيل رد الباب فناداه أخو المقتول وأصحابه هيهات قتلتموه ثم تردون الباب وكان موسى لما رأى القتل كثيرا في بني اسرائيل كان اذا رأى القتيل بين ظهراني القوم أخذهم فكاد يكون بين أخي المقتول وبين أهل المدينة قتال حتى لبس الفريقان السلاح ثم كف بعضهم عن بعض فأتوا موسى فذكروا له شأنهم قالوا يا موسى ان هؤلاء قتلوا قتيلا ثم ردوا الباب قال أهل المدينة يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور وبنينا مدينة كما رأيت نعتزل شرور الناس والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا فأوحى الله تعالى اليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة وهذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف قما والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني اسرائيل وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدق ولا تكذب فلهذا لا يعتمد عليها الا ما وافق الحق عندنا

وأصحابهما خاصموا المؤمنين في الدين فكل فريق منهم يزعم انه أحق بدين الله (قل بل ملة ابراهيم حنيفا) أي قل يا محمد في الرد عليهم هذه المقالة بل الهدى ملة ابراهيم والحنيف المائل عن الاديان الباطلة الى دين الحق وهو في أصل اللغة الذي تميل قدماه كل واحدة الى أختها أي تتبع ملة ابراهيم حال كونه حنيفا وقال قوم الحنف الاستقامة فسمي دين ابراهيم حنيفا لاستقامته ويسمى معوج الرجلين أحنف تفاؤلا بالاستقامة كما قيل للديغ سليم وللمهلكة مفازة وقال مجاهد حنيفا متبعا وقال ابن عباس حاجا وعن خصيف قال الحنيف المخلص وقال أبو قلابة الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم الى آخرهم وأخرج أحمد عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثت بالحنيفية السمحة وأخرج أحمد والبخاري في الادب المفرد وابن المنذر عن ابن عباس قال قيل يا رسول الله أي الاديان أحب الى الله قال الحنيفية السمحة ونصب ملة على الاغراء قاله أبو عبيدة أي الزموها (وما كان) أي ابراهيم (من المشركين) وفي نفي كونه من المشركين تعريض باليهود لقولهم عزير ابن الله وبالنصارى لقولهم المسيح ابن الله أي ان ابراهيم ما كان على هذه الحالة التي أنتم عليها من الشرك بالله فكيف تدعون عليه انه كان على اليهودية أو النصرانية وتدعون أنكم على ملته (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا) أي القرآن (وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحاق ويعقوب والاسباط) أي الصحف وهذا خطاب للمسلمين وأمر لهم بأن يقولوا لهم هذه المقالة وقيل انه خطاب للكفار بأن يقولوا ذلك حتى يكونوا على الحق والاول أولى وأعاد الموصول لئلا يتوهم من اسقاطه اتحاد المنزل مع أنه ليس كذلك وذكر اسمعيل وما بعده لكونهم مروجين لها متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها ومقررين لما أنزل على ابراهيم فكأنه منزل عليهم أيضا والا فليسوا منزلا عليهم في الحقيقة والاسباط أولاد يعقوب وهم اثنا عشر ولدا ولكل واحد من الاولاد جماعة والسبط في بني اسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب وسموا الاسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة متتابعون وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر وقيل الاسباط حفدة يعقوب أي أولاد أولاده لا أولاده لان الكثرة انما كانت فيهم دون أولاد يعقوب في نفسه فهم أفراد لا أسباط (وما أوتي موسى) من التوراة وعبر بالايتاء دون الانزال فرارا من التكرار الصوري الموجب

والله أعلم (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) أخبر تعالى عن تعنت بني اسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ولهذا ما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ولو انهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم كما قال ابن عباس وعبيدة وغيرهما واحد ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا ادع لنا ربك

يبين لنا ماهى أى ماهذه البقرة وأى شئ صفتها قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا هشام بن على عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ولكنهم شددوا فشدد عليهم اسناد صحيح وقد رواه غير واحد عن ابن عباس وكذا قال عبيدة والسدى ومجاهد وعكرمة وأبو العالية وغير واحد وقال ابن جريج قال لى عطاء لو أخذوا أدنى بقرة لكفتهم قال ابن جريج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أمروا بادنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم وايم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد قال انه (١٨٨) يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر أى لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلقحها الفحل كما قاله أبو العالية والسدى ومجاهد وعكرمة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى ووهب بن منبه والضحاك والحسن وقتادة وقاله ابن عباس أيضا وقال الضحاك عن ابن عباس عوان بين ذلك يقول نصف بين الكبيرة والصغيرة وهى أقوى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما تكون وروى عن عكرمة ومجاهد وأبى العالية والربيع بن أنس وعطاء الخراسانى والضحاك نحو ذلك وقال السدى العوان النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها وقال هشيم عن جويبر عن كثير بن زياد عن الحسن فى البقرة كانت بقرة وحشية وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس من لبس نعلا صفراء لم يزل فى سرور ما دام لابسها وذلك قوله تعالى تسر الناظرين وكذا قال مجاهد ووهب بن منبه كانت صفراء وعن ابن عمر كانت صفراء الظلف وعن سعيد بن جبير كانت صفراء القرن والظلف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا نصر بن على حدثنا نوح بن قيس أنبأنا أبو رجاء عن الحسن فى قوله تعالى بقرة صفراء فاقع لونها قال سوداء شديدة السواد وهذا غريب والصحيح الاول الصحة ولهذا أكد صفرتها بانه فاقع لونها وقال عطية العوفى فاقع لونها تكاد تسود من صفرتها وقال سعيد بن جبير فاقع لونها قال صافية اللون وروى عن أبى العالية والربيع بن أنس والسدى والحسن وقتادة نحوه وقال شريك عن معمر عن ابن عمر فاقع لونها قال صاف وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فاقع لونها شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقال السدى تسر الناظرين أى تعجب الناظرين وكذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وقال وهب بن منبه اذا نظرت الى جلدها تخيلت أن شعاع

للثقل فى العبارة (وعيسى) من الانجيل ولم يقل وما أوتى عيسى اشارة الى اتحاد المنزل عليه مع المنزل على موسى فان الانجيل مقرر للتوراة ولم يخالفها الا فى قدر يسير فيه تسهيل كما قال ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم (وما أوتى النبيون) المذكورون وغيرهم (من ربهم) يعنى والكتب التى أوتى جميع الانبياء وذلك كله حق وهدى ونور وان الجميع من عند الله وان جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق (لا نفرق) فى الايمان (بين أحد منهم) بل نؤمن بكل الانبياء قال الفراء معناه لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى قال فى الكشاف أحد فى معنى الجماعة ولذلك صح دخول بين عليه وليس كونه فى معنى الجماعة من جهة كونه نكرة فى سياق النفى كما سبق الى كثير من الاذهان وقال القرافى ان أحدا الذى لا يستعمل الا فى النفى معناه انسان باجماع أهل اللغة وأحدا الذى يستعمل فى الاثبات معناه الفرد من العدد اذا كان مسمى أحد اللفظين غير مسمى الآخر فى اللغة وضابط الاشتقاق أن تجد بين اللفظين مناسبة فى اللفظ والمعنى ولا يكفى أحدهما تغايرا فى الاشتقاق فان وجدت المقصود به انسان فالفه ليست منقلبة عن واو وان وجدت المقصود به نصف الاثنين من العدد فهو الصالح للاثبات والنفى وألفه منقلبة عن واو انتهى وقد حقق المقام الخفاجى فى العناية فليرجع اليه (ونحن له مسلمون) أى ونحن لله تعالى خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ فى ركعتى الفجر فى الاولى منهما الآية التى فى البقرة قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا الآية وفى الاخرة آمنا بالله واشهد بانا مسلمون وأخرج البخارى من حديث أبى هريرة كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله الآية (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) هذا خطاب للمسلمين أيضا أى فان آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد اهتدوا وعلى هذا فمثل زائدة كقوله ليس كمثله شئ وقيل ان المماثلة وقعت بين الايمانين أى فان آمنوا بمثل ايمانكم وقال فى الكشاف انه من باب التبكيت لان دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الاسلام أى فان حصلوا دينا آخر مثل دينكم مساويا له فى

الشمس يخرج من جلدها وفى التوراة انها كانت حمراء فلعل هذا خطأ فى التعريب أو كما قال الاول انها كانت شديدة الصفرة تضرب الى حمرة وسواد والله أعلم وقوله تعالى ان البقر تشابه علينا أى لكثرتها فميزانا هذه البقرة وصفها وحلها لنا وانا ان شاء الله اذا بينتها لنا لمهتدون اليها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن يحيى الاودى الصوفى حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد حدثنا سرور ابن المغيرة الواسطى ابن أخى منصور بن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا ان بنى اسرائيل قالوا وانا ان شاء الله لمهتدون لما أعطوا ولكن استثنوا ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من وجه آخر عن سرور بن المغيرة عن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن حديث أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا ان بنى اسرائيل قالوا وانا ان شاء الله لمهتدون ما أعطوا أبدا ولو انهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لاجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم وهذا حديث غريب من هذا الوجه وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة كما تقدم مثله عن السدى والله أعلم قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث أى انها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقى فى الساقية بل هى مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها لا شية فيها أى ليس فيها لون غير لونها وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مسلمة يقول لا عيب فيها وكذا قال أبو العالية والربيع وقال مجاهد مسلمة من الشية وقال عطاء الخراسانى مسلمة القوائم والخلق لا شية فيها قال مجاهد لا بياض ولا سواد وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ليس فيها بياض وقال عطاء الخراسانى لا شية فيها قال لونها واحد بهيم وروى عن عطية العوفى ووهب بن منبه واسمعيل بن أبى خالد نحو ذلك وقال السدى لا شية فيها من بياض ولا سواد ولا حمرة وكل هذه الاقوال متقاربة فى المعنى وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى انها بقرة لا ذلول ليست بمذللة بالعمل ثم استأنف فقال تثير الارض أى يعمل عليها بالحراثة لكنها لا تسقى الحرث وهذا ضعيف لانه فسر الذلول الذى لم تذلل بالعمل بانها لا تثير الارض ولا تسقى الحرث كذا قرره القرطبى وغيره قالوا الآن جئت بالحق قال قتادة الآن بينت لنا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقيل ذلك والله

الصحة والسداد فقد اهتدو وقيل ان الباء زائدة مؤكدة وقيل انها للاستعانة (وان تولوا فانما هم فى شقاق) أصله من الشق وهو الجانب كان كل واحد من الفريقين فى جانب غير الجانب الذى فيه الآخر وقيل انه ماخوذ من فعل ما يشق ويصعب فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين قال أبو العالية فى شقاق أى فراق وقيل فى خلاف ومنازعة وقيل فى عداوة ومحاربة وقيل فى ضلال (فسيكفيكهم الله) أى من شر اليهود والنصارى والكفاية وعد وضمان من الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه سيكفيه من عانده وخالفه من المتولين وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة والنضير وبنى قينقاع وفيه معجزة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو اخبار بغيب (وهو السميع) لاقوالهم (العليم) بأحوالهم يسمع جميع ما ينطقون به ويعلم جميع ما يضمرون من الحسد والغل وهو مجازيهم ومعاقبهم (صبغة الله) الخطاب للمسلمين أى قولوا للنصارى هذه المقالة والمعنى صبغنا الله بالايمان قال الاخفش وغيره أى دين الله وهى فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ والمعنى تطهير الله لان الايمان يطهر النفوس انتهى وقال ابن عباس دين الله وقال مجاهد فطرة الله التى فطر الناس عليها وأخرج ابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ان بنى اسرائيل قالوا يا موسى هل يصبغ ربك فقال اتقوا الله فناداه ربه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم أنا أصبغ الالوان الاحمر والابيض والاسود والالوان كلها فى صبغتى وأنزل الله على نبيه صبغة الله الآية وعنه صبغة الله البياض وقد ذكر المفسرون ان أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى الماء وهو الذى يسمونه المعمودية ويجعلون ذلك تطهيرا لهم فاذا فعلوا ذلك قالوا الآن صار نصرانيا حقا فرد الله عليهم بقوله صبغة الله أى الاسلام ولا صبغة أحسن من صبغة الاسلام ولا أطهر وهو دين الله الذى بعث به نوحا ومن كان بعده من الانبياء وسماه صبغة استعارة قال البغوى اطلاق مادة لفظ الصبغ على التطهير مجاز تشبيهى وتقرير المشاكلة هنا مبسوط فى التلخيص وشرحه للسعد وقيل الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول فى الاسلام بدلا من معموديه النصارى ذكره الماوردى وقيل الصبغة الختان لانه يصبغ المختتن بالدم وقيل الصبغة سنة

جاءهم الحق فذبحوها وما كادوا يفعلون قال الضحاك عن ابن عباس كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذي ارادوا لانهم ارادوا ان لا يذبحوها يعني انهم مع هذا البيان وهذه الاسئلة والاجوبة والايضاح ماذبحوها الا بعد الجهد وفي هذا ذم لهم وذلك انه لم يكن غرضهم الا التعنت فلهذا ما كادوا يذبحونها وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس فذبحوها وما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها وفي هذا نظر لان كثرة الثمن لم يثبت الا من نقل بني اسرائيل كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي ورواه العوفي عن ابن عباس وقال عبيدة ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية (١٩٠) وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم انهم اشتروها بمال كثير وفيه اختلاف ثم

الله (ومن أحسن من الله صبغة) أي دينا وقيل تطهيرا لانه يطهر من أوساخ الكفر (ونحن له عابدون) أي مطيعون (قل أتحاجوننا في الله) أي قل يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا ان دينهم خير من دينكم أتجادلوننا وتخاصموننا في دين الله الذي أمرنا أن نتدين به وانقرب منه والحظوة عنده وذلك كقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه والمحاجة المجادلة لاظهار الحجة (وهو ربنا وربكم) أي نشرك نحن وأنتم في ربوبيته لنا وعبوديتنا له فكيف تدعون أنكم أولى به منا وتحاجوننا في ذلك وله أن يصطفي من عباده من يشاء (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) فلستم بأولى بالله منا وهو مثل قوله تعالى فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بري ء مما تعملون (ونحن له مخلصون) أي نحن أهل الاخلاص للعبادة دونكم وهو المعيار الذي يكون به التفاضل والخصلة التي يكون صاحبها أولى بالله سبحانه من غيره فكيف تدعون لانفسكم ما نحن أولى به منكم وأحق والجمل الثلاث أحوال وفي الآية توبيخ لهم وقطع لما جاؤا به من المجادلة والمناظرة قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف (أم تقولون) أم هنا معادلة للهمزة في قوله أتحاجوننا أي أم تقولون ان هؤلاء الانبياء على دينكم وعلى قراءة يقولون بالياء تكون أم منقطعة أي بل يقولون وفيه تقريع وتوبيخ (ان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى) يعني أتزعمون أن ابراهيم وبنيه كانوا على دينكم وملتكم وانما حدثت اليهودية والنصرانية بعدهم فثبت كذبكم عليهم (قل أأنتم أعلم أم الله) أي الله أعلم بذلك وقد أخبرنا بانهم لم يكونوا هودا ولا نصارى وأنتم تدعون أنهم كانوا كذلك فهل أنتم أعلم أم الله سبحانه والتفضيل على سبيل الاستهزاء أو على تقدير أن يظن بهم علم في الجملة والا فلا مشاركة (ومن أظلم ممن كتم) أي أخفى (شهادة عنده من الله) استفهام انكار أي لا أحد أظلم يحتمل ان يراد بذلك الذم لاهل الكتاب بانهم يعلمون أن هؤلاء الانبياء ما كانوا هودا ولا نصارى بل كانوا على الملة الاسلامية فظلموا أنفسهم بكتمهم لهذه الشهادة بل بادعائهم لما هو مخالف لها وهو أشد في الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذي لا أحد أظلم منه ويحتمل أن المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب وقيل المراد هنا ما كتموه من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد شديد وتهديد ليس عليه مزيد

قد قيل في ثمنها غير ذلك وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة أخبرني محمد بن سوقة عن عكرمة قال ما كان ثمنها الا ثلاثة دنانير وهذا اسناد جيد عن عكرمة والظاهر انه نقله عن أهل الكتاب أيضا وقال ابن جرير وقال آخرون لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة ان اطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه ولم يسنده عن أحد ثم اختار ان الصواب في ذلك انهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة وفي هذا نظر بل الصواب والله أعلم ما تقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ما وجهناه وبالله التوفيق

(مسئلة) استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الاطلاق على صحة السلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والاوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفا وخلفا بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنها ينظر اليها وكما وصف النبي صلى الله عليه وسلم ابل الدية في قتل الخطا وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث وقال أبو حنيفة واعلام والثوري والكوفيون لا يصح السلم في الحيوان لانه لا تنضبط أحواله وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن ابن سمرة وغيرهم (واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) قال البخاري فادارأتم فيها اختلفتم وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن ابي حاتم عن أبيه عن أبي حذيفة عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد انه قال في قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها اختلفتم وقال عطاء الخراساني والضحاك

اختصمتم فيها وقال ابن جريج واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها قال قال بعضهم أنتم قتلتموه وقال آخرون بل انتم قتلتموه وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والله مخرج ما كنتم تكتمون قال مجاهد ما تغيبون وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرة بن أسلم البصري حدثنا محمد بن الطفيل العبدي حدثنا صدقة بن رستم سمعت المسيب بن رافع يقول ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات الا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات الا أظهرها الله وتصديق ذلك في كلام الله والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها هذا البعض أي شئ كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن وقد كان معينا في نفس الامر فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين او الدنيا لبينه الله تعالى لنا ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه الله ولهذا قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ان أصحاب بقرة بني اسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقرله وكانت بقرة تعجبه قال فجعلوا يعطونه بها فيابى حتى أعطوه ملء مسكها دنانير فذبحوها فضربوه يعني القتيل بعضو منها فقام تشخب أوداجه دما فقالوا له من قتلك قال قتلني فلان وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم انه ضرب ببعضها وفي رواية عن ابن عباس انه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف وقال عبد الرزاق أنبانا معمر قال قال أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة ضربوا القتيل ببعض لحمها قال معمر قال قتادة ضربوه بلحم فخذها فعاش فقال قتلني فلان وقال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا النضر بن عربي عن عكرمة فقلنا اضربوه ببعضها فضرب بفخذها فقام فقال قتلني فلان قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وقتادة وعكرمة نحو ذلك وقال السدي فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش فسألوه فقال قتلني ابن أخي وقال أبو العالية أمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما من عظامها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع اليه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فضربوه ببعض ارابها وقيل بلسانها وقيل بعجب ذنبها وقوله تعالى كذلك يحيي الله الموتى أي فضربوه فحي ونبه تعالى على قدرته واحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر

واعلام بان الله سبحانه لا يترك أمرهم سدى ولا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح والذنب الفظيع والغافل الذي لا يفطن للامور اهما لا منه مأخوذ من الارض الغفل وهي التي لا علم بها ولا أثر عمارة وقال الكسائي أرض غفل لم تمطر وكرر قوله سبحانه (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) لتضمنها معنى التهديد والتخويف الذي هو المقصود في هذا المقام وتلك اشارة الى ابراهيم واسمعيل ويعقوب والاسباط وقيل لانه اذا اختلف مواطن الحجاج والمجادلة حسن تكريره للتذكير به وتأكيده وقيل انما كرره تنبيها لليهود ولمن يتكل على فضل الآباء وشرفهم أي لا تتكلوا على فضل الآباء فكل يؤخذ بعمله وكل انسان يسئل يوم القيامة عن كسبه لا عن كسب غيره وفيه وعظ وزجر وهذا كالاول (سيقول السفهاء من الناس) هذا اخبار من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود والمشركين والمنافقين سيقولون هذه المقالة قيل ان سيقول بمعنى قال وانما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته والاستمرار عليه وقيل ان الاخبار بهذا الخبر كان قبل التحول الى الكعبة وان فائدة ذلك أن الاخبار بالمكروه اذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهوين الصدمته وتخفيف الروعته وكسر السورته والسفهاء جمع سفيه وهو الكذاب البهات المتعمد خلاف ما يعلم كذا قال بعض أهل اللغة وقال في الكشاف هم خفاف الاحلام ومثله في القاموس وقد تقدم في تفسير قوله الا من سفه نفسه ما ينبغي الرجوع اليه قيل نزلت هذه الآية في اليهود وذلك أنهم طعنوا في تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة لانهم لا يرون النسخ وقيل نزلت في مشركي مكة وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمره واشتاق مولده وقد توجه نحو بلدكم فلعله يرجع الى دينكم وقيل نزلت في المنافقين وانما قالوا ذلك استهزاء بالاسلام وقيل يحتمل أن لفظ السفهاء للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم اذ لا فائدة في التخصيص ولان الاعداء يبالغون في الطعن والقدح فاذا وجدوا مقالا قالوا ومجالا جالوا والاتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الاخبار بالغيب وعليه أكثر المفسرين وحكمته أنهم كما قالوا ذلك في الماضي منهم أيضا من يقوله في المستقبل كما قال البيضاوي تبعا للكشاف (ما ولاهم) أي ما صرفهم (عن

القتيل جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من احياء الموتى في خمسة مواضع ثم بعثناكم من بعد موتكم وهذه القصة وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها وقصة ابراهيم عليه السلام والطيور الاربعة ونبه تعالى باحياء الارض بعد موتها على اعادة الاجسام بعد صيرورتها رميما كما قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة أخبرني يعلى بن عطاء قال سمعت وكيع بن عدس يحدث عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه (١٩٢) قال قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى قال أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضرا قال بلى قال كذلك النشور أو قال كذلك يحيي الله الموتى وشاهد هذا قوله تعالى وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون *(مسئلة)* استدل لمذهب الامام مالك في كون قول الجريح فلان قتلني لوثا بهذه القصة لان القتيل لما حي سئل عمن قتله فقال فلان قتلني فكان ذلك مقبولا منه لانه لا يخبر حينئذ الا بالحق ولا يتهم والحالة هذه ورجحوا ذلك لحديث أنس أن يهوديا قتل جارية على أوضاح لها فرضخ رأسها بين حجرين فقيل من فعل بك هذا أفلان أفلان حتى ذكروا اليهودي فأومأت برأسها فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرض رأسه بين حجرين وعند مالك اذا كان لوثا حلف أولياء القتيل قسامة وخالف الجمهور في ذلك ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثا (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) يقول تعالى توبيخا لبني اسرائيل وتقريعا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى واحيائه الموتى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك كله فهي كالحجارة التي لا تلين أبدا ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس لما ضرب المقتول

قبلتهم) وهي بيت المقدس (التي كانوا عليها) أي ثابتين مستمرين على التوجه اليها ومراعاتها واعتقاد حقيتها والقبلة هي الجهة التي يستقبلها الانسان وانما سميت قبلة لان المصلي يقابلها وتقابله ولما قال السفهاء ذلك رد الله عليهم بقوله (قل لله المشرق والمغرب) فله أن يأمر بالتوجه الى أي جهة شاء لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية تمنع اقامة غيره مقامه وانما العبرة بارتسام أمره أي امتثاله لا بخصوص المكان وتخصيص هاتين الجهتين بالذكر لمزيد ظهورهما حيث كان أحدهما مطالع الانوار والاصباح والآخر مغاربها ولكثرة توجه الناس اليهما لتحقيق الاوقات لتحصيل المقاصد والمهمات ذكره الكرخي (يهدي من يشاء) من عباده اشعار بأن تحويل القبلة الى الكعبة من الهداية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولاهل ملته (الى صراط مستقيم) يعني الى جهة الكعبة وهي قبلة ابراهيم عليه السلام وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن البراء ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله من الانصار وانه صلى الى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وان أول صلاة صلاها العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الكعبة فداروا قبل البيت كما هم وكانت اليهود قد أعجبهم اذ كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فانزل الله وما كان الله ليضيع ايمانكم الآية وله طرق آخر وألفاظ متقاربة وعن ابن عباس قال ان أول ما نسخ في القرآن القبلة وعنه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعد ما تحول الى المدينة ستة عشر شهرا ثم صرفه الله الى الكعبة وفي الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدم وكذلك وردت أحاديث في الوقت الذي نزل فيه استقبال القبلة وفي كيفية استدارة المصلين لما بلغهم ذلك وقد كانوا في الصلاة فلا نطول بذكرها فيه الرد على من أنكر النسخ ودلالة على جواز نسخ السنة بالقرآن لان استقبال بيت المقدس كان ثابتا بالسنة الفعلية لا بالقرآن (وكذلك) أي كما أن الكعبة وسط الارض كذلك (جعلناكم أمة وسطا) أي عدولا خيارا والوسط الخيار

ببعض البقرة جلس أحيانا ما كان قط فقيل له من قتلك قال بنو أخي قتلوني ثم قبض فقال بنو أخيه حين قبضه الله والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك يعني أبناء أخي الشيخ فهي كالحجارة أو أشد قسوة فصارت قلوب بني اسرائيل مع طول الامد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فان من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالانهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وان لم يكن جاريا ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه ادراك لذلك بحسبه (١٩٣) كما قال تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد انه كان يقول كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله أي وان من الحجارة لا ألين من قلوبكم عما تدعون اليه من الحق وما الله بغافل عما تعملون وقال أبو علي الجياني في تفسيره وان منها لما يهبط من خشية الله هو سقوط البرد من السحاب قال القاضي الباقلاني وهذا تاويل بعيد وتبعه في استبعاده الرازي وهو كما قال فان هذا خروج عن اللفظ بلا دليل والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا الحكم بن هشام الثقفي حدثني يحيى ابن أبي طالب يعني ويحيى بن يعقوب في قوله تعالى وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار قال كثرة البكاء وان منها لما يشقق فيخرج منها الماء قال قليل البكاء وان منها لما يهبط من خشية الله قال بكاء القلب من غير دموع العين وقد زعم بعضهم ان هذا من باب المجاز وهو اسناد الخشوع الى الحجارة كما أسندت الارادة الى الجدار في قوله يريد أن ينقض قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الائمة ولا حاجة الى هذا فان الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وقال تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن الآية وقال والنجم والشجر

الخيار والعدل والآية تحتملهما وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفسير الوسط هنا بالعدل رواه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد مرفوعا فوجب الرجوع الى ذلك ولما كان الوسط مجانبا للغلو والتقصير كان محمودا أي هذه الامة لم تغل غلو النصارى في عيسى ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم ويقال فلان أوسط قومه وواسطتهم ووسطهم أي خيارهم والآية دلت على ان الاجماع حجة اذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت به عدالتهم أي اختلت قاله الكرخي وفيه دلالة على تفضيل هذه الامة على سائر الامم (لتكونوا) اللام لام كي فتفيد العلية أو هي لام الصيرورة (شهداء على الناس) يعني يوم القيامة أي تشهدون للانبياء على أممهم انهم قد بلغوهم ما أمرهم الله بتبليغه اليهم وقالت طائفة معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت وقيل المراد لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح الا بشهادة العدول (ويكون الرسول عليكم شهيدا) أي على أمته بانهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه اليهم ومثله قوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقيل عليكم بمعنى لكم أي يشهد لكم بالايمان وقيل معناه يشهد عليكم بالتبليغ لكم قال في الكشاف لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جئ بكلمة الاستعلاء ومنه قوله تعالى والله على كل شئ شهيد وكنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد انتهى وانما أخر لفظ على في شهادة الامم على الناس وقدمها في شهادة الرسول عليهم لان الغرض كما قال صاحب الكشاف في الاول اثبات شهادتهم على الامم وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم وقيل ان شهيدا أشبه بالفواصل والمقاطع من عليكم فكان قوله شهيدا تمام الجملة ومقطعها دون عليكم وهذا الوجه يرد على الزمخشري مذهبه من أن تقديم المفعول يشعر بالاختصاص وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فذلك قوله يعني هذه الآية فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من

يسجدان أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله الآية قالتا أتينا طائعين لو أنزلنا هذا القرآن على جبل الآية وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الآية وفى الصحيح هذا جبل يحبنا ونحبه وكحنين الجذع المتواتر خبره وفى صحيح مسلم انى لاعرف حجرا بمكة يسلم على قبل أن أبعث انى لاعرفه الآن وفى صفة الحجر الاسود انه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة وغير ذلك مما فى معناه وحكى القرطبى قولا انها للتخيير أى مثلا لهذا وهذا ومثل جالس الحسن أو ابن سيرين وكذا حكاه الرازى فى تفسيره وزاد قولا آخر انها للابهام بالنسبة الى (١٩٤) المخاطب كقول القائل أكلت خبزا أو تمرا وهو يعلم أيهما أكل وقال آخر انها بمعنى قول القائل كل حلوا أو حامضا أى لا يخرج عن واحد منهما أى وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين والله أعلم *(تنبيه)* اختلف علماء العربية فى معنى قوله تعالى فهى كالحجارة أو أشد قسوة بعد الاجماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم أو ههنا بمعنى الواو وتقديره فهى كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى ولا تطع منهم آثما أو كفورا عذرا أو نذرا وكما قال النابغة الذبيانى

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا
الى حمامتنا أو نصفه فقد

تريد ونصفه قاله ابن جرير وقال جرير بن عطية

نال الخلافة أو كانت له قدرا
كما أتى ربه موسى على قدر

قال ابن جرير يعنى نال الخلافة وكانت له قدرا وقال آخرون أو ههنا بمعنى بل فتقديره فهى كالحجارة بل أشد قسوة وكقوله اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فكان قاب قوسين أو أدنى وقال آخرون معنى ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة عندكم حكاه ابن جرير وقال آخرون المراد وقيل بذلك الابهام على المخاطب كما قال أبو الاسود

أحب محمدا حبا شديدا * وعباسا وحمزة والوصيا

فان يك حبهم رشدا أصبه * وليس بمخطئ ان كان غيا

قال ابن جرير قالوا ولا شك أن أبا الاسود لم يكن شاكا فى أن حب من سمى رشد ولكنه أبهم على من خاطبه قال وقد ذكر عن أبى الاسود انه لما قال هذه الابيات قيل له شككت فقال كلا والله ثم انتزع يقول الله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين فقال أو كان شاكا من أخبر بهذا من الهادى منهم ومن الضال وقال

الناس أحد الا وددنا انه منا وما من نبى كذبه قومه الا ونحن نشهد انه بلغ رسالة ربه وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال مروا بجنازة فأثنى عليها خيرا فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم وجبت ثلاثا ومروا بجنازة فأثنى عليها شرا فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم وجبت ثلاثا فسأله عمر فقال من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار أنتم شهداء الله فى الارض ثلاثا زاد الحكيم الترمذى ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية وفى الباب أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة عند أهل الصحاح والسنن وغيرهم (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها) المراد بهذه القبلة هى بيت المقدس ويؤيد هذا قوله كنت عليها اذ كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة الى الكعبة وقيل المراد الكعبة أى القبلة التى أنت عليها الآن بعد أن كانت الى بيت المقدس ويكون كنت بمعنى الحال وقيل المراد بذلك القبلة التى كان عليها قبل استقبال بيت المقدس فانه كان يستقبل فى مكة الكعبة ثم لما هاجر توجه الى بيت المقدس تألفا لليهود ثم صرف الى الكعبة وفيه أعاريب خمسة أحسنها ما ذكرناه (الا لنعلم) استثناء مفرغ من أعم العلل (من يتبع الرسول) فى التوجه الى ما أمر به من القبلة أو الدين والالتفات الى الغيبة مع ايراده صلى الله عليه وآله وسلم بعنوان الرسالة للاشعار بعلة الاتباع (ممن ينقلب على عقبيه) أى يرجع الى الكفر وقد ارتد ذلك جماعة والمعنى ما جعلناها الا لنبتليهم يعنى من يسلم لامره ممن يرجع الى ما كان عليه من الكفر فيرتد قال ابن عباس لنميز أهل اليقين من أهل الشك قيل المراد بالعلم هنا الرؤية وقيل ليعلم النبى وقيل المراد لنعلم ذلك موجودا حاصلا وهكذا ما ورد معللا بعلم الله سبحانه لابد أن يأول بمثل هذا كقوله وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء (وان كانت لكبيرة) أى ما كانت الا كبيرة كما قاله الفراء والضمير فى كانت راجع الى ما يدل عليه قوله وما جعلنا القبلة التى كنت عليها من التحويلة والتولية أو الجعلة أو الردة ذكر معنى ذلك الاخفش ولا مانع من أن يرجع الضمير الى القبلة المذكورة أى وان كانت القبلة المتصفة بانك كنت عليها لكبيرة أى تحويلها على أهل الشرك والريب قاله ابن عباس (الا على الذين هدى الله) أى هداهم للايمان فانشرحت صدورهم لتصديقك وقبلت ما جئت به عقولهم وهذا الاستثناء مفرغ لان ما قبله فى قوة النفى أى انها لا تخف ولا تسهل الا على أهل الهدى

بعضهم معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين اما ان تكون مثل الحجارة فى القسوة واما ان تكون أشد منها فى القسوة قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره قلت وهذا القول الاخير يبقى شبيها بقوله تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا مع قوله أو كصيب من السماء وكقوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة مع قوله أو كظلمات فى بحر لجى الآية أى ان منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا والله أعلم وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا (١٩٥) محمد بن أيوب حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى الثلج حدثنا على بن حفص حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن حاطب عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فان كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وان أبعد الناس من الله القلب القاسى رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه عن محمد بن عبد الله بن أبى الثلج صاحب الامام أحمد به ومن وجه آخر عن ابراهيم ابن عبد الله بن الحرث بن حاطب به وقال غريب لا نعرفه الا من حديث ابراهيم وروى البزار عن أنس مرفوعا أربع من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الامل والحرص على الدنيا (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) يقول تعالى أفتطمعون أيها المؤمنون أن يؤمنوا لكم أى ينقادا لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهدا آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه أى يتأولونه على غير تأويله من بعد ما عقلوه أى فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا اليه من تحريفه وتأويله وهذا المقام شبيه بقوله تعالى فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

وقيل استثناء من مستثنى منه محذوف أى وان كانت لكبيرة على الناس الا على الذين وقيل يحتمل كلا الوجهين والاول أولى وعن ابن جريج قال بلغنى ان ناسا ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا (وما كان الله ليضيع ايمانكم) وهذه اللام تسمى لام الجحود عند البصريين وخبر كان محذوف أى ما كان الله مريدا لاضاعة ايمانكم والكوفيون لا يقدرون شيأ وان اللام عندهم للتأكيد وهكذا القول فيما أشبهه هذا التركيب مما ورد فى القرآن وغيره نحو وما كان الله ليطلعكم وما كان الله ليذر قال القرطبى اتفق العلماء على انها نزلت فيمن مات وهو يصلى الى بيت المقدس ثم قال فسمى الصلاة ايمانا لاجتماعها على نية وقول وعمل وقيل المراد اثبات المؤمنين على الايمان عند تحويل القبلة وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم والاول يتعين القول به والمصير اليه لما أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن عباس قال لما وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى القبلة قالوا يا رسول الله فكيف بالذين ماتوا وهم يصلون الى بيت المقدس فانزل وما كان الله الآية وفى الباب أحاديث كثيرة وآثار عن السلف (ان الله بالناس) تعليل لما قبله (لرؤف رحيم) الرؤف كثير الرأفة وهى أشد من الرحمة وأكثر منها والمعنى متقارب وقدم الابلغ للفاصلة (قد نرى تقلب وجهك) تصرفه (فى) جهة (السماء) قال القرطبى فى تفسيره قال العلماء هذه الآية متقدمة فى النزول على قوله سيقول السفهاء ومعنى قد تكثير الرؤية كما قاله صاحب الكشاف وقيل للتحقيق والمعنى تحول وجهك الى السماء قاله قطرب وقال الزجاج تقلب عينيك فى النظر الى السماء والمعنى متقارب والمعنى مطلعا الى الوحى ومتشوقا للامر باستقبال الكعبة وكان يود ذلك لانها قبلة ابراهيم ولانها أدعى الى اسلام العرب (فلنولينك) هو اما من الولاية أى فلنعطينك ذلك أو من التولى أى فلنجعلنك متولا الى جهتها وهذه بشارة من الله له صلى الله عليه وآله وسلم بما يحب والفاء هنا للتسبب وقيل المعنى نحولنك (قبلة ترضاها) قال ابن عمر أى قبلة ابراهيم نحو الميزاب وهذا أولى لقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام) المراد بالشطر هنا الناحية والجهة ويرد بمعنى البعض مطلقا ويكون بمعنى النصف من الشئ وبمعنى الجهة والنحو ويقال شطر أى بعد ومنه الشطر وهو الشاب البعيد من الجيران الغائب عن منزله والشطير البعيد ومنه

ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله وليس قوله سمعوا التوراة كلهم قد سمعها ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها وقال محمد بن اسحق فيما حدثني بعض أهل العلم انهم قالوا لموسى يا موسى قد جعل بيننا وبين رؤية ربنا تعالى فاسمعنا كلامه حين يكلمك فطلب ذلك موسى الى ربه تعالى فقال نعم مرهم فليتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا ثم خرج بهم حتى أتوا الطور فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا فوقعوا سجودا وكلمه ربه فسمعوا كلامه (١٩٦) يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا ثم انصرف بهم الى بني اسرائيل

فلما جاؤهم حرف فريق منهم ما أمرهم به وقالوا حين قال موسى لبني اسرائيل ان الله قد أمركم بكذا وكذا قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله انما قال كذا وكذا خلافا لما قال الله عز وجل لهم فهم الذين عنى الله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وقال السدى وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه قال هي التوراة حرفوها وهذا الذي ذكره السدى أعم مما ذكره ابن عباس وابن اسحق وان كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق فانه ليس يلزم من سماع كلام الله ان يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام وقد قال الله تعالى وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله أي مبلغا اليه ولهذا قال قتادة في قوله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون قال هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه وقال مجاهد الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم وقال أبو العالية عمدوا الى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم فحرفوه عن مواضعه وقال السدى وهم يعلمون أي انهم أذنبوا وقال ابن وهب قال ابن زيد في قوله يسمعون كلام الله ثم يحرفونه قال التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراما والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقا اذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله واذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق واذا جاءهم أحد يسألهم شيأ ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروا بالحق فقال الله لهم أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وقوله تعالى واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض الآية قال محمد بن اسحق

منزل شطير وشطر اليه أي أقبل قال الراغب والشاطر أيضا من يتباعد من الحق ولا خلاف ان المراد بشطر المسجد هنا الكعبة وقد حكى القرطبي الاجماع على ان استقبال عين الكعبة فرض على المعاين وعلى ان غير المعاين يستقبل الناحية ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به وعن البراء شطر المسجد قبله وعن ابن عباس قال نحوه وقال أبو العالية تلقاءه وقال ابن عباس البيت كله قبلة وقبلة البيت الباب وأخرج البيهقي عنه مرفوعا قال البيت قبلة لاهل المسجد والمسجد قبلة لاهل الحرم والحرم قبلة لاهل الارض مشارقها ومغاربها من أمتي وقد أخرج ابن ماجه عن البراء قال صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرا وصرفت القبلة الى الكعبة بعد دخوله الى المدينة بشهرين وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا صلى الى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه في السماء وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة فصعد جبريل فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والارض ينظر ما يأتيه به فأنزل الله هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا الى بيت المقدس فأنزل الله يعني الآية التي قبل هذه واختلف في وقت تحويل القبلة فقيل كان في يوم الاثنين بعد الزوال للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وعليه الاكثر وقيل كان يوم الثلاثاء لثمانية عشر شهرا وقيل كان لستة عشر شهرا وقيل لثلاثة عشر شهرا وقيل في جمادى وقيل في نصف شعبان وقيل نزلت ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجد بني سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين ووصل الخبر الى أهل قباء في صلاة الصبح وأخرج البخاري ومسلم عن أبي عمر قال بينما الناس بقباء في صلاة الصبح اذ جاءهم آت فقال ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة وظاهر حديث البراء في البخاري انها كانت صلاة العصر ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى انها الظهر (وحيث ما كنتم) أي من بر أو بحر مشرق أو مغرب وهذا خطاب للامة (فولوا

حدثني محمد بن ابي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا أي ان صاحبكم رسول الله ولكنه اليكم خاصة واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا لا تحدثوا العرب بهذا فانكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم فانزل الله واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أي تقرون بانه نبي وقد علمتم انه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه وهو يخبرهم انه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا اجحدوه ولا تقروا به يقول الله تعالى أولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون وقال الضحاك (١٩٧) عن ابن عباس يعني المنافقين من اليهود كانوا اذا لقوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قالوا آمنا وقال السدي هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا وكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وغير واحد من السلف والخلف حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما رواه ابن وهب عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لا يدخلن علينا قصبة المدينة الا مؤمن فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق اذهبوا فقولوا آمنا واكفروا اذا رجعتم الينا فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون اليهم بعد العصر وقرأ قول الله تعالى وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون وكانوا يقولون اذا دخلوا المدينة نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره فاذا رجعوا رجعوا الى الكفر فلما أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون وكان المؤمنون يظنون انهم مؤمنون فيقولون أليس قد قال الله لكم كذا وكذا فيقولون بلى فاذا رجعوا الى قومهم يعني الرؤساء فقالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم الآية وقال أبو العالية أتحدثونهم بما فتح الله عليكم يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من بعث محمد صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم قال كانوا يقولون سيكون نبي نخلا بعضهم ببعض فقالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم قول آخر في المراد بالفتح قال ابن جريج حدثني القاسم بن أبي برزة عن مجاهد في قوله تعالى أتحدثونهم بما فتح الله عليكم قال قام النبي صلى الله عليه وسلم يوم قريظة تحت حصونهم فقال يا اخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت فقالوا من أخبر بهذا

وجوهكم شطره) أي نحو البيت وتلقاءه وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح قيل أراد بالمشرق مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة وبالمغرب مغرب الصيف في أطول يوم من السنة فمن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت عن يمينه ومشرق الشتاء عن يساره كان مستقبلا للقبلة وهذا في حق أهل المشرق لان المشرق الشتوي جنوبي متباعد عن خط الاستواء بمقدار الميل والمغرب الصيفي شمالي متباعد عن خط الاستواء والذي بينهما فقوسها مكة والغرض لمن بمكة في القبلة اصابة عين الكعبة ولمن بعد من مكة اصابة الجهة ويعرف ذلك بدلائل القبلة وليس هذا موضع ذكرها وهذا أحد الاصول الدالة على تجويز الاجتهاد وفيه ايجاب استقبال الكعبة في كل صلاة فرضا كانت أو نفلا في كل مكان حضرا أو سفرا وهو مخصوص بالآية المتقدمة في نافلة السفر على الراحلة وبالآية الآتية في حال المسايفة (وان الذين أوتوا الكتاب) قال السدي هم اليهود خاصة والكتاب التوراة وقال غيره أحبار اليهود وعلماء النصارى لعموم اللفظ والكتاب التوراة والانجيل (ليعلمون أنه الحق من ربهم) الضمير في انه راجع الى ما يدل عليه الكلام من التحول الى جهة الكعبة وعلم أهل الكتاب بذلك اما لكونه قد بلغهم عن انبيائهم أو وجدوا في كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبي مستقبل الكعبة أولانهم قد علموا من كتبهم أو انبيائهم ان النسخ سيكون في هذه الشريعة فيكون ذلك موجبا عليهم الدخول في الاسلام ومتابعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل راجع الى الشطر وقيل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويكون على هذا التفاتا من خطابه بقوله فلنولينك الى الغيبة والاول أولى (وما الله بغافل عما يعملون) قال السدي أنزل ذلك في اليهود والمعنى ما انا بساه عما يفعل هؤلاء اليهود فأنا اجازيهم عليه في الدنيا والآخرة (ولئن) لام قسم وان شرطية (أتيت الذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى (بكل آية) أي بكل معجزة وبكل حجة وبرهان (ما تبعوا قبلتك) أي الكعبة عنادا وفي هذه الآية مبالغة عظيمة وهي متضمنة للتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترويح خاطره بان هؤلاء لا يؤثر فيهم كل آية ولا يرجعون الى الحق وان جاءهم بكل برهان فضلا عن برهان واحد وذلك لانهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم أو لشبهة طرأت عليهم حتى يوازنوا بين ما عندهم وما جاء

الامر محمدا ماخرج هذا القول الامنكم أتحدثونهم بما فتح الله عليكم بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم قال ابن جريج عن مجاهد هذا حين أرسل اليهم عليا فآذوا محمدا صلى الله عليه وسلم وقال السدى أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليحاجوكم به عند ربكم هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به فقال بعضهم لبعض أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليقولوا نحن أحب الى الله منكم وأكرم على الله منكم وقال عطاء الخراسانى أتحدثونهم بما فتح الله عليكم يعنى بما قضى لكم وعليكم وقال (١٩٨) الحسن البصرى هؤلاء اليهود كانوا اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قال بعضهم لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما فى كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم وقوله تعالى أولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون قال أبو العالية يعنى ما أسروا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوبا عندهم وكذا قال قتادة وقال الحسن ان الله يعلم ما يسرون قال كان ما أسروا انهم كانوا اذا تولوا عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وخلا بعضهم الى بعض تناهوا ان يخبر أحد منهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بما فتح الله عليهم مما فى كتابهم خشية ان يحاجهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بما فى كتابهم عند ربهم وما يعلنون يعنى حين قالوا لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم آمنا وكذا قال أبو العالية والربيع وقتادة (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) يقول تعالى ومنهم أميون أى ومن أهل الكتاب قاله مجاهد ثبوت والاميون جمع أمى وهو الرجل الذى لا يحسن الكتابة قاله أبو العالية والربيع وقتادة وابراهيم النخعى وغير واحد وهو ظاهر فى قوله تعالى لا يعلمون الكتاب أى لا يدرون ما فيه ولهذا فى صفات النبى صلى الله عليه وسلم أنه الامى لانه لم يكن يحسن الكتابة كما قال تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون وقال عليه الصلاة والسلام انا امة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا والحديث أى لا نفتقر فى عباداتنا ومواقيتها الى كتاب ولا حساب وقال تبارك وتعالى هو الذى

به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق بل كان تركهم للحق تمردا وعنادا مع علمهم بأنهم ليسوا على شئ ومن كان هكذا فهو لا ينتفع بالبرهان أبدا والاخبار فى قوله (وما أنت بتابع) يمكن أن يكون بمعنى النهى من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أى لا تتبع يا محمد (قبلتهم) ويمكن أن يكون على ظاهره دفعا لاطماع أهل الكتاب وقطعا لما يرجونه من رجوعه صلى الله عليه وآله وسلم الى القبلة التى كان عليها وهذه الجملة أبلغ فى النفى من قوله ما تبعوا قبلتك من وجوه منها كونها اسمية تكرر فيها الاسم مؤكدا نفيها بالباء (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) فيه اخبار بان اليهود والنصارى مع حرصهم على متابعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما عندهم هم مختلفون فى دينهم حتى فى هذا الحكم الخاص الذى قصه الله سبحانه على رسوله فان بعضهم لا يتابع الآخر فى استقبال قبلته قال فى الكشاف وذلك ان اليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى تستقبل مطلع الشمس انتهى قال الشهاب ان كون قبلة النصارى مطلع الشمس صرحوا به لكن وقع فى بعض كتب القصص ان قبلة عيسى كانت بيت المقدس وقال الحافظ ابن القيم فى بدائع الفوائد قبلة أهل الكتاب ليست بوحى وتوقيف من الله بل بمشورة واجتهاد منهم أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم فى الانجيل ولا فى غيره باستقبال المشرق وهم يقرون بان قبلة المسيح قبلة بنى اسرائيل وهى الصخرة وانما وضع لهم أشياخهم هذه القبلة فهم مع اليهود متفقون على ان الله لم يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبدا والمسلمون شاهدون عليهم بذلك الامر وأما اليهود فليس فى التوراة الامر باستقبال الصخرة البتة وانما كانوا ينصبون التابوت ويصلون اليه من حيث خرجوا فاذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا اليه فلما رفع صلوا الى موضعه وهو الصخرة (ولئن اتبعت أهواءهم) يعنى مرادهم ورضاهم لو رجعت الى قبلتهم (من بعد ما جاءك من العلم) فى أمر القبلة أو بانهم مقيمون على باطل وعناد (انك اذا لمن الظالمين) فيه من التهديد العظيم والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود وترجف منه الافئدة واذا كان الميل الى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء والملة الشريفة من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذى هو سيد ولد آدم يوجب الظلم عليه وحاشاه ان يكون من الظالمين فما ظنك بغيره من أمته وقد صان الله هذه الفرقة الاسلامية بعد

بعث فى الاميين رسولا منهم وقال ابن جرير نسبت العرب من لا يكتب ولا يحظ من الرجال الى أمه فى جهله بالكتاب دون أبيه قال وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قول خلاف هذا وهو ما حدثنا به أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد عن بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى ومنهم أميون قال الاميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله الله فكتبوا كتابا بايديهم ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله وقال قد أخبرانهم يكتبون بايديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله ثم قال ابن جرير وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام (١٩٩) العرب المستفيض بينهم وذلك ان الامى

ثبوت قدم الاسلام وارتفاع مناره عن أن يميلوا الى شئ من هوى أهل الكتاب ولم تبق الادسيسة شيطانية ووسيلة طاغوتية وهى ميل بعض من تحمل حجج الله الى هوى بعض طوائف المبتدعة لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم أو الجاه لديهم ان كان لهم فى الناس دولة أو كانوا من ذوى الصولة وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل بل اتباع أهوية المبتدعة يشبه اتباع أهوية أهل الكتاب كما يشبه الماء الماء والبيضة البيضة والتمرة التمرة وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل لان المبتدعة ينتمون الى الاسلام ويظهرون للناس انهم ينصرون الدين ويتبعون أحسنه وهم على العكس من ذلك والضد لما هنالك ولا يزالون ينقلون من يميل الى أهويتهم من بدعة الى بدعة ويدفعونه من شنيعة الى شنيعة حتى يسلخوه من الدين ويخرجوه منه وهو يظن أنه منه فى الصميم وان الصراط الذى هو عليه هو الصراط المستقيم هذا ان كان فى عداد المقصرين ومن جملة الجاهلين وان كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل كان فى اتباعه لاهويتهم ممن أضله الله على علم وختم على قلبه وصار نقمة على عباده ومصيبة صبها الله على المقصرين لانهم يعتقدون انه فى علمه وفهمه لا يميل الا الى الحق ولا يتبع الا الصواب فيضلون بضلاله فيكون عليه اثمه واثم من اقتدى به الى يوم القيامة نسأل الله اللطف والسلامة والهداية والكرامة (الذين آتيناهم الكتاب) يعنى علماء اليهود والنصارى وقيل اراد به مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (يعرفونه) الضمير لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وان لم يسبق له ذكر لدلالة الكلام عليه وعدم اللبس ذكره القاضى ويقال عليه بل سبق ذكره بلفظ الرسول مرتين أى يعرفون نبوته روى ذلك عن مجاهد وقتادة وطائفة من أهل العلم وقيل يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة بالطريق التى قدمنا ذكرها وبه قال جماعة من المفسرين ورجح صاحب الكشاف الاول وعندى ان الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذى سيقت له هذه الآيات (كما يعرفون أبناءهم) أنهم منهم لا يشكون فيه ولا يشتبه عليهم كما لا تشتبه عليهم أبناؤهم من أبناء غيرهم يعنى يعرفون ان القبلة التى صرفتك اليها هى قبلة ابراهيم وقبلة الانبياء قبلك كما يعرفون أولادهم قال ابن سلام لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد أشد وخص الابناء دون البنات أو الاولاد لان الذكور

عند العرب الذى لا يكتب قلت ثم فى صحة هذا عن ابن عباس بهذا الاسناد نظر والله أعلم وقوله تعالى الا أمانى قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس الا أمانى الاحاديث وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى الا أمانى يقول الا قولا يقولون بافواههم كذبا وقال مجاهد الا كذبا وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى قال أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيأ وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما فى كتاب الله ويقولون هو من الكتاب أمانى يتمنونها وعن الحسن البصرى نحوه وقال أبو العالية والربيع وقتادة الامانى يتمنون على الله ما ليس لهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الامانى قال تمنوا فقالوا نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم قال ابن جرير والاشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس وقال مجاهد ان الاميين الذين وصفهم الله تعالى انهم لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله الله تعالى على موسى شيأ ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الاباطيل كذبا وزورا والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ما تغنيت ولا تمنيت يعنى ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب وقيل المراد بقوله الا أمانى بالتشديد والتخفيف أيضا أى الا تلاوة ففعلى هذا يكون استثناء منقطعا واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى الا اذا تمنى أى تلا ألقى الشيطان فى أمنيته الآية وقال كعب بن مالك الشاعر تمنى كتاب الله أول ليله * وآخره لاقى حمام المقادر وقال آخر تمنى كتاب الله آخر ليله * تمنى داود الكتاب على رسل وقال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير

عن ابن عباس لا يعلمون الكتاب الا أمانى وانهم الا يظنون أى ولا يدرون ما فيه وهم يجحدون نبوتك بالظن وقال مجاهد وانهم الا يظنون يكذبون وقال قتادة وأبو العالية والربيع يظنون بالله الظنون بغير الحق وقوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا الآية هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة الى الضلال بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل والويل الهلاك والدمار وهى كلمة مشهورة فى اللغة. وقال سفيان الثورى عن زياد بن فياض سمعت أبا عياض (٢٠٠) يقول ويل صديد فى أصل جهنم وقال عطاء بن يسار الويل وادى جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس ابن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحرث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ويل وادى فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل ان يبلغ قعره ورواه الترمذى عن عبد الرحمن بن حميد عن الحسن ابن موسى عن ابن لهيعة عن دراج به وقال هذا حديث غريب لا نعرفه الا من حديث ابن لهيعة قلت لم يتفرد به ابن لهيعة كما ترى ولكن الآفة ممن بعده وهذا الحديث بهذا الاسناد مرفوعا منكر والله أعلم وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا ابراهيم بن عبد السلام حدثنا صالح القشيرى حدثنا على بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون قال الويل جبل فى النار وهو الذى أنزل فى اليهود لانهم حرفوا التوراة زادوا فيها ما أحبوا ومحوا منها ما يكرهون ومحوا اسم محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة ولذلك غضب الله عليهم فرفع بعض التوراة فقال تعالى فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون وهذا غريب أيضا جدا وعن ابن عباس الويل المشقة من العذاب وقال الخليل بن أحمد الويل شدة الشر وقال سيبويه ويل لمن وقع فى الهلكة وويح لمن أشرف عليها وقال الاصمعى الويل تفجع والويل ترحم وقال غيره الويل الحزن وقال الخليل وفى معنى ويل ويح وويس وويه وويلك وويب ومنهم من فرق بينها وقال بعض النحاة انما جاز الابتداء بها وهى نكرة لان فيها معنى الدعاء

أعرف وأشهر وهم لصحبة الاباء ألزم وبقلوبهم الصق والالتفات عن الخطاب الى الغيبة للايذان بان المراد ليس معرفتهم له صلى الله عليه وآله وسلم من حيث ذاته ونسبه بل من حيث كونه مسطورا فى الكتاب منعوتا بالنعوت التى من جملتها انه صلى الله عليه وآله وسلم يصلى الى القبلتين كانه قيل الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وبهذا تظهر جزالة النظم الكريم ذكره الكرخى (وان فريقا منهم) أى من علماء أهل الكتاب (ليكتمون الحق) يعنى أمر القبلة أو صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكتم الحق هو عند أهل القول الاول نبوته صلى الله عليه وآله وسلم وعند أهل القول الثانى استقبال الكعبة (وهم يعلمون) ان كتمان الحق معصية (الحق) يحتمل أن يكون المراد به الحق الاول ويحتمل أن يراد به جنس الحق على انه خبر مبتدا محذوف أو مبتدا أو خبره قوله (من ربك) أى الحق هو الذى من ربك لا من غيره (فلا تكونن من الممترين) خطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم والامتراء الشك نهاه الله سبحانه عن الشك فى كون الحق من ربه أو فى كون كتمانهم الحق مع علمهم وعلى الاول هو تعريض للامة أى لا يكن أحد من أمته من الممترين لانه صلى الله عليه وآله وسلم لا يشك فى كون ذلك هو الحق من الله سبحانه وفيه كناية وهى أبلغ من التصريح (ولكل وجهة) أى لكل دين وجهة ولكل أهل ملة قبلة والوجهة فعلة من المواجهة وفى معناها الجهة والوجه وهى اسم للمكان المتوجه اليه كالكعبة أو مصدر والمراد القبلة أى انهم لا يتبعون قبلتك وأنت لا تتبع قبلتهم ولكل وجهة اما بحق واما بباطل والضمير فى (هو موليها) راجع الى لفظ كل والهاء هى المفعول الاول والثانى محذوف أى موليها وجهه فى صلاته والمعنى ان لكل صاحب ملة قبلة صاحب القبلة موليها وجهه فقبلة المسلمين الكعبة وقبلة اليهود بيت المقدس وقبلة النصارى مطلع الشمس أو لكل منكم يا أمة محمد قبلة يصلى اليها من شرق أو غرب أو جنوب أو شمال اذا كان الخطاب للمسلمين ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه وان لم يجر له ذكر اذ هو معلوم ان الله فاعل ذلك والمعنى ان لكل صاحب ملة قبلة الله موليها اياه وقيل لكل واحد من الناس قبلة وقرئ مولاها والضمير لواحد والمعنى الواحد مولاها أى محول ومصروف اليها (فاستبقوا الخيرات) أى فبادروا الى ما أمركم الله به من استقبال البيت الحرام كما يفيده السياق وان كان ظاهره الامر بالاستباق الى كل ما يصدق عليه انه خير

ومنهم من جوز نصبها بمعنى ألزمهم ويلا قلت لكن لم يقرأ بذلك أحد وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم قال هم أحبار اليهود وكذا قال سعيد عن قتادة هم اليهود وقال سفيان الثورى عن عبد الرحمن ابن علقمة سألت ابن عباس رضى الله عنه عن قوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم قال نزلت فى المشركين وأهل الكتاب وقال السدى كان ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم انه من عند الله فيأخذوا به ثمنا قليلا وقال الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس انه قال (٢٠١) يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شئ وكتاب الله الذى أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤنه غضا لم يشب وقد حدثكم الله تعالى ان أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحدا قط سألكم عن الذى أنزل عليكم رواه البخارى من طرق عن الزهرى وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى الثمن القليل الدنيا بحذافيرها وقوله تعالى فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون أى فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء وويل لهم مما أكلوا به من السحت كما قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما فويل لهم يقول فالعذاب عليهم من الذى كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب وويل لهم مما يكسبون يقول مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم (وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا

خيرا كما يفيده العموم المستفاد من تعريف الخيرات قال ابن زيد يعنى الاعمال الصالحة والمراد من الاستباق الى الاستقبال الاستباق الى الصلاة فى أول وقتها فان الصلاة فيه أفضل لان ظاهر الامر للوجوب فاذا لم يتحقق الوجوب فلا أقل من الندب والآية دليل لمذهب الشافعى فى أفضلية الصلاة فى أول الوقت والسبق الوصول الى الشئ أولا وأصله التقدم فى السير ثم تجوز به فى كل ما تقدم والخيرات واحدها خيرة بوزن فيعلة أو زنة فعلة بكسرتين وعلى كلا التقديرين فليست للتفضيل (أينما تكونوا) أى فى أى جهة من الجهات المختلفة تكونوا (يأت بكم الله) للجزاء يوم القيامة فهو وعد لاهل الطاعة بالثواب ووعيد لاهل المعصية بالعقاب ويجمعكم (جميعا) ويجعل صلاتكم فى الجهات المختلفة كأنها الى جهة واحدة (ان الله على كل شئ قدير) ومنه الاعادة بعد الموت والاثابة لاهل الطاعة والعقاب لمستحق العقوبة (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام) الظاهر أن من هنا ابتدائية والاقرب أن تكون بمعنى فى أى فى أى مكان سافرت (وانه) أى التولى (للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون) بالياء والتاء وتقدم مثله (ومن حيث خرجت) أى من أى مكان خرجت للسفر (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) كرر سبحانه هذا تأكيدا لامر استقبال الكعبة وللاهتمام به لان موقع التحويل كان معتنى به فى نفوسهم وقيل وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة ومواطن الشبهة فاذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا واندفع ما يختلج فى صدورهم وقيل انه كرر هذا الحكم لتعدد علله فانه سبحانه ذكر للتحويل ثلاث علل الاولى ابتغاء مرضاته والثانية جرى العادة الالهية أن يولى أهل كل ملة وصاحب دعوة جهة يستقبل بها والثالثة دفع حجج المخالفين فقرن بكل علة معلولها وقيل أراد بالاول وله وجهك شطر الكعبة اذا صليت تلقاءها ثم قال وحيثما كنتم معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة وغيرها فولوا وجوهكم شطره ثم قال ومن حيث خرجت يعنى وجوب الاستقبال فى الاسفار فكان هذا أمرا بالتوجه الى الكعبة فى جميع المواطن من نواحى الارض (لئلا) اللام لام كى وان هى المصدرية ولا نافية (يكون للناس عليكم حجة) قيل أراد بالناس أهل الكتاب وقيل هو على العموم وقيل هم قريش واليهود والمعنى لا حجة لاحد عليكم فى التولى الى غيره أى لتنتفى مجادلتهم لكم من قول اليهود يجحد ديننا ويتبع

(٢٦ ل - فتح البيان) فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون) يقول تعالى اخبارا عن اليهود فيما تقلوه وادعوه لانفسهم من أنهم لم تمسهم النار الا أياما معدودة ثم يخرجون منها فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى قل أتخذتم عند الله عهدا أى بذلك فان كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ولكن هذا ما جرى ولا كان ولهذا أتى بأم التى بمعنى بل أى بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه قال محمد بن اسحق عن سيف بن سليمان عن مجاهد عن ابن عباس ان اليهود كانوا يقولون ان هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب بكل ألف سنة يوما فى النار وانما هى سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى وقالوا لن تمسنا

النار الا أياما معدودة الى قوله خالدون ثم رواه عن محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس بنحوه وقال العوفى عن ابن عباس وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة اليهود قالوا لن تمسنا النار الا أربعين ليلة زاد غيره وهى مدة عبادتهم العجل وحكاه القرطبى عن ابن عباس وقتادة وقال الضحاك قال ابن عباس زعمت اليهود أنهم وجدوا فى التوراة مكتوبا ان مابين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة الى أن ينتهوا الى شجرة الزقوم التى هى ثابتة فى أصل الجحيم وقال أعداء الله انما نعذب حتى ننتهى الى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك فذلك قوله (٢٠٢) تعالى وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة يعنى الايام التى عبدنا فيها العجل وقال عكرمة خاصمت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لن ندخل النار الا أربعين ليلة وسيخلفنا فيها قوم آخرون يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رؤسهم بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد فأنزل الله عز وجل وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة الآية وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله حدثنا عبد الرحمن بن جعفر حدثنا محمد بن محمد بن صخر حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ حدثنا الليث بن سعد حدثنى سعيد ابن أبى سعيد عن أبى هريرة قال لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبوكم قالوا فلان قال كذبتم بل أبوكم فلان فقالوا صدقت وبررت ثم قال لهم هل أنتم صادقى عن شئ ان سألتكم عنه قالوا نعم يا أبا القاسم وان كذبنا لقد عرفت كذبنا المعروف كما عرفته فى أبينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل النار فقالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اخسؤا والله لا نخلفكم فيها أبدا ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أنتم صادقى عن شئ ان سألتكم عنه قالوا نعم يا أبا القاسم قال هل جعلتم فى هذه الشاة سما فقالوا نعم قال فما حملكم على ذلك فقالوا أردنا ان كنت كاذبا ان نستريح منك وان كنت نبيا لم يضرك ورواه الامام أحمد والبخارى والنسائى من حديث الليث بن سعد بنحوه (بلى من كسب سيئة وأحاطت

قباتنا وقول المشركين يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته (الا الذين ظلموا منهم) يعنى المعاندين من أهل الكتاب القائلين ماترك قبلتنا الى الكعبة الا ميلا الى دين قومه وقيل هم مشركو العرب وحجتهم قولهم راجعت قبلتنا وقيل معناه لئلا يقولوا لكم قد أمرتم باستقبال الكعبة ولستم تركونها وقال أبو عبيدة الا ههنا بمعنى الواو وأبطل الزجاج هذا القول وقال انه استثناء منقطع أى لكن الذين ظلموا منهم فانهم يحتجون ومعناه الامن ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له كأن تقول مالك على حجة الا أن تظلمنى أى مالك على حجة ولكنك تظلمنى وسمى ظلمه حجة لان المحتج بها سماه حجة وان كانت داحضة ورجح ابن جرير الطبرى أن الاستثناء متصل وقال نفى الله أن تكون لاحد حجة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فى استقبالهم الكعبة والمعنى لا حجة لاحد عليكم الا الحجة الداحضة حيث قالوا ما ولاهم وقالوا ان محمدا تحير فى دينه وما توجه الى قبلتنا الا أنا أهدى منه وغير ذلك من الاقوال التى لم تنبعث الا من عابد وثن أو من يهودى أو منافق قال والحجة بمعنى المحاجة التى هى المخاصمة والمجادلة وسماها تعالى حجة وحكم بفسادها حيث كانت من ظالم ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع كما قال الزجاج قال القرطبى وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود ثم استثنى كفار العرب كأنه قال لكن الذين ظلموا فى قولهم رجع محمد صلى الله عليه وآله وسلم الى قبلتنا وسيرجع الى ديننا كله (فلا تخشوهم) أى لا تخافوا جدالهم فى التولى اليها وطاعنهم فانها داحضة باطلة لا تضركم (واخشونى) أى احذروا عقابى ان أنتم عدلتم عما ألزمتكم به وفرضته عليكم (ولأتم نعمتى عليكم) أى بهدايتى اياكم الى قبلة ابراهيم لتتم لكم الملة الحنيفية وقيل تمام النعمة الموت على الاسلام ثم دخول الجنة ثم رؤية الله تعالى (ولعلكم تهتدون) أى لكى تهتدوا من الضلالة ولعل وعسى من الله واجب (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة) التشبيه واقع على أن النعمة فى القبلة كالنعمة فى الرسالة وقيل معنى الكلام على التقديم والتأخير أى فاذكرونى كما أرسلنا قاله الزجاج وقيل غير ذلك والتعبير بصيغة التكلم الدالة على العظمة بعد التعبير بالصيغة التى لا دلالة لها عليها من قبيل التفنن وجريا على سنن الكبراء وفيكم خطاب لاهل مكة والعرب وكذا قوله منكم وفى ارساله رسولا منهم نعمة عظيمة عليهم لما فيه من الشرف لهم ولان

به خطيئته فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) يقول تعالى ليس الامر كما تمنيتم ولا كما تشتهون بل الامر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار والذين آمنوا وعملوا الصالحات أى آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهو من أهل الجنة وهذا المقام شبيه بقوله تعالى ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوأ يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا

المعروف من حال العرب الانفة الشديدة من الانقياد للغير فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب الى قبول قوله والانقياد له والرسول هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم والآيات القرآن وذلك من أعظم النعم لانه معجزة باقية على الدهر والتزكية التطهير من دنس الشرك والذنوب وقيل محاسن الاعمال ومكارم الافعال والحكمة هى السنة المطهرة والفقه فى الدين (ويعلمكم) من أخبار الامم الماضية والقرون الخالية وقصص الانبياء والخبر عن الحوادث المستقبلة (مالم تكونوا تعلمون) ذلك قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتستقلون بعلمه بعقولكم (فاذكرونى أذكركم) أمر وجوابه وفيه معنى المجازاة قاله سعيد بن جبير والمعنى اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة حكاه عنه القرطبى وروى نحوه مرفوعا وقيل الذكر يكون باللسان وهو التسبيح والتحميد ونحو ذلك من الاذكار المأثورة ويكون بالقلب وهو التفكر فى الدلائل الدالة على وحدانيته وبدائع خلقه ويكون بالجوارح وهو الاستغراق فى الاعمال التى أمروا بها مثل الصلاة وسائر الطاعات التى للجوارح فيها فعل وقيل غير ذلك وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منه وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة أخرجه البخارى ومسلم وأخرجا عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله عز وجل أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه وأخرجا عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر كمثل الحى والميت وفى الباب أحاديث كثيرة (واشكروا لى) يعنى بالطاعة ما أنعمت به عليكم قال الفراء شكرتك وشكرت لك واحد قال ابن عطية ولى أفصح وأشهر مع الشكر والشكر معرفة الاحسان والتحدث به وأصله فى اللغة الظهور وقد تقدم الكلام فيه وقد ورد فى فضل ذكر الله على الاطلاق وفضل الشكر أحاديث كثيرة كما أشرنا اليه (ولا تكفرون) أى بجحد النعم وعصيان الامر والكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب فمن أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفر وقد تقدم الكلام فيه (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) لما فرغ سبحانه من ارشاد عباده الى

قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس بلى من كسب سيئة أى عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فما له من حسنة وفى رواية عن ابن عباس قال الشرك قال ابن أبى حاتم وروى عن أبى وائل وأبى العالية ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه وقال الحسن أيضا والسدى السيئة الكبيرة من الكبائر وقال ابن جريج عن مجاهد وأحاطت به خطيئته قال بقلبه وقال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء والحسن وأحاطت به خطيئته قالوا أحاط به شركه وقال الاعمش عن أبى رزين عن الربيع بن خيثم وأحاطت به خطيئته قال الذى يموت على خطاياه من قبل أن يتوب وعن السدى وأبى رزين نحوه وقال أبو العالية ومجاهد والحسن فى رواية عنهما وقتادة والربيع ابن أنس وأحاطت به خطيئته الموجبة الكبيرة وكل هذه الاقوال متقاربة فى المعنى والله أعلم

ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا سليمان بن داود حدثنا عمرو بن قتادة عن عبد ربه عن أبى عياض عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهم مثلا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سوادا وأججوا نارا فأنضجوا ما قذفوا فيها وقال محمد بن اسحق حدثنى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون أى من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم

من دينه فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم ان الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له (واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون) يذكر تبارك وتعالى بني اسرائيل بما أمرهم به من الاوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك وانهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدا وعمدا وهم يعرفونه ويذكرونه فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ وبهذا أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون وقال تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى أن اشكر لي ولوالديك الي المصير وقال تبارك وتعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا الى أن قال وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت يا رسول الله أي العمل أفضل قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلا قال يا رسول الله من أبر قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أبوك ثم أدناك ثم أدناك وقوله تعالى لا تعبدون الا الله قال الزمخشري خبر بمعنى الطلب وهو آكد وقيل كان أصله أن لا تعبدوا الا الله كما قرأها من قرأها من السلف فحذفت ان فارتفع وحكي عن أبي وابن مسعود انهما قرآها لا تعبدوا الا الله ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره ولا اعتداد عن سيبويه قال واختاره الكسائي والفراء قال واليتامى وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم وسيأتي الكلام على هذه الاصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحا في قوله واعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وبالوالدين احسانا الآية وقوله تعالى وقولوا للناس حسنا أي كلموهم طيبا ولينوا لهم جانبا ويدخل في ذلك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصري في قوله تعالى وقولوا للناس حسنا فالحسن

ذكره وشكره عقب ذلك بارشادهم الى الاستعانة بالصبر عن المعاصي وحظوظ النفس وبالصلاة التي هي عماد الدين ومعراج المؤمنين فان من جمع بين ذكر الله وشكره واستعان بالصبر والصلاة على تأدية ما أمر الله به ودفع ما يرد عليه من المحن فقد هدي الى الصواب ووفق للخير ومن الناس من حمل الصبر على الصوم وفسره به ومنهم من حمله على الجهاد ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع والصبر حبس النفس على احتمال المكاره في ذات الله وتوطينها على تحمل المشاق في العبادات وسائر الطاعات وتجنب الجزع والمحظورات والمعنى استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض وبالصلوات الخمس على تمحيص الذنوب وخصها بالذكر لتكررها وعظمها لانها أم العبادات ومناجاة رب الكائنات (ان الله مع الصابرين) أي بالعون والنصر واجابة الدعوة وهذه المعية التي أوضحها الله فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه الى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب فمن كان الله معه لم يخش من الاهوال وان كانت كالجبال وهذه المعية خاصة بالمتقين والمحسنين والصابرين وأما المعية بالعلم والقدرة فهي عامة في حق كل أحد والجملة تعليل لما قبلها من الاستعانة بالصبر خاصة كما قال أبو السعود أو بالصبر والصلاة كما قال الكرخي (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء) قيل نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار وسماهم في الخازن بأسمائهم وكان الناس يقولون فيهم مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأنزل الله هذه الآية وقيل ان الكفار قالوا ان الناس يقتلون أنفسهم ظلما لمرضاة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من غير فائدة فنزلت هذه الآية وأخبر الله أن من قتل في سبيله فانه حي وانما خص الشهداء لانهم فضلوا على غيرهم بمزيد النعم وهو أنهم يرزقون من مطاعم الجنة وما آكلها وغيرهم ينعمون بما دون ذلك (ولكن لا تشعرون) بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم لانكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الامر بحسب ما يبلغ اليه علمكم الذي هو بالنسبة الى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر وليسوا كذلك في الواقع بل هم أحياء في البرزخ تصل أرواحهم الى الجنان فهم أحياء من هذه الجهة وان كانوا أمواتا من جهة خروج الروح من أجسادهم وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر للعصاة وأن المطيعين لله يصل اليهم ثوابهم وهم في قبورهم في البرزخ

من القول يامر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسنا كما قال الله وهو كل خلق حسن رضيه الله وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا أبو عامر الخراز عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تحقرن من المعروف شيأ وان لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي وصححه من حديث أبي عامر الخراز واسمه صالح بن رستم به وناسب ان يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنا بعد ما أمرهم بالاحسان اليهم بالفعل فجمع بين طرفي الاحسان الفعلي والقولي ثم أكد الامر بعبادته والاحسان الى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأخبرانهم تولوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به الا القليل منهم وقد أمر الله هذه الامة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله واعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا فقامت هذه الامة من ذلك بما لم يقم به أمة من الامم قبلها ولله الحمد والمنة ومن النقول الغريبة ههنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبي حدثنا محمد بن خلف العسقلاني حدثنا عبد الله بن يوسف يعني التنيسي حدثنا خالد بن صبيح عن حميد بن عقبة عن أسد بن وداعة انه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديا ولا نصرانيا الا سلم عليه فقيل له ما شأنك تسلم على اليهودي والنصراني فقال ان الله تعالى يقول وقولوا للناس حسنا وهو السلام قال وروى عن عطاء الخراساني نحوه (قلت) وقد ثبت في السنة أنهم لا يبدؤن بالسلام والله أعلم (واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون)

ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك فقد تواترت به الاحاديث الصحيحة ودلت عليه الآيات القرآنية ومثل هذه الآية قوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون وقد وردت أحاديث في أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تأكل من ثمار الجنة فنها عن كعب بن مالك مرفوعا عند أحمد والترمذي وصححه النسائي وابن ماجه وروى ان أرواح الشهداء على صور طيور بيض كما أخرجه عبد الرزاق عن قتادة قال بلغنا فذكر ذلك وروى أنها على صور طيور خضر كما أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الايمان عن أبي العالية والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر وفيها دلالة على أن الارواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه جمهور الصحابة والتابعين وبه نطقت الآيات والسنن وعلى هذا تخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة

(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات) أي لنختبرنكم واللام جواب القسم أي والله لنبلونكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والبلاء أصله المحنة أي نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء أم لا وليظهر الطائع من العاصي والتنكير للتقليل أي بشيء قليل من هذه الامور فان ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة الى ما أصابهم بالف مرة فكذا ما يصيب به معانديهم وانما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزدادوا يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة محمودة والمراد بالخوف ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدو أو غيره وبالجوع المجاعة التي تحصل عند الجدب والقحط وبنقص الاموال ما يحدث فيها بسبب الجوائح وما أوجبه الله فيها من الزكاة ونحوها عن رجاء بن حيوة قال يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه الا تمرة وبنقص الانفس الموت والقتل في الجهاد وبنقص الثمرات ما يصيبها من الآفات وهو من عطف الخاص على العام لشمول الاموال للثمرات وغيرها وقال الشافعي في تفسير هذه الآية الخوف خوف الله والجوع صيام شهر رمضان ونقص الاموال اخراج الزكاة والصدقات ونقص الانفس بالامراض ونقص الثمرات موت الاولاد لان الولد ثمرة القلب وفي الحديث اذا مات ولد العبد قال الله للملائكته أقبضتم ولد عبدي قالوا نعم قال أقبضتم ثمرة فؤاده قالوا

يقول تبارك وتعالى منكرا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الاوس والخزرج وذلك ان الاوس والخزرج وهم الانصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام وكانت بينهم حروب كثيرة وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج وبنو قريظة حلفاء الاوس فكانت الحرب اذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الاثاث والامتعة والاموال ثم اذا وضعت الحرب اوزارها استفكوا الاسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة ولهذا قال تعالى أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ولهذا قال تعالى واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم أي لا يقتل بعضكم بعضا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه كما قال تعالى فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وقوله تعالى ثم أقررتم وأنتم تشهدون أي ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم الآية قال محمد بن اسحق بن يسار حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من دياركم الآية قال أنبأهم الله بذلك من فعلهم وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم فكانوا فريقين طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير وقريظة وهم حلفاء الاوس فكانوا اذا كانت بين الاوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الاوس يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على اخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم ومالهم والاوس والخزرج أهل شرك يعبدون الاوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ولا كتابا ولا حلالا ولا حراما فاذا وضعت

نعم قال فماذا قال قالوا حمدك واسترجع قال ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد أخرجه الترمذي عن أبي موسى الاشعري مرفوعا وقال حديث حسن ولكن اللفظ القرآني أوسع مما قال وأعم منه فلا يخصص بشيء دون غيره (وبشر الصابرين) أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولكل من يقدر على التبشير وقد تقدم معنى البشارة والصبر أصله الحبس والجملة عطف على ولنبلونكم عطف المضمون على المضمون أي الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر قاله سعد التفتازاني (الذين اذا أصابتهم مصيبة) المصيبة واحدة المصايب وهي النكبة التي يتأذى بها الانسان وان صغرت (قالوا) أي باللسان والقلب لا باللسان فقط فان التلفظ بذلك مع الجزع قبيح وسخط للقضاء وذلك ان يتصور ما خلق لاجله وانه يرجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقى الله عليه أضعاف ما استرده منه فيهون عليه ويستسلم (انا لله وانا اليه راجعون) في الآخرة فيجازينا وصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة لان ذلك تسليم ورضا وفيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين وعصمة للممتحنين فانها جامعة بين الاقرار بالعبودية لله والاعتراف بالبعث والنشور والرجوع والتفويض الى الله والرضا بكل ما نزل به من المصايب وفي الحديث من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطيت أمتي شيأ لم يعطه أحد من الامم أن يقولوا عند المصيبة انا لله وانا اليه راجعون ألا تسمع الى قول يعقوب عند فقد يوسف يا أسفا على يوسف وقد ورد في فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) الصلاة هنا المغفرة قاله ابن عباس أو الثناء الحسن قاله الزجاج وعلى هذا فذكر الرحمة لقصد التأكيد وقال في الكشاف الصلاة الرحمة والتعطف فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله رأفة ورحمة رؤف رحيم والمعنى عليهم رأفة بعد رأفة ورحمة بعد رحمة انتهى وعبر عن المغفرة بلفظ الجمع للتنبيه على كثرتها وتنوعها قاله البيضاوي وأبو السعود وقيل المراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة وانما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول الى طريق الصواب من الاسترجاع والتسليم (وأولئك هم المهتدون) يعني الى الاسترجاع وقيل الى الجنة وقيل الى الحق والصواب وقال عمر بن الخطاب نعم العدلان

الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما فى التوراة وأخذ به بعضهم من بعض يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى ايدى الاوس و يفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم و يطلبون ما أصابوا من دمائهم وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لاهل الشرك عليهم يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم بذلك أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض أى تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله و يعبد الاوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا ففى ذلك من فعلهم مع الاوس والخزرج فيما بلغنى نزلت هذه القصة وقال اسباط عن السدى كانت قريظة حلفاء الاوس وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتتلون فى حرب بينهم فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءهم وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها ويغلبونهم فيخربون ديارهم و يخرجونهم منها فاذا أسر رجل من الفريقين كلاهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك و يقولون كيف تقاتلونهم وتفدونهم قالوا انا أمرنا ان نفديهم وحرم علينا قتالهم قالوا فلم تقاتلونهم قالوا انا نستحيى ان تستذل حلفاؤنا فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم الآية وقال اسباط عن السدى عن الشعبى نزلت هذه الآية فى قيس بن الخطيم ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم الآية وقال اسباط عن السدى عن عبد خير قال غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلى بلنجر فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله يا رأس الجالوت هل لك فى عجوزهنا من أهل دينك تشتريها منى قال نعم قال أخذتها بسبعمائة درهم قال فانى أربحك سبعمائة أخرى قال فانى قد حلفت ان لا أنقصها من أربعة آلاف قال لا حاجة لى فيها قال والله لتشترينها منى أو لتكفرن بدينك الذى أنت عليه قال ادن منى فدنا منه فقرأ فى اذنه مما فى التوراة انك لا تجد مملوكا من بنى اسرائيل الا اشتريته فاعتقته وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم قال أنت عبد الله بن سلام قال نعم قال فجاء باربعة آلاف فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين وقال آدم بن أبى اياس فى تفسيره

العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية وقد وردت أحاديث كثيرة فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين ذكرها المفسرون لا نطيل بذكرها هنا فانها معروفة فى كتب الآثار (ان الصفا والمروة من شعائر الله) أصل الصفا فى اللغة الحجر الاملس الصلب وهو هنا علم جبل من جبال مكة معروف وكذلك المروة علم لجبل بمكة معروف وأصلها فى اللغة واحدة المروى وهى الحجارة الصغار التى فيها لين وقيل التى فيها صلابة وقيل يعم الجميع وقيل انها الحجارة البيض البراقة وقيل انها الحجارة السود والشعائر جمع شعيرة وهى العلامة أى من أعلام مناسكه والمراد بها مواضع العبادة التى أشعرها الله اعلاما للناس من الموقف والمسعى والمنحر ومنه اشعار الهدى أى اعلامه بغرز حديدة فى سنامه والاجود شعائر بالهمز لزيادة حرف المد وهو عكس معايش ومصايب (فمن حج البيت) هو فى اللغة القصد وفى الشرع الاتيان بمناسك الحج التى شرعها الله سبحانه (أو اعتمر) العمرة فى اللغة الزيارة وفى الشرع الاتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة فالحج والعمرة قصد وزيارة (فلا جناح) أى فلا اثم (عليه أن يطوف) أى يدور (بهما) و يسعى بينهما والجناح أصله الجنوح وهو الميل ومنه الجوانح لاعوجاجها ورفع الجناح يدل على عدم الوجوب وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثورى وحكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول هو واجب وليس بركن وعلى تاركه دم وقد ذهب الى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين وعن أحمد أنه سنة وأجمعوا على أنه مشروع فيهما وانما الخلاف فى وجوبه ومما يقوى دلالة هذه الآية على عدم الوجوب قوله تعالى فى آخر الآية (ومن تطوع خيرا) أى زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف أو تطوع بالسعى أو فعل طاعة فرضا كان أو نفلا (فان الله شاكر عليم) مثيب على الطاعة لا يخفى عليه وذهب الجمهور الى أن السعى واجب ونسك من جملة المناسك وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة وبه قال الحسن واليه ذهب الشافعى ومالك واستدلوا بما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة أن عروة قال لها أرأيت قول الله ان الصفا والمروة من شعائر الله الآية فما أرى على أحد جناحا أن لا يطوف بهما فقالت عائشة بئسما قلت يا ابن أختى انها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ولكنها انما أنزلت لان الانصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة

حدثنا أبو جعفر يعني الرازي حدثنا الربيع بن انس أخبرنا أبو العالية ان عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادى من النساء من لم يقع عليه العرب ولا يفادى من وقع عليه العرب فقال عبد الله أما انه مكتوب عندك في كتابك ان تفادي هن كلهن والذي أرشدت اليه الآية الكريمة وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤنه التي أخبرت بها الانبياء قبله عليهم الصلاة والسلام واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم ولهذا قال تعالى فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة أي استحبوها على الآخرة واختاروها فلا يخفف عنهم العذاب أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ولا هم ينصرون أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وايدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) ينعت تبارك وتعالى بني اسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الانبياء وانهم انما يتبعون أهواءهم فذكر تعالى انه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها وقيل النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء الآية ولهذا قال تعالى وقفينا من بعده بالرسل قال السدي عن أبي مالك أتبعنا وقال غيره أردفنا والكل قريب كما قال تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى حتى ختم أنبياء بني اسرائيل بعيسى بن مريم فجاء بمخالفة التوراة في بعض الاحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات قال ابن عباس من احياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا باذن الله وابراء الاسقام واخباره بالغيوب وتأييده بروح

الطاغية كانوا يعبدونها وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله ان الصفا والمروة الآية قالت عائشة ثم قد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطواف بهما فليس لاحد أن يدع الطواف بهما وأخرج مسلم وغيره عنها انها قالت لعمري ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته لان الله قال ان الصفا والمروة من شعائر الله وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان الله كتب عليكم السعي فاسعوا وأخرج أحمد في مسنده والشافعي وابن سعد وابن المنذر وابن قانع والبيهقي عن حبيبة بنت أبي تجزأة قالت رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور بهما ازاره وهو يقول اسعوا فان الله عز وجل كتب عليكم السعي ويؤيد ذلك حديث خذوا عني مناسككم واختار الشوكاني في جميع مؤلفاته الوجوب وهو الراجح (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) فيه اخبار بأن الذي يكتم ذلك ملعون وفيه دليل على جواز لعن الكافر بعد موته خلافا لمن قال انه لا فائدة له واختلفوا من المراد بذلك فقيل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد روي عن جماعة من السلف ان الآية نزلت في أهل الكتاب لكتمهم نبوة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وآية الرجم وغيرها من الاحكام التي كانت في التوراة وقيل كل من كتم الحق وترك بيان ما أوجب الله بيانه وهو الراجح لان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الاصول فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارى من الكتم فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية لكل من كتم الحق وفي هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا يقادر قدره فان من لعنه الله ولعنه كل من يأتي منه اللعن من عباده قد بلغ من الشقاوة والخسران الى الغاية التي لا تلحق ولا يدرك كنهها وفي قوله من البينات والهدى دليل على أنه يجوز كتم غير ذلك كما قال أبو هريرة حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته واما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم أخرجه البخاري والضمير في بيناه راجع الى ما أنزلنا والكتاب اسم جنس وتعريفه يفيد شموله لجميع الكتب

القدس وهو جبريل عليه السلام مايدلهم على صدقه فيما جاءهم به فاشتد تكذيب بنى اسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض كما قال تعالى اخبارا عن عيسى ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم الآية فكانت بنو اسرائيل تعامل الانبياء أسوأ المعاملة ففريقا يكذبونه وفريقا يقتلونه وماذاك الا لانهم يأتونهم بالامور المخالفة لاهوائهم وآرائهم وبالالزام باحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم ولهذا قال تعالى أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم (٢٠٩) وفريقا تقتلون والدليل على ان روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب واسمعيل بن خالد والسدى والربيع بن أنس وعطية العوفى وقتادة مع قوله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين ماقال البخارى وقال ابن أبى الزناد عن أبيه عن أبى هريرة عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحسان ابن ثابت منبرا فى المسجد فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك فهذا من البخارى تعليقا وقد رواه أبو داود فى سننه عن ابن سيرين والترمذى عن على بن حجر واسمعيل بن موسى السمنانى ثلاثتهم عن أبى عبد الرحمن ابن أبى الزناد عن أبيه وهشام بن عروة كلاهما عن عروة عن عائشة به قال الترمذى حسن صحيح وهو حديث أبى الزناد وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن

وقيل المراد به التوراة واللعن الابعاد والطرد والمراد بقوله اللاعنون الملائكة والمؤمنون قاله الزجاج وغيره ورجحه ابن عطية وقيل كل من يتأتى منه اللعن فيدخل فى ذلك الجن والانس وقال ابن عباس جميع الخلائق الا الجن والانس وقيل هم الانس والجن وقيل ماتلاعن اثنان من المسلمين الا رجعت الى اليهود والنصارى الذين كتموا صفة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأحكام التوراة والانجيل وقيل هم الحشرات والبهائم ويؤيد ذلك ماأخرجه ابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن البراء ابن عازب قال كنا فى جنازة مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان الكافر يضرب ضربة بين عينيه فتسمعه كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله تعالى ويلعنهم اللاعنون يعنى دواب الارض وعن مجاهد اذا أجدبت البهائم دعت على فجار بنى آدم وعنه ان دواب الارض والعقارب والخفاس يقولون انما منعنا القطر بذنوبهم فيلعنونهم وعن أبى جعفر يلعنهم كل شئ حتى الحنفساء وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن كتم العلم والوعيد لفاعله وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال لولا آيتان أنزلهما الله فى كتابه ماحدثت شيأ أبدا ان الذين يكتمون الآية وقوله واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه الى آخرها وهل اظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين فيه خلاف والاصح انه اذا أظهرها البعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول اليه لم يبق مكتوما وقيل متى سئل العالم عن شئ يعلمه من أمر الدين يجب عليه اظهاره والا فلا وفى الآية دليل على وجوب قبول قول الواحد لانه لا يجب عليه البيان الا وقد وجب قبول قوله (الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) فيه استثناء التائبين الراجعين من الكفر الى الاسلام والمصلحين لما فسد من أعمالهم والمبينين للناس ما بينه الله فى كتبه وعلى ألسن رسله قال قتادة أصلحوا ما بينهم وبين الله وبينوا الذى جاءهم من الله ولم يكتموه ولم يجحدوه (فأولئك أتوب عليهم) يعنى أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم قاله سعيد بن جبير (وأنا التواب) أى المتجاوز عن عبادى الرجاع بقلوبهم المنصرفة عنى الى (الرحيم) بهم بعد اقبالهم على والجملة اعتراض تذييل محقق لمضمون ماقبله والالتفات الى التكلم للتفنن فى النظم الكريم مع مافيه من التلويح والرمز الى مامر من اختلاف المبدأ فعليه تعالى السابق وهو اللعن واللاحق وهو الرحمة

(٢٧ ل - فتح البيان) أبى هريرة أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ اليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ثم التفت الى أبى هريرة فقال أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أجب عنى اللهم أيده بروح القدس فقال اللهم نعم وفى بعض الروايات ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجهم أو هاجهم وجبريل معك وفى شعر حسان قوله وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس به خفاء وقال محمد بن اسحق حدثنى عبد الرحمن بن أبى حسين المكى عن شهر بن حوشب الاشعرى ان نفرا من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أخبرنا عن الروح فقال

أنشدكم بالله وبايامه عند بني اسرائيل هل تعلمون انه جبرائيل وهو الذي يأتيني قالوا نعم وفي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان روح القدس نفث في روعي انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب * أقوال أخر قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحرث حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس وأيدناه بروح القدس قال هو الاسم الاعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى وقال ابن جرير حدثت عن المنجاب فذكره وقال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن جبير (٢١٠) نحو ذلك ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير أيضا قال وهو الاسم الاعظم وقال ابن أبي نجيح الروح هو حفظة على الملائكة وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس القدس هو الرب تبارك وتعالى وهو قول كعب وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري انهما قالا القدس هو الله تعالى وروحه جبريل فعلى هذا يكون القول الاول وقال السدي القدس البركة وقال العوفي عن ابن عباس القدس الطهر وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الاعلى أنبأنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله تعالى وأيدناه بروح القدس قال أيد الله عيسى بالانجيل روحا كما جعل القرآن روحا كلاهما روح من الله كما قال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ثم قال ابن جرير وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال الروح في هذا الموضع جبرائيل فان الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله تعالى اذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل الآية فذكر انه أيده به فلو كان الروح الذي أيده به هو الانجيل لكان قوله اول واذ أيدتك بروح القدس واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل تكريرا لقول لا معنى له والله سبحانه وتعالى أعز وأجل ان يخاطب عباده بما لا يفيدهم به (قلت) ومن الدليل على انه جبرائيل ما تقدم من أول السياق ولله الحمد وقال الزمخشري بروح القدس بالروح المقدسة كما تقول حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال وروح منه فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة وقيل لانه لم تضمه الاصلاب والارحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالانجيل كما قال في القرآن روحا من أمرنا وقيل باسم

(ان الذين كفروا) بالكتمان وغيره (وماتوا وهم كفار) جملة حالية واثبات الواو فيها أفصح خلافا لمن جعل حذفها شاذا وهو الزمخشري تبعا للفراء وقد استدل بذلك على انه لا يجوز لعن كافر معين لان حاله عند الوفاة لا يعلم ولا ينافي ذلك ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من لعنه لقوم من الكفار باعيانهم لانه يعلم بالوحي ما لا نعلم وقيل يجوز لعنه عملا بظاهر الحال كما يجوز قتاله واستدل بقوله (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة) على جواز لعن الكفار على العموم قال القرطبي ولا خلاف في ذلك قال وليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر بل هو جزاء على الكفر واظهار قبيح كفره سواء كان الكافر عاقلا أو مجنونا وقال قوم من السلف لا فائدة في لعن من جن أو مات منهم لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر قال ويدل على هذا القول ان الآية دالة على الاخبار عن الله والملائكة والناس بلعنهم لا على الامر به قال ابن العربي ان لعن العاصي المعين لا يجوز باتفاق لما روى ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتي بشارب خمر مرارا فقال بعض من حضر لعنه الله ما أكثر ما يشرب فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم والحديث في الصحيحين (والناس أجمعين) قيل هذا يوم القيامة وأما في الدنيا ففي الناس المسلم والكافر ومن يعلم بالعاصي ومعصيته ومن لا يعلم فلا يتأتى اللعن له من جميع الناس وقيل في الدنيا والمراد انه يلعنه غالب الناس أو كل من علم بمعصيته منهم عن أبي العالية قال ان الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم يلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون وقال قتادة يعني بالناس أجمعين المؤمنين (خالدين فيها) أي في النار وقيل في اللعنة وانما أضمرت لعظم شأنها (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) فيعتذرون قاله أبو العالية وقال ابن عباس لا يؤخرون والانظار الامهال وقيل معناه لا ينظر الله اليهم فهو من النظر وقيل هو من الانتظار أي لا ينتظرون ليعتذروا (وإلهكم إله واحد) أي لا شريك له في الالوهية ولا نظير له في الربوبية والتوحيد هو نفي الشريك والتقسيم والشبيه فالله تعالى واحد في أفعاله لا شريك له يشاركه في مصنوعاته وواحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا يشبهه شئ من خلقه (لا إله إلا هو) تقرير للوحدانية بنفي غيره من الالوهية واثباتها له (الرحمن الرحيم) وقد تقدم تفسيرهما وفيه الارشاد الى التوحيد وقطع العلائق والاشارة الى ان

الله الاعظم الذى كان يحيى الموتى بذكره فتضمن كلامه قولا آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة وقال الزمخشرى فى قوله تعالى ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون انما لم يقل وفريقا قتلتم لانه أراد بذلك وصفهم فى المستقبل أيضا لانهم حاولوا قتل النبى صلى الله عليه وسلم بالسم والسحر وقد قال عليه السلام فى مرض موته مازالت أكلة خيبر تعادنى فهذا أوان انقطاع أبهرى قلت وهذا الحديث فى صحيح البخارى وغيره (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف أى فى أكنة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف أى لا تفقه وقال العوفى عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف هى القلوب المطبوع عليها وقال مجاهد وقالوا قلوبنا غلف عليها غشاوة وقال عكرمة عليها طابع وقال أبو العالية أى لا تفقه وقال السدى يقولون عليها غلاف وهو الغطاء وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فلا تعى ولا تفقه قال مجاهد وقتادة وقرأ ابن عباس غلف بضم اللام وهو جمع غلاف أى قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج الى علمك قاله ابن عباس وعطاء بل لعنهم الله بكفرهم أى طردهم الله وأبعدهم من كل خير فقليلا ما يؤمنون قال قتادة معناه لا يؤمن منهم الا القليل وقالوا قلوبنا غلف هو كقوله وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله غلف قال تقول قلبى فى غلاف فلا يخلص اليه مما تقول شئ وقرأ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وهذا الذى رجحه ابن جرير واستشهد بما روى من حديث عمرو بن مرة الجملى عن أبى البختري عن حذيفة قال القلوب أربعة فذكر منها وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الرحمن العزرمى أنبأنا أبى عن جدى عن قتادة عن الحسن فى قوله قلوبنا غلف قال لم تختن وهذا القول يرجع معناه الى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم وانها بعيدة من الخير * قول آخر قال الضحاك عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف قال يقولون قلوبنا غلف مملوءة لا تحتاج الى علم محمد ولا غيره وقال عطية العوفى عن ابن عباس وقالوا قلوبنا غلف أى أوعية للعلم وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الانصار فيما حكاه ابن جرير وقالوا قلوبنا غلف بضم اللام نقلها الزمخشرى أى جمع غلاف أى أوعية بمعنى

أول ما يجب بيانه ويحرم كتمانه هو أمر التوحيد وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والدارمى وأبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال اسم الله الاعظم فى هاتين الآيتين والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم والم الله لا اله الا هو الحى القيوم وأخرج الديلمى عن أنس ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ليس شئ أشد على مردة الجن من هؤلاء الآيات التى فى سورة البقرة والهكم اله واحد الآيتين (ان فى خلق السموات والارض) لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله والهكم اله واحد عقب ذلك بالدليل الدال عليه وهو هذه الامور الثمانية التى هى من أعظم صنعة الصانع الحكيم مع علم كل عاقل بانه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التى أثبتها الكفار ان يأتى بشئ منها أو يقتدر عليه أو على بعضه وهى خلق السموات وتعاقب الليل والنهار وجرى الفلك فى البحر وانزال المطر من السماء واحياء الارض به وبث الدواب فيها بسببه وتصريف الرياح وتسخير السحاب فان من أمعن نظره وأعمل فكره فى واحد منها انبهر له وضاق ذهنه عن تصور حقيقته وتحتم عليه التصديق بان صانعه هو الله سبحانه وانما جمع السموات لانها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الاخرى ووحد الارض لانها كلها من جنس واحد وهو التراب والآية فى السماء سمكها وارتفاعها بغير عمد ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم والآية فى الارض مدها وبسطها على الماء وما يرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والانهار والاشجار والثمار والنبات (واختلاف الليل والنهار) تعاقبهما باقبال احدهما وادبار الآخر واضاءة احدهما واظلام الآخر وقيل فى الطول والقصر والزيادة والنقصان قال ابن الخطيب وعندى فيه وجه ثالث هو انهما كما يختلفان فى الازمنة فهما يختلفان فى الامكنة فان من يقول ان الارض كرة فكل ساعة عينتها فتلك الساعة فى موضع من الارض صبح وفى موضع آخر ظهر وفى آخر عصر وفى آخر مغرب وفى آخر عشاء وهلم جرا هذا اذا اعتبرنا البلاد المختلفة فى الطول أما البلاد المختلفة فى العرض فكل بلد يكون عرضه للشمال أكثر كانت أيامه الصيفية أطول وأيامه الشتوية بالضد من ذلك فهذه الاحوال المختلفة فى الايام والليالى بحسب اختلاف اطوال البلاد وعروضها أمر عجيب قاله الكرخى وانما قدم الليل على النهار لان الظلمة أقدم قال

انهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه الى علم آخر كما كانوا يفتون بعلم التوراة ولهذا قال تعالى بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون أى ليس الامر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها كما قال فى سورة النساء وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا وقد اختلفوا فى معنى قوله فقليلا ما يؤمنون وقوله فلا يؤمنون الا قليلا فقال بعضهم فقليل من يؤمن منهم وقيل فقليل ايمانهم بمعنى انهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ولكنه ايمان لا ينفعهم لانه مغمور بما كفروا به من الذى (٢١٢) جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم انما كانوا غير مؤمنين بشئ

تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وهذا أصح القولين وقيل النور سابق الظلمة ويبنى على هذا الخلاف فائدة وهى ان الليلة هل هى تابعة لليوم قبلها أو لليوم بعدها فعلى القول الصحيح تكون الليلة لليوم بعدها فيكون اليوم تابعا لها وعلى القول الثانى تكون لليوم قبلها فتكون الليلة تابعة له فيوم عرفة على القول الاول مستثنى من الاصل فانه تابع لليلة بعده وعلى الثانى جاء على الاصل والآية فيهما أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون فى النهار وطلب النوم والراحة يكون بالليل فاختلافهما انما هو لتحصيل مصالح العباد والنهار ما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس وقال النضر بن شميل أول النهار طلوع الشمس ولا يعتد ما قبل ذلك من النهار وكذا قال ثعلب والزجاج وقسم ابن الانبارى الزمان الى ثلاثة أقسام قسما جعله ليلا محضا وهو من غروب الشمس الى طلوع الفجر وقسما جعله نهارا محضا وهو من طلوع الشمس الى غروبها وقسما جعله مشتركا بين النهار والليل وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل ومبادى ضوء النهار هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة وأما فى الشرع فالكلام فى ذلك معروف (والفلك التى تجرى فى البحر) وهى السفن وافراده وجمعه بلفظ واحد وهو هذا ويذكر ويؤنث قال تعالى فى الفلك المشحون والفلك التى تجرى فى البحر وقال حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم وقيل واحده فلك بالتحريك مثل أسد واسد والآية فى الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهى موقرة بالاثقال والرجال فلا ترسب وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر فلا ينجى منه الا الله تعالى (بما ينفع الناس) يعنى ركوبها والحمل عليها فى التجارات لطلب الارباح والآية فى ذلك ان الله لو لم يقو قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض فى منافعهم وأيضا فان الله خص كل قطر من اقطار العالم بشئ معين وأحوج الكل الى الكل فصار ذلك سببا يدعوهم الى اقتحام الاخطار فى الاسفار من ركوب السفن وخوف البحر وغير ذلك فالحامل ينتفع لانه يربح والمحمول اليه ينتفع بما حمل اليه (وما أنزل الله من السماء من ماء) أى المطر الذى به حياة العالم واخراج النبات والارزاق (فأحيا به الارض) أى اظهر نضارتها وحسنها (بعد موتها) أى بعد يبسها وجدبها سماه موتا مجازا والآية فى هذين ان الله جعله سببا لاحياء الجميع من حيوان ونبات ونزوله

وانما قال فقليلا ما يؤمنون وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب قلما رأيت مثل هذا قط تريد ما رأيت مثل هذا قط وقال الكسائى تقول العرب من زنى بارض قلما تنبت أى لا تنبت شيأ حكاه ابن جرير رحمه الله والله أعلم (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) يقول تعالى ولما جاءهم يعنى اليهود كتاب من عند الله وهو القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لما معهم يعنى من التوراة وقوله وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا أى وقد كانوا من قبل مجىء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين اذا قاتلوهم يقولون انه سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وارم كما قال محمد بن اسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة الانصارى عن أشياخ منهم قال فينا والله وفيهم يعنى فى الانصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم عند ما عرفوا كفروا به قالوا كنا قد علونا هم قهرا دهرا فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون ان نبيا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وارم فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به يقول الله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا قال يستنصرون يقولون نحن نعين محمدا عليهم وليسوا كذلك بل يكذبون وقال محمد بن اسحق أخبرنى محمد بن أبى محمد أخبرنى عكرمة

او سعيد بن جبير عن ابن عباس ان يهود كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك وتخبروننا بانه مبعوث وتصفونه بصفته فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم فانزل الله في ذلك من قولهم ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم الآية وقال العوفي عن ابن عباس (٢١٣) وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا

عند وقت الحاجة اليه بمقدار المنفعة وعند الاستسقاء والدعاء وانزاله بمكان دون مكان (وبث فيها) أي في الارض (من كل دابة) قال ابن عباس يريد كل مادب على وجه الارض من جميع الخلق من الناس وغيرهم والآية في ذلك ان جنس الانسان يرجع الى أصل واحد وهو آدم مع ما فيهم من الاختلاف في الصور والاشكال والالوان والالسنة والطبائع والاخلاق والاوصاف الى غير ذلك ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان والبث النشر والظاهر ان قوله وبث معطوف على قوله فاحيا لانهما أمران متسببان عن انزال المطر وقال في الكشاف ان الظاهر عطفه على أنزل وقال أبو حيان لا يصح عطفه على أنزل ولا على أحيا والصواب أنه على حذف الموصول أي ومابث وفيه زيادة فائدة وهو جعله آية مستقلة وحذف الموصول شائع في كلام العرب انتهى (وتصريف الرياح) أي ارسالها عقيما وملقحة وصرا ونصرا وهلاكا وحارة وباردة ولينة وعاصفة وقيل تصريفها في مهابها جنوبا وشمالا ودبورا وقبولا وصبا ونكباء وهي التي تأتي بين مهبي ريحين وقيل تصريفها أن تاتي السفن الكبار بقدر ما تحملها والصغار كذلك ولا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر وعن أبي بن كعب كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة وكل شيء من الريح فهي عذاب وقد ورد في النهي عن سب الريح وأوصافها أحاديث كثيرة لا تعلق لها بالآية والآية في الريح انه جسم لطيف لا يمسك ولا يرى وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الشجر والصخر ويخرب البنيان العظيم وهو مع ذلك حياة الوجود فلو امسك طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الارض (والسحاب المسخر بين السماء والارض) أي الغيم المذلل سمي سحابا لانسحابه في الهواء ويحبب ذيل سحبا وتسحب فلان على فلان اجترأ والمسخر المذلل وتسخيره بعثه من مكان الى آخر وقيل تسخيره ثبوته بين السماء والارض من غير عمد ولا علائق والاول اظهر والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الاودية العظيمة يبقى معلقا بين السماء والارض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده وفيه آيات أخر لا تخفى ففي هذه الانواع الثمانية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار وانه الواحد في ملكه فلا شريك له ولا نظير وهو المراد بقوله والهكم اله واحد لا اله الا هو (لآيات لقوم يعقلون) أي دلالات على وحدانيته سبحانه لمن ينظر ببصره ويتفكر بعقله وانما جمع آيات لان في كل واحد

يقول يستنصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يعني بذلك أهل الكتاب فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه وقال أبو العالية كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يقولون اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نقتل المشركين ونقتلهم فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب وهم يعلمون انه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين وقال قتادة وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا قال وكانوا يقولون انه سيأتي نبي فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقال مجاهد فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين قال هم اليهود (بئسما اشتروا به أنفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغيا ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) قال مجاهد بئسما اشتروا به أنفسهم يهود شروا الحق بالباطل وكتمان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بان يبينوه وقال السدي بئسما اشتروا به أنفسهم يقول باعوا به أنفسهم يقول بئسما اعتاضوا لانفسهم فرضوا به وعدلوا اليه من الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم عن تصديقه وموازرته ونصرته وانما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ولا حسد أعظم من هذا قال ابن اسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس بئسما اشتروا به أنفسهم ان يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده أي ان الله جعله من غيرهم فباؤا

بغضب على غضب قال ابن عباس في الغضب على الغضب فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله اليهم (قلت) ومعنى باؤا استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب وقال أبو العالية غضب الله عليهم بكفرهم بالانجيل وعيسى ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وعن عكرمة وقتادة مثله قال السدي أما الغضب الاول فهو حين غضب عليهم في العجل وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس (٢١٤) مثله * وقوله تعالى وللكافرين عذاب مهين لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالاهانة والصغار في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين وقد قال الامام أحمد حدثنا يحيى حدثنا ابن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شئ من الصغار حتى يدخلوا سجنا في جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الانيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) يقول تعالى واذا قيل لهم أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم وصدقوه واتبعوه قالوا نؤمن بما أنزل علينا أي يكفينا الايمان بما أنزل علينا من التوراة والانجيل ولا نقر الا بذلك ويكفرون بما وراءه يعني بما بعده وهو الحق وجواب مصدقا لما معهم أي وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم الحق مصدقا لما معهم منصوبا على الحال أي في حال تصديقه لما معهم من التوراة والانجيل فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ثم قال تعالى فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين أي ان كنتم صادقين في دعواكم الايمان بما أنزل اليكم فلم قتلتم الانبياء الذين جاؤكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم قتلتموهم بغيا وعنادا واستكبارا على رسل الله

مما ذكر من هذه الانواع آيات كثيرة تدل على ان لها خالقا مدبرا مختارا (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) اظهار الاسم الجليل في مقام الاضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف وابانة كمال قبح ما ارتكبوه ولما فرغ سبحانه من الدليل على وحدانيته أخبر أن مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه وجليل قدرته وتفرده بالخلق قد وجد في الناس من يتخذ معه سبحانه ندا يعبده من الاصنام كذا قيل وقد تقدم تفسير الانداد مع ان هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الانداد بل أحبوها حبا عظيما وأفرطوا في ذلك افراطا بالغا حتى صار حبهم لهذه الاوثان ونحوها متمكنا في صدورهم كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه ويجوز ان يكون المراد كحبهم لله أي عبدة الاوثان قاله الزجاج وابن كيسان ويجوز ان يكون مبنيا للمفعول ومعناه كما يحب الله ويعظم والاول أولى لقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) فانه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوي أي ان حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للانداد لان المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء والكفار لا يخصون أصنامهم بذلك بل يشركون الله معهم ويعترفون بانهم انما يعبدون أصنامهم ليقربوهم الى الله ويمكن ان يجعل هذه الجملة دليلا على الثاني لان المؤمنين اذا كانوا أشد حبا لله لم يكن حب الكفار للانداد كحب المؤمنين لله وقيل المراد بالانداد هنا الرؤساء والكبراء أي يطيعونهم في معاصي الله ويقوي هذا الضمير في قوله يحبونهم فانه لمن يعقل ويقويه أيضا قوله سبحانه عقب ذلك اذ تبرأ الذين اتبعوا الآية والحب نقيض البغض والمحبة الارادة وقيل في معنى الآية غير ذلك وايثار اظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتفخيم الحب والاشعار بعلته (ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب) قرأ أهل مكة بالياء وأهل الشام بالفوقية والمعنى على الاولى لو يرى الذين ظلموا في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه (أن القوة لله جميعا) قاله أبو عبيدة قال النحاس وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير انتهى وعلى هذا فالرؤية هي البصرية لا القلبية وروى عن محمد بن يزيد المبرد قال هذا التفسير الذي جاء به أبو عبيدة بعيد وليست عبارته فيه بالجيدة لانه يقدر ولو يرى الذين ظلموا العذاب فكأنه يجعله مشكوكا فيه وقد أوجبه الله تعالى ولكن التقدير وهو الاحسن ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله ويرى بمعنى يعلم أي لو يعلمون حقيقة قوة الله وشدة عذابه قال

فلستم تتبعون المجرد الاهواء والآراء والتشهى كما قال تعالى أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون وقال السدى فى هذه الآية يعيرهم الله تبارك وتعالى قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مومنين وقال أبو جعفر بن جرير قل يا محمد ليهود بنى اسرائيل اذا قلت لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا لم تقتلون ان كنتم مومنين بما أنزل الله أنبياء الله يا معشر اليهود وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم وذلك من الله تكذيب لهم فى قولهم نؤمن بما أنزل علينا وتعييرا لهم * (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على انه رسول الله وانه لا اله الا الله والآيات البينات هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التى شاهدوها ثم اتخذتم العجل أى معبودا من دون الله فى زمان موسى وأيامه وقوله من بعده أى من بعد ما ذهب عنكم الى الطور لما جاءه الله عز وجل كما قال تعالى واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار وأنتم ظالمون أى وأنتم ظالمون فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون انه لا اله الا الله كما قال تعالى ولما سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مومنين) يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم واعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ولهذا قالوا سمعنا وعصينا وقد تقدم تفسير ذلك وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قال عبد الرزاق عن قتادة وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قال اشربوا حبه حتى خلص ذلك الى قلوبهم وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقال الامام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى عن خالد بن محمد الثقفى عن بلال بن أبى الدرداء عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال حبك الشئ يعمى ويصم ورواه أبو داود عن حيوة بن شريح عن بقية عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم به وقال السدى أخذ موسى عليه السلام العجل فذبحه

وجواب لو محذوف أى لتبينوا أمرا عظيما لا يوصف وحذف جواب لو كما حذف فى قوله ولو ترى اذ وقفوا على النار ولو ترى اذ وقفوا على ربهم ومن قرأ بالفوقية فالتقدير ولو ترى يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعا وقد كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم علم ذلك ولكن خوطب بهذا الخطاب والمراد به أمته وقيل ان فى موضع نصب مفعول لاجله أى لان القوة لله ودخلت اذ وهى لما مضى فى اثبات هذه المستقبلات تقريبا للامر وتصحيحا لوقوعه وهو مما يتكرر فى القرآن كثيرا وجميع فى الاصل فعيل من الجمع وكأنه اسم جمع فلذلك يتبع تارة بالمفرد قال تعالى نحن جميع منتصر وتارة بالجمع قال تعالى جميع لدينا محضرون وينتصب حالا ويؤكد بمعنى كل ويدل على الشمول كدلالة كل ولا دلالة له على الاجتماع فى الزمان (وان الله شديد العذاب) عطف على ما قبله وفائدته تهويل الخطب وتفظيع الامر فان اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب) أى تنزه وتباعد معناه ان السادة والرؤساء من مشركى الانس تبرؤا ممن اتبعهم على الكفر ورأوا يعنى التابعين والمتبوعين العذاب قيل عند المعاينة فى الدنيا وقيل عند العرض والمساءلة فى الآخرة ويمكن أن يقال فيهما جميعا اذ لا مانع من ذلك وقيل هم الشياطين يتبرؤن من الانس وبه قال قتادة والقول هو الاول وقد احتج جمع من أهل العلم بهذه الآية على ذم التقليد وهو مذكور فى موطنه (وتقطعت بهم) أى عنهم (الاسباب) بسبب كفرهم جمع سبب وأصله فى اللغة الحبل الذى يشد به الشئ ويجذب به ثم جعل كل ما جر شيأ سببا فهى مجاز هنا والمراد بها الوصل التى كانوا يتواصلون بها فى الدنيا من الرحمة وغيرها وقيل هى الاعمال وقال ابن عباس هى المنازل وقال أيضا هى الارحام وقال المودة وقيل العهود والحلف (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة) أى رجعة الى الدنيا الكرة الرجعة والعودة الى حال قد كانت ولو هنا بمعنى التمنى كأنه قيل ليت لنا كرة ولهذا وقعت الفاء فى الجواب والمعنى ان الاتباع قالوا لو ردنا الى الدنيا حتى نعمل صالحا (فنتبرأ منهم) أى المتبوعين (كما تبرؤا منا) اليوم وهو جواب التمنى (كذلك) أى كما أراهم الله العذاب (يريهم الله أعمالهم) السيئة وهذه الرؤية ان كانت البصرية فقوله (حسرات عليهم) منتصب على الحال وان كانت القلبية فهو

بالمبرد ثم ذراه فى البحر ثم لم يبق بحر يجرى يومئذ الا وقع فيه شئ ثم قال لهم موسى اشربوا منه فشربوا فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب فذلك حين يقول الله تعالى وأشربوا فى قلوبهم العجل وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا اسرائيل عن أبى اسحق عن عمارة بن عمير وأبى عبد الرحمن السلمى عن على رضى الله عنه قال عمد موسى الى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شاطئ نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل الا اصفر وجهه مثل الذهب وقال سعيد بن جبير وأشربوا فى قلوبهم العجل قال لما أحرق العجل برد (٢١٦) ثم نسف فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران وحكى القرطبى عن كتاب القشيرى انه ما شرب أحد ممن عبد العجل الا جن ثم قال القرطبى وهذا شئ غير ماههنا لان المقصود من هذا السياق انه ظهر على شفاههم ووجوههم والمذكور ههنا انهم أشربوا فى قلوبهم العجل يعنى فى حال عبادتهم له ثم أنشد قول النابغة فى زوجته عثمة

تغلغل حب عثمة فى فؤادى
فبانت مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب
ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد اذا ذكرت العهد منها
أطير لو أن انسانا يطير

وقوله قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين أى بئسما تعتمدونه فى قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الانبياء ثم اعتمادكم فى كفركم بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الامور عليكم اذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الانبياء والمرسلين المبعوث الى الناس أجمعين فكيف تدعون لانفسكم الايمان وقد فعلتم هذه الافاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق وكفركم بآيات الله وعبادتكم العجل من دون الله (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون) قال محمد بن اسحق عن محمد بن ابى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين أى ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب فأبوا ذلك على رسول الله صلى الله

المفعول الثالث والمعنى ان أعمالهم الفاسدة يريهم الله اياها فتكون عليهم حسرات وندامات أو يريهم الله الاعمال الصالحة التى أوجبها عليهم فتركوها فيكون ذلك حسرة عليهم والحسرة الغم على ما فاته وشدة الندم عليه كانه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه (وما هم بخارجين من النار) فيه دليل على خلود الكفار فى النار وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص وجعله الزمخشرى للتقوية لغرض له يرجع الى المذهب والبحث فى هذا يطول عن ثابت بن معبد قال مازال أهل النار يأملون الخروج منها حتى نزلت هذه الآية (يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا) قيل انها نزلت فى ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبنى مدلج فيما حرموه على أنفسهم من الحرث والانعام حكاه القرطبى فى تفسيره وهذا هو المشهور بخلاف ما جرى عليه القاضى من أنها نزلت فى قوم حرموا على أنفسهم رفيع الاطعمة والملابس فانه مرجوح قاله الكرخى ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وسمى الحلال حلالا لانحلال عقدة الحظر عنه والطيب هنا هو المستلذ كما قاله الشافعى وغيره وقال مالك وغيره هو الحلال فيكون تأكيدا لقوله حلالا ومن فى مما للتبعيض للقطع بان فى الارض ما هو حرام كالحجارة لا يؤكل أصلا وليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال حلالا والامر مستعمل فى كل من الوجوب والندب والاباحة الاول اذا كان لقيام البنية والثانى كالاكل مع الضيف والثالث كغير ماذكر وقيل معنى حلالا ماذون فيه شرعا والطيب الحلال وان لم يستلذ كالادوية وفى هذه الآية دليل على ان كل ما لم يرد فيه نص أو ظاهر من الاعيان الموجودة فى الارض فاصله الحل حتى يرد دليل يقتضى تحريمه وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى وهو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) جمع خطوة بالفتح والضم وهى بالفتح المرة وبالضم لما بين القدمين وقيل انهما لغتان وقرئ خطؤات بضم الخاء والطاء والهمز على الواو قال الاخفش وذهبوا بهذه القراءة الى أنها جمع خطيئة من الخطا لا من الخطو والمعنى على قراءة الجمهور لا تقتفوا أثر الشيطان وطرقه وتزيينه وعمله وكل ما لم يرد به الشرع فهو منسوب الى الشيطان وقيل هى النذور فى المعاصى وقيل المحقرات من الذنوب والاولى التعميم وعدم التخصيص بفرد أو نوع قال ابن عباس ما خالف القرآن فهو من خطوات

عليه وسلم ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين أى يعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الارض يهودى الا مات وقال الضحاك عن ابن عباس فتمنوا الموت فسلوا الموت وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن عكرمة قوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين قال قال ابن عباس لو تمنى يهود الموت لماتوا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا عثام سمعت الاعمش قال لا أظنه الا عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه وهذه أسانيد صحيحة (٢١٧) الى ابن عباس وقال ابن جرير فى تفسيره

الشيطان وقال عكرمة هى نزغات الشيطان وعن سعيد بن جبير قال هى تزيين الشيطان وقال قتادة كل معصية لله فهى من خطواته وعن ابن عباس ما كان من يمين أو نذر فى غضب فهو من الخطوات وكفارته كفارة يمين (انه لكم عدو) تعليل للنهى عن الاتباع (مبين) أى ظاهر العداوة ومثله قوله تعالى انه عدو مضل مبين وقوله ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وقد أظهر الله عداوته بأبيه السجود لآدم ثم بين عداوته ما هى فقال (انما يأمركم) قيل استعير الامر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيها لرأيهم وتحقيرا لشأنهم قاله البيضاوى وقيل لا حاجة الى صرف الامر عن ظاهره لان حقيقته طلب الفعل ولا ريب ان الشيطان يطلب السوء والفحشاء ممن يريد اغواءه (بالسوء) سمى السوء سوأ لانه يسوء صاحبه بسوء عاقبته وهو مصدر ساءه يسوءه سوأ ومساءة اذا أحزنه (والفحشاء) أصله سوء المنظر ثم استعمل فيما يقبح من المعانى وقيل السوء القبيح والفحشاء التجاوز للحد فى القبح وقيل السوء ما لا حد فيه والفحشاء ما فيه الحد قاله ابن عباس وقيل الفحشاء الزنا وقيل هو البخل وقيل ان كل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) أى بان تقولوا قال ابن جرير الطبرى يريد ما حرموا من البحيرة والسائبة ونحوهما مما جعلوه شرعا وقيل هو قولهم هذا حلال وهذا حرام بغير علم والظاهر انه يصدق على كل ما قيل فى الشرع بغير علم فيتناول ذلك جميع المذاهب الفاسدة التى لم يأذن فيها الله ولم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمر الشيطان ووسوسته عبارة عن هذه الخواطر التى يجدها الانسان فى قلبه وفاعل هذه الخواطر هو الله تعالى وانما الشيطان كالعرض وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) الضمير فى لهم راجع الى الناس فى قوله يا أيها الناس لان الكفار منهم وهم المقصودون هنا فعدل عن الخطابة الى الغيبة على طريق الالتفات مبالغة فى بيان ضلالهم كانه يقول للعقلاء انظروا الى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون وقيل مشركو العرب خاصة وقد سبق ذكرهم فى قوله من يتخذ من دون الله أندادا ولفظ أبى السعود نزلت فى المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله من الحجج الظاهرة والبينات الباهرة فجنحوا للتقليد انتهى وقيل نزلت فى اليهود وعلى

و بلغنا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا حدثنا بذلك أبو كريب حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواه الامام أحمد عن اسمعيل ابن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن بشار حدثنا سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قال قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم قلت أرأيتك لو انهم أحبوا الموت حين قيل لهم تمنوا الموت أتراهم كانوا يموتون قال لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت وما كانوا ليتمنونه وقد قال الله ما سمعت ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين وهذا غريب عن الحسن ثم هذا الذى فسر به ابن عباس

(٢٨ ل - فتح البيان) الآية هو المتعين وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة ونقله ابن جرير عن قتادة وأبى العالية والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون فهم علموا نعائت الله تعالى لما زعموا انهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى دعوا الى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم

أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد انهم ظالمون لانهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدم على ذلك فلما تأخروا علم كذبهم وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة وعتوهم وعنادهم الى المباهلة فقال تعالى فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يدوهم صاغرون فضرب بها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أمينا ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه ان يقول للمشركين قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا أي من كان في الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه كما سيأتي تقريره في موضعه ان شاء الله تعالى وأما من فسر الآية على معنى ان كنتم صادقين أي في دعواكم فتمنوا الآن الموت ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم ومال اليه ابن جرير بعد ما قارب القول الاول فانه قال القول في تأويل قوله تعالى قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس الآية فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره وفضح بها أحبارهم وعلماءهم وذلك ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم الى قضية (٣) عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف كما أمره ان يدعو الفريق الآخر من النصارى اذ خالفوه في عيسى بن مريم عليه السلام وجادلوه فيه الى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة فقال لفريق اليهود ان كنتم محقين فتمنوا الموت فان ذلك خير لكم ورغبهم ان كنتم محقين فيما تدعون من الايمان وقرب المنزلة من الله لكم لكي يعطيكم أمنيتكم من الموت اذا تمنيتم فانما تصيرون الى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله في جناته ان كان الامر كما تزعمون من ان الدار الآخرة لكم خاصة دوننا وان لم تعطوها علم الناس انكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا وانكشف أمرنا وأمركم فامتنعت اليهود من الاجابة الى

هذا فالآية مستأنفة وألفينا معناه وجدنا وفي هذه الآية من الذم للمقلدين والنداء بجهلهم الفاحش واعتقادهم الفاسد ما لا يقادر قدره حيث عارضوا الدلالة بالتقليد ومثل هذه الآية قوله تعالى واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا الآية يعني من التحريم والتحليل وفي ذلك دليل على قبح التقليد والمنع منه والبحث في ذلك يطول قال الرازي في هذه الآية تقريره هذا الجواب من وجوه أحدها انه يقال للمقلد هل تعترف بأن شرط جواز تقليد الانسان ان يعلم كونه محقا أم لا فان اعترفت بذلك لم تعلم جواز تقليده الا بعد ان تعرف كونه محقا فكيف عرفت انه محق وان عرفته بتقليد آخر لزم التسلسل وان عرفته بالعقل فذلك كاف فلا حاجة الى التقليد وان قلت ليس من شرط جواز تقليده أن يعلم كونه محقا فاذا قد جوزت تقليده وان كان مبطلا فاذا أنت على تقليدك لا تعلم انك محق أو مبطل وثانيها هب أن ذلك المتقدم كان عالما بهذا الشيء الا أنا لو قدرنا ان ذلك المتقدم ما كان عالما بذلك الشيء قط وما اختار فيه البتة مذهبا فأنت ماذا كنت تعمل فعلى تقدير ان لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه كان لا بد من العدول الى النظر فكذا ههنا وثالثها انك اذا قلدت من قبلك فذلك المتقدم كيف عرفته أعرفته بتقليد أم لا بتقليد فان عرفته بتقليد لزم اما الدور واما التسلسل وان عرفته لا بتقليد بل بدليل فاذا أوجبت تقليد ذلك المتقدم وجب ان تطلب العلم بالدليل لا بالتقليد لانك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل مع ان ذلك المتقدم طلبه بالدليل لا بالتقليد كنت مخالفا له فثبت ان القول بالتقليد يفضي ثبوته الى نفيه فيكون باطلا وانما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان تنبيها على انه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل أو على ما يقوله الغير من غير دليل انتهى كلامه وكم من آية بينة وأثر جلي تدل على ذم التقليد والمقلدين ولكن مفاسد الجهل والتعصب كثيرة لا يأتي عليها الحصر وقد أفرده الشوكاني بمؤلف مستقل سماه القول المفيد في حكم التقليد واستوفى الكلام فيه في أدب الطلب ومنتهى الارب وألف الحافظ الواحد المتكلم ابن القيم في ذلك كتابا ضخما سماه اعلام الموقعين عن رب العالمين * قال ابن عباس دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اليهود الى الاسلام

---

(٣) قوله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم الى قضية الخ هكذا في الاصل ولعل فيه سقطا من الناسخ والاصل والله أعلم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الفريق الاول من اليهود الى قضية الخ ويدل على ذلك بقية الكلام فتامل وحرره اه مصححه

ذلك لعلمهم ان من تمنى الموت هلكت فذهبت دنياها وصارت الى خزى الابد فى آخرتها كما امتنع فريق النصارى فهذا الكلام منه أوله حسن وآخره فيه نظر وذلك انه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل اذ يقال انه لا يلزم من كونهم يعتقدون انهم صادقون فى دعواهم انهم يتمنون الموت فانه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت وكم من صالح لا يتمنى الموت بل يود أن يعمر ليزداد خيرا وترتفع درجته فى الجنة كما جاء فى الحديث خيركم من طال عمره وحسن عمله ولهم مع ذلك ان يقولوا على هذا فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون انكم أصحاب الجنة وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم وهذا كله انما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى فاما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شئ من ذلك بل قيل (٢١٩) لهم كلام نصف ان كنتم تعتقدون انكم أولياء الله من دون الناس وانكم أبناء الله واحباؤه وانكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار فبادلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ونعته وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم عليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة وسميت هذه المباهلة تمنيا لان كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما اذا كان فى ذلك حجة له فى بيان حقه وظهوره وكانت المباهلة بالموت لان الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ولهذا قال تعالى ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة أى على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة لان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم وهذا من باب عطف الخاص على العام قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الاعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ومن الذين أشركوا قال الاعاجم وكذا رواه الحاكم فى مستدركه من حديث النورى وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه قال وقد اتفقا على سند تفسير الصحابى وقال الحسن البصرى ولتجدنهم أحرص الناس على حياة قال المنافق أحرص الناس وأحرص من

ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف بل نتبع يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيرا منا فأنزل الله فى ذلك هذه الآية (أولو كان آباؤهم) الهمزة للانكار والواو اما للحال أو للعطف وجواب لو محذوف قاله أبو البقاء وتقديره لاتبعوهم والذى جرى عليه أبو السعود ان لو فى مثل هذا التركيب لا تحتاج الى جواب لان القصد منها تعميم الاحوال (لا يعقلون) أى لا يعلمون (شيأ) من أمر الدين وهذا لفظ عام ومعناه خاص لانهم كانوا يعقلون كثيرا من أمور الدنيا فهذا يدل على جواز ذكر العام مع ان المراد به خاص (ولا يهتدون) الى الصواب وكيفية اكتسابه قال البيضاوى وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد ثم ضرب لهم مثلا فقال (ومثل الذين كفروا) فى اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم وفى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن ان يسلك مثل طريقهم فى التقليد (كمثل الذى ينعق بما لا يسمع) فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعيهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالراعى الذى ينعق بالغنم أو الابل فلا تسمع (الا دعاء ونداء) ولا تفهم ما يقول هكذا فسره الزجاج والفراء وسيبويه وبه قال جماعة من السلف قال سيبويه لم يشبهوا بالناعق انما شبهوا بالمنعوق به والمعنى مثلك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التى لا تفهم فحذف لدلالة المعنى عليه وقال قطرب المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم مالا يفهم يعنى الاصنام كمثل الراعى اذا نعق بغنمه وهو لا يدرى أين هى وبه قال ابن جرير الطبرى وقال ابن زيد المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح فى جوف الليل فيجيبه الصدى فهو يصيح بما لا يسمع ويجيبه ما لا حقيقة فيه فهذه أربعة أقوال وقال البيضاوى المعنى ان الكفرة لانهماكهم فى التقليد لا يلقون أذهانهم الى ما يتلى عليهم فهم فى ذلك كالبهائم التى ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه وتحس بالنداء ولا تفهم معناه وقد اختلف الناس فى هذه الآية اختلافا كثيرا واضطربوا اضطرابا شديدا والذى لخصناه أقوال مهذبة لكل قول منها تقدير ذكره السمين والنعيق زجر الغنم والصياح بها والعرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهل ويقولون أجهل من راعى ضأن قال ابن عباس مثل الذين كفروا مثل البقر والحمار والشاة ان قلت لبعضها كلا ما لم يعلم

المشرك على حياة يود أحدهم أي يود أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق وقال أبو العالية يود أحدهم اى احد المجوس وهو يرجع الى الاول لو يعمر ألف سنة قال الاعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس يود احدهم لو يعمر الف سنة قال هو كقول الفارسى ده هزار سال يقول عشرة آلاف سنة وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضا وقال ابن جرير حدثنا محمد حدثنا على بن الحسن بن شقيق سمعت أبى يقول حدثنا أبو حمزة عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله يود أحدهم لو يعمر ألف سنة قال هو قول الاعاجم هزار سال نوروز ومهرجان وقال مجاهد يود أحدهم لو يعمر ألف سنة قال حييت اليهم الخطيئة طول العمر وقال محمد بن اسحق عن (٢٢٠) محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمر أى وماهو بمنجيه من العذاب وذلك ان المشرك لا يرجو بعثا بعد الموت فهو يحب طول الحياة وأن اليهودى قد عرف ماله فى الآخرة من الخزى بما ضيع ماعنده من العلم وقال العوفى عن ابن عباس وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمر قال هم الذين عادوا جبرائيل قال أبو العالية وابن عمر فذاك بمغيبه من العذاب ولا منجيه منه وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى هذه الآية يهود أحرص على الحياة من هؤلاء وقد ودهؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عمر كما عمر ابليس لم ينفعه اذ كان كافرا والله بصير بما يعملون اى خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازى كل عامل بعمله (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) قال الامام أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا ان هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بنى اسرائيل اذ زعموا أن جبريل عدو لهم وان ميكائيل ولى لهم ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك فقال بعضهم انما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر نبوته (ذكر من قال ذلك) حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس انه قال حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنها لا يعلمهن الا نبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة وما أخذ يعقوب على بنيه لئن

ما تقول غيرانه يسمع صوتك وكذلك الكافر ان أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غيرانه يسمع صوتك ونحوه قال مجاهد والدعاء والنداء بمعنى واحد وسوغ العطف اختلاف اللفظ (صم بكم عمى) هذا نتيجة ماقبله ورفع على الذم أى هم صم عن سماع الحق ودعاء الرسول بكم عن النطق بالحق عمى عن طريق الهدى (فهم لا يعقلون) أى بالعقل للاخلال بالنظر نتيجة للنتيجة قيل المراد به العقل الكسبى لان العقل الطبيعى كان حاصلا فيهم قال عطاء هم اليهود الذين أنزل الله فيهم ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب الى قوله فما أصبرهم على النار (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) هذا تأكيد للامر الاول أعنى قوله يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا وانما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس قيل والمراد بالاكل الانتفاع وقيل المراد به الاكل المعتاد وهو الظاهر وقيل ان الامر فى كلوا قد يكون للوجوب كالاكل لحفظ النفس ودفع الضرعنها وقد يكون للندب كالاكل مع الضيف وقد يكون للاباحة اذا خلا من هذه العوارض وعن عمر بن عبد العزيز ان المراد بما فى الآية طيب الكسب لا طيب الطعام وقال الضحاك انها حلال الرزق وأخرج أحمد ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فانى يستجاب له وقيل الطيب المستلذ من الطعام فلعل قوما تنزهوا عن أكل المستلذ من الطعام فاباح الله لهم ذلك (واشكروا لله) على ما رزقكم من نعمه وأحل لكم وفيه التفات من ضمير المتكلم الى الغيبة اذ لو جرى على الاسلوب الاول لقال واشكرونا والامر فيه للوجوب فقط (ان كنتم اياه تعبدون) أى تخصونه بالعبادة وتقرون بانه الهكم لا غيره كما يفيده تقديم المفعول وقيل ان كنتم عارفين بالله وبنعمته فاشكروه عليها والاول أولى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) لما أمرنا الله تعالى فى الآية التى تقدمت باكل الطيبات التى هى الحلالات بين فى هذه الآية أنواعا من المحرمات فقال انما وهى كلمة موضوعة

أناحدثكم عن شئ فعرفتموه لتتابعنني على الاسلام فقالوا ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا عما شئتم قالوا اخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن اخبرنا أى الطعام حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة واخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والانثى وأخبرنا بهذا النبي الامي في التوراة ومن وليه من الملائكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنني فاعطوه ماشاء الله من عهد وميثاق فقال نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون ان اسرائيل يعقوب مرض مرضا شديدا فطال سقمه منه فنذر لله نذرا لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان أحب الطعام اليه لحوم الابل وأحب الشراب اليه ألبانها فقالوا اللهم نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد عليهم وأنشدكم بالله الذى لا اله الا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون ان ماء الرجل غليظ أبيض وان ماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان له الولد والشبه باذن الله عز وجل واذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرا باذن الله واذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى باذن الله عز وجل قالوا اللهم نعم قال اللهم اشهد وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون ان هذا النبي الامي تنام عيناه ولا ينام قلبه قالوا اللهم نعم قال اللهم اشهد قالوا أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك قال فان وليي جبريل ولم يبعث الله نبيا قط الا وهو وليه قالوا فعندها نفارقك ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك قال فما منعكم ان تصدقوه قالوا انه عدونا فأنزل الله عز وجل قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه الى قوله لو كانوا يعلمون فعندها باؤا بغضب على غضب وقد رواه الامام أحمد في مسنده عن أبي النضر هاشم بن القاسم وعبد الرحمن بن حميد في تفسيره عن أحمد بن يونس كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام به ورواه أحمد أيضا عن الحسين بن محمد المروزى عن عبد الحميد بنحوه وقد رواه محمد بن اسحق بن يسار حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين عن شهر بن حوشب فذكره مرسلا وزاد فيه قالوا فأخبرنا عن الروح قال فانشدكم بالله و بأيامه عند بني اسرائيل هل تعلمون انه جبريل وهو الذى يأتيني قالوا اللهم نعم ولكنه عدو لنا وهو ملك انما يأتي

موضوعة للحصر تثبت ما تناوله الخطاب وتنفي ما عداه وقد حصرت ههنا التحريم في الامور المذكورة بعدها أى ما حرم عليكم الا الميتة وهي كل ما فارقه الروح من غير ذكاة وقد خصص هذا العموم بمثل حديث أحل لنا ميتتان ودمان فاما الميتتان فالجراد والحوت وأما الدمان فالطحال والكبد أخرجه أحمد وابن ماجه والدارقطني والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر ومثل حديث جابر في العنبر الثابت في الصحيحين مع قوله تعالى احل لكم صيد البحر فالمراد بالميتة هنا ميتة البر لا ميتة البحر وقد ذهب أكثر أهل العلم الى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها وميتها وقال بعض أهل العلم انه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبهه في البر وتوقف ابن حبيب في خنزير الماء قال ابن القاسم أنا أتقيه ولا أراه حراما والدم هو الجاري السائل وكانت العرب تجعل الدم في المصارين ثم تشويه وتأكله فحرمه الله تعالى وقد اتفق العلماء على أن الدم حرام وفي الآية الاخرى أو دما مسفوحا فيحمل المطلق على المقيد لان ما خالط باللحم غير محرم قال القرطبي بالاجماع وقد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم فتعلو الصفرة على البرمة من الدم فتأكل ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا ينكره وأما لحم الخنزير فظاهر هذه الآية والآية الاخرى أعني قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير أن المحرم انما هو اللحم فقط وقد أجمعت الامة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبي في تفسيره وقد ذكرت جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم وحكى القرطبي الاجماع أيضا على أن جملة الخنزير محرمة الا الشعر فانه تجوز الخرازة به وقيل أراد بلحمه جميع اجزائه وانما خص اللحم بالذكر لانه المقصود لذاته بالاكل واختلفوا في نجاسته فقال الجمهور انه نجس وقال مالك انه طاهر وكذا كل حيوان عنده لان علة الطهارة هي الحياة وللشافعي قولان في ولوغ الخنزير الجديد أنه كالكلب والقديم يكفي فيه غسلة واحدة والآية قصر قلب للرد على من استحل هذه الاربعة وحرم الحلال غيرها كالسوائب ومع ذلك هو نسبي أى ما حرم عليكم الا هذه الاربعة لا غيرها من البحيرة وما بعدها في الآية وان كان حرم غيرها من الامور المذكورة في أول المائدة (وما أهل به لغير الله) يعني ما ذبح للاصنام والطواغيت وصيح في ذبحه لغير الله وأصل الاهلال رفع الصوت يقال أهل بكذا أى صرخ ورفع صوته ومنه اهلال

بالشدة وسفك الدماء فلولا ذلك اتبعناك فأنزل الله تعالى فيهم قل من كان عدوا لجبريل الى قوله لا يعلمون وقال الامام أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي عن بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أقبلت يهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم اخبرنا عن خمسة أشياء فان أنبأتنا بهن عرفنا انك نبي واتبعناك فأخذ عليهم ما أخذ اسرائيل على بنيه اذ قال والله على ما نقول وكيل قال هاتوا قالوا فأخبرنا عن علامة النبي قال تنام عيناه ولا ينام قلبه قالوا اخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر قال يلتقي الماآن فاذا علا ماء الرجل ماء المرأة ذكرت واذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت قالوا أخبرنا ما حرم اسرائيل على نفسه قال كان يشتكي عرق النسا فلم يجد شيأ يلائمه الا البان كذا قال أحمد قال بعضهم يعني الابل فحرم لحومها قالوا صدقت قالوا أخبرنا ما هذا الرعد قال ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيديه أو في يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى قالوا فما هذا الصوت الذي نسمع قال صوته قالوا صدقت قالوا انما بقيت واحدة وهي التي نتابعك ان أخبرتنا بها انه ليس من نبي الا وله ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك قال جبريل عليه السلام قالوا جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدو لنا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان فأنزل الله تعالى قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله الى آخر الآية ورواه الترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن الوليد به وقال الترمذي حسن غريب وقال سفيان في تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جريج أخبرني القاسم بن أبي بزة ان يهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي قال جبرائيل ابن قالوا فانه عدو لنا ولا يأتي الا بالحرب والشدة والقتال فنزلت قل من كان عدوا لجبريل الآية قال ابن جرير قال مجاهد قالت يهود يا محمد ما نزل جبريل الا بشدة وحرب وقتال فانه لنا عدو فنزل قل من كان عدوا لجبريل الآية قال البخاري وقوله تعالى من كان عدوا لجبريل قال عكرمة جبر وميك واسراف عبد ايل الله حدثنا عبد الله بن نمير سمع عبد الله بن بكير حدثنا حميد عن أنس بن مالك قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أرض يخترف فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اني سائلك

الصبي واستهلاله وهو صياحه عند ولادته ومنه الهلال لانه يصرخ عند رؤيته والمراد هنا ما ذكر عليه اسم غير الله تعالى كاللات والعزى اذا كان الذابح وثنيا والنار اذا كان الذابح مجوسيا ولا خلاف في تحريم هذا وأمثاله ومثله ما يقع من المعتقدين للاموات من الذبح على قبورهم فانه مما أهل به لغير الله ولا فرق بينه وبين الذابح للوثن قال مجاهد يعني ما ذبح لغير الله أخرجه ابن أبي حاتم وفي تفسير النيسابوري للنظام قال العلماء لو أن مسلما ذبح ذبيحة وقصد بذبحها التقرب الى غير الله صار مرتدا وذبيحته ذبيحة مرتد انتهى وقال صاحب الروض ان المسلم اذا ذبح للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كفر انتهى وهذا القائل من الشافعية قال الشوكاني واذا كان الذبح لسيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم كفرا عنده فكيف بالذبح لسائر الاموات انتهى وقيل ان المراد بذلك ذبائح عبدة الاوثان التي كانوا يذبحونها الاصنامهم كما تقدم وأجازوا ذبيحة النصارى اذا سمى عليها باسم المسيح وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي وسعيد بن المسيب لعموم قوله تعالى وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة لا يحل ذلك والحجة فيه أنهم اذا ذبحوا على اسم المسيح فقد أهلوا به لغير الله فوجب أن يحرم وروى عن علي أنه قال اذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا واذا لم تسمعوهم فكلوا فان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون (فمن اضطر) الى شئ من هذه المحرمات والمضطر هو المكلف بالشئ الملجأ اليه المكره عليه والمراد هنا من خاف التلف والمضطر اما باكراه فيبيح ذلك الى زوال الاكراه أو بجوع في مخمصة فان كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع منها وان كانت نادرة فقال الشافعي يأكل ما يسد به الرمق وبه قال أبو حنيفة أو يأكل قدر الشبع وبه قال مالك فاكل (غير باغ) بالاستئثار على مضطر آخر أو على الوالي وأصل البغي الفساد (ولا عاد) اسم فاعل أصله من العدوان وهو الظلم ومجاوزة الحد والمراد بالباغي من يأكل فوق حاجته والعادي من يأكل هذه المحرمات وهو يجد عنها مندوحة وبلغة وقال ابن عباس باغ في الميتة وعاد في الاكل وقيل غير باغ على المسلمين ولا معتد عليهم فيدخل في الباغي والعادي قاطع السبيل والخارج على السلطان والمفارق للجماعة والائمة والمفسد في الارض وقاطع الرحم وقيل المراد غير باغ على مضطر آخر ولا عاد لسد الجوعة قاله سعيد

عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي ما أول اشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد الى أبيه او الى أمه قال أخبرني بهذه جبرائيل آنفا قال جبريل قال نعم قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك وأما أول اشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت واذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد واذا سبق ماء المرأة نزعت قال أشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله يا رسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا باسلامي قبل ان تسألهم يبهتوني فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أي رجل عبد الله بن سلام فيكم قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا قال أرأيتم ان أسلم قالوا أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله فقال أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا هو شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد أخرجاه من وجه آخر عن أنس بنحوه وفي صحيح مسلم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قريب من هذا السياق كما سيأتي في موضعه ان شاء الله تعالى وحكاية البخاري كما تقدم عن عكرمة هو المشهور ان ايل هو الله وقد رواه سفيان الثوري عن خصيف عن عكرمة ورواه عبد بن حميد عن ابراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة ورواه ابن جرير عن الحسين بن يزيد الطحان عن اسحق بن منصور عن قيس بن عاصم عن عكرمة انه قال ان جبريل اسمه عبد الله وميكائيل اسمه عبد الله ايل الله ورواه يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس مثله سواء وكذا قال غير واحد من السلف كما سيأتي قريبا ومن الناس من يقول ايل عبارة عن عبد والكلمة الاخرى هي اسم الله لان كلمة ايل لا تتغير في الجميع فوازنه عبد الله عبد الرحمن عبد الملك عبد القدوس عبد السلام عبد الكافي عبد الجليل فعبد موجودة في هذا كله واختلفت الاسماء المضاف اليها وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل واسرافيل ونحو ذلك وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف اليه على المضاف والله أعلم ثم قال ابن جرير وقال آخرون بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن المثنى حدثني ربعي بن علية عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال نزل عمر الروحاء

ابن جبير (فلا اثم عليه) في تناوله ولا حرج ومن أكله وهو غير مضطر فقد بغى واعتدى (ان الله غفور) لمن أكل من الحرام (رحيم) به اذا حل له الحرام في الاضطرار (ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) المراد بهذه الآية علماء اليهود لانهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونعته ووقت نبوته هذا قول المفسرين وقال المتكلمون بل كانوا يكتمون التاويل والمعنى يكتمون معاني ما أنزل الله من الكتاب والاول أولى (ويشترون به) أي بالكتمان أو بما أنزل الله من الكتاب والاول أظهر والاشتراء هنا الاستبدال وقد تقدم تحقيقه (ثمنا قليلا) سماه قليلا لانقطاع مدته وسوء عاقبته وهذا السبب وان كان خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله وأخذ عليه الرشا (أولئك ما يأكلون في بطونهم) ذكر البطون دلالة وتأكيدا على أن هذا الاكل حقيقة اذ قد يستعمل مجازا في مثل أكل فلان أرضي ونحوه وقال في الكشاف معناه ملء بطونهم طرف متعلق بما قبله لا حال مقدرة كما قال الكواشي (الا النار) استثناء مفرغ أي أنه يوجب عليهم عذاب النار فسمى ما أكلوه نارا لانه يؤول اليها هكذا قال أكثر المفسرين وهو من مجاز الكلام وقيل انهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة ومثله قوله سبحانه ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) أي كلام رحمة وما يسرهم بل يكلمهم بالتوبيخ وعدم تكليم الله اياهم كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم يقال فلان لا يكلم فلانا اذا غضب عليه وقال ابن جرير الطبري المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه ولا بما يكرهونه كقوله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون وانما كان عدم تكلمهم في معرض التهديد لان يوم القيامة هو اليوم الذي يكلم الله فيه كل الخلائق بلا واسطة فيظهر عند كلامه السرور في أوليائه وضده في أعدائه (ولا يزكيهم) لا يثني عليهم خيرا قاله الزجاج وقيل معناه لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم أو لا ينزلهم منازل الازكياء وقيل لا يطهرهم من دنس الذنوب (ولهم عذاب أليم) أي وجيع يصل ألمه الى قلوبهم وهو النار (أولئك) أي الموصوفون بالصفات الستة من قوله ان الذين يكتمون الى هنا وهذا بيان لحالهم في الدنيا بعد أن بين حالهم في الآخرة (الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) أي اختاروا الضلالة على الهدى

فراى رجالا يبتدرون احجارا يصلون اليها فقال مابال هؤلاء قالوا يزعمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ههنا قال فكمر ذلك وقال أيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة بوادصلاها ثم ارتحل فتركه ثم أنشأ يحدثهم فقال كنت أشهد اليهود يوم مدارسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدق التوراة فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا يا ابن الخطاب مامن أصحابك أحد أحب الينا منك قلت ولم ذلك قالوا لانك تغشانا وتأتينا فقلت انى آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن قالوا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به قال فقلت لهم عند ذلك نشدتكم بالله الذى لا اله الا هو وما استرعاكم من حقه وما استودعكم من كتابه هل تعلمون انه رسول الله قال فسكتوا فقال لهم عالمهم وكبيرهم انه قد غلظ عليكم فأجيبوه قالوا فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت قال أما اذ نشدتنا بما نشدتنا فانا نعلم انه رسول الله قلت ويحكم اذا هلكتم قالوا انا لم نهلك قلت كيف ذلك وأنتم تعلمون انه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه قالوا ان لنا عدوا من الملائكة وسلما من الملائكة وانه قرن بنبوته عدونا من الملائكة قلت ومن عدوكم ومن سلمكم قالوا عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل قالوا ان جبرائيل ملك الغظاظة والغلظة والاعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا وان ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا قال قلت وما منزلتهما من ربهما عز وجل قالوا أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره قال فقلت فو الذى لا اله الا هو انهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما وما ينبغى لجبرائيل ان يسالم عدو ميكائيل وما ينبغى لميكائيل ان يسالم عدو جبرائيل قال ثم قمت فاتبعت النبى صلى الله عليه وسلم فلحقته وهو خارج من خوخة لبنى فلان فقال يا ابن الخطاب الا أقرأك آيات نزلن قبل فقرأ على من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله حتى قرأ الآيات قال قلت بابى وأمى يا رسول الله والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقنى اليك بالخبر وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو اسامة عن مجالد أنبأنا عامر قال انطلق عمر بن الخطاب الى اليهود فقال أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمدا فى كتبكم قالوا نعم قال فما يمنعكم ان

واختاروا العذاب على المغفرة لانهم كانوا عالمين بالحق ولكن كتموه وأخفوه وكان فى اظهاره الهدى والمغفرة وفى كتمانه الضلالة والعذاب (فما أصبرهم على النار) حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل قد تقدم تحقيق معناه وذهب الجمهور ومنهم الحسن ومجاهد الى أن معناه التعجب والمراد تعجب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الاسباب الموجبة لعذاب النار فكأنهم بهذه المباشرة للاسباب صبروا على العقوبة فى نار جهنم وحكى الزجاج أن المعنى ما أبقاهم على النار من قولهم ما أصبر فلانا على الحبس أى ما أبقاه فيه وقيل المعنى ما أقل جزعهم من النار فجعل قلة الجزع صبرا وقال الكسائى وقطرب أى ما أدومهم على عمل أهل النار وقيل ما استفهامية ومعناه التوبيخ أى أى شئ صبرهم على عمل أهل النار وهذا من مجاز الكلام وبه قال ابن عباس والسدى وعطاء وأبو عبيدة (ذلك بان الله نزل الكتاب بالحق) أى ذلك الامر وهو العذاب قاله الزجاج وقال الاخفش ان خبر اسم الاشارة محذوف والتقدير ذلك معلوم والمراد بالكتاب هنا القرآن أو التوراة والحق الصدق وقيل الحجة (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) يعنى فى معانيه وتأويله فحرفوه وبدلوه وقيل آمنوا ببعض وكفروا ببعض والمراد بالكتاب قيل التوراة فادعى النصارى ان فيها صفة عيسى وأنكرهم اليهود وقيل خالفوا ما فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم واختلفوا فيها وقيل المراد القرآن والمختلفون هم كفار قريش يقول بعضهم هو سحر وكهانة وبعضهم يقول هو أساطير الاولين وبعضهم يقول غير ذلك وقيل المختلفون هم اليهود والنصارى (لفى شقاق) أى خلاف ومنازعة (بعيد) عن الحق وقد تقدم معنى الشقاق (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) قيل ان هذه الآية نزلت للرد على اليهود والنصارى لما أكثروا الكلام فى شأن القبلة عند تحويل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى الكعبة وقيل ان سبب نزولها انه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سائل عن الايمان فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم سأله أيضا فتلاها ثم سأله فتلاها قال واذا عملت بحسنة أحبها قلبك واذا عملت بسيئة أبغضها قلبك أخرجه ابن أبى حاتم وصححه عن أبى ذر قيل أشار سبحانه بذكر المشرق الى قبلة النصارى لانهم يستقبلون مطلع الشمس وأشار بذكر المغرب الى قبلة اليهود لانهم يستقبلون بيت المقدس وهو فى جهة الغرب

تتبعوه قالوا ان الله لم يبعث رسولا الا جعل له من الملائكة كفلا وان جبرائيل كفل محمدا وهو الذي يأتيه وهو عدونا من الملائكة وميكائيل سلمنا لو كان ميكائيل الذي يأتيه أسلمنا قال فاني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن شماله قال عمر وانى أشهد ما ينزلان الا باذن الله وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبرائيل وما كان جبرائيل ليسالم عدو ميكائيل فبينما هو عندهم اذ مر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا صاحبك يا ابن الخطاب فقام اليه عمر فاتاه وقد أنزل الله عز وجل من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين

الغرب منهم اذ ذاك وزعم كل طائفة منهم ان البر في ذلك فأخبر الله تعالى ان البر ليس فيما زعموا ولكنه فيما بينه في هذه الآية وقيل المخاطب هم المسلمون وقيل هو عام لهم ولاهل الكتابين أي ليس البر مقصورا على أمر القبلة والبر اسم جامع لكل طاعة وعمل الخير ويجوز أن يكون بمعنى البار ويطلق المصدر على اسم الفاعل كثيرا ومنه في التنزيل ان أصبح ماؤكم غورا أي غائرا وهذا اختيار أبي عبيدة والمشرق جهة شروق الشمس والمغرب جهة غروبها وهذا مشكل بما تقدم من أن قبلة اليهود انما هي بيت المقدس وهو بالنسبة الى المدينة شمال لا مغرب لان من استقبل بيت المقدس يكون فيها ظهره مقابلا لميزاب الكعبة ووجهه مقابلا لبيت المقدس الذي هو من جهة الشام وكذا بالنسبة لمكة فلم يظهر المراد من هذه الآية وقد تنبه أبو السعود لهذا وأجاب عنه بما لا يجدي شيأ فليتأمل فاني لم أر من حقق المقام والله أعلم (ولكن البر) أي لكن ذا البر وقرئ البار أو بر (من آمن بالله) والاخير أوفق وأحسن والبر اسم جامع لكل طاعة واعمال الخير مما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها والمراد بالبر هنا الايمان والتقوى واليوم الآخر ذكر ذلك لان عبدة الاوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت (والملائكة) أي الايمان بهم كلهم لان اليهود قالوا ان جبريل عدونا (والكتاب) قيل أراد به القرآن وقيل جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قوله (والنبيين) يعني أجمع وانما خص الايمان بهذه الامور الخمسة لانه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها (وآتى المال على حبه) ضمير حبه راجع الى المال وقيل الى الايتاء المدلول عليه بقوله وآتى المال وقيل انه راجع الى الله سبحانه أي على حب الله والمعنى على الاول انه أعطى المال وهو يحبه ويشح به ومنه قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وعلى الثاني انه يحب ايتاء المال وتطيب به نفسه وعلى الثالث انه أعطى من تضمنته الآية في حب الله عز وجل لا لغرض آخر وهو مثل قوله ويطعمون الطعام على حبه عن ابن مسعود قال يعطي وهو صحيح شحيح يأمل العيش ويخاف الفقر وأخرج الحاكم عنه مرفوعا مثله وعن أبي هريرة قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم قال ان تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنا ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان أخرجه

وهذان الاسنادان يدلان على ان الشعبي حدث به عن عمر ولكن فيه انقطاعا بينه وبين عمر فانه لم يدرك زمانه والله أعلم وقال ابن جرير حدثنا بشير حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة قال ذكر لنا ان عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم الى اليهود فلما انصرف رجعوا به فقال لهم عمر أما والله ما جئتكم لحبكم ولا لرغبة فيكم ولكن جئت لاسمع منكم فسألهم وسألوه فقالوا من صاحب صاحبكم فقال لهم جبرائيل فقالوا اذا لا عدونا من أهل السماء يطلع محمدا على سرنا واذا جاء جاء بالحرب والسنة ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل وكان اذا جاء جاء بالخصب والسلم فقال لهم عمر هل تعرفون جبرائيل وتنكرون محمدا صلى الله عليه وسلم ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله الآيات ثم قال حدثني المثنى حدثنا آدم حدثنا أبو جعفر حدثنا

(٢٩ ل - فتح البيان)

قتادة قال بلغنا ان عمر أقبل الى اليهود يوما فذكر نحوه وهذا في تفسير آدم وهو أيضا منقطع وكذلك رواه أسباط عن السدي عن عمر مثل هذا أو نحوه وهو منقطع أيضا وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن يعني الدستكي حدثنا أبو جعفر عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ان يهوديا لقي عمر بن الخطاب فقال ان جبرائيل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا فقال عمر من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين قال فنزلت على لسان عمر رضي الله عنه ورواه عبد بن حميد عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن أبي جعفر هو الرازي وقال ابن جرير حدثني يعقوب

ابن ابراهيم حدثني هشيم أخبرنا حصين بن عبد الرحمن عن ابن أبي ليلى في قوله تعالى من كان عدوا لجبريل قال قالت اليهود للمسلمين لو أن ميكائيل كان هو الذي ينزل عليكم اتبعناكم فانه ينزل بالرحمة والغيث وان جبرائيل ينزل بالعذاب والنقمة فانه عدو لنا قال فنزلت هذه الآية حدثنا يعقوب أخبرنا هشيم أخبرنا عبد الملك عن عطاء بنحوه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله قل من كان عدوا لجبريل قال قالت اليهود ان جبرائيل عدو لنا لانه ينزل بالشدة والسنة وان ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب فجبرائيل عدو لنا فقال الله تعالى من كان عدوا لجبريل الآية وأما تفسير الآية فقوله تعالى قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله أي من عادى جبرائيل فليعلم انه الروح الامين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله باذنه له في ذلك فهو رسول من رسل الله ملكي ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل كما أن من آمن برسول فانه يلزمه الايمان بجميع الرسل وكما أن من كفر برسول فانه يلزمه الكفر بجميع الرسل كما قال تعالى ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض الآيتين فحكم عليهم بالكفر المحقق اذا آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم وكذلك من عادى جبرائيل فانه عدو لله لان جبرائيل لا ينزل الا بامر من تلقاء نفسه وانما ينزل بامر ربه كما قال وما نتنزل الا بامر ربك الآية وقال تعالى وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه فقال تعالى من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه أي من الكتب المتقدمة وهدى وبشرى للمؤمنين أي هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك الا للمؤمنين كما قال تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء الآية وقال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين الآية ثم قال تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين يقول تعالى من عادانى وملائكتى ورسلى ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى الله يصطفي من الملائكة

الشيخان (ذوى القربى) يعني أهل قرابة المعطي وقدم ذوى القربى لكون دفع المال اليهم صدقة وصلة اذا كانوا فقراء وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبي وفي الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود انها سألت رسول الله هل تجزئ عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام في حجرها فقال لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة وأخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح (واليتامى) أي وهكذا اليتامى المحاويج الفقراء أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا يتامى لعدم قدرتهم على الكسب واليتيم هو الذي لا أب له مع الصغر (والمساكين) جمع مسكين والمسكين الساكن الى ما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيأ (وابن السبيل) المسافر المنقطع وجعل ابنا للسبيل لملازمته له وهو اسم جنس أو واحد أريد به الجمع (والسائلين) يعني الطالبين للاحسان المستطعمين ولو كانوا أغنياء عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال للسائل حق ولو جاء على فرس أخرجه أحمد وأبو داود وعن زيد بن أسلم ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أعطوا السائل ولو جاء على فرس أخرجه مالك في الموطا وعن أم نجيد قالت قلت يا رسول الله المسكين ليقوم على بابي فلم أجد شيأ أعطيه اياه قال ان لم تجدي الا ظلفا محرقا فادفعيه اليه في يده أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح وفي رواية لمالك في الموطا عنها ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ردوا المسكين ولو بظلف محرق (وفي الرقاب) يعني المكاتبين وقيل هو فك النسمة وعتق الرقبة وفداء الاسارى أي دفعه في فكها أي لاجله وبسببه (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) المفروضة فيه دليل على ان الايتاء المتقدم هو صدقة التطوع لا صدقة الفريضة (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) الله أو الناس قيل المراد بالعهد القيام بحدود الله والعمل بطاعته وقيل النذر ونحوه وقيل الوفاء بالمواعيد والبر في الحلف وأداء الامانات (والصابرين في البأساء) الشدة والفقر (والضراء) المرض والزمانة والبأساء والضراء اسمان بنيا على فعلاء ولا فعل لهما

رسلا ومن الناس وجبريل وميكال وهذا من باب عطف الخاص على العام فانهما داخلا في الملائكة في عموم الرسل ثم خصصا بالذكر لان السياق في الانتصار لجبرائيل وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكائيل في اللفظ لان اليهود زعموا ان جبرائيل عدوهم وميكائيل وليهم فاعلمهم الله تعالى أن من عادى واحدا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضا ولانه أيضا ينزل على أنبياء الله بعض الاحيان كما قرن برسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتداء الامر ولكن جبرائيل أكثر وهي وظيفته وميكائيل موكل بالنبات والقطر هداك بالهدى وهذا بالرزق كما ان اسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يقول اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم وقد تقدم ما حكاه البخاري ورواه ابن جرير عن عكرمة وغيره أنه قال جبر وميك واسراف عبيد وايل الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الاعمش عن اسمعيل بن أبي رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن ابن عباس قال انما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن وقيل جبر عبد وايل الله وقال محمد بن اسحق عن الزهري عن علي بن الحسين قال أتدرون ما اسم جبرائيل من اسمائكم قلنا لا قال اسمه عبد الله وكل اسم مرجعه الى ايل فهو الى الله عز وجل قال ابن أبي حاتم وروى عن عكرمة ومجاهد والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك ثم قال حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثني عبد العزيز بن عمير قال اسم جبرائيل في الملائكة خادم الله قال فحدثت به أبا سليمان الداراني فانتفض وقال لهذا الحديث أحب الي من كل شئ في دفتر كان بين يديه وفي جبرائيل وميكال لغات وقراآت تذكر في كتب اللغة والقراآت ولم نطول كتابنا هذا بسرد ذلك الا أن يدور فهم المعنى عليه أو يرجع الحكم في ذلك اليه وبالله الثقة وهو المستعان وقوله تعالى فان الله عدو للكافرين فيه ايقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل فانه عدو بل قال فان الله عدو للكافرين كما قال الشاعر لا أرى الموت يسبق الموت شئ * سبق الموت ذا الغنا والفقيرا

لانهما اسمان وليسا بنعت ونصب والصابرين على المدح وقيل على الاختصاص ولم يعطف على ما قبله لمزيد شرف الصبر وفضيلته قال أبو علي اذا ذكرت صفات للمدح أو الذم وخولف الاعراب في بعضها فذلك تفنن ويسمى قطعا لان تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع الذكر ومزيد اهتمام بشانه قال الراغب ولما كان الصبر من وجه مبدأ للفضائل ومن وجه جامعا للفضائل اذ لا فضيلة الا وللصبر فيها أثر بليغ غير اعرابه تنبيها على هذا المقصد وهذا كلام حسن فالآية جامعة لجميع الكمالات الانسانية وهي صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس (وحين الباس) أي وقت الحرب وشدة القتال في سبيل الله وسمي الحرب باسا لما فيه من الشدة (أولئك الذين صدقوا) وصفهم بالصدق في أمورهم والوفاء بها وانهم كانوا جادين في الدين واتباع الحق وتحري البر حيث لم تغيرهم الاحوال ولم تزلزلهم الاهوال قال ربيع صدقوا أي تكلموا بكلام الايمان فكانت حقيقته العمل قال وكان الحسن يقول هذا كلام الايمان وحقيقته العمل فان لم يكن مع القول عمل فلا شئ (وأولئك هم المتقون) عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الاشارة لزيادة تنويه شانهم وتوسيط الضمير للاشارة الى انحصار التقوى فيهم قال الواحدي ان الواوات في هذه الاوصاف تدل على ان من شرائط البر استكمالها وجمعها فمن قام بواحد منها لا يستحق الوصف بالبر وقيل هذه خاصة الانبياء لان غيرهم لا تجتمع فيه تلك الصفات وقيل هي عامة في جميع المؤمنين وهو الاولى اذ لا دليل على التخصيص وتكرير الاشارة لزيادة تنويه شانهم وتوسيط الضمير للاشارة الى انحصار التقوى فيهم (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) كتب معناه فرض وأثبت وهذا اخبار من الله سبحانه لعباده بانه شرع لهم ذلك وقيل ان كتب هنا اشارة الى ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ والخطاب للقاتلين وولاة الامور والقصاص أصله قص الاثر أي اتباعه ومنه القاص لانه يتبع الآثار وقص الشعر اتباع أثره فكان القاتل يسلك طريقا من القتل يقص أثره فيها ومنه قوله تعالى فارتدا على آثارهما قصصا وقيل ان القصاص ماخوذ من القص وهو القطع يقال قصصت ما بينهما أي قطعته قيل نزلت في حيين من احياء العرب اقتتلوا في الجاهلية بسبب قتيل فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الاسلام وقيل نزلت في الاوس والخزرج وكان

وقال الآخر ليت الغراب غداة ينعب دائبا * كان الغراب مقطع الاوداج وانما اظهر الله هذا الاسم ههنا
لتقرير هذا المعنى واظهاره واعلامهم ان من عادى وليا لله فقد عادى الله ومن عادى الله فان الله عدوه ومن كان الله عدوه فقد
خسر الدنيا والآخرة كما تقدم الحديث من عادى لى وليا فقد آذنته بالمحاربة وفى الحديث الآخر انى لاثأر لاوليائى كما يثأر الليث
الحرب وفى الحديث الصحيح من كنت خصمه خصمته (ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون أوكلما عاهدوا
عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون (٢٢٨) ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين
أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان
وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما
أنزل على الملكين ببابل هاروت
وماروت وما يعلمان من أحد حتى
يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر
فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين
المرء وزوجه وما هم بضارين به من
أحد الا باذن الله ويتعلمون
ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا
لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق
ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا
يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا المثوبة
من عند الله خير لو كانوا يعلمون)
قال الامام أبو جعفر بن جرير فى
قوله تعالى ولقد أنزلنا اليك آيات
بينات الآية أى أنزلنا اليك يا محمد
علامات واضحات دالات على نبوتك
وتلك الآيات هى ما حواه كتاب
الله من خفايا علوم اليهود
ومكنونات سرائر أخبارهم
وأخبار أوائلهم من بنى اسرائيل
والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم
يكن يعلمها الا أحبارهم وعلماؤهم
وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة فاطلع الله فى كتابه الذى أنزله على نبيه لما
محمد صلى الله عليه وسلم فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها الى هلاكها الحسد والبغى اذ كان فى
فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات التى وصف من غير تعلم تعلمه
من بشر ولا أخذ شيأ منه عن آدمى كما قال الضحاك عن ابن عباس ولقد أنزلنا اليك آيات بينات يقول فانت تتلوه عليهم وتخبرهم
به غدوة وعشية وبين ذلك وأنت عندهم أمى لم تقرأ كتابا وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه يقول الله تعالى لهم فى ذلك عبرة

لاحد الحيين طول على الآخر فى الكثرة والشرف وقيل نزلت لازالة الاحكام التى كانت
قبل مبعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم من وجوب القتل بلا عفو ووجوب العفو
بلا قتل والقتل تارة وأخذ الدية تارة والقصاص فرض على القاتل للولى لا على الولى
والقصاص المساواة والمماثلة فى القتل والدية والجراح فيقتل القاتل بمثل الذى قتل به
وهو قول مالك والشافعى وقيل يقتل بالسيف وهو قول أبى حنيفة ورواية عن أحمد
والكلام فى فروع هذه المسئلة يطول وفى القتلى للسبب كقوله صلى الله عليه وآله وسلم
ان امرأة دخلت النار فى هرة أى بسببها وفعلى يطرد جمعا فعيل بمعنى مفعول (الحر
بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى) وقد استدل بهذه الآية القائلون بان الحر لا يقتل
بالعبد وهم الجمهور وذهب أبو حنيفة وأصحابه والثورى وابن أبى ليلى وداود الى انه يقتل
به اذا كان غير سيده وأما سيده فلا يقتل به اجماعا الا ما روى عن النخعى فليس مذهب أبى
حنيفة ومن معه على الاطلاق ذكره الشوكانى فى شرح المنتقى قال القرطبى وروى
ذلك عن على وابن مسعود وبه قال سعيد بن المسيب وابراهيم النخعى وقتادة والحكم بن
عتيبة واستدلوا بقوله تعالى وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس وأجاب الاولون عن هذا
الاستدلال بان قوله الحر بالحر والعبد بالعبد مفسر لقوله تعالى النفس بالنفس وقالوا
أيضا ان قوله وكتبنا عليهم فيها يفيد ان ذلك حكاية عما شرعه الله لبنى اسرائيل فى التوراة
ومن جملة ما استدل به الآخرون قوله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمون تتكافأ دماؤهم
ويجاب عنه بانه مجمل والآية مبينة ولكنه يقال ان قوله تعالى الحر بالحر والعبد بالعبد
انما أفاد بمنطوقه ان الحر يقتل بالحر والعبد يقتل بالعبد وليس فيه ما يدل على ان الحر
لا يقتل بالعبد الا باعتبار المفهوم فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه القول به هنا ومن لم
يأخذ بمثل هذا المفهوم لم يلزمه القول به هنا والبحث فى هذا محرر فى علم الاصول وقد
استدل بهذه الآية القائلون بان المسلم يقتل بالكافر وهم الكوفيون والثورى لان الحر
يتناول الكافر كما يتناول المسلم وكذا العبد والانثى يتناولان الكافر كما يتناولان المسلم
واستدلوا أيضا بقوله تعالى ان النفس بالنفس لان النفس تصدق على النفس الكافرة
كما تصدق على النفس المسلمة وذهب الجمهور الى انه لا يقتل المسلم بالكافر واستدلوا
بما ورد من السنة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال لا يقتل مسلم بكافر وهو بين

وبيان وعليهم حجة لو كانوا يعلمون وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال ابن صوريا القطويني لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك فأنزل الله في ذلك من قوله ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد اليهم في محمد صلى الله عليه وسلم والله ما عهد الينا في محمد وما أخذ علينا ميثاقا فأنزل الله تعالى أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم وقال الحسن البصري في قوله بل أكثرهم لا يؤمنون قال نعم ليس في الارض عهد يعاهدون عليه الا نقضوه ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غدا وقال السدي لا يؤمنون بما جاءه محمد صلى الله عليه وسلم وقال قتادة نبذه فريق منهم أي نقضه فريق منهم وقال ابن جرير أصل النبذ الطرح والالقاء ومنه سمي اللقيط منبوذا ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب اذا طرحا في الماء قال أبو الاسود الديلي

نظرت الى عنوانه فنبذته
كنبذك نعلا اخلقت من نعالكا

قلت فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله اليهم في التمسك بها والقيام بحقها ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث اليهم والى الناس كافة الذي في كتبهم نعته وصفته وأخباره وقد أمروا فيها باتباعه وموازرته ونصرته كما قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل الآية وقال ههنا ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم الآية أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ولهذا أرادوا كيد الرسول الله صلى الله عليه وسلم وسحروه في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة بئر أروان وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له لبيد بن الاعصم لعنه الله وقبحه فاطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم وشفاه منه وأنقذه كما ثبت ذلك مبسوطا في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كما سيأتي بيانه قال السدي ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم قال لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فخاصموه بها فانفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا

لما يراد في الآيتين وهذه الآية مع الاحاديث الواردة في ذلك حجة على أصحاب الرأي والبحث في هذا يطول واستدل بهذه الآية القائلون بان الذكر لا يقتل بالانثى وقرروا الدلالة على ذلك بمثل ما سبق الا اذا سلم أولياء المرأة الزيادة على ديتها من دية الرجل وبه قال مالك والشافعي وأحمد واسحق والثوري وأبو ثور وذهب الجمهور الى انه يقتل الرجل بالمرأة ولا زيادة وهو الحق وقد بسط الشوكاني البحث في نيل الاوطار فليرجع اليه (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان) من هنا عبارة عن القاتل أو الجاني والمراد بالاخ المقتول أو الولي والشيء عبارة عن الدم والمعنى ان القاتل والجاني اذا عفي له من جهة المجني عليه أو الولي دم أصابه منه على ان يأخذ منه شيأ من الدية أو الارش فليتبع المجني عليه أو لولي من عليه الدم فيما يأخذه منه من ذلك اتباعا بالمعروف وليؤد الجاني ملتزمه من الدية أو الارش الى المجني عليه أو الى الولي أداء باحسان وقيل ان من عبارة عن الولي والاخ يراد به القاتل والشيء الدية والمعنى ان الولي اذا جنح الى العفو عن القصاص الى مقابل الدية فان القاتل مخير بين ان يعطيها أو يسلم نفسه للقصاص كما روي عن مالك انه يثبت الخيار للقاتل في ذلك وذهب من عداه الى انه لا يخير بل اذا رضي الاولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل يلزمه تسليمها وقيل معنى عفي بذل أي من بذل له شيء من الدية فليقبل وليتبع بالمعروف وقيل ان المراد بذلك ان من فضل له من الطائفتين على الاخرى شيء من الديات فيكون عفي بمعنى فضل وعلى جميع التقادير فتنكير شيء للتقليل فيتناول العفو من الشيء اليسير من الدية والعفو الصادر عن فرد من افراد الورثة وفي الآية دليل على ان القاتل لا يصير كافرا وان الفاسق مؤمن لان الله تعالى خاطبه بعد القتل بالايمان وسماه مؤمنا حال ما وجب عليه من القصاص وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالاجماع فدل على ان صاحب الكبيرة مؤمن وانه تعالى أثبت الاخوة بين القاتل وولي الدم وأراد بها اخوة الايمان فلولا ان الايمان باق على القاتل لم تثبت له الاخوة وأيضا ندب الى العفو عن القاتل والعفو لا يليق الا عن المؤمن لا عن الكافر (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) اشارة الى العفو والدية أي ان الله شرع لهذه الامة العفو من غير عوض أو بعوض ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود فانه أوجب عليهم القصاص ولا عفو وكما ضيق على النصارى فانه أوجب عليهم العفو ولا دية وفيه تضييق على كل من الوارث

بكتاب آصف وسحرها وروت وماروت فلم يوافق القرآن فذلك قوله كانهم لا يعلمون وقال قتادة في قوله كانهم لا يعلمون قال ان القوم كانوا يعلمون ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين الآية وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فئام من الجن والانس واتبعوا الشهوات فلما أرجع الله الى سليمان ملكه وقام الناس على الدين كما كان وان سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه وتوفى سليمان عليه السلام حدثان ذلك فظهر الانس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان (٢٣٠) وقالوا هذا كتاب من الله نزل على سليمان فاخفاه عنا فاخذوا به فجعلوه دينا فانزل الله تعالى ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم الآية واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين وهي المعازف واللعب وكل شئ يصد عن ذكر الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو أسامة عن الاعمش عن المنهال عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الاعظم وكان يكتب كل شئ بامر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحرا وكفرا وقالوا هذا الذي كان سليمان يعمل بها قال فاكفره جهال الناس رسبوه ووقف علماء الناس فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا وقال ابن جرير حدثني أبو السائب سلمة بن جنادة السوائي حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان سليمان عليه السلام اذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيا من نسائه أعطى الجرادة وهي امرأته خاتمه فلما أراد أبو الله ان يبتلي سليمان عليه السلام بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال هاتي خاتمي فاخذه ولبسه فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والانس قال فجاءها سليمان فقال لها هاتي خاتمي فقالت كذبت لست سليمان قال فعرف سليمان انه بلاء ابتلي به قال فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الايام كتبا فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسي سليمان ثم أخرجوها وقرؤها على الناس وقالوا انما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب قال فبرئ الناس من سليمان وكفروه

والقاتل فهذا تخفيف مما كتب على من كان قبلكم (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) اى بعد التخفيف نحو ان ياخذ الدية ثم يقتل القاتل أو يعفو ثم يستقص وقد اختلف أهل العلم فيمن قتل القاتل بعد أخذ الدية فقال جماعة منهم مالك والشافعي انه كمن قتل ابتداء ان شاء الولي قتله وان شاء عفا عنه وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم عذابه ان يقتل البتة ولا يمكن الحاكم الولي من العفو وقال الحسن عذابه ان يرد الدية فقط ويبقى اثمه الى عذاب الآخرة وقال عمر بن عبد العزيز أمره الى الامام يصنع فيه ما رأى وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي شريح الخزاعي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من أصيب بقتل أو خبل فانه يختار احدى ثلاث اما ان يقتص واما ان يعفو واما ان ياخذ الدية فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها أبدا وعن قتادة قال ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا أعافي رجلا قتل بعد أخذ الدية أخرجه ابن جرير وابن المنذر وأخرج سمويه في فوائده عن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر مثله والعذاب الاليم قيل هو عذاب الآخرة وقيل هو ان يقتل قصاصا ولا تقبل منه دية ولا يعفى عنه والاول أظهر وأولى ويدل له الحديث المتقدم (ولكم في القصاص حياة) خطاب لمريدي القتل ظلما وقال أبو السعود بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تنال غايته حيث جعل الشئ وهو القصاص محلا لضده وهو الحياة ونكر الحياة ليدل على ان في هذا الجنس نوعا من الحياة عظيما لا يبلغه الوصف وذلك لانهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد فتنتشر الفتنة بينهم ففي شرع القصاص سلامة من هذا كله والمعنى ولكم في هذا الحكم الذي شرعه الله بقاء وحياة لان الرجل اذا علم ان يقتل قصاصا اذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع اليه والوقوع فيه فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الانسانية وهذا نوع من البلاغة بليغ وجنس من الفصاحة رفيع فانه جعل القصاص الذي هو موت حياة باعتبار ما يؤل اليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضا ابقاء على أنفسهم واستدامة لحياتهم وقيل ان الحياة سلامة من القصاص في الآخرة فانه اذا اقتص في الدنيا لم يقتص عنه في الآخرة والاول أولى وقال الخازن هذا الحكم غير مختص بالقصاص الذي هو القتل بل يدخل فيه جميع الجروح والشجاج وغير ذلك وقرأ

حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فانزل عليه وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ثم قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن حصين بن عبد الرحمن عن عمران وهو ابن الحرث قال بينما نحن عند ابن عباس رضى الله عنهما اذ جاء رجل فقال له من أين جئت قال من العراق قال من أيه قال من الكوفة قال فما الخبر قال تركتهم يتحدثون أن عليا خارج اليهم فنزع ثم قال ماتقول لا أبا لك لوشعرنا ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه أما انى ساحدثكم عن ذلك انه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها فاذا جرت منه وصدق كذب معها سبعين كذبة قال فتشربها قلوب الناس قال فاطلع الله عليها سليمان عليه السلام فدفنها تحت كرسيه فلما توفى سليمان عليه السلام قام شيطان الطريق فقال هل أدلكم على كنزه المنع الذى لا كنز له مثله تحت الكرسى فاخرجوه فقال هذا سحر فتناسخها الامم حتى بقايا ها ما يتحدث به أهل العراق فانزل الله عز وجل واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا الآية وروى الحاكم فى مستدركه عن أبى زكريا العنبرى عن محمد بن عبد السلام عن اسحق ابن ابراهيم عن جرير به وقال السدى فى قوله تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان أى على عهد سليمان قال كانت الشياطين تصعد الى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون فى الارض من موت أو غيب أو أمر فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك الحديث فى الكتب وفشا ذلك فى بنى اسرائيل ان الجن تعلم الغيب فبعث سليمان فى الناس فجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع ان يدنو من الكرسى الا احترق وقال لا أسمع أحدا يذكر ان الشياطين يعلمون الغيب الا ضربت عنقه فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان فى صورة انسان ثم أتى نفرا من بنى اسرائيل فقال لهم هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسى فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له فادن فقال لا ولكنى ههنا فى أيديكم

أبو الجوزاء ولكم فى القصص حياة أى فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو فى كتاب الله حياة أى نجاة وقيل أراد حياة القلوب وقيل هو مصدر بمعنى القصاص والكل ضعيف والقراءة به منكرة (يا أولى الالباب) أى ذوى العقول الكاملة جعل هذا الخطاب موجها الى أولى الالباب وناداهم للتامل فى حكمة القصاص من استبقاء الارواح وحفظ النفوس لانهم هم الذين ينظرون فى العواقب و يتحامون ما فيه الضرر الآجل وأما من كان مصابا بالحمق والطيش والخفة فانه لا ينظر عند سورة غضبه وغليان مراجل طيشه الى عاقبة ولا يفكر فى أمر مستقبل والالباب جمع لب وهو العقل الخالى من الهوى سمى بذلك لاحد وجهين اما لبنائه من لب بالمكان أقام به واما من اللباب وهو الخالص ثم علل سبحانه هذا الحكم الذى شرعه لعباده بقوله (لعلكم تتقون) أى تعملون عمل أهل التقوى وتتحامون القتل بالمحافظة على القصاص والحكم به والاذعان له فيكون ذلك سببا للتقوى (كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت) قد تقدم معنى كتب قريبا وحضور الموت حضور أسبابه وأماراته وظهور علاماته من العلل والامراض المخوفة وليس المراد منه معاينة الموت لانه فى ذلك الوقت يعجز عن الايصاء وانما لم يؤنث الفعل المسند الى الوصية وهو كتب لوجود الفاصل بينهما وقيل لانها بمعنى الايصاء وقد روى جواز اسناد مالا تانيث فيه الى المؤنث مع عدم الفصل وقد حكى سيبويه قام امرأة وهو خلاف ما أطبق عليه أئمة العربية (ان ترك خيرا) شرط سبحانه ما كتبه من الوصية بان يترك الموصى خيرا أى مالا قال الزهرى هو يطلق على القليل والكثير فتجب الوصية فى الكل وقيل لا يطلق الا على المال الكثير وهو قول الاكثرين واختلف أهل العلم فى مقدار الخير فقيل مازاد على سبعمائة دينار وقيل ألف دينار وقيل مازاد على خمسمائة دينار وقيل ستون دينارا فما فوقها وقيل من خمسمائة الى ألف وقيل انه المال الكثير الفاضل عن العيال والخير هنا المال ويقع فى القرآن على وجوه ونبه بتسميته خيرا على ان الوصية تستحب فى مال طيب (الوصية) أى الايصاء والوصية فى الاصل عبارة عن الامر بالشئ والعهد به فى الحياة وبعد الموت وهى هنا عبارة عن الامر بالشئ بعد الموت وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين أو عنده وديعة أو نحوها وأما من لم يكن كذلك فذهب أكثرهم الى انها غير واجبة عليه سواء كان فقيرا أو غنيا وقالت طائفة انها واجبة

فان لم تجدوه فاقتلوني فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان ان سليمان انما كان يضبط الانس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب وفشا في الناس ان سليمان كان ساحرا واتخذت بنو اسرائيل تلك الكتب فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا وقال الربيع بن أنس ان اليهود سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم زمانا عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شئ من ذلك الا أنزل الله سبحانه وتعالى ما سألوه عنه فيخصمهم فلما رأوا ذلك قالوا هذا اعلم (٢٣٢) بما أنزل الله الينا منا وانهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزل الله عز وجل واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وان الشياطين عمدوا الى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك فدفنوه تحت كرسي مجلس سليمان وكان عليه السلام لا يعلم الغيب فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس وقالوا هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد خرجوا وقد أدحض الله حجتهم وقال مجاهد في قوله تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان قال كانت الشياطين تستمع الوحي فاسمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها فارسل سليمان عليه السلام الى ما كتبوا من ذلك فلما توفي سليمان وجدته الشياطين وعلمته الناس وهو السحر وقال سعيد بن جبير كان سليمان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته فلم تقدر الشياطين ان يصلوا اليه فدنت الى الانس فقالوا لهم أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يستخرج به الشياطين هنا والرياح وغير ذلك قالوا نعم قالوا فانه في بيت خزانته وتحت كرسيه فاستثاروه واستخرجوه وعملوا بها فقال أهل الحجاز كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر فانزل الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا وقال محمد بن اسحق بن يسار عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام فكتبوا أصناف السحر من كان يحب ان يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا وكذا حتى اذا صنفوا

(للوالدين والاقربين) لم يبين الله سبحانه ههنا القدر الذي كتب الوصية به للوالدين والاقربين فقيل الخمس وقيل الربع وقيل الثلث وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فذهب جماعة الى انها محكمة وقالوا هي وان كانت عامة فمعناها الخصوص والمراد بها من الوالدين من لا يرث كالابوين الكافرين ومن هو في الرق ومن الاقربين من عدا الورثة منهم قال ابن المنذر أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على ان الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والاقرباء الذين لا يرثون جائزة وقال كثير من أهل العلم انها منسوخة بآية المواريث مع قوله صلى الله عليه وآله وسلم لا وصية لوارث وهو حديث صححه بعض أهل الحديث وروى من غير وجه وللشيخ بعد التفتازاني فيه مناقشة وقال بعض أهل العلم انه نسخ الوجوب وبقي الندب روى ذلك عن الشعبي والنخعي ومالك (بالمعروف) أي بالعدل لا وكس فيه ولا شطط وقد أذن الله للميت بالثلث دون ما زاد عليه فلا يزيد على الثلث ولا يوصي للغني ويدع الفقير وعن علي لان أوصي بالخمس أحب الي من ان أوصي بالربع ولان أوصي بالربع أحب الي من أن أوصي بالثلث فمن أوصى بالثلث فلم يترك وقيل يوصي بالسدس أو بالخمس أو بالربع (حقا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله معناه الثبوت والوجوب وقيل ثبوت ندب لا ثبوت فرض ووجوب (على المتقين) أي على الذين يتقون الشرك (فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه) هذا الضمير عائد الى الايصاء المفهوم من الوصية وكذلك الضمير في قوله سمعه والتبديل التغيير والضمير في اثمه راجع الى التبديل المفهوم من قوله بدله وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق التي لا حيف فيها ولا مضارة وانه يبوء بالاثم وليس على الموصي من ذلك شئ فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به قال القرطبي ولا خلاف انه اذا أوصى بما لا يجوز مثل ان يوصي بخمر أو خنزير أو شئ من المعاصي انه يجوز تبديله ولا يجوز امضاؤه كما لا يجوز امضاء ما زاد على الثلث قاله أبو عمرو انتهى والمبدلون اما الاوصياء بان ينكروا الوصية أو يغيروها اما في الكتابة أو في قسمة الحقوق أو الشهود بان يكتموا الشهادة أو يغيروها والمعنى فمن بدل قول الميت أو ما أوصى به وقيل الضمير في بدله يعود على الوصية لانها بمعنى الايصاء وقيل على نفس الايصاء وقيل على الامر والفرض الذي أمر به الله وفرضه أو على الكتب أو الحق والمعروف فهذه ستة أقوال أولاها ما ذكرنا ولكن

أصناف السحر جعلوه في كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا في عنوانه هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بني اسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا فلما عثروا عليه قالوا والله ما كان ملك سليمان الا بهذا فافشوا السحر في الناس فتعلموه وعلموه فليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود وعده فيمن عد من المرسلين قال من كان بالمدينة من اليهود ألا تعجبون من محمد يزعم ان ابن داود كان نبيا والله ما كان الا ساحرا وأنزل الله في ذلك من قولهم واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا الآية * وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا حسين بن حجاج عن أبي بكر عن شهر بن حوشب قال لما سلب سليمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان فكتبت من أراد أن يأتي كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقل كذا وكذا ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا فكتبته وجعلت عنوانه هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم ثم دفنته تحت كرسيه فلما مات سليمان عليه السلام قام ابليس لعنه الله خطيبا فقال يا أيها الناس ان سليمان لم يكن نبيا انما كان ساحرا فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته ثم دلهم على المكان الذي دفن فيه فقالوا والله لقد كان سليمان ساحرا هذا سحره بهذا تعبدنا وبهذا قهرنا فقال المؤمنون بل كان نبيا مؤمنا فلما بعث الله النبي محمدا صلى الله عليه وسلم وذكر داود وسليمان فقالت اليهود انظروا الى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الانبياء انما كان ساحرا يركب الريح فانزل الله تعالى واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان الآية * وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الاعلى الصنعاني حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت عمران بن جرير عن أبي مجلز قال أخذ سليمان عليه السلام من كل دابة عهدا فاذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد خلي عنه فزاد الناس السجع والسحر فقالوا هذا يعمل به سليمان بن داود عليهما السلام فقال الله تعالى وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر * وقال ابن أبي

هنا وقفة من حيث ان الكلام السابق انما هو في الوصية المنسوخة التي هي للوالدين والاقربين وقوله فمن بدله الى آخر الآية انما هو في الوصية التي استقر عليها الشرع ويعمل بها الى الآن وعلى هذا فكيف يعود الضمير من المحكمة على المنسوخة قال سليمان الجمل فليتأمل فاني لم أر من نبه على هذا انتهى قلت انما يرد هذا على قول من قال بنسخ الوصية المذكورة وقد تقدم أن جماعة من أهل العلم ذهبت الى أنها محكمة فلا تأمل ولا تنبيه والله أعلم (ان الله سميع) لما أوصى به الموصي ولقوله (عليم) بتبديل المبدل وفعل الوصي فيجازي عليه الاول بالخير والثاني بالشر (فمن خاف) أي علم وهو مجاز والعلاقة بينهما ان الانسان لا يخاف شيأ حتى يعلم انه مما يخاف منه فهو من باب التعبير عن السبب بالمسبب ومنه قوله تعالى الا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله أي يعلما (من موص جنفا أو اثما) الجنف المجاوزة من جنف يجنف اذا جاوز قاله النحاس وقيل الجنف الميل قاله في الصحاح والكشاف والاثم الظلم وقيل الجنف الخطأ في الوصية والاثم العمد (فأصلح بينهم) أي أصلح ما وقع بين الورثة من الشقاق والاضطراب بسبب الوصية بابطال ما فيه ضرر ومخالفة لما شرعه الله واثبات ما هو حق كالوصية في قرابة لغير وارث والضمير في بينهم راجع الى الورثة وان لم يتقدم لهم ذكر لانه قد عرف أنهم المرادون من السياق وقيل راجع الى الموصى لهم وهم الابوان والقرابة (فلا اثم عليه) أي لا حرج عليه في الصلح وان كان فيه تبديل لانه خير بخلاف الاول فانه ضير (ان الله غفور رحيم) لمن أصلح وصيته بعد الجنف والميل عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار الحديث أخرجه أبو داود والترمذي ومعنى المضارة في الوصية ان لا تمضى أو ينقص بعضها أو يوصي لغير أهلها أو يحيف في الوصية ونحوها (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) قد تقدم معنى كتب ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها الله سبحانه على هذه الامة والصيام أصله في اللغة الامساك وترك التنقل من حال الى حال ويقال للصمت صوم لانه امساك عن الكلام ومنه انى نذرت للرحمن صوما أي امساكا عن الكلام وهو في الشرع الامساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر الى غروب الشمس وفي الآية تأكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطييب

حاتم حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم حدثنا المسعودى عن زياد مولى بن مصعب عن الحسن واتبعوا ما تتلو الشياطين قال ثلث الشعر وثلث السحر وثلث الكهانة وقال حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطى حدثنى سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وتعته اليهود على ملكه وكان السحر قبل ذلك فى الارض لم يزل بها ولكنه انما اتبع على ملك سليمان فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف فى هذا المقام ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم والله الهادى وقوله تعالى واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان أى واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد اعراضهم عن كتاب الله الذى بايديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ما تتلوه الشياطين أى ما تتروه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان وعداه بعلى لانه تضمن تتلو تكذب وقال ابن جرير على ههنا بمعنى فى أى تتلو فى ملك سليمان ونقله عن ابن جريج وابن اسحق قلت والتضمن أحسن وأولى والله أعلم وقول الحسن البصرى رحمه الله وكان السحر قبل زمان سليمان بن داود صحيح لا شك فيه لان السحرة كانوا فى زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى ألم تر الى الملا من بنى اسرائيل من بعد موسى الآية ثم ذكر القصة بعدها وفيها وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وقال قوم صالح وهم قبل ابراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح انما أنت من المسحرين أى المسحورين على المشهور وقوله تعالى وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه اختلف الناس فى هذا المقام فذهب بعضهم الى أن ما نافية أعنى التى فى قوله وما أنزل على الملكين قال القرطبى ما نافية ومعطوف على قوله وما كفر سليمان ثم قال ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين وذلك ان اليهود كانوا يزعمون انه نزل به جبريل وميكائيل فاكذبهم الله وجعل قوله هاروت وماروت بدلا من الشياطين قال وصح ذلك اما لان الجمع يطلق على الاثنين كما فى قوله تعالى فان كان له اخوة أو لكونهما لهما اتباع أو ذكرا من بينهم لتردهما تقدير (٣) الكلام عنده يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ثم

للنفس (كما كتب على الذين من قبلكم) من الانبياء والامم من لدن آدم الى عهدكم والمعنى أن الصوم عبادة قديمة ما أخلى الله أمة من افتراضها عليهم لم يفرضها عليكم وحدكم واختلف المفسرون فى وجه التشبيه ما هو فقيل هو قدر الصوم ووقته فان الله كتب على اليهود والنصارى صوم رمضان فغيروا وقيل هو الوجوب فان الله أوجب على الامم الصيام وقيل هو الصفة أى ترك الاكل والشرب ونحوهما فى وقت فعلى الاول معناه ان الله كتب على هذه الامة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم وعلى الثانى ان الله أوجب على هذه الامة الصيام كما أوجبه على الذين من قبلهم وعلى الثالث ان الله سبحانه أوجب على هذه الامة الامساك عن المفطرات كما أوجبه على الذين من قبلهم (لعلكم تتقون) المراد بالتقوى المحافظة عليها وقيل تتقون المعاصى بسبب هذه العبادة لانها تكسر الشهوة وتضعف دواعى المعاصى كما ورد فى الحديث أنه جنة وأنه وجاء (أياما معدودات) أى معينات بعدد معلوم ومقدرات ويحتمل أن يكون فى هذا الجمع لكونه من جموع القلة اشارة الى تقليل الايام أى قليلات يعنى أقل من أربعين وقيل انه كان فى ابتداء الاسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجبا وصوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بفريضة صوم شهر رمضان قال ابن عباس أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة ثم الصوم وقيل ان المراد أيام شهر رمضان وعلى هذا فتكون الآية غير منسوخة وأخرج البخارى فى تاريخه والطبرانى عن دغفل بن حنظلة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال كان على النصارى صوم شهر رمضان فمرض ملكهم فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن عشرا ثم كان آخر فاكل لحما فاوجع فوه فقال لئن شفاه الله ليزيدن سبعة ثم كان عليهم ملك آخر فقال ما ندع من هذه الثلاثة الايام شيأ نتمها ونجعل صومنا فى الربيع ففعل فصارت خمسين يوما وأخرج البخارى ومسلم عن عائشة قالت كان عاشوراء يصام فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر (فمن كان) حين حضوره ووجود الشخص فيه (منكم مريضا) ولو فى أثناء اليوم بخلاف السفر فلا يبيح له الفطر اذا طرأ فى أثناء اليوم وهذا سر التعبير بعلى فى السفر دون المرض قيل للمريض حالتان ان كان لا يطيق الصوم كان الافطار عزيمة وان كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصة وبهذا قال الجمهور (أو على سفر) أى مستعليا على السفر ومتمكنا منه بان كان متلبسا به وقت طلوع الفجر

---

(٣) قوله تقدير الكلام الخ كذا فى النسخ التى بايدينا ولا يخفى انه لا يتم التقدير الا بذكر المبدل منه على اعرابه وهو قوله ولكن الشياطين ولعله سقط من الناسخ حرره اه مصححه

قال وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت الى ما سواه وروى ابن جرير باسناده من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله وما أنزل على الملكين ببابل الآية يقول لم ينزل الله السحر وباسناده عن الربيع بن أنس فى قوله وما أنزل على الملكين قال ما أنزل الله عليهما السحر قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذى معناه المقدم قال فان قال لنا قائل كيف وجه تقديم ذلك قيل وجه تقديمه ان يقال

واختلف أهل العلم فى السفر المبيح للافطار فقيل مسافة قصر الصلاة والخلاف فى قدرها معروف وبه قال الجمهور وقال غيرهم بمقادير لا دليل عليها والحق ان ما صدق عليه مسمى السفر فهو الذى يباح عنده الفطر وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض فهو الذى يباح عنده الفطر وقد وقع الاجماع على الفطر فى سفر الطاعة واختلفوا فى الأسفار المباحة والحق ان الرخصة ثابتة فيه وكذا اختلفوا فى سفر المعصية (فعدة من أيام أخر) أى فعليه عدة ما أفطر من أيام أخر يصومها بدله وآخر جمع أخرى تأنيث آخر بفتح الخاء او جمع أخرى بمعنى آخرة تأنيث آخر بكسر الخاء وفيه الوصف والعدل واختلف النحاة فى كيفية العدل فيه على أقوال والعدة فعلة من العدد وهو بمعنى المعدود أى فعليه عدة أو فالحكم عدة أو فالواجب عدة من غير أيام مرضه وسفره واليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة وليس فى الآية ما يدل على وجوب التتابع فى القضاء (وعلى الذين) لا (يطيقونه) لكبر أو مرض لا يرجى برؤه وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة فقيل انها منسوخة وانما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام لانه شق عليهم وكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم وهو يطيقه ثم نسخ ذلك وهو قول الجمهور وروى عن بعض أهل العلم أنها لم تنسخ وأنها رخصة للشيوخ والعجائز خاصة اذا كانوا لا يطيقون الصيام الا بمشقة وهذا يناسب قراءة التشديد وهو يطوقونه أى يكلفونه والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه (فدية طعام مسكين) وقرئ مساكين والفدية الجزاء وهو القدر الذى يبذله الانسان يقى به نفسه من تقصير وقع منه فى عبادة ونحوها وقد اختلفوا فى مقدار الفدية فقيل كل يوم صاع من غير البر ونصف صاع منه وقيل مد فقط أى من غالب قوت البلد وقال ابن عباس يعطى كل مسكين عشاءه وسحوره أى قدر ما يأكله فى يومه وروى ان أنس ابن مالك ضعف عن الصوم عاما قبل موته فصنع جفنة من ثريد ودعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم عن ابن عباس بسند صحيح أنه قال لام ولد له حامل أو مرضعة أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصوم عليك الطعام لا قضاء عليك عن ابن عمر أن احدى بناته أرسلت تسأله عن صوم رمضان وهى حامل قال تفطر وتطعم كل يوم مسكينا وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين (فمن تطوع خيرا فهو خير له) قال ابن شهاب معناه من أراد الاطعام مع

واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون معنيا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام لان سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم ان الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل الى سليمان بن داود فاكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر وأخبرهم ان السحر من عمل الشياطين وانها تعلم الناس ذلك ببابل وان الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم احدهما هاروت واسم الآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التاويل ترجمة عن الناس وردا عليهم هذا الغطه بحروفه وقد قال ابن أبى حاتم حدثت عن عبيد الله ابن موسى اخبرنا فضيل بن مرزوق عن عطية وما أنزل على الملكين قال ما انزل الله على جبريل وميكائيل السحر قال ابن أبى حاتم واخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى اخبرنا يعلى يعنى ابن أسد اخبرنا بكر يعنى ابن مصعب اخبرنا الحسن بن أبى جعفر أن عبد الرحمن بن أبزى كان يقرؤها وما أنزل على الملكين داود وسليمان وقال أبو العالية لم ينزل عليهما السحر يقول علما الايمان والكفر فالسحر من الكفر فهما ينهيان عنه أشد النهى رواه ابن أبى حاتم ثم شرع ابن جرير فى رد هذا القول وان ما بمعنى الذى وأطال القول فى ذلك وادعى ان هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله الى الارض وأذن لهما فى تعليم السحر اختبارا لعباده وامتحانا بعد أن بين لعباده ان ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل وادعى ان هاروت وماروت مطيعان فى تعليم ذلك لانهما

امتثالا ما أمر به وهذا الذي سلكه غريب جدا وأغرب منه قول من زعم ان هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم وروى ابن أبي حاتم باسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرؤها وما أنزل على الملكين ويقول هما علجان من أهل بابل ووجه أصحاب هذا القول الانزال بمعنى الخلق لا بمعنى الايحاء في قوله تعالى وما أنزل على الملكين كما قال تعالى وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد وينزل لكم من السماء رزقا وفي الحديث ما أنزل الله داء الا أنزل له دواء وكما يقال أنزل الله الخير والشر وحكى القرطبي عن ابن عباس (٢٣٦) وابن أبزى والحسن البصري انهم قرؤا وما أنزل على الملكين بكسر اللام قال ابن أبزى وهما داود وسليمان قال القرطبي فعلى هذا تكون ما نافية أيضا وذهب آخرون الى الوقف على قوله يعلمون الناس السحر وما نافية قال ابن جرير حدثني يونس اخبرنا ابن وهب اخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت فقال الرجلان يعلمان الناس ما أنزل عليهما ويعلمان الناس ما لم ينزل عليهما فقال القاسم ما أبالي أيتهما كانت ثم روى عن يونس عن أنس بن عياض عن بعض أصحابه ان القاسم قال في هذه القصة لا أبالي أي ذلك كان اني آمنت به وذهب كثير من السلف الى انهما كانا ملكين من السماء وانهما أنزلا الى الارض فكان من أمرهما ما كان وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الامام أحمد في مسنده رحمه الله كما سنورده ان شاء الله وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة ان هذين سبق في علم الله لهما هذا فيكون تخصيصا لهما فلا تعارض حينئذ كما سبق في علمه من أمر ابليس ما سبق وفي قول ايمانا انه كان من الملائكة لقوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى الى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك مع ان شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من ابليس لعنه الله تعالى وقد حكاه القرطبي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمرو كعب الاحبار والسدي والكلبي *(ذكر الحديث الوارد في ذلك ان صح سنده ورفعه وبيان الكلام عليه)* قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده أخبرنا يحيى بن بكير حدثنا زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن عبد الله بن

الصوم وقال مجاهد معناه من زاد في الاطعام على المد وقيل من أطعم مع المسكين مسكينا آخر (وأن تصوموا) أي ان صيامكم (خير لكم) أيها المطيقون من الافطار مع الفدية وكان هذا قبل النسخ وقيل معناه وأن تصوموا في السفر والمرض غير الشاق وقيل هو خطاب مع الكافة لان اللفظ عام فرجوعه الى الكل أولى وهو الاصح وقد ورد في فضل الصوم أحاديث كثيرة جدا (ان كنتم تعلمون) أن الصوم خير لكم وقيل المعنى اذا صح علمتم ما في الصوم من المعاني المورثة للخير والتقوى ولا رخصة لاحد من المكلفين في افطار رمضان بغير عذر والاعذار المبيحة للفطر ثلاثة أحدها السفر والمرض والحيض والنفاس وأهلها اذا أفطروا فعليهم القضاء دون الفدية والثاني الحامل والمرضع اذا خافتا على ولديهما أفطرتا وعليهما القضاء والفدية وبه قال الشافعي وذهب أهل الرأي الى انه لا فدية عليهما الثالث الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والمريض الذي لا يرجى برؤه فعليهم الفدية دون القضاء (شهر) أي ذلكم شهر أو كتب عليكم الصيام صيام شهر وقرئ بالنصب أي صوموا شهر ولاهل اللغة فيه قولان أشهرهما أنه اسم لمدة الزمان الذي يكون مبدؤه الهلال ظاهرا الى ان يستتر سمي بذلك لشهرته في حاجة الناس اليه من المعاملات والثاني ما قاله الزجاج انه اسم للهلال نفسه و (رمضان) علم لهذا الشهر المخصوص وهو علم جنس مركب تركيبا اضافيا وكذا باقي اسماء الشهور وهو ممنوع من الصرف للعلمية والزيادة وهو ماخوذ من رمض الصائم يرمض اذا احترق جوفه من شدة العطش والرمضاء ممدودا شدة الحر ومنه الحديث الثابت في الصحيح صلاة الاوابين اذا رمضت الفصال أي أحرقت الرمضاء أجوافها قال الجوهري وشهر رمضان يجمع على رمضانات وارمضاء يقال انهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالازمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام الحر فسمي بذلك وقيل انما سمي رمضان لانه يرمض الذنوب أي يحرقها بالاعمال الصالحة وقال الماوردي ان اسمه في الجاهلية ناتق وانما سموه بذلك لانه كان ينتقهم لشدته عليهم وقد حققنا ذلك في كتابنا لقطة العجلان مما تمس الى معرفته حاجة الانسان فليرجع اليه وقد أخرج أبو حاتم وأبو الشيخ وابن عدي والبيهقي في سننه عن أبي هريرة مرفوعا وموقوفا لا تقولوا رمضان فان رمضان اسم من اسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال من صام رمضان

عمر رضى الله عنهما انه سمع نبى الله صلى الله عليه وسلم يقول ان آدم عليه السلام لما أهبطه الله الى الارض قالت الملائكة أى رب أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما الى الارض فننظر كيف يعملان قالوا ربنا هاروت وماروت فاهبطا الى الارض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسالاها نفسها فقالت لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الاشراك فقالا والله لا نشرك بالله شيأ أبدا فذهبت عنهما ثم رجعت بصبى يحمله فسالاها نفسها فقالت لا والله حتى تقتلا هذا الصبى فقالا لا والله لا نقتله أبدا فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله فسالاها نفسها فقالت لا والله حتى تشربا هذا الخمر فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبى فلما أفاقا قالت المرأة والله ما تركتما شيأ أبيتماه على الا قد فعلتماه حين سكرتما فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه عن الحسن عن سفيان عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يحيى بن بكير به وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين الا موسى بن جبير هذا وهو الانصارى السلمى مولاهم المدينى الحذاء وروى عن ابن عباس وأبى امامة بن سهل بن حنيف ونافع وعبد الله بن كعب بن مالك وروى عنه ابنه عبد السلام وبكر ابن مضر وزهير بن محمد وسعيد بن سلمة وعبد الله بن لهيعة وعمرو بن الحرث ويحيى بن أيوب وروى له أبو داود وابن ماجه وذكره ابن أبى حاتم فى كتاب الجرح والتعديل ولم يحك فيه شيأ من هذا ولا هذا فهو مستور الحال وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم وروى له متابع من وجه آخر عن نافع كما قال ابن مردويه حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا هشام بن على بن هشام حدثنا عبد الله ابن رجاء حدثنا سعيد بن سلمة حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول فذكره بطوله وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثنا القاسم أخبرنا الحسين وهو سنيد بن داود صاحب التفسير أخبرنا الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع قال سافرت مع ابن عمر فلما كان من آخر الليل قال يا نافع انظر طلعت الحمراء قلت لا مرتين أو ثلاثا ثم قلت

ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وثبت عنه انه قال من قام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وثبت عنه انه قال شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجة وقال اذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وهذا كله فى الصحيح وثبت عنه فى أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول رمضان بدون ذكر الشهر وقد ورد فى فضل رمضان أحاديث كثيرة

(الذى أنزل فيه القرآن) أى ابتدئ فيه انزاله وكان ذلك ليلة القدر قيل أنزل فيه من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا ثم كان ينزل به جبريل نجما نجما الى الارض وقيل أنزل فى شأنه القرآن وهذه الآية أعم من قوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة القدر وقوله انا أنزلناه فى ليلة مباركة يعنى ليلة القدر والقرآن اسم لكلام الله تعالى علم لما بين الدفتين وهو بمعنى المقروء كالمشروب يسمى شرابا والمكتوب يسمى كتابا وقيل هو مصدر قرأ يقرأ ومنه قوله تعالى وقرآن الفجر أى قراءة الفجر وعن الشافعى أنه قال القرآن اسم وليس بمهموز وليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والانجيل فعلى هذا انه ليس بمشتق وذهب الاكثرون الى أنه مشتق من القرء وهو الجمع فسمى قرآنا لانه يجمع السور والآيات بعضها الى بعض ويجمع الاحكام والقصص والامثال والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وقيل فى معنى الآية الذى نزل بفرض صيامه القرآن كما تقول نزلت هذه الآية فى الصلاة والزكاة ونحو ذلك روى هذا عن مجاهد والضحاك وهو اختيار الحسن بن الفضل وأخرج أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن واثلة بن الاسقع ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أنزلت صحف ابراهيم فى أول ليلة من رمضان وأنزل الزبور لثمانى عشرة خلت من رمضان وأنزل الله القرآن لاربع وعشرين خلت من رمضان وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر مثله لكنه قال وأنزل الزبور لاثنى عشر وزاد وأنزلت التوراة لست خلون من رمضان وأنزل الانجيل لثمانى عشرة خلت من رمضان وعن ابن عباس قال انه أنزل فى ليلة القدر وفى رمضان وفى ليلة مباركة جملة واحدة ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والايام وعنه قال نزل القرآن جملة لاربع وعشرين من رمضان فوضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترتيلا وعنه انه قال ليلة القدر هى الليلة المباركة وهى فى رمضان أنزل القرآن

قد طلعت قال لا مرحبا بها ولا أهلا قلت سبحان الله نجم مسخر سامع مطيع قال ما قلت لك الا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الملائكة قالت يا رب كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب قال انما ابتليتهم وعافيتكم قالوا لو كنا مكانهم ما عصيناك قال فاختار واملكين منكم قال فلم يألوا جهدا أن يختاروا فاختاروا هاروت وماروت وهذان أيضا غريبان جدا وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الاحبار لا عن النبي صلى الله عليه وسلم كما قال عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الاحبار قال ذكرت الملائكة أعمال بني آدم ومايأتون من الذنوب فقيل لهم اختاروا منكم اثنين فاختاروا هاروت وماروت فقال لهما اني أرسل الى بني ادم رسلا وليس بيني وبينكم رسول انزلا لا تشركا بي شيأ ولا تزنيا ولا تشربا الخمر قال كعب فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن عصام عن مؤمل عن سفيان الثوري به ورواه ابن جرير أيضا حدثني المثنى أخبرنا المعلى وهو ابن أسد أخبرنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة حدثني سالم انه سمع عبد الله يحدث عن كعب الاحبار فذكره فهذا أصح وأثبت الى عبد الله بن عمر من الاسنادين المتقدمين وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع فدار الحديث ورجع الى نقل كعب الاحبار عن كتب بني اسرائيل والله أعلم

(ذكر الآثار الواردة في ذلك) عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا الحجاج أخبرنا حماد عن خالد الحذاء عن عمير بن سعيد قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس وانها خاصمت الى الملكين هاروت وماروت فراوداها عن نفسها فابيا عليها الا ان يعلماها الكلام الذي اذا تكلم به أحد يعرج به الى السماء فعلماها فتكلمت به فعرجت الى السماء فمسخت كوكبا وهذا الاسناد رجاله ثقات وهو غريب جدا وقال ابن أبي حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا ابراهيم بن موسى أخبرنا معاوية عن أبي خالد عن عمير بن سعيد عن علي رضي الله عنه قال هما ملكان من ملائكة السماء يعني وما أنزل على الملكين ورواه الحافظ

جملة واحدة من الذكر الى البيت المعمور ثم نزل به جبريل نجوما في ثلاث وعشرين سنة (هدى للناس) أي هاديا لهم من الضلال بإعجازه (وبينات من الهدى) من عطف الخاص على العام اظهارا لشرف المعطوف بافراده بالذكر لان القرآن يشمل محكمه ومتشابهه والبينات تختص بالمحكم منه قيل الهدى الاول في الاحكام الاعتقادية والهدى الثاني في الفرعية فهما متغايران (والفرقان) هو ما فرق بين الحق والباطل أي فصل (فمن شهد منكم الشهر) هذا من أنواع المجاز اللغوي وهو اطلاق اسم الكل على الجزء أطلق الشهر وهو اسم للكل وأراد جزأ منه وقد فسره علي وابن عمر أن من شهد أول الشهر (فليصمه) جميعه والمعنى ومن حضر ولم يكن في سفر بل كان مقيما فليصم فيه قال جماعة من السلف والخلف ان من أدركه شهر رمضان مقيما غير مسافر لزمه صيامه سافر بعد ذلك أو أقام واستدلوا بهذه الآية وقال الجمهور انه اذا سافر أفطر لان معنى الآية انه حضر الشهر من أوله الى آخره لا اذا حضر بعضه وسافر فانه لا يتحتم عليه الصوم ما حضره وهذا هو الحق وعليه دلت الادلة الصحيحة من السنة وقد كان يخرج صلى الله عليه وآله وسلم في رمضان فيفطر وقيل هي رؤية الهلال ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته أخرجه الشيخان ولا خلاف أنه يصوم رمضان من رأى الهلال ومن أخبر به ثم قيل يجزئ فيه خبر الواحد قاله أبو ثور وقيل خبر الجمع قاله مالك (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) قد تقدم تفسيره وانما كرره لان الله تعالى ذكر في الآية الاولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح ثم نسخه بقوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه فلو اقتصر على هذا الاحتمال ان يشمل النسخ الجميع فاعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ليعلم أن الحكم فيهما باق على ما كان عليه وقد أطال بعضهم في بيان مسائل المرض والسفر في تفسير هذه الآية والامر ظاهر (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فلذلك أباح الفطر للسفر والمرض وفيه ان هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه ومراد من مراداته في جميع أمور الدين ومثله قوله تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وهو في الصحيح واليسر السهل الذي لا عسر فيه عن ابن عباس قال اليسر الافطار في السفر والعسر الصوم في السفر (ولتكملوا العدة)

أبو بكر بن مردويه في تفسيره بسنده عن مغيث عن مولاه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي مرفوعا وهذا لا يثبت من هذا الوجه ثم رواه من طريقين آخرين عن جابر عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الزهرة فانها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت وهذا أيضا لا يصح وهو منكر جدا والله أعلم وقال ابن جرير حدثني المثنى بن ابراهيم أخبرنا الحجاج بن منهال حدثنا حماد عن علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود وابن عباس انهما قالا جميعا لما كثر بنو آدم وعصوا دعت الملائكة عليهم والارض والجبال (٢٣٩) ربنا لا تهلهم فاوحى الله الى الملائكة اني

العدة) قال في الكشاف علة للامر بمراعاة العدة عن الربيع قال عدة رمضان وقال الضحاك عدة ما أفطر المريض في السفر وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فان غم عليكم فاكملوا العدة ثلاثين يوما (ولتكبروا الله) علة لما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر والمراد بالتكبير هنا هو قول القائل الله أكبر قال الجمهور ومعناه الحض على التكبير في آخر رمضان وقد وقع الخلاف في وقته فروي عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر وقيل اذا رأوا هلال شوال كبروا الى انقضاء الخطبة وقيل الى خروج الامام وقيل هو التكبير يوم الفطر قال مالك هو من حين يخرج من داره الى أن يخرج الامام وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة يكبر في الاضحى ولا يكبر في الفطر عن ابن مسعود أنه كان يكبر الله أكبر الله أكبر لا اله الا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد وعن ابن عباس انه كان يكبر الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر وأجل ولله الحمد الله أكبر على ما هدانا وعنه قال حق على الصائمين اذا نظروا الى شهر شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم لان الله تعالى يقول ولتكبروا الله (على ما هداكم) أي أرشدكم الى طاعته والى ما يرضى به عنكم قيل على هنا على بابها من الاستعلاء كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم قاله الزمخشري الثاني انها بمعنى لام العلة والاول أولى لان المجاز في الحرف ضعيف ومافي ماهداكم مصدرية أي على هدايته اياكم أو موصولة بمعنى الذي وفيه بعد (ولعلكم تشكرون) الله على نعمه وقد تقدم تفسيره وهو علة الترخيص والتيسير قاله في الكشاف وهذا نوع من اللطف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي الى تبينه الا النقاد من علماء البيان (واذا سألك عبادي عني) يحتمل أن يكون السؤال عن القرب والبعد كما يدل عليه قوله (فاني قريب) ويحتمل أن يكون السؤال عن اجابة الدعاء كما يدل على ذلك قوله اجيب دعوة الداع ويحتمل ان السؤال عما هو أعم من ذلك وهذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذي أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الانصار عن أبيه عن جده قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية واخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن

أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم وأنزلت الشهوة والشيطان في قلوبهم ولو نزلتم لفعلتم أيضا قال فخذوا انفسهم ان لو ابتلوا اعتصموا فاوحى الله اليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم فاختاروا هاروت وماروت فأهبطا الى الارض وأنزلت الزهرة اليهما في صورة امرأة من أهل فارس يسمونها بيذخت قال فوقعا بالخطيئة فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن في الارض ألا ان الله هو الغفور الرحيم فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا عبد الله ابن جعفر الرقي أخبرنا عبد الله يعني ابن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن المنهال بن عمرو عن يونس بن خباب عن مجاهد قال كنت نازلا على عبد الله بن عمر في سفر فلما كان ذات ليلة قال لغلامه انظر هل طلعت الحمراء لا مرحبا بها ولا أهلا ولا حياها الله هي صاحبة الملكين

قالت الملائكة يارب كيف تدع عصاة بني آدم وهم يسفكون الدم الحرام وينتهكون محارمك ويفسدون في الارض قال اني ابتليتهم فلعل ان ابتليتكم بمثل الذي ابتليتهم به فعلتم كالذي يفعلون قالوا لا قال فاختاروا من خياركم اثنين فاختاروا هاروت وماروت فقال لهما اني مهبطكما الى الارض وعاهد اليكما ان لا تشركا ولا تزنيا ولا تخونا فأهبطا الى الارض وألقى عليهما الشهوة وأهبطت لهما الزهرة في أحسن صورة امرأة فتعرضت لهما فراوداها عن نفسها فقالت اني على دين لا يصلح لاحد ان يأتيني الا من كان على مثله قالا وما دينك قالت المجوسية قالا الشرك هذا شئ لا نقربه فكثت عنهما ما شاء الله تعالى ثم تعرضت لهما

فراوداها عن نفسها فقالت ماشئتما غير أن لي زوجا وأنا أكره ان يطلع على هذا مني فافتضح فان أقررتما لي بديني وشرطتما لي ان تصعدا بي الى السماء فعلت فأقرا لها بدينها وأتياها فيما يريان ثم صعدا بها الى السماء فلما انتهيا بها الى السماء اختطفت منهما وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين نادمين يبكيان وفي الارض نبي يدعو بين الجمعتين فاذا كان يوم الجمعة أجيب فقالا لو أتينا فلانا فسألناه فطلب لنا التوبة فأتياه فقال رحمكما الله كيف يطلب التوبة أهل الارض لاهل السماء قالا انا قد ابتلينا قال ائتياني يوم الجمعة فأتياه فقال ما أجبت فيكما بشيء (٢٤٠) ائتياني في الجمعة الثانية فأتياه فقال اختارا فقد خيرتما ان اخترتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة وان أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله فقال أحدهما ان الدنيا لم يمض منها الا القليل وقال الآخر ويحك اني قد أطعتك في الامر الاول فاطعني الآن ان عذابا يفنى ليس كعذاب يبقى فقال انا يوم القيامة على حكم الله فخاف ان يعذبنا قال لانا أرجو ان علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة ان لا يجمعهما علينا قال فاختارا عذاب الدنيا فجعلا في بكرات من حديد في قليب مملوءة من نار عاليهما ساقلهما وهذا اسناد جيد الى عبد الله بن عمر وقد تقدم في رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح عن نافع عنه رفعه وهذا أثبت وأصح اسنادا ثم هو والله أعلم من رواية ابن عمر عن كعب كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه وقوله ان الزهرة نزلت في صورة امرأة حسناء وكذا في المروي عن علي فيه غرابة جدا وأقرب ما ورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم أخبرنا عصام بن رواد أخبرنا آدم أخبرنا أبو جعفر حدثنا الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما وقع الناس من بعد آدم عليه السلام خصال فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله قالت الملائكة في السماء يارب هذا العالم الذي انما خلقتهم لعبادتك وطاعتك قد وقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام والزنا والسرقة وشرب الخمر فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم فقيل انهم في غيب فلم يعذروهم فقيل لهم اختاروا من أفضلكم ملكين آمرهما وأنهاهما فاختاروا هاروت وماروت فاهبطا الى الارض وجعل لهما شهوات بني آدم وأمرهما الله ان يعبداه ولا يشركا به شيأ ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام

قال سأل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أين ربنا فأنزل الله هذه الآية وأخرج ابن مردويه عن انس انه سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وآله وسلم أين ربنا فنزلت وعن ابن عباس قال قال يهود المدينة يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كيف يسمع ربنا دعاءنا وانت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام وان غلظ كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الاية وقيل انهم سألوه في اي ساعة ندعو ربنا فنزلت والقرب قيل بالاجابة وقيل بالعلم وقيل بالانعام وقال في الكشاف انه تمثيل لحاله في سهولة اجابته لمن دعاه وسرعة انجاحه حاجة من سأله بمن قرب مكانه فاذا دعي اسرعت تلبيته قيل والقرب استعارة تبعية تمثيلية والافهو متعال عن القرب الحسي لتعاليه عن المكان ونظيره ونحن اقرب اليه من حبل الوريد قاله الكرخي والحق ان القرب من الصفات نؤمن به ونمره على ما جاء ولا نؤول ولا نعطل وعن ابي موسى الاشعري قال لما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر أو قال توجه الى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله اكبر لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ايها الناس اربعوا على انفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا قريبا وهو معكم اخرجه البخاري ومسلم ومعنى اربعوا ارفقوا بها وقيل أمسكوا عن الجهر فانه قريب يسمع دعاءكم (اجيب دعوة الداع اذا دعان) معنى الاجابة هو معنى ما في قوله تعالى ادعوني أستجب لكم وقيل معناه اقبل عبادة من عبدني بالدعاء لما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من ان الدعاء هو العبادة كما اخرجه أبو داود وغيره من حديث النعمان بن بشير والظاهر ان الاجابة هنا هي باقية على معناها اللغوي وكون الدعاء من العبادة لا يستلزم ان الاجابة هي القبول للدعاء أي جعله عبادة متقبلة فالاجابة امر آخر غير قبول هذه العبادة والمراد أن الله سبحانه يجيب بما شاء وكيف شاء فقد يحصل المطلوب قريبا وقد يحصل بعيدا وقد يدفع عن الداعي من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه وهذا مقيد بعدم اعتداء الداعي في دعائه كما في قوله سبحانه ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين ومن الاعتداء أن يطلب ما لا يستحقه ولا يصلح له كمن يطلب منزلة في الجنة مساوية لمنزلة الانبياء أو فوقها وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه الله بها احدى ثلاث

وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر فلبثا في الارض زمانا يحكمان بين الناس بالحق وذلك في زمن ادريس عليه السلام وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وانهما أتيا عليها فخضعا لها في القول وأراداها على نفسها فأبت الا ان يكونا على أمرها وعلى دينها فسألاها عن دينها فأخبرت لهما صنما فقالت هذا أعبده فقالا لا حاجة لنا في عبادة هذا فذهبا فعبرا ماشاء الله ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ففعلت مثل ذلك فذهبا ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها فلما رأت انهما قد أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما اختارا أحد الخلال الثلاث اما أن تعبدا هذا الصنم (٢٤١) واما أن تقتلا هذه النفس واما أن تشربا هذا الخمر فقالا كل هذا لا ينبغي وأهون هذا شرب الخمر فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا المرأة فخشيا ان يخبر الانسان عنهما فقتلاه فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا الى السماء فلم يستطيعا وحيل بينهما وبين ذلك وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء فنظرت الملائكة الى ما وقعا فيه فجعلوا كل العجب وعرفوا انه من كان في غيب فهو أقل خشية فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الارض فنزل في ذلك والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض فقيل لهما اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فقالا أما عذاب الدنيا فانه ينقطع ويذهب وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له فاختارا عذاب الدنيا فجعلا ببابل فهما يعذبان وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولا عن أبي زكريا العنبري عن محمد بن عبد السلام عن اسحق بن راهويه عن حكام ابن سالم الرازي وكان ثقة عن أبي جعفر الرازي به ثم قال صحيح الاسناد

خصال اما أن يعجل له دعوته واما أن يدخرله في الآخرة واما أن يصرف عنه من السوء مثلها وثبت في الصحيح أيضا من حديث أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يستجاب لاحدكم مالم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي (فليستجيبوا لي) أي كما أجبتهم اذا دعوني فليستجيبوا لي فيما دعوتهم اليه من الايمان والطاعات وقيل معناه انهم يطلبون اجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم له أي القيام بما أمرهم به والترك لما نهاهم عنه وقال مجاهد أي فليطيعوني والاجابة في اللغة الطاعة من العبد والاثابة والعطاء من الله (وليؤمنوا بي) اللام فيه للامر كما فيما قبله أي وليدوموا على الايمان (لعلهم يرشدون) أي يهتدون قاله الربيع بن أنس والرشد خلاف الغي قال الهروي الرشد والرشد والرشاد الهدى والاستقامة ومنه هذه الآية وقد ورد في فضل الدعاء وآدابه أحاديث كثيرة ذكرها أهل التفسير وهي في الصحاح والسنن لا نطول بذكرها (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) فيه دلالة على ان هذا الذي أحله الله كان حراما عليهم وهكذا كان كما يفيده السبب لنزول الآية فقد أخرج البخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن البراء بن عازب قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان الرجل صائما فحضر الافطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي وان قيس بن صرمة الانصاري كان صائما فكان يومه ذلك يعمل في أرضه فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال هل عندكم طعام قالت لا ولكن انطلق فاطلب ذلك فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائما قالت خيبة لك أنمت فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية الى قوله من الفجر ففرحوا بها فرحا شديدا والرفث كناية عن الجماع وعن ابن عباس قال الدخول والتغشي والافضاء والمباشرة والرفث واللمس والمس هذا الجماع غير أن الله حيي كريم يكني بما شاء عما شاء قال الزجاج الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته وكذا قال الازهري وقيل الرفث أصله قول الفحش رفث وأرفث اذا تكلم بالقبيح وليس هو المراد هنا وعدي الرفث بالى لتضمينه معنى الافضاء (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) تعليل لما قبله وجعل النساء لباسا للرجال والرجال لباسا لهن لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه قال أبو عبيدة وغيره

(٣١ ل ـ فتح البيان) ولم يخرجاه فهذا أقرب ما روي في شأن الزهرة والله أعلم وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا مسلم أخبرنا القاسم بن الفضل الحذائي أخبرنا يزيد يعني الفارسي عن ابن عباس ان أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الارض فرأوهم يعملون بالمعاصي فقالوا يا رب أهل الارض كانوا يعملون بالمعاصي فقال الله أنتم معي وهم في غيب عني فقيل لهم اختاروا منكم ثلاثة فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا الى الارض على أن يحكموا بين أهل الارض وجعل فيهم شهوة الآدميين فامروا أن لا يشربوا خمرا ولا يقتلوا نفسا ولا يزنوا ولا يسجدوا لوثن فاستقال منهم واحد فأقيل فأهبط اثنان الى الارض فأتتهما امرأة من

أحسن الناس يقال لها مناهية فهو ياها جميعا ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها فاراداها فقالت انهما لا حتى تشربا خمرا وتقتلا ابن جارى وتسجدا لوثنى فقالا لا نسجد ثم شربا من الخمر ثم قتلا ثم سجدا فاشرف أهل السماء عليهما وقالت لهما أخبرانى بالكلمة التى اذا قلتماها طرتما فأخبراها فطارت فمسخت جمرة وهى هذه الزهرة واماهما فأرسل اليهما سليمان بن داود فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فهما مناطان بين السماء والارض وهذا السياق فيه زيادة كثيرة واغراب ونكارة والله أعلم بالصواب وقال عبد الرزاق قال معمر (٢٤٢) قال قتادة والزهرى عن عبيد الله بن عبد الله وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت كانا ملكين من الملائكة فاهبطا ليحكما بين الناس وذلك ان الملائكة سخروا من حكام بنى آدم فحاكمت اليهما امرأة فحافا لها ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك ثم خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا وقال معمر قال قتادة فكانا يعلمان الناس السحر فأخذ عليهما أن لا يعلما أحدا حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر وقال أسباط عن السدى انه قال كان من أمر هاروت وماروت انهما طعنا على أهل الارض فى أحكامهم فقيل لهما انى أعطيت بنى آدم عشرا من الشهوات فيها يعصونى قال هاروت وماروت ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل فقال لهما انزلا فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر فاحكما بين الناس فنزلا ببابل دينا وند فكانا يحكمان حتى اذا أمسيا عرجا فاذا أصبحا هبطا فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها فأعجبهما حسنها واسمها بالعربية الزهرة وبالنبطية بيدخت وبالفارسية أناهيد فقال أحدهما لصاحبه انها التعجبنى قال الآخر قد أردت ان أذكر لك فاستحييت منك فقال الآخر هل لك ان أذكرها لنفسها قال نعم ولكن كيف لنا بعذاب الله قال الآخر انا نرجو رحمة الله فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرا اليها نفسها فقالت لا حتى تقضيا لى على زوجى فقضيا لها على زوجها ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتيانها فيها فأتياها لذلك فلما أرادا الذى يواقعها قالت ما أنا بالذى أفعل حتى تخبرانى بأى كلام تصعدان الى السماء وبأى كلام تنزلان منها فأخبراها فتكلمت فصعدت فأنساها الله تعالى ما تنزل به فثبتت مكانها وجعلها الله كوكبا فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال هذه

يقال للمرأة لباس وفراش وازار وقيل انما جعل كل واحد منهما لباسا للآخر لانه يستر عند الجماع عن أعين الناس وعن ابن عباس هن سكن لكم وأنتم سكن لهن قيل لا يسكن شئ الى شئ كسكون احدى الزوجين الى الآخر وقد روى فى سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تخونونها بالمباشرة فى ليالى الصوم يقال خان واختان بمعنى وهما من الخيانة قال القتيبى أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شئ فلا يؤدى الامانة فيه انتهى وانما سماهم خائنين لانفسهم لان ضرر ذلك عائد عليهم (فتاب عليكم) يحتمل معنيين أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لانفسهم والآخر التخفيف عنهم بالرخصة والاباحة كقوله علم أن لن تحصوه فتاب عليكم يعنى خفف عنكم وكقوله فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله يعنى تخفيفا وهكذا قوله (وعفا عنكم) يحتمل العفو من الذنب ويحتمل التوسعة والتسهيل (فالآن) قال أبو البقاء الآن حقيقة الوقت الذى أنت فيه وقد يقع على الماضى القريب منك وعلى المستقبل القريب تنزيلا للقريب منزلة الحاضر وهو المراد هنا وقد تقدم الكلام على الآن (باشروهن) أى جامعوهن فهو حلال لكم فى ليالى الصوم وسميت الجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد بصاحبه قيل هذا الامر والثلاثة بعده للاباحة وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة (وابتغوا ما كتب الله لكم) تأكيد لما قبله أو تأسيس والثانى أولى أى ابتغوا بمباشرة نسائكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح وهو حصول النسل والولد قيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأتى والتقدير وابتغوا المحل الذى كتب الله لكم وقيل المراد ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه قاله الزجاج وغيره وقيل ابتغوا الرخصة والتوسعة وقيل ابتغوا ما كتب لكم من الاماء والزوجات وقيل ابتغوا ليلة القدر وقيل غير ذلك مما لا يفيده النظم القرآنى ولا دل عليه دليل آخر وقرأ الحسن البصرى واتبعوا بالعين المهملة من الاتباع (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) هو تشبيه للمنع والمراد هنا بالخيط الابيض هو المعترض فى الافق لا الذى هو كذنب السرحان فانه الفجر الكذاب الذى لا يحل شيأ ولا يحرمه والمراد بالخيط الاسود سواد الليل والتبيين ان يمتاز أحدهما عن الآخر وذلك لا يكون الا عند دخول رقت الفجر

التى فتنت هاروت وماروت فلما كان الليل أرادا ان يصعدا فلم يطيقا فعرفا الهلكة فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فعلقا بابل وجعلا يكلمان الناس كلامهما وهو السحر وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد أما شأن هاروت وماروت فان الملائكة عجبت من ظلم بنى آدم وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات فقال لهم ربهم تعالى اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان فى الارض فاختاروا فلم يألوا هاروت وماروت فقال لهما حين أنزلهما أعجبتم من بنى آدم من ظلمهم ومعصيتهم وانما تأتيهم الرسل والكتب من وراء وراء وانكما ليس بينى وبينكما رسول فافعلا كذا وكذا ودعا كذا وكذا فأمرهما بأمور ونهاهما ثم نزلا على ذلك ليس أحد أطوع لله منهما فحكما فعدلا فكانا يحكمان فى النهار بين بنى آدم فاذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان حتى أنزلت عليهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة تخاصم فقضيا عليها فلما قامت وجد كل واحد منهما فى نفسه فقال أحدهما لصاحبه وجدت مثل الذى وجدت قال نعم فبعثا اليها ان ائتيانا نقض للذ فيما رجعت قالا وقضيا لها فاتتهما فكشفا لها عن عورتيهما وانما كانت سوآتهما فى أنفسهما ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء واذاتها فلما بلغا ذلك واستحلا افتتنا فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما ولم تحملهما أجنحتهما فاستغاثا برجل من بنى آدم فاتياه فقالا ادع لنا ربك فقال كيف يشفع أهل الارض لاهل السماء قالا سمعنا ربك يذكرك بخير فى السماء فوعدهما يوما وغدا يدعو لهما فدعا لهما فاستجيب له فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فنظر أحدهما الى صاحبه فقال ألا تعلم ان أفواج عذاب الله فى الآخرة كذا وكذا فى الخلد وفى الدنيا تسع مرات مثلها فأمر أن ينزلا ببابل فثم عذابهما وزعم انهما معلقان فى الحديد مطويان يصفقان باجنحتهما وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع فى تفصيلها الى أخبار بنى اسرائيل اذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد الى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق

الفجر أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال كان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الابيض والخيط الاسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله من الفجر فعلموا انه يعنى الليل من النهار وفى الصحيحين وغيرهما عن عدى بن حاتم انه جعل تحت وسادته خيطين أبيض وأسود جعل ينظر اليهما فلا يتبين له الابيض من الاسود فغدا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقال ان وسادك اذن لعريض انما ذلك بياض النهار من سواد الليل وفى رواية فى البخارى وغيره انه قال له انك لعريض القفا وفى رواية عند ابن جرير وابن أبى حاتم انه ضحك منه قيل من الاولى لابتداء الغاية والثانية للبيان قاله السيوطى وقال الزمخشرى وغيره الثانية للتبعيض أى حال كون الخيط الابيض بعضا من الفجر وفى تجويز المباشرة الى الصبح دلالة على جواز تاخير الغسل اليه وصحة صوم من أصبح جنبا (ثم أتموا الصيام الى الليل) أمر وهو للوجوب وهو يتناول كل الصيام عند أبى حنيفة وقال الشافعية انما ورد هذا فى بيان أحكام صوم الفرض ويدل على اباحة الفطر من النفل حديث عائشة فى مسلم وفيه أهدى لنا حيس قال أريه فلقد أصبحت صائما فأكل وقيل للوجوب فى صوم الفرض وللندب فى صوم النفل وقيل للوجوب فيهما وفى الآية التصريح بأن للصوم غاية هى الليل فعند اقبال الليل من المشرق وادبار النهار من المغرب يفطر الصائم ويحل له الاكل والشرب وغيرهما (ولا تباشروهن) قيل المراد بالمباشرة هنا الجماع وقيل يشمل التقبيل واللمس اذا كانا بشهوة لا اذا كانا بغير شهوة فهما جائزان كما قاله عطاء والشافعى وابن المنذر وغيرهم وعلى هذا يحمل ما حكاه ابن عبد البر من الاجماع على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبل فتكون هذه الحكاية للاجماع مقيدة بأن يكون بشهوة (وأنتم عاكفون فى المساجد) الاعتكاف فى اللغة الملازمة يقال عكف على الشئ اذا لازمه ولما كان المعتكف يلازم المسجد قيل له عاكف فى المسجد ومعتكف فيه لانه يحبس نفسه لهذه العبادة فى المسجد والاعتكاف فى الشرع ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص وقد وقع الاجماع على أنه ليس بواجب وعلى أنه لا يكون الا فى المسجد بين سبحانه فى هذه الآية أن الجماع يحرم على المعتكف فى النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه وللاعتكاف أحكام مستوفاة فى كتب الفقه وشروح الحديث وأقول ان قوله

القرآن اجمال القصة من غير بسط ولا اطناب فيها فنحن نؤمن بما ورد في القران على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال وقد ورد في ذلك أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحببنا أن ننبه عليه قال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى أخبرنا الربيع ابن سليمان أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن أبي الزناد حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم انها قالت قدمت على امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حداثة ذلك تسأله عن أشياء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به وقالت عائشة رضي الله عنها العروة يا ابن أختي فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشفيها فكانت تبكي حتى اني لارحمها وتقول اني أخاف ان أكون قد هلكت كان لي زوج فغاب عني فدخلت على عجوز فشكوت ذلك اليها فقالت ان فعلت ما آمرك به فاجعل له يأتك فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر فلم يكن شيء حتى وقفنا ببابل واذا برجلين معلقين بارجلهما فقالا ما جاء بك قلت تتعلم السحر فقالا انما نحن فتنة فلا تكفري فارجعي فأبيت وقلت لا قالا فاذهبي الى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت ففزعت ولم أفعل فرجعت اليهما فقالا أفعلت فقلت نعم فقالا هل رأيت شيأ فقلت لم أر شيأ فقالا لم تفعلي ارجعي الى بلادك ولا تكفري فاربيت وأبيت فقالا اذهبي الى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت فاقشعررت وخفت ثم رجعت اليهما وقلت قد فعلت فقالا فما رأيت فقلت لم أر شيأ فقالا كذبت لم تفعلي ارجعي الى بلادك ولا تكفري فانك على رأس أمرك فاربيت وأبيت فقالا اذهبي الى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت اليه فبلت فيه فرأيت فارسا مقنعا بحديد خرج مني فذهب في السماء تمنع وغاب حتى ما أراه فجئتهما فقلت قد فعلت فقالا فما رأيت قلت رأيت فارسا مقنعا خرج مني فذهب في السماء حتى ما أراه فقالا صدقت ذلك ايمانك خرج منك اذهبي فقلت للمرأة والله ما أعلم شيأ وما قالا لي شيأ فقلت بلى لم تريدي شيأ الا كان خذي هذا القمح فابذري فبذرت وقلت اطلعي فاطلع وقلت احصدي فحصدت ثم قلت افركي فافركت ثم قلت ايبسي فايبست ثم قلت اطحني فاطحنت ثم قلت اخبزي فاخبزت فلما رأيت اني لا اريد شيأ الا كان سقط في يدي وندمت والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيأ ولا أفعله ابدا

تعالى ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد جملة انشائية نهيية مسوقة لتحريم مباشرة النساء في حال الاعتكاف في المساجد فقوله في المساجد متعلق بقوله عاكفون وليست لبيان النهي عن مباشرة النساء في المساجد من غير فرق بين المعتكف وغيره ولو كان كذلك لم تكن لقوله وأنتم عاكفون فائدة ثم هذا الاعتكاف المذكور في الآية قد بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لامته باعتكافه غير مرة هو وزوجاته وأصحابه بمحضره فكان صلى الله عليه وآله وسلم اذا أراد الاعتكاف أمر بخبائه فضرب في المسجد كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ثم أقام فيه لا يخرج منه الا لحاجة الانسان ويعود مسرعا لا يعود مريضا ولا يشتغل بشيء كما ثبت في دواوين الاسلام فهذا هو الاعتكاف الشرعي الذي علمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن زعم أن المراد به مطلق اللبث ولو في غير المسجد نظرا الى أصل معناه اللغوي فقد قدم الحقيقة اللغوية على الحقيقة الشرعية وهو خلاف ما تقرر في الاصول بل خلاف ما عليه أهل العلم سلفا وخلفا ولو كان الاعتكاف المشروع هو مجرد اللبث ولو في غير المسجد لكان اللابث في داره وفي سوقه وفي المناطب ونحوها معتكفا اذا حصلت منه النية وهذا خلاف ما في القرآن الكريم وخلاف ما ثبت تواترا في السنة المطهرة وخلاف ما فهمه المسلمون من هذه العبادة بل خلاف ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله كما في سنن سعيد بن منصور من حديث ابن مسعود قال لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا اعتكاف الا في المساجد الثلاثة أو قال الا في مسجد جماعة وأما ما فهمه بعض الناس من جواز الوطء للمعتكف في غير المسجد فيرده ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت السنة على المعتكف أن لا يعود مريضا ولا يشهد جنازة ولا يمس امرأة ولا يباشرها ولا يخرج لحاجة الا لما لا بد منه ولا اعتكاف الا بصوم ولا اعتكاف الا في مسجد جامع وقد تقرر أن قول الصحابي من السنة أو السنة له حكم الرفع وهذا الحديث كما يدل على تحريم الوطء على المعتكف يدل على أنه لا اعتكاف الا في مسجد جامع فهو يرد عليه من جهتين وقد ذكر الشوكاني الكلام على هذا الحديث في شرحه على المنتقى فليرجع اليه (تلك حدود الله فلا تقربوها) أي هذه الاحكام حدود الله وأصل الحد المنع ومنه سمي البواب والسجان حدادا وسميت الاوامر والنواهي حدود الله لانها

ورواه ابن ابى حاتم عن الربيع بن سليمان به مطولا كما تقدم وزاد بعد قولها ولا افعله ابدا فسالت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حداثته وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يومئذ متوافرون فما رؤى انهم يقولون لها وكلهم هاب وخاف ان ينتهيها بما لا يعلمه الا انه قد قال لها ابن عباس أو بعض من كان عنده لو كان ابوا لك حيين او احدهما قال هشام فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان قال ابن ابى الزناد وكان هشام يقول انهم كانوا من اهل الورع والخشية من الله ثم يقول هشام لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم فهذا اسناد جيد الى عائشة رضى الله عنها وقد استدل (٢٤٥)

بهذا الاثر من ذهب الى ان السحر له تمكن فى قلب الاعيان لان هذه المرأة بذرت واستغلت فى الحال وقال آخرون بل ليس له قدرة الا على التخييل كما قال تعالى سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم وقال تعالى يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى واستدل به على ان بابل المذكورة فى القرآن هى بابل العراق لا بابل دينا وند كما قاله السدى وغيره ثم الدليل على انها بابل العراق ما قال ابن ابى حاتم اخبرنا على بن الحسين اخبرنا احمد ابن صالح حدثنى ابن وهب حدثنى ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار ابن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى ان على بن أبى طالب رضى الله عنه مر ببابل وهو يسير فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فاقام الصلاة فلما فرغ قال ان حبيبى صلى الله عليه وسلم نهانى ان أصلى بأرض المقبرة ونهانى ان اصلى ببابل فانها ملعونة وقال ابو داود اخبرنا سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادى عن ابى صالح الغفارى ان

تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج عنها ما هو منها ومن ذلك سميت الحدود حدودا لانها تمنع أصحابها من العود ومعنى النهى عن قربانها النهى عن تعديها بالمخالفة لها وقيل ان حدود الله هى محارمه فقط ومنها المباشرة من المعتكف والافطار فى رمضان لغير عذر وغير ذلك مما سبق النهى عنه ومعنى النهى عن قربانها على هذا واضح وقيل حدود الله فرائض الله وقيل المقادير التى قدرها ومنع من مخالفتها (كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) أى كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم معالم دينه وأحكام شريعته والعلامات الهادية الى الحق (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) هذا يعم جميع الامة وجميع الاموال لا يخرج عن ذلك الا ما ورد دليل الشرع بانه يجوز أخذه فانه مأخوذ بالحق لا بالباطل ومأكول بالحل لا بالاثم وان كان صاحبه كارها كقضاء الدين اذا امتنع منه من هو عليه وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها ونفقة من أوجب الشرع نفقته والحاصل أن مالم يبح الشرع أخذه من مالكه فهو مما كول بالباطل وان طابت به نفس مالكه كمهر البغى وحلوان الكاهن وثمن الخمر والملاهى وأجرة المغنى والقمار والرشوة فى الحكم وشهادة الزور والخيانة فى الوديعة والامانة والاكل بطريق التعدى والنهب والغصب والباطل فى اللغة الذاهب الزائل والمعنى بالسبب الباطل أو مبطلين أو متلبسين بالباطل عن ابن عباس قال هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد المال ويخاصم الى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه وقال مجاهد معناها لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم (وتدلوا بها الى الحكام) مجزوم عطفا على تأكلوا فهو من جملة المنهى عنه أى لا تلقوا أمور تلك الاموال التى فيها الحكومة الى الحكام يقال أدلى الرجل بحجته أو بالامر الذى يرجو النجاح به تشبيها بالذى يرسل الدلو فى البئر يقال أدلى دلوه أرسلها والمعنى أنكم لا تجمعوا بين أكل الاموال بالباطل وبين الادلاء بها الى الحكام بالحجج الباطلة والمعنى لا تسرعوا بالخصومة فى الاموال الى الحكام ليعينوكم على ابطال حق أو تحقيق باطل وأما الاسراع بها لتحقيق الحق فليس مذموما وفى هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الاموال والفروج فمن حكم له القاضى بشئ مستندا فى حكمه الى شهادة زور أو يمين فاجرة فلا يحل له أكله فان ذلك من أكل أموال الناس بالباطل وهكذا اذا أرشى الحاكم فحكم له بغير الحق فانه من أكل أموال

علیا مر ببابل وهو يسير فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها امر المؤذن فاقام الصلاة فلما فرغ قال ان حبيبى صلى الله عليه وسلم نهانى ان اصلى فى المقبرة ونهانى ان اصلى بأرض بابل فانها ملعونة حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب اخبرنى يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن حجاج بن شداد عن ابى صالح الغفارى عن على بمعنى حديث سليمان بن داود قال فلما خرج منها برز وهذا الحديث حسن عند الامام ابى داود لانه رواه وسكت عليه فنيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدخول الى منازلهم الا ان يكونوا باكين قال اصحاب الهيئة وبعد ما بين بابل وهى من اقليم

العراق عن البحر المحيط الغربي ويقال له اوقيانوس سبعون درجة ويسمون هذا طولا واما عرضها وهو بعدما بينها وبين وسط الارض من ناحية الجنوب وهو المسامت لخط الاستواء اثنان وثلاثون درجة والله اعلم وقوله تعالى وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن انس عن قيس بن عباد عن ابن عباس قال فاذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه اشد النهي وقالا له انما نحن فتنة فلا تكفر وذلك انهما علما الخير والشر والكفر والايمان فعرفا ان السحر من الكفر قال فاذا أبى عليهما أمراه ان يأتي (٢٤٦) مكان كذا وكذا فاذا أتاه عاين الشيطان فعله فاذا تعلمه خرج منه النور فنظر اليه ساطعا في السماء فيقول يا حسرتاه يا ويله ماذا صنع وعن الحسن البصري انه قال في تفسير هذه الآية نعم أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله ان يبتلي به الناس فأخذ عليهما الميثاق ان لا يعلما أحدا حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر رواه ابن أبي حاتم وقال قتادة كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحدا حتى يقولا انما نحن فتنة أي بلاء ابتلينا به فلا تكفر وقال السدي اذا أتاهما انسان يريد السحر وعظاه وقالا له لا تكفر انما نحن فتنة فاذا أبى قالا له ائت هذا الرماد فبل عليه فاذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الايمان واقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء وذلك غضب الله فاذا أخبرهما بذلك علما السحر فذلك قول الله تعالى وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر الآية وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج في هذه الآية لا يجترئ على السحر الا كافر وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار ومنه قول الشاعر

وقد فتن الناس في دينهم * وخلا ابن عفان شرطويلا

وكذا قوله تعالى فتقال اخبارا عن موسى عليه السلام حيث قال ان هي الا فتنتك أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى أخبرنا أبو معاوية عن الاعمش عن ابراهيم عن همام عن عبد الله قال من أتى كاهنا أو ساحرا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهذا اسناد صحيح وله شواهد أخر وقوله تعالى فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه

الناس بالباطل ولا خلاف بين أهل العلم ان حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال وقد روي عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك وهو مردود بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما في حديث أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انكم تختصمون الي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فاقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه فانما أقطع له قطعة من النار وهو في الصحيحين وغيرهما وقيل معناه لا تأكلوا المال بالباطل وتنسبوه الى الحكام والاول أولى وكان شريح القاضي يقول اني لاقضي لك واني لاظنك ظالما ولكن لا يسعني الا ان أقضي بما يحضرني من البينة وان قضائي لا يحل لك حراما (لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم) أي قطعة أو جزأ أو طائفة فعبر بالفريق عن ذلك وأصل الفريق القطعة من الغنم تشذ عن معظمها وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس بالاثم وسمي الظلم والعدوان اثما باعتبار تعلقه بفاعله قال ابن عباس أي باليمين الكاذبة وقيل بشهادة الزور (وأنتم تعلمون) أي حال كونكم عالمين أنكم على الباطل أو أن ذلك باطل ليس من الحق في شيء وهذا أشد لعقابهم وأعظم لجرمهم (يسئلونك عن الاهلة) أي عن فائدة اختلافها لان السؤال عن ذاتها غير مفيد وقد أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس قال نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عنمة وهما رجلان من الانصار قالا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد فنزلت هي مواقيت للناس في حل ديونهم وصومهم وافطارهم وأوقات حجهم وأجائرهم وأوقات الحيض وعدد نسائهم والشروط التي الى أجل ولهذا خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة والاهلة جمع هلال وجمعها باعتبار هلال كل شهر أو كل ليلة تنزيلا لاختلاف الاوقات منزلة اختلاف الذوات والهلال اسم لما يبدو في أول الشهر وفي آخره قال الاصمعي هو هلال حتى يستدير وقيل هو هلال حتى ينير بضوئه السماء وذلك ليلة السابع وانما قيل له هلال لان الناس يرفعون أصواتهم بالاخبار عنه عند رؤيته ومنه استهل الصبي اذا صاح واستهل وجهه وتهلل اذا ظهر فيه السرور والهلال في الحقيقة واحد وجمعه باعتبار أوقاته واختلافه في ذاته واختلف أهل اللغة الى متى يسمى هلالا

أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون فيه من الافاعيل المذمومة ما انهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف وهذا من صنيع الشياطين كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث الاعمش عن أبى سفيان عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فى الناس فاقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة يجىء أحدهم فيقول مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا فيقول ابليس لا والله ماصنعت شيأ ويجىء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول نعم أنت وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل الى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك من الاسباب المقتضية للفرقة والمراد عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة وتثنى كل منهما ولا يجمعان والله أعلم وقوله تعالى وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله قال سفيان الثورى الا بقضاء الله وقال محمد بن اسحق الا بتخلية الله بينه وبين ما أراد وقال الحسن البصرى وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله قال نعم من شاء الله سلطهم عليه ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون من أحد الا باذن الله كما قال الله تعالى وفى رواية عن الحسن انه قال لا يضر هذا السحر الا من دخل فيه وقوله تعالى ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم أى يضرهم فى دينهم وليس له نفع يوازى ضرره ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق أى ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك انه ماله فى الآخرة من خلاق قال ابن عباس ومجاهد والسدى من نصيب وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ماله فى الآخرة من جهة عند الله وقال عبد الرزاق وقال الحسن ليس له دين وقال سعد عن قتادة ماله فى الآخرة من خلاق قال ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله اليهم ان الساحر لا خلاق له فى الآخرة وقوله تعالى ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا المثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون يقول تعالى ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضا عن الايمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به ولو أنهم آمنوا واتقوا المثوبة من عند الله خير أى ولو انهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيرا لهم مما استحاروا لانفسهم

فقال الجمهور لليلتين وقيل لثلاث ثم يكون قمرا وقال أبو الهيثم لليلتين من أول الشهر ولليلتين من آخره وما بينهما قمر (قل هى مواقيت) الذى قرره أبو السعود والخازن ان الجواب مطابق للسؤال وفى الآية بيان وجه الحكمة فى زيادة الهلال ونقصانه وان ذلك لاجل بيان المواقيت التى يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والاجارات والأيمان وغير ذلك ومثله قوله تعالى ولتعلموا عدد السنين والحساب وقيل هو جواب بغير ما سأل عنه تنبيها على أن الاولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب لا عن سبب الاختلاف فهو من قبيل المغيبات التى لا غرض للمكلف فى معرفتها ولا يليق أن تبين له والمواقيت جمع الميقات وهو الوقت والفرق بين الوقت وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها الى منتهاها والزمان مدة منقسمة الى الماضى والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لامر وكل ما جاء فى القرآن من السؤال أجيب عنه بقل بالفاء الا فى طه ويسئلونك عن الجبال فقل لان الجواب فى الجميع كان بعد وقوع السؤال وفى طه كان قبله اذ تقديره ان سئلت عن الجبال فقل (للناس) أى لاغراضهم الدنيوية والدينية كما أشار الى ذلك بتعداد الامثلة اذ الاهلة ليست مواقيت لذوات الناس (والحج) عطف على الناس أى يعلم بها وقته فلو استمرت على حالة لم يعرف ذلك قال سيبويه الحج بالفتح كالرد والشد وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى وقيل بالفتح مصدر وبالكسر الاسم وانما أفرد سبحانه الحج بالذكر لانه مما يحتاج فيه الى معرفة الوقت ولا يجوز فيه النسىء عن وقته ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه أو أخطأ وقتها أو وقت بعضها وقد جعل بعض علماء المعانى هذا الجواب أعنى قوله قل هى مواقيت الخ من الاسلوب الحكيم كما تقدم وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب تنبيها على أنه الاولى بالقصد ووجه ذلك انهم سألوا عن أجرام الاهلة باعتبار زيادتها ونقصانها فاجيبوا بالحكمة التى كانت تلك الزيادة والنقصان لاجلها لكون ذلك أولى بان يقصده السائل وأحق بان يتطلع لعلمه (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) وجه اتصال هذا بالسؤال عن الاهلة والجواب بأنها مواقيت للناس والحج أن الانصار كانوا اذا حجوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم اذا رجع أحدهم الى بيته بعد احرامه قبل تمام حجه لانهم يعتقدون ان المحرم لا يجوز أن يحول بينه

ورضوانه كما قال تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون وقد استدل بقوله ولولا انهم آمنوا واتقوا من ذهب الى تكفير الساحر كما هو رواية عن الامام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف وقيل بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه لما رواه الشافعي واحمد بن حنبل قالا اخبرنا سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار انه سمع بجالة بن عبدة يقول كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان اقتلوا كل ساحر وساحرة قال ففقتلنا ثلاث سواحر وقد اخرجه البخاري في صحيحه ايضا وهكذا صح ان حفصة ام المؤمنين (٢٤٨) سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت قال الامام احمد بن حنبل صح عن ثلاثة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قتل الساحر وروى الترمذي من حديث اسمعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب الازدي انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حد الساحر ضربه بالسيف ثم قال لا نعرفه مرفوعا الا من هذا الوجه واسمعيل بن مسلم يضعف في الحديث والصحيح عن الحسن عن جندب موقوفا قلت قد رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعا والله اعلم وقد روي من طرق متعددة ان الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد اليه رأسه فقال الناس سبحان الله يحيي الموتى ورآه رجل من صالحي المهاجرين فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال ان كان صادقا فليحي نفسه وتلا قوله تعالى أفتأتون السحر وأنتم تبصرون فغضب الوليد اذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه والله اعلم وقال الامام ابو بكر الخلال اخبرنا عبد الله بن احمد بن حنبل حدثني ابي اخبرنا يحيى بن سعيد حدثني ابو اسحق عن حارثة قال كان حيث عند بعض الامراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملا على سيفه فقتله قال أراه كان ساحرا وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركا والله اعلم *(فصل)* حكى ابو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة انهم انكروا وجود السحر قال وربما كفروا من اعتقد وجوده قال وأما اهل السنة فقد جوزوا ان يقدر الساحر ان يطير في الهواء ويقلب الانسان حمارا والحمار انسانا الا انهم قالوا ان الله يخلق الاشياء عند ما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا

وبين السماء حائل فكانوا يتسنمون ظهور بيوتهم وقد ورد هذا المعنى عن جماعة من الصحابة والتابعين وقال أبو عبيدة ان هذا من ضرب المثل والمعنى ليس البر أن تسألوا الجهال ولكن البر التقوى واسألوا العلماء كما تقول أتيت الامر من بابه وقيل هو مثل في جماع النساء وانهم أمروا باتيانهن في القبل لا في الدبر وقيل غير ذلك والبيوت جمع بيت وقرئ بضم الباء وكسرها (واتقوا الله لعلكم تفلحون) قد تقدم تفسير التقوى والفلاح (وقاتلوا في سبيل الله) لا خلاف بين أهل العلم ان القتال كان ممنوعا قبل الهجرة لقوله فاعف عنهم واصفح وقوله واهجرهم هجرا جميلا وقوله لست عليهم بمصيطر وقوله ادفع بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما نزل بمكة فلما هاجر الى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال ونزلت هذه الآية قال أبو العالية انها أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة وقيل أول ما نزل قوله تعالى أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا حتى نزل قوله تعالى اقتلوا المشركين وقوله تعالى وقاتلوا المشركين كافة قيل انه نسخ بها سبعون آية والمعنى قاتلوا في طاعة الله وطلب رضوانه عن موسى الاشعري قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (الذين يقاتلونكم) قال جماعة من السلف المراد بهذا من عدا النساء والصبيان والشيوخ والزمنى والرهبان والمجانين والمكافيف ونحوهم وجعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة (ولا تعتدوا) المراد بالاعتداء عند أهل القول الاول هو مقاتلة من لم يقاتل من الطوائف الكفرية والمراد به على القول الثاني مجاوزة قتل من يستحق القتل الى قتل من لا يستحقه ممن تقدم ذكره قال ابن عباس أي لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير ولا من ألقى السلم وكف يده فان فعلتم فقد اعتديتم وقال عمر بن عبد العزيز ان هذه الآية في النساء والذرية (ان الله لا يحب المعتدين) أي لا يريدهم الخير عن بريدة قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ولا تعتدوا أخرجه مسلم (واقتلوهم

خلافا للفلاسفة والمنجمين والصابئة ثم استدل على وقوع السحر وانه بخلق الله تعالى بقوله تعالى وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ومن الاخبار بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر وان السحر عمل فيه وبقصة تلك المرأة مع عائشة رضى الله عنها وما ذكرت تلك المرأة من اتيانها بابل وتعلمها السحر قال وبما يذكر فى هذا الباب من الحكايات الكثيرة ثم قال بعد هذا المسئلة الخامسة فى أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظورا تفق المحققون على ذلك لان العلم الدينى شريف وأيضا العمومات قوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ولان السحر لو لم يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة والعلم بكون المعجزة معجزا واجب وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبا وما يكون واجبا فكيف يكون حراما وقبيحا هذا لفظه بحروفه فى هذه المسئلة وهذا الكلام فيه نظر من وجوه أحدها قوله العلم بالسحر ليس بقبيح ان عنى به ليس بقبيح عقلا فخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا وان عنى انه ليس بقبيح شرعا ففى هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر وفى الصحيح من أتى عرافا أو كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد وفى السنن من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر وقوله ولا محظورا تفق المحققون على ذلك كيف لا يكون محظورا مع ما ذكرناه من الآية والحديث واتفاق المحققين يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسئلة أئمة العلماء أو أكثرهم وأين نصوصهم على ذلك ثم ادخاله علم السحر فى عموم قوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فيه نظر لان هذه الآية انما دلت على مدح العالمين العلم الشرعى ولم قلت

حيث ثقفتموهم) يقال ثقف يثقف ثقفا ورجل ثقيف اذا كان محكما لما يتناوله من الامور قال فى الكشاف والثقف وجود على وجه الاخذ والغلبة ومنه رجل ثقف سريع الاخذ لاقرانه انتهى قال أبو السعود أصل الثقف الحذق فى ادراك الشئ علما أو عملا وفيه معنى الغلبة قال ابن جرير الخطاب للمهاجرين والضمير لكفار قريش انتهى والمعنى واقتلوهم حيث وجدتموهم وأدركتموهم فى الحل والحرم وان لم يتدؤكم وتحقيق القول فيه أن الله تعالى أمر بالجهاد فى الآية الاولى بشرط اقدام الكفار على القتال وفى هذه الآية أمرهم بالجهاد معهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا واستثنى منه المقاتلة عند المسجد الحرام (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى اخرجوهم من مكة وقد امتثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر ربه فاخرج من مكة من لم يسلم عند أن فتحها الله عليه (والفتنة أشد من القتل) أى الفتنة التى أرادوا ان يفتنوكم بها وهى رجوعكم الى الكفر أشد من القتل وقيل المراد بالفتنة المحنة التى تنزل بالانسان فى نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه وقيل المراد بالفتنة الشرك الذى عليه المشركون لانهم كانوا يستعظمون القتل فى الحرم فاخبرهم الله ان الشرك الذى هم عليه أشد مما يستعظمونه وقيل المراد فتنتهم اياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم اياهم فى الحرم أو من قتلهم اياكم ان قتلوكم والظاهر ان المراد الفتنة فى الدين بأى سبب كان وعلى أى صورة اتفق فانها أشد من القتل لانه يؤدى الى الخلود فى النار والقتل ليس كذلك ولذا جعل أشد منه (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) اختلف أهل العلم فى ذلك فذهبت طائفة الى أنها محكمة وأنه لا يجوز القتال فى الحرم الا بعد ان يتعدى متعد بالقتال فيه فانه يجوز دفعه بالمقاتلة له وهذا هو الحق وقالت طائفة ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ويجاب عن هذا الاستدلال بان الجمع ممكن هنا ببناء العام على الخاص فيقتل المشرك حيث وجد الا بالحرم ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم انها لم تحل لاحد قبلى وانها أحلت لى ساعة من نهار وهو فى الصحيح وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله صلى الله عليه وآله وسلم لابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ويجاب عنه بانه وقع فى تلك الساعة التى أحل الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم (فان قاتلوكم) أى فى المسجد الحرام هذا مفهوم الغاية (فاقتلوهم) أى فقاتلوهم (كذلك) أى

ان هذا منه ثم ترقيه الى وجوب تعلمه بانه لا يحصل العلم بالمعجز الا به ضعيف بل فاسد لان أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هى القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ثم ان العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلا ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه والله أعلم ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازى أنواع السحر ثمانية الاول سحر الكذابين والكشدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهى السيارة وكانوا يعتقدون انها

مدبرة العالم وانها تاتى بالخير والشر وهم الذين بعث الله اليهم ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم مبطلا لمقالتهم وراداً لمذهبهم وقد استقصى فى كتاب السر المكتوم فى مخاطبة الشمس والنجوم المنسوب اليه كما ذكره القاضى ابن خلكان وغيره ويقال انه تاب منه وقيل بل صنفه على وجه اظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد وهذا هو المظنون به الا أنه ذكر فيه طريقهم فى مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه وما يتنسكون به قال والنوع الثانى سحر أصحاب الاوهام والنفوس القوية ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الانسان (٢٥٠) يمكنه أن يمشى على الجسر الموضوع على وجه الارض ولا يمكنه المشى عليه اذا كان ممدودا على نهر أو نحوه قال وكما أجمعت الاطباء على نهى المرعوف عن النظر الى الاشياء الحمر والمصروع الى الاشياء القوية اللمعان أو الدوران وما ذاك الا لان النفوس خلقت منطبعة للاوهام قال وقد اتفق العقلاء على أن الاصابة بالعين حق وله أن يستدل على ذلك بما ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين قال فاذا عرفت هذا فنقول النفس التى تفعل هذه الافاعيل قد تكون قوية جدا فتستغنى فى هذه الافاعيل عن الاستعانة بالآلات والادوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج الى الاستعانة بهذه الآلات وتحقيقه ان النفس اذا كانت مشغولة عن البدن شديدة الانجذاب الى عالم السموات صارت كانها روح من الارواح السماوية فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم واذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تاثير البتة الا فى هذا البدن ثم أرشد الى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء والانقطاع عن الناس والرياء (قلت) وهذا الذى يشير اليه هو التصرف بالحال وهو على قسمين تارة تكون حالا صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ويترك ما نهى الله تعالى عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم فهذه الاحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الامة ولا يسمى هذا سحرا فى الشرع وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا يتصرف بها فى ذلك فهذه حال الاشقياء المخالفين للشريعة ولا يدل اعطاء الله اياهم هذه الاحوال على محبته لهم كما أن الدجال له من الخوارق للعادات

القتل والاخراج (جزاء الكافرين) مطلقا بان يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم فثبت بهذا تحريم القتال فى الحرم الا أن يقاتلوا فيقاتلوا ولو يكون دفعا لهم (فان انتهوا) عن قتالكم وعن الكفر ودخلوا فى الاسلام (فان الله غفور) لما سلف (رحيم) بعباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة (وقاتلوهم) فيه الامر بمقاتلة المشركين ولو فى الحرم وان لم يبتدؤكم بالقتال فيه وهذا هو الذى استقر عليه الحكم الآن (حتى) أى الى غاية هى ان (لا تكون فتنة ويكون الدين لله) وهو الدخول فى الاسلام والخروج عن سائر الاديان المخالفة له فمن دخل فى الاسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله قيل المراد بالفتنة هنا الشرك والظاهر انها الفتنة فى الدين على عمومها كما سلف (فان انتهوا) يعنى عن القتال وقيل عن الشرك والكفر (فلا عدوان الا على الظالمين) أى لا تظلموا الا الظالمين أى لا تعتدوا الا على من ظلم وهو من لم ينته عن الفتنة ولم يدخل فى الاسلام وانما سمى جزاء الظالمين عدوانا مشاكلة كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقوله فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه وسمى الكافر ظالما لما وضعه العبادة فى غير موضعها والنفى هنا بمعنى النهى لئلا يلزم الخلف فى خبره تعالى والعرب اذا بالغت فى النهى عن الشئ أبرزته فى صورة النفى المحض اشارة الى أنه ينبغى ان لا يوجد البتة فدلوا على هذا المعنى بما ذكرت لك وعكسه فى الاثبات اذا بالغوا فى الامر بالشئ أبرزوه فى صورة الخبر نحو والوالدات يرضعن وسيأتى (الشهر الحرام) هو ذو القعدة من السنة السابعة (بالشهر الحرام) هو ذو القعدة من السنة السادسة وهذا فى المعنى تعليل لقوله واقتلوهم حيث ثقفتموهم أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال لما سار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معتمرا فى سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول الى البيت وصدوه ومن معه من المسلمين فى ذى القعدة وهو شهر حرام فاضاهم على الدخول من قابل فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين وأقصه الله منهم نزلت فى ذلك هذه الآية وروى نحوه عن أبى العالية ومجاهد وقتادة وابن جريج والمعنى اذا قاتلوكم فى الشهر الحرام وهتكوا حرمته قاتلوهم فى الشهر الحرام مكافأة لهم وجزاة على فعلهم وهذا صريح فى أنه قد وقع منهم مقاتلة فى عام الحديبية وهو كذلك فقد وقع قتال خفيف بالرمى بالسهام والحجارة (والحرمات) جمع حرمة كالظلمات جمع ظلمة وانما جمع الحرمات لانه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الاحرام

مادلت عليه الاحاديث الكثيرة مع انه مذموم شرعا لعنه الله وكذلك من شابهه من مخالفي الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وبسط هذا يطول جدا وليس هذا موضعه قال والنوع الثالث من السحر الاستعانة بالارواح الارضية وهم الجن خلافا للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين مؤمنون وكفار وهم الشياطين قال واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالارواح السماوية لما بينهما من المناسبة والقرب ثم ان أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الارواح الارضية يحصل باعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد وهذا النوع هو المسمى السحر بالعزائم وعمل التسخير النوع الرابع من من السحر التخييلات والاخذ بالعيون والشعبذة ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشئ المعين دون غيره ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شئ يذهل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم اليه حتى اذا استغرقهم الشغل بذلك الشئ بالتحديق ونحوه عمل شيأ آخر عملا بسرعة شديدة وحينئذ يظهر لهم شئ آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدا ولو انه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر الى ضد ما يريد أن يعمله ولم تتحرك النفوس والاوهام الى غير ما يريد اخراجه لفطن الناظرون لكل حال وكلما كانت الاحوال تفيد حسن البصر نوعا من أنواع الخلل أشد كان العمل أحسن مثل أن يحبس المشعبذ في موضع مضئ جدا أو مظلم فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه (قلت) وقد قال بعض المفسرين ان سحر السحرة بين يدى فرعون انما كان من باب الشعبذة ولهذا قال تعالى فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم وقال تعالى يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى قالوا ولم تكن تسعى في نفس الامر والله أعلم النوع الخامس من السحر الاعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية كفارس على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد ومنها الصور التي تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الانسان حتى يصورونها ضاحكة وباكية الى أن قال فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل قال وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل (قلت) يعني ما قاله بعض المفسرين انهم عمدوا الى تلك الحبال والعصى فحشوها زئبقا

الاحرام والحرمة ما منع الشرع انتهاكه (قصاص) أي المساواة والمماثلة والمعنى ان كل حرمة يجرى فيها القصاص فمن هتك حرمة عليكم فلكم ان تهتكوا حرمة عليه قصاصا ولا تتعالوا به قيل وهذا كان في أول الاسلام ثم نسخ بالقتال وقيل انه ثابت بين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم ينسخ فيجوز لمن تعدى عليه في مال أو بدن أن يتعدى بمثل ما تعدى عليه وبهذا قال الشافعي وغيره وقال آخرون ان أمور القصاص مقصورة على الحكام وهكذا الاموال لقوله صلى الله عليه وآله وسلم ادّ الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك أخرجه الدارقطني وغيره وبه قال أبو حنيفة وجمهور المالكية وعطاء الخراساني والقول الاول أرجح وبه قال ابن المنذر واختاره ابن العربي والقرطبي وحكاه الداودي عن مالك ويؤيده اذنه صلى الله عليه وآله وسلم لامرأة أبي سفيان ان تأخذ من ماله ما يكفيها وولدها وهو في الصحيح ولا أصرح واوضح من قوله تعالى في هذه الآية (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وهذه الجملة في حكم التأكيد للجملة الاولى أعني قوله والحرمات قصاص وانما سمي المكافآت اعتداء مشاكلة كما تقدم وعن ابن عباس في هذه الآية وفي قوله وجزاء سيئة الآية وقوله ولمن انتصر بعد ظلمه الآية وقوله وان عاقبتم الآية قال هذا ونحوه نزل بمكة والمسلمون يومئذ قليل ليس لهم سلطان يقهر المشركين فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والاذى فأمر الله المسلمين من يتجار أمنهم أن يتجار أ بمثل ما أوتي اليه أو يصبر أو يعفو فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة وأعز الله سلطانه أمر المسلمين ان ينتهوا في مظالمهم الى سلطانهم ولا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية فقال ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا الآية يقول ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه ومن انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاص مسرف قد عمل بحمية الجاهلية ولم يرض بحكم الله انتهى وأقول هذه الآية التي جعلها ابن عباس ناسخة مؤيدة لما تدل عليه الآيات التي جعلها منسوخة ومؤكدة له فان الظاهر من قوله فقد جعلنا لوليه سلطانا أنه جعل السلطان له أي جعل له تسلطا يتسلط به على القاتل ولهذا قال فلا يسرف في القتل ثم لو سلمنا ان معنى الآية كما قاله لكان ذلك مخصصا للقتل من عموم الآيات المذكورة لا ناسخا له فانه لم ينص في هذه الآية الا على القتل وحده وتلك الآيات شاملة له ولغيره وهذا معلوم من لغة العرب التي هي

فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق فيخيل الى الرائى انها تسعى باختيارها قال الرازى ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ويندرج فى هذا الباب علم جر الاثقال بالآلات الخفيفة قال وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر لان لها أسبابا معلومة يقينية من اطلع عليها اقدر عليها (قلت) ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم بما يرونهم اياه من الانوار كقضية قيامة الكنيسة التى لهم ببلد المقدس وما يحتالون به من ادخال النار خفية الى الكنيسة واشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم وأما الخواص فهم معترفون بذلك ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغا لهم وفيهم شبهة للجهلة الاغبياء من متعبدى الكرامية الذين يرون جواز وضع الاحاديث فى الترغيب والترهيب فيدخلون فى عداد من قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار وقوله حدثوا عنى ولا تكذبوا علىّ فانه من يكذب علىّ يلج النار ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان وهو أنه سمع صوت طائر حنين الصوت ضعيف الحركة فاذا سمعته الطيور ترق له فتذهب فتلقى فى وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به فعمد هذا الراهب الى صنعة طائر على شكله ويتوصل الى أن جعله أجوف فاذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر وانقطع فى صومعة ابتناها وزعم انها على قبر بعض صالحيهم وعلق ذلك الطائر فى مكان منها فاذا كان زمان الزيتون فتح بابا من ناحيته فيدخل الريح الى داخل هذه الصورة فيسمع صوتها كل طائر فى شكله أيضا فتاتى الطيور فتحمل من الزيتون شيأ كثيرا فلا ترى النصارى الا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة ولا يدرون ما سببه ففتنهم بذلك وأوهم ان هذا من كرامات صاحب هذا القبر عليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة قال الرازى النوع السادس من السحر الاستعانة بخواص الادوية يعنى فى الاطعمة والدهانات قال واعلم انه لا سبيل الى انكار الخواص فان تأثير المغناطيس مشاهد (قلت) يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص مدعيا انها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات الى غير ذلك من المحالات قال النوع السابع من السحر التعليق للقلب وهو أن يدعى الساحر انه عرف الاسم الاعظم وان الجن يطيعونه

المرجع فى تفسير كلام الله سبحانه ولما أباح لهم الاقتصاص بالمثل وشأن النفس حب المبالغة فى الانتقام من العدو حذرهم من ذلك فقال (واتقوا الله) أى فى حال كونكم منتصرين لانفسكم ممن اعتدى عليكم فلا تعتدوا الى ما لا يحل لكم (واعلموا ان الله مع المتقين) بالنصر والعون (وأنفقوا فى سبيل الله) فى هذه الآية الامر بالانفاق فى سبيل الله وهو الجهاد بالمال واللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل الله والانفاق هو صرف المال فى وجوه المصالح الدينية كالانفاق فى الحج والعمرة وصلة الرحم والصدقة وتجهيز الغزاة وعلى النفس والعيال وغير ذلك مما فيه قربة لله تعالى لان كل ذلك يصدق عليه أنه فى سبيل الله ولكن اطلاق هذا اللفظ ينصرف الى الجهاد عن خزيم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف أخرجه الترمذى والنسائى (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) الباء زائدة ومثله لم يعلم بأن الله يرى وقال المبرد أى بانفسكم تعبيرا بالبعض عن الكل كقوله بما كسبت أيديكم وقيل هذا مثل مضروب يقال فلان ألقى بيده فى أمر كذا اذا استسلم لان المستسلم فى القتال يلقى سلاحه بيديه فكذلك فعل كل عاجز فى أى فعل كان وقال قوم التقدير ولا تلقوا أنفسكم بايديكم وعبر بالايدى عن الانفس لان بها البطش والحركة والتهلكة مصدر من هلك يهلك هلا كا وهلكا وتهلكة أى لا تأخذوا فيما يهلككم قال اليزيدى التهلكة من نوادر المصادر ليست مما يجرى على القياس وللسلف فى معنى الآية أقوال قال حذيفة نزلت فى النفقة أى تركها فى سبيل الله مخافة العيلة وروى نحوه عن ابن عباس وعكرمة والحسن وقال الحسن هو البخل وقال زيد بن أسلم هو أن يهلك الرجل من الجوع والعطش ومن المشى فى البعث وقال أبو أيوب كانت التهلكة الاقامة فى الاموال واصلاحها وترك الغزو وقال البراء بن عازب هو الرجل يذنب الذنب فيلقى بيديه فيقول لا يغفر الله لى أبدا وروى عن النعمان بن بشير نحوه وقيل انه القنوط وقيل عذاب الله وقيل غير ذلك والحق ان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فكل ما يصدق عليه أنه تهلكة فى الدين أو الدنيا فهو داخل فى هذا وبه قال ابن جرير الطبرى ومن جملة ما يدخل تحت الآية ان يقتحم الرجل فى الحرب فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص وعدم تأثيره لاثر ينفع المجاهدين ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية

ويقادون له فى اكثر الامور فاذا اتفق ان يكون السامع لذلك ضعيف القلب قليل التميز اعتقد انه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل فى نفسه نوع من الرهب والمخافة فاذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء (قلت) هذا النمط يقال له التنبله وانما يروج على الضعفاء العقول من بنى آدم وفى علم الفراسة ما يرشد الى معرفة كامل العقل من ناقصه فاذا كان النبيل حاذقا فى علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره قال النوع الثامن من السحر السعى بالنميمة والتقريب من وجوه خفية لطيفة وذلك شائع فى الناس (قلت) النميمة على قسمين تارة (٢٥٣) تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه فاما ان كانت على وجه الاصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء فى الحديث ليس بالكذاب من ينم خيرا أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب كما جاء فى الحديث الحرب خدعة وكما فعل نعيم بن مسعود فى تفريقه بين كلمة الاحزاب وبين قريظة وجاء الى هؤلاء فنمى اليهم عن هؤلاء كلاما ونقل من هؤلاء الى أولئك شيأ آخر ثم لائم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت وانما يحذو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة وبالله المستعان ثم قال الرازى فهذه جملة الكلام فى أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه (قلت) وانما أدخل كثيرا من هذه الانواع المذكورة فى فن السحر للطافة مداركها الان السحر فى اللغة عبارة عما لطف وخفى سببه ولهذا جاء فى الحديث ان من البيان لسحرا وسمى السحور لكونه يقع خفيا آخر الليل والسحر الرئة وهى محل الغذاء وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها الى أجزاء البدن وغضونه كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة انتفخ سحره أى انتفخت رئته من الخوف وقالت عائشة رضى الله عنها توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحرى ونحرى وقال تعالى سحروا أعين الناس أى أخفوا عنهم علمهم والله أعلم وقال أبو عبد الله القرطبى وعندنا ان السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافا للمعتزلة وأبى اسحق الاسفرايينى من الشافعية حيث قالوا انه تمويه وتخييل قال ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذى البريد لخفة سيره قال ابن فارس وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية قال القرطبى ومنه ما يكون كلاما يتكلم

الآية انكار من أنكره من الذين رووا السبب فانهم ظنوا ان الآية لا تجاوز سببها وهو ظن تدفعه لغة العرب (وأحسنوا) أى فى الانفاق فى الطاعة أو الظن بالله فى اخلافه عليكم وقال رجل من الصحابة معناه أدوا الفرائض وقيل لا تقتروا ولا تسرفوا (ان الله يحب المحسنين) المنفقين فى سبيله الظانين به حسنا (وأتموا الحج والعمرة لله) اختلف العلماء فى المعنى المراد باتمام الحج والعمرة فقيل أداؤهما والاتيان بهما من دون أن يشوبهما بشئ مما هو محظور ولا يخل بشرط ولا فرض كقوله تعالى فاتمهن وقوله ثم أتموا الصيام الى الليل وقال سفيان الثورى اتمامهما ان يخرج لهما لا لغيرهما وقيل اتمامهما ان يفرد كل واحد منهما من غير تمتع ولا قران وبه قال ابن حبيب وقال مقاتل اتمامهما ان لا يستحلوا فيهما ما لا ينبغى لهم وقيل اتمامهما ان يحرم لهما من دويرة أهله وقيل ان ينفق فى سفرهما الحلال الطيب وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الدلائل وابن عبد البر فى التمهيد عن يعلى بن أمية قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالجعرانة وعليه جبة وعليه أثر خلوق فقال كيف تأمرنى يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان أصنع فى عمرتى فأنزل الله وأتموا الحج والعمرة لله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أين السائل عن العمرة فقال ها أنا ذا قال اخلع الجبة واغسل عنك أثر الخلوق ثم ما كنت صانعا فى حجك فاصنعه فى عمرتك وقد أخرجه الشيخان وغيرهما من حديثه ولكن فيهما انه أنزل عليه بعد السؤال ولم يذكرا ما الذى أنزل عليه وقال ابن عباس تمام الحج يوم النحر اذا رمى جمرة العقبة وزار البيت فقد حل وتمام العمرة اذا طاف بالبيت وبالصفا وبالمروة فقد حل وقد ورد فى فضل الحج والعمرة أحاديث كثيرة ليس هذا موطن ذكرها وقد اتفقت الامة على وجوب الحج على من استطاع اليه سبيلا واستدل بهذه الآية على وجوب العمرة لان الامر باتمامها أمر بها وبذلك قال على وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبى وسعيد بن جبير ومسروق وعبد الله بن شداد والشافعى وأحمد واسحق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكية وقال مالك والنخعى وأصحاب الرأى كما حكاه ابن المنذر عنهم انها سنة وحكى عن أبى حنيفة انه يقول بالوجوب ومن القائلين بانها سنة ابن مسعود وجابر بن عبد الله ومن جملة ما استدل به الاولون ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيح انه قال لاصحابه من كان معه هدى فليهل بحج

ورقى من اسماء الله تعالى وقد يكون من عبيد الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك قال وقوله عليه السلام ان من البيان لسحرا يحتمل ان يكون مدحا كما تقوله طائفة ويحتمل ان يكون ذما للبلاغة قال وهذا أصح قال لانها تصوب الباطل حتى توهم السامع انه حق كما قال عليه الصلاة والسلام فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فاقضى له الحديث *(فصل)* وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة رحمه الله فى كتابه الاشراف على مذاهب الاشراف بابا فى السحر فقال أجمعوا على ان السحر له حقيقة الا أبا حنيفة فانه قال لا حقيقة له عنده واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يكفر بذلك ومن أصحاب أبى حنيفة من قال ان تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ومن تعلمه معتقدا جوازه أو انه ينفعه كفر وكذا من اعتقد ان الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر وقال الشافعى رحمه الله اذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك فان وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب الى الكواكب السبعة وانها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر وان كان لا يوجب الكفر فان اعتقد اباحته فهو كافر قال ابن هبيرة وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله فقال مالك وأحمد نعم وقال الشافعى وأبو حنيفة لا فأما ان قتل بسحره انسانا فانه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد وقال أبو حنيفة لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك او يقر بذلك فى حق شخص معين واذا قتل فانه يقتل حدا عندهم الا الشافعى فانه قال يقتل والحالة هذه قصاصا قال وهل اذا تاب الساحر تقبل توبته فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهم لا تقبل وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الاخرى تقبل وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة انه يقتل كما يقتل الساحر المسلم وقال مالك وأحمد او الشافعى لا يقتل يعنى لقصة لبيد بن الأعصم واختلفوا فى المسلمة الساحرة فعند أبى حنيفة انها لا تقتل ولكن تحبس وقال الثلاثة حكمها حكم الرجل والله أعلم وقال أبو بكر الخلال أخبرنا أبو بكر المروزى قال قرأ على أبى عبد الله يعنى أحمد بن حنبل عمر بن هرون أخبرنا يونس عن الزهرى قال يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين لان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها وقد نقل القرطبى عن مالك رحمه الله انه قال فى الذمى يقتل ان قتل سحره وحكى ابن خويز منداد عن مالك

وعمرة وثبت عنه أيضا فى الصحيح انه قال دخلت العمرة فى الحج الى يوم القيامة وأخرج الدارقطنى والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بايهما بدأت واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعى فى الام وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن أبى صالح الحنفى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحج جهاد والعمرة تطوع وأخرج ابن ماجه عن طلحة بن عبيد الله مرفوعا مثله وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وصححه عن جابر أن رجلا سال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن العمرة أواجبة هى قال لا وأن تعتمروا خير لكم وأجابوا عن الآية والاحاديث المصرحة بانها فريضة بحمل ذلك على انه قد وقع الدخول فيها وهى بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف وهذا وان كان فيه بعد لكنه يجب المصير اليه جمعا بين الادلة ولا سيما بعد تصريح محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما تقدم فى حديث جابر من عدم الوجوب وعلى هذا يحمل ما ورد مما فيه دلالة على وجوبها كما أخرجه الشافعى فى الام ان فى الكتاب الذى كتبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو بن حزم ان العمرة هى الحج الاصغر ولحديث ابن عمر عند البيهقى فى الشعب قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال أوصنى فقال تعبد الله ولا تشرك به شيأ وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج وتعتمر وتسمع وتطيع وعليك بالعلانية وايالك والسر وهكذا ينبغى حمل ما ورد من الاحاديث التى قرن فيها بين الحج والعمرة فى أنهما من أفضل الاعمال وانهما كفارة لما بينهما وانهما يهدمان ما كان قبلهما ونحو ذلك وأركان الحج خمسة الاحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعى والحلق أو التقصير وأركان العمرة أربعة الاحرام والطواف والسعى والحلق والتقصير وبهذه الاركان تمام الحج والعمرة

(فان أحصر) أصل الحصر فى اللغة الحبس والتضييق قال أبو عبيدة والكسائى والخليل انه يقال أحصر بالمرض وحصر بالعدو وفى المجمل لابن فارس العكس ورجح الاول ابن العربى قال وهو رأى أكثر أهل اللغة وقال الزجاج انه كذلك عند جميع أهل اللغة وقال الفراء هما بمعنى واحد فى المرض والعدو ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيبانى فقال حصرنى الشئ وأحصرنى أى حبسنى وبسبب هذا الاختلاف بين اهل اللغة اختلف أئمة الفقه فى معنى الآية فقالت الحنفية المحصر من يصير ممنوعا من مكة بعد الاحرام بمرض

روايتين فى الذمى اذا سحر احداهما انه يستتاب فان أسلم والا قتل والثانية انه يقتل وان أسلم وأما الساحر المسلم فان تضمن سحره كفرا كفر عند الائمة الاربعة وغيرهم لقوله تعالى وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر لكن قال مالك اذا ظهر عليه لم تقبل توبته لانه كالزنديق فان تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائبا قبلناه فان قتل سحره قتل قال الشافعى فان قال لم أتعمد القتل فهو مخطئ تجب عليه الدية (مسئلة) وهل يسئل الساحر حلا لسحره فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخارى وقال عامر الشعبى لا باس بالنشرة وكره ذلك الحسن البصرى وفى الصحيح عن عائشة (٢٥٥) انها قالت يارسول الله هلا تنشرت فقال أما الله فقد شفانى وخشيت أن أفتح على الناس شرا وحكى القرطبى عن وهب انه قال يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسى ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فانه يذهب مابه وهو جيد للرجل الذى يؤخذ عن امرأته (قلت) أنفع ما يستعمل لاذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله فى اذهاب ذلك وهما المعوذتان وفى الحديث لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما وكذلك قراءة آية الكرسى فانها مطردة للشيطان (يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) نهى الله تعالى عباده المؤمنين ان يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم وذلك ان اليهود كانوا يعانون من الكلام مافيه تورية لما يقصدونه من التنقيص عليهم لعائن الله فاذا أرادوا ان يقولوا اسمع لنا يقولوا راعنا ويورون بالرعونة كما قال تعالى من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا وكذلك جاءت الاحاديث بالاخبار عنهم بانهم كانوا اذا سلموا انما يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بوعليكم وانما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا والغرض ان الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا فقال يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين

أو عدوا أو غيره وقالت الشافعية وأهل المدينة المراد بالآية حصر العدو وقد ذهب جمهور العلماء الى أن المحصر بعدو يحل حيث أحصر وينحر هديه ان كان ثم هدى ويحلق رأسه كما فعل النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو وأصحابه فى الحديبية (فما استيسر من الهدى) أى ان أحصرتم دون تمام الحج والعمرة فحللتم فالواجب أو فعليكم أو فانحروا أو فاهدوا ما تيسر يقال يسر الامر واستيسر كما يقال صعب واستصعب وليس السين للطلب والهدى والهدى لغتان وهما جمع هدية وهى ما يهدى الى البيت من بدنة أو غيرها ويقال فى جمع الهدى أهداء واختلف أهل العلم فى المراد بقوله فما استيسر فذهب الجمهور الى أنه شاة وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير جمل أو بقرة وقال الحسن أعلى الهدى بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة وهذا الدم دم ترتيب وتعديل كما أشار له ابن المقرئ (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله) هو خطاب لجميع الامة من غير فرق بين محصر وغير محصر والى هذا ذهب جمع من أهل العلم وذهبت طائفة الى أنه خطاب للمحصرين خاصة أى لا تحلوا من الاحرام حتى تعلموا أن الهدى الذى بعثتموه الى الحرم قد بلغ محله وهو الموضع الذى يحل فيه ذبحه واختلفوا فى تعيينه فقال مالك والشافعى هو موضع الحصر اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث أحصر فى عام الحديبية وقال أبو حنيفة هو الحرم لقوله تعالى ثم محلها الى البيت العتيق وأجيب عن ذلك بان المخاطب به هو الآمن الذى يمكنه الوصول الى البيت وأجاب الحنفية عن نحره صلى الله عليه وآله وسلم بالحديبية بأن طرف الحديبية الذى الى أسفل مكة هو من الحرم وردّ بأن المكان الذى وقع فيه النحر ليس هو من الحرم (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) المراد بالمرض هنا ما يصدق عليه مسمى المرض لغة والمراد بالاذى من الرأس ما فيه من قمل أو صداع أو جراح ونحو ذلك فمن حلق فعليه فدية وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك فثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى كعب بن عجرة وهو محرم وقمله يتساقط على وجهه فقال أيؤذيك هوام رأسك قال نعم فأمره ان يحلق ويطعم ستة مساكين أو يهدى شاة أو يصوم ثلاثة أيام وقد ذكر ابن عبد البر انه لا خلاف بين العلماء ان النسك هنا هو شاة وحكى عن الجمهور ان الصوم هنا ثلاثة أيام والاطعام لستة مساكين وروى عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا الصوم فى فدية

عذاب اليم وقال الامام احمد أخبرنا أبو النضر أخبرنا عبد الرحمن أخبرنا ثابت أخبرنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي
عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك
له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم وروى أبو داود عن عثمان
عن ابن ابي شيبة عن أبي النضر هاشم أخبرنا ابن القاسم به من تشبه بقوم فهو منهم ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد
على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم (٢٥٦) ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع

انا ولم نقرر عليها وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا نعيم بن حماد أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا مسعر عن ابن معن وعون أو احدهما ان رجلا أتى عبد الله ابن مسعود فقال اعهد الي فقال اذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك فانه خير يأمر به أو شر ينهى عنه وقال الاعمش عن خيثمة قال ما تقرؤن في القرآن يا أيها الذين آمنوا فانه في التوراة يا أيها المساكين وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس راعنا أي ارعنا سمعك وقال الضحاك عن ابن عباس يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا قال كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ارعنا سمعك وانما راعنا كقولك عاطنا وقال ابن أبي حاتم وروى عن أبي العالية وأبي مالك والربيع ابن أنس وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك وقال مجاهد لا تقولوا راعنا لا تقولوا خلافا وفي رواية لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك وقال عطاء لا تقولوا راعنا كانت لغة تقولها الانصار فنهى الله عنها وقال الحسن لا تقولوا راعنا قال الراعن من القول السخري منه نهاهم الله ان يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم ومايدعوهم اليه من الاسلام وكذا روى عن ابن جريج انه قال مثله وقال أبو صخر لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أدبرناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول ارعنا سمعك فاعظم الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقال ذلك له وقال السدي كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فاذا لقيه فكلمه قال ارعني سمعك واسمع غير مسمع وكان المسلمون يحسبون ان الانبياء كانت تفخم بهذا فكان ناس منهم

الاذى عشرة أيام والاطعام لعشرة مساكين والحديث الصحيح المتقدم يرد عليهم ويبطل قولهم وقد ذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وداود الى أن الاطعام في ذلك مدان بمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي لكل مسكين وقال الثوري نصف صاع من بر أو صاع من غيره وروى ذلك عن أبي حنيفة قال ابن المنذر وهذا غلط لان في بعض أخبار كعب ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له تصدق بثلاثة آصع من تمر على ستة مساكين واختلفت الرواية عن أحمد فروى عنه مثل قول مالك والشافعي وروى عنه أنه ان أطعم برا فمد لكل مسكين وان أطعم تمرا فنصف صاع واختلفوا في مكان هذه الفدية فقال عطاء ما كان من دم ففي مكة وما كان من طعام أو صيام فحيث شاء وبه قال أصحاب الرأي وقال طاوس والشافعي الاطعام والدم لا يكونان الا بمكة والصوم حيث شاء وقال مالك ومجاهد حيث شاء في الجميع وهو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان وهذا الدم دم تخيير وتقدير (فاذا أمنتم) أي برئتم من المرض وقيل من خوفكم من العدو على الخلاف السابق ولكن الامن من العدو أظهر من استعمال أمنهم في ذهاب المرض فيكون مقويا للقول من قال ان قوله فان أحصرتم المراد به الاحصار من العدو كما ان قوله فمن كان منكم مريضا يقوي قول من قال بذلك لافراد عذر المرض بالذكر وقد وقع الخلاف هل المخاطب بهذا هم المحصرون خاصة أم جميع الامة على حسب ما سلف (فمن تمتع بالعمرة الى الحج) يعني ان يحرم الرجل بعمرة ثم يقيم حلالا بمكة الى أن يحرم بالحج فقد استباح بذلك ما لا يحل للمحرم استباحته وهو معنى تمتع واستمتع ولا خلاف بين أهل العلم في جواز التمتع بل هو أفضل أنواع الحج عند أهل التحقيق (فما استيسر من الهدى) وهو شاة يذبحها يوم النحر فلو ذبحها قبله بعد ما أحرم بالحج أجزأه عند الشافعي ولا يجزئه ذبحه عند أبي حنيفة قبل يوم النحر وهذا الدم دم ترتيب وتقدير كما ذكره ابن المقرئ وقد اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أنواع من أنواع الدم الواجب في النسك وبقي الرابع يذكر في المائدة في قوله لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم الآية وهو دم تخيير وتعديل ويجب في شيئين صيد وشجر (فمن لم يجد) الهدى اما لعدم المال أو لعدم الحيوان (فصيام ثلاثة أيام في) أيام (الحج) وهي من عند شروعه في الاحرام الى يوم النحر ومع ذلك يجوز ذبحه قبل الاحرام به على القاعدة من أن كل حق مالي تعلق بسببين جاز تقديمه على ثانيهما وقيل يصوم قبل

يقولون اسمع غير مسمع غير صاغروهى كالتى فى سورة النساء فتقدم الله الى المؤمنين ان لا يقولوا راعنا وكذا قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بنحو من هذا قال ابن جرير والصواب من القول فى ذلك عندنا ان الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا لانها كلمة كرهها الله تعالى ان يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم نظير الذى ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ولا تقولوا عبدى ولكن قولوا فتاى وماأشبه ذلك وقوله تعالى ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم يبين بذلك (٢٥٧) تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذى شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم (ما ننسخ من آية أو ننسها نات بخير منها أو مثلها ألم تعلم ان الله على كل شئ قدير ألم تعلم ان الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما ما ننسخ من آية ما نبدل من آية وقال ابن جريج عن مجاهد ما ننسخ من آية أى ما نمحو من آية وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ما ننسخ من آية قال نثبت خطها ونبدل حكمها حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم وقال ابن أبى حاتم وروى عن أبى العالية ومحمد بن كعب القرظى نحو ذلك وقال الضحاك ما ننسخ من آية ما ننسك وقال عطاء أما ما ننسخ فما نترك من القرآن وقال ابن أبى

يوم التروية يوما ويوم التروية ويوم عرفة وقيل ما بين أن يحرم بالحج الى يوم عرفة وقيل يصومهن من أول عشر ذى الحجة وقيل مادام بمكة وقيل انه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم وقد جوز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدى ومنعه آخرون وبه قال الشافعى (وسبعة اذا رجعتم) أى الى الاوطان والاهل قال أحمد واسحق يجزئه الصوم فى الطريق ولا يتضيق عليه الوجوب الا اذا وصل وطنه وبه قال الشافعى وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وغيرهم وقال مالك اذا رجع من منى فلا بأس أن يصوم والاول أرجح وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن عمر انه قال صلى الله عليه وآله وسلم فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجع الى أهله فمبين صلى الله عليه وآله وسلم ان الرجوع المذكور فى الآية هو الرجوع الى الاهل وثبت أيضا فى الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ وسبعة اذا رجعتم الى أمصاركم وقيل اذا فرغتم من أعمال الحج وبه قال أبو حنيفة والاول أولى وفيه التفات عن الغيبة وانما قال سبحانه (تلك عشرة كاملة) مع ان كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة عشرة لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الايام فى الحج والسبعة اذا رجع قاله الزجاج وقال المبرد ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لئلا يتوهم متوهم أنه قد بقى منه شئ بعد ذكر السبعة وقيل هو توكيد كما تقول كتبت بيدى وقد كانت العرب تأتى بمثل هذه الفذلكة فما دون هذا العدد وقوله كاملة توكيد آخر بعد الفذلكة لزيادة التوصية بصيامها وأن لا ينقص من عددها والمعنى كاملة يعنى فى الثواب والاجر يعنى أن ثواب صيام العشرة كثواب الذبح لا ينقص عنه شيأ وقيل كاملة فى قيامها مقام الهدى (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) الاشارة قيل هى راجعة الى التمتع فيدل على انه لا متعة لحاضرى المسجد الحرام كما يقوله أبو حنيفة وأصحابه قالوا ومن تمتع منهم كان عليه دم وهو دم جناية لا يأكل منه وقيل انها راجعة الى الحكم وهو وجوب الهدى أو الصيام على من تمتع فلا يجب ذلك على من كان من حاضرى المسجد الحرام كما يقوله الشافعى ومن وافقه والمراد من لم يكن ساكنا فى الحرم أو من لم يكن ساكنا فى المواقيت فما دونها على الخلاف فى ذلك بين الائمة قال مالك هم أهل مكة وقال طاوس هم أهل الحرم وقال ابن جريج هم أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلة وقال الشافعى من كان وطنه من

حاتم يعنى ترك فلم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وقال السدى ما ننسخ من آية نسخها قبضها قال ابن أبى حاتم يعنى قبضها رفعها مثل قوله الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة وقوله لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا وقال ابن جرير ما ننسخ من آية ما ننقل من حكم آية الى غيره فنبدله ونغيره وذلك ان نحول الحلال حراما والحرام حلالا والمباح محظورا والمحظور مباحا ولا يكون ذلك الا فى الامر والنهى والحظر والاطلاق والمنع والاباحة فاما الاخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة اخرى الى غيرها فكذلك معنى نسخ الحكم الى غيره

انما هو تحويل ونقل عبارة الى غيرها وسواء نسخ حكمها أو خطها اذهى فى كلتا حالتيها منسوخة وأما علماء الاصول فاختلفت عباراتهم فى حد النسخ والامر فى ذلك قريب لان معنى النسخ الشرعى معلوم عند العلماء ولحظ بعضهم انه رفع الحكم بدليل شرعى متأخر فاندرج فى ذلك نسخ الاخف بالاثقل وعكسه والنسخ لا الى بدله وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فبسوطة فى أصول الفقه وقال الطبرانى أخبرنا أبو سنبل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد أخبرنا أبى أخبرنا العباس بن الفضل عن سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن (٢٥٨) أبيه قال قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انها مما نسخ وأنسى فالهوا عنها فكان الزهرى يقرؤها ما تنسخ من آية أو ننسها بضم النون الخفيفة سليمان بن الارقم ضعيف وقد روى أبو بكر بن الانبارى عن أبيه عن نصر بن داود عن أبى عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعا ذكره القرطبى وقوله تعالى أو ننسها فقرئ على وجهين ننسأها وننسها فاما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ما ننسخ من آية أو ننساها يقول ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود أو ننسأها نثبت خطها ونبدل حكمها وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء أو ننساها نؤخرها ونرجئها وقال عطية العوفى أو ننسأها نؤخرها فلا ننسخها وقال السدى مثله أيضا وكذا الربيع بن أنس وقال الضحاك ما ننسخ من آية أو ننسأها يعنى الناسخ من المنسوخ وقال أبو العالية ما ننسخ من آية أو ننسأها نؤخرها عندنا وقال ابن أبى حاتم أخبرنا عبيد الله بن اسمعيل البغدادى أخبرنا خلف أخبرنا الخفاف عن اسمعيل يعنى بن أسلم عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطبنا عمر رضى الله عنه فقال يقول الله عز وجل ما ننسخ من آية أو ننسأها أى نؤخرها وأما على قراءة أو ننسها فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله ما ننسخ من آية أو ننسها قال كان الله عز وجل ينسى نبيه صلى الله عليه وسلم ما يشاء

مكة على أقل من مسافة القصر وقال أبو حنيفة هم أهل الميقات والمواقيت ذو الحليفة والجحفة وقرن ويلملم وذات عرق وقيل من تلزمه الجمعة فيه قال السيوطى والاهل كناية عن النفس أى نفس المحرم أى ذلك المحرم لم يكن هو نفسه حاضر المسجد الحرام وهذا معنى ضعيف والاولى ما قاله غيره وحكى الرملى عن الطبرى ان المراد بالاهل الزوجة والاولاد الذين تحت حجره دون الآباء والاخوة (واتقوا الله) أى فيما فرض عليكم فى هذه الاحكام وقيل هو أمر بالتقوى على العموم وتحذير من شدة عقاب الله سبحانه (واعلموا أن الله) اظهار فى موضع الاضمار لتربية المهابة فى روع السامع (شديد العقاب) لمن خالف أمره وتهاون بحدوده وارتكب مناهيه وهو من باب اضافة الصفة المشبهة الى مرفوعها (الحج أشهر معلومات) أى وقت الحج أشهر أى وقت عمل الحج وقيل التقدير الحج فى أشهر وقيل غير ذلك وقد اختلف فى الاشهر المعلومات فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهرى هى شوال وذو القعدة وذو الحجة كله وبه قال مالك وقال ابن عباس والسدى والشعبى والنخعى هى شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة وبه قال أبو حنيفة والشافعى وأحمد وغيرهم وقد روى أيضا عن مالك وتظهر فائدة الخلاف فيما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر فمن قال ان ذا الحجة كله من الوقت قال لم يلزمه دم التاخير ومن قال ليس الا العشر منه قال يلزمه دم التاخير وقد استدل بهذه الآية من قال انه لا يجوز الاحرام بالحج قبل أشهر الحج وهو عطاء وطاوس ومجاهد والاوزاعى والشافعى وأبو ثور قالوا فمن أحرم بالحج قبلها أحل بالعمرة ولا يجزئه عن احرام الحج كمن دخل فى صلاة قبل وقتها فلا تجزئه وقال أحمد وأبو حنيفة انه مكروه فقط وروى نحوه عن مالك والمشهور عنه جواز الاحرام بالحج فى جميع السنة من غير كراهة وروى مثله عن أبى حنيفة وعلى هذا القول ينبغى أن ينظر فى فائدة توقيت الحج بالاشهر المذكورة فى الآية وقد قيل ان النص عليها الزيادة فضلها وقد روى القول بجواز الاحرام فى جميع السنة عن اسحق بن راهويه وابراهيم النخعى والثورى والليث بن سعد واحتجوا لهم بقوله تعالى يسئلونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج فجعل الاهلة كلها مواقيت للحج ولم يخص الثلاثة الاشهر ويجاب بان هذه الآية عامة وتلك خاصة والخاص مقدم على العام ومن جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة فكما يجوز الاحرام للعمرة فى جميع السنة

كذلك

وينسخ مايشاء وقال ابن جرير أخبرنا سوادبن عبد الله أخبرنا خالد بن الحرث أخبرنا عوف عن الحسن انه قال فى قوله أونسها قال ان نبيكم صلى الله عليه وسلم قرأ قرآنا ثم نسيه وقال ابن أبى حاتم اخبرنا أبى أخبرنا ابن نفيل أخبرنا محمد بن الزبير الحرانى عن الحجاج يعنى الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس قال كان مما ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم الوحى بالليل وينساه بالنهار فانزل الله عزوجل ماننسخ من آية أونسها نأت بخير منها أومثلها قال ابن أبى حاتم قال لى أبو جعفر بن نفيل ليس هو الحجاج بن أرطاة هو شيخ لنا جزرى وقال عبيد بن عمير أونسها نرفعها من عندكم وقال (٢٥٩) ابن جرير حدثنى يعقوب بن ابراهيم أخبرنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن القاسم بن ربيعة قال سمعت سعد ابن أبى وقاص يقرأ ماننسخ من آية أونسها قال قلت له فان سعيد ابن المسيب يقرأ أونسأها قال فقال سعد ان القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال قال الله جل ثناؤه سنقرئك فلا تنسى واذكر ربك اذا نسيت وكذا رواه عبد الرزاق عن هشيم وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى حاتم الرازى عن آدم عن شعبة عن يعلى ابن عطاء به وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه قال ابن أبى حاتم وروى عن محمد بن كعب وقتادة وعكرمة نحو قول سعيد وقال الامام أحمد أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال عمر علىّ أقضانا وأبىّ أقرؤنا وانا لندع من قول أبى وذلك ان أبيا يقول ما أدع شيأ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يقول ماننسخ من آية أونسها نات بخير منها أومثلها قال البخارى أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال عمر أقرؤنا أبىّ وأقضانا على وانا لندع من قول أبى وذلك ان أبيا يقول لا أدع شيأ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال الله ماننسخ من آية أونسها وقوله نات بخير منها أومثلها أى فى الحكم بالنسبة الى مصلحة المكلفين كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس نأت بخير منها يقول خير لكم فى المنفعة وأرفق بكم وقال أبو العالية ماننسخ من آية فلا نعمل بها أونسأها أى نرجئها عندنا نأت بها أونظيرها وقال السدى نات بخير منها أومثلها يقول نأت بخير من الذى نسخناه أومثل الذى تركناه وقال قتادة نات بخير منها أومثلها

كذلك يجوز للحج ولا يخفى ان هذا القياس مصادم للنص القرآنى فهو باطل والحق ماذهب اليه الاولون ان كانت الاشهر المذكورة فى قوله الحج أشهر مختصة بالثلاثة المذكورة بنص أو اجماع فان لم يكن كذلك فالاشهر جمع شهر وهو من جموع القلة يتردد مابين الثلاثة الى العشرة والثلاثة هى المتيقنة فيجب الوقوف عندها ومعنى معلومات ان الحج فى السنة مرة واحدة فى أشهر معلومات من شهورها ليس كالعمرة أو المراد معلومات ببيان النبى صلى الله عليه وآله وسلم أو معلومات عند المخاطبين لا يجوز التقدم عليها ولا التاخر عنها (فمن فرض) على نفسه (فيهن الحج) أى أوجبه عليها وألزمه اياها وأصل الفرض فى اللغة الحز والقطع ومنه فرضة القوس والنهر والجبل ففرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحز للقوس وقيل معنى فرض أبان وهو أيضا يرجع الى القطع لان من قطع شيأ فقد أبانه عن غيره وقال ابن مسعود الفرض الاحرام وقال ابن الزبير الاهلال وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين والمعنى فى الآية فمن ألزم نفسه وأوجب عليها فيهن الحج بالشروع فيه بالنية قصدا باطنا وبالاحرام فعلا ظاهرا وبالتلبية نطقا مسموعا وقال أبو حنيفة ان الزامه نفسه يكون بالتلبية أو بتقليد الهدى وسوقه وقال الشافعى تكفى النية فى الاحرام بالحج (فلا رفث) قال ابن عباس وابن جبير والسدى وقتادة والحسن وعكرمة والزهرى ومجاهد ومالك هو الجماع وفى رواية عن ابن عباس هو غشيان النساء والتقبيل واللمز وقال ابن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم الرفث الافحاش بالكلام والخنا والقول القبيح وعلى هذا التلفظ به فى غيبة النساء يكون رفثا وقال أبو عبيدة الرفث اللغا من الكلام (ولا فسوق) أصله الخروج عن حدود الشرع وعن الطاعة وقيل هو الذبح للاصنام وقيل التنابز بالالقاب وقيل السباب وقال ابن عمر هو ما نهى عنه المحرم فى حال الاحرام من قتل الصيد وتقليم الاظفار وأخذ الشعر وما أشبه ذلك والظاهر انه لا يختص بمعصية متعينة وانما خصصه من خصصه بما ذكر باعتبار أنه قد أطلق على ذلك الفرد اسم الفسوق كما قال سبحانه فى الذبح للاصنام أو فسقا أهل لغير الله به وقال فى التنابز بئس الاسم الفسوق وقال صلى الله عليه وآله وسلم سباب المسلم فسوق ولا يخفى على عارف ان اطلاق اسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصى لا يوجب اختصاصه به (ولا جدال) مشتق من الجدل

يقول آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها امر فيها نهى وقوله ألم تعلم ان الله على كل شئ قدير ألم تعلم ان الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير يرشد عباده تعالى بهذا الى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء فله الخلق والامر وهو المتصرف فيهم كما يشاء ويسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويصح ويمرض من يشاء ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء كذلك يحكم فى عباده بما يشاء فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء وهو الذى يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ويختبر عباده وطاعتهم (٢٦٠) لرسله بالنسخ فيأمر بالشئ لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا وترك ما عنه زجروا وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبههم لعنهم الله فى دعوى استحالة النسخ اما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرا واما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وافكا قال الامام أبو جعفر ابن جرير رحمه الله فتأويل الآية ألم تعلم يا محمد ان لى ملك السموات والارض وسلطانهما دون غيرى أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء وأنهى عما أشاء وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء اذا أشاء وأقر فيهما ما أشاء ثم قال وهذا الخبر وان كان خطابا من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته فانه فيه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام لمجيئهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة فاخبرهم الله ان له ملك السموات والارض وسلطانهما وان الخلق أهل مملكته وطاعته قوم وعليهم السمع والطاعة لامره ونهيه وان له أمرهم بما يشاء ونهيهم عما يشاء ونسخ ما يشاء واقرار ما يشاء وانشاء ما يشاء من اقراره وأمره ونهيه (قلت) الذى يحمل اليهود على البحث فى مسئلة النسخ انما هو الكفر والعناد فانه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى لانه يحكم ما يشاء كما انه يفعل ما يريد مع انه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها وكان

وهو القتل والمراد به هنا المماراة وقيل السباب وقيل الفخر بالآباء والظاهر الاول ومعنى النفى لهذه الامور النهى عنها وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرفث التعريض للنساء بالجماع والفسوق المعاصى كلها والجدال جدال الرجل صاحبه وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين بعبارات مختلفة قال ابن عباس الجدال هو المراء قيل هو قول الرجل الحج اليوم ويقول آخر الحج غدا وقيل هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بمزدلفة وبعضهم يحج فى ذى القعدة وبعضهم فى ذى الحجة وكل يقول الصواب فيما فعلته فأخبر الله أن أمر الحج قد استقر على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا خلاف فيه بعده (فى الحج) أى فى أيامه ونكتة الاظهار كمال الاعتناء بشأنه والاشعار بعلة الحكم فان زيارة البيت المعظم والتقرب بها من موجبات ترك الامور المذكورة وايثار النفى للمبالغة فى النهى والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يقع فان ما كان منكرا مستقبحا فى نفسه ففى خلال الحج أقبح كلبس الحرير فى الصلاة لانه خروج عن مقتضى الطبع والعادة الى محض العبادة ظاهر الآية فى الثلاثة خبر ومعناه نهى وانما نهى عن ذلك وان كان اجتنابها فى كل الاحوال والازمان واجبا لانها فى الحج أسمج وأفظع منه فى غيره وقيل معناه ولا شك فى الحج أنه فى ذى الحجة فابطل الشئ وعن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه أخرجه البخارى ومسلم (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) حث على الخير بعد ذكر الشر وعلى الطاعة بعد ذكر المعصية وهو أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجدال الوفاق والاخلاق الجميلة وفيه ان كل ما يفعلونه من ذلك فهو معلوم عند الله لا يفوت منه شئ (وتزودوا) ما يغلكم لسفركم (فان خير الزاد التقوى) أى ما يتقى به سؤال الناس وغيره فيه الامر باتخاذ الزاد لان بعض العرب كانوا يقولون كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا فكانوا يحجون بلا زاد ويقولون نحن متوكلون على الله سبحانه ثم يقدمون فيسألون الناس ويكونون كلا عليهم فانزل الله هذه الآية أخرجه عبد بن حميد والبخارى وأبو داود والنسائى وغيرهم عن ابن عباس وقد روى عن جماعة من التابعين مثل ذلك قال ابن الجوزى قد لبس ابليس على

نكاح الاختين مباحا لاسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها وأمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل وأمر جمهور بنى اسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كيلا يستاصلهم القتل وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدقون عنه وما يجاب به عن هذه الادلة باجوبة لفظية فلا يصرف الدلالة فى المعنى اذ هو المقصود وكما فى كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والامر باتباعه فانه يفيد وجوب متابعته عليه السلام وانه لا يقبل عمل الا على شريعته وسواء قيل ان الشرائع المتقدمة منسوخة الى بعثته عليه السلام فلا يسمى ذلك نسخا لقوله ثم أتموا الصيام الى الليل وقيل انها مطلقة وان شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين لانه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدا بالله تبارك وتعالى ففى هذا المقام بين تعالى جواز النسخ ردا على اليهود عليهم لعنة الله حيث قال تعالى ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير ألم تعلم ان الله له ملك السموات والارض الآية فكما ان له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء لا له الخلق والامر وقرئ فى سورة آل عمران التى نزل صدرها خطابا مع أهل الكتاب وقوع النسخ فى قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه الآية كما سيأتى تفسيره والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه وقال أبو مسلم الاصبهانى المفسر لم يقع شئ من ذلك فى القرآن وقوله ضعيف مردود مرذول وقد تعسف فى الاجوبة عما وقع من النسخ فمن ذلك قضية العدة باربعة أشهر وعشر بعد الحول لم يجب عن ذلك بكلام مقبول وقضية تحويل القبلة الى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشئ ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة الى مصابرة الاثنين ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وغير ذلك والله أعلم (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) نهى الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن الاشياء قبل كونها كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم أى وان تسألوا عن

قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد وظنوا ان هذا هو التوكل وهم على غاية من الخطا وقيل المعنى تزودوا لمعادكم من الاعمال الصالحة فان خير الزاد التقوى والاول أرجح كما دل عليه سبب نزول الآية وفيه اخبار بان خير الزاد اتقاء المنهيات فكأنه قال اتقوا الله فى اتيان ما أمركم به من الخروج بالزاد فان خيره التقوى وقيل المعنى فان خير الزاد ما اتقى به المسافر من التهلكة والحاجة الى السؤال والتكفف (واتقون) أى وخافوا عقابى وقيل اشتغلوا بتقواى وفيه تنبيه على كمال عظمة الله جل جلاله (يا أولى الالباب) فيه التخصيص لاولى الالباب بالخطاب بعد حث جميع العباد على التقوى لان أرباب الالباب والعقول هم القابلون لاوامر الله الناهضون بها ولب كل شئ خالصه (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فيه الترخيص لمن حج فى التجارة ونحوها من الاعمال التى يحصل بها شئ من الرزق وهو المراد بالفضل هنا ومنه قوله تعالى فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله أى لا اثم عليكم فى ان تبتغوا فى مواسم الحج رزقا ونفعا وهو الربح فى التجارة مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحج نزل رد الكراههم ذلك والحق ان الاذن فى هذه التجارة جار مجرى الرخص وتركها أولى لقوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين والاخلاص هو أن لا يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة (فاذا أفضتم من عرفات) يقال فاض الاناء اذا امتلأ ماء حتى ينصب من نواحيه ورجل فياض أى مندفعة يده بالعطاء ومعناه أفضتم أنفسكم فترك ذكر المفعول كما ترك ذكره فى قولهم دفعوا من موضع كذا وعرفات اسم لتلك البقعة كأذرعات أى موضع الوقوف وعرفة اسم اليوم وسميت عرفات لان الناس يتعارفون فيها وقيل لان آدم التقى هو وحواء فيها فتعارفا وقيل غير ذلك قال ابن عطية والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع الا على القول بان أصله جمع واستدل بالآية على وجوب الوقوف بعرفة لان الافاضة لا تكون الا بعده ولا يتم الحج الا به ووقت الافاضة من عرفات بعد غروب الشمس فاذا غربت دفع منها وأخر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء بمزدلفة (فاذكروا الله) المراد بذكر الله هنا دعاؤه ومنه التلبية والتكبير أى اذكروه لذاته من غير ملاحظة نعمه لانه تعالى يستحق الحمد من حيث ذاته ومن حيث انعامه على خلقه فحصلت المغايرة بين هذا وقوله واذكروه كما هداكم وقيل المراد بالذكر صلاة المغرب والعشاء بالمزدلفة جمعا وقد أجمع أهل العلم

تفصيلها بعد نزولها بين لكم ولا تسألوا عن الشئ قبل كونه فلعله ان يحرم من أجل تلك المسئلة ولهذا جاء في الصحيح ان أعظم المسلمين جرما من سأل عن شئ لم يحرم فحرم من أجل مسئلته ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فان تكلم تكلم بامر عظيم وان سكت سكت على مثل ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها ثم أنزل الله حكم الملاعنة ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال وفي صحيح مسلم ذروني ماتركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم وان نهيتكم عن شئ فاجتنبوه وهذا انما قاله بعد ما أخبرهم ان الله كتب عليهم الحج فقال رجل كل عام يارسول الله فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ثم قال عليه السلام لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم ثم قال ذروني ماتركتكم الحديث ولهذا قال أنس بن مالك نهينا ان نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شئ فكان يعجبنا ان يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أخبرنا أبو كريب أخبرنا اسحق بن سليمان عن أبي سنان عن أبي اسحق عن البراء بن عازب قال ان كان ليأتي علي السنة أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشئ فاتهيب منه وان كان لتمنى الاعراب وقال البزار أخبرنا محمد بن المثنى أخبرنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ماسألوه الا عن ثنتي عشرة مسئلة كلها في القرآن يسألونك عن الخمر والميسر ويسألونك عن الشهر الحرام ويسألونك عن اليتامى يعني وذلك هذا وأشباهه وقوله تعالى أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل أي بل تريدون أو هي على بابها في الاستفهام وهو انكاري وهو يعم المؤمنين والكافرين فانه عليه السلام رسول الله الى الجميع كما قال تعالى يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه

على ان السنة ان يجمع الحاج بينهما فيها (عند المشعر الحرام) سمي مشعرا من الشعار وهو العلامة والدعاء عنده من شعائر الحج ووصف بالحرام لحرمته من التحريم وهو المنع فهو ممنوع من ان يفعل فيه مالم يؤذن فيه وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم وقف به يذكر الله ويدعو حتى أسفر جدا رواه مسلم أي دخل في السفر بفتحتين وهو بياض النهار قاله الشوبري والمشعر هو جبل قزح الذي يقف عليه الامام وقيل هو ما بين جبلي المزدلفة من مأزمي عرفة الى وادي محسر (واذكروه) ذكرا حسنا (كما هداكم) هداية حسنة وكرر الامر بالذكر تأكيدا وقيل الاول أمر بالذكر عند المشعر الحرام والثاني أمر بالذكر على حكم الاخلاص وقيل المراد بالثاني تعديد النعمة عليهم والتكليف للتعليل (وان كنتم من قبله لمن الضالين) الضمير في قبله عائد الى الهدى وقيل الى القرآن وقيل الى الرسول والضالين الجاهلين بالايمان والطاعة قاله الخطيب وقيل جاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) فيه الخطاب للحمس من قريش لانهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم فامروا بذلك وقد ورد في هذا المعنى روايات عن الصحابة والتابعين عند البخاري ومسلم وغيرهما وعلى هذا يكون ثم لعطف جملة على جملة بمعنى الواو لا للترتيب وقيل الخطاب لجميع الامة والمراد بالناس ابراهيم أي أفيضوا من حيث أفاض ابراهيم فيحتمل ان يكون أمرهم بالافاضة من عرفة ويحتمل ان تكون افاضة أخرى وهي التي من مزدلفة وعلى هذا يكون ثم على بابها للترتيب في الذكر لا في الزمان الواقع فيه الاعمال وقد رجح هذا الاحتمال الاخير ابن جرير الطبري وهو الذي يقتضيه ظاهر القرآن (واستغفروا الله) أي من مخالفتكم في الموقف ولجميع ذنوبكم وانما أمروا بالاستغفار لانهم في مساقط الرحمة ومواطن القبول ومظنات الاجابة وقيل ان المعنى استغفروا للذي كان مخالفا لسنة ابراهيم وهو وقوفكم بالمزدلفة دون عرفة وقد وردت أحاديث كثيرة في المغفرة لاهل عرفة ونزول الرحمة عليهم واجابة دعائهم (ان الله غفور رحيم) أي ساتر لذنوب عباده برحمته وفيه دليل على أنه يقبل التوبة من عباده التائبين ويغفر لهم (فاذا قضيتم مناسككم) المراد بالمناسك أعمال الحج ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم خذوا عني مناسككم أي فاذا فرغتم من أعمال الحج وقيل المراد بها الذبائح

وذلك بعد رمى جمرة العقبة والاستقرار بمنى (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) انما قال سبحانه ذلك لان العرب كانوا اذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة وقيل عند البيت فيذكرون مفاخر آبائهم ومناقب أسلافهم بالمنثور والمنظوم من الكلام الفصيح وغرضهم بذلك الشهرة والسمعة والرفعة فلما من الله عليهم بالاسلام أمرهم بذكره مكان ذلك الذكر ويجعلونه ذكرا مثل ذكرهم لآبائهم أو أشد من ذكرهم لآبائهم والذكر له بالتمجيد والتحميد والتهليل والتسبيح والتكبير والثناء عليه وقيل أو بمعنى الواو أى وأكثر واذكر الله تعالى من ذكركم للآباء لانه هو المنعم عليكم وعلى آبائكم فهو المستحق للذكر والحمد مطلقا (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق) لما أرشد سبحانه عباده الى ذكره وكان الدعاء نوعا من أنواع الذكر جعل من يدعوه منقسما الى قسمين أحدهما يطلب حظ الدنيا ولا يلتفت الى حظ الآخرة والقسم الآخر يطلب الامرين جميعا والخلاق النصيب أى ما لهذا الداعى فى الآخرة من نصيب لان همه مقصور على الدنيا لا يريد غيرها ولا يطلب سواها وفى هذا الخبر معنى النهى عن الاقتصار على طلب الدنيا والذم لمن جعلها غاية رغبته ومعظم مقصوده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ان أعطى رضى وان لم يعط سخط تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش أخرجه البخارى وهذا دعاء عليه بالهلاك وفى الباب أحاديث كثيرة وانما كان سؤال المشركين للدنيا ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لانهم كانوا ينكرون البعث (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) قد اختلف فى تفسير الحسنتين المذكورتين فى الآية فقيل هما ما يطلبه الصالحون فى الدنيا من العافية ومالا بد منه من الرزق وما يطلبونه فى الآخرة من نعيم الجنة والرضا وقيل المراد بحسنة الدنيا الزوجة الحسناء وبحسنة الآخرة الحور العين وقيل حسنة الدنيا العلم والعبادة وحسنة الآخرة الجنة وقيل الاولى العمل الصالح والثانية المغفرة والثواب وقيل من آتاه الله الاسلام والقرآن وأهلا ومالا فقد أوتى فيهما حسنة وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى ذكره قال القرطبى والذى عليه أكثر أهل العلم ان المراد بالحسنتين نعيم الدنيا والآخرة قال وهذا هو الصحيح فان اللفظ يقتضى هذا كله فان حسنة نكرة فى سياق الدعاء فهو محتمل لكل

خير مما أعطى بنى اسرائيل قال ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما وقال الصلوات الخمس من الجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن وقال من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وان عملها كتبت سيئة واحدة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وان عملها كتبت له عشر أمثالها ولا يهلك على الله الا هالك فانزل الله أم تريدون ان تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل وقال مجاهد أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل أن يريهم الله جهرة قال سألت قريش محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا قال نعم وهو لكم كالمائدة لبنى اسرائيل فابوا ورجعوا وعن السدى وقتادة نحو هذا والله أعلم والمراد ان الله ذم من سال الرسول صلى الله عليه وسلم عن شئ على وجه التعنت والاقتراح كما سالت بنو اسرائيل موسى عليه السلام تعنتا وتكذيبا وعنادا قال الله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان أى ومن يشتر الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل أى فقد خرج عن الطريق المستقيم الى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الانبياء واتباعهم والانقياد لهم الى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالاسئلة التى لا يحتاجون اليها على وجه التعنت والكفر كما قال تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وقال أبو العالية يتبدل الشدة بالرخاء (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بامره ان الله على كل شئ قدير وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير

يجدوه عند الله ان الله بما تعملون بصير) يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب و يعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن و الظاهر و ما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم و فضل نبيهم و يامر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر و الفتح و يامرهم باقامة الصلاة و ايتاء الزكاة و يحثهم على ذلك و يرغبهم فيه كما قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال كان حيي بن أخطب و أبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدا اذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وكانا جاهدين في رد الناس عن الاسلام ما استطاعا فانزل الله فيهما ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم الآية وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري في قوله تعالى ود كثير من أهل الكتاب قال هو كعب بن الاشرف وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا أبو اليمان اخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه ان كعب بن الاشرف اليهودي كان شاعرا وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم وفيه أنزل الله ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم الى قوله فاعفوا واصفحوا وقال الضحاك عن ابن عباس ان رسولا أمر ان يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ولكنهم جحدوا ذلك كفرا وحسدا وبغيا وكذلك قال الله تعالى كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق يقول من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئا ولكن الحسد حملهم على الجحود فغيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة وشرع لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والايمان والاقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم وقال الربيع بن أنس من عند أنفسهم من قبل أنفسهم وقال أبو العالية من بعد ما تبين لهم الحق من بعد ما تبين ان محمدا رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل فكفروا به حسدا وبغيا اذ كان من غيرهم وكذا قال قتادة والربيع بن أنس وقوله فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بامره مثل قوله تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله فاعفوا واصفحوا

حسنة من الحسنات على البدل وحسنة الآخرة الجنة باجماع انتهى (أولئك) اشارة الى الفريق الثاني فقط (لهم نصيب مما) أي من جنس ما (كسبوا) من الاعمال أي من ثوابها ومن جملة أعمالهم الدعاء فما أعطاهم الله بسببه من الخير فهو مما كسبوا وقيل معناه من أجل ما كسبوا وهو بعيد وقيل قوله أولئك اشارة الى الفريقين جميعا أي للاولين نصيب من الدنيا ولا نصيب لهم في الآخرة وللآخرين نصيب مما كسبوا في الدنيا والآخرة (والله سريع الحساب) الحساب مصدر كالمحاسبة وأصله العدد والمراد هنا المحسوب سمي حسابا تسمية للمفعول بالمصدر والمعنى أن حسابه لعباده في يوم القيامة سريع مجيئه فيبادر وا ذلك باعمال الخير أو انه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وأعمالهم ليدل بذلك على كمال قدرته لانه تعالى لا يشغله شأن عن شان ولا يحتاج الى آلة ولا امارة ولا مساعدة فيحاسبهم في حالة واحدة كما قال تعالى ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقال السيوطي يحاسب الخلق كلهم في قدر نصف من نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك انتهى وهذا تمثيل للسرعة لا تعيين لمقدار من الحساب وقيل معناه ان الله يعلم العباد ما لهم وعليهم وهذا أبعد وقيل المحاسبة المجازاة ويدل عليه قوله فحاسبناها حسابا شديدا وقيل معناه انه سريع القبول لدعاء عباده والاجابة لهم وقيل معنى الآية ان اتيان القيامة قريب لا محالة وفيه اشارة الى المبادرة بالتوبة والذكر وسائر الطاعات وطلب الآخرة (واذكروا الله) يعني بالتوحيد والتعظيم والتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات فقد ورد في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبر مع كل حصاة والخطاب للحاج وغيره كما ذهب اليه الجمهور وقيل هو خاص بالحاج (في أيام معدودات) قال القرطبي لا خلاف بين العلماء ان الايام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى وهي أيام التشريق الثلاثة وهي أيام رمي الجمار أولها اليوم الحادي عشر من ذي الحجة وهو مذهب الشافعي وبه قال ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة وقال ابراهيم الايام المعدودات ايام العشر والايام المعلومات أيام النحر وكذا روي عن مكي والمهدوي قال القرطبي ولا يصح لما ذكرناه من الاجماع على ما نقله أبو عمر ابن عبد البر وغيره وعن أبي يوسف الايام المعلومات أيام النحر قال لقوله تعالى ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام وقال محمد بن الحسن هي

حتى يأتى الله بامره والسدى وقوله فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بامره نسخ ذلك قوله واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقوله قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الى قوله وهم صاغرون فنسخ هذا عفوه عن المشركين وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدى انها منسوخة بآية السيف ويرشد الى ذلك أيضا قوله تعالى حتى يأتى الله بامره وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم (٢٦٥) الله ويصبرون على الاذى قال الله

أيام النحر الثلاثة يوم الاضحى ويومان بعده وهو قول على وروى عن ابن عمر وهو مذهب أبى حنيفة قال الكيا الطبرى فعلى قول أبى يوسف ومحمد لا فرق بين المعلومات والمعدودات لان المعدودات المذكورة فى القرآن أيام التشريق بلا خلاف وروى عن مالك أن الايام المعدودات والايام المعلومات يجمعها أربعة أيام يوم النحر وثلاثة أيام بعده فيوم النحر معلوم غير معدود واليومان بعده معلومان معدودان واليوم الرابع معدود لا معلوم وهو مروى عن ابن عمر وقال ابن زيد الايام المعلومات عشر ذى الحجة وأيام التشريق وأجمع العلماء على ان المراد بهذا هو التكبير عند رمى الجمرات مع كل حصاة يرمى بها فى جميع أيام التشريق وهو سنة بالاتفاق وعن نبيشة الهذلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى رواه مسلم ومن الذكر فى هذه الايام التكبير وروى البخارى عن ابن عمر أنه كان يكبر بمنى تلك الايام وخلف الصلوات وعلى فراشه وفى فسطاطه وفى مجلسه وفى ممشاه فى تلك الايام جميعا وقد اختلف أهل العلم فى وقته فقيل من صلاة الصبح يوم عرفة الى العصر من آخر أيام التشريق فيكون التكبير على هذا فى ثلاث وعشرين صلاة وهو قول على بن أبى طالب ومكحول وبه قال أبو يوسف ومحمد وقيل من غداة عرفة الى صلاة العصر من آخر النحر وبه قال أبو حنيفة وابن مسعود وعلى هذا يكون التكبير فى ثمان صلوات وقيل من صلاة الظهر يوم النحر الى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق وبه قال مالك والشافعى فيكون التكبير على هذا فى خمس عشرة صلاة وهو قول ابن عباس وابن عمر ولفظ التكبير عند الشافعى الله أكبر ثلاثا نسقا وعند أهل العراق مرتين (فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تاخر فلا اثم عليه) اليومان هما يوم ثانى النحر ويوم ثالثه من أيام التشريق قال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة والنخعى من رمى فى اليوم الثانى من الايام المعدودات فلا حرج ومن تأخر الى الثالث فلا حرج فمعنى الآية كل ذلك مباح وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماما وتاكيدا لان من العرب من كان يذم التعجل ومنهم من كان يذم التأخر فنزلت الآية رافعة للجناح فى كل ذلك وقال على وابن مسعود معنى الآية من تعجل فقد غفر له ومن تأخر فقد غفر له والآية قد دلت على ان التعجل والتأخر مباحان ولا بد من ارتكاب مجاز فى قوله يومين من حيث انه جعل الواقع فى

فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بامره ان الله على كل شئ قدير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتاول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش وهذا اسناده صحيح ولم أر فى شئ من الكتب الستة ولكن له أصل فى الصحيحين عن أسامة بن زيد وقوله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من اقام الصلاة وايتاء الزكاة حتى يمكن لهم الله النصر فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ولهذا قال تعالى ان الله بما تعملون بصير يعنى انه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه سواء كان خيرا أو شرا فانه يجازى كل عامل بعمله وقال أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى ان الله بما تعملون بصير هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه

(٣٤ ل ـ فتح البيان) الآيات من المؤمنين انهم مهما فعلوا من خير أو شر سرا وعلانية فهو به بصير لا يخفى عليه منه شئ فيجزيهم بالاحسان خيرا وبالاساءة مثلها وهذا الكلام وان كان قد خرج مخرج الخبر فان فيه وعدا ووعيدا وأمرا وزجرا وذلك انه أعلم القوم انه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا فى طاعته اذ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه كما قال تعالى وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله وليحذروا معصيته قال وأما قوله بصير فانه مبصر صرف الى بصير كما صرف مبدع الى بديع ومؤلم الى أليم والله أعلم وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو زرعة أخبرنا ابن بكير حدثنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى

الخبر عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية سميع بصير يقول بكل شئ بصير (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل (٢٦٦) طائفة من اليهود والنصارى انه لن يدخل الجنة الا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة انهم قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم انه معذبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادعوا لما كان الامر كذلك وكما تقدم من دعواهم انه لن تمسهم النار الا أياما معدودة ثم ينتقلون الى الجنة ورد عليهم تعالى في ذلك وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال تلك أمانيهم وقال أبو العالية أمانيّ تمنوها على الله بغير حق وكذا قال قتادة والربيع بن أنس ثم قال تعالى قل أي يا محمد هاتوا برهانكم قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس حجتكم وقال قتادة بينتكم على ذلك ان كنتم صادقين أي فيما تدعونه ثم قال تعالى بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن الآية وقال أبو العالية والربيع بلى من أسلم وجهه لله يقول من أخلص لله وقال سعيد بن جبير بلى من أسلم أخلص وجهه قال دينه وهو محسن أي اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فان للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون السوء خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد رواه مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام فعمل الرهبان ومن شابههم وان فرض أنهم مخلصون فيه لله فانه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث اليهم والى الناس كافة وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة

أحدهما واقعا فيهما كقوله نسيا حوتهما ويخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وجعلا له شركاء فيما آتاهما والناسي أحدهما وكذلك المخرج منه والجاعل له أحدهما أو من حيث حذف المضاف أي في ثاني يومين والاول أولى (لمن اتقى) أي ان ذلك التخيير ورفع الاثم ثابت لمن اتقى لان صاحب التقوى يحترز عن كل ما يريبه فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم قال الاخفش التقدير ذلك لمن اتقى وقيل لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي وقيل لمن اتقى قتل الصيد وقيل معناه السلامة لمن اتقى وقيل أي الذكر لمن اتقى في حجه لانه الحاج في الحقيقة (واتقوا الله) أي في المستقبل (واعلموا أنكم اليه تحشرون) فيجازيكم بأعمالكم وفيه حث على التقوى وهو عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) أي يروقك وتستحسنه ويعظم في قلبك حلاوة كلامه مما يتعلق بأمر الدنيا والاعجاب استحسان الشئ والميل اليه والتعظيم له وقال الراغب العجب حيرة تعرض للانسان بسبب الشئ وليس هو شيا له في ذاته حالة حقيقية بل هو بحسب الاضافات الى من يعرف السبب ومن لا يعرفه وحقيقة أعجبني كذا ظهر لي ظهورا لم أعرف سببه انتهى لما ذكر سبحانه طائفتي المسلمين بقوله ومن الناس من يقول عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين وهم الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر وقيل انها نزلت في قوم من المنافقين وقيل انها نزلت في كل من أضمر كفرا أو نفاقا أو كذبا وأظهر بلسانه خلافه (ويشهد الله على ما في قلبه) أي أنه يحلف على ذلك فيقول اني بك مؤمن وللك محب أو يقول الله يعلم اني أقول حقا واني صادق في قولي للك أو أن ما في قلبي موافق لقولي (وهو ألد الخصام) أي شديد الخصومة يقال رجل ألد وامرأة لداء والخصام مصدر خاصم قاله الخليل وقيل جمع خصيم قاله الزجاج والمعنى أنه أشد المخاصمين خصومة لكثرة جدله وقوة مراجعته والاضافة بمعنى في أي ألد في الخصام أو جعل الخصام ألدا على المبالغة أي شديد الجدال في الباطل وهو كاذب القول وقيل شديد القسوة في المعصية يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال أبغض الرجال الى الله الالد الخصم أخرجه البخاري ومسلم (واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها) أي اذا أدبر وذهب عنك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل انه بمعنى ضل وغضب وقيل انه بمعنى الولاية أي اذا كان والي أمر يفعل ما ينفعله ولاة

يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا وقال تعالى وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه انه تأولها فى الرهبان كما سيأتى واما ان كان العمل موافقا للشريعة فى الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضا مردود على فاعله وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا وقال تعالى فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون ولهذا قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وقال فى هذه الآية الكريمة بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن وقوله فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الاجور وآمنهم مما يخافونه من المحذور فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه كما قال سعيد بن جبير فلا خوف عليهم يعنى فى الآخرة ولا هم يحزنون يعنى لا يحزنون للموت وقوله تعالى وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم كما قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رافع بن حرملة ما أنتم على شئ وكفر بعيسى وبالانجيل وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود ما أنتم على شئ وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فانزل الله فى ذلك من قولهما وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب قال ان كلا يتلو فى كتابه تصديق من كفر به ان يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفى الانجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما فى يد صاحبه وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شئ وقال قتادة وقالت اليهود ليست النصارى على شئ قال بلى قد كانت أوائل

السوء من الفساد فى الارض والسعى يحتمل أن يكون المراد به السعى بالقدمين الى ما هو فساد فى الارض كقطع الطريق وقطع الارحام وحرب المسلمين وسفك دمائهم ويحتمل ان يكون المراد به العمل فى الفساد وان لم يكن فيه سعى بالقدمين كالتدبير على المسلمين بما يضرهم واعمال الحيل عليهم وكل عمل يعمله الانسان بجوارحه أو حواسه يقال له سعى وهذا هو الظاهر من هذه الآية (ويهلك الحرث والنسل) من عطف الخاص على العام فان الفساد أعم من ذلك فيشمل سفك الدماء ونهب الاموال وغير ذلك والمراد بالحرث الزرع والنسل الاولاد وقيل الحرث النساء قال الزجاج وذلك لان النفاق يؤدى الى تفريق الكلمة ووقوع القتال وفيه هلاك النسل وقال مجاهد الحرث نبات الارض والنسل نسل كل شئ من الحيوان الناس والدواب وعنه أيضا قال معنى الآية يلى فى الارض فيعمل فيها بالعدوان والظلم فيحبس الله بذلك القطر من السماء فيهلك بحبس القطر الحرث والنسل وقال ابن عباس نسل كل دابة وأصل الحرث فى اللغة الشق ومنه المحراث لما يشق به الارض والحرث كسب المال وجمعه وأصل النسل فى اللغة الخروج والسقوط ومنه نسل الشعر ومنه أيضا الى ربهم ينسلون ومن كل حدب ينسلون ويقال لما خرج من كل أنثى نسل لخروجه منها (والله لا يحب الفساد) يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين وما فيه فساد الدنيا واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن المحبة عبارة عن الارادة وأجيب عنه بان الارادة معنى غير المحبة فان الانسان قد يريد شيأ ولا يحبه كالدواء المر يتناوله ولا يحبه فبان الفرق بينهما وقيل ان المحبة مدح الشئ وتعظيمه والارادة بخلاف ذلك (واذا قيل له) أى على سبيل النصيحة وهى مستأنفة أو معطوفة على يعجبك (اتق الله) أى خف الله فى سرك وعلانيتك (أخذته العزة بالاثم) العزة القوة والغلبة من عزه يعزه اذا غلبه ومنه وعزنى فى الخطاب وقيل العزة هنا الحمية والانفة وقيل المنعة وشدة النفس والمعنى حملته العزة على فعل الاثم من قولك أخذته بكذا اذا حملته عليه وألزمته اياه قاله الزمخشرى وقيل أخذته العزة بما يؤثمه أى ارتكب الكفر للعزة ومنه بل الذين كفروا فى عزة وشقاق وقيل الباء فى قوله بالاثم بمعنى اللام أى أخذته الحمية عن قبول الوعظ للاثم الذى فى قلبه وهو النفاق وقيل الباء بمعنى مع أى أخذته العزة مع الاثم وقيل للسببية أى ان اثمه كان سببا لاخذ العزة له وفى هذه الآية

النصارى على شئ ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا وقالت النصارى ليست اليهود على شئ قال بلى قد كانت أوائل اليهود على شئ ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا وعنه رواية أخرى كقول أبى العالية والربيع بن أنس فى تفسير هذه الآية وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا القول يقتضى ان كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الاخرى ولكن ظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك ولهذا قال تعالى وهم يتلون الكتاب أى وهم يعلمون (٢٦٨) شريعة التوراة والانجيل كل منهما قد كانت مشروعة فى وقت ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادا وكفرا ومقابلة للفاسد بالفاسد كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد وقتادة فى الرواية الاولى عنه فى تفسيرها والله أعلم وقوله كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول وهذا من باب الايماء والاشارة وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى الذين لا يعلمون فقال الربيع بن أنس وقتادة كذلك قال الذين لا يعلمون قالا قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم وقال ابن جريج قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والانجيل وقال السدى كذلك قال الذين لا يعلمون فهم العرب قالوا ليس محمد على شئ واختار أبو جعفر بن جرير انها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحدا من هذه الاقوال والحمل على الجميع أولى والله أعلم وقوله تعالى فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون أى انه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة وهذه الآية كقوله تعالى لما فى سورة الحج ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد وكما قال تعالى قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا فى خرابها على قولين أحدهما ما رواه العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله ومن

التتميم وهو نوع من علم البديع وهو عبارة عن ارداف الكلمة باخرى ترفع عنها اللبس وتقربها الى الفهم وذلك ان العزة تكون محمودة ومذمومة فمن مجيئها محمودة قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها المحمودة فقيل بالاثم توضيحا للمراد فرفع اللبس به قاله السمين قال ابن مسعود ان من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لاخيه اتق الله فيقول عليك بنفسك أنت تأمرنى وعن سفيان قال قال رجل لمالك بن مغول اتق الله فسقط فوضع خده على الارض تواضعا لله (فحسبه جهنم) أى كافيه معاقبة وجزاء كما تقول للرجل كفاك ما حل بك وأنت تستعظم عليه ما حل به وحسب اسم فاعل وقيل اسم فعل (ولبئس المهاد) جمع المهد وهو الموضع المهيأ للنوم ومنه مهد الصبى وقيل اسم مفرد سمى به الفراش الموطأ للنوم وسميت جهنم مهادا لانها مستقر الكفار وقيل المعنى أنها بدل لهم من المهاد كقوله فبشرهم بعذاب أليم وقال مجاهد بئس ما مهدوا لانفسهم وقال ابن عباس بئس المنزل وهذا من باب التهكم والاستهزاء (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) يشرى بمعنى يبيع أى يبيع نفسه فى مرضاة الله كالجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر قال قتادة هم المهاجرون والانصار ومثله قوله تعالى وشروه بثمن بخس وأصله الاستبدال ومنه قوله ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة والمرضاة الرضا قال ابن عباس نزلت فى سرية الرجيع وكانت بعد أحد وفى البخارى تمام قصته عن حديث أبى هريرة فان شئت فارجع اليه (والله رؤف بالعباد) وجه ذكر الرأفة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم ويثيبهم عليه فكان ذلك رأفة لهم ولطفا بهم ومن رأفته ان جعل النعيم الدائم فى الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع ومن رأفته انه يقبل توبة عبده وأنه لا يكلف نفسا الا وسعها وان المصر على الكفر ولو مائة سنة اذا تاب ولو لحظة أسقط عنه عقاب تلك السنين وأعطاه الثواب الدائم ومن رأفته ان نفس العباد وأموالهم له ثم انه يشترى ملكه بملكه فضلا منه ورحمة واحسانا وهذه أربعة أقسام اشتملت عليها تلك الآيات الكريمات أولها راغب فى الدنيا فقط ظاهرا وباطنا والثانى راغب فيها وفى الآخرة كذلك والثالث راغب فى الآخرة ظاهرا وفى الدنيا باطنا والرابع راغب فى الآخرة ظاهرا وباطنا معرض عن الدنيا كذلك (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة)

أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه قال هم النصارى وقال مجاهد هم النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الاذى ويمنعوا الناس أن يصلوا فيه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله وسعى فى خرابها قال هو بختنصر وأصحابه خرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى وقال سعيد عن قتادة قال أولئك أعداء الله النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلى المجوسى على تخريب بيت المقدس وقال السدى كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف وانما أعانه الروم على خرابه من أجل ان بنى اسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا وروى نحوه عن الحسن البصرى القول الثانى ما رواه ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الاعلى حدثنا ابن وهب قال قال ابن زيد فى قوله ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها قال هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذى طوى وهادنهم وقال لهم ما كان أحد يصد عن هذا البيت وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده فقالوا لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق وفى قوله وسعى فى خرابها قال اذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة وقال ابن أبى حاتم ذكر عن سلمة قال قال محمد ابن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ان قريشا منعوا النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام فانزل الله ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ثم اختار ابن جرير القول الاول واحتج بان قريشا لم تسع فى خراب الكعبة وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس (قلت) والذى يظهر والله أعلم القول الثانى كما قاله ابن زيد وروى عن ابن عباس لان النصارى اذ منعت اليهود الصلاة فى البيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود وكانوا أقرب منهم ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا اذ ذاك لانهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون وأيضا فانه تعالى لما وجه الذم فى حق اليهود والنصارى شرع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام وأما اعتماده على أن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة فاى خراب أعظم مما فعلوا أخرجوا

لما ذكر سبحانه ان الناس ينقسمون الى ثلاث طوائف مؤمنين وكافرين ومنافقين أمرهم بعد ذلك ما يكون على ملة واحدة وانما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الايمان لان اهل الكتاب مؤمنون بنبيهم وكتابهم والمنافق مؤمن بلسانه وان كان غير مؤمن بقلبه والسلم بفتح السين وكسرها قال الكسائى معناهما واحد وكذا عند البصريين وهما جميعا يتعاقبان للاسلام والمسالمة وقال أبو عمرو بن العلاء انه بالفتح للمسالمة وبالكسر للاسلام وأنكر المبرد هذه التفرقة وقال الجوهرى السلم بفتح السين ويكسر ويذكر ويؤنث وأصله من الاستسلام والانقياد ورجح الطبرى أنه هنا بمعنى الاسلام وقد حكى البصريون فى سلم وسلم انهما بمعنى واحد وكافة حال من السلم أو من ضمير المؤمنين فمعناه على الاول لا يخرج منكم أحد وعلى الثانى لا يخرج من أنواع السلم شئ بل ادخلوا فيها جميعا أى فى خصال الاسلام وهو مشتق من قولهم كففت أى منعت أى لا يمتنع منكم احد من الدخول فى الاسلام والكف المنع والمراد به هنا الجميع (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى لا تسلكوا الطريق التى يدعوكم اليها الشيطان وقيل لا تلتفتوا الى الشبهات التى تلقيها اليكم أصحاب الضلالة والغواية والاهواء المضلة لان من اتبع سنة انسان فقد اتبع أثره وقد تقدم الكلام على خطوات (انه لكم عدو مبين) يعنى الشيطان وانه يحاول ايصال الضرر والبلاء اليكم وان الله بين عداوته ما هى فكأنه مبين وان لم يشاهد وهذا البيان بالنسبة لمن أنار الله قلبه وأما غيره فهو خليق له (فان زللتم) أى تنحيتم عن طريق الاستقامة وأصل الزلل فى القدم ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك يقال زل يزل زلا وزللا وزلولا أى دحضت قدمه والمعنى فان ملتم وضللتم وأشركتم وعرجتم عن الحق (من بعد ما جاءتكم البينات) أى بالحجج الواضحة والبراهين الصحيحة على أن الدخول فى الاسلام هو الحق (فاعلموا أن الله عزيز) غالب لا يعجزه شئ عن الانتقام منكم (حكيم) لا ينتقم الا لحق وفى الآية وعيد وتهديد لمن فى قلبه شك ونفاق أو عنده شبهة فى الدين (هل ينظرون) استفهام انكارى أى ينتظرون يقال نظرته وانتظرته بمعنى والمراد هل ينتظر الزالون التاركون للدخول فى الاسلام والمتبعون خطوات الشيطان فهو التفات الى الغيبة للايذان بان سوء صنيعهم موجب للاعراض عنهم وحكاية جناياتهم لما عداهم من أهل الانصاف على طريق الاهانة (الا أن يأتيهم الله)

عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه واستحوذوا عليها باصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى ومالهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون وقال تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وقال تعالى هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم

بما وعدهم من الحساب والعذاب استثناء مفرغ من مقدر أي ليس لهم شئ ينتظرونه الا اتيان العذاب وهذا مبالغة في توبيخهم (في ظلل) جمع ظلة وهي ما يظلك وقال الاخفش وقد يحتمل ان يكون معنى الاتيان راجعا الى الجزاء فسمى الجزاء اتيانا كما سمى التخويف والتعذيب في قصة ثمود اتيانا فقال فاتى الله بنيانهم من القواعد وقال في قصة النضير فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وانما احتمل الاتيان هذا لان أصله عند أهل اللغة القصد الى الشئ فمعنى الآية هل ينظرون الا ان يظهر الله فعلا من الافعال مع خلق من خلقه يقصد الى محاربتهم وقيل ان المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه وقيل ان قوله في ظلل بمعنى بظلل وقيل المعنى ياتيهم بأسه في ظلل (من الغمام) يعني السحاب الرقيق الابيض سمي بذلك لانه يغم أي يستر ووجه اتيان العذاب في الغمام على تقدير ان ذلك هو المراد ما في مجيء الخوف من محل الأمن من الفظاعة وعظم الموقع لان الغمام مظنة الرحمة لا مظنة العذاب وهذا أبلغ في تبكيتهم وتخويفهم أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما شخصة أبصارهم الى السماء ينظرون فصل القضاء وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش الى الكرسي وعن ابن عمر قال يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتا تخلع له القلوب وعن ابن عباس يأتي الله يوم القيامة في ظلل من السحاب قد قطعت طاقات والتقدير في ظلل كائنة من الغمام ومن على هذا للتبعيض أو من ناحية الغمام وهي على هذا الابتداء الغاية (والملائكة) أي وتاتيهم الملائكة فانهم وسائط في اتيان امره تعالى بل هم الآتون بباسه على الحقيقة وقرئ بالجر عطفا على ظلل أو على الغمام فتوصف الملائكة بكونها ظلا على التشبيه قال عكرمة والملائكة حوله وقيل حول الغمام وقيل حول الرب تعالى وهذه من آيات الصفات وللعلماء فيها وفي أحاديث الصفات مذهبان أحدهما الايمان والتسليم لما جاء في آيات الصفات وأحاديثها ووجوب الاعتقاد بظاهرها والايمان بها كما جاءت واحالة علمها الى الله تعالى مع تنزيهه سبحانه عن التشبيه والتمثيل والتحريف والتبديل والتعطيل وهو قول سلف هذه الامة وأئمتها قال الكلبي هذا من الذي لا يفسر وكان ابن عيينة والزهري والاوزاعي ومالك وابن المبارك والثوري والليث بن

سعد

وقال بعضهم هذا ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله الا خائفين على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين ان يطئوها بهم فضلا ان يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها والمعنى ما كان الحق والواجب الا ذلك لولا ظلم الكفرة وغيرهم وقيل ان هذا بشارة من الله للمسلمين انه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وانه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم الا خائفا يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل ان لم يسلم وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يبقى بجزيرة

العرب دينان وان يجلى اليهود والنصارى منها ولله الحمد والمنة وماذاك الا تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التى بعث الله فيها رسوله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا صلوات الله وسلامه عليه وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا الان الجزاء من جنس العمل فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدوا عنه وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها ولهم فى الآخرة عذاب عظيم على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الاصنام حوله ودعاء غير الله عنده والطواف به عريا وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهها الله ورسوله واما من فسر بيت المقدس فقال كعب الاحبار ان النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أنزل عليه ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين الآية فليس فى الارض نصرانى يدخل بيت المقدس الا خائفا وقال السدى فليس فى الارض رومى يدخله اليوم الا وهو خائف أن يضرب عنقه أو قد أخيف باداء الجزية فهو يؤديها وقال قتادة لا يدخلون المساجد الا مسارقة قلت وهذا لا ينفى أن يكون داخلا فى معنى عموم الآية فان النصارى لما ظلموا بيت المقدس بامتهان الصخرة التى كانت تصلى اليها اليهود عوقبوا شرعا وقدرا بالذلة فيه الا فى أحيان من الدهر اشحن بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضا أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم والله أعلم وفسر هؤلاء الخزى فى الدنيا بخروج المهدى عند السدى وعكرمة ووائل بن داود وفسره قتادة باداء الجزية عن يد وهم صاغرون والصحيح ان الخزى فى الدنيا أعم من ذلك كله وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة كما قال الامام أحمد أخبرنا الهيثم بن خارجة أخبرنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حلس سمعت أبى يحدث عن بشير بن أرطاة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم أحسن عاقبتنا فى الامور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة وهذا حديث حسن وليس فى شئ من الكتب الستة وليس لصحابيه وهو بشير بن أرطاة ويقال ابن أبى أرطاة حديث سواه وسوى حديث لا تقطع الايدى فى الغزو (ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم) وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من

سعد وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه يقولون فى هذه الآية وأمثالها اقرؤها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تاويل ولا تعطيل هذا مذهب أعلام أهل السنة ومعتقد سلف الامة وأنشد بعضهم فى المعنى

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته * ولا ذاته شئ عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها * واجراءها للظاهر المتقارب
وتؤيس عنها كنه فهم عقولنا * وتاويلنا فعل اللبيب المغالب
ونركب للتسليم سفنا فانها * لتسليم دين المرء خير المراكب

والثانى التاويل لها بما يناسب تنزيهه سبحانه وتعالى عندهم وهو قول جمهور علماء المتكلمين وأصحاب النظر كما قالوا فى هذه الآية مجىء الله هو مجىء الآيات أو مجىء أمر الله أو عذاب الله فانكروا امرار الصفات على ظاهرها واجراءها على ما أراد الله وهذا خلاف ما عليه سلف الامة وأئمتها وقد أوضحنا ذلك فى كتابنا الانتقاد الرجيح وبغية الرائد بما لا يحتاج الناظر فيهما الى غيرهما (وقضى الامر) عطف على ياتيهم داخل فى حيز الانتظار وانما عدل الى صيغة الماضى دلالة على تحققه فكأنه قد كان أو جملة مستانفة جىء بها للدلالة على ان مضمونها واقع لا محالة أى وفرغ من الامر الذى هو اهلاكهم قال عكرمة قضى الامر أى قامت الساعة (والى الله ترجع الامور) أى أمور العباد فى الآخرة لا الى غيره والمراد من هذا اعلام الخلق انه المجازى على الاعمال بالثواب والعقاب (سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) المامور بالسؤال هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويجوز ان يكون هو كل فرد من السائلين وهو سؤال تقريع وتوبيخ والمسئول عنهم يهود المدينة وكم اما استفهامية للتقرير أو خبرية للتكثير والآية هى البراهين التى جاءهم بها أنبياؤهم فى أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل المراد بتلك الآيات التى جاءهم بها موسى وهو تسع قال أبو العالية آتاهم الله آيات بينات عصا موسى ويده وأقطعهم البحر وأغرق عدوهم وهم ينظرون وظللا من الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته) المراد بالنعمة هنا ما جاءهم من الآيات وقال ابن جرير الطبرى النعمة هنا الاسلام والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على كل عبد من عباده كائنا من كان فوقع منه التبديل لها وعدم القيام بشكرها

مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بمكة الى بيت المقدس والكعبة بين يديه فلما قدم المدينة وجه الى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ثم صرفه الله الى الكعبة بعد ولهذا يقول تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ أخبرنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قال أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شان القبلة قال الله تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه الى بيته العتيق ونسخها فقال ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال كان أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة وكان أهلها اليهود أمره الله ان يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة ابراهيم وكان يدعو وينظر الى السماء فانزل الله قد نرى تقلب وجهك في السماء الى قوله فولوا وجوهكم شطره فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فانزل الله قل لله المشرق والمغرب وقال فأينما تولوا فثم وجه الله وقال عكرمة عن ابن عباس فأينما تولوا فثم وجه الله قال قبلة الله أينما توجهت شرقا أو غربا وقال مجاهد فأينما تولوا فثم وجه الله حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة وقال ابن أبي حاتم بعد رواية الاثر المتقدم عن ابن عباس في نسخ القبلة عن عطاء عنه وروى عن ابي العالية والحسن وعطاء الخراساني وعكرمة وقتادة والسدي وزيد بن أسلم نحو ذلك وقال ابن جرير وقال آخرون بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه الى الكعبة وانما أنزلها ليعلم نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه ان لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاؤا من نواحي المشرق والمغرب لانهم لا يوجهون وجوههم وجها من ذلك وناحية الا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية لان له تعالى المشارق والمغارب وانه لا يخلو منه مكان كما قال تعالى ولا أدنى من ذلك ولا أكثر

ولا ينافي ذلك كون السياق في بني اسرائيل او كونهم السبب في النزول لما تقرر من ان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (فان الله شديد العقاب) فيه من الترهيب والتخويف ما لا يقادر قدره (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) المزين هو الشيطان بان وسوس لهم ومناهم الاماني الكاذبة وذلك حقيقة كما قال السعد التفتازاني وبني ما مضى دلالة على ان ذلك قد وقع وفرغ منه أو المزين الانفس المجبولة على حب العاجلة وزين مبني للمجهول وقرئ بفتح الزاء والمزين هو الله بان خلق الاشياء العجيبة ومكنهم منها اذ ما من شيء الا وهو خالقه وعلى هذا المسند والاسناد مجاز لان خذلانه اياهم صار سببا لاستحسانهم الحياة الدنيا وتزيينها في أعينهم والمراد بالذين كفروا رؤساء قريش أو كل كافر وانما خص الكفار بالذكر مع كون الدنيا مزينة للمسلم والكافر كما وصف سبحانه بانه جعل ما على الارض زينة لها ليبلوا الخلق أيهم أحسن عملا لان الكافر افتتن بهذا التزيين وأعرض عن الآخرة والمسلم لم يفتتن به بل أقبل على الآخرة والمعنى حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها (ويسخرون من الذين آمنوا) اي والحال أن أولئك الكفار يسخرون من المؤمنين لكونهم فقراء لاحظ لهم من الدنيا لحظ رؤساء الكفر وأساطين الضلال وذلك لان عرض الدنيا عندهم هو الامر الذي يكون من ناله سعيدا رابحا ومن حرمه شقيا خاسرا وقد كان غالب المؤمنين اذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة وأمر الآخرة وعدم التفاتهم الى الدنيا وزينتها وحكى الاخفش انه يقال سخرت منه وسخرت به وضحكت منه وضحكت به والاسم السخرية والسخرى وجيء به مضارعا دلالة على التجدد والحدوث ولما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين رد الله عليهم بقوله (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) والمراد بالفوقية هنا العلو في الدرجة لانهم في الجنة والكفار في النار ويحتمل ان يراد بالفوق المكان لان الجنة في السماء والنار في أسفل سافلين أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الاسلام وسقوط الكفر وقتل أهله وأسرهم وتشريدهم وضرب الجزية عليهم ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة وفيه دلالة على أن فوقيتهم من أجل التقوى وفيه تحريضهم على الانصاف به اذا سمعوا ذلك أو للايذان بان اعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها شاغلة

الاهو معهم أينما كانوا قالوا ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجه الى المسجد الحرام هكذا قال وفى قوله وانه تعالى لايخلو منه مكان ان أراد علمه تعالى فصحيح فان علمه تعالى محيط بجميع المعلومات وأماذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شئ من خلقه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذنا من الله أن يصلى التطوع حيث توجه من شرق أوغرب فى مسيره فى سفره وفى حال المسايفة وشدة الخوف حدثنا أبو كريب أخبرنا ابن ادريس حدثنا عبد الملك هو ابن أبى سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر انه كان يصلى حيث توجهت به راحلته ويذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ويتاول هذه الآية فاينما تولوا فثم وجه الله ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن عبد الملك بن أبى سليمان به وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية وفى صحيح البخارى من حديث نافع عن ابن عمر انه كان اذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ثم قال فان كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا قياما على أقدامهم وركبانا مستقبلى القبلة وغير مستقبليها قال نافع ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك الا عن النبى صلى الله عليه وسلم (مسئلة) ولم يفرق الشافعى فى المشهور عنه بين سفر المسافة وسفر العدوى فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة وهو قول ابى حنيفة خلافا لمالك وجماعته واختار أبو يوسف وأبو سعيد الاصطخرى التطوع على الدابة فى المصر وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك رضى الله عنه واختاره أبو جعفر الطبرى حتى

عن جانب القدس عن حارثة بن وهب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ألا أخبركم باهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لابره ألا أخبركم باهل النار كل عتل جواظ جعظرى مستكبر أخرجه الشيخان وعن أسامة بن زيد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون غير ان أصحاب النار قد أمر بهم الى النار وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء أخرجه البخارى ومسلم (والله يرزق من يشاء بغير حساب) يحتمل أن يكون فيه اشارة الى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين ويوسع عليهم ويجعل مايعطيهم من الرزق بغير حساب أى بغير تقدير لان مايدخل عليه الحساب فهو قليل ويحتمل أن المعنى ان الله يوسع على بعض عباده فى الرزق كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجا لهم وليس فى التوسعة دليل على أن من وسع عليه فقد رضى عنه ويحتمل ان يراد بغير حساب من المرزوقين كما قال تعالى ويرزقه من حيث لايحتسب وقال ابن عباس فى تفسيرها ليس على الله رقيب ولا من يحاسبه وقال سعيد بن جبير لايحاسب الرب وقيل يرزقه فى الدنيا ولا يحاسبه فى الآخرة وقيل يرزقه بغير استحقاق وقيل لايخاف نفاد ما فى خزائنه حتى يحتاج الى حساب وقيل لايعطى كل واحد على قدر حاجته بل يعطى الكثير لمن لايحتاج اليه وقيل غير ذلك (كان الناس أمة واحدة) أى كانوا متفقين على دين واحد وهو الاسلام فاختلفوا واختلف فى الناس فقيل هم بنو آدم حين أخرجهم الله نسما من ظهر آدم عن أبى بن كعب قال كانوا أمة واحدة حين عرضوا على آدم فنظرهم على الاسلام وأقروا بالعبودية وكانوا مسلمين ثم اختلفوا من بعد آدم وقيل آدم وحده قاله مجاهد وسمى ناسا لانه أصل النسل وقيل آدم وحواء وقيل المراد القرون الاولى التى كانت بين آدم ونوح وهى عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا قاله ابن عباس وقيل المراد نوح ومن فى سفينته وقيل ان العرب كانت على دين ابراهيم الى أن غيره عمرو بن لحى وقيل كانوا من حين وفاة آدم الى زمان نوح على الكفر والباطل بدليل قوله فبعث الله النبيين والحكم للغالب والاول أولى قال أبو السعود وهو الانسب بالنظم الكريم وقيل ليس فى الآية مايدل على أنهم كانوا على ايمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل المراد الاخبار عن الناس الذين

(٣٥ ل ـ فتح البيان) للماشى أيضا قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية فى قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة فقال الله تعالى لى المشارق والمغارب فاين وليتم وجوهكم فهنالك وجهى وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية حدثنا محمد بن اسحق الاهوازى أخبرنا أبو أحمد الزبيرى أخبرنا أبو الربيع السمان عن عاصم بن عبيد الله بن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الاحجار فيعمل مسجدا يصلى فيه فلما ان أصبحنا اذا نحن قد صلينا الى غير القبلة فقلنا يارسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة

فأنزل الله تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله الآية ثم رواه عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن أبي الربيع السمان بنحوه ورواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن وكيع وابن ماجه عن يحيى بن حكيم عن أبي داود عن أبي الربيع السمان ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن سعيد بن سليمان عن أبي الربيع السمان واسمه أشعث بن سعيد البصري وهو ضعيف الحديث وقال الترمذي هذا حديث حسن وليس اسناده بذاك ولا نعرفه الا من حديث الاشعث السمان وأشعث يضعف في الحديث قلت وشيخه عاصم أيضا ضعيف (٢٧٤) قال البخاري منكر الحديث وقال ابن معين ضعيف لا يحتج به وقال ابن حبان متروك والله أعلم وقد روى من طريق آخر عن جابر فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية أخبرنا اسمعيل ابن علي بن اسمعيل أخبرنا الحسن ابن علي بن شبيب حدثني أحمد بن عبد الله بن الحسن قال وجدت في كتاب أبي أخبرنا عبد الملك العزرمي عن عطاء عن جابر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كنت فيها فاصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة فقالت طائفة منا قد عرفنا القبلة هي ههنا قبل الشمال فصلوا وخطوا خطوطا فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي صلى الله عليه وسلم فسكت وأنزل الله تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العزرمي عن عطاء عن جابر به وقال الدارقطني قرئ على عبد الله ابن عبد العزيز وأنا أسمع حدثكم داود بن عمرو أخبرنا محمد بن يزيد الواسطي عن محمد بن سالم عن عطاء عن جابر قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فاصابتنا غيم فتحيرنا فاختلفنا في القبلة فصلى كل رجل منا على حدة وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يأمرنا بالاعادة وقال قد أجزت صلاتكم ثم قال الدارقطني كذا قال عن محمد بن سالم وقال غيره عن محمد بن عبد الله العزرمي عن عطاء وهما ضعيفان ورواه ابن مردويه أيضا من حديث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية فاخذتهم ضبابة فلم يهتدوا الى القبلة فصلوا لغير القبلة ثم استبان لهم بعد ما طلعت الشمس انهم صلوا لغير القبلة فلما جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه

جرير

هم الجنس كله أنهم كانوا أمة واحدة في خلوهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق لولا أن الله من عليهم بارسال الرسل والامة مأخوذة من قولهم أممت الشيء أي قصدته أي مقصدهم واحد غير مختلف (فبعث الله النبيين) قيل الانبياء جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر المذكور منهم في القرآن باسماء الاعلام ثمانية وعشرون نبيا والله أعلم (مبشرين) بالثواب لمن آمن وأطاع (ومنذرين) بالعقاب لمن كفر وعصى (وأنزل معهم الكتاب) أي الجنس وقيل المراد به التوراة أو أنزل مع كل واحد الكتاب وجملة الكتب المنزلة من السماء مائة وأربعة كتب كما قيل (بالحق) أي الصدق والعدل والمراد هنا الحكم والفوائد والمصالح (ليحكم بين الناس) مسند الى الكتاب في قول الجمهور وهو مجاز مثل قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقيل ان المعنى ليحكم كل نبي بكتابه وقيل ليحكم الله (فيما اختلفوا فيه) أي في الحق الذي اختلفوا فيه من بعد ما كانوا متفقين عليه وقيل الضمير في فيه راجع الى ما في قوله فيما والضمير في قوله (وما اختلف فيه) يحتمل أن يعود الى الكتاب ويحتمل أن يعود الى المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم قاله الزجاج ويحتمل أن يعود الى الحق (الا الذين أوتوه) أي أوتوا الكتاب أو أوتوا الحق أو أوتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي أعطوا علمه (من بعد ما جاءتهم البينات) أي الدلالات الواضحات على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو الحجج الظاهرة على التوحيد (بغيا بينهم) أي لم يختلفوا الا للبغي أي الحسد والحرص على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها أي هم يكون له الملك والمهابة في الناس وفي هذا تنبيه على السفه في فعلهم القبيح الذي وقعوا فيه لانهم جعلوا نزول الكتاب سببا في شدة الخلاف (فهدى الله الذين آمنوا) أي أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (لما اختلفوا فيه من الحق) أي الى الحق ومن للبيان أو للتبعيض وذلك لما بين لهم في القرآن من اختلاف من كان قبلهم وقيل معناه فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم للتصديق بجميع الكتب بخلاف من قبلهم فان بعضهم كذب كتاب بعض وقيل ان الله هداهم الى الحق من القبلة وقيل هداهم ليوم الجمعة وقيل هداهم لاعتقاد الحق في عيسى بعد أن كذبته اليهود وجعلته النصارى ربا وقيل المراد بالحق الاسلام وقال الفراء ان في الآية قلبا وتقديره فهدى الذين آمنوا بالحق لما اختلفوا فيه واختاره ابن

وسلم حدثوه فأنزل الله تعالى هذه الآية ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله وعده الاسانيد فيها ضعف ولعله يشد بعضها بعضا وأما اعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء وهذه دلائل على عدم القضاء والله أعلم قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي كما حدثنا محمد بن بشار أخبرنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان أخاكم قد مات فصلوا عليه قالوا نصلي على رجل ليس بمسلم قال فنزلت وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله قال قتادة فقالوا انه كان لا يصلي الى القبلة فأنزل الله ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله وهذا غريب والله أعلم وقد قيل انه كان يصلي الى بيت المقدس قبل ان يبلغه الناسخ الى الكعبة كما حكاه القرطبي عن قتادة وذكر القرطبي انه لما مات صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بذلك من ذهب الى الصلاة على الغائب قال وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه أحدها انه عليه السلام شاهده حين سوي عليه طويت له الارض الثاني انه لما لم يكن عنده من يصلي عليه صلى عليه واختاره ابن العربي قال القرطبي ويبعد ان يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه وقد أجاب ابن العربي عن هذا لعلهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت وهذا جواب جيد الثالث انه عليه الصلاة والسلام انما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك والله أعلم وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث أبي معشر عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين المشرق والمغرب قبلة لاهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق وله مناسبة ههنا وقد أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي معشر واسمه نجيح بن عبد الرحمن السندي المدني به ما بين المشرق والمغرب قبلة وقال الترمذي وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة وتكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه ثم قال الترمذي حدثني الحسن بن بكر المروزي أخبرنا المعلى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر المخرمي عن عثمان بن محمد الاخنسي عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وحكى عن

جرير وضعفه ابن عطية (باذنه) قال الزجاج معناه بعلمه وقال النحاس هذا غلط والمعنى بأمره وارادته (والله يهدي من يشاء) من عباده (الى صراط مستقيم) أي طريق سوي (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) أم هنا منقطعة بمعنى بل وحكى بعض اللغويين انها قد تجيء بمثابة همزة الاستفهام يبتدؤ بها الكلام فعلى هذا معنى الاستفهام هنا التقرير والانكار أي أحسبتم دخولكم الجنة واقعا والغرض من هذا التوبيخ تشجيعهم على الصبر وحثهم عليه وحسب هنا من أخوات ظن وقد تستعمل في اليقين (ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) الواو للحال ولما بمعنى لم أي والحال انكم لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الاحوال الهائلة التي هي مثل في الفظاعة والشدة وهو متوقع منتظر ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا ذكر الله سبحانه هذه التسلية بعد ان ذكر اختلاف الامم على أنبيائهم تثبيتا للمؤمنين وتقوية لقلوبهم ومثل هذه الآية قوله أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقوله الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (مستهم) استئناف بيان لقوله مثل الذين خلوا (البأساء والضراء) قد تقدم تفسيرهما (وزلزلوا) الزلزلة شدة التحريك تكون في الاشخاص وفي الاقوال يقال زلزل الله الارض زلزلة وزلزالا بالكسر فتزلزلت أي تحركت واضطربت فمعنى زلزلوا خوفوا وأزعجوا ازعاجا شديدا وحركوا بانواع البلايا والرزايا وقال الزجاج أصل الزلزلة نقل الشيء من مكانه فاذا قلت زلزلته فمعناه كررت زلله من مكانه (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه) أي استمر ذلك الى غاية هي قول الرسول ومن معه أي صاحبوه في الايمان وحتى بمعنى الى وان مضمرة أي الى أن يقول وهي غاية لما تقدم من المس والزلزال وذلك لان الرسل أثبت من غيرهم وأصبر وأضبط للنفس عند نزول البلايا وكذلك أتباعهم من المؤمنين (متى نصر الله) متى ظرف زمان لا يتصرف الا بجره بحرف والرسول هنا قيل هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو شعياء وقيل هو كل رسول بعث الى أمته وقالت طائفة في الكلام تقديم وتأخير أي حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله ويقول الرسول ألا ان نصر الله قريب ولا ملجئ لهذا التكلف لان قول الرسول ومن معه متى نصر الله ليس فيه الا استعجال النصر من الله سبحانه وليس فيه ما زعموه من الشك والارتياب حتى يحتاج الى ذلك التأويل المتعسف قال قتادة نزلت

البخارى انه قال هذا اقوى من حديث أبى معشر وأصح قال الترمذى وقد روى عن غير واحد من الصحابة ما بين المشرق والمغرب قبلة منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس رضى الله عنهم أجمعين وقال ابن عمر اذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة اذا استقبلت القبلة ثم قال ابن مردويه حدثنا على بن أحمد بن عبد الرحمن أخبرنا يعقوب بن يوسف مولى بنى هاشم أخبرنا شعيب بن أيوب أخبرنا ابن نمير عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة وقد رواه الدارقطنى (٢٧٦) والبيهقى وقال المشهور عن ابن عمر عن عمر رضى الله عنهما قوله قال

هذه الآية فى يوم الاحزاب وهى غزوة الخندق أصاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ وأصحابه بلاء وحصر وقيل نزلت فى غزوة أحد وقيل غير ذلك وقال ابن عباس أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها وأخبرهم انه هكذا فعل بانبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم والمعنى انه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء ولم يبق لهم صبر وذلك هو الغاية القصوى فى الشدة فلما بلغ الحال فى الشدة الى هذه الغاية واستبطؤا النصر قيل لهم (ألا ان نصر الله قريب) اجابة لهم فى طلبهم والمعنى هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم الى أن يأتيهم نصر الله فكونوا يا معشر المسلمين كذلك وتحملوا الاذى والشدة والمشقة فى طلب الحق فان نصره سبحانه قريب اتيانه لا بعيد وفيه اشارة الى ان المراد بالقرب القرب الزمانى وفى ايثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقق مضمونها وتقرره ما لا يخفى (يسئلونك ماذا ينفقون) السائلون هنا هم المؤمنون سألوا عن الشئ الذى ينفقونه ما هو أى ما قدره وما جنسه (قل ما أنفقتم من خير الى آخره) فاجيبوا ببيان المصرف الذى يصرفون فيه تنبيها على انه الاولى بالقصد لان الشئ لا يعتد به الا اذا وضع فى موضعه وصادف مصرفه وقيل انه قد تضمن الآية بيان ما ينفقونه وهو كل خير وقيل انما سألوا عن وجوه البر التى ينفقون فيها وهو خلاف الظاهر وما شرطية وقيل موصولة والاول أولى لتوافق ما بعدها (فللوالدين) قدمهما لوجوب حقهما على الولد لانهما السبب فى وجوده (والاقربين) قدمهم لان الانسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء فتقديم القرابة أولى من غيرهم ولانهم أبعاض الوالدين (واليتامى) لانهم لا يقدرون على الكسب ولا لهم منفق وقد تقدم الكلام فى الاقربين واليتامى (والمساكين وابن السبيل) أى هم أولى به وانظر الى هذا الترتيب الحسن العجيب فى كيفية الانفاق كيف فصله ثم أتبعه بالاجمال فقال (وما تفعلوا من خير) أى مع هؤلاء أو غيرهم طلبا لوجه الله ورضوانه (فان الله به عليم) فيجازيكم عليه قال ابن مسعود نسختها آية الزكاة وقال الحسن انها محكمة وقال ابن زيد هذا فى النفل أى التطوع وهو ظاهر الآية فمن أحب التقرب الى الله بالانفاق فالاولى به أن ينفق فى الوجوه المذكورة فى الآية فيقدم الاول فالاول ولم يذكر فيها السائلين والرقاب كما فى الآية الاخرى اكتفاء بها

ابن جرير ويحتمل فاينما تولوا وجوهكم فى دعائكم لى فهنالك وجهى أستجيب لكم دعاءكم كما حدثنا القاسم أخبرنا الحسين حدثنى حجاج قال قال ابن جريج قال مجاهد لما نزلت ادعونى أستجب لكم قالوا الى أين فنزلت فاينما تولوا فثم وجه الله قال ابن جرير ومعنى قوله ان الله واسع عليم يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والافضال وأما قوله عليم فانه يعنى عليم باعمالهم ما يغيب عنه منها شئ ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والارض كل له قانتون بديع السموات والارض واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) اشتملت هذه الآية الكريمة والتى قبلها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب ممن جعل الملائكة بنات الله فاكذب الله جميعهم فى دعواهم وقولهم ان لله ولدا فقال تعالى سبحانه أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا بل له ما فى السموات والارض أى ليس الامر كما افتروا وانما له ملك السموات والارض ومن فيهن وهو او المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد انما يكون متولدا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد كما قال تعالى بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم وقال تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا

وماينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا ان كل من فى السموات والارض الا آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وقال تعالى قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقرر تعالى فى هذه الآيات الكريمة انه السيد العظيم الذى لا نظير له ولا شبيه له وان جميع الاشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية من البقرة أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن عبد الله بن أبى الحسين حدثنا نافع بن جبير هو ابن مطعم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياى فيزعم انى لا أقدر أن أعيده كما كان واما شتمه اياى فقوله ان لى ولدا فسبحانى ان أتخذ صاحبة أو ولدا انفرد به البخارى من هذا الوجه وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل أخبرنا محمد بن اسمعيل الترمذى أخبرنا محمد بن اسحق بن محمد القروى أخبرنا مالك عن أبى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم وما ينبغى له أن يكذبنى وشتمنى وما ينبغى له أن يشتمنى فاما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق باهون على من اعادته واما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الله الاحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله انهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم وقوله كل له قانتون قال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو سعيد الاشج أخبرنا اسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال قانتين مصلين وقال عكرمة وأبو مالك كل له قانتون مقرون له بالعبودية وقال سعيد بن جبير كل له قانتون يقول الاخلاص وقال الربيع بن أنس يقول كل له قانتون أى قائم يوم القيامة وقال السدى كل له قانتون أى مطيعون يوم القيامة وقال خصيف عن مجاهد كل له قانتون قال مطيعون كن انسانا فكان وقال كن حمارا فكان وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد كل له قانتون مطيعون قال طاعة الكافر فى سجود ظله وهو كاره وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الاقوال كلها وهو أن القنوت والطاعة والاستكانة الى الله وهو شرعى وقدرى كما قال تعالى ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض طوعا

أو بعموم قوله وما تفعلوا من خير فانه شامل لكل خير وقع فى أى مصرف (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) بين سبحانه أن هذا أى فرض القتال عليهم من جملة ما امتحنوا به والمراد بالقتال قتال الكفار والكره بالضم المشقة وبالفتح ما أكرهت عليه ويجوز الضم فى معنى الفتح فيكونان لغتين وانما كان الجهاد كرها لان فيه اخراج المال ومفارقة الاهل والوطن والتعرض لذهاب النفس وفى التعبير بالمصدر وهو كره مبالغة ويحتمل ان يكون بمعنى المكروه كما فى قولهم الدراهم ضرب الامير قيل الجهاد فرض على كل مسلم ويدل عليه ما روى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أو فاجرا أخرجه أبو داود بزيادة فيه وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا وقيل الجهاد تطوع والمراد من الآية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون غيرهم وبه قال الثورى والاوزاعى والاول أولى والجمهور على انه فرض على الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين قال الزهرى كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فبها ونعمت ومن قعد فهو عدة ان استعين به أعان واذا استنفر نفر وان استغنى عنه قعد وقيل فرض عين ان دخلوا بلادنا وفرض كفاية ان كانوا ببلادهم (وعسى أن تكرهوا شيئا) قيل عسى هنا بمعنى قد روى ذلك عن الاصم وقال أبو عبيدة عسى من الله ايجاب والمعنى عسى أن تكرهوا الجهاد طبعا لما فيه من المشقة وأما شرعا فهو محبوب وواجب ولا يلزم منه ما قاله السعد التفتازانى كراهة حكم الله ومحبة خلافه وهو ينافى كمال التصديق لان معناه كراهة النفس ذلك الفعل ومشقته مع كمال الرضا بالحكم والاذعان له (وهو خير لكم) فربما تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ومن مات مات شهيدا والواو للحال أو صفة لشئ وعليه جرى أبو البقاء هنا والزمخشرى فى قوله ولها كتاب معلوم وهو رأى ابن حيان وسائر النحويين يخالفونه (وعسى أن تحبوا شيئا) أى الدعة وترك القتال (وهو شر لكم) فربما يتقوى عليكم العدو فيغلبكم ويقصدكم الى عقر داركم فيحل بكم أشد مما تخافونه من الجهاد الذى كرهتم مع ما يفوتكم فى ذلك من الفوائد العاجلة والآجلة (والله يعلم) ما فيه صلاحكم وفلاحكم وما هو خير لكم وما فى الجهاد من الغنيمة والاجر والخير فلذلك يأمركم به

وكرهاوظلالهم بالغدو والآصال وقدورد حديث فيه بيان القنوت فى القرآن ماهو المراد به كما قال ابن ابى حاتم اخبرنا يوسف ابن عبد الاعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحرث ان دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة وكذا رواه الامام أحمد عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج باسناده مثله ولكن فى هذا الاسناد ضعف لا يعتمد عليه ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابى أو من دونه والله أعلم وكثير ما يأتى بهذا الاسناد تفاسير فيها نكارة فلا يغتر بها فان السند ضعيف والله أعلم وقوله تعالى بديع السموات والارض أى خالقهما على غير مثال سبق قال مجاهد والسدى وهو مقتضى اللغة ومنه يقال للشئ المحدث بدعة كما جاء فى صحيح مسلم فان كل محدثة بدعة والبدعة على قسمين تارة تكون بدعة شرعية كقوله فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه اياهم على صلاة التراويح واستمرارهم نعمت البدعة هذه وقال ابن جرير بديع السموات والارض مبدعهما وانما هو مفعل فصرف الى فعيل كما صرف المؤلم الى الاليم والمسمع الى السميع ومعنى المبدع المنشئ والمحدث ما لا يسبقه الى انشاء مثله واحداثه أحد قال ولذلك سمى المبتدع فى الدين مبتدعا لاحداثه فيه ما لم يسبق اليه غيره وكذلك كل محدث قولا أو فعلا لم يتقدم فيه متقدم فان العرب تسميه مبتدعا ومن ذلك قول اعشى بن ثعلبة فى مدح هوذة بن على الحنفى

يدعى الى قول سادات الرجال اذا * أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

هنا

اى يحدث ما شاء قال ابن جرير فمعنى الكلام سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك ما فى السموات والارض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية وتقر له بالطاعة وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه وهذا اعلام من الله لعباده ان ممن يشهد له بذلك المسيح الذى أضافوا الى الله بنوته واخبار منه لهم ان الذى ابتدع السموات والارض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذى ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة وقوله تعالى

(وأنتم لا تعلمون) ذلك ولذلك تكرهونه قيل انها محكمة ناسخة للعفو عن المشركين وقيل منسوخة لان فيها وجوب الجهاد على الكافة والناسخ قوله تعالى وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقيل انها ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه فالناسخ منها ايجاب الجهاد مع المشركين بعد المنع منه والمنسوخ ايجاب الجهاد على الكافة وقد ورد فى فضل الجهاد ووجوبه أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لبسطها (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) أى القتال فيه أمر كبير مستنكر والشهر الحرام المراد به الجنس وقد كانت العرب لا تستحل فيه دما ولا تغير على عدو والاشهر الحرم هى ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد وهذه الامور أعظم ذنبا وأشد اثما من القتال فى الشهر الحرام كذا قال المبرد وغيره قيل انها محكمة وانه لا يجوز الغزو فى الشهر الحرام الا بطريق الدفع وقيل منسوخة بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وبقوله قاتلوا المشركين كافة وبه قال الجمهور (وصد عن سبيل الله) أى صدكم المسلمين عن الحج أو صدكم عن الاسلام من يريده (وكفر به) الضمير يعود الى الله وقيل الى الحج (والمسجد الحرام) أى وصدكم عنه قاله الزمخشرى وغيره وتعقب بان عطف قوله وكفر به على صد مانع منه اذ لا يتقدم العطف على الموصول على العطف على الصلة وهو سبيل الله لوجود الفصل باجنبى واجيب بان الكفر بالله والصد عن سبيله متحدان معنى فكأنه لا فصل باجنبى بين سبيل وما عطف عليه (واخراج أهله منه) يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين حين أذوهم حتى هاجروا وتركوا مكة وانما جعلهم الله أهله لانهم كانوا هم القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين ومعنى الآية الذى ذهب اليه الجمهور انكم يا قريش تستعظمون علينا القتال فى الشهر الحرام وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الاسلام ومن الكفر بالله ومن الصد عن المسجد الحرام ومن اخراج أهل الحرم منه (أكبر) جرما (عند الله) وسبب النزول يشهد لهذا المعنى ويفيد أنه المراد فان السؤال منهم المذكور فى هذه الآية هو سؤال انكار لما وقع من السرية التى بعثها النبى صلى الله عليه وآله وسلم (والفتنة أكبر من القتل) المراد بالفتنة هنا الكفر والشرك قاله ابن عمر أى كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التى بعثها النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقيل المراد بالفتنة الاخراج لاهل الحرم منه وقيل المراد بالفتنة

واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه وانه اذا قدر امرا واراد كونه فانما يقول له كن أى مرة واحدة فيكون أى فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى انما أمره اذا أراد شيا ان يقول له كن فيكون وقال تعالى انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون وقال تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وقال الشاعر

اذا ما أراد الله أمرا فانما * يقول له كن قولة فيكون

ونبه بذلك أيضا على ان خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله قال الله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (وقال الذين لا يعلمون

هنا فتنتهم عن دينهم حتى يرجعوا أى فتنة المستضعفين من المؤمنين أو نفس الفتنة التى الكفار عليها وهذا أرجح من الوجهين الاولين لان الكفر والاخراج قد سبق ذكرهما وانهما مع الصد أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام وعن سفيان الثورى هذا شئ منسوخ ولا باس بالقتال فى الشهر الحرام وعن ابن عباس ان هذه الآية منسوخة بآية السيف فى براءة (ولا يزالون يقاتلونكم) ابتداء كلام يتضمن الاخبار عن الله عز وجل للمؤمنين بان هؤلاء الكفار والمشركين لا يزالون مستمرين على قتالكم وعداوتكم (حتى يردوكم عن دينكم) أى الاسلام الى الكفر (ان استطاعوا) ذلك وتهيا لهم منكم والتقييد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك وقدرتهم عليه ثم حذر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار والدخول فيما يريدونه من ردهم عن دينهم الذى هو الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين فقال (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت أعمالهم) الردة الرجوع عن الاسلام الى الكفر والتقييد بالكفر يفيد ان عمل من ارتد انما يبطل اذا مات على الكفر وأما اذا أسلم بعد الردة لم يثبت عليه شئ من أحكام الردة وفيه دليل للشافعى ان الردة لا تحبط الاعمال حتى يموت على ردته وعند أبى حنيفة ان الردة تحبط العمل وان أسلم وحبط معناه بطل وفسد ومنه الحبط وهو فساد يلحق المواشى فى بطونها من كثرة أكلها للكلا فتنتفخ أجوافها وربما ماتت من ذلك وفى هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الاسلام (فى الدنيا والآخرة) أى لا يبقى له حكم المسلمين فى الدنيا فلا يأخذ شيا مما يستحقه المسلمون من الميراث وغيره ولا يظفر بحظ من حظوظ الاسلام ولا ينال شيا من ثواب الآخرة الذى يوجبه الاسلام ويستحقه أهله وقد اختلف أهل العلم فى الردة هل تحبط العمل بمجردها أم لا تحبط الا بالموت على الكفر والواجب حمل ما أطلقته الآيات فى غير هذا الموضع على ما فى هذه الآية من التقييد (وأولئك أصحاب النار) يعنى الذين ماتوا على الردة والكفر (هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها أبدا وقد تقدم الكلام فى معنى الخلود (ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله) الهجرة معناها الانتقال من موضع الى موضع وترك الاول لا يثار الثانى والهجر ضد الوصل والتهاجر التقاطع والمراد بها هنا الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام والمجاهدة استخراج الجهد والجهاد والتجاهد بذل الوسع (أولئك يرجون) أى

لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) قال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد ان كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه فانزل الله فى ذلك من قوله وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية وقال مجاهد وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية قال النصارى تقوله وهو اختيار ابن جرير قال لان السياق فيهم وفى ذلك نظر وحكى القرطبى لولا يكلمنا الله أى يخاطبنا بنبوتك يا محمد قلت وهو ظاهر السياق والله أعلم وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدى فى تفسير هذه الآية هذا قول كفار العرب كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم قال هم اليهود والنصارى ويؤيد هذا القول وان القائلين ذلك هم مشركوا العرب قوله تعالى واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الآية وقوله تعالى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا وقوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا الآية وقوله تعالى بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة الى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركى العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به انما هو الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الامم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم كما قال تعالى يسالك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سالوا موسى أكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة وقال تعالى واذ

قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وقوله تعالى تشابهت قلوبهم أى اشبهت قلوب مشركى العرب قلوب من تقدمهم
فى الكفر والعناد والعتو كما قال تعالى كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به الآية وقوله
تعالى قد بينا الآيات لقوم يوقنون أى قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها الى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن
أيقن وصدق واتبع الرسل وفهم ما جاؤا به عن الله تبارك وتعالى وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فاولئك
قال الله فيهم ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم (انا ارسلناك بالحق

يطمعون وانما قال يرجون بعد تلك الاوصاف المادحة التى وصفهم بها لانه لا يعلم
أحد فى هذه الدنيا انه صائر الى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ والرجاء الأمل يقال
رجوت فلانا أرجوه رجاء وهو ضد اليأس وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما فى قوله تعالى
مالكم لا ترجون لله وقارا أى لا تخافون عظمة الله وهل اطلاقه عليه بطريق الحقيقة
أو المجاز زعم قوم أنه حقيقة ويكون من الاشتراك اللفظى وزعم قوم أنه من الاضداد
فهو اشتراك لفظى أيضا وقال ابن عطية الرجاء أبدا معه خوف كما ان الخوف معه رجاء
وزعم قوم انه مجاز للتلازم الذى ذكرناه قال قتادة أثنى الله على أصحاب محمد صلى الله عليه
وآله وسلم أحسن الثناء فى هذه الآية وهم خيار هذه الامة ثم جعلهم أهل رجاء ومن رجا
طلب ومن خاف هرب (رحمت الله) أخبر أنهم على رجاء الرحمة وقد كتبت رحمة هذا بالتاء
وهى فى القرآن فى سبعة مواضع (والله غفور) لذنوب عباده (رحيم) بهم باجزال الاجر
(يسئلونك عن الخمر) السائلون المؤمنون فقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذى
وصححه والنسائى وغيرهم عن عمر أنه قال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فانها تذهب
بالمال والعقل فنزلت يعنى هذه الآية فدعى عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا
شافيا فنزلت التى فى سورة النساء يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى فكان
ينادى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا قام الى الصلاة ان لا يقربن الصلاة سكران
فدعى عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى المائدة
فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ فهل أنتم منتهون قال عمر انتهينا وانتهينا والخمر ما خوذة من
خمر اذا ستر ومنه خمار المرأة وكل شئ غطى شيأ فقد خمره ومنه خمروا آنيتكم وسمى خمر
لانه يخمر العقل أى يغطيه ويستره وقيل سميت خمرا لانها تركت حتى أدركت أى
بلغت ادراكه وقيل لانها تخالط العقل من المخامرة وهو المخالطة وهذه المعانى الثلاثة
متقاربة موجودة فى الخمر لانها تركت حتى أدركت ثم خالطت العقل فخمرته أى سترته
والخمر ماء العنب الذى غلا واشتد وقذف بالزبد وما خامر العقل من غيره فهو فى حكمه كما
ذهب اليه الجمهور وقال أبو حنيفة والثورى وابن أبى ليلى وابن شبرمة وجماعة من فقهاء
الكوفة ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال أى ما دون المسكر منه وذهب أبو
حنيفة الى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ والخلاف فى ذلك مشهور وقد أطلت الكلام على

الخمر

شعرى ما فعل ابواى ليت شعرى ما فعل ابواى فنزلت ولا تسال عن اصحاب الجحيم فاذكرهما حتى توفاه الله عز وجل ورواه ابن
جرير عن أبى كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب بمثله وقد حكاه القرطبى عن ابن عباس ومحمد
ابن كعب قال القرطبى وهذا كما يقال لا تسال عن فلان اى قد بلغ فوق ما تحسب وقد ذكرنا فى التذكرة ان الله أحيا له أبويه حتى آمنا
به وأجبنا عن قوله ان أبى وأباك فى النار قلت والحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام ليس فى شئ من الكتب الستة ولا غيرها

ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى
أخبرنا عبد الرحمن بن صالح أخبرنا
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله
الفزارى عن شيبان النحوى
اخبرنى قتادة عن عكرمة عن ابن
عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم
قال أنزلت على انا أرسلناك بالحق
بشيرا ونذيرا قال بشيرا بالجنة ونذيرا
من النار وقوله ولا تسئل على
أصحاب الجحيم قراءة أكثرهم ولا
تسئل بضم التاء على الخبر وفى قراءة
أبى بن كعب وما تسئل وفى قراءة
ابن مسعود ولن تسئل أصحاب
الجحيم نقلها ابن جرير أى لا نسالك
عن كفر من كفر بك كقوله فانما
عليك البلاغ وعلينا الحساب
وكقوله تعالى فذكر انما أنت
مذكر لست عليهم بمسيطر الآية
وكقوله تعالى نحن أعلم بما يقولون
وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن
من يخاف وعيد واشباه ذلك من
الآيات وقرأ آخرون ولا تسال عن
أصحاب الجحيم بفتح التاء على النهى
أى لا تسال عن حالهم كما قال عبد
الرزاق أخبرنا الثورى عن موسى
ابن عبيدة عن محمد بن كعب القرظى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليت

واسناده ضعيف والله أعلم ثم قال ابن جرير وحدثني القاسم اخبرنا الحسين حدثني حجاج عن ابن جريج أخبرني داود بن أبي عاصم به أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم أين أبواي فنزلت انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم وهذا مرسل كالذي قبله وقد رد ابن جرير هذا القول المروي عن محمد بن كعب وغيره في ذلك لاستحالة الشك من الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر أبويه واختار القراءة الاولى وهذا الذي سلكه ههنا فيه نظر لاحتمال ان هذا كان في حال استغفاره لابويه قبل أن يعلم أمرهما فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما انهما من أهل النار كما ثبت (٢٨١) هذا في الصحيح ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ماذكر ابن جرير والله أعلم

وقال الامام أحمد اخبرنا موسى ابن داود حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال أجل والله انه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للامين وأنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لافظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بان يقولوا لا اله الا الله فيفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا انفرد باخراجه البخاري فرواه في البيوع عن محمد ابن سنان عن فليح به وقال تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام ورواه في التفسير عن عبد الله عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص به فذكر نحوه فعبد الله هذا هو ابن صالح كما صرح به في كتاب الادب وزعم ابن مسعود الدمشقي أنه عبد الله بن رجاء وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من البقرة عن أحمد بن الحسن بن أيوب عن محمد بن أحمد بن البراء عن المعافى بن سليمان عن فليح به وزاد قال عطاء ثم لقيت كعب الاحبار فسألته فما اختلفا في حرف الا أن كعبا قال بلغته أعينا عميا وآذانا صميا وقلوبا غلوفا (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته

الخمر في شرحي لبلوغ المرام وأطال الشوكاني الكلام عليه في شرحه للمنتقى فليرجع اليهما وجملة القول في تحريم الخمر ان الله أنزل فيه أربع آيات نزل بمكة ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا فكان المسلمون يشربونها في أول الاسلام وهي لهم حلال ثم نزل بالمدينة في جواب عمر ومعاذ هذه الآية فتركها قوم لقوله فيهما اثم كبير وشربها قوم لقوله ومنافع للناس ثم نزل لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى فترك قوم شربها في أوقات الصلاة ثم أنزل الله الآية التي في المائدة وذلك بعد غزوة الاحزاب بايام والخمر تذكر وتؤنث وقال الاصمعي الخمر أنثى وأنكر التذكير (والميسر) مصدر ميمي ماخوذ من اليسر وهو وجوب الشيء لصاحبه يقال يسر لي كذا اذا وجب والياسر اللاعب بالقداح وقال الازهري الميسر الجزور الذي كانوا يتقامرون عليه سمي ميسرا لانه يجزأ أجزاء فكأنه موضع التجزئة وكل شيء جزأته فقد يسرته والياسر الجازر وقال وهذا الاصل في الياسر ثم يقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور ياسرون لانهم جازرون اذ كانوا سبب ذلك والمراد بالميسر في الآية قمار العرب بالازلام قال جماعة من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كل شيء فيه قمار من نرد وشطرنج أو غيرهما فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب الا ما أبيح من الرهان في الخيل والقرعة في افراز الحقوق وقال مالك الميسر ميسران ميسر اللهو وميسر القمار فمن ميسر اللهو النرد والشطرنج والملاهي كلها وميسر القمار ما يتخاطر الناس عليه وكل ما قومر به فهو ميسر كالطاب والمنقلة والطاولة وغيرها وسيأتي البحث مطولا في هذا في سورة المائدة عند قوله انما الخمر والميسر ان شاء الله تعالى (قل فيهما اثم كبير) يعني في الخمر والميسر فاثم الخمر أي اثم تعاطيها ينشأ من فساد عقل مستعملها فيصدر عنه ما يصدر عن فاسد العقل من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور وتعطيل الصلوات وسائر ما يجب عليه وأما اثم الميسر أي اثم تعاطيه فانه ينشأ عن ذلك من الفقر وذهاب المال في غير طائل والعداوة وايحاش الصدور (ومنافع للناس) أما منافع الخمر فربح التجارة فيها وقيل ما يصدر عنها من الطرب واللذة والنشاط والفرح وقوة القلب وثبات الجنان واصلاح المعدة وقوة الباه وتصفية اللون وحمل البخيل على الكرم وزوال الهم وهضم الطعام وتشجيع الجبان وقد أشار شعراء العرب الى شيء من ذلك في أشعارهم ومنافع الميسر مصير الشيء الى

اولئك يؤمنون به ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون) قال ابن جرير يعني بقوله جل ثناؤه ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبدا فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم الى ما بعثك الله به من الحق وقوله تعالى قل ان هدى الله هو الهدى أي قل يا محمد ان هدى الله الذي بعثني به هو الهدى يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل قال قتادة في قوله قل ان هدى الله هو الهدى قال خصومة علمها الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يخاصمون بها (٢٨٢) أهل الضلالة قال قتادة وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله (قلت) هذا الحديث مخرج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير فيه تهديد ووعيد شديد للامة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذا بالله من ذلك فان الخطاب مع الرسول والامر لامته وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله حتى تتبع ملتهم حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى لكم دينكم ولي دين فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا لانهم كلهم ملة واحدة وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه وقال في الرواية الاخرى كقول مالك انه لا يتوارث أهل ملتين شتى كما جاء في الحديث والله أعلم وقوله الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة هم اليهود والنصارى وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقال سعيد عن قتادة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا ابراهيم بن موسى وعبد الله بن عمران الاصبهاني قال أخبرنا يحيى بن يمان حدثنا اسامة بن زيد عن أبيه عن عمر بن الخطاب يتلونه حق تلاوته قال اذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة واذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار وقال أبو العالية قال ابن مسعود والذي نفسي بيده ان حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزل الله ولا يحرف الكلام عن مواضعه ولا

الانسان بغير تعب ولا كد وما يحصل من السرور والاريحية عند أن يصيب له منها سهم صالح وسهام الميسر احد عشر منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الخطوط وهي الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافر والمسبل والمعلى والسفيح والوغد والضعيف والجزور ولا نطول بذكر علاماتها وأحوالها (وإثمهما أكبر من نفعهما) أخبر سبحانه بان الخمر والميسر وان كان فيهما نفع فالاثم الذي يلحق متعاطيهما أكثر من هذا النفع لانه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر فانه ينشأ عنه من الشرور ما لا يأتي عليه الحصر وكذلك لا خير في الميسر يساوي ما فيها من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر واستجلاب العداوات المفضية الى سفك الدماء وهتك الحرم وقد وردت في تحريم الخمر وعيد شار بها أحاديث كثيرة (ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو) والعفو ما سهل وتيسر ولم يشق على القلب والمعنى أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تجهدوا فيه أنفسكم وقيل هو ما فضل عن نفقة العيال وقال جمهور العلماء هو نفقات التطوع وقيل ان هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة وقيل هي محكمة وفي المال حق سوى الزكاة وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول وثبت نحوه في الصحيح مرفوعا من حديث حكيم ابن حزام وفي الباب أحاديث كثيرة وقيل المعنى خذ الميسور من اخلاق الرجال ولا تستقص عليهم كذلك يبين الله لكم الآيات) أي في أمر النفقة ومصارفها (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) أي في أمرهما فتحبسون من أموالكم ما تصلحون به معايش دنياكم وتنفقون الباقي في الوجوه المقربة الى الآخرة وقيل في الكلام تقديم وتأخير أي كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزوالها وفي الآخرة وبقائها فترغبون عن العاجلة الى الآجلة (ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير) هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى ولا تقربوا مال اليتيم وقوله ان الذين يأكلون أموال اليتامى وقد ضاق على الاولياء الامر فنزلت هذه الآية والمراد بالاصلاح هنا مخالطتهم على وجه الاصلاح لاموالهم فان ذلك أصلح من مجانبتهم وفي ذلك دليل على جواز التصرف في أموال الايتام من الاولياء والاوصياء بالبيع والمضاربة والاجارة ونحو ذلك وقيل ان يوسع على اليتيم من طعام نفسه ولا يوسع عليه من طعامه

ولا يتأول منه شيأ على غير تأويله وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ومنصور بن المعتمر عن ابن مسعود قال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس فى هذه الآية قال يحلون حلاله و يحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن مسعود نحو ذلك وقال الحسن البصرى يعملون بمحكمه و يؤمنون بمتشابهه و يكلون ما أشكل عليهم الى عالمه وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو زرعة أخبرنا ابراهيم بن موسى أخبرنا ابن أبى زائدة أخبرنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله يتلونه حق تلاوته قال يتبعونه حق اتباعه ثم قرأ والقمر اذا تلاها يقول اتبعها (٢٨٣) قال وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد وأبى رزين وابراهيم النخعى نحو ذلك وقال سفيان الثورى أخبرنا زبيد عن مرة عن عبد الله بن مسعود فى قوله يتلونه حق تلاوته قال يتبعونه حق اتباعه قال القرطبى وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله يتلونه حق تلاوته قال يتبعونه حق اتباعه ثم قال فى اسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب الا أن معناه صحيح وقال أبو موسى الاشعرى من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة وعن عمر بن الخطاب هم الذين اذا مروا بآية رحمة سألوها من الله واذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها قال وقد روى هذا المعنى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا مر بآية رحمة سأل واذا مر بآية عذاب تعوذ وقوله أولئك يؤمنون به خبر عن الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أى من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الانبياء المتقدمين حق اقامته آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم الآية وقال قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم أى اذا أقمتموها حق الاقامة وآمنتم بها حق الايمان وصدقتم ما فيها من الاخبار بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وصفته والامر باتباعه ونصره وموازرته قادكم ذلك الى الحق واتباع الخير فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل الآية وقال قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا و يقولون سبحان ربنا ان

ولا يأخذ أجرة ولا عوضا على اصلاح أمواله (وان تخالطوهم فاخوانكم) اختلف فى تفسير المخالطة لهم فقال أبو عبيدة مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال و يشق على كافله ان ينفرد طعامه عنه ولا يجد بدا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى انه كافيه بالتحرى فيجعله مع نفقة أهله وهذا قد تقع فيه الزيادة والنقصان فدلت هذه الآية على الرخصة وهى ناسخة لما قبلها وقيل المراد بالمخالطة المعاشرة للايتام وقيل المراد بها المصاهرة لهم والاولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص بل يشمل كل مخالطة كما يستفاد من الجملة الشرطية والتقدير فهم اخوانكم فى الدين (والله يعلم المفسد) لاموالهم بمخالطته (من المصلح) بها تحذير للاولياء أى لا يخفى على الله من ذلك شئ فهو يجازى كل أحد بعمله من أصلح فلنفسه ومن أفسد فعليها ففيه وعد ووعيد خلا أن فى تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد (ولو شاء الله لأعنتكم) أى جعل ذلك شاقا عليكم ومتعبا لكم وأوقعكم فيما فيه الحرج والمشقة وقيل العنت هنا معناه الهلاك قاله أبو عبيدة وأصل العنت المشقة وقال ابن الانبارى أصل العنت التشديد ثم نقل الى معنى الهلاك (ان الله عزيز) أى لا يمتنع عليه شئ لانه غالب لا يغالب (حكيم) يتصرف فى ملكه بما تقتضيه مشيئته وحكمته وليس لكم ان تختاروا لانفسكم (ولا تنكحوا المشركات) أى لا تتزوجوا والمراد بالنكاح العقد لا الوطء حتى قيل انه لم يرد فى القرآن بمعنى الوطء أصلا (حتى يؤمن) حتى بمعنى الى أى الى أن يؤمن وفى هذه الآية النهى عن نكاح المشركات فقيل المراد بها الوثنيات وقيل انها تعم الكتابيات لان أهل الكتاب مشركون قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية فقالت طائفة ان الله حرم نكاح المشركات فيها والكتابيات من الجملة ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتابيات من هذا العموم وهذا محكى عن ابن عباس ومالك وسفيان بن سعيد وعبد الرحمن بن عمرو الاوزاعى وذهبت طائفة الى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة وانه يحرم نكاح الكتابيات والمشركات وهذا أحد قولى الشافعى وبه قال جماعة من أهل العلم و يجاب عن قولهم ان هذه الآية ناسخة لآية المائدة بان سورة البقرة من أول ما نزل وسورة المائدة من آخر ما نزل والقول الاول هو الراسخ وقد قال به مع من تقدم عثمان بن عفان وطلحة وجابر وحذيفة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير

كان وعد ربنا المفعولا أى ان كان ماوعدنا به من شان محمد صلى الله عليه وسلم لواقعا وقال تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وقال تعالى وقل للذين أوتوا الكتاب والامين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ولهذا قال تعالى ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون كما قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وفى الصحيح والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الامة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى الا دخل النار (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) قد تقدم نظير هذه الآية فى صدر السورة وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبى الامى الذى يجدون صفته فى كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته فحذرهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ولا يحسدوا بنى عمهم من العرب على ما رزقهم الله من ارسال الرسول الخاتم منهم ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته صلوات الله وسلامه عليه دائما الى يوم الدين (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) يقول تعالى منبها على شرف ابراهيم خليله عليه السلام وأن الله تعالى جعله اماما للناس يقتدى به فى التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الاوامر والنواهى ولهذا قال واذ ابتلى وهم ابراهيم ربه بكلمات أى واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة ابراهيم وليسوا عليها وانما الذى هو عليه مستقيم فانت والذين معك من المؤمنين اذكر لهؤلاء ابتلاء الله ابراهيم أى اختباره له بما كلفه به من الاوامر والنواهى فاتمهن أى قام بهن كلهن كما قال تعالى وابراهيم الذى وفى أى وفى جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه وقال تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه

والحسن وطاوس وعكرمة والشعبى والضحاك كما حكاه النحاس والقرطبى وقد حكاه ابن المنذر عن المذكورين وزاد عمر بن الخطاب وقال لا يصح عن أحد من الاوائل انه حرم ذلك وقال بعض أهل العلم ان لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين وعلى فرض أن لفظ المشركين يعم فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدمنا عن مقاتل بن حيان قال نزلت هذه الآية فى أبى مرثد الغنوى استأذن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى عناق أن يتزوجها وكانت ذات حظ من جمال، وهى مشركة وأبو مرثد يومئذ مسلم فقال يا رسول الله انها تعجبنى فأنزل الله ولا تنكحوا المشركات أخرجه ابن أبى حاتم وابن المنذر وأخرج البخارى عن ابن عمر قال حرم الله نكاح المشركات على المسلمين ولا أعرف شيأ من الاشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة) أى ولرقيقة مؤمنة أنفع وأصلح وأفضل من حرة مشركة وقيل المراد بالامة الحرة لان الناس كلهم عبيد الله واماؤه والاول أولى لانه الظاهر من اللفظ ولانه أبلغ فان تفضيل الامة المؤمنة على الحرة المشركة يستفاد منه تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشركة بالاولى قال ابن عرفة يجىء التفضيل فى كلامهم ايجابا للاول ونفيا عن الثانى فعلى هذا لا يلزم وجود خير فى المشركة مطلقا (ولو أعجبتكم) المشركة من جهة كونها ذات جمال أو مال أو نسب أو شرف وهذه الجملة حالية قال السيوطى وهذا مخصوص بغير الكتابيات بآية والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب (ولا تنكحوا المشركين) أى لا تزوجوا الكفار بالمؤمنات خطاب للاولياء (حتى يؤمنوا) قال القرطبى وأجمعت الامة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لما فى ذلك من الغضاضة على الاسلام (ولعبد) الكلام فيه كالكلام فى قوله ولأمة والترجيح كالترجيح (مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) أى بحسنه وجماله ونسبه وماله (أولئك) اشارة الى المشركين والمشركات (يدعون الى النار) أى الى الاعمال الموجبة للنار فكان فى مصاهرتهم ومعاشرتهم ومصاحبتهم من الخطر العظيم ما لا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له ويدخلوا فيه (والله يدعو الى الجنة والمغفرة) أى الى الاعمال الموجبة للجنة وقيل المراد أن أولياء الله وهم المؤمنون يدعون الى الجنة (باذنه) أى بامره قاله الزجاج وقيل بتيسيره وتوفيقه قاله فى الكشاف فتجب اجابته بالتزويج من أوليائه

في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين وقال تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين وقوله تعالى بكلمات أي بشرائع وأوامر ونواه فان الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا أي كلماته الشرعية وهي اما خبر صدق واما طلب عدل ان (٢٨٥) كان أمرا أو نهيا ومن ذلك هذه الآية الكريمة واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن أي قام بهن قال اني جاعلك للناس اماما أي جزاء على ما فعل كما قام بالاوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة واماما يقتدى به ويحتذى حذوه وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها ابراهيم الخليل عليه السلام فروى عن ابن عباس في ذلك روايات فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ابن عباس ابتلاه الله بالمناسك وكذا رواه أبو اسحق السبيعي عن التيمي عن ابن عباس وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات قال ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وحلق وفرق الرأس وفي الجسد تقليم الاظفار وحلق العانة والختان ونتف الابط وغسل أثر الغائط والبول بالماء قال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك (قلت) وقريب من هذا ثابت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر من الفطرة قص الشارب واعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الاظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وانتقاص الماء قال مصعب ونسيت العاشرة الا ان تكون المضمضة قال وكيع انتقاص الماء يعني الاستنجاء وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الاظفار ونتف الابط ولفظه لمسلم وقال ابن أبي حاتم أنبأنا يونس بن عبد الاعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن

وهم المسلمون (ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) أي يوضح أدلته وحججه في أوامره ونواهيه وأحكامه لعلهم يتعظون (ويسئلونك عن المحيض) السائل أبو الدحداح في نفر من الصحابة والمحيض هو الحيض وهو مصدر ميمي يقال حاضت المرأة حيضا ومحيضا فهي حائض وحائضة كذا قال الفراء ونساء حيض وحوائض والحيضة بالكسر المرة الواحدة وقيل الاسم وقيل المحيض عبارة عن الزمان والمكان وهو مجاز فيهما وقال ابن جرير الطبري المحيض اسم الحيض أي الحدث وأصل هذه الكلمة من السيلان والانفجار يقال حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أي سالت رطوبتها ومنه الحوض لان الماء يحوض اليه أي يسيل (قل هو أذى) أي شيء يتأذى به أي برائحته والاذى كناية عن القذر ومحله ويطلق على القول المكروه ومنه قوله تعالى ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى ومنه قوله تعالى ودع أذاهم (فاعتزلوا النساء في المحيض) أي فاجتنبوهن واتركوا وطأهن في زمان الحيض ان حمل المحيض على المصدر أو في محل الحيض ان حمل على الاسم والمراد من هذا الاعتزال ترك المجامعة لا ترك المجالسة أو الملابسة فان ذلك جائز بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج أو بما دون الازار على خلاف في ذلك وأما ما روى عن ابن عباس وعبيدة السلماني أنه يجب على الرجل ان يعتزل فراش زوجته اذا حاضت فليس ذلك بشيء ولا خلاف بين أهل العلم في تحريم وطء الحائض وهو معلوم من ضرورة الدين وقد أخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أنس ان اليهود كانوا اذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فأنزل الله ويسئلونك عن المحيض الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء الا النكاح (ولا تقربوهن) بالجماع (حتى يطهرن) قرئ بالتخفيف والتشديد والطهر انقطاع الحيض والتطهر الاغتسال وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم فذهب الجمهور الى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجها حتى تطهر بالماء وقال محمد بن كعب القرظي ويحيى بن بكير اذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وان لم تغتسل وقال مجاهد وعكرمة ان انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن تتوضأ وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ان انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل وان كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز حتى تغتسل أو يدخل

خنيس بن عبد الله الصنعاني عن ابن عباس أنه كان يقول في تفسير هذه الآية واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال عشر ست في الانسان وأربع في المشاعر فاما التي في الانسان حلق العانة ونتف الابط والختان وكان ابن هبيرة يقول هؤلاء الثلاثة واحدة (١) وتقليم الاظفار وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة والاربعة التي في المشاعر الطواف والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار والافاضة وقال داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس انه قال ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله الا ابراهيم قال الله تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات (٢٨٦) فأتمهن قلت له وما الكلمات التي ابتلى الله ابراهيم بهن فأتمهن قال الاسلام ثلاثون سهما منها عشر آيات في براءة التائبون العابدون الى آخر الآية وعشر آيات في أول سورة قد أفلح المؤمنون وسأل سائل بعذاب واقع وعشر آيات في الاحزاب ان المسلمين والمسلمات الى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة قال الله وابراهيم الذي وفى قال هكذا رواه الحاكم وأبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم باسانيدهم الى داود بن أبي هند به وهذا لفظ ابن أبي حاتم وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال الكلمات التي ابتلى الله بهن ابراهيم فأتمهن فراق قومه في الله حين أمر بفارقتهم ومحاجته نمروذ في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الامر الذي فيه مخالفهم وصبره على قذفهم اياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له اسلم قال أسلمت لرب العالمين على ما كان من خلاف كتاب الناس وفراقهم وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبو سعيد الاشج أخبرنا اسمعيل بن علية عن أبي رجاء عن الحسن يعني البصري واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال ابتلاه بالكوكب فرضي عنه وابتلاه بالقمر فرضي عنه وابتلاه بالشمس فرضي عنه وابتلاه بالهجرة فرضي عنه وابتلاه بالختان فرضي عنه وابتلاه بابنه فرضي عنه وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع

عليها وقت صلاة وقد رجح ابن جرير الطبري قراءة التشديد والاولى أن يقال ان الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان احداهما انقطاع الدم والاخرى التطهر منه والغاية الاخرى مشتملة على زيادة على الغاية الاولى فيجب المصير اليها وقد دل على أن الغاية الاخرى هي المعتبرة قوله تعالى بعد ذلك (فاذا تطهرن) فان ذلك يفيد أن المعتبر التطهر لا مجرد انقطاع الدم وقد تقرر ان القراءتين بمنزلة الآيتين فكما انه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة احداهما على زيادة تما والعمل بتلك الزيادة كذلك يجب الجمع بين القراءتين (فأتوهن من حيث أمركم الله) أي فجامعوهن وكنى عنه بالاتيان والمراد انهم يجامعوهن في المأتي الذي أباحه الله وهو القبل وقيل من حيث بمعنى في حيث كما في قوله تعالى اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة أي في يوم الجمعة وقوله ماذا خلتموا من الارض أي في الارض وقيل ان المعنى من الوجه الذي أذن الله لكم فيه أي من غير صوم واحرام واعتكاف وقيل ان المعنى من قبل الطهر لا من قبل الحيض وقيل من قبل الحلال لا من قبل الزنا (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) قيل المراد التوابون من الذنوب والمتطهرون من الجنابة والاحداث وقيل التوابون من اتيان النساء في أدبارهن وقيل من اتيانهن في المحيض والاول أظهر (نساؤكم حرث لكم) لفظ الحرث يفيد أن الاباحة لم تقع الا في الفرج الذي هو القبل خاصة اذ هو مزدرع الذرية كما أن الحرث مزدرع النبات فقد شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بما يلقى في الارض من البذور التي منها النبات بجامع ان كل واحد منهما مادة لما يحصل منه وهذه الجملة بيان للجملة الاولى أعني قوله فأتوهن من حيث أمركم الله (فأتوا حرثكم) أي محل زرعكم واستنباتكم الولد وهو القبل وهذا على سبيل التشبيه بجعل فرج المرأة كالارض والنطفة كالبذر والولد كالزرع (أنى شئتم) أي من أي جهة شئتم من خلف وقدام وباركة ومستلقية ومضطجعة وقاعدة ومقبلة ومدبرة اذا كان في موضع الحرث وانما عبر سبحانه بكلمة أنى لكونها أعم في اللغة من أين وكيف ومتى وأما سيبويه ففسرها بكيف وقد ذهب السلف والخلف من الصحابة والتابعين والائمة الى ما ذكرناه من تفسير الآية وان اتيان الزوجة في دبرها حرام وروى عن سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وعبد الملك بن الماجشون انه يجوز ذلك حكاه عنهم القرطبي في تفسيره قال وحكى ذلك عن مالك في كتاب له يسمى

(١) قوله وتقليم الاظفار الخ كذا في النسخ التي بايدينا والمعدود خمسة على قول ابن هبيرة وسبعة على قول غيره فالعدد على كل حال غير ظاهر وقوله بعد فلما مضى على ذلك الخ فيه ما يحتاج الى تأمل اه مصححه

أخبرنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول اى والله لقد ابتلاه بامر فصبر عليه ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فاحسن فى ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول فوجه وجهه للذى فطر السموات والارض حنيفا وما كان من المشركين ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرا الى الله ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك وابتلاه بذبح ابنه والختان فصبر على ذلك وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عمن سمع الحسن يقول فى قوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات قال ابتلاه الله بذبح ولده وبالنار والكوكب والشمس والقمر وقال أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا مسلم بن قتيبة أخبرنا أبو هلال عن الحسن واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات قال ابتلاه بالكوكب وبالشمس والقمر فوجده (٢٨٧) صابرا وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال انى جاعلك للناس اماما ومنهن واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ومنهن الآيات فى شان المنسك والمقام الذى جعل لابراهيم والرزق الذى رزق سا كنو البيت ومحمد بعث فى دينهما وقال ابن أبى حاتم أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا شبابة عن ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال الله لابراهيم انى مبتليك بامر فما هو قال تجعلنى للناس اماما قال نعم قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين قال تجعل البيت مثابة للناس قال نعم قال وأمنا قال نعم قال تجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك قال نعم قال وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله قال نعم قال ابن أبى نجيح سمعته من عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكره وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال ابتلى بالآيات التى بعدها انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات قال الكلمات انى جاعلك للناس اماما وقوله واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا وقوله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقوله وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل الآية وقوله واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل الآية قال فذلك كله من الكلمات التى ابتلى بهن ابراهيم وقال السدى الكلمات التى ابتلى بهن ابراهيم ربه ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة

كتاب السر وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر ووقع هذا القول فى العتبية وذكر ابن العربى ان ابن شعبان أسند جواز ذلك الى زمرة كثيرة من الصحابة والتابعين والى مالك من روايات كثيرة فى كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن قال الطحاوى روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم قال ما أدركت أحدا أقتدى به فى دينى شك فى أنه حلال يعنى وطء المرأة فى دبرها ثم قرأ نساؤكم حرث لكم ثم قال فاى شئ أبين من هذا وقد روى الحاكم والدارقطنى والخطيب البغدادى عن مالك من طرق ما يقتضى اباحة ذلك وفى أسانيدها ضعف وقد روى الطحاوى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم انه سمع الشافعى يقول ما صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى تحليله ولا تحريمه شئ والقياس انه حلال وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب قال ابن الصباغ كان الربيع يحلف بالله الذى لا اله الا هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعى فى ذلك فان الشافعى نص على تحريمه فى ستة كتب من كتبه وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن جابر قال كانت اليهود تقول اذا أتى الرجل امرأته من خلفها فى قبلها ثم حملت جاء الولد أحول فنزلت نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ان شاء مجبية وان شاء غير مجبية غير ان ذلك فى صمام واحد وقد روى هذا عن جماعة من السلف وصرحوا انه السبب والصمام السبيل وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وحسنه والنسائى والضياء فى المختارة وغيرهم عن ابن عباس قال جاء عمر الى رسول الله فقال يا رسول الله هلكت قال وما أهلكك قال حولت رحلى الليلة فلم يرد عليه شيأ فاوحى الله الى رسوله هذه الآية نساؤكم حرث لكم يقول اقبل وادبر واتق الدبر والحيضة وأخرج الشافعى فى الام وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى وابن ماجه وابن المنذر والبيهقى فى سننه من طريق خزيمة بن ثابت ان سائلا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن اتيان النساء فى أدبارهن فقال حلال أولا بأس فلما ولى دعاه فقال كيف قلت أمن دبرها فى قبلها فنعم أم من دبرها فى دبرها فلا ان الله لا يستحى من الحق لا تأتوا النساء فى أدبارهن وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وحسنه والنسائى وابن حبان عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينظر الله الى رجل أتى امرأة فى الدبر وأخرج أحمد والبيهقى فى سننه عن ابن عمر وأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال الذى يأتى

مسلمة لك ربنا وابعث فيهم رسولا منهم وقال القرطبي وفي الموطا وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول ابراهيم عليه السلام أول من اختتن وأول من ضاف الضيف وأول من قلم أظفاره وأول من قص الشارب وأول من شاب فلما رأى الشيب قال ما هذا قال وقار قال يارب زدني وقارا وذكر ابن أبي شيبة عن سعد بن ابراهيم عن أبيه قال أول من خطب على المنابر ابراهيم عليه السلام قال غيره وأول من برد البريد وأول من ضرب بالسيف وأول من استاك وأول من استنجى بالماء وأول من لبس السراويل وروى معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أتخذ المنبر فقد اتخذه أبي ابراهيم وان أتخذ العصا فقد اتخذها أبي ابراهيم (قلت) هذا الحديث لا يثبت والله أعلم ثم شرع القرطبي يتكلم على ما يتعلق بهذه الاشياء من الاحكام الشرعية قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله انه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشئ منها أنه المراد على التعيين الا بحديث أو اجماع قال ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له قال غير واحد انه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في نظير معنى ذلك خبران أحدهما ما حدثنا به أبو كريب أخبرنا راشد بن سعد حدثني زبان ابن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله الذي وفى لانه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون الى آخر الآية قال والآخر منهما ما حدثنا به أبو كريب أخبرنا الحسن عن عطية أخبرنا اسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وابراهيم الذي وفى قال أتدرون ما وفى قالوا الله ورسوله أعلم قال وفى عمل يومه أربع ركعات في النهار ورواه آدم في تفسيره عن حماد بن سلمة وعبد بن حميد عن يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير به ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين وهو كما قال فانه لا يجوز روايتهما الا ببيان ضعفهما وضعفهما من وجوه عديدة فان كلا من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما في متن الحديث مما يدل على ضعفه والله أعلم ثم قال ابن جرير ولو قال قائل ان الذي قاله

امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملعون من أتى امرأته في دبرها وقد ورد النهي عن ذلك من طرق وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين مرفوعا وموقوفا وقد روى القول بحل ذلك عن بعضهم كما قدمنا وليس في أقوال هؤلاء حجة البتة ولا يجوز لاحد أن يعمل على أقوالهم فانهم لم يأتوا بدليل يدل على الجواز فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ في فهمه وقد فسرها النار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكابر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطئ في فهمه كائنا من كان ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلا أتى امرأته في دبرها فليس في هذا ما يدل على ان الآية أحلت ذلك ومن زعم ذلك فقد أخطأ بل الذي تدل عليه الآية ان ذلك حرام فكون ذلك هو السبب لا يستلزم ان تكون الآية نازلة في تحليله فان الآيات النازلة على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا وتارة بتحريمه (وقدموا لانفسكم) أي خيرا كما في قوله تعالى وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله وقيل ابتغاء الولد وقيل التزويج بالعفائف وقيل التسمية والدعاء عند الجماع وقيل غير ذلك (واتقوا الله) فيه تحذير عن الوقوع في شئ من المحرمات (واعلموا أنكم ملاقوه) بالبعث مبالغة في التحذير (وبشر المؤمنين) الذين اتقوه بالجنة تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر (ولا تجعلوا الله) أي الحلف به (عرضة لايمانكم) العرضة النصبة قاله الجوهري وقيل العرضة الشدة والقوة ومنه قولهم للمرأة عرضة للنكاح اذا صلحت له وقويت عليه وافلان عرضة أي قوة وتطلق العرضة على الهمة ويقال فلان عرضة للناس لا يزالون يقعون فيه فعلى المعنى الذي ذكره الجوهري أن العرضة النصبة كالغرفة يكون ذلك اسما لما تعرضه دون الشئ أي تجعله حاجزا له ومانعا منه أي لا تجعلوا الله حاجزا ومانعا لما حلفتم عليه وذلك لان الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة الرحم أو احسان الى الغير أو اصلاح بين الناس بان لا يفعل ذلك ثم يمتنع من فعله معللا لذلك الامتناع بانه قد حلف أن لا يفعله وهذا المعنى هو الذي ذكره الجمهور في تفسير الآية فنهاهم الله أن يجعلوه عرضة لايمانهم أي حاجزا لما حلفوا عليه ومانعا منه وسمي المحلوف عليه يمينا للتلبس باليمين وعلى هذا يكون قوله (أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) عطف بيان لايمانكم أي لا تجعلوا الله مانعا للايمان التي هي بركم وتقواكم واصلاحكم بين الناس

مجاهد وابو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب كان مذهبا لان قوله انى جاعلك للناس اماما وقوله وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتى للطائفين بالآية وسائر الآيات التى هى نظير ذلك كالبيان عن الكلمات التى ذكر الله أنه ابتلى بهن ابراهيم (قلت) والذى قاله أولا من ان الكلمات تشمل جميع ماذكر أقوى من هذا الذى جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله لان السياق يعطى غير ما قالوه والله أعلم وقوله قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين لما جعل الله ابراهيم اماما سأل الله أن تكون الائمة من بعده من ذريته فأجيب الى ذلك وأخبر انه سيكون من ذريته ظالمون وانه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم والدليل على انه أجيب الى طلبته قوله تعالى فى سورة العنكبوت وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب فكل نبى أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد ابراهيم ففى ذريته صلوات الله وسلامه عليه وأما قوله تعالى قال لا ينال عهدى الظالمين فقد اختلفوا فى ذلك فقال خصيف عن مجاهد فى قوله قال لا ينال عهدى الظالمين قال انه سيكون فى ذريتك ظالمون وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال لا ينال عهدى الظالمين قال لا يكون لى امام ظالم وفى رواية لا أجعل اماما ظالما يقتدى به وقال سفيان عن منصور عن مجاهد فى قوله تعالى قال لا ينال عهدى الظالمين قال لا يكون امام ظالم يقتدى به وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا مالك بن اسمعيل أخبرنا شريك عن منصور عن مجاهد فى قوله ومن ذريتى قال أما من كان منهم صالحا فأجعله اماما يقتدى به وأما من كان ظالما فلا ولا نعمة عين وقال سعيد بن جبير لا ينال عهدى الظالمين المراد به المشرك لا يكون امام ظالم يقتدى به وقال ابن جريج عن عطاء قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى فأبى ان يجعل من ذريته اماما ظالما قال لعطاء ما عهده قال أمره وقال ابن ابى حاتم أخبرنا عمرو ابن ثور القيسارى فيما كتب الى أخبرنا الفريابى حدثنا اسمعيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال قال الله لابراهيم انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى فأبى أن يفعل ثم قال لا ينال عهدى الظالمين وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين يخبره انه كائن فى ذريته ظالم لا ينال عهده ولا

الناس ويتعلق قوله لأيمانكم بقوله لا تجعلوا أى لا تجعلوا الله لأيمانكم مانعا وحاجزا ويجوز أن يتعلق بعرضة أى لا تجعلوا شيأ معترضا بينكم وبين البر وما بعده وعلى المعنى الثانى وهو ان العرضة الشدة والقوة يكون معنى الآية لا تجعلوا اليمين بالله قوة لانفسكم وعدة فى الامتناع من الخير ولا يصح تفسير الآية على المعنى الثالث وهو تفسير العرضة بالهمة وأما على المعنى الرابع وهو قولهم فلان عرضة للناس فيكون معنى الآية عليه ولا تجعلوا الله معرضا لايمانكم فتبتذلونه بكثرة الحلف به ومنه واحفظوا أيمانكم وقد ذم الله المكثرين للحلف فقال ولا تطع كل حلاف مهين وقد كانت العرب تتمادح بقلة الأيمان فيكون قوله أن تبروا علة للنهى أى لا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم ارادة ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس لان من يكثر الحلف بالله يجترئ على الحنث ويفجر فى يمينه وقد قيل فى تفسير الآية أقوال هى راجعة الى هذه الوجوه التى ذكرناها (والله سميع) أى لاقوال العباد (عليم) بما يصدر منهم وقد ثبت فى الاحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه وثبت أيضا فى الصحيحين وغيرهما ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال والله ان شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يمينى وأخرج ابن ماجه وابن جرير عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فيره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه وفى الباب أحاديث (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) اللغو مصدر لغا يلغو لغوا ولغا يلغى لغيا اذا أتى بما لا يحتاج اليه فى الكلام أو بما لا خير فيه وهو الساقط الذى لا يعتد به فاللغو من اليمين هو الساقط ومنه اللغو فى الدية وهو الساقط الذى لا يعتد به من أولاد الابل ومعنى الآية لا يعاقبكم الله بالساقط من أيمانكم (ولكن يؤاخذكم) أى يعاقبكم (بما كسبت قلوبكم) أى اقترفته بالقصد اليه وهى اليمين المقصودة ومثله قوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان وقد اختلف أهل العلم فى تفسير اللغو فذهب ابن عباس وعائشة وجمهور العلماء الى انه قول الرجل لا والله وبلى والله فى حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ولا مريد لها قال المروزى هذا معنى لغو اليمين الذى اتفق عليه عامة العلماء ويدل له الاحاديث وبه قال الشافعى

ينبغي ان يوليه شيأ من امره وان كان من ذرية خليله ومحسن ستنفذ فيه دعوته وتبلغ له فيه ما أراد من مسئلته وقال العوفي عن ابن عباس لا ينال عهدي الظالمين قال يعني لا عهد لظالم عليك في ظلمه أن تطيعه فيه وقال ابن جرير حدثنا اسحق أخبرنا عبد الرحمن ابن عبد الله عن اسرائيل عن مسلم الاعور عن مجاهد عن ابن عباس قال لا ينال عهدي الظالمين قال ليس للظالمين عهد وان عاهدته فانقضه وروى عن مجاهد وعطاء ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال الثوري عن هرون بن عنترة عن أبيه قال ليس لظالم عهد وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله لا ينال عهدي الظالمين قال لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين فاما في الدنيا فقد نالهم الظالم فامن به وأكل وعاش وكذا قال ابراهيم النخعي وعطاء والحسن وعكرمة وقال الربيع بن أنس عهد الله الذي عهد الى عباده دينه يقول لا ينال دينه الظالمين ألا ترى انه قال وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين يقول ليس كل ذريتك يا ابراهيم على الحق وكذا روى عن أبي العالية وعطاء ومقاتل بن حيان وقال جويبر عن الضحاك لا ينال طاعتي عدو لي يعصيني ولا أضلها الا الاول الى يطيعني وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد أخبرنا أحمد ابن عبد الله بن سعيد الدامغاني أخبرنا وكيع عن الاعمش عن سعيد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا ينال عهدي الظالمين قال لا طاعة لاثم في المعروف وقال السدي لا ينال عهدي الظالمين يقول عهدي نبوتي فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية على ما نقله ابن جرير وابن أبي حاتم رحمهما الله تعالى واختار ابن جرير أن هذه الآية وان كانت ظاهرة في الخبر انه لا ينال عهد الله بالامامة ظالما فيها اعلام من الله لابراهيم الخليل عليه السلام انه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره والله أعلم وقال ابن خويز منداد المالكي الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ولا شاهدا ولا راويا (واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس يقول لا يقضون منه وطرا يأتونه ثم يرجعون الى أهليهم ثم يعودون اليه وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مثابة للناس يقول يثوبون

وقال أبو هريرة وجماعة من السلف هو ان يحلف الرجل على الشيء لا يظن الا انه أتاه فاذا هو ليس ما هو ظنه والى هذا ذهب الحنفية وبه قال مالك في الموطا ولا كفارة فيه ولا اثم عليه عنده وروى عن ابن عباس انه قال لغو اليمين ان تحلف وأنت غضبان وبه قال طاوس ومكحول وروى عن مالك وقيل ان اللغو هو يمين المعصية قاله سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الله بن الزبير وأخوه عروة كالذي يقسم ليشربن الخمر أو ليقطعن الرحم وقيل لغو اليمين هو دعاء الرجل على نفسه كان يقول أعمى الله بصره أذهب الله ماله هو يهودي هو مشرك قاله زيد بن أسلم وقال مجاهد لغو اليمين ان يتبايع الرجلان فيقول أحدهما والله لا أبيعك بكذا ويقول الآخر والله لا أشتريه بكذا وقال الضحاك لغو اليمين هي المكفرة أي اذا كفرت سقطت وصارت لغوا والراجح القول الاول لمطابقته للمعنى اللغوي ولدلالة الادلة عليه (والله غفور حليم) حيث لم يؤاخذكم بما تقولونه بألسنتكم من دون عمد وقصد وأخذكم بما تعمدته قلوبكم وتكلمت به ألسنتكم وتلك هي اليمين المعقودة المقصودة وقال سعيد بن جبير والله غفور يعني اذ تجاوز عن اليمين التي حلف عليها حليم اذ لم يجعل عليها الكفارة (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر) أي يحلفون والمصدر ايلاء وألية وألوة وقرأ ابن عباس للذين آلوا يقال آلى يولي ايلاء ويألي بالهمز ائتلاء أي حلف ومنه ولا يأتل أولوا الفضل منكم والايلاء حقه ان يستعمل بعلى واستعماله بمن لتضمنه معنى البعد أي يحلفون متباعدين من نسائهم وقد اختلف أهل العلم في الايلاء فقال الجمهور ان الايلاء هو ان يحلف ان لا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر فان حلف على أربعة أشهر فما دونها لم يكن موليا وكانت عندهم يمينا محضا وبهذا قال مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وقال الثوري والكوفيون الايلاء ان يحلف على أربعة أشهر فصاعدا وهو قول عطاء وروى عن ابن عباس انه لا يكون موليا حتى يحلف أن لا يمسها أبدا وقالت طائفة اذا حلف أن لا يقرب امرأته يوما أو أقل أو أكثر ثم لم يطأها أربعة أشهر بانت منه بالايلاء وبه قال ابن مسعود والنخعي وابن أبي ليلى والحكم وحماد بن سليمان وقتادة واسحق قال ابن المنذر وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم وقوله من نسائهم يشمل الحرائر والاماء اذا كن زوجات وكذلك يدخل تحت قوله للذين يؤلون العبد اذا حلف من زوجته وبه قال أحمد والشافعي

وابو

رواهما ابن جرير وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا عبد الله بن رجاء أخبرنا اسرائيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس قال يثوبون اليه ثم يرجعون قال وروى عن أبي العالية وسعيد بن جبير في رواية وعطاء ومجاهد والحسن وعطية والربيع بن أنس والضحاك نحو ذلك وقال ابن جرير حدثني عبد الكريم بن أبي عمير حدثني الوليد بن مسلم قال قال أبو عمرو يعني الاوزاعي حدثني عبدة بن أبي لبابة في قوله تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس قال لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى انه قد قضى منه وطرا وحدثني يونس عن ابن وهب قال قال ابن زيد واذ جعلنا البيت مثابة للناس قال يثوبون اليه من البلدان كلها ويأتونه وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى أورده القرطبي

جعل البيت مثابا لهم
ليس منه الدهر يقضون الوطر

وقال سعيد بن جبير في الرواية الاخرى وعكرمة وقتادة وعطاء الخراساني مثابة للناس أي مجمعا وأمنا قال الضحاك عن ابن عباس أي أمنا للناس وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا يقول أمنا من العدو وان يحمل فيه السلاح وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يسبون وروى عن مجاهد وعطاء والسدي وقتادة والربيع بن أنس قالوا من دخله كان آمنا ومضمون ما فسر به هؤلاء الائمة هذه الآية ان الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفا به شرعا وقدرا من كونه مثابة للناس أي جعله محلا تشتاق اليه الارواح وتحن اليه ولا تقضي منه وطرا ولو تردد اليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله ابراهيم عليه السلام في قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم الى أن قال ربنا وتقبل دعائي ويصفه تعالى بانه جعله أمنا من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء كما قال ابن عباس لو لم يحج الناس هذا البيت لما طبق الله السماء على الارض وما هذا الشرف الا لشرف بانيه أولا وهو خليل الرحمن كما قال تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيأ وقال تعالى ان أول بيت

وأبو ثور قالوا وايلاؤه كالحر وقال مالك والزهري وعطاء وأبو حنيفة واسحق ان أجله شهران وقال الشعبي ايلاء الامة نصف ايلاء الحرة والتربص التأني والتأخر وانما وقت الله سبحانه بهذه المدة دفعا للضرار عن الزوجة وقد كان أهل الجاهلية يولون السنة والسنتين وأكثر من ذلك يقصدون بذلك ضرار النساء وقد قيل ان الاربعة الاشهر هي التي لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها (فان فاؤا) أي رجعوا فيها أو بعدها عن اليمين الى الوطء ومنه حتى تفيء الى أمر الله أي ترجع ومنه قيل للظل بعد الزوال فيء لانه رجع عن جانب المشرق الى جانب المغرب يقال فاء يفيء فيئة وفيأ وانه سريع الفيئة أي الرجعة وللسلف في الفيء أقوال مختلفة فينبغي الرجوع الى معنى الفيء لغة وقد بيناه قال ابن المنذر وأجمع كل من يحفظ عنه العلم على أن الفيء الجماع لمن لا عذر له فان كان له عذر مرض أو سجن فهي امرأته فاذا زال العذر فأبى الوطء فرق بينهما ان كانت المدة قد انقضت قاله مالك وقالت طائفة اذا أشهد على فيئه بقلبه في حال العذر أجزأه وبه قال الحسن وعكرمة والنخعي والاوزاعي وأحمد بن حنبل وقد أوجب الجمهور على المولى اذا فاء بجماع امرأته الكفارة وقال الحسن والنخعي لا كفارة عليه وللصحابة والتابعين في هذا أقوال مختلفة متناقضة والمتعين الرجوع الى ما في الآية الكريمة وهو ما عرفناك واشهد عليه بيديك (فان الله غفور) للزوج اذا تاب من اضراره بامرأته (رحيم) لكل التائبين (وان عزموا الطلاق) العزم العقد على الشيء يقال عزم يعزم عزما وعزيمة وعزما وأعتزم اعتزاما بمعنى عزموا الطلاق عقدوا عليه قلوبهم بأن لم يفيئوا فليوقعوه والطلاق من طلقت المرأة تطلق كنصر ينصر طلاقا فهي طالق وطالقة أيضا والطلاق حل عقد النكاح وفي ذلك دليل على انها لا تطلق بمضي أربعة أشهر كما قال مالك ما لم يقع انشاء تطليق بعد المدة وأيضا فانه قال (فان الله سميع) لقولهم وسميع يقتضي مسموعا بعد المضي وقال أبو حنيفة سميع لايلائه (عليم) بعزمه الذي دل عليه مضي أربعة أشهر والمعنى ليس لهم بعد تربص ما ذكرا الا الفيئة أو الطلاق واعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم وتكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ ولا دليل آخر ومعناها ظاهر واضح وهو أن الله جعل الاجل لمن يولي أي يحلف من امرأته أربعة أشهر ثم قال مخبرا لعباده بحكم هذا المولي بعد هذه المدة فان فاؤا أي رجعوا الى بقاء الزوجية واستدامة

وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه ايات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وفى هذه الآية الكريمة نبه على مقام ابراهيم مع الامر بالصلاة عنده فقال واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمقام ما هو فقال ابن أبى حاتم أخبرنا عمرو بن شبة النميرى حدثنا أبو خلف يعنى عبد الله بن عيسى أخبرنا داود بن أبى هند عن مجاهد عن ابن عباس واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قال مقام ابراهيم الحرم كله وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك وقال أيضا أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج قال (٢٩٢) سألت عطاء عن واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى فقال سمعت ابن عباس قال أما مقام ابراهيم الذى ذكرهنا فمقام ابراهيم هذا الذى فى المسجد ثم قال ومقام ابراهيم بعد كثير مقام ابراهيم الحج كله ثم فسره لى عطاء فقال التعريف وصلاتان بعرفة والمشعر ومنى ورمى الجمار والطواف بين الصفا والمروة فقلت أفسره ابن عباس قال لا ولكن قال مقام ابراهيم الحج كله قلت أسمعت ذلك لهذا أجمع قال نعم سمعته منه وقال سفيان الثورى عن عبد الله بن مسلم عن سعيد بن جبير واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قال الحجر مقام ابراهيم نبى الله قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله اسمعيل الحجارة ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه وقال السدى المقام الحجر الذى وضعته زوجة اسمعيل تحت قدم ابراهيم حتى غسلت رأسه حكاه القرطبى وضعفه ورجحه غيره وحكاه الرازى فى تفسيره عن الحسن البصرى وقتادة والربيع بن أنس وقال ابن أبى حاتم أخبرنا الحسن بن محمد ابن الصباح أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه سمع جابرا يحدث عن حجة النبى صلى الله عليه وسلم قال لما طاف النبى صلى الله عليه وسلم قال له عمر هذا مقام أبينا قال نعم قال أفلا نتخذه مصلى فأنزل الله عز وجل واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقال عثمان بن أبى شيبة أخبرنا أبو أسامة عن زكريا عن أبى اسحق عن أبى ميسرة قال قال عمر قلت يا رسول الله هذا مقام خليل ربنا قال نعم قال أفلا نتخذه مصلى فنزلت واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقال ابن مردويه أخبرنا دعلج بن أحمد أخبرنا غيلان بن عبد الصمد أخبرنا مسروق بن المرزبان أخبرنا زكريا بن أبى زائدة عن أبى اسحق عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب

النكاح فان الله غفور رحيم أى لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل يغفر لهم ويرحمهم وان عزموا الطلاق أى وقع العزم منهم عليه والقصد له فان الله سميع لذلك منهم عليم به فهذا معنى الآية الذى لا شك فيه ولا شبهة فمن حلف أن لا يطأ امرأته ولم يقيد بمدة أو قيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا امهاله أربعة أشهر فاذا مضت فهو بالخيار اما رجع الى نكاح امرأته وكفر عن يمينه وكانت زوجته بعد مضى المدة كما كانت زوجته قبلها أو طلقها وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداء وأما اذا وقت بدون أربعة أشهر فان أراد ان يبر فى يمينه اعتزل امرأته التى حلف منها حتى تنقضى المدة كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين آلى من نسائه شهرا فانه اعتزلهن حتى مضى الشهر وان أراد أن يطأ امرأته قبل مضى تلك المدة التى هى دون أربعة أشهر حنث فى يمينه ولزمته الكفارة وكان ممتثلا لما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه (والمطلقات) أى المخليات من حبال أزواجهن والمطلقة هى التى أوقع الزوج عليها الطلاق (يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) تمضى من حين الطلاق تدخل تحت عموم المطلقة قبل الدخول ثم خصصت بقوله تعالى فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فوجب بناء العام على الخاص وخرجت من هذا العموم المطلقة قبل الدخول وكذلك خرجت الحامل بقوله تعالى وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن وكذلك خرجت الآيسة بقوله تعالى فعدتهن ثلاثة أشهر والتربص الانتظار قيل هو خبر فى معنى الامر أى لتتربص قصد باخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه وزاده تأكيدا وقوعه خبرا للمبتدا قال ابن العربى وهذا باطل وانما هو خبر عن حكم الشرع فان وجدت مطلقة لا تتربص فليس ذلك من الشرع ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره والقروء جمع قرء قال الاصمعى الواحد القرء بضم القاف وقال أبو زيد بالفتح وكلاهما قال أقرأت المرأة حاضت وأقرأت طهرت وقال الاخفش أقرأت المرأة اذا صارت صاحبة حيض فاذا حاضت قلت قرأت بلا ألف وقال أبو عمرو بن العلاء من العرب من يسمى الحيض قرأ ومنهم من يسمى الطهر قرأ ومنهم من يجمعهما جميعا فيسمى الحيض مع الطهر قرأ وينبغى أن يعلم أن القرء فى الاصل الوقت يقال هبت الرياح لقرئها ولقارئها أى لوقتها فيقال للحيض قرء وللطهر قرء لان كل واحد منهما له وقت معلوم وقد أطلقته العرب

أنه مر بمقام ابراهيم فقال يارسول الله ألبس نقوم بمقام خليل ربنا قال بلى قال أفلا نتخذه مصلى فلم يلبث الا يسيرا حتى نزلت واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقال ابن مردويه أخبرنا على بن أحمد بن محمد القزوينى أخبرنا على بن الحسين حدثنا الجنيد أخبرنا هشام بن خالد أخبرنا الوليد عن مالك بن أنس عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة عند مقام ابراهيم قال له عمر يارسول الله هذا مقام ابراهيم الذى قال الله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قال نعم قال الوليد قلت لمالك هكذا حدثك واتخذوا قال نعم هكذا وقع فى هذه (٢٩٣) الرواية وهو غريب وقد روى النسائى من حديث الوليد بن مسلم نحوه وقال البخارى باب قوله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى مثابة يثوبون يرجعون حدثنا مسدد أخبرنا يحيى عن حميد عن أنس بن مالك قال قال عمر بن الخطاب وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم فنزلت واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقلت يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب قال وبلغنى معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت ان انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرا منكن حتى أتيت احدى نسائه قالت يا عمر أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأنزل الله عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات الآية وقال ابن أبى مريم أخبرنا يحيى بن أيوب حدثنى حميد قال سمعت أنسا عن عمر رضى الله عنهما هكذا ساقه البخارى ههنا وعلق الطريق

تارة على الاطهار وتارة على الحيض وقال قوم مأخوذ من قرء الماء فى الحوض وهو جمعه ومنه القرآن لاجتماع المعانى فيه والحاصل ان القرء فى لغة العرب مشترك بين الحيض والطهر ولاجل ذلك الاشتراك اختلف أهل العلم فى تعيين ما هو المراد بالقروء المذكورة فى الآية فقال أهل الكوفة هى الحيض وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وأبى موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدى وأحمد بن حنبل وقال أهل الحجاز هى الاطهار وهو قول عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهرى وأبان بن عثمان والشافعى واعلم انه قد وقع الاتفاق بينهم على ان القرء الوقت فصار معنى الآية عند الجميع والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة أوقات فهى على هذا مفسرة فى العدد مجملة فى المعدود فوجب طلب البيان للمعدود من غيرها فأهل القول الاول استدلوا على ان المراد فى هذه الآية الحيض بقوله صلى الله عليه وآله وسلم دعى الصلاة أيام أقرائك وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان وبأن المقصود من العدة استبراء الرحم وهو يحصل بالحيض لا بالطهر واستدل أهل القول الثانى بقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن ولا خلاف انه يؤمر بالطلاق وقت الطهر وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء وذلك لان زمن الطهر هو الذى تطلق فيه النساء قال أبو بكر بن عبد الرحمن ما أدركنا أحدا من فقهائنا الا يقول بأن الاقراء هى الاطهار فاذا طلق الرجل فى طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقى منه ولو ساعة ولو لحظة ثم استقبلت طهرا ثانيا بعد حيضة فاذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العدة انتهى وعندى ان لا حجة فى بعض ما احتج به أهل القولين جميعا أما قول الاولين ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال دعى الصلاة أيام أقرائك فغاية ما فى هذا ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم أطلق الاقراء على الحيض ولا نزاع فى جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك فانه يطلق تارة على هذا وتارة على هذا وانما النزاع فى الاقراء المذكورة فى هذه الآية وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى الامة وعدتها حيضتان فهو حديث أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه والدارقطنى والحاكم وصححه من حديث عائشة مرفوعا وأخرجه ابن ماجه والبيهقى من حديث ابن عمر مرفوعا أيضا ودلالته على ما قاله الاولون قوية وأما قولهم ان المقصود من العدة استبراء الرحم وهو

الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبى مريم المصرى وقد تفرد بالرواية عنه البخارى من بين أصحاب الكتب الستة وروى عنه الباقون بواسطة وغرضه من تعليق هذا الطريق ليبين فيه اتصال اسناد الحديث وانما لم يسنده لان يحيى بن أبى أيوب الغافقى فيه شئ كما قال الامام أحمد فيه هو سيئ الحفظ والله أعلم وقال الامام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا حميد عن أنس قال قال عمر رضى الله عنه وافقت ربى عز وجل فى ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقلت يارسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن ان يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله

صلى الله عليه وسلم نساؤه فى الغيرة فقلت لهن عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجا خيرا منكن فنزلت كذلك ثم رواه احمد عن يحيى وابن أبى عدى كلاهما عن حميد عن أنس عن عمر أنه قال وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث فذكره وقد رواه البخارى عن عمر وابن عون والترمذى عن أحمد بن منيع والنسائى عن يعقوب بن ابراهيم الدورقى وابن ماجه عن محمد بن الصباح كلهم عن هشيم بن بشير به ورواه الترمذى أيضا عن عبد بن حميد عن حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة والنسائى عن هناد عن يحيى ابن ابى زائدة كلاهما عن حميد وهو ابن تيرويه (٢٩٤) الطويل به وقال الترمذى حسن صحيح ورواه الامام على بن المدينى عن يزيد بن زريع عن حميد به وقال هذا من صحيح الحديث وهو بصرى ورواه الامام مسلم بن الحجاج فى صحيحه بسند آخر ولفظ آخر فقال أخبرنا عقبة بن مكرم أخبرنا سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال وافقت ربى فى ثلاث فى الحجاب وفى اسارى بدر وفى مقام ابراهيم وقال أبو حاتم الرازى أخبرنا محمد ابن عبد الله الانصارى أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال قال عمر بن الخطاب وافقنى ربى فى ثلاث أو وافقت ربى فى ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقلت يا رسول الله لو حجبت النساء فنزلت آية الحجاب والثالثة لما مات عبد الله بن أبى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه قلت يا رسول الله تصلى على هذا الكافر المنافق فقال ايها عنك يا ابن الخطاب فنزلت ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره وهذا اسناد صحيح أيضا ولا تعارض بين هذا ولا هذا بل الكل صحيح ومفهوم العدد اذا عارضه منطوق قدم والمطلقات

يحصل بالحيض لا بالطهر فيجاب عنه بانه انما يتم لو لم يكن فى هذه العدة شئ من الحيض على فرض تفسير الاقراء بالاطهار وليس كذلك بل هى مشتملة على الحيض كما هى مشتملة على الاطهار وأما استدلال أهل القول الثانى بقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن فيجاب عنه بأن التنازع فى اللام فى قوله لعدتهن يصير ذلك محتملا ولا تقوم به الحجة وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر مره فليراجعها الحديث فهو فى الصحيح ودلالته قوية على ما ذهبوا اليه ويمكن ان يقال انها تنقضى العدة بثلاثة أطهار أو بثلاث حيض ولا مانع من ذلك فقد جوز جمع من أهل العلم حمل المشترك على معنييه وبذلك يجمع بين الادلة ويرتفع الخلاف ويندفع النزاع وقد استشكل الزمخشرى تمييز الثلاثة بقوله وقروء هى جمع كثرة دون الاقراء التى هى من جموع القلة وأجاب بانهم يتسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) قيل المراد به الحيض وقيل الحمل وقيل كلاهما ووجه النهى عن الكتمان ما فيه فى بعض الاحوال من الاضرار بالزوج واذهاب حقه فاذا قالت المرأة حضت وهى لم تحض ذهبت بحقه من الارتجاع واذا قالت هى لم تحض وهى قد حاضت ألزمته من النفقة ما لم يلزمه فأضرت به وكذلك الحمل ربما تكتمه لتقطع حقه من الارتجاع وربما تدعيه لتوجب عليه النفقة ونحو ذلك من المقاصد المستلزمة للاضرار بالزوج وقد اختلفت الاقوال فى المدة التى تصدق فيها المرأة اذا ادعت انقضاء عدتها وفيه دليل على قبول قولهن فى ذلك نفيا واثباتا (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) فيه وعيد شديد للكاتمات وبيان أن من كتمت ذلك منهن لم تستحق اسم الايمان وهذا الشرط ليس للتقييد بل للتغليظ حتى لو لم يكن مؤمنات كان عليهن العدة أيضا (وبعولتهن) البعولة جمع بعل وهو الزوج سمى بعلا لعلوه على الزوجة لانهم يطلقونه على الرب ومنه قوله تعالى أتدعون بعلا اى ربا ويقال بعول وبعولة كما يقال فى جمع الذكر ذكور وذكورة وهذه التاء لتأنيث الجمع وهو شاذ لا يقاس عليه بل يعتبر فيه السماع والبعولة أيضا يكون مصدرا من بعل الرجل يبعل مثل منع يمنع أى صار بعلا والتقدير أهل بعولتهن واستفيد من هذا ان البعولة لفظ مشترك بين المصدر والجمع (أحق بردهن) أى برجعتهن وذلك يختص بمن كان يجوز للزوج مراجعتها فيكون فى حكم التخصيص لعموم قوله

عليه والله أعلم وقال ابن جريج أخبرنى جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا حتى اذا فرغ عمد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقال ابن جريج حدثنا يوسف ابن سلمان أخبرنا حاتم بن اسمعيل أخبرنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن فرمل ثلاثا ومشى أربعا ثم نفذ الى مقام ابراهيم فقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين وهذا قطعة

من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث حاتم بن اسمعيل وروى البخارى بسنده عن عمرو بن دينار قال سمعت ابن عمر يقول قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين فهذا كله مما يدل على ان المراد بالمقام انما هو الحجر الذى كان ابراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه اسمعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار وكلما كمل ناحية انتقل الى الناحية الاخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله الى الناحية التى تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة كما سيأتى بيانه فى قصة ابراهيم واسمعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخارى وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هذا معروفا تعرفه العرب فى جاهليتها ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية

وموطئ ابراهيم فى الصخر رطبة
على قدميه حافيا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا كما قال عبد الله بن وهب أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب ان أنس بن مالك حدثهم قال رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه غير انه أذهبه مسح الناس بأيديهم وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع أخبرنا سعيد عن قتادة واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى انما أمروا ان يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه وقد تكلفت هذه الامة شيأ ما تكلفته الامم قبلها ولقد ذكر لنا من رأى اثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الامة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى (قلت) وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم الى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هنالك وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه الى جدار الكعبة أو انه انتهى عنده البناء فتركه هنالك ولهذا والله أعلم أمر بالصلاة هنالك عند الفراغ من الطواف وناسب ان يكون عند مقام ابراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه وانما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد الائمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة

والمطلقات يتربصن بأنفسهن لانه يعم المثلثات وغيرهن وصيغة التفضيل لافادة أن الرجل اذا أراد الرجعة والمرأة تأباها وجب ايثار قوله على قولها وليس معناه ان لها حقا فى الرجعة قاله أبو السعود (فى ذلك) يعنى فى مدة التربص فان انقضت مدة التربص فهى أحق بنفسها ولا تحل له الا بنكاح مستأنف بولى وشهود ومهر جديد ولا خلاف فى ذلك والرجعة تكون باللفظ وتكون بالوطء ولا يلزم المراجع شئ من أحكام النكاح بلا خلاف (ان أرادوا اصلاحا) أى بالمراجعة أى اصلاح حاله معها وحالها معه فان قصد الاضرار بها فهى محرمة لقوله تعالى ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا قيل واذا قصد بالرجعة الضرار فهى صحيحة وان ارتكب به محرما وظلم نفسه وعلى هذا فيكون الشرط المذكور فى الآية للحث للازواج على قصد الصلاح وازجارهم عن قصد الضرار وليس المراد به جعل قصد الصلاح شرطا لصحة الرجعة (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) أى ولهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس انهم يفعلونه لنسائهم وهى كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء انهن يفعلنه لازواجهن من طاعة وتزين وتحبب ونحو ذلك قال ابن عباس فى الآية انى أحب ان أتزين لامرأتى كما أحب ان تتزين لى لان الله قال ولهن الخ قال الكرخى أى فى الوجوب لا فى الجنس فلو غسلت ثيابه أو خبزت له لم يلزمه أن يفعل ذلك وقيل فى مطلق الوجوب لا فى عدد الافراد ولا فى صفة الواجب (وللرجال عليهن درجة) أى منزلة ليست لهن وهى قيامه عليها فى الانفاق وكونه من أهل الجهاد والعقل والقوة وله من الميراث أكثر مما لها وكونه يجب عليها امتثال أمره والوقوف عند رضاه والشهادة والدية وصلاحية الامامة والقضاء وله أن يتزوج عليها ويتسرى وليس لها ذلك وبيده الطلاق والرجعة وليس شئ من ذلك بيدها ولو لم يكن من فضيلة الرجال على النساء الا كونهن خلقن من الرجال لما ثبت ان حواء خلقت من ضلع آدم لكفى وقد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الاحوص أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ألا ان لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا أما حقكم على نسائكم أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا اليهن فى كسوتهن وطعامهن وصححه الترمذى وأصله عند مسلم فى الصحيح وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى

رضي الله عنهم اجمعين قال عبد الرزاق عن ابن جريج حدثني عطاء وغيره من اصحابنا قالوا اول من نقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال عبد الرزاق ايضا عن معمر عن حميد الاعرج عن مجاهد قال أول من أخر المقام الى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال الحافظ ابو بكر أحمد بن علي بن الحسين البيهقي أخبرنا ابو الحسين بن الفضل القطان أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن كامل حدثنا ابو اسمعيل محمد بن اسمعيل السلمي حدثنا أبو ثابت حدثنا الدراوردي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ان المقام كان في زمان رسول الله (٢٩٦) صلى الله عليه وسلم وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهذا اسناد صحيح مع ما تقدم وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا ابن أبي عمر العدني قال قال سفيان يعني ابن عيينة وهو امام المكيين في زمانه كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فحوله عمر الى مكانه بعد النبي صلى الله عليه وسلم وبعد قوله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قال ذهب السيل به بعد تحويل عمر اياه من موضعه هذا فرده عمر اليه وقال سفيان لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله قال سفيان لا أدري أكان لاصقا بها أم لا فهذه الآثار متعاضدة على ماذكرناه والله أعلم وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا ابن عمر وهو أحمد بن محمد بن حكيم اخبرنا محمد بن عبد الوهاب بن ابي تمام أخبرنا آدم هو ابن ابي اياس في تفسيره اخبرنا شريك عن ابراهيم ابن المهاجر عن مجاهد قال قال عمر ابن الخطاب يارسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى فكان المقام عند البيت فحوله رسول الله صلى الله عليه وسلم الى موضعه هذا قال مجاهد وكان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن هذا مرسل عن مجاهد وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق عن معمر عن حميد الاعرج عن مجاهد ان اول من أخر المقام الى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهذا أصح من طريق ابن مردويه مع اعتضاد هذا بما تقدم والله اعلم (وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب

وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية بن حيدة القشيري انه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ماحق المرأة على الزوج قال ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تهجر الا في البيت وعن ابن أبي ظبيان ان معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها ثم رجع فرأى رجالا يسجد بعضهم لبعض فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لو أمرت أحدا أن يسجد لاحد لامرت المرأة أن تسجد لزوجها رواه البغوي بسنده (والله عزيز) يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه (حكيم) يطوي شرائعه على الحكم والمصالح (الطلاق مرتان) أي عدد الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة للازواج هو مرتان فالمراد بالطلاق المذكور هو الرجعي بدليل ماتقدم في الآية أي الطلقة الاولى والثانية اذ لا رجعة بعد الثالثة وانما قال سبحانه مرتان ولم يقل طلقتان اشارة الى انه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة لا طلقتان دفعة واحدة كذا قال جماعة من المفسرين ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية الا أحد أمرين اما ايقاع الثالثة التي بها تبين الزوجة أو الامساك لها واستدامة نكاحها وعدم ايقاع الثالثة عليها قال سبحانه (فامساك) أي بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقتين (بمعروف) أي بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة وحقوق النكاح (أو تسريح باحسان) أي بايقاع طلقة ثالثة من دون ضرار لها وقيل المراد امساك بمعروف أي برجعة بعد الطلقة الثانية أو تسريح باحسان أي بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضي عدتها والاول أظهر قال أبو عمر وأجمع العلماء على أن التسريح هي الطلقة الثالثة بعد الطلقتين واياها عنى بقوله فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره وقد اختلف أهل العلم في ارسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاثا أو واحدة فقط فذهب الى الاول الجمهور وذهب الى الثاني من عداهم وهو الحق وقد قرره الشوكاني في مؤلفاته تقريرا بالغا وأفرده برسالة مستقلة وكذا الحافظ ابن القيم في اغاثة اللهفان واعلام الموقعين وقررته في شرحي على بلوغ المرام (ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيأ) الخطاب للازواج أي لا يحل لهم ان يأخذوا في مقابلة الطلاق مما دفعوه الى نسائهم من المهر شيأ على وجه المضارة لهن وتنكير شئ للتحقير أي شيأ نزرا فضلا عن الكثير وخص ما دفعوه اليهن بعدم حل الاخذ منه مع كونه لا يحل للازواج أن يأخذوا

النار وبئس المصير واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم) قال الحسن البصرى قوله وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل قال أمرهما الله أن يطهراه من الاذى والنجس ولا يصيبه من ذلك شئ وقال ابن جريج قلت لعطاء ما عهده قال امره وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وعهدنا الى ابراهيم أى امرناه كذا قال والظاهر ان هذا الحرف انما عدى بالى لانه فى معنى تقدمنا وأوحينا وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين قال من الاوثان وقال مجاهد وسعيد بن جبير طهرا بيتى للطائفين ان ذلك من الاوثان والرفث وقول الزور والرجس قال ابن أبى حاتم وروى عن عبيد ابن عمير وأبى العالية وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وقتادة ان طهرا بيتى أى بلا اله الا الله من الشرك وأما قوله تعالى للطائفين فالطواف بالبيت معروف وعن سعيد بن جبير انه قال فى قوله تعالى للطائفين يعنى من أتاه من غربة والعاكفين المقيمين فيه وهكذا روى عن قتادة والربيع بن أنس انهما فسرا العاكفين باهل المقيمين فيه كما قال سعيد بن جبير وقال يحيى القطان عن عبد الملك هو ابن أبى سليمان عن عطاء فى قوله والعاكفين قال من انتابه من الامصار فاقام عنده وقال لنا ونحن مجاورون أنتم من العاكفين وقال وكيع عن أبى بكر الهذلى عن عطاء عن ابن عباس قال اذا كان جالسا فهو من العاكفين وقال ابن أبى حاتم أخبرنا ابى أخبرنا موسى بن اسمعيل أخبرنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت قال قلنا

من أموالهن التى يملكنها من غير المهر لكون ذلك هو الذى يتعلق به نفس الزوج ويتطلع لاخذه دون ما عداه مما هو فى ملكها على انه اذا كان أخذ ما دفعه اليها فى مقابلة البضع عند خروجه عن ملكه لا يحل له كان ما عداه ممنوعا منه بالاولى وقيل الخطاب للائمة والحكام ليطابق قوله فان خفتم فان الخطاب فيه للائمة والحكام وعلى هذا يكون اسناد الاخذ اليهم لكونهم الآمرين بذلك والاول أولى لقوله ما آتيتموهن فان اسناده الى غير الازواج بعيد جدا لان ايتاء الازواج لم يكن عن أمرهم وقيل ان الثانى أولى لئلا يشوش النظم (الا أن يخافا) أى يعلم الزوجان من أنفسهما فيه التفات عن الخطاب الى الغيبة (أن لا يقيما حدود الله) أى تخاف المرأة ان تعصى الله فى أمور زوجها ويخاف الزوج انه اذا لم تطعه ان يعتدى عليها وقرأ حمزة يخافا بضم الياء أى الا ان يعلم من حالهما والفاعل محذوف وهو الائمة والولاة والحكام والقضاة واختاره أبو عبيد قال لقوله فان خفتم فجعل الخوف لغير الزوجين وقد احتج بذلك من جعل الخلع الى السلطان وهو سعيد ابن جبير والحسن وابن سيرين وقد ضعف النحاس اختيار أبى عبيد (فان خفتم) أى خشيتم وأشفقتم وقيل معناه ظننتم (أن لا يقيما حدود الله) يعنى ما أوجب الله على كل واحد منهما من طاعته فيما أمر به من حسن الصحبة والمعاشرة بالمعروف وقيل هو يرجع الى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى لا جناح على الرجل فى الاخذ ولا على المرأة فى الاعطاء بان تفتدى نفسها من ذلك النكاح ببذل شئ من المال يرضى به الزوج فيطلقها لاجله وهذا هو الخلع وقد ذهب الجمهور الى جواز ذلك للزوج وانه يحل له الاخذ مع ذلك الخوف وهو الذى صرح به القرآن وحكى ابن المنذر عن بعض أهل العلم انه لا يحل له ما أخذ ولا يجبر على رده وهذا فى غاية السقوط وأخرج البخارى والنسائى وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس ان جميلة بنت عبد الله بن سلول امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ولكن لا أطيقه بغضا وأكره الكفر فى الاسلام قال أترددين عليه حديقته قالت نعم قال اقبل الحديقة وطلقها تطليقة ولفظ ابن ماجه فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يأخذ منها حديقته ولا يزداد وفى الباب أحاديث كثيرة وقد ورد فى ذم المختلعات أحاديث منها عن ثوبان عند

 لعبد الله بن عبيد بن عمير ما أرانى الا مكلم الامير أن امنع الذين ينامون فى المسجد الحرام فانهم يجنبون ويحدثون قال لا تفعل فان ابن عمر سئل عنهم فقال هم العاكفون ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد ابن سلمة به (قلت) وقد ثبت فى الصحيح ان ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عزب وأما قوله تعالى والركع السجود فقال وكيع عن أبى بكر الهذلى عن عطاء عن ابن عباس والركع السجود قال اذا كان مصليا فهو من الركع السجود وكذا قال عطاء وقتادة فى يومه أربع فى النهار ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين فان كلا من السندين مشتمل على غير واحد

من الضعفاء وهو كما قال فانه لا يجوز روايتهما قال ابن جرير رحمه الله فمعنى الآية وأمرنا ابراهيم واسمعيل بتطهير بيتي للطائفين والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الاصنام وعبادة الاوثان فيه ومن الشرك ثم أورد سؤالا فقال فان قيل فهل كان قبل بناء ابراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه وأجاب بوجهين أحدهما انه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الاصنام والاوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما اذ كان الله تعالى قد جعل ابراهيم اماما يقتدى به كما قال عبد الرحمن بن زيد أن طهرا بيتي قال من الاصنام التي يعبدون التي كان المشركون يعظمونها قلت وهذا الجواب مفرع على انه كان يعبد عنده أصنام قبل ابراهيم عليه السلام ويحتاج اثبات هذا الى دليل عن المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم الجواب الثاني انه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له في بنيانه مطهرا من الشرك والريب كما قال جل ثناؤه أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار قال فكذلك قوله وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتي اى ابنياه على طهر من الشرك بي والريب كما قال السدي ان طهرا بيتي ابنيا بيتي للطائفين وملخص هذا الجواب ان الله تعالى امر ابراهيم واسمعيل عليهما السلام ان يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين اليه من الركع السجود كما قال تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيأ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود الآيات وقد اختلف الفقهاء أيما افضل الصلاة عند البيت أو الطواف به فقال مالك رحمه الله الطواف به لاهل الامصار افضل وقال الجمهور الصلاة أفضل مطلقا الله

أحمد وأبي داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة وقال المختلعات هن المنافقات وروى عن ابن عباس عند ابن ماجه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا تسأل المرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ريح الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما وقد اختلف أهل العلم في عدة المختلعة والراجح أنها تعتد بحيضة لما أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر امرأة ثابت بن قيس ان تعتد بحيضة ولما أخرجه الترمذي عن الربيع بنت معوذ بن عفراء انها اختلعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فامرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان تعتد بحيضة قال الترمذي الصحيح انها أمرت ان تعتد بحيضة وفي الباب أحاديث ولم يرد ما يعارض هذا من المرفوع بل ورد عن جماعة من الصحابة والتابعين ان عدة المختلعة كعدة الطلاق وبه قال الجمهور قال الترمذي وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم واستدلوا على ذلك بان المختلعة من جملة المطلقات فهي داخلة تحت عموم القرآن والحق ما ذكرناه لان ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخصص عموم القرآن وقد حكى عن بكر بن عبد الله المزني ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة النساء وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيأ أتأخذونه بهتانا واثما مبينا وهو قول خارج عن الاجماع ولا تنافي بين الآيتين وقد اختلف أهل العلم اذا طلب الزوج من المرأة زيادة على ما دفعه اليها من المهر وما يتبعه ورضيت بذلك المرأة هل يجوز أم لا وظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين وبهذا قال مالك والشافعي وأبو ثور وروى مثل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين وقال طاوس وعطاء والاوزاعي وأحمد واسحق انه لا يجوز لما ورد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(تلك حدود الله فلا تعتدوها) يعني هذه أوامر الله ونواهيه وهي ما تقدم من الاحكام فلا تجاوزوها بالمخالفة والرفض (ومن يتعد حدود الله) أي أحكام النكاح والفراق المذكورة هي حدود الله التي أمرتم بامتثالها فلا تعتدوها بالمخالفة لها فتستحقوا ما ذكره الله من التسجيل على فاعل ذلك بانه ظالم (فأولئك هم الظالمون) أي لانفسهم بتعريضها للسخط

وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الاحكام والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ثم ذكر ان البيت انما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له اما بطواف أو صلاة فذكر في سورة الحج اجزاءها الثلاثة قيامها وركوعها وسجودها ولم يذكر العاكفين لانه

تقدم سواء العاكف فيه والباد وفى هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام لانه قد علم انه لا يكون ركوع ولا سجود الا بعد قيام وفى ذلك أيضا رد على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنصارى لانهم يعتقدون فضيلة ابراهيم الخليل واسمعيل ويعلمون انه بنى هذا البيت للطواف فى الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده وهم لا يفعلون شيأ من ذلك فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام كما أخبر بذلك المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى

الله وعقابه وفيه وفيما قبله الاظهار فى مقام الاضمار لتربية المهابة وادخال الروع فى ذهن السامع وذكر هذا الوعيد بعد النهى عن تعديها للمبالغة فى التهديد (فان طلقها) أى الطلقة الثالثة التى ذكرها سبحانه بقوله أو تسريح باحسان أى فان وقع منه ذلك فقد حرمت عليه بالتثليث سواء كان قد راجعها أم لا وسواء انقضت عدتها فى صورة عدم الرجعة أم لا (فلا تحل له من بعد) الحكمة فى شرع هذا الحكم الردع عن المسارعة الى الطلاق وعن العود الى الطلقة الثالثة والرغبة فيها (حتى تنكح زوجا غيره) أى حتى تتزوج بزوج آخر غير المطلق بعد انقضاء عدتها من الاول فيجامعها والنكاح يتناول العقد والوطء جميعا والمراد هنا الوطء وقد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب ومن وافقه قالوا يكفى مجرد العقد لانه المراد بقوله حتى تنكح زوجا غيره وذهب الجمهور من السلف والخلف الى انه لا بد مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من اعتبار ذلك وهو زيادة يتعين قبولها ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب ومن تابعه وفى الآية دليل على انه لا بد ان يكون ذلك نكاحا شرعيا مقصودا لذاته لا نكاحا غير مقصود لذاته بل حيلة للتحليل وذريعة الى رد ها الى الزوج الاول فان ذلك حرام للادلة الواردة فى ذمه وذم فاعله وأنه التيس المستعار الذى لعنه الشارع ولعن من اتخذه لذلك وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن عائشة قالت جاءت امرأة رفاعة القرظى الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت انى كنت عند رفاعة فطلقنى فبت طلاقى فتزوجنى عبد الرحمن بن الزبير ومامعه الا مثل هدبة الثوب فتبسم النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال أتريدين ان ترجعى الى رفاعة لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك وقد روى نحو هذا عنها من طرق واخرج أحمد والنسائى عن ابن عباس ان الغميصاء أو الرميصاء أتت النبى صلى الله عليه وآله وسلم وفى آخره فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليس ذلك لك حتى يذوق عسيلتك رجل غيره والعسيلة مجاز عن قليل الجماع اذ يكفى قليل الانتشار شبهت تلك اللذة بالعسل وصغرت بالتاء لان الغالب على العسل التأنيث قاله الجوهرى وقد ثبت لعن المحلل فى أحاديث كثيرة منها عن ابن مسعود عند أحمد والترمذى وصححه والنسائى والبيهقى فى سننه قال لعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم المحلل والمحلل له وفى الباب أحاديث فى ذم

وتقدير الكلام اذا وعهدنا الى ابراهيم أى تقدمنا بوحينا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود أى طهراه من الشرك والريب وابنياه خالصا لله معدا للطائفين والعاكفين والراكع السجود وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى فى بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ومن السنة من أحاديث كثيرة من الامر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الاذى والنجاسات وما أشبه ذلك ولهذا قال عليه السلام انما بنيت المساجد لما بنيت له وقد جمعت فى ذلك جزأ على حدة ولله الحمد والمنة وقد اختلف الناس فى أول من بنى الكعبة فقيل الملائكة قبل آدم روى هذا عن أبى جعفر الباقر محمد بن على بن الحسين ذكره القرطبى وحكى لفظه وفيه غرابة وقيل آدم عليه السلام رواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم ان آدم بناه من خمسة أجبل من حراء وطور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودى وهذا غريب أيضا وروى عن ابن عباس وكعب الاحبار وقتادة وعن وهب بن منبه ان أول من بناه شيث عليه السلام وغالب من يذكر هذا انما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهى مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها وأما اذا صح حديث فى ذلك فعلى الرأس والعين وقوله تعالى واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال الامام أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى أخبرنا سفيان عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم حرم

بيت الله وأمنه وانى حرمت المدينة مابين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها وهكذا رواه النسائى عن محمد بن بشار عن بندار به وأخرجه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وعمرو بن الناقد كلاهما عن أبى أحمد الزبيرى عن سفيان الثورى وقال ابن جرير أيضا أخبرنا أبو كريب وأبو السائب قالا حدثنا ابن ادريس وأخبرنا أبو كريب أخبرنا عبد الرحيم الرازى قالا جميعا سمعنا اشعث عن نافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم كان عبد الله وخليله وانى عبد الله ورسوله وان ابراهيم حرم مكة وانى حرمت المدينة مابين لابتيها عضاهها (٣٠٠) وصيدها لا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يقطع منها شجرة الا لعلف بعير وهذه الطريق غريبة ليست فى شئ من الكتب الستة وأصل الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال كان الناس اذا رأوا أول الثمر جاؤا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم بارك لنا فى ثمرنا وبارك لنا فى مدينتنا وبارك لنا فى صاعنا وبارك لنا فى مدنا اللهم ان ابراهيم عبدك وخليلك ونبيك وانى عبدك ونبيك وانه دعاك لمكة وانى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر وفى لفظ بركة مع بركة ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان لفظ مسلم ثم قال ابن جرير حدثنا ابو كريب حدثنا قتيبة بن سعيد اخبرنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن ابى بكر بن محمد عن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن رافع بن خديج قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم حرم مكة وانى أحرم مابين لابتيها انفرد باخراجه مسلم فرواه عن قتيبة عن بكر بن مضر به ولفظه كلفظه سواء وفى الصحيحين عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى طلحة التمس لى عدتهن غلاما من غلمانكم يخدمنى فخرج بى ابو طلحة يردفنى وراءه فكنت اخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزل وقال فى الحديث ثم اقبل حتى اذا بدا له احد قال هذا جبل يحبنا ونحبه فلما اشرف على المدينة قال اللهم انى احرم مابين جبليها مثل ما حرم ابراهيم مكة اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم وفى لفظ لهما اللهم بارك لهم فى مكيالهم وبارك لهم فى صاعهم وبارك لهم فى مدهم زاد البخارى يعنى اهل المدينة ولهما ايضا عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلته بمكة

التحليل وفاعله وقد أطال فى بيان ذلك الحافظ بن القيم فى اغاثة اللهفان واعلام الموقعين وهو بحث نفيس جدا فارجع اليه (فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا) أى ان طلقها الزوج الثانى فلا جناح على الزوج الاول والمرأة ان يرجع كل واحد منهما لصاحبه يعنى بنكاح جديد قال ابن المنذر أجمع أهل العلم على ان الحر اذا طلق زوجته ثلاثا ثم انقضت عدتها ونكحت زوجا ودخل بها ثم فارقها وانقضت عدتها ثم نكحها الزوج الاول انها تكون عنده على ثلاث تطليقات (ان ظنا) علما وأيقنا وقيل ان رجوا لان أحدا لا يعلم ما هو كائن الا الله تعالى (أن يقيما حدود الله) أى حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر وقيل ان علما ان نكاحهما على غير دلسة والدلسة التحليل والاول أولى وأما اذا لم يحصل ظن ذلك بان يعلما أو احدهما عدم الاقامة لحدود الله أو تردد أو أحدهما ولم يحصل لهما الظن فلا يجوز الدخول فى هذا النكاح لانه مظنة للمعصية لله والوقوع فيما حرمه على الزوجين (وتلك حدود الله) اشارة الى الاحكام المذكورة كما سلف (يبينها لقوم يعلمون) خصهم مع عموم الدعوة للعالم وغيره ووجوب التبليغ لكل فرد لانهم المنتفعون بذلك البيان (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) البلوغ الى الشئ معناه الحقيقى الوصول اليه ولا يستعمل البلوغ بمعنى المقاربة الا مجازا لعلاقة مع قرينة كما هنا فانه لا يصح ارادة المعنى الحقيقى لان المرأة اذا بلغت آخر جزء من مدة العدة وجاوزته الى الجزء الذى هو الاجل للانقضاء فقد خرجت من العدة ولم يبق للزوج عليها سبيل قال القرطبى فى تفسيره ان معنى بلغن هنا قاربن باجماع العلماء قال ولان المعنى يضطر الى ذلك لانه بعد بلوغ الاجل لا خيار له فى الامساك يعنى فالبلوغ هنا بلوغ مقاربة والمعنى قاربن انقضاء عدتهن وشارفن منتهاها ولم يردا نقضاء العدة كما يقال بلغ فلان البلد اذا قاربه وشارفه فهذا من باب المجاز الذى يطلق اسم الكل فيه على الاكثر وقيل ان الاجل اسم للزمان فيحمل على الزمان الذى هو آخر زمان يمكن ايقاع الرجعة فيه بحيث اذا فات لا يبقى بعده مكنة الى الرجعة وعلى هذا التأويل فلا حاجة الى المجاز (فامسكوهن) أى راجعوهن (بمعروف) وهو ان يشهد على رجعتها وان يراجعها بالقول لا بالوطء وقيل الامساك بمعروف هو القيام بحقوق الزوجية وهو الظاهر قيل أعاده اعتناء بشأنه ومبالغة فى ايجاب المحافظة عليه (أو سرحوهن بمعروف) أى اتركوهن حتى تنقضى

من البركة وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم حرم مكة ودعا لها وحرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا ابراهيم لمكة رواه البخارى وهذا لفظه ولمسلم ولفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ابراهيم حرم مكة ودعا لاهلها وانى حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة وانى دعوت فى صاعها ومدها بمثلى ما دعا ابراهيم لاهل مكة وعن ابى سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اللهم ان ابراهيم حرم مكة فجعلها حراما وانى حرمت المدينة حراما ما بين مأزميها أن لا يهراق فيهما دم ولا يحمل فيها (٣٠١) سلاح لقتال ولا يخبط فيها شجرة الا لعلف

اللهم بارك لنا فى مدينتنا اللهم بارك لنا فى صاعنا اللهم بارك لنا فى مدنا اللهم اجعل مع البركة بركتين الحديث رواه مسلم والاحاديث فى تحريم المدينة كثيرة وانما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم ابراهيم عليه السلام لمكة لما فى ذلك من مطابقة الآية الكريمة وتمسك بها من ذهب الى أن تحريم مكة انما كان على لسان ابراهيم الخليل وقيل انها محرمة منذ خلقت مع الارض وهذا أطهر وأقوى والله أعلم وقد وردت أحاديث أخر تدل على ان الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والارض كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وانه لم يحل القتال فيه لاحد قبلى ولم يحل لى الا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الا من عرفها ولا يختلى خلاها فقال العباس يا رسول الله الا الاذخر فانه لقينهم ولبيوتهم فقال الا الاذخر وهذا لفظ مسلم ولهما عن أبى هريرة نحو من ذلك ثم قال البخارى بعد ذلك وقال ابان بن صالح عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة سمعت النبى صلى الله عليه وسلم مثله وهذا الذى علقه البخارى رواه الامام ابو عبد الله بن ماجه عن محمد بن عبد الله بن نمير عن يونس بن بكير عن محمد بن اسحق عن ابان بن صالح عن الحسن بن مسلم بن يناق عن صفية بنت شيبة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب عام الفتح فقال يا أيها الناس ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض فهى حرام الى يوم القيامة لا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها ولا يأخذ لقطتها الا منشد

عدتهن فيملكن أنفسهن والمعنى اذا طلقتم النساء فقاربن آخر العدة فلا تضاروهن بالمراجعة من غير قصد لاستمرار الزوجية واستدامتها بل اختاروا أحد أمرين اما الامساك بمعروف من غير قصد لضرار أو التسريح باحسان أى تركها حتى تنقضى عدتها من غير مراجعة ضرارا (ولا تمسكوهن ضرارا) كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عدتها ثم مراجعتها لا عن حاجة ولا لمحبة ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ضرارا (لتعتدوا) أى لقصد الاعتداء منكم عليهن والظلم بهن (ومن يفعل ذلك) أى الامساك المؤدى للضرار فقد ظلم نفسه لانه عرضها لعقاب الله وسخطه فى ضمن ظلمه لهن قال الزجاج يعنى عرض نفسه للعذاب لان اتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذاب الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) أى بالاعراض عنها والتهاون بالعمل بما فيها من قولهم لمن لم يجد فى الامر انما أنت هازل كأنه نهى عن الهزو وأراد به الامر بضده والمعنى لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزو فانها جد كلها فمن هزل فيها فقد لزمته نهاهم سبحانه ان يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل فانه كان يطلق الرجل منهم أو يعتق أو يتزوج ويقول كنت لاعبا قال القرطبى ولا خلاف بين العلماء ان من طلق هازلا ان الطلاق يلزمه أخرج أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة (واذكروا نعمت الله عليكم) أى النعمة التى صرتم فيها بالاسلام وشرائعه بعد ان كنتم فى جاهلية جهلاء وظلمات بعضها فوق بعض (وما أنزل عليكم من الكتاب) وهو القرآن (والحكمة) قال المفسرون هى السنة التى سنها لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبه قال الشافعى (يعظكم به) أى يخوفكم بما أنزل عليكم وأفرد الكتاب والحكمة بالذكر مع دخولهما فى النعمة دخولا أوليا تنبيها على خطرهما وعظم شأنهما (واتقوا الله) يعنى خافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه (واعلموا أن الله بكل شئ عليم) لا يخفى عليه شئ من ذلك فيؤاخذكم بانواع العقاب (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) الخطاب فى هذه الآية بقوله واذا طلقتم النساء وبقوله فلا تعضلوهن اما ان يكون للازواج ويكون معنى العضل منهم ان يمنعوهن من أن يتزوجن من أردن من الازواج بعد انقضاء عدتهن لحمية الجاهلية كما يقع كثيرا من

فقال العباس الا الاذخر فانه للبيوت والقبور فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا الاذخر وعن ابى شريح العدوى انه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث الى مكة ائذن لى أيها الامير ان أحدثك قولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به انه حمد الله وأثنى عليه ثم قال ان مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة فان أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا ان الله اذن لرسوله ولم يأذن لكم وانما أذن لى فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالامس فليبلغ الشاهد الغائب فقيل لابى شريح ما قال لك عمرو فقال أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ان الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فارا بدم ولا فارا بخربة رواه البخارى ومسلم وهذا لفظه فاذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الاحاديث الدالة على ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض وبين الاحاديث الدالة على ان ابراهيم عليه السلام حرمها لان ابراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه اياها وأنها لم تزل بلدا حراما عند الله قبل بناء ابراهيم عليه السلام لها كما انه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا عند الله خاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته ومع هذا قال ابراهيم عليه السلام ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية وقد أجاب الله دعاءه بما سبق فى علمه وقدره ولهذا جاء فى الحديث انهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن بدء أمرك فقال دعوة أبى ابراهيم عليه السلام وبشرى عيسى بن مريم ورأت أمى كانه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام أى اخبرنا عن بدء ظهور أمرك كما سيأتى قريبا ان شاء الله وأما مسئلة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور تحقق أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه فتذكر فى موضع آخر بأدلتها ان شاء الله وبه الثقة وقوله تعالى اخبارا عن الخليل انه قال رب اجعل هذا بلدا امنا أى من الخوف أى لا يرعب أهله وقد فعل الله ذلك شرعا وقدرا كقوله تعالى ومن دخله كان آمنا وقوله أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم الى غير ذلك من الآيات وقد تقدمت الاحاديث فى تحريم القتال فيه وفى صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يحل لاحد أن يحمل بمكة السلاح وقال فى هذه السورة

الخلفاء والسلاطين غيرة على من كن تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم لانهم لما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا فيه من النخوة والكبرياء يتخيلون انهم قد خرجوا من جنس بنى آدم الا من عصمه الله منهم بالورع والتواضع واما ان يكون الخطاب للاولياء ويكون معنى اسناد الطلاق اليهم انهم سبب له لكونهم المزوجين للنساء المطلقات من الازواج المطلقين لهن وبلوغ الاجل المذكور هنا المراد به المعنى الحقيقى أى نهايته لا كما سبق فى الآية الاولى ولهذا قال الشافعى اختلاف الكلامين على افتراق البلوغين والعضل الحبس وحكى الخليل دجاجة معضلة قد احتبس بيضها وقيل العضل التضييق والمنع وهو راجع الى معنى الحبس وقال الازهرى أصل العضل من قولهم عضلت الناقة اذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه وكل مشكل عند العرب معضل ويقال أعضل الامر اذا اشتد وداء عضال أى شديد عسير البرء أعيا الاطباء وقوله أزواجهن ان أريد به المطلقون لهن فهو مجاز باعتبار ما كان وان أريد به من يردن ان يتزوجنه فهو مجاز أيضا باعتبار ما سيكون (اذا تراضوا بينهم بالمعروف) يعنى اذا تراضى الخطاب والنساء والمعروف هنا ما وافق الشرع من عقد حلال ومهر جائز وقيل هو ان يرضى كل واحد منهما بما التزمه لصاحبه بحق العقد حتى تحصل الصحبة الحسنة والعشرة الجميلة (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) اشارة الى ما فصل من الاحكام وانما أفرد مع كون المذكور قبله جمعا حملا على معنى الجمع بتأويله بالفريق وغيره والمعنى ان المؤمن هو الذى ينتفع بالوعظ دون غيره (ذلكم) محمول على لفظ الجمع خلف سبحانه ما بين الاشارتين امتنانا (أزكى لكم) انمى وأنفع (وأطهر لكم) من الادناس وأطيب عند الله لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ما لكم فيه الصلاح وقال الضحاك يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلم أنت أيها الولى قيل سبب نزولها ان أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فأراد أن يراجعها فمنعها معقل كما رواه الحاكم واسمها جميلة واسم زوجها عاصم بن عدى فلما نزلت هذه الآية كفر عن يمينه وأنكحها اياه وتمام القصة فى البخارى (والوالدات يرضعن أولادهن) لما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق ذكر الرضاع لان الزوجين قد يفترقان وبينهما ولد ولهذا قيل ان هذا خاص بالمطلقات وقيل هو عام وقوله يرضعن قيل هو خبر بمعنى الامر للدلالة على

رب اجعل هذا بلدا آمنا اى اجعل هذه البقعة بلدا آمنا وناسب هذا لانه قبل بناء الكعبة وقال تعالى فى سورة ابراهيم واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وناسب هذا هنالك لانه والله أعلم كانه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به وبعد مولد اسحق الذى هو أصغر سنا من اسمعيل بثلاث عشرة سنة ولهذا قال فى آخر الدعاء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء * وقوله تعالى وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير قال ابو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن ابى بن كعب قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير قال هو قول الله تعالى وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذى صوبه ابن جرير رحمه الله قال وقرأ آخرون قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير فجعلوا ذلك من تمام دعاء ابراهيم كما رواه أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية قال كان ابن عباس يقول ذلك قول ابراهيم يسأل ربه ان من كفر فأمتعه قليلا وقال أبو جعفر عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد ومن كفر فأمتعه قليلا يقول ومن كفر فارزقه رزقا قليلا أيضا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير قال محمد بن اسحق لما عن لابراهيم الدعوة على من أبى الله ان يجعل له الولاية انقطاعا الى الله ومحبة وفراقا لمن خالف أمره وان كانوا من ذريته حين عرف انه كائن منهم ظالم لا ينال عهده بخبر الله له بذلك قال الله تعالى ومن كفر فانى أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلا وقال حاتم بن اسمعيل عن حميد الخراط عن عمار الذهبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ابن عباس كان ابراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ومن كفر أيضا ارزقهم كما أرزق المؤمنين أأخلق خلقا لا ارزقهم أمتعهم قليلا ثم أضطرهم الى عذاب النار وبئس المصير ثم قرأ ابن عباس كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا رواه ابن مردويه وروى عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضا وهذا كقوله تعالى ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون وقوله

تحقق مضمونه وليس أمر ايجاب وانما هو أمر ندب واستحباب وقيل هو خبر على بابه (حولين كاملين) تأكيد للدلالة على ان هذا التقدير تحقيقى لا تقريبى وفيه رد على أبى حنيفة فى قوله ان مدة الرضاع ثلاثون شهرا وعلى زفر فى قوله انها ثلاث سنين ذلك (لمن أراد أن يتم الرضاعة) فيه دليل على ان ارضاع الحولين ليس حتما بل هو التمام ويجوز الاقتصار على ما دونه وليس له حد محدود وانما هو على مقدار اصلاح الطفل وما يعيش به قال النحاس لا يعرف البصريون الرضاعة الا بالفتح وحكى الكوفيون جواز الكسر والآية تدل على وجوب الرضاع على الام لولدها وقد حمل ذلك على ما اذا لم يقبل الرضيع غيرها (وعلى المولود له) أى على الاب الذى يولد له وآثر هذا اللفظ دون قوله وعلى الوالد للدلالة على ان الاولاد للآباء لا للامهات ولهذا ينسبون اليهم دونهن كأنهن انما ولدن لهم فقط ذكر معناه فى الكشاف (رزقهن) المراد بالرزق هنا الطعام الكافى المتعارف بين الناس ويطلق الرزق بالكسر على المرزوق وعلى المصدر (وكسوتهن) المراد بالكسوة ما يتعارفونه أيضا (بالمعروف) أى على قدر الميسرة وفى ذلك دليل على وجوب ذلك على الآباء للامهات المرضعات وهذا فى المطلقات طلاقا بائنا وأما غير المطلقات فنفقتهن وكسوتهن واجبة على الازواج من غير ارضاعهن لاولادهن وقال القرطبى الاظهر ان الآية فى الزوجات فى حال بقاء النكاح لانهن المستحقات للنفقة والكسوة أرضعن أو لم يرضعن وهما فى مقابلة التمكين لكن اذا اشتغلت الزوجة بالارضاع لم يكمل التمكين ولا التمتع بها فقد يتوهم ان هذه النفقة تسقط حالة الارضاع فدفع هذا التوهم بقوله وعلى المولود له ثم قال فى محل آخر وفى هذه الآية دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد لعجزه وضعفه ونسبه تعالى للام لان الغذاء يصل اليه بواسطتها فى الرضاع وأجمع العلماء على انه يجب على الاب نفقة أولاده الاطفال الذين لا مال لهم انتهى (لا تكلف نفس الا وسعها) هو تقييد لقوله بالمعروف أى هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الاب بما يتعارفه الناس لا يكلف منهما الا ما يدخل تحت وسعه وطاقته لا ما يشق عليه ويعجز عنه وقيل المراد لا تكلف المرأة الصبر على التقتير فى الاجرة ولا يكلف الزوج ما هو اسراف بل يراعى القصد (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) قرئ بالرفع على الخبر وبفتح الراء المشددة على النهى واصله لا تضارر أو لا تضارر على البناء للفاعل أو المفعول أى لا تضارر

تعالى ومن كفر فلا يحزنك كفره البتة مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ وقوله ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكؤن وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين وقوله ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير أى ثم ألجئه بعد متاعه فى الدنيا وبسطنا عليه من ظلها الى عذاب النار وبئس المصير ومعناه ان الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير

الاب بسبب الولد بان تطلب منه مالا يقدر عليه من الرزق والكسوة أو بان تفرط فى حفظ الولد والقيام بما يحتاج اليه أو لا تضار من زوجها بان يقصر عليها فى شئ مما يجب عليه أو ينتزع ولدها منها بلا سبب وهكذا قراءة الرفع تحتمل الوجهين ويجوز ان تكون الباء فى قوله بولدها صلة لقوله تضار على انه بمعنى تضر أى لا تضر والدة بولدها فتسىء تربيته أو تقصر فى غذائه ولا والد بولده وقدمها النهر شفقتها وأضيف الولد تارة الى الاب وتارة الى الام للاستعطاف لا لبيان النسب اذ لو كانت له لم تصح الا للوالد لانه هو الذى ينسب اليه الولد وهذه الجملة تفصيل للجملة التى قبلها وتقرير لها أى لا يكلف كل واحد منهما الا ما لا يطيقه فلا يضار بسبب ولده (وعلى الوارث مثل ذلك) معطوف على قوله وعلى المولود له وما بينهما تفسير للمعروف أو تعليل له معترض بين المعطوف والمعطوف عليه واختلف أهل العلم فى معنى الآية فقيل هو وارث الصبى أى اذا مات المولود له كان على وارث هذا الصبى المولود ارضاعه كما كان يلزم أباه ذلك قاله عمر بن الخطاب وقتادة والسدى والحسن ومجاهد وعطاء وأحمد واسحق وأبو حنيفة وابن أبى ليلى على خلاف بينهم هل يكون الوجوب على من يأخذ نصيبا من الميراث أو على الذكور فقط أو على كل ذى رحم له وان لم يكن وارثا منه وقيل المراد بالوارث وارث الاب تجب عليه نفقة المرضعة وكسوتها بالمعروف قاله الضحاك وقال مالك فى تفسير هذه الآية بمثل ما قاله الضحاك ولكنه قال انها منسوخة وانها لا تلزم الرجل نفقة أخ ولا ذى قرابة ولا ذى رحم منه وشرطه الضحاك بان لا يكون للصبى مال فان كان له مال أخذت أجرة رضاعه من ماله وقيل المراد بالوارث المذكور فى الآية هو الصبى نفسه أى عليه من ماله ارضاع نفسه اذا مات أبوه وورث من ماله قاله قبيصة بن ذؤيب وبشير بن نصر قاضى عمر بن عبد العزيز وروى عن الشافعى وقيل هو الباقى من والدى المولود بعد موت الآخر منهما فاذا مات الاب كان على الام كفاية الطفل اذا لم يكن له مال قاله سفيان الثورى وقيل وارث المرضعة يجب عليه ان يصنع بالمولود كما كانت الام تصنعه به من الرضاع والخدمة والتربية وقيل ان معنى الآية انه يحرم عليه الاضرار بالام كما يحرم على الاب وبه قالت طائفة من أهل العلم قالوا وهذا هو الاصل فمن ادعى انه يرجع فيه العطف الى جميع ما تقدم فعليه الدليل قال القرطبى وهو الصحيح اذ لو أراد الجميع الذى هو الرضاع والانفاق وعدم الضرر لقال وعلى الوارث مثل

وفى الصحيحين لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله انهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم وفى الصحيح أيضا ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ قوله تعالى وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد وقرأ بعضهم قال ومن كفر فأمتعه قليلا الآية جعله من تمام دعاء ابراهيم وهى قراءة شاذة مخالفة للقراء السبعة وتركيب السياق يأبى معناها والله أعلم فان الضمير فى قال راجع الى الله تعالى فى قراءة الجمهور والسياق يقتضيه وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير فى قال عائدا على ابراهيم وهذا خلاف نظم الكلام والله سبحانه هو العلام * وأما قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم فالقواعد جمع قاعدة وهى السارية والاساس يقول تعالى واذكر يا محمد لقومك بناء ابراهيم واسمعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت هؤلاء السميع العليم وحكى القرطبى وغيره عن أبى وابن مسعود انهما كانا يقرآن واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ويقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم (قلت) ويدل على هذا قولهما بعده ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك الآية فهما فى عمل صالح وهما يسألان الله تعالى ان يتقبل منهما كما روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكى عن وهيب بن الورد انه قرأ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا ثم يبكى ويقول يا خليل الرحمن ترفع قواعم

بيت الرحمن وأنت مشفق ان لا يتقبل منك وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص فى قوله والذين يؤتون ما آتوا أى يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة أى خائفة ان لا يتقبل منهم كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتى فى موضعه وقال بعض المفسرين الذى كان يرفع القواعد هو ابراهيم والداعى اسمعيل والصحيح انهما كانا يرفعان ويقولان كما سيأتى بيانه وقد روى البخارى ههنا حديثا سنورده ثم نتبعه بآثار متعلقة بذلك قال البخارى رحمه الله حدثنا عبد الله بن محمد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر (٣٠٥) عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسمعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسمعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفا ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شئ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت الله آمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم

هؤلاء فدل على انه معطوف على المنع من المضارة وعلى ذلك تأوله كافة المفسرين فيما حكى القاضى عبد الوهاب قال ابن عطية وقال مالك وجميع أصحابه والشعبى والزهرى والضحاك وجماعة من العلماء المراد بقوله مثل ذلك ان لا يضار واما الرزق والكسوة فلا يجب شئ منهما وحكى ابن القاسم عن مالك مثل ما قدمناه عنه فى تفسير هذه الآية ودعوى النسخ ولا يخفى عليك ضعف ما ذهبت اليه هذه الطائفة فان ما خصصوا به معنى قوله وعلى الوارث مثل ذلك من ذلك المعنى أى عدم الاضرار بالمرضعة قد أفاده قوله لا تضار والدة بولدها الصدق ذلك على كل مضارة ترد عليها من المولود له أو غيره وأما قول القرطبى لو أراد الجميع لقال مثل هؤلاء فلا يخفى ما فيه من الضعف البين فان اسم الاشارة يصلح للمتعدد كما يصلح للواحد بتأويل المذكور ونحوه وأما ما ذهب اليه أهل القول الاول من ان المراد بالوارث وارث الصبى فيقال عليه انه لم يكن وارثا حقيقة مع وجود الصبى حيا بل هو وارث مجازا باعتبار ما يؤل اليه وأما ما ذهب اليه أهل القول الثانى فهو وان كان فيه حمل الوارث على معناه الحقيقى لكن ايجاب النفقة عليه مع غنى الصبى فيه ما فيه ولهذا قيده القائل به بان يكون الصبى فقيرا ووجه الاختلاف فى تفسير الوارث ما تقدم من ذكر الوالدات والمولود له والولد فاحتمل ان يضاف الوارث الى كل منهم (فان أرادا فصالا) الضمير للوالدين والفصال الفطام عن الرضاع أى التفريق بين الصبى والثدى ومنه سمى الفصيل لانه مفصول عن أمه (عن تراض منهما) أى صادرا عن تراض من الابوين وعلى اتفاق من الوالدين اذا كان الفصال وفطام الولد قبل الحولين (وتشاور) أى يشاورون أهل العلم فى ذلك حتى يخبروا ان الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد (فلا جناح عليهما) فى ذلك الفصال لما بين الله سبحانه ان مدة الرضاع حولان كاملان قيد ذلك بقوله لمن أراد ان يتم الرضاعة وظاهره ان الاب وحده اذا أراد ان يفصل الصبى قبل الحولين كان ذلك جائزا له وهنا اعتبر سبحانه تراضى الابوين وتشاورهما فلا بد من الجمع بين الامرين بان يقال ان الارادة المذكورة فى قوله لمن أراد ان يتم الرضاعة لا بد ان تكون منهما أو يقال ان تلك الارادة اذا لم يكن الابوان للصبى حين بان كان الموجود أحدهما أو كانت المرضعة للصبى ظئرا غير أمه والتشاور استخراج الرأى يقال شرت العسل استخرجته فلا بد لاحد الابوين اذا أراد فصال الرضيع ان يراضى الآخر ويشاوره حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك

تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافي الضيعة فان ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ (٣٠٦) عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كدا فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فاقبلوا قال وأم اسمعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا ان ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء عندنا قالوا نعم قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فألفى ذلك أم اسمعيل وهي تحب الانيس فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم ورشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل يطالع تركته فلم يجد اسمعيل فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن في ضيق وشدة فشكت اليه قال فاذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء اسمعيل كانه أنس شيأ فقال هل جاءكم من أحد قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فاخبرته الخبر أنا في جهد وشدة قال فهل أوصاك بشئ قالت نعم امرني ان أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك أبي وقد أمرني ان أفارقك فالحقي باهلك وطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ثم اتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغي لنا قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل قال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم قالت الماء قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب

(وان أردتم) خطاب للآباء وزاد بعضهم الامهات وفيه خروج من الغيبة الى الخطاب (أن تسترضعوا أولادكم) قال الزجاج التقدير ان تسترضعوا لاولادكم غير الوالدة وعن سيبويه المعنى ان تسترضعوا المراضع أولادكم (فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم) بالمد أي اعطيتم وهي قراءة الجماعة الا ابن كثير فانه قرأ بالقصر أي فعلتم والمعنى انه لا بأس عليكم ان تسترضعوا أولادكم غير أمهاتهم اذا سلمتم الى الامهات أجرهن بحساب ما قد أرضعن لكم أي وقت ارادة الاسترضاع قاله سفيان الثوري ومجاهد وقال قتادة والزهري ان معنى الآية اذا سلمتم ما آتيتم من ارادة الاسترضاع أي سلم كل واحد من الابوين ورضي كان ذلك عن اتفاق منهما وقصد خير وارادة معروف من الامر وعلى هذا فيكون قوله سلمتم عاما للرجال والنساء تغليبا وعلى القول الاول الخطاب للرجال فقط وقيل المعنى اذا سلمتم لمن اردتم استرضاعها أجرها فيكون المعنى اذا سلمتم ما أردتم ايتاءه أي اعطاءه الى المرضعات وليس هذا قيدا لصحة الاجارة فان تعجيل الاجرة لا يشترط وانما هو قيد كمال لانه أطيب لنفوسهن (بالمعروف) أي بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات من دون مماطلة لهن أو حط بعض ما هو لهن من ذلك فان عدم توفير أجرهن يبعثهن على التساهل بامر الصبي والتفريط في شأنه والمعنى ان يكونوا عند تسليم الاجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيبين لانفس المراضع بما أمكن (واتقوا الله) أي خافوه فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم للمراضع ولاولادكم (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرها وعلانيتها فانه تعالى يراها ويعلمها (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشرا) لما ذكر سبحانه عدة الطلاق واتصل بذكرها ذكر الارضاع عقب ذلك بذكر عدة الوفاة لئلا يتوهم ان عدة الوفاة مثل عدة الطلاق قال الزجاج ومعنى الآية والرجال الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا أي ولهم زوجات فالزوجات يتربصن وقال أبو علي الفارسي تقديره والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بعدهم وهو كقولك السمن منوان بدرهم أي منه وحكى عن سيبويه ان المعنى وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون وقيل التقدير وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن ذكره صاحب الكشاف وفيه ان قوله ويذرون أزواجا لا يلائم ذلك التقدير لان الظاهر من النكرة المعادة المغايرة وقال بعض النحاة من الكوفيين ان

ولو كان لهم لدعالهم فيه قال فهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة الا لم يوافقاه قال فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء اسمعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فاخبرته انا بخير قال فأوصاك بشئ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك ان تثبت عتبة بابك قال ذاك أبي وأنت العتبة أمرني ان أمسكك ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك واسمعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام اليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال يا اسمعيل ان الله أمرني بامر قال فاصنع ما أمرك ربك قال وتعينني قال وأعينك قال فان الله أمرني ان أبني ههنا بيتا وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسمعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني واسمعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطولا ورواه ابن أبي حاتم عن أبي عبد الله محمد بن حماد الطبراني وابن جرير عن أحمد بن ثابت الرازي كلاهما عن عبد الرزاق به مختصرا وقال أبو بكر بن مردويه أخبرنا اسمعيل بن علي بن اسمعيل أخبرنا بشر بن موسى أخبرنا أحمد بن محمد الازرقي أخبرنا مسلم بن خالد الزنجي عن عبد الملك بن جريج عن كثير بن كثير قال كنت انا وعثمان ابن أبي سليمان وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين في ناس مع سعيد بن جبير في أعلى المسجد ليلا فقال سعيد بن جبير سلوني قبل ان لا ترونني فسألوه عن المقام فانشأ يحدثهم عن ابن عباس فذكر الحديث بطوله ثم قال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو أخبرنا ابراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما كان بين ابراهيم وبين أهله ما كان خرج باسمعيل وأم اسمعيل ومعهم شنة فيها ماء فجعلت أم اسمعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعهما تحت دوحة ثم رجع ابراهيم الى اهله فاتبعته أم اسمعيل حتى بلغوا كدا ناداته من ورائه يا ابراهيم الى من تتركنا قال الى الله قالت رضيت بالله قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر

الخبر عن الذين متن ولئ والقصد الاخبار عن أزواجهم بانهن يتربصن وأصل التوفي أخذ الشئ وافيا فمن مات فقد استوفى عمره كاملا يقال توفي فلان يعني قبض وأخذ والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين والمراد بالازواج هنا النساء لان العرب تطلق اسم الزوج على الرجل والمرأة والمعنى الذين يموتون ويتركون النساء ينتظرن بانفسهن قدر هذه المدة ووجه الحكمة في جعل العدة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك في الغالب لثلاثة أشهر والانثى لاربعة فزاد الله سبحانه على ذلك عشرا لان الجنين ربما يضعف عن الحركة فتتأخر حركته قليلا ولا يتأخر عن هذا الاجل وظاهر هذه الآية العموم وان كل من مات عنها زوجها تكون عدتها هذه العدة ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى وأولات الاحمال أجلهن ان يضعن حملهن والى هذا ذهب الجمهور وروى عن بعض الصحابة وجماعة من أهل العلم ان الحامل تعتد بآخر الاجلين جمعا بين العام والخاص واعمالا لهما والحق ما قاله الجمهور والجمع بين العام والخاص على هذه الصفة لا يناسب قوانين اللغة ولا قوانين الشرع ولا معنى لاخراج الخاص من بين افراد العام الا بيان ان حكمه مغاير لحكم العام ومخالف له وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه أذن لسبيعة الاسلمية ان تتزوج بعد الوضع والتربص التأني والتصبر عن النكاح وظاهر الآية عدم الفرق بين الصغيرة والكبيرة والحرة والامة وذات الحيض والآيسة وان عدتهن جميعا للوفاة أربعة أشهر وعشر وقيل ان عدة الامة نصف عدة الحرة شهران وخمسة أيام قال ابن العربي اجماعا الا ما يحكى عن الاصم فانه سوى بين الحرة والامة وقال الباجي ولا نعلم في ذلك خلافا الا ما يروى عن ابن سيرين انه قال عدتها عدة الحرة وليس بالثابت عنه ووجه ما ذهب اليه الاصم وابن سيرين ما في هذه الآية من العموم ووجه ما ذهب اليه من عداهما قياس عدة الوفاة على الحد فانه ينصف للامة بقوله سبحانه فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب وقد تقدم حديث طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان وهو صالح للاحتجاج به وليس المراد منه الا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرة وعدتها على النصف من عدتها ولكنه لما لم يمكن ان يقال طلاقها تطليقة ونصف وعدتها حيضة ونصف لكون ذلك لا يعقل كانت عدتها وطلاقها ذلك القدر المذكور في الحديث جبرا للكسر ولكن ههنا أمر يمنع من هذا القياس الذي عمل به الجمهور وهو ان الحكمة في

لبنها على صبيها حتى لما فنى الماء قالت لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا فلما بلغت الوادى سعت حتى أتت المروة وفعلت ذلك أشواطا حتى أتمت سبعا ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبى فذهبت فنظرت فاذا هو على حاله كانه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها فقالت لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل فاذا هى بصوت فقالت أغث ان كان عندك خير فاذا جبريل عليه السلام قال فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الارض قال فانبثق الماء فذهبت ام اسمعيل

فجعلت تحفر قال فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم لو تركته لكان الماء ظاهرا قال فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادى فاذا هم بطير كانهم أنكروا ذلك وقالوا ما يكون الطير الا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فاذا هو بالماء فاتاهم فاخبرهم فأتوا اليها فقالوا يا أم اسمعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة قال ثم انه بدا لابراهيم صلى الله عليه وسلم فقال لاهله انى مطلع تركتى قال فجاء فسلم فقال أين اسمعيل قالت امرأته ذهب يصيد قال قولى له اذا جاء غير عتبة بابك فلما أخبرته قال أنت ذاك فاذهبى الى أهلك قال ثم انه بدا لابراهيم فقال انى مطلع تركتى قال فجاء فقال أين اسمعيل فقالت امرأته ذهب يصيد فقالت ألا تنزل فتطعم وتشرب فقال ما طعامكم وما شرابكم قالت طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم قال فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم بركة بدعوة ابراهيم قال ثم انه بدا لابراهيم صلى الله عليه وسلم فقال لاهله انى مطلع تركتى فجاء فوافق اسمعيل من وراء زمزم يصلح نبلا له فقال يا اسمعيل ان ربك عز وجل أمرنى ان أبنى له بيتا فقال أطع ربك عز وجل قال انه قد أمرنى ان تعينى عليه فقال اذا أفعل أو كما قال قال فقام فجعل ابراهيم يبنى واسمعيل يناوله الحجارة ويقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم قال حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم هكذا رواه من هذين الوجهين فى كتاب الانبياء والعجب ان الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه فى كتابه

جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا هو ما قدمناه من معرفة خلوها من الحمل ولا يعرف الا بتلك المدة ولا فرق بين الحرة والامة فى مثل ذلك بخلاف كون عدتها فى غير الوفاة حيضتين فان ذلك يعرف به خلو الرحم ويؤيد عدم الفرق ما سيأتى فى عدة أم الولد واختلف أهل العلم فى عدة أم الولد يموت سيدها فقال سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين والزهرى وعمر بن عبد العزيز والاوزاعى واسحق بن راهويه وأحمد بن حنبل فى رواية عنه انها تعتد بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص قال لا تلبسوا علينا سنة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم عدة أم الولد اذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه وضعفه أحمد وأبو عبيد وقال الدارقطنى الصواب انه موقوف وقال طاوس وقتادة عدتها شهران وخمس ليال وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن صالح تعتد بثلاث حيض وهو قول على وابن مسعود وعطاء وابراهيم النخعى وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه عدتها حيضة وغيرا الحائض شهر وبه يقول ابن عمر والشعبى ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور وقد أجمع العلماء على ان هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول وان كانت هذه الآية متقدمة فى التلاوة (فاذا بلغن أجلهن) المراد بالبلوغ هنا انقضاء العدة (فلا جناح عليكم) الخطاب للاولياء لانهم هم الذين يتولون العقد وقيل المخاطب جميع المسلمين (فيما فعلن فى أنفسهن) من التزين والتعرض للخطاب والنقلة من المسكن الذى كانت معتدة فيه وقيل عنى بذلك النكاح خاصة والاول أولى (بالمعروف) الذى لا يخالف شرعا ولا عادة مستحسنة وقد استدل بذلك على وجوب الاحداد على المعتدة عدة الوفاة وقد ثبت ذلك فى الصحيحين وغيرهما من غير وجه ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا وكذلك ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيحين وغيرهما النهى عن الكحل لمن هى فى عدة الوفاة والاحداد ترك الزينة من الطيب ولبس الثياب الجيدة والحلى وغير ذلك ولا خلاف فى وجوب ذلك فى عدة الوفاة ولا خلاف فى عدة الرجعية واختلفوا فى عدة البائنة على قولين ومحل ذلك كتب علم الفروع واحتج أصحاب أبى حنيفة على جواز النكاح بغير ولى بهذه الآية لان اضافة الفعل الى الفاعل محمول على

درك عن ابى العباس الاصم عن محمد بن سنان القزاز عن أبى على عبيد الله بن عبد المجيد الحنفى عن ابراهيم بن نافع به وقال

صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال وقد رواه البخارى كما ترى من حديث ابراهيم بن نافع وكان فيه اختصارا فانه لم يذكر فيه شأن الذبح وقد جاء فى الصحيح ان قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة وقد جاء ان ابراهيم عليه السلام كان يزور أهله بمكة على البراق سريعا ثم يعود الى أهله بالبلاد المقدسة والله أعلم والحديث والله أعلم انما فيه مرفوع أما كن صرح بها ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذا السياق ما يخالف بعض هذا كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى قالا أخبرنا مؤمل أخبرنا سفيان عن أبى اسحق عن حارثة بن مضرب عن على بن أبى طالب قال لما أمر ابراهيم ببناء البيت خرج معه اسمعيل وهاجر قال فلما قدم مكة رأى على رأسه فى موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس فكلمه قال يا ابراهيم ابن على ظلى أو قال على قدرى ولا تزد ولا تنقص فلما بنى خرج وخلف اسمعيل وهاجر فقالت هاجر يا ابراهيم الى من تكلنا قال الى الله قالت انطلق فانه لا يضيعنا قال فعطش اسمعيل عطشا شديدا قال فصعدت هاجر الى الصفا فنظرت فلم ترشيأ حتى أتت المروة فلم ترشيأ ثم رجعت الى الصفا فنظرت فلم ترشيأ ففعلت ذلك سبع مرات فقالت يا اسمعيل من حيث لا أراك فأتته وهو يفحص برجله من العطش فناداها جبريل فقال لها من أنت قالت أنا هاجر أم ولد ابراهيم قال فالى من وكلكما قالت وكلنا الى الله قال وكلكما الى كاف قال ففحص الارض باصبعه فنبعت زمزم فجعلت تحبس الماء فقال دعيه فانه روى ففى هذا السياق انه بنى البيت قبل أن يفارقهما وقد يحتمل انه كان محفوظا ان يكون أولا وضع له حوطا وتحجيرا لانه بناه الى أعلاه حتى كبر اسمعيل فبنياه معا كما قال الله تعالى ثم قال ابن جرير أخبرهنا دبن السرى حدثنا أبو الاحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة ان رجلا قام الى على رضى الله عنه فقال ألا تخبرنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الارض فقال لا ولكنه أول بيت وضع فى البركة مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وان شئت أنبأتك كيف بنى ان الله أوحى الى ابراهيم ان ابن لى بيتا فى الارض فضاق ابراهيم بذلك ذرعا فأرسل الله السكينة وهى ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت الى مكة فتطوت على موضع البيت كطى الحفة وأمر ابراهيم ان يبنى حيث تستقر السكينة فبنى

المباشرة وأجيب بانه خطاب للاولياء ولو صح العقد بغير ولى لما كان مخاطبا (والله بما تعملون خبير) لا يخفى عليه خافية (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) المتوفى عنهن أزواجهن فى العدة وكذا المطلقات طلاقا بائنا وأما الرجعيات فيحرم التعريض والتصريح بخطبتهن ففى المفهوم تفصيل والجناح الاثم أى لا اثم عليكم والتعريض ضد التصريح وهو من عرض الشئ أى جانبه كأنه يحوم به حول الشئ ولا يظهره وقيل هو من قولك عرضت الرجل أى أهديت له ومنه ان ركبا من المسلمين عرضوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر شيابا بيضا أى أهدوا لهما فالمعرض بالكلام يوصل الى صاحبه كلاما يفهم معناه وقال فى الكشاف الفرق بين الكناية والتعريض ان الكناية ان تذكر الشئ بغير لفظه الموضوع والتعريض ان تذكر شيأ تدل به على شئ لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج اليه جئتك لأسلم عليك ولانظر الى وجهك الكريم ولذلك قالوا * وحسبك بالتسليم منى تقاضيا * وكأنه امالة الكلام الى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح لانه يلوح منه ما يريده انتهى والمعنى لوحتم وأشرتم والخطبة بالكسر ما يفعله الطالب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل يقال خطبها يخطبها خطبة وخطبا والخطبة بالضم هى الكلام الذى يقوم به الرجل خاطبا (أو أكننتم) معناه سترتم وأضمرتم من التزويج بعد انقضاء العدة والاكنان التستر والاخفاء يقال أكننته وكننته وهما بمعنى واحد ومنه بيض مكنون ودر مكنون وأو هنا للاباحة أو التخيير أو التفصيل أو الابهام على المخاطب (فى أنفسكم) يعنى من قصد نكاحهن وقيل هو أن يدخل ويسلم ويهدى ان شاء ولا يتكلم بشئ (علم الله أنكم ستذكرونهن) أى لا تصبرون عن النطق لهن برغبتكم فيهن فرخص لكم فى التعريض دون التصريح وقال فى الكشاف ان فيه طرفا من التوبيخ كقوله تعالى علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم (ولكن لا تواعدوهن سرا) قد اختلف العلماء فى معنى السر فقيل معناه نكاحا أى لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزوجينى بل يعرض تعريضا وقد ذهب الى ان هذا معنى الآية جمهور العلماء وقيل السر الزنا أى لا يكون منكم مواعدة على الزنا فى العدة ثم التزويج بعدها قاله جابر بن زيد وأبو مجلز والحسن وقتادة والضحاك والنخعى واختاره ابن جرير الطبرى وقيل السر الجماع أى لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ترغيبا لهن فى النكاح

ابراهيم وبقى الحجر فذهب الغلام شيأ فقال ابراهيم أبغنى حجرا كما آمرك قال فانطلق الغلام يلتمس له حجرا فاتاه به فوجده قد ركب الحجر الاسود فى مكانه فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر فقال أتانى به من لم يتكل على بنائك جاءه به جبريل عليه السلام من السماء فاتماه وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى أخبرنا سفيان عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب عن كعب الاحبار قال كان البيت غثاءة على الماء قبل ان يخلق الله الارض بار بعين عاما ومنه دحيت الارض قال سعيد وحدثنا على بن أبى طالب أن ابراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوؤ البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتا قال فكشفت عن أحجار لا يطيق الحجر الاثلاثون رجلا فقلت يا أبا محمد فان الله يقول واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل قال كان ذلك بعد وقال السدى ان الله عز وجل أمر ابراهيم ان يبنى البيت هو واسمعيل ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود فانطلق ابراهيم حتى أتى مكة فقام هو واسمعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت فبعث الله ريحا يقال لها الريح الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الاول واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الاساس فذلك حين يقول تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن قال ابراهيم لاسمعيل يا بنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه ههنا قال يا أبت انى كسلان لغب قال على ذلك فانطلق يطلب له حجرا وجاءه جبريل بالحجر الاسود من الهند وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس فجاءه اسمعيل بحجر فوجده عند الركن فقال يا أبت من جاءك بهذا قال جاءنى به من هو أنشط منك فبنيا وهما يدعوان الكلمات التى ابتلى ابراهيم ربه فقال ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم وفى هذا السياق ما يدل على ان قواعد البيت كانت مبنية قبل ابراهيم وانما هدى ابراهيم اليها وبوئ لها وقد ذهب الى هذا ذاهبون كما قال الامام عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت قال القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا هشام بن حسان عن سوار ختن عطاء عن عطاء بن أبى رباح

والى هذا ذهب الشافعى فى معنى الآية والاستدراك بقوله لكن من مقدر دل عليه ستذكرونهن أى فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن سرا ولا تصرحوا بالخطبة بان تذكروا صريح النكاح قال ابن عطية أجمعت الامة على ان الكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز وقال أيضا أجمعت الامة على كراهة المواعدة فى العدة للمرأة فى نفسها وللاب فى ابنته البكر وللسيد فى أمته وقال ابن عباس المواعدة سرا ان يقول لها انى عاشق وعاهدينى ان لا تتزوجى غيرى ونحو هذا (الا أن تقولوا) قيل هو استثناء منقطع بمعنى لكن لان القول هو التعريض والمستثنى منه المراد به التصريح وهذا هو شأن المنقطع يفسر بلكن وبه قال السيوطى ومنع صاحب الكشاف ان يكون منقطعا وقال هو مستثنى من قوله لا تواعدوهن أى مواعدة مما قط الا مواعدة معروفة غير منكرة شرعا وهى ما يكون بطريق التعريض والتلويح فجعله على هذا استثناء متصلا مفرغا ووجه كونه منقطعا انه يؤدى الى جعل التعريض موعودا وليس كذلك لان التعريض طريق المواعدة لا انه الموعود فى نفسه وعن ابن عباس قال التعريض ان يقول انى أريد التزويج وانى لاحب المرأة من أمرها وان من شأنى النساء ولوددت ان الله يسر لى امرأة صالحة رواه البخارى وجماعة (قولا معروفا) أى تعريضا وقال ابن عباس هو قوله ان رأيت ان لا تسبقينى بنفسك أو يقول انك لجميلة وانك الى خير وان النساء من حاجتى (ولا تعزموا عقدة النكاح) قد تقدم الكلام فى معنى العزم يقال عزم الشئ وعزم عليه والمعنى هنا لا تعزموا على عقدة النكاح فى العدة لان العزم عليه بعدها لا بأس به ثم حذف على قال سيبويه والحذف فى هذه الآية لا يقاس عليه وقال النحاس يجوز ان يكون المعنى ولا تعقدوا عقدة النكاح لان معنى تعزموا وتعقدوا واحد قيل ان العزم على الفعل يتقدمه فيكون فى هذا النهى مبالغة لانه اذا نهى عن المتقدم على الشئ كان النهى عن ذلك الشئ بالاولى (حتى) غاية للنهى (يبلغ الكتاب أجله) أى تنقضى العدة والكتاب هنا هو الحد والقدر الذى رسم من المدة سماه كتابا لكونه محدودا ومفروضا كقوله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وهذا الحكم أعنى تحريم عقد النكاح فى العدة مجمع عليه والمراد بالاجل آخر مدة العدة (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم) من العزم على ما لا يجوز (فاحذروه) أى عقابه اذا عزمتم على عقدة

قال لما أهبط الله آدم من الجنة كانت رجلاه فى الارض ورأسه فى السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم يأنس اليهم فهابت الملائكة حتى شكت الى الله فى دعائها وفى صلاتها فخفضه الله تعالى الى الارض فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا ذلك الى الله فى دعائه وفى صلاته فوجه الى مكة فكان موضع قدميه قرية وخطوه مفازة حتى انتهى الى مكة وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله ابراهيم عليه السلام فبناه وذلك قول الله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال قال آدم انى لأسمع أصوات الملائكة قال بخطيئتك ولكن اهبط الى الارض فابن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء فيزعم الناس انه بناه (١) من خمسة أجبل من حراء وطور زيتا وطور سيناء والجودى وكان ربضه من حراء فكان هذا بناء آدم حتى بناه ابراهيم عليه السلام بعد وهذا صحيح الى عطاء ولكن فى بعضه نكارة والله أعلم وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا معمر عن قتادة قال وضع الله البيت مع آدم أهبط الله آدم الى الارض وكان مهبطه بارض الهند وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى الارض فكانت الملائكة تهابه فنقص الى ستين ذراعا فحزن آدم اذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم فشكا ذلك الى الله عز وجل فقال الله يا آدم انى قد أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى فانطلق اليه آدم فخرج ومده فى خطوه فكان بين كل خطوتين مفازة فلم تزل تلك المفاوز بعد ذلك فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الانبياء وقال ابن جرير أخبرنا ابن حميد أخبرنا يعقوب العمى عن حفص ابن حميد عن عكرمة عن ابن عباس قال وضع الله البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفى عام ثم دحيت الارض من تحت البيت وقال محمد بن اسحق حدثنى عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد وغيره من أهل العلم ان الله لما تاب على أبراهيم مكان البيت خرج اليه من الشام وخرج معه باسمعيل وبأمه هاجر واسمعيل طفل صغير يرضع وحملوا فيما حدثنى على البراق ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم وخرج معه جبريل فكان لا يمر بقرية الا قال أبهذه أمرت يا جبريل فيقول

النكاح فى العدة والا تعزموا عليه فان العزم على المعصية معصية (واعلموا أن الله غفور حليم) لا يعاجلكم بالعقوبة على الجهر بالمعصية بل يستر ها (لا جناح عليكم) المراد بالجناح هنا التبعة من المهر ونحوه فرفعه رفع لذلك أى لا تبعة عليكم بالمهر ونحوه (ان طلقتم النساء مالم تمسوهن) أى مدة عدم مسيسكم وقال أبو البقاء والمعنى ان طلقتموهن غير ماسين لهن فعلى الاول ما مصدرية ظرفية وعلى الثانى شرطية وقيل انها موصولة أى ان طلقتم النساء اللاتى لم تمسوهن أى مالم تجامعوهن وقرأ ابن مسعود من قبل ان تجامعوهن وقرأ غيره تماسوهن من المفاعلة وهكذا اختلفوا فى قوله (أو تفرضوا لهن فريضة) فقيل أو بمعنى الا أى الا ان تفرضوا وقيل بمعنى حتى أى حتى تفرضوا وقيل بمعنى الواو أى وتفرضوا ولست أرى لهذا التطويل وجها ومعنى الآية أوضح من أن يلتبس فان الله سبحانه رفع الجناح عن المطلقين مالم يقع أحد الامرين أى مدة انتفاء ذلك الاحد ولا ينتفى الاحد المبهم الا بانتفاء الامرين معا فان وجد المسيس وجب المسمى أو مهر المثل وان وجد الفرض وجب نصفه مع عدم المسيس وكل واحد منها جناح أى المسمى أو مهر المثل أو نصفه واعلم ان المطلقات أربع مطلقة مدخول بها مفروض لها وهى التى تقدم ذكرها قبل هذه الآية وفيها نهى الازواج عن ان يأخذوا مما آتوهن شيأ وان عدتهن ثلاثة قروء ومطلقة غير مفروض لها ولا مدخول بها وهى المذكورة هنا فلا مهر لها بل المتعة وبين فى سورة الاحزاب ان غير المدخول بها اذا طلقت فلا عدة عليها ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها وهى المذكورة بقوله سبحانه وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها وهى المذكورة فى قوله تعالى فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن والمراد بالفريضة هنا تسمية المهر وفيها وجهان أظهرهما انها مفعول به والتقدير شيأ مفروضا والثانى ان تكون منصوبة على المصدر بمعنى فرضا واستجود أبو البقاء الوجه الاول (ومتعوهن) أى أعطوهن شيأ يكون متاعا لهن وظاهر الامر الوجوب وبه قال على وابن عمر والحسن البصرى وسعيد بن جبير وأبو قلابة والزهرى وقتادة والضحاك ومن أدلة الوجوب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا وقال مالك وأبو عبيد

---

(١) قوله خمسة المعدود أربعة وحرر اه

جبريل امضه حتى قدم به مكة وهى اذذاك عضاه وسلم وسمر وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة فقال ابراهيم لجبريل أههنا أمرت ان أضعهما قال نعم فعمد بهما الى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أم اسمعيل ان تتخذ فيه عريشا فقال ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم الى قوله لعلهم يشكرون وقال عبد الرزاق أخبرنا هشام بن حسان أخبرنى حميد عن مجاهد قال خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيأ بألفى سنة وأركانه فى الارض السابعة وكذا قال ليث بن أبى سليم (٣١٢) عن مجاهد القواعد فى الارض السابعة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أخبرنا عمرو بن رافع أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية عن عبد المؤمن بن خالد عن علباء بن أحمر أن ذا القرنين قدم مكة فوجد ابراهيم واسمعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل فقال ما لكما ولارضا فقالا نحن عبدان مأموران أمرنا ببناء هذه الكعبة قال فهاتا بالبينة على ما تدعيان فقامت خمسة أكبش فقلن نحن نشهد أن ابراهيم واسمعيل عبدان مأموران أمرا ببناء هذه الكعبة فقال قد رضيت وسلمت ثم مضى وذكر الازرقى فى تاريخ مكة ان ذا القرنين طاف مع ابراهيم عليه السلام بالبيت وهذا يدل على تقدم زمانه والله أعلم وقال البخارى رحمه الله قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل الآية القواعد أساسه واحدها قاعدة والقواعد من النساء واحدتها قاعدة حدثنا اسمعيل حدثنى مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله ان عبد الله بن محمد بن أبى بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألم ترى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد ابراهيم فقلت يا رسول الله ألا تردها على قواعد ابراهيم قال لولا حدثان قومك بالكفر فقال عبد الله بن عمر لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر الا ان البيت لم يتم على قواعد ابراهيم عليه السلام وقد رواه فى الحج عن القعنبى وفى أحاديث الانبياء عن عبد الله بن يوسف ومسلم عن يحيى بن يحيى ومن حديث بن وهب والنسائى من حديث عبد الرحمن بن القاسم كلهم عن مالك به ورواه مسلم أيضا من حديث نافع قال سمعت

اقوال

والقاضى شريح وغيرهم ان المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة لقوله تعالى حقا على المحسنين ولو كانت واجبة لاطلقها على الخلق أجمعين ويجاب عنه بان ذلك لا ينافى الوجوب بل هو تأكيد له كما فى قوله فى الآية الاخرى حقا على المتقين أى ان الوفاء بذلك والقيام به شأن أهل التقوى وكل مسلم يجب عليه ان يتقى الله سبحانه وقد وقع الخلاف أيضا هل المتعة مشروعة لغير هذه المطلقة قبل المسيس والفرض أم ليست بمشروعة الا لها فقط فقيل انها مشروعة لكل مطلقة واليه ذهب ابن عباس وابن عمر وعطاء وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وأبو العالية والحسن البصرى والشافعى فى أحد قوليه وأحمد واسحق ولكنهم اختلفوا هل هى واجبة فى غير المطلقة قبل المساء والفرض أم مندوبة فقط واستدلوا بقوله تعالى وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين وبقوله تعالى يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا والآية الاولى عامة لكل مطلقة والثانية فى أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد كن مفروضا لهن مدخولا بهن وقال سعيد بن المسيب انها تجب للمطلقة اذا طلقت قبل المسيس وان كانت مفروضا لها لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن قال هذه الآية التى فى الاحزاب نسخت التى فى البقرة وذهب جماعة من أهل العلم الى أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء والتسمية لان المدخول بها تستحق جميع المسمى أو مهر المثل وغير المدخولة التى قد فرض لها زوجها فريضة أى سمى لها مهرا وطلقها قبل الدخول تستحق نصف المسمى ومن القائلين بهذا ابن عمر ومجاهد وقد وقع الاجماع على أن المطلقة قبل الدخول أو الفرض لا تستحق الا المتعة اذا كانت حرة وأما اذا كانت أمة فذهب الجمهور الى أن لها المتعة وقال الاوزاعى والثورى لا متعة لها لانها تكون لسيدها ولا تستحق مالا فى مقابل تأذى مملوكته لان الله سبحانه انما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول والفرض لكونها تتأذى بالطلاق قبل ذلك وقد اختلفوا فى المتعة المشروعة هل هى مقدرة بقدر أم لا فقال مالك والشافعى فى الجديد لا حد لها معروف بل ما يقع عليه اسم المتعة وقال أبو حنيفة انه اذا تنازع الزوجان فى قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلها ولا ينقص من خمسة دراهم لان أقل المهر عشرة دراهم وللسلف فيها

عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن أبي قحافة يحدث عبد الله بن عمر عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا ان قومك حديث عهد بجاهلية أو قال بكفر لانفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالارض ولادخلت فيها الحجر وقال البخاري أخبرنا عبيد الله بن موسى عن اسرائيل عن أبي اسحق عن الاسود قال قال لي ابن الزبير كانت عائشة تسر اليك حديثا كثيرا فما حدثتك في الكعبة قال قلت قالت لي قال النبي صلى الله عليه وسلم يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم فقال ابن الزبير بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابا بين بابا يدخل منه الناس وبابا يخرجون منه ففعله ابن الزبير انفرد باخراجه البخاري فرواه هكذا في كتاب العلم من صحيحه وقال مسلم في صحيحه حدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس ابراهيم فان قريشا حين بنت البيت استقصرت ولجعلت لها خلفا قال وحدثناه أبو بكر ابن ابي شيبة وابو كريب قالا اخبرنا ابن نمير عن هشام بهذا الاسناد انفرد به مسلم قال وحدثني محمد ابن حاتم حدثني محمد بن مهدي اخبرنا سليم بن حيان عن سعيد يعني ابن ميناء قال سمعت عبد الله بن الزبير يقول حدثتني خالتي يعني عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم يا عائشة لولا قومك حديث عهد بشرك لهدمت الكعبة فالزقتها بالارض ولجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فان قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة انفرد به أيضا * (ذكر بناء قريش الكعبة بعد ابراهيم الخليل (٤٠ - فتح البيان ل) عليه السلام بمدد طويلة وقبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين) * وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائما الى يوم الدين قال محمد بن اسحق بن يسار في السيرة ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها وانما كانت رضما فوق القامة فاراد وا رفعها وتسقيفها وذلك ان نفرا سرقوا كنز الكعبة وانما كان يكون في بئر في جوف الكعبة وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى بني مليح بن عمرو من خزاعة فقطعت قريش يده ويزعم الناس ان الذين سرقوه

أقوال سيأتي ذكرها ان شاء الله تعالى وقوله (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) يدل على ان الاعتبار في ذلك بحال الزوج فالمتعة من الغني فوق المتعة من الفقير والموسع هو الذي اتسعت حاله وقرئ الموسع بالتشديد وقرئ قدره بسكون الدال فيهما وبفتح الدال فيهما قال الاخفش وغيره هما لغتان فصيحتان وهكذا في قوله تعالى فسالت أودية بقدرها وقوله وما قدروا الله حق قدره والمقتر المقل والتقدير على الموسع منكم أو على موسعكم قدره أي قدر امكانه وطاقته وكذا يقال في الثاني والآية تفيد انه لا نظر الى قدر الزوجة وقيل هذا ضعيف في مذهب الشافعي بل ينظر الحاكم باجتهاده الى حالهما جميعا على أظهر الوجوه (متاعا) مصدر مؤكد أي متعوهن متاعا (بالمعروف) ما عرف في الشرع والعادة الموافقة له وقوله (حقا على المحسنين) وصف لقوله متاعا أو مصدر لفعل محذوف أي حق ذلك حقا يقال حققت عليه القضاء وأحققت أي أوجبت قال ابن عباس المس النكاح والفريضة الصداق وأمر الله أن يمتعها على قدر عسره ويسره فان كان موسرا متعها بخادم وان كان معسرا متعها بثلاثة أثواب ونحو ذلك وعنه قال متعة الطلاق أعلاها الخادم ودون ذلك الورق ودون ذلك الكسوة وعن ابن عمر أدنى ما يكون من المتعة ثلاثون درهما وعن الحسن بن علي انه متع بعشرين ألفا وزقاق من عسل وعن شريح انه متع بخمسمائة درهم وعن الحسن بن علي أيضا انه متع بعشرة آلاف وعن ابن سيرين انه كان يمتع بالخادم والنفقة والكسوة (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) فيه دليل على أن المتعة لا تجب لهذه المطلقة لوقوعها في مقابلة المطلقة قبل البناء والفرض التي تستحق المتعة أي فالواجب عليكم نصف ما سميتم لهن من المهر وهذا مجمع عليه وقد وقع الاتفاق أيضا على ان المرأة التي لم يدخل بها زوجها ومات وقد فرض لها مهرا تستحقه كاملا بالموت ولها الميراث وعليها العدة واختلفوا في الخلوة هل تقوم مقام الدخول وتستحق المرأة بها كمال المهر كما تستحقه بالدخول أم لا فذهب الى الاول مالك والشافعي في القديم والكوفيون والخلفاء الراشدون وجمهور أهل العلم وتجب أيضا عندهم العدة وقال الشافعي في الجديد لا يجب الا نصف المهر وهو ظاهر الآية لما تقدم من ان المسيس هو الجماع ولا يجب عنده العدة واليه ذهب جماعة من السلف (الا أن يعفون) أي المطلقات ومعناه يتركن ويصفحن وهو

وضعوه عند ذويك وكان البحر قد رمى بسفينة الى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فاعدوه لتسقيفها وكان بمكة رجل قبطى نجار فهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون وذلك انه كان لا يدنو منها أحد الا أجرأت وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها فبينا هى يوما تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله اليها طائرا فاختطفها فذهب بها فقالت قريش انا لنرجو ان يكون الله قد رضى ما أردنا عندنا عامل (٣١٤) رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها قام ابن وهب بن عمرو ابن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده حتى رجع الى موضعه فقال يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم الا طيبا لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس قال ابن اسحق والناس يقتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قال ثم ان قريشا تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة وكان ما بين الركن الاسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصى ولبنى عدى بن كعب بن لؤى وهو الحطيم ثم ان الناس هابوا هدمها وفرقوا منه فقال الوليد بن المغيرة أنا ابدؤكم فى هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع اللهم انا لا نريد الا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة وقالوا ننظر فان أصيب لم نهدم منها شيأ وردددناها كما كانت وان لم يصبه شئ فقد رضى الله ما صنعنا فاصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى اذا انتهى الهدم بهم الى الاساس أساس ابراهيم عليه السلام أفضوا الى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها بعضا قال فحدثنى بعض من يروى الحديث ان رجلا من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضا احدهما فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الاساس قال ابن اسحق ثم ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن يعنى الحجر الاسود

استثناء مفرغ من أعم العام وقيل منقطع ومعناه يترك النصف الذى يجب لهن على الازواج وروى عن محمد بن كعب القرظى انه قال الا ان يعفون يعنى الرجال وهو ضعيف لفظا ومعنى (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) معطوف على محل قوله الا أن يعفون لان الاول مبنى وهذا معرب قيل هو الزوج وبه قال جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبى وعكرمة ونافع وابن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظى وجابر بن زيد وأبو مجلز والربيع بن أنس واياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان وهو الجديد من قولى الشافعى وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثورى وابن شبرمة والاوزاعى ورجحه ابن جرير وفى هذا القول قوة وضعف أما قوته فلكون الذى بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج لانه الذى اليه رفعه بالطلاق وأما ضعفه فلكون العفو منه غير معقول وما قالوا به من ان المراد بعفوه ان يعطيها المهر كاملا غير ظاهر لان العفو لا يطلق على الزيادة وقيل المراد بقوله أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح هو الولى وبه قال النخعى وعلقمة والحسن وطاوس وعطاء وأبو الزناد وزيد بن أسلم وربيعة والزهرى والاسود بن يزيد والشعبى وقتادة ومالك والشافعى فى قوله القديم وفيه قوة وضعف أما قوته فلكون معنى العفو فيه معقولا وأما ضعفه فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لا بيده ومما يزيد هذا القول ضعفا انه ليس للولى أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه وقد حكى القرطبى الاجماع على ان الولى لا يملك شيأ من مالها والمهر مالها فالراجح ما قاله الاولون لوجهين الاول أن الزوج هو الذى بيده عقدة النكاح حقيقة الثانى ان عفوه بأكمال المهر هو صادر عن المالك المطلق التصرف بخلاف الولى وتسمية الزيادة عفوا وان كان خلاف الظاهر لكن لما كان الغالب انهم يسوقون المهر كاملا عند العقد كان العفو معقولا لانه تركها ولم يسترجع النصف منه ولا يحتاج فى هذا الى أن يقال انه من باب المشاكلة كما فى الكشاف لانه عفو حقيقى أى ترك لما يستحق المطالبة به الا أن يقال انه مشاكلة أو تغليب فى توفية المهر قبل ان يسوقه الزوج (وأن تعفوا أقرب للتقوى) قيل هو خطاب للرجال والنساء تغليبا أى وعفو بعضكم أيها الرجال والنساء أقرب للتقوى أى من عدم العفو الذى فيه التنصيف والمراد بالتقوى الالفة وطيب النفس من الجانبين وعليه قراءة الجمهور بالتاء الفوقية وقرأ الشعبى وأبو نهيك بالياء التحتية

فاختصموا فيه كل قبيلة تريد ان ترفعه الى موضعه دون الاخرى حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا لعقة الدم فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ثم انهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض أهل الرواية ان أبا أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريش كلهم قال يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا هذا الامين رضينا هذا محمد فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم هلم الى ثوبا فاتى به فاخذ الركن يعنى الحجر الاسود فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ثم بنى عليه وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان ينزل عليه الوحى الامين فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا قال الزبير بن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها

عجبت لما تصوبت العقاب
الى الثعبان وهى لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش
وأحيانا يكون لها وثاب
اذا قمنا الى التأسيس شدت
تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الرجز جاءت
عقاب تتلئب لها انصباب
فضمتها اليها ثم خلت
لنا البنيان ليس له حجاب * فقمنا حاشدين الى بناء * لنا منه القواعد والتراب * غداة نرفع التأسيس منه
وليس على مساوينا ثياب * أعز به المليك بنى لؤى * فليس لاصله منهم ذهاب * وقد حشدت هنالك بنو عدى
ومرة قد تقدمها كلاب * فبوأنا المليك بذاك عزا * وعند الله يلتمس الثواب قال ابن اسحق وكانت الكعبة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ثمانى عشر ذراعا وكانت تكسى القباطى ثم كسيت بعد البرود وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف (قلت) ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت فى أول امارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين وفى آخر ولاية يزيد بن معاوية لما

التحية فيكون الخطاب مع الرجال فقط وفى هذا دليل على ما رجحناه من ان الذى بيده عقدة النكاح هو الزوج لان عفو الولى عن شئ لا يملكه ليس هو أقرب للتقوى بل أقرب الى الظلم والجور والمعنى وليعف الزوج فيترك حقه الذى ساق من المهر اليها قبل الطلاق فهو أقرب للتقوى (ولا تنسوا الفضل بينكم) المعنى أن الزوجين لا ينسيان التفضل من كل واحد منهما على الآخر ومن جملة ذلك ان تتفضل المرأة بالعفو عن النصف ويتفضل الرجل عليها باكمال المهر وهو ارشاد للرجال والنساء من الازواج الى ترك التقصى على بعضهم بعضا والمسامحة فيما يستغرقه أحدهما على الآخر للوصلة التى قد وقعت بينهما من افضاء البعض الى البعض وهى وصلة لا تشبهها وصلة فمن رعاية حقها ومعرفتها حق معرفتها الحرص منهما على التسامح (ان الله بما تعملون بصير) فيه من ترغيب المحسن وترهيب غيره ما لا يخفى (حافظوا على الصلوات) المحافظة على الشئ المداومة والمواظبة عليه أى داوموا واظبوا على الخمس المكتوبات بجميع شرائطها وحدودها واتمام أركانها وفعلها فى أوقاتها المختصة بها ولعل الامر بالصلوات وقع فى تضاعيف أحكام الاولاد والازواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها (والصلاة الوسطى) الوسطى تأنيث الاوسط وأوسط الشئ ووسطه خياره ومنه قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا ووسط فلان القوم يسطهم أى صار فى وسطهم وليست من الوسط الذى معناه متوسط بين شيئين لان فعلى معناها التفضيل ولا يبنى للتفضيل الا ما يقبل الزيادة والنقص والوسط بمعنى العدل والخيار يقبلهما بخلاف التوسط بين الشيئين فانه لا يقبلهما فلا يبنى منه أفعل للتفضيل وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها فى عموم الصلوات تشريفا لها وقد اختلف أهل العلم فى تعيينها على ثمانية عشر قولا أوردها الشوكانى فى شرحه للمنتقى وذكر ما تمسك به كل طائفة وأرجح الاقوال وأصحها ما ذهب اليه الجمهور من انها العصر لما ثبت عند البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم من حديث على قال كنا نراها الفجر حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول يوم الاحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وأجوافهم نارا وأخرج مسلم والترمذى وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود مرفوعا مثله وأخرجه ابن جرير وابن المنذر والطبرانى من حديث ابن عباس مرفوعا وأخرجه البزار باسناد صحيح من حديث جابر مرفوعا

حاصروا ابن الزبير فحينئذ نقضها ابن الزبير الى الارض وبناها على قواعد ابراهيم عليه السلام وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابا شرقيا وبابا غربيا ملصقين بالارض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تزل كذلك مدة امارته حتى قتله الحجاج فردها الى ما كانت عليه بامر عبد الملك بن مروان له بذلك كما قال مسلم بن الحجاج في صحيحه أخبرنا هناد بن السرى أخبرنا ابن أبي زائدة أخبرنا ابن أبي سليمان عن عطاء قال لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان تركه ابن (٣١٦) الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد ان يحزبهم أو يجيرونهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال يا أيها الناس أشيروا على في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهى منها قال ابن عباس انه قد خرق لى رأى فيها أرى ان تصلح ما وهى منها وتدع بيتا أسلم الناس عليه وأحجارا أسلم الناس عليها وبعث عليها النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابن الزبير لو كان أحدهم احترق بيته ما رضى حتى يجدده فكيف بيت ربكم عز وجل انى مستخير ربى ثلاثا ثم عازم على أمرى فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على ان ينقضها فتحاماها الناس ان ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شئ تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الارض فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه وقال ابن الزبير انى سمعت عائشة رضى الله عنها تقول ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا ان الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندى من النفقة ما يقوينى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعلت له بابا يدخل الناس منه وبابا يخرجون منه قال فانا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس قال فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدا له أساسا نظر الناس اليه فبنى عليه البناء وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعا فلما زاد فيه استقصره فزاد فى طوله عشرة أذرع وجعل له بابين احدهما يدخل منه والآخر يخرج منه فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج الى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره ان ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر اليه العدول من أهل مكة فكتب اليه عبد الملك انا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شئ أما ما زاده فى طوله فاقره وأما ما زاد فيه من الحجر فرده الى بنائه وسد الباب الذى فتحه فنقضه وأعاده الى بنائه وقد رواه

وأخرجه أيضا البزار بسند صحيح من حديث حذيفة مرفوعا وأخرجه الطبرانى باسناد ضعيف من حديث أم سلمة مرفوعا وورد فى تعيين انها العصر من غير ذكر يوم الاحزاب أحاديث مرفوعة الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذه أحاديث مصرحة بانها العصر وقد روى عن الصحابة فى تعيين انها العصر آثار كثيرة وفى الثابت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يحتاج معه الى غيره وأما ما روى عن على وابن عباس انهما قالا انها صلاة الصبح كما أخرجه مالك فى الموطا عنهما وأخرجه ابن جرير عن ابن عباس وكذلك غيره عن ابن عمر وأبى امامة فكل ذلك من أقوالهم وليس فيها شئ من المرفوع الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا تقوم بمثل ذلك حجة لا سيما اذا عارض ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثبوتا يمكن أن يدعى فيه التواتر واذا لم تقم الحجة بأقوال الصحابة لم تقم بأقوال من بعد من التابعين وتابعيهم بالاولى وهكذا لا تقوم الحجة بما أخرجه ابن أبي حاتم باسناد حسن عن ابن عباس انه قال صلاة الوسطى المغرب وهكذا لا اعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة انها الظهر وغيرها من الصلوات ولكن المحتاج الى امعان نظر وفكر ما ورد مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما فيه دلالة على انها الظهر كما أخرجه ابن جرير عن زيد بن ثابت مرفوعا ان الصلاة الوسطى صلاة الظهر ولا يصح رفعه بل المروى عن زيد ذلك من قوله واستدل على ذلك بان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلى بالهاجرة وكانت أثقل الصلاة على أصحابه وأين يقع هذا الاستدلال من تلك الاحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهكذا الاعتبار بما روى عن ابن عمر من قوله انها الظهر وكذلك ما روى عن عائشة وأبى سعيد الخدرى وغيرهم فلا حجة فى قول أحد مع قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما ما رواه عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما ان حفصة قالت لابى رافع مولاها وقد أمرته أن يكتب لها مصحفا اذا أتيت على هذه الآية حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فتعال حتى أمليها عليك فلما بلغ ذلك أمرته ان يكتب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وأخرجه أيضا عنها مالك وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى فى سننه وزادوا وقالت أشهدانى سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واخرج مالك ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبى يونس مولى عائشة وفيه قالت سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذا روى عن

النسائي في سننه عن هناد عن يحيى بن أبي زائدة عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء عن ابن الزبير عن عائشة بالمرفوع منه ولم يذكر القصة وقد كانت السنة اقرار ما فعله عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لانه هو الذي وده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن خشي ان تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالاسلام وقرب عهدهم من الكفر ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ولهذا ما تحقق ذلك عن عائشة انها روت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وددنا انا تركناه وما تولى كما قال مسلم حدثني محمد ابن حاتم حدثنا محمد بن بكر اخبرنا ابن جريج سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير والوليد بن عطاء يحدثان عن الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة قال عبد الله بن عبيد وفد الحرث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته فقال عبد الملك ما أظن أبا حبيب يعني ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم انه سمعه منها قال الحرث بلى أنا سمعته منها قال سمعتها تقول ماذا قال قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فان بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لاريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع هذا حديث عبد الله بن عبيد بن عمير وزاد عليه الوليد بن عطاء قال النبي صلى الله عليه وسلم ولجعلت لها بابين موضوعين في الارض شرقيا وغربيا وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها قالت قلت لا قال تعززا أن لا يدخلها الا من أرادوا فكان الرجل اذا هو أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقي حتى اذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط قال عبد الملك فقلت للحرث أنت سمعتها تقول هذا قال نعم قال فنكث ساعة بعصاه ثم قال وددت اني تركت وما تحمل قال مسلم وحدثناه محمد بن عمرو بن جبلة حدثنا أبو عاصم ح وحدثنا عبد بن حميد أخبرنا عبد الرزاق كلاهما عن ابن جريج بهذا الاسناد مثل حديث أبي بكر قال وحدثنا محمد بن حاتم حدثنا عبد الله بن بكر السهمي حدثنا حاتم بن أبي صغيرة عن أبي قزعة ان عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت اذ قال قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على ام المؤمنين يقول سمعتها تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر فان قومك قصروا في البناء فقال الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة لا تقل هذا يا أمير المؤمنين فاني سمعت أم المؤمنين تحدث

عن أم سلمة انها قالت كما قالت حفصة وعائشة فغاية ما في هذه الروايات عن أمهات المؤمنين الثلاث انهن يرون هذا الحرف هكذا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس فيه ما يدل على تعيين الصلاة الوسطى انها الظهر أو غيرها بل غاية ما يدل عليه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى انها غيرها لان المعطوف غير المعطوف عليه وهذا الاستدلال لا يعارض ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم ثبوتا لا يدفع انها العصر كما قدمنا بيانه فالحاصل أن هذه القراءة التي نقلها أمهات المؤمنين الثلاث باثبات قوله وصلاة العصر معارضة بما أخرجه ابن جرير عن عروة قال كان في مصحف عائشة حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر وأخرج وكيع عن حميدة قالت قرأت في مصحف عائشة والصلاة الوسطى صلاة العصر وفي الباب روايات فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة وتنقل القراءة ويبقى ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التعيين صافيا عن شوب كدر المعارضة على انه قد ورد ما يدل على نسخ تلك القراءة التي نقلتها حفصة وعائشة وأم سلمة فأخرج عبد بن حميد ومسلم وأبو داود في ناسخه وابن جرير والبيهقي عن البراء بن عازب قال نزلت حافظوا على الصلوات وصلاة العصر فقرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء الله ثم نسخها الله فأنزل حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فقيل له هي اذا صلاة العصر قال قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله والله أعلم اذا تقرر لك هذا وعرفت ما سقناه تبين لك انه لم يرد ما يعارض ان الصلاة الوسطى صلاة العصر وأما حجج بقية الاقوال فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به لانه لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك شيء وبعض القائلين عول على أمر لا يعول عليه فقال انها صلاة كذا لانها وسطى بالنسبة الى أن قبلها كذا من الصلوات وبعدها كذا من الصلوات وهذا الرأي المحض والتخمين البحت لا ينبغي ان تسند اليه الاحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف مع وجود ما هو في أعلى درجات الصحة والقوة والثبوت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويالله العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم في علم السنة واعراضهم عن خير العلوم وأنفعها حتى كانوا أنفسهم التكلم على أحكام الله والتجرأ على تفسير كتاب الله بغير علم ولا هدى فجاؤا بما يضحك منه تارة

هذا قال لو كنت سمعته قبل ان أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير فهذا الحديث كالمقطوع به الى عائشة لانه قد روى عنها من طرق صحيحة متعددة عن الاسود بن يزيد والحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن محمد بن أبي بكر وعروة بن الزبير فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير فلو ترك لكان جيدا ولكن بعد ما رجع الامر الى هذا الحال فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله كما ذكر عن أمير المؤمنين هرون الرشيد أو أبيه المهدى انه سأل الامام مالكا عن هدم الكعبة وردها الى ما فعله ابن الزبير فقال له ما لك يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله (٣١٨) ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها الا هدمها فترك ذلك الرشيد نقله عياض والنووى ولا تزال والله أعلم هكذا الى آخر الزمان الى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة أخرجاه وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كأنى به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا رواه البخارى وقال الامام أحمد بن حنبل فى مسنده أخبرنا أحمد بن عبد الملك الحرانى أخبرنا محمد بن سلمة عن ابن اسحق عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ولكأنى أنظر اليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته ومعوله الفدع زيغ بين القدم وعظم الساق وهذا والله أعلم انما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج لما جاء فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج حال وقوله تعالى حكاية لدعاء ابراهيم واسمعيل عليهما السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم قال ابن جرير يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لامرك خاضعين لطاعتك لا نشرك معك فى الطاعة أحدا سواك ولا فى العبادة غيرك وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا اسمعيل عن رجاء بن حبان الحصينى القرشى أخبرنا معقل بن عبيد الله عن عبد الكريم واجعلنا مسلمين لك قال مخلصين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك قال مخلصة وقال أيضا أخبرنا على بن

ويبكى منه أخرى قال الخازن وأصح الاقوال كلها أنها العصر للاحاديث الصحيحة الواردة فيها والله أعلم انتهى وقيل صلاة الجنازة وقيل صلاة الجمعة وكلها أقوال ضعيفة ليس عليها أثارة من علم (وقوموا لله قانتين) القنوت قيل هو الطاعة أى قوموا فى صلاتكم طائعين قاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جبير والضحاك والشافعى وقيل هو الخشوع قاله ابن عمر ومجاهد وقيل هو الدعاء وبه قال ابن عباس وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان وقال قوم ان القنوت طول القيام وقيل معناه ساكتين قاله السدى ويدل عليه حديث زيد بن أرقم فى الصحيحين وغيرهما قال كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الحاجة فى الصلاة حتى نزلت هذه الآية وقوموا لله قانتين فأمرنا بالسكوت وقيل أصل القنوت فى اللغة الدوام على الشئ فكل معنى يناسب الدوام يصح اطلاق القنوت عليه وقد ذكر أهل العلم أن للقنوت ثلاثة عشر معنى وقد ذكرها الشوكانى فى شرح المنتقى وذكرناها فى شرح بلوغ المرام والمتعين ههنا حمل القنوت على السكوت للحديث المذكور وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ان فى الصلاة لشغلا وفى صحيح مسلم وغيره أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شئ من كلام الناس انما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن وقد اختلفت الاحاديث فى القنوت المصطلح عليه هل هو قبل الركوع أو بعده وهل هو فى جميع الصلوات أو بعضها وهل هو مختص بالنوازل أم لا والراجح اختصاصه بالنوازل وقد أوضح الشوكانى ذلك فى شرحه للمنتقى فليرجع اليه (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) الخوف هو الفزع والرجال جمع رجل أو راجل من قولهم رجل الانسان يرجل رجلا اذا عدم المركوب ومشى على قدميه فهو رجل وراجل يقول أهل الحجاز مشى فلان الى بيت الله حافيا رجلا حكاه ابن جرير الطبرى وغيره ويجمع على رجل ورجالة فالراجل بمعنى الماشى له ثلاثة جموع والركبان جمع راكب قيل لا يطلق الا على راكب الابل ويقال لمن ركب الحمار والبغل حمار وبغال والاجود صاحب حمار وبغل وهذا بحسب اللغة والمراد بها هنا ما يعم الكل لما ذكر الله سبحانه الامر بالمحافظة على الصلوات ذكر حالة الخوف انهم يصنعون فيها ما يمكنهم ويدخل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها

الحسين أخبرنا المقدمي أخبرنا سعيد بن عامر عن سلام بن ابي مطيع في هذه الآية واجعلنا مسلمين قال كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات وقال عكرمة ربنا واجعلنا مسلمين لك قال الله قد فعلت ومن ذريتنا أمة مسلمة لك قال الله قد فعلت وقال السدي ومن ذريتنا أمة مسلمة لك يعنيان العرب قال ابن جرير والصواب انه يعم العرب وغيرهم لان من ذرية ابراهيم بني اسرائيل وقد قال الله تعالى ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (قلت) وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي فان تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم والسياق انما هو في العرب ولهذا قال بعده ربنا وابعث (٣١٩) فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم الآية والمراد بذلك محمد صلى الله عليه وسلم وقد بعث فيهم كما قال تعالى هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم ومع هذا لا ينفي رسالته الى الاحمر والاسود لقوله تعالى قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا وغير ذلك من الادلة القاطعة وهذا الدعاء من ابراهيم واسمعيل عليهما السلام كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما وهذا التذرم رغوب فيه شرعا فان من تمام محبة عبادة الله تعالى ان يحب ان يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له ولهذا لما قال الله تعالى لابراهيم عليه السلام اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين وهو قوله واجنبني وبني أن نعبد الاصنام وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له وأرنا مناسكنا قال ابن جريج عن عطاء وأرنا مناسكنا أخرجها لنا علمناها وقال مجاهد أرنا مناسكنا مذابحنا وروى عن عطاء أيضا وقتادة نحو ذلك وقال سعيد بن منصور أخبرنا عتاب بن بشير عن خصيف عن مجاهد قال قال ابراهيم ارنا مناسكنا فاتاه جبرائيل فاتى به البيت فقال ارفع القواعد فرفع القواعد وأتم البنيان ثم أخذ بيده فاخرجه فانطلق به الى الصفا قال هذا من شعائر الله ثم انطلق به الى المروة فقال وهذا من شعائر الله ثم انطلق به نحو منى فلما كان من العقبة اذا ابليس قائم عند الشجرة فقال كبر وارمه فكبر ورماه ثم انطلق ابليس فقام عند الجمرة الوسطى فلما

حال الترجل وحال الركوب وأبان لهم ان هذه العبادة لازمة في كل الاحوال بحسب الامكان وقد اختلف أهل العلم في حد الخوف المبيح لذلك والبحث مستوفى في كتب الفروع قال ابن عباس يصلي الراكب على دابته والراجل على رجليه وعن جابر بن عبد الله قال اذا كانت المسايفة فليومئ برأسه حيث كان وجهه فذلك قوله فرجالا أو ركبانا والمعنى ان لم يمكنكم ان تصلوا قائمين موفين حقوق الصلاة من اتمام الركوع والسجود والخضوع والخشوع لخوف عدو أو غيره فصلوا مشاة على أرجلكم أو ركبانا على دوابكم مستقبلي القبلة وغير مستقبليها وهذا في حال المقاتلة والمسايفة في وقت الحرب وصلاة الخوف قسمان أحدهما أن يكون في حال القتال وهو المراد بهذه الآية وقسم في غير حال القتال وهو المذكور في سورة النساء في قوله واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة وسيأتي الكلام عليه في موضعه وفي ايراد هذه الشرطية بكلمة ان المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف وقلته وفي ايراد الشرطية الثانية بكلمة اذا المنبئة عن تحقق وقوع الامن وكثرته مع الايجاز في جواب الاولى والاطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الابصار (فاذا أمنتم) أي اذا زال خوفكم بعد وجوده أو لم يكن أصلا فارجعوا الى ما أمرتم به من اتمام الصلاة مستقبلين القبلة قائمين بجميع شروطها وأركانها وهو قوله (فاذكروا الله) وقيل معنى الآية خرجتم من دار السفر الى دار الاقامة وهو خلاف معنى الآية (كما علمكم) أي ذكرا مثل ما علمكم من الشرائع أن يصلي الراكب على دابته والراجل على رجليه والكاف صفة لمصدر محذوف أي ذكرا كائنا كتعليمه اياكم أو مثل تعليمه اياكم (ما لم تكونوا تعلمون) فيه اشارة الى انعام الله تعالى علينا بالعلم ولولا تعليمه اياناما لم نعلم شيأ ولم نصل الى معرفة شئ فله الحمد على ذلك (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) أي يقربون من الوفاة اذ الميت توفى بالفعل لا يتصور منه وصية وهذا عود الى بقية الاحكام المفصلة فيما سلف وقد اختلف السلف ومن تبعهم من المفسرين في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فذهب الجمهور الى أنها منسوخة بالاربعة الاشهر والعشر كما تقدم وان الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض الله لهن من الميراث وحكى ابن جرير عن مجاهد ان هذه الآية محكمة لا نسخ فيها وان العدة أربعة أشهر وعشر ثم جعل الله لهن وصية منها اسكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة فان شاءت

جاز به جبريل وابراهيم قال له كبر وارمه فكبر ورماه فذهب الخبيث ابليس وكان الخبيث أراد أن يدخل فى الحج شيأ فلم يستطع فأخذ بيد ابراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال هذا المشعر الحرام فأخذ بيد ابراهيم حتى أتى به عرفات قال قد عرفت ما أريتك قالها ثلاث مرات قال نعم وروى عن أبى مجلز وقتادة نحو ذلك وقال أبو داود الطيالسى أخبرنا حماد بن سلمة عن أبى العاصم الغنوى عن أبى الطفيل عن ابن عباس قال ان ابراهيم لما أرى أو امر المناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه ابراهيم ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى فقال هذا

فلما انتهى الى جمرة العقبة تعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به الى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به الى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب فاتى به جمعا فقال هذا المشعر ثم أتى به عرفة فقال هذه عرفة فقال له جبريل أعرفت (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم) يقول تعالى اخبارا عن تمام دعوة ابراهيم لاهل الحرم ان يبعث الله فيهم رسولا منهم أى من ذريته ابراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا فى الاميين اليهم والى سائر الاعجميين من الانس والجن كما قال الامام احمد أخبرنا عبد الرحمن ابن مهدى عن معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الاعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى عند الله لخاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم باول ذلك دعوة أبى ابراهيم وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات الاستفهام النبيين يرين وكذلك رواه ابن وهب والليث وكاتبه عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وتابعه أبو بكر بن أبى مريم عن سعيد بن سويد به وقال الامام أحمد أيضا اخبرنا أبو النضر أخبرنا الفرج أخبرنا القمان بن عامر قال سمعت أبا امامة قال قلت يا رسول الله ما كان اول بدء أمرك قال دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى بى ورأت أمى انه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام والمراد ان أول من نوه بذكره وشهره فى الناس ابراهيم عليه السلام ولم يزل ذكره فى الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء

المرأة سكنت فى وصيتها وان شاءت خرجت وقد حكى ابن عطية والقاضى عياض أن الاجماع منعقد على أن الحول منسوخ وأن عدتها أربعة أشهر وعشر (وصية لازواجهم) قرئ بالنصب على تقدير فعل محذوف أى فليوصوا وصية أو أوصى الله وصية أو كتب الله عليهم وصية وقرئ بالرفع ومعناه وصية الذين يتوفون وصية أو حكم الذين يتوفون وصية والمعنى فيجب عليهم أن يوصوا لازواجهم بثلاثة أشياء النفقة والكسوة والسكنى وهذه الثلاثة تستمر سنة وحينئذ يجب على الزوجة ملازمة المسكن وترك التزين والاحداد هذه السنة (متاعا الى) تمام (الحول) أى متعوهن متاعا أوجعل الله لهن ذلك متاعا والمتاع هنا نفقة السنة والمعنى انه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لازواجهم أن يمتعن بعدهم حولا كاملا بالنفقة والسكنى من تركتهم (غير اخراج) أى لا يخرجن من مساكنهن (فان خرجن) باختيارهن قبل الحول (فلا جناح) ولا حرج (عليكم) أى على الولى والحاكم (فيما فعلن فى انفسهن) من التعرض للخطاب والتزين لهم وترك الاحداد (من معروف) أى بما هو معروف فى الشرع غير منكر وفيه دليل على أن النساء كن مخيرات فى سكنى الحول وليس ذلك بحتم عليهن وقيل المعنى لا جناح عليكم فى قطع النفقة عنهن وهو ضعيف لان متعلق الجناح هو مذكور فى الآية بقوله فيما فعلن (والله عزيز) أى غالب قوى فى انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده (حكيم) فيما شرعه من الشرائع وبين من الاحكام (وللمطلقات متاع بالمعروف) قد اختلف المفسرون فى هذه الآية فقيل هى المتعة وانها واجبة لكل مطلقة وقيل ان هذه الآية خاصة بالثيبات اللواتى قد جومعن لانه قد تقدم قبل هذه الآية ذكر المتعة واللواتى لم يدخل بهن الازواج وقد قدمنا الكلام على هذه المتعة والخلاف فى كونها خاصة بمن طلقت قبل البناء والفرض أو عامة للمطلقات وقيل ان هذه الآية شاملة للمتعة الواجبة وهى متعة المطلقة قبل البناء والفرض وغير الواجبة وهى متعة سائر المطلقات فانها مستحبة فقط وقيل المراد بالمتعة هنا النفقة (حقا على المتقين) يعنى الذين يتقون الشرك (كذلك يبين الله لكم آياته) أى ما يلزمكم ويلزم أزواجكم والذى يجب لبعضكم على بعض (لعلكم تعقلون) أى لكى تعقلوا ما بينت لكم من الفرائض والاحكام وما فيه صلاح دينكم ودنياكم (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم)

بنى اسرائيل نسبا وهو عيسى بن مريم عليه السلام حيث قام فى بنى اسرائيل خطيبا وقال انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ولهذا قال فى هذا الحديث دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى بن مريم * وقوله ورأت امى انه خرج منها نور اضاءت له قصور الشام قيل كان منامارأته حين حملت به وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم وكان ذلك توطئة وتخصيص الشام بظهور نوره اشارة الى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشأم ولهذا يكون الشأم فى آخر الزمان معقلا للاسلام وأهله وبها ينزل عيسى بن مريم اذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها ولهذا جاء فى الصحيحين لا تزال

الاستفهام هنا للتقرير والرؤية المذكورة هى رؤية القلب لا رؤية البصر والمعنى عند سيبويه تنبه الى أمر الذين خرجوا ولا تحتاج هذه الرؤية الى مفعولين كذا قيل وحاصله أن الرؤية هنا التى بمعنى الادراك متضمنة معنى التنبيه ويجوز ان تكون متضمنة معنى الانتهاء أى ألم ينته علمك اليهم أو معنى الوصول أى ألم يصل علمك اليهم ويجوز ان تكون بمعنى الرؤية البصرية أى ألم تنظر الى الذين خرجوا وهم قوم من بنى اسرائيل جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيوع والشهرة يحمل كل أحد على الاقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد أو المبصرة لكل مبصر لان أهل الكتاب قد أخبروا بها ودونوها وأشهروا أمرها والخطاب هنا لكل من يصلح له والكلام جار مجرى المثل فى مقام التعجب ادعاء لظهوره وجلائه بحيث يستوى فى ادراكه الشاهد والغائب قاله السعد التفتازانى وقيل الخطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم خاصة والعموم أولى (وهم الوف) قيل ثلاثة آلاف أو أربعة وقيل عشرة آلاف وقيل بضع وثلاثون ألفا وقيل أربعون ألفا وقيل سبعون ألفا وأصح الاقوال قول من قال انهم كانوا زيادة على عشرة آلاف لان الالوف من جموع الكثرة وحقيقته مافوق العشرة قاله القرطبى فدل على أنها الوف كثيرة وجمع القليل آلاف وقيل جمع ألف أو آلف كقاعد وقعود والمعنى مؤتلفون والاول أولى والواو للحال (حذر الموت) أى مخافة الطاعون وكان قد نزل بهم وقيل انهم أمروا بالجهاد ففروا منه حذر الموت (فقال لهم الله موتوا) أمر تكوين وتحويل وهو عبارة عن تعلق ارادته بموتهم دفعة أو تمثيل لاماتته سبحانه اياهم ميتة نفس واحدة كأنهم أمروا فاطاعوا فماتوا (ثم أحياهم) يعنى بعد موتهم بدعاء نبيهم حزقيل بعد ثمانية أيام أو أكثر فاشوا ذهرا عليهم أثر الموت لا يلبسون ثوبا الا عاد كالكفن واستمر فى أسباطهم (ان الله لذو فضل) التنكير للتعظيم أى لذو فضل عظيم (على الناس) جميعا فيجب عليهم شكره أما هؤلاء الذين خرجوا فلكونه أحياهم ليعتبروا واما الخاطبون فلكونه قد أرشدهم الى الاعتبار والاستبصار بقصة هؤلاء قال ابن عباس كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون وقالوا نأتى أرضا ليس بها موت حتى اذا كانوا بموضع كذا وكذا قال لهم الله موتوا فماتوا فمر عليهم نبى من الانبياء فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه فاحياهم وان القرية التى خرجوا منها داوردان قيل هو حزقيل ويقال له ابن العجوز ويقال له

طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك وفى صحيح البخارى وهم بالشأم قال أبو جعفر الرازى عن الربيع ابن أنس عن أبى العالية فى قوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقيل له قد استجيب لك وهو كائن فى آخر الزمان وكذا قال السدى وقتادة * وقوله تعالى ويعلمهم الكتاب يعنى القرآن والحكمة يعنى السنة قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم وقيل الفهم فى الدين ولا منافاة * ويزكيهم قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى طاعة الله والاخلاص وقال محمد ابن اسحق ويعلمهم الكتاب والحكمة قال يعلمهم الخير فيعملوه والشر فيتقوه ويخبرهم برضا الله عنهم اذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته وقوله انك أنت العزيز الحكيم أى العزيز الذى لا يعجزه شئ وهو قادر على كل شئ الحكيم فى أفعاله وأقواله فيضع الاشياء فى

 محالها لعلمه وحكمته وعدله (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) يقول تبارك وتعالى ردا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة ابراهيم الخليل امام الحنفاء فانه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه وخالف فى ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال يا قوم انى برئ مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا

من المشركين وقال تعالى واذ قال ابراهيم لابيه وقومه انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني فانه سيهدين وقال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لاواه حليم وقال تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن الصالحين ولهذا وأمثاله قال تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق الى الضلال حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه الى ان اتخذه الله خليلا وهو في الآخرة من الصالحين السعداء فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغي فاي سفه أعظم من هذا أم أي ظلم أكبر من هذا كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم قال أبو العالية وقتادة نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقا ليست من عند الله وخالفوا ملة ابراهيم فيما أحدثوه ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين * وقوله تعالى اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين أي أمره الله تعالى بالاخلاص له والاستسلام والانقياد فاجاب الى ذلك شرعا وقدرا * وقوله ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب اى وصى بهذه الملة وهي الاسلام لله أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله أسلمت لرب العالمين لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها الى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم كقوله تعالى وجعلها كلمة باقية في عقبه وقد قرأ بعض السلف ويعقوب بالنصب عطفا على بنيه كان ابراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن اسحق وكان حاضرا ذلك وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي عنه ان يعقوب انما ولد بعد وفاة ابراهيم ويحتاج مثل هذا الى دليل صحيح والظاهر والله أعلم ان اسحق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة لان البشارة وقعت بهما في قوله فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية اسحق كبير فائدة وأيضا فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت ووهبنا له اسحق ويعقوب

ذو الكفل وهو ثالث خليفة في بني اسرائيل لان موسى بعده يوشع ثم كالب ثم حزقيل وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم هذه القصة مطولة عن أبي مالك وفيها انهم بضعة وثلاثون ألفا وقال سعيد بن عبد العزيز ان ديارهم هي أذرعات وعن أبي صالح قال كانوا تسعة آلاف وأخرج جماعة من محدثي المفسرين هذه القصة على انحاء ولا يأتي الاستكثار من طرقها بفائدة وقد ورد في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم النهي عن الفرار من الطاعون وعن دخول الارض التي هو بها من حديث عبد الرحمن بن عوف (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) يعني ان أكثر من أنعم الله عليه لا يشكر (وقاتلوا في سبيل الله) هو معطوف على مقدر كأنه قيل اشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا هذا اذا كان الخطاب بقوله وقاتلوا راجعا الى المخاطبين بقوله ألم تر الى الذين خرجوا كما قاله جمهور المفسرين وعلى هذا يكون ايراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد وقيل ان الخطاب للذين أحيوا من بني اسرائيل فيكون عطفا على قوله موتوا وفي الكلام محذوف تقديره وقال لهم قاتلوا وقال ابن جرير لا وجه لقول من قال ان الامر بالقتال للذين احيوا وقيل العطف على حافظوا على الصلوات وفيه بعد والاول أولى (واعلموا أن الله سميع) لما يقوله المتعللون عن القتال (عليم) بما يضمره وفيه وعد لمن بادر بالجهاد ووعيد لمن تخلف عنه (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) لما أمر سبحانه بالقتال والجهاد أمر بالانفاق في ذلك واقراض الله مثل لتقديم العمل الصالح الذي يستحق به فاعله الثواب وأصل القرض انه اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء يقال أقرض فلان فلانا أي أعطاه ما يتجازاه وقال الزجاج القرض في اللغة البلاء الحسن والبلاء السيء وقال الكسائي القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيء وأصل الكلمة القطع ومنه المقراض واستدعاء القرض في الآية انما هو تأييس وتقريب للناس بما يفهمونه والله هو الغني الحميد شبه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه اعطاء النفوس والاموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء وقيل كني عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيبا في الصدقة كما كني عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام ففي الحديث الصحيح اخبارا عن الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني واستطعمتك فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني

وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب الآية وقال في الآية الاخرى ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وهذا يقتضي انه وجد في حياته
وأيضا فانه يأتي بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت يا رسول الله أي مسجد
وضع أول قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة الحديث فزعم ابن حبان ان بين سليمان
الذي اعتقد انه باني بيت المقدس وانما كان جدده بعد خرابه وزخرفه وبين ابراهيم أربعين سنة وهذا مما أنكر على ابن حبان فان
المدة بينهما تزيد على ألوف سنين والله أعلم وأيضا فان وصية يعقوب لبنيه (٣٢٣) سيأتي ذكرها قريبا وهذا يدل على أنه ههنا

تسقني قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما
انك لو سقيته لوجدت ذلك عندي وكذا فيما قبله أخرجه مسلم والبخاري وهذا كله خرج
مخرج التشريف لمن كني عنه ترغيبا لمن خوطب به وقوله حسنا أي طيبة به نفسه من
دون من ولا أذى وقيل محتسبا وقيل هو الانفاق من المال الحلال في وجوه البر وقيل
هو الخالص لله تعالى ولا يكون فيه رياء ولا سمعة وقد اختلف في تقدير هذا التضعيف
على أقوال وقيل لا يعلمه الا الله وحده قاله السدي وهذا هو الاولى وانما أبهم الله ذلك
لان ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود وقيل الى سبعمائة ضعف وقيل
غير ذلك وأخرج الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال لما نزلت هذه الآية
قال أبو الدحداح الانصاري يا رسول الله ان الله ليريد منا القرض قال نعم قال أرني يدك
يا رسول الله فناوله يده قال فاني قد أقرضت ربي حائطي وله فيه ستمائة نخلة وقد أخرج
هذه القصة جماعة من المحدثين وأخرج أحمد وابن المنذر من حديث أبي هريرة وفيه قال
والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله يضاعف
الحسنة ألفي ألف حسنة وأخرج ابن حبان في صحيحه والبيهقي وغيرهما عن ابن عمر قال
لما نزلت مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل الى
آخرها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رب زد أمتي فنزلت من ذا الذي يقرض الله
قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة قال رب زد أمتي فنزلت انما يوفى الصابرون أجرهم
بغير حساب وأخرج ابن المنذر عن سفيان قال لما نزلت من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رب زد أمتي فنزلت من ذا الذي يقرض الله قال
رب زد أمتي فنزلت مثل الذين ينفقون أموالهم قال رب زد أمتي فنزلت انما يوفى الصابرون
وفي الباب أحاديث هذه أحسنها (والله يقبض ويبسط) حسبما تقتضيه مشيئته المبنية
على الحكم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كيلا تبدل أحوالكم ولعل تأخير
البسط عن القبض في الذكر للايماء الى انه يعقبه في الوجود تسلية للفقراء هذا عام في كل
شئ فهو القابض الباسط والقبض التقتير والبسط التوسيع وفيه وعيد بان من بخل من
البسط يوشك ان يبدل بالقبض ولهذا قال (واليه ترجعون) أي هو يجازيكم بما قدمتم
عند الرجوع اليه فان أنفقتم مما وسع به عليكم أحسن اليكم وان بخلتم عاقبكم وعن

من جملة الموصين * وقوله يا بني ان الله
اصطفى لكم الدين فلا تموتن
الا وأنتم مسلمون اى أحسنوا في
حال الحياة والزموا هذا الميراث لكم
الله الوفاة عليه فان المرء يموت غالبا
على ما كان عليه ويبعث على
ما مات عليه وقد أجرى الله الكريم
عادته بان من قصد الخير وفقه له
ويسر عليه ومن نوى صالحا ثبت
عليه وهذا لا يعارض ما جاء في
الحديث الصحيح ان الرجل
ليعمل بعمل أهل الجنة حتى
ما يكون بينه وبينها الا باع أو ذراع
فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل
أهل النار فيدخلها وان الرجل
ليعمل بعمل أهل النار حتى
ما يكون بينه وبينها الا باع أو ذراع
فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل
أهل الجنة فيدخلها لانه قد جاء في
بعض روايات هذا الحديث ليعمل
بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس
وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس
وقد قال الله تعالى فأما من أعطى
واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره
لليسرى وأما من بخل واستغنى
وكذب بالحسنى فسنيسره

للعسرى (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل
واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) يقول
تعالى محتجا على المشركين من العرب أبناء اسمعيل وعلى الكفار من بني اسرائيل وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام
بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له فقال لهم ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك
واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق وهذا من باب التغليب لان اسمعيل عمه قال النحاس والعرب تسمي العم أبا نقله القرطبي

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبا وحجب به الاخوة كما هو قول الصديق حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير ثم قال البخاري ولم يختلف عليه واليه ذهبت عائشة أم المؤمنين وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السلف والخلف وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه انه يقاسم الاخوة وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن ولتقريرها موضع آخر * وقوله الها واحدا (٣٢٤) أي نوحده بالالوهية ولا نشرك به شيأ غيره ونحن له مسلمون أي مطيعون خاضعون كما قال تعالى وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه ترجعون والاسلام هو ملة الانبياء قاطبة وان تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون والآيات في هذا كثيرة والاحاديث فيها قوله صلى الله عليه وسلم نحن معشر الانبياء أولاد علات ديننا واحد وقوله تعالى تلك أمة قد خلت أي مضت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم أي ان السلف الماضين من آبائكم من الانبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم اليهم اذا لم تفعلوا خيرا يعود نفعه عليكم فان لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم ولا تسئلون عما كانوا يعملون وقال أبو العالية والربيع وقتادة تلك أمة قد خلت يعني ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط ولهذا جاء في الاثر من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس اخرجنا قال قال عبد الله بن صوريا الاعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الهدى الا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله عز وجل وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا وقوله قل بل ملة ابراهيم حنيفا أي لا نريد ما دعوتمونا اليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع ملة ابراهيم حنيفا أي مستقيما قاله محمد بن كعب القرظي وعيسى بن جارية وقال خصيف عن مجاهد مخلصا وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس حاجا وكذا روى عن الحسن والضحاك وعطية والسدي وقال أبو العالية

قتادة يقبض الصدقة ويبسط قال يخلف واليه ترجعون قال من التراب والى التراب تعودون وعن ابن زيد قال علم الله فيمن يقاتل في سبيل الله من لا يجد قوة وفيمن لا يقاتل في سبيل الله فندب هؤلاء الى القرض فقال من ذا الذي يقرض الله قال يبسط عليك وأنت ثقيل عن الخروج لا تريده ويقبض عن هذا وهو يطيب نفسا بالخروج ويخلف له فقوه مما يبدك يكن لك الخط وقيل المعنى ان الله يقبض بعض القلوب حتى لا تقدر على الانفاق في الطاعة وعمل الخير ويبسط بعض القلوب حتى تقدر على فعل الطاعات والانفاق في البر وعن ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان قلوب بني آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك أخرجه مسلم وهذا الحديث من أحاديث الصفات التي يجب الايمان بها وامرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل ولا تأويل وبهذا قال سلف هذه الامة وائمتها (ألم تر الى الملا من بني اسرائيل) الكلام فيه كالكلام في قوله ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وقد قدمناه والملأ الاشراف من الناس كأنهم ملؤا شرفا وقال الزجاج سموا بذلك لانهم مليؤن بما يحتاج اليه منهم وهو اسم جمع كالقوم والرهط لا واحد له من لفظه قال الفراء الملأ الرجال في كل القرآن ويجمع على املاء مثل سبب وأسباب ذكر الله سبحانه في التحريض على القتال قصة أخرى جرت في بني اسرائيل بعد القصة المتقدمة والمعنى كائنين (من بعد) وفاة (موسى اذ قالوا لنبي لهم) قيل هو شمويل بن يال ابن علقمة ويعرف بابن العجوز ويقال فيه شمعون وهو من ولد يعقوب وقيل من نسل هرون وقيل هو يوشع بن نون وهذا ضعيف جدا لان يوشع هو فتى موسى ولم يوجد داود الا بعد ذلك بدهر طويل وقيل هو بالعربية اسمعيل قاله أبو السعود (ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) المراد بالملك الامير أي نرجع اليه ونعمل على رأيه (قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا) عسى من أفعال المقاربة أي فهل قاربتم أن لا تقاتلوا وادخال حرف الاستفهام على فعل المقاربة لتقرير ما هو متوقع عنده والاشعار بانه كائن وفصل بين عسى وخبرها بالشرط للدلالة على الاعتناء به (قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله) قيل المعنى وأي شيء لنا أن لا نقاتل وقيل غير ذلك قال النحاس هذا أجودها (وقد

الحنيف الذى يستقبل البيت بصلاته ويرى ان حجه عليه ان استطاع اليه سبيلا وقال مجاهد والربيع بن انس حنيفا أى متبعا وقال أبو قلابة الحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم الى آخرهم وقال قتادة الحنيفية شهادة أن لا اله الا الله يدخل فيها تحريم الامهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله عز وجل والختان (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) أرشد الله تعالى عباده المؤمنين الى الايمان بما أنزل اليهم بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مفصلا وما أنزل على الانبياء المتقدمين مجملا ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الانبياء وان لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقا الآية وقال البخارى حدثنا محمد ابن بشار أخبرنا عثمان بن عمرة أخبرنا على بن المبارك عن يحيى ابن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى من حديث عثمان بن حكيم عن سعيد بن يسار عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر يا آمنا بالله وما أنزل الينا الآية والاخرى آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون وقال أبو العالية والربيع وقتادة الاسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلا ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الاسباط وقال الخليل بن أحمد وغيره الاسباط فى بنى اسرائيل كالقبائل فى بنى اسمعيل وقال الزمخشرى فى الكشاف الاسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر وقد نقله الرازى عنه وقرره ولم يعارضه وقال البخارى الاسباط قبائل بنى اسرائيل وهذا يقتضى ان المراد بالاسباط ههنا شعوب بنى اسرائيل وما أنزل الله من الوحى على الانبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا الآية وقال تعالى وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا قال

اخرجنا من ديارنا وأبنائنا) افراد الاولاد بالذكر لانهم الذين وقع عليهم السبى أولانهم بمكان فوق مكان سائر القرابة وهذا كلام عام والمراد منه خاص لان القائلين لنبيهم ما ذكر كانوا فى ديارهم وانما أخرج بعض آخر غيرهم ثم أخبر سبحانه انهم تولوا المفروض عليهم القتال لاضطراب نياتهم وفتور عزائمهم فقال (فلما كتب عليهم القتال تولوا) بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكته (الا قليلا منهم) واختلف فى عدد القليل الذين استثناهم الله سبحانه وهم الذين اكتفوا بالغرفة (والله عليم بالظالمين) أى عالم بمن ظلم نفسه حين خالف أمر ربه ولم يف بما قال وهم بقية السبعين ألفا وهم من عدا القليل المذكور (وقال لهم نبيهم) شروع فى تفصيل ما جرى بينهم وبين نبيهم من الاقوال والافعال (ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وهو اسم أعجمى وكان سقاء وقيل راعيا وقيل دباغا وقيل مكاريا واسمه بالعبرانية شاول بن قيس وجعل فعلوتا من الطول تعسف يدفعه منع صرفه (قالوا أنى يكون له الملك علينا) أى كيف يكون ذلك وكيف يستحقه ولم يكن من بيت الملك (ونحن أحق بالملك منه) انما قالوا ذلك لانه كان فى بنى اسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فسبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنه كان موسى وهرون عليهما السلام وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحدهما وانما كان من سبط بنيامين بن يعقوب عليه السلام فلهذا أنكروا كونه ملكا لهم وزعموا انهم أحق بالملك منه ثم أكدوا ذلك بقولهم (ولم يؤت سعة من المال) أى ولا هو ممن أوتى سعة من المال حتى تتبعه لشرفه أو لماله بل هو فقير والملك يحتاج الى المال (قال) يعنى شمويل النبى (ان الله اصطفاه عليكم) أى اختاره وخصه بالملك واختيار الله هو الحجة القاطعة ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء وقال (وزاده بسطة) أى فضيلة وسعة (فى العلم) الذى هو ملاك الانسان ورأس الفضائل وأعظم وجوه الترجيح وكان من أعلم بنى اسرائيل وقيل هو العلم بالحرب وبالملك وقيل به وبالديانات (والجسم) الذى يظهر به الاثر فى الحروب ونحوها فكان قويا فى دينه وبدنه وذلك هو المعتبر لا شرف النسب فان فضائل النفس مقدمة عليه وفى هذه الآية دليل على بطلان قول من زعم من الشيعة ان الامامة موروثة وكان طالوت أطول من الناس برأسه ومنكبيه وقيل بالجمال وكان من أجلهم وقيل المراد به القوة لان العلم بالحروب والقوة على الاعداء مما فيه حفظ المملكة (والله يؤتى

القرطبي وسموا الاسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر أي في الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة قال الزجاج ويبين لك هذا ما حدثنا محمد بن جعفر الانباري حدثنا أبو نجيد الدقاق حدثنا الاسود بن عامر حدثنا اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال كل الانبياء من بني اسرائيل الا عشرة نوح وهود وصالح وشعيب وابراهيم واسحق ويعقوب واسمعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام قال القرطبي والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون الى أصل واحد وقال قتادة أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به (٣٢٦) ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله وقال سليمان بن حبيب انما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والانجيل ولا نعمل بما فيهما وقال ابن أبي حاتم أخبرنا محمد بن محمد بن مصعب العسكري أخبرنا مؤمل أخبرنا عبيد الله بن أبي حميد عن أبي المليح عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بالتوراة والزبور والانجيل وليسعكم القرآن (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) يقول تعالى فان آمنوا يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الايمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد اهتدوا أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا اليه وان تولوا أي عن الحق الى الباطل بعد قيام الحجة عليهم فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم وهو السميع العليم قال ابن أبي حاتم قرأ على يونس بن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني زياد بن يونس نافع بن أبي نعيم قال أرسل الى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه قال زياد وضعته فقلت له ان الناس ليقولون ان مصحفه كان في حجره حين قتل فوقع الدم على فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم فقال نافع بصرت عيني بالدم على هذه الآية وقد قدم وقوله صبغة الله قال الضحاك عن ابن عباس دين الله وكذا روي عن مجاهد وأبي العالية وعكرمة وابراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفي والربيع بن أنس والسدي ونحو ذلك وانتصاب صبغة الله اما على الاغراء كقوله فطرة الله أي الزموا ذلك عليكموه وقال بعضهم بدل من قوله ملة ابراهيم وقال سيبويه

ملكه من يشاء) فالملك ملكه والعبيد عبيده فما لكم والاعتراض على شئ ليس هو لكم ولا أمره اليكم وقد ذهب بعض المفسرين الى ان قوله هذا من قول نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو من قول نبيهم وهو الظاهر وقيل من كلام الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (والله واسع) أي واسع الفضل يوسع على من يشاء من عباده (عليم) بمن يستحق الملك ويصلح له (وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) التابوت فعلوت من التوب وهو الرجوع لانهم يرجعون اليه أي علامة ملكه اتيان التابوت الذي أخذ منكم أي رجوعه اليكم وهو صندوق التوراة قيل وكان من خشب الشمشاد وهو الذي تتخذ منه الامشاط طوله ثلاثة أذرع في عرض ذراعين (فيه سكينة من ربكم) السكينة فعيلة مأخوذة من السكون والوقار والطمأنينة أي فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت وقيل الضمير للاتيان أي في اتيانه سكون لكم أو للتابوت اي مودع فيه ما تسكنون اليه وهو التوراة قال ابن عطية الصحيح ان التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الانبياء وآثارهم فكانت النفوس تسكن الى ذلك وتأنس به وتتقوى وقد اختلف في السكينة على أقوال سيأتي بيان بعضها (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) اختلف في البقية فقيل هي عصا موسى ورضاض الالواح قاله ابن عباس وقيل عصا موسى وعصا هرون وشئ من ألواح التوراة وقيل كانت التوراة والعلم وقيل كان فيه عصا موسى ونعلاه وعصا هرون وعمامته وقفيز من المن وكان عند بني اسرائيل يتوارثونه قرنا بعد قرن فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم عليه وأخذوه منهم وقيل غير ذلك وقيل المراد بآل موسى وهرون هما أنفسهما أي مما ترك موسى وهرون ولفظ آل مقحمة لتفخيم شأنهما وقيل المراد الانبياء من بني يعقوب لانهما من ذرية يعقوب فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما (تحمله الملائكة) أي تسوقه قال ابن عباس جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والارض وهم ينظرون اليه حتى وضعته عند طالوت فلما رأوا ذلك قالوا نعم فسلموا له الرياسة وملكوه وكانت الانبياء اذا حضر واقتالا قدموا التابوت بين أيديهم ويقولون ان آدم نزل بذلك التابوت وبالركن وبعصا موسى من الجنة وبلغنا ان التابوت وعصا موسى في بحيرة طبرية وانهما يخرجان قبل يوم القيامة وقال قتادة كان التابوت في التيه خلفه موسى عند يوشع بن نون فبقي هناك فاقبلت الملائكة تحمله حتى

هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله آمنا بالله كقوله وعد الله وقد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من رواية أشعث بن
اسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال ان بني اسرائيل قالوا يا رسول الله هل يصبغ
ربك فقال اتقوا الله فناداه ربه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم انا أصبغ الالوان الاحمر والابيض والاسود والالوان
كلها من صبغي وأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة كذا وقع في رواية ابن مردويه
مرفوعا وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف وهو أشبه ان صح اسناده والله أعلم (قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا

وضعته في دار طالوت فأصبح في داره فأقروا بملكه وقد ورد هذا المعنى مختصرا ومطولا عن
جماعة من السلف فلا يأتي التطويل بذكر ذلك بفائدة يعتد بها وعن ابن عباس أيضا كان
طالوت عظيما جسيما يفضل بني اسرائيل بعنقه ولم يأته وحي وكانت سعة تابوت موسى
نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين والسكينة الرحمة والطمأنينة أو الدابة قدر الهرة لها عينان
لهما شعاع وكان اذا التقى الجمعان أخرجت يديها ونظرت اليهم فيهزم الجيش من الرعب
وعن علي السكينة ريح خجوج هفافة ولها رأسان ووجه كوجه الانسان وقال مجاهد
السكينة شئ يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة ووجه كوجه الهرة وجناحان وذنب مثل
ذنب الهرة وعن ابن عباس السكينة طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب
الانبياء ألقي الالواح فيه وعن وهب بن منبه أنه قال هي روح من الله تتكلم اذا اختلفوا
في شئ تكلم فتخبرهم ببيان ما يريدون وعن الحسن قال هي شئ تسكن اليه قلوبهم وعن
عطاء بن أبي رباح هي ما يعرفون من الآيات التي يسكنون اليها وأقول هذه التفاسير
المتناقضة لعلها وصلت الى هؤلاء الاعلام من جهة اليهود أفحمهم الله فجاؤا بهذه الامور
لقصد التلاعب بالمسلمين والتشكيك عليهم وانظر الى جعلهم لها تارة حيوانا وتارة جمادا
وتارة شيأ لا يعقل وهكذا كل منقول عن بني اسرائيل يتناقض ويشتمل على ما لا يعقل في
الغالب ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مرويا عن النبي صلى الله عليه
وآله وسلم ولا رأيا رآه قائله فهم أجل قدرا عن التفسير بالرأي وبما لا مجال للاجتهاد فيه اذا
تقرر لك هذا عرفت ان الواجب الرجوع في مثل ذلك الى معنى السكينة لغة وهو معروف
ولا حاجة الى ركوب هذه الامور المتعسفة المتناقضة فقد جعل الله عنها سعة ولو ثبت لنا
في السكينة تفسير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لوجب علينا المصير اليه والقول به
ولكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت انها تنزلت على بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن كما
في صحيح مسلم عن البراء قال كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط فتغشته
سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وآله
وسلم فذكر ذلك له فقال تلك السكينة نزلت للقرآن وليس في هذا الا ان هذه التي سماها
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سكينة سحابة دارت على ذلك القارئ فالله أعلم وعن
أبي صالح قال كان في التابوت عصا موسى وعصا هرون وثياب موسى وثياب هرون

وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون أم تقولون ان
ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب
والاسباط كانوا هودا أو نصارى
قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن
كتم شهادة عنده من الله وما الله
بغافل عما تعملون تلك أمة قد
خلت لها ما كسبت ولكم
ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا
يعملون) يقول تعالى مرشدا نبيه
صلوات الله وسلامه عليه الى درء
مجادلة المشركين قل أتحاجوننا في
الله أي أتناظروننا في توحيد الله
والاخلاص له والانقياد واتباع
أوامره وترك زواجره وهو ربنا
وربكم المتصرف فينا وفيكم
المستحق لاخلاص الالهية له
وحده لا شريك له ولنا أعمالنا
ولكم أعمالكم أي نحن براء
منكم ومما تعبدون وأنتم براء منا
كما قال في الآية الاخرى فان كذبوك
فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم
بريؤن مما أعمل وأنا بري ء مما
تعملون وقال تعالى فان حاجوك
فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني
الى آخر الآية وقال تعالى اخبارا
عن ابراهيم وحاجه قومه قال

أتحاجوني في الله الى آخر الآية وقال تعالى ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه الآية وقال في هذه الآية الكريمة ولنا أعمالنا ولكم
أعمالكم ونحن له مخلصون أي نحن براء منكم كما أنتم براء منا ونحن له مخلصون أي في العبادة والتوجه ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم
ان ابراهيم ومن ذكر بعده من الانبياء والاسباط كانوا على ملتهم اما اليهودية واما النصرانية فقال قل أأنتم أعلم أم الله يعني بل الله
أعلم وقد أخبرانهم لم يكونوا هودا ولا نصارى كما قال تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من
المشركين الآية والتي بعدها * وقوله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله قال الحسن البصري كانوا يقرؤن في كتاب الله

الذى اتاهم ان الدين الاسلام وان محمدا رسول الله وان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك وقوله وما الله بغافل عما تعملون تهديد ووعيد شديد أى ان علمه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه * ثم قال تعالى تلك امة قد خلت أى قد مضت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم أى لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ولا تسئلون عما كانوا يعملون وليس يغنى عنكم انتسابكم اليهم من غير متابعة منكم لهم ولا تغتروا بمجرد النسبة اليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لاوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين فانه من كفر بنبى واحد فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بسيد الانبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين الى جميع الانس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم) قيل المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب قاله الزجاج وقيل أحبار يهود قاله مجاهد وقيل المنافقون قاله السدى والآية عامة فى هؤلاء كلهم والله اعلم قال البخارى أخبرنا أبو نعيم سمع زهيرا عن ابى اسحق عن البراء رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الى بيت المقدس ستة عشر شهرا او سبعة عشر شهرا وكان يعجبه ان تكون قبلته قبل البيت وانه صلى اول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على اهل المسجد وهم راكعون فقال اشهد بالله لقد صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت وكان الذى قد مات على القبلة قبل ان تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فانزل الله وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم انفرد به البخارى من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر وقال محمد بن اسحق حدثنى اسمعيل بن ابى خالد عن ابى اسحق عن البراء قال كان

ولوحان من التوراة والمن وكلمة الفرج لا اله الا الله الحليم الكريم سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين وقال قتادة والكلبى السكينة الطمأنينة ففى أى مكان كان التابوت اطمأنوا وسكنوا اليه وهذا القول أولى بالصحة فعلى هذا كل شئ كانوا يسكنون اليه فهو سكينة فيحمل على جميع ما قيل فيه لان كل شئ يسكن اليه القلب فهو سكينة ولم يرد فيه نص صريح فلا يجوز تصويب قول وتضعيف آخر والمرجع فيه الى اللغة كما تقدم والله أعلم (ان فى ذلك) أى فى مجئ التابوت (لآية لكم) أى علامة ودلالة على صدق ما أخبرتكم به (ان كنتم مؤمنين) يعنى مصدقين قال المفسرون فلما جاءهم التابوت وأقروا بالملك لطالوت تأهبوا للخروج الى الجهاد فأسرعوا لطاعته وخرجوا معه وذلك قوله (فلما فصل طالوت بالجنود) فصل معناه خرج يقال فصلت الشئ فانفصل أى قطعته فانقطع وأصله متعد يقال فصل نفسه ثم استعمل استعمال اللازم كانفصل وقيل يستعمل لازما ومتعديا يقال فصل عن البلد فصولا وفصل نفسه فصلا والمعنى قطع مستقره شاخصا الى غيره فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم سبعون ألف مقاتل وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة وعشرون ألفا ولم يتخلف عنه الا كبير لكبره أو مريض لمرضه أو معذور لعذره وكان مسيرهم فى حر شديد فشكوا الى طالوت قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا ان الماء لا تحملنا فادع الله أن يجرى لنا نهرا (قال) طالوت (ان الله مبتليكم بنهر) أى مختبركم والابتلاء الاختبار والنهر قيل هو بين الاردن وفلسطين وأردن موضع ذو رمل قريب من بيت المقدس والمراد بهذا الابتلاء اختبار طاعتهم فمن أطاع فى ذلك الماء أطاع فيما عداه ومن عصى فى هذا وغلبته نفسه فهو فى العصيان فى سائر الشدائد أحرى (فمن شرب منه) قليلا كان أو كثيرا (فليس منى) أى ليس من أهل دينى وطاعتى (ومن لم يطعمه) أى لم يذقه يعنى الماء أصلا لا قليلا ولا كثيرا (فانه منى الا من اغترف غرفة بيده) رخص لهم فى الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع ليكسروا نزاع النفس فى هذه الحال وفيه ان الغرفة تكفى سورة العطش عند الصابرين على شظف العيش الدافعين أنفسهم عن الرفاهية فالمراد بقوله فمن شرب منه اى كرع ولم يقتصر على الغرفة ومعنى ليس منى ليس من أصحابى من قولهم فلان منى كأنه بعضه لاختلاطهما وطول صحبتهما وهذا فى كلام العرب معروف يقال طعمت الشئ

رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى نحو بيت المقدس ويكثر النظر الى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام فقال رجال من المسلمين وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف الى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل الله وما كان الله ليضيع ايمانكم وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله سيقول السفهاء من الناس الى آخر الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا الحسن بن عطية حدثنا اسرائيل عن أبى اسحق عن البراء قال كان (٣٢٩) رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة فأنزل الله قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام قال فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة ابراهيم فكان يدعو الله وينظر الى السماء فأنزل الله عز وجل فولوا وجوهكم شطره أى نحوه فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وقد جاء فى هذا الباب أحاديث كثيرة وحاصل الامر انه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر الى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه الى بيت المقدس قاله ابن عباس والجمهور ثم اختلف هؤلاء هل كان الامر به بالقرآن أو بغيره على قولين وحكى القرطبى فى تفسيره عن عكرمة وأبى العالية والحسن البصرى ان التوجه الى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام والمقصود ان التوجه الى بيت المقدس بعد مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة واستمر الامر على ذلك بضعة عشر شهرا

الشئ أى ذقته وأطعمته الماء أى أذقته وفيه دليل على ان الماء يقال له طعام والاغتراف الاخذ من الشئ باليد أو بآلة والغرف مثل الاغتراف والغرفة المرة الواحدة وقد قرئ بفتح الغين وضمها فالفتح للمرة والضم اسم للشئ المغترف وقيل بالفتح الغرفة الواحدة بالكف وبالضم الغرفة بالكفين وقيل هما لغتان بمعنى واحد (فشربوا منه) أى من النهر (الا قليلا منهم) وهم المذكورون فى قوله ومن لم يطعمه قال القرطبى ان القليل لم يشرب أصلا قال سعيد بن جبير القليل ثلثمائة وبضعة عشر رجلا عدة أهل بدر وعن البراء قال كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم نتحدث أن أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوزه معه الا بضعة عشر وثلثمائة وعن قتادة قال ذكر لنا ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لاصحابه يوم بدر أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت وعن ابن عباس قال كانوا ثلثمائة ألف وثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاثة عشر فشربوا منه كلهم الا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا عدة أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر فردهم طالوت ومضى ثلثمائة وثلاثة عشر وقرئ الا قليل ولا وجه له الا ما قيل من انه من هجر اللفظ الى جانب المعنى أى لم يطعمه الا قليل وهو تعسف (فلما جاوزه هو) أى جاوز النهر طالوت (والذين آمنوا معه) وهم القليل الذين أطاعوه واقتصروا على الغرفة وقال القرطبى هم الذين لم يذوقوا الماء أصلا (قالوا) أى الذين شربوا (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى بمعاربتهم ومقاومتهم فضلا عن ان يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا منهم من الكثرة والشدة قال القرطبى قيل وكانوا مائة ألف رجل شاكى السلاح وأكثر المفسرين على انهم قالوا هذا القول بعد ما عبروا النهر مع طالوت ورأوا جالوت وجنوده فرجعوا منهزمين قائلين هذه المقالة وبعض المفسرين على أن العصاة لم يعبروا النهر بل وقفوا بساحله وقالوا معتذرين عن التخلف منادين ومسمعين لطالوت والمؤمنين الذين معه لا طاقة لنا اليوم الخ والجند الانصار والاعوان والجمع أجناد وجنود الواحد جندى فالياء للوحدة مثل روم وروحى (قال الذين يظنون) أى يتيقنون ردا على المتخلفين (أنهم ملاقوا الله) أى انهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله صرح به القاضى كالكشاف (كم من فئة قليلة) الفئة الجماعة لا واحد له من لفظه والقطعة منهم من فأوت رأسه بالسيف أى قطعته (غلبت فئة كثيرة باذن الله) أى بقضاء الله وارادته (والله مع

وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه الى الكعبة التى هى قبلة ابراهيم عليه السلام فأجيب الى ذلك وأمر بالتوجه الى البيت العتيق فخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فأعلمهم بذلك وكان أول صلاة صلاها اليها صلاة العصر كما تقدم فى الصحيحين من رواية البراء ووقع عند النسائى من رواية أبى سعيد بن المعلى انها الظهر وقال كنت أنا وصاحبى أول من صلى الى الكعبة وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم ان تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك فى مسجد بنى سلمة فسمى مسجد القبلتين وفى حديث نويلة بنت مسلم انهم جاءهم الخبر بذلك وهم فى صلاة الظهر قالت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى وأما اهل قباء فلم يبلغهم الخبر الى صلاة الفجر من اليوم الثانى كما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح اذ جاءهم آت فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه الا بعد العلم به وان تقدم نزوله وابلاغه لانهم لم يؤمروا باعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها أى قالوا ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة كذا فأنزل الله جوابهم فى قوله قل لله المشرق والمغرب أى الحكم والتصرف والامر كله لله وحيثما تولوا فثم وجه الله وليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله أى فسحان الشأن كله فى امتثال أوامر الله فحيثما وجهنا توجهنا فالطاعة فى امتثال امره ولو وجهنا فى كل يوم مرات الى جهات متعددة فنحن عبيده وفى تصرفه وخدامه حيثما وجهنا توجهنا وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة اذ هداهم الى قبلة ابراهيم خليل الرحمن وجعل توجههم الى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله فى الارض اذ هى بناء ابراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

الصابرين) بالنصر والعون وهذه من جملة مقولهم ويحتمل انها من كلام الله تعالى أخبر بها عن حال الصابرين فلا محل لها من الاعراب (ولما برزوا لجالوت وجنوده) أى صاروا فى البراز وهو المتسع من الارض وما انكشف منها واستوى ومنه سميت المبارزة فى الحرب لظهور كل قرن الى صاحبه والمعنى ظهروا لقتالهم وتصافوا والبراز بالفتح والكسر لغة قليلة الفضاء الواسع الخالى من الشجر وجالوت أمير العمالقة وكان جبارا من أولاد عملبق بن عاد (قالوا) أى جميع من معه من المؤمنين (ربنا أفرغ) أى اصبب (علينا صبرا) الافراغ يفيد معنى الكثرة (وثبت أقدامنا) عبارة عن كمال القوة والرسوخ وعدم الفشل والتزلزل عند المقاومة يقال ثبت قدم فلان على كذا اذا استقر له ولم يزل عنه وثبت قدمه فى الحرب اذا كان الغلب له والنصر معه وليس المراد تقررها فى مكان واحد (وانصرنا على القوم الكافرين) هم جالوت وجنوده ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لما هو العلة الموجبة للنصرة عليهم وهى كفرهم وذكر النصر بعد سؤال تثبيت الاقدام لكون الثانى هو غاية الاول (فهزموهم باذن الله) الهزم الكسر ومنه سقاء منهزم أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف ومنه ما قيل فى زمزم انها هزمة جبريل أى هزمها برجله فخرج الماء والهزم ما يكسر من يابس الحطب وتقدير الكلام فأنزل الله عليهم النصر فهزموهم بأمر الله وارادته (وقتل داود جالوت) هو داود بن ايشا ويقال داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب جمع الله له بين النبوة والملك بعد ان كان راعيا وكان أصغر اخوته اختاره طالوت لمقابلة جالوت فقتله وكان يومئذ صغيرا لم يبلغ الحلم سقيما أصفر اللون يرعى الغنم فهذه الوقعة قبل نبوته وان أباه كان من جملة جيش طالوت وعن مجاهد وغيره قال كان طالوت أميرا على الجيش فبعث أبو داود مع داود بشئ الى اخوته فقال داود لطالوت ماذا لى وأقتل جالوت فقال لك ثلث ملكى وأنكحك ابنتى فأخذ مخلاة فجعل فيها ثلاث مروات ثم سمى ابراهيم واسحق ويعقوب ثم أدخل يده فقال بسم الله الهى واله آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب فخرج على ابراهيم فجعله فى مرجمته فرمى بها جالوت فخرق ثلاثة وثلاثين بيضة عن رأسه وقتلت ما وراءه ثلاثين رجلا فأخذ داود جالوت حتى ألقاه بين يدى طالوت ففرح بنو اسرائيل فزوجه ابنته وأعطاه نصف الملك فمكث معه كذلك أربعين سنة فمات طالوت واستقل داود بالملك سبع سنين ثم انتقل الى رحمة الله تعالى

وقد روى الامام أحمد عن علي بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن عن عمرو بن قيس عن محمد بن الاشعث عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في أهل الكتاب انهم لا يحسدوننا على شئ كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الامام امين وقوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا يقول تعالى انما حولنا كم الى قبلة ابراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الامم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الامم لان الجميع معترفون لكم (٣٣١) بالفضل والوسط ههنا الخيار والاجود كما يقال قريش أوسط العرب نسبا ودارا أي خيرها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطا في قومه أي أشرفهم نسبا ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها ولما جعل الله هذه الامة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس وقال الامام أحمد حدثنا وكيع عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته قال فذلك قوله وكذلك جعلناكم أمة وسطا قال والوسط العدل فتدعون فتشهدون له وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم هذا فيقولون لا فيقال له هل بلغت قومك فيقول نعم فيقال من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيدعى محمد وأمته فيقال لهم هل بلغ هذا قومه فيقولون نعم فيقال وما علمكم فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا ان الرسل قد بلغوا فذلك قوله عز وجل وكذلك جعلناكم أمة وسطا قال عدلا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول

فسبحان من لا ينقضي ملكه وقد ذكر المفسرون أقاصيص كثيرة من هذا الجنس فالله أعلم (وآتاه الله) أي داود (الملك) الكامل سبع سنين بعد موت طالوت (والحكمة) والمراد بالحكمة هنا النبوة وقيل هي تعليمه صنعة الدروع من الحديد وكان يلين في يده وينسجه كنسج الغزل ومنطق الطير والالحان أي فهم أصواته وكذا البهائم وقيل هي اعطاؤه السلسلة التي كانوا يتحاكمون اليها (وعلمه مما يشاء) قيل ان المضارع هنا موضوع موضع الماضي وفاعل ذلك هو الله تعالى وقيل داود وظاهر هذا التركيب ان الله سبحانه علمه مما قضت به مشيئته وتعلقت به ارادته وقد قيل ان من ذلك ما قدمناه من تعليمه صنعة الدروع وما بعده قيل كان ملك طالوت الى ان قتل مدة أربعين سنة فأتى بنو اسرائيل الى داود فملكوه عليهم وأعطوه خزائن طالوت قال الكلبي والضحاك ملك داود بعد قتل طالوت نحو سبع سنين ولم يجتمع بنو اسرائيل على ملك واحد الا على داود فجمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن كذلك من قبل ولم يجتمعا لاحد قبله بل كانت النبوة في سبط والملك في سبط ثم جمع الله له ذلك ولابنه سليمان بين الملك والنبوة (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) قرئ الدفع والدفاع وهما مصدران لدفع كذا وعلى القراءتين فالمصدر مضاف الى الفاعل أي ولولا دفع الله الناس وبعضهم بدل من الناس وهم الذين يباشرون أسباب الشر والفساد ببعض آخر منهم وهم أهل الايمان الذين يكفونهم عن ذلك ويردونهم عنه (لفسدت الارض) لتغلب اهل الفساد عليها واحداثهم الشرور التي تهلك الحرث والنسل قال ابن عباس يدفع الله بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يزكي عمن لا يزكي وأخرج ابن عدي وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر ولولا دفع الله الناس الآية وفي اسناده يحيى بن سعيد العطار وهو ضعيف جدا ورواه أحمد أيضا (ولكن الله ذو فضل) التنكير للتعظيم (على العالمين) أي عم فضله الناس كلهم (تلك آيات الله) هي ما اشتملت عليه هذه القصة من الامور المذكورة (نتلوها عليك بالحق) والمراد بالحق هنا الخبر الصحيح الذي لا ريب فيه عند أهل الكتاب والمطلعين على أخبار العالم (وانك لمن المرسلين) اخبار من الله سبحانه بانه من جملة رسل الله سبحانه تقوية لقلبه وتثبيتا لجنانه وتشييدا لامره وان الذي يخبر به

بالبلاغ ثم أشهد عليكم رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الاعمش

عليكم شهيدا وقال أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا قال عدلا وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد عن أبي مالك الاشجعي عن المغيرة بن عتيبة بن نباس (١) حدثني مكتب لنا عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال انا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد الا ودأنه منا وما من نبي كذبه قومه الا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل وروى الحاكم في مستدركه وابن مردويه أيضا واللفظ له من حديث مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظي عن جابر بن عبد الله قال شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة في بني سلمة وكنت الى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم والله يا رسول الله لنعم المرء كان لقد كان عفيفا مسلما وكان وأثنوا عليه خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت بما تقول فقال الرجل الله أعلم بالسرائر فأما الذي بدا لنا منه فذاك فقال النبي صلى الله عليه وسلم وجبت ثم شهد جنازة في بني حارثة وكنت الى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم يا رسول الله بئس المرء كان ان كان لفظا غليظا فأثنوا عليه شرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعضهم أنت بالذي تقول فقال الرجل الله أعلم بالسرائر فأما الذي بدا لنا منه فذاك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت قال مصعب بن ثابت فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ثم قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال الامام أحمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبي الفرات عن عبد الله بن بريدة عن أبي الاسود انه قال أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتا ذريعا فجلست الى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثني على صاحبها خير فقال وجبت ثم مر بأخرى فأثني عليها شر فقال عمر وجبت فقال أبو الاسود ما وجبت يا أمير المؤمنين قال قلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة قال فقلنا وثلاثة قال فقال وثلاثة قال فقلنا واثنان قال واثنان ثم لم نسأله عن الواحد وكذا رواه البخاري والترمذي والنسائي من

من الاخبار العجيبة والقصص القديمة وحي من الله من غير أن يعرفها بقراءة كتب ولا استماع أخبار فدل ذلك على رسالته (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) قيل هو اشارة الى جميع الرسل فيكون الالف واللام للاستغراق وقيل هو اشارة الى الانبياء المذكورين في هذه السورة وقيل الى الانبياء الذي بلغ علمهم الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بتفضيل بعضهم على بعض أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر فكان الاكثر مزايا فاضلا والآخر مفضولا وكما دلت هذه الآية على ان بعض الانبياء أفضل من بعض كذلك دلت الآية الاخرى عليه وهي قوله تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا عن قتادة قال اتخذ الله ابراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما وجعل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون وهو عبد الله وكلمته وروحه وآتى داود زبورا وآتى سليمان ملكا عظيما لا ينبغي لاحد من بعده وغفر لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال الخازن وأجمعت الامة على ان نبينا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الانبياء لعموم رسالته وهو قوله وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعا بلفظ لا تفضلوني على الانبياء وفي لفظ آخر لا تفضلوا بين الانبياء وفي لفظ لا تخيروا بين الانبياء فقال قوم ان هذا القول منه صلى الله عليه وآله وسلم كان قبل ان يوحى اليه بالتفضيل وان القرآن ناسخ للمنع من التفضيل وقيل انه قال صلى الله عليه وآله وسلم ذلك على سبيل التواضع كما قال لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى تواضعا مع علمه انه أفضل الانبياء كما يدل عليه قوله أنا سيد ولد آدم وقيل انما نهى عن ذلك قطعا للجدال والخصام في الانبياء فيكون مخصوصا بمثل ذلك لا اذا كان صدور ذلك مأمونا وقيل ان النهي انما هو من جهة النبوة فقط لانها خصلة واحدة لا تفاضل فيها ولا نهي عن التفاضل بزيادة الخصوصيات والكرامات وقيل ان المراد النهي عن التفضيل بمجرد الاهواء والعصبية وفي جميع هذه الاقوال ضعف وعندي انه لا تعارض بين القرآن والسنة فان القرآن دل على ان الله فضل بعض أنبيائه على بعض وذلك لا يستلزم انه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض فان المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله تعالى لا يخفى على الله منها خافية وليست بمعلومة

(١) قوله نباس في نسخة فهاس بالفاء والهاء وحرر اه

حديث داود بن أبي الفرات به وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى حدثنا أبو قلابة الرقاشي حدثني أبو الوليد حدثنا نافع ابن عمر حدثني أمية بن صفوان عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبناوة يقول يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم قالوا بم يا رسول الله قال بالثناء الحسن والثناء السيئ أنتم شهداء الله في الارض ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هرون ورواه الامام أحمد عن يزيد بن هرون وعبد الملك بن عمر وشريح عن نافع عن ابن عمر به وقوله تعالى وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن

بمعلومة عند البشر فقد يجهل أتباع نبي من الانبياء بعض مزاياه وخصوصياته فضلا عن مزايا غيره والتفضيل لا يجوز الا بعد العلم بجميع الاسباب التي يكون بها هذا فاضلا وهذا مفضولا لا قبل العلم ببعضها أو بأكثرها أو بأقلها فان ذلك تفضيل بالجهل واقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له وهو ممنوع منه فلو فرضنا أنه لم يرد الا القرآن بالاخبار لنا بان الله فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على انه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الانبياء فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك واذا عرفت هذا علمت انه لا تعارض بين القرآن والسنة بوجه من الوجوه فالقرآن فيه الاخبار من الله بانه فضل بعض أنبيائه على بعض والسنة فيها النهي لعباده ان يفضلوا بين أنبيائه فمن تعرض للجمع بينهما زاعما انهما متعارضان فقد غلط غلطا بينا (منهم) تفصيل للتفضيل المذكور اجمالا (من كلم الله) أي بغير واسطة وهو موسى كلمه في الطور ونبينا سلام الله عليهما كلمه ليلة الاسراء وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال في آدم انه نبي مكلم وقد ثبت ما يفيد ذلك في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر والالتفات حيث لم يقل كلمنا التربية المهابة بهذا الاسم الشريف والرمز الى ما بين التكليمين ورفع الدرجات من التفاوت (ورفع بعضهم درجات) هذا البعض يحتمل ان يراد به من عظمت منزلته عند الله سبحانه من الانبياء ويحتمل ان يراد به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لكثرة مزاياه المقتضية لتفضيله ويحتمل ان يراد به ادريس لان الله سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكانا عليا وقيل انهم أولو العزم وقيل ابراهيم ولا يخفاك ان الله سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع فلا يجوز لنا التعرض للبيان له الا ببرهان من الله سبحانه او من نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرد ما يرشد الى ذلك فالتعرض لبيانه هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأي وقد عرفت ما فيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك ذريعة الى التفضيل بين الانبياء وقد نهينا عنه وقد جزم كثير من أئمة التفسير انه نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وأطالوا في ذلك واستدلوا بما خصه الله به من المعجزات ومزايا الكمال وخصال الفضل وهم بهذا الجزم بدليل لا يدل على المطلوب قد وقعوا في خطرين وارتكبوا نهيين وهما تفسير القرآن بالرأي والدخول في ذرائع التفضيل بين الانبياء وان لم يكن ذلك تفضيلا صريحا فهو ذريعة اليه بلا شك ولا شبهة لان من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبي الفلاني انتقل من ذلك الى

ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله يقول تعالى انما شرعنا لك يا محمد التوجه أولا الى بيت المقدس ثم صرفناك عنها الى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه أي مرتدا عن دينه وان كانت لكبيرة أي هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس الى الكعبة أي وان كان هذا الامر عظيما في النفوس الا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وان كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه وان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف الذين في قلوبهم مرض فان كلما حدث أمر أحدث لهم شكا كما يحصل للذين آمنوا ايقان وتصديق كما قال تعالى واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وقال تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى وقال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه في ذلك وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة وقد ذهب بعضهم الى ان السابقين الاولين من المهاجرين والانصار هم الذين صلوا القبلتين وقال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء اذ جاء رجل فقال قد أنزل على النبي صلى

الله عليه وسلم قرآن وقد امر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فتوجهوا الى الكعبة وقد رواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر ورواه الترمذي من حديث سفيان الثوري وعنده انهم كانوا راكوعا فاستداروا كما هم الى الكعبة وهم ركوع وكذا رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مثله وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لاوامر الله عز وجل رضي الله عنهم أجمعين وقوله وما كان الله ليضيع ايمانكم أي صلاتكم الى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله وفي الصحيح من حديث أبي اسحق السبيعي عن (٣٣٤) البراء قال مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس ما حالهم في ذلك فأنزل الله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه وقال ابن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وما كان الله ليضيع ايمانكم أي بالقبلة الاولى وتصديقكم نبيكم واتباعه الى القبلة الاخرى أي ليعطيكم أجرهما جميعا ان الله بالناس لرؤف رحيم وقال الحسن البصري وما كان الله ليضيع ايمانكم أي ما كان الله ليضيع محمدا صلى الله عليه وسلم وانصرافكم معه حيث انصرف ان الله بالناس لرؤف رحيم وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبيا من السبي أخذته فألصقته ببطنها وهي تدور على ولدها فلما وجدته ضمته اليها وألقمته ثديها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه قالوا لا يا رسول الله قال فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كان أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان يحب قبلة ابراهيم فكان يدعو الله وينظر الى السماء فأنزل الله قد نرى تقلب وجهك في السماء الى قوله فولوا وجوهكم

التفضيل المنهي عنه وقد أغنى الله نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك بما لا يحتاج معه الى غيره من الفضائل والفواضل فاياك ان تتقرب اليه صلى الله عليه وآله وسلم بالدخول في أبواب نهاك عن دخولها فتعصيه وتسيء وأنت تظن انك مطيع محسن (وآتينا عيسى بن مريم البينات) أي الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من احياء الاموات وابراء المرضى من الاكمه والابرص وغير ذلك (وأيدناه) أي قويناه (بروح القدس) هو جبريل وكان يسير معه حيث سار الى أن رفعه الله الى عنان السماء السابعة وقد تقدم الكلام على هذا (ولو شاء الله ما اقتتل) أي ما اختلف فأطلق الاقتتال وأراد سببه وهو الاختلاف (الذين من بعدهم) أي من بعد الرسل وقيل من بعد موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام لان الثاني مذكور صريحا والاول والثالث وقعت الاشارة اليهما بقوله منهم من كلم الله أي لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا فمفعول المشيئة محذوف على القاعدة وقيل أن لا يؤمروا بالقتال وقيل أن يصيرهم الى الايمان وكلها متقاربة (من بعد ما جاءتهم البينات) أي الدلالات الواضحات من الله بما فيه مزدجر لمن هداه الله تعالى ووفقه (ولكن اختلفوا) استثناء من الجملة الشرطية أي ولكن الاقتتال ناشئ عن اختلافهم اختلافا كثيرا حتى صاروا ملا مختلفة والمعنى لو شاء الله الاتفاق لاتفقوا ولكن شاء الاختلاف فاختلفوا وفيه اشارة الى قياس استثنائي (فمنهم من آمن ومنهم من كفر) أي ثبت على ايمانه أو تعمد الكفر بعد قيام الحجة كالنصارى بعد المسيح (ولو شاء الله) عدم اقتتالهم بعد هذا الاختلاف (ما اقتتلوا) تأكيد (ولكن الله يفعل ما يريد) من توفيق من شاء وخذلان من شاء لا راد لحكمه ولا مبدل لقضائه فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض عليه في ملكه وفعله وسأل رجل عليا عن القدر فقال طريق مظلم فلا تسلكه فأعاد السؤال فقال بحر عميق فلا تلجه فأعاد السؤال فقال سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) ظاهر الآية الوجوب وقد حمله جماعة على صدقة الفطر لذلك ولما في آخر الآية من الوعيد الشديد وقيل ان هذه الآية تجمع زكاة الفرض والتطوع قال ابن عطية وهذا صحيح ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وان الله يدفع المؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه ان هذا الندب انما هو في سبيل الله قال القرطبي وعلى هذا التأويل يكون انفاق المال مرة واجبا ومرة

شطره فارتابت من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب وقال فأينما تولوا فثم وجه الله وقال الله تعالى وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمري عن عمه عبيد الله بن عمر وعن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا سلم من صلاته الى بيت المقدس رفع رأسه الى السماء فأنزل الله فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام الى الكعبة الى الميزاب يؤم به جبرئيل عليه السلام وروى (٣٣٥) الحاكم في مستدركه من حديث شعبة عن

ومرة ندبا بحسب تعين الجهاد وعدم تعينه (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) أي أنفقوا مادمتم قادرين وقدموا لانفسكم اليوم من الاموال من قبل ان يأتي ما لا يمكنكم الانفاق فيه وهو يوم لا يتبايع الناس فيه ولا تجارة فيكتسب الانسان ما يفتدي به نفسه من العذاب (ولا خلة) خالص المودة مأخوذ من تخلل الاسرار بين الصديقين أخبر سبحانه انه لا خلة في يوم القيامة نافعة ولا مودة ولا صداقة (ولا شفاعة) مؤثرة الا لمن أذن الله له قيل وقد دلت النصوص على ثبوت المودة والشفاعة بالاذن بين المؤمنين فيكون هذا عاما مخصوصا (والكافرون هم الظالمون) فيه دليل على ان كل كافر ظالم لنفسه ومن جملة من يدخل تحت هذا العموم مانع الزكاة منعا يوجب كفره لوقوع ذلك في سياق الامر بالانفاق وعن عطاء قال الحمد لله الذي قال والكافرون هم الظالمون ولم يقل والظالمون هم الكافرون (الله لا اله الا هو الحي القيوم) أي لا معبود بحق الا هو وهذه الجملة خبر المبتدأ والحي الباقي وقيل الذي لا يزول ولا يحول وقيل المصرف للامور والمقدر للاشياء قال الطبري عن قوم انه يقال حي كما وصف نفسه ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه وهو خبر ثان أو مبتدأ خبره محذوف والقيوم القائم على كل نفس بما كسبت وقيل القائم بذاته المقيم لغيره وقيل القائم بتدبير الخلق وحفظه وقيل هو الذي لا ينام وقيل الذي لا بديل له وقرأ جماعة القيام بالالف وروي ذلك عن عمر ولا خلاف بين أهل اللغة ان القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء وأثبت علة وهذه الآية أفضل آية في القرآن ومعنى الفضل ان الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات هذا هو التحقيق في تفضيل القرآن بعضه على بعض وانما كانت أفضل لانها جمعت من أحكام الالوهية وصفات الاله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية أخرى (لا تأخذه سنة ولا نوم) هذا كالتعليل لقوله القيوم السنة النعاس في قول الجمهور والنعاس ما يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين فاذا صار في القلب صار نوما وفرق المفضل بين السنة والنعاس والنوم فقال السنة من الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب انتهى والذي ينبغي التعويل عليه في الفرق بين السنة والنوم ان السنة لا يفقد معها العقل بخلاف النوم فانه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الابخرة حتى يفقد معه العقل بل وجميع الادراكات بسائر المشاعر والمراد أنه لا يعتريه سبحانه شيء منهما وقدم السنة على النوم لكونها تتقدمه في

يعلى بن عطاء عن يحيى بن قطنة قال رأيت عبد الله بن عمرو جالسا في المسجد الحرام بازاء الميزاب فتلا هذه الآية فلنولينك قبلة ترضاها قال نحو ميزاب الكعبة ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن عرفة عن هشام عن يعلى بن عطاء به وهكذا قال غيره وهو أحد قولي الشافعي رضي الله عنه ان الغرض اصابة عين الكعبة والقول الآخر وعليه الاكثرون ان المراد المواجهة كما رواه الحاكم من حديث محمد بن اسحق عن عمير بن زياد الكندي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فول وجهك شطر المسجد الحرام قال شطره قبله ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهذا قول أبي العالية ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والربيع ابن أنس وغيرهم وكما تقدم في الحديث الآخر ما بين المشرق والمغرب قبلة وقال القرطبي روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال البيت قبلة لاهل المسجد والمسجد قبلة لاهل الحرم والحرم قبلة لاهل الارض في مشارقها ومغاربها من أمتي وقال أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا زهير عن أبي اسحق عن البراء ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه قبلته قبل البيت وانه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلي معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال اشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت وقال عبد الرزاق أخبرنا اسرائيل عن أبي اسحق عن البراء قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يحول نحو الكعبة فنزلت قد نرى تقلب وجهك في السماء فصرف الى الكعبة وروى النسائي عن أبي سعيد بن المعلى قال كنا نغدو الى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصلي فيه فمررنا يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد على المنبر فقلت لقد حدث أمر فجلست فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها حتى فرغ من الآية فقلت لصاحبي تعال نركع ركعتين قبل ان ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أول من صلى فتوارينا فصلينا هما ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم وصلى للناس الظهر يومئذ

وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر ان أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكعبة صلاة الظهر وانها الصلاة الوسطى والمشهور ان أول صلاة صلاها الى الكعبة صلاة العصر ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء الى صلاة الفجر وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا الحسين بن اسحق التستري حدثنا رجاء بن محمد السقطي حدثنا اسحق ابن ادريس حدثنا ابراهيم بن جعفر حدثني أبي عن جدته أم أبيه نويلة بنت مسلم قالت صلينا الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد ايلياء فصلينا ركعتين ثم جاء من يحدثنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام فحدثني رجل من بني حارثة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أولئك رجال يؤمنون بالغيب وقال ابن مردويه أيضا حدثنا محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا مالك بن اسمعيل النهدي حدثنا قيس عن زياد بن علاقة عن عمارة بن أوس قال بينما نحن في صلاة الصبح نحو بيت المقدس ونحن ركوع اذ نادى منادي باب ان القبلة قد حولت الى الكعبة قال فأشهد على اما منا انه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة وقوله وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الارض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر فانه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال وكذا من جهل

الوجود فهو على حد لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها قال الرازي في تفسيره ان السنة ما يتقدم النوم فاذا كانت عبارة عن مقدمة النوم فاذا قيل لا تأخذه سنة دل على انه لا يأخذه نوم بطريق الاولى فكان ذكر النوم تكرارا قلنا تقدير الآية لا تأخذه سنة فضلا عن ان يأخذه نوم والله أعلم بمراده انتهى وأقول أن هذه الاولوية التي ذكرها غير مسلمة فان النوم قد يرد ابتداء من دون ما ذكر من النعاس واذا ورد على القلب والعين دفعة واحدة فانه يقال له نوم ولا يقال له سنة فلا يستلزم نفي السنة نفي النوم وقد ورد عن العرب نفيهما جميعا وأيضا فان الانسان يقدر على ان يدفع عن نفسه السنة ولا يقدر على ان يدفع عن نفسه النوم فقد يأخذه النوم ولا تأخذه السنة فلو وقع الاقتصار في النظم القرآني على نفي السنة لم يفد ذلك نفي النوم وهكذا لو وقع الاقتصار على نفي النوم لم يفد نفي السنة فكم من ذي سنة غير نائم وكرر حرف النفي للتنصيص على شمول النفي لكل واحد منهما فالسنة النوم الخفيف والنوم هو الثقيل المزيل للعقل والقوة والوسنان بين النائم واليقظان والجملة نفي للتشبيه بينه تعالى وبين خلقه والله منزه عن النقص والآفات وان ذلك تغير وهو مقدس عن التغير وعن أبي موسى الاشعري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطيبا بخمس كلمات فقال ان الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له ان ينام الحديث رواه مسلم (له ما في السموات وما في الارض) يعني انه تعالى مالك جميع ذلك بغير شريك ولا منازع وهو خالقهم وهم عبيده وخلقه وهم في ملكه وأجرى الغالب مجرى الكل فعبر عنه بلفظ ما دون من وفيه رد على المشركين العابدين لبعض الكواكب التي في السماء والاصنام التي في الارض يعني فلا تصلح أن تعبد لانها مملوكة مخلوقة له واللام اما للقهر واما للملك واما للايجاد (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) في هذا الاستفهام من الانكار على من يزعم ان أحدا من عباده يقدر على ان ينفع أحدا منهم بشفاعة أو غيرها والتقريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه وفيه من الدفع في صدور عباد القبور والصك في وجوههم والنفث في أعضادهم ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه والذي يستفاد منه فوق ما يستفاد من قوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وقوله تعالى وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيأ الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى وقوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن بدرجات كثيرة وقد بينت الاحاديث الصحيحة الثابتة في دواوين

جهة القبلة يصلي باجتهاده وان كان مخطئا في نفس الامر لان الله تعالى لا يكلف نفسا الا وسعها *(مسئلة)* وقد استدل المالكية بهذه الآية على ان المصلي ينظر أمامه لا الى موضع سجوده كما ذهب اليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة قال المالكية بقوله فول وجهك شطر المسجد الحرام فلو نظر الى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام وقال بعضهم ينظر المصلي في قيامه الى صدره وقال شريك القاضي ينظر في حال قيامه الى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة لانه أبلغ في الخضوع وآكد في الخشوع وقد ورد به الحديث وأما في حال ركوعه فعلى (٣٣٧) موضع قدميه وفي حال سجوده الى موضع أنفه وفي حال قعوده الى حجره وقوله وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون ان الله تعالى سيوجهك اليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدا وكفرا وعنادا ولهذا تهددهم تعالى بقوله وما الله بغافل عما تعملون (ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين) يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك

الاسلام صفة الشفاعة ولمن هي ومن يقوم بها بالاذن (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) الضمير ان لما في السموات والارض بتغليب العقلاء على غيرهم وما بين أيديهم وما خلفهم عبارة عن المتقدم عليهم والمتأخر عنهم او عن الدنيا والآخرة وما فيهما وقال مجاهد ما مضى من الدنيا وما خلفهم من الآخرة وعن ابن عباس ما قدموا من أعمالهم وما أضاعوا من أعمالهم والمقصود انه عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شئ من أحوال جميع خلقه حتى يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تحت الارض الغبراء وحركة الذرة في جو السماء والطير في الهواء والسمك في الماء وفيه رد على من ينفي عنه سبحانه علم الجزئيات كالفلاسفة وهي أي صفة العلم له سبحانه امام أئمة الصفات فلا تخفى عليه خافية في الارض ولا في السماء (ولا يحيطون بشئ من علمه) قد تقدم معنى الاحاطة والعلم هنا بمعنى المعلوم أي لا يحيطون بشئ من معلوماته (الا بما شاء) ان يطلعهم عليه بأخبار الانبياء والرسل ليكون دليلا على نبوتهم وليس ذلك اليهم بل اليه (وسع كرسيه) يقال فلان يسع الشئ سعة اذا احتمله وأمكنه القيام به وأصل الكرسي في اللغة مأخوذ من تركب الشئ بعضه على بعض ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض وفي العرف ما يجلس عليه والكرسي هنا الظاهر انه الجسم الذي وردت الآثار بصفته كما سيأتي بيان ذلك وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة وأخطؤا في ذلك خطأ بينا وغلطوا غلطا فاحشا وقال بعض السلف ان الكرسي هنا عبارة عن العلم قالوا ومنه قيل للعلماء كراسي ومنه الكراسة التي يجمع فيها العلم ورجح هذا القول ابن جرير الطبري وفي القاموس الكرسي بالضم والكسر السرير والعلم والجمع كراسي وقيل كرسيه قدرته التي يمسك بها السموات والارض كما يقال اجعل لهذا الخائط كرسيا أي ما يعمده وقيل ان الكرسي هو العرش وقيل هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له قال التفتازاني انه من باب اطلاق المركب الحسي المتوهم على المعنى العقلي المحقق وقال البيضاوي لا كرسي في الحقيقة ولا قاعد وهو تمثيل مجرد وقيل هو عبارة عن الملك والسلطان مأخوذ من كرسي العالم والملك والحق القول الاول ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي الا مجرد خيالات تنبيت عن جهالات وضلالات جاءت عن الفلاسفة أقماهم الله تعالى والمراد بكونه وسع (السموات والارض) انها صارت فيه وانه وسعها ولم يضق عنها لكونه بسيطا واسعا وأخرج الدارقطني في الصفات

لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم ولهذا قال ههنا ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وقوله وما أنت بتابع قبلتهم اخبار عن شدة متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما أمره الله تعالى به وانه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته وانه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ولا كونه متوجها الى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود وانما ذلك عن أمر الله تعالى ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم الى الهوى فان العالم الحجة عليه أقوم من غيره ولهذا قال مخاطبا للرسول والمراد به الامة ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم

انك اذا لمن الظالمين (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) يخبر تعالى ان علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدهم ولده والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشئ بهذا كما جاء فى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل معه صغير ابنك هذا قال نعم يا رسول الله أشهد به قال أما انه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه قال القرطبى ويروى عن عمر انه قال لعبد الله بن سلام أتعرف محمدا كما تعرف ولدك قال نعم وأكثر نزل الامين من السماء على الامين فى الارض بنعته فعرفته وانى لا ادرى ما كان من أمه قلت وقد يكون المراد يعرفونه كما يعرفون أبناءهم من بين أبناء الناس لا يشك أحد ولا يمترى فى معرفة انه اذا رآه من أبناء الناس كلهم ثم أخبر تعالى انهم مع هذا التحقق والاتقان العلمى ليكتمون الحق أى ليكتمون الناس ما فى كتبهم من صفة النبى صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون ثم ثبت تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك فقال الحق من ربك فلا تكونن من الممترين (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ان الله على كل شئ قدير) قال العوفى عن ابن عباس ولكل وجهة هو موليها يعنى بذلك أهل الاديان يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون وقال أبو العالية لليهودى وجهة هو موليها وللنصرانى وجهة هو موليها وهداكم أنتم أيها الامة الى القبلة التى هى القبلة وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس والسدى نحو هذا وقال مجاهد فى الرواية الاخرى والحسن أمر كل قوم يصلون الى الكعبة وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر ولكل وجهة هو مولاها وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا وقال ههنا أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ان الله على كل شئ قدير أى هو قادر على جمعكم من الارض وان تفرقت أجسادكم وأبدانكم (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام

والخطيب فى تاريخه عن ابن عباس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله وسع كرسيه قال كرسيه موضع قدميه والعرش لا يقدر قدره الا الله عز وجل وأخرجه الحاكم وصححه وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى عن أبى ذر الغفارى انه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الكرسى فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذى نفسى بيده ما السموات السبع عند الكرسى الا كحلقة ملقاة فى أرض فلاة وان فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا انه موضع القدمين وفى سنده الحكم بن ظهير الفزارى الكوفى وهو متروك وقد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة وغيرهم فى وصف الكرسى آثار لا حاجة فى بسطها (ولا يؤده حفظهما) معناه لا يثقله ولا يجهده ولا يشق عليه حفظ السموات والارض يقال آدنى بمعنى أثقلنى وتحملت منه مشقة وقال الزجاج يحتمل أن يكون الضمير فى قوله يؤده لله سبحانه ويجوز أن يكون للكرسى لانه من أمر الله (وهو العلى العظيم) العلى يراد به علو القدر والمنزلة أى الرفيع فوق خلقه ليس فوقه شئ وقيل العلى بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد وقيل علا من ان يحيط به وصف الواصفين ذو العظمة والجلال الذى كل فى عظمته وحكى الطبرى عن بعضهم انهم قالوا هو العلى عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه قال ابن عطية وهذا قول جهلة مجسمين وكان الواجب أن لا يحكى انتهى والخلاف فى اثبات الجهة معروف فى السلف والخلف والنزاع فيه كائن بينهم والادلة من الكتاب والسنة طافحة بها ولكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجا عن الشرع ولا ينظر فى أدلته ولا يلتفت اليها والكتاب والسنة هما المعيار الذى يعرف به الحق من الباطل ويتبين به الصحيح من الفاسد ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ولا شك ان هذا اللفظ يطلق على القاهر الغالب أيضا كما فى قوله ان فرعون علا فى الارض والعظيم بمعنى عظم شأنه وخطره قال فى الكشاف ان الجملة الاولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه والثانية بيان لكونه مالكا لما يدبره والجملة الثالثة بيان لكبرياء شأنه والجملة الرابعة بيان لاحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة وغير المرتضى والجملة الخامسة بيان لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها أو لجلاله وعظم قدره انتهى وبالجملة فهذه الآية قد اشتملت

وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منكم فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون) هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الارض وقد اختلفوا فى حكمة هذا التكرار ثلاث مرات فقيل تأكيد لانه أول ناسخ وقع فى الاسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره وقيل بل هو منزل على أحوال فالامر الاول لمن هو مشاهد الكعبة والثانى لمن هو فى مكة غائبا عنها والثالث لمن هو فى بقية البلدان هكذا وجهه فخر الدين الرازى وقال القرطبى الاول لمن هو بمكة والثانى لمن هو فى بقية الامصار (٣٣٩) والثالث لمن خرج فى الاسفار ورجح هذا الجواب القرطبى وقيل انما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق فقال أولا قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها الى قوله وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون فذكر فى هذا المقام اجابته الى طلبته وأمره بالقبلة التى كان يود التوجه اليها ويرضاها وقال فى الامر الثانى ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون فذكر انه الحق من الله وارتقاءه المقام الاول حيث كان موافقا لرضا الرسول صلى الله عليه وسلم فبين انه الحق أيضا من الله يحبه ويرتضيه وذكر فى الامر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يحتجون باستقبال الرسول الى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما فى كتبهم انه سيصرف الى قبلة ابراهيم عليه السلام الى الكعبة وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول صلى الله عليه وسلم عن قبلة اليهود الى قبلة ابراهيم التى هى أشرف وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول اليها وقيل غير ذلك من الاجوبة عن حكمة التكرار وقد بسطها الرازى وغيره والله أعلم وقوله لئلا يكون للناس عليكم حجة أى أهل الكتاب فانهم يعلمون من صفة هذه الامة التوجه الى الكعبة فاذا فقدوا ذلك من صفتها بما احتجوا بها على المسلمين ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين اياهم فى التوجه الى بيت المقدس وهذا أظهر قال أبو العالية لئلا يكون للناس عليكم حجة يعنى به أهل الكتاب حين قالوا صرف محمد الى الكعبة وقالوا اشتاق الرجل الى بيت أبيه ودين قومه وكان حجتهم على النبى صلى الله عليه وسلم انصرافه الى البيت الحرام أن قالوا سيرجع الى ديننا

على أمهات المسائل الالهية فانها دالة على انه تعالى موجود واحد فى الالوهية متصف بالحياة الازلية الابدية واجب الوجود لذاته موجد لغيره اذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا يناسب الاشباح ولا يعتريه ما يعترى النفوس والارواح مالك الملك والملكوت ومبدع الاصول والفروع وذو البطش الشديد الذى لا يشفع أحد عنده كائنا من كان الا من أذن له الرحمن عالم بالاشياء كلها جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة لكل ما يصح ان يملك ويقدر عليه لا يشق عليه شاق ولا يشغله شأن عن شأن متعال عن الخلق مباين عن العالم مستو على العرش على الذات سمى الصفات كبير الشأن جليل القدر رفيع الذكر مطاع الامر جلى البرهان على عما يدركه القياس والظن والوهم عظيم لا يحيط به علم الخلائق والفهم ولذلك قد ورد فى فضل هذه الآية أحاديث فاخرج أحمد ومسلم واللفظ له عن أبى بن كعب ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم سأله أى آية من كتاب الله أعظم قال آية الكرسى قال ليهنك العلم أبا المنذر وأخرج البخارى فى تاريخه والطبرانى وأبو نعيم فى المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الاسقع البكرى ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم جاءهم فى صفة المهاجرين فسأله انسان اى آية فى القرآن العظيم أعظم فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم الله لا اله الا هو الحى القيوم الآية وأخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن لا تقرأ فى بيت فيه شيطان الا خرج منه آية الكرسى قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وأخرج أبو داود والترمذى وصححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى هاتين الآيتين الله لا اله الا هو الحى القيوم والم الله لا اله الا هو ان فيهما اسم الله الاعظم وقد وردت أحاديث فى فضلها غير هذه وورد أيضا فى فضل قراءتها دبر الصلوات وفى غير ذلك وورد أيضا مع مشاركة غيرها لها أحاديث فى فضلها وورد

عن السلف فى ذلك شئ كثير وقد اختلف أهل العلم فى قوله (لا اكراه فى الدين) على أقوال الاول انها منسوخة لان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أكره العرب على دين الاسلام وقاتلهم ولم يرض منهم الا الاسلام والناسخ لها قوله تعالى يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار

كما رجع الى قبلتنا قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس وقتادة والسدى نحو هذا وقال هؤلاء في قوله الا الذين ظلموا منهم يعني مشركي قريش ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا ان هذا الرجم يزعم انه على دين ابراهيم فان كان توجهه الى بيت المقدس على دلة ابراهيم فلم رجع عنه والجواب ان الله تعالى اختار له التوجه الى البيت المقدس أولا لمصالح تعالى في ذلك من الحكمة فأطاع ربه تعالى في ذلك ثم صرفه الى قبلة ابراهيم وهي الكعبة فامتثل أمر الله في ذلك أيضا فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله في جميع أحواله لا يخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له وقوله فلا تخشوهم واخشوني أي لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين وأفردوا الخشية لي فانه تعالى هو أهل أن يخشى منه وقوله ولأتم نعمتي عليكم عطف على لئلا يكون للناس عليكم حجة أي لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ولعلكم تهتدون أي الى ما ضلت عنه الامم هديناكم اليه وخصصناكم به ولهذا كانت هذه الامة أشرف الامم وأفضلها (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم اليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الاخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات الى النور ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهي السنة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول الشرا فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته الى حال الاولياء وسجايا العلماء قيل فصاروا أعمق الناس علما وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا وأصدقهم لهجة وقال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم الآية وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار قال ابن عباس يعني بنعمة الله محمدا صلى الله عليه وسلم ولهذا ندب الله المؤمنين الى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره وقال فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون قال مجاهد في قوله كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو كما فعلت

وليجدوا فيكم غلظة وقال تعالى ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون وقد ذهب الى هذا كثير من المفسرين القول الثاني انها ليست بمنسوخة وانما نزلت في أهل الكتاب خاصة وانهم لا يكرهون على الاسلام اذا أدوا الجزية بل الذين يكرهون هم أهل الاوثان فلا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف والى هذا ذهب الشعبي والحسن وقتادة والضحاك القول الثالث ان هذه الآية في الانصار خاصة القول الرابع ان معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف انه مكره فلا اكراه في الدين القول الخامس انها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا على الاسلام وقال ابن كثير في تفسيره أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الاسلام فانه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج الى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله الى الاسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فانه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا وهذا يصلح أن يكون قولا سادسا وقال في الكشاف في تفسير هذه الآية أي لم يجر الله أمر الايمان على الاجبار والقسر ولكن على التمكن والاختيار ونحوه قوله ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين أي لو شاء لقسرهم على الايمان ولكن لم يفعل وبنى الامر على الاختيار وهذا يصلح أن يكون قولا سابعا والذي ينبغي اعتماده ويتعين الوقوف عنده انها في السبب الذي نزلت لاجله محكمة غير منسوخة وهو ان المرأة من الانصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد فتجعل على نفسها ان عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت يهود بني النضير كان فيهم من أبناء الانصار فقالوا لا ندع أبناءنا فنزلت أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما عن ابن عباس وقد وردت هذه القصة من وجوه حاصلها ما ذكره ابن عباس مع زيادات تتضمن ان الانصار قالوا انما جعلناهم على دينهم أي دين اليهود ونحن نرى ان دينهم أفضل من ديننا وان الله جاء بالاسلام فلنكرهنهم فلما نزلت خيرا الابناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكرههم على الاسلام وهذا يقتضي ان أهل الكتاب لا يكرهون على الاسلام اذا اختاروا البقاء على دينهم وأدوا الجزية وأما أهل الحرب فالآية وان كانت تعمهم لان النكرة في سياق النفي وتعريف الدين يفيدان ذلك والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لكن قد خصص هذا العموم بما ورد من الآيات في اكراه أهل الحرب من الكفار على الاسلام وقد

فاذكرونى قال عبد الله بن وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم ان موسى عليه السلام قال يارب كيف أشكرك قال له ربه تذكرنى ولا تنسانى فاذا ذكرتنى فقد شكرتنى واذا نسيتنى فقد كفرتنى قال الحسن البصرى وأبو العالية والسدى والربيع بن أنس ان الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره وقال بعض السلف فى قوله تعالى اتقوا الله حق تقاته قال هو أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا يزيد بن هرون أخبرنا عمارة الصيدلانى أخبرنا مكحول الازدى قال قلت لابن عمر (٣٤١) أرايت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله وقد قال الله تعالى فاذكرونى أذكركم قال اذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت وقال الحسن البصرى فى قوله فاذكرونى أذكركم قال اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى وعن سعيد بن جبير اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى وفى رواية برحمتى وعن ابن عباس فى قوله اذكرونى أذكركم قال ذكر الله اياكم أكبر من ذكركم اياه وفى الحديث الصحيح يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منه قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل يا ابن آدم ان ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى وان ذكرتنى فى ملا ذكرتك فى ملا من الملائكة أو قال فى ملا خير منه وان دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا وان دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا وان أتيتنى تمشى أتيتك هرولة صحيح الاسناد أخرجه البخارى من حديث قتادة وعنده قال قتادة الله أقرب بالرحمة وقوله واشكروا لى ولا تكفرون أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة رجل من تيس حدثنا أبو رجاء العطاردى قال خرج علينا عمران ابن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أنعم الله عليه نعمة فانه يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه وقال روح مرة على عبده (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع

قيل ان هذه الآية الى خالدون من بقية آية الكرسى والتحقيق أن هذه الآية مستأنفة جىء بها اثر بيان صفات البارى المذكورة ايذانا بان من حق العاقل أن لا يحتاج الى التكليف والاكراه فى الدين بل يختار الدين الحق من غير تردد (قد تبين الرشد من الغى) لرشد هنا الايمان والغى الكفر أى قد تميز أحدهما من الآخر وأصل الغى بمعنى الجهل الا أن الجهل فى الاعتقاد والغى فى الاعمال وهذا استئناف يتضمن التعليل لما قبله (فمن يكفر بالطاغوت) الطاغوت فعلوت من طغى يطغى ويطغو اذا جاوز الحد قال سيبويه هو اسم مذكر مفرد أى اسم جنس يشمل القليل والكثير قاله سيبويه وقال أبو على الفارسى انه مصدر كرهبوت وجبروت يوصف به الواحد والجمع وقيل أصل الطاغوت فى اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق وقال المبرد هو جمع قال ابن عطية وذلك مردود قال الجوهرى والطاغوت الكاهن والساحر والشيطان وكل رأس فى الضلال وكل ما عبد من دون الله وقد يكون واحدا قال تعالى يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به وقد يكون جمعا قال تعالى أولياؤهم الطاغوت والجمع الطواغيت أى فمن يكفر بالشيطان أو الاصنام أو أهل الكهانة ورؤس الضلالة أو بالجميع (ويؤمن بالله) عز وجل بعد ما تميز له الرشد من الغى والحق عن الباطل والهدى عن الضلالة وانما قدم الكفر بالطاغوت على الايمان بالله لان الشخص ما لم يخالف الشيطان ويترك عبادة غير الله تعالى لم يؤمن بالله كما قالوا ان التخلية مقدمة على التحلية (فقد استمسك بالعروة) هو فى الاصل شد اليد وأصل المادة يدل على التعلق ومنه عروة اذا ألممت به متعلقا به واعتراه الهم تعلق به (الوثقى) أى فقد فاز وتمسك بالحبل الوثيق المحكم والوثقى فعلى من الوثاقة تأنيث الاوثق وجمعها وثق مثل الفضلى والافضل وقد اختلف المفسرون فى تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على ان ذلك من باب التشبيه والتمثيل لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة فقيل المراد بالعروة الايمان وقيل الاسلام وقيل لا اله الا الله وقيل من باب الاستعارة المفردة حيث استعير العروة الوثقى للاعتقاد الحق ولا مانع من الحمل على الجميع (لا انفصام لها) الانفصام الانكسار من غير بينونة قال الجوهرى فصم الشىء كسره من غير أن يبين وأما القصم بالقاف فهو الكسر مع البينونة وفسر صاحب الكشاف الانفصام بالانقطاع والمعنى أن المتمسك

الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) لما فرغ تعالى من بيان الامر بالشكر شرع فى بيان الصبر والارشاد والاستعانة بالصبر والصلاة فان العبد اما ان يكون فى نعمة فيشكر عليها أو فى نقمة فيصبر عليها كما جاء فى الحديث عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء الا كان خيرا له ان أصابته سراء فشكر كان خيرا له وان أصابته ضراء فصبر كان خيرا له وبين تعالى ان أجود ما يستعان به على تحمل المصايب الصبر والصلاة كما تقدم فى قوله واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين وفى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حزنه أمر صلى

والصبر صبران فصبر على ترك المحارم والمآثم وصبر على فعل الطاعات والقربات والثانى أكثر ثوابا لانه المقصود وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصايب والنوائب فذلك أيضا واجب كالاستغفار من المعايب كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الصبر فى بابين الصبر لله بما أحب وان ثقل على الانفس والابدان والصبر لله عما كره وان نازعت اليه الاهواء فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذى يسلم عليهم ان شاء الله وقال على بن الحسين زين العابدين اذا جمع الله الاولين والآخرين ينادى منادأين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب قال فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون الى أين يا بنى آدم فيقولون الى الجنة فيقولون وقبل الحساب قالوا نعم قالوا ومن أنتم قالوا نحن الصابرون قالوا وما كان صبركم قالوا صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله قالوا أنتم كما قلتم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين (قلت) ويشهد لهذا قوله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وقال سعيد بن جبير الصبر اعتراف العبد لله وضع بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه الا الصبر وقوله تعالى ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات بل أحياء يخبر تعالى ان الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون كما جاء فى صحيح مسلم ان أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى قناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال ماذا تبغون فقالوا يا ربنا وأى شئ نبغى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا انهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا

بالدين كالتمسك بالشئ الذى لا يمكن كسره ولا انقطاعه والجملة مستأنفة أو حالية (والله سميع عليم) يسمع قول من كفر بالطاغوت وأتى بالشهادتين والجملة اعتراض تذييلى حامل على الايمان رادع عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد (الله ولى الذين آمنوا) الولى فعيل بمعنى فاعل وهو الناصر (يخرجهم من الظلمات الى النور) تفسير للولاية أو حال من الضمير فى ولى وهذا يدل على أن المراد بقوله الذين آمنوا الذين أرادوا الايمان لان من قد وقع منه الايمان قد خرج من الظلمات الى النور الا ان يراد بالاخراج اخراجهم من الشبهة التى تعرض للمؤمنين فلا يحتاج الى تقدير الارادة قيل كل ما فى القرآن من الظلمات والنور فالمراد به الكفر والايمان غير الذى فى سورة الانعام فالمراد به الليل والنهار وافراد النور لوحدة الحق وجمع الظلمات لتعدد فنون الضلال (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) المراد بالنور ما جاء به أنبياء الله من الدعوة الى الدين فان ذلك نور للكفار أخرجهم أولياؤهم منه الى ظلمة الكفر أى قررهم أولياؤهم على ما هم عليه من الكفر بسبب صرفهم عن اجابة الداعى الى الله من الانبياء وقيل المراد بالذين كفروا هنا الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم يخرجهم أولياؤهم من الشياطين ورؤس الضلال من النور الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها الى ظلمات الكفر التى وقعوا فيها بسبب ذلك الاخراج وقيل ذكر هذا الاخراج مشاكلة للاول أو فيمن آمن بالنبى قبل بعثته من اليهود ثم كفر به فتلخص أن الجواب الاول بالتسليم والثانى بالمنع (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى الكفار والطاغوت أى هم ملابسوها وملازموها بسبب ما لهم من الجرائم ما كثون فيها أبدا (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه) فى هذه الآية استشهاد على ما تقدم ذكره من ان الكفرة أولياؤهم الطاغوت وهمزة الاستفهام لانكار النفى وتقرير المنفى أى ألم ينته علمك أو نظرك الى هذا الذى صدرت منه هذه المحاجة وألم تر كلمة يوقف بها المخاطب على تعجب منها ولفظها استفهام قال الفراء ألم تر بمعنى هل رأيت أى هل رأيت الذى حاج ابراهيم وهو النمرود بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح وقيل انه النمرود بن فالخ بن شالخ بن أرفخشد بن سام وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الارض وادعى الربوبية وكان ابن زنا (أن آتاه الله الملك) أى لان آتاه الله أو من أجل أن آتاه الله على معنى ان ايتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو فحاج لذلك أو على انه

نريد ان نرد نا الى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى لما يرون من ثواب الشهادة فيقول الرب جل جلاله انى كتبت انهم اليها لا يرجعون وفى الحديث الذى رواه الامام أحمد عن الامام الشافعى عن الامام مالك عن الزهرى عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله الى جسده يوم يبعثه ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضا وان كان الشهداء قد خصوا بالذكر فى القرآن تشريفا لهم وتكريما وتعظيما (ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس (٣٤٣) والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) أخبر تعالى انه يبتلى عباده أى يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع كما قال تعالى فأذاقها الله لباس الجوع والخوف فان الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ولهذا قال لباس الجوع والخوف وقال ههنا بشئ من الخوف والجوع أى بقليل من ذلك ونقص من الاموال أى ذهاب بعضها والانفس كموت الاصحاب والاقارب والاحباب والثمرات أى لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها قال بعض السلف فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه ولهذا قال تعالى وبشر الصابرين وقد حكى بعض المفسرين ان المراد من الخوف ههنا خوف الله وبالجوع صيام رمضان وبنقص الاموال الزكاة والانفس والامراض والثمرات الاولاد وفى هذا نظر والله اعلم ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أى تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا انهم ملك لله يتصرف فى عبيده بما يشاء وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فاحدث لهم ذلك اعترافهم بانهم عبيده وانهم اليه راجعون فى الدار الآخرة ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة أى ثناء من الله عليهم قال سعيد بن جبير أى أمنه من العذاب وأولئك هم المهتدون وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نعم العدلان

وضع المحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر كما يقال عادتنى لانى أحسنت اليك قال مجاهد ملك الارض أربعة مؤمنان سليمان وذو القرنين وكافران نمرود وبخت نصر واختلفوا فى وقت المحاجة فقيل لما كسر ابراهيم الاصنام وقيل بعد القائه فى النار وكان مدة ملكه أربعمائة سنة (اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت) أراد ابراهيم عليه السلام ان الله هو الذى يخلق الحياة والموت فى الاجساد وأراد الكافر انه يقدر على ان يعفو عن القتل فيكون ذلك احياءه وعلى ان يقتل فيكون ذلك اماتة فكان هذا جوابا احمق لا يصح نصبه فى مقابلة حجة ابراهيم لانه أراد غير ما أراده الكافر فلو قال له ربى الذى يخلق الحياة والموت فى الاجساد فهل تقدر على ذلك لبهت الذى كفر بادى بدء وفى أول وهلة ولكنه انتقل معه الى حجة أخرى أوضح منها تنبيسا لخناقه وارسالا لعنان المناظرة (قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) لكون هذه الحجة لا تجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للكافر ان يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة وتمويها وتلبيسا على العوام (فبهت الذى كفر) بهت الرجل وبهت وبهت اذا انقطع وسكت متحيرا وقال ابن عطية وقد تأول قوم فى قراءة بهت بالفتح انه بمعنى سب وقذف وان النمرود هو الذى سب حين انقطع ولم تكن له حيلة انتهى وقال سبحانه فبهت الذى كفر ولم يقل فبهت الذى حاج اشعارا بان تلك المحاجة كفر وقيل هذا الفعل من جملة الافعال التى جاءت على صورة المبنى للمفعول والمعنى فيها على البناء للفاعل والبهت الانقطاع والحيرة وهو مبهوت لا باهت ولا بهيت (والله لا يهدى القوم الظالمين) تذييل مقرر لمضمون الجملة التى قبله (أو كالذى مر على قرية) أى ألم تر اليه كيف هداه الله وأخرجه من ظلمة الاشتباه الى نور العيان والشهود واختلف فى ذلك المار فروى عن مجاهد انه كان كافرا شاكا فى البعث وهذا ضعيف جدا لقوله كم لبثت والله لا يخاطب الكافر بقوله ولنجعلك آية للناس وهذا لا يستعمل فى حق الكافر وقال ابن عباس وعبد الله بن سلام وسليمان وبريدة والضحاك وقتادة وعكرمة والسدى هو عزير بن شرخيا وقال ابن عبيد ووهب بن منبه هو ارميا بن حلقياء من سبط هرون وهو الخضر بعينه وعن رجل من أهل الشام انه حزقيل ومقصود القصة تعريف منكرى البعث قدرة الله على احياء خلقه بعد اماتتهم لا تعريف اسم ذلك المار قال وهب وعكرمة

ونعمت العلاوة اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة فهذان العدلان وأولئك هم المهتدون فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول الله انا لله وانا اليه راجعون عند المصائب أحاديث كثيرة فمن ذلك ما رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا يونس بن محمد حدثنا الليث يعني ابن سعد عن يزيد ابن عبد الله حدثنا أسامة بن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت أتاني أبو سلمة يوما من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا سررت به قال لا يصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها الا فعل ذلك به قالت أم سلمة فحفظت ذلك منه فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها ثم رجعت الى نفسي فقلت من أين لي خير من أبي سلمة فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أديغ اهابا لي فغسلت يدي من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني الى نفسي فلما فرغ من مقالته قلت يا رسول الله ما بي أن لا يكون بك الرغبة ولكني امرأة في غيرة شديدة فأخاف ان ترى مني شيأ يعذبني الله به وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال فقال أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك وأما ما ذكرت من العيال فانما عيالك عيالي قال فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أم سلمة بعد أبدلني الله بابي سلمة خيرا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستدلال

وفي صحيح مسلم عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول انا لله وانا اليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها الا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها قالت فلما توفي ابو سلمة قلت كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخلف الله لي خيرا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الامام أحمد حدثنا يزيد وعباد بن عباد قالا حدثنا هشام بن أبي هشام حدثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم

والربيع ان القرية هي بيت المقدس بعد تخريب بخت نصر لها وقيل المراد بالقرية أهلها وقيل هي القرية التي خرج أهلها من ديارهم وهم ألوف وقال الكلبي هي دير سابر آباد موضع بفارس وقال السدي سلماباد محلة أو قرية من نواحي جرجان أو همدان وقيل دير هرقل بين بصرة وعسكر مكرم على شط دجلة والاول هو الاظهر والاشهر (وهي خاوية على عروشها) أي ساقطة يعني سقط السقف ثم سقطت الحيطان عليه قاله السدي واختاره ابن جرير وقيل معناه خالية من الناس والبيوت قائمة وأصل الخوى الخلو يقال خوت الدار وخويت تخوى خواء ممدودا وخويا أقوت والخوى أيضا الجوع لخلو البطن عن الغذاء والظاهر القول الاول بدلالة قوله على عروشها من خوى البيت اذا سقط وخوت الارض اذا انهدمت قال ابن عباس خاوية أي خراب وقال قتادة خاوية أي ليس فيها أحد وقال الضحاك العروش السقوف (قال) أي ذلك المار (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) أي متى يحيي أو كيف يحيي وهو استبعاد لاحيائها وهي على تلك الحالة المشابهة لحالة الاموات المباينة لحالة الاحياء وتقديم المفعول لكون الاستبعاد ناشئا من جهته لا من جهة الفاعل وقيل قال ذلك استعظاما لقدرته تعالى قاله السيوطي وعبارة أبي السعود قال ذلك تلهفا عليها وتشوقا الى عمارتها مع اشتشعارا لليأس منها وعبارة البيضاوي قال ذلك اعترافا بالقصور عن معرفة طريق الاحياء وسبب توجهه على تلك القرية انه كان من أهلها من جملة من سباهم بخت نصر فلما خلص من السبي وجاء ورآها على تلك الحالة توجع وتلهف ولما قال الماء هذه المقالة مستبعدا لاحياء القرية المذكورة بالعمارة لها والسكون فيها ضرب الله له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه فقال (فأماته الله مائة عام) وحكى الطبري عن بعضهم انه قال كان هذا القول شكا في قدرة الله على الاحياء فلذلك ضرب له المثل في نفسه قال ابن عطية ليس يدخل شك في قدرة الله سبحانه على احياء قرية بجلب العمارة اليها وانما تصور الشك اذا كان سؤاله عن احياء موتاها والعام السنة أصله مصدر كالعوم سمي به هذا القدر من الزمان والعوم هو السباحة سميت السنة عاما لان الشمس تعوم في جميع بروجها (ثم بعثه) أي أحياه ليريه كيفية ذلك وايثار البعث على الاحياء للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على الباري تعالى كأنه بعثه من النوم وللايذان بانه عاد كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعد النظر

قال ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وان طال عهدها وقال عباد قدم عهدها فيحدث لذلك استرجاعا الا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب ورواه ابن ماجه في سننه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها وقد رواه اسمعيل بن علية ويزيد بن هرون عن هشام بن زياد عن أبيه كذا عن فاطمة عن أبيها وقال الامام أحمد أنا يحيى بن اسحق السيلحيني أنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال دفنت ابنا لي فاني لفي القبر اذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الخولاني فاخرجني وقال لي ألا أبشرك قلت بلى قال حدثني الضحاك بن عبد الرحمن (٣٤٥) بن عوزب عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله يا ملك الموت قبضت ولد عبدي قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده قال نعم قال فما قال قال حمدك واسترجع قال ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ثم رواه عن علي بن اسحق عن عبد الله بن المبارك فذكره وهكذا رواه الترمذي عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به وقال حسن غريب واسم أبي سنان عيسى بن سنان (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم) قال الامام أحمد حدثنا سليمان بن داود الهاشمي أنا ابراهيم بن سعد عن الزهري عن عروة عن عائشة قال قلت أرأيت قول الله تعالى ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما فقلت فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما فقالت عائشة بئسما قلت يا ابن أختي انها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ولكنها انما أنزلت أن الانصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله انا كنا نتحرج ان نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله عز وجل ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما قالت عائشة ثم قد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما فليس لاحد ان يدع الطواف بهما أخرجاه في الصحيحين وفي رواية عن الزهري انه قال لقد ثبت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فقال ان هذا العلم ما كنت سمعته ولقد سمعت رجالا من أهل العلم

والاستدلال قال علي فاول ما خلق الله عيناه فجعل ينظر الى عظامه ينضم بعضها الى بعض ثم كسيت لحما ثم نفخ فيه الروح قال علي فأتى مدينته وقد ترك جاريه اسكافا شابا فجاء وهو شيخ كبير (قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم) اختلف في فاعل قال فقيل هو الله عز وجل وقيل ناداه بذلك ملك من السماء قيل هو جبريل وقيل غيره وقيل انه نبي من الانبياء وقيل رجل من المؤمنين من قومه شاهده عند ان أماته الله وعمر الى حين بعثه والاول أولى لقوله فيما بعد وانظر الى العظام كيف ننشزها وانما قال يوما أو بعض يوم بناء على ما عنده وفي ظنه فلا يكون كاذبا ومثله قول أصحاب الكهف قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم في قصة ذي اليدين لم تقصر ولم أنس وهذا مما يؤيد قول من قال ان الصدق ما طابق الاعتقاد والكذب ما خالفه وقيل ان الله أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار قبل أن تغيب الشمس فقال لبثت يوما وهو يرى ان الشمس قد غابت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال أو بعض يوم وقيل ان أو بمعنى بل التي للاضراب وهو قول ثابت وقيل هي للشك والاول أولى (قال بل لبثت مائة عام) هو استئناف أيضا كما سلف أي ما لبثت يوما أو بعض يوم بل لبثت مائة عام (فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه) الطعام هو التين الذي كان معه والشراب هو العصير والمعنى لم يتغير ولم ينتن فكان التين كأنه قد قطف من ساعته والعصير كأنه عصر من ساعته أمره الله ان ينظر الى هذا الاثر العظيم من آثار القدرة وهو عدم تغير طعامه وشرابه مع طول تلك المدة والتسنه مأخوذ من السنة أي لم تمر عليه السنون أي المائة سنة لبقائه على حاله وعدم تغيره مع طول الزمان مع ان شأنه التغير سريعا وأصله سنهة أو سنوة من سنهت النخلة وتسنهت اذا أتت عليها السنون ونخلة سنهاء أي تحمل سنة ولا تحمل أخرى وقيل هو من أسن الماء اذا تغير وكان يجب على هذا أن يقال يتأسن من قوله حمأ مسنون قاله أبو عمرو الشيباني وقال الزجاج ليس كذلك لان قوله مسنون ليس معناه متغير وانما معناه مصبوب على سنه الارض (وانظر الى حمارك) اختلف المفسرون في معناه فذهب الاكثر الى ان معناه انظر اليه كيف تفرقت أجزاؤه ونخرت عظامه وتقطعت أوصاله ثم أحياه الله وعاد كما كان لتشاهد كيفية الاحياء فالنظران مختلفان وقال الضحاك ووهب بن منبه انظر الى حمارك قائما في مربطه لم يصبه شئ بعد ان مضت عليه مائة عام

يقولون ان الناس الا من ذكرت عائشة كانوا يقولون ان طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية وقال آخرون من الانصار انما امرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى ان الصفا والمروة من شعائر الله قال أبو بكر بن عبد الرحمن فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء ورواه البخاري من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ما تقدم ثم قال البخاري حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان قال سألت أنسا عن الصفا والمروة قال كنا نرى انهما من أمر الجاهلية فلما جاء الاسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل ان (٣٤٦) الصفا والمروة من شعائر الله وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله وكانت بينهما آلهة فلما جاء الاسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطواف بينهما فنزلت هذه الآية وقال الشعبي كان اساف على الصفا وكانت نائلة على المروة وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الاسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية (قلت) ذكر محمد بن اسحق في كتاب السيرة ان اسافا ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس فلما طال عهدهما عبدا ثم حولا الى الصفا والمروة فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة

وحيث ينيخ الاشعرون ركابهم
لمفضى السيول من اساف ونائل

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل وفيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه بالبيت عاد الى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول ان الصفا والمروة من شعائر الله ثم قال أبدأ بما بدأ الله به وفي رواية النسائي ابدأ بما بدأ الله به وقال الامام أحمد حدثنا المواضع شريح حدثنا عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبي تجزاة قالت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به ازاره وهو يقول اسعوا فان الله كتب عليكم السعي ثم رواه الامام أحمد عن عبد الرزاق انا معمر عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة ان امرأة أخبرتها انها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة يقول كتب عليكم السعي فاسعوا وقد

ويؤيد القول الاول قوله تعالى وانظر الى العظام كيف ننشزها ويؤيد القول الثاني مناسبته لقوله فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانما ذكر سبحانه عدم تغير طعامه وشرابه بعد اخباره انه لبث مائة عام مع ان عدم تغير ذلك الطعام والشراب لا يصلح أن يكون دليلا على تلك المدة الطويلة بل على ما قاله من لبثه يوما أو بعض يوم لزيادة استعظام ذلك الذي أماته تلك المدة فانه اذا رأى طعامه وشرابه لم يتغير مع كونه قد ظن انه لم يلبث الا يوما أو بعض يوم زادت الحيرة وقويت عليه الشبهة فاذا نظر الى حماره عظاما نخرة تقرر لديه ان ذلك صنع من تأتى قدرته بما لا تحيط به العقول فان الطعام والشراب سريع التغير وقد بقي هذه المدة الطويلة غير متغير والحمار يعيش المدة الطويلة وقد صار كذلك فتبارك الله أحسن الخالقين (ولنجعلك آية للناس) وعبرة ودلالة على البعث بعد الموت قاله الفراء وقال الاعمش كونه آية هو انه جاء شابا على حاله يوم مات فوجد الابناء والحفدة شيوخا (وانظر الى العظام كيف ننشزها) قرأ الكوفيون بالزاي والباقون بالراء وقد أخرج الحاكم وصححه عن زيد بن ثابت ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ كيف ننشزها فمعنى القراءة بالزاي نرفعها ومنه النشز وهو المرتفع من الارض أي نرفع بعضها الى بعض وأما معنى القراءة بالراء فواضحة من أنشر الله الموتى أي أحياهم (ثم نكسوها لحما) أي نسترها به كما يستر الجسد باللباس واستعار اللباس لذلك ولعل عدم التعرض لنفخ الروح لما ان الحكمة لا تقتضي بيانه (فلما تبين له) ما تقدم ذكره من الآيات التي أراه الله سبحانه وأمره بالنظر اليها والتفكر فيها التي استغربها قال ابن جرير لما اتضح له عيانا ما كان مستنكرا في قدرة الله عنده قبل عيانه من احياء القرية وقال الزمخشري ما أشكل عليه يعني من أمر الاحياء والاول أولى لان قوة الكلام تدل عليه بخلاف الثاني (قال أعلم) أي علم مشاهدة بعد العلم اليقيني الحاصل بالفطرة والادلة العقلية قال أبو علي الفارسي معناه أعلم هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته (أن الله على كل شئ قدير) لا يستعصي عليه شئ من الاشياء ويدخل تحته الاماتة والاحياء دخولا أوليا (واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى) اذ ظرف منصوب بفعل محذوف أي اذكر وقت قول ابراهيم وانما كان الامر بالذكر موجها الى الوقت دون ما وقع فيه مع كونه المقصود لقصد المبالغة لان طلب وقت الشئ يستلزم طلبه بالاولى وهكذا يقال في سائر

استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى ان السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك وقيل انه واجب وليس بركن فان تركه عمدا أو سهوا جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة وقيل بل مستحب واليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين وروي عن أنس وابن عمر وابن عباس وحكي عن مالك في العتبية قال القرطبي واحتجوا بقوله تعالى فمن تطوع خيرا والقول الاول أرجح لانه عليه السلام طاف بينهما وقال لتأخذوا عني مناسككم فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج الا ما خرج بدليل (٣٤٧) والله أعلم وقد تقدم قوله عليه السلام

المواضع الواردة في الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف وقوله رب أثره على غيره لما فيه من الاستعطاف الموجب لقبول ما يرد بعده من الدعاء قال الاخفش لم يرد رؤية القلب وانما أراد رؤية العين وكذا قال غيره ولا يصح أن يراد به الرؤية القلبية هنا لان مقصود ابراهيم أن يشاهد الاحياء لتحصل له الطمأنينة (قال أولم تؤمن) أي ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الاحياء حتى تسألني اراءته (قال بلى) علمت وآمنت بانك قادر على ذلك (ولكن) سألت (ليطمئن قلبي) باجتماع دليل العيان الى دلائل الايمان وقد ذهب الجمهور الى أن ابراهيم لم يكن شاكا في احياء الموتى قط وانما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس الخبر كالمعاينة وحكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك لانه شك في قدرة الله واستدلوا بما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيحين وغيرهما من قوله نحن أحق بالشك من ابراهيم وبما روى عن ابن عباس انه قال ما في القرآن عندي آية أرجى منها أخرجه عنه الحاكم وصححه ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له قال ابن عطية وهو عندي مردود يعني قول هذه الطائفة ثم قال وأما قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحن أحق بالشك من ابراهيم فمعناه انه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فابراهيم أحرى أن لا يشك فالحديث مبني على نفي الشك عن ابراهيم وأما قول ابن عباس هي ارجى آية فمن حيث ان فيها الادلال على الله وسؤال الاحياء في الدنيا وليست مظنة ذلك ويجوز أن نقول هي أرجى آية لقوله أولم تؤمن أي ان الايمان كاف لا يحتاج معه الى تقرير وبحث قال فالشك يبعد على من ثبت قدمه بالايمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة والانبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة اجماعا واذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر الالفاظ للآية لم تعط شكا وذلك ان الاستفهام بكيف انما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤل نحو قولك كيف علم زيد وكيف نسج الثوب ونحو هذا ومتى قلت كيف ثوبك وكيف زيد فانما السؤال عن حال من أحواله وقد يكون كيف خبرا عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك كيف شئت فكن ونحو قول البخاري كيف كان بدء الوحي وهي في هذه الآية استفهام عن هيئة الاحياء والاحياء متقرر ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن انكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم انها

اسعوا فان الله كتب عليكم السعي فقد بين الله تعالى ان الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله أي مما شرع الله تعالى لابراهيم في مناسك الحج وقد تقدم في حديث ابن عباس ان أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما ابراهيم عليه السلام هنالك وليس عندهما أحد من الناس فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفد ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله عز وجل فلم تزل تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة الى الله عز وجل حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التي طعامها طعام طعم وشفاء سقم فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته الى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه وانه يلتجئ الى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب وأن يهديه الى الصراط المستقيم وأن يثبته عليه الى مماته وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي الى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بها جر عليها السلام وقوله فمن تطوع خيرا قيل زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك وقيل يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع وقيل المراد تطوع خيرا في سائر العبادات حكى ذلك الرازي وعزى الثالث الى الحسن البصري والله أعلم وقوله فان الله شاكر عليم أي يثيب على القليل بالكثير عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدا ثوابه ولا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك

يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده فى كتبه التى أنزلها على رسله قال أبو العالية نزلت فى أهل الكتاب كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ثم أخبر انهم يلعنهم كل شئ على صنيعهم ذلك فكما ان العالم يستغفر له كل شئ حتى (٣٤٨) الحوت فى الماء والطير فى الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وقد ورد فى الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضا عن أبى هريرة وغيره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار والذى فى الصحيح عن أبى هريرة انه قال لولا آية فى كتاب الله ما حدثت أحدا شيأ ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عمار ابن محمد عن ليث بن أبى سليم عن المنهال بن عمرو عن زاذان بن عمر عن البراء بن عازب قال كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى جنازة فقال ان الكافر يضرب ضربة بين عينيه يسمعها كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله تعالى أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون يعنى دواب الارض ورواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح عن عامر بن محمد به وقال عطاء بن أبى رباح كل دابة والجن والانس وقال مجاهد اذا أجدبت الارض قال البهائم هذا من اجل عصاة بنى آدم لعن الله عصاة بنى آدم وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ويلعنهم اللاعنون يعنى تلعنهم الملائكة والمؤمنون وقد جاء فى الحديث ان العالم العنق يستغفر له كل شئ حتى الحيتان فى البحر وجاء فى هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضا وهم كل فصيح وأعجمى اما بلسان المقال أو الحال أن لو كان له عقل ويوم القيامة والله أعلم * ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب اليه فقال الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا أى رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم وفى هذا دلالة على ان الداعية الى كفر او بدعة اذا تاب الى الله تاب الله عليه وقد ورد ان الامم السابقة لم تكن

لا تصح فيلزم من ذلك ان الشئ فى نفسه لا يصح مثال ذلك أن يقول مدع أنا أرفع هذا الجبل فيقول المكذب له أرنى كيف ترفعه فهذه طريقة مجاز فى العبارة ومعناها تسليم جدل كأنه يقول أفرض انك ترفعه فلما كان فى عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازى خلص الله له ذلك وحمله على ان بين له الحقيقة فقال له أولم تؤمن قال بلى فكمل الامر وتخلص من كل شئ ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة قال القرطبى هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ولا يجوز على الانبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فانه كفر والانبياء متفقون على الايمان بالبعث وقد أخبر الله سبحانه ان أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وقال اللعين لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين واذا لم تكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم وانما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وايصال الاعصاب والجلود بعد تمزيقها فأراد أن يرقى من علم اليقين الى عين اليقين فقوله رب أرنى كيف طلب مشاهدة الكيفية قال الماوردى وليست الالف فى قوله أولم تؤمن ألف استفهام وانما هى ألف ايجاب وتقرير والواو واو الحال وتؤمن معناه ايمانا مطلقا دخل فيه فصل احياء الموتى والطمأنينة اعتدال وسكون وقال ابن جرير ليوقن قلبى (قال فخذ أربعة من الطير) أى ان أردت ذلك فخذ والطير اسم جمع لطائر كركب لراكب وهو مذهب أبى الحسن أو جمع نحو تاجر وتجر أو مصدر قاله أبو البقاء وخص الطير بذلك قيل لانه أقرب أنواع الحيوان الى الانسان شبها فى تدوير الرأس والمشى على الرجلين وقيل ان الطير همته الطيران فى السماء والخليل كانت همته العلو وقيل غير ذلك من الاسباب الموجبة لتخصيص الطير وكل هذه لا تسمن ولا تغنى من جوع وليست الاخواطر افهام وبوادر أذهان لا ينبغى أن تجعل وجوها لكلام الله وعللا لما يرد فى كلامه وهكذا قيل ما وجه تخصيص هذا العدد فان الطمأنينة تحصل باحياء واحد فقيل ان الخليل انما سأل واحدا على عدد العبودية فأعطى أربعا على قدر الربوبية وقيل الطيور الاربعة اشارة الى الاركان الاربعة التى يتركب منها أركان الحيوان ونحو ذلك من الهذيان قال ابن عباس والطير الذى أخذ وزوال وديك وطاوس وروى نحوه عن قتادة والحسن وعنه قال الغرنوق والطاوس والديك والحمامة وقال مجاهد الغراب بدل الغرنوق (فصرهن اليك) أى اضممهن اليك وأملهن واجمعهن يقال رجل أصور اذا كان مائل العنق

التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه ثم اخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال الى مماته بان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها أى فى اللعنة التابعة لهم الى يوم القيامة ثم المصاحبة لهم فى نار جهنم التى لا يخفف عنهم العذاب فيها أى لا ينقص عما هم فيه ولا هم ينظرون أى لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك قال أبو العالية وقتادة ان الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون *(فصل)* لا خلاف فى جواز لعن الكفار وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده من الائمة

العنق و يقال صار الشئ يصوره و يصيره أمامه أو قطعه فاللغتان لفظ مشترك بين هذين المعنيين والقراءتان تحتملهما معا وقرئ فصرهن بضم الصاد وكسرها وقيل معناه قطعهن وبه قال ابن عباس وبالنبطية مزقهن وشققهن وعنه قال أوثقهن (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ) فيه الامر بالتجزئة لان جعل كل جزء على جبل يستلزم تقدم التجزئة قال الزجاج المعنى ثم اجعل على كل جبل من كل واحد منهن جزأ والجزء النصيب واختلفوا فى عدد الاجزاء والجبال وليس فى ذكر ذلك كثير فائدة (ثم ادعهن) أى قل لهن تعالين باذن الله تعالى (يأتينك) اتيانا سريعا (سعيا) أى مشيا سريعا والمراد بالسعى الاسراع فى الطيران أو المشى وقيل السعى هو الحركة الشديدة وقيل العدو وقيل الطيران وفيه انه لا يقال للطائر اذا طار سعى فالحكمة فى السعى دون الطيران ان ذلك أبعد من الشبهة لانها لو طارت لتوهم متوهم انها غير تلك الطيور أو ان أرجلها غير سليمة فنفى الله تعالى هذه الشبهة (واعلم أن الله عزيز حكيم) فى صنعه أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال وضعهن على سبعة أجبل وأخذ الرؤس بيده فجعل ينظر الى القطرة تلقى القطرة والريشة تلقى الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤس فجئن الى رؤسهن فدخلن فيها وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل وحسن الادب فى السؤال حيث أراه ما سأل فى الحال وأرى العزيز ما أراه بعد أماتته مائة عام (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قيل المراد به الانفاق فى الجهاد وقيل فى جميع وجوه البر فيدخل فيه الواجب والتطوع (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) المراد بالسبع السنابل هى التى تخرج فى ساق واحد يتشعب منه سبع شعب فى كل شعبة سنبلة والحبة اسم لكل ما يزدرعه ابن آدم وقيل المراد بالسنابل هنا سنابل الذرة والدخن فهو الذى يكون منهما فى السنبلة هذا العدد وقال القرطبى ان سنبل الدخن يجئ فى السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر على ما شاهدنا قال ابن عطية وقد يوجد فى سنبل القمح ما فيه مائة حبة وأما فى سائر الحبوب فأكثر ولكن المثال وقع بهذا القدر وقال الطبرى ان قوله فى كل سنبلة مائة حبة معناه ان وجد ذلك والافعلى أن يفرضه والذى ينبغى الاعتماد عليه فى هذه الآية وأمثالها ان المقصود بها مجرد تمثيل زيادة الاجر وكثرة الثواب دون وجود ذلك (والله يضاعف لمن يشاء) يحتمل أن يكون المراد يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء أو يضاعف هذا العدد فيزيد عليه اضعافه لمن يشاء لا الكل

يلعنون الكفرة فى القنوت وغيره فاما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء الى انه لا يلعن لانا لا ندرى بما يختم الله له واستدل بعضهم بالآية ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وقالت طائفة أخرى بل يجوز لعن الكافر المعين اختاره الفقيه أبو بكر بن العربى المالكى ولكنه احتج بحديث فيه ضعف واستدل غيره بقوله عليه السلام فى قصة الذى كان يؤتى به سكران فيجلده فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله فدل على ان من لا يحب الله ورسوله يلعن والله أعلم (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) يخبر تعالى عن تفرده بالالهية وأنه لا شريك له ولا عديل له بل هو الله الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لا اله الا هو وانه الرحمن الرحيم وقد تقدم تفسير هذين الاسمين فى أول الفاتحة وفى الحديث عن شهر ابن حوشب عن أسماء بنت يزيد ابن السكن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اسم الله الاعظم فى هاتين الآيتين والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم والم الله لا اله الا هو الحى القيوم ثم ذكر الدليل على تفرده بالالهية بتفرده بخلق السموات والارض ومافيهما وما بين ذلك مما ذرأ و برأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) يقول تعالى ان فى خلق السموات والارض تلك فى ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت

ودوران فلكها وهذه الارض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع واختلاف
الليل والنهار هذا يجئ ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل
سابق النهار وكل فى فلك يسبحون وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى يولج الليل فى
النهار ويولج النهار فى الليل اى يزيد من هذا فى هذا ومن هذا فى هذا والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس أى فى تسخير البحر
بحمل السفن من جانب الى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الاقليم ونقل هذا الى هؤلاء وما عند

أولئك الى هؤلاء وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها كما قال تعالى وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون الى قوله ومما لا يعلمون وبث فيها من كل دابة أى على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شئ من ذلك كما قال تعالى وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين وتصريف الرياح أى فتارة تأتى بالرحمة وتارة تأتى بالعذاب وتارة تأتى مبشرة بين يدى السحاب وتارة تسوقه وتارة تجمعه وتارة تفرقه وتارة تصرفه ثم تارة تأتى من الجنوب وهى الشامية وتارة تأتى من ناحية اليمن وتارة صبا وهى الشرقية التى تصدم وجه الكعبة وتارة دبورا وهى غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة وقد صنف الناس فى الرياح والمطر والانواء كتبا كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها وبسط ذلك يطول ههنا والله أعلم

* والسحاب المسخر بين السماء والارض أى سائر بين السماء والارض مسخر الى ما يشاء الله من الاراضى نزلت

والاماكن كما يصرفه تعالى لآيات لقوم يعقلون أى فى هذه الاشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى كما قال تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا أبو سعيد الدشتكى حدثنى أبى عن أبيه عن أشعث بن اسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن

الناس وهذا هو الراجح لما سيأتى وقد ورد القرآن بأن الحسنة بعشر أمثالها واقتضت هذه الآية ان نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف فيبنى العام على الخاص وهذا بناء على ان سبيل الله هو الجهاد فقط وأما اذا كان المراد به وجوه الخير فيخص هذا التضعيف الى سبعمائة بثواب النفقات ويكون العشرة الامثال فيما عدا ذلك (والله واسع عليم) أخرج مسلم وأحمد والنسائى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود ان رجلا تصدق بناقة مخطومة فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة وأخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب له بسبعمائة ضعف وأخرجه البخارى فى تاريخه من حديث أنس وأخرجه أحمد من حديث أبى عبيدة وزاد من أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضا فالحسنة بعشر أمثالها وأخرج ابن ماجه وابن أبى حاتم من حديث عمران بن حصين وعلى وأبى الدرداء وأبى هريرة وأبى امامة وابن عمرو جابر كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم ثم تلا هذه الآية والله يضاعف لمن يشاء وأخرج أحمد من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشرة امثالها الى سبعمائة ضعف الى ما شاء الله يقول الله الا الصوم فانه لى وانا أجزى به وأخرجه أيضا مسلم وأخرج الطبرانى من حديث معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل الله من ذكر الله فان له بكل كلمة سبعين ألف حسنة منها عشرة اضعاف وقد وردت الاحاديث الصحيحة فى أجر من جهز غازيا وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن سهل بن معاذ عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الصلاة والصوم والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله سبعمائة ضعف وأخرج أحمد والطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى سننه عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) هذه الجملة متضمنة لبيان كيفية الانفاق الذى تقدم أى هو انفاق الذين ينفقون قيل

عباس قال اتت قريش محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد انا نريد أن تدعو ربك ان يجعل لنا الصفا ذهبا فنشترى به الخيل والسلاح فنؤمن بك ونقاتل معك قال أوثقوا لى ان دعوت ربى فجعل لكم الصفا ذهبا لتؤمنن بى فاوثقوا له فدعا ربه فأتاه جبريل فقال ان ربك قد أعطاهم الصفا ذهبا على انهم ان لم يؤمنوا بك عذبهم عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين قال محمد صلى الله عليه وسلم رب لا بل دعنى وقومى فلا دعهم يوما بيوم فأنزل الله تعالى هذه الاية ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس الآية (٣٥١) و رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر عن جعفر بن أبى المغيرة به و زاد فى آخره وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو اعظم من الصفا وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن عطاء قال نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم فقال كفار قريش بمكة كيف يسع الناس اله واحد فأنزل الله تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس الى قوله لآيات لقوم يعقلون فبهذا يعلمون انه اله واحد وانه اله كل شئ وخالق كل شئ وقال وكيع بن الجراح حدثنا سفيان عن أبيه عن أبى الضحى قال لما نزلت والهكم اله واحد الى آخر الآية قال المشركون ان كان هكذا فليأتنا بآية فأنزل الله عز وجل ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الى قوله يعقلون و رواه آدم بن أبى اياس عن أبى جعفر هو الرازى عن سعيد بن مسروق والسفيان عن أبى الضحى به (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) يذكر تعالى حال المشركين به فى الدنيا ومالهم فى الدار الآخرة حيث جعلوا له أندادا أى امثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه وهو الله لا اله الا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال قلت يا رسول الله

نزلت فى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف أما عثمان فجهز المسلمين فى غزوة تبوك بألف بعير باقتابها واحلاسها وأما عبد الرحمن فجاء بأربعة آلاف درهم صدقة الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) المن هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها وقيل المن التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه والمن من الكبائر كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره انه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم والاذى السب والتطاول والتشكى قال فى الكشاف ومعنى ثم اظهار التفاوت بين الانفاق وترك المن والاذى وان تركهما خير من نفس الانفاق كما جعل الاستقامة على الايمان خيرا من الدخول فيه بقوله ثم استقاموا انتهى فثم على هذا للتراخى فى الرتبة وقيل هو على بابه للتراخى فى الزمان نظرا للغالب من ان وقوع المن والاذى يكون بعد الانفاق بمدة وقدم المن على الاذى لكثرة وقوعه ووسط كلمة لا للدلالة على شمول النفى لاتباع كل واحد منهما (لهم أجرهم) يعنى ثوابهم فى الآخرة (عند ربهم) فيه تأكيد وتشريف (ولا خوف عليهم) يعنى يوم القيامة (ولا هم يحزنون) يعنى على ما خلفوا من الدنيا وظاهر الآية نفى الخوف عنهم فى الدارين كما تفيده النكرة الواقعة فى سياق النفى من الشمول وكذلك نفى الحزن يفيد دوام انتفائه عنهم وقد وردت الاحاديث الصحيحة فى النهى عن المن والاذى وفى فضل الانفاق فى سبيل الله وعلى الاقارب وفى وجوه الخير ولا حاجة الى التطويل بذكرها فهى معروفة فى مواطنها قال عبد الرحمن بن يزيد كان أبى يقول اذا أعطيت رجلا شيأ ورأيت ان سلامك يثقل عليه فلا تسلم عليه والعرب تمدح بترك المن وكتم النعمة وتذم على اظهارها والمن بها والاذى ما يصل الى الانسان من ضرر بقول أو فعل والمراد هنا ان يشكو منهم بسبب ما أعطاهم (قول معروف) قيل الخبر محذوف أى أولى وأمثل ذكره النحاس قال ويجوز أن يكون خبرا عن مبتدا محذوف أى الذى أمر تم به قول معروف أى كلام حسن ورد جميل على الفقير السائل وقيل عدة حسنة توعده بها وقيل دعاء صالح تدعو له بظاهر الغيب (ومغفرة) له فى الحاجة مبتدا أيضا وخبره (خير من صدقة) وجاز الابتداء بالنكرتين لان الاولى تخصصت بالوصف والثانية بالعطف والمعنى ان القول المعروف من المسؤل للسائل وهو التأنيس والترجية بما عند الله والرد الجميل خير من الصدقة التى (يتبعها أذى) وقد ثبت فى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وآله

أى الذنب اعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك وقوله والذين آمنوا اشد حبا لله ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيأ بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجؤن فى جميع أمورهم اليه ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لانفسهم بذلك فقال ولو يرى الذى ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا قال بعضهم تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ ان القوة لله جميعا أى ان الحكم له وحده لا شريك له وان جميع الاشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه وان الله شديد العذاب كما قال فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد يقول (٣٥٢) لو يعلمون ما يعاينونه هنالك وما يحل بهم من الامر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال ثم أخبر عن كفرهم باوثانهم وتبرى المتبوعين من التابعين فقال اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون انهم يعبدونهم فى الدار الدنيا فتقول الملائكة تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون ويقولون سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون والجن أيضا تتبرأ منهم وينتصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال الخليل لقومه انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين وقال تعالى ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون وقال تعالى وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم

وسلم الكلمة الطيبة صدقة وان من المعروف ان تلقى أخاك بوجه طلق والمراد بالمغفرة الستر للخلة وسوء حالة المحتاج والعفو عن السائل اذا صدر منه من الالحاح ما يكدر صدر المسؤل وقيل ان المراد ان العفو من جهة السائل لانه اذا رده رد جميلا عذره وقيل المراد فعل يؤدى الى المغفرة خير من صدقة أى غفران الله خير من صدقتكم وهذه الجملة مستأنفة مقررة لترك اتباع المن والاذى للصدقة قال الضحاك قول معروف رد جميل تقول يرحمك الله ويرزقك الله ولا تنهره ولا تغلظ له القول وعن عمرو بن دينار قال بلغنا ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال ما من صدقة أحب الى الله من قول الحق ألم تسمع قول الله قول معروف الآية أخرجه ابن حاتم (والله غنى) عن صدقة العباد لا يحوج الفقراء الى تحمل مؤنة المن والاذى ويرزقهم من جهة أخرى (حليم) بتأخير العقوبة عن المان والمؤذى لا يعاجلهم بها لانهم لا يستحقونها بسببهما والجملة تذييل لما قبله مشتملة على الوعد والوعيد مقررة لاعتبار الخيرية بالنسبة الى السائل قطعا (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم) يعنى أجورها والابطال للصدقات اذهاب أثرها وافساد منفعتها أى لا تبطلوها (بالمن والاذى) أو بأحدهما يعنى على السائل الفقير وقال ابن عباس بالمن على الله والاذى لصاحبها قال بعضهم ذهب أجره فلا أجر له ولا وزر عليه وقال بعضهم له أجر الصدقة ولكن ذهبت مضاعفته وعليه الوزر بالمن قال الكرخى وهذا أوجه وقال بعضهم لا أجر له فى نفقته وعليه وزر فيما من على الفقير (كالذى) أى كابطال الذى (ينفق ماله رئاء الناس) أى لاجل الرياء أو مراءيا لا يقصد بذلك وجه الله وثواب الآخرة بل يفعل ذلك رياء للناس وسمعة واستجلابا لثنائهم عليه ومدحهم له قيل والمراد به المنافق بدليل قوله (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) قال ابن عباس لا يدخل الجنة منان وذلك فى كتاب الله يعنى هذه الآية (فمثله) أى مثل الذى ينفق رئاء الناس أو المان المعطى وقد عدل من خطاب الى غيبة ومن جمع الى افراد (كمثل صفوان) الصفوان الحجر الكبير الاملس الصلب وفيه لغتان أشهرهما سكون الفاء والثانية فتحها وبها قرأ ابن المسيب والزهرى وهى شاذة وقال الاخفش صفوان جمع صفوانة وقال الكسائى صفوان واحد وجمعه صفى واصفى وأنكره المبرد وقال النحاس يجوز أن يكون جمعا وأن يكون واحدا وهو أولى لقوله (عليه تراب) أى استقر على الصفوان (فأصابه) أى الصفوان أو التراب (وابل) أى مطر والوابل المطر

وما أنتم بمعجزين في الأرض كفرت بما أشركتمونى من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم وقوله ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب أى عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحبل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا قال عطاء عن ابن عباس وتقطعت بهم الاسباب قال المودة وكذا قال مجاهد فى رواية ابن أبى نجيح وقوله وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا أى لو أن لنا عودة الى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم فلا نلتفت اليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة وهم كاذبون فى هذا بل لو ردوا العاد والمانهوا عنه وانهم لكاذبون كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك (٣٥٣) ولهذا قال كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم أى تذهب وتضمحل كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف الآية وقال تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء الآية ولهذا قال تعالى وما هم بخارجين من النار (يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) لما بين تعالى انه لا اله الا هو وانه المستقل بالخلق شرع يبين انه الرزاق لجميع خلقه فذكر فى مقام الامتنان انه أباح لهم أن يأكلوا مما فى الارض فى حال كونه حلالا من الله طيبا أى مستطابا فى نفسه غير ضار للابدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهى طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زينة

المطر الشديد العظيم القطر والمطر أوله رش ثم طش ثم طل ثم نضح ثم هطل ثم وبل يقال وبلت السماء وبلا ووبولا اشتد مطرها وكان الاصل وبل مطر السماء فحذف للعلم به ولهذا يقال للمطر وابل مثل الله سبحانه هذا المنافق بصفوان عليه تراب يظنه الظمآن أرضا منبتة طيبة فاذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب (فتركه) أى الصفوان يعنى بقى (صلدا) أى أجرد نقيا من التراب الذى كان عليه وأملس ليس عليه شئ من الغبار أصلا وكذلك حال هذا المرائى يوم القيامة فان نفقته لا تنفع قال ابن عباس صلدا أى يابسا جاسيا لا ينبت شيأ (لا يقدرون على شئ مما كسبوا) أى على ثواب شئ مما عملوا فى الدنيا مستأنفة كأنه قيل ماذا يكون حالهم فقيل لا يقدرون الخ (والله لا يهدى القوم الكافرين) يعنى الذى سبق فى علمه انهم يموتون على الكفر وفيه تعريض بان المن والاذى والرياء من خصال الكفار وعن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال انما أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء يقال لهم يوم تجازى العباد باعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم خيرا رواه البغوى بسنده وعن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى انا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله) ابتغى معناه طلب ومرضاة مصدر رضى يرضى (وتثبيتا) معناه يثبتون (من أنفسهم) ببذل أموالهم على الايمان وسائر العبادات رياضة لها وتدريبا وتمرينا أو يكون التثبيت بمعنى التصديق أى تصديقا للاسلام ناشئا من جهة أنفسهم وقد اختلف السلف فى معنى هذا الحرف فقال الحسن ومجاهد معناه انهم يثبتون أن يضعوا صدقاتهم وقال بعضهم معناه تصديقا ويقينا روى ذلك عن ابن عباس وقيل معناه احتسابا من أنفسهم قاله قتادة وقيل معناه ان أنفسهم لها بصائر فهى تثبتهم على الانفاق فى طاعة الله تثبيتا قاله الشعبى والسدى وابن زيد وأبو صالح وهذا أرجح مما قبله يقال ثبت فلانا فى هذا الامر أثبته تثبيتا أى صححت عزمه (كمثل جنة بربوة) الجنة البستان وهى أرض تنبت فيها الاشجار حتى تغطيها مأخوذة من لفظ الجن والجنين لاستتارها وقال أبو السعود الجنة تطلق على الاشجار الملتفة المتكاثفة وعلى الارض المشتملة عليها والاول أولى لاجل قوله

(٤٥ - فتح البيان ل) لهم فى جاهليتهم كما فى حديث عياض بن حماد الذى فى صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى ان كل مال منحته عبادى فهو لهم حلال وفيه وانى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن عيسى بن شيبة المصرى حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطى حدثنا أبو عبد الله الجوزجانى رفيق ابراهيم بن أدهم حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا فقام سعد بن أبى وقاص

فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة والذي نفس محمد بيده ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به وقوله انه لكم عدو مبين تنفير عنه وتحذير منه كما قال ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو احزبه ليكونوا من أصحاب السعير وقال تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا وقال قتادة والسدي في قوله ولا تتبعوا خطوات الشيطان كل معصية لله فهي من خطوات (٣٥٤) الشيطان وقال عكرمة هي نزغات الشيطان وقال مجاهد خطؤه أو قال خطاياه وقال أبو مجلز هي النذور في المعاصي وقال الشعبي نذر رجل أن ينحر ابنه فأفتاه مسروق بذبح كبش وقال هذا من خطوات الشيطان وقال أبو الضحى عن مسروق أتى عبد الله ابن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود ناولوا صاحبكم فقال لا أريده فقال أصائم أنت قال لا قال فما شأنك قال حرمت أن آكل ضرعا أبدا فقال ابن مسعود هذا من خطوات الشيطان فاطعم وكفر عن يمينك رواه ابن أبي حاتم وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا حسان بن عبد الله المصري عن سليمان التيمي عن أبي رافع قال غضبت يوما على امرأتي فقالت هي يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر ان لم تطلق امرأتك فأتيت عبد الله بن عمر فقال انما هذه من خطوات الشيطان وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة في المدينة وأتيت عاصما وابن عمر فقالا مثل ذلك وقال عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم عن شريك عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس قال ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان وكفارته كفارة يمين وقوله انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون أي انما يأمركم عدوكم الشيطان بالافعال السيئة وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم فيدخل في هذا كل كافر ومبتدع أيضا (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيأ ولا يهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) يقول تعالى واذا قيل لهؤلاء الكفرة

بربوة والربوة بالحركات الثلاث المكان المرتفع ارتفاعا يسيرا وانما خص الربوة لان نباتها يكون أحسن من غيره مع كونه لا يصطلمه البرد في الغالب لجودته وكرمه ولطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له قال الطبري وهي أرض الحزن التي تستكثر العرب من ذكرها واعترضه ابن عطية فقال ان رياض الحزن منسوبة الى نجد لانها خير من رياض تهامة ونبات نجد أعطر ونسيمه أبرد وأرق ونجد يقال لها حزن وليست هذه المذكورة هنا من ذلك ولفظ الربوة مأخوذ من ربا يربو اذا زاد وقال الخليل الربوة أرض مرتفعة طيبة وقيل هي الارض المستوية الجيدة الطيبة اذا أصابها المطر انتفخت وربت وكثر ريعها وحملت أشجارها (أصابها وابل) قال الخليل الوابل المطر الشديد يقال وبلت السماء تبل والارض موبولة قال الاخفش ومنه قوله تعالى أخذا وبيلا أي شديدا وضرب وبيل وعذاب وبيل قال بعضهم

ما روضة من رياض الحزن معشبة * خضراء جاد عليها وابل هطل

أراد بالحزن ما غلظ وارتفع من الارض (فآتت أكلها) بضم الهمزة الثمرة التي تؤكل كقوله تعالى تؤتي أكلها كل حين واضافته الى الجنة اضافة اختصاص كسرج الفرس وباب الدار (ضعفين) أي مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل فالمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثال (فان لم يصبها وابل فطل) أي فان الطل يكفيها وهو الطش أي المطر الضعيف الخفيف المستدق القطر قال المبرد وغيره تقديره فطل يكفيها وقال الزجاج تقديره فالذي يصيبها طل والمراد ان الطل ينوب مناب الوابل في اخراج الثمرة ضعفين وقال قوم الطل الندى وفي الصحاح الطل أضعف المطر والجمع أطلال قال الماوردي وزرع الطل أضعف من زرع المطر والمعنى ان نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وان كانت متفاوتة ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير والقليل فكما ان كل واحد من المطرين يضعف أكلها فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد ان يطلب بها وجه الله زاكية زائدة في أجورهم (والله بما تعملون) أي عملا ظاهرا وقلبيا (بصير) لا يخفى عليه من شيء وفي هذا ترغيب لهم بالاخلاص مع ترهيب من الرياء ونحوه فهو وعد ووعيد (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) الود الحب للشيء مع تمنيه والهمزة الداخلة

من المشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا في جواب ذلك بل نتبع ما ألفينا أي وجدنا عليه آباءنا أي من عبادة الاصنام والانداد قال الله تعالى منكرا عليهم أولو كان آباؤهم أي الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم لا يعقلون شيأ ولا يهتدون أي ليس لهم فهم ولا هداية وروى ابن اسحق عن محمد بن ابي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس انها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام فقالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله هذه الآية ثم ضرب لهم تعالى مثلا كما قال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء فقال ومثل الذين كفروا أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل اذا نعق بها راعيها أي دعاها الى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل انما تسمع صوته فقط هكذا روى عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو هذا وقيل انما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الاصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيأ اختاره ابن جرير والاول أولى لان الاصنام لا تسمع شيأ ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها وقوله صم بكم عمي أي صم عن سماع الحق بكم لا يتفوهون به عمي عن رؤية طريقه ومسلكه فهم لا يعقلون أي لا يعقلون شيأ ولا يفهمونه كما قال تعالى والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون

الداخلة على الفعل لانكار الوقوع والجنة تطلق على الشجر الملتف وعلى الارض التي فيها الشجر والاول أولى هنا لقوله (تجري من تحتها الانهار) بارجاع الضمير الى الشجر من دون حاجة الى مضاف محذوف وأما على الوجه الثاني فلا بد من تقديره أي من تحت أشجارها وهكذا قوله الآتي فاحترقت لا يحتاج الى تقدير مضاف على الوجه الاول وأما على الثاني فيحتاج الى تقديره أي فاحترقت أشجارها وخص النخيل والاعناب بالذكر مع قوله (له فيها من كل الثمرات) لكونهما أكرم الشجر وأشرف الفواكه جامعين لفنون المنافع لما فيهما من الغذاء والتفكه وهذه الجمل صفات للجنة والنخيل اسم جمع واحده نخلة أو جمع نخل الذي هو اسم جنس والاعناب جمع عنب الذي هو اسم جنس واحده عنبة (وأصابه الكبر) الواو للحال حملا على المعنى بتقدير قد وقيل غير ذلك وهذا أرجح وكبر السن هو مظنة شدة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطي الاسباب والمعنى كثرت جهات حاجاته ولم يكن له كسب غيرها (وله ذرية ضعفاء) حال من الضمير في اصابه أي والحال ان له أولادا صغارا عجزت عن الحركة بسبب الضعف والصغر فان من جمع بين كبر السن وضعف الذرية كان تحسره على تلك الجنة في غاية الشدة (فأصابها اعصار) الاعصار الريح الشديدة المرتفعة التي تهب من الارض الى السماء كالعمود وهي التي يقال لها الزوبعة قاله الزجاج قال الجوهري الزوبعة رئيس من رؤساء الجن ومنه سمي الاعصار زوبعة وأم زوبعة وأبا زوبعة يقال فيه شيطان مارد وهي ريح تثير الغبار وترتفع الى السماء كأنه عمود وقيل هي ريح تثير سحابا ذات رعد وبرق وقال ابن عباس ريح فيها سموم شديدة سميت بذلك لانها تلتف كما يلتف الثوب المعصور وقيل لانها تعصر السحاب وتجمع على أعاصير والريح مؤنثة على الاكثر وقد تذكر على معنى الهواء وقال ابن الانباري وكذا سائر أسمائها الا الاعصار فانه مذكر (فيه نار فاحترقت) عطف على قوله فأصابها وهذه الآية تمثيل لمن يعمل خيرا ويضم ما يحبطه فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته اليه لا يسمن ولا يغني من جوع بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو متصف بتلك الصفة وقال ابن عباس ضرب الله مثلا لعمل رجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله كلها (كذلك) اي كما بين ماذكر من أمر النفقة المقبولة وغيرها (يبين الله لكم الآيات) قال ابن عباس

انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم) يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالاكل من طيبات ما رزقهم تعالى وان يشكروه تعالى على ذلك ان كانوا عبيده والاكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما ان الاكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا الفضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون

عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك ورواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث فضيل ابن مرزوق ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم الى الاكل من طيبه ذكر انه لم يحرم عليهم من ذلك الا الميتة وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى أحل لكم صيد البحر (٣٥٦) وطعامه على ما سيأتي ان شاء الله وحديث العنبر في الصحيح وفي المسند والموطا والسنن قوله عليه السلام في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث ابن عمر مرفوعا أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال وسيأتي تقرير ذلك ان شاء الله في سورة المائدة *(مسئلة)* ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره لانه جزء منها وقال مالك في رواية هو طاهر الا أنه ينجس بالمجاورة وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم انها نجسة وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس فقال القرطبي في التفسير ههنا يخالط اللبن منها يسير ويعفى عن قليل النجاسة اذا خالط الكثير من المائع وقد روى ابن ماجه من حديث سيف بن هرون عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان رضي الله عنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن والفراء فقال الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكي أم مات حتف انفه ويدخل شحمه في حكم لحمه اما تغليبا يأتي أو ان اللحم يشمل ذلك أو بطريق القياس على رأي وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الانصاب والانداد والازلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية يتحرون له وذكر القرطبي عن ابن عطية انه نقل عن الحسن البصري انه سئل عن امرأة عملت عرسا للعبها فنحرت فيه جزورا فقال لا تؤكل لانها ذبحت لصنم وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها انها سئلت عما يذبحه العجم لاعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم ثم اباح تعالى

يعني في زوال الدنيا واقبال الآخرة (لعلكم تتفكرون) أي تعتبرون (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) أي من جيد ما كسبتم وخياره كذا قال الجمهور وقال جماعة ان معنى الطيبات هنا الحلال ولا مانع من اعتبار الامرين جميعا لان جيد الكسب ومختاره انما يطلق على الحلال عند أهل الشرع وان أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالا كان أو حراما فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية قال علي بن أبي طالب ما كسبتم من الذهب والفضة وقال مجاهد من التجارة وقيل المواشي قيل وفيه دليل على اباحة الكسب وفي الحديث عن المقدام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده أخرجه البخاري واختلف في المراد بالانفاق فقيل الزكاة المفروضة لان الامر للوجوب وقيل صدقة التطوع وقيل الفرض والنفل جميعا (ومما) أي من طيبات ما (أخرجنا لكم من الارض) وحذف لدلالة ما قبله عليه وهي النباتات والمعادن والركاز وقال علي يعني من الحب والثمر وكل شئ عليه زكاة وقال مجاهد من الثمار وظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل ما خرج من الارض لكن الجمهور خصوا هذا العموم وخصه الشافعي بما يزرعه الآدميون ويقتات اختيارا وقد بلغ نصابا وبثمر النخل وثمر العنب وأبقاه أبو حنيفة على عمومه فاوجبها في كل ما يقصد من نبات الارض كالفواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار وأوجب في ذلك العشر قليلا كان أو كثيرا والاول أولى وتفصيل ذلك في كتب الفروع (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) أي لا تقصدوا المال الردئ وفي الآية الامر بانفاق الطيب والنهي عن انفاق الخبيث وقد ذهب جماعة من السلف الى ان الآية في الصدقة المفروضة وذهب آخرون الى انها تعم صدقة الفرض والتطوع وهو الظاهر وسيأتي من الادلة ما يؤيد هذا وتقديم الظرف يفيد التخصيص أي لا تخصوا الخبيث بالانفاق أي لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الانفاق به قاصرين له عليه أخرج الترمذي وصححه وابن ماجه وغيرهما عن البراء بن عازب قال نزلت فينا معشر الانصار كنا أصحاب نخل وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم اذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل وكان ناس ممن لا يرغب في الخير

تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج اليها عند فقد غيرها من الاطعمة فقال فمن اضطر غير باغ ولا عاد اى فى غير بغى ولا عدوان وهو مجاوزة الحد فلا اثم عليه أى فى أكل ذلك ان الله غفور رحيم وقال مجاهد فمن اضطر غير باغ ولا عاد قاطعا للسبيل أو مفارقا للائمة أو خارجا فى معصية الله فله الرخصة ومن خرج باغيا أو عاديا أو فى معصية الله فلا رخصة له وان اضطر اليه وكذا روى عن سعيد بن جبير وقال سعيد فى رواية عنه ومقاتل بن حيان غير باغ يعنى غير مستحله وقال السدى غير باغ يبتغى فيه شهوته وقال آدم بن أبى اياس حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الخراسانى عن أبيه (٣٥٧) قال لا يشوى من الميتة ليشتهيه ولا يطبخه ولا يأكل الا العلقة ويحمل معه ما يبلغه الحلال فاذا بلغه ألقاه وهو قوله ولا عاد ويقول لا يعدو به الحلال وعن ابن عباس لا يشبع منها وفسره السدى بالعدوان وعن ابن عباس غير باغ ولا عاد قال غير باغ فى الميتة ولا عاد فى أكله وقال قتادة فمن اضطر غير باغ ولا عاد قال غير باغ فى الميتة أى فى أكله ان يتعدى حلالا الى حرام وهو يجد عنه مندوحة وحكى القرطبى عن مجاهد فى قوله فمن اضطر أى أكره على ذلك بغير اختياره *(مسئلة)* اذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى فانه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف كذا قال ثم قال واذا أكله والحالة هذه هل يضمن أم لا فيه قولان هما روايتان عن مالك ثم أورد من سنن ابن ماجه من حديث شعبة عن أبى اياس جعفر ابن أبى وحشية سمعت عباد بن شرحبيل العنزى قال أصابتنا عاما مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلت منه فى كسائى فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال للرجل ما أطعمته اذ كان جائعا ولا ساعيا ولا علمته اذ كان جاهلا فأمره فرد اليه ثوبه وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق اسناد صحيح قوى جيد وله شواهد كثيرة من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الثمر المعلق فقال من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ خبنة فلا شئ عليه الحديث وقال مقاتل بن حيان فى قوله فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم فيما أكل من اضطرار وبلغنا والله أعلم انه لا يزاد على ثلاث لقم وقال سعيد بن جبير غفور لما أكل من الحرام

يأتى بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه فأنزل الله هذه الآية وفى الباب أحاديث وعن على قال نزلت هذه الآية فى الزكاة المفروضة وعن ابن عباس قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشترون الطعام الرخيص ويتصدقون فأنزل الله هذه الآية (ولستم بآخذيه) أى والحال انكم لا تأخذونه فى معاملاتكم فى وقت من الاوقات هكذا بين معناه الجمهور وقيل معناه ولستم بآخذيه لو وجدتموه فى السوق يباع (الا أن) أى بان (تغمضوا فيه) هو من أغمض الرجل فى أمر كذا اذا تساهل ورضى ببعض حقه وتجاوز وغض بصره عنه وقرئ بفتح التاء وكسر الميم مخففا وقرئ بضم التاء وكسر الميم مشددة والمعنى على الثانية الا أن تهضموا اسوءها من البائع منكم وعلى الثالثة الا ان تأخذوا بنقصان قال ابن عطية وقراءة الجمهور وهى الاولى تخرج على التجاوز أو على تغميض العين لان أغمض بمنزلة غمض أو على ان الا بمعنى حتى أى حتى تأتوا غامضا من التأويل والنظر فى أخذ ذلك والاغماض يطلق على كل من التساهل فى الشئ واطباق جفن العين واذا عرفت هذا عرفت ان لا حاجة لدعوى المجاز والكناية التى قالها بعضهم والمعنى لستم بآخذيه فى حال من الاحوال الا فى حال الاغماض (واعلموا أن الله غنى) عن صدقاتكم لم يأمركم بالتصدق (١) لعوز واحتياج اليها بل لنفعكم بها واحتياجكم لثوابها فينبغى لكم أن تبحروا فيها الطيب (حميد) محمود فى أفعاله على كل حال من التعذيب والاثابة (الشيطان يعدكم الفقر) قد تقدم معنى الشيطان واشتقاقه ويعدكم معناه يخوفكم بالفقر لئلا تنفقوا فهذه الآية متصلة بما قبلها وقرئ الفقر بضم الفاء وهى لغة قال الجوهرى والفقر لغة فى الفقر مثل الضعف والضعف (ويأمركم بالفحشاء) أى الخصلة الفحشاء وهى المعاصى والانفاق فيها والبخل عن الانفاق فى الطاعات قال فى الكشاف والفاحش عند العرب البخيل انتهى ولكن العرب وان أطلقته على البخيل فذلك لا ينافى اطلاقهم على غيره من المعاصى وقد وقع كثيرا فى كلامهم والمعنى يحسن لكم البخل ومنع الزكاة والصدقة قال الكلبى كل فحشاء فى القرآن فالمراد به الزنا الا هذا الموضع (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) بسبب الانفاق كقوله ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله وما انفقتم من شئ فهو يخلفه والوعد فى كلام العرب اذا أطلق فهو فى الخير واذا قيد فقد يقيد تارة بالخير وتارة بالشر ومنه قوله تعالى

(١) العوز بفتحتين درويش شدن ونايافت شدن اه صراح

رحيم اذ أحل له الحرام فى الاضطرار وقال وكيع أخبرنا الاعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار وهذا يقتضى ان أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراسى رفيق الغزالى فى الاشتغال وهذا هو الصحيح عندنا كالافطار للمريض ونحو ذلك (ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد) يقول تعالى ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتبهم التى بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا لعنهم الله ان أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم فكتموا ذلك ابقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والايمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فان الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه وصاروا عونا له على قتالهم وباؤا بغضب على غضب وذمهم الله فى كتابه فى غير موضع فمن ذلك هذه الآية الكريمة ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا وهو عرض الحياة الدنيا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار أى انما يأكلون ما يأكلونه فى مقابلة كتمان الحق نارا تأجج فى بطونهم يوم القيامة كما قال تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا وفى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب والفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم وقوله ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم وذلك لانه تعالى غضبان عليهم لانهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب فلا ينظر اليهم ولا يزكيهم أى يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذابا أليما وقد ذكر ابن أبى

النار وعدها الله الذين كفروا ومنه أيضا ما فى هذه الآية من تقييد وعد الشيطان بالفقر وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة والفضل والمغفرة الستر على عباده فى الدنيا والآخرة لذنوبهم وكفارتها والفضل ان يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا فيوسع لهم فى أرزاقهم وينعم عليهم فى الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجل وأجل (والله واسع) أى غنى قادر على اغنائكم واخلاف ما تنفقونه (عليم) بانفاقكم لا تخفى عليه خافية عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ما من يوم يصبح فيه العباد الا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر أعط ممسكا تلفا أخرجه الشيخان وفى الباب أحاديث (يؤتى الحكمة من يشاء) الحكمة هى العلم وقيل الفهم وقيل الاصابة فى القول ولا مانع من الحمل على الجميع شمولا أو بدلا وقيل انها النبوة وقيل الخشية وقيل العقل وقيل الورع وقيل المعرفة بالقرآن وقيل الفقه فى الدين وقيل التفكر فى أمر الله وقيل طاعة الله والعمل بها وهذه الاقوال كلها قريب بعضها من بعض لان الحكمة مصدر من الاحكام وهو الاتقان فى عمل أو قول وكل ما ذكر هو نوع من الحكمة التى هى الجنس فكتاب الله تعالى حكمة وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حكمه وأصل الحكمة ما يمنع من السفه وهو كل قبيح وعن ابن عباس قال الحكمة المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وامثاله وعنه قال انها القرآن يعنى تفسيره وعنه انها الفقه فى القرآن وعن أبى الدرداء انها قراءة القرآن والتفكر فيه وعن أبى العالية هى الكتاب والفهم به وبه قال النخعى وعن مجاهد هى الكتاب يؤتى اصابته من يشاء وعنه قال هى الاصابة فى القول وعن أبى العالية ومطر الوراق قال هى الخشية (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) قرئ ومن يؤت الحكمة على البناء للفاعل وقراءة الجمهور على البناء للمفعول أى من أعطاه الله الحكمة أى العلم النافع المؤدى الى العمل الصالح فقد أعطاه خيرا عظيما قدره جليلا خطره لمصيره الى السعادة الابدية والتنكير للتعظيم (وما يذكر الا أولوا الالباب) أى الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه والالباب العقول واحدها لب وقد تقدم الكلام فيه وفيه من الترغيب فى المحافظة على الاحكام الواردة فى شأن الانفاق ما لا يخفى والجملة اما حال واما اعتراض تذييلى (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه) ما شرطية ويجوز ان تكون موصولة

حاتم وابن مردويه ههنا حديث الاعمش عن ابى حازم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر ثم قال تعالى مخبرا عنهم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى أى اعتاضوا عن الهدى وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسل وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الانبياء وأتباعه وتصديقه استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم والعذاب بالمغفرة اى اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة وقوله تعالى (٣٥٩) فما أصبرهم على النار يخبر تعالى انهم فى عذاب شديد عظيم هائل يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك من شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والاغلال عياذا بالله من ذلك وقيل معنى قوله فما أصبرهم على النار أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم الى النار وقوله تعالى ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق أى انما استحقوا هذا العذاب الشديد لان الله تعالى أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الانبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وابطال الباطل وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا فكتابهم يأمرهم باظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه وهذا الرسول الخاتم يدعوهم الى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته فاستهزؤا بآيات الله المنزلة على رسله فلهذا استحقوا العذاب والنكال ولهذا قال ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبيد بن هشام الحلبى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شقى عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبى ذر انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الايمان فتلا عليه ليس البر أن تولوا وجوهكم الى آخر الآية قال ثم سأله أيضا فتلاها

موصولة والعائد محذوف أى الذى تنفقتموه وهذا بيان لحكم كلى عام يشمل كل صدقة مقبولة وغير مقبولة وكل نذر مقبول وغير مقبول وفيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول والوعيد لمن جاء بعكس ذلك ووحد الضمير مع كونه مرجعه شيئين هما النفقة والنذر لان التقدير وما أنفقتم من نفقة فان الله يعلمها أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر قاله النحاس وقيل انما كان العطف فيه بكلمة أو كما فى قولك زيد أو عمرو فانه يقال أكرمته ولا يقال أكرمتهما والاولى أن يقال ان العطف بأو يجوز فيه الامران توحيد الضمير كما فى هذه الآية وفى قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وقوله ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا وتثنيته كما فى قوله تعالى ان يكن غنيا أو فقيرا فالله اولى بهما ومن الاول فى العطف بالواو قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها وقيل اذا وحد الضمير بعد ذكر شيئين أو أشياء فهو بتأويل المذكور اى فان الله يعلم المذكور وبه جزم ابن عطية ورجحه القرطبى وذكر معناه كثير من النحاة فى مؤلفاتهم (وما للظالمين) انفسهم بما وقعوا فيه من الاثم بمخالفة ما امر الله به من الانفاق فى وجوه الخير (من انصار) ينصرونهم ويمنعونهم من عقاب الله بما ظلموا به انفسهم والاولى الحمل على العموم من غير تخصيص بما يفيده السياق اى ما للظالمين بأى مظلمة كانت من أنصار وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى نذر الطاعة والمعصية فى الصحيح وغيره ما هو معروف كقوله صلى الله عليه وآله وسلم لا نذر فى معصية الله وقوله من نذر ان يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه وقوله النذر ما ابتغى به وجه الله وثبت عنه فى كفارة النذر ما هو معروف (ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) فى هذا نوع تفصيل لما اجمل فى الشرطية المتقدمة ولذا ترك العطف بينهما اى ان تظهروا الصدقات فنعم شيأ اظهارها وان تخفوها وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء فالاخفاء خير لكم وقد ذهب جمهور من المفسرين الى أن هذه الآية فى صدقة التطوع لا فى صدقة الفرض فلا فضيلة للاخفاء فيها بل قد قيل ان الاظهار فيها أفضل وقالت طائفة ان الاخفاء أفضل فى الفرض والتطوع عن ابن عباس قال جعل السر فى التطوع يفضل علانيتها سبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا وكذا جميع الفرائض والنوافل فى

عليه ثم سأله فقال اذا عملت حسنة أحبها قلبك واذا عملت سيئة ابغضها قلبك وهذا منقطع فان مجاهدا لم يدرك أبا ذر فانه مات قديما وقال المسعودي حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال جاء رجل الى أبي ذر فقال ما الايمان فقرأ عليه هذه الآية ليس البر ان تولوا وجوهكم حتى فرغ منها فقال الرجل ليس عن البر سألتك فقال أبو ذر جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عما سألتني عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشار بيده المؤمن اذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها واذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها رواه ابن مردويه وهذا أيضا منقطع والله أعلم وأما الكلام على تفسير هذه الآية فان الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه الى بيت المقدس ثم حولهم الى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك وهو أن المراد انما هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه واتباع ما شرع فهذا هو البر والتقوى والايمان الكامل وليس في لزوم التوجه الى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة ان لم يكن عن أمر الله وشرعه ولهذا قال ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الآية كما قال في الاضاحي والهدايا لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا فهذا حين تحول من مكة الى المدينة ونزلت الفرائض والحدود فأمر الله بالفرائض وعمل بها وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك وقال أبو العالية كانت اليهود تقبل قبل المغرب وكانت النصارى تقبل قبل المشرق فقال الله تعالى ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب يقول هذا كلام الايمان وحقيقته العمل وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله وقال مجاهد ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله عز وجل وقال الضحاك ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها وقال الثوري ولكن البر من آمن بالله الآية قال هذه أنواع البر كلها وصدق رحمه الله فان من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الاسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله وهو الايمان بالله وانه لا اله الا هو وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله والكتاب

الاشياء كلها وعنه في الآية قال كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها انتهت الصدقات اليها وعنه قال هذا منسوخ وقوله في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم قال منسوخ نسخ كل صدقة في القرآن الآية التي في سورة التوبة انما الصدقات للفقراء وقد ورد في فضل صدقة السر أحاديث صحيحة مرفوعة (ونكفر عنكم من سياتكم) من للتبعيض أي شيأ من سياتكم لان الصدقات لا تكفر جميع السيات كذا قدره أبو البقاء وحكى الطبري عن فرقة انها زائدة وذلك على رأي الاخفش قال ابن عطية وذلك منهم خطأ وقيل انها للسببية أي من أجل ذنوبكم وهذا ضعيف والسيات جمع سيئة ووزنها فيعلة وعينها واو قال ابن عباس جميع سياتكم (والله بما تعملون خبير) يعني من اظهار الصدقات واخفائها وفيه ترغيب في الاسرار (ليس عليك هداهم) أي ليس بواجب عليك ان تجعلهم مهتدين قابلين لما أمر وا به ونهوا عنه فالهدى مصدر مضاف للمفعول أو ليس عليك أن يهتدوا فيكون مضافا للفاعل (ولكن الله يهدي من يشاء) هداية توصله الى المطلوب وهذه الجملة معترضة وفيها الالتفات وعن ابن عباس قال كانوا يكرهون أن يرضخوا لانسابهم من المشركين فنزلت هذه الآية الى آخرها فرخص لهم وفي الباب آثار عن الصحابة والتابعين (وما تنفقوا من خير فلانفسكم) أي كل ما يصدق عليه اسم الخير كائنا ما كان ولو على كافر ولكن هذا في غير صدقة الفرض (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) استثناء من أعم العلل أي لا تنفقوا لغرض الا لهذا الغرض ثم بين ان النفقة المعتد بها المقبولة انما هي ما كان لابتغاء وجه الله سبحانه قال الزجاج هذا خاص للمؤمنين وقال بعضهم لو أنفقت على شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك ويرده حديث لا يأكل طعامك الا تقي وأجمع العلماء على انه لا يجوز صرف الزكاة الا الى المسلمين وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر الى أهل الذمة وخالفه سائر العلماء في ذلك (وما تنفقوا من خير يوف) أي يود (اليكم) أجره وثوابه على الوجه الذي تقدم ذكره من التضعيف قال عطاء الخراساني اذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله (وانتم لا تظلمون) أي لا تنقصون شيأ من ثواب أعمالكم (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) بالغزو والجهاد وفيه بيان مصرف الصدقات واختاره ابن الانباري قال ابن عباس هم أصحاب الصفة يعني فقراء المهاجرين كانوا اربعمائة

وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الانبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذى انتهى اليه كل خير واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم الى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين وقوله وآتى المال على حبه أى أخرجه وهو محب له راغب فيه نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا أفضل الصدقة ان تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة والثورى عن منصور عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآتى المال على حبه ان تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (قلت) وقد رواه وكيع عن الاعمش وسفيان عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود موقوفا وهو أصح والله أعلم وقال تعالى ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا وقال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وقوله ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة نمط آخر ارفع من هذا وهو انهم آثروا بما هم مضطرون اليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له وقوله ذوى القربى وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت فى الحديث الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوى الرحم ثنتان صدقة وصلة فهم أولى الناس بك وببرك واعطائك وقد أمر الله تعالى

أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر وكانوا يأوون الى صفة فى المسجد يتعلمون القرآن بالليل وهم الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد خاصة وعلى طاعة الله عامة قيل منعوا عن التكسب لما هم فيه من الضعف (لا يستطيعون ضربا فى الارض) للتكسب بالتجارة والزراعة ونحو ذلك بسبب ضعفهم قال مجاهد هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم أمروا بالصدقة عليهم وقال سعيد بن جبير هم قوم أصابتهم الجراحات فى سبيل الله فصاروا زمنى فجعل لهم فى أموال المسلمين حقا وقيل كل من يتصف بالفقر وما ذكر معه (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) ذكر سبحانه من صفة أولئك الفقراء ما يوجب الحنو عليهم والشفقة بهم وهو كونهم متعففين عن المسئلة واظهار المسكنة بحيث يظنهم الجاهل بهم ومن لم يختبر حالهم انهم أغنياء والتعفف تفعل من العفة وهو بناء مبالغة من عف عن الشئ اذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه وفى يحسبهم لغتان فتح السين وكسرها قال أبو على الفارسى والفتح أقيس لان العين من الماضى مكسور فبابها أن تأتى فى المضارع مفتوحة فالقراءة بالكسر على هذا حسنة وان كانت شاذة ومن لابتداء الغاية وقيل لبيان الجنس (تعرفهم) أى تعرف فقرهم (بسيماهم) أى برثاثة ثيابهم من الضر وصفرة ألوانهم من الجوع وضعف أبدانهم من الفقر وكل ما يشعر بالفقر والحاجة وقيل التواضع والخضوع والاول أولى والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح للمخاطبة والسيما مقصورة العلامة وقد تمد وهى مقلوبة لانها مشتقة من الوسم فهى من السمة أى العلامة (لا يسألون الناس الحافا) الالحاف الالحاح فى المسئلة وهو مشتق من اللحاف سمى بذلك لاشتماله على وجوه الطلب فى المسئلة كاشتمال اللحاف على التغطية والمعنى انهم لا يسألونهم البتة لا سؤال الحاح ولا سؤال غير الحاح وبه قال الطبرى والزجاج واليه ذهب جمهور المفسرين ووجهه ان التعفف صفة ثابتة لهم لا تفارقهم ومجرد السؤال ينافيها وقيل المراد أنهم اذا سألوا سألوا بتلطف ولا يلحفون فى سؤالهم وهذا وان كان هو الظاهر من توجه النفى الى القيدين المقيد لكن صفة التعفف تنافيه وأيضا كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لا يكون الا مع عدم السؤال البتة وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس المسكين الذى ترده التمرة

(٤٦ - فتح البيان ل) بالاحسان اليهم فى غير موضع من كتابه العزيز واليتامى هم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب وقد قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن على عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يتم بعد حلم والمساكين وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم فيعطون ما يسد به حاجتهم وخلتهم وفى الصحيحين عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه وابن السبيل وهو

المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله الى بلده وكذا الذى يريد سفرا فى طاعة فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وايابه ويدخل فى ذلك الضيف كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس انه قال ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسائلين وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الامام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا حدثنا سفيان عن مصعب ابن محمد عن يعلى بن أبى يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال عبد الرحمن حسين بن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للسائل حق وان جاء على فرس رواه أبو داود وفى الرقاب وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه فى كتابتهم وسياتى الكلام على كثير من هذه الاصناف فى آية الصدقات من براءة ان شاء الله تعالى وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا شريك عن أبى حمزة عن الشعبى حدثتنى فاطمة بنت قيس انها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أفى المال حق سوى الزكاة قالت فتلا على وآتى المال على حبه ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبى اياس ويحيى بن عبد الحميد كلاهما عن شريك عن أبى حمزة عن الشعبى عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المال حق سوى الزكاة ثم قرأ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب الى قوله وفى الرقاب وأخرجه ابن ماجه والترمذى وضعف أبا حمزة ميمونا الاعور وقد رواه سيار واسمعيل بن سالم عن الشعبى وقوله

والتمرتان واللقمة واللقمتان انما المسكين الذى يتعفف واقرؤا ان شئتم لا يسألون الناس الحافا وقد ورد فى تحريم المسئلة أحاديث كثيرة الامن ذى سلطان أو فى أمر لا يجد منه بدا (وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) أى يعلم مقادير الانفاق ويجازى عليه وفيه حث على الصدقة والانفاق فى الطاعة لا سيما على هؤلاء (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) يفيد زيادة رغبتهم فى الانفاق وشدة حرصهم عليه حتى انهم لا يتركون ذلك ليلا ولا نهارا ويفعلونه سرا وجهرا عند ان تنزل بهم حاجة المحتاجين وتظهر لهم فاقة المفتاقين فى جميع الازمنة على جميع الاحوال وعن ابن عباس بسند ضعيف قال نزلت فى على بن أبى طالب كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا ودرهما سرا ودرهما علانية وفى الآية اشارة الى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية لانه تعالى قدم نفقة الليل على نفقة النهار وقدم السر على العلانية وقيل نزلت فى الذين يربطون الخيل للجهاد فى سبيل الله لانهم يعلفونها فى هذه الاربعة الاحوال والاول أولى عن غريب المليكى مرفوعا قال نزلت هذه الآية فى أصحاب الخيل وقال أبو امامة الباهلى فيمن لا يربطها خيلاء ولا رياء ولا سمعة وعن ابن عباس قال هم الذين يعلفون الخيل فى سبيل الله وقال قتادة هؤلاء قوم أنفقوا فى سبيل الله الذى افترض عليهم فى غير سرف ولا املاق ولا تبذير ولا افساد وقال سعيد بن المسيب نزلت فى عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان فى نفقتهم فى جيش العسرة وكون ماذكر سببا لنزولها لا يقتضى خصوص الحكم به بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (فلهم أجرهم عند ربهم) الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وقيل هى للعطف (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى يوم القيامة أو فى الدارين (الذين يأكلون الربوا) الربا فى اللغة الزيادة مطلقا يقال ربا الشئ يربو اذا زاد وفى الشرع يطلق على شيئين على ربا الفضل وربا النسيئة حسب ما هو مفصل فى كتب الفروع وغالب ما كانت تفعله الجاهلية انه اذا حل أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه أتقضى أم تربى فاذا لم يقض زاد مقدارا فى المال الذى عليه وأخره الاجل الى حين وهذا حرام بالاتفاق وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة فى أوله وقد كتبوه فى المصحف بالواو وليس المراد بالذين يأكلون الربا اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله بل هو عام لكل من يعامل بالربا فيأخذه ويعطيه وانما خص

واقام الصلاة وآتى الزكاة أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها الاكل على الوجه الشرعى المرضى وقوله وآتى الزكاة يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الاخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها وقول موسى لفرعون هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى وقوله تعالى وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ويكون المذكور من اعطاء هذه الجهات والاصناف المذكورين انما هو التطوع والبر والصلة ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس ان

فى المال حقا سوى الزكاة والله اعلم وقوله والموفون بعهدهم اذا عاهدوا كقوله الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق وعكس هذه الصفة النفاق كما صح فى الحديث آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وفى الحديث الآخر اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وقوله والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أى فى حال الفقر وهو البأساء وفى حال المرض والاسقام وهو الضراء وحين البأس أى فى حال القتال والتقاء الاعداء قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمدانى ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم وانما نصب الصابرين على المدح والحث على الصبر فى هذه الاحوال لشدته وصعوبته والله أعلم وهو المستعان وعليه التكلان وقوله أولئك الذين صدقوا أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى ايمانهم لانهم حققوا الايمان القلبى بالاقوال والافعال فهؤلاء هم الذين صدقوا وأولئك هم المتقون لانهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب لعلكم تتقون) يقول تعالى كتب عليكم العدل فى القصاص أيها المؤمنون حركم بحركم وعبدكم بعبدكم وأنثاكم بأنثاكم ولا تجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم وسبب ذلك قريظة والنضير كانت بنو النضير قد غزت قريظة فى الجاهلية وقهروهم فكان اذا قتل النضرى القرظى لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر واذا قتل القرظى النضرى قتل وان فادوه فدوه بمائتى وسق من التمر ضعف دية القرظى فأمر الله بالعدل فى القصاص ولا تتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لاحكام الله فيهم كفرا وبغيا فقال تعالى كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى وذكر فى سبب نزولها ما رواه الامام أبو محمد بن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنى عبد الله بن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قول الله يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى يعنى اذا

الاكل لزيادة التشنيع على فاعله ولكونه هو الغرض الاهم فان آخذ الربا انما أخذه للاكل عن جابر قال لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه رواه مسلم (لا يقومون) أى يوم القيامة من قبورهم وبهذا فسره جمهور المفسرين قالوا انه يبعث كالمجنون عقوبة له وتعييبا عند أهل المحشر وقيل ان المراد تشبيه من يحرص فى تجارته فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون لان الحرص والطمع والرغبة فى الجمع قد استفزته حتى صار شبيها فى حركته بالمجنون كما يقال لمن يسرع فى مشيه ويضطرب فى حركاته انه قد جن (الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) أى يصرعه وأصل الخبط الضرب بغير استواء كخبط العشواء وهو المصروع والمس الجنون والممسوس المجنون وكذلك الاولق قال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا اذا استحله يوم القيامة وفى الآية دليل على فساد قول من قال ان الصرع لا يكون من جهة الجن وزعم انه من فعل الطبائع وقال ان الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الانسان وليس بصحيح وان الشيطان لا يسلك فى الانسان ولا يكون منه مس وقد استعاذ النبى صلى الله عليه وآله وسلم من أن يتخبطه الشيطان كما أخرجه النسائى وغيره وقد وردت أحاديث كثيرة فى تعظيم ذنب الربا منها حديث عبد الله بن مسعود عند الحاكم وصححه والبيهقى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال الربا ثلاثة وسبعون بابا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه وان أربى الربا عرض الرجل المسلم ووردهذا المعنى مع اختلاف العدد عن جماعة من الصحابة ووردعن جماعة منهم ان آخر آية انزلها على رسوله آية الربا (ذلك بأنهم قالوا) ذلك اشارة الى ماذكر من حالهم وعقوبتهم بسبب قولهم (انما البيع مثل الربوا) أى انهم جعلوا البيع والربا شيأ واحدا أى اعتقدوا مدلول هذا القول وفعلوا مقتضاه أى ذلك العقاب بسبب انهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لافضائهما الى الربح فاستحلوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين وانما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلا والبيع فرعا أى انما البيع بلا زيادة عند حلول الاجل كالبيع بزيادة عند حلوله فان العرب كانت لا تعرف ربا الا ذلك وهذا من عكس التشبيه مبالغة وهو أعلى مراتبه نحو قولهم القمر كوجه زيد والبحر ككفه اذ صار المشبه مشبها به فرد الله عليهم بقوله (وأحل الله البيع وحرم الربوا) أى ان الله تعالى

كان عمدا الحر بالحر وذلك ان حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الاسلام بقليل فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والاموال فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم والمرأة منا الرجل منهم فنزل فيهم الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى منها منسوخة نسختها النفس بالنفس وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله والانثى بالانثى وذلك انهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة فأنزل الله النفس بالنفس والعين بالعين فجعل الاحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم وكذلك روي عن أبي مالك انها منسوخة بقوله النفس بالنفس *(مسئلة)* ذهب أبو حنيفة الى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة واليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود وهو مروي عن علي وابن مسعود وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعي وقتادة والحكم قال البخاري وعلي بن المديني وابراهيم النخعي والثوري في رواية عنه ويقتل السيد بعبده لعموم حديث الحسن عن سمرة من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ومن خصاه خصيناه وخالفهم الجمهور فقالوا لا يقتل الحر بالعبد لان العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية وانما تجب فيه قيمته ولانه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق الاولى وذهب الجمهور الى أن المسلم لا يقتل بالكافر لما ثبت في البخاري عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقتل مسلم بكافر ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا وأما أبو حنيفة فذهب الى أنه يقتل به لعموم آية المائدة *(مسئلة)* قال الحسن وعطاء لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية وخالفهم الجمهور لآية المائدة ولقوله عليه السلام المسلمون تتكافأ دماؤهم وقال الليث اذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة *(مسئلة)* ومذهب الائمة الاربعة والجمهور ان الجماعة يقتلون بالواحد قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم وقال لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة وذلك كالاجماع وحكي عن الامام أحمد رواية ان الجماعة لا يقتلون بالواحد ولا يقتل بالنفس الا نفس واحدة

أحل البيع وحرم نوعا من أنواعه وهو البيع المشتمل على الربا الذي هو زيادة في المال لاجل تأخير الاجل والبيع مصدر باع يبيع أي دفع عوضا وأخذ معوضا وقد ذكر المفسرون في هذا المقام سبب تحريم الربا واختلاف اهل العلم في علتها وأحكامها ومسائل القرض وانما محلها كتب الفروع (فمن جاءه موعظة من ربه) أي من بلغته موعظة من الله من المواعظ التي تشتمل عليها الاوامر والنواهي ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا والموعظة والعظة والوعظ معناها واحد وهو الزجر والتخويف وتذكير العواقب والاتعاظ القبول والامتثال (فانتهى) عن أكله أي فامتثل النهي الذي جاءه وانزجر عن المنهي عنه واتعظ وقبل (فله ما سلف) أي ما تقدم منه من الربا لا يؤاخذ به لانه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا أو قبل ان تنزل آية تحريم الربا (وأمره) أي أمر الربا (الى الله) في تحريمه على عباده واستمرار ذلك التحريم وقيل الضمير عائد الى ما سلف أي أمره الى الله في العفو عنه واسقاط التبعة فيه وقيل الضمير يرجع الى المربي أي أمر من عامل بالربا الى الله في تثبيته على الانتهاء أو الرجوع الى المعصية وقيل ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه (ومن عاد) الى أكل الربا والمعاملة به (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) الاشارة الى من عاد وجمع أصحاب باعتبار معنى من وقيل ان معنى من عاد هو ان يعود الى القول بانما البيع مثل الربا وانه يكفر بذلك فيستحق الخلود وعلى التقدير الاول يكون الخلود مستعارا على معنى المبالغة كما تقول العرب ملك خالد اي طويل البقاء والمصير الى هذا التأويل واجب للاحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار قال سعيد ابن جبير خالدون يعني لا يموتون (يمحق الله الربوا) أي يذهب بركته في الدنيا وان كان كثيرا فلا يبقى بيد صاحبه وقيل يمحق بركته في الآخرة قال ابن عباس لا يقبل الله منه صدقة ولا حجا ولا جهادا ولا صلة (ويربي الصدقات) أي يزيدها ويثمرها يعني يزيد في المال الذي أخرجت صدقته وقيل يبارك في ثواب الصدقة ويضاعفه ويزيد في أجر المتصدق ولا مانع من حمل ذلك على الامرين جميعا وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعا من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله الا طيبا فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل وزاد في حديث عائشة وابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية واخرج

وحكاه ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير وعبد الملك بن مروان والزهري وابن سيرين وحبيب بن ابي ثابت ثم قال ابن المنذر وهذا اصح ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه واذا اختلف الصحابة فسبيله النظر وقوله فمن عفي له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان قال مجاهد عن ابن عباس فمن عفي له من أخيه شئ فالعفو أن يقبل الدية في العمد وكذا روى عن أبي العالية وأبي الشعثاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الضحاك عن ابن عباس فمن عفي له من أخيه شئ يعني فمن ترك له من أخيه شئ يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو فاتباع بالمعروف يقول فعلى الطالب اتباع بالمعروف اذا قبل الدية وأداء اليه باحسان يعني من القاتل من غير ضرر ولا معك يعني المدافعة وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرو عن مجاهد عن ابن عباس ويؤدي المطلوب باحسان وكذا قال سعيد ابن جبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان *(مسئلة)* قال مالك رحمه الله في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأحمد في أحد قوليه ليس لولي الدم أن يعفو على الدية الا برضا القاتل وقال الباقون له أن يعفو عليها وان لم يرض *(مسئلة)* وذهب طائفة من السلف الى أنه ليس للنساء عفو منهم الحسن وقتادة والزهري وابن شبرمة والليث والاوزاعي وخالفهم الباقون وقوله ذلك تخفيف من ربكم ورحمة يقول تعالى انما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفا من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتوما على الامم قبلكم من القتل أو العفو كما قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار أخبرني مجاهد عن ابن عباس قال كتب على بني اسرائيل القصاص في القتلى ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الامة كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفي له من أخيه شئ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ذلك تخفيف مما كتب على بني اسرائيل من كان قبلكم فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان وقد رواه غير واحد عن عمرو وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن دينار ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس بنحوه وقال قتادة ذلك تخفيف من ربكم رحم الله هذه الامة وأطعمهم

الطبراني عن أبي برزة الاسلمي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله حتى تكون مثل احد وهذه الاخبار تبين معنى الآية يقال أربا اذا زاده كما يؤخذ من القاموس ويستعمل لازما أيضا فيقال أربى الرجل اذا دخل في الربا (والله لا يحب) أي لا يرضى لان الحب مختص بالتوابين (كل كفار أثيم) فيه تشديد وتغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بالكفر ووصفه بأثيم للمبالغة وقيل لازالة الاشتراك اذ قد يقع على الزراع ويحتمل ان المراد بقوله كل كفار من صدرت منه خصلة توجب الكفر ووجه التصاقه بالمقام ان الذين قالوا انما البيع مثل الربا كفار وقد تقدم تفسير قوله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم) قيل المراد به الذين آمنوا بتحريم الربا والعموم أولى والايمان التصديق بالله ورسوله والعمل الصالح الذي أمرهم الله به ومن جملته ترك الربا والصلاة والزكاة هما المفروضتان (ولا خوف عليهم) من مكروه يأتي في المستقبل (ولا هم يحزنون) على أمر محبوب فاتهم في الماضي (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربوا) أي قوا أنفسكم من عقابه واتركوا البقايا التي بقيت لكم من الربا وظاهره انه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضا قال السدي نزلت في العباس بن عبد المطلب ورجل من بني المغيرة كانا شريكين في الجاهلية يسلفان الربا الى ناس من ثقيف في الاسلام ولهما أموال عظيمة في الربا فانزل الله هذه الآية (ان كنتم مؤمنين) قيل هو شرط مجازي على جهة المقابلة وقيل ان بمعنى اذ قال ابن عطية وهو مردود لا يعرف في اللغة والظاهر ان المعنى ان كنتم مؤمنين على الحقيقة فان ذلك يستلزم امتثال أوامر الله ونواهيه (فان لم تفعلوا) يعني ما أمرتم به من الاتقاء وترك ما بقي من الربا (فأذنوا) قرئ بكسر الذال والمد على وزن آمنوا ومعناه فأعلموا بها غيركم من آذن بالشئ اذا أعلم به وقيل هو من الاذن وهو الاستماع لانه من طرق العلم وقرئ بفتح الذال مع القصر ومعناه فاعلموا أنتم وأيقنوا (بحرب من الله ورسوله) قال ابن عباس يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب قال أهل المعاني الحرب هنا السيف وقيل المراد بهذه المحاربة المبالغة في الوعيد والتهديد دون نفس الحرب وقيل بل نفس الحرب وذلك ان كان آكل الربا ذا شوكة لا ينزع عنه فحق على الامام أن يحاربه والاول أولى وقد دلت هذه الآية على ان أكل الربا والعمل به من

الدية ولم يحل لاحد قبلهم فكان اهل التوراة انما هو القصاص وعفو ليس بينهم ارش وكان أهل الانجيل انما هو عفو امر وابه وجعل لهذه الامة القصاص والعفو والارش وهكذا روى عن سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس نحو هذا وقوله فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم يقول تعالى فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها فله عذاب من الله أليم موجع شديد وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان انه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية كما قال محمد بن اسحق عن الحرث بن فضيل عن سفيان بن أبي العوجاء عن أبي شريح الخزاعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أصيب بقتل أو خبل فانه يختار احدى ثلاث اما أن يقتص واما أن يعفو واما أن يأخذ الدية فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها رواه أحمد وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أعافي رجلا قتل بعد أخذ الدية يعني لا أقبل منه الدية بل أقتله وقوله ولكم في القصاص حياة يقول تعالى وفي شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها لانه اذا علم القاتل انه يقتل انكف عن صنيعه فكان في ذلك حياة للنفوس وفي الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ولكم في القصاص حياة قال أبو العالية جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فيمنعه مخافة أن يقتل وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي مالك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان يا أولي الالباب لعلكم تتقون يقول يا أولي العقول والافهام والنهى الافراد لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله وماتمه والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات (كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم فمن خاف من موص جنفا أو اثما فأصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم) اشتملت هذه الآية الكريمة على الامر بالوصية للوالدين والاقربين وقد كان ذلك واجبا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث فلما نزلت آية الفرائض

الكبائر ولا خلاف في ذلك وتنكير الحرب للتعظيم وزادها تعظيما نسبتها الى اسم الله الاعظم والى رسوله الذي هو أشرف خليقته (وان تبتم) من الربا (فلكم رؤس أموالكم) تأخذونها دون الزيادة (لا تظلمون) غرماءكم باخذ الزيادة مستأنفة أو حال من الكاف في لكم (ولا تظلمون) أنتم من قبلهم بالمطل والنقص والجملة حالية أو استئنافية وفي هذا دليل على ان أموالهم مع عدم التوبة حلال لمن أخذها من الائمة ونحوهم ممن ينوب عنهم (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) لما حكم سبحانه لاهل الربا برؤس أموالهم عند الواجدين للمال حكم في ذوي العسرة بالنظرة الى يسار والعسرة ضيق الحال من جهة عدم المال ومنه جيش العسرة والنظرة التأخير والميسرة مصدر بمعنى اليسر وارتفع ذو بكان التامة التي بمعنى وجد وهذا قول سيبويه وأبي علي الفارسي وغيرهما وفي مصحف أبي وان كان ذا عسرة على معنى وان كان المطلوب ذا عسرة وقرأ الاعمش وان كان معسرا قال النحاس ومكي والنقاش وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا وعلى من قرأ ذو فهي عامة في جميع من عليه دين واليه ذهب الجمهور وقد وردت احاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما في الترغيب لمن له دين على معسر أن ينظره وفي ثواب انظار المعسر والوضع عنه وتشديد أمر الدين والامر بقضائه وهي معروفة يطول ذكرها والميسرة في اللغة اليسار والسعة (وأن تصدقوا خير لكم) أي على معسري غرمائكم بالابراء من كل الدين أو بعضه وفيه الترغيب لهم بان يتصدقوا برؤس أموالهم على من أعسر وجعل ذلك خيرا من انظاره قاله السدي وابن زيد والضحاك قال الطبري وقال آخرون معنى الآية وان تصدقوا على الغني والفقير خير لكم والصحيح الاول وليس في الآية مدخل للغني (ان كنتم تعلمون) جوابه محذوف أي ان كنتم تعلمون انه خير لكم عملتم به وفي الحديث من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل الا ظله رواه مسلم (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) هو يوم القيامة وتنكيره للتهويل وذهب قوم الى ان هذا اليوم المذكور هو يوم الموت وذهب الجمهور الى انه يوم القيامة كما تقدم قرئ ترجعون بفتح التاء أي تصيرون فيه الى الله وقرئ بضمها وفتح الجيم أي تردون فيه اليه (ثم توفى كل نفس) من النفوس المكلفة (ما كسبت) أي جزاء ما كسبت يعني عملت من خير أو شر (وهم لا يظلمون) أي في ذلك اليوم والجملة حالية وجمع الضمير لانه أنسب بحال الجزاء كما ان

نسخت هذه وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتما من غير وصية ولا تحمل منة الموصى ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب وهو يقول ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث وقال الامام أحمد حدثنا اسمعيل بن ابراهيم بن علية عن يونس بن عبيد عن محمد بن سيرين قال جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين فقال نسخت هذه الآية وكذا رواه سعيد بن منصور عن هشيم عن يونس به ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرطهما وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله الوصية للوالدين والاقربين قال كان لا يرث مع الوالدين غيرهما الا وصية للاقربين فأنزل الله آية الميراث فبين ميراث الوالدين وأقر وصية الاقربين في ثلث مال الميت وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس في قوله الوصية للوالدين والاقربين نسختها هذه الآية للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ثم قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عمر وأبي موسى وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وعكرمة وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وطاوس وابراهيم النخعي وشريح والضحاك والزهري ان هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث والعجب من أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي رحمه الله كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الاصفهاني ان هذه الآية غير منسوخة وانما هي مفسرة بآية المواريث ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والاقربين من قوله يوصيكم الله في أولادكم قال وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء قال ومنهم من قال انها منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن لا يرث وهو مذهب ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد (قلت) وبه قال أيضا سعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخا في اصطلاحنا المتأخر لان آية المواريث انما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه

الافراد أنسب بحال الكسب وهذه الآية فيها الموعظة الحسنة لجميع الناس وفيه وعيد شديد وزجر عظيم عن ابن عباس قال آخر آية نزلت من القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية وكان بين نزولها وبين موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحد وثمانون يوما وعن سعيد بن جبير انه عاش النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزولها تسع ليال ثم مات وقيل سبعا وقيل ثلاث ساعات ومات صلى الله عليه وآله وسلم لليلتين خلتا من ربيع الاول في يوم الاثنين حين زاغت الشمس سنة احدى عشرة من الهجرة قال الخفاجي وكون هذه الآية آخر آية مذكور في كتب الحديث مصحح (يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين) هذا شروع في بيان حال المداينة الواقعة بين الناس بعد بيان حال الربا أي اذا داين بعضكم بعضا وعامله بذلك سواء كان معطيا أو آخذا وذكر الدين بعد ما يغني عنه من المداينة لقصد التأكيد مثل قوله ولا طائر يطير بجناحيه وقيل انه ذكر ليرجع اليه الضمير من قوله فاكتبوه ولو قال فاكتبوا الدين لم يكن فيه من الحسن ما في قوله اذا تداينتم بدين والدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدا والآخر في الذمة نسيئة فان العين عند العرب ما كان حاضرا والدين ما كان غائبا وقد بين الله سبحانه هذا المعنى بقوله (الى أجل مسمى) يعني الى مدة معلومة الاول والآخر مثل السنة والشهر والاجل يلزم في الثمن في البيع وفي السلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محل الاجل وقد استدل به على ان الاجل المجهول لا يجوز وخصوصا أجل السلم وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم الى أجل معلوم وقد قال بذلك الجمهور واشترطوا توقيته بالايام أو الاشهر أو السنين قالوا ولا يجوز الى الحصاد أو الدياس أو رجوع القافلة أو نحو ذلك وجوزه مالك قال ابن عباس لما حرم الربا أباح السلم (فاكتبوه) أي الدين باجله بيعا كان ذلك أو سلما أو قرضا لانه أدفع للنزاع وأقطع للخلاف قال ابن عباس نزلت يعني هذه الآية في السلم في كيل معلوم الى أجل معلوم وأخرج البخاري وغيره عنه قال أشهد ان السلف المضمون الى أجل مسمى ان الله قد أحله وقرأ هذه الآية (وليكتب بينكم كاتب) هو بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وظاهر الامر الوجوب وبه قال عطاء والشعبي وابن جريج والنخعي واختاره محمد بن جرير الطبري وأوجبوا على الكاتب ان يكتب اذا طلب منه ذلك ولم يوجد كاتب سواه

عموم آية الوصاية لان الاقربين أعم ممن يرث ومن لا يرث فرفع حكم من يرث بما عين له وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الاولى وهذا انما يأتي على قول بعضهم ان الوصاية في ابتداء الاسلام انما كانت ندبا حتى نسخت فأما من يقول انها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية فيتعين ان تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء فان وجوب الوصية للوالدين والاقربين الوارثين منسوخ بالاجماع بل منهي عنه للحديث المتقدم ان الله قد اعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث فآية الميراث حكم مستقل ووجوب من عند الله لاهل الفروض والعصبات رفع بها حكم هذه بالكلية بقي الاقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث استئناسا بآية الوصية وشمولها ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده قال ابن عمر ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك الا وعندي وصيتي والآيات والاحاديث بالامر ببر الاقارب والاحسان اليهم كثيرة جدا وقال عبيد بن حميد في مسنده اخبرنا عبد الله عن مبارك بن حسان عن نافع قال قال عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يا ابن آدم ثنتان لم يكن لك واحدة منهما جعلت لك نصيبا في مالك حين أخذت بكظمك لاطهرك به وأزكيك وصلاة عبادي عليك بعد انقضاء اجلك وقوله ان ترك خيرا اي مالا قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وابو العالية وعطية العوفي والضحاك والسدي والربيع بن انس ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم ثم منهم من قال الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة ومنهم من قال انما يوصي يقوم اذا ترك مالا جليلا ثم اختلفوا في مقداره فقال ابن ابي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى اخبرنا سفيان عن هشام بن عروة عن ابيه قال قيل لعلي رضي الله عنه ان رجلا من قريش قدمات وترك ثلثمائة دينار أو اربعمائة ولم يوص قال ليس بشيء انما قال الله ان ترك خيرا وقال ايضا وحدثنا هرون بن اسحق الهمداني حدثنا عبدة يعني ابن سليمان عن هشام بن عروة عن ابيه ان عليا دخل على رجل من قومه يعوده فقال له أوص فقال له علي انما قال الله ان ترك خيرا الوصية انما تركت شيأ يسيرا فاتركه لولدك

وقيل الامر للندب والاستحباب وبه قال الجمهور (بالعدل) صفة للكاتب أي كاتب كائن بالعدل أي يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص ولا يميل الى أحد الجانبين وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة لا يكون في قلبه وقلمه هوادة لاحدهما على الآخر بل يتحرى الحق بينهم والعدلة فيهم (ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله) النكرة في سياق النفي مشعرة بالعموم أي لا يمتنع أحد من الكتاب من ان يكتب كتاب التداين على الطريقة التي علمه الله من الكتابة أو كما علمه الله بقوله بالعدل (فليكتب) بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخيره بل يكتب ما يصلح ان يكون حجة عند الحاجة ويكون كل واحد منهما آمنا من ابطال حقه وان يحترز من الالفاظ التي يقع النزاع فيها (وليملل) الاملال والاملاء لغتان الاولى لغة أهل الحجاز وبني أسد والثانية لغة بني تميم فهذه الآية جاءت على اللغة الاولى وجاء على اللغة الثانية قوله تعالى فهي تملى عليه بكرة وأصيلا والادغام في مثل ذلك جائز لا واجب (الذي عليه الحق) هو من عليه الدين أمره الله تعالى بالاملاء لان الشهادة انما تكون على اقراره بثبوت الدين في ذمته (وليتق الله) الذي عليه الحق (ربه) أمره بالتقوى فيما يليه على الكاتب فلا يجحد جميع الحق والبعض كما سيأتي وبالغ في ذلك بالجمع بين الاسم والوصف (ولا يبخس منه شيأ) نهاه عن البخس وهو النقص وقيل انه نهي للكاتب والاول أولى لان من عليه الحق هو الذي يتوقع منه النقص ولو كان نهيا للكاتب لم يقتصر في نهيه على النقص لانه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص (فان كان الذي عليه الحق) اظهار في مقام الاضمار لزيادة الكشف والبيان لان الامر والنهي لغيره (سفيها) السفيه هو الذي لا رأي له في حسن التصرف فلا يحسن الاخذ ولا الاعطاء شبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة وعلى ضعف البدن أخرى وبالجملة فالسفيه هو المبذر اما لجهله بالتصرف أو لتلاعبه بالمال عن تمام كونه لا يجهل الصواب وقيل الطفل الصغير أي جاهلا بالاملاء (أو ضعيفا) وهو الشيخ الكبير أو الصبي قال أهل اللغة الضعف بضم الضاد في البدن وبفتحها في الرأي لغته أو جنون (أو لا يستطيع ان يمل هو) يعني لخرس أو عي أو عجمة في كلامه أو حبس أو غيبة لا يمكنه الحضور عند الكاتب أو يجهل بماله وعليه أو لا يقدر على التعبير كما ينبغي فهؤلاء كلهم لا يصح اقرارهم فلا بد ان

وقال الحاكم ان ابان حدثني عن عكرمة عن ابن عباس ان ترك خيرا قال ابن عباس من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرا قال الحاكم قال طاوس لم يترك خيرا من لم يترك ثمانين دينارا وقال قتادة كان يقال ألفا فما فوقها وقوله بالمعروف أي بالرفق والاحسان كما قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن بشار حدثني سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قوله كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت فقال نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصي اذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته من غير اسراف ولا تقتير كما ثبت (٣٦٩) في الصحيحين ان سعدا قال يا رسول الله ان لي مالا ولا يرثني الا ابنة لي افأوصي بثلثي مالي قال لا قال فبالشطر قال لا قال فالثلث قال الثلث والثلث كثير انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس وفي صحيح البخاري ان ابن عباس قال لو ان الناس غضوا من الثلث الى الربع فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الثلث والثلث كثير وروى الامام أحمد عن أبي سعيد مولى بني هاشم عن زياد بن عتبة بن حنظلة سمعت حنظلة بن جذيم بن حنيفة ان جده حنيفة أوصى ليتيم في حجره بمائة من الابل فشق ذلك على بنيه فارتفعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حنيفة اني أوصيت ليتيم لي بمائة من الابل كانسميها المطية فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا لا الا الصدقة خمس والا فعشر والا فخمس عشرة والا فعشرون والا فخمس وعشرون والا فثلاثون والا فخمس وثلاثون فان أكثرت فاربعون وذكر الحديث بطوله وقوله فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه

يقوم غيرهم مقامهم وقيل ان الضعيف هو المدخول العقل الناقص الفطنة العاجز عن الاملاء والذي لا يستطيع هو الصغير (فليملل وليه) الضمير عائد الى الذي عليه الحق فيملل عن السفيه وليه المنصوب عنه بعد حجره عن التصرف في ماله ويملل عن الصبي وصيه أو وليه وكذلك يملل عن العاجز الذي لا يستطيع الاملال لضعفه وليه لانه في حكم الصبي أو المنصوب عنه من الامام أو القاضي ويملل عن الذي لا يستطيع وكيله اذا كان صحيح العقل وعرضت له آفة في لسانه أو لم تعرض ولكنه جاهل لا يقدر على التعبير كما ينبغي وقال الطبري ان الضمير في قوله وليه يعود الى الحق وهو ضعيف جدا قال القرطبي في تفسيره وتصرف السفيه المحجور عليه دون وليه فاسد اجماعا منسوخ أبدا لا يوجب حكما ولا يؤثر شيأ فان تصرف سفيه ولا حجر عليه ففيه خلاف انتهى (بالعدل) أي الصدق من غير زيادة ولا نقص (واستشهدوا شهيدين) الاستشهاد طلب الشهادة وسماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول أي باعتبار ما يؤول اليه أمرهما من الشهادة (من رجالكم) أي كائنين من المسلمين فيخرج الكفار ولا وجه لخروج العبيد عن هذه الآية فهم اذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين وبه قال شريح وعثمان البتي وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبو ثور وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي وجمهور العلماء لا يجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص الرق وقال الشعبي والنخعي تصح في الشيء اليسير دون الكثير واستدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد بأن الخطاب في هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة والعبيد لا يملكون شيأ تجري فيه المعاملة ويجاب عن هذا بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وأيضا العبد تصح منه المداينة وسائر المعاملات اذا أذن له مالكه بذلك وقد اختلف الناس هل الاشهاد واجب أو مندوب فقال أبو موسى الاشعري وابن عمر والضحاك وعطاء وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علي الظاهري وابنه انه واجب ورجحه ابن جرير الطبري وذهب الشعبي والحسن ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه انه مندوب وهذا الخلاف بين هؤلاء هو في وجوب الاشهاد على البيع واستدل الموجبون بقوله تعالى وأشهدوا اذا تبايعتم ولا فرق بين هذا الامر وبين قوله واستشهدوا فيلزم القائلين بوجوب الاشهاد في البيع ان يقولوا بوجوبه في المداينة (فان لم يكونا رجلين) أي الشاهدان أي بحسب القصد والارادة أي فان لم يقصد اشهادهما

(٤٧ - فتح البيان ل) ان الله سميع عليم يقول تعالى فمن بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الاولى فانما اثمه على الذين يبدلونه قال ابن عباس وغيره واحد وقد وقع أجر الميت على الله وتعلق الاثم بالذين بدلوا ذلك ان الله سميع عليم أي قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدله الموصي اليهم وقوله تعالى فمن خاف من موص جنفا أو اثما قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس والسدي الجنف الخطأ وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا ارثا بواسطة أو وسيلة كما اذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني محاباة أو اوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل اما مخطئا

غير عامل بل بطبعه وقوة شفقته من غير تقصير أو متعمدا اثما في ذلك فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل فالوصية على الوجه الشرعي ويعدل عن الذي اوصى به الميت الى ماهو أقرب الاشياء اليه وأشبه الامور به جمعا بين مقصود الموصي والطريق الشرعي وهذا الاصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء ولهذا عطف هذا فبينه على النهي عن ذلك ليعلم ان هذا ليس من ذلك بسبيل والله أعلم وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد قراءة أخبرني أبي عن الاوزاعي قال الزهري حدثني عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣٧٠) انه قال يرد من صدقة الجانف في حياته ما يرد من وصية الجنف عند موته وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه من حديث العباس بن الوليد به قال ابن أبي حاتم وقد أخطأ فيه الوليد بن يزيد وهذا الكلام انما هو عن عروة فقط وقد رواه الوليد بن مسلم عن الاوزاعي فلم يجاوز به عروة وقال ابن مردويه أيضا حدثنا محمد بن أحمد ابن ابراهيم حدثنا ابراهيم بن يوسف حدثنا هشام بن عمار حدثنا عمر ابن المغيرة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الجنف في الوصية من الكبائر وهذا في رفعه أيضا نظر وأحسن ما ورد في هذا الباب ما قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فاذا أوصى حاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار وان الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة قال ابو هريرة اقرؤا ان شئتم تلك حدود الله فلا تعتدوها الآية (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون) يقول تعالى مخاطبا للمؤمنين من هذه الامة وآمرا لهم بالصيام وهو الامساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الاخلاط الرديئة والاخلاق الرذيلة وذكر انه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه اسوة وليجتهدوا في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك كما قال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله

ولو كانا موجودين (فرجل وامرأتان) أي فليشهد رجل وامرأتان أو فرجل وامرأتان يكفون كائنون (ممن ترضون) دينهم وعدالتهم حال كونهم (من الشهداء) وفيه ان المرأتين في الشهادة برجل وانها لا تجوز شهادة النساء الا مع الرجل لا وحدهن الا فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة واختلفوا هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدعي كما جاز الحكم برجل مع يمين المدعي فذهب مالك والشافعي الى انه يجوز ذلك لان الله سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل في هذه الآية وذهب أبو حنيفة وأصحابه الى انه لا يجوز ذلك وهذا يرجع الى الخلاف في الحكم بشاهد مع يمين المدعي والحق انه جائز لورود الدليل عليه وهو زيادة لم يخالف ما في الكتاب العزيز فيتعين قبولها وقد أوضحنا ذلك في شرح بلوغ المرام وأوضحه الشوكاني في شرحه للمنتقى وغيره من مؤلفاته ومعلوم عند كل من يفهم انه ليس في هذه الآية ما يرد به قضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشاهد واليمين ولم يدفعوا هذا الا بقاعدة مبنية على حرف هار هي قولهم ان الزيادة على النص نسخ وهذه دعوى باطلة بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاء نابها من جاء نابا النص المتقدم عليها وقد أوضحت ذلك في كتابي حصول المأمول من علم الاصول فليرجع اليه وأيضا كان يلزمهم أن لا يحكموا بنكول المطلوب ولا بيمين الرد على الطالب وقد حكموا بهما والجواب الجواب (أن تضل احداهما) قال أبو عبيد معنى تضل تنسى أي لنقص عقلهن وضبطهن والضلال عن الشهادة انما هو نسيان جزء منها وذكر جزء (فتذكر احداهما) أي الذاكرة (الاخرى) أي الناسية قرئ فتذكر بالتخفيف ومعناها تزيدها ذكرا وقراءة الجماعة بالتشديد أي تنبهها اذا غفلت ونسيت وهذه الآية تعليل لاعتبار العدد في النساء أي فليشهد رجل ولتشهد امرأتان عوضا عن الرجل الآخر لاجل تذكير احداهما الاخرى اذا ضلت وعلى هذا فيكون في الكلام حذف وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضا عن الرجل الواحد فقيل وجهه ان تضل احداهما فتذكر أحداهما الاخرى والعلة في الحقيقة هي التذكير ولكن الضلال لما كان سببا له نزل منزلته وأبهم الفاعل في تضل وتذكر لان كلا منهما يجوز عليه الوصفان فالمعنى ان ضلت هذه ذكرتها هذه وان ضلت هذه ذكرتها هذه لا على التعيين أي ان ضلت احدى الامرأتين ذكرتها الاخرى وانما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال وقد يكون الوجه

لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما اتاكم فاستبقوا الخيرات الآية ولهذا قال ههنا يا ايها الذين امنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون لان الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان ولهذا ثبت في الصحيحين يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء ثم بين مقدار الصوم وانه ليس في كل يوم لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل في أيام معدودات وقد كان هذا في ابتداء الاسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتي بيانه وقد روى ان الصيام أولا كما كان عليه الامم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك ابن مزاحم وزاد لم يزل هذا مشروعا من زمان نوح الى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان وقال عباد بن منصور عن الحسن البصري يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فقال نعم والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهرا كاملا وأياما معدودات عددا معلوما وروى عن السدى نحوه وروى ابن أبي حاتم من حديث أبي عبد الرحمن المقرى حدثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني عبد الله ابن الوليد عن أبي الربيع رجل من أهل المدينة عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صيام رمضان كتبه الله على الامم قبلكم في حديث طويل اختصر منه ذلك وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عمن حدثه عن ابن عمر قال أنزلت كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم كتب عليهم اذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم عليه الطعام والشراب والنساء الى مثلها قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس وأبي العالية وعبد الرحمن ابن أبي ليلى ومجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس وعطاء الخراساني نحو ذلك وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس كما كتب على الذين من قبلكم يعني بذلك أهل الكتاب وروى عن الشعبي والسدى وعطاء الخراساني مثله ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الامر في ابتداء الاسلام فقال فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر أي المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر لما في ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر وأما الصحيح المقيم الذي يطيق

في الابهام ان ذلك يعني الضلال والتذكير يقع بينهما متناوبا حتى ربما ضلت هذه عن وجه وضلت تلك عن وجه آخر فذكرت كل واحدة منهما صاحبتها وقال سفيان بن عيينة معنى قوله فتذكر احداهما الاخرى تصيرها ذكرا يعني ان مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد وروى نحوه عن أبي عمرو بن العلاء ولا شك ان هذا باطل لا يدل عليه شرع ولا لغة ولا عقل (ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا) أي لاداء الشهادة التي قد تحملوها من قبل وقيل اذا ما دعوا لتحمل الشهادة وتسميتهم شهداء مجاز كما تقدم وحملها الحسن على المعنيين وظاهر هذا النهي ان الامتناع من أداء الشهادة حرام (ولا تسأموا) أي لا تملوا ولا تضجروا والخطاب للمؤمنين أو للمتعاملين أو للشهود (أن تكتبوه) أي الدين الذي تداينتم به وقيل الحق وقيل الشاهد وقيل الكتاب نهاهم الله سبحانه عن ذلك لانهم ربما ملوا من كثرة المداينة ان يكتبوا ثم بالغ في ذلك فقال (صغيرا أو كبيرا) أي لا تملوا في حال من الاحوال سواء كان الدين كثيرا أو قليلا وعلى أي حال كان الكتاب مختصرا أو مشبعا وقدم الصغير هنا على الكبير للاهتمام به لدفع ما عساه ان يقال ان هذا مال صغير أي قليل لا احتياج الى كتبه (الى أجله) أي الى محل الدين أو الحق (ذلكم) أي المكتوب المذكور في ضمير قوله ان تكتبوه (أقسط عند الله) أي أعدل وأحفظ وأصح من القسط بالكسر والقسوط الجور والعدول عن الحق (وأقوم للشهادة) أي أعون على اقامة الشهادة وأثبت لها وهو مبني من أقام وكذلك أقسط مبني من فعله أي أقسط وقد صرح سيبويه بأنه قياسي أي بناء أفعل التفضيل (وأدنى أن لا ترتابوا) أي أقرب لنفي الريب في معاملاتكم أي الشك وذلك ان الكتاب الذي يكتبونه يدفع ما يعرض لهم من الريب كائنا ما كان (الا أن تكون تجارة) أي تقع أو توجد تجارة على ان كان تامة والتجارة تقليب الاموال وتصريفها لطلب النماء والزيادة بالارباح والاستثناء منقطع أي لكن وقت تبايعكم وتجارتكم فانه يجوز عدم الاستشهاد والكتب فيها وقال أبو البقاء انه متصل والاول أولى وقرئ بالنصب على الناقصة أي تكون التجارة تجارة (حاضرة) بحضور البدلين وهي تعم المبايعة بعين أو دين (تديرونها بينكم) أي تتعاطونها يدا بيد فالادارة التعاطي والتقابض فالمراد التبايع الناجز يدا بيد (فليس عليكم جناح ان لا تكتبوها) أي فلا حرج عليكم ان تركتم كتابته وانما رخص الله في ترك الكتابة في هذا النوع من

الصيام فقد كان مخيرا بين الصيام وبين الاطعام ان شاء صام وان شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا فان أطعم اكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير وان صام فهو أفضل من الاطعام قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاوس ومقاتل بن حيان وغيرهم من السلف ولهذا قال تعالى وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون وقال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا المسعودي حدثنا عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام (٣٧٢) ثلاثة أحوال فأما أحوال الصلاة فان النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهرا الى بيت المقدس ثم ان الله عز وجل أنزل عليه قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها الآية فوجهه الله الى مكة هذا حول قال وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضا حتى نقسوا أو كادوا ينقسون ثم ان رجلا من الانصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني رأيت فيما يرى النائم ولو قلت اني لم أكن نائما لصدقت اني بينا أنا بين النائم واليقظان اذ رأيت شخصا عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال الله أكبر الله أكبر أشهد ان لا اله الا الله مثنى حتى فرغ من الاذان ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال غير انه يزيد في ذلك قد قامت الصلاة مرتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم علمها بلالا فليؤذن بها فكان بلال أول من أذن بها قال وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا رسول الله قد طاف بي مثل الذي طاف به غير انه سبقني فهذان حالان قال وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها فكان الرجل يشير الى الرجل اذن كم صلى فيقول واحدة واثنتين فيصليها ثم يدخل مع القوم في صلاتهم قال فجاء معاذ فقال لا أجده على حال أبدا الا كنت عليها ثم قضيت ما سبقني قال فجاء وقد سبقه النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها قال فثبت معه فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فقضى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا فهذه ثلاثة أحوال وأما أحوال الصيام فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصيام عاشوراء ثم ان الله فرض عليه الصيام وأنزل

التجارة لكثرة جريانه بين الناس فلو كانوا الكتابة فيه لشق عليهم ولانه اذا أخذ كل واحد حقه في المجلس لم يكن هناك خوف الجحود فلا حاجة الى الكتابة (وأشهدوا اذا تبايعتم) قيل معناه هذا التبايع المذكور هنا وهو التجارة الحاضرة على ان الاشهاد فيها يكفي وقيل معناه أي تبايع كان حاضرا أو كالئا لان ذلك أدفع لمادة الخلاف وأقطع لمنشأ الشجار وهذا وما قبله أمر ندب وقد تقدم قريبا ذكر الخلاف في كون هذا الاشهاد واجبا أو مندوبا (ولا يضار كاتب ولا شهيد) يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول فعلى الاول معناه لا يضار كاتب ولا شهيد من طلب ذلك منهما اما بعدم الاجابة أو بالتحريف والتبديل والزيادة والنقصان في كتابته ويدل على هذا قراءة عمر وابن عباس وغيرهما لا يضار بكسر الراء الاولى وعلى الثاني لا يضار كاتب ولا شهيد بأن يدعيا الى ذلك وهما مشغولان بمهم لهما ويضيق عليهما في الاجابة ويؤذيا ان حصل منهما التراخي أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود لا يضار بفتح الراء الاولى وصيغة المفاعلة تدل على اعتبار الامرين جميعا وقد تقدم في تفسير قوله تعالى لا تضار والدة بولدها ما اذا راجعته زادك بصيرة ان شاء الله تعالى (وان تفعلوا) أي ما نهيتم عنه من المضارة (فانه) أي فعلكم هذا (فسوق بكم) خروج عن الطاعة الى المعصية ملتبس بكم (واتقوا الله) في فعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه (ويعلمكم الله) ما تحتاجون اليه من العلم حال مقدرة أو مستأنف وفيه الوعد لمن اتقاه ان يعلمه ومنه قوله تعالى ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا (والله بكل شئ عليم) هذا آخر آية الدين وقد حث الله سبحانه فيها على الاحتياط في أمر الاموال لكونها سببا لمصالح المعاش والمعاد قال القفال ويدل على ذلك ان ألفاظ القرآن جارية في الاكثر على الاختصار وفي هذه الآية بسط شديد ألا ترى انه قال اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ثم قال ثانيا وليكتب بينكم كاتب بالعدل ثم قال ثالثا ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فكان هذا كالتكرار لقوله وليكتب بينكم كاتب بالعدل لان العدل هو ما علمه الله ثم قال رابعا فليكتب وهذا اعادة للامر الاول ثم قال خامسا وليملل الذي عليه الحق لان الكاتب العدل انما يكتب ما يملى عليه ثم قال سادسا وليتق الله ربه وهذا تأكيد ثم قال سابعا ولا يبخس منه شيأ وهذا كالمستفاد من قوله وليتق الله ربه ثم قال ثامنا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله وهو أيضا تأكيد

الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم الى قوله وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه ثم ان الله عز وجل أنزل الآية الاخرى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن الى قوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الاطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام فهذان حالان قال وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا فاذا ناموا امتنعوا ثم ان رجلا من الانصار يقال له صرمة كان يعمل صائما حتى أمسى فجاء الى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائما فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جهد جهدا شديدا فقال مالى أراك قد جهدت جهدا شديدا قال يا رسول الله انى عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسى فنمت فأصبحت حين اصبحت صائما قال وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فأنزل الله عز وجل أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم الى قوله ثم أتموا الصيام الى الليل وأخرجه أبو داود فى سننه والحاكم فى مستدركه من حديث المسعودى به وقد أخرجه البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة انها قالت كان عاشوراء يصام فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر وروى البخارى عن ابن عمر وابن مسعود مثله وقوله تعالى وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين كما قال معاذ رضى الله عنه كان فى ابتداء الامر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا وهكذا روى البخارى عن سلمة بن الاكوع انه قال لما نزلت وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين كان من أراد أن يفطر ويفتدى حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها وروى أيضا من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال هى منسوخة وقال السدى عن مرة عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين قال يقول وعلى الذين يطيقونه أى يتجشمونه قال عبد الله فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينا فمن تطوع يقول اطعم مسكينا آخر فهو خير له وان تصوموا خير لكم فكانوا كذلك حتى نسختها فمن شهد منكم الشهر فليصمه وقال البخارى أيضا أخبرنا اسحق حدثنا روح حدثنا زكريا بن اسحق

لما مضى ثم قال تاسعا ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ان لا ترتابوا فذكر هذه الفوائد التالية لتلك التأكيدات السالفة وكل ذلك يدل على المبالغة فى التوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك ليتمكن الانسان بواسطته من الانفاق فى سبيل الله والاعراض عن مساخطه من الرياء وغيره والمواظبة على ذكر الله وتقواه ذكره الخطيب (وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة) لما ذكر سبحانه مشروعية الكتابة والاشهاد لحفظ الاموال ودفع الريب عقب ذلك بذكر حالة العذر عن وجود الكاتب ونص على حالة السفر فانها من جملة أحوال العذر ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر وجعل الرهان المقبوضة قائمة بمقام الكتابة أى فان كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتبا فى سفركم فرهان مقبوضة وعلى هنا بمعنى فى وفيه اشارة ان على استعارة تبعية شبه تمكنهم من السفر بتمكن الراكب مركوبه قال أهل العلم الرهن فى السفر ثابت بنص التنزيل وفى الحضر بفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت فى الصحيحين انه صلى الله عليه وآله وسلم رهن درعه من يهودى وأفاد قوله مقبوضة اشتراط القبض فى الرهن والاكتفاء به من المرتهن ووكيله وقرأ الجمهور كاتبا أى رجلا يكتب لكم وقرئ كابا قال ابن الانبارى فسره ابن مجاهد فقال معناه فان لم تجدوا مدادا فى الاسفار وقرئ فرهن بضم الراء والهاء جمع رهان وقرئ فرهن وقراءة الجمهور فرهان قال الزجاج يقال فى الرهن رهنت وأرهنت وكذا قال ابن الاعرابى والاخفش وقال أبو على الفارسى يقال أرهنت فى المعاملات وأما فى القرض والبيع فرهنت وقال ابن السكيت أرهنت فيهما بمعنى أسلفت والمرتهن الذى يأخذ الرهن والشئ مرهون ورهين وراهنت فلانا على كذا مراهنة خاطرته وقد ذهب الجمهور الى أنه يصح الارتهان بالايجاب والقبول من دون قبض (فان أمن بعضكم بعضا) أى الدائن المديون على حقه فلم يرتهنه يعنى ان كان الذى عليه الحق أمينا عند صاحب الحق لحسن ظنه به وامانته واستغنى بأمانته عن الارتهان (فليؤد الذى اؤتمن) وهو المديون (أمانته) أى الدين الذى عليه والامانة مصدر سمى به الذى فى الذمة وأضافها الى الذى عليه الدين من حيث ان لها اليه نسبة (وليتق الله ربه) فى أن لا يكتم من الحق شيأ وفى أداء الحق عند حلول الاجل من غير مماطلة ولا جحود بل يعامله المعاملة الحسنة كما أحسن ظنه فيه وفيه مبالغات من حيث الاتيان بصيغة

حدثنا عمرو بن دينار عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين قال ابن عباس ليست منسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضعف فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينا وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد حدثنا الحسين بن محمد بن بهرام المخزومي حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد بن عبد الله عن ابن أبي ليلى قال دخلت على عطاء في رمضان وهو يأكل فقال قال ابن عباس نزلت هذه الآية فنسخت الاولى الا الكبير الفاني ان شاء أطعم عن كل يوم مسكينا وأفطر فحاصل الامر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بايجاب الصيام عليه لقوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه لانه ليست له حال يصير اليها يتمكن فيها من القضاء ولكن هل يجب عليه اذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينا اذا كان ذا جدة فيه قولان للعلماء أحدهما لا يجب عليه اطعام لانه ضعيف عنه لسنه فلم يجب عليه فدية كالصبي لان الله لا يكلف نفسا الا وسعها وهو أحد قولي الشافعي والثاني وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء انه يجب عليه فدية عن كل يوم كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ وعلى الذين يطيقونه أي يتجشمونه كما قاله ابن مسعود وغيره وهو اختيار البخاري فانه قال وأما الشيخ الكبير اذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعدما كبر عاما أو عامين عن كل يوم مسكينا خبزا ولحما وأفطر وهذا الذي علقه البخاري قد اسنده الحافظ ابو يعلى الموصلي في مسنده فقال حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا ابي حدثنا عمران عن أيوب بن ابي تميمة قال ضعف انس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد فدعا ثلاثين مسكينا فاطعمهم ورواه عبد بن حميد عن روح بن عبادة عن عمران وهو ابن جرير عن أيوب به ورواه عبد أيضا من حديث ستة من أصحاب انس عن أنس بمعناه ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع اذا خافتا على انفسهما أو ولديهما ففيهما

الامر الظاهرة في الوجوب والجمع بين ذكر الله والرب وذكره عقب الامر بأداء الدين وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى (ولا تكتموا الشهادة) نهي للشهود أن يكتموا ما تحملوه من الشهادة اذا دعوا لاقامتها وهو في حكم التفسير لقوله ولا يضار كاتب أي لا يضارر بكسر الراء الاولى على أحد التفسيرين المتقدمين (ومن يكتمها) يعني الشهادة (فانه آثم) أي فاجر (قلبه) خص القلب بالذكر لان الكتم من أفعاله ولكونه رئيس الاعضاء وهو المضغة التي ان صلحت صلح الجسد كله وان فسدت فسد كله واسناد الفعل الى الجارحة التي تعمله أبلغ وهو صريح في مؤاخذة الشخص بأعمال القلب وارتفاع القلب على انه فاعل أو مبتدأ وآثم خبره على ما تقرر في علم النحو ويجوز ان يكون قلبه بدلا من آثم بدل البعض من الكل ويجوز أيضا ان يكون بدلا من الضمير الذي في آثم الراجع الى من وقرئ قلبه بالنصب كما في قوله الا من سفه نفسه (والله بما تعملون عليم) فيه وعيد وتحذير لمن كتم الشهادة ولم يظهرها ويقال لهذه الآية آية الدين وأخرج البخاري في تاريخه وأبو داود وغيرهما عن أبي سعيد الخدري انه قرأ هذه الآية وقال هذه نسخت ما قبلها (وأقول) رضي الله عن هذا الصحابي الجليل ليس هذا من باب النسخ فهذا مقيد بالائتمان وما قبله ثابت محكم لم ينسخ وهو مع عدم الائتمان وعن سعيد بن المسيب انه بلغه ان أحدث القرآن بالعرش آية الدين وعن ابن شهاب قال آخر القرآن عهدا بالعرش آية الربا وآية الدين (لله ما في السموات وما في الارض) ملكا وأهلها ملكه عبيد وهو مالكهم واستدل بسعة ملكه على سعة علمه (وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ظاهره ان الله يحاسب العباد على ما أضمرته أنفسهم وأظهرته من الامور التي يحاسب عليها (فيغفر لمن يشاء) منهم ما يغفره منها (ويعذب من يشاء) منهم بما أسر وأظهر منها هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية على أقوال الاول انها وان كانت عامة فهي مخصوصة بكتمان الشهادة وان الكاتم للشهادة يحاسب على كتمه سواء أظهر للناس انه كاتم للشهادة أو لم يظهر وقد روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد وهو مردود بما في الآية من عموم اللفظ ولا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهي عن كتم الشهادة ان تكون مختصة به والقول الثاني ان ما في الآية مختص بما يطرأ على النفوس من الامور التي هي بين الشك واليقين قاله مجاهد وهو أيضا

تخصيص بلا مخصص والقول الثالث انها محكمة عامة ولكن العذاب على مافى النفس يختص بالكفار والمنافقين حكاه الطبرى عن قوم وهو أيضا تخصيص بلا مخصص فان قوله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء لايختص ببعض معين الا بدليل والقول الرابع ان هذه الآية منسوخة قاله ابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبى وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة وهو مروى عن ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وهذا هو الحق لما سيأتى من التصريح بنسخها ولما ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان الله غفر لهذه الامة ماحدثت به أنفسها وأخرج البخارى والبيهقى عن مروان الاصغر عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم أحسبه ابن عمر ان تبدوا مافى أنفسكم الآية قال نسختها الآية التى بعدها وأخرج عبد بن حميد والترمذى عن على نحوه وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لله مافى السموات ومافى الارض وان تبدوا مافى أنفسكم الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم جثوا على الركب فقالوا يارسول الله كلفنا من الاعمال مانطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتريدون ان تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى اثرها آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل لايكلف الله نفسا الا وسعها الى آخرها وأخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن ابن عباس مرفوعا نحوه وزاد فأنزل الله ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا قال قد فعلت ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا قال قد فعلت ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به قال قد فعلت واعف عنا واغفر لنا وارحمنا الآية قال قد فعلت وقد روى هذه القصة عن ابن عباس من طرق وبمجموع ماتقدم يظهر لك ضعف مارى عن ابن عباس فى هذه الآية انه قال نزلت فى كتمان الشهادة فانها لو كانت كذلك لم يشتد الامر على الصحابة وعلى كل حال فبعد هذه الاحاديث المصرحة

اختلاف كثير بين العلماء فمنهم من قال يفطران ويفديان ويقضيان وقيل يفديان فقط ولا قضاء وقيل يجب القضاء بلا فدية وقيل يفطران ولا فدية ولا قضاء وقد بسطنا هذه المسئلة مستقصاة فى كتاب الصيام الذى أفردناه ولله الحمد والمنة (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون) يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لانزال القرآن العظيم وكما اختصه بذلك وقد ورد الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الالهية تنزل فيه على الانبياء قال الامام احمد ابن حنبل رحمه الله حدثنا ابو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن ابى فليح عن واثلة يعنى ابن الاسقع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انزلت صحف ابراهيم فى اول ليلة من رمضان وانزلت التوراة لست مضين من رمضان والانجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان وانزل الله القرآن لاربع وعشرين خلت من رمضان وقد روى من حديث جابر بن عبد الله وفيه ان الزبور انزل لثنتى عشرة خلت من رمضان والانجيل لثمانى عشرة والباقى كما تقدم رواه ابن مردويه واما الصحف والتوراة والزبور والانجيل فنزل كل منها على النبى الذى انزل عليه جملة واحدة واما القرآن فانما نزل جملة واحدة الى بيت العزة من السماء الدنيا وكان ذلك فى شهر رمضان فى ليلة القدر منه كما قال تعالى انا انزلناه فى ليلة القدر وقال انا انزلناه فى ليلة مباركة ثم نزل بعد مفرقا بحسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس كما قال اسرائيل عن السدى عن محمد بن ابى المجالد عن مقسم عن ابن عباس انه سأل عطية بن الاسود فقال وقع فى قلبى الشك قول الله تعالى شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن وقوله انا انزلناه فى ليلة مباركة وقوله انا انزلناه فى ليلة القدر وقد انزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عباس انه انزل فى رمضان فى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة ثم انزل على مواقع النجوم ترتيلا فى الشهور والايام رواه ابن ابى حاتم وابن مردويه وهذا لفظه وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال انزل القرآن فى النصف من شهر

رمضان الى سماء الدنيا فجعل فى بيت العزة ثم انزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة لجواب كلام الناس وفى رواية عكرمة عن ابن عباس قال نزل القرآن فى شهر رمضان فى ليلة القدر الى هذه السماء الدنيا جملة واحدة وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجىء المشركون بمثل يخاصمون به الا جاءهم الله بجوابه وذلك قوله وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا وقوله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان هذا مدح للقرآن الذى انزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه وبينات اى ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافى للضلال والرشد المخالف للغى ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام وقد روى عن بعض السلف انه كره ان يقال الا شهر رمضان ولا يقال رمضان قال ابن ابى حاتم حدثنا ابى حدثنا محمد ابن بكار بن الريان حدثنا ابو معشر عن محمد بن كعب القرظى وسعيد هو المقبرى عن ابى هريرة قال لا تقولوا رمضان فان رمضان اسم من اسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان قال ابن ابى حاتم وقد روى عن مجاهد ومحمد ابن كعب نحو ذلك ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت (قلت) أبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن المدنى امام المغازى والسير ولكن فيه ضعف وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعا عن ابى هريرة وقد انكره عليه الحافظ بن عدى وهو جدير بالانكار فانه متروك وقد وهم فى رفع هذا الحديث وقد انتصر البخارى رحمه الله فى كتابه لهذا فقال باب يقال رمضان وساق أحاديث فى ذلك منها من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ونحو ذلك وقوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه هذا ايجاب حتم على من شهد استهلال الشهر اى كان مقيما فى البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح فى بدنه ان يصوم لا محالة ونسخت هذه الآية الاباحة المتقدمة لمن كان صحيحا مقيما ان يفطر ويفدى باطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه ولما ختم الصيام اعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر فى الافطار بشرط القضاء فقال ومن كان مريضا او على سفر فعدة من أيام اخر معناه ومن كان به مرض فى بدنه يشق عليه الصيام معه او يؤذيه او كان على سفر اى فى حال السفر فله ان يفطر فاذا افطر فعليه يدخل

بالنسخ والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها ومما يؤيد ذلك ما ثبت فى الصحيحين والسنن الاربع من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت كل عبد هم بسوء ومعصية وحدث نفسه به حاسبه الله فى الدنيا يخاف ويحزن ويشتد همه لا يناله من ذلك شئ كاهم بالسوء ولم يعمل بشئ والاحاديث المتقدمة المصرحة بالنسخ تدفعه عن ابن عباس قال ان الله يقول يوم القيامة ان كتابى لم يكتبوا من أعمالكم الا ما ظهر منها فأما ما أسررتم فى أنفسكم فأنا أحاسبكم به اليوم فأغفر لمن شئت وأعذب من شئت وهو مدفوع بما تقدم وقيل محكمة لانه اذا حمل ما فى الانفس على خصوص العزم لم يكن نسخ لانه مؤاخذ به وقد نظم بعضهم مراتب القصد بقوله

مراتب القصد خمس هاجس ذكروا * وخاطر فحديث النفس فاستمعا
يليه هم فعزم كلها رفعت * سوى الاخير ففيه الاخذ قد وقعا

(والله على كل شئ قدير) فيغفر للمؤمنين فضلا ويعذب الكافرين عدلا قال ابن عباس يغفر الذنب العظيم ويعذب على الذنب الصغير (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون) أى بجميع ما أنزل اليه قال الزجاج لما ذكر الله سبحانه فى هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام وبين أحكام الحج والجهاد وحكم الحيض والطلاق والايلاء وأقاصيص الانبياء وبين حكم الربا ذكر تعظيمه ثم ذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ثم ذكر تصديق جميع المؤمنين بجميع ذلك فقال آمن الرسول أى صدق الرسول بجميع هذه الاشياء التى جرى ذكرها وكذلك المؤمنون (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) أفرد الضمير فى آمن لان المراد ايمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله وكل أتوه داخرين وهذه أربع مراتب من أصول الدين وذم رياته وسبب نزولها الآية التى قبلها وقد تقدم بيان ذلك وقوله وملائكته أى من حيث كونهم عباده المكرمين المتوسطين بينه وبين أنبيائه فى انزال كتبه وقوله وكتبه لانها المشتملة على الشرائع التى تعبدها عباده وقوله ورسله لانهم المبلغون لعباده ما نزل اليهم وقرأ ابن عباس وكتابه وقال الكتاب أكثر من الكتب وبينه صاحب الكشاف فقال لانه اذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة فى وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شئ وأما الجمع فلا

عدة ما افطره فى السفر من الايام ولهذا قال يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر أى انما رخص لكم فى الفطر فى حال المرض وفى السفر مع تحتمه فى حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية احداها انه قد ذهب طائفة من السلف الى أن من كان مقيما فى أول الشهر ثم سافر فى أثنائه فليس له الافطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه وانما يباح الافطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم فى كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين وفيما حكاه عنهم نظر والله أعلم فانه قد ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه خرج فى شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر أخرجه صاحبا الصحيح الثانية ذهب آخرون من الصحابة والتابعين الى وجوب الافطار فى السفر لقوله فعدة من أيام أخر والصحيح قول الجمهور ان الامر فى ذلك على التخيير وليس بحتم لانهم كانوا يخرجون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان قال فمنا الصائم ومنا المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم فلو كان الافطار هو الواجب لانكر عليهم الصيام بل الذى ثبت من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان فى مثل هذه الحالة صائما لما ثبت فى الصحيحين عن أبى الدرداء قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان فى حر شديد حتى ان كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله ابن رواحة الثالثة قالت طائفة منهم الشافعى الصيام فى السفر أفضل من الافطار لفعل النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم وقالت طائفة بل الافطار أفضل أخذا بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سئل عن الصوم فى السفر فقال من أفطر فحسن ومن صام فلا جناح عليه وقال فى حديث آخر عليكم برخصة الله التى رخص لكم وقالت طائفة هما سواء لحديث عائشة ان حمزة بن عمرو الاسلمى قال يا رسول الله انى كثير الصيام أفاصوم فى السفر فقال ان شئت فصم وان شئت فافطر وهو فى الصحيحين وقيل ان شق الصيام فالافطار أفضل لحديث جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قد ظلل عليه فقال ما هذا قالوا صائم فقال ليس من البر الصيام فى السفر أخرجاه فأما ان رغب عن

فلا يدخل تحته الا ما فيه الجنسية من الجموع انتهى ومن أراد تحقيق المقام فليرجع الى شرح التلخيص المطول عند قول الماتن واستغراق المفرد أشمل (لا نفرق بين أحد من رسله) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى لم يقل بين آحاد لان الاحد يتناول الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى فما منكم من أحد عنه حاجزين فوصفه بقوله حاجزين لكونه فى معنى الجمع (وقالوا سمعنا وأطعنا) أى أدركناه باسماعنا وفهمناه وأطعنا ما فيه وقيل معنى سمعنا أجبنا دعوتك (غفرانك ربنا) أى اغفر غفرانك قاله الزجاج وغيره وقيل نسألك غفرانك وقدم السمع والطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدم على المتوسل اليه (واليك المصير) أى المرجع والمآب بالبعث (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) أى ما تسعه قدرتها فضلا منه ورحمة أو ما دون مدى طاقتها اى غاية طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها التكليف هو الامر بما فيه مشقة وكلفة والوسع الطاقة والوسع ما يسع الانسان ولا يضيق عليه وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه ان تبدوا ما فى أنفسكم الآية لكشف كربة المسلمين ودفع المشقة عليهم فى التكليف بما فى الانفس وهى كقوله سبحانه يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر قال ابن عباس وأكثر المفسرين ان هذه الآية نسخت حديث النفس والوسوسة (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فيه ترغيب وترهيب أى لها ثواب ما كسبت من الخير وعليها وزر ما اكتسبت من الشر وتقديم لها وعليها على الفعلين يفيد ان ذلك لها لا لغيرها وعليها لا على غيرها وهذا مبنى على ان كسب للخير فقط واكتسب للشر فقط كما قاله صاحب الكشاف وغيره وقيل كل واحد من الفعلين يصدق على الامرين وانما كرر الفعل وخالف بين التعبيرين تحسينا للنظم كما وقع فى قوله تعالى فمهل الكافرين أمهلهم رويدا وقيل اللام للخير وعلى للمضرة ولكن ينقض هذا بقوله تعالى ولهم اللعنة وعليهم صلوات اللهم الا أن يقال هما يقتضيان ذلك عند الاطلاق بلا ذكر الحسنة والسيئة أو انهما يستعملان لذلك عند تقاربهما كما فى هذه الآية (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) أى لا تؤاخذنا باثم ما يصدر منا من هذين الامرين وقد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين وغيرهم قائلين ان الخطأ والنسيان مغفوران غير مؤاخذ

السنة ورأى أن الفطر مكروه اليه فهذا يتعين عليه الافطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه لما جاء فى مسند الامام أحمد وغيره
عن ابن عمرو جابر وغيرهما من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الاثم مثل جبال عرفة الرابعة القضاء هل يجب متتابعا أو يجوز
فيه التفريق فيه قولان أحدهما أنه يجب التتابع لان القضاء يحكى الاداء والثانى لا يجب التتابع بل ان شاء فرق وان شاء تابع
وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل لان التتابع انما وجب فى الشهر لضرورة أدائه فى الشهر فاما بعد انقضاء
رمضان فالمراد صيام ايام عدة ما أفطر ولهذا قال (٣٧٨) تعالى فعدة من أيام أخر ثم قال تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد

بكم العسر قال الامام أحمد حدثنا
أبو سلمة الخزاعى حدثنا أبو هلال
عن حميد بن هلال العدوى عن
أبى قتادة عن الاعرابى الذى سمع
النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان
خير دينكم أيسره ان خير دينكم
أيسره وقال أحمد أيضا حدثنا
يزيد بن هرون أخبرنا عاصم بن
هلال حدثنا عامر بن عروة
الفقيمى حدثنى أبى عروة قال كنا
ننتظر النبى صلى الله عليه وسلم
فخرج يقطر رأسه من وضوء أو
غسل فصلى فلما قضى الصلاة
جعل الناس يسألونه علمنا حرج
فى كذا فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان دين الله فى يسر ثلاثا
يقولها ورواه الامام أبو بكر بن
مردويه فى تفسير هذه الآية من
حديث مسلم بن أبى تميم عن عاصم
ابن هلال به وقال الامام احمد
حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة
قال حدثنا أبو التياح سمعت أنس
ابن مالك يقول ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال يسروا ولا
تعسروا وسكنوا ولا تنفروا أخرجاه
فى الصحيحين وفى الصحيحين أيضا
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما الى اليمن بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا
ولا تختلفا وفى السنن والمسانيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت بالحنيفية السمحة وقال الحافظ ابو بكر بن مردويه
فى تفسيره حدثنا عبد الله بن اسحق بن ابراهيم حدثنا يحيى بن أبى طالب حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا أبو مسعود الحريرى
عن عبد الله بن شقيق عن محجن بن الادرع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يصلى فترآه يصره ساعة فقال أتراه يصلى
صادقا قال قلت يا رسول الله هذا اكثر أهل المدينة صلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسمعه فتهلكه وقال ان الله انما أراد

بهما فما معنى الدعاء بذلك فانه من تحصيل الحاصل وأجيب عن ذلك بان المراد طلب عدم
المؤاخذة بما صدر عنهم من الاسباب المؤدية الى النسيان والخطأ من التفريط وعدم
المبالاة لا من نفس النسيان والخطأ فانه لا مؤاخذة بهما كما يفيد ذلك قوله صلى الله عليه
وآله وسلم رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وسيأتى تخريجه وقيل انه يجوز للانسان
أن يدعو بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته وقيل انه وان ثبت شرعا
انه لا مؤاخذة بهما فلا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلا وقيل لانهم كانوا على جانب عظيم
من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمدا وانما يصدر عنهم خطأ أو نسيانا فكانه
وصفهم بالدعاء بذلك ايذانا بنزاهة ساحتهم عما يؤاخذون به كانه قيل ان كان النسيان
والخطأ مما يؤاخذ به فما منهم سبب المؤاخذة الا الخطأ والنسيان قال القرطبى وهذا
لم يختلف فيه ان الاثم مرفوع وانما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الاحكام هل ذلك
مرفوع ولا يلزم منه شئ أو يلزم أحكام ذلك كله اختلف فيه والصحيح ان ذلك يختلف
بحسب الوقائع فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات والديانات والصلوات المفروضات وقسم
يسقط باتفاق كالقصاص والنطق بكلمة الكفر وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسيا
فى رمضان أو حنث ساهيا وما كان مثله مما يقع خطأ أو نسيانا ويعرف ذلك فى الفروع
انتهى والآية تعليم من الله لعباده كيفية الدعاء وهذا من غاية الكرم حيث يعلمهم الطلب
ليعطيهم المطلوب (ربنا ولا تحمل علينا اصرا) تكرير النداء للايذان بمزيد التضرع
واللجأ الى الله سبحانه والاصر العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه مكانه
لا يستقل به لثقله والمراد به هنا التكليف الشاق والامر الغليظ الصعب وقيل الاصر شدة
العمل وما غلظ على بنى اسرائيل من قتل الانفس وقطع موضع النجاسة وقيل الاصر
المسخ قردة وخنازير وقيل العهد ومنه قوله تعالى وأخذتم على ذلكم اصرى وهذا
الخلاف يرجع الى بيان ما هو الاصر الذى كان على من قبلنا لا الى معنى الاصر فى لغة العرب
فانه ما تقدم ذكره بلا نزاع والاصار الحبل الذى يربط به الاحمال ونحوها يقال أصر
يأصر أصرا حبس والاصر بكسر الهمزة من ذلك قال الجوهرى والموضع مأصر
والجمع مآصر ومعنى الآية انهم طلبوا من الله سبحانه ان لا يحملهم من ثقيل التكاليف
ما حمل الامم قبلهم (كما حملته على الذين من قبلنا) يعنى اليهود وذلك ان الله فرض عليهم

خمسين صلاة وأمرهم باداء ربع أموالهم زكاة ومن أصاب منهم ثوبه نجاسة قطعها ومن أصاب ذنبا أصبح وذنبه مكتوب على بابه ونحو هذا من الاثقال والآصار (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) تكرير النداء للنكتة المذكورة قبل هذا والمعنى لا تحملنا من الاعمال مالا نطيق وقيل هو عبارة عن انزال العقوبات كانه قال لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا في المحافظة على تلك التكاليف الشاقة التي كلفت بها من قبلنا وقيل المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطاع من التكاليف والطاقة القدرة على الشئ (واعف عنا) أي عن ذنوبنا يقال عفوت عن ذنبه اذا تركته ولم تعاقبه عليه (واغفر لنا) أي استر على ذنوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة والغفر الستر (وارحمنا) أي تفضل برحمة منك علينا وتعطف بنا (أنت مولانا) أي ولينا وناصرنا وخرج هذا مخرج التعليم كيف يدعون وقيل معناه انت سيدنا ونحن عبيدك (فانصرنا على القوم الكافرين) فان من حق المولى ان ينصر عبيده والمراد عامة الكفرة وفيه اشارة الى اعلاء كلمة الله بالجهاد في سبيله وقد قدمنا في شرح الآية التي قبل هذا أنه ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات قد فعلت فكان ذلك دليلا على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشئ من الخطا والنسيان ولا حمل عليهم شيأ من الاصر الذي حمله على من قبلهم ولا حملهم مالا طاقة لهم به وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم ونصرهم على القوم الكافرين والحمد لله رب العالمين وقد أخرج ابن ماجه وابن المنذر وابن حبان في صحيحه والطبراني والدارقطني والحاكم والبيهقي في سننه عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وروى من طرق كثيرة وفي اسانيدها مقال ولكنها يقوي بعضها بعضا فلا يقصر عن رتبة الحسن لغيره وقد تقدم حديث قد فعلت وهو يشهد لهذا الحديث وقد ورد عن جماعة من الصحابة وغيرهم ان جبريل لقن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاتمة البقرة آمين وقد ثبت عند الشيخين وأهل السنن وغيرهم عن ابي مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من قرا الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه واخرج أحمد والنسائي والطبراني والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن حذيفة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي وأخرج الطبراني بسند جيد عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله كتب كتابا قبل ان يخلق السموات والارض بألفي عام فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة لا تقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان وأخرج مسلم والنسائي واللفظ له عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده جبريل اذ سمع نقيضا فرفع جبريل بصره الى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ابشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما الا أوتيته فهذه أحاديث مرفوعة الى النبي

بهذه الامة اليسر ولم يرد بهم العسر ومعنى قوله يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة أي انما أرخص لكم في الافطار للمرض والسفر ونحوهما من الاعذار لارادته بكم اليسر وانما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم وقوله ولتكبروا الله على ما هداكم أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا وقال فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وقال فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات وقال ابن عباس ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بالتكبير ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم حتى ذهب داود بن علي الاصبهاني الظاهري الى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الامر في قوله ولتكبروا الله على ما هداكم وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله انه لا يشرع التكبير في عيد الفطر والباقون على استحبابه على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع

بينهم وقوله ولعلكم تشكرون أى اذا قمتم بما أمركم الله من طاعاته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم ان تكونوا من الشاكرين بذلك

الى هنا انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله قوله تعالى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب

صلى الله عليه وآله وسلم فى فضلهما تين الآيتين وقد
روى فى فضلهما من غير المرفوع عن عمر وعلى
وابن مسعود وأبى مسعود وكعب الاحبار
والحسن وأبى قلابة وفى قول النبى
صلى الله عليه وآله وسلم
ما يغنى عن غيره
ولله الحمد
تم

(تم طبع الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله سورة آل عمران)

ولما انتهى طبع الجزء الاول من تجزئة مؤلفه حفظه الله الذى آخره آخر سورة الانعام قال فى خاتمة طبعه الاول بالمطبعة البهوپالية الجناب الافضل والهمام الاكمل الجهبذ النجيب اللوذعى الاديب الشيخ محمد أحسن الطبيب ابن الهى بخش الحاجى پورى مقر ظاهذا التفسير البديع بهيج الوضع وجميل الصنيع ومؤرخا انتهاء طبع هذا الجزء الجليل المنبئ عن غزارة علم مؤلفه البحر الخضم الشهم النبيل مانصه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أحمدك ملفوظ به أمام كل كلام وأسعد ما يفتخر به كل مأموم وامام حمد الله سبحانه وتعالى بما حمد به فى كتابه العزيز وتنزيله الذهب الابريز من جواهر زواهر صيغه المحلاة باسمه اذ لا يشاركه أحد فى حمده ولا رسمه رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا وانما هى محامد لذاته الواجب الوجود الموجدة لكل موجود ايجادا سويا وأحسن ما تلى به حمده النامى ووصفه السامى التصلية والتسليم على أفضل رسله وخاتم أنبيائه المستل من سلالة عدنان المفضل بالقرآن واللسان والبيان وعلى آله وأصحابه أولى الايمان والعرفان (وبعد) فقد تم طبع هذا الجزء الاول من تفسير فتح البيان فى مقاصد القرآن المسفر عن أنوار التنزيل المضئ باضواء التأويل الذى لم تزل نعام القلوب اليه زفافه ورياح الآمال حوله هفافه وعيون النحول اليه روامق وأفواههم بتمنيه نواطق لما أودع فيه من كنوز الرواية ورموز الدراية بأسلوب رائق ومسلك فائق يخرس لفصاحته سحبان ويطرح لبلاغته قس فى زوايا النسيان ولعمرى ان اسمه طابق مسماه ورسمه وافق معناه كما يعرف ذلك الناقد البصير ولا ينبئك مثل خبير بدار الرياسة العلية وبيت الطباعة البهية بلدة بهوپال المحمية المتحلية بنسبتها للدائرة السنية صاحبة الدولة السعيدة ذات المكارم المشهورة الحميدة غرة جبهة الدهر وقرة عين العصر حضرتنا (نواب شاهجهان بيكم)

والية

واليـة المملكة الباهره ومصرها القاهره لازالت بالشـيم الزاهـرة الفاخرة كيف وبمثل طبـع هذا الكتاب تلبس بهو پال ثوب تيهها واعجابها وتجر ذيل خيلائها واغرابها وكان ذلك خدمة لحامى ثغورها الاسلامية وماحى بدعها السامية النامية أحد المفاخر محمد المـآثر رب السـيف والقلم ذى الرأى والراية والعـلم والعلم عزيز مصر بهو پال وحيد عصر الدولة والاقبال تاج العترة المكارم وطراز المجد الرفيع الاوّل من شاع فضله وذاع وتوفرت لشراء تآليفه المفيدة الاسماع بقية أهل القرآن والحديث مستمد الفتح من حضرة البارى المغيث ذى المجد والعلى والتفاخر نواب عالى الجاه أمير الملك السـيد محمد صديق حسن خان بهادر لازالت المـآثر الحميدة به تجدد والمعارف الجليلة اليه تقصد الى أن قال

انه لما وصل فى الحادى عشر من شهر ربيع الاول سـنة احدى وتسـعين ومائتين وألف هجرية بعـد الحج والزيارة النبوية الى بيت المقـدس بجزء من هذا التفسـير ووقف من هنالك من أهل العلم عليه أثنوا عليه ثناء بالغا ومدحوه مدحا سائغا وكتب عليه مقرظا كريم المحتد ذو الفضـل الممتد يوسـف بن أسـعد المفتى بالقـدس سلمهما الله الصمد ماصورته هكذا

الحمد لله الذى نصب للعلماء العاملين أعـلاما ورفع قدرهم فهم أعز الخلق مقاما جعلهم حفظـة شرعه القويم وهـداة صراطه المسـتقيم أحلهم منزلة أنبياء بنى اسرائيـل وأيدهم بالحق فبأقوالهم زهقت الاباطيل وأنزل على رسوله الذى هو أكرم من لحق وسبق اقرأ باسم ربك الذى خلق وشرف قدره بشهادة قرآن غـير ذى عوج وأزال عن أمتـه المرحومة عنت الاصر والحرج فصـلى الله عليـه وعلى آله وأصحابه ماتلا تال القرآن ورتل وغرف من بحور معانيه مفسر فأوّل (وبعـد) فان أعظم العلوم عنـد الله قدرا وأعرقها منزلة وأوفاها أجرا علم التفسير لكتاب الله القدير اذ به مناط عبادة المكلفين وصحـة أصولهم وفروعهم عند المحققين ومن أعظم ماصـنف فيه وتنافس به هذا الزمان كتاب التفسـير المسمى بفتح البيان فى مقاصد القرآن لوحيد هـذا الدهر وفريد هـذا الأوان فياله من كتاب تتصاغر عنده فصاحة سحبان وتفوح من عبير رياه حكمة لقمان تصدر من بحر معناه ونهر مبناه جهابذة النقد ويعجز عن الاتيان بمثله أهل الحل والعقد الفاظه مهـذبة ومعانيه مسـتعذبة فياله من مؤلف جامع وما أجله من سـفر مانع فأكرم به من كرم يانع تقتطف منه المعانى الدقيقة وتقتنص منه المبانى الرقيقة كيف لا وهو تأليف ذى الامارة العلياء والعلم والعمل وقطب دائرة السادة الاول مجيد القول فى التفسـير ومحكم الصياغة الآخذ بجامع الفصاحة والبلاغة سلالة سـيد المرسلين وتاج هامة كافة المفسرين ولسان رجال الرواية والمحدثين وميزان اعتدال الافاضـل والمحققين ومحط رحال أولى الفضل واليقين من ذات له الرتبة العالية ليرقاها وافتخرت به الامارة الغالية لما علاها

أتته الخلافة منقادة * اليه تجرّر أذيالها
فلم تك تصلح الاله * ولم يك يصلح الالها

وتفاخرت به بهوپال على غيرها من الاقاليم الدانية والقاصية فلا زالت به مأهولة معمورة
عالية المخاطب بنواب عالى الجاه أمير الملك سيد محمد صديق حسن خان بهادر
أدام الله عليه حلل السعادة والسيادة والتناصر وأعز الله به العلم وأيده
وأعلى كلمته وقوى شوكته وأيده بحرمة سيد المرسلين وآخر
دعوانا أن الحمد لله رب العالمين * الداعى على الدوام يوسف
ابن أسعد المفتى الامام بالمسجد الاقصى
والمدرس به انتهى كلامه سلمه
الله تعالى والحمد لله
أولا وآخرا
آمين

(فهرسة الجزء الثانى من تفسير فتح البيان)

صحيفة	
٢	سورة آل عمران
١٦١	سورة النساء

(تمت)

(فهرسة الجزء الثانى من تفسير الحافظ ابن كثير)

صحيفة	
٢	بقية سورة البقرة من آية واذا سألك عبادى عنى فانى قريب
١٩٩	تفسير سورة آل عمران

(تمت)

(الجزء الثانى)

من التفسير المسمى فتح البيان

فى مقاصد القرآن للسيد الامام المجتهد المحقق

الهمام المؤيد من مولاه القدير البارى أبى الطيب صديق

ابن حسن القنوجى البخارى ملك مدينة بهوبال

حالا بالاقطار الهندية لازالت

كواكب فضله فى

الآفاق زاهرة

مضيه

آمين

وبهامشه تفسير الامام الجليل الكبير الحافظ عماد الدين أبى الفداء اسمعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى سنة سبعمائة وأربعة وسبعين

وهذا التفسير جليل فسر بالاحاديث والآثار مسندة من أصحابها مع الكلام على مايحتاج اليه جرحا وتعديلا اه من كشف الظنون

(الطبعة الاولى)

(بالمطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر المحمية)

سنة ١٣٠١ هجريه

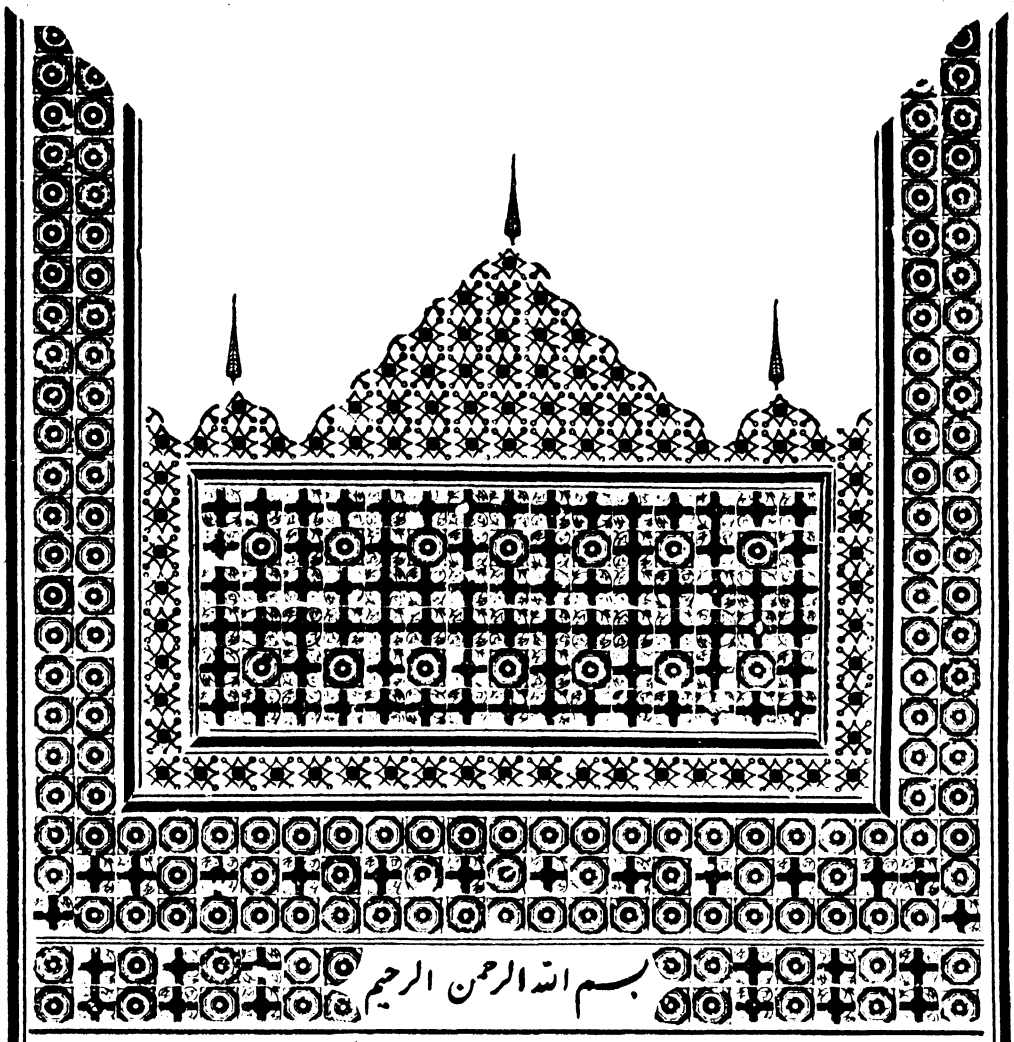

(سورة آل عمران مدنية وهى مائتا آية)

هى مدنية قال القرطبي بالاجماع ومما يدل على ذلك ان صدرها الى ثلاث وثمانين آية نزل فى وفد نجران وكان قدومهم فى سنة تسع من الهجرة واسمها فى التوراة طيبة ٣ حكاه النقاش

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) الله أعلم بمراده بذلك وقد تقدم فى أوائل سورة البقرة ما يغنى عن الاعادة (الله لا اله الا هو الحى القيوم) الجملة مستأنفة أى هو المستحق للعبودية لا يستحقها أحد سواه والحى هو الدائم الباقى الذى لا يصح عليه الموت والقيوم هو القائم بذاته و بتدبير الخلق ومصالحهم فيما يحتاجون اليه فى معاشهم ومعادهم وهو فيعول من قام وقد تقدم تفسير الحى القيوم (نزل) فيه ان وقت نزول هذه الآية لم يكن القرآن تكامل نزوله لان صيغة التفعيل للدلالة على التنجيم (عليك الكتاب) الكتاب القرآن وقدم الظرف على المفعول للاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والمراد بالكتاب اما ما نزل منه اذ ذاك أو يقال الفعل المذكور قبله مستعمل فى الماضى والمستقبل (بالحق) أى متلبسا به فى اخباره والحق الصدق وقيل الحجة (مصدقا) حال آخر من الكتاب مؤكدة و بهذا قال الجمهور وجوز بعضهم ان تكون الحال منتقلة على معنى انه مصدق لنفسه ولغيره (لما بين يديه) أى من الكتب المنزلة وهو من مجاز الكلام لان ما بين يديه هو ما أمامه فسمى ما مضى بين يديه لغاية

(بسم الله الرحمن الرحيم)
(واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن عبدة عن ابن أبى برزة السختيانى عن الصلت بن حكيم ابن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده أن اعرابيا قال يا رسول الله صلى الله عليك وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فانزل الله واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى اذا أمرتهم أن يدعونى فدعونى استجبت ورواه ابن جرير عن محمد بن حميد الرازى عن جرير به ورواه ابن مردويه وأبو الشيخ الاصبهانى من حديث محمد ابن أبى حميد عن جرير به وقال عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان عن عوف عن الحسن قال سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أين ربنا فانزل الله عز وجل

(٣) قوله واسمها فى التوراة طيبة كذا بالاصل وحرر اه

واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعاني الآية وقال ابن جريج عن عطاء انه بلغه لما نزلت وقال ربكم ادعوني أستجب لكم قال الناس لو نعلم أي ساعة ندعوه فنزلت واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعاني وقال الامام أحمد حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي حدثنا خالد الحذاء عن أبي عثمان النهدي عن ابي موسى الاشعري قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شرفا ولا نهبط واديا الا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال فدنا منا فقال يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم (٣) ولا غائبا انما تدعون سميعا بصيرا ان الذي تدعون أقرب الى أحدكم من عنق راحلته يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة لا حول ولا قوة الا بالله اخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة من حديث ابي عثمان النهدي واسمه عبد الرحمن بن على عنه بنحوه وقال الامام احمد حدثنا سليمان بن داود حدثنا شعبة حدثنا قتادة عن انس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه اذا دعاني وقال الامام أحمد ايضا حدثنا على بن اسحق انبأنا عبد الله انبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا اسمعيل بن عبيد الله عن كريمة بنت ابن خشخاش المزنية قالت حدثنا ابو هريرة انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه (قلت) وهذا كقوله تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وقوله لموسى وهرون عليهما السلام أنني معكما اسمع وأرى والمراد من هذا انه تعالى لا يخيب دعاء داع ولا يشغله عنه شيء بل هو سميع الدعاء ففيه ترغيب في الدعاء وانه لا يضيع لديه تعالى كما قال الامام احمد حدثنا يزيد حدثنا رجل انه سمع أبا عثمان هو النهدي يحدث عن سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى ليستحي ان يبسط العبد اليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين قال يزيد سموا لي هذا الرجل فقالوا جعفر بن ميمون وقد رواه ابو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جعفر بن ميمون صاحب الأنباط به وقال الترمذي حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه قال الشيخ الحافظ ابو الحجاج المزي رحمه الله في أطرافه وتابعه أبو همام محمد بن ابي الزبرقان عن سليمان التيمي عن أبي

ظهوره واشتهاره واللام في لما دعامة لتقوية العامل (وأنزل التوراة والانجيل) انما قال هنا أنزل وفيما تقدم نزل لان القرآن نزل منجما مفصلا في أوقات كثيرة والكتابان نزلا دفعة واحدة ولم يذكر في الكتابين من انزلا عليه وذكر فيما تقدم أن الكتاب نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لان القصد هنا ليس الا الى ذكر الكتابين لا ذكر من نزلا عليه وهما اسمان عبرانيان وقيل سريانيان كالزبور وقيل التوراة مشتقة من قولهم وري الزند اذا قدح فظهر منه نار وقيل من وريت في كلامي من التورية وهي التعريض والانجيل مشتق من النجل وهو التوسعة والاول أولى (من قبل) أي قبل تنزيل الكتاب يعني القرآن (هدى) حال أو مفعول له (للناس) والمراد بالناس أهل الكتابين أو ما هو أعم لان هذه الامة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع قال ابن فورك للناس المتقين (وأنزل الفرقان) الفارق بين الحق والباطل وهو القرآن وكرر ذكره تشريفا له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له بانه يفرق بين الحق والباطل قال قتادة فاحل فيه حلاله وحرم فيه حرامه وشرع فيه شرائعه وحد فيه حدوده وفرض فيه فرائضه وبين فيه بيانه وأمر بطاعته ونهى عن معصيته وقال محمد بن جعفر بن الزبير أي الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الاحزاب من أمر عيسى وغيره وذكر التنزيل أولا والانزال ثانيا لكونه جامعا بين الوصفين فانه أنزل الى سماء الدنيا جملة ثم نزل منها الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفرقا منجما على حسب الحوادث كما سبق وقيل انهما لمجرد التعدية والجمع بينهما للتفنن وهو الاولى وقيل أراد بالفرقان جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله وقيل الزبور لاشتماله على المواعظ الحسنة والاول أولى (ان الذين كفروا) قيل أراد بهم نصارى وفد نجران كفروا بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل ان خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ فهو يتناول كل من كفر بشيء من آيات الله (بآيات الله) أي بما يصدق عليه انه آية من الكتب المنزلة وغيرها أو بما في الكتب المنزلة المذكورة على وضع آيات الله موضع الضمير العائد اليها وفيه بيان الامر الذي استحقوا به الكفر (لهم) بسبب هذا الكفر (عذاب شديد) أي عظيم في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالخلود في النار (والله عزيز) لا يغالبه مغالب (ذو انتقام) عظيم والنقمة السطوة يقال انتقم منه اذا عاقبه بسبب ذنب قد تقدم منه وقال محمد بن جعفر بن الزبير أي ان الله ينتقم ممن كفر

عثمان النهدي به وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو عامر حدثنا علي بن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه الله بها احدى ثلاث خصال اما أن يعجل له دعوته واما أن يدخرها له في الاخرى واما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا اذا نكثر قال الله أكثر وقال عبد الله بن الامام أحمد حدثنا اسحق بن منصور الكوسج أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير أن عبادة بن الصامت حدثهم ان النبي صلى الله عليه وسلم (٤) قال ما على ظهر الارض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة الا آتاه الله اياها أو كف عنه من السوء مثلها مالم يدع باثم أو قطيعة رحم ورواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن محمد بن يوسف الفريابي عن ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان به وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه وقال الامام مالك عن ابن شهاب عن أبي عبيد مولى ابن أزهر عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يستجاب لاحدكم مالم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به وهذا لفظ البخاري رحمه الله وأثابه الجنة وقال مسلم في صحيحه حدثني أبو الطاهر حدثنا ابن وهب أخبرني معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبي ادريس الخولاني عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع باثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل قيل يا رسول الله وما الاستعجال قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء

بآياته بعد علمه بها ومعرفته بما جاء منه فيها (ان الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء) هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه واحاطته بالمعلومات لعلمه بما يقع في العالم من كلي وجزئي وفيه رد على الحكماء في قولهم انه لا يعلم الجزئيات الا بوجه كلي لانه في الحقيقة نفي للعلم بالجزئي وعبر عن معلوماته بما في الارض والسماء مع كونها أوسع من ذلك لقصور عباده عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته ومن جملة ما لا يخفى عليه ايمان من آمن من خلقه وكفر من كفر وقال محمد بن جعفر أي قد علم ما يريدون وما يكيدون وما يضاهون بقولهم في عيسى اذ جعلوه ربا والها وعندهم من علمه غير ذلك عز ربنا الله وكفر به لان الاله هو الذي لا يخفى عليه شيء وعيسى يخفى عليه بعض الاشياء باعترافهم فلا يصلح أن يكون الها ففيه رد على النصارى في دعواهم ألوهية عيسى (هو الذي يصوركم في الارحام) أصل اشتقاق الصورة من صاره الى كذا اي أماله اليه فالصورة مائلة الى شبه وهيئة والتصوير جعل الشيء على صورة والصورة هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف والارحام جمع رحم وأصل الرحم من الرحمة لانه مما يترحم به وهذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان احاطة علمه وان من جملة معلوماته ما لا يدخل تحت الوجود وهو تصويره عباده في أرحام أمهاتهم من نطف آبائهم (كيف يشاء) من حسن وقبيح وأسود وأبيض وطويل وقصير وذكر وأنثى وكامل وناقص قيل وقد كان عيسى ممن صور في الارحام لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بني آدم فكيف يكون الها وقد كان بذلك المنزل والمعنى انه الذي يصوركم في ظلمات الارحام صورا مختلفة في الشكل والطبع واللون متفاوتة في الخلقة وذلك من نطفة وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قالوا اذا وقعت النطفة في الارحام طارت في الجسد أربعين يوما ثم تكون علقة أربعين يوما ثم تكون مضغة أربعين يوما فاذا بلغ ان يخلق بعث ملكا يصورها فيأتي الملك بتراب بين اصبعيه فيخلط منه المضغة ثم يعجنه بها ثم يصورها كما يؤمر فيقول أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد وما رزقه وما عمره وما أثره وما مصائبه فيقول الله ويكتب الملك فاذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب قيل هذا أيضا في الرد على النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله وكيف يكون ولد اله وقد صوره الله في الرحم بل هو عبد مخلوق كغيره وانه يخفى عليه ما لا يخفى على الله (لا اله الا هو العزيز الحكيم هو الذي أنزل عليك الكتاب) أي

القرآن

وقال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يزال العبد بخير مالم يستعجل قالوا وكيف يستعجل قال يقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي وقال الامام أبو جعفر الطبري في تفسيره حدثني يونس بن عبد الاعلى حدثنا ابن وهب حدثني أبو صخر أن يزيد بن عبد الله بن قسيط حدثه عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها انها قالت ما من عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب حتى تعجل له في الدنيا أو تؤخر له في الآخرة اذا لم يعجل أو يقنط قال عروة قلت يا أمتاه كيف عجلته قالت يقول سألت فلم أعط ودعوت فلم أجب قال ابن قسيط وسمعت سعيد بن المسيب

يقول كقول عائشة سواء وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا بكر بن عمر عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فاذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالاجابة فانه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن اسحق بن أيوب حدثنا اسحق بن ابراهيم بن أبي نافع بن معديكرب ببغداد حدثني ابن أبي نافع بن معديكرب قال كنت أنا وعائشة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آية أجيب دعوة الداعي اذا دعاني قال يا رب مسئلة عائشة فهبط (٥) جبريل فقال الله يقرؤك السلام هذا عبدي الصالح بالنية الصادقة وقلبه نقي يقول يا رب فأقول لبيك فأقضي حاجته وهذا حديث غريب من هذا الوجه وروى ابن مردويه من حديث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس حدثني جابر بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعاني الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أمرت بالدعاء وتوكلت بالاجابة لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك أشهد أنك فرد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأشهد أن وعدك حق ولقاءك حق والجنة حق والنار حق والساعة آتية لا ريب فيها وأنت تبعث من في القبور وقال الحافظ أبو بكر البزار وحدثنا الحسن بن يحيى الازدي ومحمد بن يحيى الفطعي قالا حدثنا الحجاج بن منهال حدثنا صالح المزي عن الحسن عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى يا ابن آدم واحدة لك وواحدة لي وواحدة فيما بيني وبينك فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيأ وأما التي لك فما عملت من شيء أو من عمل وفيتكه وأما الذي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلي الاجابة وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ارشاد الى الاجتهاد في الدعاء عند اكمال العدة بل وعند كل فطر كما رواه الامام أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا أبو محمد المليكي عن عمرو هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للصائم عند افطاره دعوة مستجابة فكان عبد الله بن عمرو اذا أفطر دعا أهله وولده ودعا وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه حدثنا

القرآن واللام للعهد وقدم الظرف وهو عليك لما يفيده من الاختصاص (منه آيات محكمات) أي بينات مفصلات أحكمت عبارتها من احتمال التأويل والاشتباه كأنه تعالى أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها الظهورها ووضوح معناها (هن أم الكتاب) أي أصله الذي يعول عليه في الاحكام ويعمل به في الحلال والحرام ويرد ما خالفه اليه وهذه الجملة صفة لما قبلها ولم يقل أمهات لان الآيات كلها في تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة أولانه واقع موقع الجمع أولانه بمعنى أصل الكتب والاصل يوحد (وأخر متشابهات) لا تفهم معانيها يعني أن لفظه يشبه لفظ غيره ومعناه يخالف معناه كأوائل السور وأخر جمع أخرى وانما لم تنصرف لانه عدل بها عن الآخر لان أصلها أن يكون كذلك وقال أبو عبيد لم تنصرف لان واحدها لا ينصرف في معرفة ولا نكرة وأنكر ذلك المبرد وقد اختلف العلماء في تفسير المحكمات والمتشابهات على أقوال فقيل ان المحكم ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره والمتشابه ما لم يكن لاحد الى علمه سبيل ومن القائلين بهذا جابر بن عبد الله والشعبي وسفيان الثوري قالوا وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور وقيل المحكم ما لا يحتمل الا وجها واحدا والمتشابه ما يحتمل وجوها فاذا ردت الى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكما وقيل ان المحكم ناسخه وحرامه وحلاله وفرائضه وما يؤمن به ويعمل عليه والمتشابه منسوخه وأمثاله واقسامه وما يؤمن به ولا يعمل عليه روى هذا عن ابن عباس وقيل المحكم الناسخ والمتشابه المنسوخ روى هذا عن ابن مسعود وقتادة والربيع والضحاك وقيل المحكم الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف مما وضع له والمتشابه ما فيه تصريف وتحريف وتأويل قاله مجاهد وابن اسحق قال ابن عطية وهذا أحسن الاقوال وقيل المحكم ما كان قائما بنفسه لا يحتاج الى ان يرجع فيه الى غيره والمتشابه ما يرجع فيه الى غيره قال النحاس وهذا أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات قال القرطبي ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية وهو الجاري على وضع اللسان وذلك ان المحكم اسم مفعول من أحكم والاحكام الاتقان ولا شك في ان ما كان واضح المعنى لا اشكال فيه ولا تردد انما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته واتقان تركيبها ومتى اختل أحد الامرين جاء التشابه والاشكال وقال ابن خواز منداد للمتشابه وجوه ما اختلف فيه العلماء أي الآيتين نسخت الاخرى كما في الحامل المتوفى

هشام بن عمار أخبرنا الوليد بن مسلم عن اسحق بن عبد الله المدني عن عبيد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن عمرو قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ان للصائم عند فطره دعوة ما ترد قال عبيد الله بن أبي مليكة سمعت عبد الله بن عمرو يقول اذا أفطر اللهم اني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي وفي مسند الامام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول بعزتي لانصرنك (٦) ولو بعد حين (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ورفع لما كان عليه الامر في ابتداء الاسلام فانه كان اذا أفطر أحدهم انما يحل له الاكل والشرب والجماع الى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع الى الليلة القابلة فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة والرفث هنا هو الجماع قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وطاوس وسالم بن عبد الله وعمرو بن دينار والحسن وقتادة والزهري والضحاك وابراهيم النخعي والسدي وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وقوله هن لباس لكم وأنتم لباس لهن قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن وقال الربيع بن أنس هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن وحاصله ان الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا قال الشاعر

اذا ما الضجيع ثنى جيدها * تداعت فكانت عليه لباسا

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل وقال أبو اسحق عن البراء بن عازب قال كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اذا كان الرجل صائما فنام قبل أن يفطر

عنها زوجها فان من الصحابة من قال ان آية وضع الحمل نسخت آية الاربعة الاشهر والعشر ومنهم من قال بالعكس وكاختلافهم في الوصية للوارث وكتعارض الآيتين أيهما أولى ان تقدم اذا لم يعرف النسخ ولم توجد شرائطه وكتعارض الاخبار وتعارض الاقيسة هذا معنى كلامه والاولى ان يقال ان المحكم هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة اما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره والمتشابه ما لا يتضح معناه أو لا يظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره واذا عرفت هذا عرفت ان الاختلاف الذي قدمناه ليس كما ينبغي وذلك لان أهل كل قول عرفوا المحكم ببعض صفاته وعرفوا المتشابه بما يقابله وبيان ذلك ان أهل القول الاول جعلوا المحكم ما وجد الى علمه سبيل والمتشابه ما لا سبيل الى علمه ولا شك ان مفهوم المحكم والمتشابه أوسع دائرة مما ذكروه فان مجرد الخفاء أو عدم الظهور أو الاحتمال او التردد يوجب التشابه وأهل القول الثاني خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال والمتشابه بما فيه احتمال ولا شك ان هذا بعض أوصاف المحكم والمتشابه لا كلها وهكذا أهل القول الثالث فانهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الاوصاف المعينة دون غيرها وأهل القول الرابع خصوا كل واحد منهما ببعض الاوصاف التي ذكرها أهل القول الثالث والامر أوسع مما قالوه جميعا وأهل القول الخامس خصوا المحكم بوصف عدم التصريف والتحريف وجعلوا المتشابه مقابله وأهملوا ما هو أهم من ذلك مما لا سبيل الى علمه من دون تصريف وتحريف كفواتح السور المقطعة وأهل القول السادس خصوا المحكم بما يقوم بنفسه والمتشابه بما لا يقوم بها وان هذا هو بعض أوصافهما وصاحب القول السابع وهو ابن خوازمنداد عمد الى صورة الوفاق فجعلها محكما والى صورة الخلاف والتعارض فجعلها متشابها فاهمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى أو غير مفهوم وعن ابن عباس قال المحكمات ثلاث آيات من آخر سورة الانعام قل تعالوا والآيتان بعدها وفي رواية عنه قال من هنا قل تعالوا الى ثلاث آيات ومن هنا وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه الى ثلاث آيات بعدها وأقول رحم الله ابن عباس ما أقل جدوى هذا الكلام المنقول عنه فان تعيين ثلاث آيات أو عشر أو مائة من جميع آيات القرآن ووصفها بانها محكمة ليس تحته من الفائدة شيء فالمحكمات هي أكثر القرآن على جميع الاقوال حتى على قوله المنقول عنه

قريبا

لم يأكل الى مثلها وان قيس بن صرمة الانصارى كان صائما وكان يومه ذلك يعمل فى ارضه فلما حضر الافطار اتى امرأته فقال هل عندك طعام قالت لا ولكن أنطلق فاطلب لك فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائما قالت خيبة لك أنمت فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ففرحوا بها فرحا شديدا ولفظ البخارى ههنا من طريق أبى اسحق سمعت البراء قال لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان (٧) رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال كان المسلمون فى شهر رمضان اذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام الى مثلها من القابلة ثم ان أناسا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام فى شهر رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن الآية وكذا روى العوفى عن ابن عباس وقال موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال ان الناس كانوا قبل أن ينزل فى الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون ويحل لهم شأن النساء فاذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتى أهله حتى يفطر من القابلة فبلغنا ان عمر بن الخطاب بعد ما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله ثم جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أشكو الى الله والى نبيك الذى صنعت قال وما صنعت قال انى سولت لى نفسى فوقعت على أهلى بعد ما نمت وأنا أريد الصوم فزعموا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما كنت خليقا أن تفعل فنزل الكتاب أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم وقال سعيد بن أبى عروبة عن قيس بن سعد عن عطاء بن أبى رباح عن أبى هريرة فى قول الله تعالى أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم الى قوله ثم أتموا الصيام الى الليل قال كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية اذا صلوا العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا وان عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء وان صرمة بن قيس الانصارى غلبته عيناه بعد صلاة المغرب فنام ولم يشبع من الطعام ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله صلى الله

قريبا من ان المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ومايؤمن به والمتشابه مايقابله فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الانعام وقيل المحكمات ما أطلع الله عباده على معناه والمتشابه ما استأثر الله بعلمه فلا سبيل لاحد الى معرفته نحو الخبر عن اشراط الساعة وقيل المحكم سائر القرآن والمتشابه هى الحروف المقطعة فى أوائل السور وقيل ان المحكم مالم يتكرر ألفاظه والمتشابه ما تكررت ألفاظه وقيل غير ذلك وللسلف أقوال كثيرة هى راجعة الى ماقدمنا فى أول هذا البحث (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) أى ميل عن الحق كوفد نجران وغيرهم والزيغ الميل ومنه زاغت الشمس وزاغت الابصار ويقال زاغ يزيغ زيغا اذا ترك القصد ومنه قوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وزاغ وزال ومال متقاربة لكن زاغ لا يقال الا فيما كان من حق الى باطل وقال الراغب الزيغ الميل عن الاستقامة الى أحد الجانبين (فيتبعون ما تشابه منه) أى يحيلون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق وسبب النزول نصارى نجران فيتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ويجعلونه دليلا على ماهم فيه من البدعة المائلة عن الحق كما تجده فى كل طائفة من طوائف البدعة فانهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعبا شديدا ويوردون منه لتنفيق جهلهم ماليس من الدلالة فى شئ (ابتغاء الفتنة) أى طلبا منهم لفتنة الناس فى دينهم والتلبس عليهم وافساد ذات بينهم لا تحريا للحق (وابتغاء تأويله) أى تفسيره على الوجه الذى يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة قال الزجاج المعنى انهم طلبوا تأويل بعثهم واحيائهم فاعلم الله عز وجل ان تأويل ذلك ووقته لا يعلمه الا الله الدليل على ذلك قوله هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله أى يوم يرون ما يوعدون من البعث والنشور والعذاب يقول الذين نسوه أى تركوه قد جاءت رسل ربنا بالحق أى قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل وفى الصحيحين وغيرهما عن عائشة قالت تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذى أنزل عليك الكتاب الى قوله أولوا الالباب قالت قال اذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم وفى لفظ فاذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك سماهم الله فاحذروهم هذا لفظ البخارى ولفظ ابن جرير وغيره فاذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه والذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فلا

عليه وسلم العشاء فقام فأكل وشرب فلما اصبح اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فأنزل الله عند ذلك احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم يعني بالرفث مجامعة النساء هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم يعني تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن يعني جامعوهن وابتغوا ما كتب الله لكم يعني الولد وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل فكان ذلك عفوا من الله ورحمة وقال هشام عن حصين بن عبد (٨) الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يارسول الله اني أردت أهلي البارحة على ما يريد الرجل أهله فقالت انها قد نامت فظننتها تعتل فواقعتها فنزل في عمر أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم وهكذا رواه شعبة عن عمرو بن مرة عن ابن أبي ليلى به وقال أبو جعفر بن جرير حدثني المثنى حدثنا سويد أخبرنا ابن المبارك عن ابن لهيعة حدثني موسى بن جبير مولى بني سلمة انه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال كان الناس في رمضان اذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وقد سمر عنده فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت اني قد نمت فقال ما نمت ثم وقع بها وصنع كعب بن مالك مثل ذلك فغدا عمر بن الخطاب الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن الآية وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة وغيرهم في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع وفي صرمة بن قيس فأباح الجماع والطعام والشراب في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقا وقوله وابتغوا ما كتب الله لكم قال أبو هريرة وابن عباس وأنس وشريح القاضي ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والربيع بن أنس والسدي وزيد بن اسلم والحكم بن عتيبة ومقاتل بن حيان والحسن البصري والضحاك وقتادة وغيرهم يعني الولد وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وابتغوا ما كتب الله لكم يعني الجماع وقال عمرو بن مالك البكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس وابتغوا ما كتب الله

تجالسوهم وأخرج الطبراني وأحمد والبيهقي وغيرهم عن أبي امامة عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال هم الخوارج قال ابن القيم في الاعلام اذا سئل أحد عن تفسير آية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فليس له ان يخرجها عن ظاهرها بوجوه التأويلات الفاسدة لموافقة نحلته وهواه ومن فعل ذلك استحق المنع من الافتاء والحجر عليه وهذا الذي ذكرناه هو الذي صرح به أئمة الكلام قديما وحديثا وقال أبو المعالي الجويني في الرسالة النظامية ذهب أئمة السلف الى الانكفاف عن التأويل واجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها الى الرب تعالى والذي نرتضيه رأيا ونديّن الله به اتباع سلف الامة وقد درج صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الاسلام والمثقلون باعباء الشريعة وكانوا لا يألون جهدا في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون اليه منها ولو كان تأويل هذه الظواهر مسوغا أو محبوبا لألوشك ان يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة واذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الاضراب عن التأويل كان ذلك قاطعا بانه الوجه المتبع فحق على ذي الدين ان يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معناها الى الرب تعالى وقال الغزالي الايمان المستفاد من الكلام ضعيف والايمان الراسخ ايمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع وبعد البلوغ بقرائن يتعذر التعبير عنها وقد اتفقت كلمة الائمة الاربعة على ذم الكلام وأهله وقال بعض أهل العلم كيف لا يخشى الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم من يحمل كلامه على التأويلات المستنكرة والمجازات المستكرهة التي هي بالالغاز والاحاجي أولى منها بالبيان والهداية وهل يأمن على نفسه ان يكون ممن قال الله فيهم ولكم الويل مما تصفون انتهى ولو علم المتأولون كلام الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالتأويلات التي لم يردها ولم يدل عليها كلامه أي باب شر فتحوا على الامة بالتأويلات الفاسدة وأي بناء للاسلام هدموا بها وأي معاقل وحصون استباحوها كان أحدهم لأن يخر من السماء الى الارض أحب اليه ان يتعاطى شيأ من ذلك فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذرا له فيما تأوله هو وقال ما الذي حرم على التأويل واباحه لكم فتأولت الطائفة المنكرة للمعاد نصوص المعاد وكان تأويلهم من جنس تأويل منكري الصفات

لكم قال ليلة القدر رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر قال قال قتادة ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم يقول ما أحل الله لكم وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء بن أبي رباح قال قلت لابن عباس كيف تقرأ هذه الآية وابتغوا ما كتب الله لكم قال أيتهما شئت علمك بالقراءة الاولى واختار ابن جرير ان الآية أعم من هذا كله وقوله وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل أباح تعالى الاكل والشرب مع ما تقدم من اباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم الى أن (٩) يتبين ضياء الصباح من سواد الليل وعبر عن ذلك بالخيط الابيض من الخيط الاسود ورفع اللبس بقوله من من الفجر كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أبو عبد الله البخاري حدثنا ابن أبي مريم حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف حدثنا أبو حازم عن سهل بن سعد قال أنزلت وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود ولم ينزل من الفجر وكان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الابيض والخيط الاسود فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد من الفجر فعلموا انما يعني الليل والنهار وقال الامام أحمد حدثنا هشام أخبرنا حصين عن الشعبي أخبرني عدي بن حاتم قال لما نزلت هذه الآية وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود عمدت الى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض قال فجعلتهما تحت وسادتي قال فجعلت أنظر اليهما فلما تبين لي الابيض من الاسود أمسكت فلما أصبحت غدوت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بالذي صنعت فقال ان وسادك اذا العريض انما ذلك بياض النهار من سواد الليل أخرجاه في الصحيحين من غير وجه عن عدي ومعنى قوله ان وسادك اذا العريض أي ان كان يسع الخيطين الخيط الاسود والابيض المرادين من هذه الآية تحتها فانهما بياض النهار وسواد الليل فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب وهكذا وقع في رواية البخاري مفسرا بهذا حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا أبو عوانة عن حصين عن الشعبي عن عدي قال أخذ عدي عقالا أبيض وعقالا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا فلما أصبح قال يا رسول الله جعلت تحت وسادتي قال ان وسادك اذا العريض أن

الصفات بل أقوى منه لوجوه عديدة يعرفها من وازن بين التأويلين وكذلك فعلت الرافضة في أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة وكذلك فعلت المعتزلة في تأويل أحاديث الرؤية والشفاعة وكذلك القدرية في نصوص القدر وكذلك الحرورية وغيرهم من الخوارج في النصوص التي تخالف مذاهبهم وكذلك القرامطة والباطنية والمتصوفة طردت الباب وحملت الوادي على القرى وتأولت الدين كله فاصل خراب الدين والدنيا انما هو من التأويل الذي لم يرده الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه انه مراده وهل اختلفت الامم على أنبيائهم الا بالتأويل وهل وقعت في الامة فتنة صغيرة أو كبيرة الا بالتأويل فمن بابه دخل اليها وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن الا بالتأويل وليس هذا مختصا بدين الاسلام فقط بل سائر أديان الرسل لم تزل على الاستقامة والسداد حتى دخلها التأويل فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمه الا رب العباد وقد تواترت البشارات بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب المتقدمة ولكن سلطوا عليها التأويلات فافسدوها كما أخبر سبحانه عنهم من التحريف والتبديل والكتمان والتحريف تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يردها المتكلم والتبديل تبديل لفظه بلفظ آخر والكتمان جحده وهذه الادواء الثلاثة منها غيرت الاديان والملل واذا تأملت دين المسيح وجدت النصارى انما تطرقوا الى فساده بالتأويل بما لا يكاد يوجد مثله في شئ من الاديان ودخلوا الى ذلك من باب التأويل وكذلك زنادقة الامم جميعهم انما تطرقوا الى فساد ديانات الرسل بالتأويل ومن بابه دخلوا وعلى أساسه بنوا وعلى نقطه خطوا والمتأولون أصناف عديدة بحسب الباعث لهم على التأويل وبحسب قصور أفهامهم وقودها وأعظمهم توغلا في التأويل الباطل من قصد قصده وفهمه كما شاء قصده وقصر فهمه كان تأويله أشد انحرافا وبالجملة فافتراق أهل الكتابين وافتراق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة انما أوجبه التأويل وانما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل وصفين والحرة وفتنة ابن الزبير وهلم جرا بالتأويل وانما دخل أعداء الاسلام من المتفلسفة والقرامطة والاسماعيلية والنصيرية من باب التأويل فما امتحن الاسلام بمحنة قط الا وسببها التأويل فان محنته اما من المتأولين واما ان تسلط عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل أو خالفوا في ظاهر التنزيل وتعللوا بالاباطيل وما الذي أراق دماء بني جذيمة وهم أسلموا غير التأويل حتى رفع رسول الله صلى الله عليه وآله

(٢ - فتح البيان ني) عليه وسلم فأخبره بالذي صنعت فقال ان وسادك اذا العريض انما ذلك بياض النهار من سواد الليل

كان الخيط الابيض والاسود تحت وسادتك وجاء في بعض الالفاظ انك لعريض القفا ففسره بعضهم بالبلادة وهو ضعيف بل يرجع الى هذا لانه اذا كان وساده عريضا فقفاه أيضا عريض والله أعلم ويفسره رواية البخاري أيضا حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن مطرف عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال قلت يا رسول الله ما الخيط الابيض من الخيط الاسود أهما الخيطان قال انك لعريض القفا ان أبصرت الخيطين ثم قال لا بل هو سواد الليل وبياض النهار وفي اباحته تعالى جواز الاكل الى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لانه من باب (١٠) الرخصة والاخذ بها محبوب ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحث على السحور ففي الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسحروا فان في السحور بركة وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور وقال الامام أحمد حدثنا اسحق بن عيسى هو ابن الطباع حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السحور اكلة بركة فلا تدعوه ولو أن أحدكم يجرع جرعة من ماء فان الله وملائكته يصلون على المتسحرين وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبيها بالاكلين ويستحب تأخيره الى وقت انفجار الفجر كما جاء في الصحيحين عن أنس ابن مالك عن زيد بن ثابت قال تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قمنا الى الصلاة قال أنس قلت لزيد كم كان بين الاذان والسحور قال قدر خمسين آية وقال الامام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن سالم بن غيلان عن سليمان بن أبي عثمان عن عدي بن حاتم الحمصي عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الافطار وأخروا السحور وقد ورد أحاديث كثيرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه الغذاء المبارك وفي الحديث الذي رواه الامام أحمد والنسائي وابن ماجه من رواية حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زيد بن حبيش عن حذيفة قال تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان النهار الا أن الشمس لم تطلع وهو حديث تفرد به عاصم بن أبي النجود قاله النسائي وحمله على أن المراد قرب النهار كما قال تعالى فاذا

وسلم يديه فتبرأ الى الله من فعل المتأول لقتلهم وأخذ أموالهم وما الذي أوجب تأخر الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية عن موافقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير التأويل حتى اشتد غضبه لتأخرهم عن طاعته حتى رجعوا عن ذلك التأويل وما الذي سفك دم أمير المؤمنين عثمان ظلما وعدوانا وأوقع الامة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل وما الذي سفك دم عمار بن ياسر وأصحابه غير التأويل وما الذي أراق دم ابن الزبير وحجر بن عدي وسعيد بن جبير وغيرهم من سادات الامة غير التأويل وما الذي أريقت عليه دماء الغرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل وما الذي جرد الامام أحمد بين العقابين وضرب السياط حتى عجت الخليقة الى ربها غير التأويل وما الذي قتل الامام أحمد بن نصر الخزاعي وخلد خلقا من العلماء في السجون حتى ماتوا غير التأويل وما الذي سلط سوق التتار على دار الاسلام حتى ردوا أهلها غير التأويل وهل دخلت طائفة الالحاد من أهل الحلول والاتحاد الا من باب التأويل وهل فتح باب التأويل الا مضادة ومناقضة لحكم الله في تعليمه عباده البيان الذي امتن في كتابه على الانسان بتعليمه اياه فالتأويل بالالغاز والاحاجي والاغلوطات أولى منه بالبيان وهو فرق بين دفع حقائق ما أخبرت به الرسل عن الله وأمرت به بالتأويلات الباطلة المخالفة له وبين رده وعدم قبوله ولكن هذا ردجحود ومعاندة وذاك رد خداع ومصانعة قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمى بالكشف عن مناهج الادلة وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة الى أن قال وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه وهؤلاء أهل الجدل والكلام وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف انهم تأولوا كثيرا مما ظنوه ليس على ظاهره وقالوا ان هذا التأويل هو المقصود به وانما أمر الله به في صورة المتشابه ابتلاء لعباده واختبارا لهم ونعوذ بالله من هذا الظن بالله بل نقول ان كتاب الله العزيز انما جاء معجزا من جهة الوضوح والبيان فما أبعد من قصد الشارع من قال فيما ليس بمتشابه انه متشابه ثم أول ذلك المتشابه بزعمه وقال لجميع الناس ان فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل مثل ما قالوه في آية الاستواء على العرش وغير ذلك مما قالوا ان ظاهره متشابه قال فهذه هي حالة الفرق الحادثة في هذه الشريعة وذلك ان كل فرقة منهم تأولت غير التأويل الذي تأولته الفرقة الاخرى وزعمت انه هو الذي قصده الشرع حتى تمزق الشرع كل ممزق وبعد جدا عن

موضوعه

بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف أى قاربن انقضاء العدة فاما امساك بمعروف او ترك للفراق وهذا الذى قاله هو المتعين حمل الحديث عليه انهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر حتى ان بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك وقد روى عن طائفة كثيرة من السلف انهم تسامحوا فى السحور عند مقاربة الفجر روى مثل هذا عن أبى بكر وعمر وعلى وابن مسعود وحذيفة وأبى هريرة وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعن طائفة كثيرة من التابعين منهم محمد بن على بن الحسين وأبو مجلز وابراهيم النخعى وأبو الضحى وأبو وائل وغيره من أصحاب ابن مسعود وعطاء (١١) والحسن والحاكم بن عيينة ومجاهد وعروة بن الزبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد واليه ذهب الاعمش وجابر بن راشد وقد حررنا أسانيد ذلك فى كتاب الصيام المفرد ولله الحمد وحكى أبو جعفر بن جرير فى تفسيره عن بعضهم انه انما يحب الامساك من طلوع الشمس كما يجوز الافطار بغروبها (قلت) وهذا القول ما أظن أحدا من أهل العلم يستقر له قدم عليه لمخالفته نص القرآن فى قوله وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل وقد ورد فى الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فانه ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فانه لا يؤذن حتى يطلع الفجر لفظ البخارى وقال الامام أحمد حدثنا موسى ابن داود حدثنا محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن ابيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس الفجر المستطيل فى الافق ولكنه المعترض الاحمر ورواه الترمذى ولفظهما كلوا واشربوا ولا يهدنكم الساطع المصعد فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الاحمر وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا شعبة عن شيخ من بنى قشير سمعت سمرة بن جندب يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى ينفجر الفجر أو يطلع الفجر ثم رواه من حديث شعبة وغيره عن سواد بن حنظلة عن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنعنكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير فى الافق قال وحدثنى يعقوب بن ابراهيم بن علية عن عبد الله بن سودة القشيرى عن

موضوعه الاول ولما علم صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ان مثل هذا يعرض ولا بد فى شريعته قال صلى الله عليه وآله وسلم ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة يعنى بالواحدة التى سلكت ظاهر الشرع ولم تؤوله وأنت اذا تأملت ما عرض فى هذه الشريعة فى هذا الوقت من الفساد والعارض فيها من قبل التأويل تبينت ان هذا المثال صحيح وأول من غير هذا الدواء الاعظم هم الخوارج ثم المعتزلة بعدهم ثم الاشعرية ثم الصوفية ثم جاء أبو حامد فطم الوادى على القرى هذا كلامه بلفظه ولو ذهبنا نستوعب ما جناه التأويل على الدنيا والدين وما قال الامم قديما وحديثا بسببه من الفساد لاستدعى ذلك عدة أسفار والله المستعان (وما يعلم تأويله الا الله) التأويل يكون بمعنى التفسير كقولهم تأويل هذه الكلمة على كذا أى تفسيرها ويكون بمعنى ما يؤول الامر اليه واشتقاقه من آل الامر الى كذا يؤل اليه أى صار وأولته تأويلا أى صيرته وهذه الجملة حالية أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله والحال انه ما يعلم تأويله الا الله وقد اختلف أهل العلم فى قوله (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) هل هو كلام مقطوع عما قبله أو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع فالذى عليه الاكثر انه مقطوع عما قبله وان الكلام تم عند قوله الا الله وهذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وأبى الشعثاء وأبى نهيك وغيرهم وهو مذهب الكسائى والفراء والاخفش وأبى عبيد وحكاه ابن جرير الطبرى عن مالك واختاره وحكاه الخطابى عن ابن مسعود وأبى بن كعب قال وانما روى عن مجاهد انه نسق الراسخين على ما قبله وزعم انهم يعلمونه قال واحتج له بعض أهل اللغة فقال معناه والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين آمنا به وزعم أن موضع يقولون نصب على الحال وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه لان العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا ولا تذكر حالا الا مع ظهور الفعل فاذا لم يظهر فعل لم يكن حالا ولو جاز ذلك لجاز ان يقال عبد الله راكبا يعنى أقبل عبد الله راكبا وانما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله عبد الله يتكلم يصلح بين الناس فكان يصلح حالا فقول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده وأيضا فانه لا يجوز ان ينفى الله سبحانه شيأ عن الخلق وينسبه لنفسه فيكون له فى ذلك شريك ألا ترى قوله عز وجل قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وقوله لا يجليها لوقتها الا هو وقوله كل شئ

أبيه عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض لعمود الصبح حتى يستطير ورواه مسلم في صحيحه عن زهير بن حرب عن اسمعيل بن ابراهيم هو ابن علية مثله سواء وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا ابن المبارك عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنعن أحدكم أذان بلال عن سحوره أو قال نداء بلال فان بلالا يؤذن بليل أو قال ينادي لينبه نائمكم وليرجع قائمكم وليس الفجر أن يقول هكذا وهكذا حتى يقول هكذا ورواه (١٢) من وجه آخر عن التيمي به وحدثني الحسن بن الزبرقان النخعي حدثنا أبو أسامة عن محمد بن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر فجران فالذي كأنه ذنب السرحان لا يحرم شيأ وانما هو المستطير الذي يأخذ الافق فانه يحل الصلاة ويحرم الطعام وهذا مرسل جيد وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء سمعت ابن عباس يقول هما فجران فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيأ ولكن الفجر الذي يستنير على رؤس الجبال هو الذي يحرم الشراب وقال عطاء فأما اذا سطع سطوعا في السماء وسطوعه ان يذهب في السماء طولا فانه لا يحرم به شراب للصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج ولكن اذا انتشر على رؤس الجبال حرم الشراب للصيام وفات الحج وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس وعطاء وهكذا روى عن غير واحد من السلف رحمهم الله *(مسئلة)* ومن جعله تعالى الفجر غاية لاباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل به على أنه من أصبح جنبا فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه وهذا مذهب الائمة الاربعة وجمهور العلماء سلفا وخلفا لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما انهما قالتا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبح جنبا من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وفي حديث أم سلمة عندهما ثم لا يفطر ولا يقضي وفي صحيح مسلم عن عائشة ان رجلا قال يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم فقال لست مثلنا يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال والله اني لارجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما اتقي فأما

هذا

هالك الا وجهه فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لا يشركه فيه غيره وكذلك قوله تعالى وما يعلم تأويله الا الله ولو كانت الواو في قوله والراسخون للنسق لم يكن لقوله كل من عند ربنا فائدة انتهى قال القرطبي ما حكاه الخطابي من انه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد روى عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل وانهم داخلون في علم المتشابه وانهم مع علمهم به يقولون آمنا به وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم ويقولون على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين ولا يخفاك أن ما قاله الخطابي في وجه امتناع كون قوله يقولون آمنا به حالا من أن العرب لا تذكر حالا الا مع ظهور الفعل الى آخر كلامه لا يتم الا على فرض انه لا فعل هنا وليس الامر كذلك فالفعل مذكور وهو قوله وما يعلم تأويله ولكنه جاء الحال من المعطوف وهو قوله والراسخون دون المعطوف عليه وهو قوله الا الله وذلك جائز في اللغة العربية وقد جاء مثله في الكتاب العزيز ومنه قوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم الى قوله والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا الآية وكقوله وجاء ربك والملك صفا صفا أي وجاءت الملائكة صفا صفا ولكن ههنا مانع آخر من جعل ذلك حالا وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح فان الراسخين في العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه في كل حال من الاحوال الا في هذه الحالة الخاصة فاقتضى هذا ان جعل قوله يقولون آمنا به حالا غير صحيح فتعين المصير الى الاستئناف والجزم بان قوله والراسخون في العلم مبتدأ خبره يقولون قال البغوي وهذا أقيس بالعربية وأشبه بظاهر الآية ومن جملة ما استدل به القائلون بالعطف ان الله سبحانه مدحهم بالرسوخ في العلم فكيف يمدحهم وهم لا يعلمون ذلك ويجاب عن هذا بان تركهم لطلب علم ما لم يأذن الله به ولا جعل لخلقه الى علمه سبيلا هو من رسوخهم لانهم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه وان الذين يتبعونه هم الذين في قلوبهم زيغ وناهيك بهذا من رسوخ وأصل الرسوخ في لغة العرب الثبوت في الشيء وكل ثابت راسخ وأصله في الاجرام أن يرسخ الجبل أو الشجر في الارض فهؤلاء يثبتوا في امتثال ما جاءهم عن الله من ترك اتباع المتشابه وارجاع علمه الى الله سبحانه ومن أهل العلم من توسط بين القالين فقال التأويل يطلق ويراد به في القرآن شيئان أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره اليه ومنه قوله

الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن ابى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اذا نودى للصلاة صلاة الصبح وأحدكم جنب فلا يصم يومئذ فانه حديث جيد الاسناد على شرط الشيخين كما ترى وهو فى الصحيحين عن أبى هريرة عن الفضل بن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم وفى سنن النسائى عنه عن أسامة بن زيد والفضل بن عباس ولم يرفعه فمن العلماء من عمل هذا الحديث بهذا ومنهم من ذهب اليه ويحكى هذا عن أبى هريرة وسالم وعطاء وهشام بن عروة والحسن البصرى ومنهم من ذهب الى التفرقة بين أن يصبح جنبا نائما فلا على لحديث

هذا تأويل رؤياى ومنه قوله هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله أى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد فان أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة لان حقائق الامور وكنهها لا يعلمها الا الله عز وجل ويكون قوله والراسخون فى العلم مبتدأ ويقولون آمنا به خبره وأما ان أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشئ كقوله نبئنا بتأويله أى بتفسيره فالوقف على والراسخون فى العلم لانهم يعلمون وينفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار وان لم يحيطوا علما بحقائق الاشياء على كنه ما هى عليه وعلى هذا فيكون يقولون آمنا به حالا منهم ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون تأويله وأطنب فى ذلك وهكذا جماعة من محققى المفسرين رجحوا ذلك قال القرطبى قال شيخنا أحمد بن عمرو هو الصحيح فان تسميتهم راسخين يقضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب وفى أى شئ هو رسوخهم اذا لم يعلموا الا ما يعلم الجميع لكن المتشابه يتنوع فمنه ما لا يعلم البتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بعلمه وهذا لا يتعاطى علمه أحد فمن قال من العلماء الحذاق بان الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فانما أراد هذا النوع وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة فيتأول ويعلم تأويله المستقيم ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم انتهى وقال الرازى لو كان الراسخون فى العلم عالمين بتأويله لما كان لتخصيصهم بالايمان به وجه فانهم لما عرفوه بالدلائل صار الايمان به كالايمان بالمحكم فلا يكون فى الايمان به مخصوصه مزيد مدح وأقول هذا الاضطراب الواقع فى مقالات اهل العلم أعظم أسبابه اختلاف أقوالهم فى تحقيق معنى المحكم والمتشابه وقد قدمنا ما هو الصواب فى تحقيقهما ونزيدك ههنا ايضاحا وبيانا فنقول ان من جملة ما يصدق عليه تفسير المتشابه الذى قدمناه فواتح السور فانها غير متضحة المعنى ولا ظاهرة الدلالة لا بالنسبة الى أنفسها لانه لا يدرى من يعلم بلغة العرب ويعرف عرف الشرع ما معنى الم المر حم طس طسم ونحوها لانه لا يجد بيانها فى شئ من كلام العرب ولا من كلام الشرع فهى غير متضحة المعنى لا باعتبارها فى نفسها ولا باعتبار أمر آخر يفسرها ويوضحها ومثل ذلك الالفاظ المنقولة عن لغة العجم والالفاظ العربية التى لا يوجد فى لغة العرب ولا فى عرف الشرع ما يوضحها وهكذا ما استأثر الله بعلمه كالروح وما فى قوله ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام الى آخر الآية ونحو ذلك

لحديث أبى هريرة يحكى هذا عن عروة وطاوس والحسن ومنهم من فرق بين الفرض فيتم فيقضيه وأما النفل فلا يضره رواه الثورى عن منصور عن ابراهيم النخعى وهو رواية عن الحسن البصرى أيضا ومنهم من ادعى نسخ حديث أبى هريرة بحديثى عائشة وأم سلمة ولكن لا تاريخ معه وادعى ابن حزم انه منسوخ بهذه الآية وهو بعيد أيضا اذ لا تاريخ بل الظاهر من التاريخ خلافه ومنهم من حمل حديث أبى هريرة على نفى الكمال فلا صوم له لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز وهذا المسلك أقرب الاقوال وأجمعها والله أعلم وقوله ثم أتموا الصيام الى الليل يقتضى الافطار عند غروب الشمس حكما شرعيا كما جاء فى الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر أخرجاه وقال الامام أحمد حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الاوزاعى حدثنى قرة بن عبد الرحمن عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل ان أحب عبادى الى أعجلهم فطرا ورواه الترمذى من غير وجه عن الاوزاعى به وقال هذا حديث حسن غريب وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبيد الله بن اياد سمعت اياد بن لقيط سمعت ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت أردت ان أصوم يومين مواصلة فنهانى بشير وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه وقال ينسل ذلك النصارى ولكن صوموا كما أمركم الله ثم أتموا الصيام الى الليل فاذا كان

الليل فأفطروا ولهذا ورد في الاحاديث الصحيحة النهي عن الوصال وهو ان يصل يوما بيوم آخر ولا يأكل بينهما شيأ قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تواصلوا قالوا يا رسول الله انك تواصل قال فاني لست مثلكم اني أبيت يطعمني ربي ويسقيني قال فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبي صلى الله عليه وسلم يومين وليلتين ثم راوا الهلال فقال لو تأخر الهلال لزدتكم كالمنكل لهم وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به وكذلك أخرجا النهي عن الوصال من حديث أنس وابن عمر وعن عائشة رضي الله عنها قالت نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال رحمة لهم فقالوا انك تواصل قال اني لست كهيئتكم اني يطعمني ربي ويسقيني فقد ثبت النهي عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم وانه كان يقوى على ذلك ويعان والاظهر ان ذلك الطعام والشراب في حقه انما كان معنويا لا حسيا والا فلا يكون مواصلا مع الحسي ولكن كما قال الشاعر

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس الى وقت السحر فله ذلك كما في حديث ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل الى السحر قالوا فانك تواصل يا رسول الله قال اني لست كهيئتكم اني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني أخرجاه في الصحيحين أيضا وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو نعيم حدثنا أبو اسرائيل العنسي عن أبي بكر بن حفص عن أم ولد حاطب بن أبي بلتعة انها مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتسحر فدعاها الى الطعام فقالت اني صائمة قال وكيف تصومين فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال أين أنت من وصال آل محمد من السحر الى السحر وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا اسرائيل عن عبد الاعلى عن محمد بن علي عن علي ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يواصل من السحر الى السحر وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف انهم كانوا يواصلون الايام المتعددة وحمله منهم على انهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لانفسهم لانهم كانوا يفعلونه عبادة والله اعلم ويحتمل انهم كانوا يفهمون من النهي

وهكذا ما كانت دلالته غير ظاهرة لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره كورود الشيء محتملا لامرين احتمالا لا يترجح أحدهما على الآخر باعتبار ذلك الشيء في نفسه وذلك كالالفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنيي ذلك المشترك من الامور الخارجة وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضا كليا بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر باعتبار نفسه ولا باعتبار أمر آخر يرجحه وأما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه بان يكون معروفا في لغة العرب أو في عرف الشرع أو باعتبار غيره وذلك كالامور المجملة التي ورد بيانها في موضع آخر في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة والامور التي تعارضت دلالتها ثم ورد ما يبين راجحها من مرجوحها في موضع آخر من الكتاب أو السنة أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الاصول المقبولة عند أهل الانصاف فلا شك ولا ريب ان هذه من المحكم لا من المتشابه ومن زعم انها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب فاشدد يديك على هذا فانك تنجو به من مضايق ومزالق وقعت للناس في هذا المقام حتى صارت كل طائفة تسمي ما دل لما تذهب اليه محكما وما دل على ما يذهب اليه من يخالفها متشابها سيما أهل علم الكلام ومن أنكر هذا فعليه بموالفاتهم واعلم انه قد ورد في الكتاب العزيز ما يدل على انه جميعه محكم لكن لا بهذا المعنى الوارد في الآية هذه بل بمعنى آخر ومن ذلك قوله تعالى كتاب أحكمت آياته وقوله تلك آيات الكتاب الحكيم والمراد بالمحكم بهذا المعنى انه صحيح الالفاظ قويم المعنى فائق في البلاغة والفصاحة على كل كلام وورد أيضا ما يدل على انه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها بل بمعنى آخر ومنه قوله تعالى كتابا متشابها والمراد بالمتشابه بهذا المعنى انه يشبه بعضه بعضا في الصحة والفصاحة والحسن والبلاغة وقد ذكر أهل العلم لورود المتشابه في القرآن فوائد منها انه يكون في الوصول الى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة ومشقة وذلك يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق وهم الائمة المجتهدون وقد ذكر الزمخشري والرازي وغيرهما وجوها هذا أحسنها وبقيتها لا تستحق الذكر ههنا وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كان الكتاب الاول ينزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن على سبعة أحرف زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه

انه ارشادى من باب الشفقة كما جاء فى حديث عائشة رحمة لهم فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يحشمون ذلك
و يفعلونه لانهم كانوا يجدون قوة عليه وقد ذكر عنهم انهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر لئلا تخرق الامعاء بالطعام أولا
وقد روى عن ابن الزبير انه كان يواصل سبعة أيام و يصبح فى اليوم السابع أقواهم وأجلدهم وقال أبو العالية انما فرض الله الصيام
بالنهار فاذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل وقوله تعالى ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد قال على بن أبى طلحة عن ابن
عباس هذا فى الرجل يعتكف فى المسجد فى رمضان أو فى غير رمضان فحرم الله عليه ان ينكح النساء ليلا أو نهارا حتى
يقضى اعتكافه وقال الضحاك
كان الرجل اذا اعتكف فخرج من
المسجد جامع ان شاء فقال الله
تعالى ولا تباشروهن وأنتم عاكفون
فى المساجد أى لا تقربوهن مادمتم
عاكفين فى المسجد ولا فى غيره
وكذا قال مجاهد وقتادة وغير
واحد انهم كانوا يفعلون ذلك حتى
نزلت هذه الآية قال ابن أبى حاتم
روى عن ابن مسعود ومحمد بن
كعب ومجاهد وعطاء والحسن
وقتادة والضحاك والسدى والربيع
ابن أنس ومقاتل قالوا لا يقربها
وهو معتكف وهذا الذى حكاه
عن هؤلاء هو الامر المتفق عليه
عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه
النساء مادام معتكفا فى مسجده
ولو ذهب الى منزله لحاجة لا بد له
منها فلا يحل له ان يثبت فيه الا
بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من
قضاء الغائط أو الاكل وليس له ان
يقبل امرأته ولا ان يضمها اليه ولا
يشتغل بشئ سوى اعتكافه ولا
يعود المريض لكن يسأل عنه
وهو مار فى طريقه وللاعتكاف
أحكام مفصلة فى بابه منها ما هو
مجمع عليه بين العلماء ومنها ما هو مختلف فيه وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك فى آخر كتاب الصيام ولله الحمد والمنة ولهذا كان
الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم فانه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم وفى
ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام ارشاد وتنبيه على الاعتكاف فى الصيام أو فى آخر شهر الصيام كما ثبتت السنة عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم انه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده أخرجاه من
حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وفى الصحيحين ان صفية بنت حيي كانت تزور النبى صلى الله عليه وسلم وهو معتكف فى

عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا
وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال نزل
القرآن على سبعة أحرف والمراء فى القرآن كفر ما عرفتم فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه الى
عالمه واسناده صحيح وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس تفسير القرآن على أربعة
وجوه تفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعذر الناس بجهالته من حلال أو حرام وتفسير تعرفه
العرب بلغتها وتفسير لا يعلم تأويله الا الله من ادعى علمه فهو كاذب وأخرج الدارمى فى
مسنده ونصر المقدسى فى الحجة عن سليمان بن يسار ان رجلا يقال له صبيغ قدم المدينة
فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل اليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال من أنت
فقال أنا صبيغ فقال وأنا عبد الله عمر فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى
دمى رأسه فقال يا أمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى وأخرجه الدارمى
أيضا من وجه آخر وفيه انه ضربه ثلاث مرات يتركه فى كل مرة حتى يبرأ ثم يضربه وأصل
القصة أخرجه ابن عساكر فى تاريخه عن أنس وأخرج الدارمى وابن عساكر ان عمر كتب
الى أهل البصرة ان لا تجالسوا صبيغا وقد أخرج هذه القصة جماعة وأخرج ابن جرير
وابن أبى حاتم والطبرانى عن أنس وأبى أمامة وواثلة بن الاسقع وأبى الدرداء ان رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الراسخين فى العلم فقال من برت يمينه وصدق لسانه
واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين فى العلم وأخرج أبو داود والحاكم
عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجدال فى القرآن كفر واخرج
نصر المقدسى فى الحجة عن ابن عمر قال خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن وراء
حجرته قوم يتجادلون بالقرآن فخرج محمرة وجنتاه كأنما تقطر ان دما فقال يا قوم لا تجادلوا
بالقرآن فانما ضل من كان قبلكم بجدالهم ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ولكن
نزل يصدق بعضه بعضا فما كان من محكمه فاعملوا به وما كان من متشابهه فآمنوا به (كل
من عند ربنا) فيه ضمير مقدر عائد على قسمى المحكم والمتشابه أى كله أو المحذوف غير ضمير
أى كل واحد منهما وهذا من تمام المقول المذكور قبله (وما يذكر الا أولوا الالباب) أى
العقول الخالصة وهم الراسخون فى العلم الواقفون عند متشابهه العاملون بمحكمه بما
ارشدهم الله اليه فى هذه الآية (ربنا لا تزغ قلوبنا) قال ابن كيسان سألوا ان لا يزيغوا

المسجد فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع الى منزلها وكان ذلك ليلا فقام النبي صلى الله عليه وسلم ليمشي معها حتى تبلغ دارها وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الانصار فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا وفي رواية توأريا أي حياء من النبي صلى الله عليه وسلم لكون معه أهله فقال لهما صلى الله عليه وسلم على رسلكما انها صفية بنت حيي أي لا تسرعا واعلما انها صفية بنت حيي أي زوجتي فقالا سبحان الله يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم واني خشيت (١٦) ان يقذف في قلوبكما شيأ او قال شرا قال الشافعي رحمه الله أراد عليه السلام ان يعلم أمته التبرى من التهمة في محلها لئلا يقعا في محذور هما كانا أتقى لله من ان يظنا بالنبي صلى الله عليه وسلم شيأ والله أعلم ثم المراد بالمباشرة انما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها انها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدني الي رأسه فارجله وأنا حائض وكان لا يدخل البيت الا لحاجة الانسان قالت عائشة ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه الا وأنا مارة وقوله تلك حدود الله أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا فيه وما حرمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه حدود الله أي شرعها الله وبينها بنفسه فلا تقربوها أي لا تجاوزوها وتعتدوها وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله تلك حدود الله أي المباشرة في الاعتكاف وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني هذه الحدود الاربعة ويقرأ أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم حتى بلغ ثم اتموا الصيام الى الليل قال وكان أبي وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا كذلك يبين الله آياته للناس العرب أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الاحكام على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم للناس لعلهم يتقون أي يعرفون كيف يتعبدون وكيف يطيعون كما قال تعالى هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وان الله بكم لرؤف رحيم (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون) قال علي بن أبي طلحة وعن ابن عباس هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة فيجحد المال ويخاصم

فتزيغ قلوبهم نحو قوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم كأنهم لما سمعوا قوله تعالى وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه قالوا ربنا لا تزغ قلوبنا باتباع المتشابه (بعد اذ هديتنا) الى الحق بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات (وهب لنا من لدنك رحمة) أي كائنة من عندك ومن لابتداء الغاية ولدن بفتح اللام وضم الدال وسكون النون وفيه لغات أخر هذه أفصحها وهو ظرف مكان وقد يضاف الى الزمان وتنكير رحمة للتعظيم أي رحمة عظيمة واسعة تزلفنا اليك وتفوز بها عندك أو توفيقا للثبات على الحق أو مغفرة للذنوب (انك أنت الوهاب) لكل مسؤل تعليل للسؤال أو لاعطاء المسؤل وهذا العموم مفهوم من عدم ذكر الموهوب فالتخصيص بموهوب مسؤل دون آخر تخصيص بلا مخصص وفيه دليل على ان الهدى والضلال من الله وانه متفضل بما ينعم به على عباده لا يجب عليه شيء لانه وهاب أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ثم قرأ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا الآية وقد ورد نحوه من طرق أخر (ربنا انك جامع الناس) أي باعثهم ومحييهم بعد تفريقهم وهو من اضافة الفاعل الى المفعول (ليوم) هو يوم القيامة أي لحساب يوم او لجزاء يوم على تقدير حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه (لا ريب فيه) اى في وقوعه ووقوع ما فيه من الحساب والجزاء وقد تقدم تفسير الريب (ان الله لا يخلف الميعاد) تعليل لمضمون ما قبلها اى ان الوفاء بالوعد شأن الاله سبحانه وخلفه يخالف الالوهية كما انها تنافيه واظهار الاسم الجليل لابراز كمال التعظيم والاجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيب الهائل بخلاف ما في آخر هذه السورة فانه مقام طلب الانعام والميعاد مفعال من الوعد بمعنى المصدر لا الزمان والمكان قاله أبو البقاء واليه اشار في التقرير وفيه التفات من الخطاب ويحتمل ان يكون من كلامه تعالى والغرض من الدعاء بذلك بيان ان همهم أمر الآخرة ولذلك سألوا الثبات على الهداية لينالوا ثوابها اخرج ابن النجار في تاريخه عن جعفر بن محمد الخلدي قال روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان من قرأ هذه الآية على شيء ضاع منه رده الله عليه ويقول بعد قراءتها يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين مالي انك على كل شيء قدير (ان الذين كفروا) المراد بالذين كفروا جنس الكفرة الشامل لجميع الاصناف وقيل وفد نجران وقيل قريظة وقيل النضير وقيل مشركو

الى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه وهو يعلم انه آثم آكل الحرام وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا انما أنا بشر وانما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له فمن قضيت له بحق مسلم فانما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشئ في نفس الامر فلا يحل في نفس الامر حراما هو حلال ولا يحرم باطلا هو حلال وانما هو ملزم في الظاهر فان طابق في نفس الامر فذاك والا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ولهذا قال تعالى ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون أي تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم قال قتادة اعلم يا بن آدم ان قضاء القاضي لا يحل لك حراما ولا يحق لك باطلا وانما يقضي القاضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود والقاضي بشر يخطئ ويصيب واعلموا ان من قضى له بباطل ان خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا (يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون) قال العوفي عن ابن عباس سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاهلة فنزلت هذه

العرب (لن تغني) أي لن تنفع ولن تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله) أي من عذابه (شيأ) أي شيأ من الاغناء ومن لابتداء الغاية مجازا وقيل ان كلمة من بمعنى عند أي لا تغني عند الله شيأ قاله أبو عبيد وقيل هي بمعنى بدل والمعنى بدل رحمة الله قاله القاضي وهو بعيد قال أبو حيان أنكره أكثر النحاة بل هي لابتداء الغاية كما قاله المبرد (وأولئك هم وقود النار) الوقود اسم للحطب وقد تقدم الكلام عليه في سورة البقرة أي هم حطب جهنم الذي تسعر به والجملة مستأنفة مقررة لقوله لن تغني عنهم أموالهم الآية وقرئ وقود بضم الواو وهو مصدر أي هم أهل وقود (كدأب آل فرعون) الدأب الاجتهاد يقال دأب الرجل في عمله يدأب دأبا ودؤبا اذا جد واجتهد والدائبان الليل والنهار والدأب الحال والعادة والشان والمراد هنا كعادة آل فرعون وشأنهم وحالهم وقال ابن عباس كفعل آل فرعون وصنعهم في الكفر وقيل كسنة آل فرعون واختلفوا في الكاف فقيل دأبهم كدأب آل فرعون مع موسى وقال الفراء كفرت العرب ككفر آل فرعون وأنكره النحاس وقيل أخذهم أخذة كما أخذ آل فرعون وقيل لم تغن عنهم غناء كما لم تغن عن آل فرعون وقيل العامل فعل مقدر من لفظ الوقود ويكون التشبيه في نفس الاحراق قالوا ويؤيده قوله تعالى ادخلوا آل فرعون أشد العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا والقول الاول هو الذي قاله جمهور المحققين ومنهم الازهري (والذين من قبلهم) أي من قبل آل فرعون من الامم الكافرة الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم أي وكدأب الذين من قبلهم (كذبوا بآياتنا) لما جاءتهم بها الرسل يحتمل ان يراد بالآيات المتلوة ويحتمل أن يراد بها الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية ويصح ارادة الجميع وقال في الانفال كذبوا وفي موضع آخر منها كفروا تفننا جريا على عادة العرب في تفننهم في الكلام (فأخذهم الله بذنوبهم) أي فعاقبهم الله بسبب تكذيبهم أو المراد سائر ذنوبهم التي من جملتها تكذيبهم (والله شديد العقاب) أي شديد عقابه فالاضافة غير محضة وقيل المعنى ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الامم الماضية فأخذناهم فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم) قيل هم اليهود وقيل هم مشركو مكة وقد صدق الله وعده بقتل بني قريظة واجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على سائر اليهود

(٣ - فتح البيان ني) الآية يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس يعلمون بها حل ديونهم وعدة نسائهم ووقت حجهم وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية بلغنا انهم قالوا يا رسول الله لم خلقت الاهلة فأنزل الله يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وافطارهم وعدة نسائهم ومحل ديونهم وكذا روى عن عطاء والضحاك وقتادة والسدى والربيع بن أنس نحو ذلك وقال عبد الرزاق عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الله الاهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فان غم عليكم فعدوا ثلاثين يوما ورواه الحاكم في

مستدركه من حديث ابن أبي روادبه وقال كان ثقة عابدا مجتهدا شريف النسب فهو صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال محمد بن جابر
عن قيس بن طاق عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الله الاهلة فاذا رايتم الهلال فصوموا واذا رأيتموه فافطروا
فان أغمى عليكم فأكملوا العدة ثلاثين وكذا روى من حديث أبي هريرة ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقوله
وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها قال البخاري حدثنا عبيد الله بن موسى
عن اسرائيل عن أبي اسحق عن (١٨) البراء قال كانوا اذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله وليس البر
بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها وكذا رواه أبو داود الطيالسي وعن شعبة عن أبي اسحق عن البراء قال كانت الانصار اذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه فنزلت هذه الآية وقال الاعمش عن أبي سفيان عن جابر كانت قريش تدعى الحمس وكانوا يدخلون من الابواب في الاحرام وكانت الانصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بستان اذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر من الانصار فقالوا يا رسول الله ان قطبة بن عامر رجل تاجر وانه خرج معك من الباب فقالوا له ما حملك على ما صنعت قال رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت فقال اني أحمس قال له فان ديني دينك فأنزل الله وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها رواه ابن أبي حاتم ورواه العوفي عن ابن عباس بنحوه وكذا روى عن مجاهد والزهري وقتادة وابراهيم النخعي والسدي والربيع بن أنس وقال الحسن البصري كان اقوام من أهل الجاهلية اذا أراد أحدهم سفرا وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسوره من قبل ظهره فقال الله تعالى ليس ذلك بالبر أن تأتوا البيوت من ظهورها الآية وقال محمد بن كعب كان الرجل اذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت فأنزل الله هذه الآية وقال عطاء بن أبي رباح كان أهل يثرب اذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون ان ذلك أدنى الى البر فقال الله وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها

ولله الحمد قرئ الفعلان بالتاء واليا فعلى الاولى معناه قل لهم ستغلبون وتحشرون وعلى الثانية معناه بلغهم يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم انهم سيغلبون ويحشرون (وبئس المهاد) يحتمل ان يكون من تمام القول الذي امر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان يقوله لهم ويحتمل ان تكون الجملة مستأنفة تهويلا وتفظيعا أي بئس ما مهدلهم في النار والمهاد الفراش (قد كان لكم آية) أي علامة عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم وهذه الجملة من تمام القول المأمور به لتقرير مضمون ما قبله والخطاب لليهود وقيل لجميع الكفار وقيل للمؤمنين وعلى الاخيرين تكون الآية مستأنفة غير مرتبطة بما قبلها ولم يقل كانت لان التأنيث غير حقيقي وقيل انه رد المعنى الى البيان فعناه قد كان لكم بيان فذهب الى المعنى وترك اللفظ وقال الفراء انما ذكر لانه حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث فذكر الفعل وكل ما جاء من هذا فهذا وجهه ومعنى الآية قد كان لكم عبرة ودلالة على صدق ما أقول انكم ستغلبون (في فئتين) أي فرقتين وأصلها في الحرب لان بعضهم يفيء الى بعض أي يرجع والفئة الجماعة ولا واحد لها من لفظها وجمعها فئات وقد تجمع بالواو والنون جبرا لما نقص وسميت الجماعة من الناس فئة لانه يفاء اليها أي يرجع في وقت الشدة قاله القرطبي وقال الزجاج الفئة الفرقة مأخوذ من فأوت رأسه بالسيف اذا قطعته (التقتا) لا خلاف في ان المراد بالفئتين هما المقتتلتان يوم بدر وانما وقع الخلاف في المخاطب بهذا الخطاب فقيل المخاطب به المؤمنون وبه قال ابن مسعود والحسن وقيل اليهود وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت نفوسهم وتشجيعها وفائدته اذا كان مع اليهود وعكس الفائدة المقصودة بخطاب المسلمين وقيل هو خطاب لكفار مكة (فئة تقاتل في سبيل الله) أي في طاعة الله وهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلا من الانصار وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة (وأخرى كافرة) وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا من المقاتلة وكان رأسهم عتبة بن ربيعة وكان فيها مائة فرس وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد الهجرة وفي الكلام شبه احتباك تقديره فئة مؤمنة

ولا يرون ان ذلك ادنى الى البر وقوله واتقوا الله لعلكم تفلحون أى اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه لعلكم تفلحون غدا اذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) قال أبو جعفر الرازى (١٩) عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم قال هذه أول آية نزلت فى القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال هذه منسوخة بقوله فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وفى هذا نظر لان قوله الذين يقاتلونكم انما هو تهييج واغراء بالاعداء الذين همتهم قتال الاسلام وأهله أى كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم كما قال وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ولهذا قال فى هذه الآية واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم أى لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى اخراجهم من بلادهم التى اخرجوكم منها قصاصا وقوله ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين أى قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتدوا فى ذلك ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى كما قاله الحسن البصرى من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الاشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم ولهذا جاء فى صحيح مسلم عن بريدة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اغزوا فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولأصحاب الصوامع رواه الامام أحمد وعن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث جيوشه قال اخرجوا باسم الله قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع رواه الامام

مؤمنة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل فى سبيل الشيطان فحذف من الاول ما يفهم من الثانى ومن الثانى ما يفهم من الاول (يرونهم مثليهم رأى العين) قال أبو على الفارسى الرؤية فى هذه الآية رؤية العين ولذلك تعدت الى مفعول واحد ويدل عليه قوله رأى العين والمراد انه يرى المشركون المؤمنين مثلى عدد المشركين أو مثلى عدد المسلمين وقد ذهب الجمهور الى ان فاعل يرونهم المؤمنون والمفعول هم الكفار والضمير فى مثليهم يحتمل أن يكون للمشركين أى يرون المسلمون المشركين مثلى ما هم عليه من العدد وفيه بعد اذ يلزم ان يكثر الله المشركين فى أعين المسلمين وقد أخبرنا انه قللهم فى أعين المؤمنين وان يكون للمسلمين فيكون المعنى يرون المسلمون المشركين مثلى المسلمين ليطمعوا فيهم وقد كانوا علموا من قوله تعالى فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ان الواحد يغلب الاثنين وهذا على قراءة الجمهور بالياء التحتية وأما على قراءة نافع بالفوقية ففيها وجهان الاول ان يكون الخطاب فى ترونهم للمسلمين والضمير المنصوب فيه للكافرين والضمير المجرور فى مثليهم أيضا للمسلمين بطريق الالتفات فيكون المعنى ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم فى العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم فقلل الله المشركين فى أعين المسلمين فاراهم اياهم مثلى عدتهم لتقوى أنفسهم والثانى ان يكون الضمير المنصوب أيضا للمسلمين أى ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلى ما أنتم عليه من العدد لتقوى بذلك أنفسكم وقد قال من ذهب الى التفسير الاول أعنى ان فاعل الرؤية المشركون وانهم رأوا المسلمين مثلى عددهم انه لا يناقض هذا ما فى سورة الانفال من قوله تعالى ويقللكم فى أعينهم بل قللوا أولا فى أعينهم ليلاقوهم ويجتروا عليهم فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا ورأى العين مصدر مؤكد لقوله يرونهم أى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها (والله يؤيد بنصره من يشاء) أى يقوى من يشاء ان يقويه ولو بدون الاسباب العادية ومن جملة ذلك تأييد أهل بدر بتلك الرؤية (ان فى ذلك) أى فى رؤية القليل كثيرا (لعبرة) فعلة من العبور كالجلسة من الجلوس والمراد الاتعاظ والتنكير للتعظيم أى عبرة عظيمة وموعظة جسيمة (لاولى الابصار) عن الربيع يقول قد كان لكم فى هؤلاء عبرة وتفكر أيدهم الله ونصرهم على عدوهم يوم بدر كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلا وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا وعن ابن مسعود قال هذا يوم بدر نظرنا الى

احمد ولابی داود عن أنس مرفوعا نحوه وفی الصحیحین عن ابن عمر قال وجدت امرأة فی بعض مغازی النبی صلی الله علیه وسلم مقتولة فأنکر رسول الله صلی الله علیه وسلم قتل النساء والصبیان وقال الامام أحمد حدثنا مصعب بن سلام حدثنا الاجلح عن قیس بن أبی مسلم عن ربعی بن حراش قال سمعت حذیفة یقول ضرب لنا رسول الله صلی الله علیه وسلم أمثالا واحد وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة واحدی عشر فضرب لنا رسول الله صلی الله علیه وسلم منها مثلا وترک سائرها قال ان قوما کانوا أهل ضعف ومسکنة قاتلهم أهل تجبر وعداوة فأظهر الله أهل (٢٠) الضعف علیهم فعمدوا الی عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فاسخطوا الله علیهم الی یوم القیامة هذا حدیث حسن الاسناد ومعناه ان هؤلاء الضعفاء لما قدروا علی الاقویاء فاعتدوا علیهم فاستعملوهم فیما لا یلیق بهم اسخطوا الله علیهم بسبب هذا الاعتداء والاحادیث والآثار فی هذا کثیرة جدا ولما کان الجهاد فیه ازهاق النفوس وقتل الرجال نبه تعالی علی أن ما هم مشتملون علیه من الکفر بالله والشرک به والصد عن سبیله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل ولهذا قال والفتنة أشد من القتل قال أبو مالک أی ما أنتم مقیمون علیه أکبر من القتل وقال أبو العالیة ومجاهد وسعید بن جبیر وعکرمة والحسن وقتادة والضحاک والربیع بن أنس فی قوله والفتنة أشد من القتل یقول الشرک أشد من القتل وقوله ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام کما جاء فی الصحیحین ان هذا البلد حرمه الله یوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الی یوم القیامة ولم یحل الا ساعة من نهار وانها ساعتی هذه حرام بحرمة الله الی یوم القیامة لا یعضد شجره ولا یختلی خلاه فان أحد ترخص بقتال رسول الله قال صلی الله علیه وسلم فقولوا ان الله أذن لرسوله ولم یأذن لکم یعنی بذلک صلوات الله وسلامه علیه قتاله أهله یوم فتح مکة فانه فتحها عنوة وقتلت رجال منهم عند الخندمة وقیل صلحا لقوله من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبی سفیان فهو آمن وقوله حتی یقاتلوکم فیه فان قاتلوکم فاقتلوهم کذلک جزاء الکافرین یقول تعالی ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام الا أن یبدؤوکم بالقتال فیه فلکم حینئذ قتالهم وقتلهم دفعا للصائل کما بایع النبی صلی الله علیه وسلم أصحابه یوم الحدیبیة تحت

المشرکین فرأیناهم یضعفون علینا ثم نظرنا الیهم فما رأیناهم یزیدون علینا رجلا واحدا وعن ابن عباس قال أنزلت فی التخفیف یوم بدر علی المؤمنین کانوا یومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا وکان المشرکون مثلیهم ستمائة وستة وعشرین فأید الله المؤمنین (زین للناس حب الشهوات) کلام مستأنف لبیان حقارة ما تستلذه الانفس فی هذه الدار وتزهید الناس فیها وتوجیه رغباتهم الی ما عند الله والمزین قیل هو الله سبحانه وبه قال عمر کما حکاه عنه البخاری وغیره ویؤیده قوله تعالی انا جعلنا ما علی الارض زینة لها لنبلوهم ویؤیده قراءة مجاهد زین علی البناء للفاعل وقیل المزین هو الشیطان وبه قال الحسن وقد جاء صریحا فی قوله وزین لهم الشیطان أعمالهم والآیة فی معرض الذم وهو قول طائفة من المعتزلة والاول أولی والمراد بالناس الجنس والشهوات جمع شهوة وهی نزوع النفس الی ما تریده وتوقان النفس الی الشیء المشتهی والمراد هنا المشتهیات عبر عنها بالشهوات مبالغة فی کونها مرغوبا فیها أو تحقیرا لها لکونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهیمیة والشهوة اما کاذبة کقوله تعالی أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات أو صادقة کقوله فیها ما تشتهیه الانفس وتلذ الاعین قاله الکرخی ووجه تزیین الله سبحانه لها ابتلاء عباده کما صرح به فی الآیة الاخری (من النساء) بدأ بالنساء لکثرة تشوق النفوس الیهن والاستئناس والالتذاذ بهن لانهن حبائل الشیطان وأقرب الی الافتتان (والبنین) خصهم دون البنات لعدم الاطراد فی محبتهن ولان حب الولد الذکر أکثر من حب الانثی (والقناطیر المقنطرة) جمع قنطار وهو اسم للکثیر من المال قال الزجاج القنطار مأخوذ من عقد الشیء واحکامه تقول العرب قنطرت الشیء اذا أحکمته ومنه سمیت القنطرة لاحکامها وقد اختلف فی تقدیره علی أقوال للسلف أخرج أحمد وابن ماجه عن أبی هریرة قال قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم القنطار اثنا عشر ألف أوقیة وأخرج الحاکم وصححه عن أنس قال سئل رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم عن القناطیر المقنطرة فقال القنطار ألف أوقیة ورواه ابن أبی حاتم عنه مرفوعا بلفظ ألف دینار وأخرج ابن جریر عن أبی بن کعب قال قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم القنطار ألف أوقیة ومائتا أوقیة وبه قال معاذ بن جبل وابن عمر وابو هریرة وجماعة من العلماء قال ابن عطیة وهو أصح الاقوال ولکن یختلف باختلاف البلاد فی قدر الاوقیة وعن أبی سعید الخدری

الشجرة على القتال لما تألب عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والاحابيش عامئذ ثم كف الله القتال بينهم فقال وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وقال ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما وقوله فان انتهوا فان الله غفور رحيم أى فان تركوا القتال فى الحرم وأنابوا الى الاسلام والتوبة فان الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين فى حرم الله فانه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه اليه ثم أمر تعالى (٢١) بقتال الكفار حتى لا تكون فتنة أى شرك قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل بن حيان والسدى وزيد ابن أسلم ويكون الدين لله أى يكون دين الله هو الظاهر العالى على سائر الاديان كما ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الاشعرى قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وفى الصحيحين أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله وقوله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين يقول تعالى فان انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم فان من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان الا على الظالمين وهذا معنى قول مجاهد أن لا يقاتل الا من قاتل أو يكون تقديره فان انتهوا فقد خلصوا من الظلم وهو الشرك فلا عدوان عليهم بعد ذلك والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقاتلة كقوله فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولهذا قال عكرمة وقتادة الظالم الذى أبى أن يقول لا اله الا الله وقال البخارى قوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة الآية حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا ان الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبى صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج فقال يمنعنى ان الله حرم دم أخى قالا ألم يقل الله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة فقال قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون

قال القنطار مل مسك الثور ذهبا وعن ابن عمر سبعون ألفا وعن سعيد بن المسيب ثمانون ألفا وعن أبى صالح مائة رطل وعن ابى جعفر خمسة عشر ألف مثقال والمثقال أربعة وعشرون قيراطا وعن الضحاك قال هو المال الكثير من الذهب والفضة وعن السدى ان القنطرة المضروبة وقال ابن جرير الطبرى معناها المضعفة وقال القناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة وقال الفراء القناطير جمع القنطار والمقنطرة جمع الجمع فيكون تسعة قناطير وقيل المقنطرة المكملة كما يقال بدرة مبدرة وألوف مؤلفة وبه قال مكى وحكاه الهروى وقال ابن كيسان لا يكون المقنطرة أقل من سبع قناطير وفى نونه قولان أحدهما وهو قول جماعة انها أصلية وان وزنه فعلال كقرطاس والثانى انها زائدة ووزنه فنعال (من الذهب والفضة) من بيانية وانما بدأ بالذهب والفضة من بين سائر أصناف الاموال لانهما قيم الاشياء قيل سمى الذهب ذهبا لانه يذهب ولا يبقى والفضة لانها تنفض أى تتفرق (والخيل المسومة) عطف على النساء لا على الذهب لانها لا تسمى قناطير قاله أبو البقاء وتوهم مثل هذا بعيد جدا فلا حاجة الى التنبيه عليه قيل هى جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط بل مفرده فرس وسميت الافراس خيلا لاختيالها فى مشيتها وقيل لان الخيل لا يركبها أحد الا وجد فى نفسه مخيلة أى عجبا وقيل واحده خائل كراكب وركب وتاجر وتجر وطائر وطير وفى هذا خلاف بين سيبويه والاخفش فسيبويه يجعله اسم جمع والاخفش يجعله جمع تكسير واختلفوا فى معنى المسومة فقيل هى المرعية فى المروج والمسارح يقال سامت الدابة والشاة اذا سرحت وقيل هى المعدة للجهاد وقيل المعلمة من السومة وهى العلامة أى التى يجعل عليها علامة لتتميز عن غيرها قال ابن فارس فى المجمل المسومة المرسلة وعليها ركبانها قال ابن عباس هى الراعية والمطهمة الحسان وبه قال مجاهد وقال عكرمة تسويمها حسنها أى الغرة والتحجيل وقال ابن كيسان البلق (والانعام) هى الابل والبقر والغنم فاذا قلت نعم فهى الابل خاصة قاله الفراء وابن كيسان (والحرث) اسم لكل ما يحرث وهو مصدر سمى به المحروث تقول حرث الرجل حرثا اذا أثار الارض فيقع على الارض والحرث والزرع قال ابن الاعرابى الحرث التفتيش (ذلك) المذكور (متاع الحياة الدنيا) أى ما يتمتع به ثم يذهب ولا يبقى وفيه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة (والله عنده حسن المآب) أى المرجع وهو الجنة يقال آب يؤوب ايابا اذا رجع

أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله وزاد عثمان بن صالح عن ابن وهب أخبرني فلان وحيوة بن شريح عن بكر
ابن عمر المغافري ان بكير بن عبد الله حدثه عن نافع ان رجلا أتى ابن عمر فقال يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عاما وتقيم عاما
وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغب الله فيه فقال يا ابن أخي بني الاسلام على خمس الايمان بالله ورسوله والصلاة
الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت قالوا يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا
فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على (٢٢) الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

قال فعلنا على عهد رسوله صلى الله عليه وسلم وكان الاسلام قليلا فكان الرجل يفتن في دينه اما قتلوه أو يعذبوه حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة قال فما قولك في علي وعثمان قال أما عثمان فكان الله عفا عنه وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه وأما علي فابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه فأشار بيده فقال هذا بيته حيث ترون (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) قال عكرمة عن ابن عباس والضحاك والسدي وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرا في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول الى البيت وصدوه ومن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام حتى فاضاهم على الدخول من قابل فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين واقصه الله منهم فنزلت في ذلك هذه الآية الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص وقال الامام أحمد حدثنا امرنا

اسحق بن عيسى حدثنا ليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو في الشهر الحرام الا أن يغزى وتغزوا فاذا حضره أقام حتى ينسلخ هذا اسناد صحيح ولهذا لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وهو مخيم بالحديبية ان عثمان قتل وكان قد بعثه في رسالة الى المشركين بايع أصحابه وكانوا ألفا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين فلما بلغه ان عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح الى المسالمة والمصالحة فكان ما كان وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين ومحصن

وفيه اشارة الى ان من آتاه الله الدنيا كان الواجب عليه ان يصرفها فيما يكون فيه صلاحه في الآخرة لانها السعادة القصوى (قل أؤنبئكم) أي أخبركم استفهام تقرير وليس في القرآن همزة مضمومة بعد مفتوحة الا ماهنا وما في ص أنزل عليه الذكر وما في اقتربت ألقي الذكر عليه (بخير من ذلكم) أي بما هو خير لكم من تلك المستلذات ومتاع الدنيا وابهام الخير للتفخيم ثم بينه بقوله (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار) خص المتقين لانهم المنتفعون بذلك ويدخل في هذا الخطاب كل من اتقى الشرك وقال ابن عباس يريد المهاجرين والانصار والاول أولى (خالدين) أي مقدرين الخلود (فيها) اذا دخلوها (وأزواج مطهرة) من الحيض والنفاس والمني والبزاق وغيرها مما يستقذر (ورضوان) بكسر أوله وضمه لغتان وقد قرئ بهما في السبع في جميع القرآن الا في المائدة فانه بالكسر باتفاق السبعة وهو قوله من اتبع رضوانه وهما بمعنى واحد وان كان الثاني سماعيا والاول قياسيا والتنوين للتكثير أي رضا كثير (من الله) عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله عز وجل يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجه البخاري ومسلم والعبد اذا علم ان الله قد رضي عنه كان أتم لسروره وأعظم لفرحه (والله بصير بالعباد) أي عالم بمن يؤثر ما عنده ممن يؤثر شهوات الدنيا فيجازي كلا على عمله فيثيب ويعاقب على قدر الاعمال وقيل بصير بالذين اتقوا فلذلك أعد لهم الجنات (الذين يقولون ربنا انا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) في ترتيب هذا السؤال على مجرد الايمان دليل على انه كاف في استحقاق المغفرة وفيه رد على أهل الاعتزال لانهم يقولون ان استحقاق المغفرة لا يكون بمجرد الايمان قاله الكرخي (الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين) قد تقدم تفسير الصبر والصدق والقنوت والانفاق عن قتادة قال هم قوم صبروا على طاعته وصبروا عن محارمه وصدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم وصدقوا في السر والعلانية والقانتون هم المطيعون (والمستغفرين) هم السائلون للمغفرة وقيل أهل الصلاة وقيل هم الذين يشهدون صلاة الصبح وعن ابن عباس قال

فلهم بالطائف عدل اليها فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصرلها بالمنجنيق واستمر عليها الى كمال اربعين يوما كما ثبت في الصحيحين عن أنس فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ثم كر راجعا الى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضا عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه وقوله فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم أمر بالعدل حتى في المشركين كما قال وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وقال وجزاء سيئة سيئة مثلها وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ان قوله فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد ثم نسخ بآية القتال بالمدينة وقد رد هذا القول ابن جرير وقال بل الآية مدنية بعد عمرة القضية وعزا ذلك الى مجاهد رحمه الله وقوله واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين أمر لهم بطاعة الله وتقواه واخبارا بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين) قال البخاري حدثنا اسحق أخبرنا النضر أخبرنا شعبة عن سليمان سمعت أبا وائل عن حذيفة وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة قال نزلت في النفقة ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن أبي معاوية عن الاعمش به مثله قال وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومقاتل ابن حيان نحو ذلك وقال الليث ابن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الانصاري فقال ناس ألقى بيده الى التهلكة فقال أبو أيوب نحن أعلم بهذه الآية انما نزلت فينا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الاسلام وظهر اجتمعنا معشر الانصار تحببا فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصره حتى فشا الاسلام وكثر أهله وكنا قد آثرناه على الاهلين والاموال والاولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع الى أهلينا واولادنا فنقيم فيها فنزل فينا وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة فكانت التهلكة في الاقامة في الاهل والمال وترك الجهاد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وعبد بن حميد في تفسيره

أمر نا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان نستغفر بالاسحار سبعين مرة وعن سعيد الجريري قال بلغنا ان داود عليه السلام سأل جبريل أي الليل افضل قال يا داود ما أدري الا ان العرش يهتز في السحر وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول هل من سائل فاعطيه هل من داع فاستجيب له هل من مستغفر فاغفر له وفي الباب احاديث وفيه وفي امثاله مذهب السلف الايمان به واجراؤه على ظاهره ونفي الكيفية عنه وهو الحق (بالاسحار) جمع سحر بفتح الحاء وسكونها قال الزجاج هو من حين يدبر الليل الى أن يطلع الفجر وقال الراغب السحر اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار ثم جعل ذلك اسما لذلك الوقت وقيل السحر من ثلث الليل الاخير الى طلوع الفجر وقيل السحر عند العرب من آخر الليل ثم يستمر حكمه الى الاسفار كله يقال له سحر والسحر بفتح فسكون منتهى قصبة الحلقوم وخص الاسحار لانها من أوقات الاجابة أولانها وقت الغفلة ولذة النوم (شهد الله) أي بين الله وأعلم قال الزجاج الشاهد هو الذي يعلم الشيء ويبينه فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين وقال أبو عبيدة شهد الله بمعنى قضى اي أعلم قال ابن عطية وهذا مردود من جهات وقيل انها شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله ووحيه بشهادة الشاهد في كونها مبينة (أنه لا اله الا هو) سئل بعض الاعراب ما الدليل على وجود الصانع فقال ان البعرة تدل على البعير وآثار القدم تدل على المسير فهيكل علوي بهذه اللطافة ومركز سفلي بهذه الكثافة أما يدلان على وجود الصانع الخبير وفي القرآن من دلائل التوحيد كثير طيب وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله (والملائكة) عطف على الاسم الشريف وشهادتهم اقرارهم بانه لا اله الا هو (وأولوا العلم) معطوف أيضا على ما قبله وشهادتهم بمعنى الايمان منهم وما يقع من البيان للناس على ألسنتهم وعلى هذا لابد من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة الله وشهادة الملائكة وأولي العلم وقد اختلف في أولي العلم هؤلاء من هم فقيل هم الانبياء وقيل المهاجرون والانصار قاله ابن كيسان وقيل مؤمنو أهل الكتاب قاله مقاتل وقيل المؤمنون كلهم قاله السدي والكلبي وهو الحق اذ لا وجه للتخصيص وفي ذلك فضيلة لاهل العلم جليلة ومنقبة نبيلة اقرنهم باسمه واسم ملائكته والمراد بأولي العلم هنا علماء الكتاب

وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحافظ أبو يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه كلهم من حديث يزيد بن أبي حبيب به وقال الترمذي حسن صحيح غريب وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه ولفظ أبي داود عن أسلم أبي عمران كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى أهل الشام رجل يزيد بن فضالة بن عبيد فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ثم خرج الينا فصاح الناس اليه فقالوا سبحان الله ألقى بيده الى التهلكة فقال أبو أيوب يا أيها الناس انكم (٢٤) لتتأولون هذه الآية على غير التأويل وانما نزلت فينا معشر الانصار انا لما أعز الله ديننا وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها فانزل الله هذه الآية وقال أبو بكر بن عياش عن أبي اسحق السبيعي قال قال رجل للبراء بن عازب ان حملت على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقيت بيدي الى التهلكة قال لا قال الله لرسوله فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك انما هذه في النفقة رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث اسرائيل عن أبي اسحق وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الترمذي وقيس بن الربيع عن أبي اسحق عن البراء فذكره وقال بعد قوله لا تكلف الا نفسك ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده الى التهلكة ولا يتوب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثني الليث حدثنا عبد الرحمن ابن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي بكر بن نمير بن عبد الرحمن ابن الحرث بن هشام ان عبد الرحمن الاسود بن عبد يغوث أخبره أنهم حاصروا دمشق فانطلق رجل من أزد شنوءة فأسرع الى العدو وحده ليستقبل فعاب ذلك عليه المسلمون في ورفعوا حديثه الى عمرو بن العاص فارسل اليه عمرو فرده وقال عمرو قال الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة قال ليس ذلك في القتال انما هو في النفقة ان تمسك يدك عن النفقة في سبيل الله ولا تلق بيدك الى التهلكة قال حماد بن سلمة عن داود عن الشعبي عن الضحاك بن أبي جبيرة قال كانت الانصار يتصدقون ولا ينفقون من أموالهم فأصابتهم سنة فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله

والسنة وما يتوصل به الى معرفتهما اذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له في العلم الذي اشتمل عليه الكتاب العزيز والسنة المطهرة (قائما بالقسط) بالعدل في جميع أموره أو مقيما له وانتصاب قائما على الحال من الاسم الشريف قال جعفر الصادق الاولى وصف وتوحيد والآية رسم وتعليم أي قولوا (لا اله الا هو) وقيل كرره للتأكيد وفائدة تكريرها الاعلام بان هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه ففيه حث للعباد على تكريرها والاشتغال بها فانه من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات وقوله (العزيز الحكيم) لتقرير معنى الوحدانية (ان الدين عند الله) جملة مستأنفة وآية مستقلة على قراءة كسر ان وأما على قراءة فتحها فهو من بقية الآية السابقة (الاسلام) يعني الدين المرضي هو الاسلام المبني على التوحيد كما قال تعالى ورضيت لكم الاسلام دينا قال الزجاج الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالاقامة عليه والاسلام هو الدخول في السلم وهو الانقياد في الطاعة وقد ذهب الجمهور الى ان الاسلام هنا بمعنى الايمان وان كانا في الاصل متغايرين كما في حديث جبريل الذي بين فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم معنى الاسلام والايمان وصدقه جبريل وهو في الصحيحين وغيرهما ولكن قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة قال قتادة الاسلام شهادة أن لا اله الا الله والاقرار بما جاء به الرسول من عند الله وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره وعن الضحاك قال لم يبعث الله رسولا الا بالاسلام وعن الاعمش قال أنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهي لي وديعة عند الله وقرأ ان الدين عند الله الاسلام قالها مرارا قلت وأنا أيضا أشهد كما شهد الاعمش وبالله التوفيق (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) فيه الاخبار بان اختلاف اليهود والنصارى كان لمجرد البغي بعد ان علموا بانه يجب عليهم الدخول في دين الاسلام بما تضمنته كتبهم المنزلة اليهم قال الاخفش وفي الكلام تقديم وتأخير والمعنى ما اختلف الذين أوتوا الكتاب أي بنو اسرائيل بغيا بينهم الا من بعد ما جاءهم العلم وفي التعبير عنهم بهذا العنوان زيادة تقبيح لهم فان الاختلاف بعد اتيان الكتاب أقبح وقوله الا من بعد زيادة أخرى فان الاختلاف بعد العلم أزيد في القباحة وقوله بغيا بينهم زيادة ثالثة لانه في حيز الحصر فيكون أزيد في القبح والكتاب هو التوراة والانجيل والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم هو خلافهم

فنزلت ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقال الحسن البصري ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة قال هو البخل وقال سماك بن حرب عن النعمان بن بشير في قوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيقول لا يغفر لي فأنزل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين رواه ابن مردويه وقال ابن أبي حاتم وروي عن عبيدة السلماني والحسن وابن سيرين وأبي قلابة نحو ذلك يعني نحو قول النعمان بن بشير انها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له فيلقي بيده الى التهلكة أي يستكثر من الذنوب فيهلك ولهذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس التهلكة عذاب الله وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعا حدثنا يونس حدثنا ابن وهب أخبرني أبو صخر عن القرظي أنه كان (٢٥) يقول في هذه الآية ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة قال كان القوم في

في كون نبينا صلى الله عليه وآله وسلم نبيا أم لا وقيل في دين الاسلام فقال قوم انه حق وقال قوم انه مخصوص بالعرب وتناه آخرون مطلقا وقيل في التوحيد فثلثت النصارى وقالت اليهود عزير ابن الله وقيل اختلافهم في نبوة عيسى وقيل اختلافهم في ذات بينهم حتى قالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ قال أبو العالية بغيا على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها فقتل بعضهم بعضا على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس وسلط الله عليهم الجبابرة (ومن يكفر بآيات الله) الدالة على ان الدين عند الله الاسلام أو باي آية كانت على ان يدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا (فان الله سريع الحساب) يجازيه ويعاقبه على كفره بآياته والاظهار في قوله فان الله مع كونه مقام الاضمار للتهويل عليهم والتهديد لهم (فان حاجوك) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي خاصموك وجادلوك اليهود والنصارى بالشبه الباطلة والاقوال المحرفة بعد قيام الحجة عليهم في ان الدين عند الله هو الاسلام (فقل أسلمت وجهي لله) أي أخلصت ذاتي لله وانقدت له بقلبي ولساني وجميع جوارحي وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الانسان وأجمعها للحواس وقيل الوجه هنا بمعنى القصد (ومن اتبعن) عطف على فاعل أسلمت وجاز للفصل وقال الزمخشري الواو بمعنى مع (وقل للذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى (والاميين) أي الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب وقال ابن عباس هم الذين لا يكتبون (أأسلمتم) استفهام تقرير يتضمن الامر أي أسلموا كذا قال ابن جرير وغيره وقال الزجاج أسلمتم تهديد والمعنى انه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الاسلام فهل علمتم بموجب ذلك أم لا تبكيتا لهم وتصغيرا لشأنهم في قلة الانصاف وقبول الحق لان المنصف اذا تجلت له الحجة لم يتوقف في اذعانه للحق (فان أسلموا فقد) دخلت قد على الماضي مبالغة في تحقق وقوع الفعل وكأنه قرب من الوقوع (اهتدوا) اي ظفروا بالهداية التي هي الحظ الاكبر وفازوا بخيري الدنيا والآخرة (وان تولوا) أي أعرضوا عن قبول الحجة ولم يعملوا بموجبها (فانما عليك البلاغ) أي انما عليك ان تبلغهم ما أنزل اليك وليست عليهم بمسيطر فلا تذهب نفسك عليهم حسرات والبلاغ مصدر بمعنى التبليغ قيل الآية محكمة والمراد بها تسلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل منسوخة بآية السيف (والله بصير بالعباد) فيه وعد ووعيد لتضمنه انه عالم بجميع أحوالهم (ان الذين

التهلكة قال كان القوم في سبيل الله (١) فيتزود الرجل فكان أفضل زادا من الآخر انفقوا الباقين حتى لا يبقى من زاده شئ أحب أن يواسي صاحبه فأنزل الله وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وبه قال ابن وهب أيضا أخبرني عبد الله بن عياش عن زيد بن اسلم في قول الله وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا الى بأيديكم التهلكة وذلك أن رجالا كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير نفقة فاما أن يقطع بهم واما كانوا عيالا فأمرهم الله ان يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم الى التهلكة والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع والعطش أو من المشي وقال لمن بيده فضل وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ومضمون الآية الامر بالانفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات وخاصة صرف الاموال في قتال الاعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم والاخبار عن ترك فعل

ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ثم عطف بالامر بالاحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال وأحسنوا ان الله يحب المحسنين (وأتموا الحج والعمرة لله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد شرع في بيان المناسك فأمر

(١) قوله فيتزوج الرجل الخ كذا في النسخ وحرر اه مصححه

بأتمام الحج والعمرة وظاهر السياق اكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما ولهذا قال بعده فان أحصرتم أى صددتم عن الوصول الى البيت ومنعتم من اتمامهما ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع فى الحج والعمرة ملزم سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هما قولان للعلماء وقد ذكرناهما بدلائلهما فى كتابنا الاحكام مستقصى ولله الحمد والمنة وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن على أنه قال فى هذه الآية وأتموا الحج والعمرة لله قال ان تحرم من دويرة أهلك وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس وعن سفيان الثورى أنه (٢٦) قال فى هذه الآية اتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد الا الحج والعمرة وتهل من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة حتى اذا كنت قريبا من مكة قلت لو حججت أو اعتمرت وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره وقال مكحول اتمامهما انشاؤهما جميعا من الميقات وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى قال بلغنا أن عمر قال فى قول الله وأتموا الحج والعمرة لله من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر وأن تعتمر فى غير أشهر الحج ان الله تعالى يقول الحج أشهر معلومات وقال هشام عن ابن عون سمعت القاسم ابن محمد يقول ان العمرة فى أشهر الحج ليست بتامة فقيل له فالعمرة فى المحرم قال كانوا يرونها تامة وكذا روى عن قتادة بن دعامة رحمهما الله وهذا القول فيه نظر لانه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر كلها فى ذى القعدة عمرة الحديبية فى ذى القعدة سنة ست وعمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع وعمرة الجعرانة فى ذى القعدة سنة ثمان وعمرته التى مع حجته أحرم بهما معا فى ذى القعدة سنة عشر وما اعتمر فى غير ذلك بعد هجرته ولكن قال لام هانئ عمرة فى رمضان تعدل حجة معى وماذاك الا لانها قد هؤلاء عزمت على الحج معه عليه السلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الظهر كما هو مبسوط فى الحديث عند البخارى ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها والله أعلم وقال السدى فى قوله وأتموا الحج والعمرة لله أى أقيموا الحج والعمرة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله وأتموا الحج والعمرة لله يقول من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل حتى يتمهما تمام الحج يوم النحر اذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل وقال قتادة عن زرارة عن ابن عباس أنه قال الحج عرفة والعمرة الطواف وكذا روى

يكفرون بآيات الله) ظاهره عدم الفرق بين آية وآية وهم اليهود والنصارى (ويقتلون النبيين) يعنى اليهود قتلوا الانبياء (بغير حق) انما قيد بذلك للاشارة الى انه كان بغير حق فى اعتقادهم أيضا فهو أبلغ فى التشنيع عليهم (ويقتلون الذين يأمرون) بالمعروف وينهون عن المنكر (بالقسط) أى العدل (من الناس) قال المبرد كان ناس من بنى اسرائيل جاءهم النبيون فدعوهم الى الله فقتلوهم فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فامروهم بالاسلام فقتلوهم ففيهم أنزلت الآية (فبشرهم بعذاب أليم) خبر لقوله ان الذين يكفرون وذهب بعض النحاة الى أن الخبر قوله أولئك الذين حبطت أعمالهم ومنهم سيبويه والاخفش وذكر البشارة تهكم بهم وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن الجراح قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية الى قوله ومالهم من ناصرين ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلا من عباد بنى اسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله فى كتابه وأنزل الآية فيهم وعن ابن عباس بسند صحيح قال بعث عيسى يحيى بن زكريا فى اثنى عشر رجلا من الحواريين يعلمون الناس فكان ينهى عن نكاح بنت الاخ وكان ملك له بنت أخ تعجبه فاراد ها وجعل يقضى لها كل يوم حاجة فقالت لها أمها اذا سألك عن حاجة فقولى حاجتى ان تقتل يحيى بن زكريا فقال سلى غير هذا فقالت لا أسألك غير هذا فلما أبت أمر به فذبح فى طست فبدرت قطرة من دمه فلم يزل يغلى حتى بعث الله بختنصر فدلت عجوز عليه فألقى فى نفسه ان لا يزال يقتل حتى يسكن هذا الدم فقتل فى يوم واحد من ضرب واحد وسن واحد سبعين ألفا فسكن (أولئك الذين حبطت) أى بطلت (أعمالهم) كصدقة وصلة رحم (فى الدنيا والآخرة) أى انه لم يبق لحسناتهم أثر فى الدنيا حتى يعاملوا فيها معاملة أهل الحسنات لعدم الاسلام بل عوملوا معاملة أهل السيآت فلعنوا وحل بهم الخزى والصغار ولهم فى الآخرة عذاب النار (ومالهم من ناصرين) يمنعونهم من العذاب (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) فيه تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من تصح منه الرؤية من حال

الاعمش عن ابراهيم عن علقمة فى قوله وأتموا الحج والعمرة لله قال هى قراءة عبد الله وأتموا الحج والعمرة الى البيت لا يجاوز بالعمرة البيت قال ابراهيم فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال كذلك قال ابن عباس وقال سفيان عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة انه قال وأقيموا الحج والعمرة الى البيت وكذا روى الثورى أيضا عن ابراهيم عن منصور عن ابراهيم انه قرأ وأقيموا الحج والعمرة الى البيت وقرأ الشعبى وأتموا الحج والعمرة لله برفع العمرة وقال ليست بواجبة وروى عنه خلاف ذلك وقد وردت أحاديث

كثيرة من طرق متعددة عن أنس وجماعة من الصحابة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع فى احرامه بحج وعمرة وثبت عنه فى الصحيح انه قال لاصحابه من كان معه هدى فليهل بحج وعمرة وقال فى الصحيح أيضا دخلت العمرة فى الحج الى يوم القيامة وقد روى الامام أبو محمد بن أبى حاتم فى سبب نزول هذه الآية حديثا غريبا فقال حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو عبد الله الهروى حدثنا غسان الهروى حدثنا ابراهيم بن طهمان عن عطاء عن صفوان بن أمية انه قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم متضمخ بالزعفران عليه جبة فقال كيف تأمرنى يا رسول الله فى عمرتى قال فأنزل الله وأتموا الحج والعمرة لله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أين السائل عن العمرة فقال ها أنا ذا فقال له ألق عنك ثيابك ثم اغتسل واستنشق ما استطعت ثم ما كنت صانعا فى حجك فاصنعه فى عمرتك هذا حديث غريب وسياق عجيب والذى ورد فى الصحيحين عن يعلى بن أمية فى قصة الرجل الذى سأل النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالجعرانة فقال له كيف ترى فى رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاءه الوحى ثم رفع رأسه فقال اين السائل فقال ها أنا ذا فقال أما الجبة فانزعها وأما الطيب الذى بك فاغسله ثم ما كنت صانعا فى حجك فاصنعه فى عمرتك ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق ولا ذكر نزول هذه الآية وهو عن يعلى بن أمية لا صفوان بن أمية فالله أعلم وقوله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ذكروا أن هذه الآية نزلت فى سنة ست أى عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الوصول الى البيت وأنزل الله فى ذلك سورة الفتح بكمالها وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدى وكان سبعين بدنة وان يحلقوا رؤسهم وان يتحللوا من احرامهم فعند ذلك

هؤلاء وهم أحبار اليهود والكتاب التوراة وتنكير النصيب للتعظيم أى نصيبا عظيما كما يفيده مقام المبالغة والمراد بذلك النصيب ما بين لهم فى التوراة من العلوم والاحكام التى من جملتها ما علموه من نعوت النبى صلى الله عليه وآله وسلم وحقية الاسلام والتعبير عنه بالنصيب للاشعار بكمال اختصاصه بهم ومن قال ان التنكير للتحقير فلم يصب وفيه ان اختلافهم انما كان بعد ما جاءهم العلم فلم ينتفعوا بذلك وذلك بانهم (يدعون الى كتاب الله) الذى أوتوا نصيبا منه وهو التوراة (ليحكم بينهم) اضافة الحكم الى الكتاب هو على سبيل المجاز (ثم يتولى) عن مجلس النبى صلى الله عليه وآله وسلم وثم للاستبعاد لا للتراخى فى الزمان (فريق منهم) يعنى الرؤساء والعلماء (وهم معرضون) أى والحال انهم معرضون عن الاجابة الى ما دعوا اليه مع علمهم به واعترافهم بوجوب الاجابة اليه قال السيوطى نزل فى اليهود زنى منهم اثنان فتحاكموا الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فحكم عليهما بالرجم فابوا فجىء بالتوراة فوجد فيها فرجما فغضبوا (ذلك) أى ما مر من التولى والاعراض (بانهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات) أى أربعين يوما وهى مقدار عبادتهم العجل وقد تقدم تفسير ذلك فى البقرة وقال مجاهد يعنون الايام التى خلق الله فيها آدم (وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) من الاكاذيب التى من جملتها هذا القول أو قالوا ان آباءهم الانبياء يشفعون لهم أو أنه تعالى وعد يعقوب ان لا يعذب أولاده الا تحلة القسم وقال قتادة حين قالوا نحن ابناء الله واحباؤه وقيل قولهم نحن على الحق وأنتم على الباطل ومعنى يفترون يكذبون ويحلفون (فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) هو رد عليهم وابطال لما غرهم من الاكاذيب باستعظام ما سيقع لهم وتهويل لما يحيق بهم من الاهوال أى فكيف يكون حالهم اذا جمعناهم ليوم الجزاء الذى لا يرتاب مرتاب فى وقوعه فانهم يقعون لا محالة فيه ويعجزون عن دفعه بالحيل والاكاذيب قال الكسائى اللام فى قوله ليوم بمعنى فى وقال البصريون المعنى لحساب يوم وقال ابن جرير الطبرى المعنى لما يحدث فى يوم (ووفيت كل نفس) من أهل الكتاب وغيرهم (ما كسبت) أى جزاء ما كسبت من خير وشر على حذف المضاف (وهم لا يظلمون) بزيادة سيئة ولا نقص حسنة من أعمالهم والمراد كل الناس المدلول عليهم بكل نفس (قل اللهم) قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين ان أصل اللهم يا الله وذهب الفراء والكوفيون الى أن الاصل فيه يا الله

أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤسهم وأن يتحللوا فلم يفعلوا انتظار النسخ حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه فلذلك قال صلى الله عليه وسلم رحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله فقال في الثالثة والمقصرين وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة وكانوا ألفا وأربعمائة وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم وقيل بل كانوا على طرف الحرم فالله أعلم ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل الا من حصره عدو لا مرض ولا غيره على قولين فقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن (٢٨) عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس وابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس وابن أبي نجيح عن ابن عباس انه قال لا حصر الا حصر العدو فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شئ انما قال الله تعالى فاذا أمنتم فليس الا من حصر قال وروى عن ابن عمر وطاوس والزهري وزيد بن أسلم نحو ذلك والقول الثاني ان الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حجاج بن الصواف عن يحيى بن أبي كثير عن عكرمة عن الحجاج بن عمرو الانصاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كسر أو وجع أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى قال فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا صدق وأخرجه أصحاب الكتب الاربعة من حديث يحيى بن أبي كثير به وفي رواية لابي داود وابن ماجه من عرج أو كسر أو مرض فذكر معناه ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن عرفة عن اسمعيل ابن علية عن الحجاج بن أبي عثمان الصواف به ثم قال وروى عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ومجاهد والنخعي وعطاء ومقاتل بن حيان انهم قالوا الاحصار من عدو أو مرض أو كسر وقال الثوري الاحصار من كل شئ آذاه وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على ضباعة بنت الزبير ابن عبد المطلب فقالت يا رسول الله اني أريد الحج وأنا شاكية فقال حجي واشترطي ان محلي حيث حبستني ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله فذهب من ذهب من العلماء الى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث وقد علق الامام محمد بن ادريس الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث قال البيهقي وغيره من الحفاظ وقد صح ولله الحمد وقوله فما

آمنا قال النحاس هذا عند البصريين من الخطا العظيم والقول في هذا ما قاله الاولون قال النضر بن شميل من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه (مالك) جنس (الملك) على الاطلاق ومالك العباد وما ملكوا وقيل المعنى مالك الدنيا والاخرة وقيل الملك هنا النبوة وقيل الغلبة وقيل المال والعبيد والظاهر شموله لما يصدق عليه اسم الملك من غير تخصيص (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) المراد بما يؤتيه من الملك وينزعه هو نوع من أنواع ذلك الملك العام قيل نزل لما وعد صلى الله عليه وآله وسلم أمته ملك فارس والروم عن ابن عباس قال اسم الله الاعظم قل اللهم مالك الملك الى قوله بغير حساب وأخرج ابن أبي الدنيا والطبراني عن معاذ أنه شكا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم دينا عليه فعلمه ان يتلو هذه الآية ثم يقول رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي من تشاء منهما وتمنع من تشاء ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك اللهم أغنني من الفقر واقض عني الدين وأخرجه الطبراني في الصغير عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل احد دينا لاداه الله عنك فذكره واسناده جيد (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) أي في الدنيا أو في الاخرة أو فيهما يقال عز اذا غلب ومنه وعزني في الخطاب ويقال ذل يذل ذلا اذا غلب وقهر (بيدك الخير) أي النصر والغنيمة وقيل الالف واللام تفيد العموم والمعنى بيدك كل الخيرات وتقديم الخبر للتخصيص أي بيدك الخير لا بيد غيرك وذكر الخير دون الشر لان الخير تفضل محض بخلاف الشر فانه قد يكون جزاء لعمل من وصل اليه وقيل لان كل شر من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير فافعاله كلها خير قاله القاضي كالكشاف وقيل انه حذف كما حذف في قوله سرابيل تقيكم الحر قاله البغوي وأصله بيدك الخير والشر وقيل خص الخير لان المقام مقام دعاء (انك على كل شئ قدير) تعليل لما سبق وتحقيق له (تولج الليل في النهار) وهو ان تجعل الليل قصيرا وما نقص منه زائدا في النهار حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة وذلك غاية طول النهار ويكون الليل تسع ساعات وذلك غاية قصر الليل وفيه دلالة على ان من قدر على أمثال هذه الامور العظام المحيرة للعقول والافهام فقدرته على ان ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم أهون عليه من كل هين يقال ولج يلج من باب وعد ولوجا ولجة كعدة والولوج الدخول

استيسر من الهدى قال الامام مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول فما استيسر من الهدى شاة وقال ابن عباس الهدى من الازواج الثمانية من الابل والبقر والمعز والضأن وقال الثوري عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله فما استيسر من الهدى قال شاة وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وأبو العالية ومحمد بن علي بن الحسين وعبد الرحمن بن القاسم والشعبي والنخعي والحسن وقتادة والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم مثل ذلك وهو مذهب الائمة الاربعة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد الاحمر عن (٢٩) يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى الا من الابل والبقر قال وروى عن سالم والقاسم وعروة بن الزبير وسعيد ابن جبير نحو ذلك قلت والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا اليه قصة الحديبية فانه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة وانما ذبحوا الابل والبقر ففي الصحيحين عن جابر قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشترك في الابل والبقر كل سبعة منا في بقرة وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس في قوله فما استيسر من الهدى قال بقدر يساره وقال العوفي عن ابن عباس ان كان موسرا فمن الابل والا فمن البقر والا فمن الغنم وقال هشام بن عروة عن أبيه فما استيسر من الهدى قال انما ذلك فيما بين الرخص والغلاء والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا اليه من اجزاء ذبح الشاة في الاحصار ان الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى اى مهما تيسر مما يسمى هديا والهدى من بهيمة الانعام وهي الابل والبقر والغنم كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت اهدى النبي صلى الله عليه وسلم مرة غنما وقوله ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله معطوف على قوله وأتموا الحج والعمرة لله وليس معطوفا على قوله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى كما زعمه ابن جرير رحمه الله لان النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول الى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم فأما في حال الامن والوصول الى الحرم فلا يجوز الحلق حتى يبلغ الهدى محله ويفرغ

الدخول والايلاج الادخال (وتولج النهار في الليل) أي تدخل ما نقص من أحدهما في الآخر حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة وذلك غاية طوله ويكون النهار تسع ساعات وذلك غاية قصره وقيل المعنى تعاقب بينهما ويكون زوال أحدهما ولوجا في الآخر والاول أولى وقال ابن مسعود تأخذ الصيف من الشتاء وتأخذ الشتاء من الصيف (وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي) قيل المراد اخراج الحيوان وهو حي من النطفة وهي ميتة واخراج النطفة وهي ميتة من الحيوان وهو حي وقيل المراد اخراج الطائر وهو حي من البيضة وهي ميتة واخراج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية وقال عكرمة النخلة من النواة والنواة من النخلة والحبة من السنبلة والسنبلة من الحبة وعن الحسن قال المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن والمؤمن عبد حي الفؤاد والكافر عبد ميت الفؤاد قلت ويدل له قوله تعالى أو من كان ميتا فأحييناه وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبيد الله بن عبد الله أن خالدة بنت الاسود بن عبد يغوث دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال من هذه قيل خالدة بنت الاسود قال سبحان الذي يخرج الحي من الميت وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافرا وأخرج ابن سعد عن عائشة مثله (وترزق من تشاء بغير حساب) أي بغير تضييق ولا تقتير بل تبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه كما تقول فلان يعطي بغير حساب اذا المحسوب يقال للقليل قال أبو العباس المقرى ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه بمعنى التعب قال تعالى وترزق من تشاء بغير حساب وبمعنى العدد قال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وبمعنى المطالبة قال تعالى فامنن أو أمسك بغير حساب (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) فيه النهي للمؤمنين عن موالاة الكفار بسبب من أسباب المصادقة والمعاشرة كقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما وعن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الامور الدينية ومثله قوله تعالى لا تتخذوا بطانة من دونكم الآية وقوله ومن يتولهم منكم فانه منهم وقوله لا تجد قوما يؤمنون بالله الآية وقوله لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء وقوله يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء (من دون المؤمنين) أي متجاوزين المؤمنين الى الكافرين استقلالا أو اشتراكا (ومن يفعل ذلك) الاتخاذ المدلول عليه بقوله لا يتخذ (فليس من الله) أي من ولايته وقيل من دينه وقيل

الناسك من أفعال الحج والعمرة ان كان قارنا أو من فعل احدهما ان كان مفردا او متمتعا كما ثبت في الصحيحين عن حفصة انها قالت يارسول الله ماشأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك فقال انى لبدت رأسى وقلدت هديى فلا أحل حتى أنحر وقوله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك قال البخارى حدثنا آدم حدثنا شعبة عن عبد الرحمن بن الاصبهانى سمعت عبد الله بن معقل قال قعدت الى كعب بن عجرة فى هذا المسجد يعنى مسجد الكوفة فسألته عن فدية من صيام فقال حملت الى النبى صلى الله (٣٠) عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهى فقال ما كنت أرى ان الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاة قلت لا قال صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك فنزلت فى خاصة وهى لكم عامة وقال الامام احمد حدثنا اسمعيل حدثنا ايوب عن مجاهد عن عبد الرحمن بن ابى ليلى عن كعب بن عجرة قال أتى على النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أوقد تحت قدر والقمل يتناثر على وجهى أو قال حاجبى فقال يؤذيك هوام رأسك قلت نعم قال فاحلقه وصم ثلاثة ايام او أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة قال ايوب لا ادرى بأيتهن بدأ وقال احمد ايضا حدثنا هشام حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن عبد الرحمن بن ابى ليلى عن كعب بن عجرة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ونحن محرمون وقد حصره المشركون وكانت لى وفرة فجعلت الهوام تساقط على وجهى فمر على النبى صلى الله عليه وسلم فقال أيؤذيك هوام رأسك فأمره ان يحلق قال ونزلت هذه الآية فمن كان منكم مريضا او به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك وكذا رواه عثمان عن شعبة عن أبى بشر وهو جعفر بن اياس به واجب وعن شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى به وعن شعبة عن داود عن الشعبى عن كعب بن عجرة نحوه ورواه الامام مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة فذكر نحوه وقال سعد بن اسحق بن كعب بن عجرة عن أبان بن صالح عن الحسن البصرى أنه سمع كعب بن عجرة يقول فذبحت شاة ورواه ابن مردويه وروى أيضا من حديث عمر بن قيس وهو ضعيف عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم النسك شاة والصيام ثلاثة أيام والطعام فرق

التقدير ليس كائنا من الله (فى شئ) من الاشياء بل هو منسلخ عنه بكل حال وبرئ الله منه وهذا أمر معقول اذ موالاة الله وموالاة الكفار ضدان لا يجتمعان (الا أن تتقوا منهم تقاة) على صيغة الخطاب بطريق الالتفات أى الا أن تخافوا منهم أمرا يجب اتقاؤه وهو استثناء مفرغ من أعم الاحوال وتقاة مصدر واقع موقع المفعول به وهو ظاهر قول الزمخشرى وزنه فعلة ويجمع على تقى كرطبة ورطب وأصله وقية لانه من الوقاية والتقوى والتقى واحد والتقاة التقية يقال اتقى تقية وتقاة وفى القاموس تقيت الشئ اتقيه من باب ضرب وفى ذلك دليل على جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم ولكنها تكون ظاهرا لا باطنا وخالف فى ذلك قوم من السلف فقالوا لا تقية بعد ان أعز الله الاسلام عن ابن عباس قال التقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به وهو معصية الله فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالايمان فان ذلك لا يضره انما التقية باللسان وعنه قال التقاة التكلم باللسان والقلب مطمئن بالايمان ولا يبسط يده فيقتل ولا الى اثم فانه لا عذر له وعن أبى العالية قال التقية باللسان وليس بالعمل وقال قتادة الا ان تكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك وأخرج عبد بن حميد والبخارى عن الحسن قال التقية جائزة الى يوم القيامة وحكى البخارى عن ابى الدرداء انه قال انا لنكشر فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم ويدل على جواز التقية قوله تعالى الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ومن القائلين بجواز التقية باللسان أبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس وعن ابن عباس قال نهى الله المؤمنين ان يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين الا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم فى الدين وذلك قوله تعالى الا أن تتقوا منهم تقاة ومعنى الآية ان الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم الا أن يكونوا غالبين أو يكون المؤمن فى قوم كفار فيداهنهم بلسانه وقلبه مطمئن بالايمان دفعا عن نفسه من غير أن يستحل دما أو مالا حراما أو غير ذلك من المحرمات أو يظهر الكفار على عورة المسلمين والتقية لا تكون الا مع خوف القتل مع سلامة النية ثم هذه التقية رخصة فلو صبر على اظهار ايمانه حتى قتل كان له بذلك أجر عظيم وقال سعيد بن جبير ليس فى الامان التقية انما التقية فى الحرب وقيل انما تجوز التقية لصون النفس عن الضرر لان دفع الضرر عن النفس

بين ستة وكذا روى عن علي ومحمد بن كعب وعلقمة وابراهيم ومجاهد وعطاء والسدى والربيع بن أنس وقال ابن أبي حاتم أخبرنا يونس بن عبد الاعلى اخبرنا عبد الله بن وهب أن مالك بن أنس حدثه عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن مجاهد عن عبد الرحمن بن ابى ليلى عن كعب بن عجرة أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآذاه القمل فى رأسه فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلق رأسه وقال صم ثلاثة ايام او أطعم ستة مساكين مدين مدين لكل انسان او انسك شاة اى ذلك فعلت اجزأ عنك وهكذا روى ليث بن ابى سليم عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله ففدية من صيام او صدقة او نسك قال اذا كان أو أوفاية اخذت اجزأ عنك قال ابن ابى حاتم وروى عن مجاهد وعكرمة وعطاء وطاوس والحسن وحميد الاعرج وابراهيم النخعى والضحاك نحو ذلك (قلت) وهو مذهب الائمة الاربعة وعامة العلماء انه يخير فى هذا المقام ان شاء صام وان شاء تصدق بفرق وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان وان شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء اى ذلك فعل أجزأه ولما كان لفظ القرآن فى بيان الرخصة جاء بالاسهل فالاسهل ففدية من صيام او صدقة او نسك ولما امر النبى صلى الله عليه وسلم كعب بن عجرة بذلك ارشده الى الافضل فالافضل فقال انسك شاة او أطعم ستة مساكين او صم ثلاثة ايام فكل حسن فى مقامه ولله الحمد والمنة وقال ابن جرير حدثنا ابو كريب حدثنا ابو بكر بن عياش قال ذكر الاعمش قال سأل ابراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية ففدية من صيام او صدقة او نسك فأجابه بقول يحكم عليه طعام فان كان عنده اشترى شاة وان لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعاما فتصدق والاصام لكل نصف صاع يوما قال ابراهيم كذلك سمعت علقمة يذكر قال لما قام قال لى سعيد بن جبير من هذا ما أظرفه قال قلت هذا ابراهيم فقال ما اظرفه كان يجالسنا قال فذكرت ذلك لابراهيم قال فلما قلت يجالسنا انتفض منها وقال ابن جرير ايضا حدثنا ابن ابى عمران حدثنا عبيد الله بن معاذ عن ابيه عن اشعث عن الحسن فى قوله ففدية من صيام او صدقة او نسك قال اذا كان بالمحرم أذى من رأسه حلق وافتدى بأى هذه الثلاثة شاء والصيام عشرة أيام والصدقة على عشرة مساكين كل مسكين مكوكين مكوكا من تمر ومكوكا من بر والنسك شاة وقال قتادة عن

واجب بقدر الامكان (ويحذركم الله نفسه) أي ذاته المقدسة ان تعصوه بان ترتكبوا المنهى عنه او تخالفوا المأمور به او توالوا الكفار فتستحقوا عقابه على ذلك كله واطلاق النفس عليه سبحانه جائز فى المشاكلة كقوله تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك وفى غيرها وذهب بعض المتأخرين الى منع ذلك الا مشاكلة وقال الزجاج معناه ويحذركم الله اياه ثم استغنوا عن ذلك بهذا وصار المستعمل قال وأما قوله تعلم ما فى نفسى الخ فمعناه تعلم ما عندى وما فى حقيقتى ولا أعلم ما عندك ولا ما فى حقيقتك وقال بعض أهل العلم معناه ويحذركم الله عقابه مثل واسأل القرية فجعلت النفس فى موضع الاضمار والنفس عبارة عن وجود الشئ وذاته وذكر النفس للايذان بأن له عقابا هائلا لا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة (والى الله المصير) فى هذه الآية تهديد شديد وتخويف عظيم لعباده ان يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه (قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) فيه ان كل ما يضمره العبد ويخفيه أو يظهره ويبديه فهو معلوم لله سبحانه لا يخفى عليه منه شئ ولا يعزب عنه مثقال ذرة (ويعلم ما فى السموات وما فى الارض) مما هو أعم من الامور التى يخفونها أو يبدونها فلا يخفى عليه ما هو أخص من ذلك (والله على كل شئ قدير) فيكون قادرا على عقوبتكم (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) يوم القيامة ولم يخص منه شئ قال قتادة محضرا موفرا (وما عملت من سوء) محضرا (تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) الامد الغاية وجمعه آماد قال السدى أى مكانا بعيدا وعن ابن جريج أمدا أى أجلا وعن الحسن قال يسر أحدكم أن لا يلقى عمله ذلك أبدا يكون ذلك منه وأما فى الدنيا فقد كانت خطيئة يستلذها وفى السمين الامد غاية الشئ ومنتهاه والفرق بين الامد والابد أن الابد مدة من الزمان غير محدودة والامد مدة لها حد مجهول والفرق بين الامد والزمان ان الامد يقال باعتبار الغاية والزمان عام فى المبدا والغاية انتهى قال السيوطى أى غاية فى نهاية البعد فلا يصل اليها انتهى وهو أعم من المكان والزمان وعبارة الخازن أى مكانا بعيدا كما بين المشرق والمغرب (ويحذركم الله نفسه) كرر للتأكيد وللاستحضار ليكون هذا التهديد العظيم على ذكر منهم لا يغفلون عنه قيل والاحسن ما قاله التنتازانى ان ذكره أولا للمنع من موالاة الكافرين وثانيا للحث على عمل الخير والمنع من عمل الشر (والله رؤف بالعباد) ومن رأفته بهم انه حذرهم نفسه قاله الحسن وفيه دليل على ان هذا التحذير الشديد

الحسن وعكرمة فى قوله ففدية من صيام او صدقة او نسك قال اطعام عشرة مساكين وهذان القولان من سعيد بن جبير وعلقمة والحسن وعكرمة قولان غريبان فيهما نظر لانه قد ثبتت السنة فى حديث كعب بن عجرة الصيام ثلاثة ايام لا ستة او اطعام ستة مساكين او نسك شاة وأن ذلك على التخيير كما دل عليه سياق القرآن واما هذا الترتيب فانما هو معروف فى قتل الصيد كما هو نص القرآن وعليه اجمع الفقهاء هنالك بخلاف هذا والله اعلم وقال هشام اخبرنا الليث عن طاوس انه كان يقول ما كان من دم او طعام فبمكة وما كان من صيام فحيث شاء وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن وقال هشام اخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء أنه كان يقول ما كان من دم فبمكة وما كان من طعام وصيام فحيث شاء وقال هشيم أخبرنا يحيى بن سعيد عن يعقوب بن خالد اخبرنا ابو أسماء مولى ابن جعفر قال حج عثمان بن عفان ومعه على والحسين بن على فارتحل عثمان قال ابو أسماء وكنت مع ابن جعفر فاذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه قال فقلت ايها النائم فاستيقظ فاذا الحسين بن على قال فحمله ابن جعفر حتى أتينا به السقيا قال فأرسل الى على ومعه أسماء بنت عميس قال فمرضناه نحوا من عشرين ليلة قال قال على للحسين ما الذى تجد قال فأومأ بيده الى رأسه قال فأمر به على فحلق رأسه ثم دعا ببدنة فنحرها فان كانت هذه الناقة عن الحلق ففيه انه نحرها دون مكة وان كانت عن التحلل فواضح وقوله فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى أى فاذا تمكنتم من اداء المناسك فمن كان منكم متمتعا بالعمرة الى الحج وهو يشمل من أحرم بهما او احرم بالعمرة أولا فلما فرغ منها احرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص وهو المعروف فى كلام الفقهاء والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الاحاديث الصحاح فان من الرواة من يقول تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخر يقول قرن ولا خلاف ويحتمل انه ساق هديا وقال تعالى فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى أى فليذبح ما قدر عليه من الهدى واقله شاة وله ان يذبح البقر لان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عن نسائه البقر وقال الاوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن ابى سلمة عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح البقرة عن نسائه وكن متمتعات رواه ابو بكر بن مردويه وفى هذا دليل على مشروعية التمتع كما جاء فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال نزلت آية المتعة فى كتاب الله وفعلناها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم ينزل قرآن

مقترن بالرأفة منه سبحانه لعباده لطفا بهم وهو أحسن ما يحكى عن بعض العرب انه قيل له انك تموت وتبعث وترجع الى الله فقال أتهددونى بمن لم أر الخير قط الا منه (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) الحب والمحبة ميل النفس الى الشئ لكمال أدركته فيه يقال أحبه فهو محب وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب قال ابن الدهان فى حب لغتان حب وأحب وقد فسرت المحبة لله سبحانه بارادة طاعته قال الازهرى محبة العبد لله ولرسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما ومحبة الله للعباد انعامه عليهم بالغفران قيل العبد اذا علم أن الكمال الحقيقى ليس الا لله وان كل ما يراه كمالا من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله لم يكن حبه الا لله وفى الله وذلك يقتضى ارادة طاعته والرغبة فيما يقربه اليه فلذلك فسرت المحبة بارادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى عبادته والحث على مطاوعته قاله القاضى أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن من طرق قال قال أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا محمد انا لنحب ربنا فأنزل الله هذه الآية وعن أبى الدرداء قال على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس وأخرج ابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية والحاكم عن عائشة قالت قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء وأدناه ان تحب على شئ من الجور وتبغض على شئ من العدل وهل الدين الا الحب والبغض فى الله قال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله الآية قيل نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى قالوا نحن ابناء الله واحباؤه وقيل نزلت فى قريش قالوا نعبدها أى الاصنام حبا لله لتقربنا الى الله زلفى والمعنى قل ان كنتم صادقين فى ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لاوامره وأوامر رسوله مطيعين لهما فان اتباع الرسول من محبة الله وطاعته وفيه حث على اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم واشارة الى ترك التقليد عند وضوح النص من الكتاب والسنة (ويغفر لكم ذنوبكم) يعنى ان من غفر له أزال عنه العذاب (والله غفور رحيم) يغفر ذنوب من أحبه ويرحمه بفضله وكرمه وهذا تذييل مقرر لما قبله (قل) لقريش (أطيعوا الله والرسول) حذف المتعلق مشعرا بالتعميم أى فى جميع الاوامر والنواهى والمقلد غير مطيع لله وللرسول بل مشاقق لهما حيث ترك اطاعة الله ورسوله وأطاع غيرهما من غير حجة نيرة وبرهان جلى (فان تولوا) يحتمل ان يكون من تمام مقول القول فيكون مضارعا اى تتولوا

يحرمها ولم ينه عنها حتى مات قال رجل برأيه ماشاء قال البخاري يقال انه عمر وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحا به ان عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول ان نأخذ بكتاب الله فان الله يأمر بالتمام يعني قوله وأتموا الحج والعمرة لله وفي نفس الامر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرما لها انما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين كما قد صرح به رضي الله عنه وقوله فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة يقول تعالى فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج اى في ايام المناسك قال العلماء والاولى ان يصومها قبل يوم عرفة في العشر قاله عطاء أو من حين يحرم قاله ابن عباس وغيره كقوله في الحج ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال قاله طاوس ومجاهد وغير واحد وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبله يومين وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدي وعطاء وطاوس والحاكم والحسن وحماد وابراهيم وأبو جعفر الباقر والربيع ومقاتل بن حيان وقال العوفي عن ابن عباس اذا لم يجد هديا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة فاذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة اذا رجع الى أهله وكذا روى أبو اسحق عن وبرة عن ابن عمر قال يصوم يوما قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة وكذا روى جعفر بن محمد عن أبيه عن علي أيضا فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد فهل يجوز ان يصومها في أيام التشريق فيه قولان للعلماء وهما للامام الشافعي ايضا القديم منهما انه يجوز له صيامها القول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري لم يرخص في أيام التشريق ان يصمن الا لمن لا يجد الهدى هكذا

ويحتمل ان يكون من كلام الله تعالى فيكون ماضيا من باب الالتفات (فان الله لا يحب الكافرين) أي لا يرضى بفعلهم ولا يغفر لهم ونفى المحبة كناية عن البغض والسخط ووجه الاظهار في قوله فان الله الخ مع كون المقام مقام اضمار لقصد التعظيم أو التعميم ولما فرغ سبحانه من ان الدين المرضي هو الاسلام وان محمدا صلى الله عليه وآله وسلم هو الرسول الذي لا يصح لاحد ان يحب الله الا باتباعه وان اختلاف أهل الكتاب فيه انما هو لمجرد البغي عليه والحسد له شرع في تقرير رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين انه من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة فقال (ان الله اصطفى آدم ونوحا) الاصطفاء الاختيار من الصفوة وهي الخالص من كل شئ قال الزجاج اختارهم بالنبوة على عالمي زمانهم وقيل ان الكلام على حذف مضاف أي اصطفى دين آدم وتخصيص آدم بالذكر لانه أبو البشر وكذلك نوح فانه آدم الثاني وحكى ابن الجوزي عن أبي سليمان الدمشقي ان اسم نوح السكن وانما سمي نوحا لكثرة نوحه وعمر آدم تسعمائة وستون سنة ونوح من نسل ادريس بينه وبينه اثنان لانه ابن لملك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس وعمر نوح ألف سنة وخمسون ونوح اسم عجمي لا اشتقاق له عند محققي النحاة (وآل ابراهيم) قيل يعني نفسه وقيل اسمعيل واسحق ويعقوب وقيل من كان على دينه والثاني أولى وذلك ان الله جعل ابراهيم أصلا لشعبتين فجعل اسمعيل أصلا للعرب ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم منهم فهود اخل في الاصطفاء وجعل اسحق أصلا لبني اسرائيل وجعل فيهم النبوة والملك الى زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم جعل له ولامته النبوة والملك الى يوم القيامة وعمر ابراهيم مائة وسبعون سنة (وآل عمران) قيل هو والد موسى وهارون وقيل هو من ولد سليمان وهو والد مريم والظاهر الثاني بدليل القصة الآتية في عيسى ومريم وبين العمرانين من الزمن ألف وثمانمائة سنة وبين الاول وبين يعقوب ثلاثة أجداد وبين الثاني وبين يعقوب ثلاثون جدا وعمران اسم أعجمي وقيل عربي مشتق من العمر وعلى كلا القولين ممنوع من الصرف اما للعلمية والعجمة أو لزيادة الالف والنون قاله السمين فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه يعني خص هؤلاء بالذكر لان الانبياء والرسل من نسلهم (على العالمين) قد تقدم الكلام على تفسيره أي اختارهم واصطفاهم على العالمين بما خصهم به من النبوة والرسالة والخصائص الروحانية

(٥ - فتح البيان ني) رواه مالك عن الزهري عن عروة عن عائشة وعن سالم عن ابن عمر وقد روى من غير وجه عنهما ورواه سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي انه كان يقول من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق وبهذا يقول عبيد بن عمير الليثي عن عكرمة والحسن البصري وعروة بن الزبير وانما قالوا ذلك لعموم قوله فصيام ثلاثة أيام في الحج والجديد من القولين انه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم عن قتيبة الهذلي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل وقوله وسبعة اذا رجعتم فيه قولان أحدهما اذا رجعتم الى رحالكم

ولهذا قال مجاهد هي رخصة اذا شاء صامها في الطريق وكذا قال عطاء بن أبي رباح والقول الثاني اذا رجعتم الى اوطانكم قال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن يحيى بن سعيد عن سالم سمعت ابن عمر قال فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم قال اذا رجع الى أهله وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والزهري والربيع بن أنس وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الاجماع وقد قال البخاري حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سالم ابن عبيد الله ان ابن عمر قال تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة الى الحج وأهدى فساق معه الهدى من ذي الحليفة فأهل بعمرة ثم أهل بالحج فتمتع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة الى الحج فكان من الناس من اهدى فساق الهدى ومنهم من لم يهد فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس من كان منكم أهدى فانه لا يحل لشئ حرم منه حتى يقضي حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجع الى أهله وذكر تمام الحديث قال الزهري وأخبرني عروة عن عائشة بمثل ما أخبرني سالم عن أبيه والحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري به وقوله تلك عشرة كاملة قيل تأكيد كما تقول العرب رأيت بعيني وسمعت بأذني وكتبت بيدي وقال الله تعالى ولا طائر يطير بجناحيه وقال ولا تخطه بيمينك وقال وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقيل معنى كاملة الامر بكمالها واتمامها اختاره ابن جرير وقيل معنى كاملة أي مجزئة عن الهدى قال هشام والتجهيل عن عباد بن راشد عن الحسن البصري في قوله تلك عشرة كاملة قال من الهدى وقوله ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام قال ابن جرير واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام بعد اجماع جميعهم على ان أهل الحرم معنيون به وانه لا متعة لهم فقال بعضهم عنى بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان هو الثوري قال قال ابن عباس هم أهل الحرم وكذا روى ابن المبارك عن الثوري وزاد الجماعة عليه وقال قتادة ذكر

والجسمانية (ذرية) قد تقدم تفسير الذرية قيل مشتق من الذرء وهو الخلق فعلى هذا يطلق على الاصول حتى على آدم كما يطلق على الفروع وقيل منسوب الى الذر لان الله أخرجهم من ظهر آدم كالذر أي صغار النمل ويكون هذا من النسب السماعي اذ كان القياس فتح الذال والنصب على البدل من آدم أو من نوح واليه نحا أبو البقاء أو من الآلين واليه نحا الزمخشري أو النصب على الحال (بعضها من بعض) معناه متناسلة متشعبة أو متناصرة متعاضدة في الدين قال قتادة في النية والعمل والاخلاص والتوحيد أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال هم المؤمنون من آل ابراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم (والله سميع عليم) انما يصطفي لنبوته ورسالته من يعلم استقامته قولا وفعلا (اذ قالت) قال أبو عمرو اذ زائدة وقال محمد بن زيد تقديره اذكر اذ قالت وقال الزجاج متعلق بقوله اصطفى وقيل بقوله سميع عليم (امرأة عمران) اسمها حنة بالحاء المهملة والنون المشددة بنت فاقوذ أم مريم فهي جدة عيسى وعمران هو ابن ماثان جد عيسى وليس نبيا (رب اني نذرت لك) هذا النذر كان جائزا في شريعتهم وتقديم الجار والمجرور لكمال العناية ومعنى لك أي لعبادتك (ما في بطني محررا) أي عتيقا خالصا لله خادما للكنيسة والمراد هنا الحرية التي هي ضد العبودية وقيل المراد بالمحرر هنا الخالص لله سبحانه الذي لا يشوبه شئ من أمر الدنيا ورجح هذا بانه لا خلاف ان عمران وامرأته حران وهلك عمران وهي حامل (فتقبل مني) التقبل أخذ الشئ على وجه الرضا أي تقبل مني نذري بما في بطني عن ابن عباس قال كانت نذرت ان تجعله في الكنيسة يتعبدها وقال مجاهد خادما للبيعة (انك أنت السميع) لتضرعي ودعائي (العليم) بنيتي وما في ضميري (فلما وضعتها) التأنيث باعتبار ما علم من المقام أن الذي في بطنها أنثى أو لكونه أنثى في علم الله أو بتأويل ما في بطنها بالنفس أو النسمة أو نحو ذلك (قالت) يعني حنة (رب اني وضعتها أنثى) انما قالت هذه المقالة لانه لم يكن يقبل في النذر الا الذكور دون الاناث فكأنها تحسرت وتحزنت لما فاتها من ذلك الذي كانت ترجوه وتقدره (والله أعلم بما وضعت) بضم التاء فيكون من جملة كلامها ويكون متصلا بما قبله وفيه معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له ان يخفى عليه شئ وقرأ الجمهور وضعت بسكون التاء فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته والتفخيم لشأنه

لنا ان ابن عباس كان يقول يا أهل مكة لا متعة لكم أحلت لاهل الآفاق وحرمت عليكم انما يقطع أحدكم واديا أو قال يجعل بينه وبين الحرم واديا ثم يهل بعمرة وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال المتعة للناس لا لاهل مكة من لم يكن أهله من الحرم وكذا قول الله عز وجل ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام قال وبلغني عن ابن عباس مثل قول طاوس وقال آخرون هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت كما قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عطاء قال من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع وقال عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن مكحول في قوله ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام قال من كان دون الميقات وقال ابن جريج عن عطاء ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام قال عرفة ومزدلفة وعرنة والرجيع وقال عبد الرزاق حدثنا معمر سمعت الزهري يقول من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع وفي رواية عنه اليوم واليومين واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي انهم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة لان من كان كذلك يعد حاضرا لا مسافرا والله أعلم وقوله واتقوا الله أي فيما أمركم ونهاكم واعلموا أن الله شديد العقاب اي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره (الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الالباب) اختلف أهل العربية في قوله الحج اشهر معلومات فقال بعضهم تقديره الحج حج اشهر معلومات فعلى هذا التقدير يكون الاحرام بالحج فيها اكمل من الاحرام فيما عداها وان كان ذلك صحيحا والقول بصحة الاحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة واحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وبه يقول ابراهيم النخعي والثوري والليث بن سعد واحتج لهم بقوله تعالى يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج وبأنه أحد النسكين فصح الاحرام به في جميع السنة كالعمرة وذهب الشافعي رحمه الله الى أنه لا يصح الاحرام بالحج الا في اشهره فلو احرم به قبلها لم ينعقد احرامه به وهل ينعقد عمرة فيه قولان عنه والقول بأنه لا يصح الاحرام بالحج الا في اشهره مروي عن ابن عباس وجابر وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله والدليل عليه قوله الحج اشهر معلومات

والتجهيل لها حيث وقع منها التحسر والتحزن مع ان هذه الانثى التي وضعتها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين وعبرة للمعتبرين ويختصها بما لم يختص به أحدا وقرأ ابن عباس وضعت بكسر التاء على انه خطاب من الله سبحانه لها أي انك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله فيه من الامور التي تتقاصر عنها الافهام وتتصاغر عندها العقول وان له شأنا عظيما (وليس الذكر كالانثى) أي ليس الذكر الذي طلبت كالانثى التي وضعت فان غاية ما أرادت من كونه ذكرا ان يكون نذرا خادما للكنيسة وأمر هذه الانثى عظيم وشأنها فخيم فهي خير منه وان لم تصلح للسدانة فان فيها مزايا أخر لا توجد في الذكر وعلى هذا الكلام على ظاهره ولا قلب فيه وهذه الجملة اعتراضية مبينة لما في الجملة الاولى من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلو منزلته واللام في الذكر والانثى للعهد هذا على قراءة الجمهور وأما على قراءة أبي بكر وابن عامر فيكون قوله وليس الذكر كالانثى من جملة كلامها ومن تمام تحسرها وتحزنها أي ليس الذكر الذي أردت ان يكون خادما ويصلح للنذر كالانثى التي لا تصلح لذلك بل هو خير منها لانه يصلح لمقصودي دونها وكأنها اعتذرت الى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصدت وعلى هذا في الكلام قلب وكانت مريم من أجل النساء وأفضلهن في وقتها (وانى سميتها مريم) تعني العابدة مقصودها من هذا الاخبار بالتسمية التقرب الى الله سبحانه وان يكون فعلها مطابقا لمعنى اسمها فان معنى مريم خادم الرب بلغتهم فهي وان لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة فذلك لا يمنع ان تكون من العابدات (وانى اعيذها) أي أمنعها وأجيرها (بك وذريتها من الشيطان الرجيم) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ما من بني آدم من مولود الا نخسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من نخسه اياه الا مريم وابنها متفق عليه وللبخاري عنه كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بأصبعيه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب ليطعن فطعن في الحجاب وللحديث ألفاظ عنه وعن غيره والرجيم المردود المطرود وذكر في القاموس الطرد من معاني الرجم وأصله المرمي بالحجارة طلبت الاعاذة لها ولولدها من الشيطان واغوائه وفي المقام اشكال قوي لم أر من نبه عليه من المفسرين وحاصله ان قولها واني اعيذها بك معطوف على ما قبله الواقع في حيز لما وضعتها فيقتضي ان طلب هذه الاعاذة انما وقع بعد الوضع فلا يترتب عليه حفظ مريم من طعن الشيطان وقت

وظاهره التقدير الآخر الذى ذهب اليه النحاة وهو ان وقت الحج اشهر معلومات فخصصه بها من بين سائر شهور السنة فدل على انه لا يصح قبلها كميقات الصلاة وقال الشافعي رحمه الله اخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج اخبرني عمر بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس انه قال لا ينبغي لاحد أن يحرم بالحج الا في شهور الحج من اجل قول الله تعالى الحج اشهر معلومات وكذا رواه ابن أبي حاتم عن احمد بن يحيى بن مالك السوسي عن حجاج بن محمد الاعور عن ابن جريج به ورواه ابن مردويه في تفسيره من طريقين عن حجاج بن أرطاة عن الحاكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس انه قال من السنة ان لا يحرم بالحج الا في اشهر الحج وقال ابن خزيمة في صحيحه حدثنا ابو كريب حدثنا ابو خالد الاحمر عن شعبة عن الحاكم عن مقسم عن ابن عباس قال لا يحرم بالحج الا في اشهر الحج فان من سنة الحج أن يحرم بالحج في اشهر الحج وهذا اسناد صحيح وقول الصحابي من السنة كذا في حكم المرفوع عند الاكثرين ولا سيما قول ابن عباس تفسير القرآن وهو ترجمانه وقد ورد فيه حديث مرفوع قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي حدثنا نافع حدثنا الحسن بن المثنى حدثنا أبو حذيفة حدثنا سفيان عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا ينبغي لاحد أن يحرم بالحج الا في أشهر الحج واسناده لا بأس به لكن رواه الشافعي والبيهقي من طرق عن ابن جريج عن أبي الزبير انه سمع جابر ابن عبد الله يسأل أيهل بالحج قبل أشهر الحج فقال لا وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع ويبقى حينئذ مذهب صحابي يتقوى بقول ابن عباس من السنة أن لا يحرم بالحج الا في أشهره والله أعلم

وقوله أشهر معلومات قال البخاري قال ابن عمر هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة وهذا الذي علقه مستأنفة البخاري بصيغة الجزم رواه ابن جرير حدثنا أحمد بن حازم بن أبي غرزة حدثنا أبو نعيم حدثنا ورقاء عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر الحج أشهر معلومات قال شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة اسناد صحيح وقد رواه الحاكم أيضا في مستدركه عن الاصم عن الحسن بن علي بن عفان عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر فذكره وقال هو على شرط الشيخين (قلت) وهو مروي عن عمر وعلي وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد وابراهيم النخعي والشعبي والحسن وابن سيرين

نزولها وخروجها من بطن أمها فلا يتلاقى الحديث مع الآية بل مقتضى ظاهر الآية ان اعاذتها من الشيطان انما كان بعد وضعها وهذا لا ينافي تسلط الشيطان عليها بطعنها ونخسها وقت ولادتها الذي هو عادته فان عادته طعن المولود وقت خروجه من بطن أمه تأمل قاله سليمان الجمل (فتقبلها ربها بقبول حسن) أي رضي بها في النذر وسلك بها مسلك السعداء وقال قوم معنى التقبل التكفل والتربية والقيام بشأنها وليست صيغة التفعل للتكلف كما هو أصلها بل بمعنى الفعل كتعجب بمعنى عجب وتبرأ بمعنى برئ والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق والباء زائدة أو هي على حالها (وأنبتها نباتا حسنا) المعنى انه سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان قيل انها كانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام وفيه بعد وقيل هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها (وكفلها) أي ضمها اليه بالقرعة لا بالوحي وقال أبو عبيدة ضمن القيام بها وقال الكوفيون أي جعله الله كافلا لها وملتزما بمصالحها وفي معناه ما في مصحف أبي وأكفلها وقرأ الباقون بالتخفيف ومعناه ما تقدم من كونه ضمها اليه وقرأ مجاهد فتقبلها وأنبتها باسكان اللام والتاء وكفلها على المسئلة والطلب (زكريا) وكان من ذرية سليمان بن داود وروى عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وناس من الصحابة ان مريم كانت ابنة سيدهم وامامهم فتشاح عليها أحبارهم فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها وكان زكريا زوج أختها فكفلها أي جعلها معه في محرابه وكانت عنده وحضنها (كلما دخل عليها زكريا المحراب) يعني الغرفة والمحراب في اللغة أكرم موضع في المجلس قاله القرطبي وسميت محرابا لانها محل محاربة الشيطان لان المتعبد فيها يحاربه وكذلك هو في المسجد وكذلك يقال لكل محل من محال العبادة محراب وقيل ان زكريا جعل لها محرابا لا ترتقى اليه الا بسلم وكان يغلق عليها حتى كبرت (وجد عندها) أي أصاب وصادف ولقي فيتعدى لواحد (رزقا) اى نوعا من أنواع الرزق أي كان اذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء قال ابن عباس عنبا في مكتل في غير حينه (قال يا مريم أنى لك هذا) أي من أين يجيء لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا (قالت هو من عند الله) فليس ذلك بعجيب ولا مستنكر (ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) جملة تعليلية لما قبلها وهو من تمام كلامها ومن قال انه من كلام زكريا فتكون الجملة

ومكحول وقتادة والضحاك بن مزاحم والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور رحمهم الله واختار هذا القول ابن جرير قال وصح اطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب كما تقول العرب رأيته العام ورأيته اليوم وانما وقع ذلك في بعض العام واليوم فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه وانما التعجل في يوم ونصف يوم وقال الامام مالك بن أنس والشافعي في القديم هي شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله وهو رواية عن ابن عمر أيضا قال ابن جرير حدثنا أحمد بن اسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا شريك عن ابراهيم بن مهاجر (٣٧) عن مجاهد عن ابن عمر قال شوال وذو القعدة وذو الحجة وقال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا يونس ابن عبد الاعلى حدثنا ابن وهب أخبرني ابن جريج قال قلت لنافع أسمعت عبد الله بن عمر يسمي شهور الحج قال نعم كان عبد الله يسمي شوال وذا القعدة وذا الحجة قال ابن جريج وقال ذلك ابن شهاب وعطاء وجابر بن عبد الله صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وهذا اسناد صحيح الى ابن جريج وقد حكى هذا أيضا عن طاوس ومجاهد وعروة بن الزبير والربيع بن أنس وقتادة وجاء فيه حديث مرفوع لكنه موضوع رواه الحافظ بن مردويه من طريق حصين بن مخارق وهو متهم بالوضع عن يونس ابن عبيد عن شهر بن حوشب عن ابي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج أشهر معلومات شوال وذو القعدة وذو الحجة وهذا كما رأيت لا يصح رفعه والله أعلم وفائدة مذهب مالك انه الى آخر ذي الحجة بمعنى انه مختص بالحج فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجة لانه يصير الحج بعد ليلة النحر قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال قال عبد الله الحج أشهر معلومات ليس فيها عمرة وهذا اسناد صحيح قال ابن جرير وانما أراد من ذهب الى ان أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة ان هذه الاشهر ليست أشهر العمرة انما هي للحج وان كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى كما قال محمد بن سيرين ما أحد من أهل العلم يشك في ان عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج وقال ابن عون سألت القاسم بن محمد عن العمرة في أشهر الحج فقال كانوا لا يرونها تامة (قلت) وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهما انهما كانا يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك

مستأنفة وهذا يدل على جواز الكرامة لاولياء الله تعالى (هنالك) ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصله للمكان وقيل انه للزمان خاصة وهنالك للمكان وقيل يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر واللام للدلالة على البعد والكاف للخطاب (دعا زكريا ربه) يعني انه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم أو في ذلك الزمان ان يهب الله له ذرية طيبة والذي بعثه على ذلك ما رآه من ولادة حنة لمريم وقد كانت عاقرا فحصل له رجاء الولد وان كان كبيرا وامرأته عاقرا أو بعثه على ذلك ما رآه من فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء عند مريم لان من أوجد ذلك في غير وقته يقدر على ايجاد الولد من العاقر وكان أهل بيته انقرضوا وعلى هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة سيقت في غضون قصة مريم لما بينهما من قوة الارتباط (قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة) الذرية النسل يكون للواحد ويكون للجمع ويدل على انها هنا للواحد قوله فهب لي من لدنك وليا ولم يقل أولياء وتأنيث طيبة لكون لفظ الذرية مؤنثا والمعنى أعطني يا رب من عندك ولدا مباركا تقيا صالحا رضيا كهبتك لحنة العجوز العاقر مريم (انك سميع الدعاء) أي سامعه ومجيبه (فنادته الملائكة) قيل المراد هنا جبريل والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز في العربية ومنه الذين قال لهم الناس وقيل ناداه جميع الملائكة وهو الظاهر من اسناد الفعل الى الجمع والمعنى الحقيقي مقدم فلا يصار الى المجاز الا لقرينة (وهو قائم يصلي في المحراب) أي في المسجد قال السدي المحراب المصلى وقد أخرج الطبراني والبيهقي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال اتقوا هذه المذابح يعني المحاريب وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن موسى الجهني قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى وقد روي كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة (ان الله يبشرك بيحيى) هو ممتنع من الصرف لكونه أعجميا أو لكون وزن الفعل فيه مع العلمية كيعمر ويعيش ويزيد ويشكر وتغلب وقيل أعجمي لا اشتقاق له وهذا هو الظاهر فامتناعه للعلمية والعجمة الشخصية قال القرطبي حاكيا عن النقاش كان اسمه في الكتاب الاول حنا انتهى والذي رأيناه في مواضع من الانجيل انه يوحنا قيل سمي بذلك لان الله أحياه بالايمان والنبوة وقيل لان الله أحيا به الناس بالهدى والمراد هنا التبشير بولادته أي يبشرك بولادة يحيى (مصدقا بكلمة

فى اشهر الحج والله أعلم وقوله فمن فرض فيهن الحج اى أوجب باحرامه حجا فيه دلالة على لزوم الاحرام بالحج والمضى فيه قال ابن جرير أجمعوا على ان المراد من الفرض ههنا الايجاب والالزام وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فمن فرض فيهن الحج يقول من أحرم بحج أو عمرة وقال عطاء الفرض الاحرام وكذا قال ابراهيم والضحاك وغيرهم وقال ابن جريج أخبرنى عمر بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس انه قال فمن فرض فيهن الحج فلا ينبغى ان يلبى بالحج ثم يقيم بأرض قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وابراهيم النخعى وعكرمة والضحاك وقتادة وسفيان الثورى والزهرى ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال طاوس والقاسم بن محمد هو التلبية وقوله فلا رفث أى من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث وهو الجماع كما قال تعالى أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم وكذلك يحرم تعاطى دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك وكذلك التكلم به بحضرة النساء قال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب (٣) أخبرنى يونس ان نافعا أخبره ان عبد الله بن عمر كان يقول الرفث اتيان النساء والتكلم بذلك الرجال والنساء اذا ذكروا ذلك بأفواههم قال ابن وهب وأخبرنى أبو صخر عن محمد بن كعب مثله قال ابن جرير وحدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن قتادة عن رجل عن أبى العالية الرياحى عن ابن عباس انه كان يحدو وهو محرم وهو يقول

وهن يمشين بنا هميسا
ان يصدق الطير ننك لميسا

قال أبو العالية فقلت تكلم بالرفث وأنت محرم قال انما الرفث ما قيل عند النساء ورواه الاعمش عن زياد بن حصين عن أبى العالية عن ابن عباس فذكره وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا ابن وادخلنى أبى عدى عن عوف حدثنى زياد بن حصين حدثنى أبى حصين بن قبيس قال أصعدت مع ابن عباس فى الحاج وكنت خليلا له فلما كان بعد احرامنا قال ابن عباس فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز ويقول وهن يمشين بنا هميسا * ان يصدق الطير ننك لميسا قال فقلت أترفث وأنت محرم فقال انما الرفث ما قيل عند النساء وقال عبد الله بن طاوس عن أبيه سألت ابن عباس عن قول الله عز وجل فلا رفث ولا فسوق قال الرفث التعريض بذكر الجماع وهى العرابة فى كلام العرب وهو أدنى الرفث وقال عطاء ابن أبى رباح

من الله) أى بعيسى عليه السلام وسمى كلمة الله لانه كان بقوله سبحانه كن وقيل لان الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله وقيل لان الله تعالى بشر به مريم على لسان جبريل وقيل لان الله أخبر فى كتبه المنزلة على الانبياء انه يخلق نبيا من غير واسطة أب فلما جاء قيل هذا هو تلك الكلمة يعنى الوعد الذى وعد وقال أبو عبيد بكلمة أى بكتاب من الله قال والعرب تقول أنشدنى كلمة أى قصيدة ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقه وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين وقيل بستة أشهر قال ابن عباس كان يحيى وعيسى ابنى الخالة وكانت أم يحيى تقول لمريم انى أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك فذلك تصديقه بعيسى فى بطن أمه وهو أول من صدق بعيسى وقتل يحيى قبل ان يرفع عيسى (وسيدا وحصورا) السيد الذى يسود قومه قال الزجاج السيد الذى يفوق أقرانه فى كل شئ من الخير ويالها من سيادة ما أسناها والحصور أصله من الحصر وهو الحبس تقول حصرنى الشئ وأحصرنى اذا حبسك والحصور الذى لا يأتى النساء كأنه تحجم عنهن كما يقال رجل حصور وحصير اذا حبس رفده ولم يخرجه فيحيى عليه السلام كان حصورا عن اتيان النساء أى محصورا لا يأتيهن كغيره من الرجال اما لعدم القدرة على ذلك أو لكونه يكف عنهن منعا لنفسه عن الشهوة مع القدرة وقال السمين الحصور فعول محول عن فاعل للمبالغة كضروب محول من ضارب وهو الذى لا يأتى النساء اما لطبعه على ذلك واما لمخالفة نفسه وفى القاموس الحصور من لا يأتى النساء وهو قادر على ذلك والممنوع منهن أو من لا يشتهيهن ولا يقربهن انتهى وقد رجح الثانى بان المقام مقام مدح وهو لا يكون الا على أمر مكتسب يقدر فاعله على خلافه لا على ما كان من أصل الخلقة وفى نفس الجبلة قال ابن عباس سيدا حليما تقيا وقال مجاهد السيد الكريم على الله وقال ابن المسيب السيد الفقيه العالم وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال كان ذكره مثل هدبة الثوب وأخرجه أحمد فى الزهد من وجه آخر عنه موقوفا وهو أقوى وكان اسم أم يحيى اسيع (ونبيا من الصالحين) أى ناشئا من الصالحين لكونه من نسل الانبياء وأصلابهم أو كائنا من جملة الصالحين كما فى قوله وانه فى الآخرة لمن الصالحين قال الزجاج الصالح الذى يؤدى لله ما افترض عليه والى الناس حقوقهم وقيل المراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذى لا بد منه فى منصب النبوة قطعا من أقاصى مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان

(٣) قوله أخبرنى يونس الخ كذا بالنسخ التى بأيدينا وحرر اه مصححه

الرفث الجماع ومادونه من قول الفحش وكذا قال عمرو بن دينار وقال عطاء كانوا يكرهون العرابة وهو التعريض وهو محرم وقال طاوس هو ان يقول للمرأة اذا حللت أصبتك وكذا قال أبو العالية وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس الرفث غشيان النساء والقبلة والغمز وان تعرض لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك وقال ابن عباس أيضا وابن عمر الرفث غشيان النساء وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وابراهيم وأبو العالية عن عطاء ومكحول وعطاء الخرسانى وعطاء بن يسار وعطية وابراهيم النخعى والربيع والزهرى والسدى ومالك بن أنس ومقاتل بن حيان (٣٩) وعبد الكريم بن مالك والحسن وقتادة والضحاك

وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وفيه بعد لانه لا صلاح فوق صلاح النبوة (قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر) ظاهر هذا ان الخطاب منه لله سبحانه وان كان الخطاب الواصل اليه هو بواسطة الملائكة وذلك لمزيد التضرع والجهد فى طلب الجواب عن سؤاله وقيل انه أراد بالرب جبريل أى ياسيدى وقيل فى معنى هذا الاستفهام وجهان أحدهما انه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أو من غيرها وقيل معناه بأى سبب أستوجب هذا وأنا وامرأتى على هذه الحال والحاصل انه استبعد حدوث الولد منهما مع كون العادة قاضية بانه لا يحدث من مثلهما لانه كان يوم التبشير كبيرا قيل فى تسعين سنة وقيل ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته فى ثمان وتسعين سنة ولذلك جعل الكبر كالطالب له لكونه طليعة من طلائع الموت فاسند الفعل اليه والعاقر التى لا تلد أى ذات عقر على النسب ولو كان على الفعل لقيل عقيرة أى بها عقر يمنعها من الولد وانما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بان يهب الله له ذرية طيبة ومشاهدته لتلك الآية الكبرى فى مريم استعظاما لقدرة الله سبحانه لا لمحض الاستبعاد وقيل انه قدم بعد دعائه الى وقت بشارتها أربعون سنة وقيل عشرون سنة فكان الاستبعاد من هذه الحيثية (قال كذلك الله يفعل ما يشاء) من الافعال العجيبة مثل ذلك الفعل وهو ايجاد الولد من الشيخ الكبير والمرأة العاقر (قال رب اجعل لى آية) أى علامة أعرف بها صحة الحبل فأتلقى هذه النعمة بالشكر والجعل هنا بمعنى التصيير أو بمعنى الخلق والايجاد وانما سأل الآية لان العلوق أمر خفى فأراد ان يطلع عليه ليتلقى تلك النعمة بالشكر من حين حصولها ولا يؤخره الى ظهورها المعتاد ولعل هذا السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد اذ به يظهر ما ذكر من كون التفاوت بين سن يحيى وعيسى ستة أشهر لان ظهور العلامة كان عقب طلبها لقوله فى سورة مريم فخرج على قومه من المحراب الآية قاله أبو السعود (قال آيتك أن لا تكلم الناس) أى علامتك ان تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام لا عن غيره من الاذكار وانما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله سبحانه شكرا على ما أنعم به عليه وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال وقيل كان ذلك عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة اياه حكاه القرطبى عن أكثر المفسرين وقيل ان لا تقدر على تكليمهم وتمتنع من كلامهم قهرا بحيث لو

وغيرهم وقوله ولا فسوق قال مقسم وغير واحد عن ابن عباس هى المعاصى وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد ابن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة وابراهيم النخعى والزهرى والربيع بن أنس وعطاء بن يسار وعطاء الخرسانى ومقاتل بن حيان وقال محمد بن اسحق عن نافع عن ابن عمر قال الفسوق ما أصيب من معاصى الله صيدا أو غيره وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع ان عبد الله بن عمر كان يقول الفسوق اتيان معاصى الله فى الحرم وقال آخرون الفسوق ههنا السباب قاله ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومجاهد والسدى وابراهيم النخعى والحسن وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت فى الصحيح سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ولهذا رواه ههنا الحبر أبو محمد ابن أبى حاتم من حديث سفيان الثورى عن زبيد عن أبى وائل عن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وروى من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ومن حديث أبى اسحق عن محمد بن سعد عن أبيه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الفسوق ههنا الذبح للاصنام قال الله تعالى أو فسقا أهل لغير الله به وقال الضحاك الفسوق التنابز بالالقاب والذين قالوا الفسوق ههنا هو جميع المعاصى الصواب معهم كما نهى تعالى عن الظلم فى الاشهر الحرم وان كان فى جميع السنة منهيا عنه الا انه فى الاشهر الحرم آكد ولهذا قال منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقال فى الحرم ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم واختار ابن جرير ان الفسوق ههنا هو ارتكاب ما نهى عنه فى الاحرام من قتل الصيد وحلق الشعر وقلم

الاظفار ونحو ذلك كما تقدم عن ابن عمر رما ذكرناه أولى والله أعلم وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وقوله ولا جدال في الحج فيه قولان أحدهما ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل ايضاح كما قال وكيع عن العلاء بن عبد الكريم سمعت مجاهدا يقول ولا جدال في الحج قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ولا جدال في الحج قال لا شهر ينسأ ولا جدال (٤٠) في الحج قد تبين ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسيء الذي ذمهم الله به وقال الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن مجاهد في قوله ولا جدال في الحج قال قد استقام الحج فلا جدال فيه وكذا قال السدي وقال هشام أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس ولا جدال في الحج قال المراء في الحج وقال عبد الله بن وهب قال مالك قال الله تعالى ولا جدال في الحج فالجدال في الحج والله أعلم أن قريشا كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة وكانوا يتجادلون يقول هؤلاء نحن أصوب ويقول هؤلاء نحن أصوب فهذا فيما نرى والله أعلم وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون كلهم يدعي ان موقفه موقف ابراهيم فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك وقال ابن وهب عن أبي صخر عن محمد بن كعب قال كانت قريش اذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء حجنا أتم من حجكم وقال هؤلاء حجنا أتم من حجكم وقال حماد ابن سلمة عن جبير بن حبيب عن القاسم بن محمد أنه قال الجدال في الحج أن يقول بعضهم الحج غدا ويقول بعضهم الحج اليوم وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الاقوال وهو في قطع التنازع في مناسك الحج والله أعلم والقول الثاني أن المراد بالجدال ههنا الخاصمة قال ابن جرير حدثنا عبد الحميد بن حسان حدثنا اسحق عن شريك عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود في قوله ولا جدال في الحج قال ان تماري صاحبك حتى تغضبه وبهذا الاسناد الى أبي اسحق عن التيمي سألت ابن عباس عن الجدال قال المراء تماري صاحبك حتى تغضبه وكذا روى مقسم والضحاك عن ابن عباس وكذا قال أبو العالية وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء

الخراساني الكلام لم تقدر عليه (ثلاثة أيام) بليلياليها لقوله تعالى في سورة مريم ثلاث ليال سويا (الا رمزا) أي اشارة والرمز في اللغة الايماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليدين وأصله الحركة وهو استثناء منقطع لكون الرمز من غير جنس الكلام ورجحه القاضي وقيل هو متصل على معنى ان الكلام ما حصل به الافهام من لفظ أو اشارة أو كتابة وهو بعيد والصواب الاول وبه قال الاخفش والكسائي وقيل أراد به صوم ثلاثة أيام لانهم كانوا اذا صاموا لم يتكلموا والاول أولى لموافقة أهل اللغة عليه (واذكر ربك) أي في مدة الحبسة وعقد اللسان عن كلامهم شكرا لهذه النعمة (كثيرا وسبح بالعشي) هو جمع عشية وهي آخر النهار قاله الواحدي وقيل هو واحد وهو المشهور وهو من حين زوال الشمس الى ان تغيب ومنه سميت صلاة الظهر والعصر صلاتي العشاء وقيل من العصر الى ذهاب صدر الليل وهو ضعيف (والابكار) بالكسر مصدر استعمل اسما للوقت الذي هو البكرة وهو من طلوع الفجر الى وقت الضحى وقيل المراد بالتسبيح الصلاة (واذ قالت الملائكة) عطف على اذ قالت امرأة عمران عطفا لقصة البنت على قصة أمها لما بينهما من كمال المناسبة وقصة زكريا وقعت فاصلة بينهما لمناسبة والمعنى اذ قالت الملائكة مشافهة لها بالكلام وهذا من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها بعد التربية الجسمانية اللائقة بحال صغرها (يا مريم ان الله اصطفاك) اختارك أولا حيث قبلك من أمك وقبل تحريرك ولم يسبق ذلك لغيرك من الاناث وربالك في حجر زكريا ورزقك من الجنة (وطهرك) من مسيس الرجال أو الكفر أو من الذنوب أو من الادناس على عمومها وكانت مريم لا تحيض أي خلقك مطهرة مما للنساء وبه جزم القاضي كالكشاف وسيأتي في سورة مريم ان مريم حاضت قبل حملها بعيسى مرتين (واصطفاك) قيل هذا الاصطفاء الاخير غير الاصطفاء الاول فالاول هو حيث تقبلها بقبول حسن والاخير لولادة عيسى من غير أب واصطفاها أيضا بان أسمعها كلام الملائكة مشافهة ولم يقع لغيرها ذلك وقيل الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الاول والمراد بهما جميعا واحد (على نساء العالمين) المراد بهن هنا قيل نساء عالم زمانهم وهو الحق وقيل نساء جميع العالم الى يوم القيامة واختاره الزجاج (يا مريم اقنتي لربك) اي أطيلي القيام في الصلاة أو ادعيه ودومي على طاعته بأنواع الطاعات وقد تقدم الكلام

الخراساني ومكحول والسدي ومقاتل بن حيان وعمرو بن دينار والضحاك والربيع بن أنس وابراهيم النخعي وعطاء بن يسار والحسن وقتادة والزهري وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ولا جدال في الحج المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك فنهى الله عن ذلك وقال ابراهيم النخعي ولا جدال في الحج قال كانوا يكرهون الجدال وقال محمد بن اسحق عن نافع عن ابن عمر قال بالجدال في الحج السباب والمنازعة وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع أن ابن عمر كان يقول الجدال في الحج السباب والمراء والخصومات وقال ابن أبي حاتم وروى عن ابن الزبير والحسن وابراهيم (٤١) وطاوس ومحمد بن كعب قالوا الجدال المراء وقال عبد الله بن المبارك عن يحيى بن بشير عن عكرمة ولا جدال في الحج والجدال الغضب أن تغضب على مسلما الا أن تستعتب مملوكا فتغضبه من غير أن تضربه فلا بأس عليك ان شاء الله (قلت) ولو ضربه لكان جائزا سائغا والدليل على ذلك ما رواه الامام أحمد حدثنا عبد الله بن ادريس حدثنا محمد بن اسحق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجاجا حتى اذا كنا بالعرج نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست عائشة الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلست الى جنب أبي وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة مع غلام أبي بكر فجلس أبو بكر ينتظره الى أن يطلع عليه فاطلع وليس معه بعيره فقال أين بعيرك فقال أضللته البارحة فقال أبو بكر بعير واحد تضله فطفق يضربه ورسول الله صلى الله عليه

في معاني القنوت (واسجدي واركعي مع الراكعين) أي صلي مع المصلين أطلق الجزء وأراد الكل وقدم السجود على الركوع لكونه أفضل أو لكون صلاتهم لا ترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب والظاهر أن ركوعها مع ركوعهم فيدل على مشروعية صلاة الجماعة وقيل المعنى انها تفعل كفعلهم وان لم تصل معهم قال الاوزاعي لما قالت الملائكة لها ذلك شفاها قامت حتى تورمت قدماها وسالت دما وقيحا وحكى عن مجاهد نحوه وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل نساء العالمين خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام وفي المعنى أحاديث كثيرة تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها الانساء العالم ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أربع نسوة سادات نساء عالمهن مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأفضلهن عالما فاطمة (ذلك من أنباء الغيب) أي أخبار ما غاب عنك فالاشارة الى ما سبق من الامور التي أخبره الله بها (نوحيه اليك) أي الامر والشان انا نوحي اليك الغيب ونعلمك به ونظهرك على قصص من تقدم مع عدم مدارستك لاهل العلم والاخبار ولذلك أتى بالمضارع في نوحيه وهذا أحسن من عوده على ذلك وقال أبو السعود صيغة الاستقبال للايذان بأن الوحي لم ينقطع بعد انتهى والوحي في اللغة الاعلام في خفاء يقال وحى وأوحى بمعنى قال ابن فارس الوحي الاشارة والكتابة والرسالة وكل ما ألقيته الى غيرك حتى يعلمه (وما كنت لديهم) أي بحضرتهم يعني المتنازعين في تربية مريم وانما نفى حضوره عندهم مع كونه معلوما لانهم أنكروا الوحي فلو كان ذلك الانكار صحيحا لم يبق طريق للعلم به الا المشاهدة والحضور وهم لا يدعون ذلك فثبت كونه وحيا مع تسليمهم انه ليس ممن يقرأ التوراة ولا ممن يلابس أهلها (اذ يلقون أقلامهم) في الماء يقترعون والاقلام جمع قلم من قلمه اذا قطعه وهو

(٦ - فتح البيان نبي) وسلم يتبسم ويقول انظروا الى هذا المحرم ما يصنع وهكذا أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث ابن اسحق ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال من تمام الحج ضرب الجمال ولكن يستفاد من قول النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر رضي الله عنه انظروا الى هذا المحرم ما يصنع كهيئة الانكار اللطيف أن الاولى ترك ذلك والله أعلم وقد قال الامام عبد بن حميد في مسنده حدثنا عبيد الله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيد الله عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه وقوله وما تفعلوا من

خير يعلمه الله لما نهاهم عن اتيان القبيح قولا وفعلا حثهم على فعل الجميل وأخبرهم انه عالم به وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة وقوله وتزودوا فان خير الزاد التقوى قال العوفي عن ابن عباس كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة يقولون نحج بيت الله ولا يطعمنا فقال الله تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة ان ناسا كانوا يحجون بغير زاد فأنزل الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى وكذا رواه ابن جرير عن عمرو وهو الفلاس عن ابن (٤٢) عيينة قال ابن ابى حاتم وقد روى هذا الحديث ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال وما يرويه عن ابن عيينة أصح (قلت) قد رواه النسائي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس كان ناس يحجون بغير زاد فأنزل الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى وأما حديث ورقاء فأخرجه البخاري عن يحيى بن بشر عن شبابة وأخرجه أبو داود عن أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي ومحمد بن عبد الله المخزومي عن شبابة عن ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فأنزل الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن شبابة ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث شبابة به وروى ابن جرير وابن مردويه من حديث عمرو بن عبد الغفار عن نافع عن ابن عمر قال كانوا اذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادا آخر فأنزل الله تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك وكذا قال ابن الزبير وأبو العالية وعيسى ومجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي وسالم بن عبد الله وعطاء الخراساني وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقال سعيد بن جبير فتزودوا الدقيق والسويق والكعك وقال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير وتزودوا قال الخشنكانج والسويق وقال وكيع أيضا حدثنا ابراهيم المكي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عمر قال ان من كرم الرجل طيب زاده في السفر وزاد فيه حماد بن سلمة عن أبي ريحانة أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجودة وقوله فان خير الزاد

فعل بمعنى مفعول أي مقلوم والقلم القطع ومنه قلمت ظفري أي قطعته وسويته ومثله القبض والنقض بمعنى المقبوض والمنقوض أي أقلامهم التي يكتبون بها وقيل قداحهم ليعلموا (أيهم يكفل مريم) أي يربي وذلك عند اختصامهم في كفالتها كما قال تعالى (وما كنت لديهم اذ يختصمون) في كفالتها فقال زكريا هو أحق بها لكون خالتها عنده وهي اشيع أخت حنة أم مريم وقال بنو اسرائيل نحن أحق بها لكونها بنت عالمنا فاقترعوا وجعلوا أقلامهم في الماء الجاري على ان من وقف قلمه ولم يجر مع الماء فهو صاحبها فجرت أقلامهم ووقف قلم زكريا وقد استدل بهذا من أثبت القرعة والخلاف في ذلك معروف وقد ثبتت أحاديث صحيحة في اعتبارها وذكر الشوكاني في نيل الاوطار ان القرعة وردت في خمسة مواضع ثم عددها (اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه) أي كائنة من عنده وناشئة منه من غير واسطة الاسباب العادية وهي ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل وسمي كلمة لانه وجد بكلمة كن فهو من باب اطلاق السبب على المسبب وفي أبي السعود في سورة النساء يحكى ان طبيبا حاذقا نصرانيا جاء للرشيد فناظر علي بن الحسين الواقدي ذات يوم فقال له ان في كتابكم ما يدل على ان عيسى جزء من الله وتلا هذه الآية أي قوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فقرأ له الواقدي وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه وقال اذن يلزم ان يكون جميع تلك الاشياء جزأ منه سبحانه فانقطع النصراني وأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا وأعطى للواقدي صلة فاخرة وذلك الولد (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) المسيح اختلف فيه مما ذا أخذ فقيل من المسح لانه مسح الارض أي ذهب فيها فلم يستكن بكن وقيل انه كان لا يمسح ذا عاهة الا برئ فسمي مسيحا فهو على هذين فعيل بمعنى فاعل وقيل لانه كان يمسح بالدهن الذي كانت الانبياء تمسح به وقيل انه كان ممسوح الاخمصين وقيل لان الجمال مسحه وقيل لانه مسح بالتطهير من الذنوب وهو على هذه الاربعة الاقوال فعيل بمعنى مفعول وقال أبو الهيثم المسيح ضد المسيخ بالخاء المعجمة وقال ابن الاعرابي المسيح الصديق وقال أبو عبيد أصله بالعبرانية مشيخا بالمعجمتين فعرب كما عرب موشى بموسى وقال في الكشاف هو لقب من الالقاب المشرفة ومعناه باللغة العبرية المبارك وأما الدجال فسمي مسيحا لانه ممسوح احدى العينين وقيل لانه يمسح الارض أي يطوف بلدانها الا مكة والمدينة وبيت المقدس

التقوى لما أمرهم بالزاد للسفر فى الدنيا أرشدهم الى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى اليها كما قال وريشا ولباس التقوى ذلك خير لما ذكر اللباس الحسى نبه مرشدا الى اللباس المعنوى وهو الخشوع والطاعة والتقوى وذكر أنه خير من هذا وأنفع قال عطاء الخراسانى فى قوله فان خير الزاد التقوى يعنى زاد الآخرة وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا عبدان حدثنا هشام بن عمار حدثنا مروان بن معاوية عن اسمعيل عن قيس عن جرير بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من يتزود فى الدنيا ينفعه فى الآخرة وقال مقاتل بن حيان لما نزلت هذه الآية وتزودوا قام رجل من فقراء المسلمين فقال يارسول الله ما نجد ما نتزوده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تزود ما تكف به وجهك عن الناس وخير ما تزودتم التقوى رواه ابن أبى حاتم وقوله واتقون يا أولى الألباب يقول واتقوا عقابى ونكالى وعذابى لمن خالفنى ولم يأتمر بأمرى ياذوى العقول والافهام (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين) قال البخارى حدثنا محمد اخبرنى ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى الموسم فنزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج وهكذا رواه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وغير واحد عن سفيان بن عيينة به ولبعضهم فلما جاء الاسلام تأثموا أن يتجروا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله هذه الآية وكذا رواه ابن جرير عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال كان متجر الناس فى الجاهلية عكاظ ومجنة وذو المجاز فلما كان الاسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية وروى أبو داود وغيره من حديث يزيد بن أبى زياد عن مجاهد عن ابن عباس قال كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج يقولون أيام ذكر فأنزل الله ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن ابراهيم حدثنا هشام أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس انه قال ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية لاحرج عليكم فى الشراء والبيع قبل الاحرام وبعده وهكذا روى العوفى عن ابن

وعيسى هو اسم أعجمى مأخوذ من العيس وهو بياض تعلوه حمرة وقيل هو عربى مشتق من عاسه يعوسه اذا ساسه وقال فى الكشاف هو معرب من ايشوع انتهى والذى رأيناه فى الانجيل فى مواضع أن اسمه يشوع بدون همزة وانما قيل ابن مريم مع ان الخطاب معها تنبيها على انه يولد من غير أب فنسب الى أمه فان قلت هذه ثلاثة أشياء الاسم والكنية واللقب قلت المراد اسمه الذى يتميز به عن غيره وهو لا يتميز الا بمجموع الثلاثة وبهذا تعلم ان الخبر عن اسمه انما هو مجموع الثلاثة من حيث المعنى لا كل واحد منهما على حياله فهذا على حد الرمان حلو حامض وقال ابن مريم ولم يقل ابنك كما هو الظاهر اشارة الى انه يكنى بهذه الكنية المشتملة على الاضافة للظاهر وخاطبها بنسبته اليها تنبيها على انها تلده بلا أب اذ عادة الناس نسبتهم الى آبائهم فأعلمت من نسبته اليها انه لا ينسب الا الى أمه (وجيها فى الدنيا والآخرة) الوجيه ذو الوجاهة وهى القوة والمنعة ووجاهته فى الدنيا النبوة وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة (ومن المقربين) عند الله يوم القيامة وفيه تنبيه على علو منزلته وانه رفعه الى السماء (ويكلم الناس فى المهد وكهلا) المهد مضجع الصبى فى رضاعه قاله ابن عباس ومهدت الامر هيأته ووطأته والكهل هو من كان بين سن الشباب والشيوخة أى يكلم الناس حال كونه رضيعا فى المهد قبل وقت الكلام وحال كونه كهلا بالوحى والرسالة قاله الزجاج وقد ثبت فى الصحيح انه لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة منهم عيسى وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتكلم فى المهد الا عيسى وشاهد يوسف وصاحب جريج وابن ماشطة فرعون وقال الخفاجى الذين تكلموا فى المهد احد عشر نظمهم الجلال السيوطى فى قوله

تكلم فى المهد النبى محمد * ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبرى جريج ثم شاهد يوسف * وطفل لدى الأخدود ريه مسلم
وطفل عليه مر بالامة التى * يقال لها تزنى ولا تتكلم
وماشطة فى عهد فرعون طفلها * وفى زمن الهادى المبارك يختم

انتهى وقال قتادة فى المهد وكهلا يعنى يكلمهم صغيرا وكبيرا وقال ابن عباس الكهل هو من فى سن الكهولة وعن مجاهد قال الكهل الحليم وعن ابن عباس قال تكلم عيسى ساعة ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق والذى تكلم به هو قوله انى عبد الله

عباس وقال وكيع حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء عن ابن عباس انه كان يقرأ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج وقال عبد الرحمن عن ابن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد سمعت ابن الزبير يقرأ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج وهكذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومنصور بن المعتمر وقتادة وابراهيم النخعي والربيع ابن أنس وغيرهم وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا شبابة بن سوار حدثنا شعبة عن أبي أمية قال سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحج ومعه تجارة فقرأ ابن عمر ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم وهذا موقوف وهو قوي جيد وقد روي مرفوعا قال أحمد حدثنا اسباط حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي عن أبي امامة التيمي قال قلت لابن عمر انا نكري فهل لنا من حج قال أليس تطوفون بالبيت وتأتون المعرف وترمون الجمار وتحلقون رؤسكم قال قلنا بلى فقال ابن عمر جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال أنتم حجاج وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن العلاء ابن المسيب عن رجل من بني تميم قال جاء رجل الى عبد الله بن عمر فقال يا أبا عبد الرحمن انا قوم نكري ويزعمون أنه ليس لنا حج قال ألستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون قال بلى قال فأنت حاج ثم قال ابن عمر جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عما سألت عنه فنزلت هذه الآية ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن عبد الرزاق به وهكذا روى هذا الحديث أبو حذيفة عن الثوري مرفوعا (الى وهكذا روي من غير هذا الوجه مرفوعا فقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عباد بن العوام عن العلاء بن المسيب عن أبي أمامة التيمي قال قلت لابن عمر انا أناس نكري في هذا الوجه الى مكة وان أناسا يزعمون أنه لا حج لنا فهل ترى لنا حجا قال ألستم تحرمون وتطوفون بالبيت وتفضون المناسك قال قلت بلى قال فأنتم حجاج ثم قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألت فلم يدر ما يعود عليه أو قال فلم يرد عليه شيأ حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فدعا الرجل

آتاني الكتاب الآية وتكلم ببراءة أمه عما رماها به أهل القرية من القذف قال ابن قتيبة لما كان لعيسى ثلاثون سنة أرسله الله فمكث في رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله وقال وهب مكث ثلاث سنين قيل وفي الآية بشارة لمريم بأنه يبقى حتى يكتهل وفيه أنه يتغير من حال الى حال ولو كان الهالم يدخل عليه التغيير ففيه رد على النصارى وقال الحسن ابن الفضل يكلم الناس كهلا بعد نزوله من السماء وفيه نص على انه سينزل من السماء الى الارض (ومن) العباد (الصالحين) مثل ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وموسى وغيرهم من الانبياء وانما ختم أوصافه بالصلاح لانه لا يسمى المرء صالحا حتى يكون مواظبا على النهج الاصلح والطريق الاكمل في جميع أحواله وذلك يتناول جميع المقامات في الدين والدنيا في أفعال القلوب وفي أفعال الجوارح ولهذا قال سليمان بعد النبوة وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (قالت) على طريقة الاستبعاد العادي (رب أنى) كيف (يكون لي ولد ولم يمسسني بشر) أي والحال انه على حالة منافية للحالة المعتادة من كون له أب ولم يصبني رجل بتزوج ولا غيره (قال كذلك الله يخلق ما يشاء) يعني هكذا يخلق الله منك ولدا من غير أن يمسك بشر وعبر هنا بالخلق وفي قصة يحيى بالفعل لما أن ولادة العذراء من غير ان يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فكان الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل (اذا قضى أمرا) هو من كلام الله سبحانه وأصل القضاء الاحكام وقد تقدم وهو هنا الارادة أي اذا أراد أمرا من الامور (فانما يقول له كن فيكون) من غير عمل ولا مزاولة وهو تمثيل لكمال قدرته (ويعلمه) بالنون والياء وعلى كلتا القراءتين هو كلام مستأنف لان النحاة وأهل البيان نصوا على ان الواو تكون للاستئناف أو عطف على يبشرك أو وجيها وقال التفتازاني انما يحسنان بعض الحسن على قراءة الياء وأما على قراءة النون فلا يحسن الا بتقدير القول أي ان الله يبشرك بعيسى ويقول نعلمه أو وجيها ومقولا فيه نعلمه (الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) الكتاب الكتابة أو جنس الكتب الالهية قال ابن عباس الكتاب الخط بالقلم وكان أحسن الناس خطا والحكمة العلم وقيل تهذيب الاخلاق (ورسولا الى بني اسرائيل) أي ويجعله رسولا أو يكلمهم رسولا أو أرسلت رسولا اليهم في الصبا أو بعد البلوغ وفي حديث أبي ذر الطويل وأول أنبياء بني اسرائيل موسى وآخرهم عيسى

قتلاها عليه وقال أنتم حجاج وكذا رواه مسعود بن سعد وعبد الواحد بن زياد وشريك القاضي عن العلاء بن المسيب به مرفوعا
وقال ابن جرير حدثني طليق بن محمد الواسطي حدثنا أسباط هو ابن محمد أخبرنا الحسن بن عمر وهو الفقيمي عن أبي أمامة التيمي
قال قلت لابن عمر انا قوم نكرى فهل لنا من حج فقال أليس تطوفون بالبيت وتأتون المعرف وترمون الجمار وتحلقون رؤسكم
قلنا بلى قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن الذي سألتني عنه فلم يدر ما يقول له حتى نزل جبريل عليه السلام
بهذه الآية ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم الى آخر الآية (٤٥) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم أنتم حجاج

(انى قد جئتكم بآية من ربكم) يعنى بعلامة على صدق قولى ولما قال ذلك لهم قالوا
وما هذه الآية قال (أنى أخلق) أى أصور وأقدر (لكم) خلقا أو شيأ (من الطين كهيئة
الطير فأنفخ فيه) أى فى ذلك الخلق أو ذلك الشئ أو فى الطين قيل انه لم يخلق غير الخفاش
لما فيه من عجائب الصنعة فان له نابا واسنانا وأذنا والانثى منه له ثدى وتحيض وتظهر
وتطير قيل انهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المذكورة ولكونه يطير بغير
ريش ويلد كما يلد سائر الحيوان مع كونه من الطير ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور
ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وانما يرى فى ساعتين بعد غروب الشمس ساعة
وبعد طلوع الفجر ساعة وهو يضحك كما يضحك الانسان وقيل ان سؤالهم له كان على
وجه التعنت قيل كان يطير مادام الناس ينظرونه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل
الله من فعل غيره قال ابن عباس انما خلق عيسى طائرا واحدا وهو الخفاش وقال
هنا فأنفخ فيه وفى المائدة فتنفخ فيها باعادة الضمير هنا الى الطير أو الطين وفى المائدة الى
هيئة الطير جريا على عادة العرب فى تفننهم فى الكلام وخص ماهنا بتوحيد الضمير مذكرا
وما فى المائدة بجمعه مؤنثا لان ماهنا اخبار من عيسى قبل الفعل فوحده وما فى المائدة
خطاب من الله له فى القيامة وقد سبق من عيسى الفعل مرات فجمعه قاله الكرخى
(فيكون طيرا) اسم جنس يقع على الواحد والاثنين والجمع وقرئ طائرا على التوحيد
(باذن الله) فيه دليل على انه لولا الاذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك وان خلق ذلك
كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام قيل كانت تسوية الطين والنفخ
من عيسى والخلق من الله عز وجل (وأبرئ الاكمه والابرص) الاكمه هو الذى يولد أعمى
كذا قال أبو عبيدة وقال ابن فارس الكمه العمى يولد به الانسان وقد يعرض يقال
كمه يكمه كمها اذا عمى وكمهت عينه اذا أعميتها وقيل الاكمه الذى يبصر بالنهار ولا يبصر
بالليل وقيل الاعمش وقيل هو الممسوح العين والبرص معروف وهو بياض يظهر فى الجلد
ولم تكن العرب تنفر من شئ تنفرها منه يقال برص يبرص برصا أصابه ذلك ويقال له
الوضح وفى الحديث وكان بها وضح والوضاح من ملوك العرب هابوا أن يقولوا له الابرص
ويقال للقمر أبرص لشدة بياضه وللوزغ سام أبرص لبياضه والبريص الذى يلمع لمعان
البرص ويقارب البصيص وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ من أمراض عدة كما اشتمل

وقال ابن جرير حدثني أحمد بن اسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا غندر عن عبد الرحمن بن المهاجر عن ابى صالح مولى عمر قال قلت يا أمير المؤمنين كنتم تتجرون فى الحج قال وهل كانت معايشهم الا فى الحج وقوله تعالى فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام انما صرف عرفات وان كان علما على مؤنث لانه فى الاصل جمع كمسلمات ومؤمنات سمى به بقعة معينة فروعى فيه الاصل فصرف اختاره ابن جرير وعرفة موضع الوقوف فى الحج وهى عمدة أفعال الحج ولهذا روى الامام أحمد وأهل السنن باسناد صحيح عن الثورى عن بكير عن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحج عرفات ثلاثا فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك وأيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة الى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر لان النبى صلى الله عليه وسلم وقف فى حجة الوداع بعد ان صلى الظهر الى ان غربت الشمس وقال لتأخذوا عنى مناسككم وقال فى هذا الحديث فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى رحمهم الله وذهب الامام أحمد الى ان وقت الوقوف من أول يوم عرفة واحتجوا بحديث الشعبى عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائى قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزدلفة حين خرج الى الصلاة فقلت يا رسول الله انى جئت من جبلى طيئ أكللت راحلتى وأتعبت نفسى والله ما تركت من جبل الا وقفت عليه فهل لى من حج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع

وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا ونهارا فقد تم حجه وقضى تفثه رواه الامام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى ثم قيل انما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق أخبرنى ابن جريج قال قال ابن المسيب قال على بن أبى طالب بعث الله جبريل عليه السلام الى ابراهيم صلى الله عليه وسلم فحج به حتى اذا أتى عرفة قال عرفت وكان قد أتاها مرة قبل ذلك فلذلك سميت عرفة وقال ابن المبارك عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء قال انما سميت عرفة ان جبريل كان يرى ابراهيم المناسك فيقول عرفت عرفت فسميت عرفات وروى نحوه عن ابن عباس وابن عمر وأبى (٤٦) مجلز فالله أعلم وتسمى عرفات المشعر الحرام والمشعر الاقصى والال على وزن هلال ويقال للجبل فى وسطها جبل الرحمة قال أبو طالب فى قصيدته المشهورة

وبالمشعر الاقصى اذا قصدوا له
الال الى تلك الشراج القوابل

وقال ابن أبى حاتم حدثنا حماد بن الحسن بن عبينة حدثنا أبو عامر عن زمعة هو ابن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى اذا كانت الشمس على رؤس الجبال كأنها العمائم على رؤس الرجال دفعوا فأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس ورواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح وزاد ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس حتى اذا أسفر كل شئ وكان فى الوقت الآخر دفع وهذا أحسن الاسناد وقال ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخرمة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد وكان اذا خطب خطبة قال أما بعد فان هذا اليوم الحج الاكبر ألا وان أهل الشرك والاوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل ان تغيب الشمس اذا كانت الشمس ولا فى رؤس الجبال كانها عمائم الرجال فى وجوهها وانا ندفع بعد ان تغيب الشمس وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد ان تطلع الشمس اذا كانت الشمس فى رؤس الجبال كانها عمائم الرجال فى وجوهها وانا ندفع قبل ان تطلع الشمس مخالفا هديهم هدى أهل الشرك هكذا رواه ابن مردويه وهذا لفظه والحاكم فى مستدركه كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العنبسى عن عبد الوارث بن سعيد عن ابن جريج وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع المسور

عليه الانجيل وانما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر لانهما لا يبرآن فى الغالب بالمداواة وقال السيوطى لانهما داآ اعياء وكان بعثه فى زمن الطب فأبرأ فى يوم خمسين ألفا بالدعاء بشرط الايمان ولم يقل فى هذين باذن الله لانهما ليس فيهما كبير غرابة بالنسبة الى الآخرين فتوهم الالوهية فيهما بعيد فلا يحتاج الى التنبيه على نفيه خصوصا وكان فيهم أطباء كثيرون (وأحيى الموتى) أى وكذلك احياء الموتى قد اشتمل الانجيل على قصص من ذلك قال ابن عباس قد أحيى أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام ابن نوح وكلهم بقى وولد له الا سام قيل وكان دعاؤه باحيائهم ياحى ياقيوم (باذن الله) كرره لنفى توهم الالوهية فيه لان الاحياء ليس من جنس الافعال البشرية فهو رد على النصارى (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) أى بما أكلتم البارحة من طعام وما خبأتم منه عن عمار بن ياسر قال بما تأكلون من المائدة وما تدخرون منها وكان أخذ عليهم فى المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا فاكلوا وادخروا وخانوا فجعلوا قردة وخنازير وفى هذا دليل قاطع على صحة نبوة عيسى معجزة عظيمة له وهذا اخبار من المغيبات مع ما تقدم له من الآيات الباهرات واخباره عن الغيوب باعلام الله اياه بذلك وهذا مما لا سبيل لاحد من البشر اليه الا للانبياء عليهم السلام وأما اخبار المنجم والكاهن فلا بد لكل واحد منهما من مقدمات يرجع اليها ويعتمد فى اخباره عليها وقد يخطئ فى كثير مما يخبر به (ان فى ذلك) المذكور من خلق الطير وغيره (لآية لكم) أى عبرة ودلالة على صدقى (ان كنتم مؤمنين) يعنى مصدقين بذلك انتفعتم بهذه الآية (ومصدقا) أى وجئتكم مصدقا (لما بين يدى من التوراة) وذلك لان الانبياء يصدق بعضهم بعضا وبين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة وخمس وسبعون سنة (ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم) أى لاجل أحل لكم بعض الذى حرم عليكم من الاطعمة فى التوراة كالشحوم وكل ذى ظفر كما فى قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية وقوله فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقيل انما أحل لهم ما حرمته عليهم الاحبار ولم تحرمه التوراة وقال أبو عبيدة يجوز ان يكون بعض بمعنى كل قال القرطبى وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة لان البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل ولان عيسى لم يحلل لهم جميع ما حرمته عليهم التوراة فانه لم يحلل القتل ولا السرق

من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا كما يتوهمه رعاع أصحابنا انه ممن له رؤية بلا سماع وقال وكيع عن شعبة عن اسمعيل بن رجاء الزبيدى عن المعرور بن سويد قال رأيت عمر رضى الله عنه حين دفع من عرفة كأنى أنظر اليه رجل أصلع على بعير له يوضع وهو يقول انا وجدنا الافاضة هى الايضاع وفى حديث جابر بن عبد الله الطويل الذى فى صحيح مسلم قال فيه فلم يزل واقفا يعنى بعرفة حتى غربت الشمس وبدت الصفرة قليلا حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شنق للقصواء الزمام حتى ان رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى (٤٧) أيها الناس السكينة السكينة كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد واقامتين ولم يسبح بينهما شيأ ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان واقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع قبل ان تطلع الشمس وفى الصحيحين عن أسامة بن زيد انه سئل كيف كان يسير رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دفع قال كان يسير العنق فاذا وجد فجوة نص والعنق هو انبساط السير والنص فوقه وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو محمد بن بنت الشافعى فيما كتب الى عن أبيه أو عمه عن سفيان بن عيينة قوله فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام وهى الصلاتين جميعا وقال أبو اسحق السبيعى عن عمرو بن ميمون سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام فسكت حتى اذا هبطت أيدى رواحلنا بالمزدلفة قال اين السائل عن المشعر الحرام هذا المشعر الحرام وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن سالم قال قال ابن عمر المشعر الحرام المزدلفة كلها وقال هشام عن حجاج عن نافع عن ابن عمر انه سئل عن قوله فاذكروا الله عند المشعر الحرام قال فقال هذا الجبل وما حوله وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن المغيرة عن ابراهيم قال رآهم ابن عمر يزدحمون على قزح فقال على ما يزدحم هؤلاء كل ما ههنا مشعر وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدى والربيع بن أنس والحسن وقتادة أنهم قالوا هو ما بين الجبلين وقال ابن جريج قلت لعطاء أين المزدلفة قال اذا أفضت من مأزمى عرفة فذلك الى محسر قال وليس المأزمان من عرفة

ولا الفاحشة وغير ذلك من المحرمات الثابتة فى الانجيل مع كونها ثابتة فى التوراة وهى كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة عن وهب أن عيسى كان على شريعة موسى وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس وقال لبنى اسرائيل انى لم أدعكم الى خلاف حرف مما فى التوراة الا لاحل لكم بعض الذى حرم عليكم واضع عنكم الآصار وعن الربيع قال كان الذى جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الابل والثروب فأحلها لهم على لسان عيسى وحرم عليهم الشحوم فاحلت لهم فيما جاء به عيسى وفى أشياء من السمك وفى أشياء من الطير وفى أشياء أخر حرمها عليهم وشدد عليهم فيها فجاءهم عيسى بالتخفيف منه فى الانجيل (وجئتكم بآية من ربكم) هى قوله ان الله ربى وربكم وانما كان ذلك آية لان من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك فجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوته ويحتمل ان تكون هذه الآية هى الآية المتقدمة فيكون تكريرا لقوله انى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير الآية وقيل هذه الجملة تأكيد للاولى وقيل تأسيس لا توكيد (فاتقوا الله) يا معشر بنى اسرائيل فيما أمركم به ونهاكم عنه (وأطيعون) فيما أدعوكم اليه لان طاعة الرسول من توابع تقوى الله (ان الله ربى وربكم فاعبدوه) وجميع الرسل كانوا على دين واحد وهو التوحيد ولم يختلفوا فى الله وفيه حجة بالغة على نصارى وفد نجران ومن قال بقولهم (هذا صراط مستقيم) يعنى التوحيد فكذبوه ولم يؤمنوا به (فلما أحس عيسى منهم الكفر) أحس علم ووجد قاله الزجاج وقال أبو عبيدة معنى أحس عرف وأصل ذلك وجود الشئ بالحاسة والاحساس العلم بالشئ قال تعالى هل تحس منهم من أحد والمراد بالاحساس هنا الادراك القوى الجارى مجرى المشاهدة وبالكفر اصرارهم عليه وقيل سمع منهم كلمة الكفر وقال الفراء أرادوا قتله وعلى هذا فمعنى الآية فلما أدرك منهم عيسى ارادة قتله التى هى كفر والذين أرادوا قتله هم اليهود وذلك أنهم كانوا عارفين من التوراة بأنه المسيح المبشر به فى التوراة وانه ينسخ دينهم فلما أظهر عيسى الدعوة اشتد ذلك عليهم وأخذوا فى أذاه وطلبوا قتله وكفروا به فاستنصر عليهم كما أخبر الله عنه بقوله (قال من أنصارى) الانصار جمع نصير (الى الله) أى متوجها الى الله وملتجئا اليه أو ذاهبا اليه وقيل الى بمعنى مع

من المزدلفة ولكن مفضاهما قال فقف بينهما ان شئت قال وأحب ان تقف دون فزح هلم الينا من أجل طريق الناس (قلت) والمشاعر هي المعالم الظاهرة وانما سميت المزدلفة المشعر الحرام لانها داخل الحرم وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح الا به كما ذهب اليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم أو مستحب لا يجب بتركه شئ كما هو القول الآخر في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء بسطها موضع آخر غير هذا والله أعلم وقال عبد الله بن المبارك عن سفيان (٤٨) الثوري عن زيد بن أسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عرفة كلها موقف وارفعوا عن عرفة وجمع كلها موقف الا محسر هذا حديث مرسل وقد قال الامام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا سعيد بن عبد العزيز حدثني سليمان بن موسى عن جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل عرفات موقف وارفعوا عن عرفات وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن محسر وكل فجاج مكة منحر وكل أيام التشريق ذبح وهذا أيضا منقطع فان سليمان بن موسى هذا وهو الاشدق لم يدرك جبير بن مطعم ولكن رواه الوليد بن مسلم وسويد بن عبد العزيز عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان فقال الوليد عن جبير بن مطعم عن أبيه وقال سويد عن نافع ابن جبير عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره والله أعلم وقوله واذكروه كما هداكم تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والارشاد الى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية ابراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال وان كنتم من قبله لمن الضالين قبل من قبل هذا الهدى وقيل القرآن وقيل الرسول والكل متقارب ومتلازم وصحيح (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم) ثم ههنا العطف خبر على خبر وترتيبه عليه كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات ان يدفع الى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام وأمره ان يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كان جمهور الناس يصنعون يقفون بها الاقريشا فانهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل ويقولون نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته قال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن حازم حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكان يسمون الحمس وسائر

كقوله تعالى ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم وقيل المعنى من أنصاري في السبيل الى الله وقيل المعنى من يضم نصرته الى نصرة الله وقيل لما بعث الله عيسى وأمره باظهار رسالته والدعاء اليه نفروه وأخرجوه من بينهم فخرج هو وأمه يسيحان في الارض يقول من أنصاري الى الله (قال الحواريون) جمع حواري وحواري الرجل صفوته وخلاصته وهو مأخوذ من الحور وهو البياض عند أهل اللغة حورت الثياب بيضتها والحواري من الطعام ما حور أي بيض والحواري الناصر ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم لكل نبي حواري وحواري الزبير وهو في البخاري وغيره قال ابن عباس كانوا صيادين وقال الضحاك هم قصارون مر بهم عيسى فآمنوا به وعن قتادة قال الحواريون هم الذين تصلح لهم الخلافة وقيل هم أصفياء الانبياء وقيل الحواري الوزير وقد اختلف في سبب تسميتهم بذلك فقيل لبياض ثيابهم وقيل لخلوص نياتهم وقيل لانهم خاصة الانبياء وكانوا اثني عشر رجلا وهم أول من آمن به (نحن أنصار الله) أي أنصار دينه ورسله (آمنا بالله) استئناف جار مجرى العلة لما قبله فان الايمان يبعث على النصرة (واشهد) أنت يا عيسى لنا يوم القيامة (بأنا مسلمون) أي مخلصون لايماننا منقادون لما تريد منا ايذانا بان غرضهم السعادة الاخروية (ربنا آمنا بما أنزلت) في كتبك تضرع الى الله سبحانه وعرض لحالهم عليه بعد عرضها على الرسول مبالغة في اظهار أمرهم (واتبعنا الرسول) أي عيسى وحذف المتعلق مشعر بالتعميم أي اتبعناه في كل ما يأتي به (فاكتبنا مع الشاهدين) لك بالوحدانية ولرسولك بالرسالة فاثبت أسماءنا باسمائهم واجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به أو اكتبنا مع الانبياء الذين يشهدون لامهم وقيل مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته انهم شهدوا له انه قد بلغ وشهدوا للرسل انهم قد بلغوا (ومكروا) أي الذين أحس عيسى منهم الكفر وهم كفار بني اسرائيل اذ كادوا به من يقتله غيلة أي خفية (ومكر الله) هو استدراجه للعباد من حيث لا يعلمون قاله الفراء وغيره وقال الزجاج مكر الله مجازاتهم على مكرهم فسمي الجزاء باسم الابتداء كقوله تعالى الله يستهزئ بهم وهو خداعهم وأصل المكر في اللغة الاغتيال والخدع حكاه ابن فارس وعلى هذا فلا يسند الى الله سبحانه الا على طريق المشاكلة وقيل مكر الله هنا القاء شبه عيسى على غيره ورفع عيسى اليه أخرج ابن جرير عن السدي قال ان بني اسرائيل حصروا

العرب يقفون بعرفات فلما جاء الاسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله من حيث أفاض الناس وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم واختاره ابن جرير وحكى عليه الاجماع وقال الامام أحمد حدثنا سفيان عن عمرو عن مجاهد عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال أضللت بعيرا لى بعرفة فذهبت أطلبه فاذا النبى صلى الله عليه وسلم واقف قلت ان هذا من الحمس ما شأنه ههنا أخرجاه فى الصحيحين ثم رواه البخارى من حديث موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس ما يقتضى ان المراد بالافاضة ههنا هى الافاضة من المزدلفة الى منى لرمى الجمار فالله أعلم وحكاه ابن جرير عن الضحاك ابن مزاحم فقط قال والمراد بالناس ابراهيم عليه السلام وفى رواية عند الامام قال ابن جرير ولولا اجماع الحجة على خلافه لكان هو الارجح وقوله واستغفروا الله ان الله غفور رحيم كثيرا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ولهذا ثبت فى صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثا وفى الصحيحين انه ندب الى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين وقد روى ابن جرير ههنا حديث ابن عباس بن مرداس السلمى فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لامته عشية عرفة وقد أوردناه فى جزء جمعناه فى فضل يوم عرفة وأورد ابن مردويه ههنا الحديث الذى رواه البخارى عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الاستغفار ان يقول العبد اللهم أنت ربى لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت من قالها فى ليلته فمات فى ليلته دخل الجنة ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر ان أبا بكر قال يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال قل اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب الا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى انك أنت الغفور الرحيم والاحاديث فى الاستغفار كثيرة (فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم

عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين فى بيت فقال عيسى لأصحابه من يأخذ صورتى فيقتل وله الجنة فأخذها رجل منهم وصعد عيسى الى السماء فذلك قوله ومكروا ومكر الله (والله خير الماكرين) أى أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على ايصال الضرر بمن يريد ايصاله من حيث لا يحتسب (اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى) قال الفراء ان فى الكلام تقديما وتأخيرا تقديره انى رافعك ومطهرك ومتوفيك بعد انزالك من السماء قال أبو زيد متوفيك قابضك وقيل الكلام على حاله من غير ادعاء تقديم وتأخير فيه والمعنى كما قال فى الكشاف مستوفى أجلك ومعناه انى عاصمك من ان يقتلك الكفار ومؤخر أجلك الى أجل كتبته لك وميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم عن مطر الوراق قال متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت وانما اختلف المفسرون الى تأويل الوفاة بما ذكرنا ان الصحيح ان الله تعالى رفعه الى السماء من غير وفاة كما رجحه كثير من المفسرين واختاره ابن جرير الطبرى ووجه ذلك انه قد صح فى الاخبار عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم نزوله وقتله الدجال وقيل ان الله سبحانه توفاه ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه الى السماء وفيه ضعف وقيل المراد بالوفاة ههنا النوم ومثله هو الذى يتوفاكم بالليل أى ينيمكم وبه قال كثيرون وقيل الواو فى قوله ورافعك لا تفيد الترتيب لانها لمطلق الجمع فلا فرق بين التقديم والتأخير قاله أبو البقاء وقال أبو بكر الواسطى المعنى انى متوفيك عن شهواتك وحظوظ نفسك وهذا بالتحريف أشبه منه بالتفسير عن سعيد بن المسيب قال رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة رفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وحملت به أمه ولها ثلاث عشرة سنة وولدته بعضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل وعاشت بعد رفعه ست سنين وأورد على هذا عبارة المواهب مع شرحها للزرقانى وانما يكون الوصف بالنبوة بعد بلوغ الموصوف بها أربعين سنة اذ هو سن الكمال ولهذا بعث الرسل ومفاد هذا الحصر الشامل لجميع الانبياء حتى يحيى وعيسى هو الصحيح فى زاد المعاد للحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى ما يذكر ان عيسى رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة لا يعرف به أثر متصل يجب المصير اليه قال الشامى وهو كما قال فان ذلك انما يروى عن النصارى والمصرح به فى الاحاديث النبوية انه انما رفع وهو ابن مائة وعشرين سنة ثم قال الزرقانى وقع للحافظ الجلال السيوطى فى تكملة تفسير المحلى وشرح النقاية

نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) يأمر تعالى بذكره والاكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها وقوله كذكركم آباءكم اختلفوا في معناه فقال ابن جريج عن عطاء هو كقول الصبي أبه أمه يعني كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس وروى ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس نحوه وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله على محمد (٥٠) صلى الله عليه وسلم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا قال ابن أبي حاتم وروى السدي عن أنس بن مالك وأبي وائل وعطاء بن أبي رباح في أحد قوليه وسعيد بن جبير وعكرمة في أحد رواياته ومجاهد والسدي وعطاء الخراساني والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب ومقاتل بن حيان نحو ذلك وهكذا حكاه ابن جرير عن جماعة والله أعلم والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل ولهذا كان انتصاب قوله أو أشد ذكرا على التمييز تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا وأو ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله فهي كالحجارة أو أشد قسوة وقوله يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية فأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فكان قاب قوسين أو أدنى فليست ههنا للشك قطعا وانما هي لتحقيق الخبر عنه كذلك أو أزيد منه ثم انه تعالى أرشد الى دعائه بعد كثرة ذكره فانه مظنة الاجابة وذم من لا يسأله الا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق أي من نصيب ولاحظ وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك قال سعيد بن جبير عن ابن عباس القرآني كان قوم من الاعراب يجيئون الى الموقف فيقولون اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن لا يذكرون من أمر الآخرة شيأ فأنزل الله فيهم فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فأنزل الله أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ولهذا مدح من يسأله الدنيا والاخرى فقال ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

وغيرهما من كتبه الجزم بان عيسى رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ويمكث بعد نزوله سبع سنين ومازلت أتعجب منه مع مزيد حفظه واتقانه وجمعه للمعقول والمنقول حتى رأيته في مرقاة الصعود رجع عن ذلك انتهى قلت وفي حديث أبي داود الطيالسي بدل سبع سنين أربعين سنة ويتوفى ويصلى عليه قال السيوطي فيحتمل ان المراد مجموع لبثه في الارض قبل الرفع وبعده انتهى وفيه ما تقدم وأورد على قوله ليلة القدر انها من خصائص هذه الامة وربما يقال في الجواب لعل الخصوصية على الوجه الذي هي عليه الآن من كون العمل فيها خيرا من العمل في ألف شهر ومن كون الدعاء فيها مجابا حالا بعين المطلوب وغير ذلك فلا ينافي انها كانت موجودة في الامم السابقة لكن على مزية وفضل أقل مما هي عليه الآن (ومطهرك) أي مبعدك ومخرجك (من الذين كفروا) أي من خبث جوارهم وسوء صحبتهم ودنس معاشرتهم برفعك الى السماء وبعدك عنهم قال الحسن طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه لان كونه في جملتهم بمنزلة التنجيس لهم قاله الكرخي (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) أي الذين اتبعوا ما جئت به وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلو فيه الى ما بلغ من جعله الها ومنهم المسلمون فانهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلو فلم يفرطوا في وصفه كما فرطت اليهود ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى وقد ذهب الى هذا كثير من أهل العلم وقيل المراد بالآية ان النصارى الذين هم اتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على اليهود غالبين لهم قاهرين لمن وجد منهم فيكون المراد بالذين كفروا هم اليهود خاصة وقيل هم الروم لا يزالون ظاهرين على من خالفهم من الكافرين وقيل هم الحواريون لا يزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح وقيل هم المسلمون والنصارى وعلى كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار أو لكل طوائف الكفار لا ينافي كونهم مقهورين مغلوبين لطوائف المسلمين كما يفيده الآيات الكثيرة بان هذه الملة الاسلامية ظاهرة على كل الملل قاهرة لها مستعلية عليها وقد أفرد الشوكاني هذه الآية بمؤلف سماه وبل الغمامة في تفسير وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة فمن أراد استيفاء ما في المقام فليرجع الى ذلك وحاصل ما ذكره أن صيغة الذين اتبعوك من صيغ العموم وكذلك صيغة الذين كفروا من صيغ العموم والواجب العمل بما دل عليه النظم

جمعت هذه الدعوة كل خير فى الدنيا وصرفت كل شر فان الحسنة فى الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافية ودار رحبة وزوجة حسنة ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح ومركب هنى وثناء جميل الى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ولا منافاة بينها فانها كلها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا وأما الحسنة فى الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الامن من الفزع الاكبر فى العرصات وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسر أسبابه فى الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام وقال القاسم أبو عبد الرحمن من (٥١) أعطى قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وجسدا صابرا فقد أوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووقى عذاب النار ولهذا وردت السنة بالترغيب فى هذا الدعاء فقال البخارى حدثنا معمر حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس ابن مالك قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وقال أحمد حدثنا اسمعيل بن ابراهيم حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال سأل قتادة انسا أى دعوة كان أكثر ما يدعوها النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وكان أنس اذا أراد ان يدعو بدعوة دعا بها واذا أراد ان يدعو بدعاء دعا بها فيه ورواه مسلم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد السلام ابن شداد يعنى أبا طالوت قال كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت ان اخوانك يحبون ان تدعو لهم فقال اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وتحدثوا ساعة حتى اذا أرادوا القيام قال يا أبا حمزة ان اخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال أتريدون ان أشقق لكم الامور اذا آتاكم الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله وقال أحمد أيضا حدثنا محمد بن أبى عدى عن حميد عن ثابت عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدعو الله بشئ أو تسأله اياه قال نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه فهلا قلت ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار قال فدعا

القرآنى واذا ورد ما يقتضى تخصيصه أو تقييده أو صرفه عن ظاهره وجب العمل به وان لم يرد ما يقتضى ذلك وجب البقاء على معنى العموم وظاهره شمول كل متبع وانه مجعول فوق كل كافر وسواء كان الاتباع بالحجة أو بالسيف أو بهما وفى كل الدين أو بعضه وفى جميع الازمنة والامكنة والاحوال أو فى بعضها والمراد بالكافر الذى جعل المتبع فوقه كل كافر سواء كان كفره بالستر لما يعرفه من نبوة عيسى أو بالمكر به أو بالمخالفة لدينه اما بعدم التمسك بدين من الاديان قط كعبدة الاوثان والنار والشمس والقمر والجاحدين لله والمنكرين للشرائع واما مع التمسك بدين يخالف دين عيسى قبل بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كاليهود وسائر الملل الكفرية فالمتبعون لعيسى بأى وجه من تلك الوجوه هم المجعولون فوق من كان كافرا بأى تلك الانواع ثم بعد البعثة المحمدية لا شك أن المسلمين هم المتبعون لعيسى لاقراره بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتبشيره بها كما فى القرآن الكريم والانجيل بل فى الانجيل الامر لاتباع عيسى باتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالمتبعون لعيسى بعد البعثة المحمدية هم المسلمون فى أمر الدين ومن بقى على النصرانية بعد البعثة المحمدية فهو وان لم يكن متبعا لعيسى فى أمر الدين ومعظمه لكنه متبع له فى الصورة وفى الاسم وفى جزئيات من أجزاء الشريعة العيسوية فقد صدق عليهم انهم متبعون له فى الصورة وفى الاسم وفى شئ مما جاء به وان كانوا على ضلال ووبال وكفر فذلك لا يوجب خروجهم عن العموم المذكور فى القرآن الكريم ولا يستلزم اندراجهم تحت هذا العموم أنهم على شئ بل هم هالكون فى الآخرة وان كانوا مجعولين فوق الذين كفروا فذلك انما هو فى هذه الدار وبهذا يقول الله جل وعلا بعد قوله وجاعل الذين اتبعوك الآية ثم الى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون الى قوله لا يحب الظالمين فالحاصل ان المجعولين فوق الذين كفروا هم اتباع عيسى قبل النبوة المحمدية وهم النصارى والحواريون وبعد النبوة المحمدية هم المسلمون والنصارى والحواريون والاولون هم الاتباع حقيقة وغيرهم هم الاتباع فى الصورة وقد جعل الله الجميع فوق الذين كفروا من اليهود وسائر الطوائف الكفرية وقد كان الواقع هكذا فان الملة النصرانية قبل البعثة المحمدية كانت قاهرة لجميع الملل الكفرية ظاهرة عليها غالبة لها وبعد البعثة المحمدية صارت جميع الامم الكفرية تنهى بين الملة الاسلامية والملة

الله فشفاه انفرد باخراجه مسلم فرواه من حديث ابن أبي عدي به وقال الامام الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم القداح عن ابن جريج عن يحيى بن عبيد مولى السائب عن أبيه عن عبد الله بن السائب انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما بين ركن بني جمح والركن الاسود ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ورواه الثوري عن ابن جريج كذلك وروى ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو ذلك وفي سنده ضعف والله أعلم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور (٥٢) حدثنا سعيد بن سليمان عن عبد الله بن هرمز عن مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مررت على الركن الا رأيت عليه ملكا يقول آمين فاذا مررتم عليه فقولوا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وقال الحاكم في مستدركه حدثنا أبو زكريا العنبري حدثنا محمد بن عبد السلام حدثنا اسحق بن ابراهيم أخبرنا جرير عن الاعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير قال جاء رجل الى ابن عباس فقال اني أجرت نفسي من قوم على ان يحملوني ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم أفيجزي ذلك فقال أنت من الذين قال الله أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ثم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون) قال ابن عباس والايام المعدودات أيام التشريق والايام المعلومات أيام العشر وقال عكرمة واذكروا الله في أيام معدودات يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا موسى بن علي عن أبيه قال سمعت عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الاسلام وهي أيام أكل وشرب وقال أحمد أيضا حدثنا هشام أخبرنا خالد عن أبي المليح عن نبيشة الهذلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله ورواه مسلم أيضا وتقدم حديث جبير ابن مطعم عرفة كلها موقف وأيام التشريق كلها ذبح وتقدم أيضا حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في

النصرانية ما بين قتيل وأسير ومسلم للجزية وهذا يعرفه كل من له المام بأخبار العالم ولكن الله تعالى قد جعل الملة الاسلامية قاهرة للملة النصرانية مستظهرة عليها وفاء بوعده في كتابه العزيز كما في الآيات المشتملة على الاخبار بان جنده هم الغالبون وحزبه هم المنصورون ومن ذلك قوله تعالى فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا وقد أخبر الصادق المصدوق بظهور أمته على جميع الامم وقهر ملته لجميع الامم وبالجملة انا اذا جردنا النظر الى الملة الاسلامية والملة النصرانية فقد ثبت في الكتاب والسنة ما يدل على استظهار الملة الاسلامية على الملة النصرانية وان نظرنا الى جميع الملل فالملة الاسلامية والملة النصرانية هما فوق سائر الملل الكفرية لهذه الآية ولا ملجئ الى جعل الضمير المذكور في الآية وهو الكاف لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما تكلفه جماعة من المفسرين لان جعله لعيسى كما يدل عليه السياق بل هو الظاهر الذي لا ينبغي العدول عنه لا يستلزم اخراج الملة المحمدية بعد البعثة اذ هم متبعون لعيسى كما عرفت سابقا ولا خلاف بين أهل الاسلام ان الملة النصرانية كانت قبل البعثة المحمدية هي القاهرة لجميع الملل الكفرية فلم يبق في تحويل الضمير عن مرجعه الذي لا يحتمل السياق غيره فائدة الا تفكيك النظم القرآني والاخراج له عن الاساليب البالغة في البلاغة الى حد الاعجاز ومن تدبر هذا الوجه الذي حررناه علم انه قد أعطى التركيب القرآني ما يليق ببلاغته من بقاء عموم الموصول الاول والموصول الثاني وعدم التعرض لتخصيصه بما ليس بمخصص وتقييده بما ليس بمقيد وعدم الخروج عن مقتضى الظاهر في مرجع الضمائر وعدم ظن التعارض بين ما هو متحد الدلالة انتهى وقد ثبت في الاحاديث الصحيحة ان عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويحكم بين العباد بالشريعة المحمدية ويكون المسلمون أنصاره وأتباعه اذ ذاك فلا بعد أن يكون في هذه الآية اشارة الى هذه الحالة (الى يوم القيامة) غاية للجعل أو للاستقرار المقدر في الظرف لا على معنى أن ذلهم ينتهي يوم القيامة بل على معنى ان المسلمين يعلونهم الى تلك الغاية فأما بعدها فيفعل الله بهم ما يريد كما ذكره بقوله فأما الذين كفروا الخ وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لا تزال طائفة من أمتي

يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن ابراهيم وخلاد بن أسلم قالا حدثنا هشام عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيام التشريق أيام طعم وذكر لله وحدثنا خالد بن أسلم حدثنا روح حدثنا صالح حدثني ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن حذافة يطوف في منى لا تصوموا هذه الايام فانها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل وحدثنا يعقوب حدثنا هشام عن سفيان بن حسين عن الزهري قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة فنادى في أيام التشريق فقال ان هذه أيام أكل وشرب وذكر الله الا من كان عليه صوم من هدى زيادة حسنة ولكن مرسلة وبه قال هشام عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عمرو بن دينار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بشر بن سحيم فنادى في أيام التشريق فقال ان هذه أيام أكل وشرب وذكر الله وقال هشيم عن ابن أبي ليلى عن عطاء عن عائشة قالت نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم أيام التشريق قال وهي أيام أكل وشرب وذكر الله وقال محمد بن اسحق عن حكيم بن حكيم عن مسعود بن الحكم الزرقي عن أمه قالت لكأني أنظر الى علي على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء حتى وقف على شعب الانصار وهو يقول يا أيها الناس انها ليست بأيام صيام انما هي أيام أكل وشرب وذكر الله وقال مقسم عن ابن عباس الايام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام يوم النحر وثلاثة بعده وروى عن ابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعطاء ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك وابراهيم النخعي ويحيى بن أبي كثير والحسن وقتادة والسدي والزهري والربيع بن أنس والضحاك ومقاتل بن حيان وعطاء الخراساني ومالك بن أنس وغيرهم مثل ذلك وقال علي بن أبي طالب هي ثلاثة يوم النحر ويومان بعده اذبح في أيهن شئت وأفضلها أولها والقول الاول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه فدل على ثلاثة بعد النحر ويتعلق بقوله واذكروا الله في أيام معدودات ذكر الله على الاضاحي وقد تقدم ان الراجح في ذلك مذهب الشافعي رحمه الله وهو ان وقت الاضحية من يوم النحر الى آخر أيام التشريق ويتعلق به أيضا الذكر المؤقت خلف الصلوات

أمتي على الحق ظاهرين لا يبالون بمن خالفهم حتى يأتي أمر الله قال النعمان من قال اني أقول على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما لم يقل فان تصديق ذلك في كتاب الله وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة وأخرج ابن عساكر عن معاوية مرفوعا نحوه ثم قرأ معاوية الآية عن ابن زيد قال النصارى فوق اليهود الى يوم القيامة ليس بلد فيه أحد من النصارى الا وهم فوق اليهود في شرق ولا غرب وهم في البلدان كلها مستذلون (ثم الى مرجعكم) أي مرجع الفريقين الذين اتبعوا عيسى والذين كفروا به والمرجع الرجوع وتقديم الظرف للقصر (فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) أي من أمور الدين (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة) تفسير للحكم الواقع بين الفريقين الى آخر الآية وتعذيبهم في الدنيا بالقتل والسبي والجزية والصغار وأما في الآخرة فبعذاب النار (وما لهم من ناصرين) يمنعونهم من عذابنا من مقابلة الجمع بالجمع (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم) بالياء والنون (أجورهم) اي يعطيهم اياها كاملة موفرة (والله لا يحب الظالمين) نفي الحب كناية عن بغضهم واستعمال عدم محبة الله في هذا المعنى شائع في جميع اللغات جار مجرى الحقيقة وهي جملة تذييلية مقررة لما قبلها (ذلك) اشارة الى ما سلف من نبأ عيسى وغيره (نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) المشتمل على الحكم أو المحكم الذي لا خلل فيه (ان مثل عيسى عند الله) أي شأنه الغريب والجملة مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها تعلقا صناعيا بل تعلقا معنويا وزعم بعضهم انها جواب قسم وذلك القسم هو قوله والذكر الحكيم قالوا وحرف جر لا حرف عطف وهذا بعيد أو ممتنع اذ فيه تفكيك لنظم القرآن واذهاب لرونقه وفصاحته (كمثل آدم) في الخلق والانشاء تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقا بغير اب كآدم ولا يقدح في التشبيه اشتمال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له كما انه لا أب له فذلك أمر خارج عن الامر المراد بالتشبيه وان كان المشبه به اشد غرابة من المشبه وأعظم عجبا وأغرب أسلوبا وعبارة الكرخي هو من تشبيه الغريب بالاغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس وبه قال السيوطي (خلقه من تراب) جملة مفسرة لما أبهم في المثل وخبر مستأنف على جهة التفسير لحال خلق آدم أي ان آدم لم يكن له أب ولا أم بل خلقه الله من تراب وقدره جسدا من طين وفي ذلك دفع لانكار من أنكر خلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب

والمطلق فى سائر الاحوال وفى وقته أقوال للعلماء أشهرها الذى عليه العمل انه من صلاة الصبح يوم عرفة الى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو آخر النفر الآخر وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطنى ولكن لا يصح مرفوعا والله أعلم وقد ثبت ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يكبر فى قبته فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منى تكبيرا ويتعلق بذلك أيضا التكبير وذكر الله عند رمى الجمرات كل يوم من أيام التشريق وقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره انما جعل الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار لاقامة ذكر الله عز وجل (٥٤) ولما ذكر الله تعالى النفر الاول والثانى وهو تفرق الناس من موسم الحج الى سائر الاقاليم والآفاق بعد اجتماعهم فى المشاعر والمواقف قال واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون كما قال وهو الذى ذرأكم فى الارض واليه تحشرون (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤف بالعباد) قال السدى نزلت فى الاخنس بن شريق الثقفى جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهر الاسلام وفى باطنه خلاف ذلك وعن ابن عباس انها نزلت فى نفر من المنافقين تكلموا فى خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم فأنزل الله فى ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله وقيل بل ذلك عام فى المنافقين كلهم وفى المؤمنين كلهم وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد وهو الصحيح وقال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب ونحوها أخبرنى الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن القرظى عن نوف وهو البكالى وكان ممن يقرأ الكتب قال انى لأجد صفة ناس من هذه الامة فى كتاب الله المنزل قوم يحتالون على الدنيا بالدين ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر يلبسون للناس مسوك الضان وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله تعالى فعلى يجترؤن وبى يغترون حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران قال القرظى تدبرتها فى القرآن فاذا هم المنافقون فوجدتها ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا

وأم (ثم قال له كن) بشرا أى أنشأه خلقا بالكلمة وكذلك عيسى أنشأه خلقا بالكلمة وقيل الضمير يرجع الى عيسى (فيكون) أى فكان بشرا أريد بالمستقبل الماضى أى حكاية حال ماضية عن ابن عباس أن رهطا من أهل نجران قدموا على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا ما شأنك تذكر صاحبنا قال من هو قالوا عيسى تزعم أنه عبد الله قالوا فهل رأيت مثل عيسى وأنبئت به فخرجوا من عنده فجاء جبريل فقال قل لهم اذا أتوك ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم الآية وقد رويت هذه القصة على وجوه عن جماعة من الصحابة والتابعين وأصلها عند البخارى ومسلم وحكى ان بعض العلماء أسر فى بعض بلاد الروم فقال لهم لم تعبدون عيسى قالوا لانه لا أب له قال فآدم أولى لانه لا أب له ولا أم قالوا وكان يحيى الموتى فقال حزقيل أولى لان عيسى أحيا أربعة نفر وأحيا حزقيل أربعة آلاف قالوا وكان يبرئ الاكمه والابرص قال فجرجيس أولى لانه طبخ وأحرق ثم قام سليما (الحق من ربك) أى جاءك الحق من ربك يعنى الذى أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو الحق والجملة على هذا خبر مبتدا محذوف وقيل مستأنفة برأسها والمعنى أن الحق الثابت الذى لا يضمحل هو من ربك ومن جملة ما جاءك من ربك قصة عيسى وأمه فهو حق ثابت (فلا تكن من الممترين) الخطاب اما لكل من يصلح له من الناس أى لا يكن أحد منهم ممتريا أو للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويكون النهى له لزيادة التثبيت لانه لا يكون منه شك فى ذلك (فمن) شرطية وهو الظاهر أو موصولة (حاجك فيه) أى فى عيسى وهو الاظهر وقيل فى الحق وهو الاقرب والمحاجة مفاعلة وهى من الاثنين وكان الامر كذلك (من بعد ما جاءك من العلم) بأن عيسى عبد الله ورسوله ومن للتبعيض أو لبيان الجنس (فقل تعالوا) العامة على فتح اللام لانه أمر من تعالى يتعالى كترامى يترامى وأصل ألفه ياء وأصل هذه الياء واو لانه مشتق من العلو وهو الارتفاع تقول فى الواحد تعالى يا زيد وفى الجمع المذكر تعالوا تقول يا زيدان تعاليا ويا هندان تعاليا ويا نسوة تعالين قال تعال فتعالين أمتعكن وقرأ الحسن تعالوا بضم اللام وتعال فعل أمر صريح وليس باسم فعل لاتصال الضمائر المرفوعة البارزة به قيل وأصله طلب الاقبال من مكان مرتفع تفاؤلا بذلك واذنا للمدعو لانه من العلو والرفعة ثم توسع فيه فاستعمل فى مجرد طلب المجىء حتى تقول ذلك لمن تريد اهانته كقولك للعدو تعال ولمن لا يعقل كالبهائم

ويشهد الله على مافى قلبه الآية وحدثنى محمد بن أبى معشر أخبرنى أبو معشر نجيح قال سمعت سعيدا المقبرى يذاكر محمد بن كعب القرظى فقال سعيد ان فى بعض الكتب ان عباد الله ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر يلبسون للناس مسوك الضان من اللين يجترؤن الدنيا بالدين قال الله تعالى على تجترؤن وبى تغترون وعزتى لابعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران فقال محمد بن كعب هذا فى كتاب الله فقال سعيد وأين هو من كتاب الله قال قول الله ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا الآية فقال سعيد قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب ان الآية تنزل (٥٥) فى الرجل ثم تكون عامة بعد وهذا الذى قاله القرظى حسن صحيح وأما قوله ويشهد الله على مافى قلبه فقرأه ابن محيصن ويشهد الله بفتح الياء وضم الجلالة على مافى قلبه ومعناها ان هذا وان أظهر لكم الجميل لكن الله يعلم من قلبه القبيح كقوله تعالى اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة ويشهد الله على مافى قلبه ومعناه أنه يظهر للناس الاسلام ويبارز الله بما فى قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله الآية هذا معنى ماروى ابن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل معناه انه اذا أظهر للناس الاسلام حلف وأشهد الله لهم ان الذى فى قلبه موافق للسانه وهذا المعنى صحيح وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وعزاه الى ابن عباس وحكاه عن مجاهد والله أعلم وقوله وهو ألد الخصام الألد فى اللغة الاعوج وتذرب قوم ألدا أى عوجا وهكذا المنافق فى حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه بل يفترى ويفجر كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وقال البخارى حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة ترفعه قال ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم قال وقال عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان حدثنا ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم وهكذا رواه عبد الرزاق عن معمر فى قوله وهو ألد الخصام عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن

ونحوها وقيل هو الدعاء لمكان مرتفع ثم توسع فيه حتى استعمل فى طلب الاقبال الى كل مكان حتى المنخفض (ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) هذا وان كان عاما فالمراد به الخاص وهم النصارى الذين وفدوا اليه صلى الله عليه وآله وسلم من نجران كما أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر قال قدم على النبى صلى الله عليه وآله وسلم العاقب والسيد فدعاهما الى الاسلام فقالا أسلمنا يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال كذبتما ان شئتما اخبرتكما مايمنعكما من الاسلام قالا فهات قال حب الصليب وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير قال جابر فدعاهما الى الملاعنة فواعداه على ذلك الغد فغدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل اليهما فأبيا أن يجيباه وأقرا له فقال والذى بعثنى بالحق لو فعلا لامطر الوادى عليهما نارا قال جابر فيهم نزلت قل تعالوا ندع أبناءنا الآية قال جابر أنفسنا وأنفسكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى وأبناءنا الحسن والحسين ونساءنا فاطمة ورواه الحاكم من وجه آخر عن جابر وصححه وفيه أنهم قالوا للنبى صلى الله عليه وآله وسلم هل لك أن نلاعنك وأخرج مسلم والترمذى وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن سعيد بن أبى وقاص قال لما نزلت هذه الآية قل تعالوا ندع أبناءنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال اللهم هؤلاء أهلى وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه تعالوا ندع أبناءنا الآية قال فجاء بأبى بكر وولده وبعمر وولده وبعثمان وولده وبعلى وولده ويمكن أن يقال هو على عمومه لجماعة أهل الدين وان كان السبب خاصا فيدل على جواز المباهلة منه صلى الله عليه وآله وسلم لكل من حاجه فى عيسى عليه السلام وأمته اسوته وضمير فيه لعيسى كما تقدم والمراد بمجىء العلم هنا مجىء سببه وهو الآيات البينات والمحاجة الخاصمة والمجادلة وتعالوا أى هلموا وأقبلوا وأصله الطلب لاقبال الذوات ويستعمل فى الرأى اذا كان المخاطب حاضرا كما تقول لمن هو حاضر عندك تعال تنظر فى هذا الامر واكتفى بذكر البنين عن البنات اما لدخولهن فى النساء أولكونهم الذين يحضرون مواقف الخصام دونهن ومعنى الآية ليدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه الى المباهلة وفيه دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء لكونه صلى الله عليه وآله وسلم أرادبالابناء الحسنين كما تقدم وانما خص الابناء والنساء لانهم أعز الاهل وانما قدمهم فى الذكر على نفسه لينبه بذلك

عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان ابغض الرجال الى الله الالد الخصم وقوله واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد أى هو أعوج المقال سيئ الفعال فذلك قوله وهذا فعله كلامه كذب واعتقاده فاسد وأفعاله قبيحة والسعى ههنا هو القصد كما قال اخبارا عن فرعون ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى فأخذه الله نكال الآخرة والاولى ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله أى اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة فان السعى (٥٦) الحسى الى الصلاة منهى عنه بالسنة النبوية اذا اتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة والوقار فهذا المنافق ليس له همة الا الفساد فى الارض واهلاك الحرث وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل وهو نتاج الحيوانات اللذين لاقوام للناس الا بهما وقال مجاهد اذا سعى فى الارض افسادا منع الله القطر فهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد أى لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك وقوله واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم أى اذا وعظ هذا الفاجر فى مقاله وفعاله وقيل له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع الى الحق امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالاثم أى بسبب ما اشتمل عليه من الآثام وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ولهذا قال فى هذه الآية فحسبه جهنم ولبئس المهاد أى هى كافيته عقوبة فى ذلك وقوله ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله لما أخبر عن المنافقين للحصر بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدى وعكرمة وجماعة نزلت فى صهيب بن سنان الرومى وذلك انه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله وان أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل فتخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة الى طرف الحرة فقالوا له ربح البيع فقال وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وماذا له فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه

على لطف مكانهم وقرب منزلتهم ان قلت القصد من المباهلة تبين الصادق من الكاذب وهذا يختص به ومن يباهله فلم ضم اليه الابناء والنساء فى المباهلة قلت ذلك أتم فى الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث تجرأ على تعريض أعزته وفى الدلالة على ثقته بكذب خصمه ولاجل أن يهلك خصمه مع أعزته جميعا لو تمت المباهلة (ثم نبتهل) نتضرع الى الله وأصل الابتهال الاجتهاد فى الدعاء باللعن وغيره يقال بهله الله أى لعنه والبهل اللعن قال أبو عبيد والكسائى نبتهل نلتعن ويطلق على الاجتهاد فى الهلاك قال فى الكشاف ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه وان لم يكن التعانا أخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال هذه الاخلاص يشير باصبعه التى تلى الابهام وهذا الدعاء فرفع يديه حذو منكبيه وهذا الابتهال فرفع يديه مدا قال فى الجمل وقع البحث عند شيخنا العلامة الدوانى قدس الله سره فى جواز المباهلة بعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم فكتب رسالة فى شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار وكلام الائمة وحاصل كلامه فيها انها لا تجوز الا فى أمر مهم شرعا وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه الا بالمباهلة فيشترط كونها بعد اقامة الحجة والسعى فى ازالة الشبهة وتقديم النصح والانذار وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة اليها انتهى من تفسير الكازرونى انتهى (قلت) وردد ما الحافظ ابن القيم رحمه الله من خالفه فى مسئلة صفات الرب تعالى شأنه واجراءها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل الى المباهلة بين الركن والمقام فلم يجبه الى ذلك وخاف سوء العاقبة وتمام هذه القصة مذكور فى أول كتابه المعروف بالنونية وأنى سبحانه وتعالى هنا بثم تنبيها للوم على خطيئتهم فى مباهلته كأنه يقول لهم لا تميلوا وتائزوا ان الله ان يظهر لكم الحق فلذلك انى بحرف التراخى (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) يعنى منا ومنكم بان نقول اللهم العن الكاذب فى شأن عيسى أى الذى يقول انه ابن الله ويقول انه اله هذه جملة مبينة لمعناه وفى الآية دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لانه لم يرو أحد من موافق ومخالف انهم أجابوا الى المباهلة لانهم عرفوا صحة نبوته وما يدل عليها فى كتبهم (ان هذا) أى الذى قصه الله على رسوله من نبأ عيسى (لهو القصص الحق) القصص التتابع يقال فلان يقص أثر فلان أى يتبعه فأطلق على الكلام الذى يتبع بعضه بعضا وضمير الفصل

الآية ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لربح البيع صهيب قال ابن مردويه حدثنا محمد بن ابراهيم حدثنا محمد بن عبد الله بن رستة حدثنا سليمان بن داود حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي حدثنا عوف عن أبي عثمان النهدي عن صهيب قال لما أردت الهجرة من مكة الى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لي قريش يا صهيب قدمت الينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك والله لا يكون ذلك أبدا فقلت لهم أرأيتم ان دفعت اليكم مالي تخلون عني قالوا نعم فدفعت عليهم مالي فخلوا عني فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال ربح صهيب ربح صهيب مرتين وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال أقبل صهيب مهاجرا نحو النبي صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته وانتثل ما في كنانته ثم قال يا معشر قريش قد علمتم اني من أرماكم رجلا وأنتم والله لا تصلون الي حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شئ ثم افعلوا ما شئتم وان شئتم دللتكم على مالي وقيني بمكة وخليتم سبيلي قالوا نعم فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال ربح البيع قال ونزلت ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤف بالعباد وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله كما قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ولما حل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤف

للحصر ودخول اللام عليه لزيادة تاكيده وزيادة من في قوله (وما من اله) لتأكيد العموم والاستغراق (الا الله) وهو رد على من قال بالتثليث من النصارى (وان الله لهو العزيز) أي الغالب المنتقم ممن عصاه وخالف امره وادعى معه الها آخر (الحكيم) أي في تدبيره وفيه رد على النصارى لان عيسى لم يكن كذلك (فان تولوا) أي أعرضوا عن الايمان ولم يقبلوه (فان الله عليم بالمفسدين) أي الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس الى عبادة غيره وفيه وعيد وتهديد لهم شديد (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) قيل الخطاب لاهل نجران بدليل ما تقدم قبل هذه الآية وقيل ليهود المدينة وقيل لليهود والنصارى جميعا وهو ظاهر النظم القرآني ولا وجه لتخصيصه بالبعض لان هذه دعوة عامة لا تختص بأولئك الذين حاجوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والسواء العدل قال الفراء يقال في معنى العدل سوى وسواء فاذا فتحت السين مددت واذا ضممت أو كسرت قصرت وفي قراءة ابن مسعود الى كلمة عدل فالمعنى أقبلوا الى ما ادعيتم اليه وهي الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق والعرب تسمي كل قصة أو قصيدة لها أول وآخر وشرح كلمة وقد فسرها بقوله (أن لا نعبد الا الله) أي هي أن لا نعبد (ولا نشرك به شيأ) وذلك ان النصارى عبدوا غير الله وهو المسيح وأشركوا به وهو قولهم أب وابن وروح القدس فجعلوا الواحد ثلاثة وقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس قال حدثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرئ فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم الاريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الى قوله بأنا مسلمون وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى الكفار تعالوا الى كلمة الآية وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال

(٨ - فتح البيان ني)

بالعباد (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم) يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الاسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله ادخلوا في السلم يعني الاسلام وقال الضحاك عن ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس ادخلوا في السلم يعني الطاعة وقال قتادة أيضا الموادعة وقوله كافة قال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك جميعا وقال مجاهد أي اعملوا بجميع الاعمال ووجوه البر وزعم عكرمة أنها نزلت في نفر من أسلم من اليهود وغيرهم كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة وطائفة استأذنوا رسول الله صلى

الله عليه وسلم فى أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلا فأمرهم الله باقامة شعائر الاسلام والاشتغال بها مما عداها وفى ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر اذ يبعد أن يستأذن فى اقامة السبت وهو مع تمام ايمانه يتحقق نسخه ورفعه وبطلانه والتعويض عنه باعياد الاسلام ومن المفسرين من يجعل قوله كافة حالا من الداخلين أى ادخلوا فى الاسلام كلكم والصحيح الاول وهو انهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الايمان وشرائع الاسلام وهى كثيرة جدا مما استطاعوا منها كما قال ابن أبى حاتم أخبرنا على بن الحسين أخبرنا أحمد بن الصباح أخبرنى الهيثم بن يمان حدثنا اسمعيل بن زكريا حدثنى محمد بن عون عن عكرمة عن ابن عباس يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة كذا قرأها بالنصب يعنى مؤمنى أهل الكتاب فانهم كانوا مع الايمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع (٥٨) التى أنزلت فيهم فقال الله ادخلوا فى السلم كافة يقول ادخلوا فى شرائع دين محمد صلى الله عليه وسلم ولا تدعوا منها شيأ وحسبكم الايمان بالتوراة ومافيها وقوله ولا تتبعوا خطوات الشيطان أى اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فانما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله مالا تعلمون وانما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ولهذا قال انه لكم عدو مبين قال مطرف أغش عباد الله لعبد الله الشيطان وقوله فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات أى عدلتم عن الحق بعد ما أقامت عليكم الحجج فاعلموا أن الله عزيز أى فى انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب حكيم فى احكامه ونقضه وابرامه ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع ابن أنس عزيز فى نقمته حكيم فى أمره وقال محمد بن اسحق العزيز فى نصره ممن كفر به اذا شاء الحكيم فى عذره وحجته الى عباده (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الامر والى الله ترجع الامور) يقول تعالى مهددا وقيل للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الاولين والآخرين فيجزى كل عامل بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر ولهذا قال تعالى وقضى الامر والى الله ترجع الامور كما قال الله تعالى كلا اذا دكت الارض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا وجئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى وقال هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك الآية وقد ذكر الامام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث مشهور رواه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم وفيه أن الناس اذا اهتموا لموقفهم فى العرصات تشفعوا الى ربهم بالانبياء واحدا واحدا من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنها

بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا يهود المدينة الى ما فى هذه الآية فأبوا عليه فجاهدهم حتى أقروا بالجزية وعن قتادة قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا يهود أهل المدينة الى الكلمة السواء (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير واشارة الى أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منهم وازراء على من قلد الرجال فى دين الله فحلل ما حللوه وحرم ما حرموه عليه فان من فعل ذلك فقد اتخذ من قلده ربا ومنه اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال ابن جريج لا يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله ويقال ان تلك الربوبية أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم فى غير عبادة وان لم يصلوا لهم وعن عكرمة قال سجود بعضهم بعضا (فان تولوا) أعرضوا عن التوحيد قال أبو البقاء هو ماض ولا يجوز ان يكون التقدير فان تتولوا لفساد المعنى وهذا الذى قاله ظاهر جدا قاله السمين (فقولوا) أى أنتم والمؤمنون (اشهدوا بأنا مسلمون) موحدون لما لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده) لما ادعت كل طائفة من طائفتى اليهود والنصارى أن ابراهيم عليه السلام كان على دينهم رد الله سبحانه ذلك عليهم وأبان بان الملة اليهودية والملة النصرانية انما كانتا من بعده قال الزجاج هذه الآية أبين حجة على اليهود والنصارى أن التوراة والانجيل نزلا من بعده وليس فيهما اسم لواحد من الاديان واسم الاسلام فى كل كتاب وفيه نظر فان الانجيل مشحون بالآيات من التوراة وذكر شريعة موسى والاحتجاج بها على اليهود وكذلك الزبور فيه فى مواضع ذكر شريعة موسى وفى أوائله التبشير بعيسى ثم فى التوراة ذكر كثير من الشرائع المتقدمة يعرف هذا كل من يعرف هذه الكتب المنزلة وقد اختلف فى قدر المدة التى بين ابراهيم وموسى والمدة التى بين موسى وعيسى قال القرطبى يقال كان بين ابراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألف سنة وكذا فى الكشاف

حتى ينتهوا الى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا جاؤا اليه قال أنا لها أنا لها فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتى فى ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة ثم الثانية ثم الثالثة الى السابعة وينزل عليه العرش والكروبيون قال وينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم يقولون سبحان ذى الملك والملكوت سبحان ذى العزة والجبروت سبحان الحى الذى لا يموت سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبوح قدوس سبحان ربنا الاعلى سبحان ذى السلطان والعظمة سبحانه سبحانه أبدا أبدا وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ههنا أحاديث فيها غرابة والله أعلم فمنها ما رواه من حديث المنهال بن عمرو عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن مسروق عن ابن مسعود عن النبى صلى الله (٥٩) عليه وسلم قال يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما شاخصة أبصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش الى الكرسى وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا ابو بكر بن عطاء بن مقدم حدثنا معتمر بن سليمان سمعت عبد الجليل القيسى يحدث عن عبد الله بن عمرو هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام الآية قال يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء فى تلك الظلمة صوتا تخلع له القلوب قال وحدثنا أبى حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى حدثنا الوليد قال سألت زهير بن محمد عن قول الله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام قال ظلل من الغمام منظوم من الياقوت مكلل بالجوهر والزبرجد وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى ظلل من الغمام قال هو غير السحاب ولم يكن قط الا لبنى اسرائيل فى تيههم حين تاهوا وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة يقول والملائكة يجيئون فى ظلل من الغمام والله تعالى يجىء فيما يشاء وهى فى بعض القراآت هل ينظرون الا أن يأتيهم الله والملائكة فى ظلل من الغمام وهى كقوله ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) يقول تعالى مخبرا عن بنى اسرائيل كم شاهدوا مع موسى من آية بينة أى حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به كيده وعصاه وفلقه البحر وضربه بالحجر وما كان من تظليل الغمام عليهم فى شدة الحر ومن انزال المن والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على

وقيل كان بين ابراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وسبعون سنة وبين موسى وعيسى ألف وستمائة واثنان وثلاثون سنة وقيل كان بين ابراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وستون سنة وبين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة وعشرون سنة عن ابن عباس قال اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتنازعوا عنده فقالت الاحبار ما كان ابراهيم الا يهوديا وقالت النصارى ما كان ابراهيم الا نصرانيا فنزل فيهم يا أهل الكتاب لم تحاجون الآية وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف (أفلا تعقلون) أى تتفكرون فى دحوض حجتكم وبطلان قولكم حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال (ها أنتم) يا (هؤلاء) الرجال الحمقى (حاججتم) ها للتنبيه وهو موضع النداء والمراد بهم أهل الكتابين والمعنى جادلتم وخاصمتم وفى هؤلاء لغتان المد والقصر (فيما لكم به علم) المراد هو ما كان فى التوراة وان خالفوا مقتضاه وجادلوا فيه بالباطل (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) وهو زعمهم أن ابراهيم كان على دينهم بجهلهم بالزمن الذى كان فيه وفى الآية دليل على منع الجدال بالباطل بل ورد الترغيب فى ترك الجدال من المحق كما فى حديث من ترك المراء ولو محقا فأنا ضمينه على الله ببيت فى ربض الجنة وقد ورد تسويغ الجدال بالتى هى أحسن كقوله تعالى وجادلهم بالتى هى أحسن ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ونحو ذلك فينبغى أن يقصر جوازه على المواطن التى تكون المصلحة فى فعله أكثر من المفسدة أو على المواطن التى المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة (والله يعلم) أى كل شئ فيدخل فى ذلك ما حاججتم به دخولا أوليا (وأنتم لا تعلمون) أى محل النزاع أو شيأ من الاشياء التى من جملتها ذلك (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) يعنى مائلا عن الأديان كلها الى الدين المستقيم وهو الاسلام وقيل الحنيف الذى يوحد ويختتن ويضحى ويستقبل الكعبة فى صلاته وهو أحسن الاديان وأسهلها وأحبها الى الله عز وجل قال الشعبى أكذبهم الله

وجود الفاعل المختار وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ومع هذا أعرض كثير منهم عنها وبدلوا نعمة الله كفرا أي استبدلوا بالايمان بها الكفر بها والاعراض عنها ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب كما قال تعالى اخبارا عن كفار قريش ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا اليها وجمعوا الاموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم ويخرجوا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها وأنفقوا مما حصل لهم منها في طاعة ربهم وبذلوه ابتغاء وجه الله فلهذا فازوا بالمقام الاسعد والحظ الاوفر يوم معادهم فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين وخلد أولئك في الدركات في أسفل السافلين (٦٠) ولهذا قال تعالى والله يرزق من يشاء بغير حساب أي يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيرا جزيلا بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة كما جاء في الحديث ابن آدم انفق أنفق عليك وقال النبي صلى الله عليه وسلم انفق بلالا ولا تخش من ذي العرش اقلالا وقال تعالى وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وفي الصحيح ان ملكين ينزلان من السماء صيحة كل يوم فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا وفي الصحيح يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك الا ما أكلت فافنيت ولبست فأبليت وما تصدقت فامضيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس وفي مسند الامام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين قال وكذلك هي في قراءة عبد الله كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ورواه الحاكم في مستدركه من حديث بندار عن محمد بن بشار ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وكذا روى أبو جعفر الرازي عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله كان الناس أمة واحدة قال كانوا على الهدى جميعا فاختلفوا فبعث الله النبيين فكان

وأدحض حجتهم في هذه الآية (وما كان من المشركين) فيه تعريض بكون النصارى مشركين لقولهم بان المسيح ابن الله وكذلك اليهود حيث قالوا عزير ابن الله (ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه) أي أحقهم به وأخصهم الذين اتبعوا ملته واقتدوا بدينه (وهذا النبي) يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أفرده بالذكر تعظيما له وتشريفا وأولويته صلى الله عليه وآله وسلم بابراهيم من جهة كونه من ذريته ومن جهة موافقته لدينه في كثير من الشريعة المحمدية (والذين آمنوا) معه من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (والله ولي المؤمنين) بالنصر والمعونة أخرج الترمذي والحاكم وصححه وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان لكل نبي ولاة من النبيين وان ولي منهم أبي خليل ربي ثم قرأ هذه الآية وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن مينا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يا معشر قريش ان أولى الناس بالنبي المتقون فكونوا أنتم سبيل ذلك فانظروا ان لا يلقاني الناس يحملون الاعمال وتلقوني بالدنيا تحملونها فأصد عنكم بوجهي ثم قرأ ان أولى الناس بابراهيم الآية وقال الحسن كل مؤمن ولي ابراهيم ممن مضى وممن بقي (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) الطائفة هم يهود بني النضير وقريظة وبني قينقاع حين دعوا جماعة من المسلمين الى دينهم وقيل هم جميع أهل الكتاب فتكون من البيان الجنس ولو مصدرية أي تمنت وأحبت اضلالكم أو حرف امتناع لامتناع والجواب محذوف أي لسروا بذلك وفرحوا قاله السمين (وما يضلون الا أنفسهم) جملة حالية للدلالة على ثبوت قدم المسلمين في الايمان فلا يعود وبال من أراد فتنتهم الا عليه (وما يشعرون) أن وبال الاضلال يعود عليهم عن سفيان كل شيء في آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو في النصارى ويدفع هذا ان كثيرا من خطابات أهل الكتاب المذكورة في هذه السورة لا يصح حملها على النصارى البتة ومن ذلك هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها فان

الطائفة

أول من بعث نوحا وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس أولا وقال العوفى عن ابن عباس كان الناس أمة واحدة يقول كانوا كفارا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين والقول الاول عن ابن عباس أصح سندا ومعنى لان الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الاصنام فبعث الله اليهم نوحا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله الى أهل الارض ولهذا قال تعالى وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم أى من بعد ما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك الا البغى من بعضهم على بعض فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن سليمان الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة فى قوله فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه الآية قال قال النبى صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون الاولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولا الجنة بيد انهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع فغدا لليهود وبعد غد للنصارى ثم رواه عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن اسلم عن أبيه فى قوله فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فاختلفوا فى يوم الجمعة فاتخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الاحد فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة واختلفوا فى القبلة فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس فهدى الله أمة محمد للقبلة واختلفوا فى الصلاة فمنهم من يركع ولا يسجد ومنهم من يسجد ولا يركع ومنهم من يصلى

الطائفة التى ودت اضلال المسلمين وكذلك الطائفة التى قالت آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار كما سيأتى من اليهود خاصة (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) المراد بآيات الله ما فى كتبهم من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (وأنتم تشهدون) ما فى كتبكم من ذلك ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل النبى الامى أو تشهدون بمثلها من آيات الانبياء الذين تقرون بنبوتهم أو المراد كتم كل الآيات عنادا وأنتم تعلمون انها حق وعن ابن جريج قال وأنتم تشهدون على أن الدين عند الله الاسلام ليس لله دين غيره (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) لبس الحق بالباطل خلطه بما يتعمدونه من التحريف قال الربيع لم تخلطون اليهودية والنصرانية بالاسلام وقد علمتم ان دين الله الذى لا يقبل من أحد غيره الاسلام (وتكتمون الحق) شأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم (وأنتم تعلمون) أى تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل وعن قتادة مثله (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) هم رؤساؤهم وأشرافهم قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة ووجه النهار أوله وسمى وجها لانه أحسنه أمروهم بذلك لادخال الشك على المؤمنين لكونهم يعتقدون ان أهل الكتاب لديهم علم فاذا كفروا بعد الايمان وقع الريب لغيرهم واعتراه الشك وهم لا يعلمون ان الله قد ثبت قلوب المؤمنين ومكن أقدامهم فلا تزلزلهم أراجيف أعداء الله ولا تحركهم ريح المعاندين عن ابن عباس قال قال عبد الله بن الصيف وعدى بن زيد والحرث بن عوف بعضهم لبعض تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعون عن دينهم فأنزل الله فيهم هذه الآية الى قوله واسع عليم وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف (ولا تؤمنوا) هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض أى قال الرؤساء للسفلة لا تصدقوا تصديقا صحيحا (الا لمن تبع

وهو يتكلم ومنهم من يصلى وهو يمشى فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك واختلفوا فى الصيام فمنهم من يصوم بعض النهار ومنهم من يصوم عن بعض الطعام فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك واختلفوا فى ابراهيم عليه السلام فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا وجعله الله حنيفا مسلما فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك واختلفوا فى عيسى عليه السلام فكذبت به اليهود وقالوا لامه بهتانا عظيما وجعلته النصارى الها وولدا وجعله الله روحه وكلمته فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك وقال الربيع بن أنس فى قوله فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه أى عند الاختلاف انهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف أقاموا على الاخلاص لله عز وجل وحده وعبادته لا شريك له واقام الصلاة وايتاء الزكاة فأقاموا على الامر الاول الذى كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح

وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغوهم وأنهم قد كذبوا رسلهم وفي قراءة أبي بن كعب وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وكان أبو العالية يقول في هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن وقوله باذنه أي بعلمه بهم وبما هداهم له قاله ابن جرير والله يهدي من يشاء أي من خلقه الى صراط مستقيم أي وله الحكمة والحجة البالغة وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يصلي يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم وفي الدعاء المأثور اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبسا علينا فنضل واجعلنا للمتقين اماما (أم حسبتم

أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب) يقول تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة قبل ان تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الامم ولهذا قال ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وهي الامراض والاسقام والآلام والمصائب والنوائب قال ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير ومرة الهمداني والحسن وقتادة والضحاك والربيع والسدي ومقاتل بن حيان البأساء الفقر والضراء السقم وزلزلوا خوفوا من الاعداء زلزالا شديدا وامتحنوا امتحانا عظيما كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الارت قال قلنا يا رسول الله الا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا فقال ان من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه واصعبه فيخلص الى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه ثم قال والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون وقال الله تعالى الم أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله عنهم في يوم الاحزاب كما قال الله تعالى اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا الآيات ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه قال

دينكم) من أهل الملة التي أنتم عليها وأما غيرهم ممن أسلم فأظهروا لهم ذلك خداعا وجه النهار واكفروا آخره لينفتنوا والمعنى ان ما بكم من الحسد والبغي ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم الى ان قلتم ما قلتم أولا تؤمنوا ايمانا صحيحا وتقروا بما في صدوركم اقرارا صادقا لغير من تبع دينكم فعلتم ذلك ودبرتموه ان المسلمين يحاجوكم يوم القيامة عند الله بالحق وقال الاخفش المعنى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدقوا ان يحاجوكم وقيل المراد لا تؤمنوا وجه النهار وتكفروا آخره الا لمن تبع دينكم أي لمن دخل في الاسلام وكان من أهل دينكم قبل اسلامه لان اسلام من كان منهم هو الذي قتلهم غيظا وأماتهم حسرة وأسفا وقيل لا تؤمنوا أي لا تظهروا ايمانكم بان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أي أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ولا تفشوه الا لاتباع دينكم وقيل المعنى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم آن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم بالمد على الاستفهام تأكيدا للانكار الذي قالوه انه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه وقال ابن جريج المعنى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم كراهة ان يؤتى وقيل المعنى لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الا لمن تبع دينكم لئلا يكون ذلك سببا لايمان غيركم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم واختلف الناس المفسرون والمعربون في هذه الآية على أوجه وذكروا منها تسعة أوضحها وأقربها ما ذكرناه وقال الفراء يجوز ان يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله الا لمن تبع دينكم ثم قال الله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل ان الهدى هدى الله) أي ان البيان الحق بيان الله بين (أن) لا (يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) على تقدير لا كقوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا أي لئلا تضلوا (أو يحاجوكم عند ربكم) أو بمعنى حتى كذلك قال الكسائي وهي عند الاخفش عاطفة وقد قيل ان هذه الآية أعظم آي هذه السورة اشكالا وذلك صحيح قال الواحدي وهذه الآية من مشكلات القرآن

قال نعم قال فكيف كانت الحرب بينكم قال سجالا يدال علينا وندال عليه قال كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة وقوله مثل الذين خلوا من قبلكم أى سنتهم كما قال تعالى فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الاولين وقوله وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله أى يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة قال الله تعالى ألا ان نصر الله قريب كما قال فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها ولهذا قال الا ان نصر الله قريب وفى حديث أبى رزين عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه فينظر اليهم قنطين فيظل يضحك يعلم ان فرجهم قريب الحديث (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) قال مقاتل بن حيان هذه الآية فى نفقة التطوع وقال (٦٣) السدى نسختها الزكاة وفيه نظر ومعنى الآية يسألونك كيف ينفقون قاله ابن عباس ومجاهد فبين لهم تعالى ذلك فقال قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل أى اصرفوها فى هذه الوجوه كما جاء الحديث أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال هذه مواضع النفقة ماذكر فيها طبلا ولا مزمارا ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان ثم قال تعالى وما تفعلوا من خير فان الله به عليم أى مهما صدر منكم من فعل معروف فان الله يعلمه وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء فانه لا يظلم أحدا مثقال ذرة (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) هذا ايجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين ان يكفوا شر الاعداء عن حوزة الاسلام وقال الزهرى الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد فالقاعد عليه اذا استعين أن يعين واذا استغيث ان يغيث واذا استنفر ان ينفر وان لم يحتج اليه قعد (قلت) ولهذا ثبت فى الصحيح من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية وقال عليه السلام يوم الفتح لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا وقوله وهو كره لكم أى شديد عليكم ومشقة وهو كذلك فانه اما أن يقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الاعداء ثم قال تعالى وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم أى لان القتال يعقبه النصر والظفر على الاعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم وهذا عام فى الامور كلها قد يحب المرء شيأ وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم ثم قال تعالى والله يعلم وأنتم لا تعلمون اى هو أعلم بعواقب الامور منكم وأخبر بما فيه صلاحكم

وأصعبه تفسيرا واعرابا ولقد تدبرت أقوال أهل التفسير والمعانى فى هذه الآية فلم أجد قولا يطرد فى الآية من أولها الى آخرها مع بيان المعنى وصحة النظم انتهى وقد لخصه من كلام الناس الشيخ سليمان الجمل مع اختلافه فمن شاء فليرجع اليه (قل ان الفضل) يعنى التوفيق للايمان والهداية للاسلام (بيد الله يؤتيه من يشاء) أى من أراده من خلقه وفيه تكذيب لليهود فى قولهم ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم (والله واسع) أى ذو سعة يتفضل على من يشاء (عليم) بمن هو أهله (يختص برحمته من يشاء) قيل هى الاسلام وقيل هى القرآن وقيل هى النبوة وقيل أعم منها وهو رد عليهم ودفع لما قالوه ودبروه وفيه دليل على ان النبوة لا تحصل الا بالاختصاص والتفضل لا بالاستحقاق (والله ذو الفضل العظيم) أصل الفضل فى اللغة الزيادة وأكثر ما يستعمل فى زيادة الاحسان والفاضل الزائد على غيره فى خصال الخير (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك) هذا شروع فى بيان خيانة اليهود فى المال بعد بيان خيانتهم فى الدين وقد تقدم تفسير القنطار والدينار معروف قالوا ولم يختلف وزنه أصلا وهو أربعة وعشرون قيراطا كل قيراط ثلاث شعيرات معتدلات فالمجموع اثنتان وسبعون شعيرة ومعنى الآية ان أهل الكتاب فيهم الأمين الذى يؤدى أمانته وان كانت كثيرة وفيهم الخائن الذى لا يؤدى أمانته وان كانت حقيرة ومن كان أمينا فى الكثير فهو فى القليل أمين بالاولى ومن كان خائنا فى القليل فهو فى الكثير خائن بالاولى قال عكرمة المؤدى النصارى والذى لا يؤدى اليهود (الا ما دمت عليه قائما) استثناء مفرغ أى لا يؤده اليك فى حال من الاحوال الا ما دمت مطالبا له مضيقا عليه متقاضيا لرده (ذلك) أى ترك الاداء المدلول عليه بقوله لا يؤده (بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) الاميون هم العرب الذين ليسوا باهل كتاب أى ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل قاله قتادة وعن السدى نحوه أو ليس علينا فى ظلمهم حرج لخالفتهم لنا فى ديننا وادعوا لعنهم الله ان

فى دنياكم وأخراكم فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم قال ابن ابى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه حدثنى الحضرمى عن أبى السوار عن جندب بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح فلما ذهب ينطلق بكى صبابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبسه (٦٤) فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتابا وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال لا تكرهن أحدا على السير معك من أصحابك فلما قرأ الكتاب استرجع وقال سمعا وطاعة لله ولرسوله فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلان وبقى بقيتهم فلقوا ابن الحضرمى فقتلوه ولم يدروا ان ذلك اليوم من رجب أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين قتلتم فى الشهر الحرام فأنزل الله يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير الآية وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير الآية وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش الاسدى وفيهم عمار بن ياسر وأبو حذيفة ابن عتبة بن ربيعة وسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان السلمى حليف لبنى نوفل وسهيل بن بيضاء وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله اليربوعى حليف لعمر بن الخطاب وكتب لابن جحش كتابا وأمره ان لا يقرأه حتى ينزل بطن نخلة فلما نزل بطن نخلة فتح الكتاب فاذا فيه ان سر حتى تنزل بطن نخلة فقال لاصحابه من كان يريد الموت فليمض وليوص فانى موص وماض لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار فتخلف عنه سعد بن أبى وقاص وعتبة أضلا راحلة لهما فتخلفا يطلبانها وسار ابن جحش الى بطن نخلة فاذا هو بالحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة (٣) وانفلت وقتل عمرو قتله واقد بن عبد الله فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب

ذلك فى كتابهم فرد الله سبحانه عليهم بقوله (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) عن سعيد بن جبير عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال كذب اعداء الله ما من شئ كان فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى هاتين الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر أخرجه الطبرانى وغيره مرسلا (بلى) عليهم سبيل بكذبهم واستحلالهم أموال العرب فقوله بلى اثبات لما نفوه من السبيل قال الزجاج تم الكلام بقوله بلى ثم قال (من أوفى بعهده) الذى عهد اليه فى التوراة من الايمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبالقرآن وبأداء الامانة الى من ائتمنه وقيل الضمير راجع الى الموفى وقيل الى من أوالى الله تعالى (واتقى) الشرك أى فليس هو من الكاذبين (فان الله يحب المتقين) الذين يتقون الشرك وعموم المتقين قائم مقام العائد الى من أى فان الله يحبه وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للاعتناء بشأنهم واشارة الى عمومه لكل متق (ان الذين يشترون) أى يستبدلون كما تقدم تحقيقه غير مرة (بعهد الله) هو ما عاهدوه عليه من الايمان بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم (وأيمانهم) هى التى كانوا يحلفون انهم يؤمنون به وينصرونه (ثمنا قليلا) أى شيأ يسيرا من حطام الدنيا وذلك أن المشترى يأخذ شيأ ويعطى شيأ فكل واحد من المعطى والمأخوذ ثمن للآخر فهذا معنى الشراء قال عكرمة نزلت فى أحبار اليهود ورؤسائهم وقيل الاقرب حمل الآية على الكل ويدخل فيه جميع ما أمر الله به وجميع العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل وما يلزم الرجل نفسه من عهد ومشاق فكل ذلك يجب الوفاء به وهو الاولى (أولئك) الموصوفون بهذه الصفة (لا خلاق) نصيب (لهم فى) نعيم (الآخرة ولا يكلمهم الله) بشئ أصلا كما يفيده حذف المتعلق من التعميم أو لا يكلمهم الله بما يسرهم وقيل هو بمعنى الغضب (ولا ينظر اليهم يوم القيامة) نظر رحمة (ولا يزكيهم) يطهرهم من دنس الذنوب بالعذاب المنقطع ولا يثنى عليهم بجميل بل يسخط عليهم ويعذبهم بذنوبهم كما يفيده قوله (ولهم عذاب أليم) مؤلم أخرج البخارى ومسلم وأهل السنن عن ابن مسعود

(٣) قوله عبد الله بن المغيرة وانفلت الخ هكذا بالنسخ التى بأيدينا وفيه سقط فاحش يعلم من المواهب وغيره فحرر المقام وابحث عن النسخ الصحيحة ونعوذ بالله من سقم النسخ اه مصححه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رجعوا الى المدينة بأسيرين وما أصابوا من المال أرادا أهل مكة ان يفادوا الاسيرين (٧) عليه المشركون وقالوا ان محمدا يزعم انه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب فقال المسلمون انما قتلناه في جمادى وقتل في أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب وأنزل الله يعير أهل مكة يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير لا يحل وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه واخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكبر من القتل عند الله وقال العوفي عن ابن عباس يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وذلك ان المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وردوه عن المسجد (٦٥) في شهر حرام قال ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل فعاب المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم القتال في شهر حرام فقال الله وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال فيه وان محمدا صلى الله عليه وسلم بعث سرية فلقوا عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب وان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يظنون ان تلك الليلة من جمادى وكانت أول رجب ولم يشعروا فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه وان المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك فقال الله تعالى يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه اخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والشرك أشد منه

مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان فقال الاشعث بن قيس في نزلت وقد روى ان سبب نزول الآية ان رجلا كان يحلف بالسوق لقد أعطى مالم يعط بها أخرجه البخاري وغيره وقيل غير ذلك وقد ورد في وعيد الايمان الكاذبة أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن لا نطول بذكرها (وان منهم لفريقا) أي طائفة من اليهود (يلوون ألسنتهم بالكتاب) أصل اللي الميل والفتل تقول لوى برأسه اذا أماله ولويت عنقه أي فتلته والمصدر اللى واللي ان ثم يطلق اللي على المراوغة في الحجج والخصومة تشبيها للمعاني بالاجرام قاله السمين أي يميلون ويحرفون ويعدلون به عن القصد ويعطفون وتحريف الكلام تقليبه عن وجهه لان المحرف يلوي لسانه عن سنن الصواب بما يأتي به من عند نفسه والالسنة جمع لسان وهذا على لغة من يذكره وأما على لغة من يؤنثه فيقول هذه لسان فانه يجمع على ألسن وقال الفراء لم نسمعه من العرب الا مذكرا ويعبر باللسان عن الكلام لانه ينشأ منه وفيه ويجري فيه أيضا التذكير والتأنيث (لتحسبوه) أي لتظنوا أن المحرف الذي جاؤا به (من الكتاب) الذي أنزله الله على أنبيائه (وما هو) أي الذي حرفوه وبدلوه (من الكتاب) في الواقع وفي اعتقادهم أيضا والجملة حالية (ويقولون) على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض مع ما ذكر من اللي والتحريف (هو) أي المحرف (من عند الله و) الحال انه (ما هو من عند الله) انما كرر هذا بلفظين مختلفين مع اتحاد المعنى لاجل التأكيد (ويقولون على الله الكذب) أي الاعم مما ذكر من التحريف واللي (وهم يعلمون) انهم كاذبون مفترون قال ابن عباس نزلت في اليهود والنصارى جميعا وذلك انهم حرفوا التوراة والانجيل وألحقوا في كتاب الله ما ليس منه (ما كان) أي ما ينبغي ولا يستقيم (لبشر) أي جميع بني آدم ولا واحد للفظ بشر كالقوم والرهط بيان لافترائهم على الانبياء اثر بيان افترائهم على الله وانما قيل لبشر اشعارا بعلة الحكم فان البشرية منافية للامر

(٩ - فتح البيان نى) وهكذا روى أبو سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس انها نزلت في سرية عبد الله بن جحش وقتل عمرو بن الحضرمي وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمي يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه الى آخر الآية وقال عبد الملك بن هشام راوي السيرة عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن اسحق بن يسار المدني رحمه الله في كتاب السيرة له انه قال وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش بن رئاب الاسدي في رجب مقفله من بدر الاولى وبعث معه ثمانية نفر من المهاجرين ليس فيهم من الانصار أحد وكتب له كتابا وأمره

(٧) قوله ان يفادوا الاسيرين عليه المشركون كذا في النسخ التي بأيدينا وفيه سقط بين الاسيرين وبين عليه الخ يعلم من سياق القصة فراجع المواهب وغيره وحرر وانظر النسخ الصحيحة اه مصححه

أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي كما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحدا وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ومن حلفائهم عبد الله بن جحش وهو أمير القوم وعكاشة بن محصن أحد بني أسد بن خزيمة حليف لهم ومن بني نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر حليف لهم ومن بني زهرة بن كلاب سعد بن أبي وقاص ومن بني كعب عدي بن عامر بن ربيعة حليف لهم من غير ابن وائل وواقد ابن عبد الله بن عبد مناف بن عرس بن ثعلبة بن يربوع أحد بني تميم حليف لهم وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف لهم ومن بني الحرث بن فهر سهيل بن بيضاء فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فاذا فيه اذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد (٦٦) بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال سمعا وطاعة ثم قال لاصحابه قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي الى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد فسلك على الحجاز حتى اذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه فتخلفا عليه في طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية اصحابه حتى نزل نخلة فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي واسم الحضرمي عبد الله ابن عباد أحد الصدف وعثمان ابن عبد الله بن المغيرة واخوه نوفل ابن عبد الله المخزوميان والحكم ابن كيسان مولى هشام بن المغيرة فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبا منهم فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه فلما رأوه آمنوا وقالوا عمار لا بأس عليكم منهم وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقال القوم والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم ولئن قتلتموهم لنقتلنهم في الشهر الحرام فتردد القوم وهابوا الاقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والاسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال ابن اسحق وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش ان عبد الله قال لاصحابه ان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمنا الخمس وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم فعزل لرسول الله

الذي تقولوه عليه (أن يؤتيه الله الكتاب) الناطق بالحق (والحكم) يعني الفهم والعلم وقيل هو امضاء الحكم من الله والاول أولى (والنبوة) يعني المنزلة الرفيعة (ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله) أي هذه المقالة وهو متصف بتلك الصفة وفيه بيان من الله سبحانه لعباده أن النصارى افتروا على عيسى ما لا يصح عنه ولا ينبغي ان يقوله (ولكن) يقول (كونوا ربانيين) قال سيبويه الرباني منسوب الى الرب بزيادة الالف والنون للمبالغة كما يقال لعظيم اللحية لحياني ولعظيم الجمة جماني ولغليظ الرقبة رقباني وقيل الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره فكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الامور وقال المبرد الربانيون أرباب العلم واحدهم رباني من قوله ربه يربه فهو ربان اذا دبره وأصلحه والياء للنسب فمعنى الرباني العالم بدين الرب القوي التمسك بطاعة الله وقيل العالم الحكيم أي كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين فان حصول العلم للانسان والدراسة له يتسبب عنهما الربانية التي هي التعليم للعلم وقوة التمسك بطاعة الله قال ابن عباس معناه حكماء علماء وقيل الرباني العالم الذي يعمل بعلمه وقيل العالم بالحلال والحرام والامر والنهي وقيل الجامع بين علم البصيرة والسياسة ولما مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية اليوم مات رباني هذه الامة وقيل هم ولاة الامر والعلماء وقال أبو عبيدة أحسب ان هذه الكلمة عبرانية أو سريانية (بما كنتم تعلمون الكتاب) بالتخفيف والتشديد قال مكي التشديد أبلغ لان العالم قد يكون عالما غير معلم فالتشديد يدل على العلم والتعليم والتخفيف انما يدل على العلم فقط ويؤيد الاولى (وبما كنتم تدرسون) بالتخفيف والحاصل ان من قرأ بالتشديد لزمه ان يحمل الرباني على أمر زائد على العلم والتعليم وهو ان يكون مع ذلك مخلصا أو حكيما أو حليما حتى تظهر السببية ومن قرأ بالتخفيف جاز له ان يحمل الرباني على العالم الذي يعلم الناس فيكون المعنى كونوا معلمين بسبب كونكم علماء وبسبب كونكم تدرسون العلم وفي هذه الآية أعظم باعث لمن علم على ان يعمل وان من أعظم العمل بالعلم تعليمه

صلى الله عليه وسلم خمس العير وقسم سائرها بين أصحابه قال ابن اسحق فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام فوقف العير والاسيرين وأبى ان يأخذ من ذلك شيأ فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقط فى أيدى القوم وظنوا انهم قد هلكوا وعنفهم اخوانهم من المسلمين فيما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الاموال وأسروا فيه الرجال فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة انما أصبتم ما أصبتم فى شعبان وقالت اليهود تفاءلوا بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله عمرو عمرت الحرب والحضرمى حضرت الحرب وواقد بن عبد الله وقدت الحرب فجعل الله عليهم ذلك لا لهم فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن (٦٧) سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل أى ان كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صددتم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام واخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم والفتنة أكبر من القتل أى قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه الى الكفر بعد ايمانه فذلك أكبر عند الله من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا أى ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين قال ابن اسحق فلما نزل القرآن بهذا من الامر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والاسيرين وبعثت اليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان فانا نخشاكم عليهما فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن اسلامه وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرا قال ابن اسحق فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا فى الاجر فقالوا يا رسول الله أنطمع ان تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين فأنزل الله عز وجل ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم فوضع الله من ذلك على اعظم الرجاء قال ابن اسحق والحديث فى هذا عن الزهرى ويزيد بن رومان عن عروة وقد روى يونس بن بكير عن محمد بن اسحق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق وروى موسى بن عقبة عن الزهرى نحو ذلك

تعليمه والاخلاص لله سبحانه والدراسة مذاكرة العلم والفقه فدلت الآية على ان العلم والتعليم والدراسة توجب كون الانسان ربانيا فمن اشتغل بها لا لهذا المقصود فقد ضاع علمه وخاب سعيه (ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) أى ليس له ان يأمر بعبادة نفسه ولا ان يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا بل ينهى عنه والمعنى يقول ويأمر وقيل ولا ان يأمركم وقرئ على الاستئناف برفع الراء أى لا يأمركم الله أو محمد أو عيسى أو الانبياء (أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) قاله على طريق التعجب والانكار يعنى لا يقول هذا ولا يفعله وقد استدل به من قال ان سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من المسلمين فى ان يسجدوا له (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما) بفتح اللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذى فى أخذ الميثاق وبكسرها متعلقة بأخذ وما موصولة على الوجهين أى للذى (آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) وجواب القسم (لتؤمنن به ولتنصرنه) قد اختلف فى تفسير هذه الآية فقال سعيد بن جبير وقتادة وطاوس والحسن والسدى انه أخذ الله ميثاق الانبياء ان يصدق بعضهم بعضا بالايمان ويأمر بعضهم بعضا بذلك فهذا معنى النصرة له والايمان به وهو ظاهر الآية فحاصله ان الله أخذ ميثاق الاول من الانبياء ان يؤمن بما جاء به الآخر وينصره ان أدركه وان لم يدركه يأمر قومه بنصرته ان أدركوه فأخذ الميثاق من موسى ان يؤمن بعيسى ومن عيسى ان يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال الكسائى يجوز ان يكون معناها واذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين ويؤيده قراءة ابن مسعود واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب وقيل فى الكلام حذف والمعنى واذ أخذ الله ميثاق النبيين ليعلمن الناس ما جاءهم من كتاب وحكمة ولما أخذ من الناس ان يؤمنوا دل على هذا الحذف قوله وأخذتم على ذلكم اصرى قيل انما أخذ الميثاق فى امر محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وبه قال على وابن عباس وقتادة والسدى وقيل أخذ

وروى شعيب بن أبي حمزة عن الزهري عن عروة بن الزبير نحوا من هذا أيضا وفيه فكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا أيحل القتال في الشهر الحرام فأنزل الله يسألونك عن الشهر الحرام الآية وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة ثم قال ابن هشام عن زياد عن ابن اسحق وقد ذكر عن بعض آل عبد الله ان عبد الله قسم الفيء بين أهله فجعل أربعة أخماسه لمن أفاءه وخمسا لله ورسوله فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع في تلك العير قال ابن هشام وهي أول غنيمة غنمها المسلمون وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون قال ابن اسحق فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في غزوة عبد الله بن جحش ويقال (٦٨) بل عبد الله بن جحش قالها حين قالت قريش قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه المال وأسروا فيه الرجال قال ابن هشام هي لعبد الله بن جحش

تعدون قتلا في الحرام عظيمة
وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد
وكفر به والله راء وشاهد
واخراجكم من مسجد الله أهله
لئلا يرى لله في البيت ساجد
فانا وان عيرتمونا بقتله
وأرجف بالاسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا
بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما وابن عبد الله عثمان بيننا
ينازعه غل من القد عائد

(يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لاعنتكم ان الله عزيز حكيم) قال الامام أحمد كارهون.

حدثنا خلف بن الوليد حدثنا اسرائيل عن أبي اسحق عن أبي ميسرة عن عمر أنه قال لما نزل تحريم الخمر قال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت هذه الآية التي في البقرة يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير فدعي عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في النساء يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ فهل أنتم منتهون قال عمر انتهينا انتهينا وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن اسرائيل عن أبي اسحق وكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق الثوري عن أبي اسحق عن أبي

الميثاق على الانبياء وأممهم جميعا في أمره صلى الله عليه وآله وسلم فاكتفى بذكر الانبياء لان العهد مع المتبوع عهد مع الاتباع وبه قال علي بن أبي طالب والاول أولى وبه قال كثير من المفسرين والرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي ذكر في التوراة والانجيل وصفه وشرح فيهما أحواله قال البغوي أخذ الله هذا الميثاق منهم حين استخرج الذرية من صلب آدم وقال الرازي هذا الميثاق ما قرر في عقولهم من الدلائل الدالة على ان الانقياد لله واجب والاول أولى وهو الظاهر من الآية (قال) الله تعالى للنبيين (أأقررتم) بالايمان به والنصرة له أو قال كل نبي لامته أأقررتم والاول أولى (وأخذتم على ذلكم اصري) أي عهدي والاصر في اللغة الثقل سمي العهد اصرا لما فيه من التشديد (قالوا أقررنا) بما ألزمتنا من الايمان برسلك (قال) الله تعالى (فاشهدوا) أي أنتم على أنفسكم أو ليشهد بعضكم على بعض وقيل الخطاب للملائكة والاول أولى (وأنا معكم) أي على اقراركم وشهادة بعضكم على بعض (من الشاهدين) هذا هو الخبر لانه محط الفائدة (فمن تولى) أي أعرض عما ذكر (بعد ذلك) الميثاق (فأولئك هم الفاسقون) أي الخارجون عن الطاعة والغائصون في الكفر وأعاد الضمير في تولى مفردا على لفظ من وجمع أولئك حملا على المعنى (أفغير دين الله يبغون) عطف على مقدر أي تتولون فتبغون غير دين الله وتقديم المفعول لانه المقصود بالانكار وقرأ أبو عمرو وحده يبغون بالتحتية وترجعون بالفوقية قال لان الاول خاص والثاني عام ففرق بينهما الافتراق فيهما في المعنى وكيف يبغون غير دينه (و) الحال ان (له أسلم) أي خضع وانقاد (من في السموات والارض طوعا وكرها) أي طائعين ومكرهين والطوع الانقياد والاتباع بسهولة والكره ما فيه مشقة وهو من أسلم لمخافة القتل واسلامه استسلام منه أخرج الطبراني بسند ضعيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله وله أسلم قال أمامن في السموات فالملائكة وأما من في الارض فمن ولد على الاسلام وأما كرها فمن أتي به من سبايا الامم في السلاسل والاغلال يقادون الى الجنة وهم كارهون.

ميسرة واسمه عمرو بن شرحبيل الهمداني الكوفي عن عمر وليس له عنه سواه لكن قد قال أبو زرعة لم يسمع منه والله أعلم وقال علي بن المديني هذا اسناد صالح صحيح وصححه الترمذي وزاد ابن أبي حاتم بعد قوله انتهينا انها تذهب المال وتذهب العقل وسيأتي هذا الحديث أيضا مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة أيضا عند قوله في سورة المائدة انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون الآيات فقوله يسألونك عن الخمر والميسر أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه كل ما خامر العقل كما سيأتي بيانه في سورة المائدة وكذا الميسر وهو القمار وقوله قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس أما اثمهما فهو في الدين وأما المنافع فدنيوية من حيث ان فيها نفع البدن وتهضيم الطعام واخراج الفضلات وتشحيذ بعض الاذهان ولذة الشدة المطربة التي فيها كما قال حسان بن ثابت في جاهليته * ونشربها فتترك كاملوكا * وأسد الاينهنهنا اللقاء وكذا بيعها والانتفاع بثمنها وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين ولهذا قال الله تعالى واثمهما أكبر من نفعهما ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات ولم تكن مصرحة بل معرضة ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة ان شاء الله تعالى وبه الثقة

كارهون وأخرج الديلمي عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية الملائكة أطاعوه في السماء والانصار وعبد القيس أطاعوه في الارض قال ابن عباس أسلم من في السموات والارض حين أخذ عليهم الميثاق وعن قتادة قال أما المؤمن فأسلم طائعا فنفعه ذلك وقبل منه وأما الكافر فأسلم حين رأى بأس الله فلم ينفعه ولم يقبل منه فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا باسنا وأخرج الطبراني في الاوسط عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ساء خلقه من الرقيق والدواب والصبيان فاقرؤا في أذنه أفغير دين الله يبغون وأخرج ابن السني في عمل يوم وليلة عن يونس بن عبيد قال ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقرأ في أذنها أفغير دين الله يبغون الآية الا ذلت باذن الله عز وجل (واليه يرجعون) أي مرجع الخلق كلهم الى الله يوم القيامة ففيه وعيد عظيم لمن خالفه في الدنيا (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم) اخبار منه صلى الله عليه وآله وسلم عن نفسه وعن أمته وانما خص هؤلاء بالذكر لان أهل الكتاب يعترفون بوجودهم ولم يختلفوا في نبوتهم وعدى الانزال هنا بعلى وفي البقرة بالى لانه يصح تعديته بكل فله جهة علو باعتبار ابتدائه وانتهاء باعتبار آخره وهو باعتبار ابتدائه متعلق بالنبي وباعتبار انتهائه متعلق بالمكلفين ولما خص الخطاب هنا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ناسب الاستعلاء ولما عم هناك جميع المؤمنين ناسبه الانتهاء والاسباط كانوا اثني عشر وهم أولاد يعقوب وهم بالنسبة لابراهيم احفاده لانهم أولاد ولده فالمراد بالاسباط هنا الاحفاد لا المعنى اللغوي وهم أولاد البنات (لا نفرق بين أحد منهم) كما فرقت اليهود والنصارى فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقد تقدم تفسير هذه الآية (ونحن له مسلمون) أي منقادون مخلصون موحدون (ومن يبتغ غير الاسلام) العامة على اظهار هذين المثلين لان بينهما فاصلا وهو الياء فلم يلتقيا في الحقيقة وروى الادغام مراعاة للفظ وليس هذا مخصوصا

قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ان هذه أول آية نزلت في الخمر يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ثم نزلت الآية التي في سورة النساء ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر وقوله ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو قرئ بالنصب وبالرفع وكلاهما حسن متجه قريب قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا أبان حدثنا يحيى انه بلغه ان معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله ان لنا أرقاء وأهلين من أموالنا فأنزل الله ويسألونك ماذا ينفقون وقال الحكم عن مقسم عن ابن عباس ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو قال ما يفضل عن أهلك وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والقاسم وسالم وعطاء الخراساني والربيع بن أنس وغير واحد انهم قالوا في قوله قل العفو يعني الفضل وعن طاوس اليسير من كل شيء وعن الربيع أيضا

أفضل مالك واطيبه والكل يرجع الى الفضل وقال عبد بن حميد في تفسيره حدثنا هوذة بن خليفة عن عوف عن الحسن في الآية يسألونك ماذا ينفقون قل العفو قال ذلك أن لا يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير حدثنا علي بن مسلم حدثنا أبو عاصم عن ابن عجلان عن المقبري عن أبي هريرة قال قال رجل يا رسول الله عندي دينار قال انفقه على نفسك قال عندي آخر قال انفقه على أهلك قال عندي آخر قال انفقه على ولدك قال عندي آخر قال فانت أبصر وقد رواه مسلم في صحيحه وأخرجه مسلم أيضا عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل ابدأ بنفسك فتصدق عليها فان فضل شيء فلاهلك فان فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك فان فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا وعنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الصدقة ما كان (٧٠) عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وفي الحديث أيضا ابن آدم انك ان تبذل الفضل خير لك وان تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف ثم قد قيل انها منسوخة بآية الزكاة كما رواه علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس وقاله عطاء الخراساني والسدي وقيل مبينة بآية الزكاة قاله مجاهد وغيره وهو أوجه وقوله كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة أي كما فصل لكم هذه الاحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني في زوال الدنيا وفنائها واقبال الآخرة وبقائها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو أسامة عن الصعق التميمي قال شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة قال هي والله لمن تفكر فيها ليعلم ان الدنيا دار بلاء ثم دار فناء وليعلم ان الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء وهكذا قال قتادة قال وابن جرير وغيرهما وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا وفي رواية عن قتادة فآثروا الآخرة على الاولى وقوله ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لاعنتكم الآية قال ابن جرير حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن وان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير

بهذه الآية بل كلما التقى فيه مثلان يجري فيه الوجهان نحو يخسل لكم وان يك كاذبا وقد استشكل على هذا نحو يا قوم مالي ويا قوم من ينصرني فانه لم يرو عن أبي عمرو خلاف في ادغامهما وكان القياس يقتضي جواز الوجهين لان ياء المتكلم فاصلة تقديرا قاله السمين (دينا فلن يقبل منه) يعني ان الدين المقبول عند الله هو دين الاسلام وان كل دين سواه غير مقبول لان الدين الصحيح ما رضي الله عن فاعله ويثيبه عليه (وهو في الآخرة من الخاسرين) أي الواقعين في الخسران يوم القيامة وهو حرمان الثواب وحصول العقاب أخرج أحمد والطبراني في الاوسط عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تجيء الاعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول يا رب أنا الصلاة فيقول انك على خير وتجيء الصدقة فتقول يا رب أنا الصدقة فيقول انك على خير ويجيء الصيام فيقول أنا الصيام فيقول انك على خير ثم تجيء الاعمال كل ذلك يقول الله انك على خير ثم يجيء الاسلام فيقول يا رب أنت السلام وأنا الاسلام فيقول انك على خير بك اليوم آخذ وبك أعطي قال الله تعالى في كتابه يعني هذه الآية (كيف يهدي الله) هذا الاستفهام معناه الجحد أي لا يهدي الله ونظيره قوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد عند الله أي لا عهد لهم ويجوز ان يكون الاستفهام للتعجب والتعظيم لكفرهم بعد الايمان أو للاستبعاد والتوبيخ فان الجاحد عن الحق بعد ما وضح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد فليس للانكار حتى يستدل به على عدم توبة المرتد وان كان انكارا فالاستثناء يمنعه قاله الكرخي (قوما) الى الحق (كفروا بعد ايمانهم و) بعد ما (شهدوا أن الرسول حق و) بعد ما (جاءهم البينات) من كتاب الله سبحانه ومعجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي كيف يهدي المرتدين والحال انه لا يهدي من حصل منهم مجرد الظلم لانفسهم ومنهم الباقون على الكفر ولا ريب ان ذنب المرتد أشد من ذنب من هو باق على الكفر لان المرتد قد عرف الحق ثم أعرض عنه عنادا وتمردا عن ابن عباس

وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح فخالطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم وهكذا رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طرق عن عطاء بن السائب به وكذا رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وكذا رواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود بمثله وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد وعطاء والشعبي وابن أبي ليلى وقتادة وغير واحد من السلف والخلف قال وكيع بن الجراح حدثنا هشام صاحب الدستوائي عن حماد عن ابراهيم قال قالت عائشة رضي الله عنها اني لأكره ان يكون مال اليتيم عندي حدة حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي فقوله قل اصلاح لهم خير أي على حدة وان تخالطوهم فاخوانكم أي وان خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم لانهم اخوانكم في الدين (٧١) ولهذا قال والله يعلم المفسد من المصلح أي يعلم من

قال كان رجل من الانصار أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين ثم ندم فارسل الى قومه ان سلوا لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل لي من توبة فنزلت هذه الآية الى قوله غفور رحيم فارسل اليه قومه وأسلم وروى هذا من طرق وعنه أيضا هم أهل الكتاب من اليهود عرفوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ثم كفروا به وروى نحوه عن الحسن (أولئك) أي المتصفون بتلك الصفات السابقة (جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها) أي اللعنة أو النار المدلول بها عليها وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) يؤخرون ويمهلون ثم استثنى التائبين فقال (الا الذين تابوا من بعد ذلك) الارتداد (وأصلحوا) بالاسلام ما كان قد أفسدوه من دينهم بالردة وفيه دليل على قبول توبة المرتد اذا رجع الى الاسلام مخلصا ولا خلاف في ذلك فيما أحفظ وقيل ضموا الى التوبة الاعمال الصالحة لان التوبة وحدها لا تكفي حتى يضاف اليها العمل الصالح وقيل أصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات وظاهرهم مع الخلق بالعبادات والطاعات والاول أليق بظاهر الآية (فان الله غفور) لقبائحهم في الدنيا بالستر وقيل بازالة العذاب (رحيم) في الآخرة بالعفو وقيل باعطاء الثواب (ان الذين كفروا) بعيسى (بعد ايمانهم) بموسى (ثم ازدادوا كفرا) بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قال قتادة وعطاء الخراساني والحسن نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد ايمانهم بنعته وصفته ثم ازدادوا باقامتهم على كفرهم كفرا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل ازدادوا كفرا بالذنوب التي اكتسبوها ورجحه ابن جرير الطبري وجعلها في اليهود خاصة وقيل نزلت في جميع الكفار وذلك انهم اشركوا بالله بعد اقرارهم بان الله خلقهم ثم ازدادوا كفرا يعني باقامتهم على الكفر حتى هلكوا وقيل زيادة كفرهم هو قولهم نتربص بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ريب المنون وقيل نزلت في احد عشر رجلا من اصحاب الحرث بن سويد الذين ارتدوا عن الاسلام فلما رجع الحرث أقاموا على

قصده ونيته الافساد أو الاصلاح وقوله ولو شاء الله لاعنتكم ان الله عزيز حكيم أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن قال تعالى ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن بل جوز الاكل منه للفقير بالمعروف اما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجانا كما سيأتي بيانه في سورة النساء ان شاء الله وبه الثقة (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين ان يتزوجوا المشركات من عبدة الاوثان ثم ان كان عمومها مرادا وانه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضحاك وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وغيرهم وقيل بل المراد بذلك المشركون من عبدة الاوثان ولم يرد أهل الكتاب بالكلية والمعنى قريب من الاول والله أعلم فأما ما رواه ابن جرير حدثني عبيد بن آدم بن أبي اياس العسقلاني حدثنا أبي حدثنا عبد الحميد بن بهرام الفزاري حدثنا شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عباس يقول نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء الا ما كان من المؤمنات المهاجرات وحرم كل ذات دين غير الاسلام قال الله عز وجل ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وقد نكح طلحة بن عبد الله

يهودية ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية فغضب عمر بن الخطاب غضبا شديدا حتى هم ان يسطو عليهما فقالا لم نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب فقال لئن حل طلاقهن لقد حل نكاحهن ولكني أنتزعهن منكم صغرة قأة فهو حديث غريب جدا وهذا الاثر غريب عن عمر أيضا قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الاجماع على اباحة تزويج الكتابيات وانما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات أو لغير ذلك من المعاني كما حدثنا أبو كريب حدثنا ابن ادريس حدثنا الصلت بن بهرام عن شقيق قال تزوج حذيفة يهودية فكتب اليه عمر خل سبيلها فكتب اليه أتزعم انها حرام فأخلي سبيلها فقال لا أزعم انها حرام ولكني أخاف (٣) أن تعاطوا المؤمنات منهن وهذا اسناد صحيح وروى الخلال عن محمد بن اسمعيل عن وكيع عن الصلت نحوه وقال ابن جرير حدثني موسى بن عبد الرحمن (٧٢) المسروقي حدثنا محمد بن بشر حدثنا سفيان بن سعيد عن يزيد بن أبي زياد عن زيد بن وهب قال قال عمر بن الخطاب المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة قال وهذا أصح اسنادا من الاول ثم قال وقد حدثنا تميم بن المنتصر اخبرنا اسحق الازرق عن شريك عن أشعث بن سوار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا ثم قال وهذا الخبر وان كان في اسناده ما فيه فالقول به لاجماع الجميع من الامة عليه كذا قال ابن جرير رحمه الله وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن اسمعيل الاحمسي حدثنا وكيع عن جعفر ابن برقان عن ميمون بن مهران عن ابن عمر انه كره نكاح أهل الكتاب وتأول ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن وقال البخاري وقال ابن عمر لا أعلم شركا أعظم من ان تقول ربها عيسى وقال أبو بكر الخلال الحنبلي حدثنا محمد بن هرون حدثنا اسحق بن ابراهيم ح وأخبرني محمد بن علي حدثنا صالح بن أحمد انهما سألا الآية أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن قول الله ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن قال مشركات العرب الذين يعبدون الاصنام وقوله ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم قال السدي نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها ثم فزع فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبرهما فقال له ماهي قال تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله فقال يا أبا عبد الله هذه مؤمنة فقال والذي بعثك بالحق لاعتقنها ولاتزوجنها ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا تنكح أمته وكانوا يريدون ان ينكحوا الى المشركين وينكحوهم رغبة في احسابهم فأنزل الله ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم

(٣) قوله ان تعاطوا الخ كذا في النسخ التي بأيدينا وحرر الرواية اه مصححه

كفرهم بمكة وقد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى (لن تقبل توبتهم) مع كون التوبة مقبولة كما في الآية الاولى وكما في قوله تعالى وهو الذي يقبل التوبة عن عباده وغير ذلك فقيل المعنى لن تقبل توبتهم عند الموت قال النحاس وهذا قول حسن كما قال تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الآن وبه قال الحسن وقتادة وعطاء والسدي ومنه حديث ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر وقيل المعنى لن تقبل توبتهم التي كانوا عليها قبل ان يكفروا لان الكفر أحبطها وقيل لن تقبل توبتهم اذا تابوا من كفر الى كفر آخر وقال ابن عباس انهم الذين ارتدوا وعزموا على اظهار التوبة لتسترأحوالهم والكفر في ضمائرهم وقال أبو العالية هم قوم تابوا من ذنوب عملوها في حال الشرك ولم يتوبوا من الشرك وقال مجاهد لن تقبل توبتهم اذا ماتوا على الكفر وقال ابن جرير هو الازدياد على الكفر بعد الكفر لا يقبل الله منه توبة ما أقام على كفره (وأولئك هم الضالون) أي هم الذين ضلوا عن سبيل الحق وأخطؤا منهاجه والمراد هؤلاء الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا والاولى ان يحمل عدم قبول التوبة في هذه الآية على من مات كافرا غير تائب فكانه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة ويكون قوله (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) في حكم البيان لها قال ابن عباس نزلت فيمن مات من أصحاب الحرث على الكفر وقيل نزلت فيمن مات كافرا من جميع أصناف الكفار من أهل الكتاب وعبدة الاصنام فالآية عامة فيهم (فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا) الملء بالكسر مقدار ما يملأ الشئ والملء بالفتح مصدر ملأت الشئ والمعنى مقدار ما يملأ الارض مشرقها ومغربها ذهبا مع انه أعز الاشياء وقيمة كل شئ أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الارض ذهبا أكنت مفتديا فيقول نعم فيقال له لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك فذلك قوله تعالى ان الذين كفروا

ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم وقال عبد بن حميد حدثنا جعفر بن عون حدثنا عبد الرحمن بن زياد الافريقي عن عبد الله ابن يزيد عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تنكحوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن ان يرديهن ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن ان تطغيهن وانكحوهن على الدين فلامة سوداء جرداء ذات دين أفضل والافريقي ضعيف وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تنكح المرأة لاربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك ولمسلم عن جابر مثله وله عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة وقوله ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات كما قال تعالى لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ثم قال تعالى ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أي ولرجل مؤمن (٧٣) ولو كان عبدا حبشيا خير من مشرك وان كان رئيسا سريا أولئك يدعون الى النار أي معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وايثارها على الدار الآخرة وعاقبة ذلك وخيمة والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه ويبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لانفسكم واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين) قال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس ان اليهود كانت اذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي صلى

الآية (ولو افتدى به) قيل الواو زائدة مقحمة وقيل الواو للعطف والمعنى وكذلك لو افتدى من العذاب في الآخرة بملء الارض ذهبا لن يقبل منه وهذا آكد في التغليظ لانه تصريح بنفي القبول في جميع الوجوه أو المراد بالواو التعميم في الاحوال كأنه قيل لن يقبل منهم في جميع الاحوال ولو في حال افتدائه نفسه في الآخرة (أولئك) اشارة الى من مات على الكفر (لهم) أي استقر لهم (عذاب أليم) مؤلم (ومالهم) أي ما استقر لهم (من ناصرين) يمنعونهم من العذاب وأتى بناصرين جمعا لتوافق الفواصل عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة لو أن لك ما في الارض من شئ أكنت تفتدي به فيقول نعم فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم عليه السلام أن لا تشرك بي شيأ فأبيت الا الشرك هذا لفظ مسلم (لن تنالوا البر) هذا كلام مستأنف خطاب للمؤمنين عقب ذكر ما لا ينفع الكفار والنيل ادراك الشئ ولحوقه يقال نالني من فلان معروف نالني أي وصل الي والنوال العطاء من قولك نولته تنويلا أي أعطيته وقيل هو تناول الشئ باليد يقال نلته أناله نيلا قال تعالى ولا ينالون من عدو نيلا وأما النول بالواو فمعناه التناول يقال نلته أنوله أي تناولته وأنلته زيدا أنيله اياه أي ناولته اياه والبر فعل الخيرات والعمل الصالح ففي الآية حذف المضاف أي ثواب وهو الجنة وقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسدي هو الجنة فمعنى الآية لن تنالوا العمل الصالح أو الجنة وقيل التقوى وقيل الطاعة وقيل الثواب وأصل البر التوسع في فعل الخير وقد يستعمل في الصدق وحسن الخلق وعن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن البر والاثم فقال البر حسن الخلق والاثم ما حاك في صدرك وكرهت ان يطلع عليه الناس أخرجه مسلم والمعنى لن تصلوا ثواب البر المؤدي الى الجنة (حتى تنفقوا) أي تصدقوا وحتى بمعنى الى (مما تحبون) أي حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها ومن

الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن حتى فرغ من الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اصنعوا كل شئ الا النكاح فبلغ ذلك اليهود فقالوا ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيأ الا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يا رسول الله ان اليهود قالت كذا وكذا أفلا نجامعهن فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا ان قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما رواه مسلم من حديث حماد بن زيد بن سلمة فقوله فاعتزلوا النساء في المحيض يعني الفرج لقوله اصنعوا كل شئ الا النكاح ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم الى انه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج قال أبو داود أيضا حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حماد عن أيوب عن عكرمة عن بعض

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا أراد من الحائض شيأ ألقى على فرجها ثوبا وقال أبو داود أيضا حدثنا الشعبي حدثنا عبد الله يعني ابن عمر بن غانم عن عبد الرحمن يعني ابن زياد عن عمارة بن غراب ان عمة له حدثته انها سألت عائشة قالت احدانا تحيض وليس لها ولزوجها فراش الا فراش واحد قالت أخبرك بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل فقضى الى مسجده قال أبو داود يعني مسجد بيته فما انصرف حتى غلبتني عيني فأوجعه البرد فقال ادني مني فقلت اني حائض فقال اكشفي عن فخذيك فكشفت فخذي فوضع خده وصدره على فخذي وحنيت عليه حتى دفئ ونام صلى الله عليه وسلم وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا أيوب عن كتاب أبي قلابة ان مسروقا ركب الى عائشة فقال السلام على النبي وعلى أهله فقالت عائشة مرحبا مرحبا (٧٤) فأذنوا له فدخل فقال اني أريد ان اسألك عن شئ وأنا أستحي فقالت انما أنا أمك وأنت ابني فقال ما للرجل من امرأته وهي حائض فقالت له كل شئ الا فرجها ورواه أيضا عن حميد بن مسعدة عن يزيد بن زريع عن عيينة بن عبد الرحمن ابن جوشن عن مروان الاصفر عن مسروق قال قلت لعائشة ما يحل للرجل من امرأته اذا كانت حائضا قالت كل شئ الا الجماع وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة وروى ابن جرير أيضا عن أبي كريب عن ابن أبي زائدة عن حجاج عن ميمون ابن مهران عن عائشة قالت له مافوق الازار (قلت) ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف قالت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن وفي الصحيح عنها قالت كنت أتعرق العرق وأنا حائض فأعطيه النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه في الموضع الذي وضعت فيه وأشرب الشراب فأناوله فيضع فاه في الموضع الذي كنت أشرب منه وقال أبو داود حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن جابر بن صبيح سمعت خلاسا الهجري قال سمعت عائشة تقول كنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعار الواحد وانا حائض طامث فان أصابه مني شئ غسل مكانه لم يعده وان أصابه يعني ثوبه شئ غسل مكانه لم يعده وصلى فيه فأما مارواه أبو داود حدثنا سعيد بن الحكم حدثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن أبي اليمان عن أم ذرة عن عائشة انها قالت كنت اذا حضت نزلت عن المثال على الحصير فلم نقرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ندن منه حتى نطهر فهو محمول على التنزه والاحتياط وقال آخرون انما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الازار كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحرث الهلالية قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد ان يباشر امرأة من نسائه أمرها

تبعيضية وقيل بيانية وما موصولة أو موصوفة والمراد النفقة في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات وقيل المراد الزكاة المفروضة قال البيضاوي أي من المال أو مما يعمه وغيره كبذل الجاه في معاونة الناس والبدن في طاعة الله والمهجة في سبيله انتهى وكتعليم العلم وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس ان أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ان أحب أموالي الي بيرحاء وانها صدقة الحديث وقد روى بالفاظ عن ابن عمر لم أجد شيأ أحب الي من مرجانة جارية لي رومية فقلت هي حرة لوجه الله الحديث أخرجه البزار وعبد بن حميد وكذلك أعتق عمر جارية من سبي جلولاء وجاء زيد بن حارثة بفرس له يقال له سبل لم يكن له مال أحب اليه منها فقال هي صدقة (وما تنفقوا من شئ) بيان لقوله ما تنفقوا أي ما تنفقوا من أي شئ سواء كان طيبا أو خبيثا جيدا أو رديئا فيجازيكم بحسبه وهو شرطية جازمة (فان الله به عليم) تعليل لجواب الشرط واقع موقعه وفيه من الترغيب في انفاق الجيد والتحذير عن انفاق الردئ مالا يخفى (كل الطعام) أي المطعوم (كان حلا) الحل مصدر يستوي فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث وهو الحلال كما ان الحرم لغة في الحرام (لبني اسرائيل) هو يعقوب كما تقدم تحقيقه يعني ان كل المطعومات كانت حلالا لبني يعقوب لم يحرم عليهم شئ منها (الا ما حرم اسرائيل على نفسه) مستثنى من اسم كان وجوز أبو البقاء ان يكون مستثنى من ضمير مستتر في حلا وفيه قولان أحدهما انه متصل والتقدير الا ما حرم اسرائيل على نفسه فحرم عليهم في التوراة فليس منها ما زادوه من محرمات وادعوا صحة ذلك والثاني انه منقطع والتقدير لكن حرم اسرائيل على نفسه خاصة ولم يحرمه عليهم والاول هو الصحيح قاله السمين قد أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس ان اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا ما حرم اسرائيل على نفسه قال كان يسكن البدو فاشتكى عرق النسا فلم يجد شيأ يلائمه الا تحريم الابل وألبانها فلذلك حرمها قالوا صدقت

وذكر

فائزرت وهي حائض وهذا لفظ البخاري ولهما عن عائشة نحوه وروى الامام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث العلاء عن حزام بن حكيم عن عمه عبد الله بن سعد الانصاري انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لي من امرأتي وهي حائض قال ما فوق الازار ولابي داود أيضا عن معاذ بن جبل قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يحل لي من امرأتي وهي حائض قال ما فوق الازار والتعفف عن ذلك أفضل وهو رواية عن عائشة كما تقدم وابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح فهذه الاحاديث وما شابهها حجة من ذهب الى انه يحل ما فوق الازار منها وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم ومأخذهم انه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل الى تعاطي ما حرم الله عز وجل الذي أجمع العلماء على تحريمه وهو المباشرة في الفرج ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله ويتوب اليه وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا فيه قولان أحدهما نعم لما رواه الامام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار وفي لفظ للترمذي اذا كان دما أحمر فدينار وان كان دما أصفر فنصف دينار وللامام أحمد أيضا عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل في الحائض تصاب دينارا فان أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل فنصف دينار والقول الثاني وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي وقول الجمهور انه لا شئ في ذلك بل يستغفر الله عز وجل لانه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث فانه قد روي مرفوعا كما تقدم وموقوفا وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث فقوله تعالى ولا تقربوهن حتى يطهرن تفسير لقوله فاعتزلوا النساء في المحيض ونهي عن قربانهن بالجماع مادام الحيض موجودا ومفهومه حله اذا انقطع قال الامام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل فيما أملاه في الطاعة وقوله ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث الآية الطهر يدل على ان يقربها فلما قالت ميمونة وعائشة كانت احدانا اذا حاضت اتزرت ودخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعاره دل ذلك على انه انما أراد الجماع وقوله فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله فيه ندب وارشاد الى غشيانهن بعد الاغتسال وذهب ابن جزم الى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله وليس له في ذلك مستند لان هذا أمر بعد الحظر وفيه أقوال لعلماء الاصول منهم من يقول انه على الوجوب كالمطلق وهؤلاء يحتاجون الى جواب ابن حزم ومنهم من يقول انه للاباحة ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب وفيه نظر والذي ينهض عليه الدليل انه يرد الحكم

وذكر الحديث وأخرجه أيضا أحمد والنسائي وفي رواية عنه الذي حرم اسرائيل على نفسه زائدا الكبد والكليتان والشحم الا ما كان على الظهر وعرق النسا بفتح النون والقصر عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ قاله الكرخي ودواؤه ما ذكره القرطبي ونصه أخرج الثعلبي في تفسيره من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عرق النسا تؤخذ ليفة كبش عربي لا صغير ولا كبير فتقطع قطعا صغارا وتسلأ على النار ويؤخذ دهنها فيجعل ثلاثة أقسام يشرب المريض بذلك الداء على الريق كل يوم ثلثا قال أنس فوصفته لاكثر من مائة كلهم يبرأ باذن الله تعالى وفيه رد على اليهود لما أنكروا ما قصه الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من أن سبب ما حرمه عليهم هو ظلمهم وبغيهم كما في قوله فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم الآية وقوله وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الى قوله ذلك جزيناهم ببغيهم وقالوا انها محرمة على من قبلهم من الانبياء نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا كما حرمت على من قبلنا يريدون بذلك تكذيب ما قصه الله سبحانه على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه العزيز (من قبل ان تنزل التوراة) فانها ناطقة بان بعض أنواع الطعام انما حرم بسبب اسرائيل وذلك بعد ابراهيم بألف سنة ولم يكن على عهده حراما كما زعموا وانما قال من قبل لان بعد نزولها حرم الله عليهم أشياء من أنواع الطعام ثم أمر الله سبحانه بان يحاجهم بكتابهم ويجعل بينه وبينهم حكما ما أنزله الله عليهم لا ما أنزل عليه فقال (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها) حتى تعلموا صدق ما قصه الله في القرآن من انه لم يحرم على بني اسرائيل شئ من قبل نزول التوراة الا ما حرمه يعقوب على نفسه (ان كنتم صادقين) في دعواكم انه تحريم قديم روى انهم لم يجسروا على اخراج التوراة فلم يأتوا بها وخافوا الفضيحة وبهتوا وفي هذا من الانصاف للخصوم ما لا يقادر قدره ولا تبلغ مداه وفيه من الحجة النيرة على صدق النبي وجواز النسخ الذي يجحدونه ما لا يخفى

الى ما كان عليه الامر قبل النهى فان كان واجبا فواجب كقوله فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين أو مباحا فمباح كقوله واذا حللتم فاصطادوا فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وعلى هذا القول تجتمع الادلة وقد حكاه الغزالى وغيره فاختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح وقد اتفق العلماء على ان المرأة اذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تيمم ان تعذر ذلك عليها بشرطه الآن أبا حنيفة رحمه الله يقول فيما اذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده انها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر الى غسل والله أعلم وقال ابن عباس حتى يطهرن أى من الدم فاذا تطهرن أى بالماء وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن ومقاتل بن حيان والليث بن سعد وغيرهم وقوله من حيث أمركم الله قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعنى الفرج قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فأتوهن من حيث أمركم الله يقول فى الفرج ولا تعدوه الى غيره فمن فعل شيأ من ذلك فقد اعتدى وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة من حيث أمركم الله أى ان تعتزلوهن وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء فى الدبر كما سيأتى تقريره قريبا ان شاء الله تعالى وقال أبو رزين وعكرمة والضحاك وغير واحد فأتوهن من حيث أمركم الله يعنى طاهرات غير حيض ولهذا قال ان الله يحب التوابين أى من الذنب وان تكرر غشيانه ويحب المتطهرين أى المتنزهين عن الاقذار والاذى وهو مما نهوا عنه من اتيان الحائض أو فى غير المأتى وقوله نساؤكم حرث لكم قال ابن عباس الحرث موضع الولد فأتوا حرثكم أنى شئتم أى كيف شئتم مقبلة ومدبرة فى ضمام واحد كما ثبتت بذلك الاحاديث قال البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن ابن المنكدر قال سمعت جابرا قال كانت اليهود تقول اذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم ورواه مسلم وأبو داود حصل من حديث سفيان الثورى به وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثورى ان محمد بن المنكدر حدثهم ان جابر بن عبد الله أخبره ان اليهود قالوا للمسلمين من أتى امرأته وهى مدبرة جاء الولد أحول فأنزل الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم قال ابن جريج فى الحديث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلة ومدبرة اذا كان ذلك فى الفرج وفى حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده انه قال يا رسول الله نساؤنا ما نأتى منها وما نذر قال حرثك ائت حرثك انى شئت غير ان لا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر الا فى البيت الحديث رواه أحمد وأهل السنن حديث آخر قال ابن أبى حاتم حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى

(من افترى) الافتراء اختلاق الكذب والقذف والافساد أصله من فرى الاديم اذا قطعه لان الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له فى الوجود وقال البيضاوى افترى أى ابتدع والجملة استئنافية أو منصوبة المحل ومن شرطية أو موصولة (على الله الكذب من بعد ذلك) أى احضار التوراة وتلاوتها متعلق بافترى وهذا هو الظاهر أو بالكذب وجوزه أبو البقاء (فأولئك) فيه مراعاة معنى من كما فى افترى مراعاة لفظها (هم الظالمون) أى المفرطون فى الظلم المتمادون فيه فانه لا أظلم ممن حوكم الى كتابه وما يعتقده شرعا صحيحا ثم جادل من بعد ذلك مفتريا على الله الكذب ثم لما كان ما يفترونه من الكذب بعد قيام الحجة عليهم بكتابهم باطلا مدفوعا وكان ما قصه الله سبحانه فى القرآن وصدقته التوراة صحيحا صادقا وكان ثبوت هذا الصدق بالبرهان الذى لا يستطيع الخصم دفعه أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينادى لصدق الله بعد ان سجل عليهم بالكذب فقال (قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم) أى ملة الاسلام التى أنا عليها (حنيفا) قد تقدم معنى الحنيف كأنه قال لهم اذا تبين لكم صدقى وصدق ما جئت به فادخلوا فى دينى فان من جملة ما أنزله الله على ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه (وما كان) فى أمر من أمور دينه أصلا وفرعا (من المشركين) الذين يدعون مع الله الها آخر ويعبدون سواه وفيه تعريض باشراك اليهود وتصريح بأنه صلى الله عليه وآله وسلم ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعا والغرض بيان ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم على دين ابراهيم فى الاصول لانه لا يدعو الا الى التوحيد والبراءة عن كل معبود سواه سبحانه وتعالى قاله الكرخى (ان أول بيت) هذا شروع فى بيان شئ آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل وذلك انهم قالوا ان بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الانبياء وأرض المحشر وفى الارض المقدسة وقبلتهم فرد الله ذلك عليهم ونبه تعالى بكونه أول متعبد على انه أفضل من غيره والاول هو الفرد السابق المتقدم على ما سواه وقيل هو اسم للشئ الذى يوجد ابتداء سواه

حبيب عن عامر بن يحيى عن عبد الله بن خنش عن عبد الله بن عباس قال أتى ناس من حمير الى رسول صلى الله عليه وسلم فسألوه عن أشياء فقال له رجل انى أحب النساء فكيف ترى فى فأنزل الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ورواه الامام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثنى الحسن بن ثوبان عن عامر بن يحيى المغافرى عن خنش عن ابن عباس قال أنزلت هذه الآية نساؤكم حرث لكم فى أناس من الانصار أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فسألوه فقال النبى صلى الله عليه وسلم ائتها على كل حال اذا كان فى الفرج حديث آخر قال أبو جعفر الطحاوى فى كتابه مشكل الحديث حدثنا أحمد بن داود بن موسى حدثنا يعقوب بن كاسب حدثنا عبد الله بن نافع عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى ان رجلا أصاب امرأة فى دبرها فأنكر الناس عليه ذلك فأنزل الله نساؤكم حرث لكم الآية ورواه ابن جرير عن يونس عن يعقوب ورواه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن الحرث بن شريح عن عبد الله بن نافع به حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا عبيد الله بن عثمان بن خيثم عن عبد الله بن سابط قال دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر فقلت انى لسائلك عن أمر وأنا أستحى ان أسألك قالت فلا تستحى يا ابن أخى قال عن اتيان النساء فى أدبارهن قالت حدثتنى أم سلمة ان الانصار كانوا يحبون النساء وكانت اليهود تقول انه من أحبى امرأته كان ولده أحول فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا فى نساء الانصار فحبوهن فأبت امرأة ان تطيع زوجها وقالت لن تفعل ذلك حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت اجلسى حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم استحت الانصارية ان تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت فسألته أم سلمة فقال ادعى الانصارية فدعيتها فتلا عليها هذه الآية نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم ضما ما واحدا ورواه الترمذى عن بندار عن ابن مهدى عن سفيان عن أبى خيثم به وقال حسن (قلت) وقد روى من طريق حماد بن أبى حنيفة عن أبيه عن ابن خيثم عن يوسف بن ماهك عن حفصة أم المؤمنين ان امرأة أتتها فقالت ان زوجها يأتينى محبية ومستقبلة فكرهته فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا بأس اذا كان فى ضمام واحد حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا يعقوب يعنى القمى عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال جاء عمر بن الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت قال ما الذى أهلكك قال حولت رحلى البارحة قال فلم يرد عليه شيأ قال فأوحى الله الى رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآية نساؤكم

حصل عقيبه شئ آخر أو لم يحصل قال على كانت البيوت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله قبل خلق آدم بألفى عام ووضع بعده الاقصى وبينهما أربعون سنة كما فى حديث الصحيحين وهذا يقتضى ان الاقصى بنته الملائكة أيضا وقد اختلف فى البانى له فى الابتداء فقيل الملائكة وقيل آدم وقيل ابراهيم ويجمع بين ذلك بان أول من بناه الملائكة ثم جدده آدم ثم ابراهيم (وضع للناس) أى جميعهم كما قال سواء العاكف فيه والباد وضعه الله موضعا للطاعات والعبادات وقبلة للصلاة ومقصد الحج والعمرة ومكانا للطواف تزداد فيه الخيرات وثواب الحسنات وأجر الطاعات (للذى ببكة) بكة علم للبلد الحرام وكذا مكة وهما لغتان فان العرب تعاقب بين الباء والميم كلازب ولازم ونبيت ونميت اسم موضع وراتب وراتم وقيل ان بكة اسم لموضع البيت ومكة اسم للبلد الحرام وقيل بكة للمسجد ومكة للحرم كله قيل سميت بذلك لانها كانت تبك أى تدق أعناق الجبابرة وأما تسميتها بمكة ففيل سميت بذلك لقلة مائها وقيل لانها تمك الملح من العظم بما ينال سكانها من المشقة ومنه مككت العظم اذا أخرجت مافيه ومك الفصيل ضرع أمه وامتكه اذا امتصه وقيل سميت بذلك لانها تمك من ظلم فيها أى تهلكه وقيل لانها تمك الذنوب أى تزيلها وتمحوها (مباركا) يعنى ذا بركة وأصل البركة النمو والزيادة والبركة هنا كثرة الخير الحاصل لمن استقر فيه أو يقصده أى الثواب المتضاعف وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الحرام أخرجه البخارى ومسلم (وهدى للعالمين) أى لأنه قبلة للمؤمنين يهتدون به الى جهة صلاتهم وقيل لان فيه دلالة على وجود الصانع المختار لما فيه من الآيات التى لا يقدر عليها غيره وقيل هدى لهم الى الجنة أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذر قال قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول قال المسجد الحرام قلت ثم أى قال المسجد الاقصى قلت كم بينهما قال أربعون سنة وعن ابن

حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن حسن بن موسى الاشيب به وقال حسن غريب وقال الحافظ ابو يعلى حدثنا الحرث بن شريح حدثنا عبد الله بن نافع حدثنا هشام بن سعد عن زيد ابن اسلم عن عطاء بن يسار عن ابى سعيد قال أتفر رجل امرأته على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أتفر فلان امرأته فأنزل الله عز وجل نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم قال ابو داود حدثنا عبد العزيز بن يحيى ابو الاصبغ قال حدثنى محمد يعنى ابن سلمة عن محمد بن اسحق عن ابان بن صالح عن مجاهد عن ابن عباس قال ان ابن عمر قال والله يغفر له اوهم وانما كان هذا الحى من الانصار وهم اهل وثن مع هذا الحى من يهود وهم اهل كتاب وكانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم فكانوا يقتدون كثيرا من فعلهم وكان من امر اهل الكتاب لا يأتون (٧٨) النساء الا على حرف وذلك أستر ما تكون المرأة فكان الحى من الانصار قد اخذوا بذلك من فعلهم وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحا منكرا ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الانصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت انما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك والا فاجتنبنى فسرى امرهما فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم اى مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعنى بذلك موضع الولد تفرد به ابو داود ويشهد له بالصحة ما تقدم له من الأحاديث ولا سيما رواية ام سلمة فانها مشابهة لهذا السياق وقد روى هذا الحديث الحافظ ابو القاسم الطبرانى من طريق محمد بن اسحق عن ابان بن صالح عن مجاهد قال عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته الى خاتمته أوقفه عند كل آية منه واسأله عنها حتى انتهيت الى هذه الآية نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم فقال ابن عباس ان هذا الحى من قريش كانوا يشرحون النساء بمكة ويتلذذون بهن فذكر القصة بتمام سياقها وقول ابن عباس ان ابن عمر والله يغفر له أوهم كأنه يشير الى ما رواه البخارى حدثنا اسحق حدثنا النضر بن شميل أخبرنا ابن عون عن نافع قال كان ابن عمر اذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه فأخذت عنه يوما فقرأ سورة البقرة حتى انتهى الى مكان قال أتدرى فيم أنزلت قلت لا قال أنزلت فى كذا وكذا ثم مضى وعن عبد الصمد قال حدثنى أبى حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر فأتوا حرثكم أنى شئتم قال أن يأتيها فى هكذا رواه البخارى وقد تفرد به من هذا الوجه وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا ابن عون عن نافع قال قرأت ذات يوم نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم فقال ابن عمر أتدرى فيم نزلت قلت لا

عمر قال خلق الله البيت قبل الارض بألفى سنة وكان اذ كان عرشه على الماء زبدة بيضاء وكانت الارض تحته كأنها حشفة فدحيت الارض من تحته أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب وابن جرير وابن المنذر (فيه آيات بينات) أى دلالات واضحات على حرمته ومزيد فضله واحترامه منها الصفا والمروة ومنها أثر القدم فى الصخرة الصماء ومنها ان الغيث اذا كان بناحية الركن اليمانى كان الخصب فى اليمن وان كان بناحية الشامى كان الخصب فى الشام واذا عم البيت كان فى جميع البلدان ومنها انحراف الطيور عن ان تمر على هوائه فى جميع الازمان ومنها اهلاك من يقصده من الجبابرة ومنها الحجر الاسود والملتزم وزمزم ومشاعر الحج ومنها ان الآمر ببناء هذا البيت هو الله الجليل والمهندس له جبريل والباني هو ابراهيم الخليل والمساعد فى بنيانه هو اسمعيل وهذه فضيلة عظيمة له وغير ذلك من الآيات وقد أوضحتها فى كتابى رحلة الصديق الى البيت العتيق فليرجع اليه وهذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (مقام ابراهيم) يعنى الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت وكان فيه أثر قدمى ابراهيم فاندرس من كثرة المسح بالأيدى وقد استشكل صاحب الكشاف بيان الآيات وهى جمع بالمقام وهو فرد وأجاب بان المقام جعل وحده بمنزلة آيات لقوة شأنه أو بانه مشتمل على آيات قال ويجوز ان يراد فيه آيات بينات مقام ابراهيم وأمن من دخله لان الاثنين نوع من الجمع وقال ابن عطية والراجح عندى ان المقام وأمن الداخلين جعلا مثالا لما فى حرم الله تعالى من الآيات وخصا بالذكر لعظمهما وانهما مما تقوم بهما الحجة على الكفار اذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسهم (ومن دخله كان آمنا) جملة مستأنفة من حيث اللفظ لبيان حكم من أحكام الحرم وهو ان من دخله كان آمنا ومن حيث المعنى معطوفة على مقام ابراهيم الذى هو مبتدأ محذوف الخبر أى ومنها أمن داخله ومن شرطية أو موصولة وبه استدل من قال ان من لجأ الى الحرم وقد وجب عليه حد من الحدود فانه لا يقام عليه الحد حتى يخرج منه وهو قول

قال نزلت في إتيان النساء في أدبارهن وحدثني أبو قلابة حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثني أبي عن أيوب عن نافع عن ابن عمر فأتوا حرثكم أنى شئتم قال في الدبر وروى من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر ولا يصح وروى النسائي عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن أبي بكر بن أبي أويس عن سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم عن ابن عمر أن رجلا أتى امرأته في دبرها فوجد في نفسه من ذلك وجدا شديدا فأنزل الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم قال أبو حاتم الرازي لو كان هذا عند زيد بن أسلم عن ابن عمر لما أولع الناس بنافع وهذا تعليل منه لهذا الحديث وقد رواه عبد الله بن نافع عن داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر فذكره وهذا الحديث محمول على ما تقدم وهو انه يأتيها في قبلها من دبرها لما رواه النسائي عن علي بن عثمان النفيلي عن سعيد بن عيسى عن الفضل بن فضالة عن عبد الله بن سليمان الطويل عن كعب بن علقمة عن أبي النضر انه أخبره انه قال لنافع مولى ابن عمر انه قد أكثر عليك القول انك تقول عن ابن عمر انه افتى أن تؤتى النساء في أدبارهن قال كذبوا علي ولكن سأحدثك كيف كان الامر ان ابن عمر عرض المصحف يوما وأنا عنده حتى بلغ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم فقال يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية قلت لا قال انا كنا معشر قريش نجبي النساء فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الانصار أردنا منهن مثل ما كنا نريد فاذا هن قد كرهن ذلك وأعظمنه وكانت نساء الانصار قد اخذن بحال اليهود انما يؤتين على جنوبهن فأنزل الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وهذا اسناد صحيح وقد رواه ابن مردويه عن الطبراني عن الحسين بن اسحق عن زكريا ابن يحيى كاتب لعمر عن مفضل بن فضالة عن عبد الله بن عباس عن كعب بن علقمة فذكره وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحا وانه لا يباح ولا يحل كما سيأتي وان كان قد نسب هذا القول الى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم وعزاه بعضهم الى الامام مالك في كتاب السر وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الامام مالك رحمه الله وقد وردت الاحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه فقال الحسن بن عرفة حدثنا اسمعيل بن عياش عن سهيل بن أبي صالح عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحيوا ان الله لا يستحي من الحق لا تحل ان تأتوا النساء في حشوشهن وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن عبد الله بن شداد عن خزيمة بن ثابت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى ان يأتي الرجل امرأته في دبرها طريق أخرى قال أحمد حدثنا يعقوب سمعت أبي يحدث عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد أن عبيد الله بن الحصين الوالبي حدثه ان عبد الله الواقفي حدثه ان خزيمة بن ثابت الخطمي

قول أبي حنيفة ومن تابعه وخالفه الجمهور وقالوا تقام عليه الحدود في الحرم وبه قال الشافعي وقد قال جماعة ان الآية خبر في معنى الامر أي ومن دخله فأمنوه كقوله فلا رفث ولا فسوق ولا جدال أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا أخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال كان هذا في الجاهلية كان الرجل لو جر كل جريرة على نفسه ثم لجأ الى الحرم لم يتناول ولم يطلب فاما في الاسلام فانه لا يمنع من حدود الله من سرق فيه قطع ومن زنى فيه اقيم عليه الحد ومن قتل فيه قتل وعن عمر بن الخطاب قال لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه وعن ابن عباس من عاذ بالبيت أعاذه البيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فاذا خرج أخذ بذنبه وروى عنه هذا المعنى من طرق أخرجه ابن جرير وغيره وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي شريح العدوي قال قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم الغد من يوم الفتح فقال ان مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة فان أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقولوا ان الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وانما أذن لي في ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالامس وقيل المعنى من دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان آمنا وقيل من دخله معظما له متقربا بذلك الى الله كان آمنا من العذاب يوم القيامة وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا وعنه الجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة وهما قبرتا مكة والمدينة ذكرهما أبو السعود ولم يخرجهما

وقيل آمنا من الذنوب التي اكتسبها قبل ذلك والاول أولى (ولله على الناس حج البيت) اللام في قوله لله هي التي يقال لها لام الايجاب والالزام ثم زاد هذا المعنى تأكيدا حرف على فانه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب كما اذا قال القائل لفلان علي كذا فذكره الله سبحانه بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيدا لحقه وتعظيما لحرمته وهذا الخطاب

لحديثه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال استحيوا ان الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن ورواه النسائي وابن ماجه من طرق عن ابن خزيمة بن ثابت وفي اسناده اختلاف كثير حديث آخر قال أبو عيسى الترمذي والنسائي حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الاحمر عن الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان عن كريب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الله الى رجل أتى رجلا أو امرأة في الدبر ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه وصححه ابن حزم أيضا ولكن رواه النسائي أيضا عن هناد عن وكيع عن الضحاك به موقوفا وقال عبد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه ان رجلا سأل ابن عباس عن اتيان المرأة في دبرها قال تسألني عن الكفر اسناده صحيح وكذا رواه النسائي من طريق ابن المبارك عن معمر به (٨٠) نحوه وقال عبد أيضا في تفسيره حدثنا ابراهيم بن الحاكم عن أبيه عن عكرمة قال جاء رجل الى ابن عباس وقال كنت آتي أهلي في دبرها وسمعت قول الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أني شئتم فظننت ان ذلك لي حلال فقال بالكع انما قوله فأتوا حرثكم أنى شئتم قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقبالهن لا تعدوا ذلك الى غيره حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا همام حدثنا قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى وقال عبد الله بن أحمد حدثني هدبة حدثنا همام قال سئل قتادة عن الذي يأتي امرأته في دبرها فقال قتادة أخبرنا عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده ان النبي صلى الله عليه وسلم قال هي اللوطية الصغرى قال قتادة وحدثني عقبة بن وساج عن أبي الدرداء قال وهل يفعل ذلك الا كافر وقد روى هذا الحديث يحيى بن سعيد القطان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله وهذا أصح والله أعلم وكذلك رواه عبد بن حميد عن يزيد بن هرون عن حميد الاعرج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو موقوفا من قوله طريق أخرى قال جعفر الفريابي حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ويقول ادخلوا النار مع الداخلين الفاعل والمفعول به والناكح يده وناكح البهيمة وناكح المرأة في دبرها وجامع بين المرأة وابنتها والزاني بحليلة جاره ومؤذي جاره حتى يلعنه ابن لهيعة وشيخه ضعيفان حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق اخبرنا سفيان عن عاصم عن عيسى بن حطان عن مسلم بن سلام عن علي بن طلق

شامل لجميع الناس لا يخرج عنه الا من خصصه الدليل كالصبي والعبد والمعنى ولله على الناس فرض حج البيت والناس عام مخصوص بالمستطيع قد خصص ببدل البعض وهو قوله من استطاع لانه من المخصصات عند الاصوليين والحج بكسر الحاء وفتحها لغتان سمعيتان في مصدر حج بمعنى قصد والحج احد أركان الاسلام عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بني الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والحج وصوم رمضان أخرجه البخاري ومسلم فعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحج من أركان الاسلام الخمسة وقد ورد في فضله وفضل البيت والعمرة أحاديث منها عن أبي سعيد الخدري قال ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الاقصى أخرجه الشيخان وعن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة أخرجه البخاري ومسلم وفي الباب أحاديث لا نطيل بذكرها وقد ذكرنا طرفا منها في كتابنا رحلة الصديق (من استطاع اليه سبيلا) يعني من وجد السبيل الى حج البيت الحرام من أهل التكليف لانه المحدث عنه وان كان يحتمل رجوع الضمير للبيت لكن الاول أولى وقد اختلف أهل العلم في الاستطاعة ماذا هي فقيل الزاد والراحلة وبه فسره صلى الله عليه وآله وسلم رواه الحاكم وغيره واليه ذهب جماعة من الصحابة وحكاه الترمذي عن أكثر أهل العلم وهو الحق وقال مالك ان الرجل اذا وثق بقوته لزمه الحج وان لم يكن له زاد وراحلة اذا كان يقدر على التكسب وبه قال ابن الزبير والشعبي وعكرمة وقال الضحاك ان كان شابا قويا صحيحا وليس له مال فعليه ان يؤاجر نفسه حتى يقضي حجه ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة دخولا أوليا ان تكون الطريق الى الحج آمنة بحيث يأمن الحاج على نفسه وماله الذي لا يجد زادا غيره أما لو كانت غير آمنة فلا استطاعة لان الله سبحانه يقول من استطاع اليه سبيلا

قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تؤتى النساء فى أدبارهن فان الله لا يستحى من الحق وأخرجه أحمد أيضا عن أبى معاوية وأبى عيسى الترمذى من طريق أبى معاوية أيضا عن عاصم الاحول به وفيه زيادة وقال هو حديث حسن ومن الناس من يورد هذا الحديث فى مسند على بن أبى طالب كما وقع فى مسند الامام أحمد بن حنبل والصحيح انه على بن طلق حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن سهيل بن أبى صالح عن الحرث بن مخلد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الذى يأتى امرأته فى دبرها لا ينظر الله اليه وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن الحرث بن مخلد عن أبى هريرة يرفعه قال لا ينظر الله الى رجل جامع امرأته فى دبرها وكذا رواه ابن ماجه من طريق سهيل وقال أحمد أيضا حدثنا وكيع عن سهيل بن أبى صالح عن الحرث بن مخلد عن أبى هريرة قال قال (٨١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون من أتى امرأته فى دبرها وهكذا رواه أبو داود والنسائى من طريق وكيع به طريق أخرى قال الحافظ أبو نعيم الاصبهانى أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان حدثنا أبو عبد الرحمن النسائى حدثنا هناد ومحمد بن اسمعيل واللفظ له قالا حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون من أتى امرأة فى دبرها ليس هذا الحديث هكذا فى سنن النسائى وانما الذى فيه عن سهيل عن الحرث بن مخلد كما تقدم قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى ورواية أحمد بن القاسم بن الريان هذا الحديث بهذا السند وهم منه وقد ضعفوه طريق أخرى رواها مسلم بن خالد الزنجى عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ملعون من

سبيلا وهذا الخائف على نفسه وماله لم يستطع اليه سبيلا بلا شك وشبهة وقد اختلف أهل العلم اذا كان فى الطريق من الظلمة من يأخذ بعض الاموال على وجه لا يجحف بزاد الحاج فقال الشافعى لا يعطى حبة ويسقط عنه فرض الحج ووافقه جماعة وخالفه آخرون والظاهر ان من تمكن من الزاد والراحلة وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكن من مرورها ولو بمصانعة بعض الظلمة بدفع شئ من المال يتمكن منه الحاج ولا ينقص من زاده ولا يجحف به فالحج غير ساقط عنه بل واجب عليه لانه قد استطاع السبيل بدفع شئ من المال ولكنه يكون هذا المال المدفوع فى الطريق من جملة ما يتوقف عليه الاستطاعة فلو وجد الرجل زادا وراحلة ولم يجد ما يدفعه لمن يأخذ المكس فى الطريق لم يجب عليه الحج لانه لم يستطع اليه سبيلا وهذا لا بد منه ولا ينافى تفسير الاستطاعة بالزاد والراحلة فانه قد تعذر المرور فى طريق الحج لمن وجد الزاد والراحلة الا بذلك القدر الذى يأخذه المكاسون ولعل وجه قول الشافعى انه يسقط الحج ان أخذ هذا المكس منكر فلا يجب على الحاج ان يدخل فى منكر وانه بذلك غير مستطيع ومن جملة ما يدخل فى الاستطاعة ان يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب فلو كان زمنا بحيث لا يقدر على المشى ولا على الركوب فهذا وان وجد الزاد والراحلة فهو لم يستطع السبيل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى تفسير الاستطاعة انها الزاد والراحلة بطرق كثيرة عن جماعة من الصحابة عند أهل السنن وغيرهم وأقل أحوال هذا الحديث ان يكون حسنا لغيره فلا يضره ما وقع الكلام على بعض طرقه كما هو معروف وقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم النهى للمرأة ان تسافر بغير ذى رحم محرم واختلفت الاحاديث فى قدر المدة ففى لفظ ثلاثة أيام وفى لفظ يوم وليلة وفى لفظ بريد وقد ذكر بعض المفسرين ههنا أحكاما تتعلق بالحج وأطال فى ذكرها ومحلها كتب الفروع فلا نذكرها (ومن كفر) من شرطية وهو الظاهر أو موصولة قيل انه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج تأكيدا لوجوبه وتشديدا على

(١١ - فتح البيان نى) أتى النساء فى أدبارهن ومسلم بن خالد فيه كلام والله أعلم طريق أخرى رواها الامام أحمد وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة عن حكيم الاثرم عن أبى تميمة الهجيمى عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أتى حائضا أو امرأة فى دبرها أو كاهنا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد وقال الترمذى ضعف البخارى هذا الحديث والذى قاله البخارى فى حكيم الترمذى عن أبى تميمة لا يتابع على حديثه طريق أخرى قال النسائى حدثنا عثمان بن عبد الله حدثنا سليمان بن عبد الرحمن من كتابه عن عبد الملك بن محمد الصنعانى عن سعيد بن عبد العزيز عن الزهرى عن أبيه سلمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله حق الحياء لا تأتوا النساء فى أدبارهن تفرد به النسائى من هذا الوجه قال حمزة بن محمد الكنانى الحافظ هذا حديث منكر باطل من حديث الزهرى ومن حديث أبى سلمة ومن حديث سعيد فان كان عبد الملك سمعه

من سعيد فانما سمعه بعد الاختلاط وقد رواه الترمذي عن أبي سلمة انه كان ينهى عن ذلك فاما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا انتهى كلامه وقد أجاد وأحسن الانتقاد الا أن عبد الملك بن محمد الصنعاني لا يعرف انه اختلط ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة عن الكناني وهو ثقة ولكن تكلم فيه دحيم وأبو حاتم وابن حبان وقال لا يجوز الاحتجاج به والله أعلم وقد تابعه زيد بن يحيى ابن عبيد عن سعيد بن عبد العزيز وروى من طريقين آخرين عن أبي سلمة ولا يصح منهما شئ طريق أخرى قال النسائي حدثنا اسحق بن منصور حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان الثوري عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن أبي هريرة قال اتيان الرجال النساء في أدبارهن كفر ثم رواه عن بندار عن عبد الرحمن به قال من أتى امرأة في دبرها وتلك كفر هكذا رواه النسائي من طريق الثوري عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة (٨٢) موقوفا وكذا رواه من طريق علي بن نديمة عن مجاهد عن أبي هريرة موقوفا ورواه بكر بن خنيس عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أتى شيأ من الرجال والنساء في الادبار فقد كفر والموقوف أصح وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة وتركه آخرون حديث آخر قال محمد بن أبان البلخي حدثنا وكيع حدثني زمعة بن صالح عن ابن طاوس عن أبيه وعن عمرو ابن دينار عن عبد الله بن يزيد بن الهاد قالا قال عمر بن الخطاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن وقد رواه النسائي حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني عن عثمان بن الهيثم عن زمعة بن صالح عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن الهاد عن عمر قال لا تأتوا النساء في ادبارهن وحدثنا اسحق بن ابراهيم حدثنا يزيد بن أبي حكيم عن زمعة بن صالح عن عمرو بن دينار عن طاوس عن عبد الله بن الهاد الليثي قال قال عمر رضي الله عنه استحيوا من الله فان الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن والموقوف أصح حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا غندر ومعاذ بن معاذ قالا حدثنا شعبة عن عاصم الاحول عن عيسى بن حطان عن مسلم بن سلام عن طلق بن يزيد أو يزيد بن طلق عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أستاههن وكذا رواه غير واحد عن شعبة ورواه عبد الرزاق عن معمر عن عاصم الاحول عن عيسى بن حطان عن مسلم بن سلام عن طلق بن علي والاشبه انه علي بن طلق كما تقدم والله أعلم حديث آخر قال أبو بكر الاثرم في سننه حدثنا أبو مسلم الجرمي حدثنا أخو أنيس بن ابراهيم ان أباه ابراهيم بن عبد الرحمن بن القعقاع أخبره عن أبيه أبي القعقاع عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال محاش النساء حرام وقد رواه اسمعيل بن علية وسفيان الثوري وشعبة

تاركه وقيل المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبا وقيل ان من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر وعن ابن عمر من كفر بالله واليوم الآخر وعن ابن زيد من كفر بهذه الآيات وعن ابن مسعود ومن كفر فلم يؤمن فهو الكافر وقيل هو الذي ان حج لم يره برا وان قعد لم يره اثما وقيل نزلت في اليهود وغيرهم من أصحاب الملل قالوا الحج غير واجب وكفروا به وعلى هذا تكون الآية متعلقة بما قبلها وقيل انه كلام مستأنف كما تقدم عن ابن عمر (فان الله غني عن العالمين) الانس والجن والملائكة وعن عبادتهم وبالجملة في قوله هذا من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة وخذلانه وبعده من الله سبحانه ما يتعاظمه سامعه ويرجف له قلبه فان الله سبحانه انما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم ومصلحتهم وهو تعالى شأنه وتقدس سلطانه غني لا تعود اليه طاعات عباده بأسرها بنفع وقد وردت أحاديث في تشديد الوعيد على من ملك زادا وراحلة ولم يحج فاخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج بيت الله فلا عليه بان يموت يهوديا ولا نصرانيا وذلك بان الله يقول ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين وفي اسناده هلال الحراساني أبو هاشم قال البخاري منكر الحديث وقيل هو مجهول وقال ابن عدي هذا الحديث ليس بمحفوظ وفي اسناده أيضا الحرث الاعور وفيه ضعف وقد ذكره الشوكاني في الموضوعات ثم قال وقد حكم ابن الجوزي بضعفه ودفعه الحافظ ابن حجر بما هو معروف وأخرج سعيد بن منصور وأحمد في كتاب الايمان وأبو يعلى والبيهقي عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مات ولم يحج حجة الاسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء يهوديا أو نصرانيا وأخرج سعيد ابن منصور قال السيوطي بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال لقد هممت ان أبعث رجالا

وغيرهم عن أبي عبد الله الشقري واسمه سلمة بن تمام ثقة عن أبي القعقاع عن ابن مسعود موقوفا وهو أصح طريق أخرى قال ابن عدي حدثنا أبو عبد الله المحاملي حدثنا سعيد بن يحيى الثوري حدثنا محمد بن حمزة عن زيد بن رفيع عن أبي عبيدة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تأتوا النساء في أعجازهن محمد بن حمزة هو الجزري وشيخه فيهما مقال وقد روي من حديث أبي بن كعب والبراء بن عازب وعقبة بن عامر وأبي ذر وغيرهم وفي كل منها مقال لا يصح معه الحديث والله أعلم وقال الثوري عن الصلت بن بهرام عن أبي المعتمر عن أبي جويرة قال سأل رجل عليا عن اتيان المرأة في دبرها فقال سفلت سفل الله بك ألم تسمع قول الله عز وجل أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين وقد تقدم قول ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس وعبد الله بن عمرو في تحريم ذلك وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه يحرمه قال أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله الدارمي في مسنده حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث عن الحرث بن يعقوب عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال قلت لابن عمر ما تقول في الجواري أيحمض لهن قال وما التحميض فذكر الدبر فقال وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين وكذا رواه ابن وهب وقتيبة عن الليث به وهذا اسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود الى هذا المحكم قال ابن جرير حدثني عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أبو زيد أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي العمر حدثني عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس انه قيل له يا أبا عبد الله ان الناس يروون عن سالم بن عبد الله انه قال كذب العبد أو العلج على أبي عبد الله فقال مالك أشهد على يزيد بن رومان انه أخبرني عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر مثل ما قال نافع فقيل له فان الحرث بن يعقوب يروي عن أبي الحباب سعيد بن يسار انه سأل ابن عمر فقال له يا أبا عبد الرحمن انا نشتري الجواري أفنحمض لهن فقال وما التحميض فذكر له الدبر فقال ابن عمر اف أف وهل يفعل ذلك مؤمن أو قال مسلم فقال مالك أشهد على ربيعة لاخبرني عن أبي الحباب عن ابن عمر مثل ما قال نافع وروى النسائي عن الربيع بن سليمان عن أصبغ بن الفرج الفقيه حدثنا عبد الرحمن بن القاسم قال قلت لمالك ان عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحرث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال قلت لابن عمر انا نشتري الجواري فنحمض لهن قال وما التحميض قلت نأتيهن في أدبارهن فقال اف اف أو يعمل هذا مسلم فقال لي مالك فأشهد على ربيعة فحدثني عن سعيد بن يسار انه سأل ابن عمر فقال لا بأس به وروى النسائي أيضا من طريق يزيد بن رومان عن عبيد الله بن عبد الله ان ابن عمر كان لا يرى بأسا ان يأتي الرجل المرأة

الى هذه الامصار فلينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين وأخرج الاسماعيلي عنه يقول من أطاق ولم يحج فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا قال ابن كثير بعد ان ساق اسناده وهذا اسناد صحيح وعن ابن عمر من مات وهو موسر ولم يحج جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب كافر وعنه من وجد الى الحج سبيلا سنة ثم سنة ثم مات ولم يحج لم يصل عليه ولا يدري مات يهوديا أو نصرانيا وعن عمر بن الخطاب قال لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة ومن شاء استيفاء مسائله فليرجع الى كتابي رحلة الصديق الى البيت العتيق (قل يا أهل الكتاب) خطاب لليهود والنصارى وقيل لعلمائهم الذين علموا صحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتخصيصهم بالخطاب دليل على ان كفرهم أوضح وان زعموا انهم مؤمنون بالتوراة والانجيل فهم كافرون بهما (لم تكفرون بآيات الله) الدالة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره وقيل المراد بها القرآن وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاستفهام للانكار والتوبيخ لان يكون لكفرهم بها سبب من الاسباب (والله شهيد على ما تعملون) هذه الجملة الحالية مؤكدة للتوبيخ والانكار وهكذا التعبير بصيغة المبالغة في شهيد يفيد مزيد التشديد والتهويل (قل يا أهل الكتاب) أمر توبيخهم باضلال غيرهم بعد توبيخهم باضلالهم (لم تصدون عن سبيل الله) الاستفهام يفيد ما أفاده الاستفهام الاول وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون في صدهم عن الاسلام ويقولون ان صفة محمد ليست في كتابنا ولا تقدمت به بشارة وصد وأصد لغتان بمعنى تغير وأنتن وسبيل الله دينه الذي ارتضاه لعباده وهو دين الاسلام (من آمن) منهم بالفعل أو من أراد الايمان من الكفار (تبغونها عوجا) بان تلبسوا على الناس وتوهموا ان فيه ميلا الى الحق بنفي النسخ وتغيير صفة الرسول عن وجهها وغير ذلك أي تبغون لاجلها عوجا والعوج الميل والزيغ يقال عوج بالكسر اذا كان في الدين والقول والعمل وبالفتح في الاجسام

فى دبرها وروى معمر بن عيسى عن مالك ان ذلك حرام وقال أبو بكر بن زياد النيسابورى حدثنى اسمعيل بن حسين حدثنى اسرائيل بن روح سألت مالك بن أنس ما تقول فى اتيان النساء فى أدبارهن قال ما أنتم الا قوم عرب هل يكون الحرث الا موضع الزرع لا تعدوا الفرج قلت يا أبا عبد الله انهم يقولون انك تقول ذلك قال يكذبون على يكذبون على فهذا هو الثابت عنه وهو قول ابى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة وهو قول سعيد بن المسيب وأبى سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف انهم أنكروا ذلك أشد الانكار ومنهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء وقد حكى فى هذا شئ عن بعض فقهاء المدينة حتى حكوه عن الامام مالك وفى صحته نظر قال الطحاوى روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم (٨٤) قال ما أدركت أحدا أقتدى به فى دينى يشك أنه حلال يعنى وطء المرأة فى دبرها ثم قرأ نساؤكم حرث لكم ثم قال فاى شئ أبين من هذا هذه حكاية الطحاوى وقد روى الحاكم والدارقطنى والخطيب البغدادى عن الامام مالك من طرق ما يقتضى اباحة ذلك ولكن فى الاسانيد ضعف شديد وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى فى جزء جمعه فى ذلك والله أعلم وقال الطحاوى حكى لنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم انه سمع الشافعى يقول ما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تحليله ولا تحريمه شئ والقياس انه حلال وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب عن أبى سعيد الصيرفى عن أبى العباس الاصم سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم سمعت الشافعى يقول فذكره قال أبو نصر الصباغ كان الربيع يحلف بالله الذى لا اله الا هو لقد كذب يعنى ابن عبد الحكم على الشافعى فى ذلك لان الشافعى نص على تحريمه فى ستة كتب من كتبه والله أعلم وقوله وقدموا لانفسكم وقيل

كالجدار ونحوه روى ذلك عن أبى عبيدة وغيره والمعنى تطلبون لها اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة بايهامكم على الناس بانها كذلك تنفيقا لتحريفكم وتقويما لدعاويكم الباطلة والهاء فى تبغونها عائدة على السبيل والسبيل يذكر ويؤنث ومن التأنيث هذه الآية وقوله تعالى هذه سبيلى (وأنتم شهداء) جملة حالية أى والحال انكم عالمون بان الدين المرضى القيم هو دين الاسلام كما فى كتابكم يعنى كيف تطلبون ذلك بعلة الاسلام والحال انكم تشهدون انها دين الله الذى لا يقبل غيره وان فيها نعت محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل المراد وأنتم العقلاء وقيل المعنى وأنتم شهداء بين أهل دينكم مقبولون عندهم فكيف تأتون بالباطل الذى يخالف ما أنتم عليه بين أهل دينكم وقيل وأنتم تشهدون المعجزات التى تظهر على يد محمد صلى الله عليه وآله وسلم الدالة على نبوته (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد شديد وتهديد لهم وذلك انهم لما كانوا يجتهدون ويحتالون بالقاء الشبهة فى قلوب الناس ليصدوهم عن سبيل الله والتصديق بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم مادة حيلتهم من احاطة علمه تعالى باعمالهم كما ان كفرهم بآيات الله لما كان بطريق العلانية ختمت الآية السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون ثم توعدهم سبحانه بقوله (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين) خاطب سبحانه المؤمنين محذرا لهم عن طاعة اليهود والنصارى مبينا لهم ان تلك الطاعة تفضى الى ان يردوهم ويصيروهم بعد ايمانهم كافرين والكفر يوجب الهلاك فى الدنيا بوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة والحرب وسفك الدماء وفى الآخرة النار (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) الاستفهام للانكار والاستبعاد أى من أين يأتيكم ذلك ولديكم ما يمنع منه ويقطع أثره وهو تلاوة آيات الله عليكم أى القرآن الذى فيه بيان الحق والباطل وكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذى يبين الحق ويدفع الشبهة بين أظهركم

أى من فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ولهذا قال واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه أى فيحاسبكم على أعمالكم جميعها وبشر المؤمنين أى المطيعين لله فيما أمرهم التاركين ما عنه زجرهم وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى محمد بن كثير عن عبد الله بن واقد عن عطاء قال أراه عن ابن عباس وقدموا لانفسكم قال تقول بسم الله التسمية عند الجماع وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن احدكم اذا أراد ان يأتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه ان يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبدا (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت

قلوبكم والله غفور حليم) يقول تعالى لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم اذا حلفتم على تركها كقوله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم فالاستمرار على اليمين اثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير كما قال البخارى حدثنا اسحق بن ابراهيم أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لان يلج أحدكم يمينه فى أهله آثم له عند الله من ان يعطى كفارته التى افترض الله عليه وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به ورواه أحمد عنه به ثم قال البخارى حدثنا اسحق بن منصور حدثنا يحيى بن صالح حدثنا معاوية هو ابن سلام (٨٥) عن يحيى وهو ابن أبى كثير عن عكرمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من استلج فى أهله بيمين فهو أعظم اثما ليس يعنى الكفارة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم قال لا تجعلن عرضة ليمينك ان لا تصنع الخير ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير وكذا قال مسروق والشعبى وابراهيم النخعى ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهرى والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخراسانى والسدى رحمهم الله ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى والله ان شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا أتيت الذى هو خير وتحللتها وثبت فيهما أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة فانك ان أعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها وان أعطيتها عن مسئلة وكلت اليها واذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك وروى مسلم عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير وقال الامام احمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا خليفة بن خياط حدثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فتركها كفارتها ورواه أبو داود من طريق أبى عبيد الله بن الاخنس عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ولا فى معصية الله ولا فى قطيعة رحم ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليدعها وليأت الذى هو خير فان تركها كفارتها ثم قال أبو داود والاحاديث

وقيل كيف كلمة تعجب وتوبيخ والمراد منه المنع والتغليظ قال قتادة فى هذه الآية علمان بينان كتاب الله تعالى ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم فأما النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقد مضى وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة قال الزجاج يجوز أن يكون هذا الخطاب لاصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة لان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه ويجوز ان يكون الخطاب لجميع الامة لان آثاره وعلامته والقرآن الذى أوتيه فينا فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا وان لم نشاهده انتهى ثم أرشدهم الى الاعتصام بالله ليحصل لهم بذلك الهداية الى الصراط المستقيم الذى هو الاسلام فقال (ومن يعتصم بالله) أى يمتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته وقيل بالقرآن وأصل العصمة الامتناع من الوقوع فى آفة يقال اعتصم به واستعصم وتمسك واستمسك اذا امتنع به من غيره وعصمه الطعام منع الجوع منه وفيه حث لهم فى الالتجاء الى الله فى دفع شر الكفار عنهم (فقد هدى الى صراط مستقيم) أى طريق واضح وهو طريق الحق المؤدى الى الجنة وفى وصف الصراط بالاستقامة رد على ما ادعوه من العوج (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) أى التقوى التى تحق له وهى ان لا يترك العبد شيأ مما يلزمه فعله ولا يفعل شيأ مما يلزمه تركه ويبذل فى ذلك جهده ومستطاعه قال القرطبى ذكر المفسرون انها لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يقوى على هذا وشق عليهم ذلك فأنزل الله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم فنسخت هذه الآية روى ذلك عن قتادة والربيع وابن زيد قال مقاتل وليس فى آل عمران من المنسوخ شئ الا هذا وقيل ان قوله اتقوا الله مبين لقوله فاتقوا الله ما استطعتم والمعنى اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم قال وهذا أصوب لان النسخ انما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى قال ابن عباس فى الآية هو ان يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى وقال مجاهد هو أن تجاهدوا فى الله حق جهاده ولا

عن النبي صلى الله عليه وسلم كلها فليكفر عن يمينه وهي الصحاح وقال ابن جرير حدثنا علي بن سعيد الكندي حدثنا علي ابن مسهر عن حارثة بن محمد عن عمرة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فبره ان يحنث فيها ويرجع عن يمينه وهذا حديث ضعيف لان حارثة هذا هو ابن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن متروك الحديث ضعيف عند الجميع ثم روى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبي انهم قالوا الايمين في معصية ولا كفارة عليها وقوله لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تقييد ولا تأكيد كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل لا اله

الا الله فهذا قاله لقوم حديثو عهد بجاهلية قد أسلموا وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد فأمروا ان يتلفظوا بكلمة الاخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه ولهذا قال تعالى ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم الآية وفي الآية الاخرى بما عقدتم الايمان قال أبو داود باب لغو اليمين حدثنا حميد بن مسعدة الشامي حدثنا حيان يعني بن ابراهيم حدثنا ابراهيم يعني الصائغ عن عطاء اللغو في اليمين قال قالت عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله وبلى والله ثم قال أبو داود رواه داود بن أبي الفرات عن ابراهيم الصائغ عن عطاء عن عائشة موقوفا ورواه الزهري وعبد الملك ومالك بن مغول كلهم عن عطاء عن عائشة موقوفا أيضا (قلت) وكذا رواه ابن جريج وابن أبي ليلى عن عطاء عن عائشة موقوفا

تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم وقال أنس لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه وقيل حق تقاته واجب تقواه وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم وقيل غير ذلك وتقاة مصدر وهو من باب اضافة الصفة الى موصوفها اذ الاصل اتقوا الله التقاة الحق أي الثابتة (ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا تكونوا على حال سوى حال الاسلام وجاءت الحال جملة اسمية لانها أبلغ وآكد ولو قيل الا مسلمين لم يفد هذا التأكيد قال السيوطي في التحبير من عجيب ما اشتهر في تفسير مسلمون قول العوام أي متزوجون وهو قول لا يعرف له أصل ولا يجوز الاقدام على تفسير كلام الله بمجرد ما يحدث في النفس أو يسمع ممن لا عمدة عليه انتهى وقد تقدم في البقرة مثل هذه الآية وهو نهي في الصورة عن موتهم الا على هذه الحالة والمراد دوامهم على الاسلام وذلك ان الموت لا بد منه فكأنه قيل دوموا على الاسلام الى الموت وقريب منه ما حكي عن سيبويه لأرينك ههنا أي لا تكن بالحضرة فتقع عليك رؤيتي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية فقال لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لافسدت على أهل الارض معايشهم فكيف بمن يكون طعامه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (واعتصموا بحبل الله جميعا) الحبل لفظ مشترك وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به الى البغية وهو اما تمثيل أو استعارة مصرحة أصلية تحقيقية أمرهم سبحانه بان يجتمعوا على التمسك بدين الاسلام أو بالقرآن وقد وردت أحاديث بان كتاب الله هو حبل الله وان القرآن هو حبل الله المتين قال أبو العالية بالاخلاص لله وحده وعن الحسن بطاعته وعن قتادة بعهده وأمره وعن ابن زيد بالاسلام (ولا تفرقوا) بعد الاسلام كما تفرقت اليهود والنصارى أو كما كنتم في الجاهلية متدابرين وقيل لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والمعنى نهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف في الدين وعن الفرقة لان كل ذلك عادة أهل

الجاهلية رواه ابن جرير عن هناد عن وكيع وعبدة وأبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم لا والله وبلى والله ثم رواه عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن هشام عن أبيه عنها وبه عن ابن اسحق عن الزهري عن القاسم عنها وبه عن ابن اسحق عن ابن أبي نجيح عن عطاء عنها وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة في قوله لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم قالت هم القوم يتدارؤن في الامر فيقول هذا والله وبلى والله وكلا والله يتدارؤن في الامر لا تعقد عليه قلوبهم وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا هرون بن اسحق الهمداني حدثنا عبدة يعني بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قول الله لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم قالت هو قول الرجل لا والله وبلى والله وحدثنا أبي حدثنا

بوصالح كاتب الليث حدثني ابن لهيعة عن أبي الاسود عن عروة قال كانت عائشة تقول انما اللغو في المزاحة والهزل وهو قول الرجل لا والله وبلى والله فذلك لا كفارة فيه انما الكفارة فيما عقد عليه قلبه ان يفعله ثم لا يفعله ثم قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عمر وابن عباس في أحد قوليه والشعبي وعكرمة في أحد قوليه وعروة بن الزبير وأبي صالح والضحاك في أحد قوليه وأبي قلابة والزهري نحو ذلك الوجه الثاني قرئ على يونس بن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني الثقة عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة انها كانت تتاول هذه الآية يعني قوله لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم وتقول هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه الا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه ثم قال وروى عن أبي هريرة وابن عباس في أحد قوليه وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد في أحد قوليه وابراهيم النخعي في أحد قوليه والحسن وزرارة بن أوفى وأبي مالك وعطاء الخراساني وبكر بن عبد الله وأحد قولي عكرمة وحبيب ابن أبي ثابت والسدي ومكحول ومقاتل وطاوس وقتادة والربيع ابن أنس ويحيى بن سعيد وربيعة نحو ذلك وقال ابن جرير حدثنا محمد ابن موسى الجرشي حدثنا عبد الله ابن ميمون المرادي حدثنا عوف الاعرابي عن الحسن بن أبي الحسن قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم ينتضلون يعني يرمون ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أصحابه فقام رجل من القوم فقال أصبت والله وأخطأت والله فقال الذي مع النبي صلى الله عليه وسلم للنبي صلى الله عليه وسلم حنث الرجل يا رسول الله قال كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة هذا مرسل حسن عن الحسن وقال ابن أبي حاتم وروى عن عائشة القولان جميعا حدثنا عصام بن رواد أنبأنا آدم حدثنا شيبان عن جابر عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة قالت هو قوله لا والله وبلى والله وهو يرى انه صادق ولا يكون كذلك أقوال أخر قال عبد الرزاق عن هشيم عن مغيرة عن ابراهيم هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه وقال زيد بن أسلم هو قول الرجل أعمى الله بصري ان لم أفعل كذا وكذا أخزى الله مالي ان لم آتك غدا فهو هذا قال ابن أبي حاتم وحدثنا علي بن الحسين حدثنا مسدد بن خالد حدثنا خالد حدثنا عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال لغو اليمين ان تحلف وأنت غضبان وأخبرني أبي حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد بن بشير حدثني أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لغو اليمين ان تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة وكذا روى عن سعيد بن جبير وقال أبو داود وباب اليمين في الغضب حدثنا محمد بن المنهال أنبأنا يزيد بن زريع حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب عن سعيد بن المسيب ان أخوين من الانصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال ان عدت تسألني

الجاهلية (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا) أمرهم بان يذكروا نعمة الله عليهم لان الشكر على النعمة أبلغ من الشكر على أثره وبين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام وهو انهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا فأصبحوا بسبب هذه النعمة اخوانا في الدين والولاية ومعنى أصبحتم صرتم وليس المراد به معناه الاصلي وهو الدخول في وقت الصباح وعن ابن جريج في الآية قال ما كان بين الاوس والخزرج في شأن عائشة قال ابن عباس كانت الحرب بين الاوس والخزرج عشرين ومائة سنة حتى قام الاسلام وأطفأ الله ذلك وألف بينهم (وكنتم) يا معشر الاوس والخزرج (على شفا) طرف (حفرة من النار) يعني ليس بينكم وبين الوقوع في النار الا ان تموتوا على كفركم ففي الكلام تشبيه وشفا كل شيء حرفه وهو مقصور من ذوات الواو وجمعه أشفاء ويثنى بالواو نحو شفوان ويستعمل مضافا الى أعلا الشيء وأسفله فمن الاول شفا جرف ومن الثاني هذه الآية وأشفى على كذا أي قاربه ومنه أشفى المريض على الموت قال يعقوب يقال للرجل عند موته وللقمر عند انمحاقه وللشمس عند غروبها ما بقي منه أو منها الا شفا أي الاقليل (فانقذكم منها) أي من هذه الحفرة بالاسلام وهو تمثيل للحالة التي كانوا عليها في الجاهلية قال السدي يقول كنتم على طرف النار من مات منكم وقع في النار فبعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم واستنقذكم به من تلك الحفرة وقيل منها أي من الشفا لانه المحدث عنه وتأنيث الضمير لاكتساب المضاف التأنيث من المضاف اليه (كذلك) اشارة الى مصدر الفعل الذي بعده أي مثل ذلك البيان البليغ (يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) ارشادا لهم الى الثبات على الهدى والازدياد منه (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير) كلمة من للتبعيض وقيل لبيان الجنس وقيل للتبيين وقيل زائدة ورجح القرطبي الاول بان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمرون به معروفا

القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة فقال له عمران الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل ولا في قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك وقوله ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم انه كاذب قال مجاهد وغيره وهي كقوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان الآية والله غفور حليم أي غفور لعباده حليم عليهم (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاؤا فان الله غفور رحيم وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم) الايلاء الحلف فاذا حلف الرجل ان لا يجامع زوجته مدة فلا يخلو اما ان يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها فان كانت أقل فله ان ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته وعليها ان تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة وهذا كما ثبت (٨٨) في الصحيحين عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه شهرا فنزل لتسع وعشرين وقال الشهر يكون تسعا وعشرون ولهذا عن عمر بن الخطاب نحوه فاما ان زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر اما ان يفيء أي يجامع واما ان يطلق فيجبره الحاكم على هذا لهذا لئلا يضر بها ولهذا قال تعالى للذين يؤلون من نسائهم أي يحلفون على ترك الجماع من نسائهم فيه دلالة على ان الايلاء يختص بالزوجات دون الاماء كما هو مذهب الجمهور تربص أربعة أشهر أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق ولهذا قال فان فاؤا أي رجعوا الى ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع قاله ابن عباس ومسروق والشعبي وسعيد بن جبير وغير واحد ومنهم ابن جرير رحمه الله فان الله غفور رحيم لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين وقوله فان فاؤا فان الله غفور رحيم فيه دلالة لاحد قولي العلماء فهو القديم عن الشافعي ان المولي اذا فاء بعد الحرورية

وما ينهون عنه منكرا وقد عيبهم الله سبحانه بقوله الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة الآية وروى ابن مردويه عن أبي جعفر الباقر عنه صلى الله عليه وآله وسلم الخير اتباع القرآن وسنتي وعن أبي العالية قال كل آية ذكرها الله في القرآن في الامر بالمعروف فهو الاسلام والنهي عن المنكر فهو عبادة الاوثان والشيطان انتهى وهو تخصيص بغير مخصص فليس في لغة العرب ولا في عرف الشرع ما يدل على ذلك وقال مقاتل بن حيان يدعون الى الاسلام ويأمرون بطاعة ربهم وينهون عن معصية ربهم وعن الضحاك في الآية قال هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وهم الرواة انتهى ولا أدري ما وجه هذا التخصيص فالخطاب في هذه الآية كالخطاب بسائر الامور التي شرعها الله لعباده وكلفهم بها وفي الآية دليل على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة وأصل عظيم من أصولها وركن مشيد من أركانها وبه يكمل نظامها وترتفع سنامها (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) هذا من باب عطف الخاص على العام اظهارا لشرفهما وانهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله به عباده بالدعاء اليه كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة وحذف متعلق الافعال الثلاثة أي يدعون ويأمرون وينهون لقصد التعميم أي كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك والمعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه والمنكر ضد ذلك وهو ما عرف بالعقل والشرع قبحه (وأولئك) اشارة الى الامة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها (هم المفلحون) أي المختصون بالفلاح الكاملون فيه الفائزون وتعريف المفلحين للعهد أو للحقيقة التي يعرفها كل أحد (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) هم اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين فقد تفرق كل منهما فرقا واختلف كل منهما باستخراج التأويلات الزائغة وكتم الآيات النافعة وتحريفها لما أخلدوا اليه من حطام الدنيا وقيل هم المبتدعة من هذه الامة وقيل

الاربعة الاشهر انه لا كفارة عليه ويعتضد بما تقدم في الحديث عند الآية التي قبلها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فاتركها كفارتها كما رواه احمد وابو داود والترمذي والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي ان عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف كما تقدم أيضا في الاحاديث الصحاح والله اعلم وقوله وان عزموا الطلاق فيه دلالة على ان الطلاق لا يقع بمجرد مضي الاربعة اشهر كقول الجمهور من المتأخرين وذهب آخرون الى انه يقع بمضي اربعة اشهر تطليقة وهو مروي بأسانيد صحيحة عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه يقول ابن سيرين ومسروق والقاسم وسالم والحسن وابو سلمة وقتادة وشريح القاضي وقبيصة بن ذؤيب وعطاء

وابو سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن طرخان التيمي وابراهيم النخعي والربيع بن انس والسدى ثم قيل انها تطلق بمضى الاربعة أشهر طلقة رجعية قاله سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام ومكحول وربيعة والزهري ومروان بن الحكم وقيل انها تطلق طلقة بائنة روى عن علي وابن مسعود وعثمان وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه يقول عطاء وجابر بن زيد ومسروق وعكرمة والحسن وابن سيرين ومحمد بن الحنفية وابراهيم وقبيصة بن ذؤيب وأبو حنيفة والثوري والحسن بن صالح فكل من قال انها تطلق بمضى الاربعة أشهر أوجب عليها العدة الا ما روى عن ابن عباس وأبي الشعثاء انها ان كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها وهو قول الشافعي والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف فيطالب اما بهذا واما بهذا ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق وروى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر انه قال اذا آلى الرجل من امرأته (٨٩) لم يقع عليه طلاق وان مضت أربعة أشهر حتى يوقف فاما أن يطلق واما أن يفيء وأخرجه البخاري وقال الشافعي رحمه الله أخبرنا سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار قال أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يوقف المولى قال الشافعي وأقل ذلك ثلاثة عشر ورواه الشافعي عن علي رضي الله عنه انه يوقف المولى ثم قال وهكذا نقول وهو موافق كما رويناه عن عمر وابن عمر وعائشة وعثمان بن زيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هكذا قال الشافعي رحمه الله قال ابن جرير حدثنا ابن مريم حدثنا يحيى حدثنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه قال سألت اثني عشر رجلا من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته فكلهم يقول ليس عليه شيء

الحرورية والظاهر الاول قيل وهذا النهي عن التفرق والاختلاف يختص بالمسائل الاصولية وأما المسائل الفروعية الاجتهادية فالاختلاف فيها جائز ومازال الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم مختلفين في أحكام الحوادث وفيه نظر فانه مازال في تلك العصور المنكر للاختلاف موجودا وتخصيص بعض المسائل بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر ليس بصواب فالمسائل الشرعية متساوية الاقدام في انتسابها الى الشرع أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية مرفوعا نحوه وزاد كلها في النار الا واحدة وهي الجماعة وأخرج الحاكم عن ابن عمر مرفوعا ونحوه أيضا وزاد كلها في النار الا ملة واحدة فقيل له ما الواحدة قال ما أنا عليه اليوم وأصحابي وأخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك مرفوعا نحوه وفيه فواحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار قيل يا رسول الله فمن هم قال الجماعة وأخرجه أحمد من حديث أنس وفيه قيل يا رسول الله من تلك الفرقة قال الجماعة وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الامر بالكون في الجماعة والنهي عن الفرقة (من بعد ما جاءهم البينات) يعني الحجج الواضحات المبينات للحق الموجبات لعدم الاختلاف والفرقة فعلموها ثم خالفوها ولم يقل جاءتهم لجواز حذف علامة التأنيث من الفعل في التقديم تشبيها بعلامة التثنية والجمع (وأولئك لهم) أي لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا (عذاب عظيم) في الآخرة وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والاختلاف عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه أخرجه أبو داود وعن عمر بن الخطاب ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من سره ان يسكن بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة

(١٢ - فتح البيان ني) حتى يمضي الاربعة عشر فيوقف فان فاء والا طلق ورواه الدارقطني من طريق سهيل (قلت) وهو يروى عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عباس وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وطاوس ومحمد بن كعب والقاسم وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم رحمهم الله وهو اختيار ابن جرير أيضا وهو قول الليث واسحق بن راهويه وأبي عبيد وأبي ثور وداود وكل هؤلاء قالوا ان لم يف ألزم بالطلاق فان لم يطلق طلق عليه الحاكم والطلقة تكون رجعية له رجعتها في العدة وانفرد مالك بان قال لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة وهذا غريب جدا وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر الاثر الذي رواه الامام مالك بن أنس رحمه الله في الموطا عن عبد الله ابن دينار قال خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول تطاول هذا الليل واسود جانبه * وأرقني الا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله انى أراقبه * لحرك من هذا السرير جوانبه فسأل عمر ابنته حفصة رضى الله عنها كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها فقالت ستة أشهر أو أربعة أشهر فقال عمر لا أحبس أحدا من الجيوش أكثر من ذلك وقال محمد بن اسحق عن السائب ابن جبير مولى ابن عباس وكان قد أدرك أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال مازلت أسمع حديث عمر انه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة وكان يفعل ذلك كثيرا اذ مر بامرأة من نساء العرب مغلقة بابها تقول

تطاول هذا الليل وازور جانبه * وأرقنى الا ضجيع ألاعبه ألا عبه طورا وطورا كانما * بداقرا فى ظلمة الليل حاجبه

يسر به من كان يلهو بقربه * لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه فوالله لولا الله لا شئ غيره * لنقض من هذا السرير جوانبه

ولكننى أخشى رقيبا موكلا * بانفاسنا لا يفتر الدهر كاتبه (٩٠) مخافة ربى والحياء يصدنى * واكرام بعلى ان تنال مراكبه

ثم ذكر بقية ذلك كما تقدم أو نحوه وقد روى هذا من طرق وهو من المشهورات (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان أرادوا اصلاحا ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم) هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الاقراء بان يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء أى بان تمكث احداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج ان شاءت وقد أخرج الائمة الاربعة من هذا العموم الامة اذا طلقت فانها تعتد عندهم بقرأين لانها على النصف من الحرة والقرء لا يتبعض فيكمل لها قرآن ولما رواه ابن جرير عن مظاهر بن أسلم المخزومى المدنى عن القاسم عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال طلاق الامة تطليقتان وعدتها حيضتان رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ولكن مظاهر هذا ضعيف بالكلية وقال الحافظ الدارقطنى وغيره الصحيح انه من قول القاسم بن محمد نفسه ورواه ابن ماجه من طريق عطية العوفى عن ابن عمر مرفوعا قال الدارقطنى والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر قوله وهكذا روى عن عمر بن الخطاب قالوا ولم يعرف بين الصحابة خلاف وقال بعض السلف بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية ولان هذا أمر جبلى فكان الحرائر والاماء فى هذا سواء حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن محمد ابن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو اليمان حدثنا اسمعيل يعنى ابن عياش عن عمرو بن مهاجر عن أبيه ان أسماء بنت يزيد بن السكن الانصارية قالت طلقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن

فان الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد رواه البغوى بسنده (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) أى اذكر يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودة ويقال ان ذلك عند قراءة الكتاب اذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسناته فاستبشر وابيض وجهه واذا قرأ الكافر كتابه رأى سيآته فحزن واسود وجهه والتنكير فى وجوه للتكثير أى وجوه كثيرة عن ابن عباس قال تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والضلالة وروى نحوه عن ابن عمر وأبى سعيد قيل ان البياض كناية عن الفرح والسرور والسواد كناية عن الغم والحزن وقيل هما حقيقة تحصلان فى الوجه (فاما الذين اسودت وجوههم) تفصيل لاحوال الفريقين بعد الاشارة اليها اجمالا وتقديم بيان حال الكفار لما ان المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع مافيه من الجمع بين الاجمال والتفصيل والافضاء الى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدأ بذلك عند الاجمال ففى الآية حسن ابتداء وحسن اختتام قيل هم أهل الكتاب وقيل المرتدون وقيل المبتدعون وقيل الكافرون فيلقون فى النار ويقال لهم (أكفرتم) الهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم (بعد ايمانكم) قال أبو السعود والظاهر ان المخاطبين بهذا القول أهل الكتابين وكفرهم بعد ايمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ايمان أسلافهم أو ايمان أنفسهم به قبل مبعثه أو جميع الكفرة حيث كفروا بعد ما أقروا بالتوحيد يوم أخذ الميثاق فى عالم الذر وبعد ما تمكنوا من الايمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة انتهى وقال الحسن هم المنافقون وقال عكرمة هم أهل الكتاب آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل مبعثه ثم كفروا به وقيل الذين ارتدوا من أبى بكر (فذوقوا العذاب) أمر اهانة وهو من باب الاستعارة ففى فذوقوا استعارة تبعية تخييلية وفى العذاب استعارة مكنية حيث شبه العذاب بشئ يدرك بحاسة الاكل والذوق تصويرا بصورة ما يذاق وأثبت له الذوق تخييلا قاله الكرخى (بما كنتم تكفرون)

للمطلقة عدة فانزل الله عز وجل حين طلقت أسماء العدة للطلاق فكانت اول من نزلت فيها العدة للطلاق يعني والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقد اختلف السلف والخلف والائمة في المراد بالاقراء ماهو على قولين أحدهما أن المراد بها الاطهار وقال مالك في الموطا عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة انها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة فذكرت ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن فقالت صدق عروة وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا ان الله تعالى يقول في كتابه ثلاثة قروء فقالت عائشة صدقتم وتدرون ما الاقراء انما الاقراء الاطهار وقال مالك عن ابن شهاب سمعت ابا بكر بن عبد الرحمن يقول ما أدركت أحدا من فقهائنا الا وهو يقول ذلك يريد قول عائشة وقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر انه كان يقول اذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم (٩١) من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها قال مالك وهو الامر عندنا وروى مثله عن ابن عباس وزيد ابن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار وأبي بكر بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعي وغير واحد وداود وأبي ثور وهو رواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن أي في الاطهار ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسبا دل على انه أحد الاقراء الثلاثة المأمور بها ولهذا قال هؤلاء ان المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوما ولحظتان واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر وهو الاعشى

فمضى لكل عام أنت جاشم غزوة * تشد لاقصاها عزيم عزائكا
مورثة مالا وفي الاصل رفعة * لما ضاع فيها من قروء نسائكا

يمدح أميرا من أمراء العرب اثر الغزو على المقام حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها والقول الثاني ان المراد بالاقراء الحيض فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة زاد آخرون وتغتسل منها وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوما ولحظة قال الثوري عن منصور عن ابراهيم عن علقمة قال كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاءته امرأة فقالت ان زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين فجاءني وقد نزعت ثيابي وأغلقت بابي فقال عمر لعبد الله بن مسعود أراها امرأته ما دون ان تحل لها الصلاة قال وأنا أرى ذلك وهكذا روى عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ وأبي بن كعب وأبي موسى الاشعري وابن عباس وسعيد بن المسيب وعلقمة والاسود وابراهيم ومجاهد وعطاء

تكفرون) صريح في ان نفس الذوق معلل بذلك فهو مسبب عنه بخلاف دخول الجنة الآتي فلم يذكر له سبب اشارة الى انه بمحض فضل الله (وأما الذين ابيضت وجوههم) يعني المؤمنين المطيعين لله عز وجل (ففي رحمة الله) أي فهم مستقرون في جنته وادار كرامته عبر عن ذلك بالرحمة اشارة الى ان العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة بل لابد من الرحمة ومنه حديث لن يدخل أحدا الجنة بعمله وهو في الصحيح (هم فيها خالدون) جملة استئنافية بيانية كأنه قيل فما حالهم فيها عن أبي بن كعب قال صاروا فرقتين يوم القيامة يقال لمن اسود وجهه أكفرتم بعد ايمانكم فهو الايمان الذي كان في صلب آدم حيث كانوا أمة واحدة وأما الذين ابيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على ايمانهم وأخلصوا له الدين فبيض الله وجوههم وأدخلهم في رضوانه وجنته وقد روى غير ذلك (تلك آيات الله) أي القرآن المشتمل على نعيم الابرار وتعذيب الكفار أو التي تقدمت (نتلوها عليك) يا محمد متلبسة (بالحق) وهو العدل جملة حالية (وما الله يريد ظلما للعالمين) جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها وفي توجه النفي الى الارادة الواقعة على النكرة دليل على انه سبحانه لا يريد فردا من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم فضلا ان يفعله وفاعله محذوف أي ظلما للعالمين وأما ظلم بعضهم بعضا فواقع كثيرا وكل واقع فهو بارادته واللام في للعالمين زائدة لا تعلق لها بشئ (ولله) وحده (ما في السموات وما في الارض) أي مخلوقا له سبحانه يتصرف فيها كيف يشاء وعلى ما يريد وعبر بما تغليبا لغير العقلاء على العقلاء لكثرتها أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم اظهارا لحقارتهم في بيان مقام عظمته تعالى قال المهدوي وجه اتصال هذا بما قبله انه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وانه لا يريد ظلما للعالمين وصله بذكر اتساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما في السموات والارض في قبضته وقيل هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بان جميع ما في السموات والارض له ملكا وخلقا وعبيدا حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره (وإلى الله) أي الى حكمه وقضائه لا الى غيره

وطاوس وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة والشعبي والربيع ومقاتل بن حيان والسدي ومكحول والضحاك وعطاء الخراساني انهم قالوا الاقراء الحيض وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه وأصح الروايتين عن الامام أحمد بن حنبل وحكي عنه الاثرم انه قال الاكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون الاقراء الحيض وهو مذهب الثوري والاوزاعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة والحسن بن صالح بن حي وأبي عبيد واسحق بن راهويه ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي من طريق المنذر بن المغيرة عن عروة بن الزبير عن فاطمة بنت أبي حبيش ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها دعي الصلاة أيام اقرائك فهذا الوضع لكان صريحا في ان القرء هو الحيض ولكن المنذر هذا قال فيه أبو حاتم مجهول ليس بمشهور وذكره ابن حبان في الثقات وقال ابن جرير أصل القرء في كلام العرب الوقت لمجيء الشئ المعتاد مجيئه في وقت معلوم ولادبار الشئ المعتاد ادباره لوقت معلوم وهذه العبارة تقتضي ان يكون مشتركا بين هذا وهذا وقد ذهب اليه بعض الاصوليين والله أعلم وهذا قول الاصمعي ان القرء هو الوقت وقال أبو عمر بن العلاء العرب تسمي الحيض قرأ وتسمي الطهر قرأ وتسمي الطهر والحيض جميعا قرأ وقال الشيخ أبو عمر ابن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء ان القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر وانما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين وقوله ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله في أرحامهن أي من حبل أو حيض قاله ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي والحكم بن عيينة والربيع بن أنس والضحاك وغير واحد وقوله ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر تهديد لهن على خلاف الحق ودل هذا على ان المرجع في هذا اليهن لانه أمر لا يعلم الا من جهتهن ويتعذر اقامة البينة غالبا على ذلك فرد الامر اليهن وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق اما استعجالا منها لانقضاء العدة أو رغبة منها في تطويلها لمالها في ذلك من المقاصد فأمرت ان تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان وقوله وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا اصلاحا أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها اذا كان مراده بردها الاصلاح والخير وهذا في الرجعيات فاما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن وانما كان ذلك لما حصروا في الطلاق الثلاث فاما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وان طلقها مائة مرة فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات صار للناس مطلقة بائن وغير بائن واذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الاصوليين من استشهادهم على مسئلة عود الضمير هل يكون مخصصا

لاشركة ولا استقلالا (ترجع) أي تصير (الامور) أي أمورهم (كنتم خير أمة) هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الامة في الفضل على غيرها من الامم سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة الى الخير وكان قيل هي التامة أي وجدتم وخلقتم خير أمة ومنه قوله تعالى كيف نكلم من كان في المهد صبيا وقوله واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وقيل ناقصة قال الاخفش يريد أهل ملة أي خير أهل دين وقيل معناه كنتم في اللوح المحفوظ وقيل كنتم منذ آمنتم وقيل كنتم في علم الله خير أمة وقيل كنتم مذكورين في الامم الماضية بانكم خير أمة وقيل كنتم بمعنى أنتم وقيل يقال لهم عند دخول الجنة كنتم خير أمة وقيل المعنى صرتم خير أمة وفيه دليل على ان هذه الامة الاسلامية خير الامم على الاطلاق وان هذه الخيرية مشتركة بين أول هذه الامة وآخرها بالنسبة الى غيرها من الامم وان كانت متفاضلة في ذات بينها كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم (أخرجت) أي أظهرت (للناس) أي لنفعهم ومصالحهم في جميع الاعصار حتى تميزت وعرفت (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة مع ما يشتمل عليه من انهم خير أمة ما أقاموا على ذلك واتصفوا به فاذا تركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك ولهذا قال مجاهد انهم خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية وهذا يقتضي ان يكون تأمرون وما بعده في محل النصب على الحال أي كنتم خير أمة حال كونكم آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ومؤمنين بالله وبما يجب عليكم الايمان به من كتابه ورسوله وما شرعه لعباده فانه لا يتم الايمان بالله سبحانه الا بالايمان بهذه الامور قال ابن عباس في الآية هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال عمر بن الخطاب لو شاء الله لقال أنتم فكنا ولكن قال كنتم في خاصة أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن صنعهم مثل صنعهم كانوا خير أمة وفي لفظ عنه يكون لاولنا ولا يكون لآخرنا وأيضا قال يا أيها

لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة فان التمثيل بها غير مطلق لما ذكروه والله أعلم وقوله ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن فليؤد كل واحد منهما الى الآخر ما يجب عليه بالمعروف كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته في حجة الوداع فاتقوا الله في النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فان فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف وفي حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده انه قال يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا قال ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر الا في البيت وقال وكيع عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عباس قال اني لاحب أن أتزين (٩٣) للمرأة كما أحب ان تتزين لي المرأة لان الله يقول ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقوله وللرجال عليهن درجة أي في الفضيلة في الخلق والخلق والمنزلة وطاعة الامر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة كما قال تعالى الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم وقوله والله عزيز حكيم أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره حكيم في أمره وشرعه وقدره (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيأ الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الامر في ابتداء الاسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وان طلقها مائة مرة ما دامت في العدة فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله الى ثلاث طلقات وأباح الرجعة في المرة والثنتين وأبانها بالكلمة في الثالثة فقال الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان قال أبو داود رحمه الله في سننه باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث حدثنا أحمد بن محمد المروزي حدثني علي بن حسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن الآية وذلك أن الرجل كان اذا طلق امرأته فهو احق برجعتها وان طلقها ثلاثا فنسخ ذلك فقال الطلاق مرتان الآية ورواه النسائي عن زكريا بن يحيى عن اسحق بن ابراهيم عن علي بن الحسين به وقال ابن أبي حاتم حدثنا

الناس من سره ان يكون من تلك الامة فليؤد شرط الله منها وقال عكرمة نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وقال أبو هريرة خير الناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الاسلام أخرجه البخاري وغيره وعن معاوية بن حيدة انه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الآية انكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها رواه الترمذي وحسنه وأحمد وابن ماجه والحاكم وصححه والطبراني وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وروى من حديث معاذ وأبي سعيد نحوه وقد وردت أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما انه يدخل من هذه الامة الجنة سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب وهذا من فوائد كونها خير الامم (ولو آمن أهل الكتاب) أي اليهود والنصارى ايمانا كايمان المسلمين بالله ورسله وكتبه (لكان خيرا لهم) من الرياسة التي هم عليها وقيل من الكفر الذي هم عليه ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل قالوا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض وانما حملهم على ذلك حب الرياسة واستتباع العوام فالخيرية انما هي باعتبار زعمهم وفيه ضرب تهكم بهم ولم يتعرض للمؤمن به اشعارا بشهرته قاله أبو السعود وقال الكرخي لكان هذا الايمان خيرا لهم من الايمان بموسى وعيسى فقط وحينئذ فافعل التفضيل على بابه أو هو لبيان ان الايمان فاضل كما في قوله تعالى أفمن يلقى في النار خير ثم بين حال أهل الكتاب بقوله (منهم المؤمنون) وهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم فانهم آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل من قبله كابن سلام وأصحابه من اليهود والنجاشي وأصحابه من النصارى (وأكثرهم الفاسقون) أي الخارجون عن طريق الحق المتمردون في باطلهم المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولما جاء به فيكون هذا التفصيل على هذا كلاما مستأنفا جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل هل منهم من آمن واستحق ما وعده الله وعبر عن كفرهم بالفسق اشارة الى انهم فسقوا في دينهم أيضا فليسوا عدولا فيه فخرجوا عن الاسلام وعن دينهم (لن يضروكم) أي اليهود

هرون بن اسحق حدثنا عبدة يعني بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا قال لامرأته لأطلقنك أبدا ولا آويك أبدا قالت وكيف ذلك قال أطلق حتى اذا دنا أجلك راجعتك فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل الطلاق مرتان وهكذا رواه ابن جرير في تفسيره من طريق جرير بن عبد الحميد وابن ادريس ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن جعفر بن عون كلهم عن هشام عن أبيه قال كان الرجل أحق برجعة امرأته وان طلقها ما شاء ما دامت في العدة وان رجلا من الانصار غضب على امرأته فقال والله لا آويك ولا أفارقك قالت وكيف ذلك قال أطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك ثم أطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل الطلاق مرتان قال فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق وقد رواه (٩٤) أبو بكر بن مردويه من طريق محمد بن سليمان عن يعلى بن شبيب مولى الزبير عن هشام عن أبيه عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم ورواه الترمذي عن قتيبة عن يعلى بن شبيب به ثم رواه عن أبي كريب عن ابن ادريس عن هشام عن أبيه مرسلا وقال هذا أصح ورواه الحاكم في مستدركه من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب عن يعلى ابن شبيب به وقال صحيح الاسناد ثم قال ابن مردويه حدثنا محمد ابن أحمد بن ابراهيم حدثنا اسمعيل بن عبد الله حدثنا محمد ابن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت لم يكن للطلاق وقت يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها مالم تنقض العدة وكان بين رجل من الانصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس فقال والله لا تركنك لا أيما ولا ذات زوج فجعل يطلقها حتى اذا كادت العدة ان تنقضي راجعها ففعل ذلك مرارا فأنزل الله عز وجل فيه الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان فوقت الطلاق والاستحقاق ثلاثا لا رجعة فيه بعد الثلاثة حتى تنكح زوجا غيره وهكذا روى عن قتادة مرسلا ذكره السدي وابن زيد وابن جرير كذلك واختار ان هذا تفسير هذه الآية وقوله فامساك بمعروف أو تسريح باحسان أي اذا طلقها واحدة أو اثنتين فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين ان ترددها اليك ناويا الاصلاح بها والاحسان اليها وبين ان تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك وتطلق سراحها محسنا اليها لا تظلمها من حقها شيأ ولا تضارها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال اذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله في ذلك أي في الثالثة فاما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها أو يسرحها باحسان فلا يظلمها من حقها شيأ وقال ابن أبي حاتم أخبرنا يونس بن عبد الاعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرني سفيان الثوري حدثني اسمعيل بن أبي سميع قال سمعت ابا

يا معشر المسلمين بنوع من أنواع الضرر (الا) بنوع (أذى) وهو الكذب والتحريف والبهت ولا يقدرون على الضرر الذي هو الضرر في الحقيقة بالحرب والنهب ونحوهما فالاستثناء مفرغ قال الحسن تسمعون منهم كذبا على الله يدعونكم الى الضلالة وهذا وعد من الله لرسوله وللمؤمنين ان أهل الكتاب لا يغلبونهم وانهم منصورون عليهم وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لن يضروكم البتة لكن يؤذونكم يعني باللسان من طعنهم في دينكم أو تهديد أو القاء شبهة وتشكيك في القلوب وكل ذلك يوجب الاذى والغم ثم بين سبحانه ما انفاد من الضرر بقوله (وان يقاتلوكم يولوكم الادبار) أي ينهزمون ولا يقدرون على مقاومتكم فضلا عن ان يضروكم (ثم لا ينصرون) أي لا يوجد لهم نصر ولا يثبت لهم غلب في حال من الاحوال بل شأنهم الخذلان ما داموا ولكم النصر عليهم وقد وجدنا ما وعدنا سبحانه حقا فان اليهود لم يخفق لهم راية نصر ولا اجتمع لهم جيش غلب بعد نزول هذه الآية فهي من معجزات النبوة (ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا) قد تقدم في البقرة معنى هذا التركيب والمعنى صارت الذلة محيطة بهم في كل حال وعلى كل تقدير في أي مكان وجدوا كالشيء يضرب على الشيء فيلتصق به والمراد بالذلة قتلهم وسبيهم وغنمية أموالهم وقيل الذلة ضرب الجزية عليهم لانها ذلة وصغار وقيل ذل التمسك بالباطل وقيل ذلتهم انك لا ترى في اليهود ملكا قاهرا ولا رئيسا معتبرا بل هم مستضعفون بين المسلمين والنصارى في جميع البلاد (الا) ان يعتصموا (بحبل من الله) قاله الفراء أي بذمة الله أو بكتابه قال الزجاج هو استثناء منقطع وقيل هو استثناء مفرغ من الاحوال العامة قال الزمخشري هو استثناء من أعم الاحوال والمعنى ضربت عليهم الذلة في عامة الاحوال الا في حال اعتصامهم بحبل من الله انتهى أي بعهد من الله وهو ان يسلموا فتزول عنهم الذلة (وحبل) أي بذمة (من الناس) وهم المسلمون ببذل الجزية وقيل المراد بالناس النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة (وباؤا) رجعوا وقيل احتملوا وأصل معناه في اللغة اللزوم

رزين يقول جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أرأيت قول الله عز وجل فامساك بمعروف أو تسريح باحسان أين الثالثة قال التسريح باحسان ورواه عبد بن حميد في تفسيره ولفظه اخبرنا يزيد بن أبي حكيم عن سفيان عن اسمعيل بن أبي سميع أن أبا رزين الاسدي يقول قال رجل يارسول الله أرأيت قول الله الطلاق مرتان فأين الثالثة قال التسريح باحسان الثالثة ورواه الامام أحمد أيضا وهكذا رواه سعيد بن منصور عن خالد بن عبد الله عن اسمعيل بن زكريا وأبي معاوية عن اسمعيل بن سميع عن أبي رزين به وكذا رواه ابن مردويه أيضا من طريق قيس بن الربيع عن اسمعيل بن سميع عن ابي رزين به مرسلا ورواه ابن مردويه أيضا من طريق عبد الواحد بن زياد عن اسمعيل بن سميع عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره ثم قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم حدثنا أحمد بن يحيى حدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة حدثنا ابن عائشة حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس بن مالك قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم (٩٥) فقال يارسول الله ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة قال امساك بمعروف او تسريح باحسان وقوله ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيأ أي لا يحل لكم ان تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الاصدقة أو بعضه كما قال تعالى ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة فاما ان وهبته المرأة شيأ عن طيب نفس منها فقد قال تعالى فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا واما اذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدي منه بما أعطاها ولا حرج عليها في بذلها له ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ولهذا قال تعالى ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيأ الا أن يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به الآية فاما اذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فقد قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب وحدثني يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية قالا جميعا حدثنا أيوب عن أبي قلابة عمن حدثه عن ثوبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة وهكذا رواه الترمذي عن بندار عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي به وقال حسن قال ويروى عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان ورواه بعضهم عن أيوب بهذا الاسناد ولم يرفعه وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة قال وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة وهكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن جرير من حديث حماد بن زيد به (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثني يعقوب بن ابراهيم حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث بن

والاستحقاق (بغضب) أي لزمهم غضب (من الله) وهم مستحقون له (وضربت عليهم المسكنة) أحاطت بهم من جميع الجوانب قال الحسن المسكنة هي الجزية وعن قتادة والحسن قالا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن الضحاك نحوه وقيل المعنى ان اليهودي يظهر من نفسه الفقر وان كان موسرا وهكذا حال اليهود فانهم تحت الفقر المدقع والمسكنة الشديدة الا النادر الشاذ منهم (ذلك) أي ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والغضب وقع عليهم (بانهم) أي بسبب انهم (كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء) اسناد القتل اليهم مع انه فعل أسلافهم لرضاهم به كما ان التحريف مع كونه فعل أحبارهم ينسب الى كل من يسير بسيرتهم (بغير حق) أي في اعتقادهم أيضا (ذلك) أي الكفر وقتل الانبياء (بما عصوا وكانوا يعتدون) أي بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده ومعنى الآية ان الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة والبواء بالغضب منه لكونهم كفروا بآياته وقتلوا أنبياءه بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله على الاستمرار فان الاصرار على الصغائر يفضي الى الكبائر وهي تفضي الى الكفر عن ابن جريج قال اشراكهم في عزير وعيسى والصليب (ليسوا سواء) أي هم غير مستوين بل مختلفون والجملة مستأنفة سيقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب وقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة) هو استئناف أيضا يتضمن بيان الجهة التي تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة قائمة الى قوله من الصالحين قال الاخفش التقدير من أهل الكتاب ذو أمة أي ذو طريقة حسنة وبه قال الزجاج وقيل في الكلام حذف والتقدير من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة فترك الاخرى اكتفاء بالاولى وقال الفراء التقدير ليس تستوي أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمة كافرة وقال النحاس هذا القول خطأ انتهى وعندي ان ما قاله الفراء قوي قويم وحاصله ان معنى الآية لا تستوي أمة من أهل الكتاب شأنها كذا وأمة أخرى شأنها كذا والقائمة المستقيمة العادلة من قولهم أقمت العود فقام أي

أبي ادريس عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس حرم الله عليها رائحة الجنة وقال المختلعات هن المنافقات ثم رواه ابن جرير والترمذي جميعا عن أبي كريب عن مزاحم بن داود بن علية عن أبيه عن ليث هو ابن أبي سليم عن أبي الخطاب عن أبي زرعة عن ابي ادريس عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المختلعات هن المختلفات ثم قال الترمذي غريب من هذا الوجه وليس اسناده بالقوي (حديث آخر) قال ابن جرير حدثنا أيوب حدثنا حفص بن بشر حدثنا قيس بن الربيع عن أشعث بن سوار عن الحسن عن ثابت بن يزيد عن عقبة ابن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المختلعات المنتزعات هن المنافقات غريب من هذا الوجه ضعيف (حديث آخر) قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا أيوب عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم المختلعات والمنتزعات هن المنافقات (حديث آخر) (٩٦) قال ابن ماجه حدثنا بكر بن خلف أبو بشر حدثنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى بن ثوبان عن عمه عمارة بن ثوبان عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ريح الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف انه لا يجوز الخلع الا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيأ الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله قالوا فلم يشرع الخلع الا في هذه الحالة فلا يجوز في غيرها الا بدليل والاصل عدمه وممن ذهب الى هذا ابن عباس وطاوس وابراهيم وعطاء والحسن والجمهور حتى قال مالك والاوزاعي لو أخذ منها شيأ وهو مضار لها رجب رده اليها وكان الطلاق رجعيا قال مالك وهو الامر الذي أدركت الناس عليه وذهب الشافعي رحمه الله الى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بمعنى بطريق الاولى والاحرى وهذا قول جميع أصحابه قاطبة وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستذكار له عن بكر بن عبد الله المزني انه ذهب الى أن الخلع منسوخ بقوله وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيأ ورواه ابن جرير عنه وهذا قول ضعيف ومأخذ مردود على قائله وقد ذكر ابن جرير رحمه الله ان هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول ولنذكر طرق حديثها واختلاف الفاظه قال الامام مالك في موطئه عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة انها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الانصارية انها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه قالت

استقام عن ابن عباس يقول مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه ولم تتركه كما تركه الآخرون وضيعوه وقيل قائمة على كتاب الله وحدوده وقيل قائمة في الصلاة (يتلون آيات الله) أي يقرؤن كتابه (آناء الليل) أي ساعاته وقال ابن عباس جوف الليل واحدها أنى بفتح الهمزة والنون بزنة عصا أو اني بكسر الهمزة وفتح النون بوزن معي أو أني بالفتح والسكون بوزن ظبي أو اني بوزن حمل أو انو بزنة جرو وكل واحد من هذه المفردات الخمس يطلق على الساعة من الزمان كما يؤخذ من القاموس (وهم يسجدون) ظاهره ان التلاوة كائنة منهم في حال السجود ولا يصح ذلك اذا كان المراد بهذه الامة الموصوفة في الآية هم من قد أسلم من أهل الكتاب لانه قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم النهي عن قراءة القرآن في السجود فلا بد من تأويل هذا الظاهر بان المراد بقوله وهم يسجدون وهم يصلون كما قاله الفراء والزجاج وانما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة لما فيه من الخضوع والتذلل وظاهر هذا انهم يتلون آيات الله في صلاتهم من غير تخصيص لتلك الصلاة بصلاة معينة وقيل المراد بها الصلاة بين العشائين وقيل صلاة الليل مطلقا (يؤمنون بالله) وكتبه ورسله ورأس ذلك الايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم (واليوم الآخر) والايمان به يستلزم الحذر من فعل المعاصي وهم لا يحترزون منها فلم يحصل الايمان الخالص بالله وباليوم الآخر (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) صفتان أيضا لامة أي ان هذا من شأنهم وصفتهم وظاهره يفيد انهم يأمرون وينهون على العموم وقيل المراد أمرهم باتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونهيهم عن مخالفته (ويسارعون في الخيرات) أي يبادرون بها غير متثاقلين عن تأديتها لمعرفتهم بقدر ثوابها والمسارعة مختصوصة بان يقدم ما ينبغي تقديمه والعجلة مختصوصة بان يقدم ما لا ينبغي تقديمه وان العجلة ليست مذمومة على الاطلاق قال الله تعالى وعجلت اليك رب لترضى (وأولئك) أي الامة الموصوفة بتلك الصفات (من الصالحين) أي من جملتهم وقيل من

أنا حبيبة بنت سهل فقال ماشأنك فقالت لا أنا ولا ثابت بن قيس لزوجها فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ماشاء الله ان تذكر فقالت حبيبة يارسول الله كل ما أعطاني عندي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ منها فأخذ منها وجلست في أهلها وهكذا رواه الامام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن مالك باسناده مثله ورواه أبو داود عن القعنبي عن مالك والنسائي عن محمد بن مسلمة عن ابن القاسم عن مالك حديث آخر عن عائشة قال أبو داود وابن جرير حدثنا محمد بن معمر حدثنا أبو عامر حدثنا أبو عمرو السدوسي عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة ان حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس فضربها فانكسر بعضها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الصبح فاشتكته اليه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتا فقال خذ بعض مالها وفارقها قال ويصلح ذلك يارسول الله قال نعم قال فاني أصدقتها حديقتين فهما بيدها فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذهما وفارقها ففعل وهذا لفظ ابن جرير وأبو عمرو السدوسي هو سعيد بن سلمة بن أبي الحسام حديث آخر فيه عن ابن عباس رضي الله عنه قال البخاري حدثنا أزهر بن جميل أخبرنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس ان امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكن أكره الكفر في الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتردين عليه حديقته قالت نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقبل الحديقة وطلقها تطليقة وكذا رواه النسائي عن أزهر بن جميل باسناده مثله ورواه البخاري أيضا عن اسحق الواسطي عن خالد هو ابن عبد الله

بمعنى مع وهم الصحابة والظاهر ان المراد كل صالح (وما تفعلوا من خير) أي خير كان (فلن يكفروه) أي لن تعدموا ثوابه كأنه قيل فلن تحرموه كما قاله الزمخشري بل يشكره لكم ويجازيكم به وفيه تعريض بكفرانهم نعمته وانه تعالى لا يفعل مثل فعلهم وجيء به على لفظ المبني للمفعول لتنزيهه عن اسناد الكفر اليه وقرئ بالياء التحتية في الفعلين (والله عليم بالمتقين) أي كل من ثبتت له صفة التقوى وقيل المراد من تقدم ذكره وهم الامة الموصوفة بتلك الصفات ووضع الظاهر موضع المضمر مدحا لهم ورفعا من شأنهم وفيه بشارة لهم بجزيل الثواب ودلالة على انه لا يفوز عنده الا أهل الايمان والتقوى (ان الذين كفروا) قيل هم بنو قريظة والنضير قال مقاتل لما ذكر تعالى مؤمني أهل الكتاب ذكر كفارهم في هذه الآية وقيل نزلت في مشركي قريش فان أبا جهل كان كثير الافتخار بالاموال وأنفق أبو سفيان مالا كثيرا في يوم بدر وأحد على المشركين والظاهر ان المراد بذلك كل من كفر بما يجب الايمان به لان اللفظ عام ولا دليل يوجب التخصيص فوجب اجراء اللفظ على عمومه (لن تغني) أي لن تدفع (عنهم أموالهم) بالفدية ولو افتدوا بها من عذاب الله (ولا أولادهم) بالنصر وانما خص الاولاد لانهم أحب القرابة وأرجاهم لدفع ما ينوبهم (من الله شيأ) أي لا ينفعهم شيء من ذلك في الآخرة ولا يخلص لهم من عذاب الله وخصهما بالذكر لان الانسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالاولاد (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لا يخرجون منها ولا يفارقونها (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا) بيان لكيفية عدم اغناء أموالهم التي كانوا يعولون عليها في جلب المنافع ودفع المضار قيل أراد نفقة أبي سفيان وأصحابه ببدر وأحد في عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل أراد نفقة اليهود على علمائهم ورؤسائهم وقيل أراد نفقات جميع الكفار وصدقاتهم في الدنيا وقيل أراد نفقة المرائي الذي لا يريد بها وجه الله (كمثل ريح فيها صر) البرد الشديد وهو قول أكثر المفسرين وبه قال ابن

(١٣ - فتح البيان ني) الطحان عن خالد هو ابن مهران الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس به نحوه وهكذا رواه البخاري أيضا من طرق عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس وفي بعضها انها قالت لا أطيقه يعني بغضا وهذا الحديث من أفراد البخاري من هذا الوجه ثم قال حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة ان جميلة رضي الله عنها كذا قال والمشهور ان اسمها حبيبة كما تقدم لكن قال الامام أبو عبد الله بن بطة حدثني أبو يوسف يعقوب بن يوسف الطباخ حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثني عبد الاعلى حدثنا سعيد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس ان جميلة بنت سلول أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت والله ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ولكني أكره الكفر في الاسلام لا أطيقه بغضا فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ترديين عليه حديقته قالت نعم فأمره

النبي صلى الله عليه وسلم ان يأخذ ما ساق ولا يزداد وقد رواه ابن مردويه في تفسيره عن موسى بن هرون حدثنا أزهر بن مروان حدثنا عبد الاعلى مثله وهكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان باسناده مثله سواء وهو اسناد جيد مستقيم وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسين بن واقد عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول انها كانت تحت ثابت بن قيس فنشزت عليه فأرسل اليها النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا جميلة ما كرهت من ثابت قالت والله ما كرهت منه دينا ولا خلقا الا أني كرهت دمامته فقال لها أتردين عليه الحديقة قالت نعم فردت الحديقة وفرق بينهما وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال قرأت على فضيل عن أبي جرير انه سأل عكرمة هل كان للخلع أصل قال كان ابن عباس يقول ان أول خلع كان في الاسلام في أخت عبد الله بن أبي انها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبدا اني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة فاذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فقال زوجها يا رسول الله اني قد أعطيتها أفضل مالي حديقة لي فان ردت علي حديقتي قال ما تقولين قالت نعم وان شاء زدته قال ففرق بينهما حديث آخر قال ابن ماجه حدثنا أبو كريب حدثنا أبو خالد الاحمر عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس وكان رجلا دميما فقالت يا رسول الله والله لولا مخافة الله اذا دخل علي بصقت في وجهه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتردين عليه حديقته قالت نعم فردت عليه حديقته قال ففرق بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اختلف الائمة رحمهم الله في انه هل يجوز للرجل ان يفاديها بأكثر مما أعطاها فذهب الجمهور الى جوازذلك لعموم قوله تعالى فلا جناح عليهما فيما افتدت به وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا أيوب عن كثير مولى بن سمرة ان عمر أتى بامرأة ناشز فأمر بها الى بيت كثير الزبل ثم دعا بها فقال كيف وجدت فقالت ما وجدت راحة منذ كنت عنده الا هذه الليالي التي كنت حبستني فقال لزوجها اخلعها ولو من قرطها ورواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن كثير مولى بن سمرة فذكر مثله وزاد فحبسها فيه ثلاثة أيام وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن حميد بن عبد الرحمن ان امرأة أتت عمر بن الخطاب فشكت زوجها فأباتها في بيت الزبل فلما أصبحت قال لها كيف وجدت مكانك قالت ما كنت عنده ليلة أقر لعيني من هذه الليلة فقال خذ ولوعقاصها وقال البخاري وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل ان الربيع بنت

عباس وقتادة والسدي وابن زيد وأصله من الصر يرالذي هو الصوت فهو صوت الريح الشديد البارد وقال الزجاج الصر صوت لهب النار التي في تلك الريح وبه قال ابن الانباري من أهل اللغة وقيل هو الحر الشديد المحرق فظرفية الريح له واضحة والتشبيه على الوجهين صحيح والمقصود منه حاصل لانها سواء كان فيها برد فهي مهلكة أو حر فهي محرقة (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي (فاهلكته) أي الريح الزرع ومعنى الآية مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وقت الحاجة اليها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار حارة فاحرقته أو أهلكته فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد ان كانوا على طمع من نفعه وفائدته وعلى هذا فلا بد من تقدير في جانب المشبه به فيقال كمثل زرع أصابته ريح أو مثل اهلاك (ما ينفقون) كمثل اهلاك ريح (وما ظلمهم الله) بان لم يقبل نفقاتهم (ولكن أنفسهم يظلمون) أي بالكفر المانع من قبول النفقة التي أنفقوها وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص لان الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول وهذا في جانب المشبه وهم الكفار وقوله سابقا ظلموا أنفسهم في جانب المشبه به وهم أصحاب الزرع فلا تكرار (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) البطانة مصدر يسمى به الواحد والجمع وبطانة الرجل خاصته الذين يستبطنون أمره وأصله البطن الذي هو خلاف الظهر وبطن فلان بفلان يبطن بطونا وبطانة اذا كان خاصا به (من دونكم) أي سواكم كما قاله الفراء أي من دون المسلمين وهم الكفار أي بطانة كائنة من دونكم أي من غيركم وقدره الزمخشري من غير أبناء جنسكم وهم المسلمون وقيل من زائدة أي دونكم في العمل والايمان قال ابن عباس كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فانزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم لخوف الفتنة عليهم منهم هذه الآية وعنه قال هم المنافقون وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن أبي امامة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال هم

معوذ بن عفراء حدثته قالت كان لى زوج يقل على الخير اذا حضرنى ويحرمنى اذا غاب عنى قالت فكانت منى زلة يوما فقلت له أختلع منك بكل شئ أملكه قال نعم قالت ففعلت قالت فخاصم عمى معاذ بن عفراء الى عثمان بن عفان فأجاز الخلع وأمره ان يأخذ عقاص رأسى فما دونه أو قالت ما دون عقاص الرأس ومعنى هذا انه يجوز ان يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير ولا يترك لها سوى عقاص شعرها وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وابراهيم النخعى وقبيصة بن ذؤيب والحسن بن صالح وعثمان البتى وهذا مذهب مالك والليث والشافعى وأبو ثور واختاره ابن جرير وقال أصحاب أبى حنيفة ان كان الاضرار من قبلها جاز ان يأخذ منها ما أعطاها ولا يجوز الزيادة عليه فان ازداد جاز فى القضاء وان كان الاضرار من جهته لم يجز ان يأخذ منها شيأ فان أخذ جاز فى القضاء وقال الامام أحمد وأبو عبيد واسحق بن راهويه لا يجوز (٩٦) أن يأخذ أكثر مما أعطاها وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب والزهرى وطاوس والحسن والشعبى وحماد بن أبى سليمان والربيع بن أنس وقال معمر والحاكم كان على يقول لا يأخذ من المختلعة فوق ما اعطاها وقال الاوزاعى القضاة لا يجيزون ان يأخذ منها أكثر مما ساق اليها (قلت) ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة عن ابن عباس فى قصة ثابت بن قيس فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يأخذ منها الحديقة ولا يزداد وبما روى عبد بن حميد حيث قال أخبرنا قبيصة عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء ان النبى صلى الله عليه وسلم كره ان يأخذ منها أكثر مما أعطاها يعنى المختلعة وحملوا معنى الآية على معنى فلا جناح عليهما فيما افتدت به أى من الذى أعطاها لتقدم قوله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيأ الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به أى من ذلك وهكذا كان يقرؤها الربيع ابن أنس فلا جناح عليهما فيما افتدت به منه رواه ابن جرير ولهذا قال بعده تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون (فصل) قال الشافعى اختلف أصحابنا فى الخلع فأخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس فى رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد يتزوجها ان شاء لان الله تعالى يقول الطلاق مرتان قرأ الى أن يتراجعا قال الشافعى وأخبرنا سفيان عن عمرو عن عكرمة قال كل شئ أجازه المال فليس بطلاق وروى غير الشافعى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس ان ابراهيم بن سعد بن أبى وقاص سأله فقال رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها قال نعم ليس الخلع بطلاق ذكر الله الطلاق فى أول الآية وآخرها والخلع فيما بين ذلك فليس الخلع بشئ ثم قرأ الطلاق مرتان فامساك

هم الخوارج قال السيوطى وسنده جيد وقيل المراد بهذه جميع أصناف الكفار وهو الاولى ويدخل فيه من هو سبب النزول دخولا أوليا (لا يألونكم خبالا) مستأنفة مبينة لحالهم داعية الى الاجتناب عنهم أو صفة لبطانة أى لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد يقال لا ألوك جهدا أى لا أقصر والمراد لا يمنعونكم خبالا والخبال والخبل الفساد فى الافعال والابدان والعقول (ودوا ما عنتم) أى ما يشق عليكم من الضرر والشر والهلاك والعنت المشقة وشدة الضرر قال الراغب هنا المعاندة والمعانتة متقاربان لكن المعاندة هى الممانعة والمعانتة هى ان يتحرى مع الممانعة المشقة والجملة مستأنفة مؤكدة للنهى (قد بدت البغضاء) هى شدة البغض كالضراء لشدة الضر (من أفواههم) الافواه جمع فم والمعنى انها قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لانهم لما خامرهم من شدة البغض والحسد أظهرت ألسنتهم ما فى صدورهم فتركوا التقية وصرحوا بالتكذيب أما اليهود فالامر فى ذلك واضح وأما المنافقون فكان يظهر من فلتات ألسنتهم ما يكشف عن خبث طويتهم وهذه الجملة مستأنفة لبيان حالهم (وما تخفى صدورهم) من العداوة والغيظ (أكبر) مما يظهرونه لان فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور بل تلك الفلتات بالنسبة الى ما فى الصدور قليلة جدا ثم انه سبحانه امتن عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الاخلاص ان كانوا من أهل العقول المدركة لذلك البيان فقال (قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) أى تتعظون به (ها أنتم أولاء) الخاطئون فى موالاتهم ثم بين خطأهم بتلك الموالاة بهذه الجملة التذييلية فقال (تحبونهم ولا يحبونكم) قيل تحبونهم لما أظهروا لكم الايمان أو لما بينكم وبينهم من القرابة ولا يحبونكم لما قد استحكم فى صدورهم من الغيظ والحسد (وتؤمنون بالكتاب كله) أى جنس الكتاب جميعا أى لا يحبونكم والحال انكم تؤمنون بكتب الله سبحانه التى من جملتها كتابهم فما بالكم تحبونهم ولا يؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ لهم شديد لان من بيده الحق أحق بالصلابة

بمعروف أو تسريح باحسان وقرأ فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره وهذا الذى ذهب اليه ابن عباس رضى الله عنهما من ان الخلع ليس بطلاق وانما هو فسخ هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر وهو قول طاوس وعكرمة وبه يقول أحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبو ثور وداود بن على الظاهرى وهو مذهب الشافعى فى القديم وهو ظاهر الآية الكريمة والقول الثانى فى الخلع انه طلاق بائن الا ان ينوى أكثر من ذلك قال مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن جهمان مولى الاسلميين عن أم بكر الاسلمية انها اختلعت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان بن عفان فى ذلك فقال تطليقة الا أن تكون سميت شيأ فهو ما سميت قال الشافعى ولا أعرف جهمان وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الاثر والله أعلم وقد روى نحوه عن عمر وعلى وابن مسعود وابن عمر وبه يقول سعيد (١٠٠) بن المسيب والحسن وعطاء وشريح والشعبى وابراهيم وجابر بن زيد واليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثورى والاوزاعى وأبو عثمان البتى والشافعى فى الجديد غير ان الحنفية عندهم انه متى نوى الخالع بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق فهو واحدة بائنة وان نوى ثلاثا فثلاث وللشافعى قول آخر فى الخلع وهو انه متى لم يكن بلفظ الطلاق وعرى عن البينة فليس هو بشئ بالكلية *(مسئلة)* وذهب مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد واسحق بن راهويه فى رواية عنهما وهى المشهورة الى ان المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء ان كانت ممن تحيض وروى ذلك عن عمر وعلى وابن عمر وبه يقول سعيد ابن المسيب وسليمان بن يسار وعروة وسالم وأبو سلمة وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب والحسن والشعبى وابراهيم النخعى وأبو عياض وخلاس بن عمرو وقتادة وسفيان الثورى والاوزاعى والليث ابن سعد وأبو عبيد قال الترمذى وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم وممن أخذ هم فى هذا ان الخلع اهلا طلاق فتعتد كسائر المطلقات والقول الثانى انها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها قال ابن أبى شيبة حدثنا يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر أن الربيع اختلعت من زوجها فأتى عمها عثمان رضى الله عنه فقال تعتد بحيضة قال وكان ابن عمر يقول تعتد ثلاث حيض حتى قال هذا عثمان فكان ابن عمر يفتى به ويقول عثمان خيرنا وأعلمنا وحدثنا عبدة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال عدة المختلعة حيضة وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال عدتها حيضة وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول ان الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود والترمذى حيث قال كل منهما حدثنا محمد بن عبد الرحيم البغدادى حدثنا على بن يحيى أخبرنا هشام بن يوسف عن معمر عن

والشدة ممن هو على الباطل (واذا لقوكم قالوا) نفاقا وتقية (آمنا واذا خلوا عضوا عليكم) أى لاجلكم والعض الامساك بالاسنان أى تحامل الاسنان بعضها على بعض والعض كله بالضاد الا فى قولهم عظ الزمان أى اشتد وعظت الحرب أى اشتدت فانهما بالظاء أخت الطاء (الانامل) جمع أنملة وهى طرف الاصبع (من الغيظ) أى تأسفا وتحسرا حيث عجزوا عن الانتقام منكم والعرب تصف النادم والمغتاظ مجازا بعض الانامل والبنان ومن لابتداء الغاية أو بمعنى اللام أى من أجل الغيظ والغيظ مصدر غاظه يغيظه أى أغضبه والتغيظ اظهار الغيظ وقد يكون مع ذلك صوت قال تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا فاله السمين ثم أمره الله سبحانه بان يدعو عليهم فقال (قل موتوا بغيظكم) وهو دعاء يتضمن استمرار غيظهم مادام فى الحياة بتضاعف قوة الاسلام وأهله حتى يأتيهم الموت وهم عليه والباء للملابسة أى متلبسين بغيظكم (ان الله عليم بذات الصدور) أى الخواطر القائمة بها والدواعى والصوارف الموجودة فيها وهو كلام داخل تحت قوله قل فهو من جملة المقول أو مستأنفة أخبر الله بذلك لانهم كانوا يخفون غيظهم ما أمكنوا فذكر ذلك لهم على سبيل الوعيد وذات هنا تأنيث ذى بمعنى صاحبة الصدور وجعلت صاحبة لها الملازمتها لها وعدم انفكاكها عنها نحو أصحاب الجنة وأصحاب النار والمراد بها المضمرات (ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) هذه الجملة مستأنفة لبيان تناهى عداوتهم الى كل حسنة وأصل المس الجس باليد ثم يطلق على كل ما يصل الى الشئ على سبيل التشبيه كما يقال مسه نصب وتعب قاله الخازن وحسنة وسيئة تعمان كل ما يحسن وما يسوء وعبر بالمس فى الحسنة وبالاصابة فى السيئة للدلالة على ان مجرد مس الحسنة تحصل به المساءة ولا يفرحون الا باصابة السيئة وقيل ان المس مستعار لمعنى الاصابة قال مقاتل الحسنة النصر على العدو والرزق والخير ومنافع الدنيا والسيئة القتل والهزيمة والجهد والجدب ومعنى الآية ان من كانت هذه حالته لم يكن

عمرو بن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس ان امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد بحيضة ثم قال الترمذي حسن غريب وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن عمرو بن مسلم عن عكرمة مرسلا حديث آخر قال الترمذي حدثنا محمود بن غيلان حدثنا الفضل بن موسى عن سفيان حدثنا محمد بن عبد الرحمن وهو مولى آل طلحة عن سليمان بن يسار عن الربيع بنت معوذ بن عفراء انها اختلعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أو أمرت ان تعتد بحيضة قال الترمذي الصحيح انها أمرت ان تعتد بحيضة طريق أخرى قال ابن ماجه حدثنا علي بن سلمة النيسابوري حدثنا يعقوب بن ابراهيم بن سعد حدثنا أبي عن ابن اسحق أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة ابن الصامت عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال قلت لها حدثيني (١٠١) حديثك قالت اختلعت من زوجي ثم جئت عثمان فسألت عثمان ماذا علي من العدة قال لا عدة عليك الا ان يكون حديث عهد بك فتمكثين عنده حتى تحيضي حيضة قالت وانما اتبع في ذلك قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مريم المغالية وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه وقد روى ابن لهيعة عن أبي الاسود عن أبي سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن الربيع بنت معوذ قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر امرأة ثابت بن قيس حين اختلعت منه ان تعتد بحيضة * (مسئلة) * وليس للمختالع ان يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الائمة الاربعة وجمهور العلماء لانها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء وروى عن عبد الله بن أبي أوفى وماهان الحنفي وسعيد بن المسيب والزهري انهم قالوا ان رد اليها الذي أعطاها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها وهو اختيار أبي ثور رحمه الله وقال سفيان الثوري ان كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها وان كان يسمى طلاقا فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة وبه يقول داود بن علي الظاهري واتفق الجميع على ان للمختلع ان يتزوجها في العدة وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن فرقة انه لا يجوز له ذلك كما لا يجوز لغيره وهو قول شاذ مردود * (مسئلة) * وهل له ان يوقع عليها طلاقا آخر في العدة فيه ثلاثة أقوال للعلماء أحدها ليس له ذلك لانها قد ملكت نفسها وبانت منه وبه يقول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصري والشافعي وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبو ثور والثاني قال مالك ان أتبع الخلع طلاقا من غير سكوت بينهما وقع وان سكت بينهما لم يقع قال ابن عبد البر وهذا يشبه ما روي عن عثمان رضي الله عنه والثالث انه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والاوزاعي وبه يقول سعيد بن

أهلا لان يتخذ بطانة (وان تصبروا) على عداوتهم وأذاهم أو على التكاليف الشاقة (وتتقوا) الله في موالاتهم أو ما حرمه الله عليكم (لا يضركم) وقرئ بكسر الضاد وسكون الراء يقال ضاره يضيره ويضوره ضيرا بمعنى ضره يضره (كيدهم شيأ) والكيد احتيالك لتوقع غيرك في مكروه والمعنى لا يضركم شيأ من الضرر بفضل الله وحفظه (ان الله بما يعملون) من الكيد على قراءة الياء وعليها اتفق العشرة أو من الصبر والتقوى على قراءة التاء وهي شاذة للحسن البصري (محيط) أي حافظ له لا يعزب عنه شئ منه (و) اذكر (اذ غدوت من أهلك) أي من المنزل الذي فيه أهلك يعني عائشة وفيه منقبة عظيمة لها رضي الله عنها لقوله من أهلك فنص الله تعالى على انها من أهله قد ذهب الجمهور الى ان هذه الآية نزلت في غزوة أحد وقال الحسن في يوم بدر وفي رواية عنه يوم الاحزاب قال ابن جرير الطبري الاول الاصح للآية الآية وقد اتفق العلماء على ان ذلك كان يوم أحد وبه قال عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عباس والزهري وقتادة والسدي والربيع وابن اسحق وقال مجاهد ومقاتل والكلبي في غزوة الخندق (تبوئ المؤمنين) أي تنزلهم أو تهيئ وتسوي لهم (مقاعد للقتال) وأصل التبوئ اتخاذ المنزل يقال بوأته منزلا اذا أسكنته اياه ومعنى الآية واذكر اذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مراكز وأماكن يقعدون ويقفون فيها للقتال وعبر عن الخروج بالغدو الذي هو الخروج غدوة مع كونه صلى الله عليه وآله وسلم خرج بعد صلاة الجمعة لانه قد يعبر بالغدو والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما كما يقال أضحى وان لم يكن في وقت الضحى وقد ورد في كتب التاريخ والسير كيفية الاختلاف في المشورة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم أحد فمن قائل نخرج اليهم ومن قائل نبقى في المدينة فنخرج وكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومه ذلك ومعاتبة من عاتب منهم يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم واذ غدوت من أهلك أي يوم أحد

المسيب وشريح وطاوس وابراهيم والزهري والحاكم والحكم وحماد بن أبي سليمان وروى ذلك عن ابن مسعود وأبي الدرداء قال ابن عبد البر وليس ذلك بثابت عنهما وقوله تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها كما ثبت في الحديث الصحيح ان الله حد حدودا فلا تعتدوها وفرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها وقد يستدل بهذه الآية من ذهب الى ان جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم وانما السنة عندهم ان يطلق واحدة لقوله الطلاق مرتان ثم قال تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ويقوون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذي رواه النسائي في سننه حيث قال حدثنا (١٠٢) سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب عن مخرمة بن بكير عن أبيه عن محمود بن لبيد قال أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل فقال يا رسول الله ألا أقتله فيه انقطاع وقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره أي أي انه اذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين فانها تحرم عليه حتى تنكح زوجا غيره أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح فلو وطئها واطئ في غير نكاح ولو في ملك اليمين لم تحل للاول لانه ليس بزوج وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للاول واشتهر بين كثير من الفقهاء ان سعيد بن المسيب رحمه الله أنه يقول يحصل المقصود من تحليلها للاول بمجرد العقد على الثاني وفي صحته عنه نظر على ان الشيخ أبا عمر ابن عبد البر قد حكاه عنه في الاستذكار والله أعلم وقد قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن علقمة بن مرثد عن سالم بن رزين عن سالم بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أترجع الى الاول قال لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها هكذا وقع في رواية ابن جرير وقد رواه الامام أحمد فقال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد قال سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله يعني ابن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل ان يدخل بها فترجع الى زوجها الاول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تذوق العسيلة وهكذا رواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس وابن ماجه

(والله سميع) لاقوالكم (عليم) بنياتكم وما في ضمائركم (اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أي تجبنا وتضعفا عن القتال والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس وكانا جناحي العسكر يوم أحد والفشل الجبن وقيل هو في الرأي العجز وفي البدن الاعياء وعدم النهوض وفي الحرب الجبن والخور والفعل منه فشل بكسر العين من باب تعب وتفاشل الماء اذا سال والهم من الطائفتين كان بعد الخروج والمراد بالهم هنا حديث النفس والله تعالى لا يؤاخذه وبعضده قول ابن عباس انهم أضمروا ان يرجعوا لما رجع عبد الله بن أبي بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوب المؤمنين فلم يرجعوا وذلك قوله (والله وليهما) أي ناصرهما وحافظهما ومتولي أمرهما بالتوفيق والعصمة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) التوكل التفعل من وكل أمره الى غيره اذا اعتمد عليه في كفايته والقيام به وقيل التوكل هو العجز والاعتماد على الغير وقيل هو تفويض الامر الى الله ثقة بحسن تدبيره فأمرهم الله ان لا يفوضوا أمرهم الا اليه وتقديم الظرف للاختصاص ولتناسب رؤس الآي (ولقد نصركم الله ببدر) جملة مستأنفة سيقت لتصبيرهم بتذكير ما يترتب على الصبر من النصر وهو العون وبدر اسم لماء كان في موضع الوقعة وقيل هو اسم الموضع نفسه وقيل موضع بين مكة والمدينة وكانت وقعتها في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية وسيأتي سياق قصة بدر في الانفال ان شاء الله تعالى (وأنتم أذلة) جمع قلة ومعناه انهم كانوا بسبب قلتهم أذلة وهو جمع ذليل استعير للقلة اذ لم يكونوا في أنفسهم أذلة بل كانوا أعزة قال الحسن وأنتم قليل وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة وكان عدوهم من كفار قريش زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس وكان معهم السلاح والشوكة وكان المؤمنون في ضعف الحال وقلة السلاح والمركوب وقلة المال خرجوا على نواضح وكان أكثرهم رجالة ولم يكن معهم الا فرس وكان النفر منهم يتعقب على البعير الواحد وقد شرح أهل التاريخ والسير غزوة بدر وأحدا ثم شرح فلا حاجة لنا في سياق ذلك

عن محمد بن بشار بندار كلاهما عن محمد بن جعفر غندر عن شعبة به كذلك فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعا على خلاف ما يحكى عنه فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند والله أعلم وقد روى أحمد أيضا والنسائي وابن جرير هذا الحديث من طريق سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن رزين بن سليمان الاحمري عن ابن عمر قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يطلق امرأته ثلاثا فيتزوجها آخر فيغلق الباب ويرخي الستر ثم يطلقها قبل ان يدخل بها هل تحل للاول قال لا حتى تذوق العسيلة وهذا لفظ أحمد وفي رواية لاحمد سليمان بن رزين حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا محمد بن دينار حدثنا يحيى ابن يزيد الهنائي عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثا فتزوجت بعده رجلا فطلقها قبل ان يدخل بها أتحل لزوجها الاول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حتى يكون الآخر قد

ذاق من عسيلتها وذاقت من عسيلته وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن ابراهيم الانماطي عن هشام بن عبد الملك حدثنا محمد بن دينار فذكره (قلت) ومحمد بن دينار ابن صندل أبو بكر الازدي ثم الطائي البصري ويقال له ابن ابي الفرات اختلفوا فيه فمنهم من ضعفه ومنهم من قواه وقبله وحسن له وذكر أبو داود انه تغير قبل موته فالله أعلم حديث آخر قال ابن جرير حدثنا عبيد بن آدم بن أبي اياس العسقلاني حدثنا أبي حدثنا شيبان حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي الحرث الغفاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في المرأة يطلقها زوجها ثلاثا فتتزوج غيره فيطلقها قبل ان يدخل بها فيريد الاول ان يراجعها قال لا حتى يذوق الآخر عسيلتها ثم رواه من وجه آخر عن شيبان وهو ابن عبد الرحمن به وأبو الحرث غير معروف حديث آخر قال ابن جرير حدثنا يحيى عن عبيد الله حدثنا القاسم عن عائشة ان رجلا طلق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجا فطلقها قبل ان يمسها فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أتحل للاول فقال لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الاول أخرجه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن عبيد الله بن عمر العمري عن القاسم بن أبي بكر عن عمته عائشة به طريق أخرى قال ابن جرير حدثنا عبيد الله بن اسمعيل الهباري وسفيان بن وكيع وأبو هشام الرفاعي قالوا حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن ابراهيم عن الاسود عن عائشة قالت سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته فتزوجت رجلا غيره فدخل بها ثم طلقها قبل ان يواقعها أتحل لزوجها الاول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل لزوجها الاول حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته وكذا رواه أبو داود عن مسدد والنسائي عن أبي كريب كلاهما عن أبي معاوية وهو محمد بن حازم الضرير به طريق أخرى قال مسلم

ذلك ههنا (فاتقوا الله) في الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لعلكم تشكرون) ما أنعم عليكم من نصرته (اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) هذا للانكار منه صلى الله عليه وآله وسلم عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة وجيء بلن دون لا لانها أبلغ في النفي ومعنى الكفاية سد الخلة والقيام بالامر والامداد في الاصل اعطاء الشيء حالا بعد حال قال قتادة هذا كان يوم بدر أمدهم الله بالف ملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف وقيل كان هذا يوم أحد وهو قول عكرمة والضحاك ومقاتل والاول أولى وهو الراجح (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) أصل الفور القصد الى الشيء والاخذ فيه بجد وهو من قولهم فارت القدر تفور فورا اذا غلت والفور الغليان وفار غضبه اذا جاش وفعله من فوره أي قبل ان يسكن والفوارة ما يفور من القدر استعير للسرعة أي ان يأتوكم من ساعتهم هذه (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة) في حال اتيانهم لا يتأخر عن ذلك (مسومين) أي معلمين بعلامات أو معلمين أنفسهم بعلامة على المبني للمفعول أو الفاعل ورجح ابن جرير الاخير والتسويم اظهار سيما الشيء قال كثير من المفسرين مسومين أي مرسلين خيلهم في الغارة وقيل ان الملائكة اعتمت بعمائم بيض وقيل حمر وقيل خضر وقيل صفر فهذه هي العلامة التي علموا بها أنفسهم حكى ذلك عن الزجاج وقيل كانوا على خيل بلق وقيل غير ذلك وفي بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة قال ابن عباس لم تقاتل الملائكة في معركة الا يوم بدر وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون انما يكونون عددا ومددا قال الحسن هؤلاء الخمسة آلاف ردء للمؤمنين الى يوم القيامة وقد سئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة مع ان جبريل قادر على ان يدفع الكفار بريشة من جناحه وأجاب بان ذلك لارادة ان يكون الفضل للنبي وأصحابه وتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة

في صحيحه حدثنا محمد بن العلاء الهمداني حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها فتتزوج رجلا آخر فيطلقها قبل ان يدخل بها أتحل لزوجها الاول قال لا حتى يذوق عسيلتها قال مسلم وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو فضيل وحدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية جميعا عن هشام بهذا الاسناد وقد رواه البخاري من طريق أبي معاوية محمد بن حازم عن هشام به وتفرد به مسلم من الوجهين الآخرين وهكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الله بن المبارك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا بنحوه أو مثله وهذا اسناد جيد وكذا رواه ابن جرير أيضا من طريق علي بن زيد بن جدعان عن امرأة أبيه أمينة أم محمد عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله وهذا السياق مختصر من الحديث الذي رواه البخاري حدثنا عمرو بن (١٠٤) علي حدثنا يحيى عن هشام بن عروة حدثني أبي عن عائشة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم وحدثنا عثمان ابن أبي شيبة حدثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ان رفاعة القرظي تزوج امرأة ثم طلقها فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له انه لا يأتيها وانه ليس معه الا مثل هدبة الثوب فقال لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك تفرد به من هذا الوجه طريق أخرى قال الامام أحمد حدثنا عبد الاعلى عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ان رفاعة طلقني البتة وان عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وانما عنده مثل الهدبة وأخذت هدبة من جلبابها وخالد ابن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له فقال يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم على التبسم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنك تريدين ان ترجعي الى رفاعة لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك وهكذا رواه البخاري من حديث عبد الله بن المبارك ومسلم من حديث عبد الرزاق والنسائي من حديث يزيد بن زريع ثلاثتهم عن معمر به وفي حديث عبد الرزاق عند مسلم ان رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات وقد رواه الجماعة الا أبا داود من طريق سفيان بن عيينة والبخاري من طريق عقيل ومسلم من طريق يونس بن يزيد وعنده آخر ثلاث تطليقات والنسائي من طريق أيوب بن موسى ورواه صالح بن أبي الاخضر كلهم عن الزهري عن عروة عن عائشة به وقال مالك عن المسور بن رفاعة القرظي عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير ان رفاعة بن سموأل طلق امرأته تميمة بنت وهب في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا فنكحت عبد الرحمن بن الزبير فاعترض عنها فلم يستطع ان يمسها ففارقها فأراد رفاعة بن سموأل

الاسباب التي أجراها الله تعالى في عباده والله فاعل الجميع انتهى (وما جعله الله) أي الامداد أو التسويم أو الانزال ورجح الاول صاحب الكشاف (الا بشرى لكم) استثناء مفرغ من أعم العام والبشرى اسم من البشارة وهي الاخبار بما يسر (ولتطمئن قلوبكم به) أي لتسكن واللام لام كي جعل الله ذلك الامداد بشرى بالنصر وطمأنينة للقلوب وفي قصر الامداد عليهما اشارة الى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ (وما النصر الا من عند الله) لا من عند غيره فلا ينفع كثرة المقاتلة وجودة العدة والغرض ان يكون توكلهم على الله لا على الملائكة الذين أمدوا بهم وفيه تنبيه على الاعراض عن الاسباب والاقبال على مسببها (العزيز الحكيم) فاستعينوا به وتوكلوا عليه (ليقطع طرفا من الذين كفروا) الطرف الطائفة والمعنى نصركم الله ببدر ليقطع ويهلك طائفة من الكفار ويهدم ركنا من أركان الشرك بالقتل والاسر فقتل يوم بدر من قادتهم وساداتهم سبعون وأسر سبعون ومن حمل الآية على غزوة أحد قال قد قتل منهم ستة عشر وكان النصر فيه للمسلمين حتى خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أو يكبتهم) يحزنهم والمكبوت المحزون وقال الكرخي يذلهم أشار به الى ان الكبت من الذلة يقال كبت الله العدو كبتا أي أذله وصرفه وقال بعض أهل اللغة معناه يكبدهم أي يصيبهم بالحزن والغيظ في أكبادهم وهو غير صحيح فان معنى كبت أحزن وأغاظ وأذل ومعنى كبد أصاب الكبد وأصل الكبت في اللغة صرع الشيء على وجهه والمراد منه القتل والهزيمة والاهلاك أو اللعن أو الخزي (فينقلبوا خائبين) أي غير ظافرين بمطلبهم عن قتادة قال قطع الله يوم بدر طرفا من الكفار وقتل صناديدهم ورؤسهم وقادتهم بالشر وعنه قال هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة وعن السدي ذكر الله قتلى المشركين باحد وكانوا اثنا عشر رجلا فقال ليقطع طرفا ثم ذكر الشهداء فقال ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج

أن ينكحها وهو زوجها الاول الذى كان طلقها فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه عن تزويجها وقال لا تحل له حتى تذوق العسيلة هكذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك وفيه انقطاع وقد رواه ابراهيم بن طهمان وعبد الله بن وهب عن مالك عن رفاعة عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير عن أبيه فوصله *(فصل)* والمقصود من الزوج الثانى ان يكون راغبا فى المرأة قاصدا لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج واشترط الامام مالك مع ذلك ان يطأها الثانى وطأ مباحا فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف لم تحل للاول بهذا الوطء وكذا لو كان الزوج الثانى ذميا لم تحل للمسلم بنكاحه لان أنكحة الكفار باطلة عنده واشترط الحسن البصرى فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثانى وكأنه قاس بما فهمه من قوله عليه الصلاة والسلام حتى تذوق عسيلته و يذوق عسيلتك و يلزم على هذا

(١٠٥) عسيلته

ان تنزل المرأة أيضا وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الامام أحمد والنسائى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا ان العسيلة الجماع فأما اذا كان الثانى انما قصده أن يحلها للاول فهذا هو المحلل الذى وردت الاحاديث بذمه ولعنه ومتى صرح بمقصوده فى العقد بطل النكاح عند جمهور الائمة *(ذكر الاحاديث الواردة فى ذلك)* الحديث الاول عن ابن مسعود رضى الله عنه قال الامام أحمد حدثنا الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن أبى قيس عن الهزيل عن عبد الله قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله ثم رواه أحمد والترمذى والنسائى من غير وجه عن سفيان وهو الثورى عن أبى

فى وجهه حتى سال الدم فقال كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم الى ربهم فأنزل الله (ليس لك من الامر شئ) أى لست تملك اصلاحهم ولا تعذيبهم بل ذلك ملك الله فاصبر (أو يتوب عليهم) بالاسلام (أو يعذبهم) بالقتل والاسر والنهب (فانهم ظالمون) بالكفر وقد روى هذا المعنى فى روايات كثيرة وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد اللهم العن أبا سفيان اللهم العن الحرث بن هشام اللهم العن سهيل بن عمرو اللهم العن صفوان بن أمية فنزلت هذه الآية والحديث ألفاظ وطرق ومعنى الآية ان الله مالك أمرهم يصنع بهم ما يشاء من الاهلاك أو الهزيمة أو التوبة ان أسلموا أو العذاب ان أصروا على الكفر وقال الفراء أو بمعنى الا والمعنى الا ان يتوب عليهم فتفرح بذلك أو يعذبهم فتشتفى بهم وقال السيوطى أو بمعنى الى أن يعنى غاية فى الصبر أى الى ان يتوب عليهم قيل نزلت فى أهل بئر معونة وهم سبعون رجلا من القراء بعثهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليعلموا الناس القرآن فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد من ذلك وجدا شديدا وقنت شهرا فى الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن وفى الباب أحاديث فى الصحيحين لا نطول بذكرها (ولله ما فى السموات وما فى الارض) هذا كالدليل على قوله ليس لك من الامر شئ الخ (يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء) كلام مستأنف لبيان سعة ملكه أى يفعل فى ملكه ما يشاء من المغفرة والعذاب و يحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وفى قوله (والله غفور رحيم) اشارة الى ان رحمته سبقت غضبه وتبشير لعباده بانه المتصف بالمغفرة والرحمة على وجه المبالغة وما أوقع هذا التذييل الجليل وأحبه الى قلوب العارفين بأسرار التنزيل (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا) قيل هو كلام مبتدأ للترهيب والترغيب فيما ذكر وقيل هو اعتراض بين اثناء قصة أحد وقوله (أضعافا مضاعفة) ليس لتقييد النهى لما هو معلوم من تحريمه على كل حال ولكنه جئ به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التى يعتادونها فى الربا فانهم كانوا

(١٤ - فتح البيان نى) قيس واسمه عبد الرحمن بن ثروان الاودى عن هزيل بن شرحبيل الاودى عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم به ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح قال والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر وهو قول الفقهاء من التابعين و يروى ذلك عن على وابن مسعود وابن عباس طريق أخرى عن ابن مسعود قال الامام أحمد حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبيد الله عن عبد الكريم عن أبى الواصل عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعن الله المحلل والمحلل له طريق أخرى روى الامام أحمد والنسائى من حديث الاعمش عن عبد الله بن مرة عن الحرث الاعور عن عبد الله بن مسعود قال آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه اذا علموا به والواصلة والمستوصلة ولاوى الصدقة والمتعدى فيها والمرتد على عقبيه أعرابيا بعد هجرته والمحلل والمحلل له ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة الحديث الثانى عن على

رضى الله عنه قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن جابر عن الشعبى عن الحرث عن على قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه والواشمة والمستوشمة للحسن ومانع الصدقة والمحلل والمحلل له وكان ينهى عن النوح وكذا رواه عن غندر عن شعبة عن جابر وهو ابن يزيد الجعفى عن الشعبى عن الحرث عن على به وكذا رواه من حديث اسمعيل بن أبى خالد وحصين بن عبد الرحمن ومجالد بن سعيد وابن عون عن عامر الشعبى به وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الشعبى به ثم قال أحمد أخبرنا محمد بن عبد الله أخبرنا اسرائيل عن أبى اسحق عن الحرث عن على قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الربا وآكله وكاتبه وشاهده والمحلل والمحلل له الحديث الثالث عن جابر رضى الله عنه قال الترمذى أخبرنا أبو سعيد الاشج أخبرنا أشعث بن عبد (١٠٦) الرحمن بن يزيد الايامى حدثنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله وعن الحرث عن على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن المحلل والمحلل له ثم قال وليس اسناده بالقائم ومجالد ضعفه غير واحد من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل قال ورواه ابن نمير عن مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله عن على قال وهذا وهم من ابن نمير والحديث الاول أصح الحديث الرابع عن عقبة ابن عامر رضى الله عنه قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى أخبرنا أبى سمعت الليث ابن سعد يقول قال الليث بن المصعب مسرح هو ابن عاشان قال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بالتيس المستعار قالوا بلى يا رسول الله قال هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له تفرد به ابن ماجه وكذا رواه ابراهيم ابن يعقوب الجوزجانى عن عثمان ابن صالح عن الليث به ثم قال كانوا ينكرون على عثمان فى هذا الحديث انكارا شديدا (قلت) عثمان هذا أحد الثقات روى عنه البخارى فى صحيحه ثم قد تابعه غيره فرواه جعفر الغريانى عن العباس المعروف بابن افريق عن أبى صالح عبد الله بن صالح عن الليث به فبرئ من عهدته والله أعلم الحديث الخامس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ابن ماجه حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عامر عن زمعة ابن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له طريق أخرى قال الامام الحافظ خطيب دمشق أبو اسحق ابراهيم بن يعقوب الجوزجانى السعدى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا ابراهيم بن اسمعيل ابن أبى حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح المحلل قال لا الا نكاح رغبة لا نكاح دلسة ولا استهزاء بكتاب الله ثم يذوق عسيلتها ويتقوى هذان الاسنادان بما رواه أبو بكر بن أبى شيبة عن

يربون الى أجل فاذا حل الاجل زادوا فى المال مقدار ما يتراضون عليه ثم يزيدون فى أجل الدين فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يأخذ المربى أضعاف دينه الذى كان له فى الابتداء وفيه اشارة الى تكرار التضعيف عاما بعد عام والمبالغة فى هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ وفى السمين اضعافا جمع ضعف ولما كان جمع قلة والمقصود الكثرة أتبعه بما يدل على ذلك وهو الوصف بمضاعفة (واتقوا الله) فى أكل الربا ومضاعفته فلا تأكلوه ولا تضعفوه (لعلكم تفلحون) أى لكى تسعدوا وفيه دليل على ان أكل الربا من الكبائر ولهذا عقبه بقوله (واتقوا النار التى أعدت للكافرين) فيه الارشاد الى تجنب ما يفعله الكفار فى معاملاتهم قال كثير من المفسرين وفيه انه يكفر من استحل الربا وقيل معناه اتقوا الربا الذى ينزع منكم الايمان فتستوجبون النار وانما خص الربا فى هذه الآية لانه الذى يوعد اليه بالحرب منه لفاعله قال ابن عباس هذا تهديد للمؤمنين ان يستحلوا ما حرم الله عليهم من الربا وغيره مما أوجب الله فيه النار قال بعضهم ان هذه الآية أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه ويجتنبوا ناره وقال الواحدى فى هذه الآية تقوية لرجاء المؤمنين رحمة من الله لانه قال أعدت للكافرين فجعلها معدة لهم دون المؤمنين (وأطيعوا الله والرسول) حذف المتعلق مشعرا بالتعميم أى فى كل أمر ونهى قال محمد بن اسحق فى هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد (لعلكم ترحمون) أى راجين الرحمة من الله عز وجل (وسارعوا الى مغفرة من ربكم) أى بادروا وسابقوا الى ما يوجب المغفرة من ربكم وهى الطاعات قرئ سارعوا بغير واو وبالواو قال أبو على كلا الامرين سائغ مستقيم والمسارعة المبادرة قال ابن عباس الى الاسلام وعنه الى التوبة وقال على بن أبى طالب الى أداء الفرائض وعن أنس بن مالك وسعيد بن جبير انها التكبيرة الاولى وقيل الى الاخلاص فى الاعمال وقيل الى الهجرة وقيل الى الجهاد واللفظ مطلق

حميد بن عبد الرحمن عن موسى بن أبي الفرات عن عمرو بن دينار عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحو من هذا فيتقوى كل من هذا المرسل والذي قبله بالآخر والله أعلم الحديث السادس عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الامام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا عبد الله هو ابن جعفر عن عثمان بن محمد المقبري عن أبي هريرة قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له وهكذا رواه أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني والبيهقي من طريق عبد الله بن جعفر القرشي وقد وثقه أحمد بن حنبل وعلي بن المديني ويحيى بن معين وغيرهم وأخرج له مسلم في صحيحه عن عثمان بن محمد الاخنسي وثقه ابن معين عن سعيد المقبري وهو متفق عليه الحديث السابع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الحاكم في مستدركه حدثنا أبو العباس الاصم حدثنا محمد بن اسحق الصنعاني حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف المدني عن عمر بن نافع عن أبيه انه قال جاء رجل الى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لاخيه هل تحل للاول فقال لا الا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقد رواه الثوري عن عبد الله بن نافع عن أبيه عن ابن عمر به وهذه الصيغة مشعرة بالرفع وهكذا روى أبو بكر ابن أبي شيبة والجوزجاني وحرب الكرماني وأبو بكر الاثرم من حديث الاعمش عن المسيب بن رافع عن قبيصة بن جابر عن عمر أنه قال لا أوتى بمحلل ولا محلل له الا رجمتهما وروى البيهقي من حديث ابن لهيعة عن بكير بن الاشج عن سليمان بن يسار أن عثمان بن عفان رفع اليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما وكذا روى عن علي وابن عباس وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم وقوله فان طلقها أي الزوج الثاني بعد الدخول بها فلا جناح عليهما ان يتراجعا أي المرأة والزوج الاول ان ظنا أن يقيما حدود الله أي يتعاشرا بالمعروف قال مجاهد ان ظنا أن نكاحهما على غير دلسة وتلك حدود الله أي شرائعه وأحكامه يبينها أي يوضحها لقوم يعلمون وقد اختلف الائمة رحمهم الله فيما اذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين وتركها حتى انقضت عدتها ثم تزوجت بآخر فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها ثم تزوجها الاول هل تعود اليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق فاذا عادت الى الاول تعود بجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله وحجتهم أن الزوج الثاني اذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الاولى والاحرى والله أعلم (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف

مطلق فيعم الكل ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع وهذا وجه من قال الى جميع الطاعات والاعمال الصالحات (وجنة) أي وسارعوا الى جنة وانما فصل بين المغفرة والجنة لان المغفرة هي ازالة العقاب والجنة هي حصول الثواب فجمع بينهما للاشعار بانه لابد للمكلف من تحصيل الامرين وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية متقدمة على التحلية (عرضها) أي عرض الجنة (السموات والارض) يعني كعرضهما لان نفس السموات والارض ليس عرضا للجنة والمراد سعتها وانما خص العرض للمبالغة لان الطول في العادة يكون أكثر من العرض يقول هذه صفة عرضها فكيف بطولها ومثله الآية الاخرى عرضها كعرض السماء والارض وقد اختلف في معنى ذلك فذهب الجمهور الى أنها تقرن السموات بعضها الى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة وقيل ان هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة وذلك انها لما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى حسن التعبير عنها بعرض السموات والارض مبالغة لانهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده ولم يقصد بذلك التحديد كما تقول العرب بلاد عريضة أي واسعة طويلة عظيمة فجعل العرض كناية عن السعة قال الزهري انما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه الا الله هذا على سبيل التمثيل لانها كالسموات والارض لا غير بل معناه كعرضهما عندظنكم كقوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والارض أي عند ظنكم والا فهما زائلتان وسأل ناس من اليهود عمر بن الخطاب اذا كانت الجنة عرضها ذلك فاين تكون النار فقال لهم أرأيتم اذا جاء الليل فاين يكون النهار واذا جاء النهار فاين يكون الليل فقالوا ان مثلها في التوراة ومعناه انه حيث شاء الله وسئل أنس بن مالك عن الجنة أفي السماء أم في الارض فقال وأي أرض وسماء تسع الجنة قيل فاين هي قال فوق السموات السبع تحت العرش وقال قتادة كانوا يرون الجنة فوق السموات السبع وجهنم تحت الارضين السبع

ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم) هذا أمر من الله عز وجل للرجال اذا طلق أحدهم المرأة طلاقا له عليها فيه رجعة أن يحسن في أمرها اذا انقضت عدتها ولم يبق منها الا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها فاما ان يمسكها أي يراجعها الى عصمة نكاحه بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح قال الله تعالى ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا قال ابن عباس ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد كان الرجل يطلق المرأة فاذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضرارا لئلا

تذهب الى غيره ثم يطلقها فتعتد فاذا شارفت على انقضاء العدة طلق

لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه أي بمخالفته أمر الله تعالى وقوله تعالى ولا تتخذوا آيات الله هزوا قال ابن جرير عند هذه الآية أخبرنا أبو كريب أخبرنا اسحق بن منصور عن عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن أبي العلاء الاودي عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي موسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب على الاشعريين فأتاه أبو موسى فقال يا رسول الله أغضبت على الاشعريين فقال يقول أحدكم قد طلقت قد راجعت ليس هذا طلاق المسلمين طلقوا المرأة في قبل عدتها ثم رواه من وجه آخر عن أبي خالد الدلال وهو يزيد بن عبد الرحمن وفيه كلام وقال مسروق هو الذي يطلق في غير كنهه ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة وقال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع ومقاتل بن حيان هو الرجل يطلق

ويقول كنت لاعبا أو يعتق أو ينكح ويقول كنت لاعبا فأنزل الله ولا تتخذوا آيات الله هزوا فألزم الله بذلك وقال ابن مردويه حدثنا ابراهيم بن محمد حدثنا أبو أحمد الصيرفي حدثني جعفر بن محمد السمسار عن اسمعيل بن يحيى عن سفيان عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس قال طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق فأنزل الله ولا تتخذوا آيات الله هزوا فألزمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الطلاق وقال ابن أبي حاتم حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن هو البصري قال كان الرجل يطلق ويقول كنت لاعبا ويعتق ويقول كنت لاعبا وينكح ويقول كنت لاعبا فأنزل الله ولا تتخذوا آيات الله هزوا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح جادا أو لاعبا فقد جاز عليه وكذا رواه ابن جرير من طريق

(أعدت للمتقين) أي هيئت لهم وفيه دليل على ان الجنة والنار مخلوقتان الآن وهو الحق خلافا للمعتزلة أخرج عبد بن حميد وغيره عن عطاء بن أبي رباح قال قال المسلمون يا رسول الله أبنو اسرائيل كانوا أكرم على الله منا كانوا اذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه اجدع أنفك اجدع أذنك افعل كذا كذا فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت وسارعوا الآية (الذين ينفقون في السراء والضراء) السراء اليسر والضراء العسر وقد تقدم تفسيرهما وقيل السراء الرخاء والضراء الشدة وهو مثل الاول وقيل السراء في الحياة والضراء بعد الموت والمعنى لا يتركون الانفاق في كلتا الحالين في الغنى والفقر والرخاء والشدة ولا في حال فرح وسرور ولا في حال محنة وبلاء سواء كان الواحد منهم في عرس أو حبس فاول ما ذكر الله من أخلاقهم الموجبة للجنة السخاء لانه أشق على النفوس وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح المنفق وذم البخيل والممسك في الصحيحين وغيرهما (والكاظمين الغيظ) أي الجارعين اياه عند امتلاء نفوسهم منه والكافين عن امضائه مع القدرة والكظم حبس الشيء عند امتلائه يقال كظم غيظه أي سكت عليه ولم يظهر ومنه كظمت السقاء أي ملأته والكظامة ما يسد به مجرى الماء وكظم البعير جرته اذا ردها في جوفه وقد وردت أحاديث كثيرة في ثواب كظم الغيظ منها عن أنس الجهني عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من كظم غيظا وهو يستطيع ان ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء أخرجه الترمذي وأبو داود وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب رواه الشيخان وعن عائشة ان خادما لها أغاظها فقالت لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء (والعافين عن الناس) أي التاركين عقوبة من أذنب اليهم واستحق المؤاخذة وذلك من أجل ضروب الخير وظاهره العموم سواء كان من المماليك أم لا وقال الزجاج وغيره المراد

لزهري عن سليمان بن أرقم عن الحسن مثله وهذا مرسل وقد رواه ابن مردويه من طريق عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبي الدرداء موقوفا عليه وقال أيضا حدثنا أحمد بن الحسن بن أيوب حدثنا يعقوب بن أبي يعقوب حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا أبو معاوية عن اسمعيل بن سلمة عن الحسن عن عبادة بن الصامت في قول الله تعالى ولا تتخذوا آيات الله هزوا قال كان الرجل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يقول للرجل زوجتك ابنتي ثم يقول كنت لاعبا ويقول قد أعتقت ويقول كنت لاعبا فأنزل الله ولا تتخذوا آيات الله هزوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من قالهن لاعبا أو غير لاعب فهن جائزات عليه الطلاق والعتاق والنكاح والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طريق عبد الرحمن بن حبيب بن أدرك عن عطاء عن ابن ماهك عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث جدهن (١٠٩) جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة وقال الترمذي حسن غريب وقوله واذكروا نعمة الله عليكم أي في ارساله الرسول بالهدى والبينات اليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة أي السنة يعظكم به أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم واتقوا الله أي فيما تأتون وفيما تذرون واعلموا أن الله بكل شئ عليم أي فلا يخفى عليه شئ من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك (واذ طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن ان ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضي عدتها ثم يبدو له ان يتزوجها وان يراجعها

بهم المماليك (والله يحب المحسنين) اللام يجوز ان تكون للجنس فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء وغيرهم ويجوز ان تكون للعهد فيختص بهؤلاء والاول أولى اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السياق فيدخل فيه كل من صدر منه مسمى الاحسان أي احسان كان (والذين اذا فعلوا فاحشة) أي فعلة فاحشة وهي تطلق على كل معصية وقد كثر اختصاصها بالزنا وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد (أو ظلموا أنفسهم) باقتراف ذنب من الذنوب قيل هو ما دون الزنا مثل القبلة والمعانقة واللمس والنظر وقيل أو بمعنى الواو والمراد ما ذكر وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة وقيل غير ذلك قال النخعي الظلم من الفاحشة والفاحشة من الظلم (ذكروا الله) أي بألسنتهم عند الذنوب أو أخطروه في قلوبهم أو ذكروا وعده ووعيده أو جلاله الموجب للحياء منه (فاستغفروا لذنوبهم) أي طلبوا المغفرة لها من الله سبحانه وتفسيره بالتوبة خلاف لمعناه لغة وفي الاستفهام بقوله (ومن يغفر الذنوب) من الانكار مع ما تضمنه من الدلالة على انه المختص بذلك سبحانه دون غيره ما لا يخفى أي لا يغفر جنس الذنوب أحد (الا الله) وفيه ترغيب لطلب المغفرة من الله سبحانه وتنشيط للمذنبين ان يقنطوا في مواقف الخضوع والتذلل (ولم يصروا على ما فعلوا) أي لم يقيموا على قبيح فعلهم ولكن استغفروا وقد تقدم تفسير الاصرار والمراد به هنا العزم على معاودة الذنب وعدم الاقلاع عنه بالتوبة منه قال السدي في الآية فيسكتون ولا يستغفرون (وهم يعلمون) جملة حالية أي عالمين بقبحه وانها معصية وأن لهم ربا يغفرها وقيل يعلمون أن الاصرار ضار وقيل يعلمون ان الله يملك مغفرة الذنب وقيل يعلمون ان الله لا يتعاظمه العفو عن الذنوب وان كثرت وقيل يعلمون انهم ان استغفروه غفر لهم وقيل يعلمون ان الله يتوب على من تاب قاله مجاهد وقيل يعلمون ان تركه أولى قاله الحسن وقيل يعلمون المؤاخذة بها أو عفو الله عنها والمعاني متقاربة عن ابن مسعود قال ان في كتاب الله لآيتين ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما

وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها وكذا روى العوفي عنه عن ابن عباس أيضا وكذا قال مسروق وابراهيم النخعي والزهري والضحاك انها أنزلت في ذلك وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية وفيها دلالة على ان المرأة لا تملك ان تزوج نفسها وأنه لا بد في النكاح من ولي كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية كما جاء في الحديث لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها فان الزانية هي التي تزوج نفسها وفي الاثر الآخر لا نكاح الا بولي مرشد وشاهدي عدل وفي هذه المسئلة نزاع بين العلماء محرر في موضعه من كتب الفروع وقد قررنا ذلك في كتاب الاحكام ولله الحمد والمنة وقد روي ان هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته فقال البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا أبو عامر العقدي حدثنا عباد بن راشد حدثنا الحسن قال حدثني معقل بن يسار قال كانت لي أخت تخطب الي قال البخاري وقال ابراهيم عن يونس

عن الحسن حدثني معقل بن يسار وحدثنا أبو معمر وحدثنا عبد الوارث حدثنا يونس عن الحسن ان أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل فنزلت فلا تعضلوهن ان ينكحن أزواجهن وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن عن معقل بن يسار به وصححه الترمذي أيضا ولفظه عن معقل بن يسار انه زوج أخته رجلا من المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال له يا لكع بن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها والله لا ترجع اليك أبدا آخر ما عليك قال فعلم الله حاجته اليها وحاجتها الى بعلها فأنزل الله واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن الى قوله وأنتم لا تعلمون فلما سمعها معقل قال (١١٠) سمعا لربي وطاعة ثم دعاه فقال أزوجك وأكرمك زاد ابن مردويه وكفرت عن يميني وروى ابن جرير عن ابن جريج قال هي جميل بنت يسار كانت تحت أبي البداح وقال سفيان الثوري عن أبي اسحق السبيعي قال هي فاطمة بنت يسار وهكذا ذكر غير واحد من السلف ان هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته وقال السدي نزلت في جابر بن عبد الله وابنة عمه والصحيح الاول والله أعلم وقوله ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايان يتزوجن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به وينتهي له من كان منكم أيها الناس يؤمن بالله واليوم الآخر أي يؤمن بشرع الله ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة وما فيها من الجزاء ذلكم أزكى لكم وأطهر أي اتباعكم شرع الله في رد المواليات الى أزواجهن وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم والله يعلم أي من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه وأنتم لا تعلمون أي الخيرة فيما فعلت تأتون ولا فيما تذرون (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير) هذا ارشاد من الله تعالى للوالدات ان يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ولهذا قال لمن أراد أن يتم الرضاعة وذهب أكثر الائمة الى انه لا يحرم من الرضاعة الا ما كان دون الحولين فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم قال الترمذي باب ما جاء ان الرضاعة لا تحرم الا في الصغر دون الحولين حدثنا قتيبة حدثنا أبو عوانة عن هشام بن

فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من شيء قل ان الامر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شيء قدير وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر انهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم ان الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والارض والله بما تعملون خبير لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ولله ملك السماوات والارض والله على كل شيء قدير ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا انا سمعنا منادي ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون

عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحرم من الرضاع الا ما فتق الامعاء في الثدي وكان قبل الفطام هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم ان الرضاعة لا تحرم الا ما كان دون الحولين وما كان بعد الحولين الكاملين فانه لا يحرم شيأ وفاطمة بنت المنذر بن الزبير بن العوام وهي امرأة هشام بن عروة (قلت) تفرد الترمذي برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين ومعنى قوله الا ما كان في الثدي أي في محال الرضاعة قبل الحولين كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن وكيع وغندر عن شعبة عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال لما مات ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان ابني مات في الثدي ان له مرضعا في الجنة وهكذا أخرجه البخاري من حديث شعبة وانما قال عليه السلام ذلك لان ابنه ابراهيم عليه السلام (١١١) مات وله سنة وعشرة أشهر فقال ان له مرضعا يعني تكمل رضاعه ويؤيده ما رواه الدارقطني من طريق الهيثم ابن جميل عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحرم من الرضاع الا ما كان في الحولين ثم قال ولم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل وهو ثقة حافظ (قلت) وقد رواه الامام مالك في الموطأ عن ثور بن يزيد عن ابن عباس مرفوعا ورواه الدراوردي عن ثور عن عكرمة عن ابن عباس وزاد وما كان بعد الحولين فليس بشيء وهذا أصح وقال أبو داود الطيالسي عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام وتمام الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى وفصاله في عامين ان اشكر لي وقال وحمله وفصاله ثلاثون شهرا والقول بان الرضاعة لا تحرم بعد الحولين يروى عن علي وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبي هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور وهو مذهب الشافعي وأحمد واسحق والثوري وأبي يوسف ومحمد ومالك في رواية وعنه ان مدته سنتان وشهران وفي رواية وثلاثة أشهر وقال أبو حنيفة سنتان وستة أشهر وقال زفر بن الهذيل ما دام يرضع فالى ثلاث سنين وهذا رواية عن الاوزاعي قال مالك ولو فطم الصبي دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم لانه قد صار بمنزلة الطعام وهو رواية عن الاوزاعي وقد روي عن عمر وعلي انهما قالا لا رضاع بعد فصال فيحتمل انهما أرادا الحولين كقول الجمهور سواء فطم أو لم يفطم ويحتمل انهما أرادا الفعل كقول مالك والله أعلم وقد روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها انها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم وهو قول عطاء بن أبي رباح والليث بن سعد وكانت عائشة تأمر بمن تختار ان يدخل عليها من الرجال ابعض نسائها فترضعه وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث

خلت من قبل زمانكم وقائع سنها الله في الامم المكذبة بالهلاك والاستئصال لاجل مخالفتهم الانبياء وأصل السنن جمع السنة وهي الطريقة المستقيمة والعادة والسنة الامام المتبع المؤتم به والسنة الامة والسنن الامم قاله المفضل الضبي وقال الزجاج أهل سنن فحذف المضاف قال مجاهد قد خلت سنن تداول من الكفار والمؤمنين في الخير والشر (فسيروا) أيها المؤمنون (في الارض) والمطلوب من هذا السير المأمور به هو حصول المعرفة بذلك فان حصلت بدونه فقد حصل المقصود وان كان لمشاهدة الآثار زيادة غير حاصلة لمن لم يشاهدها والامر للندب لا على سبيل الوجوب (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) فانهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا ثم انقرضوا فلم يبق من دنياهم التي آثروها أثر هذا قول أكثر المفسرين والعاقبة آخر الامور رغبهم في تأمل أحوال الامم الماضية ليصير ذلك داعيا لهم الى الايمان بالله ورسوله والاعراض عن الدنيا ولذاتها لان النظر الى آثار المتقدمين له أثر في النفس وفي هذه الآية تسلية لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما جرى لهم في غزوة أحد (هذا بيان للناس) الاشارة الى قوله قد خلت الخ وقال الحسن الى القرآن ولا يخفى بعده والبيان التبيين وقيل هو الدلالة التي تفيد ازالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون أو للجنس أي للمكذبين وغيرهم وفيه حث على النظر في سوء عاقبة المكذبين وما انتهى اليه أمرهم (و) هذا النظر مع كونه بيانا فيه (هدى وموعظة) فعطف الهدى والموعظة على البيان يدل على التغاير ولو باعتبار المتعلق وبيانه ان اللام في الناس ان كانت للعهد فالبيان للمكذبين والهدى والموعظة للمؤمنين وان كانت للجنس فالبيان لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم والهدى والوعظ (للمتقين) من المؤمنين وحدهم والهدى بيان طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغي والموعظة هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين فالحاصل ان البيان جنس تحته نوعان أحدهما الكلام الهادي الى ما ينبغي في

أمر النبي صلى الله عليه وسلم امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيرا فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة وأبى ذلك سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورأين ذلك من الخصائص وهو قول الجمهور وحجة الجمهور وهم الأئمة الاربعة والفقهاء السبعة والاكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى عائشة ما ثبت في الصحيحين عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انظرن من اخوانكن فانما الرضاعة من المجاعة وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير عند قوله تعالى وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وقوله وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير اسراف ولا اقتار بحسب قدرته في يساره وتوسطه واقتاره كما قال تعالى لينفق ذو سعة من سعته

ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا قال الضحاك اذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف وقوله لا تضار والدة بولدها أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ولكن ليس لها دفعه اذا ولدته حتى تسقيه اللبأ الذي لا يعيش بدون تناوله غالبا ثم بعد هذا لها دفعه عنها اذا شاءت ولكن ان كانت مضارة لا يجوز لها ذلك كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها ولهذا قال ولا مولود له بولده أي بان يريد أن ينتزع الولد منها ضرارا بها قاله مجاهد وقتادة والضحاك والزهري والسدي والثوري وابن زيد وغيرهم وقوله تعالى وعلى الوارث مثل ذلك قيل في عدم الضرار لقريبه قاله مجاهد والشعبي والضحاك وقيل عليه مثل ما على والد الطفل من الانفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الاضرار بها وهو قول الجمهور وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية الى وجوب نفقة الاقارب بعضهم على بعض وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ويرشح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعا من ملك ذا رحم محرم عتق عليه وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد اما في بدنه أو في عقله وقال سفيان الثوري عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة انه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال لا ترضعيه وقوله فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما أي فان اتفق والد الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه فلا جناح عليهما في ذلك فيؤخذ منه ان انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي ولا يجوز لواحد منهما ان يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر قاله الثوري وغيره وهذا فيه احتياط للطفل والزام للنظر في أمره وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما وأرشدهما الى

الدين وهو الهدى والنافي الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة وانما خص المتقين بالهدى والموعظة لانهم المنتفعون بهما دون غيرهم قال سعيد بن جبير أول ما نزل من آل عمران هذا بيان للناس ثم أنزل بقيتها يوم أحد (ولا تهنوا ولا تحزنوا) عزاهم وسلاهم لما نالهم يوم أحد من القتل والجراح وحثهم على قتال عدوهم ونهاهم عن العجز والفشل والمعنى لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على من قتل منكم لانهم في الجنة ثم بين لهم أنهم الاعلون على عدوهم بالنصر والظفر فقال (وأنتم الاعلون) جمع أعلى والاصل أعليون هي جملة حالية أي والحال انكم الاعلون عليهم وعلى غيرهم بعد هذه الوقعة وقد صدق الله وعده فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وقعة أحد ظفر بعدوه في جميع وقعاته وقيل المعنى وأنتم الاعلون عليهم بما أصبتم منهم في يوم بدر فانه أكثر مما أصابوا منكم اليوم أخرج ابن جرير وغيره عن ابن جريج قال انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الشعب يوم أحد فسألوا ما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما فعل فلان فنعى بعضهم لبعض وتحدثوا ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قتل فكانوا في غم وحزن فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقفهم على الجبل وكانوا على احدى جنبتي المشركين وهم أسفل من الشعب فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرحوا فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللهم لا قوة لنا الا بك وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء فلا تهلكهم وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله وعلا المسلمون الجبل فذلك قوله وأنتم الاعلون وقال الضحاك أنتم الغالبون (ان كنتم مؤمنين) أي مصدقين بان ناصركم هو الله تعالى فصدقوا بذلك فانه حق وصدق (ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) القرح بالضم والفتح الجرح وهما لغتان فيه قاله الكسائي والاخفش ومعناهما واحد وقال الفراء هو بالفتح الجرح وبالضم ألمه وقرئ قرح على المصدر والآية خطاب للمسلمين حين انصرفوا من أحد مع الحزن والكآبة

ما يصلحهما ويصلحه كما قال في سورة الطلاق فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وان تعاسرتم فسترضع له أخرى وقوله تعالى وان أردتم ان تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف أي اذا اتفقت الوالدة والوالد على ان يسترضع منها الولد اما لعذر منها أو لعذر له فلا جناح عليهما في بذله ولا عليه في قبوله منها اذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن واسترضع لولده غيرها بالاجرة بالمعروف قاله غير واحد وقوله واتقوا الله أي في جميع أحوالكم واعلموا أن الله بما تعملون بصير أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم واقوالكم (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير) هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن ان يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال (١١٣) وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالاجماع ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة وهذا الحديث الذي رواه الامام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي ان ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فتردد وا اليه مرارا في ذلك فقال أقول فيها برأي فان يك صوابا فمن الله وان يك خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه لها الصداق كاملا وفي لفظ لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث فقام معقل ابن يسار الاشجعي فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به في بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحا شديدا وفي رواية فقام رجال من أشجع فقالوا نشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به في بروع بنت واشق ولا يخرج من ذلك الا المتوفى عنها

ان يمسسكم أيها المسلمون قرح ونالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر فلا تهنوا لما أصابكم في هذا اليوم فانهم لم يهنوا لما أصابهم في ذلك اليوم وأنتم أولى بالصبر منهم وقيل المراد ما أصاب المسلمين والكافرين في هذا اليوم فان المسلمين انتصروا عليهم في الابتداء فاصابوا منهم جماعة ثم انتصر الله الكفار عليهم فاصابوا منهم والاول أولى لان ما أصابه المسلمون من الكفار في هذا اليوم لم يكن مثل ما أصابوه منهم فيه وكذا ما أصابه المشركون في يوم أحد لم يكن مثل ما أصابه المسلمون منهم يوم بدر بل ضعفه كما قال تعالى قد أصبتم مثليها فيمكن ان يكون المماثلة في القتلى من دون نظر الى الاسرى ويكون القول الاول أرجح كما سلف (وتلك الايام) الكائنة بين الامم في حروبها والآتية فيما بعد كالايام الكائنة في زمن النبوة تارة تغلب هذه الطائفة وتارة تغلب الاخرى كما وقع لكم أيها المسلمون في يوم بدر وأحد وهو معنى قوله (نداولها بين الناس) فقوله تلك مبتدأ والايام صفته والخبر نداولها أي نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقول من قال

فيوما علينا ويوما لنا * ويوما نساء ويوما نسر

وكقول حسان الهند السيد آزاد البلجرامي رحمه الله تعالى

ورأيت معالم دارسة * رسمته مزاولة السبل
وسألت رسوم الاربع ما * فعلت بك سابقة الازل
فاجابت قال الله لنا * وسؤالك من جهة الغفل
تلك الايام نداولها * لا ممكث لهن على رجل

وأصل المداولة المعاورة وأدلته بينهم عاورته والدولة الكرة يقال تداولته الايدي اذا انتقل من واحد الى آخر ويقال الدنيا دول أي تنتقل من قوم الى آخرين ثم منهم الى غيرهم وقيل المداولة المناوبة على الشيء والمعاودة وتعهده مرة بعد أخرى قاله السمين والمعنى ان أيام الدنيا هي دول بين الناس فيوم لهؤلاء ويوم لهؤلاء فكانت الدولة للمسلمين على

(١٥ - فتح البيان ني) زوجها وهي حامل فان عدتها بوضع الحمل ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن وكان ابن عباس يرى ان عليها ان تتربص بأبعد الاجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي لولا ما ثبت به السنة في حديث سبيعة الاسلمية المخرج في الصحيحين من غير وجه انها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل فلم تنشب ان وضعت حملها بعد وفاته وفي رواية فوضعت حملها بعده بليال فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها مالي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت سبيعة فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فأفتاني بانى قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج ان بدا لي قال أبو عمر بن عبد البر وقد روى

ان ابن عباس رجع الى حديث سبيعة يعنى لما احتج عليه به قال ويصح ذلك عنه ان أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة اذا كانت أمة فان عدتها على النصف من عدة الحرة شهران وخمس ليال على قول الجمهور لانها لما كانت على النصف من الحرة فى الحد فكذلك فلتكن على النصف منها فى العدة ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوى بين الزوجات الحرائر والاماء فى هذه المقام لعموم الآية ولان العدة من باب الامور الجبلية التى تستوى فيها الخليقة وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما ان الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا لاحتمال اشتمال الرحم على حمل فاذا انتظر به هذه المدة ظهر ان كان موجودا كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه اربعين يوما نطفة (١١٤) ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث اليه الملك فينفخ فيه الروح فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة سألت سعيد بن المسيب ما بال العشر قال فيه ينفخ الروح وقال الربيع بن أنس قلت لابى العالية لم صارت هذه العشر مع الاشهر الاربعة قال لانه ينفخ فيها الروح رواهما ابن جرير ومن ههنا ذهب الامام أحمد فى رواية عنه الى ان عدة أم الولد عدة الحرة ههنا لانها صارت فراشا كالحرائر وللحديث الذى رواه الامام أحمد عن يزيد بن هرون عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن رجاء بن حيوة عن قبيصة بن ذويب عن عمرو بن العاص انه قال لا تلبسوا علينا سنة نبينا عدة أم الولد اذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر ورواه أبو داود عن قتيبة عن غندر وعن ابن مثنى عن عبد الاعلى وابن ماجه عن على بن محمد عن الربيع ثلاثتهم عن سعيد بن أبى عروبة عن مطر الوراق عن رجاء بن حيوة عن قبيصة عن عمرو بن العاص فذكره وقد روى عن الامام أحمد انه أنكر هذا الحديث وقيل ان قبيصة لم يسمع عمرا وقد ذهب الى القول بهذا الحديث طائفة من السلف منهم سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين وأبو عياض والزهرى وعمر بن عبد العزيز وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو أمير المؤمنين وبه يقول الاوزاعى واسحق بن راهويه وأحمد بن حنبل فى رواية عنه وقال طاوس وقتادة عدة أم الولد اذا توفى عنها سيدها نصف عدة الحرة شهران وخمس ليال وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن صالح بن حى تعتد بثلاث حيض وهو قول على وابن مسعود وعطاء وابراهيم النخعى وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه عدتها حيضة وبه يقول ابن عمر والشعبى ومكحول والليث وأبو عبيد

المشركين فى يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين رجلا وأسروا سبعين وأذل المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين والقصة فى البخارى بطولها عن البراء بن عازب وفى الباب أحاديث والمعنى نداولها لنظهر أمركم قال ابن عباس أدال المشركين على النبى صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد وبلغنى ان المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين رجلا عدد الاسارى الذين أسروا يوم بدر من المشركين وكان عدد الاسارى يوم بدر ثلاثة وسبعين رجلا أخرجه ابن جرير وغيره (وليعلم الله) علم ظهور (الذين آمنوا) أى انما جعل الدولة للكفار على المسلمين ليميز المؤمن الخلص ممن يرتد عن الدين اذا أصابته نكبة وشدة وهو من باب التمثيل أى فعلنا فعل من يريد ان يعلم لانه سبحانه لم يزل عالما أو ليعلم الله الذين آمنوا بصبرهم علما يتعلق عليه الجزاء كما علمه علما أزليا وقيل ليعرفهم بأعيانهم وقيل ليعلم أولياء الله فاضاف علمهم الى نفسه تفخيما وقيل غير ذلك (ويتخذ منكم شهداء) يعنى ويكرمكم بالشهادة والشهداء جمع شهيد وهو من قتل من المسلمين بسيف الكفار فى المعركة سمى بذلك لكونه مشهودا له بالجنة أو جمع شاهد لكونه كالشاهد للجنة ومن للتبعيض وهم شهداء أحد وقال ابن عباس ان المسلمين كانوا يسألون ربهم اللهم ربنا أرنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبلى فيه خيرا ونلتمس فيه الشهادة فلقوا المشركين يوم أحد فاتخذ منهم شهداء (والله لا يحب الظالمين) يعنى المشركين جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لتقرير مضمون ما قبله وقيل هم الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصى وقيل هم المنافقون والاول أولى ونفى المحبة كناية عن البغض وفى ايقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم (وليمحص الله الذين آمنوا) التمحيص الابتلاء والاختبار وقيل التطهير والتنقية على حذف مضاف أى ليمحص ذنوب الذين آمنوا قاله الفراء وقيل يمحص يخلص قاله الخليل والزجاج أى ليخلص المؤمنين من ذنوبهم وينزيلها عنهم وفى القاموس ومحص الذهب بالنار

وأبو ثور والجمهور وقال الليث ولو مات وهي حائض أجزأتها وقال مالك فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر وقال الشافعي والجمهور شهر وثلاثة أحب الي والله أعلم وقوله فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير يستفاد من هذا وجوب الاحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها المباشرة في الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمي المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا وفي الصحيحين أيضا عن أم سلمة ان امرأة قالت يا رسول الله ان ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها فقال لا كل ذلك يقول لا مرتين أو ثلاثا ثم قال انما هي أربعة اشهر وعشر وقد كانت احداكن في الجاهلية تمكث سنة قالت زينب بنت أم سلمة كانت المرأة اذا توفي عنها زوجها دخلت حفشا (١١٥) ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبا ولا شيأ حتى تمر بها سنة ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتض به فقلما تفتض بشيء الا مات ومن ههنا ذهب كثيرون من العلماء الى ان هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها وهي قوله والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج الآية كما قاله ابن عباس وغيره وفي هذا نظر كما سيأتي تقريره والغرض ان الاحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها الى الازواج من ثياب وحلي وغير ذلك وهو واجب في عدة الوفاة قولا واحدا ولا يجب في عدة الرجعية قولا واحدا وهل يجب في عدة البائن فيه قولان ويجب الاحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والامة والمسلمة والكافرة لعموم الآية وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه لا احداد على الكافرة وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك وحجة قائل هذه المقالة قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا قالوا فجعله تعبدا وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري الصغيرة بها لعدم التكليف وألحق أبو حنيفة وأصحابه الامة المسلمة لنقصها ومحل تقرير ذلك كله في كتب الاحكام والفروع والله الموفق للصواب وقوله فاذا بلغن أجلهن أي انقضت عدتهن قاله الضحاك والربيع بن أنس فلا جناح عليكم قال الزهري أي على أوليائها فيما فعلن يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن قال الوني عن ابن عباس اذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها فاذا انقضت عدتها فلا جناح عليها ان تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج فذلك المعروف وروى عن مقاتل بن حيان نحوه وقال ابن جريج عن مجاهد فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف قال النكاح الحلال الطيب

بالنار من باب منع أخلصه مما يشوبه والتمحيص التصفية (ويمحق الكافرين) أي يستأصلهم بالهلاك وينقصهم وأصل التمحيق محو الآثار والمحق نقصها قليلا قليلا وقال ابن عباس يمحص يبتليهم ويمحق ينقصهم (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) كلام مستأنف لبيان ما ذكر من التمييز وأم هي المنقطعة المقدرة ببل والهمزة للانكار والمعنى لا تحسبوا أيها المؤمنون ان تنالوا كرامتي وثوابي (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) قال الرازي أي ولما يصدر الجهاد عنكم وهذا ظاهر الآية والمراد ان العلم متعلق بالمعلوم وقال الواحدي المعنى على الجهاد دون العلم أي لما يكن المعلوم من الجهاد الذي أوجب عليكم وقال الطبري ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهد منكم على ما أمرته به وقال أبو السعود نفي العلم كناية عن نفي المعلوم لما بينهما من اللزوم المبني على لزوم تحقق الاول لتحقق الثاني ضرورة استحالة شيء بدون علمه تعالى به وانما وجه النفي الى الموصوفين مع ان المنفي هو الوصف فقط وكان يكفي ان يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية عن معنى ولما تجاهدوا للمبالغة في بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلا انتهى ولما بمعنى لم عند الجمهور وفرق سيبويه بينهما بجعل لم لنفي الماضي ولما لنفي الماضي والمتوقع ففيه ايذان بان الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل الا أنه غير معتبر في تأكيد الانكار (ويعلم الصابرين) الواو للجمع قاله الخليل وغيره وقال الزجاج بمعنى حتى وقال الزمخشري للحال والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال انه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أي الجمع بينهما وفي الآية معاتبة لمن انهزم يوم أحد والخطاب في قوله (ولقد كنتم تمنون الموت) لمن كان يتمنى القتال والشهادة في سبيل الله ممن لم يحضر يوم بدر فانهم كانوا يتمنون يوما يكون فيه قتال فلما كان يوم أحد انهزموا مع انهم الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج ولم يصبر منهم الا نفر يسير مثل أنس بن النضر عم أنس بن مالك وقد ورد النهي عن تمني الموت فلا بد من حمله هنا على الشهادة يعني حالة الشهداء من رفع المنزلة في الجنة

وروى عن الحسن والزهري والسدي نحو ذلك (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا الا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم) يقول تعالى ولا جناح عليكم ان تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح قال الثوري وشعبة وجرير وغيرهم عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس في قوله ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء قال التعريض ان يقول اني أريد التزويج واني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها يعرض لها بالقول بالمعروف وفي رواية وددت ان الله رزقني امرأة ونحو هذا ولا ينتصب للخطبة وفي رواية اني لا أريد أن أتزوج غيرك ان شاء الله ولوددت اني وجدت (١١٦) امرأة صالحة ولا ينتصب لها ما دامت في عدتها ورواه البخاري تعليقا فقال وقال لي طلق بن غنام عن زائدة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء هو ان يقول اني أريد التزويج وان النساء لمن حاجتي ولوددت ان يسر لي امرأة صالحة وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي والشعبي والحسن وقتادة والزهري ويزيد بن قسيط ومقاتل ابن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والائمة في التعريض انه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو ابن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها ان تعتد في بيت ابن أم مكتوم وقال لها فاذا حللت فآذنيني فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها اياه فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم

وغير ذلك ويكون المراد بالموت هنا ما يؤول اليه لان نفس الشهادة لانها مستلزمة لتمني الموت وغلبة الكفار وعلى هذا التأويل يزول الاشكال لان من طلب الجنة لا يقال انه تمنى الموت قال القرطبي وتمني الموت من المسلمين يرجع الى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد لا الى قتل الكفار لهم لانه معصية وكفر ولا يجوز ارادة المعصية وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله ان يرزقهم الشهادة فيسألون الصبر على الجهاد وان أدى الى القتل (من قبل أن تلقوه) أي القتال أو الشهادة التي هي سبب الموت أو العدو على العدو والجمهور على كسر لام من قبل لانها معربة لاضافتها الى ان أي من قبل لقائه وقرئ تلاقوه ومعناه معنى تلقوه لان لقي يستدعي ان يكون بين اثنين بمادته وان لم يكن على المفاعلة (فقد رأيتموه) أي القتال أو ما هو سبب للموت يوم أحد والظاهر ان الرؤية بصرية وقيل علمية أي فقد علمتموا الموت حاضرا (وأنتم تنظرون) قيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما للمبالغة أي قد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل منكم قال الاخفش ان التكرير بمعنى التأكيد مثل قوله ولا طائر يطير بجناحيه وقيل معناه بصراء ليس في أعينكم علل تتأملون الحال كيف هي فلم انهزمتم وقيل معناه وأنتم تنظرون الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ان رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يتمنون ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد أو ليت لنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبلى فيه خيرا ونلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق فأشهدهم الله أحدا فلم يثبتوا الا من شاء الله منهم فقال الله ولقد كنتم تمنون الموت الآية وفيه توبيخ لهم على انهم تمنوا الحرب وتسببوا فيها ثم جبنوا وانهزموا عنها أو توبيخ لهم على الشهادة فان في تمنيها تمني غلبة الكافرين (وما محمد الا رسول) سبب نزول هذه الآية ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب يوم أحد صاح الشيطان قائلا قد قتل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتشل بعض المسلمين حتى قال قائل

قد

وقوله أو أكننتم في أنفسكم أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن وهذا كقوله تعالى وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وكقوله وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ولهذا قال علم الله انكم ستذكرونهن أي في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك ثم قال ولكن لا تواعدوهن سرا قال أبو جعفر الباقر وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن البصري وابراهيم النخعي وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وسليمان التيمي ومقاتل بن حيان والسدي يعني الزنا وهو معنى رواية العوفي عن ابن عباس واختاره ابن جرير وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ولكن لا تواعدوهن سرا لا تقل لها اني عاشق وعاهدني أن لا تتزوجي غيري ونحو هذا وكذا روى عن سعيد بن جبير والشعبي وعكرمة وأبي الضحى والضحاك والزهري ومجاهد والثوري هو ان يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره وعن

مجاهد هو قول الرجل للمرأة لا تفوتيني بنفسك فاني ناكحك وقال قتادة هو ان يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها أن لا تنكح غيره فنهى الله عن ذلك وقدم فيه وأحل الخطبة والقول بالمعروف وقال ابن زيد ولكن لا تواعدوهن سرا هو أن يتزوجها في العدة سرا فاذا حلت أظهر ذلك وقد يحتمل ان تكون الآية عامة في جميع ذلك ولهذا قال الا أن تقولوا قولا معروفا قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي والثوري وابن زيد يعني به ما تقدم من اباحة التعريض كقوله اني فيك لراغب ونحو ذلك وقال محمد بن سيرين قلت لعبيدة ما معنى قوله الا أن تقولوا قولا معروفا قال يقول لوليها لا تسبقني بها يعني لا تزوجها حتى تعلمني رواه ابن أبي حاتم وقوله ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان والزهري وعطاء الخراساني والسدي والثوري والضحاك حتى يبلغ الكتاب أجله يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة وقد أجمع العلماء على انه لا يصح العقد في مدة العدة واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها فدخل بها فانه يفرق بينهما وهل تحرم عليه أبدا على قولين الجمهور على انها لا تحرم عليه بل له ان يخطبها اذا انقضت عدتها وذهب الامام مالك الى انها تحرم عليه على التأبيد واحتج في ذلك بما رواه عن ابن شهاب وسليمان بن يسار ان عمر رضي الله عنه قال أيما امرأة نكحت في عدتها فان كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الاول وكان خاطبا من الخطاب وان كان دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الاول ثم اعتدت من الآخر ثم لم ينكحها أبدا قالوا ومأخذ هذا ان الزوج لما استعجل ما أجل الله عوقب بنقيض قصده فحرمت عليه على التأبيد كالقاتل يحرم الميراث وقد روى الشافعي هذا الاثر عن مالك قال البيهقي وذهب اليه في القديم ورجع عنه في الجديد لقول علي انها تحل له (قلت) قال ثم هو منقطع عن عمر وقد روى الثوري عن أشعث عن الشعبي عن مسروق ان عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان وقوله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء وأرشدهم الى اضمار الخير دون الشر ثم لم يؤيسهم من رحمته ولم يقنطهم من عائدته فقال واعلموا أن الله غفور حليم (لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها قال ابن عباس وطاوس وابراهيم والحسن البصري المس النكاح بل ويجوز ان يطلقها قبل الدخول

قد أصيب محمد فاعطوا بأيديكم فانهاهم اخوانكم وقال آخرون لو كان رسولا ما قتل فرد الله عليهم ذلك وأخبرهم بانه رسول (قد خلت من قبله الرسل) وسيخلو كما خلوا فهذه الجملة صفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقصر قصر افراد كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين الرسالة وكونه لا يهلك فرد الله عليهم ذلك بانه رسول لا يتجاوز ذلك الى صفة عدم الهلاك وقيل هو قصر قلب ثم أنكر الله عليهم بقوله (أفائن مات) الهمزة للاستفهام الانكاري أي كيف ترتدون وتكفرون دينه اذا مات (أو قتل) مع علمكم ان الرسل تخلو وتمسك أتباعهم بدينهم وان فقدوا بموت أو قتل وقيل الانكار لجعلهم خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم بموته أو قتله وانما ذكر القتل سبحانه مع علمه انه لا يقتل لكونه مجوزا عند المخاطبين (انقلبتم على أعقابكم) أي ترجعون الى دينكم الاول يقال لكل من رجع الى ما كان عليه نكص على عقبيه ورجع وراءه والحاصل ان موته صلى الله عليه وآله وسلم أو قتله لا يوجب ضعفا في دينه ولا الرجوع عنه بدليل موت سائر الانبياء قبله وان أتباعهم ثبتوا على دين أنبيائهم بعد موتهم فلا ينبغي منكم الانقلاب والارتداد حينئذ لان محمدا عبد مبلغ لا معبود وقد بلغكم والمعبود باق فلا وجه لرجوعكم عن الدين الحق ولو مات من بلغكم اياه (ومن ينقلب على عقبيه) بادباره عن القتال أو بارتداده عن الاسلام (فلن يضر الله شيأ) وانما يضر نفسه (وسيجزي الله الشاكرين) أي الذين صبروا وقاتلوا واستشهدوا لانهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالاسلام ومن امتثل ما أمر به فقد شكر النعمة التي أنعم الله بها عليه وقال علي الشاكرين الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه فكان علي رضي الله عنه يقول كان أبو بكر رضي الله عنه أمير الشاكرين وكان أشكرهم وأحبهم الى الله تعالى وعنه انه كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والله لا ننقلب على أعقابنا بعد اذ هدانا الله والله لئن مات أو قتل لاقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت (وما كان لنفس أن تموت) هذا كلام مستأنف يتضمن

بها والفرض لها ان كانت مفوضة وان كان فى هذا انكسار لقلبها ولهذا أمر تعالى بامتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشئ تعطاه من زوجها بحسب حاله على الموسع قدره وعلى المقتر قدره وقال سفيان الثورى عن اسمعيل بن أمية عن عكرمة عن ابن عباس قال متعة الطلاق أعلاه الخادم ودون ذلك الورق ودون ذلك الكسوة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ان كان موسرا متعها بخادم أو نحو ذلك وان كان معسرا أمتعها بثلاثة أثواب وقال الشعبى أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب قال وكان شريح يمتع بخمسمائة وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين قال كان يمتع بالخادم أو بالنفقة أو بالكسوة قال ومتع الحسن بن على بعشرة آلاف ويروى ان المرأة قالت متاع قليل من حبيب مفارق وذهب أبو حنيفة الى انه متى تنازع الزوجان فى مقدار المتعة وجب لها عليه نصف (١١٨) مهر مثلها وقال الشافعى فى الجديد لا يجبر الزوج على قدر معلوم الا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة وأحب ذلك الى أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة وقال فى القديم لا أعرف فى المتعة قدرا الا انى أستحسن ثلاثين درهما كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما وقد اختلف العلماء أيضا هل تجب المتعة لكل مطلقة أو انما تجب المتعة لغير المدخول بها التى لم يفرض لها على أقوال أحدها انها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ولقوله تعالى يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وقد كن مفروضا لهن ومدخولا بهن وهذا قول سعيد ابن جبير وأبى العالية والحسن البصرى وهو أحد قولى الشافعى ومنهم من جعله الجديد الصحيح والله أعلم والقول الثانى انها تجب للمطلقة اذا طلقت قبل المسيس وان كانت مفروضا لها لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا قال شعبة وغيره عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال نسخت هذه الآية التى فى الاحزاب الآية التى فى البقرة وقد روى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد وأبى أسيد انهما قالا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامة بنت شراحبيل فلما أدخلت عليه بسط يده اليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد ان يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين والقول الثالث ان المتعة انما تجب للمطلقة اذا لم يدخل بها ولم يفرض لها فان كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها اذا كانت مفوضة وان كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره فان دخل بها استقر الجميع وكان ذلك عوضا لها عن المتعة وانما المصابة التى لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التى دلت هذه الآية الكريمة على

الحث على الجهاد والاعلام بان الموت لابد منه (الا باذن الله) أى ما كان لها أن تموت الا ما أذنوا لها فالاستثناء مفرغ والباء للمصاحبة يعنى بقضاء الله وقدره وأمره وقيل هذه الجملة متضمنة للانكار على من فشل بسبب ذلك الارجاف بقتله صلى الله عليه وآله وسلم فبين لهم ان الموت بالقتل أو بغيره منوط باذن الله واسناده الى النفس مع كونها غير مختارة له للايذان بانه لا ينبغى لاحد ان يقدم عليه الا باذنه وفيه تحريض المؤمنين على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو باعلامهم بان الجبن لا ينفع وان الحذر لا يدفع والثبات لا يقطع الحياة وان أحدا لا يموت الا بأجله وان خاض المهالك واقتحم المعارك واذا جاء الاجل لم يدفع الموت بحيلة فلا فائدة فى الجبن والخوف وفيه أيضا ذكر حفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عند غلبة العدو وتخليصه منهم عند التفافهم عليه واسلام أصحابه له فأنجاه الله من عدوه سالما مسلما لم يضره شئ (كتابا مؤجلا) معناه كتب الله الموت كتابا والمؤجل الموقت الذى لا يتقدم على أجله ولا يتأخر يعنى موقتا له أجل معلوم وقيل الكتاب هو اللوح المحفوظ لان فيه آجال جميع الخلائق والاول أولى والغرض من هذا السياق توبيخ المنهزمين يوم أحد (ومن يرد) بعمله (ثواب الدنيا) كالغنيمة ونحوها نزلت فى الذين تركوا المركز وطلبوا الغنيمة واللفظ يعم كل ما يسمى ثواب الدنيا وان كان السبب خاصا (نؤته منها) أى من ثوابها ما نشاء على ما قدرناه فهو على حذف المضاف (ومن يرد) بعمله (ثواب الآخرة) وهو الجنة نزلت فى الذين ثبتوا مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم لكنها عامة فى جميع الاعمال (نؤته منها) أى من ثوابها ونضاعف له الحسنات أضعافا كثيرة (وسنجزى الشاكرين) أى نجزيهم بامتثال ما أمرناهم به كالقتال ونهيناهم عنه كالفرار وقبول الارجاف والمراد بهم اما المجاهدون المعهودون من الشهداء وغيرهم واما جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولا أوليا والى الاول أشار فى التقرير والثانى أولى (وكاين) قال الخليل وسيبويه هى أى الاستفهامية وكاف التشبيه بمعنى كم التكثيرية

وجوب متعتها وهذا قول ابن عمر ومجاهد ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول وهذا ليس بمنكور وعليه تحمل آية التخيير في الاحزاب ولهذا قال تعالى على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ومن العلماء من يقول انها مستحبة مطلقا قال ابن أبي حاتم حدثنا كثير بن شهاب القزويني حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا عمرو يعني ابن أبي قيس عن أبي اسحق عن الشعبي قال ذكروا له المتعة أيحبس فيها فقر أعلى الموسع قدره وعلى المقتر قدره قال الشعبي والله ما رأيت أحدا حبس فيها والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وان تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون (١١٩) بصير) وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الاولى حيث انما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض اذا طلق الزوج قبل الدخول فانه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها لاسيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية والله أعلم وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء لا خلاف بينهم في ذلك فانه متى كان قد سمى لها صداقا ثم فارقها قبل دخوله بها فانه يجب لها نصف ما سمى من الصداق الا عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق اذا خلا بها الزوج وان لم يدخل بها وهو مذهب الشافعي في القديم وبه حكم الخلفاء الراشدون لكن قال الشافعي أخبرنا مسلم بن خالد أخبرنا ابن جريج عن ليث بن أبي سليم عن طاوس عن ابن عباس انه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها ليس لها الا نصف الصداق لان الله يقول وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم قال الشافعي بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب قال البيهقي وليث بن أبي سليم وان كان غير محتج به فقد روياه من حديث ابن أبي طلحة عن ابن عباس فهو مقوله وقوله الا ان يعفون أي النساء عما وجب لها على زوجها فلا يجب لها عليه شئ قال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله الا ان يعفون قال الا أن تعفو الثيب فتدع حقها قال الامام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله وروي عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والشعبي والحسن ونافع وقتادة وجابر بن زيد وعطاء الخراساني والضحاك والزهري ومقاتل ابن حيان وابن سيرين والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك قال وخالفهم محمد بن كعب القرظي فقال الا أن يعفون يعني الرجال وهو قول شاذ لم يتابع عليه انتهى كلامه وقوله أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح قال ابن أبي حاتم ذكر عن ابن لهيعة حدثني

وهي كناية عن عدد مبهم و (من نبي) تمييز لها وفي كأين خمس لغات ذكرها في الجمل واختار الشيخ ان كأين كلمة بسيطة غير مركبة وان آخرها نون هي من نفس الكلمة لا تنوين لان هذه الدعاوى لا يقوم عليها دليل والشيخ سلك في ذلك الطريق الاسهل والنحويون ذكروا هذه الاشياء محافظة على أصولهم مع ما ينضم الى ذلك من الفوائد وتشحيذ الذهن وتمرينه وأطال في الجمل الكلام على كأين من حيث الافراد والتركيب ليس في ذكره هنا كثير فائدة وقرئ (قتل) على البناء للمجهول واختارها أبو حاتم ولها وجهان أحدهما ان يكون في قتل ضمير يعود الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحينئذ يكون قوله (معه ربيون) جملة حالية والثاني ان يكون القتل واقعا على ربيون فلا يكون في قتل ضمير والمعنى قتل بعض أصحابه وهم الربيون وربح الزمخشري هذا بقراءة قتادة قتل بالتشديد وقرئ قاتل واختارها أبو عبيد وقال ان الله اذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه واذا حمد من قتل لم يدخل فيه من قاتل ولم يقتل فقاتل أعم وأمدح ويرجح هذه القراءة الاخرى والوجه الثاني من القراءة الاولى قول الحسن ما قتل نبي في حرب قط وقيل قتل فارغ من الضمير مسند الى ربيون والربيون بكسر الراء قراءة الجمهور وقرأ علي بضمها وابن عباس بفتحها قال ابن جني والفتح لغة تميم وواحده ربي منسوب الى الرب والربي بضم الراء وكسرها منسوب الى الربة بكسر الراء وضمها وهي الجماعة ولهذا فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة وقيل هم الاتباع قال الخليل الربي الواحد من العباد الذين صبروا مع الانبياء وهم الربانيون نسبوا الى التأله والعبادة ومعرفة الربوبية وقال الزجاج الربيون بالضم الجماعات وقال النقاش هم المكثرون العلم من قولهم ربا يربو اذا كثر وقال ابن مسعود ربيون ألوف وعن الضحاك الربة الواحدة ألف وعن ابن عباس قال جموع وعلماء (كثير) والمعنى ان كثيرا من الانبياء قتلوا (فما وهنوا) قرئ بفتح الهاء وبكسرها وهما لغتان والوهن انكسار الجد بالخوف وهن الشئ يهن وهنا

عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ولي عقدة النكاح الزوج وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة به وقد أسنده ابن جرير عن ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره ولم يقل عن أبيه عن جده فالله أعلم ثم قال ابن أبي حاتم وحدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا جابر يعني ابن أبي حازم عن عيسى يعني ابن عاصم قال سمعت شريحا يقول سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح فقلت له هو ولي المرأة فقال على لا بل هو الزوج ثم قال وفي احدى الروايات عن ابن عباس وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح في أحد قوليه وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعكرمة ونافع ومحمد بن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وجابر بن زيد وأبي مجلز والربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان انه الزوج (١٢٠) (قلت) وهذا هو الجديد من قولي الشافعي ومذهب أبي حنيفة وأصحابه والثوري وابن شبرمة والاوزاعي واختاره ابن جرير ومأخذ هذا القول ان الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج فان بيده عقدها وابرامها ونقضها وانهدامها وكما انه لا يجوز للولي ان يهب شيأ من مال المولية للغير فكذلك في الصداق قال والوجه الثاني حدثنا أبي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عمرو بن دينار عن ابن عباس في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح قال ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح الا باذنه وروي عن علقمة والحسن وعطاء وطاوس والزهري وربيعة وزيد بن أسلم وابراهيم النخعي وعكرمة في أحد قوليه ومحمد بن سيرين في أحد قوليه انه الولي وهذا مذهب مالك وقول الشافعي في القديم ومأخذه ان الولي هو الذي أكسبها اياه فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها وقال ابن جرير حدثنا سعيد بن الربيع الرازي حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال أذن الله في العفو وأمر به فأي امرأة عفت جاز عفوها فان شحت وضنت عفا وليها جاز عنهم عفوه وهذا يقتضي صحة عفو الولي وان كانت رشيدة وهو مروي عن شريح لكن أنكر عليه الشعبي فرجع عن ذلك وصار الى انه الزوج وكان يباهل عليه وقوله وان تعفوا أقرب للتقوى قال ابن جرير قال بعضهم خوطب به الرجال والنساء حدثني يونس أنبأنا ابن وهب سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن ابي رباح عن ابن عباس وان تعفوا أقرب للتقوى قال أقربهما للتقوى الذي يعفو وكذا روي عن الشعبي وغيره وقال مجاهد والنخعي والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثوري الفضل ههنا ان تعفو المرأة عن شطرها أو اتمام الرجل الصداق لها ولهذا قال ولا تنسوا الفضل بينكم أي الاحسان قاله سعيد وقال الضحاك وقتادة والسدي وأبو وائل المعروف يعني لا تهملوه بل استعملوه بينكم وقد قال أبو بكر ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم

كوعد يعد ووهن يوهن كوجل يوجل ضعف أي ما جبنوا عن الجهاد (لما أصابهم) أي نالهم (في سبيل الله) من ألم الجروح وقتل الانبياء والاصحاب والقروح (وما ضعفوا) أي عن عدوهم بل استمروا على جهادهم لان الذي أصابهم هو في سبيل الله وطاعته واقامة دينه ونصرة نبيه فكان ينبغي لكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان تفعلوا مثل ذلك قرئ ضعفوا بضم العين وفتحها وحكاهما الكسائي لغة (وما استكانوا) لما أصابهم في الجهاد والاستكانة الذلة والخضوع وقال ابن عباس الخشوع وعبارة السمين فيه ثلاثة أقوال أحدها انه استفعل من الكون والكون الذل وأصله استكون وقال الزهري وأبو علي الاصل استكين وقال الفراء وزنه افتعل من السكون انتهى وفي هذا توبيخ لمن انهزم يوم أحد وذل واستكان وضعف بسبب ذلك الارجاف الواقع من الشيطان ولم يصنع كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل (والله يحب الصابرين) في الجهاد على تحمل الشدائد (وما كان قولهم) أي قول أولئك الذين كانوا مع الانبياء والاستثناء مفرغ أي ما كان قولهم عند ان قتل منهم ربانيون أو قتل نبيهم مع ثباتهم وصبرهم عند لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب واصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والاهوال شيء من الاشياء (الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا) قيل هي الصغائر (واسرافنا في أمرنا) قيل هي الكبائر والظاهر ان الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبا من صغيرة أو كبيرة والاسراف ما فيه مجاوزة للحد فهو من عطف الخاص على العام قالوا ذلك مع كونهم ربانيين هضما لانفسهم واستقصارا لها واسنادا لما أصابهم الى أعمالهم وبراءة من التفريط في جنب الله وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الاهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم (وثبت أقدامنا) أي في مواضع القتال ومواطن الحرب بالتقوية والتأييد من عندك أو ثبتنا على دينك الحق (وانصرنا على القوم الكافرين) تقرير له الى حيز القبول فان الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب الى الاستجابة والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير ان يصدر

حدثنا موسى بن اسحق حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا يونس بن بكير حدثنا عبد الله بن الوليد الرصافي عن عبد الله بن عبيد عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليأتين على الناس زمان عضوض يعض المؤمن على ما في يديه وينسى الفضل وقد قال الله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم شرار بيا يعون كل مضطر وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع المضطر وعن بيع الغرر فان كان عندك خير فعد به على أخيك ولا تزده هلاكا الى هلاكه فان المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه وقال سفيان عن أبي هرون قال رأيت عون بن عبد الله في مجلس القرظي فكان عون يحدثنا ولحيته ترش من البكاء ويقول صحبت الاغنياء فكنت من أكثرهم هما حين رأيتهم أحسن ثيابا وأطيب ريحا وأحسن مركبا وجالست الفقراء فاسترحت بهم وقال ولا تنسوا الفضل بينكم اذا أتاه السائل وليس عنده شئ فليدع له رواه ابن أبي حاتم ان الله (١٢١) بما تعملون بصير أي لا يخفى عليه شئ من أموركم وأحوالكم ويجزي كل عامل بعمله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين فان خفتم فرجالا أو ركبانا فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل قال الصلاة في وقتها قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله قلت ثم أي قال بر الوالدين قال حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادني وقال الامام أحمد حدثنا يونس حدثنا ليث عن عبد الله بن عمر بن حفص ابن عاصم عن القاسم بن غنام عن جدته أم أبيه الدنيا عن جدته أم فروة وكانت ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم انها سمعت

عنهم قول يوهم شائبة الجزع والتزلزل في مواقف الحرب ومراصد الدين وفيه من التعريض بالمنهزمين ما لا يخفى (فآتاهم الله) بسبب ذلك الدعاء (ثواب الدنيا) من النصر والغنيمة والعز وقهر الاعداء والثناء الجميل وغفران الذنوب والخطايا ونحوها (وحسن ثواب الآخرة) من اضافة الصفة الى الموصوف أي ثواب الآخرة الحسن وهو نعيم الجنة جعلنا الله تعالى من أهلها والتفضل فوق الاستحقاق (والله يحب المحسنين) الذين يفعلون ما فعل هؤلاء وهذا تعليم من الله سبحانه لعباده المؤمنين ان يقولوا مثل هذا عند لقاء العدو وفيه دقيقة لطيفة وهي انهم لما اعترفوا بذنوبهم وكونهم مسيئين سماهم الله تعالى محسنين ثم لما أمر سبحانه بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الانبياء حذر عن طاعة الكفار وقال (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا) وهم مشركو العرب وقيل اليهود والنصارى وقيل المنافقون في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى دين آبائكم وقيل عامة في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فانه يستجر الى موافقتهم (يردوكم على أعقابكم) أي يخرجونكم من دين الاسلام الى الكفر (فتنقلبوا) ترجعوا (خاسرين) مغبونين فيهما أما خسران الدنيا فلان أشق الاشياء على العقلاء الانقياد الى العدو واظهار الحاجة اليه وأما خسران الآخرة فالحرمان عن الثواب المؤبد والوقوع في العقاب المخلد (بل الله مولاكم) اضراب عن مفهوم الجملة الاولى أي ان تطيعوا الكافرين يخذلوكم ولا ينصروكم بل الله ناصركم دون غيره (وهو خير الناصرين) فاستغنوا به وأطيعوه دونهم (سنلقي) بنون العظمة وهو التفات عن الغيبة في قوله وهو خير الناصرين وذلك للتنبيه على عظم ما يلقيه تعالى وقرئ بالياء جريا على الاصل (في قلوب الذين كفروا) قدم المجرور على المفعول به اهتماما بذكر المحل قبل ذكر الحال (الرعب) بضم الراء والعين وسكونهما وهما لغتان ويجوز ان يكون مصدرا والرعب بالضم الاسم وبضم العين للاتباع وأصله الملأ يقال سيل راعب أي يملأ الوادي ورعبت الحوض ملأته

(١٦ - فتح البيان ني) رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الاعمال فقال ان أحب الاعمال الى الله تعجيل الصلاة لاول وقتها وهكذا رواه أبو داود والترمذي وقال لا نعرفه الا من طريق العمري وليس بالقوي عند أهل الحديث وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى وقد اختلف السلف والخلف فيها أي صلاة هي فقيل انها الصبح حكاه مالك في الموطا بلاغا عن علي وابن عباس وقال هشيم وابن علية وغندر وابن أبي عدي وعبد الوهاب وشريك وغيرهم عن عوف الاعرابي عن أبي رجاء العطاردي قال صليت خلف ابن عباس الفجر فقنت فيها ورفع يديه ثم قال هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا ان نقوم فيها قانتين رواه ابن جرير ورواه أيضا من حديث عوف عن خلاس ابن عمرو عن ابن عباس مثله سواء وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا عوف عن أبي المنهال عن أبي العالية عن ابن عباس انه صلى الغداة في مسجد البصرة فقنت قبل الركوع وقال هذه الصلاة

الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين وقال أيضا حدثنا محمد بن عيسى الدامغاني أخبرنا ابن المبارك أخبرنا الربيع بن أنس عن أبي العالية قال صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة فقلت لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جانبي ما الصلاة الوسطى قال هذه الصلاة وروى من طريق أخرى عن الربيع عن أبي العالية أنه صلى مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغداة فلما فرغوا قال قلت لهم أيتهن الصلاة الوسطى قالوا التي قد صليتها قبل وقال أيضا حدثنا ابن بشار حدثنا ابن عثمة عن سعيد بن بشير عن قتادة عن جابر بن عبد الله قال الصلاة الوسطى صلاة الصبح وحكاه ابن أبي حاتم عن ابن عمر وأبي امامة وأنس وأبي العالية وعبيد بن عمير وعطاء ومجاهد وجابر بن زيد وعكرمة والربيع بن أنس ورواه (١٢٢) ابن جرير عن عبد الله بن شداد بن الهاد أيضا وهو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله محتجا بقوله تعالى وقوموا لله قانتين والقنوت عنده في صلاة الصبح ومنهم من قال هي وسطى باعتبار انها لا تقصر وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين وتر المغرب وقيل لانها بين صلاتي ليل جهريتين وصلاتي نهار سريتين وقيل انها صلاة الظهر قال أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا ابن أبي ذئب عن الزبرقان يعني ابن عمرو عن زهرة يعني ابن معبد قال كنا جلوسا عند زيد بن ثابت فأرسلوا الى اسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى فقال هي الظهر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليها بالهجير وقال أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثني عمرو بن أبي حكيم سمعت الزبرقان يحدث عن عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فنزلت حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين وقال ان قبلها صلاتين ورواه أبو داود في سننه من حديث شعبة به وقال أحمد أيضا حدثنا يزيد حدثنا ابن أبي وهب عن الزبرقان ان رهطا من قريش مروا بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون فأرسلوا اليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى فقال هي العصر فقام اليه رجلان منهم فسألاه فقال هي الظهر ثم انصرفا الى اسامة بن زيد فسألاه فقال هي الظهر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي الظهر بالهجير فلا يكون وراءه الا الصف والصفان والناس في قائلتهم وفي تجارتهم فأنزل الله حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لينتهين رجال أو لأحرقن بيوتهم والزبرقان هو ابن عمرو بن أمية الضمري لم يدرك أحدا من الصحابة والصحيح ما تقدم من روايته عن زهرة بن معبد وعروة بن الزبير وقال شعبة

فالمعنى سنملأ قلوب الكافرين رعبا أي خوفا وفزعا والالقاء يستعمل حقيقة في الاجسام ومجازا في غيرها كهذه الآية وذلك ان المشركين بعد وقعة أحد ندموا ان لا يكونوا استأصلوا المسلمين وقالوا بئسما صنعنا قتلناهم حتى اذا لم يبق منهم الا الشريد تركناهم ارجعوا فاستأصلوهم فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به (بما أشركوا بالله) أي بسبب اشراكهم به تعالى (ما لم ينزل به) أي بجعله شريكا له (سلطانا) حجة وبيانا وبرهانا سميت الحجة سلطانا لقوتها على دفع الباطل أو لوضوحها وانارتها أو لحدتها ونفوذها والنفي يتوجه الى القيد والمقيد أي لا حجة ولا انزال والمعنى ان الاشراك بالله لم يثبت في شيء من الملل (ومأواهم) مسكنهم (النار) بيان لاحوالهم في الآخرة بعد بيان أحوالهم في الدنيا (وبئس مثوى الظالمين) أي المسكن الذي يستقرون فيه وكلمة بئس تستعمل في جميع المذام وفي جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم رمز الى خلودهم فيها فان المثوى مكان الاقامة المنبئة عن المكث والمأوى المكان الذي يأوي اليه الانسان وقدم المأوى على المثوى لانه على الترتيب الوجودي يأوي ثم يثوى قاله الكرخي (ولقد صدقكم الله وعده) نزلت لما قال بعض المسلمين من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر وذلك انه كان الظفر لهم في الابتداء حتى قتلوا صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده فلما اشتغلوا بالغنيمة وترك الرماة مركزهم طلبا للغنيمة كان ذلك سبب الهزيمة (اذ تحسونهم) الحس الاستئصال بالقتل أي تستأصلونهم قتلا يقال جراد محسوس اذا قتله البرد وسنة حسوس أي جدبة تأكل كل شيء قيل وأصله من الحس الذي هو الادراك بالحاسة فمعنى حسه أذهب حسه بالقتل قال الكرخي المراد به هنا البصر ثم وضع موضع العلم والوجود ومنه قوله تعالى فلما أحس عيسى منهم الكفر أي علم ومنه قوله هل تحس منهم من أحد أي ترى ومعنى الطلب ومنه قوله فتحسسوا من يوسف أي اطلبوا خبره انتهى (باذنه) أي بعلمه أو بقضائه (حتى اذا فشلتم) أي جبنتم وضعفتم قيل جوابه مقدر

وهمام عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن زيد بن ثابت قال الصلاة الوسطى صلاة الظهر وقال أبو داود الطيالسي وغيره عن شعبة أخبرني عمر بن سليمان من ولد عمر بن الخطاب قال سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان يحدث عن أبيه عن زيد ابن ثابت قال الصلاة الوسطى هي الظهر ورواه ابن جرير عن زكريا بن يحيى بن أبي زائدة عن عبد الصمد عن شعبة عن عمر بن سليمان عن زيد بن ثابت في حديث رفعه قال الصلاة الوسطى صلاة الظهر وممن روى عنه انها الظهر ابن عمر وأبو سعيد وعائشة على اختلاف عنهم وهو قول عروة بن الزبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ورواية عن أبي حنيفة رحمهم الله وقيل انها صلاة العصر قال الترمذي والبغوي رحمهم الله وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم وقال القاضي الماوردي هو قول جمهور التابعين وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر هو قول أكثر أهل الاثر وقال أبو محمد بن عطية (١٢٣) في تفسيره وهو قول جمهور الناس وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن ابن خلف الدمياطي في كتابه المسمى بكشف الغطا في تبيين الصلاة الوسطى وقد نص فيه انها العصر وحكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبي هريرة وأبي سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عمر وابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم وبه قال عبيدة وابراهيم النخعي وزر بن حبيش وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وقتادة والضحاك والكلبي ومقاتل وعبيد بن مريم وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل قال القاضي الماوردي والشافعي قال ابن المنذر وهو الصحيح عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد واختاره ابن حبيب المالكي رحمهم الله ذكر الدليل على ذلك قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن مسلم عن شتير بن شكل عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية محمد بن حازم الضرير والنسائي من طريق عيسى بن يونس كلاهما عن الاعمش عن مسلم بن صبيح عن أبي الضحى عن شتير بن شكل بن حميد عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله وقد رواه مسلم أيضا من طريق شعبة عن الحكم بن عيينة عن يحيى بن الجزار عن علي بن أبي طالب وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وغير واحد من أصحاب المسانيد والسنن والصحاح من طرق يطول ذكرها عن عبيدة السلماني عن علي به ورواه الترمذي والنسائي من طريق الحسن البصري عن علي به قال الترمذي ولا يعرف سماعه منه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن عاصم عن زر قال قلت لعبيدة سل عليا عن الصلاة الوسطى

امتحنتم وقال الفراء جوابه (وتنازعتم) والواو مقحمة زائدة كقوله فلما اسلما وتله للجبين وقال أبو علي جوابه صرفكم عنهم الآتي وقيل فيه تقديم وتأخير أي حتى اذا تنازعتم (في الامر وعصيتم) فشلتم وقيل ان الجواب وعصيتم والواو مقحمة وقد جوزا الاخفش مثله في قوله تعالى حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم وقيل حتى بمعنى الى وحينئذ لا جواب لها واذا هذه على بابها والتنازع المذكور هو ما وقع من الرماة حين قال بعضهم نلحق الغنائم وقال بعضهم نثبت في مكاننا كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعنى (من بعد ما أراكم) ما وقع لهم من النصر في الابتداء في يوم أحد كما تقدم قال ابن عباس من بعد ما أراكم يعني الغنائم وهزيمة القوم قال عروة كان الله وعدهم على الصبر والتقوى ان يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وكان قد فعل فلما عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركوا مصافهم وتركت الرماة عهد الرسول اليهم ان لا يبرحوا منازلهم وأرادوا الدنيا رفع عنهم مدد الملائكة وقصة أحد مستوفاة في كتب السير والتواريخ فلا حاجة لاطالة الشرح هنا (منكم) من النصر والظفر يا معشر المسلمين (من يريد الدنيا) يعني الغنيمة فترك المركز لها (ومنكم من يريد الآخرة) أي الاجر بالبقاء في مركزه امتثالا لامر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فثبت به حتى قتل كعبد الله بن جبير وأصحابه (ثم صرفكم عنهم) أي ردكم عن المشركين بالهزيمة بعد ان استولیتم عليهم (ليبتليكم) أي ليمتحنكم فيظهر المخلص من غيره وقيل لينزل عليكم البلاء لتتوبوا اليه وتستغفروه والاول أولى (ولقد عفا عنكم) ما ارتكبتموه تفضلا لما علم من ندمكم فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة والخطاب لجميع المنهزمين وقيل للرماة فقط (والله ذو فضل على المؤمنين) بالعفو وفي الآية دليل على ان صاحب الكبيرة مؤمن (اذ تصعدون) متعلق بقوله صرفكم أو بقوله ولقد عفا عنكم أو بقوله ليبتليكم قاله الزمخشري وقال أبو البقاء بقوله لعصيتم أو تنازعتم أو فشلتم وكل هذه

فسأله فقال كنا نراها الفجر أو الصبح حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الاحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وأجوافهم أو بيوتهم نارا ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدي به وحديث يوم الاحزاب وشغل المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ مروي عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم وانما المقصود رواية ابن نصر منهم في روايته ان الصلاة الوسطى هي صلاة العصر وقد رواه مسلم أيضا من حديث ابن مسعود والبراء بن عازب رضي الله عنهما حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام عن قتادة عن الحسن عن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صلاة الوسطى صلاة العصر وحدثنا بهز وعفان قالا حدثنا أبان حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وسماها لنا انها هي صلاة العصر وحدثنا محمد بن جعفر وروح قالا حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هي العصر قال ابن جعفر سئل عن صلاة الوسطى ورواه الترمذي من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة وقال حسن صحيح وقد سمع منه حديث آخر وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن منيع حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن التيمي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة الوسطى صلاة العصر طريق أخرى بل حديث آخر قال ابن جرير وحدثني المثنى حدثنا سليمان بن أحمد الجرشي الواسطي حدثنا الوليد بن مسلم قال أخبرني صدقة بن خالد حدثني خالد بن دهقان عن خالد بن سيلان عن كهيل بن حرملة قال سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى فقال اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها وضمن بفناء بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطنا الرجل الصالح أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فقال غم أنا أعلم لكم ذلك فقام فاستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليه ثم خرج الينا فقال أخبرنا انها صلاة العصر غريب من هذا الوجه جدا حديث آخر قال ابن جرير حدثنا أحمد بن اسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد السلام عن مسلم مولى أبي جبير حدثني ابراهيم بن يزيد الدمشقي قال كنت جالسا عند عبد العزيز بن مروان فقال يا فلان اذهب الى فلان فقل له أي شيء سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة الوسطى فقال رجل جالس أرسلني أبو بكر وعمر وأنا غلام صغير أسأله عن الصلاة الوسطى فأخذ أصبعي الصغيرة فقال هذه صلاة الفجر وقبض التي تليها فقال هذه الظهر ثم قبض الابهام فقال هذه المغرب ثم قبض التي تليها فقال هذه العشاء ثم قال أي أصابعك بقيت فقلت الوسطى فقال أي الصلاة بقيت فقلت العصر فقال هي العصر غريب

الوجوه سائغة وكونه ظرفا لصرفكم جيد من جهة المعنى ولعنا جيد من جهة القرب وعلى بعض هذه الاقوال تكون المسئلة من باب التنازع وتكون على اعمال الاخير منها لعدم الاضمار في الاول ويكون التنازع في أكثر من عاملين قال أبو حاتم يقال أصعدت اذا مضيت حيال وجهك وصعدت اذا ارتقيت في جبل فالاصعاد السير في مستوى الارض وبطون الاودية والصعود الارتفاع على الجبال والسطوح والسلالم والدرج فيحتمل ان يكون صعودهم في الجبل بعد اصعادهم في الوادي وقال القتبي أصعدا ذا أبعد في الذهاب وأمعن فيه وقال الفراء الاصعاد الابتداء في السفر والانحدار الرجوع منه يقال أصعدنا من بغداد الى مكة والى خراسان واشباه ذلك اذا خرجنا اليها وأخذنا في السفر وانحدرنا اذا رجعنا وقال المنضل صعد وأصعد بمعنى واحد وقرئ تصعدون بالتشديد وأصلها تتصعدون بتاء الخطاب وقرئ بياء الغيبة على الالتفات وهو حسن والضمير يعود على المؤمنين (ولا تلوون) وقرئ بضم التاء من ألوى وهي لغة فنعل وأفعل بمعنى وقرئ بواو واحدة أي لا تعرجون من التعريج وهو الاقامة على الشيء فان المعرج الى الشيء يلوي اليه عنقه أو عنق دابته وكذا شأن المنتظر والمعنى لا تقيمون (على أحد) ممن معكم وقيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يلتفت بعضكم الى بعض ولا يقف واحد منكم لواحد ولا ينتظره هربا (والرسول يدعوكم في أخراكم) في الطائفة المتأخرة منكم يقال جاء فلان في آخر الناس وآخرة الناس وأخرى الناس وأخريات الناس وقيل من ورائكم وقال أبو السعود في ساقتكم وجملتكم الاخرى فكان دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى عباد الله أي ارجعوا (فأثابكم) أي فجازاكم الله (غما) حين صرفكم عنهم بسبب غم اذ قتلوه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعصيانكم أو غما موصولا (بغم) بسبب ذلك الارجاف والجرح والقتل وظفر المشركين والباء على هذا بمعنى على أي مضاعفا على غم فوت الغنيمة والغم في الاصل التغطية غممت الشيء غطيته ويوم

أيضا حديث آخر قال ابن جرير حدثني محمد بن عوف الطائي حدثنا محمد بن اسمعيل بن عياش حدثني أبي حدثني أبو ضمضم
ابن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة الوسطى صلاة العصر اسناده
لا بأس به حديث آخر قال أبو حاتم بن حبان في صحيحه حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير حدثنا الجراح بن مخلد حدثنا عمرو بن عاصم
حدثنا همام بن مورق العجلي عن أبي الاحوص عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الوسطى صلاة العصر وقد
روى الترمذي من حديث محمد بن طلحة بن مصرف عن زبيد اليامي عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم صلاة الوسطى صلاة العصر ثم قال حسن صحيح وأخرجه مسلم في صحيحه من طريق محمد بن طلحة به ولفظه شغلونا عن
الصلاة الوسطى صلاة العصر الحديث فهذه نصوص في المسئلة لا تحتمل شيأ ويؤكد ذلك الامر بالمحافظة عليها

غم وليلة غمة اذا كانا مظلمين ومنه غم الهلال وقيل الغم الاول الهزيمة والثاني اشراف
أبي سفيان وخالد بن الوليد عليهم في الجبل وقيل الغم الاول هو ما فاتهم من الظفر والثاني
ما نالهم من الهزيمة وقيل الاول ما أصابهم من القتل والجراح والثاني ما سمعوا بان محمدا
صلى الله عليه وآله وسلم قد قتل وقيل الاول بسبب اشراف خالد بن الوليد مع خيل
المشركين والثاني حين أشرف أبو سفيان وسميت العقوبة التي نزلت بهم ثوابا على سبيل
المجاز لان لفظ الثواب لا يستعمل في الاغلب الا في الخير وقد يجوز استعماله في الشر لانه
مأخوذ من ثاب اذا رجع فاصل الثواب كل ما يعود الى الفاعل من جزاء فعله سواء كان
خيرا أو شرا فمتى حملنا لفظ الثواب على أصل اللغة كان حقيقة ومتى حملناه على الاغلب
كان مجازا (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) من الغنيمة (ولا ما أصابكم) من الهزيمة تمرينا
لكم على المصائب وتدريبا لاحتمال الشدائد وقال المفضل لكي تحزنوا لازائدة كقوله
ان لا تسجد وقوله لئلا يعلم أي ان تسجد وليعلم (والله خبير بما تعملون) من الاعمال
خيرها وشرها فيجازيكم عليها (ثم أنزل عليكم) يا معشر المسلمين (من بعد الغم) النصر يح
بالبعدية مع دلالة ثم عليها وعلى التراخي لزيادة البيان وتذكير عظم النعمة (أمنة) الامنة
والامن سواء وقيل الامنة انما تكون مع بقاء أسباب الخوف والامن مع عدمه وكان
سبب الخوف بعد باقيا (نعاسا) وهو أخف من النوم بدل كل أو اشتمال واختاره السمين
(يغشى طائفة منكم) قال ابن عباس انما ينعس من يأمن والخائف لا ينام والطائفة
تطلق على الواحد والجماعة وهذه الطائفة هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلبا للاجر
والطائفة الاتية هم معتب بن قشير وأصحابه وكانوا خرجوا طمعا في الغنيمة وجعلوا
يتأسفون على الحضور ويقولون الاقاويل وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره ان أبا طلحة
قال غشينا ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط فآخذه
فذلك قوله يعني هذه الاية وعن الزبير بن العوام قال رفعت رأسي يوم أحد فجعلت

وقوله صلى الله عليه وسلم في
الحديث الصحيح من رواية الزهري
عن سالم عن أبيه ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال من فاتته صلاة
العصر فكأنما وتر أهله وماله وفي
الصحيح أيضا من حديث الاوزاعي
عن يحيى بن أبي كثير عن أبي قلابة
عن أبي كثير عن أبي المجاهر عن
بريدة بن الحصيب عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال بكروا بالصلاة
في يوم الغيم فانه من ترك صلاة العصر
فقد حبط عمله وقال الامام أحمد
حدثنا يحيى بن اسحق أخبرنا ابن
لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن
أبي تميم عن أبي نضرة الغفاري قال
صلى بنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم في وادمن أودية تهم يقال له
الحميص صلاة العصر فقال ان
هذه الصلاة عرضت على الذين من
قبلكم فضيعوها ألا ومن صلاها
ضعف له أجره مرتين ألا ولا صلاة
بعدها حتى تروا الشاهد ثم قال رواه

عن يحيى بن اسحق عن الليث عن جبير بن نعيم عن عبد الله بن هبيرة به وهكذا رواه مسلم والنسائي جميعا عن قتيبة عن الليث ورواه
مسلم أيضا من حديث محمد بن اسحق حدثني يزيد بن أبي حبيب كلاهما عن جبير بن نعيم الحضرمي عن عبد الله بن هبيرة السبائي به
فاما الحديث الذي رواه الامام أحمد أيضا حدثنا اسحق أخبرني مالك عن زيد بن أسلم عن القعقاع بن حكيم عن أبي يونس مولى عائشة
قال أمرتني عائشة ان أكتب لها مصحفا قالت اذا بلغت هذه الاية حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فآذني فلما بلغتها
آذنتها فأملت علي حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين قالت سمعتها من رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهكذا رواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن مالك به وقال ابن جرير حدثني بن المثنى حدثنا الحجاج حدثنا حماد عن هشام بن عروة عن
أبيه قال كان في مصحف عائشة حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر وهكذا رواه من طريق الحسن البصري

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها كذلك وقد روى الامام مالك أيضا عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع قال كنت أكتب مصحفا لحفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فقالت اذا بلغت هذه الآية فآذني فلما بلغتها آذنتها فأملت علي حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين وهكذا رواه محمد بن اسحق بن يسار فقال حدثني أبو جعفر محمد بن علي ونافع مولى بن عمران عمر بن نافع قال فذكر مثله وزاد كما حفظتها من النبي صلى الله عليه وسلم طريق أخرى عن حفصة قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن عبد الله بن يزيد الازدي عن سالم بن عبد الله أن حفصة أمرت انسانا أن يكتب لها مصحفا فقالت اذا بلغت هذه الآية حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فآذني فلما بلغ آذنها (١٢٦) فقالت اكتب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر طريق أخرى قال ابن جرير حدثني ابن المثنى حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفا فقالت اذا بلغت هذه الآية حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها فلما بلغها أمرته فكتبها حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين قال نافع فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو وكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وعبيد بن عمير انهما قرآ كذلك وقال ابن جرير حدثنا ابو كريب حدثنا عبيدة حدثنا محمد بن عمرو حدثني أبو سلمة عن عمرو بن رافع مولى عمر قال كان في مصحف حفصة حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين وتقرير المعارضة انه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة فدل ذلك على انها غيرها المحفوظ وأجيب عن ذلك بوجوه أحدها ان هذا ان روى على انه خبر فحديث علي أصح وأصرح منه وهذا يحتمل ان تكون الواو زائدة كما قالوا في قوله وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات كقوله ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكقوله سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى وأشباه ذلك كثيرة وقال الشاعر

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة في المزدحم

وقال ابو داود الايادي

سلط الموت والمنون عليهم * فلهم في صدى المقابر هام

أنظر وما منهم من أحد الا وهو يميل تحت حجفته من النعاس وتلا هذه الآية (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) حملتهم على الهم أهمني الامر أقلقني وجاز الابتداء بالنكرة لاعتمادها على واو الحال أو مستأنفة وقيل ان المعنى صارت أنفسهم همهم لاهم لهم غيرها فلا رغبة لهم الا نجاتها دون النبي وأصحابه فلم يناموا وهم المنافقون وفي القاء النعاس على المؤمنين دون المنافقين آية عظيمة ومعجزة باهرة لان النعاس كان سبب أمن المؤمنين وعدم النعاس عن المنافقين كان سبب خوفهم (يظنون بالله) أي في الله أي في حكمه والجملة استئناف على وجه البيان لما قبله ظنا (غير الحق) الذي يجب ان يظن به وهو ظنهم ان أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم باطل وانه لا ينصر ولا يتم مادعا اليه من دين الحق (ظن الجاهلية) بدل من غير الحق وهو الظن المختص بملة الجاهلية قاله القاضي فهو من اضافة الموصوف الى مصدر الصفة أو من اضافة المصدر الى الفاعل على حذف المضاف أي ظن أهل الجاهلية وأهل الشرك قاله التفتازاني (يقولون) لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هل لنا من الامر من شئ) أي من أمر الله نصيب وهذا الاستفهام معناه الجحد أي ما لنا شئ من الامر وهو النصر والاستظهار على العدو وقيل هو الخروج أي انما خرجنا مكرهين فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله (قل ان الامر كله لله) وليس لكم ولا لغيركم منه شئ فالنصر بيده والظفر منه (يخفون) أي يضمرون (في أنفسهم) ويقولون فيما بينهم بطريق الخفية (ما لا يبدون لك) من الكفر والشرك والشك في وعد الله وقيل يخفون الندم على خروجهم مع المسلمين وقيل النفاق بل يسألونك سؤال المسترشدين والجملة حال (يقولون لو كان لنا من الامر شئ) استئناف على وجه البيان له أو بدل من يخفون والاول أجود كما في الكشاف (ما قتلنا ههنا) أي ما قتل من قتل منا في هذه المعركة فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله (قل لو كنتم) قاعدين (في بيوتكم) بالمدينة كما تقولون (لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) أي لم يكن بد من خروج من كتب عليه القتل في اللوح

والموت هو المنون قال عدى بن زيد العتادى فقدمت الاديم لراهشيه * فألفى قولها كذبا ومينا
والكذب هو المين وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل مررت بأخيك وصاحبك ويكون الصاحب هو الاخ نفسه والله أعلم وأما ان روى على انه قرآن فانه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ولهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فى المصحف ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين ثبتت الحجة بقراءتهم لا من السبعة ولا من غيرهم ثم قد روى ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة فى هذا الحديث قال مسلم حدثنا اسحق بن راهويه أخبرنا يحيى بن آدم عن فضيل بن مرزوق عن شقيق بن عقبة عن البراء بن عازب قال نزلت حافظوا على الصلوات وصلاة العصر فقرأناها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ثم نسخها الله عز وجل فأنزل حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فقال له زاهر رجل كان مع شقيق أفهى العصر قال قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله عز وجل قال مسلم ورواه الاشجعى عن الثورى عن الاسود عن شقيق قلت وشقيق هذا لم يرو له مسلم سوى هذا الحديث الواحد والله أعلم فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهى تلاوة الجادة ناسخة لنفظ رواية عائشة وحفصة ولمعناها ان كانت الواو الة على المغايرة والا فلفظها فقط والله أعلم وقيل ان الصلاة الوسطى هى صلاة المغرب رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وفى اسناده نظر فانه رواه عن أبيه عن أبى الجماهر عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى الخليل عن عمه عن ابن عباس قال صلاة الوسطى المغرب وحكى هذا القول ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب وحكى أيضا عن قتادة على اختلاف عنه ووجه هذا القول بعضهم بانها وسطى فى العدد بين الرباعية والثنائية وبانها وتر المفروضات وبما جاء فيها من الفضيلة والله أعلم وقيل انها العشاء الاخيرة اختاره على بن أحمد الواحدى فى تفسيره المشهور وقيل هى واحدة من الخمس لا بعينها وأبهمت فيهن كما أبهمت ليلة القدر فى الحول أو الشهر أو العشر ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب وشريح القاضى ونافع مولى بن عمر والربيع بن خيثم ونقل أيضا عن زيد بن ثابت واختاره امام الحرمين الجوينى فى نهايته وقيل بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر وفى صحته أيضا نظر والعجب ان هذا القول اختاره الشيخ أبو عمرو ابن عبد البر النمرى امام ما وراء البحر وانها لاحدى الكبر اذا اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر وقيل انها صلاة العشاء وصلاة الفجر وقيل بل هى صلاة الجماعة وقيل صلاة الجمعة وقيل صلاة الخوف وقيل بل صلاة عيد الفطر وقيل بل صلاة الاضحى وقيل الوتر وقيل الضحى وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم

المحفوظ بسبب من الاسباب الداعية الى البروز الى هذه المصارع التى صرعوا فيها فان قضاء الله لا يرد وحكمه لا يعقب وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل بل عين مكانه أيضا ولا ريب فى تعين زمانه أيضا لقوله فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة (وليبتلى الله) علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للايذان بكثرتها كأنه قيل فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلى أى ليمتحن (ما فى صدوركم) أى قلوبكم من الاخلاص والنفاق (وليمحص) اى يميز (ما فى قلوبكم) من وساوس الشيطان (والله عليم بذات الصدور) يعنى بالاشياء الموجودة فى الصدور وهى الاسرار والضمائر الخفية التى لا تكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها لانه عالم بجميع المعلومات (ان الذين تولوا منكم) عن القتال (يوم التقى الجمعان) جمع المسلمين وجمع الكفار أى انهزموا يوم أحد وقيل المعنى ان الذين تولوا المشركين يوم أحد (انما استزلهم الشيطان) استدعى زللهم بالقاء الوسوسة فى قلوبهم (ببعض) أى بشؤم بعض (ما كسبوا) من الذنوب التى منها مخالفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل لم يبق مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم الا ثلاثة عشر رجلا وقيل أربعة عشر من المهاجرين سبعة ومن الانصار سبعة فمن المهاجرين أبو بكر وعمر وعلى وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنهم وقيل استزلهم بتذكير خطايا سبقت لهم فكرهوا ان يقتلوا قبل اخلاص التوبة منها وهذا اختيار الزجاج (ولقد عفا الله عنهم) لتوبتهم واعتذارهم عن عبد الرحمن بن عوف قال هم ثلاثة واحد من المهاجرين واثنان من الانصار وعن ابن عباس قال نزلت فى عثمان ورافع بن المعلى وخارجة بن زيد وقد روى فى تعيين من فى الآية روايات كثيرة (ان الله غفور) لمن تاب وأناب (حليم) لا يعجل بالعقوبة ولا يستأصلهم بالقتل (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) هم المنافقون الذين قالوا لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا ههنا

الادلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ولم يقع الاجماع على قول واحد بل لم يزل النزاع فيها موجودا من زمان الصحابة والى الآن قال ابن جرير حدثني محمد بن بشار وابن مثنى قالا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا وشبك بين أصابعه وكل هذه الاقوال فيها ضعف بالنسبة الى التي قبلها وانما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر وقد ثبتت السنة بانها العصر فتعين المصير اليها وقد روى الامام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمهما الله في كتاب فضائل الشافعي رحمه الله حدثنا أبي سمعت حرملة بن يحيى اللخمي يقول قال الشافعي كل ما قلت فكان عن النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف قولي مما يصح فحديث النبي صلى الله عليه وسلم أولى ولا تقلدوني وكذا روى الربيع والزعفراني وأحمد (١٢٨) بن حنبل عن الشافعي وقال موسى أبو الوليد بن أبي الجارود عن الشافعي اذا صح الحديث وقلت قولا فأنا راجع عن قولي وقائل بذلك فهذا من سيادته وأمانته وهذا نفس اخوانه من الائمة رحمهم الله ورضي عنهم أجمعين آمين ومن ههنا قطع القاضي الماوردي بان مذهب الشافعي رحمه الله ان صلاة الوسطى هي صلاة العصر وان كان قد نص في الجديد وغيره انها الصبح لصحة الاحاديث انها العصر وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثي المذهب ولله الحمد والمنة ومن الفقهاء في المذهب من ينكر ان تكون هي العصر مذهب الشافعي وصمموا على انها الصبح قولا واحدا قال الماوردي ومنهم من حكى في المسئلة قولين والتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا وقد أفردناه على حدة ولله الحمد والمنة وقوله تعالى وقوموا لله قانتين أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه وهذا الامر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته اياها ولهذا لما امتنع النبي صلى الله عليه وسلم من الرد على ابن مسعود الله حين سلم عليه وهو في الصلاة اعتذر اليه بذلك وقال ان في الصلاة اشغلا وفي صحيح مسلم انه صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شئ من كلام الناس انما هي التسبيح والتكبير وذكر الله وقال الامام أحمد ابن حنبل حدثنا يحيى بن سعيد عن اسمعيل حدثني الحرث بن شبيل عن أبي عمرو الشيباني عن زيد بن أرقم قال كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية وقوموا لله قانتين فأمرنا بالسكوت رواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن اسمعيل به وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء حيث ثبت عندهم ان تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة قبل الهجرة الى المدينة وبعد الهجرة الى أرض الحبشة كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح

(وقالوا لاخوانهم) في النفاق أو في النسب أي قالوا لاجلهم (اذا ضربوا) أي سافروا وسافروا وبعدوا (في الارض) للتجارة ونحوها قال مجاهد هذا قول عبد الله بن أبي ابن سلول والمنافقين وعن السدي نحوه (أو كانوا غزا) جمع غاز كراكع وركع وغائب وغيب وقياسه غزاة كرام ورماة (لو كانوا) مقيمين (عندنا ما ماتوا وما قتلوا) أي لا تقولوا كقولهم (ليجعل الله ذلك) يعني قولهم وظنهم في عاقبة أمرهم والجعل هنا بمعنى التصيير واللام لام العاقبة (حسرة في قلوبهم) يعني غما وتاسفا أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة في قلوبهم والمراد انه صار ظنهم انهم لو لم يخرجوا ولم يحضروا ما قتلوا حسرة وقيل معناه لا تكونوا مثلهم في اعتقاد ذلك ليجعله الله حسرة في قلوبهم فقط دون قلوبكم قال الزمخشري هو النطق بالقول والاعتقاد وقيل المعنى لا تلتفتوا اليهم ليجعل الله عدم التفاتكم اليهم حسرة في قلوبهم وأجاز ابن عطية ان يكون النهي والانتهاء معا وقيل المراد حسرة يوم القيامة لما فيه من الخزي والندامة (والله يحيي ويميت) فيه رد على قولهم أي ذلك بيد الله سبحانه يمنع ما يشاء ويحكم ما يريد فيحيي من يريد ويميت من يريد من غير ان يكون للسفر أو الغزو أثر في ذلك فانه تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما لموارد الموت ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما الاسباب السلامة والمعنى ان السفر والغزو ليسا مما يجلب الموت والقعود لا يمنع منه (والله بما تعملون) بالتاء واليا من خير وشر (بصير) فيجازيكم به فاتقوه تهديد للمؤمنين أي لا تكونوا مثل المنافقين المذكورين في تنفير المؤمنين عن الجهاد أو وعيد للذين كفروا واللفظ عام شامل لقولهم المذكور ولمنشئه الذي هو اعتقادهم (ولئن) وقع ذلك من أمر الله سبحانه و (قتلتم في سبيل الله أو متم) شروع في تحقيق ان ما يحذرون ترتبه على الغزو والسفر من القتل والموت في سبيل الله ليس مما ينبغي ان يحذر بل مما يجب ان يتنافس فيه المتنافسون اثر ابطال ترتبه عليهما قرئ متم بضم الميم وكسرها من يموت ويمات وهما قراءتان سبعيتان (لمغفرة من

قال كنا نسلم على النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان نهاجر الى الحبشة وهو في الصلاة فيرد علينا قال فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد علي فأخذني ما قرب وما بعد فلما سلم قال اني لم أرد عليك الا أني كنت في الصلاة وان الله يحدث من أمره ما يشاء وان مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديما وهاجر الى الحبشة ثم قدم منها الى مكة مع من قدم فهاجر الى المدينة وهذه الآية وقوموا لله قانتين مدنية بلا خلاف فقال قائلون انما أراد زيد بن أرقم بقوله كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة الاخبار عن جنس الكلام واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها والله أعلم وقال آخرون انما أراد ان ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة اليها ويكون ذلك قد أبيح مرتين وحرم مرتين كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم والاول أظهر والله أعلم وقال الحافظ أبو يعلى أخبرنا بشر بن الوليد أخبرنا اسحق بن يحيى عن المسيب عن ابن مسعود قال كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فلم يرد علي فوقع في نفسي انه نزل في شيء فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته قال وعليك السلام أيها المسلم ورحمة الله ان الله عز وجل يحدث في أمره ما يشاء فاذا كنتم في الصلاة فاقنتوا ولا تكلموا وقوله فان خفتم فرجالا أو ركبانا فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها وشدد الامر بتأكيدها ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الاكمل وهي حال القتال والتحام الحرب فقال فان خفتم فرجالا أو ركبانا أي فصلوا على أي حال كان رجالا أو ركبانا يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها كما قال مالك عن نافع ان ابن عمر كان اذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ثم قال فان كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا على أقدامهم أو ركبانا مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها قال نافع لا أرى ابن عمر ذكر ذلك الا عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه البخاري وهذا لفظ مسلم ورواه البخاري أيضا من وجه آخر عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه أو قريبا منه ولمسلم أيضا عن ابن عمر قال فان كان خوف أشد من ذلك فصل راكبا أو قائما تومئ ايماء وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم الى خالد بن سفيان الهذلي ليقتله وكان نحو عرفة أو عرفات فلما واجهه حانت صلاة العصر قال فخشيت ان تفوتني فجعلت أصلي وأنا أومئ ايماء الحديث بطوله رواه أحمد وأبو داود باسناد جيد وهذا من رخص الله التي رخص لعباده ووضعه الاصار والاغلال عنهم وقد روى ابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال في هذه الآية يصلي الراكب على دابته والراجل على رجليه

الله) لذنوبكم (ورحمة) منه لكم في العاقبة (خير مما يجمعون) أي الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم وقرئ بالتاء والمعنى مما تجمعون أيها المسلمون من غنائم الدنيا ومنافعها والمقصود في الآية بيان مزية القتل أو الموت في سبيل الله وزيادة تأثيرهما في استجلاب المغفرة والرحمة (ولئن متم أو قتلتم) على أي وجه اتفق هلاككم حسب تعلق الارادة الالهية وقرئ متم بكسر الميم من مات يمات (لالى الله) أي الى الرب الواسع الرحمة والمغفرة لا الى غيره كما يفيده تقديم الظرف على الفعل مع ما في تخصيص اسم الله سبحانه بالذكر من الدلالة على كمال اللطف والقهر (تحشرون) في الآخرة فيجازيكم باعمالكم قيل من عبد الله خوفا من ناره آمنه الله مما يخاف واليه الاشارة بقوله لمغفرة من الله ومن عبده شوقا الى جنته أناله ما يرجو واليه الاشارة بقوله ورحمة لان الرحمة هي الجنة ومن عبده شوقا الى وجهه الكريم لا يريد غيره فهذا هو العبد المخلص الذي يتجلى له الحق سبحانه في دار كرامته واليه الاشارة بقوله لالى الله تحشرون (فبما رحمة من الله لنت لهم) ما فاصلة لتأكيد كافة مزيدة للتأكيد قاله سيبويه وغيره وقال ابن كيسان والاخفش انها نكرة في موضع الجر بالباء ورحمة بدل منها والاول أولى بقواعد العربية ومثله قوله تعالى فبما نقضهم ميثاقهم والجار والمجرور متعلق بقوله لنت وقدم عليه لافادة القصر وتنوين رحمة للتعظيم والمعنى ان لينه لهم ما كان الا بسبب الرحمة العظيمة منه وقيل ان ما استفهامية والمعنى فبأي رحمة من الله لنت لهم وفيه معنى التعجب وهو بعيد ولو كان كذلك لقيل فبم رحمة بحذف الالف والمعنى سهلت لهم أخلاقك وكثرت احتمالك ولم تسرع اليهم بتعنيف على ما كان يوم أحد منهم وفيه تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والفاء لترتيب مضمون الكلام على ما ينبئ عنه السياق من استحقاقهم للملامة والتعنيف بموجب الجبلة البشرية أو من سعة ساحة مغفرته تعالى ورحمته (ولو) لم تكن كذلك بل (كنت فظا غليظ القلب) أي جافيا قاسي الفؤاد

(١٧ فتح البيان ني)

قال وروى عن الحسن ومجاهد ومكحول والسدى والحكم ومالك والاوزاعى والثورى والحسن بن صالح نحو ذلك وزاد ويومئ برأسه أينما توجه ثم قال حدثنا أبى حدثنا غسان حدثنا داود يعنى ابن علية عن مطرف عن عطية عن جابر بن عبد الله قال اذا كانت المسايفة فليومئ برأسه ايماء حيث كان وجهه فذلك قوله فرجالا أو ركبانا وروى عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعطية والحكم وحماد وقتادة نحو ذلك وقد ذهب الامام أحمد فيما نص عليه الى ان صلاة الخوف تفعل فى بعض الاحيان ركعة واحدة اذا تلاحم الجيشان وعلى ذلك ينزل الحديث الذى رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن جرير من حديث أبى عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكرى زاد مسلم والنسائى وأيوب بن عائذ كلاهما عن بكير بن الاخنس الكوفى عن مجاهد عن ابن عباس قال فرض الله الصلاة على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الحضر أربعا وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة

وبه قال الحسن البصرى وقتادة والضحاك وغيرهم وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا ابن مهدى عن شعبة قال سألت الحكم وحمادا وقتادة عن صلاة المسايفة فقالوا ركعة وهكذا روى الثورى عنهم سواء وقال ابن جرير أيضا حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية ابن الوليد حدثنا المسعودى حدثنا يزيد الفقير عن جابر بن عبد الله قال صلاة الخوف ركعة واختار هذا القول ابن جرير وقال البخارى باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو وقال الاوزاعى ان كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا ايماء كل امرئ لنفسه فان لم يقدروا على الايماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنوا فيصلوا ركعتين فان لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين فان لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا وبه قال مكحول وقال أنس بن مالك حضرت مناهضة حصن تستر عند اضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا جعلها على الصلاة فلم نصل الا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبى موسى ففتح لنا قال أنس وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها هذا لفظ البخارى ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره صلى الله عليه وسلم صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة الى غيبوبة الشمس وبقوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لاصحابه لما جهزهم الى بنى قريظة لا يصلين أحد منكم العصر الا فى بنى قريظة فمنهم من أدركته الصلاة فى الطريق فصلوا وقالوا لم يرد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم التعجيل السير ومنهم من أدركته فلم يصل الى أن غربت الشمس فى بنى قريظة فلم يعنف واحدا من الفريقين وهذا يدل على اختيار البخارى لهذا القول والجمهور على خلافه ويقولون على ان صلاة الخوف على الصفة التى وردبها القرآن فى سورة النساء ووردت بها الاحاديث لم تكن مشروعة فى غزوة

سيئ الخلق قليل الاحتمال والفظ الغليظ الجافى وقال الراغب الفظ هو الكريه الخلق وذلك مستعار من الفظ وهو ماء الكرش وذلك مكروه شربه الا فى ضرورة وغلظ القلب قساوته وقلة اشفاقه وعدم انفعاله للخير وجمع بينهما تأكيدا (لانفضوا من حولك) أى لتفرقوا عنك وتفرقوا حتى لا يبقى منهم أحد عندك والانفضاض التفرق فى الاجزاء وانتشارها ومنه فض ختم الكتاب ثم استعير هنا لانفضاض الناس وغيرهم أى لتفرقوا عن حولك هيبة لك واحتشاما منك بسبب ما كان من توليهم واذا كان الامر كما ذكر (فاعف عنهم) فيما يتعلق بك من الحقوق (واستغفر لهم) الله سبحانه فيما هو الى الله سبحانه (وشاورهم فى الامر) الذى يرد عليك أى أمر كان مما يشاور فى مثله أو فى أمر الحرب خاصة كما يفيده السياق لما فى ذلك من تطييب خواطرهم واستجلاب مودتهم ولتعريف الامة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منهم أحد بعدك قال السمين جاء على أحسن النسق وذلك انه أمر أولا بالعفو عنهم فيما يتعلق بخاصة نفسه فاذا انتهوا الى هذا المقام أمر ان يستغفر لهم ما بينهم وبين الله لتنزاح عنهم التبعات فلما صاروا الى هنا أمر بان يشاورهم فى الامر اذ صاروا اصلين من التبعتين متصفين منهما انتهى والمراد هنا المشاورة فى غير الامور التى يرد الشرع بها قال أهل اللغة الاستشارة مأخوذة من قول العرب شرت الدابة وشورتها اذا علمت خبرها وقيل من قولهم شرت العسل اذا أخذته من موضعه قال ابن خواز منداد واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها وحكى القرطبى عن ابن عطية انه لا خلاف فى وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين وأخرج ابن عدى والبيهقى فى الشعب قال السيوطى بسند حسن عن ابن عباس قال لما نزلت وشاورهم فى الامر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أما ان الله ورسوله لغنيان عنها ولكن الله

الخندق وانما شرعت بعد ذلك وقد جاء مصرحا بهذا في حديث أبي سعيد وغيره وأما مكحول والاوزاعي والبخاري فيجيبون بان مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك لان هذا حال نادر خاص فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر وقد اشتهر ولم ينكر والله أعلم وقوله فاذا امنتم فاذكروا الله أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها كما علمكم مالم تكونوا تعلمون أي مثل ما أنعم عليكم وهداكم للايمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر كقوله بعد ذكر صلاة الخوف فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وستأتي الاحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالى واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة الآية

(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير (١٣١) اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون)

قال الاكثرون هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا قال البخاري حدثنا أمية حدثنا يزيد بن زريع عن حبيب عن ابن أبي مليكة قال ابن الزبير قلت لعثمان بن عفان والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا قد نسختها الآية الاخرى فلم تكتبها أو تدعها قال يا ابن أخي لا أغير شيأ منه من مكانه ومعنى هذا الاشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان اذا كان حكمها قد نسخ بالاربعة الاشهر فما الحكمة في ابقاء رسمها مع زوال حكمها وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها فأجابه أمير المؤمنين بان هذا أمر توقيفي وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج وعثمان ابن عطاء عن عطاء عن ابن عباس في قوله والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة فنسختها آية المواريث فجعل لهن الثمن أو الربع مما ترك الزوج ثم قال وروى عن أبي موسى الاشعري وابن الزبير ومجاهد وابراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وزيد بن أسلم والسدي ومقاتل بن حيان وعطاء الخراساني والربيع بن أنس انها منسوخة وروى من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال كان الرجل اذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله ثم أنزل الله بعد والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فهذه عدة المتوفى عنها زوجها الا أن تكون حاملا فعدتها ان تضع ما في بطنها وقال ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن

جعلها رحمة لامتي فمن استشار من أمتي لم يعدم رشدا ومن تركها لم يعدم غيا وعنه في الآية قال هم أبو بكر وعمر وقال الحسن قد علم الله ان ما به الى مشاورتهم حاجة ولكن أراد ان يستن به من بعده من أمته وقيل أمره بها ليعلم مقادير عقولهم وأفهامهم لا ليستفيد منهم رأيا وروى البغوي بسنده عن عائشة انها قالت ما رأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللاستشارة فوائد كثيرة ذكرها بعض المفسرين لا نطول بذكرها ويغني عنها أمر الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بها ولنعم ما قيل في ذلك

وشاور اذا شاورت كل مهذب * لبيب أخي حزم لترشد في الامر
ولا تك ممن يستبد برأيه * فتعجز أولا تستريح من الفكر
ألم تر ان الله قال لعبده * وشاورهم في الامر حتما بلا نكر

(فاذا عزمت) على امضاء ما تريد عقب المشاورة على شئ واطمأنت به نفسك (فتوكل على الله) في فعل ذلك أي اعتمد عليه وفوض اليه وقيل ان المعنى فاذا عزمت على أمر أن تمضي فيه فتوكل على الله وثق به لا على المشاورة والعزم في الاصل قصد الامضاء أي فاذا قصدت امضاء أمر فتوكل على الله وفيه اشارة الى ان التوكل ليس هو اهمال التدبير بالكلية والا لكان الامر بالمشاورة منافيا للامر بالتوكل بل هو مراعاة الاسباب الظاهرة مع تفويض الامر الى الله والاعتماد عليه بالقلب عن علي قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن العزم قال مشاورة أهل الرأي ثم أتباعهم أخرجه ابن مردويه (ان الله يحب المتوكلين) عليه في جميع أمورهم (ان ينصركم الله) كما فعل يوم بدر والنصر العون جملة مستأنفة لتأكيد التوكل والحث عليه (فلا غالب لكم) عمم الخطاب هنا تشريفا للمؤمنين لايجاب توكلهم عليه (وان يخذلكم) كما فعل يوم أحد والخذلان ترك العون أي وان يترك الله عونكم (فمن ذا الذي ينصركم) استفهام انكاري (من بعده) الضمير راجع الى الخذلان المدلول عليه بقوله وان يخذلكم أو الى الله وفيه لطف بالمؤمنين حيث

لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة قال وروى عن مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان قالوا نسختها أربعة أشهر وعشرا قال وروى عن سعيد بن المسيب قال نسختها التي في الاحزاب يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات الآية (قلت) وروى عن مقاتل وقتادة انها منسوخة بآية الميراث وقال البخاري حدثنا اسحق بن منصور حدثنا روح حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا قال كانت هذه العدة تعتد عند أهل زوجها واجب فأنزل الله والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف قال جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية ان شاءت سكنت في وصيتها وان شاءت خرجت (١٣٢) وهو قول الله غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فالعدة كما هي واجب عليها

زعم ذلك عن مجاهد رحمه الله وقال عطاء قال ابن عباس نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها فتعتد حيث شاءت وهو قول الله تعالى غير اخراج قال عطاء ان شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها وان شاءت خرجت لقول الله فلا جناح عليكم فيما فعلن قال عطاء ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت ولا سكنى لها ثم أسند البخاري عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه بهذا القول الذي عول عليه مجاهد وعطاء من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور حتى يكون ذلك منسوخا بالاربعة الاشهر وعشر وانما دلت على ان ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات ان يمكن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا ان اخترن ذلك ولهذا قال وصية لازواجهم أي يوصيكم الله بهن وصية كقوله يوصيكم الله في أولادكم الآية وقوله وصية من الله وقيل انما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية وقرأ آخرون بالرفع وصية على معنى كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير ولا يمنعن من ذلك لقوله غير اخراج فأما اذا انقضت عدتهن بالاربعة أشهر والعشر أو بوضع الحمل واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فانهن لا يمنعن من ذلك لقوله فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف وهذا القول له اتجاه وفي اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة منهم الامام أبو العباس بن تيمية ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر وقول عطاء ومن تابعه على ان ذلك منسوخ بآية الميراث ان أرادوا ما زاد على الاربعة أشهر والعشر فسلم وان أرادوا سكنى الاربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت فهذا محل خلاف بين الائمة وهما قولان للشافعي رحمه الله وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطاه عن سعد بن اسحق بن كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب

صرح لهم بعدم الغلبة في الاول ولم يصرح لهم بانه لا ناصر لهم في الثاني بل أتى به في صورة الاستفهام وان كان معناه نفيا ليكون أبلغ ومن علم انه لا ناصر له الا الله سبحانه وان من نصره الله لا غالب له ومن خذله لا ناصر له فوض أموره اليه وتوكل عليه ولم يشتغل بغيره (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) لا على غيره وتقديم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر عليه وقد وردت في صفة التوكل أحاديث كثيرة صحيحة وقد عد النبي صلى الله عليه وآله وسلم المتوكل من سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب كما في مسلم (وما كان لنبي أن يغل) ما صح له ذلك لتنافي الغلول والنبوة وقال ابن عباس ما كان له ان يتهمه أصحابه قال أبو عبيد الغلول من المغنم خاصة ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد ومما يبين ذلك انه يقال من الخيانة أغل يغل ومن الحقد غل يغل بالكسر ومن الغلول غل يغل بالضم يقال غل في المغنم غلولا أي خان بان يأخذ لنفسه شيأ يستره على أصحابه فمعنى القراءة بالبناء للفاعل ما صح لنبي ان يخون شيأ من المغنم فيأخذه لنفسه من غير اطلاع أصحابه وفيه تنزيه الانبياء عن الغلول ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول ما صح لنبي ان يغله أحد من أصحابه أي يخونه في الغنيمة وهو على هذه القراءة الاخرى نهي للناس عن الغلول في المغانم وانما خص خيانة الانبياء مع كون خيانة غيرهم من الائمة والسلاطين والامراء حراما لان خيانة الانبياء أشد ذنبا وأعظم وزرا (ومن يغلل يأت بما غل) أي يأت به حاملا له على ظهره (يوم القيامة) كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيفضحه بين الخلائق وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه بانه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤس الاشهاد يطلع عليها أهل المحشر وهي مجيئه يوم القيامة بما غل حاملا له قبل ان يحاسب عليه ويعاقب به (ثم توفى كل نفس) جزاء (ما كسبت) وافيا من خير أو شر وهذه الآية تعم كل من كسب خيرا أو شرا ويدخل تحتها الغال دخولا أوليا لكون السياق فيه فكأنه ذكر مرتين أخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم

ابن عجرة ان الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما اخبرتها انها جاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله ان ترجع الى أهلها في بني خدرة فان زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى اذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أرجع الى أهلي في بني خدرة فان زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة قالت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قالت فانصرفت حتى اذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمر بي فنوديت له فقال كيف قلت فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي فقال امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله قالت فاعتددت فيه أربعة اشهر وعشرا قالت فلما كان عثمان بن عفان أرسل الى فسألني عن ذلك فاخبرته فاتبعه وقضى به وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث مالك به ورواه النسائي أيضا وابن (١٣٣) ماجه من طرق عن سعد بن اسحق به وقال الترمذي حسن صحيح وقوله وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل قوله تعالى متاعا بالمعروف حقا على المحسنين قال رجل ان شئت أحسنت ففعلت وان شئت لم أفعل فأنزل الله هذه الآية وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء الى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضا لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولا بها وهو قول عن الشافعي رحمه الله واليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير ومن لم يوجبها مطلقا يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى لا جناح عليكم ان طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين وأجاب الاولون بان هذا من باب ذكر بعض افراد العموم فلا تخصيص على المشهور والمنصور والله أعلم وقوله كذلك يبين الله لكم آياته أي في احلاله وتحريمه وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه بينه ووضحه وفسره ولم يتركه مجملا في وقت احتياجكم اليه لعلكم تعقلون أي تفهمون وتتدبرون (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون) روى عن ابن عباس انهم كانوا أربعة آلاف وعنه كانوا ثمانية آلاف وقال أبو صالح تسعة آلاف وعن ابن عباس أربعون ألفا وقال وهب بن منبه وأبو مالك كانوا بضعة وثلاثين ألفا وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال كانوا أهل قرية يقال لها داوردان وكذا قال السدي وأبو صالح وزاد من قبل واسط وقال سعيد بن

عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر فقال بعض الناس لعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذها فنزلت (وهم لا يظلمون) بل يعدل بينهم في الجزاء فيجازي كل على عمله وقد وردت أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما في ذم الغلول ووعيد الغال (أفمن اتبع) الاستفهام للانكار أي ليس من اتبع (رضوان الله) في أوامره ونواهيه فعمل بأمره واجتنب نهيه (كمن باء) أي رجع (بسخط) عظيم كائن (من الله) بسبب مخالفته لما أمر به ونهى عنه ويدخل تحت ذلك من اتبع رضوان الله بترك الغلول واجتنابه ومن باء بسخط منه بسبب اقدامه على الغلول (ومأواه) يعني الغال أو المتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (جهنم وبئس المصير) أي المرجع هي ونزول الآية في واقعة معينة لا يخصص العموم ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت فقال (هم درجات عند الله) أي متفاوتون في الدرجات والمعنى هم أولو درجات أو لهم درجات اطلاقا للملزوم على اللازم على سبيل الاستعارة أو جعلهم نفس الدرجات مبالغة في التفاوت بينهم فهو تشبيه بليغ بحذف الاداة وهذا ما رجحه القاضي كالكشاف فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدركات من باء بسخط من الله فان الاولين في أرفع الدرجات والآخرين في أسفل الدركات (والله بصير بما يعملون) فيه تحريض على العمل بطاعته وتحذير عن العمل بمعاصيه (لقد من الله على المؤمنين) أي أحسن اليهم وتفضل عليهم والمنة النعمة العظيمة وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثة الرسول (اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) يعني من جنسهم عربيا مثلهم ولد ببلدهم ونشأ بينهم يعرفون نسبه وقيل بشرا مثلهم ووجه المنة على الاول انهم يفقهون عنه وينفهمون كلامه ولا يحتاجون الى ترجمان ومعناها على الثاني انهم يأنسون به بجامع البشرية ولو كان ملكا لم يحصل كمال الانس به لاختلاف الجنسية وقرئ من أنفسهم بفتح الفاء أي من أشرفهم لانه من بني هاشم وبنو هاشم أفضل من قريش وقريش أفضل العرب والعرب أفضل من غيرهم ولعل وجه

عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات وقال ابن جريج عن عطاء قال هذا مثل وقال علي بن عاصم كانوا من أهل داوردان قرية على فرسخ من قبل واسط وقال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا سفيان عن ميسرة بن حبيب النهدي عن المنهال بن عمرو الاسدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت قال كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون قالوا نأتي أرضا ليس بها موت حتى اذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم موتوا فماتوا فمر عليهم نبي من الانبياء فدعا ربه ان يحييهم فأحياهم فذلك قوله عز وجل ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت الآية وذكر غير واحد من السلف ان هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني اسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فرارا من الموت هاربين الى البرية فنزلوا واديا أفيح فلما بين عدوتيه فأرسل الله اليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد فخيروا الى حظائر وبنى عليهم جدران ودفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بني اسرائيل يقال له حزقيل فسأل الله ان يحييهم على يديه فأجابه الى ذلك وأمره ان يقول أيتها العظام البالية ان الله يأمرك ان تجتمعي فاجتمع عظام كل جسد بعضها الى بعض ثم أمره فنادى أيتها العظام ان الله يأمرك ان تكتسي لحما وعصبا وجلدا فكان ذلك وهو يشاهده ثم أمره فنادى أيتها الارواح ان الله يأمرك ان ترجع كل روح الى الجسد الذي كانت تعمره فقاموا أحياء ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون سبحانك لا اله الا أنت وكان في احيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ولهذا قال ان الله لذو فضل على الناس أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة ولكن أكثر الناس لا يشكرون أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به الله عليهم في دينهم ودنياهم وفي هذه القصة عبرة ودليل على انه لن يغني حذر من قدر وانه لا ملجأ من الله الا اليه فان هؤلاء خرجوا فرارا من الوباء طلبا لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعا في آن واحد ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذي رواه الامام أحمد حدثنا اسحق بن عيسى أخبرنا مالك وعبد الرزاق أخبرنا معمر كلاهما عن الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن الحرث بن نوفل عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج الى الشام حتى اذا كان بسرغ لقيه أمراء الاجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه ان الوباء قد وقع بالشام فذكر الحديث فجاءه عبد الرحمن بن عوف

الامتنان على هذه القراءة انه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب الى تصديقه ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الاول وأما على الوجه الثاني فلا حاجة الى هذا التخصيص وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة الى التخصيص لان بني هاشم هم أنفس العرب والعجم في شرف الاصل وكرم النجار (١) ورفاعة المحتد ويدل على الوجه الاول قوله تعالى هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم وقوله وانه لذكر لك ولقومك وكان فيما خطب به أبو طالب حين زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خديجة بنت خويلد وقد حضر ذلك بنو هاشم ورؤساء مضر الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسمعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا نحجه وحرما نأمنه وجعلنا الحكام على الناس وان ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به فتى الا رجح وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل (يتلو عليهم آياته) هذه منة ثانية أي يتلو عليهم القرآن بعد ان كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيأ من الشرائع ولم يطرق أسماعهم الوحي (ويزكيهم) أي يطهرهم من نجاسة الكفر والذنوب ودنس المحرمات والخبائث (ويعلمهم الكتاب) أي القرآن (والحكمة) السنة وقد تقدم في البقرة تفسير ذلك وكل واحد من هذه الامور نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر (وان كانوا من قبل) أي قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو من قبل بعثته (لفي ضلال مبين) واضح لا ريب فيه (أولما أصابتكم مصيبة) الالف للاستفهام لقصد التقريع والمصيبة الغلبة والقتل الذي اصيبوا به يوم أحد (قد أصبتم مثليها) يوم بدر وذلك ان الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين وأسر واسبعين وكان مجموع القتلى والاسرى يوم بدر مثلي القتلى من المسلمين يوم أحد والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم و(قلتم أنى هذا) أي من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل في سبيل الله ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد وعدنا

---

(١) النجار بالضم والكسر الاصل والحسب اه منه

وكان متغيبا لبعض حاجته فقال ان عندى من هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه فحمد الله عمر ثم انصرف وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى به * بطريق أخرى لبعضه قال أحمد حدثنا حجاج ويزيد العمى قالا أخبرنا ابن أبى ذئب عن الزهرى عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ان عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو فى الشام عن النبى صلى الله عليه وسلم ان هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فاذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا قال فرجع عمر من الشام وأخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك عن الزهرى بنحوه وقوله وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم أى كما ان الحذر لا يغنى من القدر كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلا ولا يبعده بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر متقن لا يزاد فيه ولا ينقص منه كما قال تعالى الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين وقال تعالى وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب الى قوله فى بروج مشيدة وروينا عن أمير الجيوش ومقدم العساكر وحامى حوزة الاسلام وسيف الله المسلول على أعدائه أبى سليمان خالد بن الوليد رضى الله عنه انه قال وهو فى سياق الموت لقد شهدت كذا وكذا موقفا وما من عضو من أعضائى الا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة وها أنا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء يعنى انه يتألم لكونه ما مات قتيلا فى الحرب ويتأسف على ذلك ويتألم ان يموت على فراشه وقوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة يحث تعالى عباده على الانفاق فى سبيل الله وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع وفى حديث النزول انه يقول تعالى من يقرض غير عديم ولا ظلوم وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الاعرج عن عبد الله بن الحرث عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له قال أبو الدحداح الانصارى يا رسول الله وان الله عز وجل ليريد منا القرض قال نعم يا أبا الدحداح قال أرنى يدك يا رسول الله قال فناوله يده قال فانى قد أقرضت ربى عز وجل حائطى قال وحائط له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها قال فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت لبيك قال اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل وقد رواه ابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضى الله عنه مرفوعا بنحوه وقوله قرضا حسنا روى عن عمر وغيره من السلف هو النفقة فى سبيل الله وقيل هو النفقة على العيال وقيل هو التسبيح والتقديس وقوله فيضاعفه له أضعافا كثيرة كما قال تعالى مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء الآية وسيأتى

الله بالنصر عليهم (قل هو من عند أنفسكم) أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بان يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب أى هذا الذى سألتم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم من لزوم المكان الذى عينه لهم وعدم مفارقتهم للمركز على كل حال وقيل ان المراد خروجهم من المدينة وبرده ان الوعد بالنصر انما كان بعد ذلك وقيل هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل عن على قال جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا محمد ان الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الاسارى وقد أمرك ان تخيرهم بين أمرين أما ان يقتدموا فتضرب أعناقهم وبين ان يأخذوا الفداء على ان يقتل منهم عدتهم فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس فذكر ذلك لهم فقالوا يا رسول الله عشائرنا واخواننا لا بل نأخذ فداءهم فنقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس فى ذلك ما نكره فقتل منهم يوم احد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر وهذا الحديث فى سنن الترمذى والنسائى قال الترمذى حسن غريب لا نعرفه الا من حديث ابن أبى زائدة وعن عمر بن الخطاب قال لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم عنه وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله سبحانه وتعالى يعنى هذه الآية وأخرجه أحمد بأطول منه ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق ما نزل من المعاتبة منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله ما كان لنبى ان يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض وما روى من بكائه صلى الله عليه وآله وسلم هو وأبو بكر وندمهما على أخذ الفداء ولو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه ولا حصل ما حصل من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من الندم والحزن ولا صوب النبى صلى الله عليه وآله وسلم رأى عمر حيث أشار بقتل الاسرى وقال ما معناه لو نزلت عقوبة لهم لم ينج منها الا عمر والجميع فى كتب الحديث

الكلام عليها وقال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا مبارك بن فضالة عن علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي قال أتيت أبا هريرة رضي الله عنه فقلت له انه بلغني أنك تقول ان الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة قال وما أعجبك من ذلك لقد سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة هذا حديث غريب، وعلي بن زيد بن جدعان عنده ومناكير لكن رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد المؤدب حدثنا يونس بن محمد المؤدب حدثنا محمد بن عقبة الرفاعي عن زياد الجصاص عن أبي عثمان النهدي قال لم يكن أحد أكثر مجالسة لابي هريرة مني فقدم قبلي حاجا قال وقدمت بعده فاذا أهل البصرة يأثرون عنه انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة فقلت ويحكم والله ما كان أحد أكثر مجالسة لابي هريرة مني فما سمعت هذا الحديث قال فتحملت أريد ان ألحقه فوجدته قد انطلق

حاجا فانطلقت الى الحج ان ألقاه في هذا الحديث فلقيته لهذا فقلت يا أبا هريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأثرون عنك قال ما هو قلت زعموا انك تقول ان الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة قال يا أبا عثمان وما تعجب من ذا والله يقول من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ويقول ومامتاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دخل سوقا من الاسواق فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة الحديث وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا اسمعيل بن ابراهيم بن بسام حدثنا أبو اسمعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر قال لما نزلت مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل الى آخرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رب زد أمتي فنزلت من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة قال رب زد أمتي فنزلت انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وروى ابن أبي حاتم أيضا عن كعب الاحبار انه جاءه رجل فقال اني سمعت رجلا يقول من قرأ قل هو الله أحد مرة واحدة بنى الله له عشرة آلاف ألف غرفة من درو ياقوت في الجنة أفأصدق بذلك قال نعم أو عجبت من ذلك قال نعم وعشرين ألف ألف وثلاثين ألف ألف وما لا يحصى ذلك الا الله ثم قرأ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة فالكثير من الله لا يحصى وقوله والله يقبض ويبسط أي أنفقوا ولا تبالوا فالله هو الرزاق يضيق

والسير أقول ويمكن الجمع بان يقال ان العتاب نزل أولا ثم نزل التخيير لان العتاب على الشروع والعزم على الفداء والتخيير على تمامه ويؤيده قوله في الحديث ان الله قد كره ما صنع قوم من (ان الله على كل شيء قدير) ومنه نصركم على الطاعة وترك نصركم مع المخالفة (وما أصابكم يوم التقى الجمعان) أي ما أصابكم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة (فباذن الله) أي فبعلم الله وقيل بقضائه وقدره وقيل بتخليته بينكم وبينهم (وليعلم الله (المؤمنين) حقا (وليعلم) الله (الذين نافقوا) قيل أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن ان يكون الفعل المسند اليهم والى المنافقين واحدا والمراد بالعلم هنا التميز والاظهار لان علمه تعالى ثابت قبل ذلك والمراد بالمنافقين هنا عبد الله بن أبي وأصحابه والنفاق اسم اسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل الاسلام (وقيل لهم) معطوف على قوله نافقوا وقيل هو كلام مبتدأ أي قيل لعبد الله المذكور وأصحابه (تعالوا قاتلوا في سبيل الله) أعداءه ان كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر (أو ادفعوا) عن أنفسكم ان كنتم لا تؤمنون بالله واليوم الآخر فأبوا جميع ذلك وقيل معنى الدفع هنا تكثير سواد المسلمين وقيل معناه رابطوا والمرابطة الاقامة في الثغور والقائل للمنافقين هذه المقالة الذي حكاها الله سبحانه هو عبد الله بن عمرو بن حرام الانصاري والد جابر بن عبد الله و (قالوا لو نعلم قتالا) أي انه سيكون قتال (لاتبعناكم) وقاتلنا معكم ولكنه لا قتال هنالك وقيل المعنى لو كنا نقدر على القتال ونحسنه لاتبعناكم ولكنا لا نقدر على ذلك ولا نحسنه وعبر عن نفي القدرة على القتال بنفي العلم به لكونها مستلزمة له وفيه بعد لا ملجأ اليه وقيل معناه لو نعلم ما يصح ان يسمى قتالا لاتبعناكم ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال ولكنه القاء بالنفس الى التهلكة لعدم القدرة منا ومنكم على دفع ما ورد من الجيش بالبروز اليهم والخروج من المدينة وهذا أيضا فيه بعد دون بعد ما قبله (هم للكفر يومئذ) أي هم في هذا اليوم الذي انخزلوا فيه عن المؤمنين الى الكفر (أقرب منهم للايمان) عند من كان يظن انهم مسلمون لانهم قد بينوا حالهم وهتكوا

على من يشاء من عباده فى الرزق ويوسعه على آخرين وله الحكمة البالغة فى ذلك واليه ترجعون أى يوم القيامة (ألم تر الى الملا من بنى اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة هذا النبى هو يوشع بن نون قال ابن جرير يعنى ابن افرايم بن يوسف بن يعقوب وهذا القول بعيد لان هذا كان بعد موسى بدهر طويل وكان ذلك فى زمان داود عليه السلام كما هو مصرح به فى القصة وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم وقال السدى هو شمعون وقال مجاهد هو شمويل عليه السلام وكذا قال محمد بن اسحق عن وهب بن منبه وهو شمويل بن بالى بن علقمة بن ترخام بن اليهد بن بهرض بن علقمة بن ماجب بن عمرصا بن عزريا بن صفية بن علقمة بن أبى ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل عليه السلام وقال وهب ابن منبه وغيره كان بنو اسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان ثم أحدثوا الاحداث وعبد بعضهم الاصنام ولم يزل بين أظهرهم من الانبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة الى ان فعلوا ما فعلوا فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقا كثيرا وأخذوا منهم بلادا كثيرة ولم يكن أحد يقاتلهم الا غلبوه وذلك انهم كان عندهم التوراة والتابوت الذى كان فى قديم الزمان وكان ذلك موروثا خلفهم عن سلفهم الى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم

وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم اذ ذاك وقيل المعنى انهم لاهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لاهل الايمان (يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم) جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها أى انهم أظهروا الايمان وأبطنوا الكفر وذكر الافواه للتأكيد مثل قوله يطير بجناحيه وقال الزمخشرى ذكر القلوب مع الافواه تصوير لنفاقهم وانما ايمانهم موجود فى أفواههم فقط وهذا الذى قاله الزمخشرى ينفى كونه للتأكيد لتحصيل هذه الفائدة (والله أعلم بما يكتمون) من النفاق (الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا) أى قالوا لهم ذلك والحال ان هؤلاء القائلين قد قعدوا عن القتال (لو أطاعونا) بترك الخروج من المدينة (ما قتلوا) فرد الله ذلك عليهم بقوله (قل فادرءوا عن أنفسكم الموت) الدرء الدفع أى لا ينفع الحذر عن القدر فان المقتول يقتل بأجله (ان كنتم صادقين) فى انكم وجدتم الى دفع القتل سبيلا وهو القعود عن القتال فخذوا الى دفع الموت طريقا قيل انه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقا من غير قتال ومن غير خروج لاظهار كذبهم والله تعالى أعلم (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) لما بين الله سبحانه ان ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحانا ليتميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب بين ههنا ان من لم ينهزم وقتل فله هذه الكرامة والنعمة وان مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون لا مما يخاف ويحذر كما قال من حكى الله عنهم لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا وقالوا لو أطاعونا ما قتلوا فهذه الجملة مستأنفة لسان هذا المعنى والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل أحد وقرئ بالياء التحتية أى لا يحسبن حاسب وقد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم فقيل شهداء أحد وقيل شهداء بدر وقيل شهداء بئر معونة وعلى فرض انها نزلت فى سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومعنى الآية عند الجمهور انهم أحياء حياة محققة ثم اختلفوا فمنهم من يقول انها ترد اليهم أرواحهم فى قبورهم

فسمته شمويل أى سمع الله دعائى ومنهم من يقول شمعون وهو بمعناه فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نباتا حسنا فلما بلغ سن الانبياء أوحى الله اليه وأمره بالدعوة اليه وتوحيده فدعا بنى اسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا يقاتلون معه أعداءهم وكان الملك أيضا قد باد فيهم فقال لهم النبى فهل عسيتم ان أقام الله لكم ملكا الا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه قالوا وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا أى وقد أخذ منا البلاد وسبيت الاولاد قال الله تعالى فلما كتب عليهم القتال

تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين أى ماوفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم) أى لما طلبوا من نبيهم ان يعين لهم ملكا منهم فعين لهم طالوت وكان رجلا من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم لان الملك كان فى سبط يهوذا ولم يكن هذا من ذلك السبط فلهذا قالوا انى يكون له الملك علينا أى كيف يكون ملكا علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال أى هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك وقد ذكر بعضهم انه كان سقاء وقيل دباغا وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت وكان الاولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبى قائلا ان الله اصطفاه عليكم أى اختاره لكم من (١٣٨) بينكم والله أعلم به منكم يقول لست أنا الذى عينته من تلقاء نفسى بل الله أمرنى به لما طالبتم منى ذلك وزاده بسطة فى العلم والجسم أى وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبرا فى الحرب ومعرفة بها أى أتم علما وقامة منكم ومن ههنا ينبغى ان يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة فى بدنه ونفسه ثم قال والله يؤتى ملكه من يشاء أى هو الحاكم الذى ما شاء فعل ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه ولهذا قال والله واسع عليم أى هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه (وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) يقول لهم نبيهم ان علامة بركة ملك طالوت عليكم ان يرد الله عليكم التابوت الذى كان أخذ منكم فيه سكينة من ربكم قيل معناه فيه وقار وجلالة قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فيه سكينة أى معناها وقار وقال الربيع رحمة وكذا روى عن العوفى عن ابن عباس وقال ابن جريج سألت عطاء عن قوله فيه سكينة من ربكم قال ما تعرفون من آيات الله فتسكنون اليه وكذا قال الحسن البصرى وقيل السكينة طست من ذهب كانت تغسل فيه قلوب الانبياء أعطاها الله موسى عليه السلام فوضع فيها الالواح ورواه السدى عن أبى مالك عن ابن عباس وقال سفيان الثورى عن سلمة ابن كهيل عن أبى الاحوص عن على قال السكينة لها وجه كوجه الانسان ثم هى روح هفافة وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا أبو داود حدثنا شعبة وحماد بن مسلمة وأبو الاحوص كلهم عن سماك عن خالد بن عرعرة عن على قال السكينة ريح خجوج ولها رأسان وقال مجاهد لها جناحان وذنب وقال محمد بن اسحق عن وهب بن منبه السكينة رأس هرة ميتة اذا صرخت فى التابوت

فيتنعمون وقال مجاهد يرزقون من ثمر الجنة أى يجدون ريحها وليسوا فيها وذهب من عدا الجمهور الى انها حياة مجازية والمعنى انهم فى حكم الله مستحقون للنعم فى الجنة والصحيح الاول ولا موجب للمصير الى المجاز وقد وردت السنة المطهرة بان أرواحهم فى أجواف طيور خضر وانهم فى الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون فالطيور للارواح كالهوادج للجالسين فيها وبهذا قد استدل من قال ان الحياة للروح فقط وقيل ان الحياة للروح والجسد معا واستدل له بقوله عند ربهم يرزقون الخ وعلى الاول وجه امتيازهم من غيرهم ان أرواحهم تدخل الجنة من وقت خروجها من أجسادهم وأرواح بقية المؤمنين لا تدخل الا مع أجسادها يوم القيامة والامتياز على الثانى ظاهر قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى حمزة وأصحابه وعن أبى الضحى انها نزلت فى قتلى أحد وحمزة منهم وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا يا ليت اخواننا يعلمون ما صنع الله لنا وفى لفظ قالوا من يبلغ اخواننا انا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله أنا أبلغهم عنكم فانزل هذه الآيات ولا تحسبن الذين قتلوا الآية وما بعدها وقد روى من وجوه كثيرة ان سبب نزول الآية قتلى أحد وعن أنس ان سبب نزول هذه الآية قتلى بئر معونة وعلى كل حال فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد فى سبيل الله وقد ثبت فى أحاديث كثيرة فى الصحيح وغيره ان أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر وثبت فى فضل الشهداء ما يطول تعداده وبكثير ايراده مما هو معروف فى كتب الحديث وقوله الذين قتلوا هو المفعول الاول والحاسب هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم أو كل أحد كما سبق وقيل

بصراخهم أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح وقال عبد الرزاق أخبرنا بكار بن عبد الله انه سمع وهب بن منبه يقول السكينة روح من الله تتكلم اذا اختلفوا في شيء تكلم فتخبرهم ببيان ما يريدون وقوله وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون قال ابن جرير أخبرنا ابن مثنى حدثنا أبو الوليد حدثنا حماد عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون قال عصاه ورضاض الالواح وكذا قال قتادة والسدي والربيع بن أنس وعكرمة وزادوا التوراة وقال أبو صالح وبقية مما ترك آل موسى يعني عصا موسى وعصا هرون ولوحين من التوراة والمن وقال عطية بن سعد عصا موسى وعصا هرون وثياب موسى وثياب هرون ورضاض الالواح وقال عبد الرزاق سألت الثوري عن قوله وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون فقال منهم من يقول قفيز من من ورضاض الالواح ومنهم من يقول العصا والنعلان (١٣٩) وقوله تحمله الملائكة قال ابن جريج قال ابن عباس جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والارض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون وقال السدي أصبح التابوت في دار طالوت فآمنوا بنبوته سمعون وأطاعوا طالوت وقال عبد الرزاق عن الثوري عن بعض أشياخه جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة وقيل على بقرتين وذكر غيره ان التابوت كان بأريحا وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير فأصبح التابوت على رأس الصنم فأنزلوه فوضعوه تحته فأصبح كذلك فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيد افعلموا ان هذا أمر من الله لا قبل لهم به فأخرجوا التابوت من بلدهم فوضعوه في بعض القرى فأصاب أهلها داء في رقابهم فأمرتهم جارية من سبي بني اسرائيل ان يردوه الى بني اسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء فحملوه على بقرتين فسارتا به لا يقربه أحد الا مات حتى اقتربتا من بلد بني اسرائيل فكسرتا النيرين ورجعتا وجاء بنو اسرائيل فأخذوه فقيل انه تسلمه داود عليه السلام وانه لما قام اليهما تجل من فرحه بذلك وقيل شابان منهم فالله أعلم وقيل كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها ازدود وقوله ان في ذلك لآية لكم أي على صدق فيما جئتكم به من النبوة وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ان كنتم مؤمنين أي بالله واليوم الآخر (فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) يقول تعالى مخبرا عن طالوت ملك بني اسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملا بني اسرائيل وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفا فالله أعلم

معناها لا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتا وهذا تكلف لا حاجة اليه ومعنى النظم القرآني في غاية الوضوح والجلاء قيل وفي الكلام حذف والتقدير عند كرامة ربهم قال سيبويه هذه عندية الكرامة لا عندية القرب والمراد بالرزق هو الرزق المعروف في العادات على ما ذهب اليه الجمهور كما سلف وعند من عدا الجمهور المراد به الثناء الجميل ولا وجه يقتضي تحريف الكلمات العربية في كتاب الله تعالى وحملها على مجازات بعيدة لا بسبب يقتضي ذلك وقد تعلق بهذا من يقول بالتناسخ من المبتدعة ويقول بانتقال الارواح وتنعيمها في الصور الحسان المرفهة وتعذيبها في الصور القبيحة ويزعمون ان هذا هو الثواب والعقاب وهذا ضلال مبين وقول ليس عليه أثارة من علم لما فيه من ابطال ما جاءت به الشرائع من الحشر والنشر والمعاد والجنة والنار والاحاديث الصحيحة تدفعه وترده (فرحين بما آتاهم الله) أي ما ساقه اليهم من الكرامة بالشهادة وما صاروا فيه من الحياة وما يصل اليهم من رزق الله سبحانه والتمتع من الله والتنعم بالنعيم الخالد عاجلا (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) من اخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على منهج الايمان والجهاد والمراد اللحوق بهم في القتل والشهادة أي بل سيلحقون بهم من بعد وقيل المراد لم يلحقوا بهم في الفضل وان كانوا أهل فضل في الجملة وقيل المراد باخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء وغيرهم لانهم لما عاينوا ثواب الله وحصل لهم اليقين بحقية دين الاسلام استبشروا بذلك لجميع أهل الاسلام الذين هم أحياء لم يموتوا وهذا قوي لان معناه أوسع وفائدته أكثر واللفظ يحتمله بل هو الظاهر وبه قال الزجاج وابن فورك (ألا خوف عليهم) في الآخرة والخوف غم يلحق الانسان بما يتوقعه من السوء (ولا هم يحزنون) على ما فاتهم من نعيم الدنيا والحزن غم يلحقه من فوات نافع أو حصول ضار فمن كانت أعماله مشكورة فلا يخاف العاقبة ومن كان متقلبا في نعمة الله وفضله فلا يحزن أبدا (يستبشرون بنعمة من الله وفضل) كرر قوله يستبشرون لتأكيد

انه قال ان الله مبتليكم أى مختبركم بنهر قال ابن عباس وغيره وهو نهر بين الاردن وفلسطين يعنى نهر الشريعة المشهور فمن شرب منه فليس منى أى فلا يصحبنى اليوم فى هذا الوجه ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده أى فلا بأس عليه قال الله تعالى فشربوا منه الا قليلا منهم وقال ابن جريج قال ابن عباس من اغترف منه بيده روى ومن شرب منه لم يرو وكذا رواه السدى عن ابى مالك عن ابن عباس وكذا قال قتادة وابن شوذب وقال السدى كان الجيش ثمانين ألفا فشرب منه ستة وسبعون ألفا وتبقى معه أربعة آلاف كذا قال وقد روى ابن جرير من طريق اسرائيل وسفيان الثورى ومسعر بن كدام عن ابى اسحق السبيعى عن البراء بن عازب قال كنا نتحدث ان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يوم بدر ثلثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جاز وا معه النهر وما جازه معه الا مؤمن (١٤٠) ورواه البخارى عن عبد الله بن رجاء عن اسرائيل بن يونس عن أبى اسحق عن جده عن البراء بنحوه ولهذا قال تعالى فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده أى استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم فشجعهم علماؤهم العاملون بان وعد الله حق فان النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد ولهذا قالوا كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين) اى لما واجه حزب الايمان وهم قليل من أصحاب طالوت لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا أى أنزل علينا صبرا من عندك وثبت أقدامنا أى فى لقاء الاعداء وجنبنا الفرار والعجز وانصرنا على نصر القوم الكافرين قال الله تعالى فهزموهم باذن الله أى غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم وقتل داود جالوت ذكروا فى الاسرائيليات انه قتله بمقلاع كان فى يده رماه به فأصابه فقتله وكان طالوت قد وعده ان قتل جالوت ان يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ويشركه فى أمره ففعل له ثم آل الملك الى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ولهذا قال تعالى وآتاه الله الملك الذى كان بيد طالوت والحكمة أى النبوة بعد شمويل وعلمه مما يشاء أى مما يشاء الله من العلم الذى اختصه به صلى الله عليه وسلم ثم قال تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض أى لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بنى اسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا

الاول قاله الزمخشرى وليس ان الاستبشار ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبنعمة الله وفضله والنعمة ما ينعم الله به على عباده والفضل ما يتفضل به عليهم وقيل النعمة الثواب والفضل الزائد وقيل النعمة الجنة والفضل داخل فى النعمة ذكر بعدها لتأكيدها وقيل ان الاستبشار الاول متعلق بحال اخوانهم والاستبشار الثانى بحال أنفسهم (وان الله لا يضيع أجر المؤمنين) كما لا يضيع أجر الشهداء والمجاهدين وقد ورد فى فضل الجهاد والشهادة فى سبيل الله ما يطول تعداده من الاحاديث الصحيحة والآيات الكريمة (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) صفة للمؤمنين أو بدل منهم أو من الذين لم يلحقوا بهم أو هو مبتدأ خبره للذين أحسنوا منهم بجملته أو منصوب على المدح وقد تقدم تفسير القرح قال سعيد ابن جبير القرح الجراحات أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة فى هذه الآية انها قالت لعروة بن الزبير يا ابن اختى كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر لما أصاب نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف ان يرجعوا فقال من يرجع فى أثرهم فانتدب منهم سبعون فيهم أبو بكر والزبير والروايات فى هذا الباب كثيرة قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير (الذين قال لهم الناس) المراد بالناس هنا نعيم بن مسعود وجاز لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم فهو من قبيل العام الذى أريد به الخاص أو من اطلاق الكل وارادة البعض كقوله أم يحسدون الناس يعنى محمدا وحده ونقل على القارئ انه أسلم يوم الخندق وهو مصرح به فى المواهب وقيل المراد بالناس ركب عبد القيس الذين مروا بابى سفيان وقيل هم المنافقون والمراد بقوله (ان الناس قد جمعوا لكم) أبو سفيان وغيره من أصحابه والعرب تسمى الجيش جمعا (فاخشوهم) أى خافوهم فانه لا طاقة لكم بهم (فزادهم ايمانا) أى تصديقا بالله ويقينا والمراد انهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك ولا التفتوا اليه بل أخلصوا لله وازدادوا طمأنينة وقوة فى دينهم وثبوتا على

الآية وقال ابن جرير حدثني ابو حميد الحمصي أحد بني المغيرة حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض وهذا اسناد ضعيف فان يحيى بن سعيد هذا هو ابن العطار الحمصي وهو ضعيف جدا ثم قال ابن جرير حدثنا أبو حميد الحمصي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله عز وجل مادام فيهم وهذا أيضا غريب ضعيف لما تقدم أيضا وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا علي بن اسمعيل بن حماد أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد أخبرنا زيد بن الحباب حدثني حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي السمان عن ثوبان رفع الحديث قال لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله وقال ابن مردويه أيضا وحدثنا محمد بن أحمد حدثنا محمد بن جرير بن يزيد حدثنا أبو معاذ نهار بن معاذ بن عثمان الليثي أخبرنا زيد بن الحباب أخبرني عمر البزار عن عنبسة الخواص عن قتادة عن أبي قلابة عن أبي الاشعث الصنعاني عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الابدال في أمتي ثلاثون بهم ترزقون وبهم تمطرون وبهم تنصرون قال قتادة انى لارجوا ان يكون الحسن منهم وقوله ولكن الله ذو فضل على العالمين أي من عليهم ورحمة بهم يدفع عنهم ببعضهم بعضا وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله

نصر نبيهم وفيه دليل على ان الايمان يزيد وينقص (وقالوا حسبنا الله) حسب مصدر حسبه أي كفاه وهو بمعنى الفاعل أي محسب بمعنى كاف قال في الكشاف الدليل على انه بمعنى المحسب انك تقول هذا رجل حسبك فتصف به النكرة لان اضافته لكونه بمعنى اسم الفاعل غير حقيقية (ونعم الوكيل) هو من يوكل اليه الامور أي نعم الموكول اليه أمرنا أو الكافي أو الكافل والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم الوكيل الله سبحانه وقد ورد في فضل هذه الكلمة أعني حسبنا الله ونعم الوكيل أحاديث منها ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس قال قالها ابراهيم حين القي في النار وقالها محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين قالوا ان الناس قد جمعوا لكم وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا وقعتم في الامر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل قال ابن كثير بعد اخراجه هذا حديث غريب من هذا الوجه وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حسبنا الله ونعم الوكيل أمان كل خائف وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته ثم تنفس الصعداء وقال حسبي الله ونعم الوكيل (فانقلبوا بنعمة من الله) أي فرجعوا اليهم فانقلبوا والتنوين للتعظيم أي رجعوا متلبسين بنعمة عظيمة وهي السلامة من عدوهم وعافية (وفضل) أي أجر تفضل الله به عليهم وقيل ربح في التجارة وقيل النعمة خاصة بمنافع الدنيا والفضل بمنافع الآخرة وقد تقدم تفسيرهما قريبا بما يناسب ذلك المقام لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين صاروا في الدار الآخرة والكلام هنا مع الاحياء وقوله (لم يمسسهم سوء) أي سالمين عنه لم يصبهم قتل ولا جرح ولا ما يخافونه وقال ابن عباس لم يؤذهم أحد (واتبعوا رضوان الله) فيما يأتون ويذرون وأطاعوا الله ورسوله ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة وعن ابن عباس النعمة انهم سلموا والفضل ان عيرا مرت وكان في أيام الموسم

وأقوله ثم قال تعالى تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الدين ذكرناهم بالحق أي بالواقع الذي كان عليه الامر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني اسرائيل وانك أي يا محمد لمن المرسلين وهذا توكيد وتوطئة للقسم (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) يخبر تعالى انه فضل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا وقال ههنا تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله يعني موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح بن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه ورفع بعضهم درجات كما ثبت في حديث

الاسراء حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم الانبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل فان قيل فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسمه يقسم لا والذي اصطفى موسى على العالمين فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي فقال أي خبيث وعلى محمد صلى الله عليه وسلم فجاء اليهودي الى النبي صلى الله عليه وسلم فاشتكى على المسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفضلوني على الانبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور فلا تفضلوني على الانبياء وفي رواية لا تفضلوا بين الانبياء فالجواب من وجوه أحدها ان هذا كان قبل ان يعلم بالتفضيل وفي هذا نظر الثاني ان هذا قاله من باب الهضم (١٤٢) والتواضع الثالث ان هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر والرابع لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية الخامس ليس مقام التفضيل اليكم وانما هو الى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والايمان به وقوله وآتينا عيسى ابن مريم البينات أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني اسرائيل به من انه عبد الله ورسوله اليهم وأيدناه بروح القدس يعني ان الله أيده بجبريل عليه السلام ثم قال تعالى ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا أي بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره ولهذا قال ولكن الله يفعل ما يريد (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) يأمر تعالى عباده بالانفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم وليكفهم وليبادروا الى ذلك في هذه الحياة الدنيا من قبل ان يأتي يوم يعني يوم القيامة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة أي لا يباع أحد من نفسه ولا يفادي بمال لو بذله ولو جاء بمل الارض ذهبا ولا تنفعه خلة أحد يعني صداقته بل ولا نسابته كما قال فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ولا شفاعة أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين وقوله والكافرون هم الظالمون مبتدأ محصور في خبره أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافرا وقد روى بن أبي حاتم عن عطاء بن دينار انه قال الحمد لله الذي قال والكافرون هم الظالمون ولم يقل والظالمون هم الكافرون (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم

فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فربح مالا فقسمه بين أصحابه وعن مجاهد قال الفضل ما أصابوا من التجارة والاجر وقال السدي أما النعمة فهي العافية وأما الفضل فالتجارة والسوء القتل (والله ذو فضل عظيم) لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ومن تفضله عليهم تثبيتهم وخروجهم للقاء عدوهم وارشادهم الى ان يقولوا هذه المقالة التي هي جالبة لكل خير ودافعة لكل شر وقيل تفضل عليهم بالقاء الرعب في قلوب المشركين حتى رجعوا (انما ذلكم) المثبط لكم والمخوف أيها المؤمنون (الشيطان) والظاهر ان المراد هنا الشيطان نفسه باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتثبيط وقيل المراد به نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة وقيل أبو سفيان لما صدر منه الوعيد لهم والمعنى ان الشيطان (يخوف) المؤمنين (أولياءه) وهم الكافرون قال ابن عباس الشيطان يخوف باوليائه وقال أبو مالك يعظم أولياءه في أعينكم وقال الحسن انما كان ذلك تخويف الشيطان ولا يخاف الشيطان الاولى الشيطان (فلا تخافوهم) أي أولياءه الذين يخوفكم بهم الشيطان أو فلا تخافوا الناس المذكورين في قوله ان الناس قد جمعوا لكم نهاهم الله سبحانه ان يخافوهم فيجبنوا عن اللقاء وينشلوا عن الخروج وأمرهم بان يخافوه سبحانه فقال (وخافون) هذه الياء التي بعد النون اختلف السبعة في اثباتها لفظا واتفقوا على حذفها في الرسم لانها من يا آت الزوائد كلها الا ترسم وجملتها اثنتان وستون والمعنى فافعلوا ما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه لاني الحقيق بالخوف مني والمراقبة لامري ونهيي لكون الخير والشر بيدي وقيده بقوله (ان كنتم مؤمنين) لان الايمان يقتضي ذلك ويستدعي الامن من شر الشيطان وأوليائه (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) يقال حزنني الامر وهي لغة قريش وأحزنني وهي لغة تميم والاولى أفصح والغرض من هذا تسليته صلى الله عليه وآله وسلم وتصبيره على تعنتهم في الكفر وتعرضهم له بالاذى وضمن يسارعون يقعون فعداه بفي أي لا يحزنك مسارعتهم لمقويات الكفر من قول وفعل فهذا هو

هذه آية الكرسي ولها شأن عظيم قد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بانها أفضل آية في كتاب الله قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن سعيد الجريري عن أبي السليل عن عبد الله بن رباح عن أبي هو ابن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم سأله أي آية في كتاب الله أعظم قال الله ورسوله أعلم فرددها مرارا ثم قال آية الكرسي قال ليهنك العلم أبا المنذر والذي نفسي بيده ان لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش وقد رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الاعلى بن عبد الاعلى عن الجريري به وليس عنده زيادة والذي نفسي بيده الخ حديث آخر عن أبي أيضا في فضل آية الكرسي قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا أحمد بن ابراهيم الدورقي حدثنا ميسرة عن الاوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عبيدة بن أبي لبابة عن عبد الله بن أبي بن كعب ان أباه أخبره انه كان له جرن فيه تمر قال فكان أبي (١٤٣) يتعاهده فوجده ينقص قال فحرسه ذات ليلة فاذا هو ببابة شبيه الغلام المحتلم قال فسلمت عليه فرد السلام قال فقلت ما أنت جني أم انسي قال جني قال قلت ناولني يدك قال فناولني يده فاذا يد كلب وشعر كلب فقلت هكذا خلق الجن قال لقد علمت الجن ما فيهم أشد مني قلت فما حملك على ما صنعت قال بلغني أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك قال فقال له أبي فما الذي يجيرنا منكم قال هذه الآية آية الكرسي ثم غدا الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الخبيث وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي داود الطيالسي عن حرب بن شداد عن يحيى بن أبي كثير عن الحضرمي بن لاحق عن محمد بن عمرو بن أبي بن كعب عن جده به وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه طريق أخرى قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عثمان بن عتاب قال سمعت أبا السليل قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحدث الناس حتى يكثروا عليه فيصعد على سطح بيت فيحدث الناس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي آية في القرآن أعظم فقال رجل الله لا اله الا هو الحي القيوم قال فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي أو قال فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي وقال ليهنك العلم يا أبا المنذر حديث آخر عن الاسقع البكري قال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أبو يزيد القراطيسي حدثنا يعقوب بن أبي عباد المكي حدثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج أخبرني عمر بن عطاء ان مولى بن الاسقع رجل صدق أخبره عن الاسقع البكري انه سمعه يقول ان النبي صلى الله عليه وسلم جاءهم في صفة المهاجرين فسأله انسان أي آية في القرآن أعظم فقال النبي صلى الله عليه وسلم الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم حتى انقضت الآية حديث آخر عن أنس قال الامام أحمد

هو الذي يسارع اليه أي الامور المقوية له كالتهيؤ لقتال النبي وأما الكفر فهو دائم فيهم فلا تتأتى مسارعتهم للوقوع فيه لان هذا التعبير يشعر بطرو هذا الامر وأما ايثار كلمة الى في قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم فلان المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها قيل هم قوم ارتدوا فاغتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك فسلاه الله سبحانه ونهاه عن الحزن وعلل ذلك بقوله (انهم لن يضروا الله شيأ) أي شيأ من الضرر والتنكير لتأكيد ما فيه من القلة والحقارة وقيل على نزع الجار أي بشيء تماما أصلا وقيل هم كفار قريش وقيل هم المنافقون ورؤساء اليهود وقيل هو عام في جميع الكفار قال القشيري والحزن على كفر الكافر طاعة ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يفرط في الحزن فنهي عن ذلك كما قال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وقال فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا والمعنى ان كفرهم لا ينقص من ملك الله سبحانه شيأ وقيل المراد لن يضروا أولياءه ويحتمل ان يراد لن يضروا دينه الذي شرعه لعباده وفيه مزيد مبالغة في التسلية (يريد الله ألا يجعل لهم حظا) نصيبا (في الآخرة) أو نصيبا من الثواب وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الارادة واستمرارها وفي الآية دليل على ان الخير والشر بارادة الله تعالى وفيه رد على القدرية والمعتزلة (ولهم عذاب عظيم) في النار بسبب مسارعتهم في الكفر فكان ضرر كفرهم عائدا عليهم جالبا لهم عدم الحظ في الآخرة ومصيرهم الى العذاب العظيم (ان الذين اشتروا) استبدلوا (الكفر بالايمان) وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة والمراد المنافقون آمنوا ثم كفروا (لن يضروا الله شيأ) نفي الضرر معناه كالاول وهو للتأكيد لما تقدمه وقيل ان الاول خاص بالمنافقين والثاني يعم جميع الكفار والاول أولى (ولهم عذاب أليم) في الآخرة ولما جرت العادة بسرور المشتري بما اشتراه عند كون الصفقة رابحة وبتألمه عند كونها خاسرة ناسب وصف العذاب بالاليم (ولا تحسبن الذين كفروا) وقرئ بالتحتية فالمعنى لا يحسبن الكافرون

حدثنا عبد الله بن الحرث حدثني سلمة بن وردان ان أنس بن مالك حدثه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل رجلا من صحابته فقال أي فلان هل تزوجت قال لا وليس عندي ما أتزوج به قال أوليس معك قل هو الله أحد قال بلى قال ربع القرآن قال أليس معك قل يا أيها الكافرون قال بلى قال ربع القرآن قال أليس معك اذا زلزلت قال بلى قال ربع القرآن قال أليس معك اذا جاء نصر الله قال بلى قال ربع القرآن قال أليس معك آية الكرسي الله لا اله الا هو قال بلى قال ربع القرآن حديث آخر عن أبي ذر جندب بن جنادة قال الامام أحمد حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا المسعودي أنبأني ابو عمر الدمشقي عن عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر رضي الله عنه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فجلست فقال يا أبا ذر هل صليت قلت لا قال قم فصل قال فقمت فصليت ثم جلست فقال يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين (١٤٤) الانس والجن قال قلت يا رسول الله اوللانس شياطين قال نعم قال قلت يا رسول الله الصلاة قال خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر قال قلت يا رسول الله فالصوم قال فرض مجزى وعند الله مزيد قلت يا رسول الله فالصدقة قال اضعاف مضاعفة قلت يا رسول الله فأيها افضل قال جهد من مقل أو سر الى فقير قلت يا رسول أي الانبياء كان أول قال آدم قلت يا رسول الله ونبي كان قال نعم نبي مكلم قلت يا رسول الله كم المرسلون قال ثلثمائة وبضعة عشر جما غفيرا وقال مرة وخمسة عشر قلت يا رسول الله أي ما أنزل عليك أعظم قال آية الكرسي الله لا اله الا هو الحي القيوم ورواه النسائي حديث آخر عن أبي أيوب خالد بن زيد الانصاري رضي الله عنه وأرضاه قال الامام أحمد حدثنا سفيان عن ابن أبي ليلى عن أخيه عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي أيوب انه كان في سهوة له وكانت الغول تجيء فتأخذ فشكاها الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال فاذا رأيتها فقل بسم الله أجيبي رسول الله قال فجاءت فقال لها ٢ فأخذها فقالت اني لا أعود المحدثين فأرسلها فجاء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما فعل أسيرك قال أخذتها فقالت اني لا أعود فأرسلتها فقال انها عائدة فأخذتها مرتين أو ثلاثا كل ذلك تقول لا أعود وأجيء الى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول ما فعل أسيرك فأقول أخذتها فتقول لا أعود فيقول انها عائدة فأخذتها فقالت أرسلني وأعلمك شيأ ينفعك قلت ما هو قالت آية الكرسي فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال صدقت وهي كذوب ورواه الترمذي في فضائل القرآن عن بندار عن ابي أحمد الزبيري به وقال حسن غريب والغول في لغة العرب الجان اذا تبدى في الليل وقد ذكر البخاري هذه القصة عن أبي هريرة فقال في كتاب فضائل القرآن وفي كتاب الوكالة وفي صفة ابليس من صحيحه قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان

(٢) بياض بالاصل

(أنما نملي لهم) بتطويل الاعمار وتأخيرهم ورغد العيش أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد (خير لانفسهم) فليس الامر كذلك بل هو شر واقع عليهم ونازل بهم وعلى الاولى لا تحسبن يا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ان الاملاء للذين كفروا بما ذكر خير لهم (انما نملي لهم ليزدادوا اثما) بكثرة المعاصي واللام لام الارادة أي ارادة زيادة الاثم وهي جائزة عند الاشاعرة ولا تخلو عن حكمة وعند المعتزلة القائلين بانه تعالى لا يريد القبيح هي لام العاقبة وهي جملة مستأنفة مبينة لوجه الاملاء للكافرين أو تكرير للاولى والاملاء الامهال والتأخير وأصله من الملوة وهي المدة من الزمان يقال أملى له في الامر أخرت وأمليت للبعير في القيد أرخيت له ووسعت (ولهم عذاب مهين) في الآخرة قال أبو السعود لما تضمن الاملاء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها وذلك مما يقتضي التعزز والتكرم وصف عذابهم بالاهانة ليكون جزاؤهم جزاء وفاقا انتهى واحتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ما يقوله المعتزلة لانه سبحانه أخبر بانه يطيل أعمار الكافرين ويجعل عيشهم رغدا ليزدادوا اثما قال أبو حاتم وسمعت الاخفش يذكر كسر انما على الاولى وفتح الثانية ويحتج بذلك لاهل القدر لانه منهم ويجعله على هذا التقدير ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم ليزدادوا اثما انما نملي لهم خير لانفسهم وقال في الكشاف ان ازدياد الاثم علة وما كل علة بغرض الا ترى تقول قعدت عن الغزو للعجز والنفاقة وخرجت من البلد لمخافة الشر وليس شيء من ذلك بغرض لك وانما هي أسباب وعلل وعن ابن مسعود قال ما من نفس برة ولا فاجرة الا والموت خير لها من الحياة ان كان برا فقد قال تعالى وما عند الله خير للابرار وان كان فاجرا فقد قال تعالى ولا يحسبن الذين كفروا الآية وعن أبي الدرداء ومحمد بن كعب وأبي هريرة نحوه (ما كان الله) كلام مستأنف (ليذر المؤمنين) هذه اللام تسمى لام الجحود وينصب بعدها المضارع باضمار ان ولا يجوز اظهارها وهذا القول دلائل واعتراضات مذكورة في كتب النحو والخطاب في قوله (على ما أنتم عليه) عند جمهور

فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لارفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فاني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة قال فخليت عنه فأصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة قال قلت يا رسول الله شكى حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال أما انه قد كذبك وسيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لارفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فاني محتاج وعلي عيال لا أعود فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة قلت يا رسول الله شكى حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما انه قد كذبك وسيعود فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لارفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات انك تزعم انك (١٤٥) لا تعود ثم تعود فقال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت وما هي قال اذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي الله لا اله الا هو الحي القيوم حتى تختم الآية فانك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل أسيرك البارحة قلت يا رسول الله زعم انه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال ما هي قال قال لي اذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية الله لا اله الا هو الحي القيوم وقال لي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شيء على الخير فقال النبي صلى الله عليه وسلم اما انه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة قلت لا قال ذاك شيطان كذا رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم وقد رواه النسائي في اليوم والليلة عن

المحدثين للكفار والمنافقين وقيل الخطاب للمؤمنين والمنافقين أي ما كان الله ليتركم على الحال الذي عليه أنتم من الاختلاط وقيل الخطاب للمشركين والمراد بالمؤمنين من في الاصلاب والارحام أي ما كان الله ليذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم وبينهم وقيل الخطاب للمؤمنين أي ما كان الله ليذركم يا معشر المسلمين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم وعلى هذا الوجه والوجه الثاني يكون في الكلام التفات (حتى يميز الخبيث من الطيب) أي بعضكم من بعض قال ابن عباس يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقال قتادة يميز بينهم في الجهاد والهجرة وقرئ يميز بالتشديد فالتخفيف من ماز الشيء يميزه ميزا اذا فرق بين شيئين فان كانت أشياء قيل ميزها تمييزا (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) الخطاب لكفار قريش أي ما كان ليبين لكم المؤمن من الكافر فيقول فلان كافر وفلان مؤمن وفلان منافق لتعرفوا قبل التمييز لان المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فميز بينكم كما وقع من نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من تعيين كثير من المنافقين فان ذلك كان بتعليم الله له لا بكونه يعلم الغيب أو ان يشاهد أمرا يدل على أمر يكون من بعد كما نصب له علامات دالة على مصارع الكفار يوم بدر وقيل المعنى ما كان الله ليطلعكم على الغيب فيمن يستحق النبوة حتى يكون الوحي باختياركم (ولكن الله يجتبي) أي يختار ويختص قاله مجاهد وعن مالك يستخلص (من رسله من يشاء) فيطلعه على ما يشاء من غيبه عن السدي قال قالوا ان كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم صادقا فليخبرنا بمن يؤمن منا ومن يكفر فأنزل الله هذه الآية وعن الحسن قال لا يطلع على الغيب الا رسول (فآمنوا بالله ورسله) بصفة الاخلاص (وان تؤمنوا وتتقوا) النفاق (فلكم أجر عظيم) في الآخرة (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم) أي لا يحسبن الباخلون البخل خيرا لهم قاله الخليل وسيبويه والفراء وقرئ بالتاء أي لا تحسبن يا محمد صلى الله

(١٩ - فتح البيان ثاني) ابراهيم بن يعقوب عن عثمان بن الهيثم فذكره وقد روى من وجه آخر عن أبي هريرة بسياق آخر قريب من هذا فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرويه الصفار حدثنا أحمد بن زهير بن حرب أنبأنا مسلم بن ابراهيم أنبأنا اسمعيل بن مسلم العبدي أنبأنا أبو المتوكل الناجي ان أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوما ففتح الباب فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف ودخل يوما آخر فاذا قد أخذ منه ملء كف ثم دخل يوما آخر ثالثا فاذا قد أخذ منه مثل ذلك فشكى ذلك أبو هريرة الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم تحب ان تأخذ صاحبك هذا قال نعم قال فاذا فتحت الباب فقل سبحان من سخرك محمد فذهب ففتح الباب فقال سبحان من سخرك محمد فاذا هو قائم بين يديه قال يا عدو الله انت صاحب هذا قال نعم دعني فاني لا أعود وما كنت آخذ الا لاهل بيت من الجن فقرأ فخلا عنه ثم عاد الثانية ثم عاد

الثالثة فقالت ليس قد عاهدتني الا تعود ولا ادعك اليوم حتى اذهب بك الى النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تفعل فانك ان تدعني علمتك كلمات اذا انت قلتهن لم يقربك احد من الجن صغير ولا كبير ذكر ولا انثى قال له لتفعلن قال نعم قال ماهن قال الله لا اله الا هو الحي القيوم قرأ آية الكرسي حتى ختمها فتركه فذهب فلم يعد فذكر ذلك ابو هريرة للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اما علمت ان ذلك كذلك وقد رواه النسائي عن احمد بن محمد بن عبيد الله عن شعيب بن حرب عن اسمعيل بن مسلم عن ابي المتوكل عن ابي هريرة به وقد تقدم لابي بن كعب كائنة مثل هذه أيضا فهذه ثلاث وقائع *(قصة اخرى)* قال ابو عبيد في كتاب الغريب حدثنا ابو معاوية عن ابي عاصم الثقفي عن الشعبي عن عبد الله بن مسعود قال خرج رجل من الانس فلقيه رجل من الجن فقال هل لك ان تصارعني (١٤٦) فان صرعتني علمتك آية اذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان فصارعه فصرعه فقال اني أراك ضئيلا شخيتا كان ذراعيك ذراعي كلب أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم أم أنت من بينهم فقال اني بينهم لضليع فعاودني فصارعه فصرعه الانسي فقال تقرأ آية الكرسي فانه لا يقرأها أحد اذا دخل بيته الا خرج الشيطان وله خيخ كخيخ الحمار فقيل لابن مسعود أهو عمر فقال من عسى ان يكون الا عمر قال أبو عبيد الضئيل النحيف الجسيم والخيخ بالخاء المعجمة ويقال بالحاء المهملة الضراط حديث آخر عن أبي هريرة قال الحاكم أبو عبد الله في مستدركه حدثنا علي بن حشاد حدثنا بشر بن موسى حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثني حكيم بن جبير الاسدي عن أبي صالح عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرأ في بيت فيه شيطان الا خرج منه آية الكرسي وكذا رواه من طريق آخر عن زائدة عن حكيم بن جبير ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه كذا قال وقد رواه الترمذي من حديث زائدة ولفظه لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي ثم قال غريب لا نعرفه الا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم فيه شعبة وضعفه (قلت) وكذا ضعفه أحمد ويحيى ابن معين وغير واحد من الائمة وتركه ابن مهدي وكذبه السعدي حديث آخر قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي بن نافع أخبرنا عيسى بن محمد المروزي أخبرنا عمر بن محمد البخاري أخبرنا عيسى بن موسى غنجار عن عبد الله بن كيسان حدثنا يحيى أخبرنا يحيى ابن عقيل عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب انه خرج ذات يوم الى الناس وهم سماطان فقال أيكم يخبرني بأعظم آية

عليه وآله وسلم بخل الذين يبخلون خبرا لهم قال الزجاج هو مثل واسئل القرية والآية دالة على ذم البخل وقد ورد فيه أحاديث قال المبرد والسين في قوله (سيطوقون ما بخلوا به) سين الوعيد وهذه الجملة مبينة لمعنى ما قبلها قيل ومعنى التطويق هنا انه يكون ما بخلوا به من المال طوقا من نار في أعناقهم وقيل معناه انهم سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة وليس من التطويق وقيل المعنى انهم يلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق يقال طوق فلان عمله طوق الحمامة أي ألزم جزاء عمله قال القرطبي والبخل في أصل اللغة ان يمنع الانسان الحق الواجب فأما من منع ما لا يجب عليه فليس ببخيل قال في القاموس البخل ضد الكرم وقد ذكر الشوكاني في شرحه للمنتقى عند قوله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم اني أعوذ بك من البخل انه قيده بعضهم بما يجب اخراجه ثم قال ولا وجه له لان البخل بما ليس بواجب من غرائز النقص المضادة للكمال والتعوذ منه حسن بلا شك فالاولى تبقية الحديث على عمومه انتهى فمعنى البخل عام لا كما ذكره القرطبي واما في الآية فهو للواجب ولكن عبارته تفيد التعميم والله أعلم قال ابن عباس هم أهل الكتاب بخلوا به ان يبثوه للناس وعن مجاهد قال هم اليهود وعن السدي قال بخلوا ان ينفقوها في سبيل الله ولم يؤدوا زكاتها (يوم القيامة) بأن يجعل حية في عنقه تنهشه كما أخرج البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا هذه الآية وقد ورد هذا المعنى في أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة يرفعونها (ولله ميراث السموات والارض) أي له وحده لا لغيره كما يفيده التقديم والمعنى ان له ما فيهما مما يتوارثه أهلهما ومنه المال فما بالهم يبخلون بذلك ولا ينفقونه وهو لله سبحانه لا لهم وانما كان عندهم عارية مستردة ومثل هذه الآية قوله تعالى انا نحن نرث الارض ومن عليها وقوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين

فى القرآن فقال ابن مسعود على الخبير سقطت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أعظم آية فى القرآن الله لا اله الا هو الحى القيوم حديث آخر فى اشتمالها على اسم الله الاعظم قال الامام أحمد حدثنا محمد بن بكير أنبأنا عبيد الله بن أبى زياد حدثنا شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى هاتين الآيتين الله لا اله الا هو الحى القيوم والم الله لا اله الا هو الحى القيوم ان فيهما اسم الله الاعظم وكذا رواه أبو داود عن مسدد والترمذى عن على بن خشرم وابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة ثلاثتهم عن عيسى بن يونس عن عبيد الله بن أبى زياد به وقال الترمذى حسن صحيح حديث آخر فى معنى هذا عن أبى أمامة رضى الله عنه قال ابن مردويه أخبرنا عبد الله بن غير أخبرنا اسحق بن ابراهيم بن اسمعيل أخبرنا هشام ابن عمار أنبأنا الوليد بن مسلم أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زبر انه سمع القاسم بن عبد الرحمن يحدث عن أبى أمامة يرفعه قال اسم الله الأعظم الذى اذا دعى به أجاب فى ثلاث سورة البقرة وآل عمران وطه قال هشام وهو ابن عمار خطيب دمشق أما البقرة فالله لا اله الا هو الحى القيوم وفى آل عمران الم الله لا اله الا هو الحى القيوم وفى طه وعنت الوجوه للحى القيوم حديث آخر عن أبى أمامة فى فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن محرز بن بناور الادمى أخبرنا جعفر بن محمد ابن الحسن أخبرنا الحسن بن بشر بطرسوس أخبرنا محمد بن حمير أخبرنا محمد بن زياد عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسى لم يمنعه من دخول الجنة الا أن يموت وهكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة عن الحسن ابن بشر به وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث محمد بن حمير وهو الحمصى من رجال البخارى أيضا فهو اسناد على شرط البخارى وقد زعم أبو الفرج بن الجوزى انه حديث موضوع والله أعلم وقد روى ابن مردويه من حديث على والمغيرة بن شعبة وجابر بن عبد الله نحو هذا الحديث ولكن فى اسناد كل منها ضعف وقال ابن مردويه أيضا حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرى أخبرنا يحيى بن رستويه المروزى أخبرنا زياد بن ابراهيم أخبرنا أبو حمزة السكرى عن المثنى عن قتادة عن الحسن عن أبى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أوحى الله الى موسى بن عمران عليه السلام ان اقرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة فانه من يقرأها فى دبر كل صلاة مكتوبة أجعل له قلب الشاكرين ولسان الذاكرين وثواب النبيين وأعمال الصديقين ولا يواظب على ذلك الا نبى أو صديق أو عبد امتحن قلبه للايمان أو أريد قتله فى سبيل الله وهذا حديث منكر جدا حديث آخر فى انها تحفظ من قرأها فى أول النهار وأول الليل قال أبو عيسى الترمذى حدثنا

مستخلفين فيه والميراث فى الاصل هو ما يخرج من مالك الى آخر ولم يكن مملوكا لذلك الآخر قبل انتقاله اليه بالميراث ومعلوم ان الله سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته (والله بما تعملون خبير) قرئ بالتاء على طريقة الالتفات وهى أبلغ فى الوعيد وقرئ بالياء على الظاهر (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) قال أهل التفسير لما أنزل الله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قال قوم من اليهود هذه المقالة تمويها على ضعفائهم لانهم يعتقدون ذلك لانهم أهل كتاب بل أرادوا انه تعالى ان صح ما طلبه منا من القرض على لسان محمد فهو فقير ليشككوا على اخوانهم فى دين الاسلام (سنكتب ما قالوا) فى صحف الملائكة أو سنحفظه أو سنجازيهم عليه والمراد الوعيد لهم وان ذلك لا يفوت على الله بل هو معد لهم ليوم الجزاء وجملة سنكتب على هذا مستأنفة جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل ماذا صنع الله بهؤلاء الذين سمع منهم هذا القول الشنيع فقال قال لهم سنكتب ما قالوا (و) نكتب (قتلهم الانبياء) أى قتل أسلافهم للانبياء وانما نسب ذلك اليهم لكونهم رضوا به جعل ذلك القول قرينا لقتل الانبياء تنبيها على انه من العظم والشناعة بمكان يعدل قتل الانبياء (بغير حق) حتى فى اعتقادهم فكانوا يعتقدون ان قتلهم لا يجوز ولا يحل وحينئذ فيناسب شن الغارة عليهم (ونقول) أى ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذى نقوله لهم فى النار أو عند الموت أو عند الحساب وقرئ بالياء أى يقول الله لهم فى الآخرة على لسان الملائكة (ذوقوا عذاب الحريق) الحريق اسم للنار الملتهبة واطلاق الذوق على احساس العذاب فيه مبالغة بليغة والاشارة بقوله (ذلك بما قدمت أيديكم) الى العذاب المذكور قبله وأشار الى القريب بالصيغة التى يشار بها الى البعيد للدلالة على بعد منزلته فى الفظاعة وذكر الايدى لكونها المباشرة لغالب المعاصى (وأن الله ليس بظلام للعبيد) معطوف على ما قدمت أيديكم ووجهه انه سبحانه عذبهم بما أصابوا من الذنب وجازاهم على فعلهم فلم يكن ذلك ظلما أو بمعنى انه

يحيى بن المغيرة أبو سلمة المخزومي المدني أخبرنا ابن أبي فديك عن عبد الرحمن الملكي عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ حم المؤمن الى اليه المصير وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح ثم قال هذا حديث غريب وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة الملكي من قبل حفظه وقد ورد في فضلها أحاديث أخر تركناها اختصارا لعدم صحتها وضعف أسانيدها لحديث علي في قراءتها عند الحجامة انها تقوم مقام حجامتين وحديث أبي هريرة في كتابتها في اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات وتلحس للحفظ وعدم النسيان أوردهما ابن مردويه وغير ذلك وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة فقوله الله لا اله الا هو اخبار بانه المتفرد بالالهية لجميع الخلائق الحي القيوم أي الحي في

نفسه الذي لا يموت أبدا القيم لغيره وكان عمر يقرأ القيام فجميع الموجودات مفتقرة اليه وهو غني عنها ولا قوام لها بدون أمره كقوله ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره وقوله لا تأخذه سنة ولا نوم أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شئ لا يغيب عنه شئ ولا يخفى عليه خافية ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم فقوله لا تأخذه أي لا تغلبه سنة وهي الوسن والنعاس ولهذا قال ولا نوم لانه أقوى من السنة وفي الصحيح عن أبي موسى قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال ان الله لا ينام ولا ينبغي له ان ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار حجابه النور أو النار لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرني الحكم بن أبان عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله لا تأخذه سنة ولا نوم ان موسى عليه السلام سأل والكتاب الملائكة هل ينام الله عز وجل فأوحى الله تعالى الى الملائكة وأمرهم ان يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه ان يكسرهما قال فجعل ينعس وهما في يده في كل يد واحدة قال فجعل ينعس وينبه وينعس وينبه حتى نعس نعسة فضرب احداهما بالاخرى فكسرهما قال معمر انما هو مثل ضربه الله عز وجل يقول فكذلك السموات والارض في يده وهكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق فذكره وهو من أخبار بني اسرائيل وهو مما يعلم ان موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل وانه منزه عنه وأغرب من هذا كله الحديث الذي رواه ابن جرير حدثنا اسحق بن أبي اسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله

مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء وليس بظالم لمن عذبه بذنبه وقيل ان وجهه ان نفي الظلم مستلزم للعدل المقتضي لاثابة المحسن ومعاقبة المسيء وردبان ترك التعذيب مع وجود سببه ليس بظلم عقلا ولا شرعا حتى ينتهض نفي الظلم سببا للتعذيب وقيل ان جملة قوله وان الله ليس بظلام للعبيد في محل رفع على انها خبر مبتدا محذوف أي والامر أن الله ليس بظلام للعبيد والتعبير بذلك عن نفي الظلم مع ان تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم عند أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا لبيان تنزهه عن ذلك ونفي ظلام المشعر بالكثرة يفيد ثبوت أصل الظلم وأجيب عن ذلك بان الذي توعد بان يفعله بهم لو كان ظلما لكان عظيما فنفاه على حد عظمه لو كان ثابتا عن ابن عباس قال ما أبالي بمعذب من لم يجترم (الذين قالوا) أي جماعة من اليهود (ان الله عهد الينا) في التوراة (ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) وهذا منهم كذب على التوراة اذ الذي فيها مقيد بغير عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام والقربان ما يتقرب به الى الله من نسيكة وصدقة وعمل صالح وهو فعلان من القربة وقد كان دأب بني اسرائيل انهم كانوا يقربون القربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار من السماء فتحرقه ولم يتعبد الله بذلك كل أنبيائه ولا جعله دليلا على صدق دعوى النبوة ولهذا رد الله عليهم فقال (قل قد جاءكم رسل من قبلي) كيحيى بن زكريا وشعياء وسائر من قتلوا من الانبياء (بالبينات) أي الدلالات الواضحات على صدقهم (وبالذي قلتم) أي بالقربان (فلم قتلتموهم) أراد بذلك فعل أسلافهم (ان كنتم صادقين) في دعواكم (فان كذبوك) يا محمد هؤلاء اليهود (فقد كذب رسل من قبلك) مثل نوح وهود وصالح وابراهيم وغيرهم من الرسل (جاؤا بالبينات) أي الحلال والحرام أو المعجزات الباهرات (والزبر) جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته اذا حسنته وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته اذا زجرته (والكتاب المنير) الواضح الجلي المضيء يقال نار الشئ واستنار وأناره ونوره بمعنى وقال قتادة الزبر كتب الانبياء

عليه وسلم يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال وقع في نفس موسى هل ينام الله فأرسل اليه ملكا فأرقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره ان يحتفظ بهما قال فجعل ينام وكادت يداه يلتقيان فيستيقظ فيحبس احداهما على الاخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان قال ضرب الله عز وجل مثلا ان الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والارض وهذا حديث غريب جدا والاظهر انه اسرائيلي لا مرفوع والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدستكي حدثني أبي عن أبيه حدثنا أشعث بن اسحق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان بني اسرائيل قالوا يا موسى هل ينام ربك قال اتقوا الله فناداه ربه عز وجل يا موسى سألوك هل ينام ربك فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما (١٤٩) حتى اذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا فقال يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والارض فهلكت كما هلكت الزجاجتان في يديك فأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم آية الكرسي وقوله له ما في السموات وما في الارض اخبار بان الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه كقوله ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فرد وقوله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه كقوله وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيأ الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى وكقوله ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل انه لا يتجاسر أحد على ان يشفع لاحد عنده الا باذنه له في الشفاعة كما في حديث الشفاعة آتي تحت العرش فأخر ساجدا فيدعني

والكتاب المنير هو القرآن الكريم وقيل الزبر الصحف والكتاب المنير التوراة والانجيل وزاد أبو السعود والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والاحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة المواقع (كل نفس ذائقة الموت) من الذوق وهذه الآية تتضمن الوعد والوعيد للمصدق والمكذب بعد اخباره عن الباخلين القائلين ان الله فقير ونحن أغنياء وقرئ ذائقة الموت بالتنوين ونصب الموت وقرأ الجمهور بالاضافة والمعنى ذائقة موت أجسادها اذ النفس لا تموت ولو ماتت لما ذاقت الموت في حال موتها لان الحياة شرط في الذوق وسائر الادراكات وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها معناه حين موت أجسادها قاله الكرخي وهذا يقتضي ان المراد بالنفس هنا الروح والحامل له على تفسيرها بذلك التأنيث في قوله ذائقة لانها بمعنى الروح مؤنثة وتطلق أيضا على مجموع الجسد والروح الذي هو الحيوان وهي بهذا المعنى مذكر وهذا المعنى الثاني تصح ارادته هنا أيضا بل هو الاقرب المتبادر الى الفهم (وانما توفون أجوركم يوم القيامة) أجر المؤمن الثواب وأجر الكافر العقاب أي ان توفية الاجور وتكميلها على التمام انما يكون في ذلك اليوم وما يقع من الاجور في الدنيا أو في البرزخ فانما هو بعض الاجور كما ينبئ عنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) الزحزحة التنحية والابعاد تكرير الزح وهو الجذب بعجلة قاله في الكشاف وقد سبق الكلام عليه أي فمن بعد عن النار يوم ندوني فقد ظفر بما يريد ونجا مما يخاف ونال غاية مطلوبه وهذا هو الفوز الحقيقي الذي لا فوز يقاربه فان كل فوز وان كان بجميع المطالب دون الجنة ليس بشئ بالنسبة اليها الا رؤية الله سبحانه وتعالى فهو أفضل نعيم الآخرة في الجنة اللهم لا فوز الا فوز الآخرة ولا عيش الا عيشها ولا نعيم الا نعيمها فاغفر ذنوبنا واستر عيوبنا وارض عنا رضا لا سخط بعده واجمع لنا بين الرضا منك علينا والجنة عن أبي هريرة قال قال

ما شاء الله ان يدعني ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع قال فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة وقوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم دليل على احاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها كقوله اخبارا عن الملائكة وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا وقوله ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء أي لا يطلع أحد من علم الله على شئ الا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه ويحتمل ان يكون المراد لا يطلعون على شئ من علم ذاته وصفاته الا بما أطلعهم الله عليه كقوله ولا يحيطون به علما وقوله وسع كرسيه السموات والارض قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا ابن ادريس عن مطرف بن طريف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله وسع كرسيه السموات والارض قال علمه وكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن ادريس وهشيم كلاهما عن مطرف بن طريف به قال ابن أبي حاتم وروي عن سعيد بن جبير مثله ثم قال ابن

جرير وقال آخرون الكرسي موضع القدمين ثم رواه عن أبي موسى والسدي والضحاك ومسلم البطين وقال شجاع بن مخلد في تفسيره أخبرنا أبو عاصم عن سفيان عن عمار الذهبي عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل وسع كرسيه السموات والارض قال كرسيه موضع قدميه والعرش لا يقدر قدره الا الله عز وجل كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه من طريق شجاع بن مخلد الفلاس فذكره وهو غلط وقد رواه وكيع في تفسيره حدثنا سفيان عن عمار الذهبي عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره وقد رواه الحاكم في مستدركه عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي عن محمد بن معاذ عن أبي عاصم عن سفيان وهو الثوري باسناده عن ابن عباس موقوفا مثله (١٥٠) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد رواه ابن مردويه من طريق الحاكم بن ظهير الفزاري الكوفي وهو متروك عن السدي عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا ولا يصح أيضا وقال السدي عن أبي مالك الكرسي تحت العرش وقال السدي السموات والارض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش وقال الضحاك عن ابن عباس لو أن السموات السبع والارضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن الى بعض ما كن في سعة الكرسي الا بمنزلة الحلقة في المفازة ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرني ابن وهب قال قال ابن زيد حدثني أبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما السموات السبع في الكرسي الا كدراهم سبعة ألقيت في ترس قال وقال أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما الكرسي في العرش الا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الارض وقال أبو بكر بن مردويه أخبرنا سليمان بن أحمد أخبرنا عبد الله بن وهيب المقرى والمكروه أخبرنا محمد بن أبي اليسري العسقلاني أخبرنا محمد بن عبد الله التميمي عن القاسم بن محمد الثقفي عن أبي ادريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكرسي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ما السموات السبع والارضون السبع عند الكرسي الا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وان فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حدثنا زهير حدثنا ابن أبي بكر حدثنا اسرائيل عن أبي اسحق عن عبد الله بن خليفة عن عمر رضي الله عنه قال أتت امرأة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ادع الله ان يدخلني الجنة قال فعظم الرب تبارك وتعالى وقال ان كرسيه وسع السموات والارض وان له أطيطا كاطيط الرحل الجديد من ثقله وقد رواه الحافظ البزار في مسنده

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرؤا ان شئتم فمن زحزح عن النار الى قوله الغرور أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه وغيرهما (وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) المتاع كل ما يتمتع به الانسان وينتفع به ثم يزول ولا يبقى كذا قال أكثر المفسرين وقيل المتاع كالفاس والقدر والقصعة ونحوها والاول أولى والغرور اما مصدر أو جمع غار وقيل ما يغر الانسان مما لا يدوم وقيل الباطل والغرور الشيطان يغر الناس بالاماني الباطلة والمواعيد الكاذبة شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على من يريده وله ظاهر محبوب وباطن مكروه قيل متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم قال سعيد بن جبير هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة فأما من اشتغل بطلبها فهي له متاع وبلاغ الى ما هو خير منها (لتبلون في أموالكم وأنفسكم) اللام لام القسم اي والله لتبلون هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته تسلية لهم بما سيلقونه من الكفرة والفسقة ليوطنوا أنفسهم على الثبات والصبر على المكاره والابتلاء الامتحان والاختبار والمعنى لتمتحنن ولتختبرن في أموالكم بالمصايب والانفاقات الواجبة وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالاموال والابتلاء في الانفس بالموت والامراض وفقد الاحباب والقتل في سبيل الله (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) قال الزهري الذين أوتوا الكتاب هو كعب بن الاشرف وكان يحرض المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في شعره وعن ابن جريج قال يعني اليهود والنصارى فكان المسلمون يسمعون من اليهود عزير ابن الله ومن النصارى المسيح ابن الله (ومن الذين أشركوا) سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب (أذى كثيرا) من الطعن في دينكم واعراضكم وزاد السيوطي والتشبيب بنسائكم قال في الجمل هو ذكر أوصاف الجمال وكان يفعل ذلك كعب بن الاشرف بنساء المؤمنين (وان تصبروا وتتقوا) الصبر عبارة عن احتمال الاذى

المشهور وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيرهما والطبراني وابن أبي عاصم في كتابي السنة لهما والحافظ الضياء في كتابه المختار من حديث أبي اسحق السبيعي عن عبد الله بن خليفة وليس بذاك المشهور وفي سماعه من عمر نظر ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفا ومنهم من يرويه عنه مرسلا ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة ومنهم من يحذفها وأغرب من هذا حديث جبير بن مطعم في صفة العرش كما رواه أبو داود في كتابه السنة من سننه والله أعلم وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما في وضع الكرسي يوم القيامة لفصل القضاء والظاهر ان ذلك غير المذكور في هذه الآية وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الاسلاميين ان الكرسي عندهم هو الفلك الثامن وهو فلك الثوابت الذي فوقه الفلك التاسع وهو الفلك الاثير ويقال له الاطلس وقد رد ذلك عليهم آخرون وروى ابن جرير من طريق جويبر عن الحسن البصري انه (١٥١) كان يقول الكرسي هو العرش والصحيح ان الكرسي غير العرش والعرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والاخبار وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر في ذلك وعندي في صحته نظر والله أعلم وقوله ولا يؤوده حفظهما أي لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والارض ومن فيهما ومن بينهما بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على جميع الاشياء فلا يعزب عنه شئ ولا يغيب عنه شئ والاشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة اليه محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما يريد الذي لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو القاهر لكل شئ الحسيب على كل شئ الرقيب العلي العظيم لا اله غيره ولا رب سواه فقوله وهو العلي العظيم كقوله وهو الكبير المتعال وهذه الآيات وما في معناها من الاحاديث الصحاح الاجود فيها طريقة السلف الصالح أمروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) يقول تعالى لا اكراه في الدين أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الاسلام فانه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج الى ان يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للاسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فانه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا وقد ذكروا ان سبب نزول هذه الآية في قوم من الانصار وان كان حكمها عاما وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها ان عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الانصار فقالوا لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل لا اكراه في الدين قد

والمكروه والتقوى عن الاحتراز عما لا ينبغي (فان ذلك) الصبر والتقوى المدلول عليهما بالفعلين وأشار بما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهما وبعد منزلتهما وتوحيد حرف الخطاب اما باعتبار كل واحد من المخاطبين واما لان المراد بالخطاب محرد التنبيه من غير ملاحظة خصوصية أحوال المخاطبين (من عزم الامور) معزوماتها التي يتنافس فيها المتنافسون أي مما يجب عليكم ان تعزموا عليه لما فيه من كمال المزية والشرف أو لكونه عزمة من عزمات الله التي أوجب عليكم القيام بها يقال عزم الامر أي شده وألحمه وأصله اثبات الرأي على الشئ الى امضائه وقال المرزوقي انه توطين النفس عند الفكر والمراد أن يوطنوا أنفسهم على الصبر فان العالم بنزول البلاء عليه لا يعظم وقعه في قلبه بخلاف غير العالم فانه يعظم عنده ويشق عليه وقال ابن جرير أي من القوة مما عزم الله عليه وأمركم به والحاصل ان المصدر بمعنى اسم المفعول قال التفتازاني اما معزوم العبد بمعنى انه يجب عليه العزم والتصميم عليه أو معزوم الله بمعنى عزم الله أي أراد الله وفرض ان يكون ذلك ويحصل (واذ أخذ الله) كلام مستأنف سيق لبيان بعض أذياتهم وهو كتمانهم شواهد النبوة (ميثاق الذين أوتوا الكتاب) هذه الآية توبيخ لاهل الكتاب وهم اليهود والنصارى أو اليهود فقط على الخلاف في ذلك والظاهر ان المراد بأهل الكتاب كل من آتاه الله علم شئ من الكتاب اي كتاب كان كما يفيده التعريف الجنسي في الكتاب قال الحسن وقتادة ان الآية عامة لكل عالم وكذا قال محمد بن كعب ويدل على ذلك قول أبي هريرة لولا ما أخذه الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشئ ثم تلا هذه الآية والضمير في قوله (لتبيننه) راجع الى الكتاب وقيل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وان لم يتقدم له ذكر لان الله أخذ على اليهود والنصارى ان يبينوا نبوته وهذا جواب لما تضمنه الميثاق من القسم كأنه قيل لهم بالله لتبيننه وقرئ بالياء اجريا على الاسم الظاهر وهو كالغائب وبالتاء خطابا على الحكاية بتقديره وقلنا لهم (للناس ولا تكتمونه) اى الكتاب بالياء

تبين الرشد من الغى وقد رواه أبو داود والنسائى جميعا عن بندار به ومن وجوه آخر عن شعبة به نحوه وقد رواه ابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه من حديث شعبة به وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبى والحسن البصرى وغيرهم انها نزلت فى ذلك وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد الحرشى عن زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد عن ابن عباس قوله لا اكراه فى الدين قال نزلت فى رجل من الانصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصينى كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلا مسلما فقال للنبى صلى الله عليه وسلم ألا أستكرههما فانهما قد أبيا الا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك رواه ابن جرير وروى السدى نحو ذلك وزاد وكانا قد تنصرا على أيدى تجار قدموا من الشام يحملون زيتا فلما عزما على الذهاب معهم أراد أبوهما ان يستكرههما وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبعث فى آثارهما (١٠٢) فنزلت هذه الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمرو بن عوف أخبرنا شريك عن أبى هلال عن أسبق قال كنت فى دينهم مملوكا نصرانيا لعمر بن الخطاب فكان يعرض على الاسلام فآبى فيقول لا اكراه فى الدين ويقول يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء ان هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل فى دينهم قبل النسخ والتبديل اذا بذلوا الجزية وقال آخرون بل هى منسوخة بآية القتال وانه يجب ان يدعى جميع الامم الى الدخول فى الدين الحنيف دين الاسلام فان أبى أحد منهم الدخول فيه ولم يبذل له أو يبذل الجزية قوتل حتى يقتل وهذا معنى الاكراه قال الله تعالى ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون وقال تعالى يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين وفى الصحيح عجب ربك من قوم يقادون الى الجنة فى السلاسل يعنى الاسارى الذين يقدم بهم بلاد الاسلام فى الوثاق والاغلال والقيود والاكبال ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونوا من أهل الجنة فأما الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا يحيى عن حميد عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل أسلم قال انى أجدنى كارها قال وان كنت كارها فانه ثلاثى صحيح ولكن ليس من هذا القبيل فانه لم يكرهه النبى صلى الله عليه وسلم على الاسلام بل دعاه اليه فأخبره ان نفسه ليست قابلة له بل هى كارهة فقال له أسلم وان كنت كارها فان الله سيرزقك حسن النية والاخلاص وقوله فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم أى من خلع الانداد والاوثان وما يدعو اليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله

والتاء والواو للعطف أو للعطف والنهى عن الكتمان بعد الامر بالبيان اما للمبالغة فى ايجاب المأمور به واما لان المراد بالبيان ذكر الآيات الناطقة بنبوته وبالكتمان القاء التأويلات الزائغة والشبه الباطلة (فنبذوه) أى الكتاب أو الميثاق وقرأ ابن عباس واذ أخذ الله ميثاق النبيين لتبيننه ويشكل على هذه القراءة قوله فنبذوه فلا بد ان يكون فاعله الناس والنبذ الطرح وقد تقدم فى البقرة وقوله (وراء ظهورهم) مبالغة فى النبذ والطرح وترك العمل وضياعه ومثل فى الاستهانة به والاعراض عنه بالكلية (واشتروا به) أى بالكتاب الذى أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه (ثمنا قليلا) اى حقيرا يسيرا من حطام الدنيا واعراضها والمآكل والرشا التى كانوا يأخذونها من عوامهم وسفلتهم برياستهم فى العلم فكتموه خوف فوته عليهم (فبئس ما يشترون) اى بئس شيأ ما يشترونه بذلك الثمن وعن ابن عباس قال كان الله أمرهم ان يتبعوا النبى الامى وعنه قال فى التوراة والانجيل ان الاسلام دين الله الذى افترضه على عباده وان محمدا رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل فنبذوه وعن قتادة فى الآية قال هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم فمن علم علما فليعلمه الناس واياكم وكتمان العلم فان كتمان العلم هلكة وعن الحسن قال لولا الميثاق الذى أخذه الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه وظاهر هذه الآية وان كان مخصوصا بعلماء أهل الكتاب فلا يبعد أن يدخل فيه علماء هذه الامة الاسلامية لانهم أهل كتاب وهو القرآن قال قتادة طوبى لعالم ناطق ومستمع واع هذا علم علما فبذله وهذا سمع خيرا فقبله ووعاه وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سئل علما يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار أخرجه الترمذى ولابى داود من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة وفى الباب أخبار وآثار كثيرة (لا تحسبن الذين يفرحون) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له قرئ بالتاء والياء وهما سبعيتان (بما أتوا) اى بما فعلوا من اضلال الناس وقد اختلف

وتوحيد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو فقد استمسك بالعروة الوثقى أى فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم قال أبو القاسم البغوى حدثنا أبو روح البلدى حدثنا أبو الاحوص سلام بن سليم عن أبى اسحق عن حسان هو ابن قائد العبسى قال قال عمر رضى الله عنه ان الجبت السحر والطاغوت الشيطان وان الشجاعة والجبن غرائز تكون فى الرجال يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ويفر الجبان عن أمه وان كرم الرجل دينه وحسبه خلقه وان كان فارسيا أو نبطيا وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث الثورى عن أبى اسحق عن حسان بن قائد العبسى عن عمر فذكره ومعنى قوله فى الطاغوت انه الشيطان قوى جدا فانه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الاوثان والتحاكم اليها والاستنصار بها وقوله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها أى فقد استمسك من الدين (١٥٣) بأقوى سبب وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنفصم هى فى نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوى شديد ولهذا قال فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها الآية قال مجاهد العروة الوثقى يعنى الايمان وقال السدى هو الاسلام وقال سعيد بن جبير والضحاك يعنى لا اله الا الله وعن أنس بن مالك العروة الوثقى القرآن وعن سالم ابن أبى الجعد قال هو الحب فى الله والبغض فى الله وكل هذه الاقوال صحيحة ولا تنافى بينها وقال معاذ ابن جبل فى قوله لا انفصام لها دون دخول الجنة وقال مجاهد وسعيد بن جبير فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ثم قرأ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وقال الامام أحمد أنبأنا اسحق بن يوسف حدثنا ابن عوف عن محمد بن قيس بن عبادة قال كنت فى المسجد فجاء رجل فى وجهه أثر من خشوع

فى سبب نزولها كما سيأتى (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) من التمسك بالحق وهم على ضلال والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته هذه الآية عملا بعموم اللفظ وهو المعتبر لا بخصوص السبب فمن فرح بما فعل وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) وقرئ بالتحتية أى لا يحسبن الفارحون فرحهم منجيا لهم من العذاب والمفازة المنجاة مفعلة من فاز يفوز اذا نجا أى ليسوا بفائزين سمى موضع الخوف مفازة على جهة التفاؤل قاله الاصمعى وقيل لانها موضع تفويز ومنظنة هلاك تقول العرب فوز الرجل اذا هلك وقال ثعلب حكيت لابن الاعرابى قول الاصمعى فقال أخطأ قال لى أبو المكارم انما سميت مفازة لان من قطعها فاز وقال ابن الاعرابى بل لانه مستسلم لما أصابه وقيل المعنى لا تحسبنهم بمكان بعيد عن العذاب لان الفوز التباعد عن المكروه بل هم فى مكان يعذبون فيه وهو جهنم (ولهم عذاب أليم) يعنى مؤلم فى الآخرة أخرج البخارى ومسلم وغيرهما قال ابن عباس سألهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن شئ فكتموه اياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوه بذلك اليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى أن رجالا من المنافقين كانوا اذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى الغزو وتخلفوا عنه فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله فاذا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الغزو اعتذروا اليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا وقد روى انها نزلت فى فنحاص وأسيع واشباههما وروى انها نزلت فى اليهود (ولله ملك السموات والارض) قال الخطيب فهو يملك أمرهما وما فيهما من خزائن المطر والرزق والنبات وغيرها انتهى والملك بالضم تمام القدرة واستحكامها والمعنى ولله ملك خزائن السموات والارض يتصرف فيه كيف يشاء وفيه تكذيب لمن قال ان الله فقير ونحن أغنياء فمن كان له جميع ما فيهما كيف يكون فقيرا (والله على كل شئ قدير)

(٢٠ فتح البيان ن) فصلى ركعتين أو جزفيهما فقال القوم هذا رجل من أهل الجنة فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته فلما استأنس قلت له ان القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا قال سبحان الله ما ينبغى لاحد يقول ما لا يعلم وسأحدثك لما انى رأيت رؤيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه رأيت كانى فى روضة خضراء قال ابن عون فذكر من خضرتها وسعتها وفى وسطها عمود حديد أسفله فى الارض وأعلاه فى السماء فى أعلاه عروة فقيل لى اصعد عليه فقلت لا أستطيع فجاءنى منصف قال ابن عون هو الوصيف فرفع ثيابى من خلفى فقال اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة فقال استمسك بالعروة فاستيقظت وانها لفى يدى فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه فقال أما الروضة فروضة الاسلام وأما العمود فعمود الاسلام وأما العروة فهى العروة الوثقى أنت على الاسلام حتى تموت قال وهو عبد الله بن سلام أخرجاه

فى الصحيحين من حديث عبد الله بن عون فقمت اليه وأخرجه البخارى من وجه آخر عن محمد بن سيرين به طريق أخرى وسياق آخر قال الامام أحمد أنبأنا حسن بن موسى وعثمان قالا أنبأنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن المسيب بن رافع عن خرشة بن الحر قال قدمت المدينة فجلست الى مشيخة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فجاء شيخ يتوكأ على عصاه فقال القوم من سره ان ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا فقام خلف سارية فصلى ركعتين فقلت له قال بعض القوم كذا وكذا فقال الجنة لله يدخلها من يشاء وانى رأيت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا كان رجلا أتانى فقال انطلق فذهبت معه فسلك بى منهجا عظيما فعرضت لى طريق عن يسارى فأردت ان أسلكها فقال انك لست من أهلها ثم عرضت لى طريق عن يمينى فسلكتها حتى انتهيت الى جبل زالق فأخذ بيدى فدحانى فاذا أنا على ذروته فلم أتقار ولم أتماسك فاذا عمود حديد فى ذروته حلقة من ذهب فأخذ بيدى فدحانى حتى أخذت بالعروة فقال استمسك فقلت نعم فضرب العمود برجله فاستمسكت بالعروة فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رأيت خيرا اما المنهج العظيم فالمحشر واما الطريق التى عرضت عن يسارك فطريق أهل النار ولست من أهلها وأما الطريق التى عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة وأما الجبل الزالق فمنزل الشهداء واما العروة التى استمسكت بها فعروة الاسلام فاستمسك بها حتى تموت قال فانا أرجو ان أكون من أهل الجنة قال واذا هو عبد الله بن سلام وهكذا رواه النسائى عن أحمد بن سليمان عن عفان وابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن الحسن بن موسى الاشيب كلاهما عن حماد بن سلمة به نحوه وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث الاعمش عن سليمان بن مسهر عن خرشة بن الحر الفزارى به (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يخبر تعالى انه يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من الظلمات الكفر والشك والريب الى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير وان الكافرين انما وليهم الشيطان ويزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق الى الكفر والافك أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات لان الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون وقال تعالى وجعل الظلمات والنور وقال تعالى عن اليمين وعن الشمال الى غير ذلك من الآيات التى فى لفظها اشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه

لا يعجزه شئ ومنه تعذيب الكافرين وانجاء المؤمنين (ان فى خلق السموات والارض) هذه جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها والمراد ذات السموات والارض وصفاتهما وما فيهما من العجائب (واختلاف الليل والنهار) تعاقبهما بالمجىء والذهاب وكون كل واحد منهما يخالف الآخر وكون زيادة أحدهما فى نقصان الآخر وتفاوتهما طولا وقصرا وحرا وبردا وغير ذلك (لآيات) أى دلالات واضحة وبراهين بينة تدل على الخالق سبحانه وقد تقدم تفسير بعض ما هنا فى سورة البقرة (لأولى الالباب) أى لاهل العقول الصحيحة الخالصة عن شوائب النقص فان مجرد التفكر فيما قصه الله تعالى فى هذه الآية يكفى العاقل ويوصله الى الايمان الذى لا تزلزله الشبهة ولا يدفعه التشكيك (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) المراد بالذكر هنا ذكره سبحانه فى هذه الاحوال من غير فرق بين حال الصلاة وغيرها وذهب جماعة من المفسرين الى ان الذكر هنا عبارة عن الصلاة وبه قال على وابن مسعود وابن عباس وقتادة أى لا يضيعونها فى حال من الاحوال فيصلونها قياما مع عدم العذر وقعودا وعلى جنوبهم مع العذر وعن ابن مسعود قال اتمام هذه فى الصلاة اذا لم يستطع قائما فقاعدا وان لم يستطع قاعدا فعلى جنبه وقد ثبت فى البخارى من حديث عمران بن حصين قال كانت بى بواسير فسألت النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة فقال صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب وثبت فيه عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن صلاة الرجل وهو قاعد فقال من صلى قائما فهو أفضل ومن صلى قاعدا فله نصف أجر القائم ومن صلى نائما فله نصف أجر القاعد وعن قتادة قال هذه حالاتك كلها يا ابن آدم اذكر الله وأنت قائم فان لم تستطع فاذكره جالسا فان لم تستطع جالسا فاذكره وأنت على جنبك يسير من الله وتخفيف وأقول هذا التقييد الذى ذكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكر لا وجه له لا من الآية ولا من غيرها فانه لم يرد فى شئ من الكتاب ولا من السنة ما يدل على انه لا يجوز

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن ميسرة حدثنا عبد العزيز بن أبي عثمان عن موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد قال يبعث أهل الاهواء أو قال تبعث أهل الفتن فمن كان هواه الايمان كانت فتنته بيضاء مضيئة ومن كان هواه الكفر كانت فتنته سوداء مظلمة ثم قرأ هذه الآية الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ان آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا احيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) هذا الذي حاج ابراهيم في ربه هو ملك بابل نمرود بن كنعان بن كوس بن سام بن نوح ويقال نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد ابن سام بن نوح والاول قول مجاهد وغيره قال مجاهد وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة مؤمنان وكافران فالمؤمنان سليمان بن داود وذو القرنين والكافران نمرود وبختنصر والله أعلم ومعنى قوله ألم تر أي بقلبك يا محمد الى الذي حاج ابراهيم في ربه أي وجود ربه وذلك انه أنكر ان يكون ثم اله غيره كما قال بعده فرعون للملئه ما علمت لكم من اله غيري وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة الا تجبره وطول مدته في الملك وذلك انه يقال انه مكث أربعمائة سنة في ملكه ولهذا قال ان آتاه الله الملك وكان طلب من ابراهيم دليلا على وجود الرب الذي يدعو اليه فقال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت أي انما الدليل على وجوده حدوث هذه الاشياء المشاهدة بعد عدمها وعدمها بعد وجودها وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة لانها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو الى عبادته وحده لا شريك له فعند ذلك قال الحاج وهو النمرود أنا أحيي وأميت قال قتادة ومحمد بن اسحق والسدي وغير واحد وذلك اني أوتي برجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل فذلك معنى الاحياء والاماتة والظاهر والله أعلم انه ما أراد هذا لانه ليس جوابا لما قال ابراهيم ولا في معناه لانه مانع لوجود الصانع وانما أراد ان يدعي لنفسه هذا المقام عنادا ومكابرة ويوهم انه الفاعل لذلك وانه هو الذي يحيي ويميت كما اقتدى به فرعون في قوله ما علمت لكم من اله غيري ولهذا قال له ابراهيم لما ادعى هذه المكابرة فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب أي اذا كنت كما تدعي من انك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فان كنت الها كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب فلما علم عجزه وانقطاعه وانه لا يقدر على المكابرة في هذا

(١٥٥)

الذكر من قعود الامع عدم استطاعة الذكر من قيام ولا يجوز على جنب الامع عدم استطاعته من قعود وانما يصلي هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا الصلاة كما سبق عن ابن مسعود وغيره (ويتفكرون في خلق السموات والارض) أي في بديع صنعهما واتقانهما مع عظم اجرامهما فان هذا الفكر اذا كان صادقا أوصلهم الى الايمان بالله سبحانه وعن عائشة مرفوعا ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف في استحباب التفكر مطلقا ويقولون (ربنا ما خلقت هذا) الخلق الذي نراه (باطلا) أي عبثا ولهوا بل خلقته دليلا على حكمتك ووحدانيتك وقدرتك والباطل الزائل الذاهب وخلق بمعنى جعل والاشارة بقوله هذا الى السموات والارض أو الى الخلق على انه بمعنى المخلوق (سبحانك) تنزيها لك عما لا يليق بك من الامور التي من جملتها ان يكون خلقك لهذه المخلوقات باطلا وهزلا وعبثا والفاء في (فقنا) لترتيب هذا الدعاء على ما قبله (عذاب النار) علم عباده كيفية الدعاء فمن أراد ان يدعو فليقدم الثناء على الله أولا ثم يأتي بالدعاء (ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته) تأكيد لما تقدمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه وبيان للسبب الذي لاجله دعاه عباده بان يقيهم عذاب النار وهو أن من أدخله النار فقد أخزاه أي أذله وأهانه وقال المفضل معنى أخزيته أهلكته ويقال سمعناه فضحته وأبعدته يقال أخزاه الله أبعده ومقته والاسم الخزي قال ابن السكيت خزي يخزى خزيا اذا وقع في بلية وعن أنس قال من تدخل النار من تخلد وعن سعيد بن المسيب قال هذه خاصة لمن لا يخرج منها (وما للظالمين) المشركين وفيه وضع الظاهر موضع المضمر اشعارا بتخصيص الخزي بهم (من) زائدة (أنصار) ينصرونهم يوم القيامة ويمنعونهم من العذاب (ربنا انا سمعنا مناديا) هو عند أكثر المفسرين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو القرآن وأوقع السماع على المنادي مع كون المسموع هو النداء لانه قد وصف المنادي بما يسمع وهو قوله (ينادي) قال أبو علي الفارسي ذكر مع انه

المقام بهت أى أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة قال الله تعالى والله لا يهدى القوم الظالمين أى لا يلهمهم حجة ولا برهانا بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين ان عدول ابراهيم عن المقام الاول الى المقام الثانى انتقال من دليل الى أوضح منه ومنهم من قد يطلق عبارة تزديه وليس كما قالوه بل المقام الاول يكون كالمقدمة للثانى وبين بطلان ما ادعاه نمرود فى الاول والثانى ولله الحمد والمنة وقد ذكر السدى ان هذه المناظرة كانت بين ابراهيم ونمرود بعد خروج ابراهيم من النار ولم يكن اجتمع بالملك الا فى ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم ان النمرود كان عنده طعام وكان الناس يغدون اليه للميرة فوفد ابراهيم فى جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط ابراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شئ من الطعام فلما قرب من أهله عمد الى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلى عنى اذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة الى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت طعاما فلما استيقظ ابراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال أنى لكم هذا قالت من الذى جئت به فعلم انه رزق رزقهم الله عز وجل قال زيد بن أسلم وبعث الله الى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالايمان بالله فأبى عليه ثم دعاه الثانية فأبى ثم الثالثة فأبى وقال اجمع جموعك وأجمع جموعى فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس وأرسل الله عليهم بابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بادية ودخلت واحدة منها فى منخرى الملك فمكثت فى منخرى الملك أربعمائة سنة عذبه الله بها فكان يضرب برأسه بالمرازب فى هذه المدة حتى أهلكه الله بها أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها لانها قال انى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير) تقدم قوله تعالى ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه وهو فى قوة قوله هل رأيت مثل الذى حاج ابراهيم فى ربه ولهذا عطف عليه بقوله أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها اختلفوا فى هذا المار من هو فروى ابن أبى حاتم عن عصام بن داود عن آدم بن أبى اياس عن اسرائيل عن أبى اسحق عن ناجية بن كعب عن على بن أبى طالب انه قال هو عزير ورواه ابن جرير عن ناجية نفسه وحكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى وسليمان بن بريدة وهذا القول

قد فهم من قوله منادى القصد التأكيد والتفخيم لشأن هذا المنادى به (للايمان) اللام بمعنى الى وقيل للعلة أى لاجله (أن آمنوا بربكم فآمنا) أى امتثلنا ما يأمر به هذا المنادى من الايمان وتكرير النداء فى قوله (ربنا) لاظهار التضرع والخضوع (فاغفر لنا) الفاء لترتيب المغفرة والدعاء بها على الايمان به تعالى والاقرار بربوبيته فان ذلك من دواعى المغفرة والدعاء بها (ذنوبنا وكفر) حط (عنا سيآتنا) قيل المراد بالذنوب هنا الكبائر وبالسيآت الصغائر والظاهر عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الامرين والاخر بالآخر بل يكون المعنى فى الذنوب والسيآت واحدا والتكرير للمبالغة والتأكيد كما ان معنى الغفر والتكفير الستر (وتوفنا مع الابرار) جمع بار أو بر وأصله من الاتساع وكأن البار متسع فى طاعة الله ومتسعة له رحمة قيل هم الانبياء ومعنى اللفظ أوسع من ذلك أى معدودين ومحسوبين فى جملتهم أو المراد فى سلكهم على سبيل الكناية أو ان مع بمعنى على أى على أعمال الابرار أو محشورين معهم (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) هذا دعاء آخر والتكثة فى تكرير النداء تقدم والموعود به على ألسن الرسل هو الثواب الذى وعد الله به أهل طاعته فى الكلام حذف وهو لفظ الالسن كقوله واسأل القرية وقيل الجار والمجرور الصدق أى ما وعدتنا على تصديق رسلك وقيل ما وعدتنا نازلا على رسلك وختموا على رسلك ولا يخفى ان تقدير الفعل الخاصة فى مثل هذه المواقع نعت فالاول أولى وصدروا هذا الدعاء منهم مع علمهم ان ما وعدهم الله به على ألسن رسله كائن لا محالة اما لقصد التجميل أو للخضوع بالدعاء لكونه مخ العبادة (ولا تخزنا) لا تفضحنا ولا تهنا (يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) فيه دليل على انهم يخافون اخلاف الوعد وان الحامل لهم على الدعاء هو ما ذكرنا (فاستجاب لهم ربهم) الاستجابة بمعنى الاجابة وقيل الاجابة عامة والاستجابة خاصة باعطاء المسؤل وهذا الفعل يتعدى بنفسه وباللام يقال استجابه واستجاب له وانما ذكر سبحانه الاستجابة وما بعده هنا فى جملة ما لهم من الاوصاف الحسنة

هو المشهور وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد هو أرميا بن خلقيا قال محمد بن اسحق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه انه قال وهو اسم الخضر عليه السلام وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي قال سمعت سليمان بن محمد اليساري الجاري من أهل الجاري ابن عم مطرف قال سمعت سلمان يقول ان رجلا من أهل الشام يقول ان الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه حزقيل بن بوار وقال مجاهد ابن جبر هو رجل من بني اسرائيل وأما القرية فالمشهور انها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها وهي خاوية أي ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار تخوى خويا وقوله على عروشها أي ساقطة ستوفها وجدرانها على عرصاتها فوقف متفكرا فيما آل أمرها اليه بعد العمارة العظيمة وقال انى يحيي هذه الله بعد موتها وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها و بعدها عن العود الى ما كانت عليه قال الله تعالى فأماته الله مائة عام ثم (١٥٧) بعثه قال وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو اسرائيل اليها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شئ أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما الى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه فلما استقل سويا قال الله له أي بواسطة الملك كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال وذلك انه مات أول النهار ثم بعثه الله في آخر نهار فلما رأى الشمس باقية ظن انها شمس ذلك اليوم فقال أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وذلك انه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما تقدم لم يتغير منه شئ الا العصير استحال ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب نقص وانظر الى حمارك أي كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر ولنجعلك آية للناس أي دليلا على المعاد وانظر الى العظام كيف ننشزها أي نرفعها فيركب بعضها على بعض

لانها منه اذ من أجيبت دعوته فقد رفعت درجته (انى لا أضيع عمل عامل منكم) أي أعطاهم ما سألوه وقال لهم انى لا أحبط عملكم أيها المؤمنون بل أثيبكم عليه والمراد بإضاعة ترك الاثابة (من ذكر أو أنثى) من بيانية مؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة في سياق النفي من العموم (بعضكم من بعض) أي رجالكم مثل نسائكم في ثواب الطاعة والعقاب ونساؤكم مثل رجالكم فيهما وقيل في الدين والنصرة والموالاة والاول أولى والجملة معترضة أو مستأنفة لبيان كون كل منهما من الآخر ما أجمل في قوله انى لا أضيع عمل عامل منكم (فالذين هاجروا) من أوطانهم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الزمخشري هذا تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم قال الكرخي والظاهر ان هذه الجمل التي بعد الموصول كلها صفات له فلا يكون الجزاء الا لمن جمع هذه الصفات ويجوز ان يكون ذلك على التنويع وقد يكون حذف الموصولات لفهم المعنى فيكون الخبر بقوله لاكفرن عن كل من اتصف بواحدة من هذه الصفات (وأخرجوا من ديارهم) في طاعة الله عز وجل (وأوذوا في سبيلي) آذاهم المشركون بسبب اسلامهم وهم المهاجرون (وقاتلوا) أعداء الله (وقتلوا) في سبيل الله وقرئ قتلوا على التكثير وقرئ وقتلوا وقاتلوا وأهل النوا ولمطلق الجمع بلا ترتيب كما قال به الجمهور والمراد هنا انهم قاتلوا وقتل بعضهم والسبيل الدين الحق والمراد هنا ما نالهم من الاذية من المشركين بسبب ايمانهم بالله وعملهم بما شرعه الله لعباده (لاكفرن عنهم سيئاتهم) أي والله لاغفرنها لهم (ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله) يعني تكفير سيئاتهم وادخالهم الجنة (والله عنده حسن الثواب) وهو ما يرجع على العامل من جزاء عمله من ثاب يثوب اذا رجع وقد ورد في فضل الهجرة أحاديث كثيرة (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد تنبيته لي ما هو

وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث نافع بن أبي نعيم عن اسمعيل بن حكيم عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ كيف ننشزها بالزاي ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجا وقرئ ننشرها أي نحييها قاله مجاهد ثم نكسوها لحما وقال السدي وغيره تفرقت عظام حماره حوله يمينا وشمالا فنظر اليها وهي تلوح من بياضها فبعث الله ريحا فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حمارا قائما من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله لحما وعصبا وعروقا وجلدا وبعث الله ملكا فنفخ في منخري الحمار فنهق باذن الله عز وجل وذلك كله بمرأى من العزير فعند ذلك لما تبين له هذا كله قال أعلم أن الله على كل شئ قدير أي أنا عالم بهذا وقد رأيته عيانا فأنا أعلم أهل زماني بذلك وقرأ آخرون قال اعلم على انه أمر له بالعلم (واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل

منهن جزأ ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم) ذكروا السؤال ابراهيم عليه السلام أسبابا منها انه لما قال لنمروذ ربي الذي يحيي ويميت أحب ان يترقى من علم اليقين بذلك الى عين اليقين وان يرى ذلك مشاهدة فقال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بالشك من ابراهيم اذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي وكذا رواه مسلم عن حرملة بن يحيى عن وهب به فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها

(هكذا بياض بالاصل)

عليه كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا أو خطاب لكل أحد وهذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار بعد ذكر حسن حال المؤمنين والمعنى لا يغرنك ما هم فيه من تقلبهم في البلاد بالاسفار التجارة التي يتوسعون بها في معاشهم والتقلب في البلاد الاضطراب في الاسفار الى الامكنة قال السدي يعني ضربهم فيها وقال عكرمة تقلب ليلهم ونهارهم وما يجري عليهم من النعم (متاع قليل) يتمتعون به يسير في هذه الدار ويفنى وهو متاع نزر لا اعتداد به بالنسبة الى ثواب الله سبحانه والمتاع ما يعجل الانتفاع به وسماه قليلا لانه فان وكل فان وان كان كثيرا فهو قليل (ثم مأواهم) أي مايأوون اليه (جهنم وبئس المهاد) ما مهدوا لانفسهم في جهنم بكفرهم أو ما مهد الله لهم من النار فالمخصوص بالذم محذوف وهو هذا المقدر قال ابن عباس بئس المنزل (لكن الذين اتقوا ربهم) وقعت لكن هنا أحسن موقع فانها وقعت بين ضدين وذلك ان معنى الجملتين التي قبلها والتي بعدها آيل الى تعذيب الكفار وتنعيم المتقين وهو استدراك مما تقدمه لان معناه معنى النفي كأنه قال ليس لهم في تقلبهم في البلاد كثير انتفاع لكن الذين اتقوا وان أخذوا في التجارة لا يضرهم ذلك وان لهم ما وعدهم به وفي الشهاب وجه الاستدراك انه رد على الكفار فيما يتوهمون من أنهم ينعمون وان المؤمنين في عناء ومشقة فقال ليس الامر كما توهموا فان المؤمنين لا عناء لهم اذا نظر الى ما أعد لهم عند الله أو انه لما ذكر تنعمهم بتقلبهم في البلاد أوهم ان الله لا ينعم المؤمنين فاستدرك عليه بان ما هم فيه عين النعيم لانه سبب لما بعده من النعم الجسام (لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها) أي مقدرين الخلود (نزلا) النزل ما يهيأ للنزيل ويعد للضيف والجمع أنزال ثم اتسع فيه فأطلق على الرزق والغذاء وان لم يكن ضيف ومنه فنزل من حميم وهو مصدر مؤكد عند البصريين أو جمع نازل وقال الهروي ثوابا (من عند الله) وقيل اكراما من الله لهم أعدها لهم كما يعد القرى للضيف اكراما (وما عند الله) مما أعده لمن أطاعه (خير) للتفضيل وهو ظاهر (للابرار) مما يحصل للكفار من الربح في

وقوله قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك اختلف المفسرون في هذه الاربعة ما هي وان كان لا طائل تحت تعيينها اذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن فروى عن ابن عباس انه قال هي الغرنوق والطاوس والديك والحمامة وعنه أيضا انه أخذ زاورا لا وهو فرخ النعام وديكا وطاوسا وقال مجاهد وعكرمة كانت حمامة وديكا وطاوسا وغرابا وقوله فصرهن اليك أي قطعهن قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الاسود الدؤلي ووهب بن منبه والحسن والسدي وغيرهم وقال العوفي عن ابن عباس فصرهن اليك أوثقهن فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزأ فذكروا انه عمد الى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأ أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزأ قيل أربعة أجبل وقيل سبعة قال ابن عباس وأخذ رؤسهن بيده ثم أمره الله عز وجل ان يدعوهن الاسفار قدمانهن كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر الى الريش يطير الى الريش والدم الى الدم واللحم الى اللحم والاجزاء من كل طائر يتصل بعضها الى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعيا ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد ابراهيم عليه السلام فاذا أقبل له غير رأسه بيأباه فاذا أقبل اليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ولهذا قال واعلم ان الله عزيز حكيم أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء وما شاء كان بلا ممانع لانه القاهر لكل شيء حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب في قوله ولكن ليطمئن قلبي قال قال ابن عباس ما في القرآن آية أرجى عندي منها وقال ابن جرير حدثني محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت زيد بن علي يحدث عن رجل عن سعيد بن المسيب قال اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص ان يجتمعا قال ونحن شبيبة فقال أحدهما لصاحبه أي آية في كتاب الله

ارجى عندك لهذه الامة فقال عبد الله بن عمرو قول الله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا الآية فقال ابن عباس اما ان كنت تقول هذا فانا أقول أرجى منها لهذه الامة قول ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثنى محمد ابن أبى سلمة عن عمرو حدثنى ابن المنكدر انه قال التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص أى آية فى القرآن أرجى عندك فقال عبد الله بن عمرو قول الله عز وجل قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا الآية فقال ابن عباس لكن أنا أقول قول الله عز وجل واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى فرضى من ابراهيم قوله بلى قال فهذا ما يعترض فى النفوس ويوسوس به الشيطان (١٥٩) وهكذا رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى عبد الله محمد بن يعقوب بن الاخرم عن ابراهيم بن عبد الله السعدى عن بشر بن عمرو الزهرى عن عبد العزيز بن أبى سلمة باسناده مثله ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وابتغاء مرضاته وان الحسنة تضاعف بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف فقال مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله قال سعيد بن جبير يعنى فى طاعة الله وقال مكحول يعنى به الانفاق فى الجهاد من رباط الخيل واعداد السلاح وغير ذلك وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما الى سبعمائة ضعف ولهذا قال تعالى كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة فان هذا فيه اشارة الى ان الاعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لاصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الارض الطيبة وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة الى سبعمائة ضعف قال الامام أحمد حدثنا زياد بن الربيع أبو خراش حدثنا أصبغ مولى ابن عيينة عن بشار بن أبى سيف الجرمى عن عياض بن غطيف قال دخلنا على أبى عبيدة نعوده من شكوى اصابه بجنبه وامرأته تحيفة قاعدة عند رأسه قلنا كيف بات أبو عبيدة قالت والله لقد بات باجر قال أبو عبيدة مابت باجر وكان مقبلا بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه وقال ألا تسألونى عما قلت قالوا ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فبسبعمائة ومن أنفق على نفسه وأهله وأعاد مريضا فالحسنة بعشر أمثالها والصوم جنة مالم يخرقه ومن ابتلاه الله عز وجل ببلاء فى جسده فهو له حطة وقد

الاسفار فانه متاع قليل عن قريب يزول عن ابن عمر قال انما سماهم ابرارا لانهم بروا الآباء والابناء كما ان لوالدك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق وروى هذا مرفوعا والاول أصح قاله السيوطى وقال ابن زيد خير لمن يطيع الله (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم) هذه الجملة سيقت لبيان ان بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين وليسوا كسائرهم فى فضائحهم التى حكاها الله عنهم فيما سبق وفيما سيأتى فان هذا البعض يجمعون بين الايمان بالله وبما أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم (خاشعين لله لا يشترون) تصريح بمخالفتهم للمحرفين والجملة حال (بآيات الله) التى عندهم فى التوراة والانجيل (ثمنا قليلا) من الدنيا بالتحريف والتبديل كما يفعله سائرهم بل يحكون كتاب الله كما هو (أولئك) أى هذه الطائفة الصالحة من أهل الكتاب من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة (لهم أجرهم) الذى وعدهم الله سبحانه به بقوله أولئك يؤتون أجرهم مرتين وتقديم الخبر يفيد اختصاص ذلك الاجر بهم (عند ربهم) يوفيه اليهم يوم القيامة أخرج النسائى والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أنس قال لما مات النجاشى قال صلى الله عليه وآله وسلم صلوا عليه قالوا يا رسول الله نصلى على عبد حبشى فأنزل الله يعنى هذه الآية وفى الباب أحاديث وقال مجاهد هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى وعن الحسن قال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم (ان الله سريع الحساب) يحاسب الخلق فى قدر نصف نهار من أيام الدنيا فيجازى كل أحد على قدر عمله لنفوذ علمه فى كل شئ والمراد سرعة وصول الاجر الموعود به اليهم (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه ان فى خلق السموات ختم بها هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التى جمعت خير الدنيا والآخرة فحض على الصبر على الطاعات وعن الشهوات والصبر حبس النفس وقد تقدم تحقيق معناه وهو لفظ عام

روى النسائى فى الصوم بعضه من حديث واصل به ومن وجه آخر موقوفا حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سليمان سمعت أبا عمرو الشيبانى عن ابن مسعود أن رجلا تصدق بناقة مخطومة فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة ورواه مسلم والنسائى من حديث سليمان بن مهران عن الاعمش به ولفظ مسلم جاء رجل بناقة مخطومة فقال يارسول الله هذه فى سبيل الله فقال لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة حديث آخر قال أحمد حدثنا عمرو بن مجمع أبو المنذر الكندى أخبرنا ابراهيم الهجرى عن أبى الاحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله جعل حسنة ابن آدم الى عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الا الصوم والصوم لى وأنا أجزى به وللصائم فرحتان فرحة عند فطاره وفرحة يوم القيامة ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك حديث آخر قال أحمد أخبرنا وكيع أخبرنا الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الى ماشاء الله يقول الله الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به يدع طعامه وشرابه من أجلى وللصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك الصوم جنة الصوم جنة وكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى سعيد الاشج كلاهما عن وكيع به حديث آخر قال أحمد حدثنا حسين بن على عن زائدة عن الركين عن بشير بن عميلة عن حريم بن وائل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق نفقة فى سبيل الله تضاعف بسبعمائة ضعف حديث آخر قال أبو داود أنبأنا محمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب عن يحيى بن أيوب وسعيد ابن أبى أيوب عن زياد بن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف حديث آخر قال ابن أبى حاتم أنبأنا أبى حدثنا هرون بن عبد الله بن مروان حدثنا ابن أبى فديك عن الخليل بن عبد الله عن الحسن عن عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة ومن غزا فى سبيل الله وأنفق فى جهة ذلك فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم ثم تلا هذه الآية والله يضاعف لمن يشاء وهذا حديث غريب وقد تقدم حديث أبى عثمان النهدى عن أبى هريرة فى تضعيف الحسنة الى ألف ألف حسنة عند قوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة الآية حديث آخر قال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن العسكرى البزار أخبرنا الحسن بن على بن شبيب أخبرنا

تحته أنواع من المعانى وقد خصه بعضهم بالصبر على طاعة الله وقيل على أداء الفرائض وقيل على تلاوة القرآن وقيل على أمر الله ونهيه وقيل على الجهاد وقيل على البلاء وقيل على أحكام الكتاب والسنة واللفظ أوسع من ذلك (وصابروا) المصابرة مصابرة الاعداء قاله الجمهور أى غالبوهم فى الصبر على شدائد الحرب ولا تكونوا أضعف فيكونوا أشد منكم صبرا وخص المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر لكونها أشد منه وأشق وأكمل وأفضل من الصبر على ماسواه فهو كعطف الصلاة الوسطى على الصلوات وقيل المعنى صابروا على الصلوات وقيل صابروا الانفس عن شهواتها وقيل صابروا الوعد الذى وعدتم ولا تيأسوا والقول الاول هو المعنى العربى وقد روى عن السلف غير هذا فى قصر الصبر على نوع من أنواع الطاعات والمصابرة على نوع آخر ولا تقوم بذلك حجة فالواجب الرجوع الى المدلول اللغوى وقد قدمناه (ورابطوا) أى أقيموا فى الثغور مرابطين خيلكم فيها كما يربطها أعداؤكم هذا قول جمهور المفسرين وعن محمد بن كعب القرظى قال اصبروا على دينكم وصابروا الوعد الذى وعدتكم ورابطوا عدوى وعدوكم وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن هذه الآية فى انتظار الصلاة بعد الصلاة ولم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غزو يرابط فيه والرباط المغوى هو الاول ولا ينافيه تسميته صلى الله عليه وآله وسلم غيره رباطا ويمكن اطلاق الرباط على المعنى الاول وعلى انتظار الصلاة قال الخليل الرباط ملازمة الثغور ومواظبة الصلاة هكذا قال وهو من أئمة اللغة وحكى ابن فارس عن الشيبانى انه قال يقال ماء مترابط دائم لا يبرح وهو يقتضى تعدية الرباط الى غير ارتباط الخيل فى الثغور قال الخازن كل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط وان لم يكن له مركوب مربوط وعن أبى هريرة قال اما انه لم يكن فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم غزو يرابطون فيه ولكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد يصلون الصلوات فى مواقيتها ثم يذكرون الله فيها وقد ثبت فى الصحيح وغيره من قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم الا أخبركم

محمود بن خالد الدمشقي أخبرنا أبي عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر لما نزلت هذه الآية مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله قال النبي صلى الله عليه وسلم رب زد أمتي قال فأنزل الله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا قال رب زد أمتي قال فأنزل الله إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وقد رواه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه عن حاجب بن اركين عن أبي عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز المقري عن أبي إسمعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر فذكره وقوله ههنا والله يضاعف لمن يشاء أي بحسب اخلاصه في عمله والله واسع عليم أي فضله واسع كثيرا كثير من خلقه عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه وبحمده (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم (١٦١) بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين) يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منا على من اعطوه فلا يمنون به على أحد ولا يمنون به لا بقول ولا بفعل وقوله ولا أذى أي لا يفعلون مع من احسنوا اليه مكروها يحبطون به ما سلف من الاحسان ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال لهم أجرهم عند ربهم أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه ولا خوف عليهم أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون أي على ما خلفوه من الاولاد والاموال فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها لانهم قد صاروا الى ما هو خير لهم من ذلك ثم قال تعالى قول معروف أي من كلمة

بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الرباط وفيها التصريح بان الرباط في سبيل الله وهو رد ما قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ندب الى الرباط في سبيل الله وهو الجهاد فيحمل ما في الآية عليه وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه سمى حراسة الجيش رباطا فأخرج الطبراني في الاوسط بسند جيد عن أنس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أجر المرابط فقال من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى (واتقوا الله) في جميع أحوالكم ولا تخالفوا ما شرعه لكم (لعلكم تفلحون) أي تكونون من جملة الفائزين بكل مطلوب الناجين من كل كروب وقد ورد في فضل هذه العشر الآيات التي في آخر هذه السورة مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما أخرجه ابن السني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة وفي اسناده مظاهر بن أسلم وهو ضعيف ومن حديث ابن عباس في الصحيحين ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه العشر الآيات لما استيقظ وأخرج الدارمي عن عثمان بن عفان قال من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام الليلة

(سورة النساء مدنية كلها)

وهي مائة وخمس وسبعون آية قال القرطبي الا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة الحجبي وهي قوله ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها قال النقاش وقيل نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة الى المدينة وقال علقمة وغيره صدرها مكية وقال النحاس هذه الآية مكية قال القرطبي والصحيح الاول فان في صحيح البخاري عن عائشة انها قالت ما نزلت سورة النساء الا وأنا عند رسول الله صلى الله

(٢١ - فتح البيان ني) طيبة ودعاء لمسلم ومغفرة أي عفو وغفر عن ظلم قولا أو فعلى خير من صدقة يتبعها أذى قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن فضيل قال قرأت على معقل بن عبد الله عن عمرو بن دينار قال بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من صدقة أحب الى الله من قول معروف ألم تسمع قوله قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني أي عن خلقه حليم أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم وقد وردت الاحاديث بالنهي عن المن في الصدقة ففي صحيح مسلم من حديث شعبة عن الاعمش عن سليمان بن مسهر عن خرشة بن الحر عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم المنان بما أعطى والمسبل ازاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى أخبرنا عثمان بن محمد الدوري اخبرنا هشيم بن خارجة اخبرنا سليمان بن عقبة عن يونس بن ميسرة

عن أبي ادريس عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر وروى أحمد وابن ماجه من حديث يونس بن ميسرة نحوه ثم روى ابن مردويه وابن حبان والحاكم في مستدركه والنسائي من حديث عبد الله بن يسار الاعرج عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة العاق لوالديه ومدمن الخمر والمنان بما أعطى وقد روى النسائي عن مالك بن سعد عن عمه روح بن عبادة عن عتاب ابن بشير عن خصيف الجزاري عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاق لوالديه ولا منان وقد رواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن المنهال عن محمد بن عبد الله بن عصار الموصلي عن عتاب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس ورواه النسائي من حديث (١٦٢) عبد الكريم بن مالك الحوري عن مجاهد قوله وقد روى عن مجاهد عن أبي سعيد وعن مجاهد عن أبي هريرة نحوه ولهذا قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى فأخبر ان الصدقة تبطل بما يتبعها من المن الاذى فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والاذى ثم قال تعالى كالذي ينفق ماله رئاء الناس أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس فأظهر لهم انه يريد وجه الله وانما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس أو يقال انه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ولهذا قال ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بانفاقه قال الضحاك والذي يتبع نفقته منا أو أذى فمثله كمثل صفوان وهو جمع صفوانة فمنهم من يقول الصفوان يستعمل مفردا أيضا وهو الصفا وهو الصخر الاملس عليه تراب فأصابه وابل وهو (ونسأ) المطر الشديد فتركه صلدا أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلدا أي أملس يابسا أي لا شيء عليه من ذلك التراب بل قد ذهب كله أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وان ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ولهذا قال لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك وتثبيتا من أنفسهم أي وهم متحققون ومثبتون ان الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ونظير هذا في المعنى قوله عليه السلام في الحديث الصحيح المتفق على صحته من صام رمضان ايمانا واحتسابا أي يؤمن ان الله شرعه ويحتسب

عليه وآله وسلم يعني قد بنى بها ولا خلاف بين العلماء ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم انما بنى بعائشة بالمدينة ومن تبين أحكامها علم انها مدنية لا شك فيها وقد ورد في فضل هذه السورة أخبار وآثار كثيرة ذكرت في محلها

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الناس) المراد بهم الموجودون عند الخطاب من بني آدم وهم أهل مكة ويدخل فيه من سيوجد بدليل خارجي وهو الاجماع على انهم مكلفون بما كلف به الموجودون وعند الحنابلة خطاب المشافهة يتناول القادرين عن درجة التكليف فينتظم في سلكهم من الحادثين بعد ذلك الى يوم القيامة أو هو بطريق تغليب الموجودين على من لم يوجد كما غلب الذكور على الاناث في قوله (اتقوا ربكم) لاختصاص ذلك وبجمع المذكر وعدم تناوله حقيقة للاناث عند غير الحنابلة وقد تقدم في البقرة معنى التقوى والرب (الذي خلقكم) فان خلقه تعالى لهم على هذا النمط البديع من أقوى الدواعي الى الاتقاء من موجبات نقمته ومن أتم الزواجر عن كفران نعمته وذلك لانه ينبئ عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التي من جملتها عقابهم وعن نعمة كاملة لا يقادر قدرها (من نفس واحدة) آدم عليه السلام (وخلق منها زوجها) حواء هذا أيضا من موجبات الاحتراز عن الاخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الاخوة ومن لابتداء الغاية في الموضعين وخلقتها منه لم يكن بتوليد كخلق الاولاد من الآباء فلا يلزم منه ثبوت حكم البنتية والاختية فيها قال كعب ووهب وابن اسحق خلقت قبل دخول الجنة وقال ابن مسعود وابن عباس انما خلقت في الجنة بعد دخوله اياها (وبث) فرق ونشر (منهما) الضمير راجع الى آدم وحواء المعبر عنهما بالنفس والزوج (رجالا كثيرا) وصف مؤكد لما تفيده صيغة الجمع لكونها من جموع الكثرة وقيل هو نعت لمصدر محذوف أي بثا كثيرا

عند الله ثوابه قال الشعبي وتثبيتا من أنفسهم أي تصديقا ويقينا وكذا قال قتادة وأبو صالح وابن زيد واختاره ابن جرير وقال مجاهد والحسن أي يتثبتون أي يضعون صدقاتهم وقوله كمثل جنة بربوة أي كمثل بستان بربوة وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الارض وزاد ابن عباس والضحاك وتجري فيه الانهار قال ابن جرير رحمه الله وفي الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراآت بضم الراء وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق وفتحها وهي قراءة بعض أهل الشام والكوفة ويقال انها لغة تميم وكسر الراء ويذكر انها قراءة ابن عباس وقوله أصابها وابل وهو المطر الشديد كما تقدم فآتت أكلها أي ثمرتها ضعفين أي بالنسبة الى غيرها من الجنان فان لم يصبها وابل فطل قال الضحاك هو الرذاذ وهو اللين من المطر أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تحل أبدا لانها ان لم يصبها وابل فطل وأيا ما كان فهو كفايتها وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدا بل يتقبله الله (١٦٣) ويكثره وينميه كل عامل بحسبه ولهذا قال والله بما تعملون بصير أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شئ (أيود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل واعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) قال البخاري عند تفسير هذه الآية حدثنا ابراهيم بن موسى حدثنا هشام هو ابن يوسف عن ابن جريج سمعت عبد الله بن أبي مليكة يحدث عن ابن عباس وسمعت أخاه أبا بكر بن أبي مليكة يحدث عن عبيد بن عمير قال قال عمر بن الخطاب يوما لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيمن ترون هذه الآية نزلت أيود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب قالوا الله أعلم فغضب عمر فقال قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس في نفسي منها شئ يا أمير المؤمنين فقال عمر يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك فقال ابن عباس رضي الله عنهما ضربت مثلا بعمل قال عمر أي عمل قال ابن عباس لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله ثم رواه البخاري عن الحسن بن محمد الزعفراني عن حجاج بن محمد الاعور عن ابن جريج فذكره وهو من أفراد البخاري رحمه الله وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولا ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيآت عياذا بالله من ذلك فابطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح واحتاج الى شئ من الاول في أضيق الاحوال فلم يحصل منه شئ وخانه أحوج ما كان اليه ولهذا قال تعالى وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار وهو الريح الشديد فيه نار فاحترقت أي أحرق ثمارها وأباد اشجارها فاي حال يكون حاله وقد روى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال ضرب الله مثلا حسنا وكل أمثاله حسن قال أيود

(ونساء) كثيرة وترك التصريح به استغناء واكتفاء بالوصف الاول (واتقوا الله الذي تساءلون به) أي تعاطون به قاله ابن عباس وقال الربيع تعاقدون وتعاهدون وقيل تتحالفون به وقيل تعظمونه والمعاني متقاربة وقال البيضاوي أي يسأل بعضكم بعضا بالله (والارحام) بالنصب عطفا على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا وينصره قراءة وبالارحام فانهم كانوا يقرنون بينهما في السؤال والمناشدة فيقولون أسألك بالله وبالرحم وأنشدك الله والرحم أو عطفا على الاسم الجليل أي اتقوا الله والارحام فلا تقطعوها فانها مما أمر الله به أن يوصل وهي الاولى وقرئ والارحام بالجر وأنكره البصريون والكوفيون وسيبويه والزجاج وحكى أبو علي الفارسي ان المبرد قال لو صليت خلف امام يقرأ واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام بالجر لاخذت نعلي ومضيت وقد رد الامام أبو نصر القشيري ما قاله القادحون في قراءة الجر فقال ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين لان القراآت التي قرأ بها أئمة القرآن ثبتت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تواترا ولا يخفى ان دعوى التواتر باطلة يعرف ذلك من يعرف الاسانيد التي رووها بها ولكن ينبغي ان يحتج للجواز بورود ذلك في أشعار العرب ومنه قوله تعالى وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين وقيل التقدير واتقوا قطع مودة الارحام فان قطع الرحم من أكبر الكبائر وصلة الارحام باب لكل خير فتزيد في العمر وتبارك في الرزق وقطعها سبب لكل شر ولذلك وصل تقوى الرحم بتقوى الله وصلة الرحم تختلف باختلاف الناس فتارة يكون عادته مع رحمه الصلة بالاحسان وتارة بالخدمة وقضاء الحاجة وتارة بالمكاتبة وتارة بحسن العبارة وغير ذلك وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر مقدر أي والارحام صلوها أو والارحام أهل ان توصل أو والارحام كذلك أي مما يتقى أو يتساءل به وقيل ان الرفع على الاغراء عند من يرفع به وجوزا لواحدي نصبه على الاغراء والارحام اسم لجميع الاقارب من غير فرق بين المحرم وغيره لا خلاف في هذا

أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات يقول ضيعه فى شيبته وأصابه الكبر وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره فجاءه اعصار فيه نار فاحترق بستانه فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه وكذلك الكافر يكون يوم القيامة اذا رد الى الله عز وجل ليس له خير فيتعتب كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ولا يجده قدم لنفسه خيرا يعود عليه كما لم يغن عن هذا ولده وحرم أجره عند أفقر ما كان اليه كما حرم هذا جنته عند ما كان أفقر ما كان اليها عند كبره وضعف ذريته وهكذا روى الحاكم فى مستدركه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه اللهم اجعل أوسع رزقك على عند كبر سنى وانقضاء عمرى ولهذا قال تعالى كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون أى تعتبرون وتفهمون الامثال والمعانى وتنزلونها على (١٦٤) المراد منها كما قال تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه واعلموا ان الله غنى حميد الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب) يأمر تعالى عباده المؤمنين بالانفاق والمراد به الصدقة ههنا قاله ابن عباس من طيبات ما رزقهم من الاموال التى اكتسبوها قال مجاهد يعنى التجارة بتيسيره اياها لهم وقال على والسدى من طيبات ما كسبتم يعنى الذهب والفضة ومن الثمار والزروع التى أنبتها لهم من الارض قال ابن عباس أمرهم بالانفاق من أطيب المال واجوده وأنفسه ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه فان الله طيب لا يقبل الا طيبا ولهذا قال ولا تيمموا الخبيث أى تقصدوا تبدل الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه أى لو اعطيتموه ما أخذتموه الا أن تتغاضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون وقيل معناه ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون أى لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا الى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا اسحق عن الصباح بن محمد عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين الا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه قالوا وما بوائقه يا نبى الله قال غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به

بين أهل الشرع واللغة قد خصص الامام أبو حنيفة الرحم بالمحرم فى منع الرجوع فى الهبة مع موافقته على ان معناها أعم ولا وجه لهذا التخصيص قال القرطبى اتفقت الملة على ان صلة الرحم واجبة وان قطيعتها محرمة انتهى وقد وردت بذلك الاحاديث الكثيرة الصحيحة روى الشيخان عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله وانما استعير اسم الرحم للقرابة لان الاقارب يتراحمون ويعطف بعضهم على بعض (ان الله كان عليكم رقيبا) حافظا يعلم السر وأخفى والرقيب المراقب وهى صيغة مبالغة من رقب يرقب رقبا ورقوبا ورقبانا اذا أحد النظر لامر يريد تحقيقه (وآتوا) أعطوا (اليتامى أموالهم) شروع فى موارد الاتقياء ومظانه وتقديم ما يتعلق باليتامى لاظهار كمال العناية بأمرهم وملابستهم للارحام والخطاب للاولياء والاوصياء واليتيم من لا أب له وقد خصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم وقد تقدم تفسيره معناه فى البقرة مستوفى وأطلق اسم اليتم عليهم عند أعطائهم أموالهم مع انهم لا يعطونها الا بعد ارتفاع اسم اليتم بالبلوغ مجازا باعتبار ما كانوا عليه ويجوز أن يراد باليتامى المعنى الحقيقى وبالايتاء ما يدفعه الاولياء والاوصياء اليهم من النفقة والكسوة لا دفعها جميعها وهذه الآية مقيدة بالاخرى وهى قوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم فلا يكون مجرد ارتفاع اليتم بالبلوغ مسوغا لدفع أموالهم اليهم حتى يؤنس عنهم الرشد (ولا تتبدلوا الخبيث) هو مال اليتيم وان كان جيدا لكونه حراما (بالطيب) وهو مال الولى لكونه حلالا وان كان رديئا فالباء داخلة على المتروك نهى لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية فى أموال اليتامى فانهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى ويعوضونه بالردىء من أموالهم ولا يرون بذلك بأسا وقيل المعنى لا تأكلوا أموال اليتامى وهى محرمة خبيثة وتدعوا الطيب من أموالكم وقيل المراد لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله والاول أولى فان

فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره الا كان زاده الى النار ان الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن ان الخبيث لا يمحو الخبيث والصحيح القول الاول قال ابن جرير رحمه الله حدثنا الحسين بن عمر العبقري حدثني أبي عن أسباط عن السدي عن عدي ابن ثابت عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قول الله يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون الآية قال نزلت في الانصار كانت الانصار اذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل فقراء المهاجرين منه فيعمد الرجل منهم الى الحشف فيدخله مع اقناء البسر يظن أن ذلك جائز فأنزل الله فيمن فعل ذلك ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ثم رواه ابن جرير وابن ماجه وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طريق السدي عن عدي بن (١٦٥) ثابت عن البراء بنحوه وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا عبيد الله عن اسرائيل عن السدي عن أبي مالك عن البراء رضي الله عنه ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه قال نزلت فينا كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته فيأتي الرجل بالقنو فيعلقه في المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم اذا جاع جاء فضربه بعصاه فسقط منه البسر والتمر فيأكل وكان اناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيص فيأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه فنزلت ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه قال لو ان أحدكم اهدي له مثل ما أعطى ما أخذه الا على اغماض وحياء وكذا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده وكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن عبيد الله هو ابن موسى العبسي عن اسرائيل عن السدي وهو اسمعيل بن عبد الرحمن عن أبي مالك الغفاري واسمه غزوان عن البراء فذكر نحوه ثم قال وهذا حديث حسن غريب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الوليد حدثنا سليمان بن كثير عن الزهري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لونين من التمر الجعرور ولون الجبيق وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم ثم يخرجونها في الصدقة فنزلت ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ورواه أبو داود من حديث سفيان بن حسين عن الزهري ثم قال أسنده أبو الوليد عن سليمان بن كثير عن الزهري ولفظه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجعرور ولون الجبيق أن يؤخذ في الصدقة وقد روى النسائي هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حميد اليحصبي عن الزهري عن أبي امامة ولم يقل عن أبيه فذكر نحوه وكذا رواه ابن وهب عن عبد الجليل وقال

تبدل الشيء بالشيء في اللغة أخذ مكانه وكذلك استبدله ومنه قوله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل وقوله أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير واما التبديل فقد يستعمل كذلك كما في قوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين وأخرى بالعكس كما في قولك بدلت الحلقة بالخاتم اذا اذبتها وجعلتها خاتما نص عليه الازهري وذهب جماعة من المفسرين الى ان المنهي عنه في هذه الآية يعني (ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم) هو الخلط فيكون الفعل مضمنا معنى الضم أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة الى أموالكم وهذا نهي عن منكر آخر كانوا يفعلونه بأموال اليتامى وخص النهي بالمضموم وان كان أكل مال اليتيم حراما وان لم يضم الى مال الوصي لان أكل ماله مع الاستغناء عنه أقبح فلذلك خص النهي به أولانهم كانوا يأكلونه مع الاستغناء عنه فجاء النهي على ما وقع منهم فالقيد للتشنيع واذا كان التقييد لهذا الغرض لم يلزم القائل بمفهوم المخالفة جواز أكل أموالهم وحدها قاله الكرخي ثم نسخ هذا بقوله تعالى وان تخالطوهم فاخوانكم وقيل ان الى بمعنى مع كقوله تعالى من انصاري الى الله والاول أولى (انه) أي أكل مال اليتيم من غير حق أو التبديل المفهوم من لا تتبدلوا أو المراد كلاهما فاذهابا بهما مذهب اسم الاشارة ضوعوان بين ذلك والاول أولى لانه أقرب مذكور (كان حوبا) قرئ بضم الحاء وبفتحها وحابا بالالف لغات في المصدر والفتح لغة تميم وهو الاثم يقال حاب الرجل يحوب حوبا اذا أثم واكتسب الاثم وأصله الزجر للابل فسمي الاثم حوبا لانه يزجر عنه والحوبة الحاجة والحوب أيضا الوحشة والتحوب التحزن عن سعيد بن جبير قال ان رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عمه فخاصمه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية يقول لا تستبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم وعن مجاهد قال لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذي قدر لك ولا تأكلوا أموالهم مع أموالكم تخلطونها فتأكلونها جميعا انه كان اثما (كبيرا) وعن

ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن المغيرة حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن مغفل في هذه الآية ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون قال كسب المسلم لا يكون خبيثا ولكن لا يصدق بالخشف والدرهم الزيف ومالا خير فيه وقال الامام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا حماد بن سلمة عن حماد هو ابن سليمان عن ابراهيم عن الاسود عن عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت يارسول الله نطعمه المساكين قال لا تطعموهم مما لا تأكلون ثم رواه عن عفان عن حماد بن سلمة به ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه يقول لو كان لرجل على رجل فاعطاه ذلك لم يأخذه الا أن يرى انه قد نقصه من حقه رواه ابن جرير وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (١٦٦) ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه يقول لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه قال فذلك قوله الا أن تغمضوا فيه فكيف ترضون لي مالا ترضون لانفسكم وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد وهو قوله لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ثم روى من طريق العوفي وغيره عن ابن عباس نحو ذلك وكذا ذكره غير واحد وقوله واعلموا ان الله غني حميد أي وان أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها وماذاك الا لأنه يساوي الغني الفقير كقوله لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وهو غني عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء اليه وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم ان الله غني واسع العطاء كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له اضعافا كثيرة من يقرض غير عديم ولا ظلوم وهو الحميد أي المحمود في جميع افعاله واقواله وشرعه وقدره لا اله الا هو ولا رب سواه وقوله الشيطان يعدكم الفقر وقيل ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا هناد بن السري حدثنا أبو الاحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فاما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق واما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله ومن وجد الاخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا الآية وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما جميعا عن هناد بن السري وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى الموصلي عن هناد به وقال الترمذي حسن غريب وهو حديث أبي الاحوص يعني سلام بن سليم لا نعرفه

ابن زيد قال كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار يأخذه الكبير فنصيبه من الميراث طيب وهذا الذي يأخذ خبيث (وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا) وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه وليها ويريد أن يتزوجها فلا يقسط لها في مهرها أي لا يعدل فيه ولا يعطيها ما يعطيها غيره من الازواج فنهاهم الله أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن فهذا سبب نزول الآية فهو نهي يخص هذه الصورة وقال جماعة من السلف ان هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية وفي اول الاسلام من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ما شاء فقصرهم بهذه الآية على أربع فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط انهم اذا خافوا ان لا يقسطوا في اليتامى فكذلك يخافون ان لا يقسطوا في النساء لانهم كانوا يتحرجون في اليتامى ولا يتحرجون في النساء والخوف من الاضداد فان الخوف قد يكون معلوما وقد يكون مظنونا ولهذا اختلف الائمة في معناه في الآية فقال أبو عبيد خفتم بمعنى أيقنتم وقال الآخرون بمعنى ظننتم قال ابن عطية وهو الذي اختاره الحذاق وانه على بابه من الظن لا من اليقين والمعنى من غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة فليتركها وينكح غيرها والمعروف عند أهل اللغة ان أقسط بمعنى عدل وقسط بمعنى جار لان الهمزة تأتي للسلب فيقال أقسط اذا أزال القسط أي الجور والظلم ولذلك جاء أما القاسطون الآية وأقسطوا ان الله يحب المقسطين وجاء قسط قسطا من باب ضرب وقسوطا جار وعدل فهو من الاضداد قاله ابن الفطاع والاسم القسط ومافي قوله (ماطاب لكم) موصولة وجاء بما مكان من لانهما قد يتعاقبان فيقع كل واحد منهما مكان الآخر كما في قوله والسماء وما بناها ومنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على أربع قال بعضهم وحسن وقوعها هنا انها واقعة على النساء وهن ناقصات العقول وقال البصريون ان ما يقع للنعوت كما يقع لما لا يعقل يقال ما عندك فيقال ظريف وكريم

مرفوعا الا من حديثه كذا قال وقد رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره عن محمد بن أحمد عن محمد بن عبد الله بن مسعود مرفوعا نحوه ولكن رواه مسعر عن عطاء بن السائب عن أبي الاحوص عوف بن مالك بن نضلة عن ابن مسعود فجعله من قوله والله أعلم ومعنى قوله تعالى الشيطان يعدكم الفقر أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بايديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ويأمركم بالفحشاء أي مع نهيه اياكم عن الانفاق خشية الاملاق يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق قال تعالى والله يعدكم مغفرة منه أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء وفضلا أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر والله واسع عليم وقوله يؤتي الحكمة من يشاء قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وامثاله وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا الحكمة القرآن يعني تفسيره قال ابن عباس فانه قد قرأه البر والفاجر رواه ابن مردويه وقال ابن نجيح عن مجاهد يعني بالحكمة الاصابة في القول وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد يؤتي الحكمة من يشاء ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن وقال أبو العالية الحكمة خشية الله فان خشية الله رأس كل حكمة وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن عثمان بن زفر الجهني عن أبي عمار الاسدي عن ابن مسعود مرفوعا رأس الحكمة مخافة الله وقال أبو العالية في رواية عنه الحكمة الكتاب والفهم وقال ابراهيم النخعي الحكمة الفهم وقال أبو مالك الحكمة السنة وقال ابن وهب عن مالك قال زيد ابن أسلم الحكمة العقل قال مالك وانه ليقع في قلبي ان الحكمة هو الفقه في دين الله وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله ومما يبين ذلك انك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا اذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفا في أمر دنياه عالما بامر دينه بصيرا به يؤتيه الله اياه ويحرمه هذا فالحكمة الفقه في دين الله وقال السدي الحكمة النبوة والصحيح ان الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها وأعلاها النبوة والرسالة أخص ولكن لاتباع الانبياء حظ من الخير على سبيل التبع كما جاء في بعض الاحاديث من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير انه لا يوحى اليه رواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن اسمعيل بن رافع عن رجل لم يسمه عن عبد الله بن عمرو قوله وقال الامام أحمد حدثنا وكيع ويزيد قال حدثنا اسمعيل يعني ابن أبي خالد عن قيس وهو ابن أبي حازم عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه

وقيل هي لنوع من يعقل فالمعنى فانكحوا النوع الطيب من النساء أي الحلال وما حرمه الله فليس بطيب وقيل ان ما هنا مدية أي ما دمتم مستحسنين للنكاح وضعفه ابن عطية قال الفراء ان ما ههنا مصدرية قال النحاس وهذا بعيد جدا وقيل انها نكرة موصوفة أي انكحوا جنسا طيبا وعددا طيبا والاول أولى وقرئ فانكحوا من طاب لكم وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور في الآية لا مفهوم له وانه يجوز لمن لم يخف أن يقسط في اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة ومن في قوله (من النساء) اما بيانية أو تبعيضية لان المراد غير اليتائم بشهادة قرينة المقام أي فانكحوا من استطابتها نفوسكم من الاجنبيات وفي ايثار الامر بنكاحهن على النهي عن نكاح اليتامى مع انه المقصود بالذات مزيد لطف في استنزالهم فان النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه على ان وصف النساء بالطيب على الوجه الذي اشير اليه فيه مبالغة في الاستمالة اليهن والترغيب فيهن وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى وهو السر في توجيه النهي الضمني الى النكاح المترقب (مثنى وثلاث ورباع) أي اثنتين اثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا وهذه الالفاظ المعدولة فيها خلاف وهل يجوز فيها القياس أو يقتصر فيها على السماع فالاول قول الكوفيين وأبي اسحق وغيره والثاني قول البصريين والمسموع من ذلك احد عشر لفظا أحاد وموحد وثناء ومثنى وثلاث ومثلث ورباع ومربع ومخمس وعشار ومعشر ولم يسمع خماس ولا غيره من بقية العقد وجمهور النحاة على منع صرفها واجاز الفراء صرفها وان كان المنع عنده أولى وقد استدل بالآية على تحريم ما زاد على الاربع وبينوا ذلك بانه خطاب لجميع الامة وان كل ناكح له ان يختار ما أراد من هذا العدد كما يقال للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم أو هذا المال الذي في البدرة درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة وهذا مسلم اذا كان المقسوم قد ذكرت جملته أو عين مكانه اما لو كان مطلقا كما يقال اقتسموا الدراهم ويرادبه ما كسبوه فليس المعنى هكذا والآية من الباب الآخر لان

من طرق متعددة عن اسمعيل بن أبي خالد به وقوله وما يذكر الا أولوا الالباب أي وما ينتفع بالموعظة والتذكار الا من له لب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام (وما انفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من أنصار ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيآتكم والله بما تعملون خبير) يخبر تعالى بانه عالم بجميع ما ينفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال وما للظالمين من أنصار أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته وقوله ان تبدوا الصدقات فنعما هي أي ان أظهرتموها فنعم شيء هي وقوله وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم فيه دلالة على ان اسرار الصدقة أفضل (١٦٨) من اظهارها لانه أبعد عن الرياء الا أن يترتب على الاظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة والاصل ان الاسرار أفضل لهذه الآية ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل قلبه معلق بالمساجد اذا خرج منه حتى يرجع اليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال اني أخاف الله رب العالمين ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه وقال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الارض جعلت تميد فخلق الجبال فالقاها عليها فاستقرت فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت يارب هل في خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم الماء قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء قال نعم الريح قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله وقد ذكرنا في فضل آية الكرسي عن أبي ذر قال قلت يارسول الله أي الصدقة أفضل قال سر الى فقير أو جهد من مقل رواه أحمد ورواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة عن أبي ذر فذكره وزاد ثم شرع في هذه الآية ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم الآية وفي الحديث المروي صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسين بن زياد المحاربي مؤدب محارب أنا موسى بن عمير عن عامر

الباب الاول على ان من قال لقوم يقتسمون مالا معينا كثيرا اقتسموه مثنى وثلاث ورباع فقسموا بعضه بينهم درهمين درهمين وبعضه ثلاثة ثلاثة وبعضه أربعة أربعة كان هذا هو المعنى العربي ومعلوم انه اذا قال القائل جاءني القوم مثنى وهم مائة ألف كان المعنى انهم جاؤوا اثنين اثنين وهكذا جاءني القوم ثلاث ورباع والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد كما في قوله تعالى اقتلوا المشركين وقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ونحوها فمعنى قوله فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع لينكح كل فرد منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين وثلاثا ثلاثا واربعا اربعا هذا ما يقتضيه لغة العرب فالآية تدل على خلاف ما استدلوا به عليه ويؤيد هذا قوله تعالى في آخر الآية فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة فانه وان كان خطابا للجميع فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد فالاولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الاربع بالسنة لا بالقرآن وأما استدلال من استدل بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة وكأنه قال انكحوا مجموع هذا العدد المذكور فهذا جهل بالمعنى العربي ولو قال انكحوا اثنتين وثلاثا وأربعا كان هذا القول له وجه واما مع المجيء بصيغة العدل فلا والمعاجيب سجاياه بالواو الجامعة دون أولان التخيير يشعر بانه لا يجوز الا أحد الاعداد المذكورة دون غيره وذلك ليس بمراد من النظم القرآني وأخرج الشافعي وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم اختر منهن وفي لفظ امسك منهن اربعا وفارق سائرهن وروى هذا الحديث بألفاظ من طرق وعن نوفل بن معاوية الديلي قال أسلمت وعندي خمس نسوة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم امسك أربعا وفارق الاخرى أخرجه الشافعي في مسنده وأخرج ابن ماجه والنحاس في ناسخه عن قيس بن الحارث الاسدي قال أسلمت وكان تحتي ثمان نسوة فاتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاخبرته فقال اختر منهن أربعا وخل سائرهن ففعلت وهذه شواهد للحديث

الشعبي في قوله ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم قال أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما اما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما خلفت وراءك لاهلك يا عمر قال خلفت لهم نصف مالي واما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد ان يخفيه من نفسه حتى دفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما خلفت وراءك لاهلك يا أبا بكر فقال عدة الله وعدة رسوله فبكى عمر رضي الله عنه وقال بأبي أنت وأمي يا أبا بكر والله ما استبقنا الى باب خير قط الا كنت سابقا وهذا الحديث روي من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه وانما أوردناه ههنا لقول الشعبي ان الآية نزلت في ذلك ثم ان الآية عامة في ان اخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة لكن روى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بقال بسبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بقال بخمسة وعشرين ضعفا وقوله ويكفر عنكم من سيئاتكم أي بدل الصدقات ولاسيما اذا كانت سرا يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيآت وقد قرئ ويكفر بالجزم عطفا على محل جواب الشرط وهو قوله فنعما هي كقوله فأصدق وأكن وقوله والله بما تعملون خبير أي لا يخفى عليه من ذلك شئ وسيجزيكم عليه (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلانفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا

للحديث الاول كما قال البيهقي وعن الحكم قال أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ان المملوك لا يجمع من النساء فوق اثنتين وفي بعض التفاسير هنا خلط وخبط تركناه لانه تطويل بلا طائل وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق (فان خفتم ألا تعدلوا) بين الزوجات في القسم والنفقة ونحوهما (فواحدة) أي فانكحوا واحدة وفيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك (أو) انكحوا واقتصروا على (ما ملكت أيمانكم) من السراري وان كثر عددهن كما يفيده الموصول اذ ليس لهن من الحقوق ما للزوجات والمراد نكاحهن بطريق الملك لا بطريق النكاح وفيه دليل على انه لا حق للمملوكات في القسم كما يدل على ذلك جعله قسيما للواحدة في الامن من عدم العدل واسناد الملك الى اليمين لكونها المباشرة لقبض الاموال واقباضها ولسائر الامور التي تنسب الى الشخص في الغالب (ذلك) أي نكاح الاربعة فقط أو الواحدة أو التسري (أدنى) أقرب الى (ألا تعولوا) تجوروا من عال الرجل يعول اذا مال وجار ومنه قولهم عال السهم عن الهدف أي مال عنه وعال الميزان اذا مال والمعنى ان خفتم عدم العدل بين الزوجات فهذه التي أمرتم بها أقرب الى عدم الجور وهو قول أكثر المفسرين وقال الكسائي يقال عال الرجل يعيل اذا افتقر فصار عالة ومنه قوله تعالى وان خفتم عيلة وقيل المعنى أن لا تضلوا وقال الشافعي ان لا تكثر عيالكم قال الثعلبي وما قال هذا غيره وانما يقال أعال يعيل اذا كثر عياله وذكر ابن العربي ان عال يأتي لسبعة معان الاول مال الثاني زاد الثالث جار الرابع افتقر الخامس أثقل السادس قام بمعونة العيال ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم وابدأ بمن تعول السابع غلب ومنه عيل صبري قال ويقال أعال الرجل كثر عياله واما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح ويجاب عن انكار الثعلبي لما قاله الشافعي وكذلك انكار ابن العربي بانه قد سبق الشافعي الى القول به زيد بن أسلم وجابر بن زيد وهما امامان من أئمة المسلمين لا يفسران القرآن هما والامام الشافعي بما لا وجه له في العربية

(٢٢ - فتح البيان ني) وما تنفقوا من خير فان الله به عليم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قال أبو عبد الرحمن النسائي أنبأنا محمد بن عبد السلام بن عبد الرحيم أنبأنا الفريابي حدثنا سفيان عن الاعمش عن جعفر بن اياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانوا يكرهون ان يرضخوا الانسابهم من المشركين فسألوا فرخص لهم فنزلت هذه الآية ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلانفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون وكذا رواه أبو حذيفة وابن المبارك وأبو أحمد الزبيري وأبو داود الحضرمي عن سفيان وهو الثوري به وقال ابن أبي حاتم أنبأنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثني أحمد بن عبد الرحمن يعني الدشتكي حدثني أبي عن أبيه حدثنا أشعث بن اسحق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه

كان يأمر بأن لا يتصدق الا على اهل الاسلام حتى نزلت هذه الآية ليس عليك هداهم الى آخرها فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين وسيأتي عند قوله تعالى لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم الآية حديث أسماء بنت الصديق في ذلك وقوله وما تنفقوا من خير فلانفسكم كقوله من عمل صالحا فلنفسه ونظائرها في القرآن كثيرة وقوله وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله قال الحسن البصري نفقة المؤمن لنفسه ولا ينفق المؤمن اذا أنفق الا ابتغاء وجه الله وقال عطاء الخراساني يعني اذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله وهذا معنى حسن وحاصله ان المتصدق اذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله ولا عليه في نفس الامر لمن أصاب ألبر أو فاجر أو مستحق أو غيره وهو مثاب على قصده ومستند هذا تمام الآية وما تنفقوا من خير يوف (١٧٠) اليكم وأنتم لا تظلمون والحديث المخرج في الصحيحين من طريق أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبح الناس يتحدثون تصدق على زانية فقال اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على غني قال اللهم لك الحمد على غني لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق فقال اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق فأتي فقيل له اما صدقتك فقد قبلت اما الزانية فلعلها ان تستعف بها عن زناها ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق ان يستعف بها عن سرقته وقوله للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله يعني المهاجرين الذين قد انقطعوا الى الله والى رسوله وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم ولا يستطيعون ضربا في الارض وعن يعني سفرا للتسبب في طلب المعاش والضرب في الارض هو السفر قال الله تعالى واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة وقال تعالى علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله الآية وقوله يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف اى الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والاكلة والاكلتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيأ وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضا وقوله تعرفهم بسيماهم أي بما يظهر

وقد أخرج ذلك عنهما الدارقطني في سننه وقد حكاه القرطبي عن الكسائي وأبي عمرو الدوري وابن الاعرابي وقال أبو حاتم كان الشافعي اعلم بلغة العرب منا ولعله لغة وقال الدوري هي لغة حمير قال ابن عطية قول الشافعي نفسه حجة لانه عربي فصيح قال الازهري والذي اعترض عليه وخطأه عجل ولم يتثبت فيما قال ولا ينبغي للعضرمي ان يعجل الى انكاره ما لا يحفظه من لغات العرب انتهى وبسط الرازي في هذا المقام من تفسيره ورد على أبي بكر الرازي ثم قال الطعن لا يصدر الا عن كثرة الغباوة وقلة المعرفة وقرأ طلحة بن مصرف أن لا تعولوا بضم التاء وهو حجة الشافعي وقدح الزجاج في تأويل عال من العيال بان الله سبحانه قد أباح كثرة السراري وفي ذلك تكثير العيال فكيف يكون أقرب الى أن لا تكثر وهذا القدح غير صحيح لان السراري انما هي مال يتصرف فيه بالبيع وانما العيال الحرائر ذوات الحقوق الواجبة وقد حكى ابن الاعرابي ان العرب تقول عال الرجل اذا كثر عياله وكفى بهذا وقد ورد عال بمعان غير السبعة التي ذكرها ابن العربي منها عال اشتد وتفاقم حكاه الجوهري وعال الرجل في الارض اذا ضرب فيها حكاه الهروي وعال اذا أجحف حكاه الاحمر فهذه ثلاثة معان غير السبعة والرابع عال كثر عياله فجملة معاني عال احد عشر معنى وعن قتادة في الآية قال يقول ان خفت أن لا تعدل في أربع فثلاثا والا فثنتين والا فواحدة فان خفت أن لا تعدل في واحدة فما ملكت يمينك وعن الربيع مثله وعن الضحاك قال ألا تعدلوا في الجماعة والحب وفيه نظر فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك يعني في حب عائشة والله تعالى يقول ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم وعن السدي أو ما ملكت أيمانكم قال السراري وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أدنى أن لا تعولوا قال أن لا تجوروا قال ابن أبي حاتم هذا حديث خطأ والصحيح عن عائشة موقوف وعن ابن عباس موقوف

لذوى الالباب من صفاتهم كما قال تعالى سيماهم فى وجوههم وقال ولتعرفنهم فى لحن القول وفى الحديث الذى فى السنن اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وقوله لا يسألون الناس الحافا أى لا يلحون فى المسئلة و يكلفون الناس ما لا يحتاجون اليه فان من سأل وله ما يغنيه عن المسئلة فقد ألحف فى المسئلة قال البخارى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا محمد ابن جعفر حدثنا شريك بن أبى نمر أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبى عمرة الانصارى قالا سمعنا أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان انما المسكين الذى يتعفف اقرؤا ان شئتم يعنى قوله لا يسألون الناس الحافا وقد رواه مسلم من حديث اسمعيل بن جعفر المدينى عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر عن عطاء بن يسار وحده عن أبى هريرة به وقال أبو عبد الرحمن النسائى أخبرنا على بن حجر حدثنا اسمعيل (١٧١) أخبرنا شريك وهو ابن أبى نمر عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان انما المسكين المتعفف اقرأوا ان شئتم لا يسألون الناس الحافا وروى البخارى من حديث شعبة عن محمد بن أبى زياد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه وقال ابن أبى حاتم أخبرنا يونس عن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن أبى ذئب عن أبى الوليد عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس المسكين بالطواف عليكم فتطعمونه اللقمة لقمة انما المسكين المتعفف الذى لا يسأل الناس الحافا وقال ابن جرير حدثنى معتمر عن الحسن بن مالك عن صالح بن سويد عن أبى هريرة قال ليس المسكين بالطواف الذى ترده الاكلة والاكلتان ولكن المسكين المتعفف فى بيته لا يسأل الناس شيأ تصيبه الحاجة اقرأوا ان شئتم لا يسألون الناس الحافا وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو بكر الحنفى حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن رجل من مزينة انه قالت له أمه ألا تنطلق فتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يسأله الناس فانطلقت أسأله فوجدته قائما يخطب وهو يقول ومن استعف أعفه الله ومن استغنى أغناه الله ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس الحافا فقلت بيني و بين نفسى (١) لناقة لهى خير من خمس أواق ولغلامه ناقة أخرى فهى خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل وقال الامام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال عن عمارة بن عرفة عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال سرحتنى امى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فأتيته فقعدت قال فاستقبلنى فقال من استغنى أغناه الله ومن استعف أعفه الله ومن استكف كفاه الله ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف قال

وعن ابن عباس قال أن لا تميلوا وعن مجاهد وأبى رزين وأبى مالك والضحاك مثله وعن زيد بن أسلم أن لا يكثر من تعولوا وعن سفيان بن عيينة أن لا تفتقروا (وآتوا) الخطاب للازواج وقيل للاولياء (النساء صدقاتهن) بضم الدال جمع صدقة كسمرة قال الاخفش و بنو تميم يقولون صدقة والجمع صدقات وان شئت فتحت وان شئت أسكنت (نحلة) بكسر النون وضمها لغتان وأصلها العطاء نحلت فلانا أعطيته وعلى هذا فهى منصوبة على المصدرية لان الايتاء بمعنى الاعطاء وقيل النحلة التدين فمعنى نحلة تدينا قاله الزجاج وعلى هذا فهى منصوبة على المفعول له وقال قتادة الفريضة وعلى هذا فهى منصوبة على الحال وقيل طيبة النفس قال أبو عبيد ولا تكون النحلة الا عن طيبة نفس وقال ابن عباس المهر قالت عائشة واجبة وقال ابن جريج فريضة مسماة وعن قتادة مثله ومعنى الآية على كون الخطاب للازواج أعطوا النساء اللاتى نكحتموهن مهورهن التى لهن عليكم عطية أو ديانة منكم أو فريضة عليكم أو طيبة من أنفسكم ومعناها على كون الخطاب للاولياء أعطوا النساء من قراباتكم التى قبضتم مهورهن من أزواجهن تلك المهور وقد كان الولى يأخذ مهر قريبته فى الجاهلية ولا يعطيها شيأ حكى ذلك عن أبى صالح والكلبى والاول أولى وهو الاشبه بظاهر الآية وعليه الاكثر لان الله تعالى خاطب الناكحين فيما قبله كما تقدم فهذا أيضا خطاب لهم وفى الآية دليل على ان الصداق واجب على الازواج للنساء وهو مجمع عليه كما قال القرطبى قال وأجمع العلماء على انه لا حد لكثيره واختلفوا فى قليله (فان طبن لكم) يعنى النساء المتزوجات للازواج (عن شئ منه) قال ابن عباس اذا كان من غير ضرار ولا خديعة فهو هنئ مرئ كما قال الله تعالى والضمير فى منه راجع الى الصداق الذى هو واحد الصدقات أو الى المذكور وهو الصدقات أو هو بمنزلة اسم الاشارة كانه قال من ذلك والمعنى فان طبن النساء لكم أيها الازواج أو الاولياء عن شئ كائن من المهر ومن فيها وجهان أحدهما انها للتبعيض ولذلك لا يجوز لها ان تهبه كل الصداق واليه

(١) قوله لناقة الخ هكذا فى النسخ التى بأيدينا ولعلها النا ناقة الخ أو نحو ذلك وقوله ولغلامه ناقة الخ كذا فى النسخ أيضا وحرر الرواية اه مصححه

فقلت ناقتي الياقوتة خير من أوقية فرجعت فلم أسأله وهكذا رواه أبو داود والنسائي كلاهما عن قتيبة زاد أبو داود وهشام ابن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي الرجال باسناده نحوه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال عن عمارة بن عرفة عن عبد الرحمن بن أبي سعيد قال قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف والوقية أربعون درهما وقال أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن رجل من بني أسد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل الحافا وقال الامام أحمد أيضا حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حكيم بن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله ما يغنيه جاءت مسئلته يوم القيامة خدوشا أو كدوحا في وجهه قالوا يا رسول الله وما غناه قال خمسون درهما أو حسابها من الذهب وقد رواه أهل السنن الاربعة من حديث حكيم بن جبير الاسدي الكوفي وقد تركه شعبة ابن الحجاج وضعفه غير واحد من الائمة من جرى هذا الحديث وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا أبو حسين عبد الله بن أحمد بن يونس حدثني أبي حدثنا أبو بكر بن عياش عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين قال بلغ الحرث رجلا كان بالشام من قريش ان أباذر كان به عوز فبعث اليه ثلثمائة دينار فقال ما وجد عبد الله رجلا أهون عليه مني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سأل وله أربعون فقد ألحف ولا آل أبي ذر أربعون درهما وأربعون شاة وما هنان قال أبو بكر بن عياش يعني خادمين وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم أخبرنا ابراهيم بن محمد أنبأنا عبد الجبار أخبرنا سفيان عن داود بن سابور عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من سأل وله أربعون درهما فهو ملحف وهو مثل سف الملة يعني الرمل ورواه النسائي عن أحمد بن سليمان عن أحمد بن آدم عن سفيان وهو ابن عيينة باسناده نحوه وقوله وما تنفقوا من خير فان الله به عليم أي لا يخفى عليه شئ منه وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون اليه وقوله الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الاوقات من ليل أو نهار والاحوال من سر وجهار حتى ان النفقة على الاهل تدخل في ذلك أيضا كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن ابي وقاص حين عاده مريضا عام الفتح وفي رواية حجة الوداع وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعة حتى

ذهب الليث والثاني انها للبيان ولذلك يجوز ان تهبه المهر كله وفي الكرخي وتذكير الضمير يعود على الصداق المراد به الجنس قل أو كثر فيكون حملا على المعنى (نفسا) نصب على التمييز لان نفسا في معنى الجنس وجيء بالتمييز مفردا وان كان قبله جمع لعدم اللبس اذ من المعلوم ان الكل لسن مشتركات في نفس واحدة اي فان طابت نفوسهن عن شئ من الصداق وفي طبن دليل على ان المعتبر في تحليل ذلك منهن لهم انما هو طيبة النفس لا مجرد ما يصدر منهن من الالفاظ التي لا يتحقق معها طيبة النفس فاذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة نفسها لم يحل للزوج ولا للولي وان كانت قد تلفظت بالهبة أو النذر أو نحوهما وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار ما يصدر من النساء من الالفاظ المفيدة للتمليك بمجردها لنقصان عقولهن وضعف ادراكهن وسرعة انخداعهن وانجذابهن الى ما يراد منهن بأيسر ترغيب أو ترهيب (فكلوه) أي فخذوا ذلك الشئ الذي طابت به نفوسهن وتصرفوا فيه بأنواع التصرفات وخص الاكل لانه معظم ما يراد بالمال وان كان سائر الانتفاعات به جائزة كالاكل (هنيئا مريئا) يقال هناه الطعام والشراب يهنيه ومراه وامراه من الهنا والمرا والفعل هنأ ومرأ أي أتى من غير مشقة ولا غيظ وقيل هو الطيب الذي لا تنغيص فيه وقيل المحمود العاقبة الطيب الهضم وقيل مالا اثم فيه والمقصود هنا انه حلال لهم خالص عن الشوائب (ولا تؤتوا) أيها الاولياء (السفهاء) المبذرين من الرجال والنساء والصبيان (أموالكم) هذا رجوع الى بقية الاحكام المتعلقة بأموال اليتامى وقد تقدم الامر بدفع أموالهم اليهم في قوله تعالى وآتوا اليتامى أموالهم فبين سبحانه ههنا ان السفيه وغير البالغ لا يجوز دفع ماله اليه وقد تقدم في البقرة معنى السفيه لغة واختلف أهل العلم في هؤلاء السفهاء من هم فقال سعيد بن جبير هم اليتامى لا تؤتوا أموالهم قال النحاس وهذا من أحسن ما قيل في الآية وقال مالك هم الاولاد الصغار لا تعطوهم أموالكم فيفسدوها ويبقوا بلا شئ وقال مجاهد هم النساء قال النحاس وغيره

ما تجعل فى فى امرأتك وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر وبهز قالا حدثنا شعبة عن عدى بن ثابت قال سمعت عبد الله بن يزيد الانصارى يحدث عن أبى مسعود رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان المسلم اذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة أخرجاه من حديث شعبة به وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن شعيب قال سمعت سعيد بن يسار عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكى عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم فى أصحاب الخيل وقال حبش الصنعانى عن ابن شهاب عن ابن عباس فى هذه الآية قال هم الذى يعلفون الخيل فى سبيل الله رواه ابن أبى حاتم ثم قال وكذا روى عن أبى امامة وسعيد بن المسيب ومكحول وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج أخبرنا يحيى بن يمان (١٧٣) عن عبد الوهاب بن مجاهد عن ابن جبير عن أبيه قال كان لعلى أربعة دراهم فأنفق درهما ليلا ودرهما نهارا ودرهما سرا ودرهما علانية فنزلت الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب ابن مجاهد وهو ضعيف لكن رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس انها نزلت فى على بن أبى طالب وقوله فلهم أجرهم عند ربهم اى يوم القيامة على ما فعلوا من الانفاق فى الطاعات ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون تقدم تفسيره (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لما ذكر تعالى الابرار المؤدين النفقات المخرجين الزكوات المتفضلين بالبر والصدقات لذوى الحاجات والقرابات فى جميع الاحوال والاوقات شرع فى ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها الى بعثهم ونشورهم فقال الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس أى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة الا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له وذلك انه يقوم قياما منكرا وقال ابن عباس آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق رواه ابن أبى حاتم قال وروى عن عوف ابن مالك وسعيد بن جبير والسدى والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك وحكى عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان انهم قالوا فى قوله الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس يعنى لا يقومون يوم القيامة وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد والضحاك وابن زيد وروى ابن أبى حاتم من

وغيره وهذا القول لا يصح انما تقول العرب سفايه أو سفيهات واختلفوا فى وجه اضافة الاموال الى المخاطبين وهى للسفهاء فقيل أضافها اليهم لادنى ملابسة فانها بأيديهم وهم الناظرون فيها كقوله فسلموا على أنفسكم وقوله فاقتلوا أنفسكم أى ليسلم بعضكم على بعض وليقتل بعضكم بعضا وقيل أضافها اليهم لانها من جنس أموالهم فان الاموال جعلت مشتركة بين الخلق فى الاصل وقيل المراد أموال المخاطبين حقيقة وبه قال أبو موسى الاشعرى وابن عباس والحسن وقتادة والمراد النهى عن دفعها الى من لا يحسن تدبيرها كالنساء والصبيان ومن هو ضعيف الادراك لا يهتدى الى وجوه النفع التى تحصل المال ولا يتجنب وجوه الضرر التى تهلكه وتذهب به (التى جعل الله) أى صيرها أو خلقها وأوجدها (لكم) حال كونها (قياما) يعنى قوام معايشكم قاله ابن عباس والقيام والقوام ما يقيمك يقال فلان قيام أهله وقوام بيته وهو الذى يقيم شأنه أى يصلحه وهو منصوب على المصدر أى فيقومون بها قياما وقال الاخفش المعنى قائمة بأموركم فذهب الى انها جمع وقال البصريون قيما جمع قيمة كديمة وديم أى جعلها الله قيمة للاشياء وخطأ أبو على الفارسى هذا القول وقال هى مصدر كقيام وقوام والمعنى انها اصلاح للعمال وثبات له فأما على قول من قال ان المراد أموالهم على ما يقتضيه ظاهر الاضافة فالمعنى واضح وأما على قول من قال انها أموال اليتامى فالمعنى انها من جنس ما تقوم به معايشكم ويصلح به حالكم من الاموال قال الفراء الاكثر فى كلام العرب النساء اللواتى والاموال التى وكذا غير الاموال ذكره النحاس (وارزقوهم فيها) أى أطعموهم منها قال ابن عباس أنفقوا عليهم أى اجعلوا لهم فيها رزقا أو افرضوا لهم وآثر التعبير بفى على من مع ان المعنى عليها اشارة الى انه ينبغى للولى ان يتجر لموليه فى ماله ويربحه له حتى تكون نفقته عليه من الربح لا من أصل المال فالمعنى واجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم بان تتجروا فيها وتربحوها لهم (واكسوهم) هذا فيمن تلزم نفقته وكسوته من الزوجات والاولاد ونحوهم

حديث أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حنيف عن ابي عبد الله بن مسعود عن أبيه انه كان يقرأ الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا ربيعة بن كلثوم حدثنا أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب وقرأ الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس وذلك حين يقوم من قبره وفي حديث أبي سعيد في الاسراء كما هو مذكور في سورة سبحان انه عليه السلام مر ليلتئذ بقوم لهم أجواف مثل البيوت فسأل عنهم فقيل هؤلاء أكلة الربا رواه البيهقي مطولا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي الصلت عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٧٤) أتيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجري من خارج بطونهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء أكلة الربا ورواه الامام أحمد عن حسن وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة به وفي اسناده ضعف وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل فأتينا على نهر حسبت انه كان يقول أحمر مثل الدم واذا في النهر رجل سابح يسبح واذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة واذا ذلك السابح يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه حجرا وذكر في تفسيره انه آكل الربا وقوله ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا أي وانما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه وليس هذا قياسا منهم للربا على البيع لان المشركين لا يعترفون بشرعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن ولو كان هذا من باب القياس لقالوا انما الربا مثل البيع وانما قالوا انما البيع مثل الربا أي هو نظيره فلم حرم هذا وأبيح هذا وهذا اعتراض منهم على الشرع أي هذا مثل هذا وقد أحل هذا وحرم هذا وقوله تعالى وأحل الله البيع وحرم الربا يحتمل ان يكون من تمام الكلام ردا عليهم أي على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكما وهو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو العالم بحقائق الامور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم وما يضرهم فينهاهم عنه وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل ولهذا قال فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله اى من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع اليه فله ما سلف من المعاملة لقوله عفا الله عما سلف وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين وأول ربا أضع ربا العباس ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى فله ما سلف وأمره الى الله قال سعيد بن جبير والسدي فله ما سلف ما كان

وأما على قول من قال ان الاموال هي أموال اليتامى فالمعنى اتجروا فيها حتى تربحوا وتنفقوهم من الارباح أو اجعلوا لهم من أموالهم رزقا ينفقونه على أنفسهم ويكتسون به وقد استدل بهذه الآية على جواز الحجر على السفهاء وبه قال الجمهور وقال أبو حنيفة لا يحجر على من بلغ عاقلا واستدل بها أيضا على وجوب نفقة القرابة والخلاف في ذلك معروف في مواطنه (وقولوا لهم قولا معروفا) أي كلاما لينا تطيب به نفوسهم وقال مجاهد أمروا ان يقولوا لهم قولا جميلا في البر والصلة قيل معناه ادعوا لهم بارك الله فيكم وحاطكم وصنع لكم وقيل معناه عدوهم وعدا حسنا قاله ابن جريج أي باعطائهم أموالهم كأن يقول الولي لليتيم مالك عندي وأنا أمين عليه فاذا بلغت ورشدت أعطيتك مالك ويقول الاب لابنه مالي سيصير اليك وأنت ان شاء الله تعالى صاحبه ونحو ذلك وذلك لاجل تطييب خواطرهم ولاجل ان يجدوا في أسباب الرشد والظاهر من الآية ما يصدق عليه مسمى القول الجميل ففيه ارشاد الى حسن الخلق مع الاهل والاولاد أو مع الايتام المكفولين وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما صح عنه خيركم خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلي وعن ابن عباس في الآية لا تعمد الى مالك وما خولك الله وجعل لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تضطر الى ما في أيديهم ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم وعنه لا تسلط السفيه من ولدك على مالك وأمره ان يرزقه منه ويكسوه وعنه قال هم بنوك والنساء وعن أبي امامة مرفوعا عند ابن أبي حاتم ان النساء السفهاء التي أطاعت قيمها وعن أبي هريرة قال هم الخدم وهم شياطين الانس وقال ابن مسعود هم النساء الصبيان وعن حضرمي ان رجلا عمد فدفع ماله الى امرأته فوضعته في غير الحق فقال الله ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الآية وعن ابن جبير قال هم اليتامى والنساء وعن عكرمة قال هو مال اليتيم يكون عندك يقول لا تؤته اياه وأنفق عليه حتى يبلغ (وابتلوا اليتامى) شروع في تعيين وقت تسليم أموال

أكل من الربا قبل التحريم وقال ابن أبي حاتم قرأ على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أخبرنا ابن وهب أخبرني جرير بن حازم عن أبي اسحق الهمداني عن أم يونس يعني امرأته العالية بنت أبقع ان عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لها أم محبة أم ولد زيد بن أرقم يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم قالت نعم قالت فاني بعته عبدا الى العطاء بثمانمائة فاحتاج الى ثمنه فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة فقالت بئسما اشريت وبئسما اشتريت أبلغي زيدا انه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بطل ان لم يتب قالت فقلت أرأيت ان تركت المائتين وأخذت الستمائة قالت نعم من جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وهذا الاثر مشهور وهو دليل لمن حرم مسئلة العينة مع ما جاء فيها من الاحاديث المذكورة المقررة في كتاب الاحكام ولله الحمد والمنة ثم قال تعالى ومن عاد أي الى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه (١٧٥) فقد استوجب العقوبة وقامت عليه

أموال اليتامى اليهم وبيان شرطه بعد الامر بإيتائها على الاطلاق والنهي عنه عند كون أصحابها سفهاء الابتلاء الاختبار وقد تقدم تحقيقه وقد اختلفوا في معنى الاختبار فقيل هو ان يتأمل الوصي اخلاق يتيمه ليعلم بنجابته وحسن تصرفه فيدفع اليه ماله اذا بلغ النكاح وآنس منه الرشد وقيل معنى الاختبار ان يدفع اليه شيأ من ماله ويأمره بالتصرف فيه حتى يعلم حقيقة حاله وقيل معنى الاختبار ان يرد النظر اليه في نفقة الدار ليعرف كيف تدبيره وان كانت جارية ردا اليها ما يرد الى ربة البيت من تدبير بيتها وهذا الخطاب للاولياء والاختبار واجب على الولي قيل نزلت هذه الآية في ثابت بن رفاعة وعمه (حتى اذا بلغوا النكاح) المراد ببلوغ النكاح بلوغ الحلم لقوله تعالى واذا بلغ الأطفال منكم الحلم ومن علامات البلوغ الانبات وبلوغ خمس عشرة سنة وقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما لا يحكم لمن لم يحتلم بالبلوغ الا بعد مضي سبع عشرة سنة وهذه العلامات تعم الذكر والانثى وتختص الانثى بالحبل والحيض (فان آنستم) أبصرتم ورأيتم ومنه قوله آنس من جانب الطور نارا قال الازهري تقول العرب اذهب فاستأنس هل ترى أحدا معناه تبصر وقيل هو هنا بمعنى وجدتم وعلمتم (منهم رشدا) يضم الراء وفتحها قيل هما لغتان واختلف أهل العلم في معنى الرشد ههنا فقيل الصلاح في العقل والدين وقيل في العقل خاصة قال سعيد بن جبير والشعبي انه لا يدفع الى اليتيم ماله اذا لم يؤنس رشده وان كان شيخا قال الضحاك وان كان بلغ مائة سنة وجمهور العلماء على ان الرشد لا يكون الا بعد البلوغ وعلى انه ان لم يرشد بعد بلوغ الحلم لا يزول عنه الحجر وقال الامام أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يحجر على الحر البالغ وان كان أفسق الناس وأشدهم تبذيرا وبه قال النخعي وزفر وظاهر النظم القرآني انها لا تدفع اليهم أموالهم الا بعد بلوغ غاية هي بلوغ النكاح مقيدة هذه الغاية بايناس الرشد فلا بد من مجموع الامرين فلا تدفع الى اليتامى أموالهم قبل البلوغ وان كانوا مع رفين بالرشد ولا بعد البلوغ الا بعد ايناس

الحجة ولهذا قال فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون وقد قال أبو داود حدثنا يحيى أبو داود وحدثنا يحيى بن معين أخبرنا عبد الله بن رجاء المكي عن عبد الله بن عثمان ابن خيثم عن أبي الزبير عن جابر قال لما نزلت الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي خيثم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وانما حرمت المخابرة وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الارض والمزابنة وهي اشتراء الرطب في رؤس النخل بالتمر على وجه الارض والمحاقلة وهي اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الارض انما حرمت هذه الاشياء وما شاكلها حسما لمادة الربا لانه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف ولهذا قال الفقهاء الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية الى الربا والوسائل الموصلة اليه وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم وفوق كل ذي علم عليم وباب الربا من أشكل الابواب على كثير من أهل العلم وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثلاث ودت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الينا فيهن عهدا ننتهي اليه الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا والشريعة شاهدة بان كل حرام فالوسيلة اليه مثله لان ما أفضى الى الحرام حرام كما ان ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى

يوشك ان يرتع فيه وفى السنن عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دع ما يريبك الى مالا يريبك وفى الحديث الآخر الاثم ما حاك فى القلب وترددت فيه النفس وكرهت ان يطلع عليه الناس وفى رواية استفت قلبك وان أفتاك الناس وأفتوك وقال الثورى عن عاصم عن الشعبى عن ابن عباس قال آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا رواه البخارى عن قبيصة عنه وقال أحمد عن يحيى عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب ان عمر قال من آخر ما نزل آية الربا وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض قبل ان يفسرها لنا فدعوا الربا والريبة وقال رواه ابن ماجه وابن مردويه من طريق هياج بن بسطام عن داود بن أبى هند عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال خطبنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال انى لعلى أنهاكم عن أشياء تصلح لكم (١٧٦) وآمركم باشياء لا تصلح لكم وان من آخر القرآن نزولا آية الربا وانه قد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبينه لنا فدعوا ما يريبكم الى مالا يريبكم وقد قال ابن أبى عدى بالاسناد موقوفا فذكره ورده الحاكم فى مستدركه وقد قال ابن ماجه حدثنا عمرو بن على الصيرفى حدثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن زبيد عن ابراهيم عن مسروق عن عبد الله هو ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الربا ثلاثة وسبعون بابا ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عمرو بن على الفلاس باسناد مثله وزاد أيسرها أن ينكح الرجل أمه وان أربى الربا عرض الرجل المسلم وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال ابن ماجه حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا عبد الله ابن ادريس عن أبى سعشر عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الربا سبعون جزأ أيسرها ان ينكح الرجل أمه وقال الامام أحمد حدثنا هشيم عن عباد بن راشد عن سعيد بن أبى خيرة حدثنا الحسن منذ نحوا من أربعين أو خمسين سنة عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا قال قيل له الناس كلهم قال من لم يأكله منهم ناله من غباره وكذا رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه من غير وجه عن سعيد بن أبى خيرة عن الحسن به ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية الى المحرمات الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عائشة قالت لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فقرأهن فحرم التجارة فى الخمر وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذى من طرق عن الاعمش به وهكذا لفظ رواية البخارى عند تفسير هذه الآية فحرم التجارة وفى لفظ له عن عائشة قالت لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا قرأها رسول الله

الرشد منهم والمراد بالرشد نوعه وهو المتعلق بحسن التصرف فى أمواله وعدم التبذير بها ووضعها فى مواضعها (فادفعوا اليهم أموالهم) من غير تأخير الى حد البلوغ (ولا تأكلوها) أيها الاولياء (اسرافا وبدارا أن يكبروا) الاسراف فى اللغة الافراط ومجاوزة الحد بغير حق وقال النضر بن شميل السرف التبذير والبدار المبادرة اى لا تأكلوا أموال اليتامى أكل اسراف وأكل مبادرة لكبرهم أولا تأكلوا لاجل السرف ولاجل المبادرة أولا تأكلوها مسرفين ومبادرين لكبرهم وتقولوا ننفق أموال اليتامى فيما تشتهى قبل ان يبلغوا فينزعونها من أيدينا (ومن كان) من الاولياء (غنيا فليستعفف) أى يعف عن مال اليتيم ويمتنع من أكله (ومن كان فقيرا فليأكل) منه (بالمعروف) بين سبحانه ما يحل لهم من أموال اليتامى فأمر الغنى بالاستعفاف وتوفير مال الصبى عليه وعدم تناوله منه وسوغ للفقير ان يأكل بالمعروف واختلف أهل العلم فيه ما هو فقال قوم هو القرض اذا احتاج اليه ويقضى متى أيسر الله عليه وبه قال عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة السلمانى وابن جبير والشعبى ومجاهد وأبو العالية ومقاتل والاوزاعى وأبو وائل وقال النخعى وعطاء والحسن وقتادة لا قضاء على الفقير فيما يأكل بالمعروف وبه قال جمهور الفقهاء وهذا بالنظم القرآنى ألصق فان اباحة الاكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير قرض والمراد بالمعروف المتعارف به بين الناس فلا يترفه بأموال اليتامى ويبالغ فى التنعم بالمأكول والمشروب والملبوس ولا يدع نفسه عن سد الفاقة وستر العورة قال عطاء وعكرمة يأكل بأطراف أصابعه ولا يسرف ولا يكتسى ولا يلبس الكتان ولا الحال لكن يأكل ما يسد به الجوع ويلبس ما يستر العورة وقال الحسن يأكل من تمر نخله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه فأما الذهب والفضة فلا يأخذ منه شيأ فان أخذ وجب عليه رده وقال الكلبى المعروف هو ركوب الدابة وخدمة الخادم وليس له ان يأكل من ماله شيأ وقال قوم هو ان يأخذ من ماله بقدر قيامه وأجرة عمله ولا قضاء عليه

صلى الله عليه وسلم على الناس ثم حرم التجارة فى الخمر قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الائمة لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضى اليه من تجارة ونحو ذلك كما قال عليه السلام فى الحديث المتفق عليه لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها وقد تقدم فى حديث على وابن مسعود وغيرهما عند لعن المحلل فى تفسير قوله حتى تنكح زوجا غيره قوله صلى الله عليه وسلم لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه قالوا ومايشهد عليه ويكتب الا اذا أظهر فى صورة عقد شرعى ويكون داخله فاسدا فالاعتبار بمعناه لا بصورته لان الاعمال بالنيات وفى الصحيح ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وقد صنف الامام العلامة أبو العباس بن تيمية كتابا فى ابطال التحليل تضمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية الى كل باطل وقد كفى فى ذلك وشفى فرحمه الله ورضى عنه (يمحق الله) (١٧٧) الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يخبر تعالى انه يمحق الربا أى يذهبه اما بان يذهبه بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به بل يعدمه به فى الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة كما قال تعالى قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث وقال تعالى ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم وقال وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله الآية وقال ابن جرير فى قوله يمحق الله الربا وهذا نظير الخبر الذى روى عن عبد الله بن مسعود انه قال الربا وان كثر فان عاقبته تصير الى قل وهذا الحديث قد رواه الامام أحمد فى مسنده فقال حدثنا حجاج حدثنا شريك عن الركين بن الربيع عن

عليه وهو قول عائشة وجماعة من أهل العلم والاول أولى قال ابن عباس فى الآية نسختها ان الذين يأكلون أموال اليتامى الآية والخطاب فى هذه الآية لاولياء الايتام القائمين بما يصلحهم كالاب والجد ووصيهما وقال بعض أهل العلم المراد بالآية اليتيم ان كان غنيا وسع عليه وعف عن ماله وان كان فقيرا كان الانفاق عليه بقدر ما يحصل له وهذا القول فى غاية السقوط وعن ابن عباس قال ان كان فقيرا أخذ من فضل اللبن وأخذ من فضل القوت ولا يجاوزه وما يستر عورته من الثياب فان أيسر قضاه وان أعسر فهو فى حل أخرج البيهقى وغيره عن عمر بن الخطاب انه قال انى أنزلت نفسى من مال الله منزلة ولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان احتجت أخذت منه بالمعروف فاذا أيسرت قضيت وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن أبى حاتم عن ابن عمران رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ليس لى مال ولى يتيم فقال كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالا ومن غير ان تقى مالك بماله (فاذا) حصل مقتضى الدفع و(دفعتم اليهم أموالهم) بعد رعاية الشرائط المذكورة (فأشهدوا عليهم) انهم قد قبضوها منكم ليندفع عنكم التهم وتأمنوا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم وقيل ان الاشهاد المشروع هو على ما أنفقه عليهم الاولياء قبل رشدهم وقيل هو على رد ما استقرضه الى أموالهم وظاهر النظم القرآنى مشروعية الاشهاد على ما دفع اليهم من أموالهم وهو يعم الانفاق قبل الرشد والدفع للجميع اليهم بعد الرشد وهذا أمر ارشاد وليس للوجوب (وكفى بالله حسيبا) لاعمالكم شاهدا عليكم فى كل شئ تعملونه ومن جملة ذلك معاملتكم اليتامى فى أموالهم وفيه وعيد عظيم والباء زائدة أى كفى الله قال أبو البقاء زيدت لتدل على معنى الامر اذ التقدير اكتف بالله وهذا القول سبقه اليه مكى والزجاج (للرجال) يعنى الذكور من أولاد الميت وعصبته (نصيب) حظ (مما ترك) من الميراث (الوالدان والاقربون) المتوفون لما ذكر سبحانه حكم أموال اليتامى

(٢٣ فتح البيان نى) أبيه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الربا وان كثر فان عاقبته تصير الى قل وقد رواه ابن ماجه عن العباس بن جعفر عن عمرو بن عون عن يحيى بن أبى زائدة عن اسرائيل عن الركين بن الربيع بن عميلة الفزارى عن أبيه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما أحد أكثر من الربا الا كان عاقبة أمره الى قل وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود كما قال الامام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا الهيثم بن نافع الظاهرى حدثنى أبو يحيى رجل من أهل مكة عن فروخ مولى عثمان أن عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين خرج من المسجد فرأى طعاما منشورا فقال ما هذا الطعام فقالوا طعام جلب الينا قال بارك الله فيه وفيمن جلبه قيل يا أمير المؤمنين انه قد احتكر قال من احتكره قالوا فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر فأرسل اليهما فقال ما حملكما على احتكار طعام المسلمين قالا يا أمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع فقال عمر سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس أو بجذام فقال فروخ عند ذلك أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود في طعام أبدا وأما مولى عمر فقال انما نشتري بأموالنا ونبيع قال أبو يحيى فلقد رأيت مولى عمر مجذوما ورواه ابن ماجه من حديث الهيثم بن رافع به ولفظه من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس والجذام وقوله ويربي الصدقات قرئ بضم الياء والتخفيف من ربا الشيء يربو وارباه يربيه أي كثره ونماه بيمينه وقرئ يربي بالضم والتشديد من التربية كما قال البخاري حدثنا عبد الله ابن كثير أخبرنا كثير سمع أبا النضر حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل (١٧٨) كذا رواه في كتاب الزكاة وقال في كتاب التوحيد وقال خالد بن مخلد بن سليمان ابن بلال عن عبد الله بن دينار فذكر باسناده نحوه وقد رواه مسلم في الزكاة عن أحمد بن عثمان بن حكيم عن خالد بن مخلد فذكره قال البخاري ورواه مسلم بن أبي مريم وزيد بن أسلم وسهيل عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قلت اما رواية مسلم ابن أبي مريم فقد تفرد البخاري بذكرها وأما طريق زيد بن أسلم فرواها مسلم في صحيحه عن أبي الطاهر بن السرح عن أبي وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم به وأما حديث سهيل فرواه مسلم عن قتيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن عن سهيل به والله أعلم قال البخاري وقال ورقاء عن ابن دينار عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد أسند هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البيهقي عن الحاكم وغيره عن الاصم عن العباس المروزي عن أبي الزناد هاشم بن القاسم عن ورقاء وهو ابن عمر اليشكري عن عبد الله بن دينار عن سعيد ابن يسار عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد الى الله الا الطيب فان الله يقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل أحد وهكذا روى هذا الحديث مسلم والترمذي والنسائي جميعا عن قتيبة عن الليث بن سعد عن سعيد المقبري وأخرجه النسائي من رواية مالك عن يحيى بن سعيد الانصاري ومن طريق يحيى القطان عن محمد بن عجلان ثلاثتهم عن سعيد بن يسار أبي الحباب المدني عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره وقد روى عن أبي هريرة من وجه آخر فقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الاودي حدثنا وكيع عن عباد بن منصور حدثنا القاسم بن محمد قال سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها

وصله باحكام المواريث وكيفية قسمتها بين الورثة وأفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال على الاستقلال لاجل الاعتناء بامرهن وللايذان باصالتهن في استحقاق الارث وللمبالغة في ابطال ما عليه الجاهلية فقال (وللنساء) أي الاناث من أولاد الميت (نصيب) حظ (مما ترك الوالدان والاقربون) أي من المال المخلف عن الميت وفي ذكر القرابة بيان لعلة الميراث مع التعميم لما يصدق عليه مسمى القربة من دون تخصيص (مما قل منه أو كثر) بدل من قوله مما ترك باعادة الجار والضمير في منه راجع الى المبدل منه وهذا الامر مراد في الجملة الاولى أيضا محذوف للتعويل على المذكور وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الاموال ببعض الورثة كالخيل وآلة الحرب للرجال وتحقيق ان لكل من الفريقين حقا من كل ما دق وجل وقد أجمل سبحانه في هذه المواضع قدر النصيب المفروض ثم أنزل قوله يوصيكم الله في أولادكم فبين ميراث كل فرد جعله الله (نصيبا مفروضا) وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب والحنفية أيضا قائلون بجواز تأخيره والفرض ما فرضه الله تعالى وهو آكد من الواجب أو مقطوعا بتسليمه اليهم فلا يسقط باسقاطهم ففي الآية دليل على ان الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه بالاعراض قاله البيضاوي (واذا حضر القسمة) يعني قسمة الميراث (أولوا القربى) المراد بالقرابة هنا غير الوارثين لكونه عاصبا محجوبا أو لكونه من ذوي الارحام (و) كذا (اليتامى والمساكين) من الاجانب وانما قدم اليتامى لشدة ضعفهم وحاجتهم (فارزقوهم منه) شرع الله سبحانه انهم اذا حضروا قسمة التركة كان لهم منها رزق فيرضخ لهم المتقاسمون شيأ منها قبل القسمة وقد ذهب قوم الى ان الآية محكمة وان الامر للندب وذهب آخرون الى انها منسوخة بقوله تعالى يوصيكم الله في أولادكم والاول أرجح لان المذكور في الآية للقرابة غير الوارثين ليس هو من جملة الميراث حتى يقال انها منسوخة بآية المواريث الا انه ان قيل ان أولى القربى المذكورين هنا هم الوارثون كان للنسخ وجه وقالت طائفة

لاحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه حتى ان اللقمة لتصير مثل أحد وتصديق ذلك فى كتاب الله يمحق الله الربا ويربى الصدقات وكذا رواه أحمد عن وكيع وهو فى تفسير وكيع ورواه الترمذى عن أبى كريب عن وكيع به وقال حسن صحيح وكذا رواه الترمذى عن عباد بن منصور به ورواه أحمد أيضا عن خلف بن الوليد عن ابن المبارك عن عبد الواحد بن ضمرة وعباد بن منصور كلاهما عن أبى نضرة عن القاسم به وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عبد الملك بن اسحق عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن القاسم بن محمد عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا تصدق من طيب يقبلها الله منه فيأخذها بيمينه ويربيها كما يربى أحدكم مهره أو فصيله وان الرجل ليتصدق باللقمة فتربو فى يد الله أو قال فى كف الله حتى تكون مثل أحد فتصدقوا وهكذا رواه أحمد عن عبد الرزاق وهذا طريق غريب صحيح الاسناد ولكن لفظه عجيب والمحفوظ ما تقدم وروى عن عائشة أم المؤمنين فقال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن ثابت عن القاسم بن محمد عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله ليربى لاحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال البزار حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور حدثنا اسمعيل حدثنى أبى عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الضحاك بن عثمان عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب ولا يقبل الله الا الطيب فيتلقاها الرحمن بيده فيربيها كما يربى أحدكم فلوه أو وصيفه أو قال فصيله ثم قال لا نعلم أحدا رواه عن يحيى بن سعيد عن عمرة الا أبا أويس وقوله والله لا يحب كل كفار أثيم اى لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ولا بد من مناسبة فى ختم هذه الآية بهذه الصفة وهى ان المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ولا يكتفى بما شرع له من الكسب المباح فهو يسعى فى أكل أموال الناس بالباطل بانواع المكاسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من النعمة ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل ثم قال تعالى مادحا للمؤمنين بربهم المطيعين أمره المؤدين شكره المحسنين الى خلقه فى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة مخبرا عما أعد لهم من الكرامة وانهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله

ان هذا الرضخ لغير الوارث من القرابة واجب بمقدار ما تطيب به أنفس الورثة وهو معنى الامر الحقيقى فلا يصار الى الندب الا لقرينة والضمير فى قوله منه راجع الى المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة وقيل راجع الى ما ترك وهذا خطاب للورثة الكاملين (و) قوله (قولوا) خطاب لاولياء اليتامى اذا كان الورثة صغارا (لهم) أى للاصناف الثلاثة (قولا معروفا) وهو القول الجميل الذى ليس فيه من بما صار اليهم من الرضخ ولا أذى أو ان يعتذروا اليهم عن عدم الاعطاء أصلا وعن ابن عباس قال هى محكمة وليست بمنسوخة وقد قضى بها أبو موسى وقال مجاهد هى واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم وكذا قال الحسن والزهرى وقال ابن عباس يرضخ لهم فان كان فى ماله تقصير اعتذر اليهم فهو قوله قولا معروفا وعن عائشة انها لم تنسخ ولكن تهاون الناس فى العمل بها وعن سعيد بن المسيب قال هى منسوخة اى بآية الميراث وعن سعيد بن جبير قال ان كانوا كبارا يرضخوا وان كانوا صغارا اعتذروا اليهم (وليخش) أى ليخف على اليتامى (الذين لو تركوا) أى قاربوا ان يتركوا (من خلفهم) أى بعد موتهم (ذرية ضعافا) أولادا صغارا (خافوا عليهم) الفقر والضياع وهذا الخطاب للاوصياء كما ذهب اليه طائفة من المفسرين وفيه وعظ لهم بان يفعلوا باليتامى الذين فى حجورهم ما يحبون ان يفعل بأولادهم من بعدهم وبعضهم جعل الخطاب لمن حضر المريض من العواد عند الايصاء واليه ذهب البيضاوى أو أمر للورثة بالشفعة على من حضر القسمة من ضعفاء الاقارب واليتامى والمساكين متصورين انهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافا فما مثلهم هل يجوزون حرمانهم أو أمر للمؤمنين بأن ينظروا الورثة فلا يسرفوا فى الوصية والاول أولى (فليتقوا الله) يعنى فى الامر الذى تقدم ذكره قال طائفة المراد جميع الناس أمروا باتقاء الله فى الايتام وأولاد الناس وان لم يكونوا فى حجورهم وقال آخرون ان المراد بهم من يحضر الميت عند موته أمروا بتقوى الله والتقوى مسببة عن

ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه ناهيا لهم عما يقربهم الى سخطه ويبعدهم عن رضاه فقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله أى خافوه وراقبوه فيما تفعلون وذروا ما بقى من الربا أى اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤس الاموال بعد هذا الانذار ان كنتم مؤمنين أى بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدى ان هذا السياق نزل فى بنى عمرو بن عمير من ثقيف وبنى المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الاسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف ان تأخذ منهم فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا نؤدى الربا فى الاسلام بكسب الاسلام فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه يا أيها الذين آمنوا

اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله فقالوا نتوب الى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطى الربا بعد الانذار قال ابن جريج قال ابن عباس فأذنوا بحرب أى استيقنوا بحرب من الله ورسوله وتقدم من رواية ربيعة بن كلثوم عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب ثم قرأ فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله فمن كان مقيما على الربا لا ينزع عنه كان حقا على امام المسلمين ان يستتيبه فان نزع والا ضرب عنقه وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد ابن بشار حدثنا عبد الاعلى حدثنا هشام بن حسان عن الحسن وابن سيرين انهما قالا والله ان هؤلاء الصيارفة لآكلة الربا وانهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله ولو كان على الناس امام عادل لاستتابهم فان تابوا والا وضع فيهم السلاح وقال قتادة أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون وجعلهم بهرجا أينما ثقفوا فايا كم ومخالطة هذه البيوع من الربا فان الله قد أوسع الحلال وأطابه فلا يلجئنكم الى معصيته فاقة رواه ابن أبى حاتم وقال الربيع بن أنس أوعد الله آكل الربا بالقتل رواه ابن جرير وقال السهيلى ولهذا قالت عائشة لام محبة مولاة زيد بن أرقم فى مسئلة العينة أخبريه ان جهاده مع النبى صلى الله عليه وسلم قد أبطل الا أن يتوب فخصت الجهاد لانه ضد قوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله قال وهذا المعنى ذكره كثير قال ولكن هذا اسناده الى عائشة ضعيف ثم قال تعالى وان تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون أى بأخذ الزيادة ولا تظلمون أى بوضع رؤس الاموال أيضا بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن الحسين بن اشكاب

الخوف الذى هو الخشية فلذلك ذكرت فاء السببية فى الآية الجمع بين المبدا والمنتهى (وليقولوا) للمحتضر (قولا سديدا) صوابا من ارشاده الى التخلص عن حقوق الله وحقوق بنى آدم والى الوصية بالقرب المقربة الى الله سبحانه والى ترك التبذير بماله واحرام ورثته كما يخشون على ورثتهم من بعدهم لو تركوهم فقراء عالة يتكففون الناس وقال ابن عطية الناس صنفان يصلح لاحدهما ان يقال له عند موته مالا يصلح للآخر وذلك ان الرجل اذا ترك ورثته مستقلين بانفسهم أغنياء حسن ان يندب الى الوصية ويحمل على ان يقدم لنفسه واذا ترك ورثته ضعفاء مفلسين حسن ان يندب الى الترك لهم والاحتياط فان أجره فى قصده ذلك كاجره فى المساكين قال القرطبى وهذا التفصيل صحيح والمعنى ولتخش الذين صفتهم وحالهم انهم لو شارفوا ان يتركوا خلفهم ذرية ضعافا وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع من بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم ثم أمرهم بتقوى الله والقول السديد للمحتضرين أولا ولاولادهم من بعدهم على ما سبق (ان الذين يأكلون أموال اليتامى) استئناف جىء به لتقرير ما فصل من الاوامر والنواهى يتضمن النهى عن ظلم الايتام من الاولياء والاوصياء (ظلما) حراما بغير حق (انما يأكلون فى بطونهم نارا) المراد بأكل النار ما يكون سببا للنار تعبيرا بالمسبب عن السبب وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية والمعنى سيأكلون يوم القيامة وهذا على المجاز وقيل بطونهم أوعية للنار بان يخلق الله لهم نارا يأكلونها فى بطونهم وهذا على الحقيقة وقيل غير ذلك قال السدى يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم وانما خص الاكل بالذكر وان كان المراد سائر أنواع الاتلافات وجميع التصرفات المتلفة للمال لان الضرر يحصل بكل ذلك لليتيم فعبر عن الجميع بالاكل لانه معظم المقصود وذكر البطون للتأكيد كقولك رأيت بعينى وسمعت باذنى (وسيصلون سعيرا) بأكلهم أموال اليتامى قرئ سيصلون من

حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن شبيب بن غرقدة البارقي عن سليمان بن الاحوص عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال الا ان كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله لكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله كذا وجده سليمان بن الاحوص وقد قال ابن مردويه حدثنا الشافعي حدثنا معاذ بن المثنى أخبرنا مسدد أخبرنا أبو الاحوص حدثنا شبيب عن غرقدة عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الا ان كل ربا من ربا الجاهلية موضوع فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وكذا رواه من حديث حماد ابن سلمة عن علي بن زيد عن أبي حرة الرقاشي عن عمرو هو بن خارجة فذكره وقوله وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه اذا حل عليه الدين اما ان تقضي واما ان تربي ثم يندب الى الوضع عنه ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون أي وان تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين وقد وردت الاحاديث من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فالحديث الاول عن أبي امامة أسعد ابن زرارة قال الطبراني حدثنا عبيد الله بن محمد بن شعيب المرجاني حدثنا يحيى بن حكيم المقوم حدثنا محمد ابن بكر البرساني حدثنا عبد الله ابن أبي زياد حدثني عاصم بن عبيد الله عن أبي امامة أسعد بن زرارة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره ان يظله الله يوم لا ظل الا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه حديث آخر عن بريدة قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا محمد بن جحادة عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة قال ثم سمعته يقول من أنظر معسرا فله بكل يوم مثلاه صدقة قلت سمعتك يا رسول الله تقول من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة ثم سمعتك تقول من أنظر معسرا فله بكل يوم مثلاه صدقة قال له بكل يوم مثله صدقة قبل ان يحل الدين فاذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة حديث آخر عن أبي قتادة الحرث بن ربعي الانصاري قال أحمد حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا أبو جعفر الخطمي عن محمد بن كعب القرظي ان أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه فجاءه ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه فقال نعم هو في البيت يأكل خزيرة فناداه فقال يا فلان اخرج فقد أخبرت انك ههنا فخرج اليه فقال ما يغيبك عني فقال اني معسر وليس عندي شيء قال الله انك معسر قال نعم فبكى أبو قتادة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه

(١٨١)

التصلية لكثرة الفعل مرة بعد أخرى وقرأ الباقون بفتح الياء من صلى النار يصلاها والصلا هو التسخن بقرب النار أو بمباشرتها والسعير الجمر المشتعل وقيل النار الموقدة أخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني وابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تاج أفواههم نار فقيل يا رسول الله من هم قال ألم تر أن الله يقول ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال حدثنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ليلة أسري به قال نظرت فاذا بقوم لهم مشافر كمشافر الابل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخرا من نار فيقذف في أحدهم حتى يخرج من أسافلهم ولهم خوار وصراخ فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية وقال زيد بن أسلم هذه الآية لاهل الشرك حين كانوا لا يورثون النساء ولا يأكلون أموالهم (يوصيكم الله في أولادكم) هذا تفصيل لما أجمل في قوله تعالى للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون من أحكام المواريث وقد استدل بذلك على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة وهذه الآية بطولها ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الاحكام وأم من أمهات الآيات لاشتمالها على ما يهم من علم الفرائض وقد كان هذا العلم من أجل علوم الصحابة رضي الله عنهم وأكثر مناظراتهم فيه وسيأتي بعد كمال تفسير ما اشتمل عليه كلام الله من الفرائض ذكر بعض فضائل هذا العلم ان شاء الله تعالى وبدأ بالاولاد لانهم أقرب الورثة الى الميت وأكثر بقاء بعد المورث والمراد بالوصية في الاولاد الوصية في شأن ميراثهم وقد اختلفوا هل يدخل أولاد الاولاد أم لا فقالت الشافعية انهم يدخلون مجازا لا حقيقة وقالت الحنفية انه يتناولهم لفظ الاولاد حقيقة اذا لم يوجد أولاد الصلب ولا خلاف ان بني البنين كالبنين في الميراث مع عدمهم وانما هذا الخلاف في دلالة لفظ الاولاد على أولادهم مع عدمهم ويدخل في لفظ الاولاد من كان

وسلم يقول من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة ورواه مسلم في صحيحه حديث آخر عن حذيفة بن اليمان قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا الاخنس أحمد بن عمران حدثنا محمد بن فضيل حدثنا أبو مالك الاشجعي عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال ماذا عملت لي في الدنيا فقال ما عملت لك يارب مثقال ذرة في الدنيا أرجو لك بها قالها ثلاث مرات قال العبد عند آخرها يارب انك كنت أعطيتني فضل مال وكنت رجلا أبايع الناس وكان من خلقي الجواز فكنت أيسر على الموسر وانظر المعسر قال فيقول الله عز وجل أنا أحق من يسر اد خل الجنة وقد أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه من طرق عن ربعي بن حراش عن حذيفة زاد مسلم وعقبة بن عامر وأبي مسعود البدري عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ولفظ (١٨٢) البخاري (٢) حديث آخر عن سهل بن حنيف قال الحاكم في مستدركه

حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك حدثنا عمرو بن ثابت حدثنا عبد الله ابن محمد بن عقيل عن عبد الله ابن سهل بن حنيف ان سهلا حدثه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أعان مجاهدا في سبيل الله أو غازيا أو غارما في عسرته أو مكاتبا في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل الا ظله ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه حديث آخر عن عبد الله بن عمر قال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد عن يوسف بن صهيب عن زيد العمي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد ان تستجاب دعوته وان تكشف كربته فليفرج عن معسر انفرد به أحمد حديث آخر عن ابي مسعود وعقبة بن عمرو قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا أبو مالك عن ربعي ابن حراش عن حذيفة ان رجلا أتى به الله عز وجل فقال ماذا عملت في الدنيا فقال له الرجل ما عملت مثقال ذرة من خير فقال له ثلاثا وقال في الثالثة انى كنت أعطيتني فضلا من المال في الدنيا فكنت أبايع الناس فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال تبارك وتعالى نحن أولى بذلك منك تجاوزوا عن عبدي فغفر له قال أبو مسعود هكذا سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم وهكذا رواه مسلم من حديث أبي مالك سعد بن طارق به حديث آخر عن عمران بن حصين قال الامام أحمد حدثنا أسود بن عامر أخبرنا أبو بكر عن الاعمش عن أبي داود عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له على رجل حق فأخره كان له بكل يوم صدقة غريب من هذا الوجه وقد تقدم عن بريدة نحوه حديث آخر عن أبي اليسر كعب بن عمرو قال الامام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي قال حدثني أبو اليسر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من

الاخوات

منهم كافرا ويخرج بالسنة وكذلك يدخل القاتل عمدا ويخرج أيضا بالسنة والاجماع ويدخل فيه الخنثى قال القرطبي وأجمع العلماء انه يورث من حيث يبول فان بال منهما فمن حيث سبق فان خرج البول منهما من غير سبق أحدهما فله نصف نصيب الذكر ونصف نصيب الانثى وقيل يعطى أقل النصيبين وهو نصيب الانثى قاله يحيى بن آدم وهو قول للشافعي وهذه الآية ناسخة لما كان في صدر الاسلام من المواريثة بالحلف والهجرة والمعاقدة وقد أجمع العلماء على انه اذا كان مع الاولاد من له فرض مسمى أعطيه وكان مابقي من المال للذكر مثل حظ الانثيين للحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما بلفظ ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلاولى رجل ذكر الا اذا كان ساقطا معهم كالاخوة لام

(للذكر مثل حظ الانثيين) جملة مستأنفة لبيان الوصية في الاولاد فلابد من تقدير ضمير يرجع اليهم أي يوصيكم الله في أولادكم للذكر منهم مثل حظ الانثيين والمراد حال اجتماع الذكور والاناث واما حال الانفراد فللذكر جميع الميراث وللانثى النصف وللاثنتين فصاعدا الثلثان وتخصيص الذكر بالتنصيص على حظه لان القصد الى بيان فضله والتنبيه على ان التضعيف كاف في التفضيل فلا يحرمن بالكلية وقد اشتركا في الجهة وان فائدة التعصيب ان العاصب اذا انفرد حاز المال كله (فان كن) الاولاد المتروكات والتأنيث باعتبار الخبر أو البنات أو المولودات (نساء) ليس معهن ذكر (فوق اثنتين) أي زائدات على اثنتين على ان فوق صفة لنساء أو يكون خبرا ثانيا لكان (فلهن ثلثا ما ترك) الميت المدلول عليه بقرينة المقام وظاهر النظم القرآني ان الثلثين فريضة الثلاث من البنات فصاعدا ولم يسم للاثنتين فريضة ولهذا اختلف أهل العلم في فريضتهما فذهب الجمهور الى ان لهما اذا انفردتا عن البنتين الثلثين وذهب ابن عباس الى ان فريضتهما النصف احتج الجمهور بالقياس على الاختين فان الله سبحانه قال في شأنهما فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان فالحقوا البنتين بالاختين في استحقاقهما لثلثين كما ألحقوا

أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله وقد أخرجه مسلم في صحيحه من وجه آخر من حديث عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غلام له معه ضمامة من صحف وعلى أبي اليسر بردة ومعافري وعلى غلامه بردة ومعافري فقال له أبي يا عم اني أرى في وجهك سفعة من غضب قال أجل كان لي على فلان بن فلان الراعي مال فأتيت أهله فسلمت فقلت أثم هو قالوا لا فخرج علي ابن له جفر فقلت أين أبوك فقال سمع صوتك فدخل أريكة امي فقلت اخرج الي فقد علمت أين أنت فخرج فقلت ما حملك على ان اختبأت مني قال أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك خشيت والله ان أحدثك فأكذبك أو أعدك فأخلفك وكنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت والله معسرا قال قلت الله قال الله قلت الله قال الله ثم قال فأتى بصحيفته فمحاها بيده ثم قال فان وجدت قضاء فاقضني والا فأنت في حل فأشهد بأبصر عيناي هاتان ووضع أصبعيه على عينيه وسمع أذناي هاتان ووعاه قلبي وأشار الى نياط قلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله وذكر تمام الحديث حديث آخر عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال عبد الله ابن الامام أحمد حدثني أبو يحيى البزار محمد بن عبد الرحيم حدثنا الحسن بن أسيد بن سالم الكوفي حدثنا العباس بن الفضل الانصاري عن هشام بن زياد القرشي عن أبيه عن محجن مولى عثمان عن عثمان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اظل الله عبدا في ظله يوم لا ظل الا ظله من أنظر معسرا أو ترك لغارم حديث آخر عن ابن عباس قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا نوح بن جعونة السلمي الخراساني عن مقاتل بن حيان عن عطاء عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد وهو يقول بيده هكذا وأومأ أبو عبد الرحمن بيده الى الارض من أنظر معسرا أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم الا ان عمل الجنة حزن بربوة ثلاثا الا ان عمل النار سهل بشهوة والسعيد من وقي الفتن وما من جرعة أحب الى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد لله الا ملأ الله جوفه ايمانا تفرد به أحمد طريق آخر قال الطبراني حدثنا أحمد بن محمد البوراني قاضي الحديثة من ديار ربيعة حدثنا الحسن بن علي الصدائي حدثنا الحكم بن الجارود حدثنا ابن أبي المتئد خال ابن عيينة عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنظر معسرا الى ميسرته أنظره الله بذنبه الى توبته ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الاموال وغيرها واتيان الآخرة والرجوع اليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا

---

(١٨٣)

الاخوات اذا زدن على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلثين وقيل في الآية ما يدل على ان للبنتين الثلثين وذلك انه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث كان للابنتين اذا انفردتا الثلثان هكذا احتج بهذه الحجة اسمعيل بن عياش والمبرد قال النحاس وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط لان الاختلاف في البنتين اذا انفردتا عن البنين وأيضا للمخالف ان يقول اذا ترك بنتين وابنا فللبنتين النصف فهذا دليل على ان هذا فرضهما ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بان الله سبحانه لما فرض للبنت الواحدة النصف اذا انفردت بقوله وان كانت واحدة فلها النصف كان فرض البنتين اذا انفردتا فوق فرض الواحدة وأوجب القياس على الاختين الاقتصار للبنتين على الثلثين وقيل ان فوق زائدة والمعنى ان كن نساء اثنتين كقوله تعالى فاضربوا فوق الاعناق أي الاعناق ورد هذا النحاس وابن عطية فقالا هو خطأ لان الظروف وجميع الاسماء لا يجوز في كلام العرب ان تزاد لغير معنى قال ابن عطية ولان قوله فوق الاعناق هو الفصيح وليس فوق زائدة بل هي محكمة المعنى لان ضربة العنق انما يجب ان يكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ كما قال دريد بن الصمة اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم فهكذا كنت أضرب أعناق الابطال انتهى وأيضا لو كان لفظ فوق زائدا كما قالوا لقال فلهما ثلثا ما ترك ولم يقل فلهن ثلثا ما ترك وأوضح ما يحتج به للجمهور ما أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي في سننه عن جابر قال جاءت امرأة سعد بن الربيع الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيدا وان عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا تنكحان الا ولهما مال فقال يقضي الله في ذلك فنزلت آية الميراث يوصيكم الله في أولادكم الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى عمهما فقال أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقي فهو لك أخرجوه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل

ومجازاته اياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته فقال واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وقد روى ان هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم فقال ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال آخر ما نزل من القرآن كله واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الاول رواه ابن أبى حاتم وقد رواه ابن مردويه من حديث المسعودى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال آخر آية نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وقد رواه النسائى من حديث يزيد النحوى عن عكرمة عن عبد الله بن عباس قال آخر شئ نزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وكذا رواه الضحاك والعوفى عن ابن عباس وروى الثورى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال آخر آية نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الآية قال ابن جريج يقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم عاش بعدها تسع ليال وبدئ يوم السبت ومات يوم الاثنين رواه ابن جرير ورواه ابن عطية عن أبى سعيد قال آخر آية نزلت واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون

(يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيأ فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شئ عليم) هذه الآية الكريمة أطول آية فى القرآن العظيم وقد قال الامام أبو جعفر بن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب قال حدثنى سعيد بن المسيب انه بلغه ان أحدث القرآن بالعرش آية الدين وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس انه قال لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى

عن جابر قال الترمذى ولا يعرف الا من حديثه (وان كانت واحدة) قرئ بالرفع على ان كان تامة بمعنى فان وجدت بنت واحدة أو حدثت واحدة وقرئ بالنصب قال النحاس وهذه قراءة حسنة أى وان كانت أى المتروكة أو المولودة واحدة (فلها النصف) يعنى فرضا لها (ولابويه) أى الميت وهو كناية عن غير مذكور وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه والمراد بالابوين الاب والام والتثنية على لفظ الاب للتغليب وهذا شروع فى ارث الاصول (لكل واحد منهما السدس مما ترك) بدل من لابويه بتكرير العامل قاله الزمخشرى وفائدة هذا البدل انه لو قيل ولابويه السدس لكان ظاهرها اشتراكهما فيه ولو قيل لابويه السدسان لاوهم قسمة السدسين عليهما بالسوية وعلى خلافها وقد اختلف العلماء فى الجد هل هو بمنزلة الاب فيسقط به الاخوة أم لا فذهب أبو بكر الصديق الى انه بمنزلة الاب ولم يخالفه أحد من الصحابة أيام خلافته واختلفوا فى ذلك بعد وفاته فقال بقول أبى بكر ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعائشة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وأبو الدرداء وأبو هريرة وعطاء وطاوس والحسن وقتادة وأبو حنيفة وأبو ثور واسحق واحتجوا بمثل قوله تعالى ملة أبيكم ابراهيم وقوله يا بنى آدم وقوله صلى الله عليه وآله وسلم ارموا يا بنى اسمعيل وذهب على بن أبى طالب وزيد بن ثابت وابن مسعود الى توريث الجد مع الاخوة لابوين أو لاب ولا ينقص معهم من الثلث ولا ينقص مع ذوى الفروض من السدس فى قول زيد ومالك والاوزاعى وأبى يوسف ومحمد والشافعى وقيل يشرك بين الجد والاخوة الى السدس ولا ينقصه من السدس شيأ مع ذوى الفروض وغيرهم وهو قول ابن أبى ليلى وطائفة وذهب الجمهور الى ان الجد يسقط بنى الاخوة وروى الشعبى عن على انه أجرى بنى الاخوة فى المقاسمة مجرى الاخوة وأجمع العلماء ان للجدة السدس اذا لم تكن للميت أم وأجمعوا على انها ساقطة مع وجود الام وأجمعوا على ان الاب لا يسقط الجدة أم الام واختلفوا فى توريث الجدة وابنها حى فروى عن زيد بن ثابت وعثمان وعلى

الله عليه وسلم ان أول من يجحد آدم عليه السلام ان الله لما خلق آدم مسح ظهره فاخرج منه ما هو ذار الى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلا يزهو فقال أى رب من هذا قال هو ابنك داود قال أى رب كم عمره قال ستون عاما قال رب زد فى عمره قال لا الا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف سنة فزاده أربعين عاما فكتب عليه بذلك كتابا وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال انه قد بقى من عمرى أربعون عاما فقيل له انك قد وهبتها لابنك داود قال ما فعلت فابرز الله عليه الكتاب وأشهد عليه الملائكة وحدثنا أسود بن عامر عن حماد بن سلمة فذكره وزاد فيه فأتمها الله لداود مائة وأتمها لآدم ألف سنة وكذا رواه ابن أبى حاتم عن يوسف بن أبى حبيب عن أبى داود الطيالسى عن حماد بن سلمة هذا حديث غريب جدا وعلى بن زيد بن جدعان فى أحاديثه نكارة وقد رواه الحاكم فى مستدركه بنحوه من حديث (١٨٥) الحرث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة ومن رواية أبى داود بن أبى هند عن الشعبى عن أبى هريرة ومن طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة ومن حديث تمام بن سعد عن زيد ابن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكره بنحوه فقوله يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه هذا ارشاد منه تعالى لعباده المؤمنين اذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها وقد نبه على هذا فى آخر الآية حيث قال ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه قالت أنزلت فى السلم الى أجل معلوم وقال قتادة عن أبى حسان الاعرج عن ابن عباس قال أشهد أن السلف المضمون الى أجل مسمى ان الله أحله وأذن فيه ثم قرأ يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى رواه البخارى وثبت فى الصحيحين من رواية سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح عن عبد الله بن كثير عن أبى المنهال عن ابن عباس قال قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم الى أجل معلوم وقوله فاكتبوه أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ فان قيل فقد ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر ان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا امة أمية لا نكتب ولا نحسب فالجمع بينه وبين الامر بالكتابة فالجواب ان الدين من حيث هو غير مفتقر الى كتابة أصلا لان كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس والسنن أيضا محفوظة عن رسول الله صلى

انها لا ترث وابنها حى وبه قال مالك والثورى والاوزاعى وأبو ثور وأصحاب الرأى وروى عن عمر وابن مسعود وأبى موسى انها ترث معه وروى أيضا عن على وعثمان وبه قال شريح وجابر بن زيد وعبيد الله بن الحسن وشريك وأحمد واسحق وابن المنذر (ان كان له ولد) الولد يقع على الذكر والانثى لكنه اذا كان الموجود الذكر مع الاولاد وحده أو مع الانثى منهم فليس للجد الا الثلث وان كان الموجود أنثى كان للجد السدس بالفرض وهو عصبة فيما عدا السدس وأولاد ابن الميت كأولاد الميت (فان لم يكن له ولد) ولا ولد ابن لما تقدم من الاجماع (وورثه أبواه) منفردين عن سائر الورثة أو مع زوج (فلأمه الثلث) أى ثلث المال كما ذهب اليه الجمهور من ان الام لا تأخذ ثلث التركة الا اذا لم يكن للميت وارث غير الابوين اما لو كان معهما أحد الزوجين فليس للام الا ثلث الباقى بعد الموجودين من الزوجين وروى عن ابن عباس ان للام ثلث الاصل مع أحد الزوجين وهو يستلزم تفضيل الام على الاب فى مسئلة زوج وأبوين مع الاتفاق على انه أفضل منها عند انفرادهما عن أحد الزوجين (فان كان له اخوة) يعنى ذكورا أو اناثا اثنين فصاعدا (فلأمه السدس) يعنى لام الميت سدس التركة اذا كان معها أب واطلاق الاخوة يدل على انه لا فرق بين الاخوة لابوين أو لاحدهما وقد أجمع أهل العلم على ان الاثنين من الاخوة يقومان مقام الثلاثة فصاعدا فى حجب الام الى السدس الا ما روى عن ابن عباس انه جعل الاثنين كالواحد فى عدم الحجب وأجمعوا أيضا على ان الاختين فصاعدا كالاخوين فى حجب الام (من بعد وصية يوصى بها أو دين) يعنى ان هذه الانصبة والسهام انما تقسم بعد قضاء الدين وانفاذ وصية الميت فى ثلثه قرئ يوصى بفتح الصاد وبكسرها واختارا لكسر أبو عبيد وأبو حاتم لانه جرى ذكر الميت قبل هذا واختلف فى وجه تقديم الوصية على الدين مع كونه مقدما عليها بالاجماع فقيل المقصود تقديم الامرين على الميراث من غير قصد الى الترتيب بينهما وقيل لما كانت الوصية أقل

الله عليه وسلم والذى أمر الله بكتابته انما هو أشياء جزئية تقع بين الناس فامروا أمر ارشاد لا أمر ايجاب كما ذهب اليه بعضهم قال ابن جريج من ادان فليكتب ومن ابتاع فليشهد وقال قتادة ذكر لنا ان أبا سليمان المرعشى كان رجلا صحب كعبا فقال ذات يوم لاصحابه هل تعلمون مظلوما دعا ربه فلم يستجب له فقالوا وكيف يكون ذلك قال رجل باع بيعا الى أجل فلم يشهد ولم يكتب فلما حل ماله جحد صاحبه فدعا ربه فلم يستجب له لانه قد عصى ربه وقال أبو سعيد والشعبى والربيع بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم كان ذلك واجبا ثم نسخ بقوله فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته والدليل على ذلك أيضا الحديث الذى حكى عن شرع من قبلنا مقررا فى شرعنا ولم ينكر عدم الكتابة والاشهاد قال الامام أحمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز (١٨٦) عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ذكر أن رجلا من بنى اسرائيل سأل بعض بنى اسرائيل ان يسلفه ألف دينار فقال ائتنى بشهداء أشهدهم قال كفى بالله شهيدا قال ائتنى بكفيل قال كفى بالله كفيلا قال صدقت فدفعها اليه الى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يقدم عليه للاجل الذى أجله فلم يجد مركبا فاخذ خشبة فنقرها فادخل فيها ألف دينار وصحيفة منه الى صاحبها ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ثم قال اللهم انك قد علمت انى استسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضى بذلك وسألنى شهيدا فقلت كفى بالله شهيدا فرضى بذلك وانى قد جهدت أن أجد مركبا أبعث بها اليه بالذى اعطانى فلم أجد مركبا وانى استودعتكها فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يطلب مركبا الى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاءه بماله فاذا بالخشبة التى فيها المال فاخذها لاهله حطبا فلما كسرها للرجال

لزوما من الدين قدمت اهتماما بها وقيل قدمت لكثرة وقوعها فصارت كالامر اللازم لكل ميت وقيل قدمت لكونها حظ المساكين والفقراء وأخر الدين لكونه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان وقيل لما كانت الوصية ناشئة من جهة الميت قدمت بخلاف الدين فانه ثابت مؤدى ذكر أو لم يذكر وقيل قدمت لكونها تشبه الميراث فى كونها مأخوذة من غير عوض فربما يشق على الورثة اخراجها بخلاف الدين فان نفوسهم مطمئنة بادائه وهذه الوصية مقيدة بقوله تعالى غير مضار كما سيأتى وأخرج أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم وغيرهم عن على قال انكم تقرؤن هذه الآية من بعد وصية يوصى بها أو دين وان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى بالدين قبل الوصية وان اعيان بنى الام يتوارثون دون بنى العلات (آباؤكم وأبناؤكم) قيل خبره مقدر أى هم المقسوم عليهم أو خبره (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أى نفعه فى الدعاء لكم والصدقة عنكم كما فى الحديث الصحيح أو ولد صالح يدعو له وقال ابن عباس والحسن قد يكون الابن أفضل فيشفع فى أبيه وقال بعض المفسرين ان الابن اذا كان أرفع درجة من أبيه فى الآخرة سأل الله ان يرفع اليه أباه واذا كان الاب أرفع درجة من ابنه سأل الله ان يرفع ابنه اليه وقيل المراد النفع فى الدنيا والآخرة قاله ابن زيد وقيل المعنى انكم لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم أمن أوصى منهم فعرضكم لثواب الآخرة بامضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعا أو من ترك الوصية ووفر عليكم عرض الدنيا وقوى هذا صاحب الكشاف قال لان الجملة اعتراضية ومن حق الاعتراض ان يؤكد ما اعترض بينه وبين مناسبه (فريضة من الله) نصب على المصدر المؤكد وقيل على الحال والاول أولى والمعنى ما قدر من المواريث لاهلها فريضة واجبة (ان الله كان عليما) بقسمة المواريث (حكيما) حكم بقسمتها وبينها لاهلها وقال الزجاج عليما بالاشياء قبل خلقها حكيما فيما يقدره ويمضيه منها (ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد) منكم أو من غيركم الخطاب هنا

للرجال المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بالف دينار وقال والله ما زلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فليس عليك مركبا قبل الذى أتيت فيه قال هل كنت بعثت الى بشئ قال ألم أخبرك انى لم أجد مركبا قبل هذا الذى جئت فيه قال الله والله بكل شئ عنك الذى بعثت به فى الخشبة فانصرف بالفك راشدا وهذا اسناد صحيح وقد رواه البخارى فى سبعة مواضع من طرق وهب أخبرنى يونس عن الزهرى فقال وقال الليث بن سعد فذكره ويقال انه رواه فى بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه وقوله حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة العدل أى بالقسط والحق ولا يجور فى كتابته على أحد ولا يكتب الا ما اتفقوا عليه من غير زيادة

يكتب كما علمه الله فليكتب أى ولا يمتنع من يعرف الكتابة اذا سئل ان يكتب للناس ولا ضرورة

عليه في ذلك فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب كما جاء في الحديث ان من الصدقة ان تعين صانعا او تصنع لأخرق وفي الحديث الآخر من كتم علما يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار وقال مجاهد وعطاء واجب على الكاتب ان يكتب وقوله وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين وليتق الله في ذلك ولا يبخس منه شيأ أي لا يكتم منه شيأ فان كان الذي عليه الحق سفيها محجورا عليه بتبذير ونحوه أو ضعيفا أي صغيرا أو مجنونا أو لا يستطيع أن يمل هو ما لعي أو جهل بموضع صواب من ذلك من خطابته فليملل وليه بالعدل وقوله واستشهدوا شهيدين من رجالكم أمر بالاشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان وهذا انما يكون في الاموال وما يقصد به المال وانما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة كما قال مسلم في صحيحه (١٨٧) حدثنا قتيبة حدثنا اسمعيل بن جعفر عن عمرو ابن أبي عمرو عن المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فاني رأيتكن أكثر أهل النار فقالت امرأة منهن جزلة ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار قال تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن قالت يا رسول الله ما نقصان العقل والدين قال اما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين وقوله ممن ترضون من الشهداء فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود وهذا مقيد حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن من الامر بالاشهاد من غير اشتراط وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على ان يكون الشاهد عدلا مرضيا وقوله ان تضل احداهما يعني المرأتين اذا نسيت الشهادة فتذكر احداهما الاخرى أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الاشهاد وبهذا قرأ آخرون فتذكر بالتشديد من التذكار ومن قال ان شهادتها مع شهادتها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد والصحيح الاول والله أعلم وقوله ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا قيل معناه اذا دعوا للتحمل فعليهم الاجابة وهو قول قتادة والربيع بن أنس وهذا كقوله ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية قيل وهو مذهب الجمهور المراد بقوله ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا قيل المعنى للاداء لحقيقة قول الشهداء والشاهد حقيقة فيمن تحمل فاذا دعي لأدائها فعليه الاجابة اذا تعينت والا فهو فرض كفاية والله أعلم وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد اذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار واذا شهدت فدعيت فاجب وقد ثبت في صحيح مسلم والسنن من طريق مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن

للرجال والمراد بالولد ولد الصلب أو ولد الولد ذكرا كان أو انثى لما قدمنا من الاجماع (فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن) وهذا مجمع عليه لم يختلف أهل العلم في ان للزوج مع عدم الولد النصف ومع وجوده وان سفل الربع (من بعد وصية يوصين بها أو دين) الكلام فيه كما تقدم أي حالة كونهن غير مضارات في الوصية وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالاجماع وهذا ميراث الازواج من الزوجات وقال تعالى في ميراث الزوجات من الازواج (ولهن) أي الزوجات تعددن أولا (الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد) منهن أو من غيرهن (فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم) هذا النصيب مع الولد والنصيب مع عدمه تنفرد به الواحدة من الزوجات ويشترك فيه الاكثر عن الواحدة لا خلاف في ذلك يعني ان الواحدة من النساء لها الربع أو الثمن وكذلك لو كن أربع زوجات فانهن يشتركن في الربع أو الثمن واسم الولد يطلق على الذكر والانثى ولا فرق بين الولد وولد الابن وولد البنت في ذلك وسواء كان الولد للرجل من الزوجة أو من غيرها (من بعد وصية توصون بها أو دين) أي من بعد أحد هذين منفردا أو مضموما الى الآخر حال كونكم غير مضارين في الوصية والكلام في الوصية والدين كما تقدم (وان كان رجل) ميت (يورث) على البناء للمفعول من ورث لا من أورث (كلالة) مصدر من تكلله النسب أي أحاط به وبه سمي الاكليل لاحاطته بالرأس وهو الميت الذي لا ولد له ولا والد هذا قول أبي بكر الصديق وعمر وعلي وجمهور أهل العلم وبه قال صاحب كتاب العين وأبو منصور اللغوي وابن عرفة والقتيبي وأبو عبيد وابن الانباري وقد قيل انها اجماع وقال ابن كثير وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة وهو قول الفقهاء السبعة والائمة الاربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم وقد حكي الاجماع غير واحد وورد فيه حديث مرفوع انتهى وقال في الجمل هذا أحسن ما قيل في تفسير الكلالة ويدل على صحته ان اشتقاق الكلالة من كلت الرحم بين فلان وفلان اذا تباعدت القرابة بينهما فسميت القرابة البعيدة كلالة من

مزم عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن زيد بن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم بخير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسئلها فاما الحديث الآخر في الصحيحين ألا اخبركم بشر الشهداء الذين يشهدون قبل ان يستشهدوا وكذا قوله ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم وتسبق شهادتهم أيمانهم وفي رواية ثم يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون وهؤلاء شهود الزور وقد روى عن ابن عباس والحسن البصري انهما تعم الحالين التحمل والاداء وقوله ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله هذا من تمام الارشاد وهو الامر بكتابة الحق صغيرا كان أو كبيرا فقال ولا تسأموا أي لا تملوا ان تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة الى أجله وقوله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق (١٨٨) اذا كان مؤجلا هو ذلكم أقسط عند الله أي أعدل وأقوم للشهادة أي أثبت للشاهد اذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة لاحتمال انه لو لم يكتبه ان ينساه كما هو الواقع غالبا وأدنى أن لا ترتابوا وأقرب الى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع الى الكتاب الذي كتبتموه فينفصل بينكم بلا ريبة وقوله الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ان لا تكتبوها أي اذا كان البيع بالحاضر يدا بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها فأما الاشهاد على البيع فقد قال تعالى وأشهدوا اذا تبايعتم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثني يحيى بن عبد الله بن بكر حدثني ابن لهيعة حدثني عطاء ابن دينار عن سعيد بن جبير في قوله تعالى وأشهدوا اذا تبايعتم يعني أشهدوا على حقكم اذا كان فيه أجل أو لم يكن فيه أجل فاشهدوا على حقكم على كل حال قال وروى عن جابر بن زيد ومجاهد وعطاء والضحاك نحو ذلك وقال الشعبي والحسن هذا الامر منسوخ بقوله فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وهذا الامر محمول عند الجمهور على الارشاد والندب لا على الوجوب والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الانصاري وقد رواه الامام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري حدثني عمارة بن خزيمة الانصاري ان عمه حدثه وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابي فاستتبعه النبي صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه فاسرع النبي صلى الله عليه وسلم وأبطأ الاعرابي فطفق رجال يعترضون الاعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون ان النبي صلى الله عليه وسلم ابتاعه حتى زاد بعضهم الاعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي صلى الله عليه وسلم فنادى الاعرابي النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه والا بعته فقام النبي صلى الله

هذا الوجه وروى أبو حاتم والاثرم عن أبي عبيدة انه قال الكلالة كل من لم يرثه أب أو ابن أو أخ فهو عند العرب كلالة قال أبو عمر بن عبد البر ذكر أبي عبيدة الاخ هنا مع الاب والابن في شرط الكلالة غلط لا وجه له ولم يذكره في شرط الكلالة غيره وما روى عن أبي بكر وعمر من ان الكلالة من لا ولد له خاصة فقد رجعا عنه وقال زيد الكلالة الحي والميت جميعا وانما سموا القرابة كلالة لانهم أطافوا بالميت من جوانبه وليسوا منه ولا هو منهم بخلاف الابن والاب فانهما طرفان له فاذا ذهبا تكلله النسب وقيل ان الكلالة مأخوذة من الكلال وهو الاعياء فكأنه يصير الميراث الى الوارث عن بعد واعياء وقال ابن الاعرابي ان الكلالة بنو العم الاباعد وبالجملة من قرأ يورث كلالة بكسر الراء مشددة وهو بعض الكوفيين أو مخففة وهو الحسن وأيوب جعل الكلالة القرابة ومن قرأ يورث بفتح الراء وهم الجمهور احتمل أن يكون الكلالة الميت واحتمل أن تكون القرابة وقد روى عن علي وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس والشعبي ان الكلالة ما كان سوى الولد والوالد من الورثة قال الطبري الصواب ان الكلالة هم الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده لصحة خبر جابر قلت يا رسول الله انما يرثني كلالة أفأوصي بمالي كله قال لا انتهى وروى عن عطاء انه قال الكلالة المال وقال ابن الاعرابي وهذا قول ضعيف لا وجه له وقال صاحب الكشاف ان الكلالة تطلق على ثلاثة على من لم يخلف ولدا ولا والدا وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد انتهى وفي السمين هذه الآية مما ينبغي أن يطول فيها القول لاشكالها واضطراب أقوال الناس فيها ثم قال بعد ذكر الاختلاف فيها فقد تخلص مما تقدم انها اما الميت الموروث أو الورثة أو المال الموروث أو الارث أو القرابة ثم تكلم في اشتقاقها واعرابها والذي ذكرناه هو أحسن ما قيل فيها (أو امرأة) معطوف على رجل مقيد بما قيد به أي كانت المرأة الموروثة خالية من الوالد والولد (وله أخ أو أخت) قرأ سعد بن أبي وقاص وابن مسعود من أم والقراءة الشاذة

عليه وسلم حين سمع نداء الاعرابى قال أوليس قد ابتعته منك قال الاعرابى لا والله بعتكه فقال النبى صلى الله عليه وسلم بل قد ابتعته منك فطفق الناس يلوذون بالنبى صلى الله عليه وسلم والاعرابى وهما يتراجعان فطفق الاعرابى يقول هلم شهيدا يشهد أنى بايعتك فمن جاء من المسلمين قال للاعرابى ويلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يقول الا حقا حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبى صلى الله عليه وسلم ومراجعة الاعرابى يقول هلم شهيدا يشهد أنى بايعتك قال خزيمة أنا أشهد انك قد بايعته فاقبل النبى صلى الله عليه وسلم على خزيمة فقال بم تشهد فقال بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمة بشهادة رجلين وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب والنسائى من رواية محمد بن الوليد الزبيدى كلاهما عن الزهرى به نحوه ولكن الاحتياط هو الاشهاد لما رواه الامامان الحافظ أبو بكر بن مردويه (١٨٩) والحاكم فى مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبرى عن شعبة عن فراس عن الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ ورجل أقرض رجلا مالا فلم يشهد ثم قال الحاكم صحيح الاسناد على شرط الشيخين قال ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبى موسى وانما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الاسناد ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين وقوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد قيل معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد فيكتب هذا خلاف ما يملى ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما وقيل معناه لا يضربهما قال ابن أبى حاتم حدثنا أسيد بن عاصم حدثنا الحسين يعنى ابن حفص حدثنا سفيان عن يزيد بن أبى زياد عن مقسم عن ابن عباس فى هذه الآية ولا يضار كاتب ولا شهيد قال يأتى الرجل فيدعوهما الى الكتاب والشهادة فيقولان انا على حاجة فيقول انكما قد أمرتما ان تجيبا فليس له ان يضارهما ثم قال وروى عن عكرمة ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير والضحاك وعطية وقتادة بن حيان والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك وقوله وان تفعلوا فانه فسوق بكم أى ان خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه فانه فسق كائن بكم أى لازم بكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه وقوله واتقوا الله أى خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره ويعلمكم الله كقوله يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا وكقوله يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به وقوله والله بكل شئ عليم أى هو عالم بحقائق الامور وصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شئ من الاشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات (وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا

الشاذة كخبر الآحاد لانها ليست من قبيل الرأى وأطلق الشافعى الاحتجاج بها فيما حكاه البويطى عنه فى باب الرضاع وباب تحريم الجمع وعليه جمهور أصحابه لانها منقولة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولا يلزم من انتفاء خصوص قرآنيتها انتفاء خصوص خبريتها قاله الكرخى قال القرطبى أجمع العلماء على ان الاخوة ههنا هم الاخوة لأم قال ولا خلاف بين أهل العلم ان الاخوة للاب والام أو للاب ليس ميراثهم هكذا فدل اجماعهم على ان الاخوة المذكورين فى قوله تعالى وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين هم الاخوة لابوين أو لاب وافرد الضمير فى قوله وله أخ أو أخت لان المراد كل واحد منهما كما جرت بذلك عادة العرب اذا ذكروا اسمين مستويين فى الحكم فانهم قد يذكرون الضمير الراجع اليهما مفردا كما فى قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة وقوله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله وقد يذكرونه مثنى كما فى قوله ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما وقد قدمنا فى هذا كلاما أطول من المذكور هنا (فلكل واحد منهما السدس) مما ترك المورث (فان كانوا أكثر من ذلك) الاخ المنفرد والاخت المنفردة بواحد وذلك بان يكون الموجود اثنين فصاعدا ذكرين أو أنثيين أو ذكرا وأنثى وقد استدل بذلك على ان الذكر كالانثى من الاخوة لام لان الله شرك بينهم فى الثلث ولم يذكر فضل الذكر على الانثى كما ذكره فى البنين والاخوة لابوين أو لاب قال القرطبى وهذا اجماع ودلت الآية على ان الاخوة لام اذا استكملت بهم المسئلة كانوا أقدم من الاخوة لابوين أو لاب وذلك فى المسئلة المسماة بالحمارية وهى اذا تركت الميتة زوجا وأما وأخوين لام واخوة لابوين فان للزوج النصف وللام السدس وللاخوين لام الثلث ولا شئ للاخوة لابوين ووجه ذلك انه قد وجد الشرط الذى يرث عنده الاخوة من الام وهو كون الميت كلالة ويؤيد هذا حديث ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلاولى رجل ذكر وهو فى الصحيحين وغيرهما وقد قرر الشوكانى دلالة الآية والحديث على ذلك فى الرسالة

فرهان مقبوضة فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن امانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم) يقول تعالى وان كنتم على سفر أى مسافرين وتداينتم الى أجل مسمى ولم تجدوا كاتبا يكتب لكم قال ابن عباس أو وجدوه ولم يجدوا قرطاسا أو دواة أو قلما فرهن مقبوضة أى فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أى فى يد صاحب الحق وقد استدل بقوله فرهن مقبوضة على ان الرهن لا يلزم الا بالقبض كما هو مذهب الشافعى والجمهور واستدل بها آخرون على انه لابد أن يكون الرهن مقبوضا فى يد المرتهن وهو رواية عن الامام أحمد وذهب اليه طائفة واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على انه لا يكون الرهن مشروعا الا فى السفر قاله مجاهد وغيره وقد ثبت فى الصحيحين عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين

وسقا من شعير رهنها قوتا لأهله وفى رواية من يهود المدينة وفى رواية الشافعى عند أبى الشحم اليهودى وتقرير هذه المسائل فى كتاب الاحكام الكبير ولله الحمد والمنة وبه المستعان وقوله فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته روى ابن أبى حاتم باسناد جيد عن أبى سعيد الخدرى انه قال هذه نسخت ما قبلها وقال الشعبى اذا ائتمن بعضكم بعضا فلا بأس ان لا تكتبوا أو لا تشهدوا وقوله وليتق الله ربه يعنى المؤتمن كما جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد وأهل السنن من رواية قتادة عن الحسن عن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على اليد ما أخذت حتى تؤديه وقوله ولا تكتموا الشهادة أى لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها قال ابن عباس وغيره شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك ولهذا قال ومن يكتمها فانه آثم قلبه قال السدى يعنى فاجر قلبه وهذه كقوله تعالى ولا تكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا وهكذا قال ههنا ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم (لله ما فى السموات والارض وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير) يخبر تعالى ان له ملك السموات والارض وما فيهن وما بينهن وانه المطلع على ما فيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وان دقت وخفيت واخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما اخفوه فى صدورهم كما قال تعالى قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الارض والله على كل شئ قدير وقال يعلم السر وأخفى والآيات فى ذلك

التى سماها المباحث الدرية فى المسائل الحمارية وفى هذه المسئلة خلاف بين الصحابة فمن بعدهم معروف (فهم شركاء فى الثلث) يستوى فيه ذكرهم وأنثاهم لادلائهم بمحض الانوثة (من بعد وصية يوصى بها أو دين) الكلام فيه كما تقدم وظاهر الآية يدل على جواز الوصية بكل المال وبعضه لكن ورد فى السنة ما يدل على تقييد هذا المطلق وتخصيصه وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث سعد بن أبى وقاص قال الثلث والثلث كثير أخرجه البخارى ومسلم ففى هذا دليل على ان الوصية لا تجوز باكثر من الثلث وان النقصان عن الثلث جائز (غير مضار) أى حال كونه غير مضار لورثته بوجه من وجوه الاضرار كان يقر بشئ ليس عليه أو يوصى بوصية لا مقصد له فيها الا الاضرار بالورثة أو يوصى لوارث مطلقا أو لغيره بزيادة على الثلث ولم يجزه الورثة وهذا القيد راجع الى الوصية والدين المذكورين فهو قيد لهما فما صدر من الاقرارات بالديون او الوصايا المنهى عنها أو التى لا مقصد لصاحبها الا المضارة لورثته فهو باطل مردود لا ينفذ منه شئ لا الثلث ولا دونه قال القرطبى وأجمع على ان الوصية للوارث لا تجوز انتهى قال أبو السعود فى تفسيره وتخصيص القيد بهذا المقام لما ان الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم أخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه واللفظ له والبيهقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الرجل ليعمل بعمل اهل الخير سبعين سنة فاذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار وان الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم تلك حدود الله الى قوله عذاب مهين وفى اسناده شهر بن حوشب وفيه مقال معروف وأخرج ابن ماجه عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قطع ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث سعد بن أبى وقاص ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم أتاه يعوده

كثيرة جدا وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الاعمال وحقيرها وهذا من شدة ايمانهم وايقانهم قال الامام احمد حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن ابراهيم حدثني أبو عبد الرحمن يعني العلاء عن أبيه عن ابي هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم لله ما في السموات وما في الارض وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله كلفنا من الاعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما أقرها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في اثرها آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا الى آخره ورواه مسلم منفردا به من حديث يزيد ابن زريع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة فذكر مثله ولفظه فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا قال نعم ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا قال نعم ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به قال نعم واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين قال نعم حديث ابن عباس في ذلك قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن آدم بن سليمان سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله قال دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا فالقى الله الايمان في قلوبهم فأنزل الله آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير الى قوله وانصرنا على القوم الكافرين وهكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب واسحق بن ابراهيم ثلاثتهم عن وكيع به وزاد ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا قال قد فعلت ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا قد فعلت ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به

يعوده في مرضه فقال ان لي مالا كثيرا وليس يرثني الا ابنة لي أفاتصدق بالثلثين قال لا قال فالشطر قال لا قال فالثلث قال الثلث والثلث كثير انك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس وأخرج ابن أبي شيبة عن معاذ بن جبل قال ان الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة في حسناتكم يعني الوصية وفي الصحيحين عن ابن عباس قال وددت ان الناس غضوا من الثلث الى الربع قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثلث كثير وقال عمر بن الخطاب الثلث وسط لا بخس ولا شطط وعن علي قال لان أوصي بالخمس أحب الي من أن أوصي بالربع ولان أوصي بالربع أحب الي من ان أوصي بالثلث ومن اوصى بالثلث لم يترك (وصية من الله) نصب على المصدر المؤكد أي يوصيكم بذلك وصية كائنة من الله قال ابن عطية ويصح أن يعمل فيها مضار والمعنى ان يقع الضرر بها او بسببها فاوقع عليها تجوزا فيكون وصية على هذا مفعولا به لان اسم الفاعل قد اعتمد على ذي الحال أو لكونه منفيا معنى وفي كون هذه الوصية من الله سبحانه دليل على انه قد وصى عباده بهذه التفاصيل المذكورة في الفرائض وان كل وصية من عباده يخالفها فهي مسبوقة بوصية الله وذلك كالوصايا المتضمنة لتفضيل بعض الورثة على بعض أو المشتملة على الضرار بوجه من الوجوه (والله عليم حليم) قال الخطابي الحليم ذو الصفح والاناة الذي لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل والاشارة بقوله (تلك حدود الله) الى الاحكام المتقدمة من مال اليتامى والوصايا والانكحة والمواريث وسماها حدودا لكونها لا تجوز مجاوزتها ولا يحل تعديها (ومن يطع الله ورسوله) في قسمة المواريث وغيرها من الاحكام الشرعية كما يفيده عموم اللفظ (يدخله) بالياء والنون (جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) الذي لا فوز وراءه وهكذا قوله (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله) بالوجهين (نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) أي وله بعد ادخاله النار عذاب ذو اهانة لا يعرف كنهه روى

قال قد فعلت واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين قال قد فعلت طريق أخرى عن ابن عباس قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن حميد الاعرج عن مجاهد قال دخلت على ابن عباس فقلت يا أبا عباس كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فبكى قال أية آية قلت وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه قال ابن عباس ان هذه الآية حين أنزلت غمت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غما شديدا وغاظتهم غيظا شديدا يعني وقالوا يا رسول الله هلكنا ان كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل فاما قلوبنا فليست بايدينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا قال فنسختها هذه الآية آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله الى لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت فتجوز لهم عن حديث النفس (١٩٢) وأخذوا بالاعمال طريق أخرى عنه قال ابن جرير حدثني يونس اخبرنا ابن وهب أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن سعيد بن مرجانة سمعه يحدث انه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية لله ما في السموات وما في الارض وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء الآية فقال والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن ثم بكى ابن عمر حتى سمع نشيجه قال ابن مرجانة فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس يغفر الله لابي عبد الرحمن لعمري لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر فانزل الله بعدها لا يكلف الله نفسا الا وسعها الى آخر السورة قال ابن عباس فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها وصار الامر الى ان قضى الله عز وجل ان للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل طريق أخرى قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا اسحق حدثنا يزيد بن هرون عن سفيان بن حسين عن الزهري عن سالم ان أباه قرأ وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فدمعت عيناه فبلغ صنيعه ابن عباس فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت فنسختها الآية التي بعدها لا يكلف الله نفسا الا وسعها فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس قال البخاري حدثنا اسحق حدثنا روح حدثنا شعبة عن خالد الحذاء عن مروان الاصغر عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحسبه ابن عمر ان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه قال نسختها الآية التي بعدها وهكذا روى عن علي وابن مسعود وكعب الاحبار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة انها منسوخة بالتي بعدها وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة من طريق قتادة عن

في الضمائر في الآيتين وفي خالدا لفظ من وفي خالدين معناها قال الضحاك والمعصمة هنا الشرك وقال ابن عباس في معنى الآية من لم يرض بقسمة الله ويتعد ما حده وقال الكلبي يكفر بقسمة المواريث فاذا كفر كان حكمه حكم الكفار في الخلود في النار اذا لم يتب قبل موته واذا مات وهو مصر على ذلك كان مخلدا في النار فلا دليل في الآية للمعتزلة على ان العصاة والفساق من أهل الايمان يخلدون في النار وقد ورد في الترغيب في تعلم الفرائض وتعليمها ما اخرجه الحاكم والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعلموا الفرائض وعلموها الناس وانى امرؤ مقبوض وان العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان من يقضي بها وأخرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعلموا الفرائض وعلموها فانه نصف العلم وانه ينسى وهو أول ما ينزع من أمتي وأخرجه ابن ماجه والدارقطني ولفظهما هو أول علم ينسى وهو أول شيء ينزع من أمتي وقد روى عن عمر وابن مسعود وأنس آثار في الترغيب في الفرائض وكذلك روى عن جماعة من التابعين ومن بعدهم وهذا العلم من أعظم العلوم قدرا وأشرفها ذخرا وأفضلها ذكرا وهو ركن من أركان الشريعة وفرع من فروعها في الحقيقة اشتغل الصدر الاول من الصحابة بتحصيلها وتكلموا في فروعها وأصولها ويكفي في فضلها ان الله تولى قسمتها بنفسه وأنزلها في كتابه مبينة في محل قدسه وقد حث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على تعليمها كما ذكرنا وقد ذكر بعض المفسرين أحكام الفرائض وأسباب الارث في هذا المقام من تفسيره وانما محلها كتب الفروع وذكروا من تخاريج هذا العلم ما لم يكن له مستند الا محض الرأي وليس مجرد الرأي مستحقا للتدوين فلكل عالم رأيه واجتهاده مع عدم الدليل ولا حجة في اجتهاد بعض أهل العلم على البعض الآخر ويكفيك منها ما ثبت في الكتاب والسنة وما عرض لك مما لم يكن فيهما فاجتهد فيه برأيك عملا بحديث معاذ المشهور والسهام المحدودة في كتاب الله العزيز ستة

زرارة بن أبى أوفى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما تكلم أو تعمل وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله اذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فان عملها فاكتبوها سيئة واذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فان عملها فاكتبوها عشرا لفظ مسلم وهو فى افراده من طريق اسمعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله اذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها اكتبتها له حسنة فان عملها اكتبتها له عشر حسنات الى سبعمائة ضعف واذا هم بسيئة فلم يعملها لم اكتبها عليه فان عملها اكتبتها سيئة واحدة وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله اذا تحدث عبدى (١٩٣) بان يعمل حسنة فانا أكتبها له حسنة ما لم يعمل فاذا عملها فانا أكتبها بعشر أمثالها واذا تحدث بان يعمل سيئة فانا أغفرها له ما لم يعملها فان عملها فانا أكتبها له بمثلها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الملائكة رب ذاك ان عبدك يريد ان يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فان عملها فاكتبوها له بمثلها وان تركها فاكتبوها له حسنة وانما تركها من قراى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أحسن أحدكم سلامه فان له بكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل تفرد به مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ وبعضه فى صحيح البخارى وقال مسلم أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا خالد الاحمر عن هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول صلى

النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس كما تقدم تفسيره آنفا والذى وردت به السنة المطهرة انه يجب الابتداء بذوى الفروض المقدرة وما بقى فللعصبة والاخوات مع البنات عصبة ولبنت الابن مع البنت السدس تكملة للثلثين وكذا الاخت لاب مع الاخت لابوين وللجدة أو الجدات السدس مع عدم الام وهو للجد مع من لا يسقطه ولا ميراث للاخوة والاخوات مطلقا مع الابن او ابن الابن او الاب وفى ميراثهم مع الجد خلاف ويرثون مع البنات الا الاخوة للام ويسقط الاخ لاب مع الاخ لابوين وأولوا الارحام يتوارثون وهم أقدم من بيت المال فان تزاحمت الفرائض فالعول ولا يرث ولد الملاعنة والزانية الا من أمه وقرابتها والعكس ولا يرث المولود الا اذا استهل وميراث العتيق لمعتقه ويسقط بالعصبات وله الباقى بعد ذوى السهام ويحرم بيع الولاء وهبته ولا توارث بين أهل ملتين ولا يرث القاتل من المقتول هذا جميع ما ثبت بالسنة المطهرة فاشدد عليه يديك (واللاتى يأتين الفاحشة) لما ذكر سبحانه فى هذه السورة الاحسان الى النساء وايصال صدقاتهن اليهن وميراثهن مع الرجال ذكر التغليظ عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهم من انه يسوغ لهن ترك التعفف واللاتى جمع التى بحسب المعنى دون اللفظ وفيه لغات ويقال فى جمع الجمع اللواتى واللواى واللوات واللواء والفاحشة الفعلة القبيحة وهى مصدر كالعافية والعاقبة والمراد بها هنا الزنا خاصة واتيانها فعلها ومباشرتها (من نسائكم) هن المسلمات (فاستشهدوا عليهن أربعة) خطاب للازواج أو للحكام قال عمر بن الخطاب انما جعل الله الشهود أربعة ستارا يستتر كم به دون فواحشكم (منكم) المراد به الرجال المسلمون (فان شهدوا) عليهن بها (فامسكوهن) احبسوهن (فى البيوت) وامنعوهن من مخالطة الناس لان المرأة انما تقع فى الزنا عند الخروج والبروز الى الرجال فاذا حبست فى البيت لم تقدر على الزنا عن ابن عباس قال كانت المرأة اذا فجرت حبست فى البيت فان ماتت ماتت وان عاشت عاشت حتى نزلت الآية فى سورة النور الزانية والزانى

الله عليه وسلم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له الى سبعمائة ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وان عملها كتبت تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب وقال مسلم أيضا حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا عبد الوارث عن الجعد أبى عثمان حدثنا أبو رجاء العطاردى عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تعالى قال ان الله كتب الحسنات والسيآت ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وان هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة فان هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة ثم رواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن جعفر بن سليمان عن الجعد أبى عثمان فى هذا الاسناد بمعنى حديث عبد الرزاق زاد ومحاها الله ولا يهلك على الله الا هالك وفى حديث سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه فقالوا انا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا ان يتكلم به قال وقد وجدتموه قالوا نعم قال ذاك صريح

لفظ مسلم وهو عند مسلم أيضا من طريق الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم به وروى مسلم أيضا من حديث مغيرة عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة قال تلك صريح الايمان وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فانهم لم تنسخ ولكن الله اذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول اني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي فاما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم أو هو قوله يحاسبكم به الله يقول يخبركم وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب وهو قوله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وهو قوله ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم أي من الشك والنفاق وقد روى العوفي والضحاك عنه قريبا من هذا وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه وعن الحسن البصري انه قال هي محكمة لم تنسخ واختار ابن جرير ذلك واحتج على انه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة وانه تعالى قد يحاسب ويغفر وقد يحاسب ويعاقب بالحديث الذي رواه عند هذه الآية قائلا حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن سعيد بن هشام ح وحدثني يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية حدثنا ابن هشام كلاهما جميعا في حديثهما عن قتادة عن صفوان بن محرز قال بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف اذ عرض له رجل فقال يا ابن عمر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له هل تعرف كذا فيقول رب أعرف مرتين حتى اذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال فاني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم قال فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الاشهاد ان هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة عن قتادة به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبيه قال سألت عائشة عن هذه الآية وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فقالت ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقالت هذه متابعة الله العبد وما يصيبه من الحمى والنكبة والبضاعة يضعها في يد كمه فيفتقدها فيفزع لها ثم يجدها في ضبيبته حتى ان المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الاحمر وكذا رواه الترمذي وابن جرير من طريق حماد بن سلمة به وقال الترمذي غريب لا نعرفه الا من حديثه (قلت) وشيخه علي بن زيد بن جدعان ضعيف يغرب في رواياته وهو يروي هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد أمية بنت عبد الله عن عائشة وليس لها عنها في الكتب سواه (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته

فاجلدوا فجعل الله لهن سبيلا فمن عمل شيأ جلد وأرسل وقد روى عنه من وجوه وذهب بعض أهل العلم الى ان الحبس المذكور وكذلك الاذى باقيان مع الجلد لانه لا تعارض بينهما بل الجمع ممكن قال الخطابي ليست منسوخة لان قوله فامسكوهن يدل على ان امساكهن في البيوت ممتد الى غاية هي قوله (حتى) أي الى أن (يتوفاهن الموت) أي ملائكة الموت عند انقضاء آجالهن (أو يجعل الله لهن سبيلا) وذلك السبيل كان مجملا فلما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم رواه مسلم من حديث عبادة صار هذا الحديث بيانا لتلك الآية لا نسخا لها (واللذان يأتيانها منكم) أي الفاحشة وهي الزنا واللواط وهذان قولان للمفسرين وسيرجح الثاني بامور واللذان تثنية الذي وكان القياس أن يقال اللذيان قال سيبويه حذفت الياء ليفرق بين الاسماء الممكنة وبين الاسماء المبهمة والمراد باللذان هنا الزاني والزانية تغليبا وقيل الآية الاولى في النساء خاصة محصنات وغير محصنات والثانية في الرجال خاصة وجاء بلفظ التثنية لبيان صنفي الرجال من أحصن ومن لم يحصن فعقوبة النساء وعقوبة الرجال الاذى واختار هذا النحاس ورواه عن ابن عباس ورواه القرطبي عن مجاهد وغيره واستحسنه وقال السدي وقتادة وغيرهما الآية الاولى في النساء المحصنات ويدخل معهن الرجل المحصنون والآية الثانية في الرجل والمرأة البكرين ورجحه الطبري وضعفه النحاس وقال تغليب المؤنث على المذكر بعيد وقال ابن عطية ان معنى هذا القول تام الا ان لفظ الآية يضيق عنه وقيل كان الامساك للمرأة الزانية دون الرجل فخصت المرأة بالذكر في الامساك ثم جمعا في الايذاء قال قتادة كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعا (فآذوهما) واختلف المفسرون في تفسير الاذى فقيل التوبيخ والتعيير وقيل السب والجفاء من دون تعيير وتقريع وقيل النيل باللسان والضرب بالنعال وقد ذهب قوم الى ان الاذى منسوخ بالحد كالحبس ان

وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين * (ذكر الاحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما) * الحديث الاول قال البخاري حدثنا محمد بن كثير أخبرنا شعبة عن سليمان عن ابراهيم عن عبد الرحمن عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ الآيتين وحدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن منصور عن ابراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مهران الاعمش باسناده مثله وهو في الصحيحين من طريق الثوري عن منصور عن ابراهيم عن عبد الرحمن عنه به وهو في الصحيحين أيضا عن عبد الرحمن عن علقمة عن ابن مسعود قال عبد الرحمن ثم لقيت أبا مسعود فحدثني به وهكذا رواه أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن عاصم عن المسيب بن رافع عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه الحديث الثاني قال الامام أحمد حدثنا حسين حدثنا شيبان عن منصور عن ربعي عن خرشة بن الحر عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي وقد رواه ابن مردويه من حديث الاشجعي عن الثوري عن منصور عن ربعي عن زيد بن ظبيان عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش الحديث الثالث قال مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو اسامة حدثنا مالك بن مغول حدثنا ابن نمير وزهير بن حرب جميعا عن عبد الله بن نمير وألفاظهم متقاربة قال ابن نمير حدثنا أبي حدثنا مالك بن مغول عن الزبير بن عدي عن طلحة عن مرة عن عبد الله قال لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهي به الى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة اليها ينتهي ما يعرج من الارض فيقبض منها واليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال اذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب قال وأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا أعطي الصلوات الخمس وأعطي خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيأ المقحمات الحديث الرابع قال أحمد حدثنا اسحق بن ابراهيم الرازي حدثنا سلمة بن الفضل حدثني محمد بن اسحق عن يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله المزني عن عقبة بن عامر الجهني قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فاني أعطيتهما من كنز تحت العرش هذا اسناد حسن ولم يخرجوه في كتبهم الحديث

ان أريد به الزنا وكذا ان أريد اللواط عند الشافعي لكن المفعول به لا يرجم عنده وان كان محصنا بل يجلد ويغرب وأما الفاعل فيرجم ان كان محصنا وارادة اللواط أظهر بدليل تثنية الضمير وقيل ليس بمنسوخ كما تقدم في الحبس وقد قال بالنسخ جماعة من التابعين كمجاهد وقتادة والحسن وسعيد بن جبير والسدي (فان تابا) من الفاحشة (وأصلحا) العمل فيما بعد (فاعرضوا عنهما) أي اتركوهما وكفوا عنهما الاذى (ان الله كان توابا رحيما) وهذا كان قبل نزول الحدود في ابتداء الاسلام على ما تقدم من الخلاف فثبت الجلد على البكر بنص الكتاب وثبت الرجم على الثيب المحصن بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد صح ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجم ماعزا وكان قد أحصن (انما التوبة على الله) استئناف لبيان ان التوبة ليست بمقبولة على الاطلاق كما ينبئ عنه قوله توابا رحيما بل انما يقبل من البعض دون البعض كما بينه النظم القرآني ههنا وقيل المعنى انما التوبة على فضل الله ورحمته لعباده وقيل المعنى انما التوبة واجبة على الله وهذا على مذهب المعتزلة لانهم يوجبون على الله عز وجل واجبات من جملتها قبول توبة التائبين وقال أهل المعاني المعنى أوجب على نفسه من غير ايجاب أحد عليه لانه يفعل ما يريد وقيل على هنا بمعنى عند وقيل بمعنى من وقد اتفقت الامة على ان التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون وذهب الجمهور الى أنها تصح من ذنب دون ذنب خلافا للمعتزلة وقيل ان قوله على الله هو الخبر وقوله الآتي للذين متعلق بما تعلق به الخبر الا ان الذي يقتضيه المقام ويستدعيه النظام هو كون للذين خبرا وقال أبو حيان التقدير انما قبول التوبة مترتب على فضل الله فتكون على هنا باقية على أصلها (للذين يعملون السوء) أي العمل السيئ والمعصية متصفين (بجهالة) أو جاهلين اذا عصوا قال أبو العالية هذه للمؤمنين وقد حكى القرطبي عن قتادة انه قال أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ان كل معصية فهي بجهالة عمدا كانت

الخامس قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا ابراهيم بن اسحق الحربي أخبرنا مروان أنبأنا ابن عوانة عن أبي مالك عن ربعي عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلنا على الناس بثلاث أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كنز تحت العرش لم يعطها أحد قبلي ولا يعطاها أحد بعدي ثم رواه من حديث نعيم بن أبي هند عن ربعي عن حذيفة بنحوه الحديث السادس قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي بن نافع أنبأنا اسمعيل بن الفضل أخبرنا محمد بن حاتم بن مزيع أخبرنا جعفر ابن عون عن مالك بن مغول عن أبي اسحق عن الحرث عن علي قال لا أرى أحدا عقل الاسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة فانهما من كنز أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم من تحت العرش ورواه وكيع في تفسيره عن اسرائيل عن أبي اسحق عن عمير بن عمرو الخارقي عن علي قال ما أرى أحدا يعقل بلغه الاسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة فانهما من كنز تحت العرش الحديث السابع قال أبو عيسى الترمذي حدثنا بندار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حماد ابن سلمة عن أشعب بن عبد الرحمن الحرسي عن أبي قلابة عن أبي الاشعث الصنعاني عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله كتب كتابا قبل ان يخلق السموات والارض بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرأن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان ثم قال هذا حديث غريب وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث حماد بن سلمة به وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه الحديث الثامن قال ابن مردويه حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن مدين أخبرنا الحسن بن الجهم أخبرنا اسمعيل بن عمرو أخبرنا ابن مريم حدثني يوسف بن أبي الحجاج عن سعيد عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ضحك وقال انهما من كنز الرحمن تحت العرش (وكان

أوجهلا وحكى عن الضحاك ومجاهد أن الجهالة هنا العمد وقال عكرمة أمور الدنيا كلها جهالة ومنه قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو وقال الزجاج معنى بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية وقيل معناه انهم لا يعلمون كنه العقوبة ذكره ابن فورك وضعفه ابن عطية وعن أبي العالية ان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقولون كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة وعن ابن عباس قال من عمل السوء فهو جاهل من جهالته عمل السوء (ثم يتوبون من قريب) معناه قبل أن يحضرهم الموت كما يدل عليه قوله حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن وبه قال أبو مجلز والضحاك وعكرمة وغيرهم وقيل المراد قبل المعاينة للملائكة وغلبة المرء على نفسه ومن للتبعيض أي يتوبون بعض زمان قريب وهو ما عدا وقت حضور الموت وانما كان الزمن الذي بين فعل المعصية وبين وقت الغرغرة قريبا ولو كان سنين لان كل ما هو آت قريب وان طال قليل وفيه تنبيه على ان الانسان ينبغي له أن يتوقع في كل ساعة نزول الموت به وقيل معناه قبل المرض وهو ضعيف بل باطل لما قدمنا ولما أخرجه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر وقيل معناه يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير اصرار قال ابن عباس في الحياة والصحة وقال الضحاك كل شئ قبل الموت فهو قريب له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت فاذا تاب حين ينظر ملك الموت فليس له ذلك وقال الحسن القريب مالم يغرغر وقد وردت أحاديث كثيرة في قبول توبة العبد مالم يغرغر ذكرها ابن كثير في تفسيره ومنها الحديث الذي قدمنا ذكره والغرغرة ان يجعل المشروب في فم المريض فيردده في الحلق ولا يصل الى جوفه ولا يقدر على بلعه وذلك عند بلوغ الروح الى الحلقوم وقيل الغرغرة تردد الروح في الحلق (فأولئك يتوب الله عليهم) هو وعد منه سبحانه بأنه يتوب عليهم ويقبل توبتهم بعد بيانه ان التوبة لهم مقصورة عليهم

واذا قرأ من يعمل سوأ يجز به وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى استرجع واستكان الحديث التاسع قال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن محمد بن كوفي حدثنا أحمد بن يحيى بن حمزة حدثنا محمد بن بكر حدثنا مكي بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن أبي حميد عن أبي مليح عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش والمفصل نافلة الحديث العاشر قد تقدم في فضائل الفاتحة من رواية عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل اذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره الى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما الا أوتيته رواه مسلم والنسائي وهذا لفظه

فقوله تعالى آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه اخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت عليه هذه الآية ويحق له أن يؤمن وقد روى الحاكم في مستدركه حدثنا أبو النضر الفقيه حدثنا معاذ بن نجدة القرشي حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا أبو عقيل عن يحيى بن أبي كثير عن أنس بن مالك قال لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم آمن الرسول بما انزل اليه من ربه قال النبي صلى الله عليه وسلم حق له أن يؤمن ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقوله والمؤمنون عطف على الرسول ثم أخبر عن الجميع فقال كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله فالمؤمنون يؤمنون بالله واحد أحد فرد صمد لا اله غيره ولا رب سواه ويصدقون بجميع الانبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والانبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون الى سبيل الخير وان كان بعضهم ينسخ شريعة بعض باذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء والمرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين وقوله وقالوا سمعنا وأطعنا اى سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقبلناه وامتثلنا العمل بمقتضاه غفرانك ربنا سؤال للمغفرة والرحمة واللطف قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن حرب الموصلي حدثنا ابن فضيل عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون الى قوله غفرانك ربنا واليك المصير أي المرجع والمآب يوم الحساب قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن سنان عن حكيم عن جابر قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير قال جبريل ان الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسل لا يكلف الله نفسا الا وسعها الى آخر الآية وقوله لا يكلف الله نفسا الا وسعها أي لا يكلف أحدا فوق طاقته وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم واحسانه اليهم وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله أي هو وان حاسب وسأل لكن لا يعذب الا بما يملك الشخص دفعه فاما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها فلهذا لا يكلف به الانسان وكراهية الوسوسة السيئة من الايمان وقوله لها ما كسبت أي من خير وعليها ما اكتسبت أي من شر وذلك في الاعمال التي تدخل تحت التكليف ثم قال تعالى مرشدا عباده الى سؤاله وقد تكفل لهم بالاجابة كما أرشدهم وعلمهم ان يقولوا ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا أي بان تركنا فرضا على جهة النسيان أو فعلنا حراما

(وكان الله عليما) بما في قلوبهم من التصديق فحكم بالتوبة قبل الموت ولو بقدر فواق ناقة وقيل علم انه أتى بتلك المعصية باستيلاء الشهوة والجهالة عليه فحكم بالتوبة لمن تاب عنها وأناب عن قريب (حكيما) في صنعه بهم (وليست التوبة للذين يعملون السيآت) الذنوب فيه تصريح بما فهم من حصر التوبة فيما سبق على من عمل السوء بجهالة ثم تاب عن قريب قال أبو العالية هذه لاهل النفاق وبه قال سعيد بن جبير وقال ابن عباس يريد أهل الشرك أي الكفار وقال الثوري هم المسلمون ألا ترى انه قال ولا الذين يموتون وهم كفار (حتى) حرف ابتداء وجملة (اذا حضر أحدهم الموت) غاية لما قبلها وهذا وجه حسن وحضور الموت حضور علاماته وبلوغ المريض الى حالة السياق ومصيره مغلوبا على نفسه مشغولا بخروجها من بدنه وهو وقت الغرغرة المذكورة في الحديث السابق وهي بلوغ روحه حلقومه قاله الهروي (قال) عند مشاهدة ما هو فيه (اني تبت الآن) أي وقت حضور الموت حين لا يقبل من كافر ايمان ولا من عاص توبة قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا قيل قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة بل المانع من قبولها مشاهدة الاحوال التي لا يمكن معها الرجوع الى الدنيا بحال ولذلك لم تقبل توبة فرعون ولا ايمانه حين أدركه الغرق (ولا الذين يموتون وهم كفار) اذا تابوا في الآخرة عند معاينة العذاب قال أبو العالية هذه لاهل الشرك وروى عن الربيع مثله مع انه لا توبة لهم رأسا وانما ذكروا مبالغة في بيان عدم قبول توبة من حضرهم الموت وان وجودها كعدمها أي ليست التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء (أولئك أعتدنا لهم) أي أحضرنا وهيأنا لهم وأعددنا (عذابا أليما) مؤلما (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم) أيها الاولياء (أن ترثوا النساء) أي ذاتهن (كرها) بالفتح والضم لغتان أي مكرهين على ذلك هذا متصل بما تقدم من ذكر الزوجات والمقصود نفي الظلم عنهن ومعنى الآية يتضح بمعرفة سبب نزولها

كذلك أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلا منا بوجهه الشرعي وقد تقدم في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال قال الله نعم ولحديث ابن عباس قال والله قد فعلت وروى ابن ماجه في سننه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي عمرو الاوزاعي عن عطاء قال ابن ماجه في روايته عن ابن عباس وقال الطبراني وابن حبان عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وقد روى من طريق آخر وعلله أحمد وأبو حاتم والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا أبو بكر الهذلي عن شهر عن أم الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تجاوز لامتي عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه قال أبو بكر فذكرت ذلك للحسن فقال أجل أما يقرأ بذلك قرآنا ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا وقوله ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا أي لا تكلفنا من الاعمال الشاقة وان أطقناها كما شرعته للامم الماضية قبلنا من الاغلال والآصار التي كانت عليهم الذي بعثت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله نعم وعن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله قد فعلت وجاء الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال بعثت بالحنيفية السمحة وقوله ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به أي من التكاليف والمصائب والبلاء لا تبتلنا بما لا قبل لنا به وقد قال مكحول في قوله ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به قال الفسرية والغلمة رواه ابن أبي حاتم قال الله نعم وفي الحديث الآخر قال الله قد فعلت وقوله واعف عنا

وهو ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس قال كانوا اذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ان شاء بعضهم تزوجها وان شاؤا زوجوها وان شاؤا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها فنزلت وفي لفظ لابي داود عنه في هذه الآية كان الرجل يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد اليه صداقها وفي لفظ لابن جرير وابن أبي حاتم عنه فان كانت جميلة تزوجها وان كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها وقد روى هذا السبب بألفاظ فعناها لا يحل لكم ان تأخذوهن بطريق الارث فتزعمون انكم أحق بهن من غيركم وتحبسوهن لانفسكم (ولا) يحل لكم ان (تعضلوهن) عن ان يتزوجهن غيركم ضرارا (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) أي لتأخذوا ميراثهن اذا ماتوا وليدفعن اليكم صداقهن اذا أذنتم لهن بالنكاح وقيل الخطاب لازواج النساء اذا حبسوهن مع سوء العشرة طمعا في ارثهن أو يفتدين ببعض مهورهن واختاره ابن عطية وأصل العضل المنع اي لا تمنعوهن من الازواج ودليل ذلك قوله (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) فانها اذا أتت بفاحشة فليس للولي حبسها حتى يذهب بما لها اجماعا من الامة وانما ذلك للزوج قال الحسن اذا زنت البكر فانها تجلد مائة وتنفى ويرد الى زوجها ما أخذت منه وقال أبو قلابة اذا زنت امرأة الرجل فلا بأس ان يضارها ويشق عليها حتى تفتدي منه وقال السدي اذا فعلن ذلك فخذوا مهورهن وقال قوم الفاحشة البذاء باللسان وسوء العشرة قولا وفعلا وقال مالك وجماعة من أهل العلم للزوج ان يأخذ من الناشز جميع ما تملك هذا كله على ان الخطاب في قوله ولا تعضلوهن للازواج وقد عرفت ما قدمنا في سبب النزول أن الخطاب في قوله ولا تعضلوهن لمن خوطب بقوله لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها فيكون المعنى ولا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن أي ما آتاهن من ترثونه الا أن يأتين بفاحشة مبينة فحينئذ يجوز لكم حبسهن عن الازواج ولا يخفى ما في هذا من التعسف مع عدم جواز حبس من أتت بفاحشة عن أن تتزوج

أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا واغفر لنا أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهر على مساوينا وأعمالنا وتستعف القبيحة وارحمنا أي فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر ولهذا قالوا ان المذنب محتاج الى ثلاثة أشياء ان يعفو الله عنه فيما بينه وبينه وان يستره عن عباده فلا يفضحه بينهم وان يعصمه فلا يوقعه في نظيره وقد تقدم في الحديث ان الله قال نعم وفي الحديث الآخر قال الله قد فعلت وقوله أنت مولانا أي أنت ولينا وناصرنا وعليك توكلنا وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول لنا ولا قوة الا بك فانصرنا على القوم الكافرين أي الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك وعبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك فانصرنا عليهم واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة قال الله نعم وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس قال الله قد فعلت وقال ابن جرير حدثني مثنى بن ابراهيم حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبي اسحق ان معاذا رضي الله عنه كان اذا فرغ من هذه السورة وانصرنا على القوم الكافرين قال آمين ورواه وكيع عن سفيان عن ابي اسحق عن رجل عن معاذ بن

جبل انه كان اذا ختم البقرة قال آمين *(تفسير سورة آل عمران وهي مدنية)* لان صدرها الى ثلاث وثمانين آية منها نزل في وفد نجران وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها ان شاء الله تعالى وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة أول البقرة (بسم الله الرحمن الرحيم الم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام) قد ذكرنا الحديث الوارد في ان اسم الله الاعظم في هاتين الآيتين الله لا اله الا هو الحي القيوم والم الله لا اله الا هو الحي القيوم عند تفسير آية الكرسي وقد تقدم الكلام على قوله الم في أول سورة البقرة (١٩٩) بما أغنى عن اعادته وتقدم الكلام على قوله الله لا اله الا هو الحي القيوم في تفسير آية الكرسي وقوله تعالى نزل عليك الكتاب بالحق يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لا شك فيه ولا ريب بل هو منزل من عند الله أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا وقوله مصدقا لما بين يديه أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والانبياء فهي تصدقه بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان وهو يصدقها لانه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بارسال محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن العظيم عليه وقوله وأنزل التوراة أي على موسى بن عمران والانجيل أي على عيسى بن مريم عليهما السلام من قبل أي من قبل هذا القرآن هدى للناس أي في زمانهما وأنزل الفرقان وهو الفارق بين الهدى والضلال والحق والباطل والغي والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات والدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد اليه وينبه عليه من ذلك وقال قتادة والربيع بن أنس الفرقان ههنا القرآن واختار ابن جرير انه مصدر ههنا التقدم ذكر القرآن في قوله نزل عليك الكتاب بالحق وهو القرآن وأما ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي صالح ان المراد بالفرقان ههنا التوراة فضعيف أيضا التقدم ذكر التوراة والله أعلم وقوله تعالى ان الذين كفروا بآيات الله أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل لهم عذاب شديد أي يوم القيامة والله عزيز أي منيع الجناب عظيم السلطان ذو انتقام أي ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام (ان الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم) يخبر تعالى انه يعلم غيب السماء والارض لا يخفى عليه شيء من ذلك هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء أي يخلقكم في الارحام كما يشاء من ذكر وأنثى وحسن وقبيح وشقي وسعيد لا اله الا هو العزيز الحكيم أي هو الذي خلق وهو المستحق للالهية وحده لا شريك له وله العزة

وتستعف من الزنا وكما ان جعل قوله ولا تعضلوهن خطابا للاولياء فيه التعسف كذلك جعل قوله ولا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها خطابا للازواج فيه تعسف ظاهر مع مخالفته بسبب نزول الآية الذي ذكرناه والاولى أن يقال ان الخطاب في قوله ولا يحل لكم للمسلمين أي لا يحل لكم معاشر المسلمين ان ترثوا النساء كرها كما كانت تفعله الجاهلية ولا يحل لكم معاشر المسلمين أن تعضلوا أزواجكم أي تحبسوهن عندكم مع عدم رغبتكم فيهن بل لقصد ان تذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهور يفتدين به من الحبس والبقاء تحتكم وفي عقدتكم مع كراهتكم لهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة فحينئذ يجوز لكم مخالعتهن ببعض ما آتيتموهن والاستثناء من أعم الاحوال والاوقات أو من أعم العلل أي لا يحل لكم عضلهن في حال أو وقت أو لعلة الا في حال أو وقت أو لاجل اتيانهن بها فان السبب حينئذ يكون من جهتهن وأنتم معذورون في طلب الخلع وقال الكرخي الاستثناء متصل وعليه جرى القاضي كالكشاف وهو استثناء من زمان عام أو من علة عامة وهذا أولى لان الاول يحتاج الى حذف زمان مضاف وقيل منقطع واختاره الكواشي كأبي البقاء والمبينة قرئ بفتح الياء وكسرها أي بينت بنهيها من يدعيها وأوضحها وأظهرها أو هي بينة أي الزنا والنشوز وقرأ ابن عباس بكسر الموحدة من ابان الشيء فهو مبين (وعاشروهن بالمعروف) أي بما هو معروف في هذه الشريعة وبين أهلها من حسن المعاشرة والاجمال في القول والنفقة والمبيت وهو خطاب للازواج أو لهما وأعم وذلك مختلف باختلاف الازواج في الغنى والفقر والرفاعة والوضاعة قال السدي عاشروهن أي خالطوهن وقال ابن جرير صحفه بعض الرواة وانما هو خالقوهن وعن عكرمة حقها عليك الصحبة الحسنة والكسوة والرزق المعروف (فان كرهتموهن) بسبب من الاسباب من غير ارتكاب فاحشة ولا نشوز فعسى ان يؤل الامر الى ما تحبونه من ذهاب الكراهة وتبدلها بالمحبة فيكون في ذلك خير كثير من استدامة الصحبة وحصول الاولاد

التي لاتراد والحكمة والاحكام وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بان عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر لان الله صوره في الرحم وخلقه كما يشاء فكيف يكون الها كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله وقد تقلب في الاحشاء وتنقل من حال الى حال كما قال تعالى يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ربنا انك جامع الناس ليوم لاريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد) يخبر تعالى ان في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد (٢٠٠) ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم فمن رد ما اشتبه الى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس ولهذا قال تعالى هن أم الكتاب أي أصله الذي يرجع اليه عند الاشتباه وأخر متشابهات أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيأ آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فروى عن السلف عبارات كثيرة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وما يؤمر به ويعمل به وعن ابن عباس أيضا انه قال المحكمات قوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ والآيات بعدها وقوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه الى ثلاث آيات بعدها ورواه ابن أبي حاتم وحكاه عن سعيد بن جبير به قال حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن اسحق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية هن أم الكتاب وأخر متشابهات فقال أبو فاختة فواتح السور وقال يحيى بن يعمر الفرائض والامر والنهي والحلال والحرام وقال ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير هن أم الكتاب لانهن مكتوبات في جميع الكتب وقال مقاتل بن حيان لانه ليس من أهل دين الا يرضى بهن وقيل في المتشابهات المنسوخة والمقدم والمؤخر والامثال فيه والاقسام وما يؤمن به ولا يعمل به رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان وعن مجاهد المتشابهات يصدق بعضها بعضا وهذا انما هو في تفسير قوله كتابا متشابها مثاني هناك ذكروا ان المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار وذكر حال الابرار وحال الفجار ونحو ذلك

فيكون الجزاء على هذا محذوفا مدلولا عليه بعلته أي فان كرهتموهن فاصبروا ولا تفارقوهن بمجرد هذه النفرة (فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) عن ابن عباس قال الخير الكثير ان يعطف عليها فيرزق ولدها ويجعل الله في ولدها خيرا كثيرا وعن السدي نحوه وقال مقاتل يطلقها فتتزوج من بعده رجلا فيجعل الله له منها ولدا ويجعل الله في تزويجها خيرا كثيرا وعن الحسن نحوه وقيل في الآية ندب الى امساك المرأة مع الكراهة لها لانه اذا كره صحبتها وتحمل ذلك المكروه طلبا للثواب وأنفق عليها وأحسن هو صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج) الخطاب للرجال وأراد بالزوج الزوجة قيل لما ذكر الله في الآية الاولى مضارة الزوجات اذا أتين بفاحشة وهي اما النشوز أو الزنا بين في هذه الآية تحريم المضارة ان لم يكن من قبلها نشوز ولا زنا ونهى عن بخس الرجل حق المرأة اذا أراد طلاقها واستبدال غيرها (و) قد (آتيتم احداهن) وهي المرغوب عنها والمراد بالايتاء الالتزام والضمان كما في قوله اذا سلمتم ما آتيتم أي ما التزمتم وما ضمنتم فلا يردان حرمة الاخذ ثابتة وان لم يكن قد آتاها المسمى بل كان في ذمته أو يده والواو للحال وقيل للعطف وليس بظاهر (قنطارا) قد تقدم بيانه في آل عمران والمراد به هنا المال الكثير وفي الآية دليل على جواز المغالاة في المهور (فلا تأخذوا منه شيأ) قيل هي محكمة وقيل هي منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيأ الا أن يخافا ان لا يقيما حدود الله والاولى ان الكل محكم والمراد هنا غير المختلعة فلا يحل لزوجها أن يأخذ مما آتاها شيأ وقال ابن عباس ان كرهت امرأتك وأحببت غيرها فطلقت هذه وتزوجت تلك فاعط هذه مهرها وان كان قنطارا وأخرج سعيد بن منصور وأبو يعلى قال السيوطي بسند جيد ان عمر نهى الناس ان يزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم فاعترضت له امرأة من قريش فقالت أما سمعت ما أنزل الله يقول وآتيتم احداهن قنطارا فقال اللهم غفرا

كل

واما ههنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمناه وهو الذي نص عليه محمد بن اسحق بن يسار رحمه الله حيث قال منه آيات محكمات فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه قال والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام لا يصرفن الى الباطل ولا يحرفن عن الحق ولهذا قال تعالى فاما الذين في قلوبهم زيغ أي ضلال وخروج عن الحق الى الباطل فيتبعون ما تشابه منه أي انما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم ان يحرفوه الى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فاما المحكم فلا نصيب لهم فيه لانه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال تعالى ابتغاء الفتنة أي الاضلال لاتباعهم اما انهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم كما قالوا احتج النصارى بان القرآن قد نطق بان عيسى روح الله وكلمته القاها الى مريم روح منه وتركوا الاحتجاج بقوله ان هو الا عبد أنعمنا عليه وبقوله ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بانه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله وقوله تعالى وابتغاء تأويله أي تحريفه على ما يريدون وقال مقاتل بن حيان والسدي يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الاشياء من القرآن وقد قال الامام أحمد حدثنا اسمعيل حدثنا يعقوب عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات الى قوله اولوا الالباب فقال اذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم هكذا وقع هذا الحديث في مسند الامام أحمد من رواية ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها ليس بينهما أحد وهكذا رواه ابن ماجه من طريق اسمعيل بن علية وعبد الوهاب الثقفي كلاهما عن أيوب به ورواه أبو بكر بن المنذر في تفسيره من طريقين عن أبي النعمان محمد بن الفضل السدوسي واقبه عارم حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة به وتابع أيوب أبو عامر الخراز وغيره عن ابن أبي مليكة فرواه الترمذي عن بندار عن أبي داود الطيالسي عن أبي عامر الخراز فذكره ورواه سعيد بن منصور في سننه عن حماد بن يحيى عن عبد الله بن أبي مليكة عن عائشة ورواه ابن جرير من حديث روح بن القاسم ونافع بن عمر الجمحي كلاهما عن ابن أبي مليكة عن عائشة وقال نافع في روايته عن ابن أبي مليكة حدثتني عائشة فذكره وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية ومسلم في كتاب القدر من صحيحه وأبو داود في السنة من سننه ثلاثتهم عن القعنبي عن يزيد بن ابراهيم التستري عن ابن أبي مليكة

كل الناس أفقه من عمر فركب المنبر فقال أيها الناس اني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب قال أبو يعلى وأظنه قال فمن طابت نفسه فليفعل قال ابن كثير اسناده جيد قوي وقد رويت هذه القصة بالفاظ مختلفة هذا أحدها وقيل المعنى لو جعلتم ذلك القدر لهن صداقا فلا تأخذوا منه شيأ وذلك ان سوء العشرة اما أن يكون من قبل الزوج أو من قبل الزوجة فان كان من قبل الزوج وأراد طلاق المرأة فلا يحل له ان يأخذ شيأ من صداقها وان كان النشوز من قبل المرأة جاز له ذلك (أتأخذونه بهتانا واثما مبينا) الاستفهام للانكار والتقريع والجملة مقررة للجملة الاولى المشتملة على النهي (وكيف) كلمة تعجب (تأخذونه) انكار بعد انكار مشتمل على العلة التي تقتضي منع الاخذ وهي الافضاء والمعنى لاي وجه تفعلون مثل هذا الفعل وكيف يليق بالعاقل ان يسترد شيأ بذله لزوجته عن طيب نفس وقيل هو استفهام معناه التوبيخ والتعظيم لاخذ المهر بغير حله ثم ذكر السبب فقال (وقد أفضى بعضكم الى بعض) قال الهروي والكلبي وهو اذا كان في لحاف واحد جامع أو لم يجامع وقال الفراء الافضاء أن يخلو الرجل والمرأة وان لم يجامعها وبه قال أبو حنيفة وقال ابن عباس ومجاهد والسدي واختاره الزجاج ان الافضاء في هذه الآية الجماع ولكن الله يكني وبه قال الشافعي وأصل الافضاء في اللغة المخالطة يقال للشيء المختلط فضاء ويقال القوم فوضا وفضاء أي مختلطون لا أمير عليهم وقيل الوصول يقال أفضى اليه أي وصل (وأخذن منكم) وهذا الاسناد مجاز عقلي لان الآخذ للعهد حقيقة هو الله لكن بولغ فيه حتى جعل كأنهن الآخذات له (ميثاقا غليظا) وهو عقد النكاح ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم فانكم أخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله وقيل هو قوله تعالى فامساك بمعروف أو تسريح باحسان قاله ابن عباس وقيل هو الاولاد وكان ابن عمر اذا نكح قال نكحتك على ما أمر الله به امساك بمعروف أو تسريح باحسان قال قتادة

عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات الى قوله وما يذكر الا اولوا الالباب قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم لفظ البخارى وكذا رواه الترمذى أيضا عن بندار عن أبى داود الطيالسى عن يزيد بن ابراهيم به وقال حسن صحيح وذكر ان يزيد بن ابراهيم التسترى تفرد بذكر القاسم فى هذا الاسناد وقد رواه غير واحد عن ابن ابى مليكة عن عائشة ولم يذكر القاسم كذا قال وقد رواه ابن أبى حاتم فقال حدثنا أبى حدثنا أبو الوليد الطيالسى حدثنا يزيد بن ابراهيم التسترى وحماد بن سلمة عن ابن ابى مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم وقال ابن جرير حدثنا على بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم عن حماد بن سلمة عن عبد الرحمن بن القاسم عن ابيه عن عائشة رضى الله عنها قالت نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حذركم الله فاذا رأيتموهم فاحذروهم ورواه ابن مردويه من طريق أخرى عن القاسم عن عائشة به وقال الامام احمد حدثنا ابو كامل حدثنا حماد عن أبى غالب قال سمعت ابا امامة يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه قال هم الخوارج وفى قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه قال هم الخوارج وقد رواه ابن مردويه من غير وجه عن أبى غالب عن أبى امامة فذكره وهذا الحديث أقل اقسامه ان يكون موقوفا من قول من كلام الصحابى ومعناه صحيح فان أول بدعة وقعت فى الاسلام فتنة الخوارج وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبى صلى الله عليه وسلم غنائم حنين فكأنهم رأوا فى عقولهم الفاسدة انه لم يعدل فى القسمة فتناجوا بهذه المقالة فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة يقر الله خضرته اعدل فانك لم تعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خبت وخسرت ان لم أكن اعدل أما يأمننى على اهل الارض ولا تأمنونى فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب وفى رواية خالد بن الوليد فى قتله فقال دعه فانه يخرج من ضئضئ هذا اى من جنسه قوم يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم أجرا لمن قتلهم ثم كان ظهورهم أيام على بن أبى طالب رضى الله عنه وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت بهم وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ثم انبعثت القدرية ثم المعتزلة ثم الجهمية وغير ذلك من البدع التى

وقد كان ذلك يؤخذ عند عقد النكاح الله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن باحسان وعن أنس بن مالك نحوه وعلى هذا هو قول العاقد عند العقد وعلى الاول هو كلمة النكاح المعقودة على الصداق (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) نهى عما كانت عليه الجاهلية من نكاح نساء آبائهم اذا ماتوا وهو شروع فى بيان من يحرم نكاحه من النساء ومن لا يحرم وانما خص هذا النكاح بالنهى ولم ينتظم فى سلك نكاح المحرمات الآتية مبالغة فى الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه ومن المعلوم ان المحرمات بالمصاهرة أربع زوجة الاب وزوجة الابن وأم الزوجة وبنت الزوجة وكلها يحصل فيه التحريم بمجرد العقد وان لم يحصل دخول الا الربيبة فلا تحريم الا بشرط الدخول بأمها وهذا يستفاد من الآيات فانها لم تقيد بالدخول الا فى الربيبة على ما سيأتى والمراد آباؤكم من نسب أو رضاع (الا ما قد سلف) استثناء منقطع لان الماضى لا يستثنى من المستقبل أى لكن ما قد سلف فى الجاهلية فاجتنبوه ودعوه فانه مغفور عنه وقيل الا بمعنى بعد أى بعد ما سلف وقيل المعنى ولا ما سلف وقيل هو استثناء متصل من قوله ما نكح آباؤكم يفيد المبالغة فى التحريم باخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال يعنى ان أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوا فلا يحل لكم غيره وقيل معناه الا ما سلف من الاب فى الجاهلية من الزنا بامرأة فانه يجوز للابن تزوجها قاله ابن زيد والاول أولى ثم بين سبحانه وجه النهى عنه فقال (انه كان فاحشة ومقتا) هذه الجملة تدل على انه من أشد المحرمات وأقبحها وقد كانت الجاهلية تسميه نكاح المقت قال ثعلب سألت ابن الاعرابى عن نكاح المقت فقال هو ان يتزوج الرجل امرأة أبيه اذا طلقها أو مات عنها ويقال لهذا الضيزن وأصل المقت البغض من مقته يمقته مقتا فهو ممقوت ومقيت والعرب تسمى ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتا وكان منهم الاشعث بن قيس وأبو معيط بن أبى عمرو بن أمية وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وأحمد والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن البراء قال لقيت خالى ومعه الراية قلت أين

أخبر عنها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فى قوله وستفترق هذه الامة على ثلاثة وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة قالوا وماهم يارسول الله قال من كان على ما أنا عليه وأصحابى أخرجه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو موسى حدثنا أبو عمرو بن عاصم حدثنا المعتمر عن أبيه عن قتادة عن الحسن بن جندب بن عبد الله انه بلغه عن حذيفة أو سمعه منه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ذكر ان فى أمتى قوما يقرؤن القرآن ينثرونه نثر الدقل يتأولونه على غير تأويله لم يخرجوه وقوله تعالى ومايعلم تأويله الا الله اختلف القراء فى الوقف ههنا فقيل على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس رضى الله عنه انه قال التفسير على أربعة انحاء فتفسير لايعذر أحد فى فهمه وتفسير تعرفه العرب من لغاتها وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم وتفسير لايعلمه الا الله ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبى الشعثاء وابى نهيك (٢٠٣) وغيرهم وقال الحافظ أبو القاسم فى المعجم الكبير حدثنا هاشم بن مرثد حدثنا محمد بن اسمعيل بن عياش حدثنى أبى حدثنى ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الاشعرى انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا أخاف على أمتى الا ثلاث خلال ان يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا وان يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله ومايعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به الآية وان يروا اذا علمهم فيضيعوه ولا يالون عليه غريب جدا وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن ابراهيم حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا هشام ابن عمار حدثنا ابن أبى حاتم عن أبيه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال كان ابن عباس يقرأ ومايعلم تأويله الا الله ويقول الراسخون آمنا به وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس انهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله وحكى ابن جرير ان فى قراءة عبد الله بن مسعود ان تأويله الا عند الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به وكذا عن أبى بن كعب واختار ابن جرير هذا القول ومنهم من يقف على قوله والراسخون فى العلم وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الاصول وقالوا الخطاب بما لا يفهم بعيد وقد روى ابن ابى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس انه قال أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وقال ابن ابى نجيح عن مجاهد والراسخون فى العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به وكذا قال الربيع بن انس وقال محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير ومايعلم تأويله الذى اراد الى ما اراد الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التى لا تأويل لاحد فيها الا تأويل واحد فاتسق

تريد قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده فأمرنى ان أضرب عنقه وآخذ ماله (وساء سبيلا) أى ساء سبيل ذلك النكاح لانه يؤدى الى مقت الله وقيل التقدير ساء سبيلا وقيل منقولا فى حقه ساء سبيلا فان ألسنة الامم كافة لم تزل ناطقة بذلك فى الامصار والاعصار قيل مراتب القبح ثلاث وقد وصف الله هذا النكاح بكل ذلك فقوله فاحشة مرتبة قبحه العقلى وقوله مقتا مرتبة قبحه الشرعى وقوله ساء سبيلا مرتبة قبحه العادى وما اجتمعت فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح

(حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الاختين) قد بين الله سبحانه فى هذه الآية ما يحل وما يحرم من النساء فحرم سبعا من النسب وسبعا من الرضاع والصهر وألحقت السنة المتواترة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها ووقع عليه الاجماع والسبع المحرمات من النسب الامهات والبنات والاخوات والعمات والخالات وبنات الاخ وبنات الاخت والمحرمات بالصهر والرضاع الامهات من الرضاعة والاخوات من الرضاعة وأمهات النساء والربائب وحلائل الابناء والجمع بين الاختين فهؤلاء ست والسابعة منكوحات الآباء والثامنة الجمع بين المرأة وعمتها قال الطحاوى وكل هذا من المحكم المتفق عليه وغير جائز نكاح واحدة منهن بالاجماع الا أمهات النساء اللواتى لم يدخل بهن أزواجهن فان جمهور السلف ذهبوا الى ان الام تحرم بانعقاد على الابنة ولا تحرم الابنة الا بالدخول بالام وقال بعض السلف الام والربيبة سواء لا تحرم واحدة منهما الا بالدخول بالاخرى قالوا ومعنى قوله وأمهات نسائكم أى اللاتى دخلتم بهن وزعموا ان قيد الدخول راجع الى الامهات والربائب جميعا رواه خلاس عن على بن

لقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضا فنفذت الحجة وظهر به العذر وزاح به الباطل ودفع به الكفر وفى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس فقال اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ومن العلماء من فصل فى هذا المقام وقال التأويل يطلق ويراد به فى القرآن معنيان أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشئ وما يؤول أمره اليه ومنه قوله تعالى وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل وقوله هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله اى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد فان أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة لان حقائق الامور وكنهها لا يعلمه على الجلية الا الله عز وجل ويكون قوله والراسخون فى العلم مبتدأ ويقولون آمنا به خبره واما ان أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشئ كقوله نبئنا بتأويله أى بتفسيره فان أريد به هذا المعنى فالوقف على والراسخون فى العلم لانهم يعلمون وينهمون (٢٠٤) ماخوطبوا به بهذا الاعتبار وان لم يحيطوا علما بحقائق الاشياء على كنه ما هى عليه وعلى هذا فيكون قوله يقولون آمنا به حال منهم وساغ هذا وان يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم الى قوله يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الآية وقوله تعالى وجاء ربك والملك صفا صفا أى وجاءت الملائكة صفوفا صفوفا وقوله اخبارا عنهم انهم يقولون آمنا به أى المتشابه كل من عند ربنا اى الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له لان الجميع من عند الله وليس شئ من عند الله بمختلف ولا متضاد كقوله أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ولهذا قال تعالى وما يذكر الا أولوا الالباب أى انما يفهم ويعقل ويتدبر المعانى على وجهها أولوا العقول السليمة والفهوم المستقيمة

أبى طالب وروى عن ابن عباس وجابر وزيد بن ثابت وابن الزبير ومجاهد قال القرطبى ورواية خلاس عن على لا تقوم به الحجة ولا تصح روايته عند أهل الحديث والصحيح عنه مثل قول الجماعة وقد أجيب عن قولهم ان قيد الدخول راجع الى الامهات والربائب بان ذلك لا يجوز من جهة الاعراب أن يكون اللاتى دخلتم بهن نعتا لهما جميعا لان الخبرين مختلفان قال ابن المنذر والصحيح قول الجمهور لدخول جميع أمهات النساء فى قوله وأمهات نسائكم ومما يدل على ما ذهب اليه الجمهور ما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالابنة أم لم يدخل واذا تزوج الام فلم يدخل بها ثم طلقها فان شاء تزوج الابنة قال ابن كثير فى تفسيره مستدلا للجمهور وقد روى فى ذلك خبر غير ان فى اسناده نظرا فذكر هذا الحديث ثم قال وهذا الخبر وان كان فى اسناده ما فيه فان الاجماع حجة على صحة القول به يغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره قال فى الكشاف وقد اتفقوا على ان تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى انتهى ودعوى الاجماع مدفوعة بخلاف من تقدم واعلم انه يدخل فى لفظ الامهات أمهاتهن وجداتهن وأم الاب وجداته وان علون لان كلهن أمهات لمن ولده من ولده وان سفل ويدخل فى لفظ البنات بنات الاولاد وان سفلن والاخوات تصدق على الاخت لابوين أو لاحدهما والعمة اسم لكل أنثى شاركت أباك أو جدك فى أصليه أو أحدهما وقد تكون العمة من جهة الام وهى أخت أب الام والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك فى أصليها أو أحدهما وقد تكون الخالة من جهة الاب وهى أخت أم أبيك وبنت الاخ اسم لكل أنثى لاخيك عليها ولادة بواسطة ومباشرة وان بعدت وكذلك بنت الاخت وأمهات الرضاعة مطلق مقيد بما ورد فى السنة من كون الرضاع فى الحولين الا فى مثل قصة ارضاع

وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا فياض الرقى حدثنا عبيد الله بن يزيد سالم وكان قد أدرك أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنساوا أبا أمامة وابا الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الراسخين فى العلم فقال من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين فى العلم وقال الامام أحمد حدثنا معمر عن الزهرى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما يتدارءون فقال انما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وانما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا به وما جهلتم فكلوه الى عالمه وتقدم رواية ابن مردويه لهذا الحديث من طريق هشام بن عمار عن ابى حازم عن عمرو بن شعيب به وقد قال ابو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا زهير بن حرب حدثنا أنس بن عياض عن ابى حازم عن أبى سلمة قال لا اعلمه الا عن

ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء فى القرآن كفر قالها ثلاثا ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه الى عالمه جل جلاله وهذا اسناد صحيح ولكن فيه علة بسبب قول الراوى لا اعلمه الا عن أبى هريرة وقال ابن المنذر فى تفسيره حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد قال يقال الراسخون فى العلم المتواضعون لله المتذللون لله فى مرضاته لا يتعاظمون من فوقهم ولا يحقرون من دونهم ثم قال تعالى مخبرا عنهم انهم دعوا ربهم قائلين ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا أى لا تملها عن الهدى بعد اذ أقمتها عليه ولا تجعلها كالذين فى قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم وهب لنا من لدنك رحمة تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا وتزيدنا بها ايمانا وايقانا انك أنت الوهاب قال ابن أبى حاتم حدثنا

عمرو بن عبد الله الاودى وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب قالا جميعا حدثنا وكيع عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ام سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ثم قرأ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكار عن عبد الحميد ابن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة عن أسماء بنت يزيد بن السكن سمعتها تحدث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من دعائه اللهم مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قالت قلت يا رسول الله وان القلب ليتقلب قال نعم ما خلق الله من بنى آدم من بشر الا ان قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فان شاء أقامه وان شاء أزاغه فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد اذ هدانا ونسأله ان يهب لنا من لدنه رحمة انه هو الوهاب وهكذا رواه ابن جرير من حديث أسد بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام به مثله ورواه أيضا عن المثنى عن الحجاج بن منهال عن عبد الحميد بن بهرام به مثله وزاد قلت يا رسول الله ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى قال بلى قولى اللهم رب محمد النبى اغفر له ذنبى واذهب غيظ قلبى واجرنى من مضلات الفتن ثم قال ابن مردويه حدثنا سليمان بن احمد حدثنا محمد بن هرون بن بكار الدمشقى حدثنا العباس بن الوليد الخلال انا يزيد بن يحيى بن عبيد الله انا سعيد بن بشير عن قتادة عن حسان الاعرج عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يدعو يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قلت يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال ليس من قلب الا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن اذا شاء أن يقيمه أقامه واذا شاء أن يزيغه أزاغه أما تسمعى قوله ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب غريب من هذا الوجه ولكن أصله ثابت فى الصحيحين وغيرهما من

سالم مولى أبى حذيفة وظاهر النظم القرآنى انه يثبت حكم الرضاع بما يصدق عليه مسمى الرضاع لغة وشرعا ولكنه قد ورد تقييده بخمس رضعات فى أحاديث صحيحة عن جماعة من الصحابة وتقرير ذلك وتحقيقه يطول وقد استوفاه الشوكانى فى مصنفاته وقرر ما هو الحق فى كثير من مباحث الرضاع والاخت من الرضاع هى التى أرضعتها أمك بلبان أبيك سواء أرضعتها معك أو مع من قبلك أو بعدك من الاخوة والاخوات ويلحق بذلك بالسنة البنات منها وهن من أرضعتهن موطوأته والعمات والخالات وبنات الاخت منها الحديث يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب رواه البخارى ومسلم والاخت من الام هى التى أرضعتها أمك بلبان رجل آخر وأمهات النساء من نسب أو رضاع قد تقدم الكلام عليها على اعتبار الدخول وعدمه والربيبة بنت امرأة الرجل من غيره سميت بذلك لانه يربيها فى حجره فهى مربوبة فعيلة بمعنى مفعولة قال القرطبى واتفق الفقهاء على ان الربيبة تحرم على زوج أمها دخل بالام وان لم تكن الربيبة فى حجره وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر فقالوا لا تحرم الربيبة الا ان تكون فى حجر المتزوج فلو كانت فى بلد آخر وفارق الام فله أن يتزوج بها وقد روى ذلك عن على قال ابن المنذر والطحاوى لم يثبت ذلك عن على لان رواية ابراهيم بن عبيد عن مالك بن أوس عن على وابراهيم هذا لا يعرف وقال ابن كثير فى تفسيره بعد اخراج هذا عن على وهذا اسناد قوى ثابت الى على بن أبى طالب على شرط مسلم والحجور جمع حجر بفتح الحاء وكسرها مقدم الثوب والمراد لازم الكون فى الحجور وهو الكون فى تربيتهم والمراد انهن فى حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن كما هو الغالب وقيل المراد بالحجور البيوت أى فى بيوتكم حكاه الاثرم عن أبى عبيدة وقيل هى صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها والباء فى دخلتم بهن للتعدية أى دخلتم الخلوة بهن والمراد لازمه العادى وهو الوطء أى جامعتموهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم فى نكاح الربائب اذا فارقتموهن أو متن وهو تصريح بما دل عليه مفهوم

طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة وقد رواه أبو داود والنسائي وابن مردويه من حديث ابي عبد الرحمن المقبري زاد النسائي وابن حبان وعبد الله بن وهب كلاهما عن سعيد بن ابي أيوب حدثني عبد الله بن الوليد التجيبي عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا استيقظ من الليل قال لا اله الا أنت سبحانك استغفرك لذنبي واسألك رحمة اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعد اذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة انك أنت الوهاب لفظ ابن مردويه وقال عبد الرزاق عن مالك عن أبي عبيد مولى سليمان بن عبد الملك عن عبادة بن نسي انه أخبره انه سمع قيس بن الحرث يقول أخبرني أبو عبد الله الصنابحي انه صلى وراء أبي بكر الصديق رضي الله عنه المغرب فقرأ أبو بكر في الركعتين الاولتين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل وقرأ في الركعة الثالثة قال فدنوت منه حتى ان ثيابي لتكاد تمس ثيابه فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا الآية قال أبو عبيد وأخبرني عبادة بن نسي انه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته فقال عمر لقيس كيف أخبرتني عن ابي عبد الله قال عمر قال فأخبرته كما هنا منذ سمعتها منه وان كنت قبل ذلك لعلى غير ذلك فقال له رجل على اي شيء كان امير المؤمنين قبل ذلك قال كنت أقرأ قل هو الله احد وقد روى هذا الاثر الوليد بن مسلم عن مالك والاوزاعي كلاهما عن ابي عبيد به وروى هذا الاثر الوليد ايضا عن ابن جابر عن يحيى بن يحيى الغساني عن محمود بن لبيد عن الصنابحي انه صلى خلف أبي بكر المغرب فقرأ في الاولتين بفاتحة الكتاب وسورة قصيرة يجهر بالقراءة فلما قام الى الثالثة ابتدأ القراءة فدنوت منه حتى ان ثيابي لتمس ثيابه فقرأ هذه الآية ربنا لا تزغ قلوبنا الآية وقوله ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه اي يقولون في دعائهم انك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزي كلا بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر (ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيأ وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) يخبر تعالى عن الكفار بانهم وقود النار يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار وليس ما أوتوه في الدنيا من الاموال والاولاد بنافع لهم عند الله ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى ولا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون وقال تعالى لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد وقال ههنا ان الذين كفروا أي بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ولم ينتفعوا بوحيه الى أنبيائه لن تغني عنهم اموالهم ولا أولادهم من الله شيأ وأولئك هم

ماقبله وقد اختلف أهل العلم في معنى الدخول الموجب لتحريم الربائب فروى عن ابن عباس انه قال الدخول الجماع وهو قول طاوس وعمرو بن دينار وغيرهما وقال مالك والثوري وأبو حنيفة والاوزاعي والليث ان الزوج اذا لمس الام بشهوة حرمت عليه ابنتها وهو أحد قولي الشافعي وقال أبو السعود معنى الدخول بهن ادخالهن الستر والباء للتعدية وهي كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب وفي حكمه اللمس ونظائره انتهى ورجحه الخفاجي وردعلى البيضاوي في قوله رد اعلى أبي حنيفة تصريح بعد اشعار ردفعا للقياس بان صريح الآية غير مراد قطعا بل ما اشتهر من معناها الكنائي وقال ابن جرير الطبري وفي اجماع الجميع على ان خلوة الرجل بامرأته لا تحرم ابنتها عليه اذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها وقبل النظر الى فرجها بشهوة ما يدل على ان معنى ذلك هو الوصول اليها بالجماع انتهى وهكذا حكى الاجماع القرطبي فقال واجمع العلماء على ان الرجل اذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها واختلفوا في النظر فقال الكوفيون اذا نظر الى فرجها الشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة وكذا قال الثوري ولم يذكر الشهوة وقال ابن أبي ليلى لا تحرم بالنظر حتى يلمس وهو قول الشافعي والذي ينبغي التعويل عليه في مثل هذا الخلاف هو النظر في معنى الدخول شرعا أو لغة فان كان خاصا بالجماع فلا وجه لالحاق غيره به من لمس أو نظر أو غيرهما وان كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك وأما الربيبة في ملك اليمين فقد روى عن عمر بن الخطاب انه كره ذلك وقال ابن عباس أحلتهما آية وحرمتهما آية ولم أكن لافعله وقال ابن عبد البر لا خلاف بين العلماء انه لا يحل ان يطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين لان الله حرم ذلك في النكاح قال وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم وملك اليمين عندهم تبع للنكاح الا ما روى عن عمر وابن عباس وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا

وقود النار اى حطبها الذى تسجر به وتوقد به كقوله انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا ابن لهيعة أخبرنى ابن الهاد عن هند بنت الحرث عن ام الفضل أم عبد الله بن عباس قالت بينما نحن بمكة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فنادى هل بلغت اللهم هل بلغت ثلاثا فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال نعم ثم أصبح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليظهرن الاسلام حتى يرد الكفر الى مواطنه وليخوضن رجال البحار بالاسلام وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرؤن ثم يقولون قرأنا وعلمنا فمن هذا الذى هو خير منا فهل فى أولئك من خير قالوا يا رسول الله فمن أولئك قال أولئك منكم وهم وقود النار وقد رواه ابن مردويه من حديث يزيد بن عبد الله بن الهاد عن هند بنت الحرث امرأة عبد الله بن شداد عن ام الفضل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة بمكة فقال هل بلغت يقولها ثلاثا فقام عمر بن الخطاب وكان أواها فقال اللهم نعم وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر فقال النبى صلى الله عليه وسلم ليظهرن الايمان حتى يرد الكفر الى مواطنه وليخوضن رجال البحار بالاسلام وليأتين على الناس زمان يقرؤن القرآن فيتقرؤن يقولون قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذى هو خير منا قالوا يا رسول الله من أولئك قال أولئك منكم وأولئك هم وقود النار ثم رواه من طريق موسى بن عبيدة عن محمد بن ابراهيم عن بنت الهاد عن العباس ابن عبد المطلب بنحوه وقوله تعالى كدأب آل فرعون قال الضحاك عن ابن عباس كصنيع آل فرعون وكذا روى عن عكرمة ومجاهد وأبى مالك والضحاك وغير واحد ومنهم من يقول كسنة آل فرعون وكشبه آل فرعون والالفاظ متقاربة والدأب بالتسكين والتحريك كنهر ونهر وهو الصنيع والحال والشان والامر والعادة كما يقال ولا يزال هذا دأبى ودأبك وقال امرؤ القيس

وقوفا بها صحبى على مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجمل كدأبك من أم الحويرث قبلها * وجارتها أم الرباب بماسل

والمعنى كعادتك فى ام الحويرث حين أهلكت نفسك فى حبها وبكيت دارها ورسمها والمعنى فى الآية ان الكافرين لا تغنى عنهم الاموال ولا الاولاد بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاؤا به من آيات الله وحججه والله شديد العقاب أى شديد الاخذ أليم العذاب لا يمتنع منه أحد ولا يفوته شئ بل هو الفعال لما يريد الذى قد غلب كل شئ لا اله غيره ولا رب سواه (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار) يقول تعالى قل يا محمد للكافرين

ولا من تبعهم انتهى والحلائل جمع حليلة وهى الزوجة سميت بذلك لانها تحل مع الزوج حيث حل فهى فعيلة بمعنى فاعلة وذهب الزجاج وقوم الى انها من لفظة الحلال فهى حليلة بمعنى محللة وقيل لان كل واحد منهما يحل ازار صاحبه وقد أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الابناء وما عقد عليه الابناء على الآباء سواء كان مع العقد وطء أم لم يكن لقوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء وقوله وحلائل أبنائكم واختلف الفقهاء فى العقد اذا كان فاسدا هل يقتضى التحريم أم لا كما هو مبين فى كتب الفروع قال ابن المنذر أجمع كل من يحفظ عنه العلم من علماء الامصار ان الرجل اذا وطئ امرأة بنكاح فاسد انها تحرم على أبيه وابنه وعلى أجداده وأجمع العلماء على ان عقد الشراء على الجارية لا يحرمها على أبيه وابنه فاذا اشترى جارية فلمس أو قبل حرمت على أبيه وابنه لأعلمهم يختلفون فيه فوجب تحريم ذلك تسليما لهم ولما اختلفوا فى تحريمها بالنظر دون اللمس لم يجز ذلك لاختلافهم قال ولا يصح عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلاف ما قلناه وقوله الذين من أصلابكم وصف للابناء أى دون من تبنيتم من أولاد غيركم كما كانوا يفعلونه فى الجاهلية ومنه قوله تعالى فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ومنه قوله تعالى وما جعل أدعياءكم أبناءكم ومنه ما كان محمد أبا أحد من رجالكم فلكم نكاح حلائلهم وأما زوجة الابن من الرضاع فقد ذهب الجمهور الى انها تحرم على أبيه وقد قيل انها اجماع مع ان الابن من الرضاع ليس من أولاد الصلب ووجه ما صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من قوله يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وان كان مقتضى مفهوم الآية تحليلهن ولا خلاف فى ان أولاد الاولاد وان سفلوا بمنزلة أولاد الصلب فى تحريم نكاح نسائهم على آبائهم وقد اختلف أهل العلم فى وطء الزنا هل يقتضى التحريم أم لا فقال أكثر أهل العلم اذا أصاب رجل امرأة بزنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك وكذلك

ستغلبون أى فى الدنيا وتحشرون أى يوم القيامة الى جهنم وبئس المهاد وقد ذكر محمد بن اسحق بن يسار عن عاصم بن عمر وبن قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع الى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال يا معشر اليهود أسلموا قبل ان يصيبكم الله بما أصاب قريشا فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك ان قتلت نفرا من قريش كانوا اغمارا لا يعرفون القتال انك والله لو قاتلتنا لعرفت انا نحن الناس وانك لم تلق مثلنا فأنزل الله فى ذلك من قولهم قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد الى قوله لعبرة لاولى الابصار وقد رواه محمد بن اسحق أيضا عن محمد بن أبى محمد عن سعيد وعكرمة عن ابن عباس فذكره ولهذا قال قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أى دلالة على ان الله معز دينه وناصر رسوله ومظهر كلمته ومعل أمره فى فئتين أى طائفتين (٢٠٨) التقتا أى للقتال فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة وهم مشركو قريش يوم بدر وقوله يرونهم مثليهم قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير يرى المشركون يوم بدر أن المسلمين مثليهم فى العدد رأى أعينهم أى جعل الله ذلك فى مرأى منهم وسببا لنصرة الاسلام عليهم وهذا لا اشكال عليه الا من جهة واحدة وهى ان المشركين بعثوا عمير بن سعد يومئذ قبل القتال يجوس لهم المسلمين فأخبرهم بانهم ثلثمائة يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا وهكذا كان الامر كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم والقول الثانى ان المعنى فى قوله تعالى يرونهم مثليهم رأى العين أى يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم أى ضعفيهم فى العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم وهذا الاشكال فيه على ما رواه العوفى عن ابن عباس ان المؤمنين كانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين وكان هذا القول مأخوذا من ظاهر هذه الآية ولكنه خلاف المشهور توقف عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس وخلاف المعروف عند الجمهور ان المشركين كانوا ما بين تسعمائة الى ألف كما رواه محمد بن اسحق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأل ذلك العبد الاسود لبنى الحجاج عن عدة قريش قال كثير قال كم ينحرون كل يوم قال يوما تسعا ويوما عشرا قال النبى صلى الله عليه وسلم القوم ما بين تسعمائة الى الف وروى أبو اسحق السبيعى عن جارية عن على رضى الله عنه قال كانوا ألفا وكذا قال ابن مسعود والمشهور انهم كانوا ما بين التسعمائة الى الالف وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين وعلى هذا فيشكل القول والله أعلم لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحا كما تقول عندى ألف وأنا محتاج الى مثليها وتكون محتاجا الى ثلاثة آلاف كذا قال وعلى هذا فلا اشكال لكن بقى سؤال آخر وهو وارد

لا تحرم عليه امرأته اذا زنى بأمها أو ابنتها وحسبه أن يقام عليه الحد وكذلك يجوز له عندهم أن يتزوج بأم من زنى بها وبابنتها وقالت طائفة من اهل العلم ان الزنى يقتضى التحريم حكى ذلك عن عمران بن حصين والشعبى وعطاء والحسن والثورى واحمد واسحق واصحاب الرأى وحكى ذلك عن مالك والصحيح عنه كقول الجمهور واحتج الجمهور بقوله تعالى وأمهات نسائكم وبقوله وحلائل ابنائكم والموطوأة بالزنا لا يصدق عليها انها من نسائهم ولا من حلائل ابنائهم وقد اخرج الدارقطنى عن عائشة قالت سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن رجل زنى بامرأة فاراد ان يتزوجها أو ابنتها فقال لا يحرم الحرام الحلال واحتج المحرمون بما روى فى قصة جريج الثابتة فى الصحيح انه قال يا غلام من ابوك فقال فلان الراعى فنسب الابن نفسه الى ابيه من الزنا وهذا احتجاج ساقط واحتجوا ايضا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينظر الله الى رجل نظر الى فرج امرأة وابنتها ولم يفصل بين الحلال والحرام ويجاب عنه بان هذا مطلق مقيد بما ورد من الادلة الدالة على ان الحرام لا يحرم الحلال ثم اختلفوا فى اللواط هل يقتضى التحريم أم لا فقال الثورى اذا لاط بالصبى حرمت عليه امه وهو قول أحمد بن حنبل قال اذا تلوط بابن امرأته او أبيها او أخيها حرمت عليه امرأته وقال الاوزاعى اذا لاط بغلام وولد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر ان يتزوجها لانها بنت من قد دخل به ولا يخفى ما فى قول هؤلاء من الضعف والسقوط النازل عن قول القائلين بان وطء الحرام يقتضى التحريم بدرجات لعدم صلاحية ما تمسك به أولئك من الشبه على ما زعمه هؤلاء من اقتضاء اللواط للتحريم والجمع بين الاختين من نسب أو رضاع يشمل الجمع بينهما بالنكاح والوطء بملك اليمين وقيل ان الآية خاصة بالجمع فى النكاح لا فى ملك اليمين وأما فى الوطء بالملك فلا حق بالنكاح وقد اجمعت الامة على منع جمعهما فى عقد نكاح واختلفوا فى الاختين بملك اليمين فذهب كافة العلماء الى انه لا يجوز الجمع بينهما فى الوطء بالملك وأجمعوا على انه يجوز الجمع بينهما فى الملك فقط وقد

على القولين وهو ان يقال ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى قصة بدر واذ يريكموهم اذا التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى اعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا فالجواب ان هذا كان فى حالة والآخر كان فى حالة أخرى كما قال السدى عن الطيب عن ابن مسعود فى قوله تعالى قد كان لكم آية فى فئتين التقتا الآية قال هذا يوم بدر قال عبد الله بن مسعود وقد نظرنا الى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا اليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا وذلك قوله تعالى واذ يريكموهم اذا التقيتم فى اعينكم قليلا ويقللكم فى اعينهم الآية وقال أبو اسحق عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال لقد قللوا فى اعيننا حتى قلت لرجل الى جانبى تراهم سبعين قال أراهم مائة قال فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال ألفا فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم اى أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا (٢٠٩) ويطلبوا الاعانة من ربهم عز وجل ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى اعين هؤلاء وهؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ليقضى الله أمرا كان مفعولا أى ليفرق بين الحق والباطل فيظهر كلمة الايمان على الكفر والطغيان ويعز المؤمنين ويذل الكافرين كما قال تعالى ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة وقال ههنا والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار اى ان فى ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدى به الى حكم الله وأفعاله وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة

توقف بعض السلف فى الجمع بين الاختين فى الوطء بالملك وسيأتى بيان ذلك واختلفوا فى جواز عقد النكاح على أخت الجارية التى توطأ بالملك فقال الاوزاعى اذا وطئ جارية له بملك اليمين لم يجز له أن يتزوج اختها وقال الشافعى ملك اليمين لا يمنع نكاح الاخت وقد ذهبت الظاهرية الى جواز الجمع بين الاختين بملك اليمين فى الوطء كما يجوز الجمع بينهما فى الملك قال ابن عبد البر بعد ان ذكر ما روى عن عثمان بن عفان من جواز الجمع بين الاختين فى الوطء بالملك وقد روى مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ولكنهم اختلف عليهم ولم يلتفت الى ذلك أحد من فقهاء الامصار بالحجاز ولا بالعراق ولا ما وراءهما من المشرق ولا بالشام ولا المغرب الا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفى القياس وقد ترك من تعمد ذلك وجماعة الفقهاء متفقون على انه لا يحل الجمع بين الاختين بملك اليمين فى الوطء كما لا يحل ذلك فى النكاح وقد أجمع المسلمون على ان معنى قوله حرمت عليكم امهاتكم الآية ان النكاح بملك اليمين فى هؤلاء كلهن سواء فكذلك يجب ان يكون قياسا ونظرا الجمع بين الاختين وامهات النساء والربائب وكذلك هو عند جمهورهم وهى الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها والله الحمد انتهى وأقول ههنا اشكال وهو انه قد تقرر ان النكاح يقال على العقد فقط وعلى الوطء فقط والخلاف فى كون أحدهما حقيقة والآخر مجازا وكونهما حقيقتين معروف فان حملنا هذا التحريم المذكور فى قوله حرمت عليكم امهاتكم الخ على ان المراد تحريم العقد عليهن لم يكن فى قوله تعالى وان تجمعوا بين الاختين دلالة على تحريم الجمع بين المملوكتين فى الوطء بالملك وما وقع من اجماع المسلمين على ان قوله حرمت عليكم امهاتكم الى آخره تستوى فيه الحرائر والاماء والعقد والملك لا يستلزم أن يكون محل الخلاف وهو الجمع بين الاختين فى الوطء بملك اليمين مثل محل الاجماع ومجرد القياس فى مثل هذا الموطن لا تقوم به الحجة لما يرد عليه من النقوض وان حملنا التحريم المذكور فى الآية على الوطء فقط لم يصح ذلك

(٢٧ - فتح البيان نى) الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) يخبر تعالى عما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين فبدأ بالنساء لان الفتنة بهن أشد كما ثبت فى الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قال ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء فاما اذا كان القصد بهن الاعفاف وكثرة الاولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب اليه كما وردت الاحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه وان خير هذه الامة من كان أكثرها نساء وقوله صلى الله عليه وسلم الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ان نظر اليها سرته وان أمرها أطاعته وان غاب عنها حفظته فى نفسها وماله وقوله فى الحديث الآخر حبب الى النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة وقالت عائشة رضى الله عنها لم يكن شئ أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء الا الخيل وفى رواية من الخيل الا النساء وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل فى هذا وتارة يكون لتكثير النسل

وتكثر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ممن يعبد الله وحده لا شريك له فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث تزوجوا الودود الولود فاني مكاثر بكم الامم يوم القيامة وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الارحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعا وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال وحاصلها انه المال الجزيل كما قاله الضحاك وغيره وقيل ألف دينار وقيل ألف ومائتا دينار وقيل اثنا عشر ألفا وقيل أربعون ألفا وقيل ستون ألفا وقيل سبعون ألفا وقيل ثمانون ألفا وقيل غير ذلك وقد قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القنطار اثنا عشر ألف أوقية كل أوقية خير مما بين السماء والارض وقد رواه ابن ماجه (٢١٠) عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الصمد بن عبد الوارث عن حماد بن سلمة به وقد رواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة موقوفا كرواية وكيع في تفسيره حيث قال حدثنا حماد ابن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن ذكوان أبي صالح عن أبي هريرة قال القنطار اثنا عشر ألف أوقية الاوقية خير مما بين السماء والارض وهذا أصح وهكذا رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل وابن عمر وحكاه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة وأبي الدرداء انهما قالا القنطار ألف ومائتا أوقية ثم قال ابن جرير رحمه الله حدثنا زكريا بن يحيى الضرير حدثنا شبابة حدثنا مخلد بن عبد الواحد عن علي بن زيد عن عطاء بن أبي ميمونة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية وهذا حديث منكر أيضا والاقرب ان يكون موقوفا على أبي بن كعب كغيره من الصحابة وقد روى ابن مردويه من طريق موسى بن عبيدة الربذي عن محمد بن علي ابن ابراهيم عن موسى عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ مائة آية لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية الى ألف أصبح له قنطار من الاجر عند الله القنطار منه مثل الجبل العظيم ورواه وكيع عن موسى بن عبيدة بمعناه وقال الحاكم في مستدركه حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عيسى بن زيد اللخمي حدثنا محمد بن عمرو بن أبي سلمة حدثنا زهير بن محمد حدثنا حميد الطويل ورجل آخر عن أنس بن مالك قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى والقناطير المقنطرة قال القنطار ألفا أوقية صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه هكذا رواه الحاكم وقد رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر فقال أنبأنا أحمد ابن عبد الرحمن الرقي أنبأنا عمرو بن أبي سلمة أنبأنا زهير يعني بن محمد أنبأنا حميد الطويل ورجل آخر قد سماه يعني يزيد الرقاشي عن

الاجماع على تحريم عقد النكاح على جميع المذكورات من أول الآية الى آخرها فلم يبق الاحل التحريم في الآية على تحريم عقد النكاح فيحتاج القائل بتحريم الجمع بين الاختين في الوطء بالملك الى دليل ولا ينفعه ان ذلك قول الجمهور فالحق لا يعرف بالرجال فان جاء به خالصا عن شوب الكدر فهاونعمت والا كان الاصل الحل ولا يصح حمل النكاح في الآية على معنييه جميعا أعني العقد والوطء لانه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ممنوع أو من باب الجمع بين معنيي المشترك وفيه الخلاف المعروف في الاصول فتدبر هذا وقال السيوطي ويلحق بهما أي بالاختين بالسنة الجمع بينها وبين عمتها أو خالتها ويجوز نكاح كل واحدة على الانفراد وملكهما معا وبطأ واحدة انتهى قلت قد اختلف أهل العلم اذا كان الرجل يطأ مملوكته بالملك ثم أراد أن يطأ اختها بالملك أيضا فقال علي وابن عمر والحسن البصري والاوزاعي والشافعي وأحمد واسحق لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الاخرى باخراجها من ملكه ببيع أو عتق أو بان يزوجها قال ابن المنذر وفيه قول ثان لقتادة وهو انه ينوي تحريم الاولى على نفسه وان لا يقربها ثم يمسك عنهما حتى تستبرئ المحرمة ثم يغشى الثانية وفيه قول ثالث وهو انه لا يقرب واحدة منهما هكذا قاله الحكم وحماد وروى معنى ذلك عن النخعي وقال مالك اذا كان عنده اختان بملك فله أن يطأ ايتهما شاء والكف عن الاخرى موكول الى امانته فان أراد وطء الاخرى فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الاولى بفعل يفعله من اخراج عن الملك أو تزويج أو بيع أو عتق أو كتابة أو اخدام طويل فان كان بطأ احداهما حرمت وثب على الاخرى دون أن يحرم الاولى وقف عنهما ولم يجز له قرب احداهما حتى يحرم الاخرى ولم يوكل ذلك الى امانته لانه متهم قال القرطبي وقد أجمع العلماء على ان الرجل اذا طلق زوجته طلاقا يملك رجعتها انه ليس له أن ينكح اختها حتى تنقضي عدة المطلقة واختلفوا اذا طلقها طلاقا لا يملك رجعتها فقالت طائفة ليس له أن ينكح اختها ولا رابعة حتى تنقضي عدة التي طلقها روى ذلك عن

أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله قنطارا يعنى ألف دينار وهكذا رواه الطبرانى عن عبد الله بن محمد بن أبى مريم عن عمر بن أبى سلمة فذكر باسناده مثله سواء وروى ابن جرير عن الحسن البصرى عنه مرسلا أوموقوفا عليه القنطار ألف ومائتا دينار وهو رواية العوفى عن ابن عباس وقال الضحاك من العرب من يقول القنطار ألف ومائتا دينار ومنهم من يقول اثنا عشر ألفا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عارم عن حماد عن سعيد الجرمى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال القنطار مل مسك الثور ذهبا قال ابو محمد ورواه محمد بن موسى الحرسى عن حماد بن زيد مرفوعا والموقوف أصح وحب الخيل على ثلاثة أقسام تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا اليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون وتارة تربط فخرا ونواء لاهل الاسلام فهذه على صاحبها وزر وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله فى رقابها (٢١١) فهذه لصاحبها ستر كما سيأتى الحديث بذلك ان شاء الله تعالى عند قوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الآية واما المسومة فعن ابن عباس رضى الله عنهما المسومة الراعية والمطهمة الحسان وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير وعبد الرحمن بن عبد الله ابن أبزى والسدى والربيع بن أنس وأبى سنان وغيرهم وقال مكحول المسومة الغرة والتحجيل وقيل غير ذلك وقد قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن أبى حبيب عن سويد بن قيس عن معاوية بن خديج عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من فرس عربى الا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين اللهم انك خولتنى من خولتنى من بنى آدم فاجعلنى من أحب ماله وأهله اليه أو أحب أهله وماله اليه وقوله تعالى والانعام يعنى الابل والبقر والغنم والحرث يعنى الارض المتخذة للغراس والزراعة وقال الامام أحمد حدثنا روح بن عبادة حدثنا أبو نعامة العدوى عن مسلم بن يديل عن اياس بن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة المأمورة الكثيرة النسل والسكة النخل المصطف والمأبورة الملقحة ثم قال تعالى ذلك متاع الحياة الدنيا أى انما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة والله عنده حسن المآب أى حسن المرجع والثواب وقد قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن عطاء عن أبى بكر بن حفص بن عمر بن سعد قال قال عمر بن الخطاب لما نزلت زين للناس حب الشهوات قلت الآن يارب حين زينتها لنا فنزلت قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا الآية ولهذا قال تعالى قل أؤنبئكم بخير من ذلكم أى قل يا محمد للناس أؤخبركم بخير مما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذى هو زائل لا محالة ثم أخبر عن ذلك فقال للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار أى

على وزيد بن ثابت ومجاهد وعطاء والنخعى والثورى وأحمد بن حنبل وأصحاب الرأى وقالت طائفة له أن ينكح اختها وينكح الرابعة لمن كان تحته أربع وطلق واحدة منهن طلاقا بائنا وروى ذلك عن سعيد بن المسيب والحسن والقاسم وعروة بن الزبير وابن أبى ليلى والشافعى وأبى ثور وأبى عبيد قال ابن المنذر ولا أحسبه الا قول مالك وهو أيضا احدى الروايتين عن زيد بن ثابت وعطاء وقوله (الا ما قد سلف) يحتمل أن يكون معناه ما تقدم من قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ويحتمل معنى آخر وهو جواز ما سلف وانه اذا جرى الجمع فى الجاهلية كان النكاح صحيحا واذا جرى فى الاسلام خير بين الاختين والصواب الاحتمال الاول (ان الله كان غفورا) لما سلف منكم قبل النهى (رحيما) بكم فى ذلك (والمحصنات من النساء) عطف على المحرمات المذكورات أى وحرمت عليكم ذوات الازواج وأصل التحصن التمنع ومنه قوله تعالى ليحصنكم من بأسكم أى ليمنعكم ومنه الحصان بكسر الحاء للفرس لانه يمنع صاحبه من الهلاك والحصان بفتح الحاء المرأة العفيفة لمنعها نفسها والمصدر الحصانة بفتح الحاء والمراد بالمحصنات هنا الازواج وقد ورد الاحصان فى القرآن لمعان أحدها التزوج كما فى هذه الآية وكما فى قوله محصنين غير مسافحين والثانى يراد به الحرية ومنه قوله تعالى ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات وقوله والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والثالث يراد به العفة ومنه قوله تعالى محصنات غير مسافحات والرابع الاسلام ومنه قوله تعالى فاذا أحصن أى أسلمن وقد اختلف أهل العلم فى تفسير هذه الآية فقال ابن عباس وأبو سعيد الخدرى وأبو قلابة ومكحول والزهرى المراد بالمحصنات هنا المسبيات ذوات الازواج خاصة أى هن محرمات عليكم ان تنكحوهن قبل مفارقة أزواجهن وقد قرئ المحصنات بفتح الصاد وكسرها فالفتح على ان الازواج احصنوهن والكسر على انهن أحصن فروجهن من غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن (الا ما ملكت أيمانكم) بالسبى

تخرق بين جوانبها وأرجائها الانهار من أنواع الاشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر خالدين فيها أى ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولا وأزواج مطهرة أى من الدنس والخبث والاذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا ورضوان من الله أى يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدا ولهذا قال تعالى فى الآية الاخرى التى فى براءة ورضوان من الله أكبر أى أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم ثم قال تعالى والله بصير بالعباد أى يعطى كلا بحسب ما يستحقه من العطاء (الذين يقولون ربنا انا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار) يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى الذين يقولون ربنا انا آمنا أى بك وبكتابك ورسولك فاغفر لنا ذنوبنا أى بإيماننا بك (٢١٢) وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك وقنا عذاب النار ثم قال تعالى الصابرين أى فى قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات والصادقين فيما أخبروا به من ايمانهم بما يلتزمونه من الاعمال الشاقة والقانتين والقنوت الطاعة والخضوع والمنفقين أى من أموالهم فى جميع ما أمروا به من الطاعات وصلة الارحام والقرابات وسد الخلات ومواساة ذوى الحاجات والمستغفرين بالاسحار دل على فضيلة الاستغفار وقت الاسحار وقد قيل ان يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه سوف أستغفر لكم ربى انه أخرهم الى وقت السحر وثبت فى الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل الله تبارك وتعالى فى كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الاخير فيقول هل من سائل فأعطيه هل من داع فأستجيب له هل من مستغفر فأغفر له الحديث وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطنى فى ذلك جزأ على حدة فرواه من طرق متعددة وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوله وأوسطه وآخره فانتهى وتره الى السحر وكان عبد الله بن عمر يصلى من الليل ثم يقول يا نافع هل جاء السحر فاذا قال نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح رواه ابن أبى حاتم وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن حريث بن أبى مطر عن ابراهيم بن خاطب عن أبيه قال سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول بارب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفر لى فنظرت فاذا هو ابن مسعود رضى الله عنه وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال كنا نؤمر اذا صلينا من الليل ان نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا

من أرض الحرب فان تلك حلال لكم وطؤهن وان كان لها زوج فى دار الحرب بعد الاستبراء وهو قول الشافعى أى ان السباء يقطع العصمة وبه قال ابن وهب وابن عبد الحكم ورواية عن مالك وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وأحمد واسحق وأبو ثور والاستثناء متصل لان المستثنى المزوجات لكن فيه شائبة انقطاع من حيث ان المستثنى منه نكاح المتزوجات والمستثنى وطء الزوجات وقد صرح السمين بانه منقطع واختلفوا فى استبرائها بماذا يكون كما هو مدون فى كتب الفروع وقالت طائفة المحصنات فى هذه الآية العفائف وبه قال أبو العالية وعبيدة السلمانى وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء ورواه عبيدة عن عمر ومعنى الآية عندهم كل النساء حرام الا ما ملكت ايمانكم أى تملكون عصمتهن بالنكاح وتملكون الرقبة بالشراء وحكى ابن جرير الطبرى ان رجلا قال لسعيد بن جبير ما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية فلم يقل فيها شيأ فقال كان ابن عباس لا يعلمها وروى ابن جرير أيضا عن مجاهد انه قال لو أعلم من يفسر لى هذه الآية لضربت اليها أكباد الابل انتهى ومعنى الآية والله أعلم واضح لا ستره به أى وحرمت عليكم المحصنات من النساء أى المزوجات أعم من أن يكن مسلمات أو كافرات الا ما ملكت ايمانكم منهن اما بسبى فانها تحل وان كانت ذات زوج أو بشراء فانها تحل ولو كانت مزوجة وبنفس النكاح الذى كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذى زوجها والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (كتاب الله عليكم) أى كتب ذلك كتابا وفرضه فرضا وقيل الزموا كتاب الله أو عليكم كتاب الله وروى عن عبيدة السلمانى ان قوله هذا اشارة الى قوله تعالى مثنى وثلاث ورباع وهو بعيد جدا بل هو اشارة الى التحريم المذكور فى قوله حرمت عليكم الى آخر الآية وفى قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) دلالة على انه يحل لهم نكاح ما سوى المذكورات وهذا عام مخصوص بما صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها ومن ذلك نكاح المعتدة ومن

الكتاب الامن بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) شهد تعالى وكفى به شهيدا وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين أنه لا اله الا هو أي المنفرد بالالهية لجميع الخلائق وان الجميع عبيده وخلقه وفقراء اليه وهو الغني عما سواه كما قال تعالى لكن الله يشهد بما أنزل اليك الآية ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام قائما بالقسط منصوب على الحال وهو في جميع الاحوال كذلك لا اله الا هو تأكيد لما سبق العزيز الحكيم العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وقال الامام أحمد حدثنا يزيد بن (٢١٣) عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثني جبير

ومن ذلك ان من كان في نكاحه حرة لا يجوز له نكاح الامة ومن ذلك القادر على الحرة لا يجوز له نكاح الامة ومن ذلك من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح خامسة ومن ذلك الملاعنة فانها محرمة على الملاعن أبدا وقيل لا حاجة للتنبيه على هذا لان الكلام في التحريم على التأبيد وما ذكر من الاقسام لا يحرم مؤبدا بل لعارض يزول نعم يظهر ما قالوه في الملاعنة لان تحريمها مؤبد وقد أبعد من قال ان تحريم الجمع بين المذكورات مأخوذ من الآية هذه لانه حرم الجمع بين الاختين فيكون ما في معناه في حكمه وهو الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها وكذلك يحرم نكاح الامة لمن يستطيع نكاح حرة فانه يخصص هذا العموم لاجل (ان تبتغوا بأموالكم) النساء اللاتي أحلهن الله لكم ولا تبتغوا بها الحرام فتذهب وقيل هو بدل من ما في قوله ما وراء ذلكم والاول أولى وأراد سبحانه بالاموال المذكورة ما يدفعونه في مهور الحرائر وأثمان الاماء (محصنين) الاحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم والعقاب أي حال كونكم متزوجين ومتسرين متعففين عن الزنا (غير مسافحين) أي غير زانين والسفاح الزنا وهو مأخوذ من سفح الماء أي صبه وسيلانه فكأنه سبحانه أمرهم بان يطلبوا بأموالهم النساء على وجه النكاح لا على وجه السفاح (فما استمتعتم به منهن) قد اختلف أهل العلم في معنى الآية فقال الحسن ومجاهد وغيرهما المعنى فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعي وعلى هذا فالآية واردة في النكاح الصحيح وان الزوج متى وطئها ولو مرة وجب عليه مهرها المسمى أو مهر المثل ولكن يرد على هذا انها تتكرر مع قوله سابقا وآتوا النساء صدقاتهن وقال الجمهور ان المراد بهذه الآية نكاح المتعة الذي كان في صدر الاسلام حيث كان الرجل ينكح المرأة وقتا معلوما ليلة أو ليلتين أو أسبوعا بثوب أو غيره ويقضي منها وطره ثم يسرحها ويؤيد ذلك قراءة أبي بن كعب وابن عباس وسعيد بن جبير فما استمتعتم به منهن الى أجل مسمى ثم نهى عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما صح

ابن عمرو القرشي حدثنا أبو سعيد الانصاري عن أبي يحيى مولى آل الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة يقرأ هذه الآية شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال حدثنا علي ابن حسين حدثنا محمد بن المتوكل العسقلاني حدثنا عمر بن حفص ابن ثابت أبو سعيد الانصاري حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد ابن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده عن الزبير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرأ هذه الآية شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة قال وأنا أشهد أي رب وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير حدثنا عبدان بن أحمد وعلي بن سعيد الرازي قالا حدثنا عمار بن عمر المختار حدثني أبي حدثني غالب القطان قال أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريبا من الاعمش فلما كانت ليلة أردت ان انحدر قام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ان الدين عند الله الاسلام ثم قال الاعمش وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة ان الدين عند الله الاسلام قالها مرارا قلت لقد سمع فيها شيأ فغدوت اليه فودعته ثم قلت يا أبا محمد اني سمعتك تردد هذه الآية قال أوما بلغك ما فيها قلت أنا عندك منذ شهر لم تحدثني قال والله لا أحدثك بها الى سنة فأقمت سنة فكنت على بابه فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة قال حدثني أبو وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل عبدي عهدي الي وأنا أحق من وفا بالعهد أدخلوا عبدي الجنة وقوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام اخبار منه تعالى بانه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الاسلام وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي

سد جميع الطرق اليه الا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم فمن لقي الله بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه الآية وقال في هذه الآية مخبرا بانحصار الدين المتقبل عنده في الاسلام ان الدين عند الله الاسلام وذكر ابن جرير ان ابن عباس قرأ شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم أن الدين عند الله الاسلام بكسر انه وفتح ان الدين عند الله الاسلام أي شهد هو والملائكة وأولوا العلم من البشر بان الدين عند الله الاسلام والجمهور قرؤها بالكسر على الخبر وكلا المعنيين صحيح ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم ثم أخبر تعالى بان الذين أوتوا الكتاب الاول انما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بارسال الرسل اليهم وانزال الكتب عليهم فقال وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم (٢١٤) أي بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وان كانت حقا ثم قال تعالى ومن يكفر بآيات الله أي من جحد ما أنزل الله في كتابه فان الله سريع الحساب أي فان الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه ثم قال تعالى فان حاجوك أي جادلوك في التوحيد فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن أي فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له ومن اتبعن أي على ديني يقول كما قال تعالى قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني الآية ثم قال تعالى آمرا عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ان يدعو الى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله به الكتابيين من المللين والأميين من المشركين فقال تعالى وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ أي والله عليه حسابهم واليه مرجعهم وما بهم ولا) وهو الذي يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى والله بصير بالعباد أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة وهو الذي لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وما ذلك الا لحكمته ورحمته وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه الى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا وقال تعالى تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة انه صلى الله عليه وسلم بعث كتبه يدعو الى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالا لامر الله له بذلك وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي

ذلك من حديث علي قال نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الاهلية يوم خيبر وهو في الصحيحين وغيرهما وفي صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال يوم فتح مكة يا أيها الناس اني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء والله قد حرم ذلك الى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شئ فليخل سبيلها ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيأ وفي لفظ لمسلم ان ذلك كان في حجة الوداع فهذا هو الناسخ وقال سعيد بن جبير نسختها آية الميراث اذ المتعة لا ميراث فيها وقالت عائشة والقاسم بن محمد تحريمها ونسخها في القرآن وذلك قوله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين وليست المنكوحة بالمتعة من أزواجهم ولا مما ملكت أيمانهم فان من شأن الزوجة ان ترث وتورث وليست المستمتع بها كذلك والاحاديث في تحليل المتعة ثم تحريمها وهل كان نسخها مرة أو مرتين مذكورة في كتب الحديث وقد روى عن ابن عباس انه قال بجواز المتعة وانها باقية لم تنسخ وروى عنه انه رجع عن ذلك عند أن بلغه الناسخ وقد قال بجوازها جماعة من الروافض ولا اعتبار بأقوالهم وقد أتعب نفسه بعض المتأخرين بتكثير الكلام على هذه المسئلة وتقوية ما قاله المجوزون لها وليس هذا المقام مقام بيان بطلان كلامه وقد طول الشوكاني البحث ودفع الشبهة الباطلة التي تمسك بها المجوزون لها في شرحه المنتقى فليرجع اليه وقال ابن العربي واما متعة النساء فهي من غرائب الشريعة لانها أبيحت في صدر الاسلام ثم حرمت يوم خيبر ثم ابيحت في غزوة أوطاس ثم حرمت بعد ذلك واستقر الامر على التحريم وليس لها أخت في الشريعة الا مسئلة القبلة فان النسخ طرأ عليها مرتين ثم استقرت حكاه القرطبي عنه (فآتوهن أجورهن) أي مهورهن التي فرضتم لهن وانما سمى المهر أجرا لانه بدل عن المنفعة لا عن العين (فريضة) أي مفروضة مسماة وقد كمل بهذا الوصف ما قبله ودخل به على ما بعده فهي مصدر مؤكد أو حال من أجورهن

أرسلت به الا كان من أهل النار رواه مسلم وقال صلى الله عليه وسلم بعثت الى الاحمر والاسود وقال كان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقال الامام أحمد حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس رضي الله عنه ان غلاما يهوديا كان يضع للنبي صلى الله عليه وسلم وضوءه ويناوله نعليه فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا فلان قل لا اله الا الله فنظر الى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فنظر الى أبيه فقال أبوه أطع أبا القاسم فقال الغلام أشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول الحمد لله الذي أخرجه بي من النار رواه البخاري في الصحيح الى غير ذلك من الآيات والاحاديث (ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم أولئك الذين (٢١٥) حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين هذا ذم من الله تعالى لاهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديما وحديثا التي بلغتهم اياها الرسل استكبارا عليهم وعنادا لهم وتعاظما على الحق واستنكافا عن اتباعه ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم اليهم الا لكونهم دعوهم الى الحق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس وهذا هو غاية الكبر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم الكبر بطر الحق وغمط الناس وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو الزبير الحسن بن علي ابن مسلم النيسابوري نزيل مكة حدثني أبو حفص عمر بن حفص يعني ابن ثابت بن زرارة الانصاري حدثنا محمد بن حمزة حدثنا أبو الحسن مولى لبني أسد عن مكحول عن أبي قبيصة بن ذؤيب الخزاعي عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم الآية ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلا من بني اسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله عز وجل وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عبيد الوصابي محمد بن حفص عن ابن جريج عن أبي الحسن مولى بني أسد عن مكحول به وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قتلت بنو اسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره رواه ابن أبي حاتم ولهذا لما ان تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة فقال تعالى فبشرهم بعذاب أليم أي موجع مهين أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة

(ولا جناح عليكم) ولا عليهن (فيما تراضيتم به) أنتم وهن (من بعد الفريضة) أي من زيادة ونقصان في المهر فان ذلك سائغ عند التراضي هذا عند من قال ان الآية في النكاح الشرعي وأما عند الجمهور القائلين بانها في المتعة فالمعنى التراضي في زيادة مدة المتعة أو نقصانها أو في زيادة ما دفعه اليها الى مقابل الاستمتاع بها أو نقصانه وقيل ما تراضيتم به من الابراء من المهر والافتداء والاعتياض وقال الزجاج معناه لا جناح عليكم ان تهب المرأة للزوج مهرها وان يهب الرجل للمرأة التي لم يدخل بها نصف المهر الذي لا يجب عليه (ان الله كان عليما) بما يصلحكم في مناكحكم وغيرها من سائر أموالكم أو عليما بالاشياء قبل خلقها (حكيما) فيما دبر لكم من التدبير وفيما يأمركم وينهاكم عنه ولا يدخل حكمه خلل ولا زلل أو فيما فرض لكم من عقد النكاح الذي به حفظت الانساب (ومن) شرطية أو موصولة (لم يستطع منكم طولا) الطول الغنى والسعة قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير والسدي وأبو زيد ومالك والشافعي وأحمد واسحق وأبو ثور وجمهور أهل العلم وانما سمي الغنى طولا لانه ينال به من المراد ما لا ينال مع الفقر والطول كناية عما يصرف الى المهر والنفقة يقال طال يطول طولا في الافضال والقدرة وفلان ذو طول أي ذو قدرة في ماله والطول بالضم ضد القصر وقال قتادة والنخعي وعطاء والثوري ان الطول الصبر ومعنى الآية عندهم ان من كان يهوى أمة حتى صار لذلك لا يستطيع ان يتزوج غيرها فان له أن يتزوجها اذا لم يملك نفسه وخاف أن يبغي بها وان كان يجد سعة في المال لنكاح حرة وقال أبو حنيفة وهو يروى عن مالك ان الطول المرأة الحرة فمن كان تحته حرة لم يحل له أن ينكح الامة ومن لم يكن تحته حرة جاز له ان يتزوج امة ولو كان غنيا به قال أبو يوسف واختاره ابن جرير واحتج له والقول الاول هو المطابق لمعنى الآية ولا يخلو ما عداه عن تكلف فلا يجوز للرجل أن يتزوج بالامة الا اذا كان لا يقدر على ان يتزوج بالحرة لعدم وجود ما يحتاج اليه في نكاحها من مهر وغيره (أن ينكح المحصنات) الحرائر (المؤمنات)

عنه قال قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم الآية ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلا من بني اسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله عز وجل وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عبيد الوصابي محمد بن حفص عن ابن جريج عن أبي الحسن مولى بني أسد عن مكحول به وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قتلت بنو اسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره رواه ابن أبي حاتم ولهذا لما ان تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة فقال تعالى فبشرهم بعذاب أليم أي موجع مهين أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة

ومالهم من ناصرين (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) يقول تعالى منكرا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم وهما التوراة والانجيل واذا دعوا الى التحاكم الى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم تولوا وهم معرضون عنهما وهذا فى غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد ثم قال تعالى ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات أى انما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لانفسهم انهم انما يعذبون فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة فى الدنيا يوما وقد تقدم تفسير (٢١٦) ذلك فى سورة البقرة ثم قال تعالى وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون أى ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم ان النار لا تمسهم بذنوبهم الا أياما معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه ولم ينزل الله به سلطانا قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه أى كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والله تعالى سائلهم عن ذلك كله وحاكم عليهم ومجازيهم به ولهذا قال تعالى فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه أى لا شك فى وقوعه وكونه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب) يقول تبارك وتعالى قل يا محمد معظما لربك وشاكرا له ومفوضا اليه ومتوكلا عليه اللهم مالك الملك أى لك الملك كله تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء أى أنت المعطى وأنت المانع وأنت الذى ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن وفى هذه الآية تنبيه وارشاد الى شكر نعمة الله تعالى على رسوله الله صلى الله عليه وسلم وهذه الامة لان الله تعالى حول النبوة من بنى اسرائيل الى النبى العربى القرشى الامى المكى خاتم الانبياء على الاطلاق ورسول الله الى جميع الثقلين الانس والجن الذى جمع الله فيه محاسن من كان قبله وخصه بخصائص لم يعطها نبيا من الانبياء ولا رسولا من الرسل فى العلم بالله وشريعته واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية وكشفه له عن حقائق الآخرة ونشر أمته فى الآفاق فى مشارق الارض ومغاربها واظهار دينه وشرعه على سائر الاديان والشرائع فصلوات الله وسلامه عليه دائما الى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار ولهذا قال تعالى قل اللهم مالك الملك الآية أى أنت المتصرف فى خلقك الفعال لما تريد

هو جرى على الغالب فلا مفهوم له ومعنى الآية فمن لم يستطع منكم غنى وسعة فى ماله يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات (فمما) أى فلينكح مما (ملكت ايمانكم) يعنى جارية احيك المؤمن ودخلت الفاء فى قوله فمما ملكت لتضمن المبتدا معنى الشرط وقد عرفت انه لا يجوز للرجل الحر أن يتزوج بالمملوكة الا بشرط عدم القدرة على الحرة كما ذهب اليه الشافعى والشرط الثانى ما سيذكره الله سبحانه آخر الآية من قوله ذلك لمن خشى العنت منكم فلا يحل للفقير أن يتزوج بالمملوكة الا اذا كان يخشى على نفسه العنت والمراد هنا الامة المملوكة للغير واما أمة الانسان نفسه فقد وقع الاجماع على انه لا يجوز له أن يتزوجها وهى تحت ملكه لتعارض الحقوق واختلافها (من فتياتكم المؤمنات) وقد استدل بهذا على انه لا يجوز نكاح الامة الكتابية وبه قال أهل الحجاز وجوزه أهل العراق والفتيات جمع فتاة وهى الشابة من النساء والعرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة وفى الحديث الصحيح لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولكن ليقل فتاى وفتاتى (والله أعلم بايمانكم) فيه تسلية لمن ينكح الامة اذا اجتمع فيه الشرطان المذكوران اى كلكم بنو آدم وأكرمكم عند الله اتقاكم فلا تستنكفوا من الزواج بالاماء عند الضرورة فربما كان ايمان بعض الاماء أفضل من ايمان بعض الحرائر والجملة اعتراضية تفيد أن الايمان كاف فى نكاح الامة المؤمنة ولو ظاهرا ولا يشترط فى ذلك أن يعلم ايمانها علما يقينا فان ذلك لا يطلع عليه الا الله تعالى (بعضكم من بعض) جنس (بعض) أى انهم متصلون فى الانساب لانهم جميعا بنو آدم ومتصلون فى الدين لانهم جميعا أهل ملة واحدة وكلهم واحد وبنيهم واحد والمراد بهذا توطئة نفوس العرب لانهم كانوا يستهجنون أولاد الاماء ويستصغرونهم ويغضون منهم ويسمون ابن الامة الهجين فأعلم الله ان ذلك أمر لا يلتفت اليه فلا يتداخلنكم شموخ وأنفة من التزويج بالاماء فانكم متساوون فى النسب الى آدم وقال ابن عباس يريد ان المؤمنين بعضهم أكفاء بعض أى فلا يترفع

كما رد تعالى على من يحكم عليه فى أمره حيث قال وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال الله رد اعليهم أهم يقسمون رحمة ربك الآية أى نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة فى ذلك وهكذا يعطى النبوة لمن يريد كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته وقال تعالى أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض الآية وقوله تعالى تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل أى تأخذ من طول هذا فتزيده فى قصر هذا فيعتدلان ثم تأخذ من هذا فى هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان وهكذا فى فصول السنة ربيعا وصيفا وخريفا وشتاء وقوله تعالى وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى أى تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع والنخلة من النواة والنواة من النخلة والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة وما جرى هذا المجرى من جميع الاشياء وترزق من تشاء بغير حساب أى تعطى من شئت من المال ما لا يعد ولا يقدر على احصائه وتفتقر على آخرين لما لك فى ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة قال الطبرانى حدثنا محمد بن زكريا العلائى حدثنا جعفر بن حسن بن فرقد حدثنا أبى عن عمر بن مالك عن أبى الجزار عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الاعظم الذى اذا دعى به أجاب فى هذه الآية من آل عمران قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير) نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين ان يوالوا الكافرين وان يتخذوهم أولياء يسرون اليهم

الحر عن نكاح الامة عند الحاجة اليه (فانكحوهن باذن أهلهن) أى باذن المالكين لهن ومواليهن لان منافعهن لهم لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشئ منها الا باذن من هى له واتفق أهل العلم على أن نكاح الامة بغير اذن سيدها باطل لان الله تعالى جعل اذن السيد شرطا فى جواز نكاح الامة (وآتوهن أجورهن بالمعروف) أى أدوا اليهن مهورهن بما هو المعروف فى الشرع من غير مطل ولا نقص ولا ضرار وقيل مهور أمثالهن وقد استدل بهذا من قال ان الامة أحق بمهرها من سيدها والمذهب ما لك وذهب الجمهور الى أن المهر للسيد وانما أضافها اليهن لان التأدية اليهن تأدية الى سيدهن لكونهن ماله (محصنات) عفائف حال (غير مسافحات) زانيات جهرا أى غير معلنات بالزنا وهذا الشرط على سبيل الندب بناء على المشهور من جواز نكاح الزانى ولو كن اماء قاله الخطيب (ولا متخذات أخدان) أخلاء يزنون بهن سرا والاخدان الاخلاء والخدن والخدين المخادن أى المصاحب وقيل ذات الخدن هى التى تزنى سرا فهو مقابل للمسافحة وهى التى تجاهر بالزنا وقيل المساخة المبذولة وذات الخدن التى تزنى بواحد وكانت العرب تعيب الاعلان بالزنا ولا تعيب اتخاذ الاخدان ثم رفع الاسلام جميع ذلك فقال الله ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقال أبو زيد الأخدان الاصدقاء على الفاحشة (فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) المراد بالاحصان هنا الاسلام روى ذلك عن ابن مسعود وابن عمر وأنس والاسود بن يزيد وزر ابن حبيش وسعيد بن جبير وعطاء والنخعى والشعبى والسدى وروى عن عمر بن الخطاب باسناد منقطع وهو الذى نص عليه الشافعى وبه قال الجمهور وقال ابن عباس وأبو الدرداء ومجاهد وعكرمة وطاوس والحسن وقتادة وغيرهم انه التزويج وروى عن الشافعى فعلى القول الاول لا حد على الامة الكافرة وعلى الثانى لا حد على الامة التى لم تتزوج وقال القاسم وسالم احصانها اسلامها وعفافها وقال ابن جرير ان معنى القراءتين

(٢٨ - فتح البيان نى) بالمودة من دون المؤمنين ثم توعد على ذلك فقال تعالى ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ أى ومن يرتكب نهى الله فى هذا فقد برئ من الله كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة الى أن قال ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم الآية وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين من المهاجرين والانصار والاعراب والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير وقوله تعالى الا أن تتقوا منهم تقاة أى الا من خاف فى بعض البلدان والاوقات من شرهم فلهم ان يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته كما قال البخارى عن أبى الدرداء انه قال انا لنكشر فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم وقال

الثورى قال ابن عباس ليس التقية بالعمل انما التقية باللسان وكذا رواه العوفى عن ابن عباس انما التقية باللسان وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس ويؤيد ما قالوه قول الله تعالى من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان الآية وقال البخارى قال الحسن التقية الى يوم القيامة ثم قال تعالى ويحذركم الله نفسه أى يحذركم نقمته فى مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه ثم قال تعالى والى الله المصير أى اليه المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا مسلم بن خالد عن ابن أبى حسين عن عبد الرحمن بن سابط عن ميمون ابن مهران قال قام فينا معاذ فقال يا بنى أودانى رسول رسول الله اليكم تعلمون ان المعاد الى الله الى الجنة أو الى النار (قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الارض والله على كل شئ قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد) يخبر تبارك وتعالى انه يعلم السرائر والضمائر والظواهر وانه لا يخفى عليه منهم خافية بل علمه محيط بهم فى سائر الاحوال والازمان والايام واللحظات وجميع الاوقات وجميع ما فى الارض والسموات لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك فى جميع أقطار الارض والبحار والجبال والله على كل شئ قدير أى وقدرته نافذة فى جميع ذلك وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم فانه عالم بجميع أمورهم وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة وان أنظر من أنظر منهم فانه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ولهذا قال بعد هذا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الآية يعنى يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر فما رأى على من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه وما رأى من قبيح ساءه وغمه وود لو أنه تبرأ منه وان يكون بينهما أمد بعيد كما يقول لشيطانه الذى كان مقترنا به فى الدنيا وهو الذى جرأه على فعل السوء يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ثم قال تعالى مؤكدا ومتوعدا ويحذركم الله نفسه أى يخوفكم عقابه ثم قال جل جلاله مرجيا لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه والله رؤف بالعباد قال الحسن البصرى من رأفته بهم حذرهم نفسه وقال غيره أى رحيم بخلقه يحب لهم ان يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم وان يتبعوا رسوله الكريم (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين) هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس

مختلف فمن قرأ أحصن بضم الهمزة فمعناه التزويج ومن قرأ بفتح الهمزة فمعناه الاسلام وقال قوم ان الاحصان المذكور فى الآية هو التزوج ولكن الحد واجب على الامة المسلمة اذا زنت قبل أن تتزوج بالسنة وبه قال الزهرى قال ابن عبد البر ظاهر قول الله عز وجل يقتضى انه لا حد على الامة وان كانت مسلمة الا بعد التزويج ثم جاءت السنة بجلدها وان لم تحصن وكان ذلك زيادة بيان قال القرطبى ظهر المسلم حمى لا يستباح الا بيقين ولا يقين مع الاختلاف لولا ما جاء فى صحيح السنة من الجلد قال ابن كثير فى تفسيره والاظهر والله أعلم ان المراد بالاحصان هنا التزويج لان سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه ومن لم يستطع منكم طولا الى قوله فاذا أحصن الآية فالسياق كله فى الفتيات المؤمنات فتعين ان المراد بقوله فاذا أحصن أى تزوجن كما فسره به ابن عباس ومن تبعه قال وعلى كلا القولين اشكال على مذهب الجمهور لانهم يقولون ان الامة اذا زنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة أو كافرة متزوجة أو بكرا مع أن مفهوم الآية يقتضى انه لا حد على غير المحصنة من الاماء وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك ثم ذكر ان منهم من أجاب وهم الجمهور بتقديم منطوق الاحاديث على هذا المفهوم ومنهم من عمل على مفهوم الآية وقال اذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها وانما تضرب تأديبا قال وهو المحكى عن ابن عباس واليه ذهب طاوس وسعيد بن جبير وأبو عبيد وداود الظاهرى فى رواية عنه فهؤلاء قدموا مفهوم الآية على العموم وأجابوا عن مثل حديث أبى هريرة وزيد بن خالد فى الصحيحين وغيرهما ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الامة اذا زنت ولم تحصن قال ان زنت فاجلدوها ثم ان زنت فاجلدوها ثم ان زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير بان المراد بالجلد هنا التأديب وهو تعسف وأيضا قد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم ان زنت فليجلدها الحد الحديث ولمسلم من حديث

هو على الطريقة المحمدية فانه كاذب فى دعواه فى نفس الامر حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ولهذا قال ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله أى يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم اياه وهو محبته اياكم وهو أعظم من الاول كما قال بعض العلماء الحكماء ليس الشأن ان تحب انما الشأن ان تحب وقال الحسن البصرى وغيره من السلف زعم قوم انهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا عبد الله بن موسى بن عبد الاعلى بن أعين عن يحيى بن أبى كثير عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل الدين الا الحب فى الله والبغض فى الله قال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى وقال أبو زرعة عبد الاعلى هذا منكر الحديث ثم قال تعالى ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم أى باتباعكم الرسول صلى الله عليه وسلم يحصل لكم هذا من بركة سفارته ثم قال تعالى آمرا الكل أحد من خاص وعام قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا أى تخالفوا عن أمره فان الله لا يحب الكافرين فدل على ان مخالفته فى الطريقة كفر والله لا يحب من اتصف بذلك وان ادعى وزعم فى نفسه انه محب لله ويتقرب اليه حتى يتابع الرسول النبى الامى خاتم الرسل ورسول الله الى جميع الثقلين الجن والانس الذى لو كان الانبياء بل المرسلون بل أولوا العزم منهم فى زمانه ما وسعهم الا اتباعه والدخول فى طاعته واتباع شريعته كما سيأتى تقريره عند قوله تعالى واذ أخذ الله ميثاق النبيين الآية ان شاء الله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحا

على يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن ومن لم يحصن فان أمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زنت فأمرنى أن أجلدها الحديث، وأما ما أخرجه سعيد بن منصور وابن خزيمة والبيهقى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس على الامة حد حتى تحصن بزوج فاذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب فقد قال ابن خزيمة والبيهقى ان رفعه خطأ والصواب وقفه والفاحشة هنا الزنا فعليهن نصف ما على المحصنات أى الحرائر الابكار اذا زنين لان الثيب عليها الرجم وهو لا يتبعض وقيل المراد بالمحصنات هنا المزوجات لان عليها الجلد والرجم والرجم لا يتبعض فصار عليهن نصف ما عليهن من الجلد فيجلدن خمسين ويغربن نصف سنة والمراد بالعذاب هنا الجلد وانما نقص حد الاماء عن حد الحرائر لانهن أضعف وقيل لانهن لا يصلن الى مرادهن كما تصل الحرائر وقيل لان العقوبة تجب على قدر النعمة كما فى قوله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين ولم يذكر الله سبحانه فى هذه الآية العبيد وهم لاحقون بالاماء بطريق القياس وكما يكون على الاماء والعبيد نصف الحد فى الزنا كذلك يكون عليهم نصف الحد فى القذف والشرب (ذلك) أى نكاح المملوكات عند عدم الطول (لمن خشى العنت) العنت الوقوع فى الاثم وقيل الزنا وأصله فى اللغة انكسار العظم بعد الجبر ثم استعير لكل مشقة وأريد به هنا ما يجر اليه الزنا من العقاب الدنيوى والاخروى والمعنى ذلك لمن خاف أن تحمله شدة الشبق والغلمة وشدة الشهوة على الزنا وانما سمى الزنا بالعنت لما يعقبه من المشقة وهى شدة العزوبة فأباح الله تعالى نكاح الامة بثلاثة شروط عدم القدرة على نكاح الحرة وخوف العنت وكون الامة مؤمنة وفى القاموس العنت الفساد والاثم والهلاك ودخول المشقة على الانسان ولقاء الشدة والزنا والوهى والانكسار واكتساب المآثم وأعنته غيره وعنته تعنيتا شدد عليه وألزمه ما يصعب عليه (منكم) بخلاف من لا يخافه من الاحرار فلا يحل له نكاحها وكذا من استطاع

وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) يخبر تعالى انه اختار هذه البيوت على سائر أهل الارض فاصطفى آدم عليه السلام خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وعلمه أسماء كل شىء وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما له فى ذلك من الحكمة واصطفى نوحا عليه السلام وجعله أول رسول بعثه الى أهل الارض لما عبد الناس الاوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرانى قومه يدعوهم الى الله ليلا ونهارا سرا وجهارا فلم يزدهم ذلك الا فرارا فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم ولم ينج منهم الا من اتبعه على دينه الذى بعثه الله به واصطفى آل ابراهيم ومنهم سيد البشر خاتم الانبياء على الاطلاق محمد صلى الله عليه وسلم وآل عمران والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام قال محمد بن اسحق بن يسار رحمه الله هو عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا بن ابراهيم بن غرايا بن ناوش بن أجرين بهوا بن نازم بن مقاسط

ابن ايشا بن ايازبن رخيم بن سليمان بن داود عليهما السلام فعيسى عليه السلام من ذرية ابراهيم كما سيأتي بيانه في سورة الانعام ان شاء الله تعالى وبه الثقة (اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام وهي حنة بنت فاقوذ قال محمد بن اسحق وكانت امرأة لا تحمل فرأت يوما طائرا يرزق فرخه فاشتهت الولد فدعت الله تعالى ان يهبها فاستجاب الله تعالى دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه فلما تحققت الحمل نذرت ان يكون محررا أي خالصا مفرغا للعبادة لخدمة بيت المقدس فقالت يارب اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك أنت السميع العليم أي السميع لدعائي العليم بنيتي (٢٢٠) ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكرا أم أنثى فلما وضعتها قالت رب ان وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت قرئ برفع التاء على انها تاء المتكلم وان ذلك من تمام قولها وقرئ بتسكين التاء على انه من قول الله عز وجل وليس الذكر كالانثى في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الاقصى واني سميتها مريم فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لانه شرع من قبلنا وقد حكي مقررا وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي ابراهيم أخرجاه وكذلك ثبت فيهما ان أنس ابن مالك ذهب باخيه حين ولدته أمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه وسماه عبد الله وفي صحيح البخاري ان رجلا قال يارسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه قال سم ابنك عبد الرحمن وثبت في الصحيح أيضا انه لما جاءه أبو أسيد بابنه ليحنكه فذهل عنه فأمر به أبو فرد الى منزلهم فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس سماه المنذر فاما حديث قتادة عن الحسن البصري عن سمرة بن جندب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل غلام رهين بعقيقته يذبح عنه يوم سابع ويسمى ويحلق رأسه فقد رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي وروى ويدمى وهو أثبت وأحفظ والله أعلم وكذا ما رواه الزبير بن بكار في كتاب النسب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عق عن ولده ابراهيم وسماه ابراهيم فاسناده لا يثبت وهو مخالف لما في الصحيح ولو صح حمل على انه اشتهر اسمه بذلك يومئذ والله أعلم وقوله اخبارا عن أم مريم انها قالت واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم أي عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام فاستجاب الله لها ذلك كما قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود الا مسه الشيطان

طول حرة وعليه الشافعي وكذا مالك وأحمد (وأن تصبروا) أي صبركم عن نكاح الاماء (خير لكم) من نكاحهن لان نكاحهن يفضي الى ارقاق الولد والغض من النفس (والله غفور رحيم) هذا كالتأكيد لما تقدم (يريد الله ليبين لكم) استئناف مسوق لتقرير ما سبق من الاحكام وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الانبياء والصالحين واللام هنا لام كي التي تعاقب أن ومنه يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم وأمرت لأعدل بينكم وأمرنا لنسلم لرب العالمين وهذا مذهب الكوفيين وخطأ الزجاج هذا القول وقيل اللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال أو لتأكيد ارادة التبيين وبه قال الزمخشري والسمين ومعنى الآية يريد الله أن يبين لكم مصالح دينكم وما يحل لكم وما يحرم عليكم وقيل يبين لكم ما يقربكم منه وقيل يبين ان الصبر عن نكاح الامة خير لكم (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) أي طرقهم في تحريم الامهات والبنات والاخوات فانها كانت محرمة على من قبلكم وهم الانبياء وأتباعهم لتقتدوا بهم (و) يريد أن (يتوب عليكم) يرجع بكم عن معصيته التي كنتم عليها الى طاعته فتوبوا اليه وتلافوا ما فرط منكم بالتوبة يغفر لكم ذنوبكم (والله عليم) بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم (حكيم) فيما دبر أمورهم (والله يريد أن يتوب عليكم) هذا تأكيد لما قد فهم من قوله ويتوب عليكم المتقدم وقيل الاول معناه الارشاد الى الطاعات والثاني فعل اشباهها وقيل ان الثاني لبيان كمال منفعة ارادته سبحانه وكمال ضرر ما يريده الذين يتبعون الشهوات وليس المراد به مجرد ارادة التوبة حتى يكون من باب التكرير للتأكيد قيل هذه الارادة منه سبحانه في جميع أحكام الشرع وقيل في نكاح الامة فقط وقال ابن عباس معناه يريد أن يخرجكم من كل ما يكره الى ما يحب ويرضى وقيل معناه يدلكم على ما يكون سببا لتوبتكم التي يغفر لكم بها ما سلف من ذنوبكم وقيل معناه ان وقع منكم تقصير في دينه فيتوب عليكم ويغفر لكم (ويريد الذين يتبعون الشهوات) المراد

حين يولد فيستهل صارخا من مسه اياه الا مريم وابنها ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم أخرجاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جريج عن أحمد بن الفرج عن بقية عن الزبيدى عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه وروى من حديث قيس عن الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود الا قد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين الا عيسى بن مريم ومريم ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ومن حديث العلاء عن أبيه عن أبى هريرة ورواه مسلم عن أبى الطاهر عن ابن وهب عن عمرو بن الحرث عن أبى يونس عن أبى هريرة ورواه محمد بن اسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم بأصل الحديث وهكذا رواه الليث بن سعد عن جعفر بن ربيعة (٢٢١) عن عبد الرحمن بن هرمز الاعرج قال قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه حين تلده أمه الا عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن بالحجاب (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) يخبر تعالى انه تقبلها من أمها نذيرة وانه أنبتها نباتا حسنا أى جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا ويسر لها أسباب القبول وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين فلهذا قال وكفلها زكريا بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية أى جعله كافلا لها قال ابن اسحق وماذلك الا انها كانت يتيمة وذكر غيره ان بنى اسرائيل أصابتهم سنة جدب فكفل زكريا مريم لذلك ولا منافاة

بالشهوات هنا ما حرمه الشرع دون ما أحله اختلف فى تعيين متبعى الشهوات فقيل هم الزناة وقيل اليهود والنصارى وقيل اليهود خاصة وقيل هم المجوس لانهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون فى نكاح الاخوات من الاب وبنت الاخ والاول أولى (أن تميلوا) تعدلوا عن الحق وقصد السبيل بالمعصية فتكونوا مثلهم (ميلا عظيما) يعنى باتيانكم ما حرم الله عليكم والميل العدول عن طريق الاستواء ووصف الميل بالعظيم بالنسبة الى ميل من اقترف خطيئة نادرا (يريد الله أن يخفف) يسهل (عنكم) أحكام الشرع بما مر من الترخيص أو بكل ما فيه تخفيف عليكم (وخلق الانسان ضعيفا) عاجزا غير قادر على ملك نفسه ودفعها عن شهوتها قليل الصبر عن النساء فلا صبر له عنهن وفاء بحق التكليف فهو محتاج من هذه الحيثية الى التخفيف فلهذا أراد الله سبحانه التخفيف وقيل هو ضعيف فى أصل الخلقة لانه خلق من ماء مهين وقيل انه لضعفه يسرع اليه الهوى فهو ضعيف العزم عن الهوى (يا أيها الذين آمنوا) شروع فى بيان بعض المحرمات المتعلقة بالاموال والانفس اثر بيان المحرمات المتعلقة بالابضاع (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) يعنى بالحرام الذى لا يحل فى الشرع والباطل ما ليس بحق ووجود ذلك كثيرة كالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ الاموال باليمين الكاذبة ونحو ذلك ومن الباطل البيوعات التى نهى عنها الشرع وانما خص الاكل بالذكر ونهى عنه تنبيها على غيره من جميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل لان معظم المقصود من المال الاكل وقيل يدخل فيه أكل مال نفسه بالباطل ومال غيره أما أكل ماله بالباطل فهو انفاقه فى المعاصى وأما أكل مال غيره فقد تقدم معناه وقيل يدخل فى أكل المال بالباطل جميع العقود الفاسدة (الا أن تكون تجارة عن تراض منكم) التجارة فى اللغة عبارة عن المعاوضة وهذا الاستثناء منقطع أى لكن أموال تجارة صادرة عن تراض منكم وطيب نفس جائزة بينكم ولكم أن تأكلوها أو لكن كون تجارة عن

بين القولين والله أعلم وانما قدر الله كون زكريا كفلها السعادتها التقبس منه علما جما نافعا وعملا صالحا لانه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن اسحق وابن جرير وغيرهما وقيل زوج أختها كما ورد فى الصحيح فاذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة وقد يطلق على ما ذكره ابن اسحق ذلك أيضا توسعا فعلى هذا كانت فى حضانة خالتها وقد ثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى عمرة بنت حمزة ان تكون فى حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبى طالب وقال الخالة بمنزلة الام ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلادتها فى محل عبادتها فقال كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وابراهيم النخعى والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفى والسدى وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف وعن مجاهد وجد عندها رزقا أى علما أو قال صحفا فيها علم رواه ابن أبى حاتم والاول أصح وفيه دلالات على كرامات الاولياء وفى

السنة لهذا نظائر كثيرة فاذا رأى زكريا هذا عندها قال يا مريم أنى لك هذا أى يقول من أين لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سهل بن زنجلة حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا عبد الله بن لهيعة عن محمد ابن المنكدر عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيأ فأتى فاطمة فقال يا بنية هل عندك شئ آكله فانى جائع قالت لا والله بأبى أنت وأمى فلما خرج من عندها بعثت اليها جارة لها بر غيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته فى جفنة لها وقالت والله لا وثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى ومن عندى وكانوا جميعا محتاجين الى شبعة طعام فبعثت حسنا أو حسينا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع اليها فقالت بأبى أنت وأمى قد أتى الله بشئ (٢٢٢) نخبأ له لك قال هلمى يا بنية قالت فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فاذا هى مملوءة

خبزا ولحما فلما نظرت اليها بهتت وعرفت انها بركة من الله فحمدت الله وصلت على نبيه وقدمته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه حمد الله وقال من أين لك هذا يا بنية قالت يا أبت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب فحمد الله وقال الحمد لله الذى جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بنى اسرائيل فكانت اذا رزقها الله شيأ وسئلت عنه قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى على ثم أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل على وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته حتى شبعوا جميعا قالت وبقيت الجفنة كما هى قالت فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا

(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من قال الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار) لما رأى زكريا عليه السلام ان الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء طمع حينئذ فى الولد وان كان شيخا كبيرا قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا لكنه مع هذا كله سأل ربه ونادا ه نداء خفيا وقال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة أى ولدا صالحا انك سميع الدعاء قال الله تعالى فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أى خاطبته الملائكة شفاها أسمعته وهو قائم يصلى فى محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته ثم أخبر تعالى عما بشرته به

تراض منكم حلالا لكم لان التجارة ليست من جنس أكل المال بالباطل ولان الاستثناء وقع على الكون والكون معنى من المعانى ليس مالا من الاموال فكان الاهنا بمعنى لكن وقوله عن تراض صفة لتجارة أى كائنة عن تراض وانما نص الله سبحانه على التجارة دون سائر أنواع المعاوضات كالهبة والصدقة والوصية لكونها أكثرها وأغلبها ولان أسباب الرزق متعلقة بها غالبا ولانها أرفق بذوى المروآت بخلاف الانتهاب وطلب الصدقات وتطلق التجارة على جزاء الاعمال من الله على وجه المجاز ومنه قوله تعالى هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم وقوله تعالى يرجون تجارة لن تبور واختلف العلماء فى التراضى فقالت طائفة تمامه وجوبه بافتراق الابدان بعد عقد البيع أو بأن يقول أحدهما لصاحبه اختر واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وبه قال الشافعى والثورى والليث وابن عيينة واسحق وغيرهم وقال مالك وأبو حنيفة تمام البيع هو أن يعقد البيع بالالسنة فيرتفع بذلك الخيار وأجابوا عن الحديث بما لا طائل تحته وقرئ تجارة بالرفع على ان كان تامة وبالنصب على انها ناقصة وروى الطبرانى وابن أبى حاتم قال السيوطى بسند صحيح عن ابن مسعود قال انها يعنى هذه الآية محكمة ما نسخت ولا تنسخ الى يوم القيامة وعن عكرمة والحسن قالا كان الرجل يتحرج ان يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية فنسخ ذلك الآية التى فى النور ولا على أنفسكم ان تأكلوا من بيوتكم الآية وأخرج ابن ماجه وابن المنذر عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انما البيع عن تراض (ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضا لا بسبب أثبته الشرع وانما قال أنفسكم لانهم أهل دين واحد فهم كنفس واحدة وقد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال فى حجة الوداع ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض وقيل ان هذا نهى للانسان عن قتل نفسه بارتكاب ما يؤدى الى هلاكها أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة

الملائكة ان الله يبشرك بيحيى أى بولد يوجد من صلبك اسمه يحيى قال قتادة وغيره انما سمى يحيى لان الله أحياه بالايمان وقوله مصدقا بكلمة من الله أى بعيسى بن مريم وقال الربيع بن أنس هو أول من صدق بعيسى بن مريم وقال قتادة وعلى سنته ومنهاجه وقال ابن جريج قال ابن عباس فى قوله مصدقا بكلمة من الله قال كان يحيى وعيسى ابنى خالة وكانت أم يحيى تقول لمريم انى أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك فذلك تصديقه له فى بطن أمه وهو أول من صدق عيسى وكلمة الله عيسى وهو أكبر من عيسى عليه السلام وهكذا قال السدى أيضا وقوله وسيدا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم الحليم وقال قتادة سيدا فى العلم والعبادة وقال ابن عباس والثورى والضحاك السيد الحليم التقى قال سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم وقال عطية السيد فى خلقه ودينه وقال عكرمة هو الذى لا يغلبه الغضب وقال

قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه أى يضرب بها نفسه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا وفى الباب أحاديث أولا تقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصى يعنى لا يفعل شيأ يستحق به القتل مثل أن يقتل فيقتل به فيكون هو الذى تسبب فى قتل نفسه بكسب الجريمة وقيل لا تقتلوا بأكل المال بالباطل وقيل لا تهلكوا أنفسكم بأن تعملوا أعمالا ربما أدى الى قتلها أو المراد النهى عن أن يقتل الانسان نفسه حقيقة ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى ومما يدل على ذلك احتجاج عمرو بن العاص بها حين لم يغتسل بالماء البارد حين أجنب فى غزوة ذات السلاسل فقرره النبى صلى الله عليه وآله وسلم احتجاجه وهو فى مسند أحمد وسنن أبى داود وغيرهما (ان الله كان بكم رحيما) ومن رحمته بكم ان نهاكم عن كل شئ تستوجبون به مشقة أو محنة وقيل ان الله تعالى أمر بنى اسرائيل بقتل أنفسهم ليكون ذلك توبة لهم وكان بكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحيما حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة (ومن يفعل ذلك) أى القتل خاصة أو أكل أموال الناس باطلا وقيل هو اشارة الى كل ما نهى عنه فى هذه السورة وقال ابن جرير انه عائد على ما نهى عنه من آخر وعيد وهو قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها لان كل ما نهى عنه من أول السورة قرن به وعيدا الا من قوله يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم فانه لا وعيد بعده الا قوله ذلك (عدوانا) على الغير (وظلما) على النفس لاجهلا ونسيانا وسفها وعلى هذا لا يرد انه كيف قدم الاخص على الاعم اذا التجاوز عن العدل جور ثم طغيان ثم تعد والكل ظلم والعدوان تجاوز الحد والظلم وضع الشئ فى غير موضعه وقيل ان معنى العدوان والظلم واحد وتكريره لقصد التأكيد الا أن يقال ان العطف باعتبار التغاير فى المفهوم كما تقدم

ابن زيد هو الشريف وقال مجاهد وغيره هو الكريم على الله عز وجل وقوله وحصورا روى عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن المسيب وأبى الشعثاء وعطية العوفى انهم قالوا الذى لا يأتى النساء وعن أبى العالية والربيع بن أنس هو الذى لا يولد له ولا ماء له وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس فى الحصور الذى لا ينزل الماء وقد روى ابن أبى حاتم فى هذا حديثا غريبا فقال حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب البغدادى حدثنى سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعنى ابن العوام عن يحيى بن سعيد عن المسيب عن ابن العاص لا يدرى عبد الله أو عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله وسيدا وحصورا قال ثم تناول شيأ من الارض فقال كان ذكره مثل هذا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن يحيى بن سعيد الانصارى انه سمع سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا ثم قرأ سعيدا وسيدا وحصورا ثم أخذ شيأ من الارض فقال الحصور من كان ذكره مثل ذا وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف أصبعه السبابة فهذا موقوف أصح اسنادا من المرفوع ورواه ابن المنذر فى تفسيره حدثنا أحمد بن داود السمنانى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا على بن مسهر عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد يلقى الله الا ذا ذنب الا يحيى بن زكريا فان الله يقول وسيدا وحصورا قال وانما ذكره مثل هدبة الثوب وأشار بأنملته وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى بن حماد ومحمد بن سلمة المرادى قالا حدثنا حجاج بن سليمان المقرى عن الليث بن سعد عن محمد بن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة

ان النبي صلى الله عليه وسلم قال كل ابن آدم يلقى الله بذنب يعذبه عليه ان شاء أو يرحمه الا يحيى بن زكريا فانه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ثم أهوى النبي صلى الله عليه وسلم الى قذاة من الارض فأخذها قال وكان ذكره مثل هذه القذاة وقوله ونبيا من الصالحين هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الاولى فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال أي الملك كذلك الله يفعل ما يشاء أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر قال رب اجعل لي آية أي علامة أستدل بها على وجود الولد مني قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا أي اشارة لانه استطيع النطق مع انك سوي صحيح كما في قوله ثلاث ليال سويا ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال (٢٢٤) فقال تعالى واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار وسيأتي طرف آخر

وخرج بقيد العدوان والظلم ما كان من القتل بحق كالقصاص وقتل المرتد وسائر الحدود الشرعية وكذلك قتل الخطأ (فسوف نصليه) أي ندخله في الآخرة (نارا) عظيمة يحترق فيها وقرئ نصليه بفتح النون وهو على هذا منقول من صلي ومنه شاة مصلية (وكان ذلك) أي اصلاؤه النار (على الله يسيرا) هينا لانه لا يعجزه شيء (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) أي الذنوب التي نهاكم الله عنها وفي الكلام حذف أي وتفعلوا الطاعات (نكفر عنكم) أصل التكفير الستر والتغطية وفي الشرع اماطة المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة اي نغفر لكم (سيآتكم) اي ذنوبكم التي هي صغائر فالتكفير ليس مرتبا على الاجتناب وحده وحمل السيآت على الصغائر هنا متعين لذكر الكبائر قبلها وجعل اجتنابها شرط التكفير السيآت واجتناب الشيء المباعدة عنه وتركه جانبا والكبيرة ما كبر وعظم من الذنوب وعظمت عقوبته وقد اختلف أهل الاصول في تحقيق معنى الكبائر ثم في عددها فأما في تحقيقها فقيل ان الذنوب كلها كبائر وانما يقال لبعضها صغيرة بالاضافة الى ما هو أكبر منها كما يقال الزنا صغيرة بالاضافة الى الكفر والقبلة المحرمة صغيرة بالاضافة الى الزنا وقد روى نحو هذا عن الاسفرايني والجويني والقشيري وغيرهم قالوا والمراد بالكبائر التي يكون اجتنابها سببا لتكفير السيآت هي الشرك واستدلوا على ذلك بقراءة من قرأ ان تجتنبوا كبير ما تنهون عنه وعلى قراءة الجمع فالمراد اجناس الكفر واستدلوا على ما قالوه بقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء قالوا فهذه الآية مقيدة لقوله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه وقال ابن عباس الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب وقال ابن مسعود الكبائر ما نهى الله عنه في هذه السورة الى ثلاث وثلاثين آية قال سعيد بن جبير كل ذنب نسبه الله الى النار فهو كبيرة وقال جماعة من أهل الاصول الكبائر كل ذنب رتب الله عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره وقد ذكر الشوكاني

و يبسط هذا المقام في أول سورة مريم ان شاء الله تعالى (واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون) هذا اخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لها بذلك ان الله قد اصطفاها أي اختارها الكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الاكدار والوساوس واصطفاها مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين قال كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير نساء ركبن الابل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده جل ولم تركب مريم بنت عمران بعيرا قط ولم يخرجه من هذا الوجه سوى مسلم فانه رواه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد أخرجاه في الصحيحين من حديث هشام به مثله وقال الترمذي حدثنا أبو بكر بن زنجويه حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون تفرد به الترمذي وصححه وقال عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه قال كان ثابت البناني يحدث عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت رسول الله رواه ابن مردويه أيضا ومن طريق شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا ثلاث مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا آدم العسقلاني حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة سمعت مرة الهمداني يحدث عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وقد أخرجه الجماعة الا أبا داود من طرق عن شعبة به ولفظ البخاري يكمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وان فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وقد (٢٢٥) استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في

جل ذلك في نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار وقد ذكر رضي الله عنه في ارشاد الفحول من النصوص عليها فوق الثلاثين وأما الاختلاف في عددها فقيل انها سبع وقيل سبعون وقيل سبعمائة وقيل غير منحصرة ولكن بعضها أكبر من بعض وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اجتنبوا السبع الموبقات قالوا وما هي يا رسول الله قال الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكرة قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس وقال ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت وفي لفظ عند البخاري عن ابن عمرو عنه صلى الله عليه وآله وسلم واليمين الغموس وأخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قالوا وكيف يلعن الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه وعن ابن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي الذنب اعظم عند الله قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ان ذلك لعظيم ثم أي قال ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني حليلة جارك أخرجه البخاري والاحاديث في تعداد الكبائر وتعيينها كثيرة جدا فمن رام الوقوف على ما ورد في ذلك فعليه بكتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر فانه قد جمع فأوعى وقد ثبت من الادلة المتقدمة ان من الذنوب كبائر وصغائر واليه ذهب الجمهور واعلم انه لابد من تقييد ما في هذه الآية من تكفير السيآت بمجرد اجتناب الكبائر بما أخرجه النسائي وابن ماجه وابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة وأبي سعيد ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جلس على المنبر ثم قال والذي نفسي

قصة عيسى بن مريم عليه السلام في كتابنا البداية والنهاية ولله الحمد والمنة ثم أخبر تعالى عن الملائكة انهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله بها من الامر الذي قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولدا من غير أب فقال تعالى يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين اما القنوت فهو الطاعة في خشوع كما قال تعالى وله من في السموات والارض كل له قانتون وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحرث ان دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة ورواه ابن

(٢٩ - فتح البيان ني) جرير من طريق بن لهيعة عن دراج به وفيه نكارة وقال مجاهد كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تورم كعباها والقنوت هو طول الركوع في الصلاة يعني امتثالا لقول الله تعالى يا مريم اقنتي لربك قال الحسن يعني اعبدي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين أي كوني منهم وقال الاوزاعي ركدت في محرابها راكعة وساجدة وقائمة حتى نزل ماء الاصفر في قدميها رضي الله عنها وأرضاها ثم قال لرسوله بعدما أطلعه على جلية الامر ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك أي نقصه عليك وما كنت لديهم أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عنه معاينة عما جرى بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها وذلك لرغبتهم في الاجر قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني حجاج عن ابن جريج عن القاسم بن أبي بزة انه أخبره عن عكرمة وأبي بكر عن عكرمة قال ثم خرجت بها يعني مريم في خرقها الى بني الكاهن

ابن هرون أخى موسى عليهما السلام قال وهم يومئذ يلون بيت المقدس ما يلى الحجبة من الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فانى حررتها وهى انثى ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردها الى بيتى فقالوا هذه ابنة امامنا وكان عمران يؤمهم فى الصلاة وصاحب قربانهم فقال زكريا ادفعوها الى فان خالتها تحتى فقالوا لا تطيب انفسنا هى ابنة امامنا فذلك حين اقترعوا عليها باقلامهم التى يكتبون بها التوراة فقرعهم زكريا فكفلها وقد ذكر عكرمة أيضا والسدى وقتادة والربيع بن أنس وغيرواحد دخل حديث بعضهم فى بعض انهم ذهبوا الى نهر الاردن واقترعوا هناك على ان يلقون اقلامهم فايهم يثبت فى جرية الماء فهو كافلها فالقوا أقلامهم فاحتملها الماء الا قلم زكريا فانه ثبت ويقال انه ذهب صاعدا يشق جرية الماء وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وامامهم ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه (اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها

بيده ما من عبد يصلى الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدى الزكاة ويجتنب الكبائر السبع الا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة حتى انها لتصفق ثم تلا هذه الآية وعن ابن مسعود قال ان فى سورة النساء خمس آيات ما يسرنى ان لى بها الدنيا وما فيها ولقد علمت ان العلماء اذا مروا بها يعرفونها قوله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه الآية وقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة الآية وقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله تعالى ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك الآية وقوله تعالى ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه الآية (وندخلكم مدخلا كريما) يعنى حسنا شريفا مرضيا اى مدخلا تكرمون فيه والمراد بالمدخل بضم الميم وفتحها كما قرئ بهما فى الآية مكان الدخول وهو الجنة ويجوز ان يكون مصدرا (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) التمنى نوع من الارادة يتعلق بالمستقبل كالتلهف نوع منها يتعلق بالماضى فنهى الله سبحانه المؤمنين عن التمنى لان فيه تعلق البال ونسيان الآجال قاله القرطبى وفيه النهى عن ان يتمنى الانسان ما فضل الله به غيره من الناس عليه فان ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التى قسمها الله بين عباده على مقتضى ارادته وحكمته البالغة وفيه أيضا نوع من الحسد المنهى عنه اذا صحبه ارادة زوال تلك النعمة عن الغير وعبارة القرطبى فيدخل فيه ان يتمنى الرجل حال الآخر من دين اودنيا على ان يذهب ما عند الآخر وهذا هو الحسد بعينه وهو الذى ذمه الله تعالى بقوله أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ويدخل فيه ايضا خطبة الرجل على خطبة أخيه وبيعه على بيعه لانه داعية الى الحسد والمقت انتهى وقد اختلف العلماء فى الغبطة هل تجوز أم لا وهى أن يكون له حال مثل حال صاحبه من دون أن يتمنى زوال ذلك الحال عن صاحبه فذهب الجمهور الى جوازذلك واستدلوا بالحديث الصحيح لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به أناء الليل وأناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه أناء الليل وأناء النهار وقد

فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بان سيوجد منها ولد عظيم له شان كبير قال الله تعالى اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه أى بولد يكون وجوده بكلمة من الله أى يقول له كن فيكون وهذا تفسير قوله مصدقا بكلمة من الله كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه اسمه المسيح عيسى بن مريم اى يكون هذا مشهورا فى الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك وسمى المسيح قال بعض السلف لكثرة سياحته وقوله تعالى عيسى بن مريم نسبه الى أمه حيث لا أب له وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين أى له وجاهة ومكانة عند الله فى الدنيا بما يوحيه اليه من الشريعة وينزل عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به وفى الدار الآخرة بشفع عند الله فيمن يأذن له فيه

باب

فيقبل منه أسوة اخوانه من أولى العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين وقوله ويكلم الناس فى المهد وكهلا أى يدعو الى عبادة الله وحده لا شريك له فى حال صغره معجزة وآية وفى حال كهولته حين يوحى الله اليه ومن الصالحين أى فى قوله وعمله علم صحيح وعمل صالح قال محمد بن اسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن شرحبيل عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تكلم أحد فى صغره الا عيسى وصاحب جريج وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو الصقر يحيى بن محمد بن قزعة حدثنا الحسين يعنى المروزى حدثنا جرير يعنى ابن أبى حازم عن محمد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى وصبى كان فى زمن جريج وصبى آخر فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل قالت فى مناجاتها رب انى يكون لى ولد

ولم يمسسنى بشر تقول كيف يوجد هذا الولد منى وأنا لست بذات زوج ولا من عزمى ان أتزوج ولست بغيا حاشا لله فقال لها الملك عن الله عز وجل فى جواب ذلك السؤال كذلك الله يخلق ما يشاء اى هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شئ وصرح ههنا بقوله يخلق ما يشاء ولم يقل يفعل كما فى قصة زكريا نص ههنا على انه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة وأكد ذلك بقوله اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون أى فلا يتأخر شيأ بل يوجد عقيب الامر بلا مهلة كقوله وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر أى انما أمرنا مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشئ سريعا كلمح البصر (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا الى بنى اسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وابرئ الاكمه والابرص وأحيى الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) يقول تعالى مخبرا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام ان الله يعلمه الكتاب والحكمة الظاهر ان المراد بالكتاب ههنا الكتابة والحكمة تقدم تفسيرها فى سورة البقرة والتوراة والانجيل فالتوراة هو الكتاب الذى انزل على موسى ابن عمران والانجيل الذى أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا وهذا وقوله ورسولا الى بنى اسرائيل قائلا لهم انى قد جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وكذلك يفعل يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عيانا باذن الله عز وجل الذى جعل هذا معجزة له تدل على انه أرسله وابرئ الاكمه قيل انه الذى لا يبصر نهارا ويبصر ليلا وقيل بالعكس وقيل الاعشى وقيل الاعمش وقيل هو الذى يولد أعمى وهو أشبه لانه أبلغ فى المعجزة وأقوى فى التحدى والابرص معروف وأحيى الموتى باذن الله قال كثير من العلماء بعث الله كل نبى من الانبياء بما يناسب أهل زمانه فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزة بهرت الابصار وحيرت كل سحار فلما استيقنوا انها من عند العظيم الجبار انقادوا للاسلام وصاروا من عباد الله الابرار وأما عيسى عليه السلام فبعث فى زمن الاطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لاحد اليه الان يكون مؤيدا من الذى شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على احياء الجماد أو على مداواة الاكمه والابرص وبعث من هو فى قبره رهين الى يوم التناد وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم بعث فى زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأتاهم بكتاب

يوب عليه البخارى باب الاغتباط فى العلم والحكم وعموم لفظ الآية يقتضى تحريم تمنى ما وقع به التفضيل سواء كان محمودا بما يصير به من جنس الحسد أم لا وما ورد فى السنة من جواز ذلك فى أمور معينة يكون مخصصا لهذا العموم ومن الناس من منع من الغبطة أيضا كالامام مالك قال لان تلك النعمة ربما كانت مفسدة فى حقه فى الدين أو الدنيا ونحوه قال الحسن وسبب نزول الآية ما قال قتادة ان النساء قلن لو جعل انصباؤنا فى الميراث كانصباء الرجال وقال الرجال انا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلنا عليهن فى الميراث ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) فيه تخصيص بعد التعميم ورجوع الى ما يتضمنه سبب نزول الآية من أن أم سلمة قالت يا رسول الله تغزو الرجال ولا نغزو ولا نقاتل فنستشهد وانما لنا نصف الميراث فنزلت أخرجه عبد الرزاق وابن منصور وابن حميد والترمذى والحاكم والبيهقى وابن جرير وابن المنذر وغيرهم وقد روى نحو هذا السبب من طرق بألفاظ مختلفة والمعنى فى الآية ان الله جعل لكل من الفريقين نصيبا على حسب ما تقتضيه ارادته وحكمته وعبر عن ذلك المجعول لكل فريق من فريقى النساء والرجال بالنصيب مما اكتسبوا على طريق الاستعارة التبعية شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه اياه قال قتادة للرجال نصيب مما اكتسبوا من الثواب والعقاب وللنساء كذلك وللمرأة الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها كما للرجال وقال ابن عباس المراد بذلك الميراث والاكتساب على هذا القول بمعنى الاصابة للذكر مثل حظ الانثيين فنهى الله عن التمنى على هذا الوجه لما فيه من دواعى الحسد لان الله أعلم بمصالحهم منهم فوضع القسمة بينهم على التفاوت على ما علم من مصالحهم (واسألوا الله من فضله) هذا الامر يدل على وجوب سؤال الله سبحانه كما قاله جماعة من أهل العلم وعن مجاهد قال ليس بعرض الدنيا وعن سعيد بن جبير قال العبادة ليس من أمر الدنيا وأخرج الترمذى عن ابن مسعود

من الله عز وجل فلو اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا بدا أو لو كان بعضهم لبعض ظهيرا وماذاك الا ان كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا وقوله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن وما هو مدخره في بيته لغدا ان في ذلك لآية لكم أي على صدقي فيما جئتكم به ان كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدي من التوراة أي مقررا لها ومثبتا ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ومن العلماء من قال لم ينسخ منها شيأ وانما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ وانكشف لهم عن الغطاء في ذلك كما قال في الآية الاخرى ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه والله أعلم ثم قال وجئتكم بآية من ربكم أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقول فاتقوا الله واطيعون ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من انصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد وا بانا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) يقول تعالى فلما أحس عيسى استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال من أنصاري الى الله قال مجاهد أي من يتبعني الى الله وقال سفيان الثوري وغيره أي من أنصاري مع الله وقول مجاهد أقرب والظاهر انه أراد من أنصاري في الدعوة الى الله كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج قبل ان يهاجر من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي فان قريشا قد منعوني ان أبلغ كلام ربي حتى وجدت الانصار فآووه ونصروه وهاجر اليهم فواسوه ومنعوه من الاسود والاحمر رضي الله عنهم وأرضاهم وهكذا عيسى بن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني اسرائيل فآمنوا به ووازروه ونصروه اى واتبعوا النور الذي أنزل معه ولهذا قال الله تعالى مخبرا عنهم قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين الحواريون قيل كانوا قصارين قيل سموا بذلك لبياض ثيابهم وقيل صيادين والصحيح ان الحواري الناصر كما ثبت في الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الناس يوم الاحزاب فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لكل نبي حواري وحواري الزبير وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا وكيع حدثنا اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله فاكتبنا مع الشاهدين قال مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا اسناد جيد ثم قال تعالى مخبرا عن ملا بني اسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام وارادته بالسوء

قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسئل قال ابن عباس الفضل الرزق وقيل الفضل خزائن نعمه التي لا تنفد لها (ان الله كان بكل شئ عليما) أي بما يكون صلاحا للسائلين فليقتصر السائل على المجمل في الطلب (ولكل) من الرجال والنساء مفعول ثان قدم لتأكيد الشمول (جعلنا موالي) يلون ميراثهم وهو جمع مولى يطلق على المعتق والمعتق والناصر وابن العم والجار والمراد هنا العصبة أي ولكل أحد جعلنا عصبة يرثون ما أبقت الفرائض فلا حق للحليف فيها وهم يرثون (مما ترك الوالدان والاقربون) من ميراثهم وهم المورثون وقيل هم الوارثون والاول أولى لانه مروي عن ابن عباس وغيره وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها أي ليتبع كل واحد ما قسم الله له من الميراث ولا يتمن ما فضل الله به غيره عليه وقد قيل ان هذه الآية منسوخة لقوله تعالى بعدها والذين عقدت أيمانكم وقيل العكس كما روى ذلك ابن جرير وذهب الجمهور الى أن الناسخ لقوله تعالى والذين عقدت أيمانكم قوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض (والذين عقدت أيمانكم) أي الحلفاء الذين عاهدتموهم في الجاهلية على النصر والارث فالمراد بهم موالي الموالاة فقد كان الرجل من أهل الجاهلية يعاقد الرجل أي يحالفه فيستحق من ميراثه نصيبا ثم ثبت في صدر الاسلام بهذه الآية ثم نسخ بقوله وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض وهذا أحد قولين في معنى الآية والآخر ما أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن عباس ولكل جعلنا موالي ورثة والذين عقدت أيمانكم قال كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الانصاري دون ذوي رحمه للاخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينهم فلما نزلت ولكل جعلنا موالي نسخت ثم قال والذين عقدت أيمانكم (فآتوهم نصيبهم) من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له وفي الباب أحاديث بطرق وألفاظ وفي الجلالين نصيبهم حظوظهم من الميراث وهو السدس وهو منسوخ كما تقدم وقرئ عقدت بتشديد القاف على التكثير

والصلب حين عمالؤا عليه ووشوا به الى ملك ذلك الزمان وكان كافرا ان هنا رجل يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا ويفرق بين الاب وابنه الى غير ذلك مما تقلدوه فى رقابهم ورموه به من الكذب وانه ولد زنية حتى استثار واغضب الملك فبعث فى طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به فلما أحاطوا بمنزله وظنوا انهم قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم ورفعه من روزنة ذلك البيت الى السماء وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده فى المنزل فلما دخل أولئك اعتقدوه فى ظلمة الليل عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك وكان هذا من مكر الله بهم فانه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم وتركهم فى ضلالهم يعمهون يعتقدون انهم قد ظفروا بطلبتهم وأسكن الله فى قلوبهم قسوة وعناد اللحق ملازما لهم وأورثهم ذلة لا تفارقهم الى يوم التناد ولهذا قال تعالى ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين (اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) اختلف المفسرون فى قوله تعالى انى متوفيك ورافعك الى فقال قتادة وغيره هذا من المقدم والمؤخر تقديره انى رافعك الى ومتوفيك بعد ذلك وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس انى متوفيك أى ممينك وقال محمد بن اسحق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه قال توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه اليه قال ابن اسحق والنصارى يزعمون ان الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه قال ابن جرير وقد حكى عن ادريس عن وهب أماته الله ثلاثة أيام ثم بعثه ثم رفعه قال مطر الوراق انى متوفيك فى الدنيا وليس بوفاة موت وكذا

الربيع بن أنس عن الحسن انه قال فى قوله تعالى انى متوفيك يعنى وفاة المنام رفعه الله فى منامه قال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود ان عيسى لم يمت وانه راجع اليكم قبل يوم القيامة وقوله تعالى ومطهرك من الذين كفروا أى برفعى اياك الى السماء وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة وهكذا وقع فان المسيح عليه السلام لما رفعه الله الى السماء تفرقت أصحابه شيعا بعده فمنهم من آمن بما بعثه الله به على انه عبد الله ورسوله وابن أمته ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله وآخرون قالوا هو الله وآخرون قالوا هو ثالث ثلاثة وقد حكى الله مقالتهم فى القرآن وردعلى كل فريق فاستمروا على ذلك قريبا من ثلثمائة سنة ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين فدخل فى دين النصرانية قيل حيلة ليفسده فانه كان فيلسوفا وقيل جهلا منه الا انه بدل لهم دين المسيح وحرفه (٢٣٠) وزاد فيه ونقص منه ووضعت له القوانين والامانة الكبرى التى هى الخيانة الحقيرة وأحل فى زمانه لحم الخنزير وصلوا له الى المشرق وصوروا له الكنايس والمعابد والصوامع وزاد فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون وصار دين المسيح دين قسطنطين الا انه بنى لهم من الكنايس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد وبنى المدينة المنسوبة اليه واتبعه طائفة الملكية منهم وهم فى هذا كله قاهرون لليهود أيده الله عليهم لانه أقرب الى الحق منهم وان كان الجميع كفارا عليهم لعائن الله فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق فكانوا هم اتباع كل نبى على وجه الارض اذ قد صدقوا الرسول النبى الامى العربى خاتم الرسل وسيد ولد آدم على الاطلاق الذى دعاهم الى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبى من أمته الذين يزعمون انهم على ملته وطريقته مما قد حرفوا وبدلوا ثم لو لم يكن شئ من ذلك لكان قد نسخ الاضطجاع الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من الدين الحق الذى لا يغير ولا يبدل الى قيام الساعة ولا يزال قائما منصورا ظاهرا على كل دين فلهذا فتح الله لاصحابه مشارق الارض ومغاربها واحتازوا جميع الممالك ودانت لهم جميع الدول وكسروا كسرى وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما وأنفقت فى سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل فى قوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيأ الآية فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقا سلبوا النصارى بلاد الشام والجؤهم الى الروم فلجؤا الى مدينتهم القسطنطينية ولا يزال الاسلام وأهله فوقهم الى يوم القيامة وقد أخبر الصادق

اذا عجز الزوج عن نفقة زوجته وكسوتها وبه قال مالك والشافعى وغيرهما (فالصالحات) أى المحسنات العاملات بالخير من النساء (قانتات) أى مطيعات لله قائمات بما يجب عليهن من حقوق الله وحقوق أزواجهن (حافظات للغيب) لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهن عنهن من حفظ نفوسهن وفروجهن وحفظ أموالهم ومافى قوله (بما حفظ الله) مصدرية أى بحفظ الله اياهن ومعونته وتسديده أو حافظات له بما استحفظهن من أداء الامانة الى أزواجهن على الوجه الذى امر الله به أو حافظات له بحفظ الله لهن بما أوصى به الازواج فى شأنهن من حسن العشرة وقرئ بما حفظ الله بنصب الاسم الشريف والمعنى بما حفظن أمر الله أو دينه فحذف الضمير الراجع اليهن للعلم به وما على هذه القراءة مصدرية أو موصولة كالقراءة الاولى أى بحفظهن الله أو بالذى حفظن الله به وقال السدى تحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع كما أمرها الله (واللاتى تخافون نشوزهن) هذا خطاب للازواج قيل الخوف هنا على بابه وهو حالة تحدث فى القلب عند حدوث أمر مكروه أو عند ظن حدوثه وقيل المراد بالخوف هنا العلم والنشوز العصيان وقد تقدم بيان أصل معناه فى اللغة قال ابن فارس يقال نشزت المرأة استصعبت على بعلها ونشز بعلها عليها اذا ضربها وجفاها ودلالات النشوز تكون بالقول وبالفعل بان رفعت صوتها عليه ولم تجبه اذا دعاها ولم تبادر الى أمره اذا أمرها أو لا تخضع له اذا خاطبها أو لا تقوم له اذا دخل عليها (فعظوهن) أى ذكروهن بما أوجبه الله عليهن من الطاعة وحسن المعاشرة ورغبوهن ورهبوهن اذا ظهر منهن أمارات النشوز وهو أن يقول لها اتقى الله وخافيه فان لى عليك حقا وارجعى عما أنت عليه واعلمى ان طاعتى فرض عليك ونحو ذلك فان أصرت على ذلك هجرها فى المضجع كما قال تعالى (واهجروهن فى المضاجع) يقال هجره أى تباعد منه والمضاجع جمع مضجع وهو محل الاضطجاع اى تباعدوا عن مضاجعتهن ولا تدخلوهن تحت ما تجعلونه عليكم حال

المصدوق صلى الله عليه وسلم أمته بان آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيؤن مافيها من الاموال ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدا لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها وقد جمعت فى هذا جزأ مفردا ولهذا قال تعالى وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الى مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون فأما الذين كفروا فاعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى عذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى وأخذ الاموال وازالة الايدى عن الممالك وفى الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ومالهم من الله من واق واما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم أى فى الدنيا والآخرة فى الدنيا بالنصر والظفر وفى الآخرة بالجنات العاليات والله لا يحب الظالمين ثم قال تعالى ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم أى هذا الذى قصصناه عليك (٢٣١) يا محمد فى أمر عيسى ومبدا ميلاده وكيفية أمره هو مما قاله تعالى وأوحاه اليك وأنزله عليك من اللوح المحفوظ فلا مرية فيه ولا شك كما قال فى سورة مريم ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وههنا قال تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين) يقول جل وعلا ان مثل عيسى فى قدرة الله حيث خلقه من غير أب كمثل آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم بل خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فالذى خلق آدم من غير أب قادر على ان يخلق عيسى بطريق الاولى والاحرى وان جاز ادعاء البنوة فى عيسى لكونه مخلوقا من غير أب فجواز ذلك من آدم بالطريق الاولى ومعلوم بالاتفاق ان ذلك باطل فدعواه فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا ولكن الرب جل جلاله اراد ان تظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من انثى وخلق حواء من ذكر بلا انثى وخلق عيسى من انثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وانثى ولهذا قال تعالى فى سورة مريم ولنجعله آية للناس وقال ههنا الحق من ربك فلا تكن من الممترين أى هذا هو القول الحق فى عيسى الذى لا محيد عنه ولا صحيح سواه وماذا بعد الحق الا الضلال ثم قال تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم ان يباهل من عاند الحق فى أمر عيسى بعد ظهور البيان فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم أى نحضرهم فى حال المباهلة ثم نبتهل أى نلتعن فنجعل لعنة الله على الكاذبين أى منا ومنكم وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة الى هنا فى وفد نجران ان النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون

الاضطجاع من الثياب وقيل هو أن يوليها ظهره عند الاضطجاع فى الفراش وقيل هو كناية عن ترك جماعها وقيل لا تبيت معه فى البيت الذى يضطجع فيه (واضربوهن) ان لم ينزعن بالهجران ضربا غير مبرح ولا شائن وظاهر النظم القرآنى انه يجوز للزوج أن يفعل جميع هذه الامور عند مخافة النشوز وقيل حكم الآية مشروع على الترتيب وان دل ظاهر العطف بالواو على الجمع لان الترتيب مستفاد من قرينة المقام وسوق الكلام للرفق فى اصلاحهن وادخالهن تحت الطاعة فالامور الثلاثة مرتبة اى لانها لدفع الضرر كدفع الصائل فاعتبر فيها الاخف فالاخف وقيل انه لا يهجرها الا بعد عدم تأثير الوعظ فان أثر الوعظ لم ينتقل الى الهجر وان كفاه الهجر لم ينتقل الى الضرب وقال الشافعى الضرب مباح وتركه أفضل وفى الجمل ان كلا من الهجر والضرب مقيد بعلم النشوز ولا يجوز بمجرد الظن (فان أطعنكم) كما يجب وقن لواجب حقكم وتركن النشوز (فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى لا تتعرضوا لهن بشئ مما يكرهن لا بقول ولا بفعل وقيل المعنى لا تكلفوهن الحب لكم فانه لا يدخل تحت اختيارهن (ان الله كان عليا كبيرا) اشارة الى الازواج بخفض الجناح ولين الجانب اى وان كنتم تقدرون عليهن فاذكروا قدرة الله عليكم فانها فوق كل قدرة وهو بالمرصاد لكم عن ابن عباس قال تدع المرأة تشعث وتستخف بحق زوجها ولا تطيع أمره فامره الله أن يعظها ويذكرها بالله ويعظم حقه عليها فان قبلت والا هجرها فى المضجع ولا يكلمها من غير ان يذر نكاحها وذلك عليها شديد فان رجعت والا ضربها ضربا غير مبرح ولا يكسر لها عظما ولا يجرح لها جرحا فان اطاعتك فلا تجنى عليها العلل وعنه قال يهجرها بلسانه ويغلظ لها بالقول ولا يدع الجماع وسئل عن ضرب غير مبرح فقال بالسواك ونحوه وقد أخرج الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه عن عمرو بن الاحوص انه شهد خطبة الوداع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيها انه قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ألا واستوصوا بالنساء خيرا فانما هن عوان

فى عيسى و يزعمون فيه مايزعمون من النبوة والالهية فانزل الله صدر هذه السورة ردا عليهم كما ذكره الامام محمد بن اسحق بن يسار وغيره قال ابن اسحق فى سيرته المشهورة وغيره وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ستون راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم يؤل أمرهم اليهم وهم العاقب واسمه عبد المسيح والسيد وهو الأيهم وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل وأويس بن الحرث وزيد وقيس ويزيد وابنيه وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله ومحسن وأمر هؤلاء يؤل الى ثلاثة منهم وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون الا عن رأيه والسيد وكان أسقفهم وصاحب مدارسهم وكان رجلا من العرب من بنى بكر بن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنايس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته فى دينهم وقد كان (٢٣٢) يعرف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته وشأنه مما علمه من

الكتب المتقدمة ولكن حمله ذلك على الاستمرار فى النصرانية لما يرى من تعظيمه وجاهه عند أهلها قال ابن اسحق وحدثنى محمد بن جعفر ابن الزبير قال قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فى جمال رجال بنى الحرث ابن كعب قال يقول من رآهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوهم فصلوا الى المشرق قال فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والسيد الايهم وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون هو الله و يقولون هو ولد الله ويقولون هو ثالث ثلاثة تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا وكذلك النصرانية فهم يحتجون فى قولهم هو الله بانه كان يحيى الموتى ويبرئ الاكمه والابرص والاسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا وذلك كله بامر الله وليجعله الله آية للناس و يحتجون فى قولهم بانه ابن الله يقولون لم يكن له أب يعلم وقد تكلم فى المهد بشئ لم يصنعه أحد من بنى آدم قبله و يحتجون على قولهم بانه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا فيقولون لو كان واحدا ما قال الا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا وفى كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن فلما كلم الحبران قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اسلما قال قد أسلمنا قالا انكم لم تسلما فاسلما قالا بلى قد أسلمنا قبلك قال يمنعكما من الاسلام ادعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير فالا فمن أبوه يا محمد فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم

عندكم ليس تملكون منهن شيأ غير ذلك الا أن يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ثم يجامعها فى آخر اليوم وفى هذه دليل على أن الاولى ترك الضرب للنساء فان احتاج فلا يوالى بالضرب على موضع واحد من بدنها ويتقى الوجه لانه مجمع المحاسن ولا يبلغ بالضرب عشرة أسواط وقيل ينبغى أن يكون الضرب بالمنديل واليد ولا يضرب بالسوط والعصا وبالجملة فالتخفيف بأبلغ شئ أولى فى هذا الباب قيل حكم الآية مشروع على الترتيب وقيل هذا الترتيب مراعى عند خوف النشوز واما عند تحقق النشوز فلا بأس بالجمع بين الكل والاول أولى وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يسأل الرجل فيم ضرب امرأته اخرجه ابو داود (وان خفتم شقاق بينهما) قد تقدم معنى الشقاق فى البقرة واصله ان كل واحد منهما يأخذ شقا غير شق صاحبه اى ناحية غير ناحيته وأضيف الشقاق الى الظرف لاجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وقولهم يا سارق الليلة اهل الدار والضمير فى بينهما للزوجين لانه قد تقدم ذكر ما يدل عليهما وهو ذكر الرجال والنساء (فابعثوا) الى الزوجين برضاهما قيل انما خاطب بذلك الامام أو نائبه لان تنفيذ الاحكام الشرعية اليه وقيل كل أحد من صالحى الامة وقيل هو خطاب للزوجين (حكما) رجلا عدلا (من أهله) اقاربه (وحكما من أهلها) أى من يصلح للحكم بينهما من يصير لذلك عقلا ودينا وانصافا وانما نص الله سبحانه على ان الحكمين يكونان من أهل الزوجين لانهما أقعد بمعرفة أحوالهما فاذا لم يوجد الحكمان منهم كانا من غيرهم وهذا اذا اشكل أمرهما ولم يتبين من هو المسيء منهما فاما اذا عرف المسيء فانه يؤخذ لصاحبه الحق منه والبعث واجب وكون الحكمين من اهلهما مندوب (ان يريدا اصلاحا) اى الحكمان وقيل الزوجان والاول اولى اى على

عنهما فلم يجبهما فانزل الله فى ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها ثم تكلم ابن اسحق على تفسيرها الى أن قال فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعنتهم ان ردوا ذلك عليه دعاهم الى ذلك فقالوا يا أبا القاسم دعنا ننظر فى امرنا ثم نأتيك بما تريد أن نفعل فيما دعوتنا اليه ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا يا عبد المسيح ماذا ترى فقال والله يا معشر النصارى لقد عرفتم ان محمدا النبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم انه ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم وانه الاستئصال منكم ان فعلتم فان كنتم أبيتم الا الف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا ان لا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا ولكن ابعث الينا رجلا من أصحابك ترضى لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها فى أموالنا فانكم عندنا رضا قال محمد بن جعفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائتونى العشية أبعث معكم القوى الامين فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول ما أحببت الامارة قط حبى اياها يومئذ رجاء ان أكون صاحبها فرحت الى الظهر مهجرا فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليرانى فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه قال عمر فذهب بها أبو عبيدة رضى الله عنه وقد روى ابن مردويه من طريق محمد بن اسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج ان وفد أهل نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه الا انه قال فى الاشراف كانوا اثنى عشر وذكر بقيته باطول من هذا السياق وزيادات أخر وقال البخارى حدثنا عباس بن الحسين حدثنا يحيى بن آدم عن اسرائيل عن أبى اسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضى الله عنه قال جاء العاقب والسيد صاحبا نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه قال فقال أحدهما لصاحبه لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالا انا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أمينا ولا تبعث معنا الا أمينا فقال لابعثن معكم رجلا أمينا حق أمين فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أمين هذه الامة رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث اسرائيل عن أبى اسحق عن صلة عن حذيفة بنحوه وقد رواه أحمد والنسائى وابن ماجه من حديث اسرائيل عن أبى

الحكمين ان يسعيا فى اصلاح ذات البين جهدهما فان قدرا على ذلك عملا عليه وان أعياهما اصلاح حالهما ورأيا التفريق بينهما جاز لهما ذلك من دون أمر من الحاكم فى البلد ولا توكيل بالفرقة من الزوجين وبه قال مالك والاوزاعى واسحق وهو مروى عن عثمان وعلى وابن عباس والشعبى والنخعى والشافعى وحكاه ابن كثير عن الجمهور قالوا لان الله تعالى قال فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها وهذا نص من الله سبحانه انهما قاضيان لا وكيلان ولا شاهدان وقال الكوفيون وعطاء وابن زيد والحكم وهو أحد قولى الشافعى ان التفريق هو الى الامام أو الحاكم فى البلد لا اليهما ما لم يوكلهما الزوجان أو يأمرهما الامام او الحاكم لانهما رسولان شاهدان فليس اليهما التفريق ويرشد الى هذا قوله ان يريدا أى الحكمان اصلاحا يوفق الله بينهما الاقتصاره على ذكر الاصلاح دون التفريق ومعنى ان يريدا اصلاحا (يوفق الله بينهما) أى يوقع الالفة والموافقة بين الزوجين حتى يعود الى الالفة وحسن المعاشرة ومعنى الارادة خلوص نيتهما الصلاح الحال بين الزوجين وقيل ان الضمير فى قوله بينهما للحكمين كما فى قوله ان يريدا اصلاحا أى يوفق بين الحكمين فى اتحاد كلمتهما وحصول مقصودهما وقيل كلا الضميرين للزوجين أى ان يريدا اصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله به بينهما الالفة والوفاق واذا اختلف الحكمان لم ينفذ حكمهما ولا يلزم قبول قولهما بلا خلاف وعن ابن عباس قال بعثت أنا ومعاوية حكمين فقيل لنا ان رأيتما ان تجمعا جمعتما وان رأيتما أن تفرقا فرقتما والذى بعثهما عثمان (ان الله كان عليما خبيرا) يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المتفرقين وفيه وعيد شديد للزوجين والحكمين ان سلكوا غير طريق الحق (واعبدوا الله) يعنى وحدوه وأطيعوه وعبادة الله عبارة عن كل فعل يأتى به العبد لمجرد الله ويدخل فيه جميع أعمال القلوب وأفعال الجوارح (ولا تشركوا به) الالتفات للتأسيس و (شيئا) اما مفعول به أى شيأ من الاشياء من غير فرق بين حى وميت وجماد وحيوان واما

اسحق عن صلة عن ابن مسعود بنحوه وقال البخاري حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن خالد عن أبي قلابة عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكل أمة أمين وأمين هذه الامة أبو عبيدة بن الجراح وقال الامام أحمد حدثنا اسمعيل بن يزيد الرقي أبو يزيد حدثنا قرة عن عبد الكريم بن مالك الجزري عن عكرمة عن ابن عباس قال قال أبو جهل قبحه الله ان رأيت محمدا يصلي عند الكعبة لاتينه حتى أطأ على رقبته قال فقال لو فعل لاخذته الملائكة عيانا ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم به وقال الترمذي حسن صحيح وقد روى البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة جدا وانما ذكره فان فيه فوائد كثيرة وفيه غرابة وفيه مناسبة لهذا المقام قال البيهقي حدثنا أبو عبد الله الحافظ أبو سعيد ومحمد بن موسى بن الفضل قالا حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد ابن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده قال يونس وكان نصرانيا فأسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان باسم الله ابراهيم واسحق ويعقوب من محمد النبي رسول الله الى أسقف نجران وأهل نجران اسلم فاني أحمد اليكم الله ابراهيم واسحق ويعقوب أما بعد فاني أدعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد وادعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد فان أبيتم فالجزية فان أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام فلما أتى الاسقف الكتاب وقرأه فظع به وذعر ذعرا شديدا وبعث الى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة وكان من همدان ولم يكن أحد يدعى اذا نزلت معضلة قبله لا الايهم ولا السيد ولا العاقب فدفع الاسقف كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شرحبيل فقرأه فقال الاسقف يا أبا مريم ما رأيك فقال شرحبيل قد علمت ما وعد الله ابراهيم في ذرية اسمعيل من النبوة فما يؤمنني ان يكون هذا هو ذلك الرجل ليس لي في أمر النبوة رأي ولو كان في أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأيي واجتهدت لك فقال له الاسقف تنح فاجلس فتنحى شرحبيل فجلس ناحية فبعث الاسقف الى رجل من أهل نجران يقال له عبد الله بن شرحبيل وهو من ذي أصبح من حمير فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه فقال له مثل قول شرحبيل فقال له الاسقف تنح فاجلس فتنحى عبد الله فجلس ناحية فبعث الاسقف الى رجل من أهل نجران يقال له جبار بن فيض من بني الحرث بن كعب أحد بني الحماس فاقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله فأمره الاسقف فتنحى فجلس ناحية فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعا أمر الاسقف

مصدر أي شيأ من الاشراك من غير فرق بين الشرك الاكبر والاصغر والواضح والخفي (و) احسنوا (بالوالدين احسانا) براولين جانب وقد دل ذكر الاحسان اليهما بعد الامر بعبادة الله والنهي عن الاشراك به على عظم حقهما ومثله أن اشكر لي ولوالديك فامر سبحانه بان يشكر امعه وهو ان يقوم بخدمتهما ولا يرفع صوته عليهما ويسعى في تحصيل مرادهما والانفاق عليهما بقدر القدرة وقد وردت أحاديث كثيرة في حقوقهما وهي معروفة (وبذي القربى) أي صاحب القرابة وهو من يصح اطلاق اسم القربى عليه وان كان بعيدا وقيل ذو رحمه من قبل أمه وأبيه وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول من سره ان يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه أخرجه البخاري ومسلم وقد تقدم نظيره في البقرة الا انه هنا قال باعادة الباء وذلك لانها في حق هذه الامة فلا عتناء بها أكثروا عادة الباء تدل على زيادة التأكيد فناسب ذلك هنا بخلاف آية البقرة فانها في حق بني اسرائيل (واليتامى والمساكين) وقد تقدم تفسيرهم والمعنى وأحسنوا اليهم الى آخر ما هو مذكور في هذه الآية انما أمر بالاحسان اليهم لان اليتيم مخصوص بنوعين من العجز الصغر وعدم المشفق والمسكين هو الذي ركبه ذل الفاقة والفقر فتمسكن لذلك وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيأ أخرجه البخاري وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الساعي على الارملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله أحسبه قال وكالقائم الذي لا يفتر وكالصائم لا يفطر أخرجه الشيخان (والجار ذي القربى) أي القريب منك جواره وقيل هو من له مع الجوار في الدار قرب في النسب أو الدين (والجار الجنب) يستوي فيه المفرد والمثنى والمجموع مذكرا كان أو مؤنثا قاله السمين أي المجانب وهو مقابل للجار ذي القربى والمراد من يصدق عليه مسمى الجوار مع كون داره بعيدة وفي ذلك دليل على تعميم

بالناقوس فضرب به ورفعت النيران والمسوح فى الصوامع وكذلك كانوا يفعلون اذا فزعوا بالنهار واذا كان فزعهم ليلا ضربوا بالناقوس ورفعت النيران فى الصوامع فاجتمعوا حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادى اعلاه وأسفله وطول الوادى مسيرة يوم للراكب السريع وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألهم عن الرأى فيه فاجتمع رأى أهل الرأى منهم على ان يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمدانى وعبد الله بن شرحبيل الاصبحى وجبار بن فيض الحارثى فيأتونهم بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق الوفد حتى اذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حللا لهم يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه فلم يرد عليهم وتصدوا لكلامه نهارا طويلا فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب فانطلقوا (٢٣٥) يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وكانا معرفة لهم فوجدوهما فى ناس من المهاجرين والانصار فقالوا يا عثمان ويا عبد الرحمن ان نبيكم كتب الينا كتابا فأقبلنا مجيبين له فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا منا وتصدينا لكلامه نهارا طويلا فاعيانا ان يكلمنا فما الرأى منكما أترون ان نرجع فقال العلى بن أبى طالب وهو فى القوم ما ترى يا أبا الحسن فى هؤلاء القوم فقال على لعثمان وعبد الرحمن أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودون اليه ففعلوا فسلموا عليه فرد سلامهم ثم قال والذى بعثنى بالحق لقد أتونى المرة الاولى وان ابليس لمعهم ثم سألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسئلة حتى قالوا له ما تقول فى عيسى فانا نرجع الى قومنا ونحن نصارى يسرنا ان كنت نبيا ان نسمع ما تقول فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عندى فيه شئ يومى هذا فاقيموا حتى أخبركم بما يقول لى ربى فى عيسى فاصبح الغد وقد أنزل الله هذه الآية ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم الى قوله الكاذبين فابوا ان يتروا بذلك فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا على الحسن والحسين فى حميل له وفاطمة تمشى عند ظهره للملاعنة وله يومئذ عدة نسوة فقال شرحبيل لصاحبيه لقد علمنا ان الوادى اذا اجتمع اعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا الا عن رأيى وانى والله أرى أمرا ثقيلا والله لئن كان هذا الرجل مبعوثا فكنا أول العرب طعنا فى عينيه وردا عليه أمره لا تذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبنا بجائحة وانا الأدنى العرب منهم جوارا ولئن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلاعناه لا يبقى منا على وجه الارض شعر ولا ظفر الا هلك فقال له صاحباه فما الرأى يا أبا مريم فقال أرى أن أحكمه فانى أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا فقالا له أنت وذاك قال فتلقى شرحبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له انى قد رأيت خيرا من

الجيران بالاحسان اليهم سواء كانت الديار متقاربة أو متباعدة وعلى ان الجوار حرمة مرعية مأمور بها وفيه رد على من يظن ان الجار مختص بالملاصق دون من بينه وبينه حائل أو مختص بالقريب دون البعيد وقيل ان المراد بالجار الجنب هنا هو الغريب وقيل هو الاجنبى الذى لا قرابة بينه وبين المجاور له وقرئ الجنب بفتح الجيم وسكون النون أى ذى الجنب وهو الناحية وقيل المراد بالجار ذى القربى المسلم وبالجار الجنب اليهودى والنصرانى وقد اختلف أهل العلم فى المقدار الذى عليه يصدق مسمى الجوار ويثبت لصاحبه الحق فروى عن الاوزاعى والحسن انه الى حد أربعين دارا من كل ناحية وروى عن الزهرى نحوه وقيل من سمع اقامة الصلاة وقيل اذا جمعتهما محلة وقيل من سمع النداء والاولى ان يرجع فى معنى الجار الى الشرع فان وجد فيه ما يقتضى بيانه وانه يكون جارا الى حد كذا من الدور أو من مسافة الارض كان العمل عليه متعينا وان لم يوجد يرجع الى معناه لغة أو عرفا ولم يأت فى الشرع ما يفيد ان الجار هو الذى بينه وبين جاره مقدار كذا ولا ورد فى لغة العرب أيضا ما يفيد ذلك بل المراد بالجار فى اللغة المجاور ويطلق على معان قال فى القاموس الجار المجاور والذى أجرته من أن يظلم والمجير والمستجير والشريك فى التجارة وزوج المرأة وهى جارته وفرج المرأة وما قرب من المنازل والاست كالجارة والمقاسم والحليف والناصر انتهى قال القرطبى فى تفسيره وروى ان رجلا جاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال انى نزلت محلة قوم وان أقربهم منى جوارا أشدهم لى أذى فبعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر وعمر وعليا يصيحون على أبواب المساجد ألا ان أربعين دارا جار ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه انتهى قال الشوكانى ولو ثبت هذا لكان مغنيا عن غيره ولكنه رواه كما ترى من غير عزو له الى أحد كتب الحديث المعروفة وهو وان كان اماما فى علم الرواية فلا تقوم الحجة بما يرويه بغير سند مذكور ولا نقل عن كتاب مشهور ولا سيما وهو يذكر الواهيات كثيرا كما يفعل فى

ملا عنتك فقال وما هو فقال حكمك اليوم الى الليل وليلتك الى الصباح فهما حكمت فينا فهو جائز فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل وراءك أحد يثرب عليك فقال شرحبيل سل صاحبي فسألهما فقالا ما يرد الوادي ولا يصدر الا عن رأي شرحبيل فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يلاعنهم حتى اذا كان من الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب النبي محمد رسول الله لنجران ان كان عليهم حكمه في كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فاضل عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفي حلة في كل رجب ألف حلة وفي كل صفر ألف حلة وذكر تمام الشروط وبقية السياق والغرض ان وفودهم كان في سنة تسع لان الزهري قال كان أهل نجران أول من أدى الجزية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآية الجزية انما أنزلت بعد الفتح وهي قوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم (٢٣٦) الآخر الآية وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن داود المكي حدثنا بشر بن مهران حدثنا محمد بن دينار عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن جابر قال قدم على النبي صلى الله عليه وسلم العاقب والطيب فدعاهما الى الملاعنة فواعداه على ان يلاعناه الغداة قال فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل اليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي بعثني بالحق لو قالا لا لأمطر عليهم الوادي نارا قال جابر وفيهم نزلت ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم قال جابر أنفسنا وأنفسكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي ابن أبي طالب وأبناءنا الحسن والحسين ونساءنا فاطمة وهكذا رواه الحاكم في مستدركه عن علي ابن عيسى عن أحمد بن محمد بن الازهري عن علي بن حجر عن علي ابن مسهر عن داود بن أبي هند به بمعناه ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه هكذا قال وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلا وهذا أصح وقد روي عن ابن عباس والبراء نحو ذلك ثم قال الله تعالى ان هذا لهو القصص الحق أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم فان تولوا أي عن هذا الى غيره فان الله عليم بالمفسدين أي من عدل عن الحق الى الباطل فهو المفسد والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمته (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ثم وصفها بقوله سواء بيننا وبينكم أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها ثم فسرها بقوله أن لا نعبد الا الله ولا نشرك

تذكرته انتهى أقول هذا الحديث بلفظه أخرجه الطبراني كما ذكر في الترغيب والترهيب وروى السيوطي في الجامع الصغير الجوار أربعون دارا اخرجه البيهقي عن عائشة قال المناوي في شرحه وروى عن عائشة أوصاني جبريل بالجار الى أربعين دارا وكلاهما ضعيف والمعروف المرسل الذي أخرجه أبو داود وهكذا نقل عن السيوطي ثم قال ولفظ مرسل أبي داود حق الجوار أربعون دارا هكذا وهكذا وأشار قداما وعيينا وخلفا قال الزركشي سنده صحيح وقال ابن حجر رجاله ثقات ورواه أبو يعلى عن أبي هريرة مرفوعا باللفظ المذكور ولكن سنده كما قال الزركشي ضعيف قال ابن حجر فيه عبد السلام بن أبي الجنوب منكر الحديث انتهى فهذا يؤيد أصل ما نقله القرطبي والله أعلم وقد ورد في القرآن ما يدل على ان المساكنة في مدينة مجاورة قال الله تعالى لئن لم ينته المنافقون الى قوله ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا فجعل اجتماعهم في المدينة جوارا وأما الاعراف في مسمى الجوار فهي تختلف باختلاف أهلها ولا يصح حمل القرآن على أعراف متعارفة واصطلاحات متواضعة (والصاحب بالجنب) الباء بمعنى في أو على بابها وهو الاولى ومعناه الملابسة أي حال كونه ملتبسا بالجنب أي بالقرب بجنبه قيل هو الرفيق في السفر قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك وقال علي ابن أبي طالب وابن مسعود وابن أبي ليلى هو الزوجة والمرأة وقال ابن جريج هو الذي يصحبك ويلزمك رجاء نفعك وقال زيد بن أسلم هو جليسك في الحضر ورفيقك في السفر وامرأتك التي تضاجعك ولا يبعد ان يتناول الآية جميع ما في هذه الاقوال مع زيادة عليها وهو كل من صدق عليه انه صاحب بالجنب أي بجنبك كمن يقف بجنبك في تحصيل علم أو تعلم صناعة أو مباشرة تجارة أو نحو ذلك فانه صحبك وحصل بجنبك ومنهم من قعد في مسجد أو مجلس أو غير ذلك مع أدنى صحبة بينك وبينه (وابن السبيل) قال مجاهد هو الذي يجتازك مارا والسبيل الطريق فنسب المسافر اليه لمروره عليه ولزومه اياه فالاولى تفسيره

به شيأ لا وثنا ولا صليبا ولا صنما ولا طاغوتا ولا نارا ولا شيأ بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له وهذه دعوة جميع الرسل قال الله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون وقال تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ثم قال تعالى ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله وقال ابن جريج يعني يطيع بعضنا بعضا في معصية الله وقال عكرمة يسجد بعضنا لبعض فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون أي فان تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوا انتم على استمراركم على الاسلام الذي شرعه الله لكم وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر فسأله عن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن صفته ونعته وما يدعو اليه فاخبره بجميع ذلك على الجلية مع (٢٣٧) ان أبا سفيان اذ ذاك كان مشركا لم يسلم الا بعد وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح كما هو مصرح به في الحديث ولانه لما سأله هل يغدر قال فقلت لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها قال ولم يمكني كلمة ازيد فيها شيأ سوى هذه والغرض انه قال ثم جيء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم سلم على من اتبع الهدى اما بعد فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون وقد ذكر محمد بن اسحق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران وقال الزهري هم أول من بذل الجزية ولا خلاف ان آية الجزية نزلت بعد الفتح فالجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح الى هرقل في جملة الكتاب وبين ما ذكره محمد ابن اسحق والزهري والجواب من وجوه أحدها يحتمل ان هذه الآية نزلت مرتين مرة قبل الحديبية ومرة بعد الفتح الثاني محتمل ان صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران الى هذه الآية وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ويكون قول ابن اسحق الى بضع وثمانين آية ليس بمحفوظ لدلالة حديث أبي سفيان الثالث يحتمل ان قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية وان الذي بذلوه مصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية بل يكون من باب المهادنة والمصالحة ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك كما جاء فرض الخمس والاربعة اخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك الرابع يحتمل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمر بكتب هذا في كتابه الى هرقل لم يكن انزل بعد ثم انزل القرآن موافقة له صلى الله عليه وسلم كما نزل

بمن هو على سفر فان على المقيم ان يحسن اليه وقيل هو المنقطع به في سفره للحج أو للغزو أو مطلقا والاظهر ان يقول المسافر من غير قيد الانقطاع وقيل هو الضيف قاله القاري وقد وردت أحاديث صحيحة في اكرام الضيف وجائزته ثلاثة أيام في الصحيحين وغيرهما (و) احسنوا الى (ما ملكت أيمانكم) من الارقاء احسانا وهم العبيد والاماء وقيل أعم فيشمل الحيوانات وهي غير الارقاء أكثر في يد الانسان منهم فغلب جانب الكثرة وأمر الله بالاحسان الى كل مملوك آدمي وغيره قاله القاري والاول أولى وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بانهم يطعمون مما يطعم مالكهم ويلبسون مما يلبس قال مجاهد فما خولك الله فاحسن صحبته كل هذا أوصى الله به وعن مقاتل نحوه والاحسان اليهم ان لا يكلفهم ما لا يطيقونه ولا يؤذيهم بالكلام الخشن وأن يعطيهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون اليه بقدر الكفاية وعن علي بن أبي طالب قال كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم وقد ورد مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بر الوالدين وفي صلة القرابة وفي الاحسان الى اليتامى والجار وفي القيام بما يحتاج اليه المماليك أحاديث كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة لا حاجة بنا الى بسطها هنا وقوله (ان الله) علة لمحذوف تقديره ولا تفتخروا عليهم لان الله (لا يحب من كان مختالا) ذا الخيلاء وهو الكبر والتيه اسم فاعل من اختال يختال أي تكبر وأعجب بنفسه أي لا يحب من كان متكبرا تائها على الناس (فخورا) مفتخرا عليهم والفخر المدح للنفس والتطاول وتعديد المناقب والمحاسن وخص هاتين الصفتين لانهما يحملان صاحبهما على الانفة مما ندب الله اليه في هذه الآية يعني يأنف من أقاربه الفقراء ومن جيرانه الضعفاء وغيرهم ولا يلتفت اليهم ومن كان متكبرا لا يقوم بحقوق الناس وقد ورد في ذم الاختيال والكبر والفخر ما هو معروف (الذين يبخلون) البخل المذموم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله وهؤلاء

بموافقة عمر بن الخطاب فى الحجاب وفى الاسارى وفى عدم الصلاة على المنافقين وفى قوله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وفى قوله عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن الآية (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى فى محاجتهم فى ابراهيم الخليل عليه السلام ودعوى كل طائفة منهم انه كان منهم كما قال محمد بن اسحق بن يسار حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال اجتمعت نصارى نجران واحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده فقالت الاحبار ما كان ابراهيم الا يهوديا وقالت النصارى ما كان ابراهيم الا نصرانيا فانزل الله تعالى يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم الآية أى كيف تدعون ايها اليهود انه كان يهوديا وقد كان زمنه قبل ان ينزل الله التوراة على موسى وكيف تدعون ايها النصارى انه كان نصرانيا وانما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ولهذا قال تعالى أفلا تعقلون ثم قال تعالى ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم الآية هذا انكار على من يحاج فيما لا علم له به فان اليهود والنصارى تحاجوا فى ابراهيم بلا علم ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما تعلق بأديانهم التى شرعت لهم الى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لكان أولى بهم وانما تكلموا فيما لا يعلمون فانكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به الى عالم الغيب والشهادة الذى يعلم الامور على حقائقها وجلياتها ولهذا قال تعالى والله يعلم وأنتم لا تعلمون ثم قال تعالى ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما أى متحنفا عن الشرك قاصدا الى الايمان وما كان من المشركين وهذه الآية كالتى تقدمت فى سورة البقرة وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا الآية ثم قال تعالى ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه الآية يقول تعالى أحق الناس بمتابعة ابراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه وهذا النبى يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والانصار ومن تبعهم بعدهم قال سعيد بن منصور حدثنا أبو الاحوص عن سعيد بن مسروق عن أبى الضحى عن مسروق عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكل نبى ولاة من النبيين وان ولى منهم أبى وخليل ربى عز وجل ثم قرأ ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه الآية وقد رواه الترمذى والبزار من حديث أبى أحمد الزبيرى عن سفيان الثورى عن أبيه به ثم قال البزار ورواه غير أبى أحمد عن سفيان عن أبيه عن أبى الضحى عن عبد الله ولم يذكر مسروقا وكذا رواه الترمذى من طريق وكيع

المذكورون فى هذه الآية ضموا الى ما وقعوا فيه من البخل الذى هو أشر خصال الشر ما هو أقبح منه وأدل على سقوط نفس فاعله وبلوغه فى الرذالة الى غايتها (و) هو انهم مع بخلهم بأموالهم وبما منحوا به وكتمهم لما أنعم الله به عليهم من فضله (يأمرون الناس بالبخل) كأنهم يجدون فى صدورهم من جود غيرهم بماله حرجا ومضاضة فلا كثر الله فى عباده من أمثالكم هذه أموالكم قد بخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها باخراج بعضها فى مواضعه فما لكم بخلتم بأموال غيركم مع انه لا يلحقكم فى ذلك ضرر وهل هذا الا غاية اللؤم ونهاية الحمق والرقاعة وقبح الطباع وسوء الاختيار وقد قيل ان المراد بهذه الآية اليهود فانهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله فى التوراة وفى البخل أربع لغات فتح الباء والخاء وضمهما وفتح الباء مع سكون الخاء وضم الباء مع سكون الخاء وقرئ بهما جميعا وقرأ الجمهور بالاخيرة (و يكتمون ما آتاهم الله من فضله) من صفة محمد أو من العلم أو الغنى قيل المراد بهما المنافقون ولا يخفى ان اللفظ أوسع من ذلك وأكثر شمولا وأعم فائدة (وأعتدنا للكافرين) يعنى الجاحدين لنعمة الله عليهم (عذابا مهينا) فى الآخرة عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق أخرجه الترمذى واستغربه (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) عطف على قوله الذين يبخلون ووجه ذلك ان الاولين قد فرطوا بالبخل وبأمر الناس به و بكتم ما آتاهم الله من فضله وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم فى غير مواضعها لمجرد الرياء والسمعة وليقال ما أسخاهم وما أجودهم كما يفعله من يريد ان يتسامع الناس بانه كريم و يتطاول على غيره بذلك و يشمخ بأنفه عليه مع ما ضم الى هذا الانفاق الذى يعود عليه بالضرر من عدم الايمان بالله واليوم الآخر أى لا يصدقون بتوحيد الله ولا بالمعاد الذى فيه جزاء الاعمال انه كائن وكررت لا وكذلك الباء اشعارا بان الايمان بكل منهما منتف على حدته قيل نزلت فى اليهود وقيل فى المنافقين

عن سفيان ثم قال وهذا اصح لكن رواه وكيع فى تفسيره فقال حدثنا سفيان عن أبيه عن أبى اسحق عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل نبى ولاية من النبيين وان ولى منهم أبى وخليل ربى عز وجل ابراهيم عليه السلام ثم قرأ ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا الآية وقوله والله ولى المؤمنين أى ولى جميع المؤمنين برسله (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ومايضلون الا أنفسهم ومايشعرون يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون وقال طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته (١٣٩) من يشاء والله ذو الفضل العظيم) يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم اياهم الاضلال وأخبر أن وبال ذلك انما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون انهم ممكور بهم ثم قال تعالى منكرا عليهم يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون أى تعلمون صدقها وتتحققون حقها يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون أى تكتمون ما فى كتبكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره الآية هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الايمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح فاذا جاء آخر النهار ارتدوا الى دينهم ليقول الجهلة من الناس انما ردهم الى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين ولهذا قال لعلهم يرجعون وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى اخبارا عن اليهود بهذه الآية يعنى يهود اصلت مع النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرا منهم ليروا الناس ان قد بدت لهم الضلالة منه بعد أن كانوا اتبعوه وقال العوفى عن ابن عباس قالت طائفة من أهل الكتاب اذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا واذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم اعلم منا وهكذا روى عن قتادة والسدى والربيع وابى مالك وقوله تعالى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم أى لا تطمئنوا وتظهروا سركم الا لمن تبع دينكم ولا تظهروا ما بايديكم الى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم قال الله تعالى قل ان الهدى هدى الله أى هو الذى يهدى قلوب المؤمنين الى أتم الايمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات وان كتمتم ايها اليهود ما بايديكم

المنافقين وقيل فى مشركى مكة (ومن يكن الشيطان له قرينا) فى الكلام اضمار والتقدير ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقرينهم الشيطان ومن يكن الخ والقرين المقارن وهو الصاحب والخليل فعيل بمعنى مفاعل كالخليط والجليس والقرين الحبل لانه يقرن به بين البعيرين والمعنى من قبل من الشيطان فى الدنيا فقد قارنه فيها أو فهو قرينه فى النار (فساء) الشيطان (قرينا) وبئس الصاحب وبئس الخليل هو وفيه تقريع لهم على طاعة الشيطان وقيل هذا فى الآخرة يجعل الله الشياطين قرناءهم فى النار يقرن مع كل كافر شيطان فى سلسلة من النار والاول أولى والصق بظاهر الآية (وماذا عليهم) أى على هذه الطوائف (لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) ابتغاء لوجهه وامتثالا لامره أى وماذا يكون عليهم من ضرر ووبال لو فعلوا ذلك (وكان الله بهم عليما) فيه وعيد لهم وتهديد وتوبيخ على الجهل بمكان المنفعة (ان الله لا يظلم مثقال) مفعال من الثقل كالمقدار من القدر أى لا يظلم شيأ مقدار (ذرة) واحدة الذر وهى النمل الصغار وقيل رأس النملة وقيل الخردلة وقيل كل جزء من أجزاء الهباء الذى يظهر فيما يدخل من الشمس من كوة أو غيرها ذرة والاول هو المعنى اللغوى الذى يجب حمل القرآن عليه والمراد من هذا الكلام ان الله لا يظلم كثيرا ولا قليلا أى لا ينقصهم من ثواب أعمالهم ولا يزيد فى عقاب ذنوبهم وزن ذرة فضلا عما فوقها ومناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة (وان تك حسنة) قرأ أهل الحجاز بالرفع أى ان توجد حسنة على أن كان هى التامة لا الناقصة وقرأ من عداهم بالنصب أى ان تك فعلته حسنة وحذفت منها النون من غير قياس تشبيها بحرف العلة وتخفيفا لكثرة الاستعمال وقال الزجاج الاصل فى تك تكون فسقطت الضمة للجزم والواو لسكونها وسكون النون وسقوط النون لكثرة الاستعمال تشبيها بحروف اللين لانها ساكنة فحذفت استخفافا وقيل ان التقدير ان يك مثقال الذرة حسنة (يضاعفها) أنث ضمير المثقال لكونه مضافا الى المؤنث والاول أولى

الى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين ولهذا قال لعلهم يرجعون وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى اخبارا عن اليهود بهذه الآية يعنى يهود اصلت مع النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرا منهم ليروا الناس ان قد بدت لهم الضلالة منه بعد أن كانوا اتبعوه وقال العوفى عن ابن عباس قالت طائفة من أهل الكتاب اذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا واذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم اعلم منا وهكذا روى عن قتادة والسدى والربيع وابى مالك وقوله تعالى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم أى لا تطمئنوا وتظهروا سركم الا لمن تبع دينكم ولا تظهروا ما بايديكم الى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم قال الله تعالى قل ان الهدى هدى الله أى هو الذى يهدى قلوب المؤمنين الى أتم الايمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات وان كتمتم ايها اليهود ما بايديكم

من صفة محمد النبي الامي في كتبكم نقلتموها عن الانبياء الاقدمين وقوله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم يقولون لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم و يساوونكم فيه و يمتازون به عليكم لشدة الايمان به أو يحاجوكم به عند ربكم أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة وتركب الحجة في الدنيا والآخرة قال الله تعالى قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء أي الامور كلها تحت تصرفه وهو المعطي المانع يمن على من يشاء بالايمان والعلم والتصرف التام ويضل من يشاء فيعمى بصره و بصيرته و يختم على قلبه وسمعه و يجعل على بصره غشاوة وله الحجة التامة والحكمة البالغة والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد ولا يوصف بما شرف به نبيكم محمدا صلى الله عليه وسلم على سائر الانبياء وهداكم به الى أكمل (٢٤٠) الشرائع (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان

وقرأ الحسن تضاعفها بالنون والباقون بالياء وهي الاربع وقد تقدم الكلام في المضاعفة والمراد مضاعفة ثواب الحسنة لان مضاعفة نفس الحسنة بان تجعل الصلاة الواحدة صلاتين مما لا يعقل عن سعيد بن جبير وان يك حسنة وزن ذرة زادت على سيآته يضاعفها فاما المشرك فيخفف بها عنه العذاب ولا يخرج من النار أبدا قال قتادة لان تفضل حسناتي على سيآتي بمثقال ذرة أحب الي من الدنيا وما فيها وفي الباب أحاديث يطول ذكرها وهذا عند الحساب (ويؤت) أي يعط صاحبها (من لدنه) أي من عنده على نهج التفضل زائدا على ما وعده في مقابلة العمل (أجرا عظيما) يعني الجنة قال أبو هريرة اذا قال الله أجرا عظيما فمن يقدر قدره (فكيف) يكون حال هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين أو حال كفار قريش خاصة يوم القيامة هذا الاستفهام معناه التوبيخ والتقريع (اذا جئنا من كل أمة بشهيد) قال ابن عباس انه يؤتى بنبي كل أمة يشهد عليها أولها (وجئنا بك على هؤلاء) أي الانبياء أو جميع الامم أو المنافقين أو المشركين وقيل على المؤمنين (شهيدا) عن ابن مسعود قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اقرأ علي القرآن قلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل قال نعم اني أحب أن أسمعه من غيري فقرأت سورة النساء حتى أتيت الى هذه الآية فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا قال حسبك الآن فاذا عيناه تذرفان أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري وأخرجه الحاكم وصححه من حديث عمرو بن حريث (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول) فيما أمرهم به من التوحيد (لو تسوى بهم الارض) وقرئ تسوى بفتح التاء وتشديد السين وبفتحها وتخفيف السين أي ان الارض هي التي تسوى بهم أي انهم تمنوا لو انفتحت لهم الارض فساخوا فيها وقيل بهم بمعنى عليهم وعلى القراءة الاولى أي بالبناء للمفعول معناه لو سوى الله بهم الارض فجعلهم والارض سواء حتى لا يبعثوا (ولا يكتمون الله حديثا) أي انهم لا يقدرون على

تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين) يخبر تعالى عن اليهود بان منهم الخونة ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم فان منهم من ان تأمنه بقنطار أي من المال يؤده اليك أي وما دونه بطريق الاولى أن يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما أي بالمطالبة والملازمة والالحاح في استخلاص حقك واذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤده اليك وقد تقدم الكلام على القنطار في اول السورة وأما الدينار فمعروف وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا سعيد ابن عمرو السكوني حدثنا بقية عن زياد بن الهيثم حدثني مالك بن دينار قال انما سمي الدينار لانه دين ونار وقيل معناه من أخذه بحقه فهو دينه ومن أخذه بغير حقه فله النار ومناسب أن نذكر ههنا الحديث الذي علقه البخاري في غير موضع من صحيحه ومن أحسنها سياقه في كتاب الكفالة حيث قال وقال الليث حدثني جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز الاعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ذكر رجلا من بني اسرائيل سأل بعض بني اسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال ائتني بالشهداء أشهدهم فقال كفى بالله شهيدا قال ائتني بالكفيل قال كفى بالله كفيلا قال صدقت فدفعها اليه الى أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركب بها اليقدم عليه في الاجل الذي اجله فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فادخل فيها ألف دينار وصحيفة منه الى صاحبه ثم زجج موضعها ثم أتى بها الى البحر فقال اللهم انك تعلم اني استسلفت فلانا ألف دينار فسألني شهيدا فقلت كفى بالله شهيدا وسألني كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضي بك واني جهدت ان أجد مركبا أبعث اليه الذي له فلم أقدر واني استودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس

الكتم

مركبا يخرج الى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه لينظر لعل مركبا يجيئه بماله فاذا بالخشبة التى فيها المال فاخذها لاهله حطبا فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فاتاه بالف دينار وقال والله مازلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه قال هل كنت بعثت الى بشئ قال ألم أخبرك انى لم أجد مركبا قبل هذا قال فان الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة فانصرف بالف دينار راشدا هكذا رواه البخارى فى موضع معلقا بصيغة الجزم وأسنده فى بعض المواضع من الصحيح عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه ورواه الامام أحمد فى مسنده هكذا مطولا عن يونس بن محمد المؤدب عن الليث به ورواه البزار فى مسنده عن الحسن بن مدرك عن يحيى بن حماد عن أبى عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه ثم قال لا يروى عن النبى صلى الله (٢٤١) عليه وسلم الا من هذا الوجه بهذا الاسناد كذا

الكتم فى مواطن دون مواطن قال ابن عباس لا يكتمون أى بجوارحهم ولا يقدرون على ذلك يعنى تشهد عليهم الجوارح والاعضاء والزمان والمكان فلم يستطيعوا الكتمان قال الزجاج هذا كلام مستأنف لان ما عملوه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانه وقال بعضهم المعنى يودون أن الارض سويت بهم وانهم لم يكتموا حديثا لانه ظهر كذبهم (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) جعل الخطاب خاصا بالمؤمنين لانهم الذين كانوا يقربون الصلاة حال السكر وأما الكفار فهم لا يقربونها سكارى ولا غير سكارى قال أهل اللغة اذا قيل لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تتلبس بالفعل واذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن منه والمراد هنا النهى عن التلبس بالصلاة وغشيانها وبه قال جماعة من المفسرين واليه ذهب أبو حنيفة وقال آخرون المراد مواضع الصلاة وبه قال الشافعى وعلى هذا فلا بد من تقدير مضاف ويقوى هذا قوله ولا جنبا الا عابرى سبيل وقالت طائفة المراد الصلاة ومواضعها معا لانهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد الا للصلاة ولا يصلون الا مجتمعين فكانا متلازمين وسكارى جمع سكران مثل كسالى جمع كسلان وقرئ سكرى بالفتح وهو تكسير سكران وقرأ الاعمش سكرى كحبلى والسكر لغة السد ومنه قيل لما يعرض للمرء من شرب المسكر لانه يسد ما بين المرء وعقله وأكثر ما يقال السكر لازالة العقل بالمسكر وقد يقال ذلك لازالته بغضب ونحوه من عشق وغيره والسكر بالفتح وسكون الكاف حبس الماء وبالكسر نفس الموضع المسدود وأما السكر بفتحهما فما يسكر به من المشروب ومنه سكرا ورزقا حسنا وقد ذهب العلماء كافة الى ان المراد بالسكر هنا سكر الخمر الا الضحاك فانه قال المراد سكر النوم وقال ابن عباس النعاس وسيأتى بيان سبب نزول الآية وبه يندفع ما يخالف الصواب من هذه الاقوال (حتى تعلموا ما تقولون) هذا غاية النهى عن قربان الصلاة فى حال السكر أى حتى يزول عنكم أثر السكر وتعلموا ما تقولونه وتصحوا وتفيقوا من السكر فان السكران لا يعلم ما يقوله وقد

قال وهو خطأ لما تقدم وقوله ذلك بانهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل أى انما حملهم على جحود الحق انهم يقولون ليس علينا فى ديننا حرج فى أكل أموال الامين وهم العرب فان الله قد أحلها لنا قال الله تعالى ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون أى وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوها بهذه الضلالة فان الله حرم عليهم أكل الاموال الا بحقها وانما هم قوم بهت قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أبى اسحق الهمدانى عن ابى صعصعة بن يزيد ان رجلا سأل ابن عباس فقال انا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة قال ابن عباس فتقولون ماذا قال نقول ليس علينا بذلك بأس قال هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الاميين سبيل انهم اذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم الا بطيب أنفسهم وكذا رواه الثورى عن أبى اسحق بنحوه وقال ابن أبى حاتم

(٣١ - فتح البيان ثانى) حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو الربيع الزهرانى حدثنا يعقوب حدثنا جعفر عن سعيد بن جبير قال لما قال أهل الكتاب ليس علينا فى الاميين سبيل قال نبى الله صلى الله عليه وسلم كذب أعداء الله ما من شئ كان فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى هاتين الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر ثم قال تعالى بلى من أوفى بعهده واتقى أى لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذى عاهدكم الله عليه من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم اذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الانبياء وأممهم بذلك واتقى محارم الله واتبع طاعته وشريعته التى بعث بها خاتم رسله وسيدهم فان الله يحب المتقين (ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) يقول تعالى ان الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وذكر صفته للناس وبيان أمره وعن أيمانهم

الكاذبة الفاجرة الآثمة بالاثمان القليلة الزهيدة وهى عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة أى لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة أى برحمة منه لهم يعنى لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ولا ينظر اليهم بعين الرحمة ولا يزكيهم أى من الذنوب والادناس بل يأمر بهم الى النار ولهم عذاب أليم وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر الحديث الاول قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا شعبة قال على بن مدرك أخبرنى قال سمعت أبا زرعة عن خرشة بن الحر عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قلت يا رسول الله من هم خسروا وخابوا قال وأعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات قال المسبل والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمنان ورواه مسلم وأهل السنن من حديث شعبة به بطريق أخرى قال أحمد حدثنا اسمعيل عن الجريرى عن ابى العلاء ابن الشخير عن أبى الاحمس قال لقيت أبا ذر فقلت له بلغنى عنك انك تحدث حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما انه لا يخالنى ان أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما سمعته منه فما الذى بلغك عنى قلت بلغنى انك تقول ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يشنؤهم الله قال قلته وسمعته قلت فمن هؤلاء الذين يحبهم الله قال الرجل يلقى العدو فى فئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لاصحابه والقوم يسافرون فيطول سراهم حتى يحبوا ان يمسوا الارض فينزلون فيتنحى أحدهم فيصلى حتى يوقظهم لرحيلهم والرجل يكون له حتى يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن قلت ومن هؤلاء الذين يشنؤهم الله قال التاجر الحلاف أو قال البائع الحلاف والفقير المختال والبخيل المنان غريب من هذا الوجه الحديث الثانى قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن تكون

تمسك بهذا من قال ان طلاق السكران لا يقع لانه اذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد وبه قال عثمان بن عفان وابن عباس وطاوس وعطاء والقاسم وربيعة وهو قول الليث بن سعد واسحق وأبى ثور والمزنى واختاره الطحاوى وقال أجمع العلماء على ان طلاق المعتوه لا يجوز والسكران معتوه كالموسوس وأجازت طائفة وقوع طلاقه وهو محكى عن عمر بن الخطاب ومعاوية وجماعة من التابعين وهو قول أبى حنيفة والثورى والاوزاعى واختلف قول الشافعى فى ذلك وقال مالك يلزمه الطلاق والقود فى الجراح والقتل ولا يلزمه النكاح والبيع أخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والضياء فى المختارة عن على بن أبى طالب قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون فأنزل الله هذه الآية وأخرج ابن جرير وابن المنذر ان الذى صلى بهم عبد الرحمن وروى بالفاظ من طرق (ولا جنبا الا عابرى سبيل) الجنب لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع لانه ملحق بالمصدر كالبعد والقرب قال الفراء جنب الرجل وأجنب من الجنابة وهو المشهور فى اللغة والفصيح وبه جاء القرآن وقيل يجمع الجنب فى لغة على أجناب مثل عنق وأعناق وطنب وأطناب والمعنى جنبا بالجاج وانزال ونصبه على الحال والاستثناء مفرغ أى لا تقربوها فى حال من الاحوال الا فى حال عبور السبيل والمراد به هنا السفر فانه يجوز لكم أن تصلوا بالتيمم وهذا قول على وابن عباس وابن جبير ومجاهد والحكم وغيرهم قالوا الا يصح لاحد أن يقرب الصلاة وهو جنب الا بعد الاغتسال الا المسافر فانه يتيمم لان الماء قد يعدم فى السفر لا فى الحضر فان الغالب انه لا يعدم وقال ابن مسعود وعكرمة والنخعى وعمرو بن دينار ومالك والشافعى عابر السبيل هو المجتاز فى المسجد وهو مروى عن ابن عباس فيكون معنى الآية على هذا لا تقربوا مواضع الصلاة وهى المساجد فى حال الجنابة الا أن

جرير بن حازم حدثنا عدى بن عدى أخبرنى رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة عن أبيه عدى هو ابن عميرة الكندى قال خاصم رجل من كندة يقال له امرؤ القيس بن عابر رجلا من حضرموت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أرض فقضى على الحضرمى بالبينة فلم يكن له بينة فقضى على امرئ القيس باليمين فقال الحضرمى أمكنته من اليمين يا رسول الله ذهبت ورب الكعبة أرضى فقال النبى صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان قال رجاء وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا فقال امرؤ القيس ماذا لمن تركها يا رسول الله فقال الجنة قال فاشهد أنى قد تركتها له كلها ورواه النسائى من حديث عدى بن عدى به الحديث الثالث قال أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن

شقيق عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان فقال الاشعث في والله كان ذلك كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني أرضي فقدمته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألك بينة قلت لا فقال لليهودي احلف فقلت يا رسول الله اذا يحلف فيذهب مالي فأنزل الله عز وجل ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية أخرجاه من حديث الاعمش طريق أخرى قال أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود عن شقيق بن سلمة حدثنا عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان قال فجاء الاشعث بن قيس فقال ما يحدثكم أبو عبد الرحمن فحدثناه فقال كان في هذا الحديث خاصمت ابن عم لي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بئر كانت لي في يده فجحدني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينتك انها بئرك والا فيمينه قال قلت يا رسول الله مالي بينة وان تجعلها بيمينه يذهب بئري ان خصمي امرؤ فاجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان قال وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية الحديث الرابع قال أحمد حدثنا يحيى بن غيلان قال حدثنا رشدين عن زياد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى عبادا لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر اليهم قيل ومن أولئك يا رسول الله قال متبرئ من والديه وراغب عنهما ومتبرئ من ولده ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم الحديث الخامس قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا هشيم أنبأنا العوام يعني ابن حوشب عن ابراهيم بن عبد الرحمن يعني السكسكي عن عبد الله بن أبي أوفى ان رجلا أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد اعطي بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت هذه الآية ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية ورواه البخاري من غير وجه عن العوام الحديث السادس قال الامام أحمد حدثنا وكيع عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده ورجل حلف على سلعة بعد العصر يعني كاذبا ورجل بايع اماما فان أعطاه وفى له وان لم يعطه لم يف له ورواه أبو داود والترمذي من حديث وكيع وقال الترمذي حديث حسن صحيح (وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب

تكونوا مجتازين فيها من جانب الى جانب وفي القول الاول قوة من جهة كون الصلاة فيه باقية على معناها الحقيقي وضعف من جهة ما في حمل عابر السبيل على المسافر وان معناه انه يقرب الصلاة عند عدم الماء بالتيمم فان هذا الحكم يكون في الحاضر اذا عدم الماء كما يكون في المسافر وفي القول الثاني قوة من جهة عدم التكليف في معنى قوله الا عابري سبيل وضعف من جهة حمل الصلاة على مواضعها وبالجملة فالحمال الاولى أعني قوله وأنتم سكارى تقوي بقاء الصلاة على معناها الحقيقي من دون تقدير مضاف وسبب نزول الآية كما سبق يقوي ذلك وقوله الا عابري سبيل يقوي تقدير المضاف أي لا تقربوا مواضع الصلاة ويمكن أن يقال ان بعض قيود النهي أعني لا تقربوا وهو قوله وأنتم سكارى يدل على أن المراد بالصلاة معناها الحقيقي وبعض قيود النهي وهو قوله الا عابري سبيل يدل على ان المراد مواضع الصلاة ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه ويكون ذلك بمنزلة نهيين مقيد كل واحد منهما بقيد وهما لا تقربوا الصلاة التي هي ذات الاذكار والاركان وأنتم سكارى ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنبا الا حال عبوركم المسجد من جانب الى جانب وغاية ما يقال في هذا انه من الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز بتأويل مشهور وقال ابن جرير بعد حكايته للقولين والاولى قول من قال ولا جنبا الا عابري سبيل الاجتيازي طريق فيه وذلك انه قد بين حكم المسافر اذا عدم الماء وهو جنب في قوله وان كنتم مرضى أو على سفر الآية فكان معلوما بذلك أي ان قوله ولا جنبا الا عابري سبيل لو كان معنيا به المسافر لم يكن لاعادة ذكره في قوله وان كنتم مرضى أو على سفر معنى مفهوم وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك فاذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا تقربوها أيضا جنبا حتى تغتسلوا الا عابري سبيل قال وعابر السبيل المجتاز مرا وقطعا يقال منه عبرت هذا الطريق فأنا أعبره عبرا وعبورا ومنه قيل عبر فلان

وهم يعلمون) يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله ان منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ليوهموا الجهلة انه في كتاب الله كذلك وينسبونه الى الله وهو كذب على الله وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله ولهذا قال تعالى ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون وقال مجاهد والشعبي والحسن وقتادة والربيع بن أنس يلوون ألسنتهم بالكتاب يحرفونه وهكذا روى البخاري عن ابن عباس انهم يحرفون ويزيلون وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله وقال وهب بن منبه ان التوراة والانجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منهما حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله فاما كتب الله فانها محفوظة لا تحول رواه ابن أبي حاتم فان عني وهب ما بايديهم من ذلك فلا شك انه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان ووهم فاحش وهو من باب تفسير المعرب المعبر وفيهم كثير منهم بل أكثرهم بل جميعهم فاسد وأما ان عني كتب الله التي هي كتبه من عنده فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء (ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) قال محمد بن اسحق حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الاحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام أتريد يا محمد ان نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم فقال رجل من أهل نجران نصراني وقال يقال له الرئيس أو ذاك تريد منا يا محمد واليه تدعونا أو كما قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ الله ان نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غير الله ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني أو كما قال صلى الله عليه وسلم فانزل الله في ذلك من قولهما ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة الى قوله بعد اذ أنتم مسلمون فقوله ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس اعبدوني من دون الله أي مع الله فاذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل فلان لا يصلح لاحد من الناس غيرهم بطريق الاولى والاحرى ولهذا قال الحسن البصري لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته قال وذلك ان القوم كان يعبد بعضهم بعضا يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم

النهر اذا قطعه وجاوزه ومنه قيل للناقة القوية هي عبر اسفار لقوتها على قطع الاسفار قال ابن كثير وهذا الذي نصره يعني ابن جرير هو قول الجمهور وهو الظاهر من الآية انتهى (حتى تغتسلوا) غاية للنهي عن قربان الصلاة أو مواضعها حال الجنابة والمعنى لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا الا حال عبوركم السبيل وعن علي قال نزلت في المسافر تصيبه الجنابة فيتيمم ويصلي وقال ابن عباس ان لم تجدوا الماء فقد أحلت أن تمسحوا بالارض وعن مجاهد قال لا يمر الجنب ولا الحائض في المسجد انما أنزلت ولا جنبا الا عابري سبيل للمسافر يتيمم ثم يصلي (وان كنتم مرضى) المرض عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال والاعتياد الى الاعوجاج والشذوذ وهو على ضربين كبير ويسير والمراد هنا أن يخاف على نفسه التلف أو الضرر باستعمال الماء أو كان ضعيفا في بدنه لا يقدر على الوصول الى موضع الماء وروي عن الحسن انه يتطهر وان مات وهذا باطل يدفعه قوله تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج وقوله ولا تقتلوا أنفسكم وقوله يريد الله بكم اليسر (أو على سفر) فيه جواز التيمم لمن صدق عليه اسم المسافر والخلاف مبسوط في كتب الفقه وقد ذهب الجمهور الى انه لا يشترط ان يكون سفر قصر وقال قوم لا بد من ذلك وقد أجمع العلماء على جواز التيمم للمسافر واختلفوا في الحاضر فذهب مالك وأصحابه وأبو حنيفة وأحمد الى انه يجوز في الحضر والسفر وقال الشافعي لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم الا ان يخاف التلف (أو جاء أحد منكم من الغائط) هو المكان المنخفض المطمئن من الارض والمجيء منه كناية عن الحدث والجمع الغيطان والاغواط وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تستتر عن أعين الناس ثم يسمى الحدث الخارج من الانسان غائطا توسعا من باب تسمية الشيء باسم مكانه ويدخل في الغائط جميع الاحداث الناقضة للوضوء (أو لامستم النساء) وقرئ لمستم قيل المراد بما في القراءتين الجماع وقيل المراد به مطلق المباشرة وقيل انه يجمع الامرين جميعا

ورهبانهم كما قال الله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله الآية وفى مسند الترمذى كما سيأتى ان عدى بن حاتم قال يارسول الله ماعبدوهم قال بلى انهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم اياهم فالجهلة من الاحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين فانهم انما يأمرون بما يأمر الله به و بلغتهم اياه رسله الكرام وانما ينهونهم عما نهاهم الله عنه و بلغتهم اياه رسله الكرام فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم السفراء بين الله وبين خلقه فى أداء ما حملوه من الرسالة وابلاغ الامانة فقاموا بذلك أتم القيام ونصحوا الخلق وبلغوهم الحق وقوله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون أى ولكن يقول الرسول للناس كونوا ربانيين قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد أى حكماء علماء حلماء وقال الحسن وغير واحد فقهاء (٢٤٥) وكذا روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وعطاء الخراسانى وعطية العوفى والربيع بن أنس وعن الحسن أيضا يعنى أهل عبادة وأهل تقوى وقال الضحاك فى قوله بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيها تعلمون أى تفهمون معناه وقرئ تعلمون بالتشديد من التعليم وبما كنتم تدرسون تحفظون ألفاظه ثم قال الله تعالى ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أى ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله لانبى مرسل ولا ملك مقرب أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون أى لا يفعل ذلك الا من دعا الى عبادة غير الله ومن دعا الى عبادة غير الله فقد دعا الى الكفر والانبياء انما يأمرون بالايمان وهو عبادة الله وحده لاشريك له كما قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون وقال تعالى ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت الآية وقال واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وقال اخبارا عن الملائكة ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون) يخبر تعالى انه أخذ ميثاق كل نبى بعثه من لدن آدم عليه السلام الى عيسى عليه السلام لما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة و بلغ أى مبلغ ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته ولهذا قال تعالى وتقدس واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة أى لما أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى وقال ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وقتادة والسدى يعنى عهدى وقال محمد بن اسحق

وقال المبرد الاولى فى اللغة أن يكون لامستم بمعنى قبلتم ونحوه ولمستم بمعنى غشيتم واختلف العلماء فى معنى ذلك على أقوال فقالت فرقة الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع قالوا والجنب لا سبيل له الى التيمم بل يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجد الماء وقد روى هذا عن عمر وابن مسعود قال ابن عبد البر لم يقل بقولهما فى هذه المسئلة أحد من فقهاء الامصار من أهل الرأى وحملة الآثار انتهى وأيضا الاحاديث الصحيحة تدفعه وتبطله كحديث عمار وعمران بن حصين وأبى ذر فى تيمم الجنب وقالت طائفة هو الجماع كما فى قوله ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقوله وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وهو يروى عن على وأبى بن كعب وابن عباس ومجاهد وطاوس والحسن وعبيد بن عمير وسعيد بن جبير والشعبى وقتادة ومقاتل بن حيان وأبى حنيفة وقال مالك الملامس بالجماع يتيمم والملامس باليد يتيمم اذا التذ فان لمسها بغير شهوة فلا وضوء وبه قال أحمد واسحق وقال الشافعى اذا أفضى الرجل بشئ من بدنه الى بدن المرأة سواء كان باليد أو بغيرها من أعضاء الجسد انتقضت به الطهارة والا فلا وحكاه القرطبى عن ابن مسعود وابن عمر والزهرى وربيعة وقال الاوزاعى اذا كان اللمس باليد نقض الطهر وان كان بغير اليد لم ينقضه لقوله تعالى فلمسوه بأيديهم وقد احتجوا بحجج تزعم كل طائفة ان حجتها تدل على ان الملامسة المذكورة فى الآية هى ماذهبت اليه وليس الامر كذلك فقد اختلفت الصحابة ومن بعدهم فى معنى الملامسة المذكورة فى الآية وعلى فرض انها ظاهرة فى الجماع فقد ثبتت القراءة المروية عن حمزة والكسائى بلفظ أو لمستم وهى محتملة بلا شك ولا شبهة ومع الاحتمال فلا تقوم الحجة بالمحتمل وهذا الحكم تعم به البلوى وثبت به التكليف العام فلا يحل اثباته بمحتمل قد وقع النزاع فى مفهومه واذا عرفت هذا فقد ثبتت السنة الصحيحة بوجوب التيمم على من أجنب ولم يجد الماء فكان الجنب داخلا فى هذا الحكم بهذا الدليل وعلى فرض عدم دخوله فالسنة تكفى فى ذلك وأما وجوب الوضوء أو التيمم

اصرى أى ثقل ما حملتم من عهدى أى ميثاقى الشديد المؤكد قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك أى عن هذا العهد والميثاق فأولئك هم الفاسقون قال على بن أبى طالب وابن عمه ابن عباس رضى الله عنهما ما بعث الله نبيا من الانبياء الا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدا وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وقال طاوس والحسن البصرى وقتادة أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا وهذا لا يضاد ما قاله على وابن عباس ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول على وابن عباس وقد قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن جابر عن الشعبى عن عبد الله بن ثابت قال جاء عمر الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله (٢٤٦) انى أمرت باخ لى يهودى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك قال فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله ابن ثابت قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا قال فسرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم انكم حظى من الامم وأنا حظكم من النبيين حديث آخر قال الحافظ أبو يعلى حدثنا اسحق حدثنا حماد عن مجالد عن الشعبى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا وانكم اما أن تصدقوا بباطل واما أن تكذبوا بحق وانه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعنى وفى بعض الاحاديث لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما الا اتباعى فالرسول محمد خاتم الانبياء صلوات الله وسلامه عليه دائما الى يوم الدين هو الامام الاعظم الذى لو وجد فى أى عصر وجد كان لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الانبياء كلهم ولهذا كان امامهم ليلة الاسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس وكذلك هو الشفيع فى المحشر فى اتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده وهو المقام المحمود الذى لا يليق الا له والذى يحيد عنه أولوا العزم من الانبياء والمرسلين حتى تنتهى النوبة اليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) يقول تعالى منكرا على من أراد دينا سوى دين الله الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذى له أسلم من فى السموات والارض أى استسلم له من فيهما طوعا وكرها كما قال تعالى ولله يسجد من

على من لمس المرأة بيده أو بشئ من بدنه فلا يصح القول به استدلالا بهذه الآية لما عرفت من الاحتمال وأما ما استدلوا به من انه صلى الله عليه وآله وسلم أتاه رجل فقال يا رسول الله ما تقول فى رجل لقى امرأة لا يعرفها وليس يأتى الرجل من امرأته شيأ الا قد أتاه منها غير انه لم يجامعها فأنزل الله أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين أخرجه أحمد والترمذى والنسائى من حديث معاذ قالوا فأمره بالوضوء لانه لمس المرأة ولم يجامعها فلا يخفاك انه لا دلالة لهذا الحديث على محل النزاع فان النبى صلى الله عليه وآله وسلم انما أمره بالوضوء ليأتى بالصلاة التى ذكرها الله سبحانه فى هذه الآية اذ لا صلاة الا بوضوء وأيضا فالحديث منقطع لانه من رواية ابن أبى ليلى عن معاذ ولم يلقه واذا عرفت هذا فالاصل البراءة عن هذا الحكم فلا يثبت الا بدليل خال عن الشوائب الموجبة لقصوره عن الحجة وأيضا قد ثبت عن عائشة من طرق انها قالت كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ ثم يقبل ثم يصلى ولا يتوضأ وقد روى هذا الحديث بالفاظ مختلفة رواه أحمد وابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى وابن ماجه (فلم تجدوا ماء) تتطهرون به للصلاة بعد الطلب والتفتيش وهذا القيد ان كان راجعا الى جميع ما تقدم مما هو مذكور بعد الشرط وهو المرض والسفر والمجئ من الغائط وملامسة النساء كان فيه دليل على ان المرض والسفر بمجردهما لا يسوغان التيمم بل لا بد مع وجود أحد السببين من عدم الماء فلا يجوز للمريض والمسافر أن يتيمما الا اذا لم يجدا ماء ولكنه يشكل على هذا ان الصحيح والمقيم كالمريض والمسافر اذا لم يجدا الماء تيمما فلا بد من فائدة فى التنصيص على المرض والسفر فقيل وجه التنصيص عليهما ان المرض مظنة للعجز عن الوصول الى الماء وكذلك المسافر عدم الماء فى حقه غالب وان كان راجعا الى الصورتين الاخيرتين أعنى قوله أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء كما قال بعض المفسرين كان فيه اشكال وهو ان من صدق عليه اسم المريض أو المسافر جاز له التيمم وان

في السموات والارض طوعا وكرها الآية وقال تعالى أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله والكافر مستسلم لله كرها فانه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع وقد ورد حديث في تفسير هذه الآية على معنى آخر فيه غرابة فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن النضر العسكري حدثنا سعيد بن حفص النفيلي حدثنا محمد بن محصن العكاشي حدثنا الاوزاعي عن عطاء بن أبي رباح عن النبي صلى الله عليه وسلم وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها اما من في السموات فالملائكة وأما من في الارض فمن ولد على الاسلام وأما كرها فمن أتي به من سبايا الامم في السلاسل والاغلال يقادون الى الجنة وهم (٢٤٧) كارهون وقد ورد في الصحيح عجب ربك من قوم يقادون الى الجنة في السلاسل وسيأتي له شاهد من وجه آخر ولكن المعنى الاول للآية أقوى وقد قال وكيع في تفسيره حدثنا سفيان عن منصور عن مجاهد وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها قال هو كقوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال أيضا حدثنا سفيان عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عباس وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها قال حين أخذ الميثاق واليه يرجعون أي يوم المعاد فيجازي كلا بعمله ثم قال تعالى قل آمنا بالله وما أنزل علينا يعني القرآن وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب أي من الصحف والوحي والاسباط وهم بطون بني اسرائيل المتشعبة من أولاد اسرائيل وهو يعقوب الاثني عشر وما أوتي موسى وعيسى يعني بذلك التوراة والانجيل والنبيون من ربهم وهذا يعم جميع الانبياء جملة لا نفرق بين أحد منهم يعني بل نؤمن بجميعهم ونحن له مسلمون فالمؤمنون من هذه الامة يؤمنون بكل نبي أرسل وبكل كتاب أنزل لا يكفرون بشئ من ذلك بل هم يصدقون بما انزل من عند الله وبكل نبي بعثه الله ثم قال تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه الآية اي من سلك طريقا سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد وقال الامام أحمد حدثنا ابو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عباد بن راشد حدثنا الحسن حدثنا أبو هريرة اذ ذاك ونحن بالمدينة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجيء الاعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول يارب أنا الصلاة فيقول انك على خير وتجيء الصدقة فتقول يارب أنا الصدقة فيقول انك على خير ثم يجيء الصيام فيقول يارب أنا الصيام فيقول انك على خير ثم تجيء الاعمال كل ذلك يقول الله تعالى انك على خير ثم يجيء الاسلام فيقول يارب أنت السلام وأنا الاسلام فيقول الله تعالى انك على خير بك اليوم آخذ وبك أعطي قال الله في كتابه ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين تفرد به

كان واجد الماء قادرا على استعماله وقد قيل انه رجع هذا القيد الى الاخيرين مع كونه معتبرا في الاولين لندرة وقوعه فيهما وأنت خبير بان هذا كلام ساقط وتوجيه بارد وقال مالك ومن تابعه ذكر الله المرض والسفر في شرط التيمم اعتبارا بالاغلب فمن لم يجد الماء بخلاف الحاضر فان الغالب وجوده فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه انتهى والظاهر ان المرض بمجرده مسوغ للتيمم وان كان الماء موجودا اذا كان يتضرر باستعماله في الحال أو في المآل ولا تعتبر خشية التلف فالله سبحانه يقول والله يريد بكم اليسر ويقول ما جعل عليكم في الدين من حرج والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول الدين يسر ويقول يسروا ولا تعسروا وقال قتلوه قتلهم الله ويقول أمرت بالتيسير بعثة السمحة فاذا قلنا ان قيد عدم وجود الماء راجع الى الجميع كان وجه التنصيص على المريض هو انه يجوز له التيمم والماء حاضر موجودا اذا كان استعماله يضره فيكون اعتبار ذلك القيد في حقه اذا كان استعماله لا يضره فان في مجرد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب لانه يلحقه بالمرض نوع ضعف وأما وجه التنصيص على المسافر فلا شك ان الضرب في الارض مظنة لاعواز الماء في بعض البقاع دون بعض (فتيمموا) التيمم لغة القصد يقال تيممت الشئ قصدته وتيممت الصعيد تعمدته وتيممته بسهمي ورمحي قصدته دون من سواه قال ابن السكيت قوله تيمموا أي اقصدوا ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب وقال ابن الاعرابي في قولهم قد تيمم الرجل معناه قد مسح التراب على وجهه وهذا خلط منهما للمعنى اللغوي بالمعنى الشرعي فان العرب لا تعرف التيمم بمعنى مسح الوجه واليدين وانما هو معنى شرعي فقط وظاهر الامر الوجوب وهو مجمع على ذلك والاحاديث في هذا الباب كثيرة وتفاصيل التيمم وصفاته مبينة في السنة المطهرة ومقالات أهل العلم مدونة في كتب الفقه والتيمم من خصائص هذه الامة عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضلنا على

احمد قال ابو عبد الرحمن عبد الله ابن الامام أحمد عباد بن راشد ثقة ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين أولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم) قال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع البصري حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال كان رجل من الانصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فارسل الى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة فنزلت كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم الى قوله فان الله غفور رحيم فارسل اليه قومه فاسلم وهكذا رواه النسائي والحاكم وابن حبان من طريق داود بن أبي هند به وقال الحاكم (٢٤٨) صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال عبد الرزاق أنبأنا جعفر بن سليمان حدثنا حميد الاعرج عن مجاهد قال جاء الحرث ابن سويد فاسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم كفر الحرث فرجع الى قومه فانزل الله فيه كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم الى قوله غفور رحيم قال فحملها اليه رجل من قومه فقرأها عليه فقال الحرث انك والله ما علمت لصدوق وان رسول الله لاصدق منك وان الله لاصدق الثلاثة قال فرجع الحرث فاسلم فحسن اسلامه فقوله تعالى كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ووضح لهم الامر ثم ارتدوا الى ظلمة الشرك فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية ولهذا قال والله لا يهدي القوم الظالمين ثم قال تعالى أولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه خالدين فيها أي في اللعنة لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة ثم قال المرفقين تعالى الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه ان من تاب اليه تاب عليه (ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) يقول تعالى متوعدا ومهددا لمن كفر بعد ايمانه ثم ازداد كفرا أي استمر عليه الى الممات ومخبرا بانهم لن تقبل لهم توبة عند الممات كما قال تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت الآية ولهذا قال ههنا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون أي الخارجون عن المنهج الحق الى طريق الغي قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس ان قوما اسلموا ثم ارتدوا ثم اسلموا ثم ارتدوا فارسلوا الى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله

الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الارض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا اذا لم نجد الماء أخرجه مسلم وكان سبب التيمم انقطاع عقد لعائشة في بعض الاسفار وقصته في الصحيحين (صعيدا طيبا) الصعيد وجه الارض سواء كان عليه تراب أم لم يكن قاله الخليل وابن الاعرابي والزجاج قال الزجاج لا أعلم فيه خلافا بين أهل اللغة قال الله تعالى وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا أي أرضا غليظة لا تنبت شيأ وقال تعالى فتصبح صعيدا زلقا وانما سمي صعيدا لانه نهاية ما يصعد اليه من الارض قال قتادة الصعيد الارض التي ليس فيها شجر ولا نبات وقال ابن زيد المستوى من الارض وبه قال الليث وقال الفراء هو التراب وبه قال أبو عبيدة وجمع الصعيد صعدات وقد اختلف أهل العلم فيما يجزئ التيمم به فقال مالك وأبو حنيفة والثوري والطبراني انه يجزئ بوجه الارض كله ترابا كان أو رملا أو حجارة وحملوا قوله طيبا على الطاهر الذي ليس بنجس وقال الشافعي وأحمد وأصحابهما انه لا يجزئ التيمم الا بالتراب فقط واستدلوا بقوله تعالى صعيدا زلقا أي ترابا أملس طيبا وكذلك استدلوا بقوله طيبا قالوا والطيب التراب الذي ينبت وقد تنوزع في معنى الطيب فقيل الطاهر كما تقدم وقيل المنبت كما هنا وقيل الحلال والمحتمل لا تقوم به حجة ولو لم يجد في الشيء الذي يتيمم به الا ما في الكتاب العزيز لكان الحق ما قاله الاولون لكن ثبت في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضلنا الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الارض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا اذا لم نجد الماء وفي لفظ وجعل ترابها لنا طهورا فهذا مبين لمعنى الصعيد المذكور في الآية أو مخصص لعمومه أو مقيد لاطلاقه ويؤيد هذا ما حكاه ابن فارس عن كتاب الخليل تيمم بالصعيد أي خذ من غباره انتهى والحجر الصلد لا غبار له (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) هذا المسح مطلق يتناول المسح بضربة أو ضربتين ويتناول المسح الى

عليه وسلم فنزلت هذه الآية ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم هكذا رواه واسناده جيد ثم قال تعالى ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به أى من مات على الكفر فان يقبل منه خير أبدا ولو كان قد أنفق ملء الارض ذهبا فيما يراه قربة كما سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جدعان وكان يقرى الضيف و يفك العانى و يطعم الطعام هل ينفعه ذلك فقال لا انه لم يقل يوما من الدهر رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين وكذلك لو افتدى بملء الارض أيضا ذهبا ما قبل منه كما قال تعالى ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة وقال لا بيع فيه ولا خلال وقال ان الذين كفروا لو أن لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ولهذا قال تعالى ههنا ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به فعطف ولو افتدى به على الاول فدل على انه غيره وما ذكرناه أحسن من أن يقال ان الواو زائدة والله أعلم و يقتضى ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شئ ولو كان قد أنفق مثل الارض ذهبا ولو افتدى نفسه من الله بملء الارض ذهبا يوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها وقال الامام أحمد حدثنا حجاج حدثنى شعبة عن ابى عمران الجونى عن انس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة ارأيت لو كان لك ما على الارض من شئ أكنت مفتديا به قال فيقول نعم فيقول الله قد اردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم ان لا تشرك بى شيأ فأبيت الا ان تشرك وهكذا أخرجه البخارى ومسلم طريق أخرى وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا حماد عن ثابت

المرفقين أو الى الرسغين وقد بينته السنة بيانا شافيا وقد جمع الشوكانى بين ما ورد فى المسح بضربة و بضربتين وما ورد فى المسح الى الرسغ والى المرفقين فى شرحه للمنتقى وغيره من مؤلفاته بما لا يحتاج الناظر فيه الى غيره والحاصل ان أحاديث الضربتين لا يخلو جميع طرقها من مقال ولو صحت لكان الاخذ بها متعينا لما فيها من الزيادة فالحق الوقوف على ما ثبت فى الصحيحين من حديث عمار من الاقتصار على ضربة واحدة حتى تصح الزيادة على ذلك المقدار قال الخطابى لم يختلف أحد من العلماء فى أنه لا يلزم مسح ما وراء المرفقين واحتجوا بالقياس على الوضوء وهو فاسد الاعتبار قال الحافظ ان الاحاديث الواردة فى صفة التيمم لم يصح منها سوى حديث أبى جهم وعمار وما عداهما فضعيف أو مختلف فى رفعه ووقفه والراجح عدم رفعه انتهى فالحق مع أهل المذهب الاول حتى يقوم دليل يجب المصير اليه ولا شك ان الاحاديث المشتملة على الزيادة أولى بالقبول ولكن اذا كانت صالحة للاحتجاج بها وليس فى الباب شئ من ذلك (ان الله كان عفوا غفورا) أى عفا عنكم وغفر لكم تقصيركم و رحمكم بالترخيص لكم والتوسعة عليكم (ألم تر) كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حالهم والتحذير من موالاتهم والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية من المسلمين وتوجيهه اليه صلى الله عليه وآله وسلم هنا مع توجيهه فيما بعد الى الكل معا للايذان بكمال شهرة شناعة حالهم وانها بلغت من الظهور الى حيث يتعجب منها كل من يراها والرؤية هنا بصرية (الى الذين أوتوا نصيبا) حظا (من الكتاب) التوراة والمراد أحبار اليهود (يشترون الضلالة) المراد بالاشتراء الاستبدال وقد تقدم تحقيق معناه والمعنى ان اليهود استبدلوا الضلالة وهى البقاء على اليهودية بالهدى أى بعد وضوح الحجة على صحة نبوة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وقيل يأخذون الرشا و يحرفون التوراة (ويريدون أن تضلوا السبيل) عطف على قوله يشترون مشاركة له فى بيان سوء صنيعهم وضعف اختيارهم أى لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة

 عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالرجل من اهل الجنة فيقول له يا ابن آدم كيف وجدت منزلك فيقول اى رب خير منزل فيقول سل وتمن فيقول ما اسأل ولا أتمنى الا ان تردنى الى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرار لما يرى من فضل الشهادة و يؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له يا ابن آدم كيف وجدت منزلك فيقول يا رب شر منزل فيقول له أتفتدى منى بطلاع الارض ذهبا فيقول اى رب نعم فيقول كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد الى النار ولهذا قال أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين أى ومالهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شئ فان الله به عليم) روى وكيع فى تفسيره عن شريك عن أبى اسحق عن عمرو بن ميمون لن تنالوا البر قال الجنة وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا مالك عن اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة سمع أنس بن مالك يقول كان أبو طلحة أكثر الانصار بالمدينة مالا وكان أحب أمواله اليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدخلها و يشرب

من ماء فيها طيب قال أنس فلما نزلت لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قال أبو طلحة يا رسول الله ان الله يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وان أحب أموالي الي بيرحاء وانها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم بخ بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت وانا أرى ان تجعلها في الاقربين فقال أبو طلحة افعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه أخرجاه وفي الصحيحين ان عمر قال يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر فما تأمرني به قال حبس الاصل وسبل الثمرة وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى الحساني حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبي عمرو بن حماس عن حمزة بن عبد الله بن عمر قال قال عبد الله حضرتني هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا (٢٥٠) مما تحبون فذكرت ما أعطاني الله فلم أجد شيأ أحب الي من جارية لي رومية فقلت هي حرة لوجه الله فلو اني أعود في شئ جعلته لله لنكحتها يعني تزوجتها (كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) قال الامام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر قال قال ابن عباس حضرت عصابة من اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن الا نبي قال سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه ان أنا حدثتكم شيأ فعرفتموه لتتابعني على الاسلام قالوا فذلك لك قالوا اخبرنا عن الربع خلال أخبرنا أي الطعام حرم اسرائيل على نفسه وكيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والانثى وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه فقال أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون ان اسرائيل مرض مرضا شديدا وطال سقمه فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان أحب الطعام اليه لحم الابل وأحب الشراب اليه ألبانها فقالوا اللهم نعم فقال اللهم اشهد عليهم وقال أنشدكم بالله الذي لا اله الا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون ان ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه باذن الله ان علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكرا باذن الله وان علا ماء المرأة ماء الرجل كان انثى باذن الله قالوا نعم قال اللهم اشهد عليهم قال وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون ان هذا النبي الامي تنام عيناه ولا ينام قلبه قالوا اللهم نعم قال اللهم اشهد قال وان ولي جبريل ولم يبعث الله نبيا قط الا وهو وليه قالوا فعند ذلك نفارقك ولو كان وليك غيره لتابعناك فعند ذلك قال الله تعالى قل من كان عدوا لجبريل الآية

بالهدى بل أراد وا مع ضلالهم ان يتوصلوا بكتمهم وجحدهم الى أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم الذي هو سبيل الحق قال تعالى ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء (والله أعلم) منكم (باعدائكم) أيها المؤمنون وما يريدونه بكم من الاضلال فيخبركم بهم لتجتنبوهم والجملة اعتراضية (وكفى بالله وليا) متوليا أمركم وقائما به وحافظا لكم منهم ومن كان الله وليه لم يضره أحد (وكفى بالله نصيرا) ينصركم في مواطن الحرب ويمنعكم من كيدهم فاستقوا بولايته ونصره ولا تتولوا غيره ولا تستنصروه (من الذين هادوا) قوم (يحرفون الكلم عن مواضعه) وقال الفراء التقدير من الذين هادوا من يحرفون كقوله وما منا الا له مقام معلوم أي من له مقام وأنكره المبرد والزجاج وقيل بيان لقوله الذين أوتوا نصيبا من الكتاب والتحريف الامالة والازالة أي يميلونه ويزيلونه عن مواضعه ويجعلون مكانه غيره أو المراد انهم يتأولونه على غير تأويله واليه ذهبت طائفة من الفقهاء والمحدثين قال ابن عباس يحرفون حدود الله في التوراة وقال مجاهد تبديل اليهود التوراة وذمهم الله عز وجل بذلك لانهم يفعلونه عنادا وبغيا وايثارا لعرض الدنيا قال الحافظ ابن القيم رحمه الله في اغاثة اللهفان وقد اختلف في التوراة التي بايديهم هل هي مبدلة أم التبديل وقع في التأويل دون التنزيل على ثلاثة أقوال قالت طائفة كلها أو أكثرها مبدل وغلا بعضهم حتى قال يجوز الاستجمار بها وقالت طائفة من أئمة الحديث والفقه والكلام انما وقع التبديل في التأويل قال البخاري في صحيحه يحرفون يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله ولكنهم يتأولونه على غير تأويله وهو اختيار الرازي أيضا وسمعت شيخنا يقول وقع النزاع بين الفضلاء فاجاز هذا المذهب وهي غيره فانكر عليه فاظهر خمسة عشر نقلا به ومن حجة هؤلاء ان التوراة قد طبقت مشارق الارض ومغاربها وانتشرت جنوبا وشمالا ولا يعلم عدد نسخها الا الله فيمتنع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ حتى لا تبقى في الارض نسخة

ورواه أحمد أيضا عن حسين بن محمد عن عبد الحميد به طريق اخرى قال أحمد حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي عن بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم انا نسألك عن خمسة أشياء فان أنبأتنا بهن عرفنا انك نبي واتبعناك فاخذ عليهم ما أخذ اسرائيل على نبيه اذ قال والله على ما نقول وكيل قال هاتوا قالوا اخبرنا عن علامة النبي قال تنام عيناه ولا ينام قلبه قالوا أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر قال يلتقي الماآن فاذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت واذا علا ماء المرأة أنثت قالوا أخبرنا ما حرم اسرائيل على نفسه قال كان يشتكي عرق النسا فلم يجد شيأ يلائمه الا البان كذا وكذا قال أحمد قال بعضهم يعني الابل فحرم لحومها قالوا صدقت قالوا أخبرنا ما هذا الرعد قال ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده أو في يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره

الله عز وجل قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع قال صوته قالوا صدقت انما بقيت واحدة وهي التي نتابعك ان اخبرتنا بها انه ليس من نبي الا له ملك يأتيه بالخبر فاخبرنا من صاحبك قال جبريل عليه السلام قالوا جبريل ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدو لنا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان فانزل الله تعالى قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين والآية بعدها وقد رواه الترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن الوليد العجلي به نحوه وقال الترمذي حسن غريب وقال ابن جرير والعوفي عن ابن عباس كان اسرائيل عليه السلام وهو يعقوب يعتريه عرق النسا بالليل وكان يقلقه ويزعجه عن النوم ويقلع الوجع عنه بالنهار فنذر لله لان عافاه الله لا يأكل عرقا ولا يأكل ولد ماله عرق وهكذا قال الضحاك والسدي كذا حكاه ورواه ابن جرير في تفسيره قال فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استنانا به واقتداء بطريقه قال وقوله من قبل ان تنزل التوراة أي حرم ذلك على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قلت ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان احداهما ان اسرائيل عليه السلام حرم أحب الاشياء اليه وتركها لله وكان هذا سائغا في شرعهم فله مناسبة بعد قوله لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فهذا هو المشروع عندنا وهو الانفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه كما قال تعالى وآتى المال على حبه وقال تعالى ويطعمون الطعام على حبه الآية المناسبة الثانية لما تقدم بيان الرد على النصارى واعتقادهم الباطل في المسيح وتبيين زيف ما ذهبوا اليه وظهور الحق واليقين في عيسى وأمه كيف خلقه الله بقدرته ومشيئته وبعثه الى بني اسرائيل يدعو الى عبادة ربه تبارك وتعالى شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى وبيان ان النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع فان الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة ان نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة

الامبدلة وهذا مما يحيله العقل قالوا وقد قال الله لنبيه قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين قالوا وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم ولم يمكنهم تغييرها من التوراة ولذا لما قرؤها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وضع القارئ يده على آية الرجم فقال له عبد الله ابن سلام ارفع يدك فرفعها فاذا هي تلوح تحتها وتوسطت طائفة فقالوا قد زيد فيها وغير أشياء يسيرة جدا واختاره شيخنا في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح قال وهذا كما في التوراة عندهم ان الله سبحانه قال لابراهيم اذبح ابنك بكرك أو وحيدك اسحق قلت والزيادة باطلة من وجوه عشرة الاول ان بكره ووحيده اسمعيل باتفاق الملل الثلاث الثاني انه سبحانه أمر ابراهيم ان ينقل هاجر وابنها اسمعيل عن سارة ويسكنها في بريه مكة لئلا تغار سارة فامره بابعاد السرية وولدها عنها فكيف يؤمر بعد هذا بذبح ابن سارة وابقاء ابن السرية وهذا مما لا تقتضيه الحكمة الثالث ان قصة الذبح كانت بمكة قطعا ولذا جعل الله سبحانه ذبح الهدايا والقرابين بمكة تذكيرا للامة بما كان من ابراهيم وولده هنالك الرابع ان الله بشر سارة أم اسحق باسحق ومن ورائه يعقوب فبشرها بهما جميعا فكيف يأمر بعد ذلك بذبح اسحق وقد بشر أبويه بولد ولده الخامس ان الله لما ذكر قصة الذبح وتسليمه نفسه لله واقدام ابراهيم على ذبحه وفرغ من قصته قال بعدها وبشرناها باسحق نبيا من الصالحين فشكر الله له استسلامه وبذل ولده له وجعل من آياته على ذلك ان آتاه اسحق فنجى اسمعيل من الذبح وزاد عليه اسحق السادس ان ابراهيم عليه السلام سأل ربه الولد فاجاب دعاءه وبشره به فلما بلغ معه السعي أمر بذبحه قال تعالى وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فهذا دليل ان هذا الولد انما بشر به بعد دعائه وسؤاله ربه ان يهب له ولدا وهذا المبشر به هو المأمور بذبحه قطعا بنص القرآن واما اسحق فانه بشر به من غير دعوة منه بل على كبر السن وكون مثله لا يولد له وانما كانت البشارة به لامرأته سارة ولذا تعجبت من حصول الولد منها

أباح الله له جميع دواب الارض يأكل منها ثم بعد هذا حرم اسرائيل على نفسه لحوم الابل وألبانها فاتبعه بنوه فى ذلك وجاءت التوراة بتحريم ذلك وأشياء أخر زيادة على ذلك وكان الله عز وجل قد اذن لآدم فى تزويج بناته من بنيه وقد حرم ذلك بعد ذلك وكان التسرى على الزوجة مباحا فى شريعة ابراهيم عليه السلام وقد فعله ابراهيم فى هاجر لما تسرى بها على سارة وقد حرم مثل هذا فى التوراة عليهم وكذلك كان الجمع بين الاختين سائغا وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الاختين ثم حرم ذلك عليهم فى التوراة وهذا كله منصوص عليه فى التوراة عندهم وهذا هو النسخ بعينه فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام فى احلاله بعض ما حرم فى التوراة فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه وكذلك ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من الدين القويم والصراط المستقيم وملة أبيه ابراهيم (٢٥٢) فما بالهم لا يؤمنون ولهذا قال تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة أى كان حلا لهم جميع الاطعمة قبل نزول التوراة الا ما حرمه اسرائيل ثم قال تعالى قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين فانها ناطقة بما قلناه فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون أى فمن كذب على الله وادعى انه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائما وانه لم يبعث نبيا آخر يدعو الى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذى بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا فأولئك هم الظالمون ثم قال تعالى قل صدق الله أى قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه فى القرآن فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين أى اتبعوا ملة ابراهيم التى شرعها الله فى القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فانه الحق الذى لا شك فيه ولا مرية وهى الطريقة التى لم يأت نبى بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم كما قال تعالى قل انى هدانى ربى الى صراط مستقيم ومعنى دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين وقال تعالى ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) يخبر تعالى ان أول بيت وضع للناس أى لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون اليه ويعتكفون عنده للذى ببكة يعنى الكعبة التى بناها ابراهيم الخليل عليه السلام الذى يزعم كل من طائفتى النصارى واليهود انهم على دينه ومنهجه ولا يحجون الى البيت الذى بناه عن أمر الله له فى ذلك ونادى الناس الى حجه ولهذا قال تعالى مباركا أى وضع مباركا وهدى للعالمين وقد قال الامام أحمد حدثنا سفيان عن الاعمش عن ابراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول قال المسجد الحرام قلت ثم أى قال المسجد الاقصى قلت كم بينهما

السابع ان ابراهيم لم يقدم باسحق الى مكة البتة ولم يفرق بينه وبين أمه وكيف يأمره الله ان يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضرتها وفى بلدها ويدع ابن ضرتها الثامن ان الله لما اتخذ ابراهيم خليلا والخلة تتضمن ان يكون قلبه كله متعلقا به ليس فيه سعة لغيره فلما سأل الولد وهب له اسمعيل فتعلق به شعبة من قلبه فاراد خليله ان تخلص تلك الشعبة له فامتحنه بذبح ولده فلما امتثل خلصت تلك الخلة فنسخ الامر بذبحه لحصول الغرض وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال ومن المعلوم ان هذا انما يكون فى أول الاولاد لا فى آخرها فلما حصل هذا المقصود مع الولد الاول لم يحتج الى مثله مع الولد الآخر فانه لو زاحمت محبة الولد الآخر الخلة لامر بذبحه فلو كان المأمور بذبحه هو الولد الآخر لكان قد أقره فى الاول على مزاحمة الخلة به مدة طويلة ثم أمره بما يزيل المزاحم بعد ذلك وهو خلاف مقتضى الحكمة فليتأمل التاسع ان ابراهيم انما رزق اسحق على الكبر واسمعيل رزقه فى عنفوان شبابه والعادة ان القلب أعلق بالاول العاشر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يفتخر بانه ابن الذبيحين يعنى أباه عبد الله وجده اسمعيل والمقصود ان هذه اللفظة مما زادوه فى التوراة انتهى ملخصا قال الخفاجى فى العناية فى تفسير الفاتحة وأما الانجيل ففيه تبديل وتحريف فى بعض ألفاظه ومعانيه وهو مختلف النسخ والاناجيل أربعة كما فصله بعضهم فى كتاب عقده لذلك سماه المفيد فى التوحيد انتهى (ويقولون سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (واسمع) حال كونك (غير مسمع) كلاما أصلا بصمم أو موت وهو يحتمل أن يكون دعاء على النبى صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى اسمع لا سمعت أو غير مسمع كلاما ترضاه ويحتمل أن يكون المعنى اسمع منا غير مسمع جوابا كانوا يخاطبون به النبى صلى الله عليه وآله وسلم استهزاء به منظهرين له ارادة المعنى الاخير وهم مضمرون فى أنفسهم المعنى الاول وقال ابن عباس غير مقبول وقد تقدم الكلام فى (وراعنا) أى يريدون بذلك نسبته الى الرعونة وقيل معناه ارعنا سمعك ومثل ذلك لا يخاطب به الانبياء وهى كلمة سب بلغتهم

قال أربعون سنة قلت ثم أى قال ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مستجد وأخرجه البخارى ومسلم من حديث الاعمش به وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان عن شريك عن مجاهد عن الشعبى عن على رضى الله عنه فى قوله تعالى ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا قال كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله وحدثنا ابى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا ابو الاحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة قال قام رجل الى على رضى الله عنه فقال ألا تحدثنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الارض قال لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام ابراهيم من دخله كان آمنا وذكر تمام الخبر فى كيفية بناء ابراهيم البيت وقد ذكرنا ذلك مستقصى فى أول سورة البقرة فاغنى عن اعادته هنا وزعم السدى انه أول بيت وضع على وجه الارض مطلقا والصحيح قول على رضى الله عنه فاما الحديث الذى رواه البيهقى فى بناء الكعبة فى كتابه دلائل النبوة من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا بعث الله جبريل الى آدم وحواء فأمرهما ببناء الكعبة فبناه آدم ثم أمر بالطواف به وقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس فانه كما ترى من مفردات ابن لهيعة وهو ضعيف والاشبه والله أعلم أن يكون هذا موقوفا على عبد الله بن عمرو ويكون من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كلام أهل الكتاب وقوله تعالى للذى ببكة بكة من أسماء مكة على المشهور قيل سميت بذلك لانها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها وقيل لان الناس يتباكون فيها أى يزدحمون قال قتادة ان الله بك به الناس جميعا فيصلى النساء امام الرجال ولا يفعل ذلك ببلد غيرها وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعمرو بن شعيب ومقاتل بن حيان وذكر حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه قال مكة من الفج الى التنعيم وبكة من البيت الى البطحاء وقال شعبة عن المغيرة عن ابراهيم بكة البيت والمسجد وكذا قال الزهرى وقال عكرمة فى رواية وميمون بن مهران البيت وما حوله بكة وما وراء ذلك مكة وقال أبو مالك وأبو صالح وابراهيم النخعى وعطية العوفى ومقاتل بن حيان بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة مكة وبكة والبيت العتيق والبيت الحرام والبلد الامين والمأمون وأم رحم وأم القرى وصلاح والعرش على وزن بدر والقادس لانها تطهر من الذنوب والمقدسة والناسة بالنون وبالباء أيضا والناسة والحاطمة والرأس وكوثاء والبلدة والبنية والكعبة وقوله تعالى فيه آيات بينات أى دلالات ظاهرة انه من بناء ابراهيم وان الله عظمه وشرفه ثم قال تعالى مقام ابراهيم يعنى الذى لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه ويناوله ولده اسمعيل وقد كان ملتصقا بجدار البيت حتى

ومعنى (ليابا لسنتهم) انهم يلوونها عن الحق أى يميلونها الى ما فى قلوبهم وأصل اللى الفتل أى فتلا بها وصرفا للكلام عن نهجه الى نسبة السب حيث وضعوا غير مسمع موضع لا سمعت مكروها وأجروا راعنا المشابهة لراعينا مجرى انظرنا أو فتلا بها وضما ما يظهرونه من الدعاء والتوقير الى ما يضمرونه من السب والتحقير (وطعنا) أى قدحا (فى الدين) بقولهم لو كان نبيا لعلم أنا نسبه فأطلع الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك (ولو أنهم قالوا سمعنا) قولك (وأطعنا) أمرك (واسمع) ما نقول (وانظرنا) أى أفهمنا لا تعجل علينا أى لو قالوا هذا مكان قولهم سمعنا وعصينا وراعنا بلسان المقال أو الحال (لكان خيرا لهم) مما قالوه (وأقوم) أى أعدل وأولى من قولهم الاول وهو قولهم سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لما فى هذا من المخالفة وسوء الادب واحتمال الذم فى راعنا (ولكن) لم يسلكوا ذلك المسلك الحسن ولم يأتوا بما هو خير لهم وأقوم بل استمروا على كفرهم ولهذا (لعنهم الله بكفرهم) أى خذلهم وأبعدهم بسبب كفرهم (فلا يؤمنون) بعد ذلك (الا) ايمانا (قليلا) وهو الايمان ببعض الكتب دون بعض وببعض الرسل دون بعض وقيل هو اعترافهم بان الله خلقهم ورزقهم وقيل الا نفرا قليل كعبد الله بن سلام وعبر الزمخشرى وابن عطية عن هذا القليل بالعدم يعنى انهم لا يؤمنون البتة (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) الخطاب لليهود ولم يقل هنا أوتوا نصيبا من الكتاب لان المقصود فيما سبق بيان خطئهم فى التحريف وهو انما وقع فى بعض التوراة والمقصود هنا بيان خطئهم فى عدم ايمانهم بالقرآن وهو مصدق لجميع التوراة فناسب التعبير هنا بايتائهم الكتاب (آمنوا بما نزلنا) يعنى القرآن (مصدقا لما معكم) يعنى التوراة ومعنى تصديقه اياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أو كونه موافقا لها فى القصص والمواعيد والدعوة الى التوحيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وأما ما يتراءى من مخالفته لها فى جزئيات الاحكام بسبب تفاوت الامم والاعصار فليس بمخالفة فى الحقيقة بل هو عين الموافقة من

أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في امارته الى ناحية الشرق بحيث يمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف لان الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقد قدمنا الاحاديث في ذلك فاغنى عن اعادته ههنا ولله الحمد والمنة وقال العوفي عن ابن عباس في قوله فيه آيات بينات مقام ابراهيم أي فمنهن مقام ابراهيم والمشاعر وقال مجاهد أثر قدميه في المقام آية بينة وكذا روى عن عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وغيرهم وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة وموطئ ابراهيم في الصخر رطبة * على قدميه حافيا غير ناعل وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد وعمرو الاودي قالا حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى مقام ابراهيم قال الحرم كله مقام ابراهيم ولفظ عمرو الحجر كله (٢٥٤) مقام ابراهيم وروى عن سعيد بن جبير انه قال الحج مقام ابراهيم

هكذا رأيته في النسخة ولعله الحجر كله مقام ابراهيم وقد صرح بذلك مجاهد وقوله تعالى ومن دخله كان آمنا يعني حرم مكة اذا دخله الخائف يأمن من كل سوء وكذلك كان الامر في حال الجاهلية كما قال الحسن البصري وغيره كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو يحيى التيمي عن عطاء عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى ومن دخله كان آمنا قال من عاذ بالبيت أعاذه البيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فاذا خرج أخذ بذنبه وقال الله تعالى أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا الآية وقال تعالى فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وحتى انه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها كما ثبتت الاحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفا في الصحيحين واللفظ احد لمسلم عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة لا هجرة ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا وقال يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وانه لم يحل القتال فيه لاحد قبلي ولم يحل لي الا في ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الا من عرفها ولا يختلى خلاها فقال العباس يا رسول الله الا الاذخر فانه لقينهم ولبيوتهم فقال الا الاذخر ولهما عن أبي هريرة مثله أو نحوه ولهما واللفظ لمسلم أيضا عن أبي شريح العدوي انه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث الى مكة ائذن لي أيها الامير أن أحدث قولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به انه حمد الله وأثنى عليه ثم قال ان مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة فان أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له ان الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم وانما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد

حيث ان كلا منهما حق بالاضافة الى عصره متضمن للحكمة التي عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعي ثم قرن بهذا الامر الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وآكده فقال (من قبل أن نطمس وجوها) أصل الطمس استئصال أثر الشيء بالمحو وازالة الأعلام ومنه فاذا النجوم طمست يقال طمس الاثر أي محاه كله ومنه ربنا اطمس على أموالهم أي أهلكها ويقال مطموس البصر ونحوه ولو نشاء لطمسنا على أعينهم أي أعميناهم واختلف العلماء في المعنى المراد بهذه الآية هل هو حقيقة فيجعل الوجه كالقفا فيذهب الانف والفم والحاجب والعين وهو محو تخطيط صور الوجوه قال ابن عباس يجعلها كخف البعير وقيل نعميها فيكون المراد بالوجه العين أو ذلك عبارة عن الضلالة في قلوبهم وسلبهم التوفيق فذهب الى الاول طائفة والى الآخر آخرون وفي تنكير الوجوه المفيد للتكثير تهويل للخطب وفي ايهامها الطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم الى الايمان وعلى الاول فالمراد بقوله (فنردها على أدبارها) نجعلها اقفاء أي نذهب بآثار الوجه وتخطيطه حتى يصير على هيئة القفا وقيل انه بعد الطمس يردها الى مواضع القفا والقفا الى مواضعها وهذا هو أليق بالمعنى الذي يفيده قوله فنردها على أدبارها فان قيل كيف يجازيهم بطمس الوجوه ان لم يؤمنوا ولم يفعل ذلك بهم فقيل انه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الباقين وقال المبرد الوعيد باق منتظر وقال لابد من طمس في اليهود ومسخ قبل يوم القيامة وقيل هو مختص بيوم القيامة وقيل المراد طمس القلب والبصيرة وقيل المراد محو آثارهم من المدينة وردهم الى أذرعات وأريحاء من أرض الشام من حيث جاؤا والاول أولى والضمير في (أو نلعنهم) عائد الى أصحاب الوجوه (كما لعنا أصحاب السبت) وكان لعن أصحاب السبت مسخهم قردة وخنازير وقيل المراد نفس اللعنة وهم ملعونون بكل لسان والمراد وقوع

عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالامس فليبلغ الشاهد الغائب فقيل لابي شريح ما قال لك قال (١) اعلم بذلك منك يا ابا شريح ان الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فارا بدم ولا فارا بجزية وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يحل لاحد أن يحمل السلاح بمكة رواه مسلم وعن عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهرى انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بالحزورة بسوق مكة يقول والله انك لخير أرض الله وأحب أرض الله الى الله ولولا انى أخرجت منك ما خرجت رواه الامام أحمد وهذا لفظه والترمذى والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى حسن صحيح وكذا صحح من حديث ابن عباس نحوه وروى أحمد عن أبى هريرة نحوه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا بشر بن آدم ابن بنت أزهر السمان حدثنا بشر بن عاصم عن زريق بن مسلم الاعمى مولى بنى مخزوم حدثنى زياد بن أبى عياش عن يحيى بن جعدة بن هبيرة فى قوله تعالى ومن دخله (٢٥٥) كان آمنا قال آمنا من النار وفى معنى

أحد الامرين اما الطمس أو اللعن وقد وقع اللعن ولكنه يقوى الاول تشبيه هذا اللعن بلعن أهل السبت (وكان أمر الله مفعولا) أى كائنا موجود الامحالة ان لم يؤمنوا أو يراد بالامر المأمور والمعنى انه متى أراده كان كقوله انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ولا يختص بكفار أهل الحرب لان اليهود قالوا عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالوا ثالث ثلاثة ولا خلاف بين المسلمين ان المشرك اذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التى تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته وأما غير اهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء قال ابن جرير قد أبانت هذه الآية ان كل صاحب كبيرة فى مشيئة الله عز وجل ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه ما لم تكن كبيرته شركا بالله عز وجل وظاهره ان المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلا منه ورحمة وان لم يقع من ذلك المذنب توبة وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة وقد تقدم قوله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وهى تدل على ان الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته عن ابن عمر بسند صحيح قال كنا نمسك عن الاستغفار لاهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ان الله لا يغفر الآية وقال انى ادخرت دعوتى وشفاعتى لاهل الكبائر من أمتى فامسكنا عن كثير مما كان فى أنفسنا وعن ابن عباس قال فى هذه الآية ان الله حرم المغفرة على من مات وهو كافر وأرجأ أهل التوحيد الى مشيئته فلم يؤيسهم عن المغفرة وأخرج الترمذى وحسنه عن على قال ما فى القرآن أحب الى من هذه الآية ان الله لا يغفر أن يشرك به الآية وعن جابر قال جاء اعرابى الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ما الموجبتان قال من مات لا يشرك بالله شيأ دخل الجنة ومن مات يشرك به دخل النار أخرجه مسلم

هذا القول الحديث الذى رواه البيهقى أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان حدثنا أحمد بن عبيد حدثنا محمد بن سليمان بن الواسطى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا ابن المؤمل عن ابن محيصن عن عطاء عن عبد الله بن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل البيت دخل فى حسنة وخرج من سيئة وخرج مغفورا له ثم قال تفرد به عبد الله بن المؤمل وليس بالقوى وقوله ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا هذه آية وجوب الحج عند الجمهور وقيل بل هى قوله وأتموا الحج والعمرة لله والاول أظهر وقد وردت الاحاديث المتعددة بانه أحد أركان الاسلام ودعائمه وقواعده وأجمع المسلمون على ذلك اجماعا ضروريا وانما يجب على المكلف فى العمر مرة واحدة بالنص والاجماع قال الامام أحمد رحمه الله حدثنا يزيد بن هرون حدثنا الربيع بن مسلم القرشى عن محمد بن زياد عن أبى هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل أكل عام يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم واذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شئ فدعوه ورواه مسلم عن زهير بن حرب عن يزيد بن هرون به نحوه وقد روى سفيان بن حسين وسليمان بن كثير وعبد الجليل بن حميد ومحمد بن أبى حفصة عن الزهرى عن أبى سنان الدؤلى واسمه يزيد بن أمية عن ابن عباس رضى الله عنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس ان الله كتب عليكم الحج فقام الاقرع بن حابس فقال يا رسول الله أفى كل عام فقال لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا ان تعملوا بها الحج مرة فمن زاد فهو تطوع رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والحكم من حديث الزهرى به ورواه شريك عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس بنحوه وروى من حديث أسامة بن زيد

(١) هنا بياض بالاصل

وقال الامام أحمد حدثنا منصور بن وردان عن عبد الاعلى بن عبد الاعلى عن أبيه عن ابى البختري عن على رضى الله عنه قال لما نزلت ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا قالوا يارسول الله فى كل عام فسكت قالوا يارسول الله فى كل عام قال لا ولو قلت نعم لوجبت فانزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وكذا رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث منصور بن وردان به ثم قال الترمذى حسن غريب وفيما قال نظر لان البخارى قال لم يسمع أبو البختري من على وقال ابن ماجه حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا محمد بن أبى عبيدة عن أبيه عن الاعمش عن أبى سفيان عن أنس بن مالك قال قالوا يارسول الله الحج فى كل عام قال لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لم تقوموا بها ولو لم تقوموا بها لعذبتم وفى الصحيحين من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر عن سراقة بن مالك قال يارسول الله متعتنا (٢٥٦) هذه لعامنا أم للابد قال بل للابد وفى رواية بل لأبد الابد وفى مسند الامام أحمد وسنن أبى داود من حديث واقد بن أبى واقد الليثى عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه فى حجته هذه ثم ظهورا الحصر يعنى ثم الزمن ظهور الحصر ولا تخرجن من البيوت وأما الاستطاعة فأقسام تارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه وتارة بغيره كما هو مقرر فى كتب الاحكام قال أبو عيسى الترمذى حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الرزاق اخبرنا ابراهيم بن يزيد قال سمعت محمد بن عباد بن جعفر يحدث عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قام رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من الحاج يارسول الله قال الشعث الثقل فقام آخر فقال أى الحج أفضل يارسول الله قال العج والثج فقام آخر فقال ما السبيل يارسول الله قال الزاد والراحلة وهكذا رواه ابن ماجه من حديث ابراهيم بن يزيد وهو الجوزى قال الترمذى ولا يرفعه الا من حديثه وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه كذا قال ههنا وقال فى كتاب الحج هذا حديث حسن لا يشك ان هذا الاسناد مما رجاله كلهم ثقات سوى الجوزى هذا وقد تكلموا فيه من أجل هذا الحديث لكن قد تابعه غيره فقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد العزيز بن عبد الله العامرى حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثى عن محمد بن عباد بن جعفر قال جلست الى عبد الله بن عمر قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له ما السبيل قال الزاد والراحلة وهكذا رواه ابن مردويه من رواية محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير به ثم قال ابن أبى حاتم وقد روى عن ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك وقد روى هذا الحديث من طرق أخرى من حديث أنس وعبد الله بن عباس وابن مسعود وعائشة كلها مرفوعة ولكن فى أسانيدها مقال كما هو مقرر فى كتب الاحكام والله أعلم وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث ورواه الحاكم من حديث قتادة عن حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله عز وجل من استطاع اليه سبيلا فقيل ما السبيل قال الزاد والراحلة ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم

(ومن يشرك بالله) يعنى يجعل معه شريكا غيره اظهر فى موضع الاضمار لادخال الروع (فقد افترى) أى اختلق وفعل لان الافتراء كما يطلق على القول حقيقة يطلق على الفعل مجازا كما صححه التفتازانى (اثما عظيما) يعنى ذنبا كبيرا غير مغفور ان مات عليه (ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم) أى يمدحونها تعجيب من حالهم وقد اتفق المفسرون على ان المراد اليهود واختلفوا فى معنى الذى زكوا به أنفسهم فقال الحسن وقتادة هو قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه وقولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وقال الضحاك هو قولهم لا ذنوب لنا ونحن كالاطفال وقيل قولهم ان آباءهم يشفعون لهم وقيل ثناء بعضهم على بعض ومعنى التزكية التطهير والتنزيه فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير وعلى غيرها واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق أو بباطل من اليهود وغيرهم وكل من ذكر نفسه بصلاح أو وصفها بزكاء العمل أو بزيادة الطاعة والتقوى أو بزيادة الزلفى عند الله ويدخل فى هذا التلقب بالالقاب المتضمنة للتزكية كمحيى الدين وعز الدين وسلطان العارفين ونحوها فهذه الاشياء لا يعلمها الا الله تعالى فلهذا قال (بل الله يزكى من يشاء) أى بل ذلك اليه سبحانه فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده ومن لا يستحقها فليدع العباد تزكية أنفسهم ويفوضوا أمر ذلك الى الله سبحانه فان تزكيتهم لانفسهم مجرد دعاوى فاسدة تحمل عليها محبة النفس وطلب العلو والترفع والتفاخر ومثل هذه الآية قوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى (ولا يظلمون) هؤلاء المزكون أنفسهم من أعمالهم (فتيلا) هو الخيط الذى فى نواة التمر وقيل القشرة التى حول النواة وقيل هو ما يخرج بين اصبعيك أو كفيك من الوسخ اذا فتلتهما فهو فتيل بمعنى مفتول والمراد هذا الكناية عن الشىء الحقير ومثله ولا يظلمون نقيرا وهو النكتة التى فى ظهر النواة والمعنى ان هؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم لانفسهم بقدر هذا الذنب ولا يظلمون بالزيادة على ما يستحقون ويجوز ان يعود الضمير الى من يشاء أى لا يظلم هؤلاء الذين يزكيهم الله فتيلا

يخرجاه وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا فقالوا يارسول الله ما السبيل قال الزاد والراحلة ورواه وكيع في تفسيره عن سفيان عن يونس به وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن اسمعيل وهو أبو اسرائيل الملائي عن فضيل يعني ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجلوا الى الحج يعني الفريضة فان أحدكم لا يدري ما يعرض له وقال أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي عن مهران بن أبي صفوان عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد الحج فليتعجل ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي معاوية الضرير به وقد روى وكيع وابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى من استطاع اليه سبيلا قال من ملك ثلثمائة درهم فقد استطاع اليه سبيلا وعن (٢٥٧) عكرمة مولاه انه قال السبيل الصحة وروى

وكيع بن الجراح عن أبي جناب يعني الكلبي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال من استطاع اليه سبيلا قال الزاد والبعير وقوله تعالى ومن كفر فان الله غني عن العالمين قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد أي ومن جحد فرضية الحج فقد كفر والله غني عنه وقال سعيد بن منصور عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن عكرمة قال لما نزلت ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه قالت اليهود فنحن مسلمون قال الله عز وجل فاخصمهم فحجهم يعني فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ان الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع اليه سبيلا فقالوا لم يكتب علينا وأبوا ان يحجوا قال الله تعالى ومن كفر فان الله غني عن العالمين وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا اسمعيل بن عبد الله بن مسعود حدثنا مسلم بن

مما يستحقونه من الثواب وقد ضربت العرب المثل في القلة بأربعة أشياء اجتمعت في النواة وهي الفتيل والنقير وهو النقرة التي في ظهر النواة والقطمير وهو القشر الرقيق فوقها وهذا الثلاثة واردة في الكتاب العزيز والفتروق وهو ما بين النواة والقمع الذي يكون في راس التمرة كالعلاقة بينهما ثم عجب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تزكيتهم لانفسهم فقال (انظر كيف يفترون على الله الكذب) في قولهم ذلك والافتراء الاختلاق ومنه افترى فلان على فلان أي رماه بما ليس فيه وفريت الشيء قطعته والافتراء والكذب متقاربان معنى أو معناهما واحد وفي قوله (وكفى به اثما مبينا) من تعظيم الذنب وتهويله ما لا يخفى أي كفى بالافتراء وحده وبالاولى اذا انضم الى التزكية والتنكير في اثما للتشديد (ألم تر) تعجيب من حالهم بعد التعجيب الاول (الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) هم اليهود (يؤمنون بالجبت والطاغوت) اختلف المفسرون في معنى الجبت والطاغوت فقال ابن عباس وابن جبير وأبو العالية الجبت الساحر بلسان الحبشة والطاغوت الكاهن وروى عن عمر بن الخطاب ان الجبت السحر والطاغوت الشيطان وروى عن ابن مسعود ان الجبت والطاغوت هنا كعب بن الاشرف وقال قتادة الجبت الشيطان والطاغوت الكاهن وروى عن مالك ان الطاغوت ما عبد من دون الله والجبت الشيطان وقيل هما كل معبود من دون الله أو مطاع في معصية الله وقيل هما صنمان كانا لقريش وهما اللذان سجد اليهود لهما لمرضاة قريش وأصل الجبت الجبس وهو الذي لا خير فيه فابدلت التاء من السين قاله قطرب وقيل ابليس والطاغوت أولياؤه وعن قطن ابن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول العيافة والطيرة والطرق من الجبت أخرجه أبو داود وقال الطرق الزجر والعيافة الخط وقيل العيافة هي زجر الطير والطرق هو ضرب الحجارة والحصى على طريق الكهانة والطيرة هو ان يتطير بالشيء فيرى الشؤم فيه والشر منه وقيل هو من التطير وهو زجر الطير والخط هو ضرب

(٣٣ - فتح البيان ني) ابراهيم وشاذ بن فياض قالا حدثنا هلال أبو هاشم الخراساني حدثنا أبو اسحق الهمداني عن الحرث عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ملك زادا وراحلة ولم يحج بيت الله فلا يضره مات يهوديا أو نصرانيا وذلك بان الله قال ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين ورواه ابن جرير من حديث مسلم بن ابراهيم به وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي زرعة الرازي حدثنا هلال بن الفياض حدثنا هلال أبو هاشم الخراساني فذكره باسناده مثله ورواه الترمذي عن محمد بن علي القطعي عن مسلم بن ابراهيم عن هلال بن عبد الله مولى ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي به وقال هذا حديث غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه وفي اسناده مقال وهلال مجهول والحرث يضعف في الحديث وقال البخاري هلال هذا منكر الحديث وقال ابن عدي هذا الحديث ليس بمحفوظ وقد روى أبو بكر الاسماعيلي الحافظ من حديث أبي عمرو

الاوزاعي حدثني اسمعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر حدثني عبد الرحمن بن غنم انه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا وهذا اسناد صحيح الى عمر رضي الله عنه وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد هممت ان أبعث رجالا الى هذه الامصار فينظروا الى كل من كان عنده جدة فلم يحج فيضربوا عليهم الجزية ماهم بمسلمين ماهم بمسلمين (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون) هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق وكفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الايمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بان ما جاء به الرسول حق من الله وبما عندهم من العلم عن الانبياء الاقدمين والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الامي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم وخاتم الانبياء ورسول رب الارض والسماء وقد توعدهم الله على ذلك وأخبر بانه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الانبياء ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد فاخبر تعالى انه ليس بغافل عما يعملون أي وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم) يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن ان يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما منحهم من ارسال رسوله كما قال تعالى ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم الآية وهكذا قال ههنا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين به ثم قال تعالى وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله يعني ان الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه فان آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارا وهو يتلوها عليكم ويبلغها اليكم وهذا كقوله تعالى ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين الآية بعدها وكما جاء في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه يوما أي المؤمنين أعجب اليكم ايمانا قالوا الملائكة قال وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم قالوا فنحن قال وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم قالوا فأي الناس أعجب ايمانا قال قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه في أول شرح البخاري ولله الحمد ثم قال تعالى ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه

الرمل لاستخراج الضمير (ويقولون) أي اليهود (للذين كفروا) كأبي سفيان وأصحابه واللام للتبليغ أو للعلة كنظائرها (هؤلاء) أي أنتم (أهدى من الذين آمنوا) بمحمد (سبيلا) أي أقوم دينا وأرشد طريقا (أولئك) القائلون (الذين لعنهم الله) أي طردهم وأبعدهم من رحمته (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) يدفع عنه ما نزل به من عذاب الله ومحظه وفي الآية وعد للمؤمنين بانهم المنصورون عليهم فان المؤمنين بضد هؤلاء فهم الذين قربهم الله ومن يقربه الله فلن يجد له خاذلا (أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا) أم منقطعة والاستفهام للانكار يعني ليس لهم نصيب من الملك والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أي ان جعل لهم نصيب فاذن لا يعطون نقيرا منه لشدة بخلهم وقوة حسدهم وهذا ذم لهم بالبخل بعد ان ذمهم بالجهل لعدم جريهم على مقتضى العلم وسيأتي ذمهم بالحسد والاول قوة عملية والثاني علمية والاول مقدم كما بينه الفخر وقيل المعنى بل لهم نصيب من الملك على ان معنى أم الاضراب عن الاول والاستئناف للثاني وقيل التقدير أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته أم لهم نصيب الآية والنقير النقطة والنقرة في ظهر النواة وقيل ما نقر الرجل باصبعه كما ينقر الارض والنقير أيضا خشبة تنقر وينبذ ما فيها وقد نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن النقير كما ثبت في الصحيحين وغيرهما والنقير الاصل يقال فلان كريم النقير أي كريم الاصل والمراد هنا المعنى الاول والمقصود به المبالغة في الحقارة كالقطمير والفتيل والنقير يضرب به المثل في الشيء الحقير التافه الذي لا قيمة له وفي القلة والحقارة واذن هنا ملغاة غير عاملة لدخول فاء العطف عليها ولو نصب لجاز قال سيبويه اذن في عوامل الافعال بمنزلة أظن في عوامل الاسماء التي تلغى اذا لم يكن الكلام معتمدا عليها فان كانت في أول الكلام وكان الذي بعدها مستقبلا نصبت (أم) منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر الى توبيخهم بآخر أي بل (يحسدون الناس) يعني اليهود يحسدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقط فهو عام أريد به

هو العمدة فى الهداية والعدة فى سعادة الغواية والوسيلة الى الرشاد وطريق السداد وحصول المراد (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفى حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن سفيان وشعبة عن زبيد اليامى عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود اتقوا الله حق تقاته قال ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر وهذا اسناد صحيح موقوف وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود وقد رواه ابن مردويه من حديث يونس بن عبد الاعلى عن ابن وهب عن سفيان الثورى عن زبيد عن مرة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا الله حق تقاته ان يطاع فلا (٢٥٩) يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى وكذا رواه الحاكم فى مستدركه من حديث مسعر عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود مرفوعا فذكره ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال والاظهر انه موقوف والله أعلم ثم قال ابن أبى حاتم وروى نحوه عن مرة الهمدانى والربيع بن خثيم وعمرو بن ميمون وابراهيم النخعى وطاوس والحسن وقتادة وأبى سنان والسدى نحو ذلك وروى عن أنس انه قال لا يتقى العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم والسدى وغيرهم الى ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى اتقوا الله حق تقاته قال لم تنسخ ولكن حق تقاته ان يجاهد فى الله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وقوله تعالى ولا تموتن الا وأنتم مسلمون أى حافظوا على الاسلام فى حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فان الكريم قد أجرى عادته بكرمه انه من عاش على شئ مات عليه ومن مات على شئ بعث عليه فعياذا بالله من خلاف ذلك وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا شعبة قال سمعت سليمان عن مجاهد ان الناس كانوا يطوفون بالبيت وان ابن عباس جالس معه محجن فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ولو ان قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لافسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن ليس له طعام الا الزقوم وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من طرق عن شعبة به وقال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا الاعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

به الخاص وأطلق عليه لفظ الناس لانه جمع كل الخصال الحميدة التى تفرقت فى الناس على حد قول القائل أنت الناس كل الناس أيها الرجل

ولا يس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

أو يحسدونه هو وأصحابه وأصل الحسد تمنى زوال النعمة عن هو مستحق لها وربما يكون ذلك مع سعى فى زوالها وهو أقبح مما قبلها لان البخل منع لما فى أيديهم والحسد منع لما عند الله واعتراض عليه والاستفهام للانكار أى لا ينبغى ذلك (على ما آتاهم الله من فضله) من النبوة والنصر وقهر الاعداء وقيل حسدوه على ما أحل الله له من النساء وكانت له يومئذ تسع نسوة والاول أولى (فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة) هذا الزام لليهود بما يعترفون به ولا ينكرونه وهو مسلم عندهم أى ليس ما آتينا محمدا وأصحابه من فضلنا ببدع حتى تحسدهم اليهود على ذلك فهم يعلمون بما آتينا آل ابراهيم وهم أسلاف محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأبناء عمامه وفيه حسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود ما أوتيه من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرا عن كابر واجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لاظهار كمال العناية بالامر وقد تقدم تفسير الكتاب والحكمة يعنى التوراة والنبوة وقد حصل فى آل ابراهيم جماعة كثيرة جمعوا بين الملك والنبوة مثل داود وسليمان (وآتيناهم ملكا عظيما) فلم يشغلهم ذلك عن أمر النبوة ومن فسر الفضل بكثرة النساء قال الملك العظيم فى حق داود وسليمان بكثرة النساء فانه كان لداود مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة ثلثمائة حرة وسبعمائة سرية ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ الا تسع نسوة وقيل هو ملك سليمان واختاره ابن جرير وهو الاولى (فمنهم) أى من اليهود (من آمن به) أى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه وقيل الضمير فى به راجع الى ما ذكر من حديث آل ابراهيم وقيل الضمير راجع الى ابراهيم والمعنى فمن آل ابراهيم من آمن بابراهيم

من أحب ان يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى الى الناس مايحب ان يؤتى اليه
وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن أبى سفيان عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل
موته بثلاث لايموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله عزوجل ورواه مسلم من طريق الاعمش به وقال الامام أحمد حدثنا حسن بن
موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا يونس عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله قال أنا عند ظن عبدى بى فان
ظن بى خيرا فله وان ظن بى شرا فله وأصل هذا الحديث ثابت فى الصحيحين من وجه آخر عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول الله أنا عند ظن عبدى بى وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الملك القرشى حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت
وأحسبه عن أنس قال كان رجل من الانصار مريضا (٢٦٠) فجاءه النبى صلى الله عليه وسلم يعوده فوافقه فى السوق فسلم عليه فقال
له كيف أنت يافلان قال بخير يارسول
الله أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم
لايجتمعان فى قلب عبد فى هذا
الموطن الا أعطاه الله مايرجو وآمنه
مما يخاف ثم قال لانعلم رواه عن
ثابت غير جعفر بن سليمان وهكذا
رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه
من حديثه ثم قال الترمذى غريب
وكذا رواه بعضهم عن ثابت مرسلا
فاما الحديث الذى رواه الامام
أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا
شعبة عن أبى بشر عن يوسف بن
ماهك عن حكيم بن حزام قال بايعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
لاأخر الا قائما ورواه النسائى فى سننه
عن اسمعيل بن مسعود عن خالد بن
الحرث عن شعبة به وترجم عليه فقال
(باب) كيف يخر للسجود ثم ساقه مثله
فقيل معناه أن لاأموت الا مسلما
وقيل معناه أن لاأقتل الا مقبلا غير
مدبر وهو يرجع الى الاول وقوله
تعالى واعتصموا بحبل الله جميعا ولا
تفرقوا قيل بحبل الله أى بعهد الله كما قال فى الآية بعدها ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس خالدين
أى بعهد وذمة وقيل بحبل من الله يعنى القرآن كما فى حديث الحرث الاعور عن على مرفوعا فى صفة القرآن هو حبل الله المتين
وصراطه المستقيم وقد ورد فى ذلك حديث خاص بهذا المعنى فقال الامام الحافظ أبو جعفر الطبرى حدثنا سعيد بن يحيى الاموى
حدثنا اسباط بن محمد عن عبد الملك بن أبى سليمان العزرمى عن عطية عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الله
هو حبل الله الممدود من السماء الى الارض وروى ابن مردويه من طريق ابراهيم بن مسلم الهجرى عن أبى الاحوص عن عبد الله
رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين وهو الشفاء النافع عصمة لمن
تمسك به ونجاة لمن اتبعه وروى من حديث حذيفة وزيد بن أرقم نحو ذلك وقال وكيع حدثنا الاعمش عن أبى وائل قال قال عبد الله

(ومنهم من صد) أعرض (عنه) ولم يؤمن وقيل الضمير يرجع الى الكتاب والاول أولى
(وكفى بجهنم سعيرا) أى نارا مسعرة لمن لايؤمن وهو اشارة لقياس طويت فيه الكبرى
أى هؤلاء صدوا عنه ومن صد عنه كفى بجهنم سعيرا لهم ينتج هؤلاء كفى بجهنم سعيرا
لهم وقوله (ان الذين كفروا) تقرير لهذا وبيان لكفية عذابهم وعذاب جميع من كفر
(بآياتنا) الظاهر عدم تخصيصه ببعض الآيات دون بعض (سوف) كلمة تذكر للتهديد قاله
سيبويه وتنوب عنها السين (نصليهم) أى ندخلهم (نارا) يحترقون فيها (كلما نضجت) أى
احترقت (جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) أى أعطيناهم مكان كل جلد محترق جلدا آخر غير
محترق فان ذلك أبلغ فى العذاب للشخص لان احساسه لعمل النار فى الجلد الذى لم يحترق
أبلغ من احساسه لعملها فى الجلد المحترق وقيل المراد بالجلود السرابيل التى ذكرها الله فى
قوله سرابيلهم من قطران ولاموجب لترك المعنى الحقيقى ههنا وان جاز اطلاق الجلود على
السرابيل مجازا وقيل المعنى أعدنا الجلد الاول جديدا وبأى ذلك معنى التبديل قال
ابن عمر يبدلون جلودا بيضاء أمثال القراطيس وقال معاذ تبدل فى ساعة مائة مرة فقال
عمر هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخرجه الطبرانى بسند ضعيف
والبغوى بغير سند وقال كعب عشرين ومائة مرة وعن ابن مسعود أن غلظ جلد الكافر
اثنان وأربعون ذراعا وقال الحسن تأكلهم النار فى كل يوم سبعين ألف مرة (ليذوقوا
العذاب) أى ليحصل لهم الذوق الكامل لذلك التبديل ويقاسوا شدته وقيل معناه
ليدوم لهم العذاب ولاينقطع (ان الله كان عزيزا) فى انتقامه ممن ينتقم من خلقه لايغلبه
شئ ولايمتنع عليه أحد (حكيما) فى تدبيره وقضائه وانه لايفعل الا ماهو الصواب ثم أتبع
وصف حال الكفار بوصف حال المؤمنين فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهو لف
ونشر مشوش على حد قوله يوم تبيض وجوه وتسود وجوه وعلى عادته تعالى من ذكر
الوعيد مع الوعد وعكسه (سندخلهم) أى يوم القيامة (جنات تجرى من تحتها الانهار

ان هذا الصراط محتضر يحضره الشياطين يا عبد الله هذا الطريق هلم الى الطريق فاعتصموا بحبل الله فان حبل الله القرآن وقوله ولا تفرقوا أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة وقد وردت الاحاديث المتعددة بالنهى عن التفرق والامر بالاجتماع والائتلاف كما فى صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وان تناصحوا من ولاه الله أمركم ويسخط لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطا كما وردت بذلك الاحاديث المتعددة أيضا وخيف عليهم الافتراق والاختلاف فقد وقع ذلك فى هذه الامة فافترقوا على ثلاثة وسبعين فرقة منها فرقة ناجية الى الجنة ومسلمة من عذاب النار وهم الذين على ما كان عليه (١٦١) النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقوله تعالى

خالدين فيها أبدا) قد تقدم تفسير الجنات وجرى الانهار من تحتها وذلك الخلود بغير نهاية ولا انقطاع وليس المراد به طول المكث (لهم فيها أزواج مطهرة) من الادناس التى تكون فى نساء الدنيا ومن كل قذر وسوء الخلق (وندخلهم ظلا ظليلا) الظل الظليل الذى لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك وقيل هو مجموع ظل الاشجار والقصور وقيل الظل الظليل هو الدائم الذى لا يزول واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة كما يقال ليل أليل قال الربيع بن أنس هو ظل العرش الذى لا يزول وقيل هو ظل الجنة والاول أولى (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها) هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع لان الظاهر ان الخطاب يشمل جميع الناس قاطبة فى جميع الامانات وقد روى عن على وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب انها خطاب لولاة المسلمين والاول أظهر وورودها على سبب كما سيأتى لا ينافى ما فيها من العموم فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر فى الاصول قال الواحدى أجمع المفسرون عليه انتهى ويدخل الولاة فى هذا الخطاب دخولا أوليا فيجب عليهم تاديه ما لديهم من الامانات ورد الظلامات وتحرى العدل فى أحكامهم ويدخل غيرهم من الناس فى الخطاب فيجب عليهم رد ما لديهم من الامانات والتحرى فى الشهادات والاخبار ومن قال بعموم هذا الخطاب البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبى بن كعب واختاره جمهور المفسرين ومنهم ابن جرير وأجمعوا على ان الامانات مردودة الى أربابها الابرار منهم والفجار كما قال ابن المنذر والامانات جمع أمانة وهى مصدر بمعنى المفعول وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة وقبض مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة فنزل جبريل عليه السلام برد المفتاح فدعا النبى صلى الله عليه وآله وسلم عثمان بن طلحة فرده اليه وقرأ هذه الآية وعن ابن جريج ان هذه الآية نزلت فى عثمان بن طلحة لما قبض منه صلى الله عليه وآله وسلم مفتاح الكعبة فدعاه ودفعه

واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم الى آخر الآية وهذا السياق فى شأن الاوس والخزرج فانه قد كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن واحن وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم فلما جاء الله بالاسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا اخوانا متحابين بجلال الله متواصلين فى ذات الله متعاونين على البر والتقوى قال الله تعالى هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم الى آخر الآية وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فانقذهم الله منها أن هداهم للايمان وقد امتن عليهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قسم غنائم حنين فعتب من عتب منهم مما فضل عليهم فى القسمة بما أراه الله فخطبهم فقال يا معشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فالفكم الله بى وعالة فاغناكم الله بى

فكلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن وقد ذكر محمد بن اسحق بن يسار وغيره أن هذه الآية نزلت فى شأن الاوس والخزرج وذلك أن رجلا من اليهود مر بملا من الاوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والالفة فبعث رجلا معه وأمره ان يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا الى الحرة فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فاتاهم فجعل يسكنهم ويقول أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضى الله عنهم وذكر عكرمة ان ذلك نزل فيهم حين تثاوروا فى قضية الافك فالله أعلم (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم

تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ولله ما في السموات وما في الارض والى الله ترجع الامور) يقول تعالى ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بامر الله في الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفلحون قال الضحاك هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء وقال أبو جعفر الباقر قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ثم قال الخير اتباع القرآن وسنتي رواه ابن مردويه والمقصود من هذه الآية ان تكون فرقة من هذه الامة متصدية لهذا الشأن وان كان ذلك واجبا على كل فرد فرد من الامة بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وفي رواية وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل وقال الامام أحمد حدثنا سليمان الهاشمي أنبأنا اسمعيل بن جعفر أخبرني عمرو بن أبي عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الاشهلي عن حذيفة بن اليمان ان النبي صلى الله عليه وسلم قال والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله ان يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن أبي عمرو به وقال الترمذي حسن والاحاديث في هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة كما سيأتي تفسيرها في أماكنها ثم قال تعالى ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات الآية ينهى تبارك وتعالى هذه الامة ان يكونوا كالامم الماضين في افتراقهم واختلافهم وتركهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم قال الامام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثني أزهر بن عبد الله الهروي بطاعتهم عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الاهواء كلها في النار الا واحدة وهي الجماعة وانه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أحرى ان لا يقوم به وهكذا رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحيى كلاهما عن أبي المغيرة واسمه عبد القدوس بن الحجاج الشامي به وقد ورد هذا الحديث من طرق وقوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة

اليه وقال هالكا خالدة تالدة أي مستمرة الى آخر الزمان قديمة متاصلة وقد روى هذا المعنى بطرق كثيرة وأخرج أبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال أد الامانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك وقد ثبت في الصحيح ان من خان اذا اؤتمن ففيه خصلة من خصال النفاق (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لا الحكم بالرأي المجرد فان ذلك ليس من الحق في شيء الا اذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله ورسوله وبما هو أقرب الى الحق عند عدم وجود النص واما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله ولا بما هو أقرب اليهما فهو لا يدري ما هو العدل لانه لا يعقل الحجة اذا جاءته فضلا عن أن يحكم بها بين عباد الله عن علي قال حق على الامام أن يحكم بما أنزل الله وان يؤدي الامانة فاذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له وان يطيعوا وان يجيبوا اذا دعوا وأصل العدل هو المساواة في الاشياء فكل ما خرج عن الظلم والاعتداء سمي عدلا وقيل ينبغي العدل بين الخصمين في خمسة أشياء في الدخول عليه والجلوس بين يديه والاقبال عليهما والاستماع منهما والحكم بالحق فيما لهما وعليهما فيجب على الحاكم أن يأخذ الحق ممن وجب عليه لمن وجب له ويكون مقصوده بحكمه ايصال الحق الى مستحقه وان لا يمتزج ذلك بغرض آخر وقد ورد في فضل العادلين من الولاة أحاديث (ان الله نعما يعظكم به) أي نعم الشيء الذي يعظكم به وهو أداء الامانات والحكم بالعدل على وفق السنة والكتاب دون الرأي البحت والعقل الصرف وتقليد اللاحبار والرهبان من غير حجة نيرة وبرهان واضح (ان الله كان سميعا بصيرا) فاذا حكمتم فهو يسمع حكمكم واذا أديتم الامانة فهو يبصر فعلكم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) لما أمر الله سبحانه القضاة والولاة اذا حكموا بين الناس ان يحكموا بالحق أمر الناس

والفرقة قاله ابن عباس رضى الله عنهما فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم قال الحسن البصرى وهم المنافقون فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وهذا الوصف يعم كل كافر وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون يعنى ما كثون فيها أبدا لا يبغون عنها حولا وقد قال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن الربيع ابن صبيح وحماد بن سلمة عن أبى غالب قال رأى أبو امامة رؤسا منصوبة على درج مسجد دمشق فقال أبو أمامة كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه ثم قرأ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه الى آخر الآية قلت لابى امامة أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو لم أسمعه الا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا حتى عد سبعا ما حدثتكموه ثم قال هذا حديث حسن وقد رواه ابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة عن أبى غالب وأخرجه أحمد (٢٦٣) فى مسنده عن عبد الرزاق عن معمر عن أبى غالب بنحوه وقد روى ابن مردويه عند تفسير هذه الآية عن أبى ذر حديثا مطولا غريبا عجيبا جدا ثم قال تعالى تلك آيات الله نتلوها عليك أى هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد بالحق أى نكشف ما الامر عليه فى الدنيا والآخرة وما الله يريد ظلما للعالمين أى ليس بظالم لهم بل هو الحاكم العدل الذى لا يجور لانه القادر على كل شئ العالم بكل شئ فلا يحتاج مع ذلك الى أن يظلم أحدا من خلقه ولهذا قال تعالى ولله ما فى السموات وما فى الارض أى الجميع ملك له وعبيد له والى الله ترجع الامور أى هو المتصرف الحاكم فى الدنيا والآخرة (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) يخبر تعالى عن هذه الامة المحمدية بانهم خير الامم فقال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس قال البخارى حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان بن ميسرة عن أبى حازم عن ابى هريرة رضى الله عنه كنتم خير أمة أخرجت للناس قال خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الاسلام وهكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطية العوفى وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس كنتم خير أمة أخرجت للناس يعنى خير الناس للناس والمعنى انهم خير الامم وأنفع الناس للناس ولهذا قال تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله قال الامام أحمد حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا شريك عن سماك بن عبد الله بن عميرة عن درة بنت أبى لهب قالت قام رجل الى النبى صلى الله

بطاعتهم هنا وطاعة الله عز وجل هى امتثال أوامره ونواهيه وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم هى فيما أمر به ونهى عنه وأولوا الامر هم الائمة والسلاطين والقضاة وامراء الحق ولاة العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدى بهم من المهتدين وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية والمراد طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه مالم تكن معصية فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال جابر بن عبد الله ومجاهد ان أولى الامر هم أهل القرآن والعلم وبه قال مالك والضحاك وروى عن مجاهد انهم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال ابن كيسان هم أهل العقل والرأى وعن ابن عباس قال هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالم دينهم وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد والراجح القول الاول لصحة الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالامر بطاعة الائمة والولاة فيما كان لله وللمسلمين مصلحة فاذا زال عن الكتاب والسنة فلا طاعة له وانما تجب طاعته فيما وافق الحق عن ابن عباس قال نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى اذ بعثه النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى سرية وقصته معروفة قال عطاء طاعة الله والرسول اتباع الكتاب والسنة وأولى الامر قال أولى الفقه والعلم وعن أبى هريرة قال أولوا الامر هم الامراء وفى لفظ هم امراء السرايا وقال جابر بن عبد الله هم أهل العلم وعن مجاهد وأبى العالية نحوه وقد وردت أحاديث كثيرة فى طاعة الامراء ثابتة فى الصحيحين وغيرهما مقيدة بان يكون ذلك فى المعروف وانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الله ومن جملة ما استدل به المقلدة هذه الآية قالوا وأولوا الامر هم العلماء والجواب ان للمفسرين فى تفسيرها قولين أحدهما انهم الامراء والثانى انهم العلماء كما تقدم ولا يمتنع ارادة الطائفتين من الآية الكريمة ولكن أين هذا من الدلالة على مراد المقلدين فانه لا طاعة لاحدهما الا اذا أمر وا بطاعة الله على وفق سنة رسوله وشريعته وأيضا العلماء انما ارشدوا غيرهم الى ترك تقليدهم ونهوهم عن ذلك كما روى عن الائمة

عليه وسلم وهو على المنبر فقال يارسول الله أى الناس خير قال خير الناس أقراهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم ورواه أحمد فى مسنده والنسائى فى سننه والحاكم فى مستدركه من حديث سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس قال هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة والصحيح ان هذه الآية عامة فى جميع الامة كل قرن بحسبه وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كما قال فى الآية الاخرى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أى خيارا لتكونوا شهداء على الناس الآية وفى مسند الامام أحمد وجامع الترمذى وسنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها (٢٦٤) على الله عز وجل وهو حديث مشهور وقد حسنه الترمذى ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبى سعيد نحوه وانما حازت هذه الامة قصب السبق الى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه فانه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعط نبى قبله ولا رسول من الرسل فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه مالا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه كما قال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا ابن زهير عن عبد الله يعنى ابن محمد بن عقيل عن محمد بن على وهو ابن الحنفية انه سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت مالم يعط أحد من الانبياء فقلنا يارسول الله ماهو قال نصرت بالرعب وأعطيت مفاتيح الارض وسميت أحمد وجعل التراب لى طهورا وجعلت أمتى خير الامم تفرد به أحمد من هذا الوجه واسناده حسن وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو العلاء الحسن بن سوار حدثنا الليث عن معاوية بن أبى حبيش عن يزيد بن ميسرة قال سمعت أبا الدرداء رضى الله عنه يقول ما سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها يقول ان الله تعالى يقول ياعيسى انى باعث بعدك أمة ان أصابهم مايحبون حمدوا وشكروا وان أصابهم مايكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم قال يارب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم قال أعطيهم من حلمى وعلمى وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها ههنا قال الامام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا المسعودى حدثنا بكير بن الاخنس عن رجل عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر قلوبهم على قلب رجل واحد فاستزدت ربى فزادنى مع كل واحد سبعين ألفا فقال أبو بكر رضى الله عنه فرأيت ان ذلك آت على أهل القرى ومصيب من حافات البوادى حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن بكر السهمى حدثنا هشام بن حسان عن القاسم بن مهران عن موسى بن عبيد عن ميمون بن مهران عن عبد الرحمن بن أبى

الاربعة وغيرهم فطاعتهم ترك تقليدهم ولو فرضنا ان فى العلماء من يرشد الناس الى التقليد ويرغبهم فيه لكان يرشد الى معصية الله ولا طاعة بنص حديث من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانما قلنا انه يرشد الى معصية الله لان من أرشد هؤلاء العامة الذين لا يعقلون الحجج ولا يعرفون الصواب من الخطأ الى التمسك بالتقليد كان هذا الارشاد منه مستلزما لارشادهم الى ترك العمل بالكتاب والسنة الا بواسطة آراء العلماء الذين يقلدونهم فما عملوا به عملوا به ومالم يعملوا به لم يعملوا به ولا يلتفتون الى كتاب وسنة بل من شرط التقليد الذى اصيبوا به ان يقبل من امامه رأيه ولا يعول على روايته ولا يسأله عن كتاب ولا سنة فان سأله عنهما خرج عن التقليد لانه قد صار مطلبا باطلا بحجة ومن جملة مايجب فيه طاعة أولى الامر تدبير الحروب التى تدهم الناس والانتفاع بآرائهم فيها وفى غيرها من تدبير أمر المعاش وجلب المصالح ودفع المفاسد الدنيوية ولا يعد ان تكون هذه الطاعة فى هذه الامور التى ليست من الشريعة هى المرادة بالامر بطاعتهم لانه لو كان المراد طاعتهم فى الامور التى شرعها الله ورسوله لكان ذلك داخلا تحت طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يعد أيضا أن تكون الطاعة لهم فى الامور الشرعية فى مثل الواجبات المخيرة وواجبات الكفاية فاذا أمروا بواجب من الواجبات المخيرة أو الزموا بعض الاشخاص الدخول فى واجبات الكفاية لزم ذلك فهذا أمر شرعى وجب فيه الطاعة وبالجملة فهذه الطاعة لأولى الامر المذكورة فى الآية هى الطاعة التى ثبتت فى الاحاديث المتواترة فى طاعة الامراء مالم يؤمروا بمعصية الله أو يرى المأمور كفرا بواحا فهذه الاحاديث مفسرة لما فى الكتاب العزيز وليس ذلك من التقليد فى شئ بل هو فى طاعة الامراء الذين غالبهم الجهل والبعد عن العلم فى تدبير المحاربات وسياسة الاجناد وجلب مصالح العباد واما الامور الشرعية المحضة فقد أغنى عنها كتاب الله العزيز وسنة رسوله المطهرة صلى الله عليه وآله وسلم وهذا الذى سقناه هو عمدة أدلة المجوزين للتقليد وقد أبطلناه كما عرفت ولهم شبه غير

بكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ربي أعطاني سبعين الفا يدخلون الجنة بغير حساب فقال عمر يا رسول الله فهلا استزدته فقال استزدته فاعطاني مع كل ألف سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فاعطاني هكذا وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه وقال عبد الله وبسط باعيه وحنا عبد الله وقال هشام وهذا من الله لا يدري ما عدده حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا اسمعيل بن عياش عن ضمضم ابن زرعة قال قال شريح بن عبيد مرض ثوبان بحمص وعليها عبد الله بن قرط الازدي فلم يعده فدخل على ثوبان رجل من الكلاعيين عائده فقال له ثوبان أتكتب قال نعم قال اكتب فكتب للامير عبد الله بن قرط ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد فانه لو كان لموسى وعيسى عليهما السلام بحضرتك خادم لعدته ثم طوى (٢٦٥) الكتاب وقال له أتبلغه اياه قال نعم فانطلق الرجل بكتابه فدفعه الى ابن قرط فلما رآه قام فزعا فقال الناس ما شأنه أحدث أمر فأتى ثوبان فدخل عليه فعاده وجلس عنده ساعة ثم قام فأخذ ثوبان برداءه وقال اجلس حتى أحدثك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفا تفرد به أحمد من هذا الوجه واسناد رجاله كلهم ثقات شاميون حصيون فهو حديث صحيح ولله الحمد والمنة طريق أخرى قال الطبراني حدثنا عمرو بن اسحق ابن زريق الحمصي حدثنا محمد بن اسمعيل يعني ابن عياش حدثني أبي عن ضمضم بن زرعة عن شريح ابن عبيد عن أبي اسماء الرحبي عن ثوبان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان ربي عز وجل وعدني من أمتي سبعين ألفا لا يحاسبون

ما حررناه (فان تنازعتم) المنازعة المجاذبة والنزع الجذب كأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويجذبها والمراد بالاختلاف المجادلة والظاهر انه خطاب مستقل مستأنف موجه للمجتهدين ولا يصح أن يكون لاولى الامر الاعلى طريق الالتفات وليس المراد فان تنازعتم أيها الرعايا مع أولى الامر المجتهدين لان المقلد ليس له ان ينازع المجتهد في حكمه قاله أبو السعود على ما في الجمل والاولى ما قدمناه وظاهر قوله (في شئ) يتناول أمور الدين والدنيا ولكنه لما قال (فردوه الى الله والرسول) تبين به ان الشئ المتنازع فيه يختص بأمور الدين دون أمور الدنيا والمعنى في شئ غير منصوص نصا صريحا من الامور المختلف فيها كندب الوتر وضمان العارية ونحوهما والرد الى الله هو الرد الى كتابه العزيز والرد الى الرسول هو الرد الى سنته المطهرة بعد موته وأما في حياته فالرد اليه سؤاله هذا معنى الرد اليهما وقيل معنى الرد أن يقول لما لا يعلم الله ورسوله أعلم وهو قول ساقط وتفسير بارد وليس الرد في هذه الآية الا الرد المذكور في قوله تعالى ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم والرد الى كتاب الله وسنة رسوله واجب فان وجد ذلك الحكم في كتاب الله أخذ به فان لم يوجد فيه ففي سنة رسوله فان لم يوجد فيها فسبيله الاجتهاد ولا يلتفت عند وجود الحكم فيهما أو في أحدهما الى غيرهما من آراء الرجال وغيرهم فانه مشاقة لله ولرسوله من بعد ما تبين له الهدى وفي قوله (ان كنتم تؤمنون) دليل على ان هذا الرد محتم على المتنازعين وانه شأن من يؤمن (بالله واليوم الآخر) وفي الآية دليل على ان من لا يعتقد وجوب متابعة الكتاب والسنة والحكم بالنصوص القرآنية والاحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يكون مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر (ذلك) أي الرد المأمور به (خير وأحسن تأويلا) أي مرجعا وأحمد عاقبة من الاول يقال آل يؤول الى كذا أي صار اليه والمعنى ان ذلك الرد خير لكم في حد ذاته من غير اعتبار فضله على شئ يشاركه في أصل الخيرية من التنازع والقول بالرأي وأحسن مآلا مرجعا ترجعون

(٣٤ - فتح البيان نى) مع كل ألف سبعون ألفا هذا العله هو المحفوظ بزيادة أبي اسماء الرحبي بين شريح وبين ثوبان والله أعلم حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال أكثرنا الحديث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ثم غدونا اليه فقال عرضت علي الانبياء الليلة بأممها فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة والنبي ومعه العصابة والنبي ومعه النفر والنبي وليس معه أحد حتى مر على موسى عليه السلام ومعه كبكبة من بني اسرائيل فاعجبوني فقلت من هؤلاء قيل هذا أخوك موسى ومعه بنو اسرائيل فقلت فأين أمتي فقيل انظر عن يمينك فنظرت فاذا الضراب (١) قد سد بوجوه الرجال فقيل لي أرضيت فقلت رضيت يا رب قال فقيل لي ان مع هؤلاء سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فقال النبي صلى الله عليه وسلم فداكم أبي وأمي ان استطعتم ان تكونوا من السبعين ألفا فان عجزتم فكونوا من أهل الضراب

(١) قوله فاذا الضراب هكذا بنسخة في الموضعين وفي نسخة في موضع الظراب بالظاء وحرر

فان قصرتم فكونوا من أهل الافق فانى قد رأيت ثم اناسا يتهاوشون فقام عكاشة بن محصن فقال يارسول الله ادع الله ان يجعلنى منهم أى من السبعين فدعاله فقام رجل آخر فقال ادع الله يارسول الله ان يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة قال ثم تحدثنا فقلنا من ترون هؤلاء السبعين الالف قوم ولدوا فى الاسلام ولم يشركوا بالله شيأ حتى ماتوا فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون هكذا رواه أحمد بهذا السند وهذا السياق ورواه أيضا عن عبد الصمد عن هشام عن قتادة باسناده مثله وزاد بعد قوله رضيت يارب رضيت يارب قلت نعم قال انظر عن يسارك قال فنظرت فاذا الافق قد سد بوجوه الرجال فقال رضيت قلت رضيت وهذا اسناد صحيح من هذا الوجه تفرد به أحمد ولم يخرجوه حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا أحمد بن منيع (٢٦٦) حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز حدثنا حماد عن عاصم عن زر عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم عرضت على الامم بالموسم فرأيت على أمتى ثم رأيتهم فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم قد ملؤا السهل والجبل فقال أرضيت يامحمد فقلت نعم قال فان مع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة ابن محصن فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال أنت منهم فقام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة رواه الحافظ الضياء المقدسى وقال هذا عندى على شرط مسلم حديث آخر قال الطبرانى حدثنا محمد بن محمد الجدوعى القاضى حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا محمد بن أبى عدى عن هشام بن حسان عن محمد ابن سيرين عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب قيل من هم قال هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ورواه مسلم من طريق هشام بن حسان وعنده ذكر عكاشة حديث آخر ثبت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن سعيد بن المسيب ان أبا هريرة حدثه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل الجنة من أمتى زمرة وهم سبعون ألفا تضىء وجوههم اضاءة القمر ليلة البدر قال أبو هريرة فقام عكاشة بن محصن الاسدى يرفع نمرة عليه فقال يارسول الله ادع الله ان يجعلنى منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعله منهم ثم قام رجل من الانصار فقال مثله فقال سبقك بها عكاشة حديث آخر قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا أبو غسان عن أبى حازم عن سهل بن سعد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا أو سبعمائة ألف آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة ووجوههم على صورة القمر ليلة البدر أخرجه

اليه ويجوز ان يكون المعنى ان الرد أحسن تأويلا من تأويلكم الذى صرتم اليه عند التنازع وقال قتادة ذلك أحسن ثوابا وخير عاقبة وقال مجاهد أحسن جزاء واعلم ان هذه الآية الشريفة مشتملة على أكثر علم أصول الفقه لان الفقهاء زعموا ان أصول الشريعة أربع الكتاب والسنة والاجماع والقياس وهذه الآية مشتملة على تقرير هذه الاصول الاربعة بهذا الترتيب أما الكتاب والسنة فقد وقعت الاشارة اليهما بقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فدلت على وجوب متابعة الكتاب والسنة وقوله تعالى وأولى الامر منكم يدل على أن اجماع الامة حجة لان الله تعالى أمر بطاعتهم على سبيل الجزم وهذا يفضى الى اجتماع الامر والمراد بهم أهل الحل والعقد وذلك يوجب القطع بأن اجماع الامة حجة وقوله فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول يدل على أن القياس حجة وهذه الآية دالة على أن الكتاب والسنة مقدمان على القياس مطلقا فلا يجوز ترك العمل بهما بسبب القياس ولا يجوز تخصيصهما بسبب القياس البتة سواء كان القياس جليا أو خفيا وسواء كان النص مخصوصا قبل ذلك أم لا ومما يدل عليه ان قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول أمر بطاعة الكتاب والسنة وهذا الامر مطلق فثبت ان متابعتهما سواء حصل قياس يعارضهما أو يخصصهما أو لم يوجد واجب ومما يؤكد ذلك وجوه أخرى أحدها ان كلمة ان على قول الاكثرين للاشتراط وعلى هذا كان قوله فان تنازعتم صريحا فى أنه لا يجوز العدول الى القياس الا عند فقدان الاصول الثانى انه تعالى أخر ذكر القياس عن ذكر الاصول الثلاثة وهذا مشعر بان العمل به مؤخر عن الاصول الثلاثة الثالث انه صلى الله عليه وآله وسلم اعتبر هذا الترتيب فى قصة معاذ حيث أخر الاجتهاد عن الكتاب وعلق جوازه على عدم وجدان الكتاب والسنة بقوله فان لم تجد الرابع انه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ثم ان ابليس لم يدفع هذا النص بالكلية بل خصص نفسه عن ذلك العموم بقياس ثم أجمع العقلاء على انه جعل القياس مقدما على النص وصار

البخاري ومسلم جميعا عن قتيبة عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل به حديث آخر قال مسلم بن الحجاج في صحيحه حدثنا سعيد بن منصور حدثنا هشيم أنبأنا حصين بن عبد الرحمن قال كنت عند سعيد بن جبير فقال أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة قلت أنا ثم قلت أما اني لم أكن في صلاة ولكني لدغت قال فما صنعت قلت استرقيت قال فما حملك على ذلك قلت حديث حدثناه الشعبي قال وما حدثكم الشعبي قلت حدثنا عن بريدة بن الحصيب الاسلمي انه قال لا رقية الا من عين أو حمة قال قد أحسن من انتهى الى ما سمع ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد اذ رفع لي سواد عظيم فظننت انهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ولكن انظر الى الافق فنظرت فاذا سواد عظيم فقيل لي انظر الى الافق الآخر فاذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الاسلام فلم يشركوا بالله شيأ وذكروا اشياء فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما الذي تخوضون فيه فاخبروه فقال هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال ادع الله ان يجعلني منهم قال أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال ادع الله ان يجعلني منهم قال سبقك بها عكاشة واخرجه البخاري عن أسيد بن زيد عن هشيم وليس عنده يرقون حديث آخر قال احمد حدثنا روح بن عبادة حدثنا ابن جريج اخبرني ابو الزبير انه سمع جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديثا وفيه فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر لا يحاسبون ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء ثم كذلك وذكر بقيته رواه مسلم من حديث روح غير انه لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم حديث آخر قال الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنن له حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا اسمعيل بن عياش عن محمد بن زياد سمعت ابا امامة الباهلي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعدني ربي ان يدخل الجنة من أمتي سبعين الفا مع كل الف سبعون الفا لا حساب عليهم ولا عذاب وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل وكذا رواه الطبراني من طريق هشام بن عمار عن اسمعيل بن عياش به وهذا اسناد جيد طريق اخرى عن ابي امامة قال ابن ابي عاصم حدثنا دحيم حدثنا الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر عن ابي اليمان الهروي واسمه عامر بن عبد الله بن يحيى عن ابي امامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله وعدني ان يدخل الجنة من أمتي سبعين الفا بغير حساب فقال يزيد بن الاخنس والله ما أولئك في أمتك يا رسول الله الا مثل الذباب

بذلك السبب ملعونا وهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس تقديم للقياس على النص وانه غير جائز الخامس ان القرآن مقطوع في متنه لانه ثبت بالتواتر والقياس ليس كذلك بل هو مظنون من جميع الجهات والمقطوع راجح على المظنون السادس قوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون واذا وجدنا عموم الكتاب حاصلا في الواقعة ثم انا لا نحكم به بل حكمنا بالقياس لزم الدخول تحت هذا العموم السابع قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله فاذا كان عموم القرآن حاضرا ثم قدمنا القياس المخصص عليه لزم التقديم بين يدي الله ورسوله الثامن قوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله الى قوله ان تتبعون الا الظن جعل اتباع الظن من صفات الكفار ومن الموجبات القوية في مذمتهم فهذا يقتضي أن لا يجوز العمل بالقياس البتة ترك هذا النص لما بينا انه يدل على جواز العمل بالقياس لكنه انما دل على ذلك عند فقدان النصوص فوجب عندوجدانها أن يبقى على الاصل التاسع ان القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والقياس يفرق عقل الانسان الضعيف وكل من له عقل صحيح علم أن الاول أقوى بالمتابعة وأحرى وأيضا هذه الآية دالة على أن ماسوى هذه الاصول الاربعة مردود باطل وليس للمكلف أن يتمسك بشيء سوى هذه الاصول فالقول بالاستحسان الذي يقول به أبو حنيفة والقول بالاستصلاح الذي يقول به مالك ان كان المراد به أحد هذه الامور الاربعة فهو تغيير عبارة ولا فائدة فيه وان كان مغايرا لهذه الاربعة كان القول به باطلا قطعا لدلالة هذه الآية على بطلانه والامر في قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول للوجوب وبه زعم كثير من الفقهاء واعترض عليه المتكلمون بما لا يغني عن جوع وهذه الآية دالة على أن ظاهر الامر للوجوب ولا شك انه أصل معتبر في الشرع وفي الآية دلالة على أن شرط الاستدلال بالقياس في المسئلة أن لا يكون فيها نص من الكتاب والسنة لان قوله فان تنازعتم في شيء فردوه مشعر بهذا

الاصهب فى الذباب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الله وعدنى سبعين الفا مع كل الف سبعون الفا وزادنى ثلاث حثيات وهذا ايضا اسناد حسن حديث آخر قال ابو القاسم الطبرانى حدثنا احمد بن خليد حدثنا ابو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن يزيد بن سلام انه سمع أبا سلام يقول حدثنى عامر بن زيد البكالى انه سمع عيينة بن عبد السلمى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ربى عز وجل وعدنى ان يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا بغير حساب ثم يشفع كل ألف لسبعين ألفا ثم يحثى ربى عز وجل بكفيه ثلاث حثيات فكبر عمر وقال ان السبعين الاول يشفعهم الله فى آبائهم وأبنائهم وعشيرتهم وأرجو أن يجعلنى الله فى احدى الحثيات الاواخر قال الحافظ الضياء أبو عبد الله المقدسى فى كتابه صفة الجنة لا أعلم لهذا الاسناد علة والله أعلم حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن (٢٦٨) سعيد حدثنا هشام يعنى الدستوائى حدثنا يحيى بن أبى كثير عن هلال ابن ابى ميمونة حدثنا عطاء بن يسار أن رفاعة الجهنى حدثه قال أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كنا بالكديد أو قال بقديد فذكر حديثا وفيه ثم قال وعدنى ربى عز وجل ان يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا بغير حساب وانى لارجو ان لا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن فى الجنة قال الضياء وهذا عندى على شرط مسلم حديث آخر قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة عن النضر بن أنس عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله وعدنى ان يدخل الجنة من أمتى أربعمائة ألف قال أبو بكر رضى الله عنه زدنا يا رسول الله قال والله هكذا قال عمر حسبك يا أبا بكر فقال أبو بكر دعنى وما عليك ان يدخلنا الله الجنة كلنا قال عمر ان الله ان شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحد فقال النبى صلى الله عليه وسلم صدق عمر هذا الحديث بهذا الاسناد تفرد به عبد الرزاق قال الضياء وقد رواه الحافظ أبو نعيم الاصبهانى قال حدثنا محمد بن أحمد بن مخلد حدثنا ابراهيم بن الهيثم البلدى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال وعدنى ربى ان يدخل الجنة من أمتى مائة ألف فقال أبو بكر يا رسول الله زدنا قال وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك قلت يا رسول الله زدنا فقال عمر ان الله قادر على ان يدخل الناس الجنة بحفنة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق عمر هذا حديث غريب من هذا الوجه وأبو هلال اسمه محمد بن سليم الراسبى بصرى طريق أخرى عن أنس قال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد بن بكير حدثنا عبد القاهر بن السرى السلمى حدثنا حميد عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا قالوا زدنا يا رسول الله قال لكل رجل سبعون ألفا قالوا زدنا وكان على كثيب

الاشتراط ومعنى تنازعتم اختلفتم قال الزجاج أى قال كل فريق القول قولى والمنازعة عبارة عن مجاذبة كل واحد من الخصمين لحجة مصححة لقوله أو محاولة جذب قوله ونزعه اياه عما يفسده وآخر الآية يقتضى ان من لم يطع الله والرسول لا يكون مؤمنا والكلام فى الآية استنباطا وتفقها ورد اوتعقبا يطول وقد بسط القول فيه الرازى فى تفسيره والذى ذكرناه هو حاصل ما يتعلق بالتفسير منه (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) فيه تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حال هؤلاء الذين ادعوا لانفسهم انهم قد جمعوا بين الايمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو القرآن وما أنزل على من قبله من الانبياء فجاؤا بما ينقض عليهم هذه الدعوى ويبطلها من أصلها ويوضح انهم ليسوا على شئ من ذلك أصلا وهو ارادتهم التحاكم الى الطاغوت وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله وعلى من قبله أن يكفروا به وقد تقدم تفسير الطاغوت والاختلاف فى معناه وبسند قال السيوطى صحيح عن ابن عباس قال كان برزة الاسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر اليه ناس من المسلمين فأنزل هذه الآية وعنه كان الجلاس بن الصامت قبل توبته ومعقب بن قشير ورافع بن زيد كانوا يدعون الاسلام فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعوهم الى الكهان حكام الجاهلية فنزلت الآية وبذلك يتضح معناها (ويريد الشيطان أن يضلهم) عن طريق الهدى والحق (ضلالا بعيدا) مستمرا الى الموت (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول) تكملة لمادة التعجب ببيان اعراضهم صريحا عن التحاكم الى كتاب الله ورسوله اثر بيان اعراضهم عن ذلك فى ضمن التحاكم الى الطاغوت (رأيت المنافقين) أى أبصرتهم كما هو الظاهر (يصدون عنك صدودا) اسم للمصدر وهو الصد عند الخليل وعند الكوفيين انهما مصدران أى يعرضون

فقالوا فقال هكذا وحثا بيديه قالوا يا رسول الله أبعد الله من دخل النار بعد هذا وهذا اسناد جيد ورجاله كلهم ثقات ما عدا عبد القاهر بن السري وقد سئل عنه ابن معين فقال صالح حديث آخر روى الطبراني من حديث قتادة عن أبي بكر بن عمر عن أبيه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله وعدني ان يدخل من أمتي ثلثمائة ألف الجنة فقال عمر يا رسول الله زدنا فقال وهكذا بيده فقال عمر يا رسول الله زدنا فقال عمر حسبك ان الله ان شاء أدخل خلقه الجنة بحفنة أو بحثية واحدة فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم صدق عمر حديث آخر قال الطبراني حدثنا أحمد بن خليد أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن يزيد بن سلام يقول حدثني عبد الله بن عامر ان قيسا الكندي حدثه ان أبا سعيد الانماري حدثه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ربي وعدني ان يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب ويشفع كل ألف لسبعين ألفا ثم يحثي ربي ثلاث (٢٦٩) حثيات بكفيه كذا قال قيس فقلت لابي سعيد أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم باذني ووعاه قلبي قال أبو سعيد قال يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان شاء الله يستوعب مهاجري أمتي ويوفى الله بقيته من أعرابنا وقد روى هذا الحديث محمد بن سهل بن عسكر على أبي توبة الربيع بن نافع باسناده مثله وزاد قال أبو سعيد فحسب ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ أربعمائة ألف ألف وتسعين ألفا حديث آخر قال أبو القاسم الطبراني حدثنا هشيم بن مرثد الطبراني حدثنا محمد بن اسمعيل بن عياش حدثني ابي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما والذي نفس محمد بيده ليبعثن منكم يوم القيامة الى الجنة مثل الليل الاسود زمرة جميعها يحيطون الارض تقول الملائكة لما جاء مع محمد أكثر مما جاء مع الانبياء وهذا اسناد حسن حديث آخر من الاحاديث الدالة على فضيلة هذه الامة وشرفها وكرامتها على الله عز وجل وانها خير الامم في الدنيا والآخرة قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرا انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول اني لأرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع أهل الجنة قال فكبرنا ثم قال أرجو ان يكونوا ثلث الناس قال فكبرنا ثم قال أرجو ان يكونوا الشطر وهكذا رواه عن روح عن ابن جريج به وهو على شرط مسلم وثبت في الصحيحين من حديث أبي اسحق السبيعي عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ترضون ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال أما ترضون ان تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال اني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة طريق أخرى عن ابن مسعود قال الطبراني حدثنا أحمد بن القاسم بن مساور حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد

يعرضون عنك وعن حكمك اعراضا وأي اعراض وانما أعرضوا لانهم علموا انه يحكم بالحق الصريح ولا يقبل الرشا (فكيف) بيان لعاقبة أمرهم وما صار اليه حالهم أي كيف يكون حالهم (اذا أصابتهم مصيبة) أي وقت اصابتهم فانهم يعجزون عند ذلك ولا يقدرون على الدفع والمراد (بما قدمت أيديهم) ما فعلوه من المعاصي التي من جملتها التحاكم الى الطاغوت (ثم جاؤك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا) أي يعتذرون عن فعلهم وهو عطف على اصابتهم ويحلفون ما أردنا بتحاكمنا الى غيرك الا الاحسان لا الاساءة والتوفيق بين الخصمين لا المخالفة لك وقال ابن كيسان معناه ما أردنا الا عدلا وحقا مثل قوله وليحلفن ان أردنا الا الحسنى فكذبهم الله بقوله (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) من النفاق والعداوة للحق وكذبهم في عذرهم قال الزجاج معناه قد علم الله أنهم منافقون (فأعرض عنهم) أي عن عقابهم بالصفح وقيل عن قبول اعتذارهم وقيل أعرض عنهم في الملا وقل لهم في الخلا لانه في السر نجح وقيل هذا الاعراض منسوخ بآية القتال (وعظهم) أي خوفهم من النفاق والكفر والكذب والكيد وعذاب الآخرة باللسان (وقل لهم في أنفسهم) أي في حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية على الشرور التي يعلمها الله وقيل معناه قل لهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم (قولا بليغا) أي بالغا في وعظهم ومؤثرا فيهم واصلا الى كنه المراد مطابقا لما سيق له من المقصود وذلك بان يوعدهم بسفك دمائهم وسبي نسائهم وسلب أموالهم والايذان بأن ما في قلوبهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على الله تعالى وان ذلك مستوجب لاشد العقوبات والبلاغة ايصال المعنى الى الفهم في أحسن صورة من اللفظ وقيل حسن العبارة مع صحة المعنى وقيل سرعة الايجاز مع الافهام وحسن التصرف من غير انجار وقيل ما قل لفظه وكثر معناه وقيل ما طابق لفظه معناه ولم يكن لفظه الى السمع أسبق من معناه الى القلب وقيل المراد بالقول البليغ ما كان مشتملا على الترغيب والترهيب والاعذار والانذار

ابن زياد حدثني الحرث بن حصين حدثني القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنتم وربع الجنة لكم ولسائر الناس ثلاثة أرباعها قالوا الله ورسوله أعلم قال كيف أنتم وثلثها قالوا ذا لأكثر قال كيف أنتم والشطر لكم قالوا ذا لأكثر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجنة عشرون ومائة صف لكم منها ثمانون صفا قال الطبراني تفرد بها الحرث بن حصين حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا ضرار بن مرة أبو سنان الشيباني عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أهل الجنة عشرون ومائة صف هذه الامة من ذلك ثمانون صفا وكذا رواه عن عفان عن عبد العزيز به وأخرجه الترمذي من حديث أبي سنان به وقال هذا حديث حسن ورواه ابن ماجه من حديث سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه به حديث آخر روى الطبراني من حديث سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا خالد بن يزيد البجلي حدثنا سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من أمتي تفرد به خالد بن يزيد البجلي وقد تكلم فيه ابن عدي حديث آخر قال الطبراني حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا موسى بن غيلان حدثنا هاشم بن مخلد حدثنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن أبي عمرو عن أبيه عن أبي هريرة قال لما نزلت ثلة من الاولين وثلة من الآخرين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم ربع أهل الجنة أنتم ثلث أهل الجنة أنتم نصف أهل الجنة أنتم ثلثا أهل الجنة وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نحن الآخرون الاولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع غدا لليهود وللنصارى بعد غد رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا بنحوه ورواه مسلم أيضا من طريق الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون الاولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة وذكر تمام الحديث حديث آخر روى الدارقطني في الافراد من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الجنة حرمت على الانبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الامم حتى تدخلها أمتي ثم قال انفرد به ابن عقيل عن الزهري ولم يروه عنه سواه وتفرد به عمرو بن أبي سلمة

والوعد والوعيد واذا كان كذلك عظم وقعه في القلوب وأثر في النفوس (وما أرسلنا من رسول) من زائدة للتوكيد قاله الزجاج والمعنى وما أرسلنا رسولا (الا ليطاع) فيما أمر به وينهى عنه وهذه لام كي والاستثناء مفرغ أي ما أرسلنا شيئا من الاشياء الا للطاعة (باذن الله) بعلمه وقيل بأمره وقيل بتوفيقه وفيه توبيخ وتقريع للمنافقين الذين تركوا حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضوا بحكم الطاغوت (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم) بترك طاعتك والتحاكم الى غيرك من الطاغوت وغيره (جاؤك) متوسلين اليك تائبين من النفاق متنصلين عن جناياتهم ومخالفاتهم (فاستغفروا الله) لذنوبهم بالتوبة والاخلاص وتضرعوا اليك حتى قمت شفيعا لهم فاستغفرت لهم وانما قال (واستغفر لهم الرسول) على طريقة الالتفات لقصد التفخيم لشأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيما لاستغفاره واجلالا للمجيء اليه (لوجدوا الله توابا رحيما) أي كثير التوبة عليهم والرحمة لهم وهذا المجيء يختص بزمان حياته صلى الله عليه وآله وسلم وليس المجيء اليه يعني الى مرقده المنور بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم مما تدل عليه هذه الآية كما قرره في الصارم المنكي ولهذا لم يذهب الى هذا الاحتمال البعيد أحد من سلف الامة وأئمتها لا من الصحابة ولا من التابعين ولا ممن تبعهم بالاحسان قال ابن جرير قوله (فلا) رد على ما تقدم ذكره تقديره فليس الامر كما يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ثم استأنف القسم بقوله (وربك لا يؤمنون) وقيل انه قدم لا على القسم اهتماما بالنفي واظهارا للقوة ثم كرره بعد القسم تأكيدا وقيل لا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد معنى النفي قاله الزمخشري والتقدير فوربك لا يؤمنون كما في قوله فلا أقسم بمواقع النجوم (حتى) غاية أي ينتفي عنهم الايمان الى أن (يحكموك) أي يجعلوك حكما بينهم في جميع أمورهم لا يحكمون أحدا غيرك وقيل معناه يتحاكمون اليك ولا يلجئ لذلك (فيما شجر) أي اختلف (بينهم) واختلط ومنه الشجر لاختلاف أغصانه ومنه تشاجر الرماح أي اختلافها

عن زهير وقد رواه أبو أحمد بن عدى الحافظ فقال حدثنا أحمد بن الحسين بن اسحق حدثنا أبو بكر الاعين محمد بن غياث حدثنا أبو حفص التنيسى حدثنا صدقة الدمشقى عن زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الزهرى ورواه الثعلبى حدثنا أبو عباس الخالدى أنبأنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد أنبأنا أحمد بن عيسى التنيسى حدثنا عمرو بن سلمة حدثنا صدقة بن عبد الله عن زهير بن محمد بن عقيل به فهذه الاحاديث فى معنى قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله فمن اتصف من هذه الامة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح كما قال قتادة بلغنا ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية كنتم خير أمة أخرجت للناس ثم قال من سره ان يكون من هذه الامة فليؤد شرط الله فيها رواه ابن جرير ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه الآية ولهذا لما مدح تعالى هذه الامة هذه على الصفات شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال تعالى ولو آمن أهل الكتاب أى بما أنزل على محمد لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون أى قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان ثم قال تعالى مخبرا عباده المؤمنين ومبشرا لهم ان النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين فقال تعالى لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون فانهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة كلهم أذلهم الله وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة فى غير ما موطن وسبوهم وملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ولا تزال عصابة الاسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى بن مريم وهم كذلك ويحكم بملة الاسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل الا الاسلام ثم قال تعالى ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس أى ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون الا بحبل من الله وحبل من الناس وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم والزامهم أحكام الملة وحبل من الناس أى امانا منهم لهم كما فى المهادن والمعاهد والاسير اذا أمنه واحد من المسلمين ولو امرأة وكذا عبد على أحد قولى العلماء قال ابن عباس الا بحبل من الله وحبل من الناس أى بعهد من الله وعهد من الناس وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدى والربيع بن أنس وقوله وباؤا بغضب من الله أى ألزموا فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه وضربت عليهم المسكنة أى ألزموها قدرا وشرعا ولهذا قال ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق أى انما حملهم على ذلك الكبر والبغى والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبدا متصلا

(ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت) قيل هو معطوف على مقدر ينساق اليه الكلام أى فتقضى بينهم ثم لا يجدوا والحرج الضيق وقيل الشك ومنه قيل للشجر الملتف حرج وحرجة وجمعها حراج وقيل الحرج الاثم أى لا يجدون فى أنفسهم اثما بانكارهم ما قضيت به (ويسلموا تسليما) أى ينقادوا الامرك وقضائك انقياد الا يخالفونه فى شئ يظاهرهم وباطنهم قال الزجاج تسليما مصدر مؤكد أى ويسلمون لحكمك تسليما لا يدخلون على أنفسهم شكا ولا شبهة فيه والظاهر ان هذا شامل لكل فرد فى كل حكم كما يؤيد ذلك قوله وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله فلا يختص بالمقصودين بقوله يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وهذا فى حياته صلى الله عليه وآله وسلم وأما بعد موته فتحكيم الكتاب والسنة تحكيم الحاكم بما فيهما من الائمة والقضاة اذا كان لا يحكم بالرأى المجرد مع وجود الدليل فى الكتاب والسنة أو فى أحدهما وكان يعقل ما يرد عليه من حجج الكتاب والسنة بأن يكون عالما باللغة العربية وما يتعلق بها من نحو وتصريف ومعانى وبيان عارفا بما يحتاج اليه من علم الاصول بصيرا بالسنة المطهرة مميزا بين الصحيح وما يلحق به والضعيف وما يلحق به منصفا غير متعصب لمذهب من المذاهب ولا لنحلة من النحل ورعا لا يحيف ولا يميل فى حكمه فمن كان هكذا فهو قائم فى مقام النبوة مترجم عنها حاكم بأحكامها وفى هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود وترجف له الافئدة فانه أولا أقسم سبحانه بنفسه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفى بانهم لا يؤمنون فنفى عنهم الايمان الذى هو رأس مال صالحى عباد الله حتى تحصل لهم غاية هى تحكيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت فضم الى التحكيم أمرا آخر هو عدم وجود حرج أى حرج فى صدورهم فلا يكون مجرد التحكيم والاذعان كافيا حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان وانشراح قلب وطيب نفس ثم لم يكتف بهذا كله بل ضم اليه قوله ويسلموا أى يذعنوا وينقادوا ظاهرا وباطنا

بذل الآخرة ثم قال تعالى ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون اى انما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وقبض الذلك انهم كانوا يكثرون العصيان لاوامر الله والغشيان لمعاصى الله والاعتداء فى شرع الله فعياذا بالله من ذلك والله عز وجل المستعان قال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن سليمان الاعمش عن ابراهيم عن أبى معمر الازدى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال كانت بنو اسرائيل تقتل فى اليوم ثلثمائة نبى ثم يقوم سوق بقلهم فى آخر النهار (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ (٢٧٢) وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) قال ابن أبى نجيح زعم الحسن بن أبى يزيد البجلى عن ابن مسعود فى قوله تعالى ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة قال لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وهكذا قال السدى ويؤيد هذا القول الحديث الذى رواه الامام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا أبو النضر وحسن بن موسى قالا حدثنا شيبان عن عاصم عن زر عن ابن مسعود قال أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ثم خرج الى المسجد فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما انه ليس من أهل هذه الاديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم قال فنزلت هذه الآيات ليسوا سواء من أهل الكتاب الى قوله والله عليم بالمتقين والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن اسحق وغيره ورواه العوفى عن ابن عباس ان هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب ونزلت كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى ليسوا سواء أى ليسوا كلهم على حد سواء بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ولهذا قال من أهل الكتاب أمة قائمة أى قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة لنبى الله فهى قائمة يعنى مستقيمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون أى يقيمون الليل ويكثرون التهجد ويتلون القرآن فى صلواتهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين وهؤلاء هم المذكورون فى آخر السورة وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله الآية ولهذا قال تعالى ههنا وما يفعلوا من خير فلن يكفروه أى لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء والله عليم

ثم لم يكتف بذلك بل ضم اليه المصدر المؤكد فقال تسليما فلا يثبت الايمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم ثم لا يجد الحرج فى صدره مما قضى عليه ويسلم لحكمه وشرعه تسليما لا يخالطه رد ولا تشوبه مخالفة قال الرازى ظاهر الآية يدل على انه لا يجوز تخصيص النص بالقياس لانه يدل على انه يجب متابعة قوله وحكمه على الاطلاق وانه لا يجوز العدول منه الى غيره ومثل هذه المبالغة المذكورة فى هذه الآية قلما يوجد فى شئ من التكاليف وذلك يوجب تقديم عموم القرآن والخبر على حكم القياس وقوله ثم لا يجدوا الى آخره مشعر بذلك لانه متى خطر بباله قياس يفضى الى نقيض مدلول النص فهناك يحصل الحرج فى النفس فبين تعالى انه لا يكمل ايمانه الا بعد أن لا يلتفت الى ذلك الحرج ويسلم النص تسليما كليا وهذا الكلام قوى حسن لمن أنصف انتهى أخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن عبد الله بن الزبير ان الزبير خاصم رجلا من الانصار قد شهد بدرا مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى شراج من الحرة وكانا يسقيان به كلاهما النخل فقال الانصارى سرح الماء يمر فابى عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اسق يا زبير ثم ارسل الماء الى جارك فغضب الانصارى وقال يا رسول الله أن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر ثم ارسل الماء الى جارك واستوعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللانصارى فلما أحفظ (١) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الانصارى استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم فقال الزبير ما أحسب هذه الآية نزلت الا فى ذلك وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن الاسود ان سبب نزول الآية انه اختصم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلان فقضى بينهما فقال المقضى عليه ردنا الى عمر فردهما فقتل عمر الذى قال ردنا

(١) الاحفاظ بخشم درآوردن

بالمتقين أى لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيع لديه أجر من احسن عملا ثم قال تعالى مخبرا عن الكفرة المشركين بأنه لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ أى لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه اذا أراده بهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار فى هذه الدار قاله مجاهد والحسن والسدى فقال تعالى مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أى برد شديد قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم وقال عطاء برد وجليد وعن ابن عباس أيضا ومجاهد فيها صر أى نار وهو يرجع الى الاول فان البرد الشديد لا سيما والجليد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشئ بالنار أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته أى فاحرقته يعنى بذلك السفعة اذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر او زرع فذهبت به وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان اليه فكذلك الكفار يحبط الله ثواب اعمالهم فى هذه الدنيا وثمرتها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيأ ان الله بما يعملون محيط) يقول تبارك وتعالى ناهيا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة أى يطلعونهم على سرائرهم ومايضمرونه لاعدائهم

ونزلت الآية فاهدر النبى صلى الله عليه وآله وسلم دم المقتول وأخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول عن مكحول فذكر نحوه وبين ان الذى قتله عمر كان منافقا وهما مرسلان والقصة غريبة وابن لهيعة فيه ضعف (ولو أنا كتبنا عليهم) أى على هؤلاء الموجودين من اليهود والمنافقين كما كتبنا على بنى اسرائيل (أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) والمعنى لو كتب ذلك على المسلمين ما فعله الا القليل منهم والضمير فى فعلوه راجع الى المكتوب الذى دل عليه كتبنا أو الى القتل والخروج المدلول عليهما بالفعلين وتوحيد الضمير فى مثل هذا قد قدمنا وجهه وقرئ قليل بالرفع على البدل وبالنصب على الاستثناء والرفع عند النحاة أجود (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) من اتباع الشرع والانقياد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لكان) ذلك (خيرا لهم) وأنفع فى الدنيا والآخرة من غيره على تقدير ان الغير فيه خير وهذا اذا كان على بابه ويحتمل انه بمعنى أصل الفعل أى لحصل لهم خيرهما (وأشد تثبيتا) لاقدامهم على الحق فلا يضطربون فى أمر دينهم (واذا) أى وقت فعلهم لما يوعظون به (لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما) أى ثوابا وافرا جزيلا وهو الجنة (ولهديناهم صراطا مستقيما) لاعوج فيه ليصلوا الى الخير الذى ينالونه من امتثال ما أمروا به وانقاد لمن يدعوهم الى الحق قال ابن عباس يعنى دين الاسلام وقيل الاعمال الصالحة المؤدية الى الصراط الذى يمر عليه الناس الى الجنة (ومن يطع الله والرسول) كلام مستأنف لبيان فضل طاعة الله والرسول فيما أمرا به أمر ايجاب أو ندب أو فيما نهيا عنه نهى تحريم أو كراهة فالمراد بالطاعة الانقياد التام لجميع الاوامر والنواهى والاشارة بقوله (فأولئك) الى المطيعين كما يفيده من (مع الذين أنعم الله عليهم) بدخول الجنة والوصول الى ما أعد الله لهم (من النبيين) بيان للذين وفى الآية سلوك طريق التدلى فان منزلة كل واحد من الاصناف الاربعة أعلى من منزلة ما بعده (والصديقين والشهداء والصالحين) الصديق المبالغ فى الصدق كما تفيده الصيغة وقيل

(٣٥ - فتح البيان نى)

والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالا اى يسعون فى مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن وبما يستطيعونه من المكر والخديعة ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم وقوله تعالى لا تتخذوا بطانة من دونكم أى من غيركم من أهل الاديان وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره وقد روى البخارى والنسائى وغيرهما من حديث جماعة منهم يونس ويحيى بن سعيد وموسى بن عقبة وابن أبى عتيق عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله وقد رواه الاوزاعى ومعاوية بن سلام عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعا بنحوه فيحتمل انه عند الزهرى عن أبى سلمة عنهما وأخرجه النسائى عن الزهرى أيضا وعلقه البخارى فى صحيحه فقال

وقال عبيد الله بن ابى جعفر عن صفوان بن سليم عن أبى سلمة عن أبى أيوب الانصارى مرفوعا فذكره فيحتمل انه عند أبى سلمة عن ثلاثة من الصحابة والله أعلم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو أيوب بن محمد الوزان حدثنا عيسى بن يونس عن أبى حيان التيمى عن أبى الذنباع عن ابن أبى الدهقانة قال قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ان ههنا غلاما من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كاتبا فقال قد اتخذت اذا بطانة من دون المؤمنين ففى هذا الاثر مع هذه الآية دليل على ان أهل الذمة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة التى فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التى يخشى ان يفشوها الى الاعداء من أهل الحرب ولهذا قال تعالى لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا اسحق بن أبى اسرائيل حدثنا هشيم حدثنا العوام عن الازهر بن راشد قال كانوا يأتون أنسا فاذا حدثهم (٢٧٤) بحديث لا يدرون ما هو أتوا الحسن يعنى البصرى فيفسره لهم قال فحدث ذات يوم عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تستضيؤا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربيا فلم يدروا ما هو فأتوا الحسن فقالوا له ان انسا حدثنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تستضيؤا بنار المشركين ولا تنقشوا عربيا فقال الحسن أما قوله لا تنقشوا فى خواتيمكم عربيا محمد صلى الله عليه وسلم وأما قوله لا تستضيؤا بنار المشركين يقول لا تستشيروا المشركين فى أموركم ثم قال الحسن تصديق ذلك فى كتاب الله يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم هكذا رواه الحافظ أبو يعلى رحمه الله تعالى وقد رواه النسائى عن مجاهد بن موسى عن هشيم ورواه الامام أحمد عن هشيم باسناده مثله من غير ذكر تفسير الحسن البصرى وهذا التفسير فيه نظر ومعناه ظاهر لا تنقشوا فى خواتيمكم عربيا أى بخط عربى لئلا يشابه نقش خاتم النبى صلى الله عليه وسلم فانه كان نقشه محمد رسول الله ولهذا جاء فى الحديث الصحيح انه نهى ان ينقش أحد على نقشه وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه لا تقاربوهم فى المنازل بحيث تكونون معهم فى بلادهم بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ولهذا روى أبو داود لا ترى ناراهما وفى الحديث الآخر من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله فحمل الحديث على ما قاله الحسن رحمه الله والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر والله أعلم ثم قال تعالى قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر أى قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه فى صدورهم من البغضاء للاسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ولهذا قال تعالى قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون وقوله تعالى ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم أى أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الايمان فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم لا باطنا ولا ظاهرا وتؤمنون بالكتاب كله أى ليس عندكم فى شئ منه شك ولا ريب وهم عندهم الشك والريب والحيرة

هم فضلاء اتباع الانبياء والشهداء من ثبت لهم الشهادة فى سبيل الله أو الذين استشهدوا يوم أحد والاول أولى والصالحون أهل الاعمال الصالحة وقيل المراد بالنبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبالصديقين أبو بكر وبالشهداء عمر وعثمان وعلى وبالصالحين سائر الصحابة والعموم أولى ولا وجه للتخصيص (وحسن أولئك) الاصناف الاربعة وفيه معنى التعجب كأنه قال وما أحسن أولئك (رفيقا) فى الجنة والرفيق مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب والمراد به المصاحب لارتفاق بصحبته ومنه الرفقة لارتفاق بعضهم ببعض وانما وحد الرفيق وهو صفة الجمع لان العرب تعبر به عن الواحد والجمع وقيل معناه وحسن كل واحد من أولئك رفيقا فى الجنة بأن يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم وان كان مقرهم فى الدرجات العالية بالنسبة الى غيرهم أخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية والضياء المقدسى فى صفة الجنة وحسنه عن عائشة قالت جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله انك لأحب الى من نفسى وانك لاحب الى من ولدى وانى لا كون فى البيت فاذكرك فما أصبر حتى آتى فأنظر اليك واذا ذكرت موتى وموتك عرفت انك اذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وانى اذا دخلت الجنة خشيت ان لا أراك فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزل جبريل بهذه الآية وقيل نزلت فى ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قليل الصبر عنه وعن أنس ان رجلا سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن الساعة فقال متى الساعة قال وما أعددت لها قال لا شئ الا أنى أحب الله ورسوله فقال أنت مع من أحببت قال أنس فما فرحنا بشئ أشد فرحا بقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنت مع من أحببت قال أنس فأنا أحب النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى اياهم وان لم أعمل بأعمالهم أخرجه الشيخان أقول وأنا أيضا أحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وأتباعهم

وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وتؤمنون بالكتاب كله أي بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم رواه ابن جرير واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ والانامل اطراف الاصابع قاله قتادة وقال الشاعر * وما حلت كناى أنملى العشرا * وقال ابن مسعود والسدى والربيع بن أنس الانامل الاصابع وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الايمان والمودة وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه كما قال تعالى واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ وذلك اشد الغيظ والحنق قال الله تعالى قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم فاعلموا ان الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه ومعل كلمته ومظهر دينه فموتوا أنتم بغيظكم (٢٧٥) ان الله عليم بذات الصدور أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها لا محيد لكم عنها ولا خروج لكم منها ثم قال تعالى ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنهم اذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين وان أصاب المسلمين سنة اما جدب أو أديل عليهم الاعداء لما لله تعالى في ذلك من الحكمة كما جرى يوم أحد فرح المنافقون بذلك قال الله تعالى مخاطبا للمؤمنين وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيأ الآية يرشدهم تعالى الى السلامة من شر الاشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم الا به وهو الذي ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ولا يقع في الوجود شئ الا بتقديره ومشيئته ومن توكل عليه كفاه ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبيان الصابرين فقال تعالى (واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) المراد بهذه الوقعة يوم أحد عند الجمهور قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدى وغير واحد وعن الحسن البصري المراد بذلك يوم الاحزاب ورواه ابن جرير وهو غريب لا يعول عليه وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة قال قتادة لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال وقال عكرمة يوم السبت للنصف من شوال فالله أعلم وكان سببها ان المشركين حين قتل من قتل من اشرافهم يوم بدر وسلمت العير بما فيها

وأهل بيته وسلف الامة وأئمتها سيما المحدثين منهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين حبا شديدا وأرجو أن يجمعني الله معهم في دار رحمته وكرامته بمنه ولطفه فانه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير (ذلك) أي ماذكر من وصف الثواب أو كونهم مع من ذكر (الفضل) كائن (من الله) يعني الذي أعطى الله المطيعين من الاجر العظيم فضل تفضل به عليهم لانهم نالوه بطاعتهم (وكفى بالله عليما) بجزاء من أطاعه أو بعباده فهو يوفقهم لطاعته فثقوا بما أخبركم به ولا ينبئك مثل خبير وفيه دليل على أنهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم بل انما نالوها بفضل الله ورحمته ويدل عليه ما روى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة أخرجه البخاري ولمسلم نحوه (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) هذا خطاب لخلص المؤمنين وأمر لهم بجهاد الكفار والخروج في سبيل الله والحذر والحذر لغتان كالمثل والمثل قال الفراء أكثر الكلام الحذر والحذر مسموع أيضا يقال خذ حذرك أي احذر وتيقظ له قيل معنى الآية الامر لهم بأخذ السلاح حذرا لأن به الحذر (فانفروا) نفر ينفر بكسر الفاء نفيرا ونفرت الدابة تنفر بضم الفاء نفورا والمعنى انهضوا لقتال العدو أو النفير اسم للقوم الذين ينفرون وأصله من النفار والنفور والنفر وهو الفزع ومنه قوله تعالى ولوا على أدبارهم نفورا أي نافرين يقال نفر اليه أي فزع والنفر الجماعة كالقوم والرهط والاسم النفر بفتحتين وقوله (ثبات) جمع ثبة أي جماعة من الرجال فوق العشرة وقيل فوق الاثنين والمعنى انفروا جماعات متفرقات سرية بعد سرية (أو انفروا جميعا) أي مجتمعين جيشا واحدا ومعنى الآية الامر لهم بان ينفروا على أحد الوصفين ليكون ذلك أشد على عدوهم وليأمنوا من أن يتخطفهم الاعداء اذا نفر كل واحد منهم وحده أو نحو ذلك وقيل ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى انفروا خفافا وثقالا وبقوله الا تنفروا يعذبكم والصحيح ان الآيتين جميعا محكمتان احداهما في

من التجارة التى كانت مع أبى سفيان قال أبناء من قتل ورؤساء من بقى لابى سفيان ارصد هذه الاموال لقتال محمد فأنفقوها فى ذلك فجمعوا الجموع والاحابيش وأقبلوا فى نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبا من أحد تلقاء المدينة فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فلما فرغ منها صلى على رجل من بنى النجار يقال له مالك بن عمرو واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أيخرج اليهم أم يمكث بالمدينة فأشار عبد الله بن أبى بالمقام بالمدينة فان أقاموا أقاموا بشر محبس وان دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرا بالخروج اليهم فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لامته وخرج عليهم وقد ندم بعضهم وقالوا لعلنا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ان شئت ان نمكث (٢٧٦) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينبغى لنبى اذا لبس لامته ان يرجع حتى يحكم الله له فسار صلى الله عليه وسلم فى ألف من أصحابه فلما كانوا بالشوط رجع عبد الله بن أبى بثلث الجيش مغضبا لكونه لم يرجع الى قوله وقال هو وأصحابه لو نعلم اليوم قتالا لاتبعناكم ولكنا لا نراكم تقاتلون واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرا حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى وجعل ظهره وعسكره الى أحد وقال لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال وتهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو فى سبعمائة من أصحابه وأمر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو ابن عوف والرماة يومئذ خمسون رجلا فقال لهم انضحوا الخيل عنا ولا تؤتين من قبلكم والزموا مكانكم ان كانت النوبة لنا أو علينا وان رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بنى عبد الدار وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الغلمان يومئذ وأخر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين وتهيأت كلتا قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ودفعوا اللواء الى بنى عبد الدار ثم كان بين الفريقين ما سيأتى تفصيله فى مواضعه عند هذه الآيات ان شاء الله تعالى ولهذا قال تعالى واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال أى تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم والله سميع عليم أى سميع لما تقولون عليم بضمائركم وقد أورد ابن جرير ههنا سؤالا حاصله كيف تقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج الى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة وقد قال الله تعالى واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال الآية ثم كان جوابه عنه ان غدوه انما كان يوم السبت أول النهار وقوله تعالى اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا الآية قال البخارى حدثنا على

الوقت الذى يحتاج فيه الى نفور الجميع والاخرى عند الاكتفاء بنفور البعض دون البعض (وان منكم لمن ليبطئن) التبطئة والابطاء التأخر والمراد المنافقون كانوا يقعدون عن الخروج ويقعدون غيرهم والمعنى ان من دخلائكم وجنسكم ومن أظهر ايمانه لكم نفاقا من يبطئ المؤمنين ويثبطهم واللام فى قوله لمن لام توكيد للابتداء وفى قوله ليبطئن لام جواب القسم (فان أصابتكم مصيبة) من قتل أو هزيمة أو ذهاب مال (قال) هذا المنافق (قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا) أى حاضر الوقعة حتى يصيبنى ما أصابهم (ولئن) لام قسم (أصابكم فضل من الله) أى غنيمة أو فتح ونسبة اضافة الفضل الى جانب الله تعالى دون اصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية كما فى قوله واذا مرضت فهو يشفين وتقديم الشرطية الاولى لما ان مضمونها المقصد هم أوفق وأثر نفاقهم فيها أظهر (ليقولن) هذا المنافق قول نادم حاسد (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) أى معرفة وصداقة حقيقية والا فالمودة الظاهرة حاصلة بالفعل جملة معترضة وقيل ان فى الكلام تقديما وتأخيرا وقيل المعنى كأن لم نعاقدكم على الجهاد (يا) للتنبيه لا للنداء لدخولها على الحرف (ليتنى كنت معهم) أى فى تلك الغزوة التى فيها المؤمنون (فأفوز) معهم (فوزا عظيما) أفوز بالنصب على جواب التمنى وقرأ الحسن بالرفع أى فأنا آخذ نصيبا وافرا من الغنيمة (فليقاتل فى سبيل الله) قدم الظرف على الفاعل للاهتمام به (الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أى يبيعونها بها وهم المؤمنون فالفاء جواب شرط مقدر أى ان بطأ وتأخر هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم فى طلب الآخرة أو الذين يشرونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطئون والمعنى حثهم على ترك ما حكى عنهم (ومن يقاتل فى سبيل الله) لاعلاء دينه (فيقتل) أى فيستشهد (أو يغلب) يعنى يظفر بعدو من الكفار وذكر هذين الامرين للاشارة الى أن حق المجاهد أن يوطن نفسه على أحدهما ولا يخطر بباله القسم الثالث وهو مجرد أخذ المال (فسوف نؤتيه) فى

ابن عبد الله حدثنا سفيان قال قال عمرو سمعت جابر بن عبد الله يقول فينا نزلت اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا الآية قال نحن الطائفتان بنو حارثة و بنو سلمة وما نحب وقال سفيان مرة وما يسرني انها لم تنزل لقوله تعالى والله وليهما وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به وكذا قال غير واحد من السلف انهم بنو حارثة و بنو سلمة وقوله تعالى ولقد نصركم الله ببدر أي يوم بدر وكان في يوم جمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الاسلام وأهله ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ فانهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا فيهم فارسان وسبعون بعيرا والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون اليه وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة الى الالف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد فأعز الله رسوله (٢٧٧) وأظهر وحيه وتنزيله وبيض وجه النبي وقبيله وأخزى الشيطان وجيله ولهذا قال تعالى ممتنا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة أي قليل عددكم لتعلموا ان النصر انما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد ولهذا قال تعالى في الآية الاخرى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ الى غفور رحيم وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك قال سمعت عياضا الاشعري قال شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد وعياض وليس عياض هذا الذي حدث سماكا قال وقال عمر اذا كان قتالا فعليكم أبو عبيدة قال فكتبنا اليه انه قد جاش الينا الموت واستمددناه فكتب الينا انه قد جاءني كتابكم تستمدونني واني أدلكم على من هو أعز نصرا وأحصن جندا الله عز وجل فاستنصروه فان محمدا صلى الله عليه وسلم قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم فاذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني قال فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ قال وأصبنا اموالا فتشاورنا فأشار علينا عياض ان نعطي عن كل ذي رأس عشرة قال وقال أبو عبيدة من يراهنني فقال شاب أنا ان لم تغضب قال فسبقه فرأيت عقيصتي أبي عبيدة ينفران وهو خلفه على فرس أعرابي وهذا اسناد صحيح وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث بندار عن غندر بنحوه واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه وبدر محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها منسوبة الى رجل حفرها يقال له بدر بن النار بن قال الشعبي بدر بئر لرجل يسمى بدرا وقوله فاتقوا الله لعلكم تشكرون أي تقومون بطاعته (اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم

كلتا الحالتين الشهادة أو الظفر (أجرا عظيما) يعني ثوابا وافرا وعد الله المقاتلين في سبيله بأنه سيؤتيهم أجرا عظيما لا يقادر قدره وذلك انه اذا قتل فاز بالشهادة التي هي أعلى درجات الاجور وان غلب وظفر كان له أجر من قاتل في سبيل الله مع ما قد ناله من العلو في الدنيا والغنيمة وظاهر هذا يقتضي التسوية بين من قتل شهيدا أو انقلب غانما وربما يقال ان التسوية بينهما انما هي في ايتاء الاجر العظيم ولا يلزم أن يكون أجرهما مستويا فان كون الشيء عظيما هو من الامور النسبية التي يكون بعضها عظيما بالنسبة الى ما هو دونه وحقيرا بالنسبة الى ما فوقه وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه الا جهاد في سبيلي وايمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن ان أدخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله) خطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريق الالتفات (و) سبيل (المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) حتى تخلصوهم من الاسر وتريحوهم مما هم فيه من الجهد ويجوز أن يكون منصوبا على الاختصاص أي وأخص المستضعفين فانهم من أعظم ما يصدق عليه سبيل الله واختار الاول الزجاج والازهري وقال محمد بن يزيد اختار أن يكون المعنى وفي المستضعفين فيكون عطفا على السبيل لا على الجلالة وان كانت أقرب على ما في تفسير الكواشي لان خلاص المستضعفين من أيدي المشركين سبيل الله لا سبيلهم والمراد بالمستضعفين هنا من كان بمكة من المؤمنين تحت أذلال الكفار وهم الذين كان يدعو لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول اللهم انج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين كما في الصحيح وفيه دليل على أن الجهاد واجب والمعنى لا عذر لكم في ترك الجهاد وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والاذى وقد أخرج البخاري عن ابن عباس قال أنا وأمي من المستضعفين وفي رواية قال كنت أنا

ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ليس لك من الامر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ولله ما في السموات وما في الارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) اختلف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين أحدهما ان قوله اذ تقول للمؤمنين متعلق بقوله ولقد نصركم الله ببدر وهذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي والربيع بن أنس وغيرهم واختاره ابن جرير قال عباد بن منصور عن الحسن في قوله اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة قال هذا يوم بدر رواه ابن أبي حاتم ثم قال حدثنا أبي حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا وهيب حدثنا داود عن عامر يعني الشعبي ان المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين (٢٧٨) الى قوله مسومين قال فبلغت كرزا الهزيمة فلم يمد المشركين ولم يمد المسلمين بالخمسة وقال الربيع بن أنس أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف فان قيل فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين الى قوله ان الله عزيز حكيم فالجواب ان التنصيص على الالف ههنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله مردفين بمعنى يردفهم غيرهم و يتبعهم ألوف أخر مثلهم وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران فالظاهر ان ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة انما كان يوم بدر والله أعلم وقال سعيد بن أبي عروبة أمد المسلمين يوم بدر بخمسة آلاف القول الثاني ان هذا الوعد متعلق بقوله واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال وذلك يوم أحد وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك والزهري وموسى بن عقبة وغيرهم لكن قالوا لم يحصل الامداد فرض بالخمسة الآلاف لان المسلمين فروا يومئذ زاد عكرمة ولا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد وقوله تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا يعني تصبروا على مصابرة عدوكم وتتقوني وتطيعوا أمري وقوله تعالى ويأتوكم من فورهم هذا قال الحسن وقتادة والربيع والسدي أي من وجههم هذا وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح أي من غضبهم هذا وقال الضحاك من غضبهم ووجههم وقال العوفي عن ابن عباس من سفرهم هذا ويقال من غضبهم هذا وقوله تعالى يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين أي معلمين بالسيما وقال أبو اسحق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الابيض وكان سيماهم أيضا في نواصي خيولهم رواه ابن أبي حاتم ثم قال حدثنا

وأمي من عذر الله أنا من الولدان وأمي من النساء ولا يبعد أن يقال ان لفظ الآية أوسع من هذا والاعتبار بعموم اللفظ لا لتقييده بقوله (الذين يقولون) داعين (ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) فانه يشعر باختصاص ذلك بالمستضعفين الكائنين في مكة لانه قد أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلها مكة (واجعل لنا من لدنك وليا) يوالينا ويقوم بمصالحنا ويحفظ علينا ديننا وشرعنا (واجعل لنا من لدنك نصيرا) ينصرنا على أعدائنا وقد استجاب الله دعاءهم وجعل لهم من لدنه خير ولي وخير ناصر وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتولى أمرهم ونصرهم واستنقذهم من أيدي المشركين يوم فتح مكة وقال السيوطي يسر لبعضهم الخروج وبقي بعضهم الى أن فتحت مكة وولى صلى الله عليه وآله وسلم عتاب بن أسيد فأنصف مظلومهم من ظالمهم انتهى وكان ابن ثمانية عشر سنة قال الخازن فكان يأخذ للضعيف من القوي وينصر المظلومين على الظالمين (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله) يعني في طاعة الله واعلاء كلمته وابتغاء مرضاته وهذا ترغيب للمؤمنين وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا لغيره (والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) أي الشيطان أو الكهان أو الاصنام وتفسير الطاغوت هنا بالشيطان أولى لقوله (فقاتلوا أولياء الشيطان) وهم الكفار (ان كيد الشيطان) أي مكره ومكر من اتبعه من الكفار (كان ضعيفا) فلا يقاوم نصر الله وتأييده وعن ابن عباس قال اذا رأيتم الشيطان فلا تخافوه واجعلوا عليه ان كيده كان ضعيفا واهيا قال مجاهد كان الشيطان يتراءى لي في الصلاة فكنت أذكر قول ابن عباس فأحمل عليه فيذهب عني والكيد السعي في الفساد على جهة الاحتيال (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) قيل هم جماعة من الصحابة أمروا بترك القتال في مكة بعد أن تسرعوا اليه فلما كتب عليهم بالمدينة ثبطوا عن القتال من غير شك في الدين بل خوفا من الموت وفزعا من هول القتل وقال مجاهد انها نزلت في اليهود وقيل في المنافقين أسلموا قبل

أبو زرعة حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية مسومين قال بالعهن الاحمر وقال مجاهد مسومين أي محذفة اعرافها معلمة نواصيها بالصوف الابيض في أذناب الخيل وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه قال أتت الملائكة محمدا صلى الله عليه وسلم مسومين بالصوف فسوم محمد وأصحابه أنفسهم وخيلهم على سيماهم بالصوف وقال قتادة وعكرمة مسومين اي بسيما القتال وقال مكحول مسومين بالعمائم وروى ابن مردويه من حديث عبد القدوس بن حبيب عن عطاء ابن أبي رباح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله مسومين قال معلمين وكان سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ويوم حنين عمائم حمر وروى من حديث حسين بن مخارق عن سعيد عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال لم تقاتل الملائكة الا يوم بدر وقال ابن أبي اسحق حدثني من لا أتهم عن مقسم عن ابن عباس قال كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم ويوم حنين عمائم حمر ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر وكانوا يكونون عددا ومددا لا يضربون ثم رواه عن الحسن بن عمارة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس فذكر نحوه وقال ابن أبي حاتم حدثنا الاحمسي حدثنا وكيع حدثنا هشام بن عروة عن يحيى بن عباد أن الزبير رضي الله عنه كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرا بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر رواه ابن مردوية من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير فذكره وقوله تعالى وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بانزالهم الا بشارة لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا والا فانما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ومن غير احتياج الى قتالكم لهم كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ولهذا قال ههنا وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم أي هو ذو العزة التي لا ترام والحكمة في قدره والاحكام ثم قال تعالى ليقطع طرفا من الذين كفروا أي أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير ولهذا ذكر جميع الاقسام الممكنة في الكفار المجاهدين فقال ليقطع طرفا أي ليهلك أمة من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا أي يرجعوا خائبين أي لم يحصلوا على ما أملوا ثم اعترض بجملة دلت على ان الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى ليس لك من الامر شيء أي بل الامر كله الى كما قال تعالى فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب وقال ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وقال انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وقال محمد بن اسحق في قوله ليس لك من الامر شيء أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي الا ما أمرتك به فيهم ثم ذكر بقية الاقسام فقال أو يتوب عليهم أي مما هم فيه من الكفر

فرض القتال فلما فرض كرهوه وهذا أشبه بالسياق لقوله وقالوا ربنا الى قوله قريب وقوله ان تصبهم حسنة الآية وبعد صدور مثل هذا من الصحابة وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة كان قبل فرض الجهاد (فلما كتب عليهم القتال) أي فرض عليهم جهاد المشركين وأمروا بالخروج الى بدر (اذا فريق منهم) أي جماعة من الذين سألوا أن يفرض عليهم الجهاد (يخشون الناس) أي يخافون مشركي مكة (كخشية الله أو أشد خشية) أو للتنويع على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها (وقالوا) جزعا من الموت (ربنا لم كتبت علينا القتال) أي لم فرضت علينا الجهاد (لولا) هلا (أخرتنا) يريدون المهلة (الى أجل) أي وقت آخر (قريب) من الوقت الذي فرض عليهم فيه القتال والقائلون لهذا القول هم المنافقون وقيل قاله بعض المؤمنين خوفا وجبنا لا اعتقادا ثم تابوا منه وقال السدي الى أجل يعني الى موت فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال (قل متاع الدنيا) أي منفعتها والاستمتاع بها (قليل) سريع الفناء زائل لا يدوم لصاحبه آيل الى الفناء (والآخرة) أي ثوابها (خير) من المتاع القليل (لمن اتقى) الشرك والمعصية منكم ورغب في الثواب الدائم (ولا تظلمون فتيلا) أي قدر قشرة يعني شيأ حقيرا يسيرا وقد تقدم تفسير الفتيل قريبا واذا كنتم توفون أجوركم ولا تنقصون شيأ منها فكيف ترغبون عن ذلك وتشتغلون بمتاع الدنيا مع قلته وانقطاعه أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس ان عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال اني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم فلما حوله الله الى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله هذه الآية وعن قتادة نحوه (أينما تكونوا يدرككم الموت) كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصرف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى المخاطبين اعتناء بالزامهم اثر بيان حقارة الدنيا

فهديهم بعد الضلالة أو يعذبهم أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم ولهذا قال فانهم ظالمون أى يستحقون ذلك وقال البخارى حدثنا حبان بن موسى أنبأنا عبد الله أنبأنا معمر عن الزهرى حدثنى سالم عن أبيه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الثانية من الفجر اللهم العن فلانا وفلانا بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله ليس لك من الامر شئ الآية وهكذا رواه النسائى من حديث عبد الله بن المبارك وعبد الرزاق كلاهما عن معمر به وقال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا ابو عقيل قال احمد وهو عبد الله بن عقيل صالح الحديث ثقة حدثنا عمرو بن حمزة عن سالم عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم العن فلانا وفلانا اللهم العن الحرث بن هشام اللهم العن سهيل بن عمرو اللهم العن صفوان بن أمية فنزلت هذه الآية ليس لك من الامر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون فتيب عليهم كلهم

وقال أحمد حدثنا أبو معاوية الغلابى حدثنا خالد بن الحرث حدثنا محمد ابن عجلان عن نافع عن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو على أربعة قال فأنزل الله ليس لك من الامر شئ الى آخر الآية قال وهداهم الله للاسلام قال البخارى قال محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله تعالى ليس لك من الامر شئ الآية وقال البخارى أيضا حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا ابراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وأبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لاحد قنت بعد الركوع وربما قال اذا قال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف يجهر بذلك وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر اللهم العن فلانا وفلانا الاحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله ليس لك من الامر شئ الآية وقال البخارى قال حميد وثابت عن أنس بن مالك شج النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد فقال كيف يفلح قوم شجوا نبيهم فنزلت ليس لك من الامر شئ وقد أسند هذا الحديث الذى علقه البخارى فى صحيحه فقال فى غزوة احد حدثنا يحيى بن عبد الله السلمى أخبرنا عبد الله أخبرنا معمر عن الزهرى حدثنى سالم بن عبد الله عن أبيه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الاخيرة من الفجر اللهم العن فلانا وفلانا بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله ليس لك من الامر شئ الآية وعن حنظلة بن أبى سفيان قال سمعت سالم بن عبد الله قال كان رسول الله

وعلو شأن الآخرة وفيه حث لمن قعد عن القتال خشية الموت وبيان لفساد ما خالطه من الجبن وخامره من الخشية فان الموت اذا كان كائنا لا محالة فمن لم يمت بالسيف مات بغيره (ولو كنتم فى بروج) جمع برج وهو البناء المرتفع (مشيدة) من شاد القصر اذا رفعه وطلاه بالشيد وهو الجص وقد اختلف فى هذه البروج ما هى فقيل الحصون والقلاع التى فى الارض وقيل هى القصور المحصنة الرفيعة قال الزجاج والقتيبى معنى مشيدة مطولة وقيل المراد بالبروج بروج فى سماء الدنيا مبنية حكاه مكى عن مالك وقال ألا ترى الى قوله والسماء ذات البروج وجعل فيها بروجا وقد جعلنا فى السماء بروجا وقيل ان المراد بالبروج المشيدة هنا قصور من حديد (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله) هذا ومابعده مختص بالمنافقين أى ان تصبهم نعمة نسبوها الى الله تعالى (وان تصبهم سيئة) أى بلية ونقمة (يقولوا هذه من عندك) أى نسبوها الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرد الله ذلك عليهم بقوله (قل كل) من النعمة والبلية (من عند الله) خلقا وايجادا من غير ان يكون له مدخل فى وقوع شئ منهما بوجه من الوجوه وليس كما تزعمون فاما الحسنة فانعام من الله وأما السيئة فابتلاء منه ثم نسبهم الى الجهل وعدم الفهم فقال (فمال هؤلاء القوم) أى فما بال هؤلاء المنافقين أو ما شأن اليهود الذين قالوا ما قالوا (لا يكادون) لا يقاربون (يفقهون حديثا) من الاحاديث أصلا أو معانى القرآن وان الاشياء كلها من الله (ما أصابك من حسنة) هذا الخطاب اما لكل من يصلح له من الناس أو لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعريضا لامته أى ما أصابك من خصب ورخاء وخير ونعمة وصحة وسلامة (فمن الله) بفضله ورحمته احسانا منه اليك وتفضلا منه عليك (وما أصابك من سيئة) أى جهد وبلاء وشدة ومكروه ومشقة وأذى (فمن نفسك) أى بذنب أتيته وخطيئة اكتسبتها نفسك فعوقبت عليه وقيل هذا من كلام الذين لا يفقهون حديثا وقيل ان ألف الاستفهام مضمرة أى أفمن نفسك ومثله قوله تعالى وتلك نعمة تمنها على والمعنى أو تلك نعمة

صلى الله عليه وسلم يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحرث بن هشام فنزلت ليس لك من الامر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون هكذا ذكر هذه الزيادة البخاري معلقة مرسلة وقد تقدمت مسندة متصلة في مسند أحمد آنفا وقال الامام أحمد حدثنا هشيم حدثنا حميد عن أنس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم الى ربهم عز وجل فأنزل الله ليس لك من الامر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون انفرد به مسلم فرواه عن القعنبي عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس فذكره وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسن بن واقد عن مطر عن قتادة قال أصيب النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسرت رباعيته وفرق حاجبه فوقع وعليه درعان والدم يسيل فمر به سالم مولى أبي حذيفة فأجلسه ومسح عن وجهه فأفاق وهو يقول كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم الى الله عز وجل فأنزل الله ليس لك من الامر شئ الآية وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة بنحوه ولم يقل فأفاق ثم قال تعالى ولله ما في السموات وما في الارض الآية أي الجميع ملكه وأهلهما عبيد بين يديه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون والله غفور رحيم (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن

نعمة ومثله قوله تعالى فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي أي أهذا ربي وقد ورد في الكتاب العزيز ما يفيد مفاد هذه الآية كقوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وقوله أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند أنفسكم وقد يظن ان قوله وما أصابك من سيئة فمن نفسك مناف لقوله كل من عند الله ولقوله وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وقوله نبلوكم بالشر والخير فتنة وقوله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال وليس الامر كذلك فالجمع ممكن فاضافة الاشياء كلها الى الله حقيقية والى فعل العبد مجازية قال قتادة حسنة اى نعمة وسيئة أي مصيبة كل من عند الله أي النعم والمصائب وعن أبي العالية قال ان تصبهم حسنة هذه في السراء والضراء وما أصابك من حسنة قال هذه في الحسنات والسيئات وعن ابن عباس قال الحسنة والسيئة من عند الله أما الحسنة فأنعم بها عليك وأما السيئة فابتلاك بها وما أصابك من سيئة قال ما أصابه يوم أحد أن شج وجهه وكسرت رباعيته وقد تعلق بظاهر هذه الآية القدرية وقالوا نفى الله السيئة عن نفسه ونسبها الى الانسان ولا متعلق لهم بها لانه ليس المراد منها الكسب بل ما يصيب الناس من النعم والمحن ولو كانت على ما يقول أهل القدر لقال ما أصبت من حسنة وما أصبت من سيئة ولم يقل ما أصابك وقال ابن الانباري الفعلان راجعان الى الله يعني ما أصابك الله به من حسنة ومن سيئة (وأرسلناك للناس رسولا) فيه البيان لعموم رسالته صلى الله عليه وآله وسلم الى الجميع كما يفيده التأكيد بالمصدر والعموم في الناس ومثله قوله وما أرسلناك الا كافة للناس وقوله يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا وفيه جلالة منصبه ومكانته عند الله وبيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه بناء على جهلهم بشأنه الجليل (وكفى بالله شهيدا) على ذلك أو على ان الحسنة والسيئة منه والاول أولى والمعنى شهيدا على ارسالك للناس أو على تبليغك ما أرسلت به الى الناس (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فيه ان طاعة

الناس والله يحب المحسنين والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله اضعافا مضاعفة كما كانوا في الجاهلية يقولون اذا حل اجل الدين اما ان تقضي واما ان تربي فان قضاه والا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرا مضاعفا وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الاولى والاخرى ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها فقال تعالى واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ثم ندبهم الى المبادرة الى فعل الخيرات والمسارعة الى نيل القربات فقال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين أي كما أعدت النار للكافرين وقد قيل

ان معنى قوله عرضها السموات والارض تنبيها على اتساع طولها كما قال فى صفة فرش الجنة بطائنها من استبرق أى فما ظنك بالظهائر وقيل بل عرضها كطولها لانها قبة تحت العرش والشئ المقبب والمستدير عرضه كطوله وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح اذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن وهذه الآية كقوله فى سورة الحديد سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض الآية وقدرويناه فى مسند الامام أحمد ان هرقل كتب الى النبى صلى الله عليه وسلم انك دعوتنى الى جنة عرضها السموات والارض فأين النار فقال النبى صلى الله عليه وسلم سبحان الله فأين الليل اذا جاء النهار وقد رواه ابن جرير فقال حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أخبرنى مسلم بن خالد عن أبى خيثمة عن عن سعيد بن أبى راشد عن يعلى بن مرة قال لقيت التنوخى رسول هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمص شيخا كبيرا قد فسد فقال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل فتناول الصحيفة رجل عن يساره قال قلت من صاحبكم الذى يقرأ قالوا معاوية فاذا كتاب صاحبى انك كتبت تدعونى الى جنة عرضها السموات والارض فأين النار قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله فأين الليل اذا جاء النهار وقال الاعمش وسفيان الثورى وشعبة عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب ان ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والارض فأين النار فقال لهم عمر أرأيتم اذا جاء النهار أين الليل واذا جاء الليل أين النهار فقالوا لقد نزعت مثلها من التوراة رواه ابن جرير من ثلاثة طرق ثم قال حدثنا أحمد بن حازم حدثنا أبو نعيم حدثنا جعفر بن برقان أنبأنا يزيد بن الاصم ان رجلا من أهل الكتاب قال يقولون جنة عرضها السموات والارض فأين النار فقال ابن عباس رضى الله عنه أين يكون الليل اذا جاء النهار وأين يكون النهار اذا جاء الليل وقد روى هذا مرفوعا فقال البزار حدثنا محمد بن معمر حدثنا ام المغيرة بن سلمة أبو هشام حدثنا عبد الواحد بن زياد عن عبيد الله بن عبد الله بن الاصم عن عمه يزيد بن الاصم عن أبى هريرة قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرأيت قوله تعالى جنة عرضها السموات والارض فأين النار قال أرأيت الليل اذا جاء ليس كل شئ فأين النهار قال حيث شاء الله قال وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل وهذا يحتمله معنيين أحدهما ان يكون المعنى فى ذلك انه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل اذا جاء النهار أن لا يكون فى مكان وان كنا لا نعلمه وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل وهذا أظهر كما تقدم فى حديث أبى هريرة عن البزار الثانى ان يكون المعنى ان النهار اذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فان الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة فى أعلى عليين فوق السموات تحت العرش وعرضها كما قال الله عز وجل كعرض السموات والارض والنار فى أسفل سافلين فلا تنافى بين كونها كعرض السموات والارض وبين وجود النار والله أعلم ثم ذكر تعالى

الرسول طاعة لله وفى هذه من النداء بشرف رسول الله وعلو شأنه وارتفاع مرتبته ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ووجهه ان الرسول لا يأمر الا بما أمر الله به ولا ينهى الا عما نهى عنه ولولا بيانه صلى الله عليه وآله وسلم ما كنا نعرف كل فريضة فى كتاب الله كالحج والصلاة والزكاة والصوم كيف نأتيها وقال الحسن جعل الله طاعة رسوله طاعته وقامت به الحجة على المسلمين (ومن تولى) أى أعرض عن طاعته (فما أرسلناك عليهم حفيظا) اى حافظا لاعمالهم انما عليك البلاغ قيل وقد نسخ هذا بآية السيف (ويقولون) أمرنا أو شأننا (طاعة) أو نطيع طاعة وهذه فى المنافقين فى قول أكثر المفسرين أى يقولون اذا كانوا عندك طاعة أى آمنا بك وصدقناك (فاذا برزوا) أى خرجوا (من عندك بيت) أى زور (طائفة منهم) أى من هؤلاء القائلين وهم رؤساؤهم ومن للتبعيض والتبييت التبديل يقال بيت الرجل الامر اذا دبره ليلا ومنه قوله تعالى اذ يبيتون ما لا يرضى من القول (غير الذى تقول) لهم أنت وتأمرهم به أو غير الذى تقول لك هى من الطاعة لك وقيل معناه غيروا وبدلوا وحرفوا قولك فيما عهدت اليهم (والله يكتب) أى يثبت فى صحائف أعمالهم (ما يبيتون) أى ما يزورون ويغيرون ويقدرون وقال ابن عباس ما يسرون من النفاق ليجازيهم عليه ويحفظه عليهم وقال الزجاج المعنى ينزله عليك فى الكتاب (فأعرض عنهم) أى دعهم وشأنهم حتى يمكن الانتقام منهم وقيل معناه لا تخبر بأسمائهم وقيل لا تعاقبهم وقيل لا تغتر باسلامهم (وتوكل على الله) أى ثق به وفوض أمرك اليه فى شأنهم (وكفى بالله وكيلا) ناصرا لك عليهم أمره بالتوكل عليه والثقة به فى النصر على عدوه قيل وهذا منسوخ بآية السيف (أفلا يتدبرون القرآن) الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر أى يعرضون عن القرآن فلا يتدبرونه يقال تدبرت الشئ تفكرت فى عاقبته وتأملته ثم استعمل فى كل تأمل والتدبر أن يدبر الانسان أمره كأنه ينظر الى ما يصير اليه عاقبته ودلت هذه الآية وقوله تعالى أفلا يتدبرون القرآن

صفة أهل الجنة فقال الذين ينفقون فى السراء والضراء أى فى الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض وفى جميع الاحوال كما قال الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية والمعنى انهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والانفاق فى مرضاته والاحسان الى خلقه من قراباتهم وغيرهم بانواع البر وقوله تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس أى اذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه وعفوا مع ذلك عمن أساء اليهم وقد ورد فى بعض الآثار يقول الله تعالى يا ابن آدم اذكرنى اذا غضبت أذكرك اذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك رواه ابن أبى حاتم وقد قال أبو يعلى فى مسنده حدثنا أبو موسى الزمن حدثنا عيسى بن شعيب الضرير أبو الفضل حدثنى الربيع بن سليمان النميرى عن أبى عمرو بن أنس بن مالك عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن خزن لسانه ستر الله عورته (٣٨٣) ومن اعتذر الى الله قبل الله عذره وهذا حديث غريب وفى اسناده نظر وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا مالك عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب وقد رواه الشيخان من حديث مالك وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن ابراهيم التيمى عن الحرث بن سويد عن عبد الله وهو ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله قالوا يا رسول الله ما منا أحد الا ماله أحب اليه من مال وارثه قال اعلموا انه ليس منكم أحد الا مال وارثه أحب اليه من ماله مالك من مالك الا ما قدمت ومال وارثك الا ما أخرت قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تعدون الصرعة فيكم قلنا الذى لا تصرعه الرجال قال لا ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون ما الرقوب قلنا الذى لا ولد له قال لا ولكن الرقوب الذى لا يقدم من ولده شيأ أخرج البخارى الفصل الاول منه وأخرج مسلم أصل هذا الحديث من رواية الاعمش به حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت عروة بن عبد الله الجعفى يحدث عن أبى حصبة أو ابن أبى حصبة عن رجل شهد النبى صلى الله عليه وسلم يخطب فقال أتدرون ما الرقوب قلنا الذى لا ولد له قال الرقوب كل الرقوب الذى له ولد فمات ولم يقدم منهم شيأ قال أتدرون من الصعلوك قالوا الذى ليس له مال فقال النبى صلى الله عليه وسلم الصعلوك كل الصعلوك الذى له مال فمات ولم يقدم منه شيأ قال ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم ما الصرعة قالوا الصريع الذى لا تصرعه الرجال فقال صلى الله عليه وسلم الصرعة كل الصرعة الذى يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ويقشعر شعره فيصرع غضبه حديث آخر قال الامام

أم على قلوب أقفالها على وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه والمعنى أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه متلائما غير مختلف صحيح المعانى قوى المبانى بالغا فى البلاغة الى أعلى درجاتها قال ابن عباس أفلا يتفكرون فيرون تصديق بعضه لبعض وما فيه من المواعظ والذكر والامر والنهى وان أحدا من الخلق لا يقدر عليه (ولو كان من عند غير الله) كما يزعمون (لوجدوا فيه اختلافا) أى تفاوتا وتناقضا (كثيرا) قاله ابن عباس ولا يدخل فى هذا اختلاف مقادير الآيات والسور لان المراد اختلاف التناقض والتفاوت وعدم المطابقة للواقع وهذا شأن كلام البشر لا سيما اذا طال وتعرض قائله للاخبار بالغيب فانه لا يوجد منه صحيحا مطابقا للواقع الا القليل النادر عن قتادة يقول ان قول الله لا يختلف وهو حق ليس فيه باطل وان قول الناس يختلف (واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به) يقال أذاع الشئ وأذاع به اذا أفشاه وأظهره وهؤلاء جماعة من ضعفة المسلمين كانوا اذا سمعوا شيأ من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين وقتلهم أفشوه وهم يظنون انه لا شئ عليهم فى ذلك وقيل هم المنافقون كانوا يستخبرون عن حالهم ثم يشيعونه قبل أن يتحدث به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ولو ردوه الى الرسول) حتى يكون هو الذى يتحدث به ويظهره (والى أولى الامر منهم) وهم أهل العلم والبصيرة والعقول الراجحة الذين يرجعون اليهم فى أمورهم أو هم الولاة عليهم (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى يستخرجونه بتدبرهم وصحة عقولهم والمعنى أنهم لو تركوا اذاعة الاخبار حتى يكون النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو الذى يذيعها أو يكون أولوا الامر منهم هم الذين يتولون ذلك لانهم يعلمون بما ينبغى أن يفشى ويكتم والاستنباط مأخوذ من استنبطت الماء اذا استخرجته والنبط الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر عند حفرها وقيل ان هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون ارجافات المنافقين على المسلمين فيذيعونها فتحصل بذلك المفسدة وفى الآية

أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا هشام هو ابن عروة عن أبيه عن الاحنف بن قيس عن عم له يقال له حارثة بن قدامة السعدى انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله قل لى قولا ينفعنى واقلل على لعلى أعيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تغضب فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا كل ذلك يقول لا تغضب وهكذا رواه عن أبى معاوية عن هشام به ورواه أيضا عن يحيى بن سعيد القطان عن هشام به ان رجلا قال يارسول الله قل لى قولا واقلل على لعلى أعقله فقال لا تغضب الحديث انفرد به أحمد حديث آخر قال أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال قال رجل يارسول الله أوصنى قال لا تغضب قال الرجل ففكرت حين قال النبى صلى الله عليه وسلم ما قال فاذا الغضب يجمع الشر كله انفرد به أحمد حديث آخر قال الامام أحمد (٢٨٤) حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبى هند عن أبى حرب ابن أبى الاسود عن أبى الاسود عن أبى ذر رضى الله عنه قال كان يسقى على حوض له فجاء قوم فقالوا أيكم يورد على أبى ذر ويحسب شعرات من رأسه فقال رجل أنا فجاء فأورد على الحوض فدقه وكان أبو ذر قائما فجلس ثم اضطجع فقيل له يا أبا ذر لم جلست ثم اضطجعت فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا اذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فان ذهب عنه الغضب والا فليضطجع ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل باسناده الا انه وقع فى روايته عن أبى حرب عن أبى ذر والصحيح أبو حرب عن أبيه عن أبى ذر كما رواه عبد الله بن أحمد عن أبيه حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا ابراهيم بن خالد حدثنا أبو وائل الصنعانى قال كنا جلوسا عند عروة بن محمد اذ دخل عليه رجل فكلمه بكلام أغضبه فلما أن أغضبه قام ثم عاد الينا وقد توضأ فقال حدثنى أبى عن جدى عطية هو ابن سعد السعدى وقد كانت له صحبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ وهكذا رواه أبو داود من حديث ابراهيم بن خالد الصنعانى عن أبى وائل العاص المرادى الصنعانى قال أبو داود وأراه عبد الله بن بجير حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا نوح بن معاوية السلمى عن مقاتل بن حيان عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنظر معسرا أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم الا ان عمل الجنة حزن بربوة ثلاثا الا ان عمل النار سهل بسهوة والسعيد من وقى الفتن وما من جرعة أحب الى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد لله الا ملأ الله جوفه ايمانا انفرد به أحمد واسناده حسن ليس فيه مجروح ومتنه حسن حديث آخر فى معناه قال أبو داود حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا عبد الرحمن يعنى ابن مهدى عن بشر يعنى

اشارة الى جواز القياس وان من العلم ما يدرك بالنص وهو الكتاب والسنة ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس عليهما (ولولا فضل الله) أى ما تفضل الله به (عليكم ورحمته) من ارسال رسوله وانزال كتابه (لاتبعتم الشيطان) فيما يأمركم به فبقيتم على كفركم (الا قليلا) منكم أو الا اتباعا قليلا وقيل أذاعوا به الا قليلا منهم فانه لم يذع ولم يفش قاله الكسائى والاخفش والفراء وأبو عبيدة وأبو حاتم وابن جرير وقيل المعنى لعلمه الذين يستنبطونه الا قليلا منهم قاله الزجاج وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن قتيبة والاول أولى (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك) الفاء فى قوله فقاتل قيل هى متعلقة بقوله ومن يقاتل فى سبيل الله الى آخره أى من أجل هذا فقاتل وقيل متعلقة بقوله وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله فقاتل وقيل تقديره اذا كان الامر ما ذكر من عدم طاعة المنافقين فقاتل أو اذا أفردوك أو تركوك فقاتل قال الزجاج أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالجهاد وان قاتل وحده لانه قد ضمن له النصر قال ابن عطية هذا ظاهر اللفظ الا أنه لم يجئ فى خبر قط أن القتال فرض عليه دون الامة والمعنى والله أعلم انه خطاب له فى اللفظ وفى المعنى له ولامته أى أنت يا محمد وكل واحد من أمتك يقال له فقاتل فى سبيل الله لا تكلف غير نفسك ولا تلزم فعل غيرك وهو استئناف مقرر لما قبله لان اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده وقرئ لا تكلف بالجزم على النهى وقرئ بالنون وفى الآية دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أشجع الناس وأعلمهم بأمور القتال اذ لو لم يكن كذلك لما أمره بذلك ولقد اقتدى به أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى قتال أهل الردة على الخروج ولو وحده (وحرض المؤمنين) أى وحضهم على القتال والجهاد يقال حرضت فلانا على كذا اذا أمرته به وحارض فلان على الامر وأكب عليه وواظب عليه بمعنى واحد والمعنى ليس عليك فى شأنهم الا التحريض والترغيب فى الثواب فحسب لا التعنيف بهم (عسى الله أن يكف)

ابن منصور عن محمد بن عجلان عن شويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو قادر على ان ينفذه ملأ الله جوفه أمنا وايمانا ومن ترك لبس ثوب جمال وهو قادر عليه قال بشر أحسبه قال تواضعا كساه الله حلة الكرامة ومن توج لله كساه الله تاج الملك حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد قال حدثنا سعيد حدثني أبو مرحوم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كظم غيظا وهو قادر على ان ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث سعيد بن أيوب به وقال الترمذي حسن غريب حديث آخر قال عبد الرزاق أنبأنا داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن رجل من أهل الشام يقال له عبد الجليل عن عم له عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله (٢٨٥) تعالى والكاظمين الغيظ ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ملأ الله جوفه أمنا وايمانا حديث آخر قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن زياد أنبأنا يحيى بن أبي طالب أنبأنا علي ابن عاصم أخبرني يونس بن عبيد عن الحسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله رواه ابن جرير وكذا رواه ابن ماجه عن بشر ابن عمر عن حماد بن سلمة عن يونس ابن عبيد به فقوله تعالى والكاظمين الغيظ أي لا يعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل ثم قال تعالى والعافين عن الناس اي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد وهذا أكمل الاحوال ولهذا قال والله يحب المحسنين فهذا من مقامات الاحسان وفي الحديث ثلاث أقسم عليهن ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا ومن تواضع لله رفعه الله وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسى بن عقبة عن اسحق بن يحيى بن أبي طلحة القرشي عن عبادة ابن الصامت عن أبي بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من سره ان يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ويصل من قطعه ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد أورده ابن مردويه من حديث علي وكعب بن عجرة وأبي هريرة وأم سلمة رضي الله عنهم بنحو ذلك وروى من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول أين العافون عن الناس هلموا الى ربكم وخذوا أجوركم وحق على كل امرئ مسلم اذا عفا ان يدخل الجنة وقوله تعالى والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم أي اذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار قال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام بن يحيى عن اسحق بن عبد الله بن أبي

فيه اطماع للمؤمنين بكف (بأس الذين كفروا) عنهم والاطماع من الله عز وجل واجب فهو وعد منه سبحانه ووعده كائن لا محالة (والله أشد) أي أعظم (بأسا) أي صولة وسلطانا وشدة وقوة (وأشد تنكيلا) عقوبة وعذابا يقال نكلت بالرجل تنكيلا من النكال وهو العذاب والمنكل الشيء الذي ينكل بالانسان (من يشفع شفاعة حسنة) أصل الشفاعة والشفعة ونحوهما من الشفع وهو الزوج ومنه الشفيع لانه يصير مع صاحب الحاجة شفعا ومنه ناقة شفوع اذا جمعت بين محلبين في حلبة واحدة وناقة شفيع اذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها والشفع ضم واحد الى واحد والشفعة ضم ملك الشريك الى ملكك فالشفاعة ضم غيرك الى جاهك ووسيلتك فهي على التحقيق اظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وايصال منفعة الى المشفوع له والشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة فمن شفع في الخير لينفع (يكن له نصيب) حظ (منها) أي من أجرها وقد بين النصيب في حديث من دعا لاخيه بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك آمين ولك بمثل هذا فهذا بيان لمقدار النصيب الموعود به قاله أبو السعود وعن أبي موسى قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسا فجاء رجل يسأل فأقبل علينا بوجهه وقال اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء أخرجه الشيخان (ومن يشفع شفاعة سيئة) الظاهر ان اطلاق الشفاعة هنا من قبيل المشاكلة لان حقيقتها اللغوية تقتضي انها لا تكون الا في الخير قال الخازن هي النميمة والغيبة ونقل الحديث لا يقاع العداوة بين الناس وقيل المراد دعاء اليهود على المسلمين وقيل معناه من يشفع كفره بقتال المؤمنين (يكن له كفل منها) أي من وزرها والكفل الوزر واشتقاقه من الكساء الذي يجعله الراكب على سنام البعير لئلا يسقط يقال اكتفلت البعير اذا أدرت على سنامه كساء وركبت عليه لانه لم يستعمل الظهر كله بل استعمل نصيبا منه ويستعمل في النصيب من الخير والشر ومن استعماله في الخير قوله تعالى يؤتكم كفلين من رحمته (وكان الله على كل شيء

طلحة عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان رجلا أذنب ذنبا فقال رب اني أذنبت ذنبا فاغفره لي فقال الله عز وجل عبدي عمل ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنبا آخر فقال رب اني عملت ذنبا فاغفره فقال تبارك وتعالى علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنبا آخر فقال رب اني عملت ذنبا فاغفره لي فقال عز وجل علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنبا آخر فقال رب اني عملت ذنبا فاغفره فقال الله عز وجل عبدي علم ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم اني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء أخرجاه في الصحيحين من حديث اسحق بن أبي طلحة بنحوه حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا حدثنا زهير حدثنا سعد الطائي حدثنا أبو المدله مولى أم المؤمنين (٢٨٦) سمع أبا هريرة قلنا يا رسول الله اذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة واذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والاولاد فقال لو انكم تكونون على كل حال على الحال التي كنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها قال لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك الاذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم لا يبأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول له الرب وعزتي لانصرنك ولو بعد حين ورواه الترمذي وابن ماجه من وجه آخر من حديث سعد به ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة لما رواه الامام أحمد بن حنبل حدثنا وكيع حدثنا مسعر وسفيان الثوري عن عثمان بن المغيرة الثقفي عن علي بن ربيعة عن سمالة بن الحكم الفزاري عن علي رضي الله عنه قال كنت اذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا انفعني الله بما شاء منه واذا حدثني عنه غيره استحلفته فاذا حلف لي صدقته وان أبا بكر رضي الله عنه حدثني وصدق أبو بكر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضأ ويحسن الوضوء قال مسعر فيصلي وقال سفيان ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل الا غفر له وهكذا رواه علي بن المديني والحميدي وأبو بكر بن أبي شيبة وأهل السنن وابن حبان في صحيحه والبزار والدارقطني من طرق عن عثمان بن المغيرة به وقال الترمذي هو حديث حسن وقد ذكرنا طرقه والكلام عليه مستقصى في مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبالجملة فهو حديث حسن وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن خليفة النبي صلى الله عليه وسلم أبي بكر رضي الله عنهما ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه

مقيتا) أي مقتدرا قاله الكسائي وقال الفراء المقيت الذي يعطي كل انسان قوته يقال قته أقوته قوتا وأقته أقيته اقاتة فأنا قائت ومقيت وحكى الكسائي أقات يقيت وقال أبو عبيدة المقيت الحافظ قال النحاس وقول أبي عبيدة أولى لانه مشتق من القوت والقوت معناه مقدار ما يحفظ الانسان وقال ابن فارس في المجمل المقيت المقتدر والحافظ والشاهد وقال مجاهد مقيتا أي شهيدا حسيبا حفيظا وقال سعيد بن جبير وابن زيد قادرا قديرا وعن الضحاك المقيت الرزاق (واذا حييتم بتحية) ترغيب في فرد شائع من أفراد الشفاعة الحسنة بعد الترغيب فيها على الاطلاق فان تحية السلام شفاعة من الله للمسلم عليه وأصل التحية تفعلة من حييت والاصل تحيية مثل ترضية وأصلها الدعاء بالحياة والتحية السلام وهذا المعنى هو المراد هنا ومثله قوله تعالى واذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله والى هذا ذهب جماعة من المفسرين وروى عن مالك أن المراد بالتحية هنا تشميت العاطس وقال أصحاب أبي حنيفة التحية هنا الهدية لقوله أو ردوها ولا يمكن رد السلام بعينه وهذا فاسد لا ينبغي الالتفات اليه والمراد بقوله (فحيوا بأحسن منها) أي بأن يزيد في الجواب على ما قاله المبتدئ بالتحية فاذا قال المبتدئ السلام عليكم قال المجيب وعليكم السلام ورحمة الله واذا زاد المبتدئ لفظا زاد المجيب على جملة ما جاء به المبتدئ لفظا أو ألفاظا نحو وبركاته ومرضاته وتحياته قال القرطبي أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغب فيها ورده فريضة لقوله فحيوا بأحسن منها وانما اختار الشرع لفظ السلام على لفظ حياك الله لانه أتم وأحسن وأكمل ولان السلام من أسمائه تعالى (أو ردوها) أي ردوا عليه كما سلم عليكم واقتصروا على مثل اللفظ الذي جاء به المبتدئ فظاهر الآية انه لو رد عليه بأقل مما سلم عليه به انه لا يكفي وظاهر كلام الفقهاء انه يكفي وحملوا الآية على أنه الاكمل واختلفوا اذا رد واحد من جماعة هل يجزئ أو لا فذهب مالك والشافعي الى الاجزاء وذهب الكوفيون الى أنه لا يجزئ عن غيره ويرد

مسلم فى صحيحه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مامنكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه انه توضأ لهم وضوء النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الاربعة الخلفاء الراشدين عن سيد الاولين والآخرين ورسول رب العالمين كما دل عليه الكتاب المبين من ان الاستغفار من الذنب ينفع العاصين وقد قال عبد الرزاق أنبأنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال بلغنى ان ابليس حين نزلت هذه الآية والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم الآية بكى وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محرز بن عون حدثنا عثمان بن مطر حدثنا عبد الغفور عن أبى نضرة عن أبى رجاء عن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال عليكم بلا اله الا الله والاستغفار فاكثروا منهما فان ابليس قال أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا اله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالاهواء فهم يحسبون انهم مهتدون عثمان بن مطر وشيخه ضعيفان وروى الامام أحمد فى مسنده من طريق عمرو بن أبى عمرو وأبى الهيثم العتوارى عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال ابليس يارب وعزتك لا أزال أغوى بنى آدم مادامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى

عليهم حديث على عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال يجزئ عن الجماعة اذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزئ عن الجلوس ان يرد أحدهم أخرجه أبو داود وفى اسناده سعيد بن خالد الخزاعى المدنى وليس به بأس وقد ضعفه بعضهم وقد حسن الحديث ابن عبد البر وقد ورد فى السنة المطهرة فى تعيين من يبتدئ بالسلام ومن يستحق التحية ومن لا يستحقها وفى فضل السلام والحث عليه وكيفية السلام وماله من الاحكام ما يغنى عن البسط ههنا (ان الله كان على كل شئ حسيبا) يحاسبكم على كل شئ وقيل معناه مجازيا وقيل كافيا من قولهم أحسبنى كذا اى كفانى ومثله حسبك (الله لا اله الا هو ليجمعنكم) بالحشر (الى) حساب (يوم القيامة) اى يوم القيام من القبور وقيل الى بمعنى فى واختاره القاضى كالكشاف وقيل انها زائدة (لا ريب فيه) أى فى يوم القيامة او فى الجمع اى جمعا لا ريب فيه وهذه الآية نزلت فى منكرى البعث (ومن أصدق من الله حديثا) انكار لان يكون أحد أصدق منه سبحانه والصاد الاصل وقد تبدل زايا لقرب مخرجها منها ولهذا قرأ حمزة والكسائى ومن ازدق بالزاى (فما لكم) الاستفهام للانكار والمعنى اى شئ كائن لكم (فى المنافقين) اى فى امرهم وشأنهم قال القرطبى والمراد بهم هنا عبد الله بن ابى واصحابه الذين خذلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم احد ورجعوا بعسكرهم بعد ان خرجوا كما تقدم فى آل عمران حال كونكم (فئتين) فى ذلك وحاصله الانكار على المخاطبين ان يكون لهم شئ يوجب اختلافهم فى شأن المنافقين وسبب نزول الآية به يتضح المعنى فقد اخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث زيد ابن ثابت ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج الى احد فرجع ناس خرجوا معه فكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم فرقتين فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا فأنزل الله فما لكم فى المنافقين الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انها طيبة وانها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة هذا اصح ما روى فى سبب نزول

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عمر بن خليفة سمعت أبا بدر يحدث عن ثابت عن أنس قال جاء رجل فقال يارسول الله انى أذنبت ذنبا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أذنبت فاستغفر ربك قال فانى أستغفر ثم أعود فأذنب قال فاذا أذنبت فعد فاستغفر ربك فقالها فى الرابعة فقال استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقوله تعالى ومن يغفر الذنوب الا الله أى لا يغفرها أحد سواه كما قال الامام أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا سلام بن مسكين والمبارك عن الاسود بن سريع ان النبى صلى الله عليه وسلم أتى بأسير فقال اللهم انى أتوب اليك ولا أتوب الى محمد فقال النبى صلى الله عليه وسلم عرف الحق لاهله وقوله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أى تابوا من ذنوبهم ورجعوا الى الله عن قريب ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه كما قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا اسحق بن أبى اسرائيل وغيره قالوا حدثنا أبو يحيى عبد الحميد الحمانى عن عثمان بن واقد عن أبى نصرة عن مولى لابى بكر عن أبى بكر رضى الله عنهم

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة ورواه أبو داود والترمذى والبزار فى مسنده من حديث عثمان بن واقد وقد وثقه يحيى بن معين به وشيخه ابو نصر المقاسطى واسمه سلم بن عبيد وثقه الامام أحمد وابن حبان وقول على بن المدينى والترمذى ليس اسناد هذا الحديث بذاك فالظاهر انه لاجل جهالة مولى أبى بكر ولكن جهالة مثله لا تضر لانه تابعى كبير ويكفيه نسبته الى أبى بكر فهو حديث حسن والله أعلم وقوله وهم يعلمون قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير وهم يعلمون ان من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده وكقوله ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ونظائر هذا كثيرة جدا وقال الامام أحمد حدثنا يزيد أنبأنا جرير حدثنا حبان هو ابن زيد الشرعبى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم انه (٢٨٨) قال وهو على المنبر ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم ويل لأقماع القول ويل للمصرين الذين يصرون على مافعلوا وهم يعلمون تفرد به أحمد ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم أى جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار أى من أنواع المشروبات خالدين فيها أى ماكثين فيها ونعم أجر العاملين يمدح تعالى الجنة (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين لما اهل أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون قد خلت من قبلكم سنن أى قد جرى نحو هذا على الامم الذين كانوا من قبلكم من اتباع الانبياء ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ولهذا قال تعالى فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ثم قال تعالى هذا بيان للناس يعنى القرآن فيه بيان الامور على جليتها وكيف كان الامم الاقدمون مع أعدائهم وهدى وموعظة يعنى القرآن فيه خبر من قبلكم وهدى لقلوبكم وموعظة أى زاجر عن المحارم والمآثم ثم قال تعالى مسليا للمؤمنين ولا تهنوا أى لا تضعفوا بسبب ماجرى ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين أى العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله اى ان كنتم قد اصابتكم جراح وقتل منكم طائفة فقد اصاب اعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح وتلك الايام نداولها بين الناس أى نديل عليكم الاعداء تارة وان كانت لكم العاقبة لما لنا فى ذلك من الحكمة ولهذا قال وليعلم الله الذين

الآية وقدر وبيت اسباب غير ذلك (والله أركسهم) حكى الفراء والنضر بن شميل والكسائى أركسهم وركسهم أى ردهم الى الكفر ونكسهم فالركس والنكس قلب الشئ على رأسه أو رد أوله الى آخره والمنكوس المركوس (بما كسبوا) الباء للسببية أى أركسهم بسبب كسبهم وهو لحوقهم بدار الكفر والاستفهام فى قوله (أتريدون) للتقريع والتوبيخ (أن تهدوا من أضل الله) هذا خطاب للفئة التى دافعت عن المنافقين وفيه دليل على ان من أضله الله لا يجتمع فيه هداية البشر انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء (ومن يضلل الله) عن الهدى (فلن تجد له سبيلا) أى طريقا الى الهداية (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين وايضاح انهم يودون أن يكفر المؤمنون كما كفروا ويتمنون ذلك عنادا وغلوا فى الكفر وتماديا فى الضلال وقيل ودوا كفركم ككفرهم وودوا مساواتكم لهم (فلا تتخذوا منهم أولياء) أى اذا كان حالهم ماذكر من ودادة كفركم فلا تتخذوهم أولياء وجمع الاولياء لمراعاة جمعية المخاطبين فالمراد النهى عن ان يتخذ منهم ولى ولو واحدا (حتى يهاجروا فى سبيل الله) هجرة صحيحة تحقق ايمانهم والمراد بالهجرة هنا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقتال فى سبيله مخلصين صابرين محتسبين قال عكرمة هى هجرة أخرى (فان تولوا) عن الهجرة للقتال فى سبيل الله (فخذوهم) اذا قدرتم عليهم (واقتلوهم حيث وجدتموهم) فى الحل والحرم فان حكمهم حكم سائر المشركين قتلا واسرا (ولا تتخذوا منهم وليا) يتولونه (ولا نصيرا) تستنصرون به (الا الذين) هذا مستثنى من الاخذ والقتل فقط واما الموالاة فحرام مطلقا لا تجوز بحال (يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) بالجوار والحلف فلا تقتلوهم لما بينكم وبينهم عهد وميثاق فان العهد يشملهم هذا اصح ماقيل فى معنى الآية وقيل الاتصال هنا هو اتصال النسب والمعنى الا الذين ينتسبون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق قاله ابو عبيدة وقد انكر ذلك عليه

امنوا قال ابن عباس فى مثل هذا نرى من يصبر على مناجزة الاعداء ويتخذ منكم شهداء يعنى يقتلون فى سبيله ويبذلون مهجهم فى مرضاته والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا أى يكفر عنهم من ذنوبهم ان كانت لهم ذنوب والا رفع لهم فى درجاتهم بحسب ما أصيبوا به وقوله ويمحق الكافرين أى فانهم اذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم ثم قال تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين أى أحسبتم ان تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد كما قال تعالى فى سورة البقرة أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا الآية وقال تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون الآية ولهذا قال ههنا أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين أى لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا

اهل العلم لان النسب لا يمنع من القتال بالاجماع فقد كان بين المسلمين وبين المشركين انساب ولم يمنع ذلك من القتال وقد اختلف فى هؤلاء القوم الذين كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ميثاق فقيل هم قريش كان بينهم وبين النبى صلى الله عليه وآله وسلم ميثاق والذين يصلون الى قريش هم بنو مدلج وقيل نزلت فى هلال ابن عويم وسراقة بن جعشم وخزيمة بن عامر بن عبد مناف كان بينهم وبين النبى صلى الله عليه وآله وسلم عهد وقيل خزاعة وقيل بنو بكر بن زيد (أو جاؤكم حصرت صدورهم) والحصر الضيق والانقباض وقال محمد بن يزيد المبرد هو دعاء عليهم كما تقول لعن الله الكافر وضعفه بعض المفسرين وقيل أو بمعنى الواو (ان يقاتلوكم) مع قومهم (أو يقاتلوا قومهم) معكم فضاقت صدورهم عن قتال الطائفتين وكرهوا ذلك (ولو شاء الله لسلطهم عليكم) ابتلاء منه لكم واختبارا كما قال سبحانه ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم أو تمحيصا لكم أو عقوبة بذنوبكم ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فالقى فى قلوبهم الرعب (فلقاتلوكم) يذكرا لله منته على المسلمين بكف بأس المعاهدين (فان اعتزلوكم) عن قتالكم (فلم يقاتلوكم) أى لم يتعرضوا لقتالكم (وألقوا اليكم السلم) أى استسلموا لكم وانقادوا (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى طريقا فلا يحل لكم قتلهم ولا أسرهم ولا نهب أموالهم فهذا الاستسلام يمنع من ذلك ويحرمه قيل هذا منسوخ بآية القتال وقيل محكمة محمولة على المعاهدين وهذا هو الظاهر (ستجدون آخرين) والسين للاستمرار لا للاستقبال كقوله تعالى سيقول السفهاء قال السفاقسى والحق انها للاستقبال فى الاستمرار للفعل لا فى ابتدائه (يريدون ان يأمنوكم ويأمنوا قومهم) فيظهرون لكم الاسلام ويظهرون لقومهم الكفر ليأمنوا من كلا الطائفتين وهم قوم من أهل تهامة طلبوا الامان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليأمنوا عنده وعند قومهم وقيل هى قوم من أهل مكة وقيل نزلت فى نعيم بن

ويرى الله منكم المجاهدين فى سبيله والصابرين على مقاومة الاعداء وقوله ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون أى قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتحترقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم فها قد حصل لكم الذى تمنيتموه وطلبتموه فدونكم فقاتلوا وصابروا وقد ثبت فى الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف ولهذا قال تعالى فقد رأيتموه يعنى شاهدتموه وقت حد الاسنة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس كما تخييل الشاة صداقة الكبش وعداوة الذئب (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات

(٣٧ - فتح البيان نى) أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ وسيجزى الله الشاكرين وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد وقتل من قتل منهم نادى الشيطان ألا ان محمدا قد قتل ورجع ابن قميئة الى المشركين فقال لهم قتلت محمدا وانما كان قد ضرب رسول الله فشجه فى رأسه فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس واعتقدوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل وجوز وا عليه ذلك كما قد قص الله عن كثير من الانبياء عليهم السلام فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ففى ذلك أنزل الله تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أى له أسوة بهم فى الرسالة وفى جواز

القتل عليه قال ابن أبي نجيح عن أبيه ان رجلا من المهاجرين مر على رجل من الانصار وهو يتشحط في دمه فقال له يا فلان أشعرت ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل فقال الانصاري ان كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم فنزل وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة ثم قال تعالى منكرا على من حصل له ضعف أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم أي رجعتم القهقرى ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ وسيجزي الله الشاكرين أي الذين قاموا بطاعته وقاتلوا على دينه واتبعوا رسوله حيا وميتا وكذلك ثبت في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من كتب الاسلام من طرق متعددة تفيد القطع وقد ذكرت ذلك في مسند الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ان الصديق رضي الله عنه تلا هذه الآية لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (٢٩٠) البخاري حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرني أبو سلمة ان عائشة رضي الله عنها أخبرته ان أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغطى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي قد كتبت عليك فقد متها وقال الزهري وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس ان أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس وقال اجلس يا عمر فقال أبو بكر أما بعد من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت قال الله تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل الى قوله وسيجزي الله الشاكرين قال فوالله لكأن الناس لم يعلموا ان الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر فتلاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرا من الناس الا يتلوها وأخبرني سعيد بن المسيب ان عمر قال والله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ما يلقني فلقيه رجلاي وحتى هويت الى الارض وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد حدثنا أسباط بن نصر عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس ان عليا كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم والله لا انقلب على أعقابنا بعد اذ هدانا الله والله لئن مات أو قتل لاقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت والله اني لاخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني وقوله تعالى وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا أي لا يموت أحد الا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضرب الله له ولهذا قال كتابا مؤجلا كقوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب وكقوله هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال

مسعود فانه كان يأمن المسلمين والمشركين وقيل في قوم من المنافقين وقيل في أسد وغطفان (كلما ردوا الى الفتنة) أي دعاهم قومهم اليها وطلبوا منهم قتال المسلمين (أركسوا فيها) أي قلبوا فرجعوا الى قومهم وقاتلوا المسلمين ومعنى الارتكاس الانتكاس (فان لم يعتزلوكم) يعني هؤلاء الذين يريدون ان يأمنوكم ويأمنوا قومهم لم يكفوا عن قتالكم حتى يسيروا الى مكة (ويلقوا اليكم السلم) أي يستسلمون لكم ويدخلون في عهدكم وصلحكم وينسلخون عن قومهم (ويكفوا أيديهم) عن قتالكم (فخذوهم) يعني أسرى (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أي حيث وجدتموهم وتمكنتم منهم (وأولئكم) الموصوفون بتلك الصفات (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أي حجة واضحة تتسلطون بها عليهم وتقهرونهم بها بسبب ما في قلوبهم من المرض وما في صدورهم من الدغل وارتكاسهم في الفتنة بأيسر عمل وأقل سعي (وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا) هذا النفي هو بمعنى النهي المقتضي للتحريم كقوله تعالى وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولو كان هذا النفي على معناه لكان خبرا وهو يستلزم صدقه فلا يوجد مؤمن قتل مؤمنا قط وقيل المعنى ما كان له ذلك في عهد الله وقيل ما كان له ذلك فيما سلف كما ليس له الآن ذلك بوجه ثم استثنى منه استثناء منقطعا فقال (الا خطأ) أي ما كان له ان يقتله البتة لكن ان قتله خطأ فعليه كذا هذا قول سيبويه والزجاج وقيل هو استثناء متصل والمعنى وما ثبت ولا وجد ولا ساغ لمؤمن ان يقتل مؤمنا الا خطأ اذ هو مغلوب حينئذ وقيل المعنى ولا خطأ قال النحاس ولا يعرف ذلك في كلام العرب ولا يصح في المعنى لان الخطأ لا يحظر وقيل المعنى لا ينبغي ان يقتله لعلة من العلل الا للخطأ وحده فيكون قوله خطأ منتصبا بانه مفعول له ووجوه الخطأ كثيرة ويضبطها عدم القصد والخطأ اسم من أخطأ خطأ اذا لم يتعمد أخرج ابن جرير عن عكرمة قال كان الحرث بن يزيد من بني عامر بن لؤي يعذب عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل ثم خرج مهاجرا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعني الحرث

فان الاقدام والاجسام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه كما قال ابن ابى حاتم حدثنا العباس بن يزيد العبدى قال سمعت أبا معاوية عن الاعمش عن حبيب بن ظبيان قال قال رجل من المسلمين وهو حجر بن عدى ما يمنعكم ان تعبروا الى هؤلاء العدو وهذه النطفة يعنى دجلة ما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رآهم العدو اقتحموا قالوا ديوان فهربوا وقوله ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها أى من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له ولم يكن له فى الآخرة من نصيب ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها ما قسم له فى الدنيا كما قال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب وقال تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها (٢٩١) وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ولذا قال ههنا وسنجزى الشاكرين أى سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم ثم قال تعالى مسليا للمؤمنين عما كان وقع فى نفوسهم يوم أحد وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير قيل معناه كم من نبى قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير وهذا القول هو اختيار ابن جرير فانه قال وأما الذين قرؤا قتل معه ربيون كثير فانهم قالوا انما عنى بالقتل النبى وبعض من معه من الربيين دون جميعهم وانما نفى الوهن والضعف عمن بقى من الربيين ممن لم يقتل قال ومن قرأ قاتل فانه اختار ذلك لانه قال لو قتلوا لم يكن لقول الله فما وهنوا وجه معروف لانه يستحيل ان يوصفوا بانهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا ثم اختار قراءة من قرأ قتل معه ربيون كثير لان الله عاتب بهذه الآيات والتى قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بان محمدا قد قتل فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم أفان مات أو قتل أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم وقيل وكم من نبى قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير وكلام ابن اسحق فى السيرة يقتضى قولا آخر فانه قال وكأين من نبى أصابه القتل ومعه ربيون أى جماعات فما وهنوا بعد نبيهم وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا لما أصابهم فى الجهاد عن الله وعن دينهم وذلك الصبر والله يحب الصابرين فجعل قوله معه ربيون كثير حالا وقد نصر هذا القول السهيلى وبالغ فيه وله اتجاه لقوله فما وهنوا لما أصابهم الآية وكذا حكاه الاموى فى مغازيه عن كتاب محمد بن ابراهيم ولم يحك غيره وقرأ بعضهم قاتل معه ربيون كثير أى ألوف وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدى والربيع وعطاء الخراسانى الربيون الجموع الكثيرة وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن ربيون كثير أى علماء كثير وعنه أيضا علماء صبر أى أبرار اتقياء وحكى ابن جرير عن بعض نحاة البصرة ان الربيون هم الذين

فلقيه عياش بالحرة فعلاه بالسيف وهو يحسب انه كافر ثم جاء الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فاخبره فنزلت وما كان لمؤمن الآية فقرأها النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال له قم فحرر وأخرجه ابن جرير وابن المنذر عن السدى باطول من هذا وقد روى من طرق غير هذه وقال ابن زيد نزلت فى رجل قتله أبو الدرداء كان فى سرية فحمل عليه بالسيف فقال لا اله الا الله فضربه (ومن قتل مؤمنا خطأ) بان قصد رمى غيره كصيد أو شجرة فاصابه أو ضربه بما لا يقتل غالبا (فتحرير) أى فعليه تحرير (رقبة) أى نسمة (مؤمنة) يعتقها كفارة عن قتل الخطا وعبر بالرقبة عن جميع الذات واختلف العلماء فى تفسير الرقبة المؤمنة فقيل هى التى صلت وعقلت الايمان فلا تجزئ الصغيرة وبه قال ابن عباس والحسن والشعبى والنخعى وقتادة وغيرهم وقال عطاء بن أبى رباح انها تجزئ الصغيرة المولودة بين مسلمين وقال جماعة منهم مالك والشافعى يجزئ كل من حكم له بوجوب الصلاة عليه ان مات ولا يجزئ فى قول جمهور العلماء أعمى ولا مقعد ولا أشل ويجزئ عند الاكثر الاعرج والاعور قال مالك الا ان يكون عرجا شديدا ولا يجزئ عند أكثرهم المجنون وفى المقام تفاصيل طويلة مذكورة فى علم الفروع وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والبيهقى عن أبى هريرة ان رجلا أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بجارية سوداء فقال يا رسول الله ان على عتق رقبة مؤمنة فقال لها أين الله فأشارت الى السماء باصبعها فقال لها فمن أنا فاشارت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والى السماء أى أنت رسول الله فقال اعتقها فانها مؤمنة وقد روى من طرق وهو فى صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى (ودية) هى ما يعطى عوضا عن دم المقتول الى ورثته (مسلمة) أى مدفوعة مؤداة (الى أهله) المراد بهم الورثة وأجناس الدية وتفاصيلها قد بينتها السنة المطهرة وقد وردت أحاديث فى تقدير الدية وفى الفرق بين دية الخطا ودية شبه العمد ودية المسلم ودية الكافر وهى معروفة فلا حاجة لنا فى ذكرها فى هذا الموضع (الا أن يصدقوا)

يعبدون الرب عز وجل قال ورد بعضهم عليه فقال لو كان كذلك لقيل الربيون بفتح الراء وقال ابن زيد الربيون الاتباع والرعية الربانيون الولاة فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا قال قتادة والربيع بن أنس وما ضعفوا بقتل نبيهم وما استكانوا يقول فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم ان قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله وقال ابن عباس وما استكانوا تخشعوا وقال ابن زيد ما ذلوا لعدوهم وقال ابن اسحق والسدي وقتادة أي ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم والله يحب الصابرين وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين أي لم يكن لهم هجيرا الا ذلك فآتاهم الله ثواب الدنيا أي النصر والظفر والعاقبة وحسن ثواب الآخرة أي جمع لهم ذلك مع هذا والله يحب المحسنين (يا أيها الذين آمنوا (٢٩٢) ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين

أي الا أن يتصدق أهل المقتول على القاتل بالدية بان يعفوا عنها فسمى العفو عنها صدقة ترغيبا فيه وهذه الجملة المستثناة متعلقة بقوله ودية مسلمة أي فعليه دية مسلمة الا ان يقع العفو من الورثة عنها (فان كان) المقتول (من قوم عدو لكم) وهم الكفار الحربيون (وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) هذه مسئلة المؤمن الذي يقتله المسلمون في بلاد الكفار الذين كان منهم ثم أسلم ولم يهاجروا وهم يظنون انه لم يسلم وانه باق على دين قومه فلا دية على قاتله بل عليه تحرير رقبة مؤمنة واختلفوا في وجه سقوط الدية فقيل وجهه ان أولياء القتيل كفار لا حق لهم في الدية وقيل وجهه ان هذا الذي آمن ولم يهاجر حرمته قليلة لقول الله تعالى والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ وقال بعض أهل العلم ان ديته واجبة لبيت المال (وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) أي عهد مؤقت أو مؤبد كأهل الذمة وقرأ الحسن وهو مؤمن (فدية) أي فعلى قاتله دية (مسلمة) مؤداة (الى أهله) من أهل الاسلام وهم ورثته وهي ثلث دية المؤمن ان كان يهوديا أو نصرانيا وثلثا عشرها ان كان مجوسيا (وتحرير رقبة مؤمنة) على قاتله كما تقدم (فمن لم يجد) أي الرقبة ولا اتسع ماله لشرائها (فصيام) أي فعليه صيام (شهرين متتابعين) لم يفصل بين يومين من أيام صومها افطار في نهار فلو أفطر استأنف هذا قول الجمهور وأما الافطار لعذر شرعي كالحيض ونحوه فلا يوجب الاستئناف واختلف في الافطار لعروض المرض ولم يذكر الله سبحانه الانتقال الى الطعام كالظهار وبه أخذ الشافعي (توبة) أي شرع ذلك لكم قبولا لتوبتكم أو تاب عليكم توبة أو حال كونه ذا توبة كائنة من الله قال سعيد بن جبير يعني تجاوزا من الله لهذه الامة حيث جعل في مثل الخطا الكفارة (وكان الله عليما) بمن قتل خطأ (حكيما) فيما حكم به عليه من الدية والكفارة وأحكام الديات محلها كتب الفروع فلا نطول بذكرها (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) أي قاصد القتل لما بين سبحانه حكم القاتل خطأ بين حكم القاتل عمدا وقد اختلف العلماء في

بل الله مولاكم وهو خير الناصرين سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون) يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين فان طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ثم بشرهم بانه سيلقي معنى في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال فقال سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وأحلت لي الغنائم وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن أبي عدي عن سليمان التيمي عن سيار عن أبي امامة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فضلني الله على الانبياء أو قال على الامم بأربع أرسلت الى الناس كافة وجعلت لي الارض كلها ولامتي

مسجدا وطهورا فأينما ادركت رجل من أمتى الصلاة فعنده مسجده وطهوره ونصرت بالرعب مسيرة شهر يقذف فى قلوب أعدائى وأحلت لى الغنائم ورواه الترمذى من حديث سليمان التيمى عن سيار القرشى الاموى مولاهم الدمشقى سكن البصرة عن أبى امامة صدى بن عجلان رضى الله عنه به وقال حسن صحيح وقال سعيد بن منصور أنبأنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحرث ان أبا يونس حدثه عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نصرت بالرعب على العدو ورواه مسلم من حديث ابن وهب وقال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا اسرائيل عن أبى اسحق عن أبى بردة عن أبيه أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا بعثت الى الاحمر والاسود وجعلت لى الارض طهورا ومسجدا وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة وليس من نبى الا وقد سأل الشفاعة وانى قد اختبأت شفاعتى لمن مات لا يشرك بالله شيأ تفرد به أحمد وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب قال قذف الله فى قلب أبى سفيان الرعب فرجع الى مكة فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان أبا سفيان قد أصاب منكم طرفا وقد رجع وقذف الله فى قلبه الرعب رواه ابن أبى حاتم وقوله تعالى ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه قال ابن عباس وعدهم الله النصر وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين فى قوله تعالى اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ان ذلك كان يوم أحد لان عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للاسلام فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة تأخر الوعد الذى كان مشروطا بالثبات والطاعة ولهذا قال ولقد صدقكم الله وعده أى أول النهار اذ تحسونهم أى تقتلونهم باذنه أى بتسليطه اياكم عليهم حتى اذا فشلتم وقال ابن جريج قال ابن عباس الفشل الجبن وتنازعتم فى الامر وعصيتم كما وقع للرماة من بعد ما أراكم ما تحبون وهو الظفر بهم منكم من يريد الدنيا وهم الذين رغبوا فى المغنم حين رأوا الهزيمة ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمحنكم ولقد عفا عنكم أى غفر لكم ذلك الصنيع وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم وقلة عدد المسلمين وعددهم قال ابن جريج قوله ولقد عفا عنكم قال لم يستأصلكم وكذا قال محمد بن اسحق رواهما ابن جرير والله ذو فضل على المؤمنين قال الامام أحمد حدثنا سليمان ابن داود حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه عن عبيد الله عن ابن عباس أنه قال ما نصر الله النبى صلى الله عليه وسلم فى موطن

معنى العمد فقال عطاء والنخعى وغيرهما هو القتل بحديدة كالسيف والخنجر وسنان الرمح ونحو ذلك من الحدود وبما يعلم ان فيه الموت من ثقال الحجارة ونحوها وقال الجمهور انه كل قتل من قاتل قاصد للفعل بحديدة أو بحجر أو بعصا أو بغير ذلك وقيده بعض أهل العلم بان يكون بما يقتل مثله فى العادة وقد ذهب بعض أهل العلم الى ان القتل ينقسم الى ثلاثة أقسام عمد وشبه عمد وخطأ واستدلوا على ذلك بأدلة ليس هذا مقام بسطها وذهب آخرون الى أنه ينقسم الى قسمين عمد وخطأ ولا ثالث لهما واستدلوا بانه ليس فى القرآن الا القسمان ويجاب عن ذلك بان اقتصار القرآن على القسمين لا ينفى ثبوت قسم ثالث بالسنة وقد ثبت ذلك بالسنة (فجزاؤه جهنم خالدا فيها) أى فجعل جزاؤه ذلك بكفره وارتداده أو حكم عليه بها وهو الذى استثناه النبى صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة عمن أمنه من أهلها فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة (وغضب الله عليه) لاجل كفره وقتله المؤمن متعمدا (ولعنه) طرده عن رحمته (وأعد له عذابا عظيما) فى النار وقد جاءت هذه الآية بتغليظ عقوبة القاتل عمدا فجمع الله له فيها بين كون جهنم جزاءه أى يستحقها بسبب هذا الذنب وبين كونه خالدا فيها وبين غضب الله ولعنته له واعداده له عذابا عظيما وليس وراء هذا التشديد تشديد ولا مثل هذا الوعيد وعيد وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا فروى البخارى عن سعيد بن جبير قال اختلف فيها علماء أهل الكوفة فرحلت فيها الى ابن عباس فسألته عنها فقال نزلت هذه الآية ومن يقتل مؤمنا متعمدا وهى آخر ما نزل وما نسخها شئ وقد روى النسائى عنه وعن زيد بن ثابت نحوه وممن ذهب الى انه لا توبة له من السلف أبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم نقله ابن أبى حاتم عنه وذهب الجمهور الى أن التوبة منه مقبولة واستدلوا بمثل قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله وهو الذى يقبل التوبة عن عباده وقوله ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله وانى لغفار لمن

كم نصره يوم أحد فأنكرنا ذلك فقال ابن عباس بيني وبين من انكر ذلك كتاب الله ان الله يقول في يوم احد ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه يقول ابن عباس والحس القتل (١) حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة الآية وانما عنى بهذا الرماة وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم أقامهم في موضع وقال احموا ظهورنا فان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وان رأيتمونا نغنم فلا تشركونا فلما غنم النبي صلى الله عليه وسلم وأتاخوا عسكر المشركين أكب الرماة جميعا في العسكر ينهبون ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم هكذا وشبك بين يديه وانتشبوا فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب بعضهم بعضا والتبسوا وقتل من المسلمين ناس كثير وقد كان النصر (٢٩٤) لرسول الله صلى الله عليه وسلم أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ورجال المشركون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار انما كانوا تحت المهراس وصاح الشيطان قتل محمد فلم يشكوا به انه حق فلا زلنا كذلك ما نشك انه حق حتى طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السعدين نعرفه بكتفيه اذا مشى قال ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا قال فرقى نحونا وهو يقول اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ويقول مرة أخرى ليس لهم ان يعلونا حتى انتهى الينا فمكث ساعة فاذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل أعل هبل مرتين يعني الهه أين ابن أبي كبشة أين ابن أبي قحافة أين ابن الخطاب فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله ألا أجيبه قال بلى فلما قال أعل هبل قال عمر الله أعلى وأجل فقال أبو سفيان قد أنعمت قال عنها فقال أين ابن أبي كبشة أين ابن أبي قحافة اين ابن الخطاب فقال عمر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أبو بكر وها أنا عمر قال فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر الايام دول وان الحرب سجال قال فقال عمر لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار قال انكم تزعمون ذلك فقد خبنا وخسرنا اذن فقال أبو سفيان انكم ستجدون في قتلاكم مثلا ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا قال ثم أدركته حمية الجاهلية فقال أما انه ان كان ذلك لم نكرهه هذا حديث غريب وسياق عجيب وهو من مرسلات ابن عباس فانه لم يشهد أحدا ولا أبوه وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي النضر الفقيه عن عثمان بن سعيد عن سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس به وهكذا رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سليمان بن داود الهاشمي به ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها فقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن الشعبي عن ابن مسعود قال ان النساء كن يوم أحد خلف المسلمين يجهزون على جرحى

تاب قالوا أيضا والجمع ممكن بين آية النساء هذه وآية الفرقان فيكون معناهما فجزاؤه جهنم الا من تاب لا سيما وقد اتحد السبب وهو القتل والموجب وهو التوعد بالعقاب واستدلوا أيضا بالحديث المذكور في الصحيحين عن عبادة بن الصامت انه صلى الله عليه وآله وسلم قال تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيأ ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ثم قال فمن أصاب من ذلك شيأ فستره الله فهو الى الله ان شاء عفا عنه وان شاء عذبه وبحديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه وغيره في الذي قتل مائة نفس وذهب جماعة منهم أبو حنيفة وأصحابه والشافعي الى أن القاتل عمدا داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب وقد أوضح الشوكاني في شرحه على المنتقى متمسك كل فريق والحق ان باب التوبة لم يغلق دون كل عاص بل هو مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه واذا كان الشرك وهو أعظم الذنوب وأشدها تمحوه التوبة الى الله ويقبل من صاحبه الخروج منه والدخول في باب التوبة فكيف بما دونه من المعاصي التي من جملتها القتل عمدا لكن لابد في توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل وتسليم نفسه للقصاص ان كان واجبا أو تسليم الدية ان لم يكن القصاص واجبا وكان القاتل غنيا متمكنا من تسليمها أو بعضها وأما مجرد التوبة من القاتل عمدا وعزمه على أن لا يعود الى قتل أحد من دون اعتراف ولا تسليم نفس فنحن لا نقطع بقبولها والله أرحم الراحمين هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون وقد تعلقت المعتزلة وغيرهم بهذه الآية على ان الفاسق يخلد في النار والجواب ان الآية نزلت في كافر قتل مسلما وهو مقيس بن ضبابة وهي على هذا مخصوصة وقيل المعنى من قتل مسلما مستحلا لقتله وهو كفر وعن أبي مجلز قال هي جزاؤه فان شاء الله ان يتجاوز عن جزائه فعل أخرجه أبو داود وقيل الخلود لا يقتضي التأبيد بل معناه طول المكث قاله البيضاوي وقد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحيحة اخراج جميع الموحدين من النار قال الكرخي الظاهر انه أراد التشديد والتخويف والزجر العظيم عن قتل المؤمن

---

(١) كذا بالنسخ

المشركين فلو حلفت يومئذ رجوت ان أبر انه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى انزل الله منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم فلما خالف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصوا ما أمر وابه أفرد النبي صلى الله عليه وسلم في تسعة سبعة من الانصار ورجلين من قريش وهو عاشرهم صلى الله عليه وسلم فلما أرهقوه قال رحم الله رجلا ردهم عنا قال فقام رجل من الانصار فقاتل ساعة حتى قتل فلما أرهقوه أيضا قال رحم الله رجلا ردهم عنا فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبيه ما انصفنا أصحابنا فجاء أبو سفيان فقال اعل هبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا الله أعلى وأجل فقالوا الله أعلى وأجل فقال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا الله مولانا والكافرون لا مولى لهم فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر * فيوم علينا ويوم لنا * ويوم نسأ (١٩٥) ويوم نسر * حنظلة بحنظلة وفلان بفلان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سواء أما قتلانا فاحياء يرزقون وأما قتلاكم ففي النار يعذبون فقال أبو سفيان لقد كان في القوم مثلة وان كانت لعن غير ملا منا ما أمرت ولا نهيت ولا أحببت ولا كرهت ولا ساءتني ولا سرتني قال فنظروا فاذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع ان تأكلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلت شيأ قالوا لا قال ما كان الله ليدخل شيأ من حمزة في النار قال فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة فصلى عليه وجيء برجل من الانصار فوضع الى جنبه فصلى عليه فرفع الانصاري وترك حمزة حتى جيء بآخر فوضع الى جنب حمزة فصلى عليه ثم رفع وترك حمزة حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة تفرد به أحمد أيضا وقال البخاري حدثنا عبد الله بن موسى عن اسرائيل عن أبي اسحق عن البراء قال لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لا تبرحوا ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله بن جبير عهد الي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلا فاشرف أبو سفيان فقال أفي القوم محمد فقال لا تجيبوه فقال أفي القوم ابن أبي قحافة قال لا تجيبوه فقال أفي القوم ابن الخطاب فقال ان هؤلاء قتلوا فلو كانوا احياء لاجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال له كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يحزنك قال أبو سفيان أعل هبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم أجيبوه قالوا ما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أجيبوه قالوا ما نقول قال قولوا الله مولانا ولا مولى

لا انه أراد بعدم قبول توبته عدمه حقيقة وظاهر ان الآية من المحكم لانه لا يقع النسخ الا في الامر والنهي ولو بلفظ الخبر اما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يدخله نسخ ومنه الوعد والوعيد قاله الجلال في الاتقان قال أبو السعود في الآية الكريمة من التهديد الشديد والوعيد الاكيد وفنون الابراق والارعاد ما تراه وقد تايدت بما روى من الاخبار الشداد كقوله صلى الله عليه وآله وسلم والذي نفسي بيده لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مؤمن وقوله لو ان رجلا قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لاشرك في دمه وقوله من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله ونحو ذلك من القوارع ولا متمسك للمعتزلة فيها لان المراد بالخلود هو المكث الطويل لا الدوام وقد روى مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال هو جزاؤه ان جازاه قال الواحدي والاصل في ذلك ان الله عز وجل يجوز ان يخلف الوعيد وان امتنع ان يخلف الوعد وبهذا وردت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث أنس انه صلى الله عليه وآله وسلم قال من وعده الله على عمله ثوابا فهو منجزه له ومن أوعده على عمله عقابا فهو بالخيار والتحقيق انه لا ضرورة الى تفريع ما نحن فيه على الاصل المذكور لانه اخبار منه تعالى بان جزاءه ذلك لا بانه يجزيه بذلك كيف لا وقد قال الله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ولو كان هذا اخبارا بانه تعالى يجزي كل سيئة بمثلها لعارضه قوله تعالى ويعفو عن كثير انتهى كلام أبي السعود ملخصا (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) هذا متصل بذكر الجهاد والقتال والضرب السير في الارض تقول العرب ضربت في الارض اذا سرت لتجارة أو غزو أو غيرهما وتقول ضربت الارض بدون في اذا قصدت قضاء حاجة الانسان ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم لا يخرج الرجلان يضربان الغائط والتبين هو التأمل وهي قراءة الجماعة الا حمزة فانه قرأ فتثبتوا من التثبت واختار القراءة الاولى أبو عبيدة وأبو حاتم قالا لان من أمر بالتبين فقد أمر بالتثبت وانما خص

لكم قال أبو سفيان يوم بيوم بدر والحرب سجال وستجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني تفرد به البخاري من هذا الوجه ثم رواه عن عمرو بن خالد عن زهير بن معاوية عن ابي اسحق عن البراء بنحوه وسيأتي بأبسط من هذا وقال البخاري ايضا حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا ابو اسامة عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة رضي الله عنها قالت لما كان يوم احد هزم المشركون فصرخ ابليس اى عباد الله أخراكم فرجعت أولاهم فاجتلدت هي واخراهم فبصر حذيفة فاذا هو بابيه اليمان فقال اى عباد الله أبي أبي قال قالت فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه فقال حذيفة يغفر الله لكم قال عروة فوالله مازالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عز وجل وقال محمد بن اسحق حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن جده ان الزبير بن العوام قال والله لقد رأيتني انظر الى خدم هند وصواحباتها مشمرات هوارب مادون (٢٩٦) اخذهن كثير ولا قليل ومالت الرماة الى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب وخلوا ظهورنا للخيل فأتينا من أدبارنا وصرخ صارخ ألا ان محمدا قد قتل فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد ان اصبنا اصحاب اللواء حتى مايدنو منه احد من القوم قال محمد بن اسحق فلم يزل لواء المشركين صريعا حتى اخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا بها وقال السدى عن عبد خير عن علي بن عبد الله بن مسعود قال ما كنت ارى ان احدا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة وقد روى من غير وجه عن ابن مسعود وكذا روى عن عبد الرحمن ابن عوف وابي طلحة رواه ابن مردويه في تفسيره وقوله تعالى ثم صرفكم عنهم ليبتليكم قال ابن اسحق حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أحد بني عدي بن النجار قال انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك الى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والانصار عرضا قد ألقوا بايديهم فقال مايجلسكم فقالوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه وقال البخاري حدثنا حسان بن حسان حدثنا محمد بن طلحة حدثنا حميد عن أنس بن مالك ان عمه انس بن النضر غاب عن بدر فقال غبت عن اول قتال النبي صلى الله عليه وسلم لئن اشهدني الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما اجد فلقي يوم احد فهزم الناس فقال اللهم اني اعتذر اليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين وابرأ اليك مما جاء به المشركون فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال أين ياسعد اني اجد ريح الجنة دون احد فمضى فقتل فما عرف حتى عرفته اخته بشامة أو ببنانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم هذا لفظ البخاري واخرجه

السفر بالامر بالتبين مع ان التبين والتثبت في أمر القتل واجبان حضرا وسفرا بلا خلاف لان الحادثة التي هي سبب نزول الآية كانت في السفر (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام) وقرئ السلم ومعناهما واحد واختار أبو عبيد السلام وخالفه أهل النظر فقالوا السلم هنا أشبه لانه بمعنى الانقياد والتسليم والمراد هنا لا تقولوا لمن ألقى بيده اليكم واستسلم (لست مؤمنا) فالسلم والسلام كلاهما بمعنى الاستسلام وقيل هما بمعنى الاسلام أي لا تقولوا لمن ألقى اليكم الاسلام أي كلمته وهي الشهادة لست مؤمنا وقيل هما بمعنى التسليم وهو تحية أهل الاسلام أي لا تقولوا لمن ألقى اليكم التسليم فقال السلام عليكم لست مؤمنا وانما قالت هذا تقية لنفسك ومالك والمراد نهي المسلمين عن ان يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على اسلامه ويقولوا انه انما جاء بذلك تعوذا وتقية ومؤمنا من أمنته اذا أجرته فهو مؤمن وقيل المعنى لست من أهل الايمان وقد استدل بهذه الآية على ان من قتل كافرا بعد ان قال لا اله الا الله قتل به لانه قد عصم بهذه الكلمة دمه وماله وأهله وانما أسقط القتل عمن وقع منه ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لانهم تأولوا فظنوا أن من قالها خوفا من السلاح لا يكون مسلما ولا يصير بها دمه معصوما وانه لابد ان يقول هذه الكلمة وهو مطمئن غير خائف وفي حكم التكلم بكلمة الاسلام اظهار الانقياد بان يقول أنا مسلم أو أنا على دينكم لما عرفت من أن معنى الآية الاستسلام والانقياد وهو يحصل بكل ما يشعر بالاسلام من قول أو عمل ومن جملة ذلك كلمة الشهادة وكلمة التسليم فالقولان الآخران في معنى الآية داخلان تحت القول الاول وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال لحق ناس من المسلمين رجلا معه غنيمة له فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت هذه الآية وفي سبب النزول روايات كثيرة وهذا الذي ذكرناه أحسنها (تبتغون عرض الحياة الدنيا) أي لا تقولوا تلك المقالة طالبين الغنيمة على ان يكون النهي راجعا الى القيد والمقيد لا الى القيد فقط وسمي متاع الدنيا

مسلم من حديث ثابت بن انس بنحوه وقال البخاري ايضا حدثنا عبدان حدثنا ابو حمزة عن عثمان بن موهب قال جاء رجل حج البيت فرأى قوما جلوسا فقال من هؤلاء القعود قالوا هؤلاء قريش قال من الشيخ قالوا ابن عمر فاتاه فقال انى سائلك عن شئ فحدثنى قال سل قال أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم ان عثمان بن عفان فر يوم احد قال نعم قال فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها قال نعم قال فتعلم انه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها قال نعم فكبر فقال ابن عمر تعال لأخبرك ولابين لك عما سألتنى عنه اما فراره يوم احد فاشهد ان الله عفا عنه واما تغيبه عن بدر فانه كان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لك اجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه واما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان احد اعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث عثمان فكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان الى مكة فقال النبى صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه ليد عثمان اذهب بها الآن معك ثم رواه البخارى من وجه آخر عن ابى عوانة عن عثمان بن عبد الله بن موهب وقوله تعالى اذ تصعدون ولا تلوون على أحد أى صرفكم عنهم اذ تصعدون أى فى الجبل هاربين من أعدائكم وقرأ الحسن وقتادة اذ تصعدون أى فى الجبل ولا تلوون على أحد أى وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب والرسول يدعوكم فى اخراكم أى وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم الى ترك الفرار من الاعداء والى الرجعة والعودة والكرة قال السدى لما اشتد المشركون على المسلمين باحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم الى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى عباد الله الى عباد الله فذكر الله صعودهم الى الجبل ثم ذكر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم اياهم فقال اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى اخراكم وكذا قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد وقال عبد الله بن الزبعرى يذكر هزيمة المسلمين يوم أحد فى قصيدته وهو مشرك بعد لم يسلم التى يقول فى أولها

يا غراب البين أسمعت فقل * انما تنطق شيأ قد فعل

ان للخير وللشر مدى * وكلا ذلك وجه وقبل

الى أن قال

ليت اشياخى ببدر شهدوا * جزع الخزرج من وقع الاسل

حين حلت بفناء بركها * واستحر القتل فى عبد الاشل

ثم خفوا عند ذاكم رقصا * رقص الحفان يعلو فى الجبل

فقتلنا الضعف من أشرافهم * وعدلنا ميل بدر فاعتدل

الحفان صغار النعم وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أفرد فى اثنى عشر رجلا من أصحابه كما قال الامام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا زهير حدثنا أبو اسحق عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة يوم أحد وكانوا خمسين رجلا عبد الله بن جبير قال ووضعهم موضعا وقال ان رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم قال فهزموهم

عرضا لانه عارض زائل غير ثابت قال أبو عبيدة يقال جميع متاع الدنيا عرض بفتح الراء وأما العرض بسكون الراء فهو ما سوى الدنانير والدراهم فكل عرض بالسكون عرض بالفتح وليس كل عرض بالفتح عرضا بالسكون وفى كتاب العين العرض ما نيل من الدنيا ومنه قوله تعالى تريدون عرض الدنيا وجمعه عروض وفى المجمل لابن فارس والعرض ما يعترض للانسان من مرض ونحوه وعرض الدنيا ما كان فيها من مال قل أو كثر والعرض من الاثاث ما كان غير نقد (فعند الله) هو تعليل للنهى أى عند الله مما هو حلال لكم من دون ارتكاب محظور (مغانم كثيرة) تغنمونها وتستغنون بها عن قتل من قد استسلم وانقاد واغنام ماله وقيل فعنده ثواب كثير لمن اتقى قتل المؤمن والمغانم جمع مغنم وهو يصلح للمصدر والزمان والمكان ثم يطلق على ما يؤخذ من مال العدو اطلاقا للمصدر على اسم المفعول نحو ضرب الامير (كذلك كنتم من قبل) أى كنتم مثل الرجل المذكور فى مبادى الاسلام كنا راخفقت دماؤكم لما تكلمتم بكلمة الشهادة أو كذلك كنتم من قبل تخفون ايمانكم عن قومكم خوفا على أنفسكم حتى من الله عليكم باعزاز دينه فأظهرتم الايمان وأعلنتم به (فمن الله عليكم) يعنى بالاسلام والهداية فلا تقتلوا من قال لا اله الا الله أو من عليكم باعلان الاسلام بعد الاختفاء وقيل بالتوبة (فتبينوا) ولا تعجلوا بقتل مؤمن وكرر الامر بالتبين للتأكيد عليهم لكونه واجبا لا فسحة فيه ولا رخصة (ان الله كان بما تعملون خبيرا) فلا تتهافتوا فى القتل وكونوا محترزين محتاطين فى ذلك (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر ودرجات من جاهد فى سبيل الله بماله ونفسه وان كان معلوما لكن أراد سبحانه بهذا الاخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا وتبكيت القاعدين ليأنفوا ونحوه قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فهو تحريك لطالب العلم وتوبيخ على الرضا بالجهل

قال فلقد والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله الغنيمة
أي قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنظرون قال عبد الله بن جبير أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا والله لنأتين
الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم فلم يبق مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم الا اثنا عشر رجلا فأصابوا منا سبعين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم
بدر مائة وأربعين سبعين أسيرا وسبعين قتيلا قال أبو سفيان أفي القوم محمد أفي القوم محمد أفي القوم محمد ثلاثا قال فنهاهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان يجيبوه ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة أفي القوم ابن أبي قحافة أفي القوم ابن الخطاب أفي القوم ابن الخطاب
ثم أقبل على أصحابه فقال أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم فما ملك عمر نفسه أن قال كذبت والله يا عدو الله ان الذين
عددت لأحياء كلهم وقد أبقى الله لك ما يسوءك فقال يوم بيوم بدر والحرب سجال انكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني ثم
أخذ يرتجز يقول أعل هبل أعل هبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تجيبوه قالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل
قال لنا العزى ولا عزى لكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تجيبوه قالوا يا رسول الله وما نقول قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم
وقد رواه البخاري من حديث زهير بن معاوية مختصرا ورواه من حديث اسرائيل عن أبي اسحق بأبسط من هذا كما تقدم والله أعلم
وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال انهزم الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم
أحد وبقي معه احد عشر رجلا من الانصار وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد في الجبل فلحقهم المشركون فقال ألا أحد لهؤلاء فقال طلحة أنا يا رسول الله فقال كما أنت يا طلحة فقال رجل من الانصار فأنا يا رسول الله التفاضل
فقاتل عنه وصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بقي معه ثم قتل الانصاري فلحقوه فقال ألا رجل لهؤلاء فقال طلحة مثل قوله
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قوله فقال رجل من الانصار فأنا يا رسول الله فقاتل عنه وأصحابه يصعدون ثم قتل فلحقوه فلم
يزل يقول مثل قوله الاول فيقول طلحة فأنا يا رسول الله فيحبسه فيستأذنه رجل من الانصار للقتال فيأذن له فيقاتل مثل من كان قبله
حتى لم يبق معه الا طلحة فغشوهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لهؤلاء فقال طلحة أنا فقاتل مثل قتال جميع من قبله
وأصيبت أنامله فقال حس فقال رسول الله لو قلت بسم الله أو ذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون اليك حتى تلج بك
في جو السماء ثم صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أصحابه وهم مجتمعون وقد روى البخاري عن أبي بكر بن أبي شيبة عن

وغير أولى الضرر بالرفع على انه صفة للقاعدين كما قال الاخفش لانهم لا يقصدهم قوم باعيانهم فصاروا كالنكرة فجاز وصفهم بغير وبكسر الراء على انه وصف للمؤمنين وبفتحها على الاستثناء من القاعدين أو من المؤمنين أي الا أولى الضرر فانهم يستوون مع المجاهدين ويجوز أن يكون منتصبا على الحال من القاعدين أي لا يستوي القاعدون الاصحاء في حال صحتهم وجازت الحال منهم لان لفظهم لفظ المعرفة قال العلماء أهل الضرر هم أهل الاعذار من مرض أو عاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها لانها أضرت بهم حتى منعتهم عن الجهاد وظاهر النظم القرآني ان صاحب العذر يعطى مثل أجر المجاهد وقيل يعطى أجره من غير تضعيف فيفضله المجاهد بالتضعيف لاجل المباشرة قال القرطبي والاول أصح ان شاء الله للحديث الصحيح في ذلك ان بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سرتم مسيرا الا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر قال وفي هذا المعنى ما ورد في الخبر اذا مرض العبد قال الله تعالى اكتبوا لعبدي ما كان يعمله في الصحة الى أن يبرأ أو أقبضه الى وقد أخرج البخاري وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن زيد ابن ثابت ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أملى عليه لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها علي فقال يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فانزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وفخذه على فخذي غير أولى الضرر وأخرجه أيضا سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه من حديث خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه وعن ابن عباس قال غير أولى الضرر المتخلفون عن بدر والخارجون الى بدر وعنه قال نزلت في قوم كانت تشغلهم أمراض وأوجاع فأنزل الله عذرهم من السماء وعن أنس بن مالك قال نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم ولقد رأيته في بعض مشاهد المسلمين معه اللواء (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) هذا بيان لما بين الفريقين من

وكيع عن اسمعيل عن قيس بن أبي حازم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يعني يوم أحد وفي الصحيحين من حديث معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان النهدي قال لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض تلك الايام التي قاتل فيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا طلحة بن عبيد الله وسعد عن حديثهما وقال الحسن بن عرفة حدثنا مروان بن معاوية عن هشام بن هشام الزهري قال سمعت سعيد بن المسيب يقول سمعت سعد بن أبي وقاص يقول نثل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته يوم أحد وقال ارم فداك أبي وأمي وأخرجه البخاري عن عبد الله بن محمد عن مروان بن معاوية وقال محمد بن اسحق حدثني صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد بن ابي وقاص انه رمى يوم احد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سعد فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يناولني النبل ويقول ارم فداك أبي وأمي حتى انه ليناولني السهم ليس له نصل فارمي به وثبت في الصحيحين من حديث ابراهيم بن سعد بن ابي وقاص عن ابيه قال رايت يوم أحد عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه اشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد وثابت عن انس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد في سبعة من الانصار ورجلين من قريش فلما ارهقوه قال من يردهم عنا وله الجنة أو وهو رفيقي في الجنة فتقدم رجل من الانصار فقاتل حتى قتل فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبيه ما انصفنا اصحابنا رواه مسلم عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة به نحوه وقال أبو الاسود عن عروة بن الزبير قال كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفته قال بل أنا أقتله ان شاء الله فلما كان يوم أحد أقبل أبي في الحديد مقنعا وهو يقول لا نجوت ان نجا محمد فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الداريق رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فقتل مصعب بن عمير وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة وطعنه فيها بحربته فوقع الى الارض عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور فقالوا له ما أجزعك انما هو خدش فذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنا أقتله أبيا ثم قال والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي باهل ذي المجاز لماتوا أجمعون فمات الى النار فسحقا لاصحاب السعير وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري عن سعيد بن المسيب بنحوه وذكر محمد بن اسحق قال لما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول لا نجوت ان نجوت فقال القوم يا رسول الله يعطف عليه

التفاضل المفهوم من ذكر عدم الاستواء اجمالا والمراد هنا غير أولى الضرر حملا للمطلق على المقيد وقال هنا درجة وقال فيما بعد درجات فقال قوم التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات انما هو مبالغة وبيان وتأكيد وقال آخرون فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واحدة وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير أولى الضرر بدرجات قاله ابن جريج والسدي وغيرهما وقيل ان معنى درجة علوا أي أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح (وكلا) مفعول أول لقوله (وعد الله) قدم عليه لافادة القصر أي كل واحد من المجاهدين والقاعدين وعده الله (الحسنى) أي المثوبة وهي الجنة قاله قتادة (وفضل الله المجاهدين على القاعدين) الذين لا عذر لهم ولا ضرر (أجرا عظيما) أي ثوابا جزيلا ثم فسر ذلك بقوله (درجات منه) أي من الاجر أو من الله يعني منازل بعضها فوق بعض من الكرامة قال ابن زيد الدرجات هن سبع ذكرها الله في سورة براءة يعني قوله ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة الى قوله الا كتب لهم وعن ابن جريج قال كان يقال الاسلام درجة والهجرة في الاسلام درجة والجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة وعن ابن محيريز قال الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين سنة وأخرج البخاري والبيهقي في الاسماء والصفات عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة (ومغفرة) لذنوبهم يسترها ويصفح عنها (ورحمة) رأفة بهم والمعنى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة (وكان الله غفورا) لذنوبهم بتكفير العذر (رحيما) بهم بتوفير الاجر وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال أيما عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنت له ان أرجعته أرجعته بما أصاب من

رجل منافقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوه فلما دنا تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحرث بن الصمة فقال بعض القوم كاذ كرلى فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير اذا انتفض ثم استقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا وذكر الواقدى عن يونس بن بكير عن محمد بن اسحق عن عاصم بن عمر وبن قتادة عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه نحو ذلك وقال الواقدى وكان ابن عمر يقول مات أبى بن خلف ببطن رابغ فانى لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل فاذا أنا بنار تتأجج لى فهبتها واذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها يهيج به العطش واذا رجل يقول لاتسقه فان هذا قتيل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أبى بن خلف وثبت فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق عن

معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حينئذ يشير الى رباعيته واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله وأخرجه البخارى أيضا من حديث ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال اشتد غضب الله على من قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى سبيل الله واشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن اسحق أصيبت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم وشج فى وجنته وكلمت شفته وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص فحدثنى صالح بن كيسان عن من حدثه عن سعد بن أبى وقاص قال ماحرصت على قتل أحد قط ماحرصت على قتل عتبة بن أبى وقاص وان كان ماعلمته لسيئ الخلق مبغضا فى قومه ولقد كفانى فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتد غضب الله على من دمى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن عثمان الحريرى عن مقسم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبى وقاص يوم أحد حين كسر رباعيته ودمى وجهه فقال اللهم لاتحل عليه الحول حتى يموت كافرا فما حال عليه الحول حتى مات كافرا الى النار وذكر الواقدى عن ابن أبى سبرة عن اسحق بن عبد الله بن أبى فروة عن أبى الحويرث عن نافع بن جبير قال سمعت رجلا من المهاجرين يقول شهدت أحدا فنظرت الى النبل يأتى من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى وسطها كل ذلك يصرف عنه ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يومئذ يقول دلونى على محمد لانجوت ان نجا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه ليس معه أحد ثم جاوزه فعاتبه فى ذلك صفوان فقال والله مارأيته أحلف بالله انه منا ممنوع خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص الى ذلك قال الواقدى

أجر أو غنيمة وان قبضته غفرت له ورحمته أخرجه النسائى (ان الذين توفاهم الملائكة) يحتمل أن يكون ماضيا وحذفت منه علامة التأنيث لان تأنيث الملائكة غير حقيقى ويحتمل أن يكون مستقبلا والاصل تتوفاهم وعن الحسن ان المعنى تحشرهم الى النار وقيل تقبض أرواحهم وهو الاظهر والمراد بالملائكة ملك الموت وحده وانما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم لقوله تعالى قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم وقيل ملك الموت وأعوانه وعلى الاول يكون المراد بالملائكة الزبانية الذين يلون تعذيب الكفار (ظالمى أنفسهم) بالمقام مع الكفار وترك الهجرة نزل فيمن أسلم ولم يهاجر حين كانت الهجرة فريضة وخرج مع المشركين الى بدر مرتدا فقتل كافرا (قالوا فيم كنتم) سؤال توبيخ أى فى أى شئ كنتم من أمر دينكم وقيل المعنى أكنتم فى أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ام كنتم مشركين قاله القرطبى وقيل ان معنى السؤال التقريع لهم بانهم لم يكونوا فى شئ من الدين قال أبو حيان أى فى أى حالة كنتم بدليل الجواب أى فى حالة قوة أو ضعف (قالوا) على وجه الكذب معتذرين (كنا مستضعفين) عاجزين عن الهجرة (فى الارض) مكة لان سبب النزول من أسلم بها ولم يهاجر وهذا اعتذار غير صحيح اذ كانوا يستطيعون الحيلة ويهتدون السبيل ثم أوقفتهم الملائكة على ذنبهم وألزمتهم الحجة وقطعت معذرتهم حيث (قالوا ألم تكن أرض الله واسعة) قيل المراد بهذه الارض المدينة والاولى العموم اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق فيراد بالارض كل بقعة من بقاع الارض تصلح للهجرة اليها ويراد بالارض الاولى كل أرض ينبغى الهجرة منها (فتهاجروا فيها) وتخرجوا من بين أظهر المشركين قال الواحدى وفيه ان الله لم يرض باسلام أهل مكة حتى يهاجروا (فأولئك مأواهم) أى منزلهم (جهنم وساءت) أى جهنم (مصيرا) أى مكانا يصيرون اليه والآية تدل على ان من لم يتمكن من اقامة دينه فى بلد كما يجب بأى سبب كان وعلم انه يتمكن من اقامته فى غيره حقت عليه المهاجرة

والثبت عندنا ان الذى رمى وجنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن قميئة والذى رمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبى وقاص وقال أبو داود الطيالسى حدثنا ابن المبارك عن اسحق بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله أخبرنى عيسى بن طلحة عن أم المؤمنين رضى الله عنها قالت كان أبو بكر اذا ذكر يوم أحد قال ذلك يوم كله لطلحة ثم أنشأ يحدث قال كنت أول من فاء يوم أحد فرأيت رجلا يقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم دونه وأراه قال حمية فقلت كن طلحة حيث فاتنى ما فاتنى فقلت يكون رجلا من قومى أحب الى وبينى وبين المشركين رجل لا أعرفه وأنا أقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه وهو يخطف خطفا لا أعرفه فاذا هو أبو عبيدة بن الجراح فانتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كسرت رباعيته وشج فى وجهه وقد دخل فى وجنته حلقتان من حلق المغفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم صاحبكم يريد طلحة وقد نزف فلم

المهاجرة وفى الباب أحاديث ذكرناها فى جواب سؤال عن الهجرة من أرض الهند اليوم بالفارسية فليرجع اليه (الا المستضعفين) الذين صدقوا فى استضعافهم (من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) استثناء من الضمير فى مأواهم وقيل هو استثناء منقطع لعدم دخول المستضعفين فى الموصول وضميره والمراد بهم من الرجال الزمناء ونحوهم والولدان كعياش بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام وانما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة فى أمر الهجرة وابهام انها تجب لو استطاعها غير المكلف فكيف من كان مكلفا وقيل أراد بالولدان المراهقين والمماليك والحيلة لفظ عام لانواع أسباب التخلص أى لا يجدون حيلة فى الخروج منها الفقر هم وعجزهم ونظر يقا الى ذلك وقيل السبيل سبيل المدينة عن ابن جريج فى قوله حيلة قال قوة وعن عكرمة قال نهوضا الى المدينة وسبيلا أى طريقا اليها (فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم) اشارة الى المستضعفين الموصوفين بما ذكر وجىء بكلمة الاطماع لتأكيد أمر الهجرة حتى يظن ان تركها ممن لا تجب عليه يكون ذنبا يجب طلب العفو عنه وقال الكرخى يعفو عن خطر الهجرة بحيث يحتاج المعذور الى العفو قال ابن عباس كنت أنا وأمى من المستضعفين أنا من الولدان وأمى من النساء (وكان الله عفوا غفورا) مبالغا فى المغفرة فيغفر لهم ما فرط منهم من الذنوب التى من جملتها القعود عن الهجرة الى وقت الخروج (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا) هذه الجملة متضمنة للترغيب فى الهجرة والتنشيط اليها وفيه دليل على أن الهجرة لابد أن تكون بقصد صحيح ونية خالصة غير مشوبة بشىء من أمور الدنيا ومنه الحديث الصحيح فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه وقد اختلف فى معنى الآية فقال ابن عباس وجماعة من التابعين ومن بعدهم المراغم المتحول والمذهب من أرض الى أرض وقال مجاهد المراغم

(٣٠١)

التفت الى قوله قال وذهبت لانزع ذلك من وجهه فقال أبو عبيدة أقسمت عليك بحقى لما تركتنى فتركته فكره أن يتناولها بيده فيؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزم عليها بفيه فاستخرج احدى الحلقتين ووقعت ثنيته مع الحلقة وذهبت لاصنع ما صنع فقال أقسمت عليك بحقى لما تركتنى قال ففعل مثل ما فعل فى المرة الاولى ووقعت ثنيته الاخرى مع الحلقة فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتما فأصلحنا من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتينا طلحة فى بعض تلك الحفار فاذا به بضع وسبعون او أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة واذا قد قطعت أصبعه فأصلحنا من شأنه ورواه الهيثم بن كليب والطبرانى من حديث اسحق بن يحيى به وعند الهيثم قال أبو عبيدة أنشدك الله يا أبا بكر الا تركتنى فأخذ أبو عبيدة السهم بفيه فجعل ينضنضه كراهية أن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استل السهم بفيه فبدرت ثنية أبى عبيدة وذكر تمامه واختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه وقد ضعف على بن المدينى هذا الحديث من جهة اسحق بن يحيى هذا فانه تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان وأحمد ويحيى بن معين والبخارى وأبو زرعة وأبو حاتم ومحمد بن سعد والنسائى وغيرهم وقال ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحرث ان عمر بن السائب حدثه انه بلغه ان مالكا أبا أبى سعيد الخدرى لما جرح النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد مص الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض فقيل له مجه فقال لا والله لا أمجه أبدا ثم أدبر يقاتل فقال النبى صلى الله عليه وسلم من أراد أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا فاستشهد وقد ثبت فى الصحيحين من طريق عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن سهل بن سعد انه سئل عن جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جرح وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه صلى الله عليه وسلم فكانت فاطمة تغسل الدم وكان على يسكب عليه الماء بالمجن فلما رأت فاطمة ان الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها حتى اذا صارت رمادا ألصقتها بالجرح

فاستمسك الدم وقوله تعالى فأثابكم غما بغم أى جازاكم غما على غم كما تقول العرب نزلت ببنى فلان ونزلت على بنى فلان وقال ابن جرير وكذا قوله ولاصلبنكم فى جذوع النخل أى على جذوع النخل قال ابن عباس الغم الاول بسبب الهزيمة وحين قيل قتل محمد صلى الله عليه وسلم والثانى حين علاهم المشركون فوق الجبل وقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم ليس لهم ان يعلونا وعن عبد الرحمن بن عوف الغم الاول بسبب الهزيمة والثانى حين قيل قتل محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك عندهم أشد وأعظم من القتل من اخوانكم وعلو عدوكم عليكم وما وقع فى أنفسكم من قول قتل نبيكم فكان ذلك متتابعا عليكم غما بغم وقال مجاهد وقتادة الغم الاول سماعهم قتل محمد والثانى ما أصابهم من القتل والجراح وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه وعن السدى الاول ما فاتهم من الظفر والغنيمة والثانى اشراف العدو عليهم وقد تقدم هذا القول عن السدى قال ابن جرير وأولى هذه الاقوال بالصواب قول من قال فأثابكم غما بغم فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان الله اياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ بعد الذى كان قد أراكم فى كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر ربكم وخلافكم أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم غم ظنكم أن نبيكم قد قتل وميل العدو عليكم ونبوكم منهم وقوله تعالى لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم أى على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ولا ما أصابكم من الجراح والقتل قاله ابن عباس وعبد الرحمن ابن عوف والحسن وقتادة والسدى والله خبير بما تعملون سبحانه وبحمده لا اله الا هو جل وعلا (ثم أنزل وظاهرها عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من شئ قل ان الامر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا ههنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفى الله عنهم ان الله غفور حليم) يقول تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والامنة وهو النعاس الذى غشيهم وهم مشتملون السلاح فى حال همهم وغمهم والنعاس فى مثل تلك الحال دليل على الامان كما قال فى سورة الانفال فى قصة بدر اذ يغشيكم النعاس أمنة منه الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا

المتزحزح عما يكره وقال ابن زيد المراغم المهاجر وبه قال أبو عبيدة قال النحاس هذه الاقوال متفقة المعانى فالمراغم المذهب والمتحول وهو الموضع الذى يراغم فيه وهو مشتق من الرغام وهو التراب ورغم أنف فلان أى لصق بالتراب وراغمت فلانا أى هجرته وعاديته ولم أبال ان رغم أنفه وهذا من الامثال التى جرت فى كلامهم بأسماء الاعضاء ولا يراد أعيانها بل وضعوها لمعان غير معانى الاسماء الظاهرة ولاحظ لظاهر الاسماء من طريق الحقيقة ومنه قولهم كلامه تحت قدمى وحاجته خلف ظهرى يريدون الاهمال وعدم الاحتفال وقيل انما سمى المهاجر مراغما لان الرجل كان اذا أسلم عادى قومه وهجرهم فسمى خروجه مراغما وسمى مسيره الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم هجرة والحاصل فى معنى الآية أن المهاجر يجد فى الارض مكانا يسكن فيه على رغم أنف قومه الذين هاجرهم أى على ذلهم وهوانهم (وسعة) أى فى البلاد وقيل بالرزق وقال عطاء سعة أى رخاء وقيل فى اظهار الدين أو فى تبدل الخوف بالامن أو من الضلال الى الهدى ولا مانع من حمل السعة على ما هو أعم من ذلك (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله) أى الى حيث أمر الله ورسوله قالوا كل هجرة فى غرض دينى من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهى هجرة الى الله ورسوله (ثم يدركه الموت) قبل أن يصل الى مطلوبه وهو المكان الذى قصد الهجرة اليه أو الامر الذى قصد الهجرة له (فقد وقع أجره على الله) أى ثبت ذلك عنده ثبوتا لا يتخلف يعنى وجب أجر هجرته عليه بايجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم لا وجوب استحقاق قيل ويدخل فيه من قصد فعل طاعة ثم عجز عن اتمامها كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملا (وكان الله غفورا رحيما) أى كثير المغفرة كثير الرحمة وقد استدل بهذه الآية على ان الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك أو بدار يعمل فيها بمعاصى الله جهارا اذا كان قادرا على الهجرة ولم يكن من المستضعفين لما فى هذه الآية الكريمة من العموم وان كان السبب خاصا كما تقدم

أبو سعيد الاشج حدثنا أبو نعيم ووكيع عن سفيان عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله بن مسعود قال النعاس في القتال من الله وفي الصلاة من الشيطان وقال البخاري وقال لي خليفة حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا يسقط وآخذه ويسقط وآخذه هكذا رواه في المغازي معلقا ورواه في كتاب التفسير مسندا عن شيبان عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال رفعت رأسي يوم أحد وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد الا يميل تحت جحفته من النعاس لفظ الترمذي وقال حسن صحيح ورواه النسائي أيضا عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحرث عن قتيبة (٣٠٣) عن ابن أبي عدي كلاهما عن حميد عن أنس قال قال أبو طلحة كنت فيمن ألقى عليه النعاس الحديث وهكذا رواه عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف وقال البيهقي حدثنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الحسين محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن اسحق الثقفي حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومي حدثنا يونس بن محمد حدثنا شيبان عن قتادة حدثنا أنس بن مالك ان أبا طلحة قال غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه قال والطائفة الاخرى المنافقون ليس لهم هم الا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية اى انما هم أهل شك وريب في الله عز وجل هكذا رواه بهذه الزيادة وكانها من كلام قتادة رحمه الله وهو كما قال فان الله عز وجل يقول ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم يعني أهل الايمان واليقين والثبات والتوكل الصادق وهم الجازمون بان الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له ما وعده ولهذا قال وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية كما قال في الآية الاخرى بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا الى آخر الآية وهكذا هؤلاء اعتقدوا ان المشركين لما ظهروا تلك الساعة انها الفيصلة وان الاسلام قد باد وأهله وهذا شأن أهل الريب والشك اذا حصل أمر من الامور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة ثم أخبر تعالى عنهم انهم يقولون في تلك الحال هل لنا من الامر من شئ فقال تعالى قل ان الامر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله يقولون لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا ههنا أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن اسحق فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال قال الزبير

وظاهرها عدم الفرق بين مكان ومكان وزمان وزمان وقد ورد في الهجرة أحاديث وورد ما يدل على ان لا هجرة بعد الفتح وقد أوضح الشوكاني ما هو الحق في شرحه على المنتقى عن ابن عباس بسند رجاله ثقات قال خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجرا فقال لقومه احملوني فاخرجوني من أرض الشرك الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمات في الطريق قبل أن يصل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزل الوحي أي هذه الآية وأخرج ابن سعد وأحمد والحاكم وصححه عن عبد الله بن عتيك قال سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول من خرج من بيته مجاهدا في سبيل الله وأبين المجاهدون في سبيل الله فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله يعني بحتف أنفه على فراشه والله انها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن قتل قعصا فقد استوجب الجنة وأخرج أبو يعلى والبيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خرج حاجا فمات كتب له أجر الحاج الى يوم القيامة ومن خرج معتمرا فمات كتب له أجر المعتمر الى يوم القيامة ومن خرج غازيا في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي الى يوم القيامة قال ابن كثير وهذا حديث غريب من هذا الوجه (واذا ضربتم في الارض) هذا شروع في بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ولقاء العدو والمرض والمطر وفيه تأكيد لعزيمة المهاجر على الهجرة وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤنة أي اذا سافرتم أي مسافرة كانت ولذلك لم تقيد بما قيد به المهاجرة وقد تقدم تفسير الضرب في الارض قريبا (فليس عليكم جناح) أي وزر وحرج في (أن تقصروا من الصلاة) يعني من أربع ركعات الى ركعتين وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء وأصل القصر في اللغة التضييق وقيل هو ضم الشئ الى أصله وفسر ابن الجوزي القصر بالنقص ولم أره لاحد من أهل التفسير واللغة ومن للتبعيض وفي الآية دليل على

لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فامنا من رجل الا ذقنه في صدره قال فوالله اني لاسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه الا كالحلم يقول لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا ههنا فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله يقولون لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا ههنا القول معتب رواه ابن ابي حاتم قال الله تعالى قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم اى هذا قدر قدره الله عز وجل وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه وقوله تعالى وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الاقوال والافعال والله عليم بذات الصدور أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر ثم قال تعالى ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا (٣٠٤) أي ببعض ذنوبهم السالفة كما قال بعض السلف ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وان من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال تعالى ولقد عفى الله عنهم أي عما كان منهم من الفرار ان الله غفور حليم أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم وقد تقدم حديث ابن عمر في شأن عثمان وتوليه يوم أحد وان الله قد عفا عنه مع من عفا عنهم عند قوله ولقد عفى عنكم ومناسب ذكره ههنا قال الامام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن عاصم عن شقيق قال لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد ابن عقبة فقال له الوليد مالي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان فقال له عبد الرحمن أبلغه اني لم أفر يوم حنين قال عاصم يقول يوم أحد ولم أتخلف عن بدر ولم أترك سنة عمر قال فانطلق فأخبر بذلك عثمان قال فقال عثمان أما قوله اني لم أفر يوم حنين فكيف يعيرني بذلك ولقد عفا الله عنه فقال تعالى ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفى الله عنهم وأما قوله اني تخلفت يوم بدر فاني كنت أمرض رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ماتت أنه وقد ضرب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم ومن ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم فقد شهد وأما قوله اني تركت سنة عمر فاني لا أطيقها ولا هو فأنه خفف بذلك (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون) ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن اخوانهم الذين ماتوا في الاسفار والحروب لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم أي عن اخوانهم اذا ضربوا في الارض أي سافروا

أن القصر ليس بواجب واليه ذهب الجمهور وذهب الاقلون الى أنه واجب ومنهم عمر بن عبد العزيز والكوفيون والقاضي اسمعيل وحماد بن أبي سليمان وهو مروي عن مالك واستدلوا بحديث عائشة الثابت في الصحيح فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيدت في الحضر وأقرت في السفر ولا يقدح في ذلك مخالفتها لما روت فالعمل على الرواية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومثله حديث يعلى بن أمية قال سألت عمر بن الخطاب قلت ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا وقد أمن الناس فقال لي عمر عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته أخرجه أحمد ومسلم وأهل السنن وظاهر قوله فاقبلوا صدقته ان القصر واجب وظاهر هذا الشرط أعني (ان خفتم أن يفتنكم) أي يغتالكم ويقتلكم في الصلاة (الذين كفروا) ان القصر لا يجوز في السفر الا مع خوف الفتنة من الكافرين لا مع الامن ولكنه قد تقرر بالسنة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قصر مع الامن كما عرفت فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب والقصر مع الامن ثابت بالسنة ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه صلى الله عليه وآله وسلم من القصر مع الامن وقد قيل ان الشرط خرج مخرج الغالب لان الغالب على المسلمين اذ ذاك القصر للخوف في الاسفار ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر كما تقدم وذهب جماعة من أهل العلم الى أن هذه الآية انما هي مبيحة للقصر في السفر للخائف من العدو فمن كان آمنا فلا قصر له واليه ذهب داود الظاهري وذهب آخرون الى أن قوله ان خفتم ليس متصلا بما قبله وان الكلام تم عند قوله من الصلاة ثم افتتح فقال ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فاقم لهم يا محمد صلاة الخوف قال الفراء أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل وربيعة وقيس وأسد وجميع أهل نجد يقولون أفتنت الرجل وفرق الخليل وسيبويه بينهما فقالا افتنته جعلت فيه فتنة مثل كحلته وافتنته جعلته مفتونا وزعم الاصمعي

للتجارة ونحوها أو كانوا غزى أى كانوا فى الغزو لو كانوا عندنا اى فى البلد ما ماتوا وما قتلوا اى ما ماتوا فى السفر وما قتلوا فى الغزو وقوله تعالى ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم اى خلق هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم ثم قال تعالى ردا عليهم والله يحيى ويميت أى بيده الخلق واليه يرجع الامر ولا يحيا احد ولا يموت احد الا بمشيئته وقدره ولا يزاد فى عمر أحد ولا ينقص منه شئ الا بقضائه وقدره والله بما تعملون بصير اى عليم وبصره نافذ فى جميع خلقه لا يخفى عليه من امورهم شئ وقوله تعالى ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون تضمن هذا أن القتل فى سبيل الله والموت أيضا وسيلة الى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه وذلك خير من البقاء فى الدنيا وجميع حطامها الفانى ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فصيره ومرجعه الى الله عز وجل فيجزيه بعمله ان خيرا فخير وان شرا (٣٠٥) فشر فقال تعالى ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) يقول تعالى مخاطبا رسوله ممتنا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لامره التاركين

انه لا يعرف افتتنه والمراد بالفتنة القتال والتعرض بما يكره (ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) معترض ذكر معنى هذا الجرجانى والمهدوى وغيرهما وارده القشيرى والقاضى أبو بكر بن العربى وقد حكى القرطبى عن ابن عباس معنى ما ذكره الجرجانى ومن معه ومما يرد هذا ويدفعه الواو فى قوله الآتى واذا كنت فيهم وقد تكلف بعض المفسرين فقال ان الواو زائدة وان الجواب للشرط المذكور أعنى قوله ان خفتم هو قوله فلتقم طائفة وذهب قوم الى أن ذكر الخوف منسوخ بالسنة وهى حديث عمر الذى قدمنا ذكره وما ورد فى معناه وعن أمية انه سأل ابن عمر رأيت قصر الصلاة فى السفر انا لا نجدها فى كتاب الله انما نجد ذكر صلاة الخوف فقال يا ابن أخى ان الله أرسل محمدا ولا نعلم شيأ فانما نفعل كما رأينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل وقصر الصلاة فى السفر سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخرجه النسائى وابن ماجه وابن حبان والبيهقى وعن حارثة بن وهب الخزاعى قال صليت مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس وآمنه ركعتين أخرجه الشيخان وغيرهما وعن ابن عباس قال صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف شيأ ركعتين أخرجه الترمذى وصححه والنسائى (واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة) هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ولمن بعده من أهل الامر حكمه كما هو معروف فى الاصول ومثله قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة ونحوه والى هذا ذهب جمهور العلماء وشذ أبو يوسف واسمعيل بن علية فقالا لا تصلى صلاة الخوف بعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم لان هذا الخطاب خاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالا ولا يلحق غيره به لما له صلى الله عليه وآله وسلم من المزية العظمى وهذا مدفوع فقد أمرنا الله باتباع رسوله والتأسى به وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم صلوا كما رأيتمونى أصلى والصحابة أعرف بمعانى القرآن وقد صلوها بعده موته فى غير مرة كذلك معروف والمعنى اذا كنت يا محمد

(٣٩ - فتح البيان نى) لزجره وأطاب لهم لفظه فبما رحمة من الله لنت لهم أى بأى شئ جعلك الله لهم لينا ولا رحمة الله بك وبهم وقال قتادة فبما رحمة من الله لنت لهم يقول فبرحمة من الله لنت لهم وما صلة والعرب تصلها بالمعرفة كقوله فبما نقضهم ميثاقهم وبالنكرة كقوله عما قليل وهكذا هنا قال فبما رحمة من الله لنت لهم أى برحمة من الله وقال الحسن البصرى هذا خلق محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله به وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم وقال الامام أحمد حدثنا حيوة حدثنا بقية حدثنا محمد بن زياد حدثنى أبو راشد الحرانى قال أخذ بيدى أبو امامة الباهلى وقال أخذ بيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا امامة ان من المؤمنين من يلين له قلبى تفرد به أحمد ثم قال تعالى ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك والفظ الغليظ المراد به ههنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك غليظ القلب

أى لو كنت سيئ الكلام قاسى القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك ولكن الله جمعهم عليك وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم كما قال عبد الله بن عمرو انى أرى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة انه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الاسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وقال أبو اسمعيل محمد بن اسمعيل الترمذى أنبأنا بشر بن عبيد حدثنا عمار بن عبد الرحمن عن المسعودى عن ابن أبى مليكة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله أمرنى بمدارات الناس كما أمرنى باقامة الفرائض حديث غريب ولهذا قال تعالى فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى الامر اذا حدث تطييبا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه كما شاورهم يوم بدر فى الذهاب الى العير فقالوا يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض (٣٠٦) البحر لقطعناه معك ولو سرت بنا الى برك الغماد لسرنا معك ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا ان ههنا قاعدون ولكن نقول اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك نقاتلون وشاورهم أيضا أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم امام القوم وشاورهم فى أحد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج الى العدو فأشار جمهورهم بالخروج اليهم فخرج اليهم وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الاحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة فترك ذلك وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على ذرارى المشركين فقال له الصديق انا لم نجئ لقتال أحد وانما جئنا معتمرين فأجابه الى ما قال وقال صلى الله عليه وسلم فى قصة الافك أشيروا على معشر المسلمين فى قوم أبنوا أهلى ورموهم وايم الله ما علمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه الا خيرا واستشار عليا واسامة فى فراق عائشة رضى الله عنها فكان صلى الله عليه وسلم يشاورهم (وليأخذوا

فى أصحابك وشهدت معهم القتال وأردت اقامة الصلاة بهم كقوله واذا قمت الى الصلاة وقوله اذا قرأت القرآن وقال السمين الضمير المجرور يعود على الضاربين فى الارض وقيل على الطائفين وهما محتملان (فلتقم طائفة منهم معك) يعنى بعد ان تجعلهم طائفتين طائفة تقف بازاء العدو وطائفة تقوم منهم معك فى الصلاة وانما لم يصرح به لظهوره (وليأخذ أسلحتهم) أى الطائفة التى تصلى معك وقيل الضمير راجع الى الطائفة التى بازاء العدو والاول أظهر لان الطائفة القائمة بازاء العدو لابد أن تكون قائمة بأسلحتها وانما يحتاج الى الامر بذلك من كان فى الصلاة لانه يظن ان ذلك ممنوع منه حال الصلاة فأمره الله بأن يكون آخذ السلاح أى غير واضع له وليس المراد الاخذ باليد بل المراد أن يكونوا حاملين لسلاحهم ليتناولوه من قرب اذا احتاجوا اليه وليكون ذلك أقطع لرجاء عدوهم من امكان فرصة فيهم وقد قال بارجاع الضمير الى الطائفة القائمة بازاء العدو ابن عباس قال لان المصلية لا تحارب وقد قال غيره ان الضمير راجع الى المصلية وجوز الزجاج والنحاس ان يكون ذلك أمرا للطائفتين جميعا لانه أرهب للعدو وقد أوجب أخذ السلاح فى هذه الصلاة أهل الظاهر حملا للامر على الوجوب وذهب أبو حنيفة الى ان المصلين لا يحملون السلاح وان ذلك يبطل الصلاة وهو مدفوع بما فى هذه الآية وبما فى الاحاديث الصحيحة والسلاح ما يقاتل به وجمعه أسلحة وهو مذكر وقيل مؤنث باعتبار الشوكة يقال سلاح كحمار وسلح كضلع وسلح كصرد وسلحان كسلطان قاله أبو بكر بن زيد (فاذا سجدوا) أى القائمون فى الصلاة (فليكونوا) أى الطائفة القائمة بازاء العدو (من ورائكم) أى من وراء المصلين ويحتمل ان يكون المعنى فاذا سجد المصلون معه أى أتموا الركعة تعبيرا بالسجود عن جميع الركعة أو عن جميع الصلاة فليكوا من ورائكم أى فلينصرفوا بعد الفراغ الى مقابلة العدو للحراسة (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا) وهى القائمة فى مقابلة العدو والتى لم تصل (فليصلوا معك) على الصفة التى كانت عليها الطائفة الاولى

ولا يخفى ما فى هذا السياق من الحث على المشاورة وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ما رأيت أحدا قط أكثر مشورة لاصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن عروة عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ندمت على شئ ندمى على ثلاث وددت أنى لم أكن حرقت فلانا وأنى كنت قتلته أو أمرت بقتله وددت أنى حين بعثت الرماة بعثتهم بالليل وددت أنى حين فتحت الباب تركته لمن يريده وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبى الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم انجز لى ما وعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الارض فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الآية وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبى الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم انجز لى ما وعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الارض فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الآية وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبى الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم انجز لى ما وعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الارض فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الآية

طالب قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزم فقال مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم وقد قال ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا يحيى بن بكير عن سفيان عن عبد الملك بن عمير عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال المستشار مؤتمن ورواه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث عبد الملك بابسط من هذا ثم قال ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أسود بن عامر عن شريك عن الاعمش عن أبى عمرو الشيبانى عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المستشار مؤتمن تفرد به وقال أيضا حدثنا أبو بكر حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة وعلى بن هاشم عن ابن أبى ليلى عن أبى الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه تفرد به أيضا وقوله تعالى فاذا عزمت فتوكل على الله أى اذا شاورتهم فى الامر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ان الله يحب المتوكلين وقوله تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون وهذه الآية كما تقدم من قوله وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال وعلى الله فليتوكل المؤمنون وقوله تعالى وما كان لنبى أن يغل قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد ما ينبغى لنبى أن يخون وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا المسيب بن واضح حدثنا أبو اسحق الفزارى عن سفيان بن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فأنزل الله وما كان لنبى أن يغل أى يخون وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا خصيف حدثنا مقسم حدثنى ابن عباس ان هذه الآية وما كان لنبى أن يغل نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض الناس لعل رسول الله أخذها فأكثروا فى ذلك فأنزل الله وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة وكذا رواه أبو داود والترمذى جميعا عن قتيبة عن عبد الواحد بن زياد به وقال الترمذى حسن غريب ورواه بعضهم عن خصيف عن مقسم يعنى مرسلا ورواه ابن مردويه من طريق أبى عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس قال اتهم المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم بشئ فقد فأنزل الله تعالى وما كان لنبى أن يغل وروى من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة فى أداء الامانة وقسم الغنيمة وغير ذلك وقال العوفى عن ابن عباس وما كان لنبى أن يغل أى بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضا وكذا قال الضحاك وقال محمد بن اسحق وما كان لنبى أن يغل بأن يترك بعض ما أنزل اليه فلا يبلغ أمته وقرأ الحسن البصرى وطاوس ومجاهد والضحاك وما كان لنبى أن يغل بضم الياء أى يخان وقال قتادة والربيع

(ولياخذوا) أى هذه الطائفة الاخرى (حذرهم) أى ما يتحرزون به من العدو كالدرع ونحوها (وأسلحتهم) زيادة التوصية للطائفة الاخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح قيل وجهه ان هذه المرة مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى شغل شاغل وأما فى المرة الاولى فربما يظنونهم قائمين للحرب وقيل لان العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت لانه آخر الصلاة ولم يبين فى الآية الكريمة كم تصلى كل طائفة من الطائفتين وقد وردت صلاة الخوف فى السنة المطهرة على انحاء مختلفة وصفات متعددة وكلها صحيحة مجزية من فعل واحدة منها فقد فعل ما أمر به ومن ذهب من العلماء الى اختيار صفة دون غيرها فقد أبعد عن الصواب وقد أوضحنا هذا فى شرحنا لبلوغ المرام وفى شرحنا للدرر البهية (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) هذه الجملة متضمنة للعلة التى لاجلها أمرهم الله بالحذر وأخذ السلاح أى ودوا غفلتكم عن أخذ السلاح وعن الحذر اذا قمتم الى الصلاة ليصلوا الى مقصودهم وينالوا فرصتهم فيشدون عليكم شدة واحدة ويحملون عليكم حملة واحدة والامتعة ما يتمتع به فى الحرب ومنه الزاد والراحلة والخطاب للفريقين بطريق الالتفات (ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) رخص لهم سبحانه فى وضع السلاح اذا نالهم أذى من مطر وفى حال المرض لانه يصعب مع هذين الامرين حمل السلاح وعن ابن عباس قال نزلت فى عبد الرحمن بن عوف كان جريحا أخرجه البخارى وغيره ثم أمرهم بأخذ الحذر فقال (وخذوا حذركم) لئلا يأتيهم العدو على غرة وهم غافلون والمعنى راقبوا عدوكم ولا تغفلوا عنه أمرهم بالتحفظ والتحرز والاحتياط وهذا يفيد ايجاب حملها عند عدم العذر وهو أحد قولين للشافعى والثانى انه سنة ورجحه الشيخان (ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا) يهانون به أخبر أنه يهين عدوهم لتقوى قلوبهم وليعلموا أن الامر بالحذر ليس لتوقع غلبتهم عليهم وانما هو تعبد من الله

ابن أنس نزلت هذه الآية يوم بدر وقد غل بعض أصحابه ورواه ابن جرير عنهما ثم حكى عن بعضهم انه فسر هذه القراءة بمعنى يتهم بالخيانة ثم قال تعالى ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد وقد وردت السنة بالنهى عن ذلك أيضا فى أحاديث متعددة قال الامام أحمد حدثنا عبد الملك حدثنا زهير يعنى ابن محمد عن عبد الله ابن محمد بن عقيل عن عطاء بن يسار عن أبى مالك الاشجعى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أعظم الغلول عند الله ذراع من الارض تجدون الرجلين جارين فى الارض أو فى الدار فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعا فاذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة * حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن نمير حدثنا ابن لهيعة عن ابن هبيرة والحرث بن يزيد عن عبد الرحمن ابن جبير قال سمعت المستورد بن شداد يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا أو ليست له زوجة فليتزوج أو ليس له خادم فليتخذ خادما أو ليس له دابة فليتخذ دابة ومن أصاب شيأ سوى ذلك فهو غال هكذا رواه الامام أحمد وقد رواه أبو داود بسند آخر وسياق آخر فقال حدثنا موسى بن مروان الرقى حدثنا المعافى حدثنا الاوزاعى عن الحرث بن يزيد عن جبير بن نفير عن المستورد بن شداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان لنا عاملا فليكتسب زوجة فان لم يكن له خادم فليكتسب خادما فان لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنا قال قال أبو بكر أخبرت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من اتخذ غير ذلك فهو غال أو سارق قال شيخنا الحافظ المزى رحمه الله رواه أبو جعفر بن محمد الفريابى عن موسى ابن مروان فقال عن عبد الرحمن ابن جبير بدل جبير بن نفير وهو أشبه بالصواب حديث آخر قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا حفص بن بشر حدثنا يعقوب القمى حدثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغتك لا أملك لك من الله شيأ قد بلغتك ولا عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل جملا له رغاء يقول يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغتك ولا عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا له حمحمة ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغتك ولا عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل قسما من ادم ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغتك لم يروه أحد من أهل الكتب الستة حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا سفيان عن الزهرى سمع عروة يقول حدثنا أبو حميد الساعدى قال استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الازد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال هذا لكم وهذا أهدى لى فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر

(فاذا قضيتم الصلاة) أى فرغتم من صلاة الخوف وهو أحد معانى القضاء ومثله فاذا قضيتم مناسككم وفاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض (فاذكروا الله) الامر للندب لانه فى الفضائل (قياما وقعودا وعلى جنوبكم) فى جميع الاحوال حتى فى حال القتال قال ابن عباس بالليل والنهار فى البر والبحر وفى السفر والحضر والغنى والفقر والسقم والصحة والسر والعلانية وعلى كل حال وعن ابن مسعود انه بلغه ان قوما يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم فقال انما هذه اذا لم يستطع الرجل أن يصلى قائما صلى قاعدا وقد ذهب جمهور العلماء الى أن هذا الذكر المأمور به انما هو اثر صلاة الخوف أى فاذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله فى هذه الاحوال وقيل معناها اذا صليتم فصلوا قياما وقعودا وعلى جنوبكم حسبما تقتضيه الحال عند ملاحمة القتال فهى مثل قوله فان خفتم فرجالا أو ركبانا والمعنى ان ما أنتم عليه من الخوف جدير بالمواظبة على ذكر الله والتضرع اليه وعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله فى كل أحيانه أخرجه الشيخان (فاذا اطمأننتم) أى أمنتم بعد ما وضعت الحرب أوزارها وسكنت قلوبكم والطمأنينة سكون النفس من الخوف (فأقيموا الصلاة) أى فأتوا بالصلاة التى دخل وقتها على الصفة المشروعة من الاذكار والاركان ولا تفعلوا ما أمكن فان ذلك انما هو فى حال الخوف وقيل المعنى فى الآية انهم يقضون ما صلوه فى حال المسايفة لانها حالة قلق وانزعاج وتقصير فى الاذكار والاركان وهو مروى عن الشافعى والاول أرجح وقال مجاهد فاذا اطمأننتم أى اذا خرجتم من دار السفر الى دار الاقامة فأقيموا الصلاة قال أتموها أربعا من غير قصر وعن قتادة وابن المنذر نحوه (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) أى فرضا محدودا معينا والكتاب هنا بمعنى المكتوب يعنى مؤقتة فى أوقات محدودة فلا يجوز اخراجها عن أوقاتها على أى حال كان من خوف أو أمن وقيل المعنى فرضا واجبا مقدرا فى الحضر أربع ركعات وفى السفر ركعتين يقال وقته فهو موقوت

فقال مابال العامل نبعثه على عمل فيقول هذا لكم وهذا أهدى لى أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى اليه أم لا والذى نفس محمد بيده لا يأتى أحدكم منها بشئ الا جاء به يوم القيامة على رقبته ان كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة ابطيه ثم قال اللهم هل بلغت ثلاثا وزاد هشام بن عروة فقال أبو حميد بصرت به عينى وسمعته أذنى وسألوا زيد بن ثابت أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة وعند البخارى واسألوا زيدا بن ثابت ومن غير وجه عن الزهرى ومن طرق عن هشام بن عروة كلاهما عن عروة به حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا اسحق بن عيسى حدثنا اسمعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن عروة بن الزبير عن أبى حميد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هدايا العمال غلول وهذا الحديث من افراد أحمد وهو ضعيف الاسناد وكانه مختصر من الذى قبله والله أعلم حديث آخر قال أبو عيسى الترمذى فى كتاب الاحكام (٣٠٩) حدثنا أبو كريب حدثنا أبو اسامة عن داود ابن يزيد الأودى عن المغيرة بن شبل عن قيس بن أبى حازم عن معاذ ابن جبل قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن فلما سرت أرسل فى اثرى فرددت فقال أتدرى لم بعثت اليك لا تصيبن شيأ بغير اذنى فانه غلول ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة لهذا دعوتك فامض لعملك هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه وفى الباب عن عدى بن عميرة وبريدة والمستورد ابن شداد وأبى حميد وابن عمر حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا اسمعيل بن علية حدثنا أبو حيان يحيى بن سعيد التيمى عن أبى زرعة عن ابن عمرو ابن جرير عن أبى هريرة قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال لا الفين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته بعيره له رغاء فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغتك لا الفين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغتك لا الفين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغتك أخرجاه من حديث أبى حيان به حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن اسمعيل بن أبى خالد حدثنى قيس عن عدى بن عميرة الكندى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملا فكتمنا منه مخيطا فما فوقه فهو غل يأتى به يوم القيامة قال فقام رجل من الانصار أسود قال مجاهد هو سعد بن عبادة كانى أنظر اليه فقال يا رسول الله اقبل منى عملك قال وما ذاك قال سمعتك تقول كذا وكذا قال وأنا أقول ذلك الآن من استعملناه على عمل فليجئ بقليله وكثيره فما أوتى منه أخذ وما نهى عنه انتهى وكذا رواه مسلم وأبو داود من طرق عن اسمعيل بن أبى خالد به حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية عن أبى اسحق الفزارى عن

ووقته فهو مؤقت والمقصود ان الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم فى أوقاتها المحدودة لا يجوز لاحد أن يأتى بها فى غير ذلك الوقت الا لعذر شرعى من نوم أو سهو أو نحوهما قال ابن عباس موقوتا مفروضا والموقوت الواجب فلا بد أن تؤدى فى كل وقت حسبما قدر فيه (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) من وهن بالكسر فى المادى أو من وهن بالفتح أى لا تضعفوا فى طلبهم وقتالهم وأظهروا القوة والجلد وقرئ تهانوا من الاهانة مبنيا للمفعول أى لا تتعاطوا من الجبن والخور ما يكون سببا فى اهانتكم (ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون) تعليل للنهى المذكور قبله أى ليس ما تجدونه من ألم الجراح ومزاولة القتال مختصا بكم بل هو أمر مشترك بينكم وبينهم فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال ومرارة الحرب ومع ذلك فلكم عليهم مزية لا توجد فيهم (و) هى انكم (ترجون من الله) من الاجر وعظيم الجزاء (ما لا يرجون) لكفرهم وجحودهم فأنتم أحق بالصبر منهم وأولى بعدم الضعف منهم فان أنفسكم قوية لانها ترى الموت مغنما وهم يرونه مغرما وانظر هذه الآية قوله تعالى ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وقيل ان الرجاء هنا بمعنى الخوف لان من رجا شيأ فهو غير قاطع بحصوله فلا يخلو من خوف ما يرجو وقال الفراء والزجاج لا يطلق الرجاء بمعنى الخوف الا مع النفى كقوله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا أى لا تخافون له عظمة (وكان الله عليما حكيما) لا يأمركم بشئ الا وهو يعلم انه مصلحة لكم (انا أنزلنا اليك الكتاب) أى القرآن (بالحق) أى متلبسا به والحق الصدق أو الامر والنهى والفصل بين الناس (لتحكم بين الناس بما أراك) أى أعلمك (الله) اما بوحى أو بما هو جار على سنن ما قد أوحى اليك به وليس المراد هنا رؤية العين لان الحكم لا يرى بل المراد ما عرفه الله به وأرشده اليه وانما سمى العلم اليقينى رؤية لانه جرى مجرى الرؤية فى قوة الظهور روى عن عمر انه قال لا يقولن أحدكم قضيت بما أرانى الله فان الله لم يجعل ذلك الا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولكن ليجهد

ابن جريج حدثني منبوذ رجل من آل أبي رافع عن الفضل بن عبد الله بن أبي رافع عن أبي رافع قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلى العصر ربما ذهب الى بني عبد الاشهل فيتحدث معهم حتى ينحدر الى المغرب قال أبو رافع فبينما رسول الله صلى الله عليه مسرعا الى المغرب اذ مر بالبقيع فقال أف لك أف لك فلزق في درعي وتأخرت وظننت انه يريدني فقال مالك قال قلت أحدثت حدثا يا رسول الله قال وماذاك قال انك قلت لي قال لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعيا على آل فلان فغل نمرة فدرع الآن مثلها من نار حديث آخر قال عبد الله ابن الامام أحمد حدثنا عبد الله بن سالم الكوفي المفلوج وكان ثقة حدثنا عبيد بن الاسود عن القاسم بن الوليد عن أبي صادق عن ربيعة بن ناجية عن عبادة بن الصامت قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الوبرة من ظهر البعير من المغنم ثم يقول مالي فيه الا مثل مالاحدكم اياكم والغلول فان الغلول خزي على صاحبه يوم القيامة أدوا الخيط والمخيط ومافوق ذلك وجاهدوا في سبيل الله القريب والبعيد في الحضر والسفر فان الجهاد باب من أبواب الجنة انه ليجي الله به من الهم والغم وأقيموا حدود الله في القريب والبعيد ولا تأخذكم في الله لومة لائم وقد روى ابن ماجه بعضه عن المفلوج به حديث آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ردوا الخياط والمخيط فان الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة حديث آخر قال ابو داود حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن مطرف عن أبي الجهم عن ابي مسعود الانصاري قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعيا ثم قال انطلق ابا مسعود لا الفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من ابل الصدقة له رغاء قد غللته قال اذا لا انطلق قال اذا لا اكرهك تفرد به ابو داود حديث آخر قال ابو بكر بن مردويه انبأنا محمد بن احمد بن ابراهيم انبأنا محمد بن عثمان بن ابي شيبة انبأنا عبد الحميد بن صالح انبأنا احمد ابن أبان عن علقمة بن مرثد عن ابي بريدة عن ابيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الخرير مي به في جهنم فيهوى سبعين خريفا ما يبلغ قعرها ويؤتى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به ائت به فذلك قوله ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة حديث آخر قال الامام احمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عكرمة بن عمار حدثني سماك الحنفي ابو زميل حدثني عبد الله بن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم خيبر اقبل نفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا فلان شهيد وفلان شهيد حتى اتوا على رجل فقالوا فلان شهيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا اني رايته في النار في بردة غلها او عباءة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فناد في الناس انه لا يدخل الجنة الا المؤمنون قال فخرجت فناديت انه لا يدخل الجنة الا المؤمنون وكذا رواه مسلم والترمذي

رأيه لان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان مصيبا لان الله كان يريه اياه وان رأي أحدنا يكون ظنا ولا يكون علما وقد دلت هذه الآية على ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يحكم الا بالوحي الالهي (ولا تكن للخائنين) أي لاجلهم (خصيما) مخاصما عنهم مجادلا للمحقين بسببهم وفيه دليل على انه لا يجوز لاحد أن يخاصم عن أحد الا بعد ان يعلم انه محق ونزلت هذه الآية في بني الابيرق وقد رويت هذه القصة مختصرة ومطولة عن جماعة من التابعين عند أهل السنن وغيرهم لا نطول بذكرها (واستغفر الله) أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار قال ابن جرير ان المعنى استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين وقيل المعنى واستغفر الله للمذنبين من امتك والمخاصمين بالباطل والاول أرجح (ان الله كان غفورا رحيما) وقد تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الانبياء وقالوا لو لم يقع منه صلى الله عليه وآله وسلم ذنب لما أمر بالاستغفار والجواب عنه بوجوه ذكرها الخازن في تفسيره (ولا تجادل) أي لا تحاج (عن الذين يختانون) اي يخونون (أنفسهم) بالمعاصي والمجادلة مأخوذة من الجدل وهو الفتل وقيل مأخوذة من الجدالة وهي وجه الارض لان كل واحد من الخصمين يريد ان يلقي صاحبه عليها وسمي ذلك خيانة لانفسهم لان ضرر معصيتهم راجع اليهم (ان الله لا يحب) عدم المحبة كناية عن البغض وانما قال (من كان خوانا أثيما) على المبالغة لانه تعالى علم منه الافراط في الخيانة وركوب المآثم (يستخفون من الناس) اي يستترون منهم كقوله ومن هو مستخف بالليل اي مستتر قيل معناه يستحيون من الناس (ولا يستخفون من الله) اي لا يستترون ولا يستحيون منه (وهو) اي والحال انه (معهم) بالعلم والقدرة في جميع احوالهم عالم بما هم فيه فكيف يستخفون منه وكفى بذلك زجرا للانسان عن ارتكاب الذنوب وكفى بهذه الآية ناعية على ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم انهم في حضرته لا ستترة ولا غيبة (اذ يبيتون) اي يدبرون الرأي بينهم وسماه تبييتا

من حديث عكرمة بن عمار به وقال الترمذى حسن صحيح حديث آخر عن عمر رضى الله عنه قال ابن جرير حدثنى احمد بن عبد الرحمن بن وهب حدثنى عبد الله بن وهب اخبرنى عمرو بن الحرث ان موسى بن جبير حدثه ان عبد الله بن عبد الرحمن بن الحباب الانصارى حدثه أن عبد الله بن انيس حدثه انه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوما الصدقة فقال ألم تسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر غلول الصدقة من غل منها بعيرا أو شاة فانه يحمله يوم القيامة قال عبد الله بن أنيس بلى و رواه ابن ماجه عن عمرو ابن سواد عن عبد الله بن وهب به حديث آخر قال ابن جرير حدثنا يحيى بن سعيد الاموى حدثنا أبى حدثنا يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن عبادة مصدقا فقال يا سعد ايالك ان تجئ يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء قال لا آخذه ولا اجيء به فأعفاه ثم رواه من طريق عبيد الله عن نافع به (٣١١) نحوه حديث آخر قال احمد حدثنا ابو سعيد حدثنا عبد العزيز بن محمد حدثنا صالح بن محمد بن زائدة عن سالم بن عبد الله انه كان مع مسلمة بن عبد الملك فى ارض الروم فوجد فى متاع رجل غلولا قال فسأل سالم بن عبد الله فقال حدثنى ابى عبد الله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من وجدتم فى متاعه غلولا فاحرقوه قال واحسبه قال واضربوه قال فأخرج متاعه فى السوق فوجد فيه مصحفا فسأل سالما فقال بعه وتصدق بثمنه وكذا رواه على بن المدينى وابو داود والترمذى من حديث عبد العزيز ابن محمد الدراوردى زاد ابو داود وابو اسحق الفزارى كلاهما عن ابى واقد الليثى الصغير صالح بن محمد بن زائدة به وقال على بن المدينى والبخارى وغيرهما هذا حديث منكر من رواية ابى واقد هذا وقال الدارقطنى الصحيح انه من فتوى سالم فقط وقد ذهب الى القول بمقتضى هذا الحديث الامام احمد بن حنبل ومن تابعه من اصحابه ورواه الاموى عن معاوية عن أبى اسحق عن يونس بن عبيد عن الحسن قال عقوبة الغال أن يخرج رحله فيحرق على مافيه ثم روى عن معاوية عن ابى اسحق عن عثمان بن عطاء عن ابيه عن على قال الغال يجمع رحله فيحرق و يجلد دون حد المملوك ويحرم نصيبه وخالفه ابو حنيفة ومالك والشافعى والجمهور فقالوا لا يحرق متاع الغال بل يعزر تعزيرا مثله وقد قال البخارى وقد امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة على الغال ولم يحرق متاعه والله اعلم وقد قال الامام احمد حدثنا اسود بن عامر أنبأنا اسرائيل عن ابى اسحق عن جبير بن مالك قال امر بالمصاحف ان تغير قال فقال ابن مسعود من استطاع منكم ان يغل مصحفا فليغله فانه من غل شيأ جاء به يوم القيامة ثم قال قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين مرة أفأترك ما أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى وكيع فى تفسيره عن شريك عن ابراهيم بن مهاجر عن ابراهيم قال لما أمر بتحريق المصاحف قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أيها الناس غلوا المصاحف فانه من غل يأت بما غل يوم القيامة ونعم الغل المصحف يأتى به

لان الغالب ان تكون ادارة الرأى بالليل (مالا يرضى من القول) اى من الرأى الذى اداروه بينهم وسماه قولا لانه لا يحصل الا بعد المقاولة بينهم (وكان الله بما يعملون محيطا) عالما علما احاطة لا يخفى عليه شئ من اسرار عباده وهو مطلع عليهم لا تخفى عليه خافية (ها انتم هؤلاء) يعنى القوم الذين جادلوا عن صاحبهم السارق قال الزجاج اولاء بمعنى الذين والخطاب هنا على طريق الالتفات للايذان بان تعديد جناياتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع (جادلتم) اى خاصمتم (عنهم) وحاججتم واصل الجدال شدة الفتل لان كل واحد من الخصمين يريد ان يفتل صاحبه عما هو عليه (فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) الاستفهام للانكار والتوبيخ اى فمن يخاصم و يجادل الله عنهم عند تعذيبهم بذنوبهم (ام من يكون عليهم وكيلا) اى مجادلا ومخاصما والوكيل فى الاصل القائم بتدبير الامور والمعنى من ذلك يقوم بامرهم اذا اخذهم الله بعذابه ومن يكون محاميا عنهم من باس الله اذا نزل بهم (ومن يعمل سوأ) هذا من تمام القصة السابقة والمراد بالسوء القبيح الذى يسوء به غيره (او يظلم نفسه) بفعل معصية من المعاصى او ذنب من الذنوب التى لا تتعدى الى غيره (ثم يستغفر الله) يطلب منه ان يغفر له ما اقارفه من الذنب (يجد الله غفورا) لذنبه (رحيما) به وفيه ترغيب لمن وقع منه السرق من بنى ابيرق ان يتوب الى الله و يستغفره وانه غفور لمن يستغفره رحيم به وقال الضحاك ان هذه الآية نزلت فى شأن وحشى قاتل حمزة أشرك بالله وقتل حمزة ثم جاء الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقال هل لى من توبة فنزلت وعلى كل حال فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهى لكل عبد من عباد الله اذنب ذنبا ثم استغفر الله سبحانه وعن ابن عباس قال اخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته فمن اذنب ذنبا صغيرا كان او كبيرا ثم استغفر الله يجد الله غفورا رحيما ولو كانت ذنوبه اعظم من السموات والارض والجبال وعن ابن مسعود من قراهاتين الآيتين من سورة النساء ثم استغفر الله غفر له ومن يعمل

أحدكم يوم القيامة وقال أبو داود عن سمرة بن جندب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادى فى الناس فيجوزون أبغنائهم فيخمسه و يقسمه فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شعر فقال يا رسول الله هذا كان مما أصبناه من الغنيمة فقال أسمعت بلالا ينادى ثلاثا قال نعم قال فما منعك ان تجىء فاعتذر اليه فقال كذا أنت تجىء به يوم القيامة فلن أقبله منك وقوله تعالى أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم و بئس المصير أى لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأجير من و بيل عقابه ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ومأواه يوم القيامة جهنم و بئس المصير وهذه الآية لها نظائر كثيرة فى القرآن كقوله تعالى أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى وكقوله أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا الآية (٣١٢) ثم قال تعالى هم درجات عند الله قال الحسن البصرى ومحمد بن اسحق يعنى أهل الخير وأهل الشر درجات وقال أبو عبيدة والكسائى منازل يعنى متفاوتون فى منازلهم درجاتهم فى الجنة ودركاتهم فى النار كقوله تعالى ولكل درجات مما عملوا الآية ولهذا قال تعالى والله بصير بما يعملون أى وسيوفيهم اياها لا يظلمهم خيرا ولا يزيدهم شرا بل يجازى كل عامل بعمله وقوله تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به كما قال تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها أى من جنسكم وقال تعالى قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد الآية وقال تعالى وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام و يمشون فى الاسواق وقال تعالى وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى وقال تعالى يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم فهذا أبلغ فى الامتنان ان يكون الرسول اليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته انفسهم ومراجعته فى فهم الكلام عنه ولهذا قال تعالى يتلو عليهم آياته يعنى القرآن ويزكيهم أى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكوا نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم ويعلمهم الكتاب والحكمة يعنى القرآن والسنة وان كانوا من قبل أى من قبل هذا الرسول لفى ضلال مبين أى لفى غى وجهل ظاهر جلى بين لكل أحد (أولما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شئ قدير وما اصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو اطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) يقول تعالى أولما اصابتكم مصيبة وهى ما اصيب منهم يوم احد من قتل السبعين منهم قد اصبتم

سوء الآية ولو انهم اذ ظلموا انفسهم الآية وقد ورد فى قبول الاستغفار وانه يمحو الذنب احاديث كثيرة مدونة فى كتب السنة وفى هذه الآية دليل على حكمين احدهما ان التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكائر والصغائر والثانى ان مجرد الاستغفار كاف كما هو ظاهر الآية وقيل انه مقيد بالتوبة (ومن يكسب اثما) من الآثام بذنب يذنبه وهو اجمال بعد تفصيل (فانما يكسبه على نفسه) اى فعاقبته عائدة عليه ولا يضر غيره والكسب ما يجر به الانسان الى نفسه نفعا او يدفع به ضررا ولهذا لا يسمى فعل الرب كسبا قاله القرطبى (وكان الله عليما) بما فى قلب عبده عند اقدامه على التوبة (حكيما) لا يعاقب بالذنب غير فاعله و يتجاوز عن التائب و يغفر له و يقبل توبته (ومن يكسب خطيئة او اثما) قيل هما بمعنى واحد كرر للتأكيد وقال الطبرى ان الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد والاثم لا يكون الا عن عمد وقيل الخطيئة الصغيرة والاثم الكبيرة وقيل الاول ذنب بينه و بين ربه والثانى ذنب فى مظالم العباد وقيل الخطيئة هى المختصة بفاعله والاثم المتعدى الى الغير (ثم يرم به بريئا) منه توحيد الضمير لكون العطف بأو والتغليب الاثم على الخطيئة وقيل انه يرجع الى الكسب (فقد احتمل بهتانا واثما مبينا) لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالثقل الذى يحمل ومثله ليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم والبهتان مأخوذ من البهت وهو الكذب على البرى بما يبهت له و يتحير منه يقال بهته بهتانا اذا قال عليه ما لم يقل و يقال بهت الرجل بالكسر اذا دهش وتحير وبهت بالضم ومنه فبهت الذى كفر والمبين الواضح (ولولا فضل الله عليك ورحمته) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بهذا الفضل والرحمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه نبهه على الحق فى قصة بنى ابيرق وقيل المراد بهما العصمة والنبوة (لهمت طائفة منهم) اى من الجماعة الذين عضدوا ابنى ابيرق يعنى من بنى ظفر وهم قوم طعمة (أن يضلوك) عن القضاء بالحق و يتحى طريق العدل او يخطؤك فى الحكم و يلبسوا عليك الامر (وما يضلون الا

مثليها يعني يوم بدر فانهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا وأسروا سبعين أسيرا قلتم أنى هذا أى من أين جرى علينا هذا قل هو من عند أنفسكم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي انبأنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا قراد بن نوح حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فانزل الله أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند أنفسكم باخذكم الفداء وهكذا رواه الامام أحمد عن عبد الرحمن بن غزوان وهو قراد بن نوح باسناده ولكن باطول منه وهكذا قال الحسن البصري وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا اسمعيل بن علية عن ابن عون ح قال سنيد وهو حسين وحدثني حجاج عن جرير عن محمد عن عبيدة عن علي قال جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ان الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الاسارى وقد أمرك ان تخيرهم بين أمرين اما أن يقدموا فتضرب أعناقهم وبين ان يأخذوا الفداء على ان يقتل منهم عدتهم قال فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فذكر لهم ذلك فقالوا يا رسول الله عشائرنا واخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فلا يس في ذلك ما نكره قال فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين به ثم قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه الا من حديث ابن أبي زائدة وروى أبو أسامة عن هشام نحوه وروى عن ابن سيرين

أنفسهم) لان وبال ذلك عائد عليهم بسبب تعاونهم على الاثم (وما يضرونك من شئ) لان الله سبحانه هو عاصمك من الناس ولانك عملت بالظاهر فلا ضرر عليك في الحكم به قبل نزول الوحي ومن زائدة (وأنزل الله عليك الكتاب) قيل هذا ابتداء كلام وقيل الواو للحال اى وما يضرونك من شئ حال انزال الله عليك القرآن أو مع انزال الله ذلك عليك فالجملة في معنى العلة لما قبله (والحكمة) أى القضاء بها (وعلمك) أى بالوحي من أحكام الشرع وأمور الدين أو علم الغيب وخفيات الامور أو من أحوال المنافقين وكيدهم أو من ضمائر القلوب (ما لم تكن تعلم) من قبل الوحي وقال قتادة علمه الله بيان الدنيا والآخرة وبين حلاله وحرامه ليحتج بذلك على خلقه وقال الضحاك علمه الخير والشر (وكان فضل الله عليك عظيما) فيما علمك وأنعم عليك لانه لا فضل أعظم من النبوة التامة والرسالة العامة وفيه تنبيه منه سبحانه لرسوله على ما حباه من الطافه وما شمله من فضله واحسانه ليقوم بواجب حقه (لا خير في كثير من نجواهم) النجوى السر بين الاثنين أو الجماعة تقول ناجيت فلانا مناجاة ونجاء وهم يتناجون ويتناجون ونجوت فلانا أنجوه نجوى أى ناجيته فنجوى مشتقة من نجوت الشئ أنجوه أى خلصته وأفردته والنجوة من الارض المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله فالنجوى المسارة مصدر وقد يسمى به الجماعة كما يقال قوم عدل قال الله تعالى واذهم نجوى وقيل النجوى جمع نجى نقله الكرماني وقد قال جماعة من المفسرين ان النجوى كلام الجماعة المنفردة والاثنين سواء كان ذلك سرا أو جهرا وبه قال الزجاج والآية عامة في حق جميع الناس كما اختاره البغوي والكواشي كالواحدي وقيل عائد الى قوم طعمة والاول أولى (الا من أمر بصدقة) أى حث عليها والظاهر انها صدقة التطوع وقيل انها صدقة الفرض والاول أولى والاستثناء متصل كما اختاره القاضي كالكشاف وقيل منقطع لان من للاشخاص وليست من جنس النجاي فيكون بمعنى لكن في لغة الحجاز (أو معروف) لفظ عام يشمل جميع أنواع الجميل وفنون اعمال البر وقال

(٤٠ - فتح البيان ثاني) عن عبيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا وقال محمد بن اسحق وابن جرير والربيع بن أنس والسدى قل هو من عند أنفسكم أى بسبب عصيانكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم يعني بذلك الرماة ان الله على كل شئ قدير أى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ثم قال تعالى وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله أى فراركم بين يدى عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره وله الحكمة في ذلك وليعلم المؤمنين أى الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الاتيان والقتال والمساعدة ولهذا قال أو ادفعوا قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدى

يعني كثروا سواد المسلمين وقال الحسن بن صالح ادفعوا بالدعاء وقال غيره رابطوا فتعالوا قاتلين لو نعلم قتالا لاتبعناكم قال مجاهد يعنون لو نعلم انكم تلقون حربا لجئناكم ولكن لا نلقون قتالا قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومحمد بن يحيى ابن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا كلهم قد حدث قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني حين خرج الى أحد في ألف رجل من أصحابه حتى اذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس فقال أطاعهم فخرج وعصاني والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند ما حضر (٣١٤) من عدوكم قالوا لو نعلم انكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال فلما استعصوا عليه وأبوا الا الانصراف عنهم قال أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان استدلوا به على ان الشخص قد تنقلب به الاحوال فيكون في حال أقرب الى الكفر وفي حال أقرب الى الايمان لقوله هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان ثم قال تعالى يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم يعني انهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته ومنه قولهم هذا لو نعلم قتالا لاتبعناكم فانهم يتحققون ان جندا من المشركين قد جاؤا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر وهم أضعاف المسلمين انه كائن بينهم قتال لا محالة ولهذا قال تعالى والله أعلم بما يكتمون ثم قال تعالى الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل قال الله تعالى قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم رسول صادقين أي ان كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي انكم لا تموتون والموت لابد آت اليكم ولو كنتم في بروج مشيدة فادفعوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين قال مجاهد عن جابر بن عبد الله نزلت هذه الآية في عبد بن أبي ابن سلول وأصحابه (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين احسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو

مقاتل المعروف هنا الفرض والاول أولى ومنه الحديث كل معروف صدقة وان من المعروف ان تلقى أخاك بوجه طلق وقيل المعروف اغاثة الملهوف والقرض واعانة المحتاج واعمال البر كلها معروف لان العقول تعرفها (أو اصلاح بين الناس) عطف خاص على عام قاله أبو حيان وفيه انه لا يكون بأو وهو عام في الدماء والاعراض والاموال وفي كل شئ يقع التداعي فيه وقد أخرج عبد بن حميد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ام حبيبة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلام ابن آدم كله عليه لا له الا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكرا لله عز وجل قال سفيان الثوري هذا في كتاب الله يعني هذه الآية وقوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا وقوله والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وقد وردت أحاديث صحيحة في الصمت والتحذير عن آفات اللسان والترغيب في حفظه وفي الحث على الاصلاح بين الناس ولعل وجه تخصيص هذه الثلاثة بالذكر ان عمل الخير المتعدي للناس اما ايصال منفعة أو دفع مضرة والمنفعة اما جسمانية واليه الاشارة بقوله الا من أمر بصدقة واما روحانية واليه الاشارة بالامر بالمعروف ودفع الضرر أشير اليه بقوله أو اصلاح بين الناس قاله أبو السعود (ومن يفعل ذلك) اشارة الى الامور المذكورة جعل مجرد الامر بها خيرا ثم رغب في فعلها بقوله هذا لان فعلها اقرب الى الله من مجرد الامر بها اذ خيرية الامر بها انما هي لكونه وسيلة الى فعلها أو أراد ومن يأمر بذلك فعبر عن الامر بالفعل لان الامر بالفعل أيضا فعل من الافعال (ابتغاء مرضات الله) علة للفعل لان من فعلها لغير ذلك فهو غير مستحق لهذا المدح والجزاء بل قد يكون غير ناج من الوزر وانما الاعمال بالنيات (فسوف نؤتيه) في الآخرة اذا فعل ذلك ابتغاء لمرضات الله (أجرا عظيما) لا حد له ولا يعلم قدره الا الله أخرج أبو نصر السجزي في الابانة عن أنس قال جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له

فضل عظيم انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهن وخافون ان كنتم مؤمنين) يخبر تعالى عن الشهداء بانهم وان قتلوا في هذه الدار فان أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار قال محمد بن جرير حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا عمرو بن يونس عن عكرمة حدثنا اسحق بن أبي طلحة حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين ارسلهم نبي الله الى أهل بئر معونة قال لا ادري أربعين أو سبعين وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتوا غارا مشرفا على الماء فقعدوا فيه ثم قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى امام البيوت ثم قال يا أهل بئر معونة اني رسول رسول الله اليكم اني أشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله فآمنوا بالله ورسوله فخرج اليه رجل من كسر البيت برمح (٣١٥) فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال الله أكبر فزت ورب الكعبة فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل وقال ابن اسحق حدثني أنس بن مالك ان الله أنزل فيهم قرآنا بلغوا عنا قومنا انا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زمانا وأنزل الله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون وقد قال مسلم في صحيحه حدثنا محمد بن عبد الله ابن نمير حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال انا سألنا عبد الله عن هذه الآية ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل احياء الآية فقال انا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى تلك القناديل فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيأ فقالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا انهم لن يتركوا من أن يسئلوا قالوا يا رب نريد ان ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى ان ليس لهم حاجة تركوا وقد روى نحوه من حديث أنس وأبي سعيد حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها ان ترجع الى الدنيا الا الشهيد فانه يسره ان يرجع الى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة تفرد به مسلم من طريق حماد حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا علي بن عبد الله المديني حدثنا سفيان بن محمد بن علي بن ربيعة السلمي عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمت ان الله أحيى أباك فقال له تمن فقال له اردا الى الدنيا فاقتل فيك مرة أخرى قال اني قضيت انهم اليها لا يرجعون تفرد به أحمد من هذا الوجه وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن أبا جابر

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله أنزل على القرآن يا اعرابي لا خير في كثير من نجواهم الى قوله عظيما يا اعرابي الاجر العظيم الجنة قال الاعرابي الحمد لله الذي هدانا للاسلام (ومن يشاقق الرسول) المشاقة المعاداة والمخالفة (من بعد ما تبين) أي وضح وظهر (له الهدى) بان يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك ثم يفعل المشاقة (ويتبع غير سبيل المؤمنين) أي غير طريقهم وهو ما هم عليه من دين الاسلام والتمسك باحكامه في الاعتقاد والعمل والقول (نوله ما تولى) أي نجعله والى ما تولاه واختاره من الضلال بان نخلي بينه وبينه في الدنيا ونتركه وما اختاره لنفسه (ونصله) اي نلزمه وندخله في الآخرة وأصله من الصلى وهو لزوم النار وقت الاستدفاء (جهنم وساءت مصيرا) مرجعا هي وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على حجية الاجماع لقوله ويتبع غير سبيل المؤمنين ولا حجة في ذلك عندي لان المراد بغير سبيل المؤمنين هنا هو الخروج من دين الاسلام الى غيره كما يفيده اللفظ ويشهد به السبب فلا يصدق على عالم من علماء هذه الملة الاسلامية اجتهد في بعض مسائل الدين فاداه اجتهاده الى مخالفة من بعصره من المجتهدين فانه انما رام السلوك في سبيل المؤمنين وهو الدين القويم والملة الحنيفية ولم يتبع غير سبيلهم وقد أخرج الترمذي والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يجمع الله هذه الامة على الضلالة أبدا ويد الله على الجماعة فمن شذ شذ في النار وأخرجه الترمذي والبيهقي أيضا عن ابن عباس مرفوعا (ان الله لا يغفر أن يشرك به) هذا نص صريح بان الشرك غير مغفور اذا مات صاحبه عليه لقوله قل للذين كفروا الآية (ويغفر ما دون ذلك) أي ما دون الشرك (لمن يشاء) من أهل التوحيد وهذه المشيئة فيمن لم يتب من ذنوبه من الموحدين فان شاء غفر له وان شاء عذبه (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) أي ذهب عن طريق الهدى وحرم الخير كله اذا مات على شركه لان الشرك أعظم أنواع الضلال وأبعدها من الصواب والاستقامة كما انه افتراء واثم عظيم

وهو عبد الله بن عمرو بن حرام الانصاري رضي الله عنه قتل يوم أحد شهيدا قال البخاري وقال أبو الوليد عن شعبة عن ابن المنكدر سمعت جابرا قال لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهوني والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تبكه أو ما تبكيه ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع وقد أسنده هو ومسلم والنسائي من طرق عن شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال لما قتل أبي يوم أحد جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي وذكر تمامه بنحوه حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن أبي اسحق حدثنا اسمعيل بن أمية بن عمرو بن سعد عن أبي الزبير المكي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصيب اخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي الى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا يا ليت اخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون وما بعدها وهكذا رواه أحمد ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن اسمعيل بن عياش عن محمد بن اسحق به ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله ابن ادريس عن محمد بن اسحق به ورواه أبو داود والحاكم عن اسمعيل بن أمية عن أبي الزبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره وهذا أثبت وكذا رواه سفيان الثوري عن سالم الافطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي اسحق الفزاري عن سفيان عن اسمعيل بن أبي خالد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وكذا قال قتادة والربيع والضحاك انها نزلت في قتلى أحد حديث آخر قال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا هرون بن سليمان أنبأنا علي بن عبد الله المديني أنبأنا موسى بن ابراهيم بن كثير ابن بشير بن الفاكه الانصاري سمعت طلحة بن خراش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصمت الانصاري قال سمعت جابر بن عبد الله قال نظر الي رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال يا جابر مالي أراك مهتما قال قلت يا رسول الله استشهد أبي وترك دينا وعيالا قال فقال الا اخبرك ما كلم الله احدا قط الا من وراء حجاب وانه كلم اباك كفاحا قال على والكفاح المواجهة قال سلني أعطك قال أسألك ان أردك الى الدنيا فاقتل فيك ثانية فقال الرب عز وجل انه قد سبق مني القول انهم اليها لا يرجعون قال أي رب فابلغ من ورائي فانزل الله ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا الآية ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سليط الانصاري

ولذلك جعل الجزاء في هذه الشرطية فتدبر وفيما سبق فقد افترى اثما عظيما حسبما يقتضيه سياق النظم الكريم وسباقه وفي السمين ختمت الآية المتقدمة بقوله فقد افترى وهذه بقوله فقد ضل لان الاولى في شأن أهل الكتاب وهم عندهم علم بصحة نبوته وان شريعته ناسخة لجميع الشرائع ومع ذلك فقد كابروا في ذلك وافتروا على الله وهذه في شأن قوم مشركين ليس لهم كتاب ولا عندهم علم فناسب وصفهم بالضلال وأيضا فقد تقدم هنا ذكر الهدى وهو ضد الضلال انتهى وقد تقدم تفسير هذه الآية وتكريرها بلفظها في موضعين من هذه السورة للتأكيد وقيل كررت هنا لاجل قصة بني أبيرق وقيل انها نزلت هنا بسبب غير قصة بني أبيرق وهو ما رواه الثعلبي والقرطبي في تفسيريهما عن الضحاك ان شيخا من الاعراب جاء الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله اني شيخ منهمك في الذنوب والخطايا الا اني لم أشرك بالله شيأ منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أوقع المعاصي جرأة على الله ولا مكابرة له واني لنادم وتائب ومستغفر فما حالي عند الله فانزل الله تعالى هذه الآية أخرجه الترمذي عن علي انه قال ما في القرآن آية أحب الى من هذه الآية قال الترمذي حسن غريب (ان يدعون من دونه الا اناثا) تعليل لما قبلها أي ما يدعون من دون الله الا اصناما لها أسماء مؤنثة كاللات والعزى ومناة قاله أبي بن كعب وقيل المراد بالاناث الاموات التي لا روح لها كالخشبة والحجر قاله ابن عباس قال الزجاج الموات كلها يخبر عنها كما يخبر عن المؤنث تقول هذه الحجر تجيئني وهذه الدرهم تنفعني وقد يطلق الانثى على الجمادات وقيل المراد بالاناث الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله قال الضحاك اتخذوهن أربابا وصوروهن صور الجواري فخنثوا وقلدوا وقالوا هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده يعنون الملائكة وقرئ الا وثنا بضم الواو والثاء جمع وثن رويت هذه عن عائشة وقرأ ابن عباس الا اثنا جمع وثن أيضا وقرأ الحسن الا انثا جمع أنيث كغدير وغدر وحكى الطبري انه جمع اناث كثمار وثمر وعلى جميع هذه القراآت فهذا

عن أبيه عن جابر به نحوه وكذا رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق علي بن المديني به وقد رواه البيهقي أيضا من حديث أبي عبادة الانصاري وهو عيسى بن عبد الله ان شاء الله عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم لجابر يا جابر ألا أبشرك قال بلى بشرك الله بالخير قال شعرت بان الله أحيا أباك فقال تمن علي عبدي ما شئت أعطكه قال يارب ما عبدتك حق عبادتك أتمن عليك ان تردني الى الدنيا فاقتل فيك مرة أخرى قال انه سلف مني انهم اليها لا يرجعون حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا ابي عن ابن اسحق حدثني الحرث بن فضيل الانصاري عن محمود بن لبيد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فيه قبة خضراء يخرج اليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية تفرد به أحمد وقد رواه ابن جرير عن أبي كريب حدثنا عبد الرحمن بن سليمان وعبيدة عن محمد بن اسحق به وهو اسناد جيد وكأن الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم الى هذا النهر فيجتمعون هنالك ويغدى عليهم برزقهم هنالك ويراح والله أعلم وقد روينا في مسند الامام أحمد حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بان روحه تكون في الجنة تسرح أيضا فيها وتأكل من ثمارها وترى ما فيها من النضرة والسرور وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة وهو باسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الائمة الاربعة أصحاب المذاهب المتبعة فان الامام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن أدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الاصبحي رحمه الله عن الزهري عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله الى جسده يوم يبعثه قوله يعلق أي يأكل وفي هذا الحديث ان روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة واما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر فهي كالكواكب بالنسبة الى أرواح عموم المؤمنين فانها تطير بانفسها فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الايمان وقوله تعالى فرحين بما آتاهم الله من فضله الى آخر الآية أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ومستبشرون باخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله انهم يقدمون عليهم وانهم لا يخافون مما امامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم نسأل الله الجنة وقال محمد بن اسحق ويستبشرون أي ويسرون بالحوق من لحقهم من اخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم قال السدي يؤتى الشهيد بكتاب فيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا

فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين والازراء عليهم والتضعيف لعقولهم لكونهم عبدوا من دون الله نوعا ضعيفا وقال الحسن كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونها يسمونها انثى بني فلان فانزل الله هذه الآية (وان) ما (يدعون) من دون الله (الا شيطانا مريدا) وهو ابليس لعنه الله لانهم اذا أطاعوه فيما سول لهم فقد عبدوه وتقدم اشتقاق لفظ الشيطان والمريد المتمرد العاتي من مرد اذا عتا قال الازهري المريد الخارج عن الطاعة وقد مرد الرجل مرودا اذا عتا وخرج عن الطاعة فهو مارد ومريد ومتمرد وقال ابن عرفة هو الذي ظهر شره يقال شجرة مرداء اذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها ومنه قيل للرجل أمرد اي ظاهر مكان الشعر من عارضيه وقال ابن عباس لكل صنم شيطان يدخل في جوفه ويتراأى للسدنة والكهنة ويكلمهم والاول أولى (لعنه الله) قيل مستأنفة وقيل دعاء عليه أصل اللعن الطرد والابعاد وقد تقدم تفسيره وهو في العرف ابعاد مقترن بسخط (وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) معطوف على قوله لعنه الله والجملتان صفة لشيطان أي شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله له وبين هذا القول الشنيع أو حال على اضمار قد أي وقد قال أو استئناف ولاتخذن جواب قسم محذوف والنصيب المفروض هو المقطوع المقدر أي لاجعلن قطعة مقدرة من عباد الله تحت غوايتي وفي جانب اضلالي حتى أخرجهم من عبادة الله الى الكفر به عن مقاتل بن حيان قال هذا ابليس يقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة وعن الربيع بن أنس مثله قلت وهذا صحيح معنى ويعضده قوله تعالى لآدم يوم القيامة أخرج من ذريتك بعث النار فيقول يارب وما بعث النار فيقول الله تعالى أخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعند ذلك تشيب الاطفال من شدة الهول أخرجه مسلم فنصيب الشيطان هو بعث النار والمعنى لاتخذن منهم حظا مقدرا معلوما فكل ما أطيع فيه ابليس فهو نصيبه ومفروضه وأصل الفرض القطع وهذا النصيب هم الذين يتبعون

بغائبهم اذا قدم قال سعيد بن جبير لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا يا ليت اخواننا الذين في الدنيا يعلمون
ما عرفناه من الكرامة فاذا شهدوا القتال باشروها بانفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير فاخبر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بامرهم وما هم فيه من الكرامة وأخبرهم أي ربهم اني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بامركم وما أنتم فيه فاستبشر وا بذلك
فذلك قوله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الآية وقد ثبت في الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة السبعين
من الانصار الذين قتلوا في غداة واحدة وقنت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم قال أنس ونزل فيهم
قرآن قرأناه حتى رفع ان بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ثم قال تعالى يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله
لا يضيع أجر المؤمنين قال محمد بن اسحق (٣١٨) استبشروا أي سروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب وقال
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم وقلما ذكر الله فضلا ذكر به الانبياء وثوابا أعطاهم
الله اياه الا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم وقوله تعالى الذين استجابوا لله والرسول من بعد
ما أصابهم القرح هذا كان يوم حمراء الاسد وذلك ان المشركين لما
أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين الى بلادهم فلما استمروا في
سيرهم ندموا لم لا تيموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة فلما بلغ
ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب المسلمين الى الذهاب وراءهم
ليرعبهم ويريهم ان بهم قوة وجلدا ولم يأذن لاحد سوى من حضر
الوقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه لما سنذكره
فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والاثخان طاعة لله عز وجل
ولرسوله صلى الله عليه وسلم قال

خطوا لانفسهم ويقبلون وساوسه (ولاضلنهم) اللام جواب قسم محذوف والاضلال الصرف عن طريق الهداية الى طريق الغواية والمراد به التزيين والوسوسة والا فليس اليه من الاضلال شيء قال بعضهم لو كان الاضلال الى ابليس لاضل جميع الخلق وهكذا اللام في قوله (ولامنينهم) والمراد بالامانى التي يمنيهم بها الشيطان هي الاماني الباطلة الناشئة عن تسويله ووسوسته قال ابن عباس يريد تسويف التوبة وتأخيره وقال الكلبي أمنيهم انه لا جنة ولا نار ولا بعث وقيل ادراك الجنة مع المعاصي وقيل أزين لهم ركوب الاهواء والاهوال الداعية الى العصيان وقيل طول البقاء في الدنيا ونعيمها اليؤثروها على الآخرة ولا مانع من حمل اللفظ على الجميع (ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام) أي ولآمرنهم بتبتيك آذانها أي تقطيعها فليبتكنها بموجب أمري والبتك القطع ومنه سيف باتك يقال بتكه وبتكه مخففا ومشددا وقد فعل الكفار ذلك امتثالا لامر الشيطان وابتاعا لرسمه فشقوا آذان البحائر والسوائب كما ذلك معروف قال قتادة التبتيك في البحيرة والسائبة يبتكون آذانها لطواغيتهم (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) بموجب أمري لهم واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو فقالت طائفة هو الخصي وفقء العين وقطع الاذن وقال آخرون ان المراد هو ان الله سبحانه خلق الشمس والقمر والاحجار والنار ونحوها من المخلوقات لما خلقها له فغيرها الكفار بان جعلوها آلهة معبودة وبه قال الزجاج وقيل المراد تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها وقيل نفي الانساب واستلحاقها أو بتغيير الشيب بالسواد او بالتحريم والتحليل أو بالتخنث أو بتغيير دين الاسلام ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الامور حملا شموليا أو بدليا وقد رخص طائفة من العلماء في خصي البهائم اذا قصد بذلك زيادة الانتفاع به لسمن أو غيره وكره ذلك آخرون واما خصي بني آدم فحرام وقد كره قوم شراء الخصي قال القرطبي ولم يختلفوا ان خصي بني آدم لا يحل ولا يجوز وانه مثلة وتغيير لخلق الله وكذلك قطع سائر أعضائهم في غير حد ولا قود قاله أبو عمر بن عبد البر

اخرج ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن عكرمة قال لما رجع
المشركون عن أحد قالوا لا محمدا قتلتم ولا الكواعب أردفتم بئس ما صنعتم ارجعوا فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فندب
المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الاسد أو بئر أبي عيينة الشك من سفيان فقال المشركون رجع من قابل فرجع رسول الله صلى
الله عليه وسلم فكانت تعد غزوة فانزل الله تعالى الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح الآية وروى ابن مردويه من
حديث محمد بن منصور عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس فذكره وقال محمد بن اسحق كان يوم أحد يوم السبت
النصف من شوال فلما كان الغد من يوم الاحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس
لطلب العدو وأذن مؤذنه ان لا يخرجن معنا احد الا من حضر يومنا بالامس فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال يا رسول

الله ان أبى كان خلفنى على اخوات لى سبع وقال يا بنى انه لا ينبغى لى ولا لك ان نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ولست أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى فتخلف على اخواتك فتخلفت عليهن فاذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج معه وانما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدو وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا بهم قوة وان الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم قال محمد بن اسحق فحدثنى عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى عبد الاشهل كان قد شهد أحدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأخ فرجعنا جريحين فلما أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج فى طلب العدو قلت لاخى أو قال لى أتفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والله مالنا من دابة نركبها وما منا الا جريح ثقيل فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت أيسر جراحا منه فكان اذا غلب حملته عقبة حتى انتهينا الى ما انتهى اليه المسلمون وقال البخارى حدثنا محمد ابن سلام حدثنا أبو معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها الذين استجابوا لله والرسول الآية قالت لعروة يا ابن اختى كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر رضى الله عنهما لما أصاب نبى الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال من يرجع فى أثرهم فانتدب منهم سبعون رجلا فيهم أبو بكر والزبير هكذا رواه البخارى منفردا بهذا السياق وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه عن الاصم عن أبى العباس الدورى عن أبى النضر عن أبى سعيد المؤدب عن هشام بن عروة به ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه كذا قال ورواه ابن ماجه عن هشام ابن عمار وهدبة بن عبد الوهاب عن سفيان بن عيينة عن هشام بن عروة به وهكذا رواه سعيد بن منصور وأبو بكر الحميدى فى مسنده عن سفيان به وقد رواه الحاكم أيضا من حديث اسمعيل بن أبى خالد عن التيمى عن عروة وقال قالت لى عائشة ان أبالك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر من أصل كتابه أنبأنا سموية أنبأنا عبد الله بن الزبير أنبأنا سفيان أنبأنا هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كان أبوالك لمن الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح أبو بكر والزبير ورفع هذا الحديث خطأ محض من جهة اسناده لمخالفته رواية الثقات من وقفه على عائشة رضى الله عنها كما قدمناه ومن جهة معناه فان الزبير ليس هو من آباء عائشة وانما قالت ذلك عائشة لعروة بن الزبير لانه ابن أختها أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهم وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سعد حدثنى

أخرج ابن أبى شيبة والبيهقى عن ابن عمر قال نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن خصى البهائم والخيل وأخرج ابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس قال نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن صبر الروح واخصاء البهائم وعن ابن عباس فليغيرن خلق الله قال دين الله وعن الضحاك وسعيد بن جبير مثله وعن الحسن قال الوشم ووصل الشعر وهذه الجمل الخمسة المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالا أو حالا ومافيها من اللامات الخمس للقسم كما تقدم (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله) باتباعه وامتثال ما يأمر به وايثار ما يدعو اليه من دون اتباع لما أمر الله به ولا امتثال له وقيل الولى من الموالاة وهو الناصر (فقد خسر) بتضييع رأس ماله الفطرى (خسرانا مبينا) أى واضحا ظاهرا لان طاعة الشيطان توصله الى نار جهنم المؤبدة عليه وهى غاية الخسران (يعدهم) المواعيد الباطلة كطول العمر (ويمنيهم) الامانى العاطلة فى الدنيا عطف خاص للاهتمام (وما يعدهم الشيطان) أى بما يوقعه فى خواطرهم من الوساوس الفارغة (الا غرورا) يغرهم به ويظهر لهم فيه النفع وهو ضرر محض قال ابن عرفة الغرور ما رأيت له ظاهرا تحبه وله باطن مكروه وهذه الجملة اعتراضية (أولئك) اشارة الى أولياء الشيطان بمراعاة معنى من وهذا مبتدأ وقوله (مأواهم) مبتدأ ثان وقوله (جهنم) خبر للثانى والجملة خبر للاول (ولا يجدون عنها محيصا) أى معدلا من حاص يحيص وقيل منجأ ومخلصا ومحيدا ومهربا وقيل الحيص هو الروغان بنفور والمحيص اسم مكان او مصدر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لوعد الله المؤمنين عقب بيان وعد الشيطان للكافرين (سندخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار) اى من تحت المساكن والغرف (خالدين فيها أبدا) بلا انتهاء ولا غاية والابد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذى لا انقطاع له (وعد الله حقا) قال فى الكشاف مصدران الاول مؤكد لنفسه والثانى مؤكد لغيره ووجهه ان الاول مؤكد لمضمون الجملة الاسمية ومضمونها وعد والثانى مؤكد لغيره أى حق ذلك حقا (ومن أصدق من الله قيلا) هذه

عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس قال ان الله قذف فى قلب أبى سفيان الرعب يوم أحد بعد ما كان منه ما كان فرجع الى مكة فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان أبا سفيان قد أصاب منكم طرفا وقد رجع وقد قذف الله فى قلبه الرعب وكانت وقعة أحد فى شوال وكان التجار يقدمون المدينة فى ذى القعدة فينزلون ببدر الصغرى فى كل سنة مرة وانهم قدموا بعد وقعة أحد وكان أصاب المؤمنين القرح واشتكوا ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم واشتد عليهم الذى أصابهم وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب الناس لينطلقوا معه ويتبعوا ما كانوا متبعين وقال انما يرتحلون الآن فيأتون الحج ولا يقدرون على مثلها حتى عام مقبل فجاء الشيطان يخوف أولياءه فقال ان الناس قد جمعوا لكم فابى عليه الناس أن يتبعوه وقال انى ذاهب وان لم يتبعنى أحد لاحضض الناس فانتدب معه الصديق وعمر وعثمان وعلى والزبير (٣٢٠) وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح فى سبعين رجلا فسار وافى طلب أبى سفيان فطلبوه حتى بلغوا الصفراء فانزل الله تعالى الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما اصابهم القرح الآية ثم قال ابن اسحق فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى الى حمراء الاسد وهى من المدينة على ثمانية أميال قال ابن هشام واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فاقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء ثم رجع الى المدينة وقد مر به كما حدثنى عبد الله بن أبى بكر معبد بن أبى معبد الخزاعى وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيأ كان بها ومعبد يومئذ كان مشركا فقال يا محمد اما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا ان الله عافاك فيهم ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الاسد حتى لقى أبا سفيان ابن حرب ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقالوا أصبنا محمدا وأصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل ان نستأصلهم لنكرن على بقيتهم ثم لنغرن منهم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال ما وراءك يا معبد قال محمد وأصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما صنعوا فيهم من الحنق عليكم بشئ لم أر مثله قط قال ويلك ما تقول قال والله ما أرى ان ترتحل حتى ترى نواصى الخيل قال فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم قال فانى أنهاك عن ذلك ووالله لقد حملنى ما رأيت ان قلت فيهم أبياتا من شعر قال وما قلت قال قلت

كادت تهد من الاصوات راحلتى * اذ سالت الارض بالجرد الابابيل

تردى باسد كرام لا تنابلة * عند اللقاء ولا ميل معازيل فظلت أعدو أظن الارض مائلة * لما سموا برئيس غير مخذول

الجملة مؤكدة لما قبلها والقيل مصدر قال كالقول والقال والاستفهام بمعنى النفى أى لا أحد أصدق قولا من الله عز وجل وقيل ان قيلا اسم لا مصدر وانه منتصب على التمييز قاله ابن السكيت (ليس) دخول الجنة أو الفضل أو القرب من الله أو الامر منوطا (بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب) بل بالعمل الصالح والايمان كما يدل على ذلك سبب نزول الآية وقيل الضمير يعود الى ما وعد الله وهو بعيد ومن أمانى أهل الكتاب قولهم لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه وقولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة عن مسروق قال تفاخر النصارى وأهل الاسلام فقال هؤلاء نحن أفضل منكم وقال هؤلاء نحن أفضل منكم فنزلت وقد ورد معنى هذه الرواية من طرق كثيرة مختصرة ومطولة والامانى جمع أمنية أفعولة من التمنية والتمنى تقدير الشئ فى النفس وتصويره فيها والامنية هى الصورة الحاصلة فى النفس وقيل الخطاب للمسلمين ولليهود والنصارى وقيل لمشركى مكة فى قولهم لا نبعث ولا نحاسب (من يعمل سوأ يجز به) قال الحسن هذا فى حق الكفار ولا وجه له وقال ابن عباس هى عامة فى كل من عمل سوأ وفى هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد وقد كان لها فى صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى هريرة قال لما نزلت من يعمل سوأ يجز به بلغت من المسلمين مبلغا شديدا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها أخرج عبد بن حميد والترمذى وابن المنذر عن أبى بكر الصديق ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له لما نزلت هذه الآية اما أنت وأصحابك يا أبا بكر فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب واما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة وأبى سعيد انهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه الا كفر

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم * اذا تغطمطت البطحاء بالخيل
انى نذير لاهل السيل ضاحية * لكل ذى اربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش تنابلة * وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

قال فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ومر به ركب من عبد القيس فقال أين تريدون قالوا نريد المدينة قال ولم قالوا نريد الميرة قال فهل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة أرسلكم بها اليه وأحمل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ اذا وافيتمونا قالوا نعم قال فاذا وافيتموه فاخبروه انا قد جمعنا المسير اليه والى أصحابه لنستأصل بقيتهم فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الاسد فاخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل وذكر ابن هشام (٣٢١) عن أبى عبيدة قال قال رسول الله صلى الله

الله به من سيآته وقد ورد فى هذا المعنى أحاديث كثيرة (ولا يجدله من دون الله) أى غيره (وليا) يحفظه (ولا نصيرا) يمنعه منه (ومن يعمل من) للتبعيض أى بعض (الصالحات) وهى الفرائض قاله ابن عباس وقال الطبرى من زائدة عند قوم وهو ضعيف لان المكلف لا يطيق عمل كل الصالحات حال كونه (من ذكر أو انثى وهو مؤمن) أى حال كونه مؤمنا والحال الاولى لبيان من يعمل والحال الاخرى لافادة اشتراط الايمان فى كل عمل صالح وفيه اشارة الى ان الاعمال ليست من الايمان (فأولئك) اشارة الى العامل المتصف بالايمان قرئ (يدخلون الجنة) على البناء للمجهول وللمعلوم والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها (ولا يظلمون نقيرا) أى قدر النقير وهو النقرة فى ظهر النواة ومنها تنبت النخلة وهذا على سبيل المبالغة فى نفى الظلم ووعد بتوفية جزاء اعمالهم من غير نقصان كيف والمجازى أرحم الراحمين (ومن) أى لا أحد فهو استفهام انكارى (أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) أى أخلص نفسه له حال كونه محسنا أى عاملا للحسنات وقيل معنى أسلم فوض أمره الى الله وقال ابن عباس هو محسن يريد هو موحد لله عز وجل لا يشرك به شيأ وانما خص الوجه بالذكر لانه أشرف الاعضاء فاذا انقاد لله فقد انقاد له جميع الاعضاء لانها تابعة له (واتبع ملة ابراهيم حنيفا) أى اتبع دين ابراهيم حال كون المتبع مائلا عن الاديان الباطلة الى دين الحق وهو الاسلام وخص ابراهيم للاتفاق على مدحه حتى من اليهود والنصارى (واتخذ الله ابراهيم خليلا) أى جعله صفوة له وخصه بكرامات وفيه اظهار فى مقام الاضمار لتفخيم شأنه والتنصيص على انه متفق على مدحه وفائدة هذه الجملة تأكيد وجوب اتباع ملته لان من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلا كان جديرا بان يتبع ملته قال ثعلب انما سمى الخليل خليلا لان محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملأته وخليل فعيل بمعنى فاعل كالعليم بمعنى العالم وقيل هو بمعنى المفعول كالحبيب بمعنى المحبوب وقد كان ابراهيم عليه السلام

عليه وسلم حين بلغه رجوعهم والذى نفسى بيده لقد سومت لهم حجارة لو أصبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب وقال الحسن البصرى فى قوله الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ان أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبا سفيان قد رجع وقد قذف الله فى قلبه الرعب فمن ينتدب فى طلبه فقام النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبعوهم فبلغ أبا سفيان ان النبى صلى الله عليه وسلم يطلبه فلقى عيرا من التجار فقال ردوا محمدا ولكم من الجعل كذا وكذا وأخبروهم انى قد جمعت جموعا وانى راجع اليهم فجاء التجار فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال النبى صلى الله عليه وسلم

(٤١ - فتح البيان نى) حسبنا الله ونعم الوكيل فأنزل الله هذه الآية وهكذا قال عكرمة وقتادة وغيرهما وان هذا السياق نزل فى شأن غزوة حمراء الاسد وقيل نزلت فى بدر الموعد والصحيح الاول وقوله تعالى الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم الآية أى الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الاعداء فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل وقال البخارى حدثنا أحمد بن يونس قال أراه قال حدثنا أبو بكر عن أبى حصين عن أبى الضحى عن ابن عباس حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل وقد رواه النسائى عن محمد بن اسمعيل بن ابراهيم وهرون بن عبد الله كلاهما عن أبى بكر وهو ابن عياش به والعجب ان الحاكم أبا عبد الله رواه من حديث

أحمد بن يونس به ثم قال صحيح الاسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ثم رواه البخاري عن أبي غسان مالك بن اسمعيل عن اسرائيل عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس قال كان آخر قول ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار حسبنا الله ونعم الوكيل وقال عبد الرزاق قال ابن عيينة وأخبرني زكريا عن الشعبي عن عبد الله بن عمرو قال هي كلمة ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار رواه ابن جرير وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا ابراهيم بن موسى الثوري حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن زياد السكري أنبأنا أبو بكر بن عياش عن حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قيل له يوم أحد ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فأنزل الله هذه الآية وروى أيضا بسنده عن محمد بن عبد الله الرافعي عن أبيه عن جده أبي رافع ان النبي صلى الله عليه وسلم وجه عليا في نفر معه في طلب أبي سفيان فلقيهم أعرابي من خزاعة فقال ان القوم قد

جمعوا لكم فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فنزلت فيهم هذه الآية ثم قال ابن مردويه حدثنا علي بن أحمد حدثنا الحسن بن سفيان أنبأنا أبو خيثمة بن مصعب بن سعد أنبأنا موسى بن أعين عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وقعتم في الامر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل هذا حديث غريب من هذا الوجه وقد قال الامام أحمد حدثنا حيوة ابن شريح وابراهيم بن أبي العباس قالا حدثنا بقية حدثنا يحيى بن سعيد عن خالد بن معدان عن سيف عن عوف بن مالك انه حدثهم ان النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردوا علي الرجل فقال ماقلت قال قلت حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فاذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل وكذا رواه وحبسوها أبو داود والنسائي من حديث بقية عن يحيى بن خالد عن سيف وهو الشامي ولم ينسب عن عوف بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه وقال الامام أحمد حدثنا أسباط حدثنا مطرف عن عطية عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وقد روى هذا من غير وجه وهو حديث جيد وقد روينا عن أم المؤمنين زينب وعائشة رضي الله عنهما انهما تفاخرتا فقالت زينب زوجني الله وزوجكن أهاليكن وقالت عائشة نزلت براءتي من السماء في القرآن فسلمت لها زينب ثم قالت كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل قالت قلت حسبي الله ونعم الوكيل قالت زينب قلت كلمة المؤمنين

محبوب الله ومحباله وقيل الخليل من الاختصاص فالله سبحانه اختص ابراهيم برسالته في ذلك الوقت واختاره لها واختار هذا النحاس قال الزجاج معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل أخرج الحاكم وصححه عن جندب انه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول قبل ان يتوفى ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا وأخرج الحاكم أيضا وصححه عن ابن عباس قال أتعجبون ان تكون الخلة لابراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي تعريف الخلة والسبب الذي من أجله اتخذ الله ابراهيم خليلا أقوال ذكرها أهل التفسير (ولله ما في السموات وما في الارض) ملكا وخلقا وعبيدا فيه اشارة الى انه سبحانه اتخذ ابراهيم خليلا لطاعته لا لحاجته ولا للتكثر به والاعتضاد بحاله وانما قال ما ولم يقل من لانه ذهب به مذهب الجنس والذي يعقل اذا ذكر واريد به الجنس ذكر بلفظ ما قيل مستأنفة لتقرير وجوب طاعة الله وقيل لبيان ان الخلة لا تخرج ابراهيم عن ربقة العبودية (وكان الله بكل شئ محيطا) هذه الجملة مقررة لمعنى الجملة التي قبلها أي أحاط بكل شئ علما وقدرة لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها (ويستفتونك) يطلبون منك الفتوى وهي بالواو وتفتح الفاء وبالياء فتضم وهي اسم من أفتى العالم اذا بين الحكم واستفتيته سألته ان يفتي والجمع الفتاوى بكسر الواو وعلى الاصل وقيل يجوز الفتح للتخفيف (في) شأن (النساء) وميراثهن (قل) لهم (الله يفتيكم فيهن) سبب نزول هذه الآية سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الميراث وغيره فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان يقول لهم ان الله يبين لكم حكم ما سألتم عنه وهذه الآية رجوع الى ما افتتحت به السورة من أمر النساء وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا فقيل لهم الله يفتيكم قال مجاهد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان شيأ كانوا يقولون لا يغزون ولا يغنمون خيرا فقرض الله لهن الميراث حقا واجبا وعن ابراهيم قال كانوا اذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها

ولهذا قال تعالى فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء أى لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم وردّ عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا الى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عدوهم واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم وقال البيهقى حدثنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو بكر بن داود الزاهد حدثنا محمد بن نعيم حدثنا بشر بن الحكم حدثنا مبشر بن عبد الله بن رزين حدثنا سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله فانقلبوا بنعمة من الله وفضل قال النعمة انهم سلموا والفضل ان عيرا مرت فى أيام الموسم فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فربح فيها مالا فقسمه بين أصحابه وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قول الله تعالى الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم قال هذا أبو سفيان قال لمحمد صلى الله عليه وسلم موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا فقال محمد صلى الله عليه وسلم عسى فانطلق (٣٢٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعده حتى نزل بدرا فوافقوا السوق فيها فاشتاعوا فذلك قول الله عز وجل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء الآية قال وهى غزوة بدر الصغرى رواه ابن جرير وروى أيضا عن القاسم عن الحسين عن حجاج عن ابن جريج قال لما عمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعد أبى سفيان جعلوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يكيدونهم بذلك يريدون ان يرعبوهم فيقول المؤمنون حسبنا الله ونعم الوكيل حتى قدموا بدرا فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد قال فقدم رجل من المشركين فاخبر أهل مكة بخيل محمد وقال فى ذلك

نفرت قلوصى من خيول محمد
وعجوة منثورة كالعنجد
واتخذت ماء قديد موعدى

قال ابن جرير هكذا أنشدنا القاسم وهو خطأ انما هو

قد نفرت من رفقتى محمد
* وعجوة من يثرب كالعنجد فهى على دين أبيها الأتلد * قد جعلت ماء قديد موعدى * وماء ضجنان لها ضحى الغد

ثم قال تعالى انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه أى يخوفكم أولياءه ويوهمكم انهم ذو بأس وذو شدة قال الله تعالى فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين أى اذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا على والجؤا الى فانى كافيكم وناصركم عليهم كما قال تعالى أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه الى قوله قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون وقال تعالى فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال تعالى أولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون وقال كتب الله لاغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز وقال ولينصرن الله من ينصره وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم الآية وقال تعالى انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (ولا يحزنك

وحبسوها من التزويج حتى تموت فيرثونها فأنزل الله هذا (وما يتلى عليكم فى الكتاب) أى القرآن الذى يتلى عليكم يفتيكم فيهن والمتلو فى الكتاب فى معنى اليتامى قوله تعالى وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ والغرض منه تعظيم حال هذه الآية التى تتلى عليكم وانها فى اللوح المحفوظ وان العدل والانصاف فى حقوق اليتامى من أعظم الامور عند الله التى تجب مراعاتها وان المخل بها ظالم (فى يتامى النساء) فيه خمسة أوجه أحدها انه بدل من فى الكتاب وهو بدل اشتمال ولا بد من حذف مضاف أى فى حكم يتامى الثانى ان يتعلق بيتلى قاله أبو البقاء الثالث انه بدل من فيهن باعادة العامل الرابع ان يتعلق بنفس الكتاب أى فيما كتب فى حكم اليتامى الخامس انه حال أى كائنا فى حكم يتامى والاضافة من باب اضافة الصفة الى الموصوف اذ الاصل فى النساء اليتامى (اللاتى لا تؤتونهن ما كتب) أى فرض (لهن) من الميراث وقيل من الصداق وغيره وذلك لانهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والكبار دون الصغار (وترغبون ان تنكحوهن) بجمالهن ومالهن بتقدير فى أو لعدم جمالهن ودمامتهن بتقدير عن والآية محتملة للوجهين (والمستضعفين من الولدان) عطف على قوله يتامى النساء وما يتلى فى حقهن هو قوله يوصيكم الله فى أولادكم الآية وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا من كان مستضعفا من الولدان كما سلف وانما يورثون الرجال القائمين بالقتال وسائر الامور (و) يأمركم (ان تقوموا لليتامى بالقسط) أى العدل فى مهورهن ومواريثهن (وما تفعلوا من خير) فى حقوق المذكورين أو من شر ففيه اكتفاء (فان الله كان به عليما) بجازيكم بحسب فعلكم من خير وشر (وان امرأة) مرفوع بفعل يفسره (خافت) أى توقعت ما يخاف من زوجها وقيل معناه تيقنت وهو خطأ (من بعلها) أى زوجها والبعل هو السيد (نشوزا) دوام النشوز قاله الزجاج يعنى ترفعا عليها بترك مضاجعتها والتقصير فى نفقتها لبغضها وطموح عينه الى أجمل منها (أو اعراضا) عنها بوجهه قال النحاس الفرق بين

الذين يسارعون فى الكفر انهم لن يضروا الله شيأ يريد الله ان لا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم ان الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيأ ولهم عذاب أليم ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والارض والله بما تعملون خبير) يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار الى المخالفة والعناد والشقاق فقال تعالى ولا يحزنك ذلك انهم (٣٢٤) لن يضروا الله شيأ يريد الله ان لا يجعل لهم حظا فى الآخرة أى حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ان لا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم ثم قال تعالى مخبرا عن ذلك اخبارا مقررا ان الذين اشتروا الكفر بالايمان أى استبدلوا هذا بهذا لن يضروا الله شيأ أى ولكن يضرون أنفسهم ولهم عذاب أليم ثم قال تعالى ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين كقوله أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون وكقوله فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وكقوله ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ثم قال تعالى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب أى لا بد ان يعقد شيأ من المحنة يظهر فيه وليه وينضح به عدوه يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر يعنى بذلك يوم أحد الذى امتحن الله به المؤمنين فظهر به ايمانهم وهبت وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وهتك به أستار المنافقين فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب قال مجاهد ميز بينهم يوم أحد وقال قتادة ميز بينهم بالجهاد والهجرة وقال السدى قالوا ان كان محمد صادقا فليخبرنا ممن يؤمن به منا ومن يكفر به فأنزل الله تعالى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب أى حتى يخرج المؤمن من الكافر روى ذلك كله ابن جرير ثم قال تعالى وما كان الله ليطلعكم على الغيب أى أنتم لا تعلمون غيب الله فى خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الاسباب الكاشفة عن ذلك ثم قال تعالى ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء كقوله تعالى

النشوز والاعراض ان النشوز التباعد والاعراض ان لا يكلمها ولا يأنس بها (فلا جناح عليهما) أى لا حرج ولا اثم على الزوج والمرأة قال أبو السعود ونفى الجناح عن الزوج ظاهر لانه يأخذ شيأ من قبلها والاخذ مظنة الجناح ومظنة ان يكون من قبيل الرشوة المحرمة وامانفى الجناح عنها مع ان الذى هو من قبلها هو الدفع لا الاخذ فلبيان ان الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطى والآخذ انتهى (أن يصالحا) من المصالحة على قراءة الجمهور وظاهر الآية انها تجوز المصالحة عند مخافة أى نشوز أو أى اعراض والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وظاهرها انه يجوز التصالح باى نوع من أنواعه اما باسقاط النوبة أو بعضها أو بعض النفقة أو بعض المهر وقرأ الكوفيون ان يصلحا من الاصلاح والاول أولى لان قاعدة العرب ان الفعل اذا كان بين اثنين فصاعدا قيل تصالح الرجلان أو القوم لا أصلح (بينهما صلحا) أى فى القسمة والنفقة قال ابن عباس فان صالحته على بعض حقها جاز وان أنكرت ذلك بعد الصلح كان ذلك لها ولها حقها (والصلح) لفظ عام يقتضى ان الصلح الذى تسكن اليه النفوس ويزول به الخلاف (خير) على الاطلاق أو خير من النرقة أو من الخصومة أو من النشوز والاعراض وهذه الجملة اعتراضية قاله الزمخشرى واللام فى الصلح للجنس أو للعهد قد أخرج الترمذى وحسنه وابن المنذر والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس قال خشيت سودة ان يطلقها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله لا تطلقنى واجعل يومى لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية قال ابن عباس فما اصطلحا عليه من شئ فهو جائز وأخرج أبو داود والحاكم وصححه والبيهقى عن عائشة ان سبب نزول الآية هو قصة سودة المذكورة وأخرج البخارى وغيره عنها فى الآية قالت الرجل يكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد ان يفارقها فتقول أجعلك من شأنى فى حل فنزلت هذه الآية وقد ورد عن جماعة من الصحابة نحو هذا وثبت فى الصحيحين من حديث عائشة قالت لما كبرت سودة بنت زمعة

عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ثم قال تعالى فآمنوا بالله ورسله أى أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم وقوله تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم أى لا يحسبن البخيل ان جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه فى دينه وربما كان فى دنياه ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة قال البخارى حدثنا عبد الله بن منير سمع أبا النضر حدثنا عبد الرحمن هو ابن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه يعنى بشدقيه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا هذه الآية ولا يحسبن الذى يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم الى آخر الآية تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه وقد رواه ابن حبان فى صحيحه من طريق الليث بن سعد عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبى صالح به حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا جبرة ابن المغنى حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ابن أبى سلمة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الذى لا يؤدى زكاة ماله يمثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ثم يلزمه يطوقه يقول أنا مالك أنا كنزك وهكذا رواه النسائى عن الفضل ابن سهل عن أبى النضر هاشم بن القاسم عن عبد العزيز بن عبد الله ابن أبى سلمة به ثم قال النسائى ورواية عبد العزيز عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أثبت من رواية عبد الرحمن عن أبيه عبد الله بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة (قلت) ولا منافاة بين الروايتين فقد يكون عند عبد الله بن دينار من الوجهين والله أعلم

وقد ساقه الحافظ أبو بكر بن مردويه من غير وجه عن أبى صالح عن أبى هريرة ومن حديث محمد بن حميد عن زياد الخطمى عن أبى هريرة به حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا سفيان عن جامع عن أبى وائل عن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد لا يؤدى زكاة ماله الا جعل له شجاع أقرع يتبعه يفر منه فيتبعه فيقول أنا كنزك ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة عن جامع بن أبى راشد زاد الترمذى وعبد الملك بن أعين كلاهما عن أبى وائل شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود به وقال الترمذى حسن صحيح وقد رواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى بكر بن عياش وسفيان الثورى كلاهما عن أبى اسحق السبيعى عن أبى وائل عن ابن مسعود ورواه ابن جرير من غير وجه عن ابن مسعود موقوفا حديث آخر قال الحافظ أبو يعلى حدثنا أمية بن بسطام حدثنا يزيد

وهبت يومها لعائشة فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم لها يوم سودة (وأحضرت الانفس الشح) أى شدة البخل وهذا اخبار منه سبحانه بان الشح فى كل واحد منهما بل فى كل الانفس الانسانية كائن وانه جعل كأنه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الاحوال وان ذلك بحكم الجبلة والطبيعة فالرجل يشح بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة وحسن النفقة ونحو ذلك والمرأة تشح على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج فلا تترك له شيأ منها وشح الانفس بخلها بما يلزمها أو يحسن فعله لوجد من الوجوه ومنه ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون عن ابن عباس قال هو اه فى الشئ يحرص عليه والشح أقبح البخل وحقيقته الحرص على منع الخير (وان تحسنوا) أيها الازواج الصحبة والعشرة (وتتقوا) ما لا يجوز من النشوز والاعراض فى حق المرأة فانها أمانة عندكم وقيل المعنى ان تحسنوا بالاقامة معها على الكراهة وتتقوا ظلمها والجور (فان الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازيكم الله يا معشر الازواج بما تستحقونه (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء) أخبر سبحانه بنفى استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذى لا ميل فيه البتة لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس الى هذه دون هذه وزيادة هذه فى المحبة ونقصان هذه وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية ولهذا كان يقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك رواه ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن المنذر عن عائشة واسناده صحيح قال ابن مسعود العدل بين النساء الجماع وقال الحسن الحب وكذا المحادثة والمجالسة والنظر اليهن والتمتع (ولو حرصتم) يعنى على العدل والتسوية بينهن فى الحب وميل القلب (فلا تميلوا كل الميل) الى التى تحبونها فى القسم والنفقة ولما كانوا لا يستطيعون ذلك ولو حرصوا عليه وبالغوا فيه نهاهم عز وجل عن ان يميلوا كل الميل لان ترك ذلك وتجنب الجور كل

ابن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ترك بعده كنزا مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه فيقول من أنت ويلك فيقول أنا كنزك الذي خلفت بعدك فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبع سائر جسده اسناده جيد قوي ولم يخرجوه وقد رواه الطبراني عن جرير بن عبد الله البجلي ورواه ابن جرير وابن مردويه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يأتي الرجل مولاه فيسأله من فضل مال عنده فيمنعه اياه الا دعي له يوم القيامة شجاعا يتلمظ فضله الذي منع لفظ ابن جرير وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الاعلى حدثنا داود عن أبي قزعة عن رجل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده فيبخل به الا خرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه ثم رواه من طريق أخرى عن أبي قزعة واسمه سويد بن حجير بن بيان عن أبي مالك العبدي موقوفا ورواه من وجه آخر عن أبي قزعة مرسلا وقال العوفي عن ابن عباس نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة ان يبينوها رواه ابن جرير والصحيح الاول وان دخل هذا في معناه وقد يقال ان هذا أولى بالدخول والله سبحانه وتعالى أعلم وقوله تعالى ولله ميراث السموات والارض أي فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فان الامور كلها مرجعها الى الله عز وجل فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم والله بما تعملون خبير أي بنياتكم وضمائركم (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد الذين قالوا ان الله عهد الينا ان لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات والزبر والكتاب المنير) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس لما نزل قوله تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة قالت اليهود يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض فأنزل الله لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء الآية رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم وقال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أن حدثه عن ابن عباس قال دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له أشيع فقال له أبو بكر ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله انك لتعلم ان محمدا رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والانجيل فقال

الجور في وسعهم وداخل تحت طاقتهم فلا يجوز لهم ان يميلوا عن احداهن الى الاخرى كل الميل (فتذروها) أي الاخرى المال عنها (كالمعلقة) التي ليست ذات زوج ولا مطلقة تشبيها بالشيء الذي هو معلق غير مستقر على شيء لا في السماء ولا في الارض أي لا أيما ولا ذات زوج وقرأ أبي بن كعب فتذروها كالمسجونة لا هي مخلصة فتتزوج ولا هي ذات بعل فيحسن اليها وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأهل السنن عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كانت له امرأتان فمال الى احداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط (وان تصلحوا) ما أفسدتم من الامور التي تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء والعدل بينهن في القسم والحب (وتتقوا) الجور في القسم وكل الميل الذي نهيتم عنه (فان الله كان غفورا رحيما) بكم لا يؤاخذكم بما فرط منكم من الميل الى بعضهن دون بعض (وان يتفرقا) أي لم يتصالحا بل فارق كل واحد منهما صاحبه بالطلاق (يغن الله كلا) منهما أي يجعله مستغنيا عن الآخر بان يهيئ للرجل امرأة توافقه وتقر بها عينه وللمرأة رجلا تغتبط بصحبته ويرزقهما (من سعته) رزقا يغنيهما به عن الحاجة وفي هذا تسلية لكل واحد من الزوجين بعد الطلاق (وكان الله واسعا حكيما) واسع الفضل والرحمة وقيل القدرة والعلم والرزق صادرة أفعاله على جهة الاحكام والاتقان (ولله ما في السموات وما في الارض) هذه جملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه وشمول قدرته لان من ملكهما لا تنفى خزائنه (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب) أي أمرناهم فيما أنزلناه عليهم من الكتب واللام في الكتاب للجنس (من قبلكم) من اليهود والنصارى وأصحاب الكتب القديمة (واياكم) يا أهل القرآن في كتابكم (أن اتقوا الله) أي أمرناهم وأمرناكم بالتقوى وقال الاخفش بان اتقوا الله ويجوز ان تكون أن مفسرة لان التوصية في معنى القول وهو ان وحدوه وتطيعوه وتحذروه وتخافوه ولا تخالفوا أمره والمعنى ان الامر بتقوى الله شريعة قديمة أوصى الله بها جميع

فنحاص والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من حاجة من فقر وانه الينا الفقير ما نتضرع اليه كما يتضرع الينا وانا عنه لاغنياء ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنيا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر رضى الله عنه فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله فاكذبونا ما استطعتم ان كنتم صادقين فذهب فنحاص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر فقال يا رسول الله ان عدو الله قال قولا عظيما يزعم ان الله فقير وانهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه فجحد فنحاص ذلك وقال ما قلت ذلك فأنزل الله فيما قال فنحاص لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء الآية رواه ابن أبى حاتم وقوله سنكتب ما قالوا تهديد ووعيد ولهذا قرنه تعالى بقوله وقتلهم الانبياء بغير حق هذا قولهم فى الله وهذه معاملتهم رسل الله وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ولهذا قال تعالى ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد أى يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا وتحقيرا وتصغيرا وقوله تعالى الذين قالوا ان الله عهد الينا ان لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار يقول تعالى تكذيبا لهؤلاء الذين زعموا ان الله عهد اليهم فى كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته ان من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه ان تنزل نار من السماء تأكلها قاله ابن عباس والحسن وغيرهما قال الله عز وجل قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات أى بالحجج والبراهين وبالذى قلتم أى وبنار تأكل القرابين المتقبلة فلم قتلتموهم أى فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ان كنتم صادقين أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل ثم قال تعالى مسليا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات والزبر والكتاب المنير أى لا يهولنك تكذيب هؤلاء لك فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤا به من البينات وهى الحجج والبراهين القاطعة والزبر وهى الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين والكتاب المنير أى الواضح الجلى (كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور) يخبر تعالى اخبارا عاما يعم جميع الخليقة بان كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام فهو تعالى وحده الحى الذى لا يموت والجن والانس يموتون وكذلك الملائكة وحملة العرش وينفرد الواحد القهار بالديمومية والبقاء فيكون آخرا كما كان أولا وهذه

الامم السالفة فى كتبهم على ألسن رسلهم (وان تكفروا) أى وقلنا لهم ولكم ان تكفروا وتجاحدوا ما أوصاكم به (فان لله ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا وعبيدا فلا يضره كفركم وفائدة هذا التكرير التأكيد ليتنبه العباد على سعة ملكه ويتطروا فى ذلك ويعلموا انه غنى عن خلقه (وكان الله غنيا) عن جميع خلقه (حميدا) مستحمدا اليهم قاله ابن عباس وعن على مثله (ولله ما فى السموات وما فى الارض) أى عبيدا وملكا قيل تكريرها تعديد لما هو موجب تقواه لان التقوى والخشية أصل كل خير وقيل كلام مبتدأ سيق للمخاطبين توطئة لما بعده من الشرطية غير داخل تحت القول المحكى (وكفى بالله وكيلا) أى حفيظا قاله قتادة وقال ابن عباس شهيدا على ان له فيهن عبيدا وقيل دافعا ومجيرا (ان يشأ يذهبكم) أى يفنكم (أيها الناس) ويستأصلكم بالمرة قال ابن عباس يريد المشركين والمنافقين (ويأت) أى يوجد دفعة مكانكم (بآخرين) أى بقوم آخرين من البشر أو خلقا مكان الانس غيركم هم خير منكم وهو كقوله تعالى وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (وكان الله على ذلك) أى على ان يهلك من خلقه ما شاء ويأتى بآخرين من بعدهم (قديرا) لا يمتنع عليه شئ أراده ولم يزل ولا يزال موصوفا بالقدرة على جميع الاشياء (من كان يريد ثواب الدنيا) هو من يطلب بعمله شيأ من الدنيا كالمجاهد يطلب الغنيمة دون الاجر (فعند الله) أى فما له يقتصر على أدنى الثوابين وأحقر الاجرين وهلا طلب بعمله ما عند الله سبحانه وهو (ثواب الدنيا والآخرة) فيحرزهما جميعا ويفوز بهما ظاهر الآية العموم وقال ابن جرير الطبرى انها خاصة بالمشركين والمنافقين (وكان الله سميعا) أى يسمع ما يقولونه (بصيرا) أى يبصر ما يفعلونه وهذا تذييل بمعنى التوبيخ (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين) صيغة مبالغة أى ليتكرر ويدم منكم القيام (بالقسط) وهو العدل فى شهاداتكم وفى جميع أموركم ومن عدل مرة أو مرتين لا يكون فى الحقيقة قواما (شهداء) بالحق وقيل بالوحدانية جمع شهيد قياسا أو شاهد على

الآية فيها تعزية لجميع الناس فانه لا يبقى أحد على وجه الارض حتى يموت فاذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها كثيرها وقليلها كبيرها وصغيرها فلا يظلم أحدا مثقال ذرة ولهذا قال تعالى وانما توفون أجوركم يوم القيامة قال ابن أبي حاتم حدثنا عبد العزيز الاويسي حدثنا علي بن أبي علي الهاشمي عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة ان في الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا واياه فارجوا فان المصاب من حرم الثواب (٣٢٨) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته قال جعفر بن محمد فأخبرني أبي ان علي

غير قياس وهو خبر بعد خبر لكان أو حال قال ابن عطية والحال فيه ضعيفة في المعنى لانها تخصيص القيام بالقسط الى معنى الشهادة فقط والاول أولى و (لله) أي لمرضاته وثوابه (ولو على أنفسكم) متعلق بشهداء هذا المعنى هو الظاهر من الآية وهو الاقرار بما عليكم من الحقوق (أو الوالدين والاقربين) اي من ذوي رحمه وأقاربه فاما شهادته على والديه فبأن يشهد عليهما بحق للغير وكذلك الشهادة على الاقربين وذكر الابوين لوجوب برهما وكونهما أحب الخلق اليه ثم ذكر الاقربين لانهم مظنة المودة والتعصب فاذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم فالاجنبي من الناس أحرى ان يشهدوا عليه وقد قيل ان معنى الشهادة على النفس ان يشهد بحق على من يخشى لحوق ضرر منه على نفسه وهو بعيد (ان يكن) المشهود عليه من الاقارب أو الاجانب (غنيا) فلا يراعى لاجل غنائه استجلابا لنفعه أو استدفاعا لضره فتترك الشهادة عليه (أو فقيرا) فلا يراعى لفقره رحمة له واشفاقا عليه فيترك الشهادة عليه وقرأ ابن مسعود ان يكن غني او فقير على ان كان تامة وانما قال (فالله اولى بهما) ولم يقل به مع ان التخيير انما يدل على الخصول لواحد لان المعنى فالله اولى بكل واحد منهما وقيل رد الضمير الى المعنى دون اللفظ وقال الاخفش يكون أو بمعنى الواو وقيل انه يجوز ذلك مع تقدم ذكرهما كما في قوله تعالى وله أخ او اخت فلكل واحد منهما السدس وقد تقدم في مثل هذا ما هو أبسط مما هنا وقرأ ابي فالله اولى بهم (فلا تتبعوا الهوى) في الشهادة (ان تعدلوا) اما من العدل كأنه قال فلا تتبعوا الهوى كراهة ان تعدلوا بين الناس واختاره الزمخشري او من العدول واختاره القاضي كأنه قال فلا تتبعوا الهوى مخافة ان تعدلوا عن الحق أو كراهة ان تعدلوا عنه (وان تلووا) من اللي يقال لويت فلانا حقه اذا دفعت عنه والمراد لي الشهادة ميلا الى المشهود عليه وقرأ الكوفيون وان تلوا من الولاية اي وان تلوا الشهادة وتتركوا ما يجب عليكم من تأديتها على وجهه الحق وقد قيل ان هذه القراءة تفيد معنيين الولاية والاعراض والقراءة الاولى تفيد معنى

ابن أبي طالب قال أتدرون من هذا هذا الخضر عليه السلام وقوله فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز أي من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن عبد الله الانصاري حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأوا ان شئتم فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز هذا الحديث ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة وقد رواه بدون هذه الزيادة أبو حاتم وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث محمد بن عمرو هذا ورواه ابن مردويه من وجه آخر فقال حدثنا محمد بن أحمد بن ابراهيم حدثنا محمد ابن يحيى أنبأنا حميد بن مسعدة أنبأنا عمرو بن علي عن أبي حازم عن سهل ابن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها قال ثم تلا واحدا هذه الآية فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز قال وتقدم عند قوله تعالى ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ما رواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن الاعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت الى الناس ما يحب ان يؤتى اليه وقد رواه الامام أحمد في مسنده عن وكيع به وقوله تعالى وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور تصغير لشأن الدنيا وتحقير لامرها وانها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى وفي الحديث والله ما الدنيا في الآخرة الا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم

فلينظر ثم ترجع اليه وقال قتادة فى قوله تعالى وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور قال هى متاع متروك أوشك والله الذى لا اله الا هو أن تضمحل عن أهلها فخذوا من هذا المتاع طاعة الله ان استطعتم ولا قوة الا بالله وقوله تعالى لتبلون فى أموالكم وأنفسكم كقوله تعالى ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات الى آخر الآيتين أى لابد ان يبتلى المؤمن فى شئ من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ويبتلى المرء على قدر دينه فان كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم (٣٢٩)

واحدا وهو الاعراض وزعم بعض النحويين ان القراءة الثانية غلط ولحن لانه لا معنى للولاية هنا قال النحاس وغيره وليس يلزم هذا ولكن يكون تلووا بمعنى تلووا والمعنى ما قال ابن عباس يلوى لسانه بغير الحق ولا يقيم الشهادة على وجهها (أو تعرضوا) عن تأدية الشهادة من الاصل وقيل معناه التحريف والتبديل فى الشهادة وقيل هو خطاب مع الحكام أن يميلوا مع أحد الخصمين أو يعرضوا عنه بالكلية (فان الله كان بما تعملون) من اللى والاعراض أو من كل عمل (خبيرا) وفى هذا وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة كما يجب عليه وقد روى ان هذه الآية تعم القاضى والشهود أما الشهود فظاهر وأما القاضى فذلك بأن يعرض عن أحد الخصمين أو يلوى عن الكلام معه وقيل هى خاصة باليهود قال ابن عباس أمر الله المؤمنين أن يقولوا بالحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم لا يهابون غنيا لغناه ولا يرحمون مسكينا لمسكنته وقال الرجلان يجلسان عند القاضى فيكون لى القاضى واعراضه لاحد الرجلين على الآخر (يا أيها الذين آمنوا) خطاب لكافة المسلمين وذكر ذلك عقب الامر بالعدل لانه لا يكون العدل الا بعد الاتصاف بالايمان فهو من ذكر السبب بعد المسبب (آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) أى اثبتوا على ايمانكم وداوموا عليه على حد فاعلم انه لا اله الا الله ويا أيها النبى اتق الله والكتاب هو القرآن واللام للعهد والكتاب الثانى هو كل كتاب واللام للجنس وقيل ان الآية نزلت فى المنافقين والمعنى يا أيها الذين آمنوا فى الظاهر أخلصوا لله وقيل نزلت فى المشركين والمعنى يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى آمنوا بالله وهما ضعيفان (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أى بشئ من ذلك كما جرى عليه القاضى كالكشاف وذكر الرسول فيما سبق لذكر الكتاب الذى أنزل عليه وذكر الرسل هنا لذكر الكتب جملة فناسبه ذكر الرسل جملة وجمع أيضا لما أن الكفر بكتاب أو رسول كفر بالكل قاله الكرخى وتقديم الملائكة على الرسل لانهم الوسائط بين الله وبين رسله قال الضحاك يعنى بذلك أهل الكتاب كان الله قد أخذ ميثاقهم فى التوراة والانجيل وأقروا على أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فلما بعث الله رسوله دعاهم الى أن يؤمنوا بمحمد والقرآن وذكرهم الذى أخذ عليهم من الميثاق فمنهم من صدق النبى صلى الله عليه وآله وسلم واتبعه

المدينة قبل وقعة بدر مسليا لهم عما نالهم من الاذى من أهل الكتاب والمشركين وآمرا لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله فقال تعالى وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب بن أبى حمزة عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير ان اسامة بن زيد أخبره قال كان النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الاذى قال الله تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول فى العفو ما أمره الله حتى أذن الله فيهم هكذا ذكره مختصرا وقد ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية مطولا فقال حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير ان اسامة بن زيد حدثه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأردف اسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة ببنى الحرث بن

(٤٢ - فتح البيان ثانى) الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سلول وذلك قبل ان يسلم ابن أبى واذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الاوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفى المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبى أنفه بردائه وقال لا تغبروا علينا فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل ودعاهم الى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبى أيها المرء انه لا أحسن مما تقول ان كان حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ارجع الى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه فقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه بلى يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فانا نحب ذلك فاستب

المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا سعد ألم تسمع الى ما قال أبو حباب يريد عبد الله بن أبي قال كذا وكذا فقال سعد يا رسول الله اعف عنه واصفح فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على ان يتوجوه فيعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك فذلك الذي فعل به ما رأيت فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الاذى قال الله تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا الآية وقال تعالى ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره الآية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا فقتل الله به صناديد كفار قريش قال عبد الله ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الاوثان هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الاسلام فبايعوا وأسلموا فكل من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر فلا بد ان يؤذى فماله دواء الا الصبر في الله والاستعانة بالله والرجوع الى الله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ولله ملك السموات والارض والله على كل شئ ومن قدير) هذا ميثاق بيّن من الله وتهديد لاهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الانبياء ان يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وان ينوّهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره فاذا أرسله الله تابعوه فكتموا ذلك وتعوّضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف فبئست الصفقة صفقتهم وبئست البيعة بيعتهم وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسلكهم فعلى العلماء ان يبذلوا ما بايديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح

ومنهم من كفر (فقد ضل) عن القصد لان الكفر ببعضه كفر بكله (ضلالا بعيدا) عن الحق بحيث يعسر العود منه الى سواء الطريق وقول القاضي بحيث لا يكاد يعود الى طريقه لا يصح الا اذا كانت الآية في جمع مخصوص علم الله منهم أنهم يموتون على الكفر ولا يتوبون عنه والظاهر انه لا يحتاج الى هذه المبالغة بل المراد ما أشرنا اليه لان الذين يكفرون بما ذكر قد يسلم بعضهم وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما أنه بالكفر بأحدها لا يتحقق الايمان أصلا وجمع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو رسول كفر بالكل (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا) أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة التي آمنت ثم كفرت ثم آمنت ثم كفرت ثم ازدادت كفرا بعد ذلك كله انه (لم يكن الله) سبحانه (ليغفر لهم) ذنوبهم ما أقاموا عليه (ولا ليهديهم سبيلا) طريقا يتوصلون به الى الحق ويسلكونه الى الخير لانه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا لله ويؤمنوا ايمانا صحيحا لان قلوبهم قد تعودت الكفر وتمرنت على الردة وكان الايمان عندهم أهون شئ وأدونه لانهم لو أخلصوا الايمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم وفي هذا اشارة الى أن الكفر بعد التوبة مغفور ولو بعد ألف مرة كما قاله الاصفهاني وغيره وهذا الاضطراب منهم تارة يدعون انهم مؤمنون وتارة يمرقون من الايمان ويرجعون الى ما هو دأبهم وشأنهم من الكفر المستمر والجحود الدائم يدل أبلغ دلالة على أنهم متلاعبون بالدين ليست لهم نية صحيحة ولا قصد خالص قيل المراد بهؤلاء اليهود فانهم آمنوا بموسى والتوراة ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم آمنوا به عند عوده اليهم ثم كفروا بعيسى والانجيل ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن والمراد بازدياد الكفر انهم استمروا على ذلك كما هو الظاهر من حالهم والا فالكافر اذا آمن وأخلص ايمانه وأقلع عن الكفر فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة والاسلام يجب ما قبله ولكن لما كان هذا مستبعدا منهم جدا كان غفران ذنوبهم وهدايتهم الى سبيل الحق مستبعدا وعن قتادة قال هم اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت وآمنت النصارى بالانجيل ثم كفرت ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن ابن زيد قال هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين ثم كفروا مرتين ثم ازدادوا كفرا بعد ذلك بموتهم على الكفر وذلك لان من تكرر منه الايمان والكفر بعد الايمان مرات كثيرة دل على أنه لا وقع للايمان في قلبه

ولا يكتموا منه شيأ فقد ورد فى الحديث المروى من طرق متعددة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار وقوله تعالى لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا الآية يعنى بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا كما جاء فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله الا قلة وفى الصحيحين أيضا المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور وقال الامام أحمد حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى ابن أبى مليكة ان حميد ابن عبد الرحمن بن عوف أخبره ان مروان قال اذهب يا رافع لبوابه (٣٣١) الى ابن عباس فقل لان كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعين فقال ابن عباس مالكم وهذه انما نزلت هذه فى أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا الآية وقال ابن عباس سألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن شئ فكتموه اياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه ان قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك اليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه وهكذا رواه البخارى فى التفسير ومسلم والترمذى والنسائى فى تفسيريهما وابن أبى حاتم وابن خزيمة والحاكم فى مستدركه وابن مردويه كلهم من حديث عبد الملك بن جريج بنحوه ورواه البخارى أيضا من حديث ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن علقمة بن وقاص ان مروان قال لبوابه اذهب يا رافع الى ابن عباس فذكره وقال البخارى حدثنا سعيد ابن أبى مريم أنبأنا جعفر بن محمد حدثنى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى ان رجالا من المنافقين كانوا اذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو اعتذروا اليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا الآية وكذا رواه مسلم من حديث ابن أبى مريم بنحوه وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث الليث ابن سعد عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال قال أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت كنا عند مروان فقال يا أبا سعيد أرأيت

ومن كان كذلك لا يكون مؤمنا بالله ايمانا كاملا صحيحا وازدادهم الكفر هو استهزاؤهم وتلاعبهم بالايمان قال على لا تقبل توبته أى توبة مثل هذا المتلاعب وذهب أكثر أهل العلم الى أن توبته مقبولة وظاهر القرآن مع على (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) مؤلما هو عذاب النار اطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم تهكم بهم وقدم تحقيقه وقيل البشارة كل خبر تتغير به بشرة الوجه سارا كان ذلك الخبر أو غير سار والاول أولى وقيل المعنى اجعل موضع بشارتك لهم العذاب لان العرب تقول تحيتك الضرب أى هذا بدل من تحيتك (الذين يتخذون الكافرين أولياء) وصف للمنافقين أو منصوب على الذم أى يجعلون الكفار أولياءهم يوالونهم على كفرهم ويمالئونهم على ضلالهم (من دون المؤمنين) حال من فاعل يتخذون أى يتخذون الكفرة متجاوزين ولاية المؤمنين لما يتوهمون فيهم من القوة ولقولهم ان ملك محمد سيزول (أيبتغون عندهم العزة) هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ والجملة معترضة أى لا يجدونها عندهم (فان العزة لله جميعا) هذه الجملة تعليل لما تقدم من توبيخهم بابتغاء العزة عند الكافرين وجميع أنواع العزة وافرادها مختص بالله سبحانه فى الدنيا والآخرة ولا ينالها الا أولياؤه الذين كتب لهم العزة وما كان منها مع غيره فهو من فيضه وتفضله كما فى قوله ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وهذا يقتضى بطلان التعزز بغيره سبحانه واستحالة الانتفاع به وعزة الكفار ليس معتدا بها بالنسبة الى عزة المؤمنين لانه لا يعز الا من أعزه الله والعزة الغلبة يقال عزه يعزه عزا اذا غلبه (وقد نزل عليكم فى الكتاب) الخطاب لجميع من أظهر الايمان من مؤمن ومنافق لان من أظهر الايمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزل الله وقيل انه خطاب للمنافقين فقط كما يفيده التشديد والتوبيخ والكتاب هو القرآن والذى أنزله الله عليهم فى الكتاب هو قوله تعالى واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وهذا نزل بمكة لانه قد كان جماعة من الداخلين فى الاسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به فنهوا عن ذلك ثم ان أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين وكان المنافقون يجلسون اليهم ويخوضون معهم فى الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله (أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها) أى اذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله فأوقع السماع على

ومن كان كذلك لا يكون مؤمنا بالله ايمانا كاملا صحيحا وازدادهم الكفر هو استهزاؤهم وتلاعبهم بالايمان قال على لا تقبل توبته أى توبة مثل هذا المتلاعب وذهب أكثر أهل العلم الى أن توبته مقبولة وظاهر القرآن مع على (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) مؤلما هو عذاب النار اطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم تهكم بهم وقدم تحقيقه وقيل البشارة كل خبر تتغير به بشرة الوجه سارا كان ذلك الخبر أو غير سار والاول أولى وقيل المعنى اجعل موضع بشارتك لهم العذاب لان العرب تقول تحيتك الضرب أى هذا بدل من تحيتك (الذين يتخذون الكافرين أولياء) وصف للمنافقين أو منصوب على الذم أى يجعلون الكفار أولياءهم يوالونهم على كفرهم ويمالئونهم على ضلالهم (من دون المؤمنين) حال من فاعل يتخذون أى يتخذون الكفرة متجاوزين ولاية المؤمنين لما يتوهمون فيهم من القوة ولقولهم ان ملك محمد سيزول (أيبتغون عندهم العزة) هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ والجملة معترضة أى لا يجدونها عندهم (فان العزة لله جميعا) هذه الجملة تعليل لما تقدم من توبيخهم بابتغاء العزة عند الكافرين وجميع أنواع العزة وافرادها مختص بالله سبحانه فى الدنيا والآخرة ولا ينالها الا أولياؤه الذين كتب لهم العزة وما كان منها مع غيره فهو من فيضه وتفضله كما فى قوله ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وهذا يقتضى بطلان التعزز بغيره سبحانه واستحالة الانتفاع به وعزة الكفار ليس معتدا بها بالنسبة الى عزة المؤمنين لانه لا يعز الا من أعزه الله والعزة الغلبة يقال عزه يعزه عزا اذا غلبه (وقد نزل عليكم فى الكتاب) الخطاب لجميع من أظهر الايمان من مؤمن ومنافق لان من أظهر الايمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزل الله وقيل انه خطاب للمنافقين فقط كما يفيده التشديد والتوبيخ والكتاب هو القرآن والذى أنزله الله عليهم فى الكتاب هو قوله تعالى واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وهذا نزل بمكة لانه قد كان جماعة من الداخلين فى الاسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به فنهوا عن ذلك ثم ان أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين وكان المنافقون يجلسون اليهم ويخوضون معهم فى الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله (أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها) أى اذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله فأوقع السماع على

قول الله تعالى لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل فقال أبو سعيد ان هذا ليس من ذلك انما ذلك ان ناسا من المنافقين يتخلفون اذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا فان كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم وان كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم و يحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح فقال مروان أين هذا من هذا فقال أبو سعيد وهذا يعلم هذا فقال مروان أكذلك يا زيد قال نعم صدق أبو سعيد ثم قال أبو سعيد وهذا يعلم ذلك يعني رافع ابن خديج ولكنه

يخشى ان أخبرك ان تنزع قلائصه في الصدقة فلما خرجوا قال زيد لابي سعيد الخدري ألا تحمدني على ما شهدت لك فقال له أبو سعيد شهدت الحق فقال زيد أولا تحمدني على ما شهدت الحق ثم رواه من حديث مالك عن زيد بن أسلم عن رافع ابن خديج انه كان هو وزيد بن ثابت عند مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال مروان يا رافع في أي شئ نزلت هذه الآية فذكره كما تقدم عن أبي سعيد رضي الله عنهم وكان مروان يبعث بعد ذلك يسأل ابن عباس كما تقدم فقال له ما ذكرناه ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء لان الآية عامة في جميع ما ذكر والله أعلم وقد روى ابن مردويه أيضا من حديث محمد ابن عتيق وموسى بن عقبة عن الزهري عن محمد بن ثابت الانصاري ان ثابت بن قيس الانصاري قال يا رسول الله والله لقد خشيت ان أكون هلكت قال لم قال نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل وأجدني أحب الحمد ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال ونهى الله ان نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ترضى ان تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة فقال بلى يا رسول الله فعاش حميدا وقتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب وقوله تعالى فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد وبالياء على الاخبار عنهم أي لا تحسب انهم ناجون من العذاب بل لا بد لهم منه ولهذا قال تعالى ولهم عذاب أليم ثم قال تعالى ولله ملك السموات والارض والله على كل شئ قدير أي هو مالك كل شئ والقادر على كل شئ فلا يعجزه شئ فهابوه ولا تخالفوه واحذروا غضبه ونقمته فانه العظيم الذي لا أعظم منه القدير الذي لا أقدر منه (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب الذين

الآيات والمراد سماع الكفر والاستهزاء (فلا تقعدوا معهم) ما داموا كذلك (حتى) غاية للنهي (يخوضوا في حديث غيره) أي حديث الكفر والاستهزاء وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للادلة الشرعية كما يقع كثيرا من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة ولم يبق في أيديهم سوى قال امام مذهبنا كذا وقال فلان من أتباعه بكذا واذا سمعوا من يستدل على تلك المسئلة بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه ولم يرفعوا الى ما قاله رأسا ولا بالوا به بالة وظنوا انه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع وخالف مذهب امامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه القائل واجتهاده الذي هو عن منهج الحق مائل مقدما على الله وعلى كتابه وعلى رسوله فانا لله وانا اليه راجعون ما صنعت هذه المذاهب بأهلها والائمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة اليهم برآء من فعلهم فانهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم كما أوضح الشوكاني ذلك في القول المفيد وأدب الطلب اللهم انفعنا بما علمتنا واجعلنا من المتقيدين بالكتاب والسنة وباعد بيننا وبين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار يا مجيب السائلين قال ابن عباس دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع الى يوم القيام (انكم اذا مثلهم) مستأنفة سيقت لتعليل النهي أي انكم ان فعلتم ذلك وقعدتم معهم ولم تنتهوا فانتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب قيل وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ولكنه الزام شبيه بحكم الظاهر كما في قول القائل * وكل قرين بالمقارن يقتدي * وهذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم الا ما يروى عن الكلبي فانه قال هي منسوخة بقوله تعالى وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ وهو مردود فان من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله و يستهزؤن بها قال أهل العلم هذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر ومن رضي بمنكر أو خالط أهله كان في الاثم بمنزلتهم اذا رضي به وان لم يباشره فان جلس اليهم ولم يرض بفعلهم بل كان ساخطا له وانما جلس على التقية والخوف فالامر فيه أهون من المجالسة مع الرضا وان جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض في بدعته أو منكره فيجوز الجلوس معه مع الكراهة وقيل لا يجوز بحال والاول أولى (ان الله جامع المنافقين والكافرين) هذا تعليل لكونهم مثلهم

يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا انا سمعنا منادیا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) قال الطبرانى حدثنا الحسين بن اسحق التسترى حدثنا يحيى الحمانى حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتت قريش اليهود فقالوا بم جاءكم موسى قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين (٣٣٣) وأتوا النصارى فقالوا كيف كان عيسى قالوا كان يبرئ الاكمه والابرص ويحيى الموتى فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهبا فدعا ربه فنزلت هذه الآية ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب فليتفكروا فيها وهذا مشكل فان هذه الآية مدنية وسؤالهم ان يكون الصفا ذهبا كان بمكة والله أعلم ومعنى الآية ان الله تعالى يقول ان فى خلق السموات والارض أى هذه فى ارتفاعها واتساعها وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات وثوابت وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الالوان والطعوم والروايح والخواص واختلاف الليل والنهار أى تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر فتارة يطول هذا ويقصر هذا ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيرا ويقصر الذى كان طويلا وكل ذلك تقدير العزيز العليم ولهذا قال تعالى لآيات لأولى الالباب أى العقول التامة الزكية التى تدرك الاشياء بحقائقها على جلياتها وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله فيهم وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون ثم وصف تعالى أولى الالباب فقال الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم كما ثبت فى الصحيحين عن عمران بن حصين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنبك أى لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض أى يفهمون ما فيها من الحكم

مثلهم فى الكفر قيل وهم القاعدون والمقعود اليهم عند من جعل الخطاب موجها الى المنافقين وعن سعيد بن جبير قال ان الله جامع المنافقين من أهل المدينة والمشركين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤا بالقرآن (فى جهنم جميعا) كما اجتمعوا فى الدنيا على الكفر والاستهزاء (الذين يتربصون بكم) أى ينتظرون بكم ما يتجدد ويحدث لكم من خير أو شر يقال تربصت الامر تربصا انتظرته والربصة وزان غرفة اسم منه وتربصت الامر بفلان انتظرت وقوعه به والخطاب فى بكم للمؤمنين والموصول صفة للمنافقين أو بدل منهم فقط دون الكافرين لان التربص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين وعليه جرى القاضى كالكشاف ويجوز أن يكون على الذم (فان كان لكم فتح) هذه الجملة والتى بعدها حكاية لتربصهم أى ان حصل لكم فتح (من الله) بالنصر على من يخالفكم من الكفار وبالظفر على عدوكم وغنيمة تنالون منهم (قالوا) لكم (ألم نكن معكم) فى الاتصاف بظاهر الاسلام والتزام أحكامه والمظاهرة والتسويد وتكثير العدد (وان كان للكافرين نصيب) من الغلب لكم والظفر بكم (قالوا) للكافرين (ألم نستحوذ عليكم) أى ألم نقهركم ونغلبكم ونتمكن منكم ولكن أبقينا عليكم وقيل المعنى انهم قالوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين ألم نستحوذ عليكم حتى هابكم المسلمون وخذلناهم عنكم والاول أولى فان معنى الاستحواذ الغلب يقال استحوذ على كذا أى غلب عليه ومنه قوله تعالى استحوذ عليهم الشيطان ولا يصح ان يقال ألم نغلبكم حتى هابكم المسلمون ولكن المعنى ألم نغلبكم يا معشر الكافرين ونتمكن منكم فتركناكم وأبقينا عليكم حتى حصل لكم هذا الظفر بالمسلمين وسمى ظفر المسلمين فتحا وظفر الكافرين نصيبا تعظيما لشأن المسلمين وتحقيرا لحظ الكافرين لتضمن الاول نصرة دين الله واعلاء كلمته ولهذا أضاف الفتح اليه تعالى وحظ الكافرين فى ظفرهم دنيوى سريع الزوال قاله الكرخى (ونمنعكم من المؤمنين) بتخذيلهم وتثبيطهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم عن الدفع لكم وعجزوا عن الاتصاف منكم والمراد أنهم يميلون الى من له الغلب والظفر من الطائفتين ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله وشأن من حذا حذوهم من أهل الاسلام من التظهر لكل طائفة بأنه معها على الاخرى والميل الى من معه الحظ من الدنيا فى مال أو جاه فيلقاه بالتملق والتودد والخضوع والذلة ويلقى من لا حظ له من

الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته وقال الشيخ أبو سليمان الدارانى انى لاخرج من منزلى فما يقع بصرى على شئ الا رأيت لله على فيه نعمة ولى فيه عبرة رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التوكل والاعتبار وعن الحسن البصرى انه قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة وقال الفضيل قال الحسن الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيآتك وقال سفيان بن عيينة الفكرة نور يدخل قلبك وربما تمثل بهذا البيت اذا المرء كانت له فكرة * ففى كل شئ له عبرة وعن عيسى عليه السلام انه قال طوبى لمن كان قيله تذكرا وصمته تفكرا ونظره عبرا (٣٣٤) قال لقمان الحكيم ان طول الوحدة ألهم للفكرة وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة وقال وهب بن منبه ما طالت فكرة امرئ قط الا فهم ولا فهم امرؤ قط الا علم ولا علم امرؤ قط الا عمل وقال عمر ابن عبد العزيز الكلام بذكر الله عز وجل حسن والفكرة فى نعم الله أفضل العبادة وقال مغيث الاسود زوروا القبور كل يوم تتفكركم وشاهدوا الموقف بقلوبكم وانظروا الى المنصرف بالفريقين الى الجنة أو النار وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها واطباقها وكان يبكى عند ذلك حتى يرفع صريعا من بين أصحابه قد ذهب عقله وقال عبد الله بن المبارك مر رجل براهب عند مقبرة وهو يبكى فناداه فقال يا راهب ان عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما مقبر كنز الرجال وكنز الاموال وعن ابن عمر انه كان اذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين فيقول أين أهلك ثم يرجع الى نفسه فيقول كل شئ هالك الا وجهه وعن ابن عباس انه قال ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه وقال الحسن البصرى يا ابن آدم كل فى ثلث بطنك واشرب فى ثلثه ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة وقال بعض الحكماء من نظر الى الدنيا بغير العبرة قال انطمس من بصر قلبه بقدر ذلك الغفلة وقال بشر بن الحرث الحافى لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه وقال الحسن عن عامر بن عبد قيس قال سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يقولون ان ضياء الايمان او نور الايمان التفكر وعن عيسى عليه السلام انه قال يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت وكن فى الدنيا ضعيفا واتخذ المساجد بيتا وعلم عينيك البكاء وجسدك الصبر وقلبك الفكر ولا تهتم برزق غد وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه انه بكى يوما بين

الدنيا بالشدة والغلظة وسوء الخلق ويزدرى به ويكافحه بكل مكروه فقبح الله أخلاق أهل النفاق وأبعدها (فالله يحكم بينكم) وبينهم (يوم القيامة) بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق والبغض للحق وأهله ففى هذا اليوم تنكشف الحقائق وتظهر الضمائر وان حقنوا فى الدنيا دماءهم وحفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الاسلام نفاقا وقيل يحكم بأن يدخلكم الجنة ويدخلهم النار (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) هذا فى يوم القيامة اذا كان المراد بالسبيل النصر والغلب أو فى الدنيا ان كان المراد به الحجة يعنى ان حجة المؤمنين غالبة فى الدنيا على الكافرين وليس لاحد أن يغلبهم بالحجة قال ابن عطية قال جميع أهل التأويل ان المراد بذلك يوم القيامة وبه قال على وابن عباس قال ابن العربى وهذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه وسببه توهم من توهم ان آخر الكلام يرجع الى أوله يعنى قوله فالله يحكم بينكم يوم القيامة وذلك يسقط فائدته اذ يكون تكرارا هذا معنى كلامه وقيل المعنى ان الله لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين يحوبه دولتهم بالكلية ويذهب آثاره ويستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبى بعضهم بعضا وقيل انه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل ولا تاركين للنهى عن المنكر كما قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم قال ابن العربى وهذا نفيس جدا وقيل ان الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعا فان وجد فبخلاف الشرع فان شريعة الاسلام ظاهرة الى يوم القيامة هذا خلاصة ما قاله أهل العلم فى هذه الآية وهى صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل منها ان الكافر لا يرث المسلم ومنها ان الكافر اذا استولى على مال المسلم لم يملكه ومنها أن الكافر ليس له أن يشترى عبدا مسلما ومنها أن المسلم لا يقتل بالذمى الى غير ذلك من الاحكام (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين وفضائحهم وقد تقدم معنى الخدع فى البقرة ومخادعتهم لله هى أنهم يفعلون فعل المخادع من اظهار الايمان وابطان الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية ومعنى كون الله خادعهم انه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه وذلك بأنه تركهم على ما هم عليه من التظهر بالاسلام فى الدنيا فعصم به أموالهم ودماءهم وأخر عقوبتهم الى الدار الآخرة فجازاهم على خداعهم بالدرك الاسفل من النار

أصحابه فسئل عن ذلك فقال فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر ان فيها مواعظ لمن ادكر وقال ابن أبي الدنيا أنشدني الحسين بن عبد الرحمن

نزهة المؤمن الفكر * لذة المؤمن العبر نحمد الله وحده * نحن كل على خطر رب لاه وعمره * قد تقضى وما شعر
رب عيش قد كان فو * ق المنى مونق الزهر في خرير من العيو * ن وظل من الشجر وسرور من النبا * ت وطيب من الثمر
غيرته وأهله * سرعة الدهر بالغير * نحمد الله وحده * ان في ذا لمعتبر (٣٣٥) * ان في ذا العبرة * للبيب ان اعتبر وقدم

قال في الكشاف والخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته اذا غلبته وكنت أخدع منه وقال الحسن في قوله يخادعون الله يلقى على كل مؤمن ومنافق نور يمشون به يوم القيامة حتى اذا انتهوا الى الصراط طفئ نور المنافقين ومضى المؤمنون بنورهم فتلك خديعة الله اياهم وعن السدى ومجاهد وسعيد بن جبير نحوه ولا أدرى من أين جاءلهم هذا التفسير فان مثله لا ينقل الا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (واذا قاموا الى الصلاة) مع المؤمنين (قاموا كسالى) جمع كسلان والمراد انهم يصلون وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا وقرى كسلى والكسل الفتور والتواني وأكسل اذا جامع ولم ينزل وفتر (يراؤن الناس) أي لا يقومون الى الصلاة الا لاجل الرياء والسمعة لا لأجل الدين قال قتادة والله لولا الناس ما صلى منافق والرياء اظهار الجميل ليراه الناس لا لاتباع أمر الله وقد تقدم بيانه والمراآة المفاعلة قاله الزمخشري والجملة حال وقيل استئناف وقيل بدل وفيه نظر (ولا يذكرون الله الا) ذكرا (قليلا) أو لا يصلون الا صلاة قليلة ووصف الذكر بالقلة لعدم الاخلاص أو لكونه غير مقبول أو لكونه قليلا في نفسه لان الذي يفعل الطاعة لقصد الرياء انما يفعلها في الجامع ولا يفعلها خاليا كالمخلص قال ابن عباس انما قل ذلك لانهم يفعلونه رياء وسمعة ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله لكان كثيرا عن ابن جريج في الآية قال نزلت في عبد الله بن أبي وأبي عامر بن النعمان وقد ورد في الاحاديث الصحيحة وصف صلاة المنافق وانه يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرني شيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها الا قليلا (مذبذبين بين ذلك) أي بين الايمان والكفر المعلومين من المقام والمذبذب المتردد بين أمرين والذبذبة الاضطراب يقال ذبذبه فتذبذب قال ابن جني المذبذب القلق الذي لا يثبت على حال فهؤلاء المنافقون مترددون بين المؤمنين والمشركين لا مخلصين الايمان ولا مصرحين بالكفر قال في الكشاف وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى أي يذاد ويدفع فلا يقر في جانب واحد الا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب كأن المعنى كلما مال الى جانب ذب عنه انتهى وانتصاب مذبذبين اما على الحال أو على الذم (لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) اى لا منسوبين الى المؤمنين ولا الى الكافرين قال مجاهد هم المنافقون لا الى هؤلاء أي أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا الى هؤلاء أي اليهود وثبت في الصحيح عن

الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون ومدح عباده المؤمنين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض قائلين ربنا ما خلقت هذا باطلا أي ما خلقت هذا الخلق عبثا بل بالحق لتجزي الذين أساؤا بما عملوا وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا سبحانك أي عن أن تخلق شيأ باطلا فقنا عذاب النار أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقيضنا لاعمال ترضى بها عنا ووفقنا لعمل صالح تهدينا به الى جنات النعيم وتجيرنا به من عذابك الاليم ثم قالوا ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته أي أهنته وأظهرت خزيه لاهل الجمع وما للظالمين من أنصار أي يوم القيامة لا مجير لهم منك ولا محيد لهم عما أردت بهم ربنا انا سمعنا منادا ينادي للايمان أي داعيا يدعو الى الايمان وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ان آمنوا بربكم فآمنا أي يقول آمنوا بربكم فآمنا أي فاستجبنا له واتبعناه ربنا فاغفر لنا ذنوبنا أي بايماننا واتباعنا نبيك فاغفر لنا ذنوبنا أي استرها وكفر عنا سيآتنا فيما بيننا وبينك وتوفنا مع الابرار أي ألحقنا بالصالحين ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك قيل معناه على الايمان برسلك وقيل معناه على ألسنة رسلك وهذا أظهر وقد قال الامام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا اسمعيل بن عياش عن عمرو بن محمد عن أبي عقال عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عسقلان أحد العروسين يبعث الله منها يوم القيامة

سبعين ألفا الاحساب عليهم ويبعث منها خمسين ألفا شهداء وفود الى الله وبها صفوف الشهداء رؤسهم مقطعة فى أيديهم تشخب أوداجهم دما يقولون ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فيقول الله صدق عبيدى اغسلوهم بنهر البيضة فيخرجون منها نقاء بيضا فيسرحون فى الجنة حيث شاؤا وهذا الحديث يعد من غرائب السند ومنهم من يجعله موضوعا والله أعلم ولا تخزنا يوم القيامة أى على رؤس الخلائق انك لا تخلف الميعاد أى لابد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك وقد قال الحافظ أبو يعلى (٣٣٦) حدثنا الحافظ أبو شريح حدثنا المعتمر حدثنا الفضل بن عيسى حدثنا محمد بن المنكدر

ان جابر بن عبد الله حدثه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العار والتخزية تبلغ من ابن آدم فى القيامة فى المقام بين يدى الله عز وجل ما يتمنى العبد أن يؤمر به الى النار حديث غريب وقد ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران اذا قام من الليل لتهجده فقال البخارى رحمه الله حدثنا سعيد ابن أبى مريم حدثنا محمد بن جعفر أخبرنى شريك بن عبد الله بن أبى نمر عن كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال بت عند خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر الى السماء فقال ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الآيات ثم قام فتوضأ واستن ثم صلى احدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح وهكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن اسحق الصنعانى عن ابن أبى مريم به ثم رواه البخارى من طرق عن مالك عن مخرمة بن سليمان عن كريب ان ابن عباس أخبره انه بات عند خالته ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قال فاضطجعت صلى فى عرض الوسادة واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله فى طولها فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من منامه فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام الى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلى قال ابن عباس رضى الله عنهما فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت الى جنبه فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على رأسى وأخذ بأذنى فتلها فصلى

ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير الى هذه مرة والى هذه مرة فلا تدرى أيهما تتبع العائرة بالعين المهملة المتحيرة المترددة ومعنى تعير تتردد وتذهب يمينا وشمالا مرة الى هذه ومرة الى هذه لا تدرى الى أين تذهب (ومن يضلل الله) أى يخذله ويسلبه التوفيق (فلن تجد له سبيلا) أى طريقا توصله الى الحق (يا أيها الذين آمنوا) خطاب للمؤمنين الخلص (لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لا تجعلوهم خاصة لكم وبطانة توالونهم من دون اخوانكم من المؤمنين كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين (أتريدون) الاستفهام للتقريع والتوبيخ وتوجيه الانكار الى الارادة دون متعلقها بأن يقال أتجعلون للمبالغة فى انكاره وتهويل أمره ببيان انه لا ينبغى ان يصدر عن العاقل ارادته فضلا عن صدور نفسه (ان تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) اى حجة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لمناهيها كم عنه من موالاة الكافرين قال قتادة ان لله السلطان على خلقه ولكنه يقول عذرا مبينا وعن ابن عباس قال كل سلطان فى القرآن فهو حجة والله سبحانه أعلم والسلطان يذكر ويؤنث فتذكيره باعتبار البرهان وتأنيثه باعتبار الحجة الا أن التأنيث أكثر عند الفصحاء وقال الفراء التذكير أشهر وهى لغة القرآن (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) أى فى الطبق الذى فى قعر جهنم قرئ الدرك بسكون الراء وتحريكها قال أبو على هما لغتان والجمع أدراك وقيل جمع المحرك ادراك مثل جمل وأجمال وجمع الساكن أدرك مثل فلس وأفلس قال النحاس والتحريك أفصح والدرك الطبقة والنار دركات سبع بعضها فوق بعض وسميت طبقاتها دركات لانها متداركة متتابعة فالمنافق فى الدرك الاسفل منها وهى الهاوية لغلظ كفره وكثرة غوائله وأعلى الدركات جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية وقد يسمى جميعها باسم الطبقة العليا أعاذنا الله من عذابها وقيل الدرك بيت مقفل عليهم تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم وانما كان المنافق أشد عذابا من الكافر لانه أمن السيف فى الدنيا فاستحق الدرك الاسفل فى الآخرة تعديلا ولانه مثله فى الكفر وضم الى كفره الاستهزاء بالاسلام وأهله قال ابن مسعود الدرك الاسفل توابيت من حديد مقفلة عليهم وفى لفظ مبهمة عليهم أى مغلقة لا يهتدى لمكان فتحها وعن أبى هريرة نحوه (ولن تجد لهم نصيرا) يخلصهم من ذلك الدرك والخطاب لكل من يصلح له أو للنبى

ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن مالك به ورواه مسلم أيضا وأبو داود من وجوه أخر عن مخرمة بن سليمان به طريق أخرى لهذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن على حدثنا أبو يحيى عن أبى ميسرة أنبأنا خلاد بن يحيى أنبأنا يونس عن أبى اسحق عن المنهال بن عمرو عن على بن عبد الله بن عباس قال أمرنى العباس ان أبيت بأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحفظ صلاته قال فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة العشاء الاخيرة حتى اذا لم يبق فى المسجد أحد غيرى قام فمر بى فقال من هذا عبد الله قلت نعم قال فيه قلت أمرنى العباس ان أبيت بكم الليلة قال فالحق الحق فلما دخل قال افرش عبد الله قال فاتى بوسادة من مسوح قال فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها حتى سمعت غطيطه ثم استوى على فراشه قاعدا قال فرفع رأسه الى السماء فقال سبحان الملك القدوس ثلاث مرات ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى من حديث على بن عبد الله بن عباس عن أبيه حديثا فى ذلك أيضا طريق أخرى رواها ابن مردويه من حديث عاصم بن بهدلة عن بعض أصحابه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل فنظر الى السماء وتلا هذه الآية ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الى آخر السورة ثم قال اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا وعن يمينى نورا وعن شمالى نورا ومن بين يدى نورا ومن خلفى نورا وفوقى نورا ومن تحتى نورا وأعظم لى نورا يوم القيامة وهذا الدعاء ثابت فى بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس رضى الله عنه ثم روى ابن مردويه وابن أبى حاتم من حديث جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتت قريش اليهود فقالوا لهم جاءكم موسى من الآيات قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين وأتوا النصارى فقالوا كيف كان عيسى فيكم فقالوا كان يبرئ الاكمه والابرص ويحيى الموتى فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا ادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا فدعا ربه عز وجل فنزلت ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب قال فليتفكروا فيها النظر ابن مردويه وقد تقدم هذا الحديث من رواية

صلى الله عليه وآله وسلم (الا الذين تابوا) من النفاق (وأصلحوا) ما أفسدوا من أحوالهم وأعمالهم (واعتصموا بالله) أى تمسكوا بعهده وثقوا به والاعتصام به التمسك به والوثوق بوعده (وأخلصوا دينهم لله) أى جعلوه خالصا له غير مشوب بطاعة غيره فهذه الامور الاربعة اذا حصلت فقد كمل الايمان وذلك قوله (فأولئك) الذين اتصفوا بالصفات السابقة الاربعة والاشارة بما فيه من معنى البعد للايذان ببعد المنزلة وعلو الطبقة (مع المؤمنين) فيما يؤتونه قال الفراء أى من المؤمنين يعنى الذين لم يصدر منهم نفاق أصلا قال القتيبى حاد عن كلامهم غضبا عليهم فقال أولئك مع المؤمنين ولم يقل هم المؤمنون انتهى والظاهر ان معنى مع معتبر هنا أى فأولئك مصاحبون للمؤمنين فى أحكام الدنيا والآخرة ثم بين ما أعد الله للمؤمنين الذين هؤلاء معهم فقال (وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) فى الآخرة وحذفت الياء من يؤتى فى الخط كما حذفت فى اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ومثله يوم يدع الداع وسندع الزبانية ويوم ينادى المناد ونحوها فان الحذف فى الجميع لالتقاء الساكنين فجاء الرسم تابعا للفظ والقراء يقفون عليه دون ياء اتباعا للخط الكريم الا يعقوب والكسائى وحمزة فانهم يقفون بالياء نظرا الى الاصل (ما يفعل الله بعذابكم) هذه الجملة متضمنة لبيان انه لا غرض له سبحانه فى التعذيب الا مجرد المجازاة للعصاة والاستفهام للتقرير والمعنى أى منفعة له فى عذابكم (ان شكرتم وآمنتم) فان ذلك لا يزيد فى ملكه كما ان ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه (وكان الله شاكرا عليما) أى يشكر عباده على طاعته فيثيبهم عليها ويتقبلها منهم والشكر فى اللغة الظهور يقال دابة شكور اذا ظهر من سمنها فوق ما تعطى من العلف (لا يحب الله) نفى الحب كناية عن البغض أى يبغض (الجهر بالسوء من القول الا من ظلم) قرئ على البناء للمجهول وعلى البناء للمعلوم واختلف أهل العلم فى كيفية الجهر بالسوء الذى يجوز لمن ظلم فقيل هو أن يدعو على من ظلمه وقيل لا بأس بأن يجهر بالسوء من القول على من ظلمه بأن يقول فلان ظلمنى أو هو ظالم أو نحو ذلك وقيل معناه الا من أكره على أن يجهر بسوء من القول من كفر أو نحوه فهو مباح له والآية على هذا فى الاكراه وكذا قال قطرب والظاهر من الآية انه يجوز لمن ظلم أن يتكلم بالكلام الذى هو من السوء فى جانب من ظلمه ويؤيده الحديث الثابت فى الصحيح بلفظ لى الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته

الطبرانى فى أول الآية وهذا يقتضى ان تكون هذه الآيات مكية والمشهور انها مدنية ودليله الحديث الآخر قال ابن مردويه حدثنا على بن اسمعيل حدثنا أحمد بن على الحرانى حدثنا شجاع بن أشرس حدثنا حشرج بن نباتة الواسطى حدثنا أبو مكرم عن الكلبى وهو ابن جناب عن عطاء قال انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير الى عائشة رضى الله عنها فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا قال قول الشاعر * زر غبا تزدد حبا * فقال ابن عمر ذرنا أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت كل أمره (٢٣٨) كان عجبا أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال ذرينى أتعبد لربى عز وجل قالت فقلت والله انى لأحب قربك وانى أحب أن تعبد ربك فقام الى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد فبكى حتى بل الارض ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى اذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وقد رواه عبد بن حميد فى تفسيره عن جعفر بن عوف الكلبى عن أبى حباب عن عطاء قال دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى فى خدرها فسلمنا عليها فقالت من هؤلاء قال فقلنا هذا عبد الله بن عمر وعبيد بن عمير قالت يا عبيد بن عمير ما يمنعك من زيارتنا قال ما قال الاول * زر غبا تزدد حبا * قالت انا نحب زيارتك وغشيانك قال عبد الله ابن عمر دعينا من بطالتكما هذه أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت ثم قالت كل أمره كان عجبا أتانى فى ليلتى حتى دخل معى فى فراشى حتى لصق جلده بجلدى ثم قال يا عائشة أتأذنين لى أتعبد لربى قالت انى لاحب قربك وأحب هواك قالت فقام الى قربة فى البيت فأكثر صب الماء ثم قام فقرأ القرآن ثم بكى حتى رأيت ان دموعه قد بلغت حقويه قالت ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت حجره قالت ثم اتكأ على جنبه الايمن ووضع يده تحت خده قالت ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت الارض فدخل عليه بلال فآذنه بصلاة الفجر ثم قال الصلاة يا رسول الله فلما رآه

وأما على القراءة الثانية فالاستثناء منقطع أى الا من ظلم فى فعل أو قول فاجهروا له بالسوء من القول فى معنى النهى عن فعله والتوبيخ له وقال قوم معنى الكلام لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول لكن من ظلم فانه يجهر بالسوء ظلما وعدوانا وهو ظالم فى ذلك وهذا شأن كثير من الظلمة فانهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم على من ظلموه وينالون من عرضه وقال الزجاج يجوز أن يكون المعنى الا من ظلم فقال سوأ فانه ينبغى أن يأخذوا على يديه وعن ابن عباس قال لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد الا أن يكون مظلوما فانه رخص له أن يدعو على من ظلمه وان يصبر فهو خير له وقد أخرج ابن أبى شيبة والترمذى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا على من ظلمه فقد انتصر وقد أخرج أبو داود من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال المتسابان ما قالا فعلى البادئ منهما مالم يعتد المظلوم قال الحسن هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه ولكن ليقل اللهم أعنى عليه اللهم استخرج لى حقى اللهم حل بينى وبين ما يريد ونحوه من الدعاء وقيل نزلت فى الضيف اذا نزل بقوم فلم يقروه فله أن يشكو ما صنع به وبه قال مجاهد والاول أولى وقال مقاتل نزلت فى أبى بكر الصديق وذلك ان رجلا نال منه والنبى حاضر فسكت عنه أبو بكر مرارا ثم رد عليه فقام النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال أبو بكر يا رسول الله شتمنى فلم تقل له شيأ حتى اذا رددت عليه قمت قال ان ملكا كان يجيب عنك فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان فقمت ونزلت هذه الآية (وكان الله سميعا عليما) هذا تحذير للظالم بأن الله يسمع ما يصدر منه ويعلم به ثم بعد ان أباح للمظلوم أن يجهر بالسوء ندب الى ما هو الاولى والافضل فقال (ان تبدوا خيرا أو تخفوه) يدخل فى هاتين الكلمتين جميع أعمال البر وجميع دفع الضرر (أو تعفوا عن سوء) تصابون به (فان الله كان عفوا) عن عباده (قديرا) على الانتقام منهم بما كسبت أيديهم فاقتدوا به سبحانه فانه يعفو مع القدرة (ان الذين يكفرون بالله ورسله) لما فرغ سبحانه عن ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى لانهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزلة والكفر بذلك كفر بالله وينبغى حمل هذه الآية على انه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل لانهم كفروا بالله ورسله جميعا فان أهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله

بلال يبكي قال يارسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا ومالي لا أبكي وقد نزل علي الليلة ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الى قوله سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عمران بن موسى عن عثمان بن أبي شيبة عن يحيى بن زكريا عن ابراهيم بن سويد النخعي عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء قال دخلت انا وعبيد بن عمير على عائشة فذكر نحوه حديث آخر فيه غرابة قال أبو بكر بن مردويه (٣٣٩) حدثنا عبد الرحمن بن بشير بن نمير حدثنا

رسله لكنهم لما كفروا ببعض كان ذلك كفرا بالله وبجميع الرسل (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله) يعني انهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم وآمنوا بالله فكان ذلك تفريقا بين الله وبين رسله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) وهم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد وكذلك النصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك) أي الايمان والكفر (سبيلا) أي دينا متوسطا بينهما قال قتادة أولئك أعداء الله اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة وبموسى وكفروا بالانجيل وعيسى وآمنت النصارى بالانجيل وعيسى وكفروا بالقرآن ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم اتخذوا اليهودية والنصرانية وهما بدعتان ليستا من الله وتركوا الاسلام وهو دين الله الذي بعث به رسله وعن السدي وابن جريج نحوه (أولئك هم الكافرون) أي الكاملون في الكفر (حقا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي حق ذلك حقا أو بمعنى كفرا حقا وقال أبو البقاء كافرون من غير شك وقد طعن الواحدي في هذا التوجيه فقال الكفر لا يكون حقا بوجه من الوجوه والجواب أن الحق هنا ليس يراد به ما يقابل الباطل بل المراد انه كائن لا محالة وان كفرهم مقطوع به (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) يهانون فيه في الآخرة وهو عذاب النار وانما أظهر في مقام الاضمار ذما لهم وتذكيرا لوصفهم أو المراد جميع الكافرين (والذين آمنوا بالله ورسله) كلهم (ولم يفرقوا بين أحد منهم) أي من الرسل بل آمنوا بجميعهم ولم يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ودخول بين على أحد لكونه عاما في المفرد مذكرا ومؤنثا ومثناه وجمعها وقد تقدم تحقيقه (أولئك) يعني من هذه صفتهم (سوف يؤتيهم أجورهم) يعني جزاء ايمانهم بالله وبجميع كتبه ورسله وثواب أعمالهم (وكان الله غفورا رحيما) يستر السيآت ويقبل الحسنات والآية تدل على بطلان قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة ممن آمن بالله ورسله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) هم اليهود سألوه صلى الله عليه وآله وسلم أن يرقى الى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتابا مكتوبا فيما يدعيه يدل على صدقه دفعة واحدة كما أتى موسى بالتوراة تعنتا منهم أبعدهم الله (فقد سألوا موسى) سؤالا (أكبر من ذلك) السؤال (فقالوا أرنا الله جهرة) أي عيانا وقد تقدم معناه في البقرة

اسحق بن ابراهيم البستي ح قال وحدثنا اسحق بن ابراهيم بن زيد حدثنا أحمد بن عمرو قال أنبأنا هشام ابن عمار أنبأنا سليمان بن موسى الزهري أنبأنا مظاهر بن أسلم المخزومي أنبأنا سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة مظاهر ابن أسلم ضعيف (فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيآتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب) يقول تعالى فاستجاب لهم ربهم أي فاجابهم ربهم كما قال الشاعر

وداع دعا يا من يجيب الى الندا
فلم يستجبه عند ذاك مجيب

قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن سلمة رجل من آل أم سلمة قال قالت أم سلمة يا رسول الله ألا تسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فانزل الله تعالى فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى الى آخر الآية وقالت الانصار هي أول ظعينة قدمت علينا وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة ثم قال صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة قالت آخر آية نزلت هذه الآية فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض الى آخرها رواه ابن مردويه ومعنى الآية ان المؤمنين ذوي الالباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك بفاء التعقيب كما قال تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون وقوله

تعالى أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى هذا تفسير للاجابة أى قال لهم مخبرا أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى وقوله بعضكم من بعض أى جميعكم فى ثوابى سواء فالذين هاجروا أى تركوا دار الشرك وأتوا الى دار الايمان وفارقوا الاحباب والاخوان والخلان والجيران وأخرجوا من ديارهم اى صايقهم المشركون بالاذى حتى ألجؤهم الى الخروج من بين أظهرهم ولهذا قال وأوذوا فى سبيلى أى انما كان ذنبهم الى الناس انهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى يخرجون الرسول وإياكم ان تؤمنوا بالله ربكم وقال (٣٤٠) تعالى وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد وقوله تعالى وقاتلوا وقتلوا وهذا أعلى المقامات ان يقاتل فى سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه وقد ثبت فى الصحيحين ان رجلا قال يارسول الله أرأيت ان قتلت فى سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر أيكفر الله عنى خطاياى قال نعم ثم قال كيف قلت فاعاد عليه ما قال فقال نعم الا الدين قاله لى جبريل آنفا ولهذا قال تعالى لاكفرن عنهم سيآتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار أى تجرى فى خلالها الانهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقوله ثوابا من عند الله اضافه اليه ونسبه اليه ليدل على انه عظيم لان العظيم الكريم لا يعطى الا جزيلا كثيرا كما قال الشاعر

ان يعذب يكن غراما وان يعـ ـط جزيلا فانه لا يبالى

وقوله تعالى والله عنده حسن الثواب أى عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحا قال ابن أبى حاتم ذكر عن رحيم بن ابراهيم قال حدثنا الوليد بن مسلم اخبرنى جرير بن عثمان ان شداد بن أوس كان يقول أيها الناس لا تتهموا الله فى قضائه فانه لا يبغى على مؤمن فاذا أنزل باحدكم شيأ مما يحب فليحمد الله واذا أنزل به شيأ مما يكره فليصبر وليحتسب فان الله عنده حسن الثواب (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار) يقول تعالى لا تنظر الى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور فانما هو قليل يزول هذا كله عنهم ويصيرون مرتهنين باعمالهم السيئة فانما نملى لهم فيما هم فيه استدراجا وجميع ما هم فيه

وجهرة نعت لمصدر محذوف أى رؤية جهرة (فأخذتهم الصاعقة) هى النار التى نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم (بظلمهم) فى سؤالهم الباطل لامتناع الرؤية عيانا فى هذه الحالة وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة فقد جاءت بذلك الاحاديث المتواترة ومن استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة فقد غلط غلطا بينا ثم لم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذى نشأ منهم بسبب ظلمهم بعد ما رأوا المعجزات بل ضموا اليه ما هو أقبح منه وهو عبادة العجل (ثم اتخذوا العجل) الها وفى الكلام تقدير أى فأحييناهم فاتخذوا العجل (من بعد ما جاءتهم البينات) البراهين والدلائل والمعجزات الواضحات من اليد والعصا وفلق البحر وغيرها الا التوراة لانها لم تنزل عليهم بعد (فعفونا عن ذلك) أى عما كان منهم من التعنت وعبادة العجل وفيه استدعاء لهم الى التوبة كانه قيل ان أولئك الذين أجرموا قد تابوا فاعفوا عنهم فتوبوا أنتم حتى نعفو عنكم (وآتينا موسى سلطانا مبينا) أى حجة بينة وهى الآيات التى جاء بها وسميت سلطانا لان من جاء بها قهر خصمه ومن ذلك أمر الله سبحانه له بان يأمرهم بقتل أنفسهم توبة عن معصيتهم فانه من جملة السلطان الذى قهرهم به والسلاطة القهر (ورفعنا فوقهم الطور) أى الجبل المسمى بالطور (بميثاقهم) الباء للسببية أى بسبب ميثاقهم ليعطوه لانه روى انهم امتنعوا من قبول شريعة موسى فرفع الله عليهم الطور فقبلوها وقيل ان المعنى بسبب نقضهم ميثاقهم الذى أخذ عليهم وهو العمل بما فى التوراة وقد تقدم رفع الجبل فى البقرة وكذلك تفسير قوله (وقلنا لهم) على لسان موسى والطور مظل عليهم قاله الجلال وأبو السعود والنسفى والخازن والبيضاوى وهذا التقييد سبق قلم لان قصة فتح القرية كانت بعد خروجهم من التيه وقصة رفع الجبل فوق رؤسهم كانت عقب نزول التوراة قبل دخولهم التيه (ادخلوا الباب) أى باب القرية قال قتادة كنا نحدث انه باب من أبواب بيت المقدس وقيل هو ايلياء وقيل هو أريحاء وقيل هو اسم قرية وقيل باب القبة التى كانوا يصلون اليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام (سجدا) خافضوا رؤسهم وهم يزحفون على أستاههم (وقلنا لهم لا تعدوا) أى لا تعتدوا فيه ومن الاعتداء دليل اجماع السبعة على اعتدوا منكم (فى السبت) فتأخذوا ما أمرتم بتركه فيه من الحيتان وقد تقدم تفسير ذلك (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) هو العهد الذى أخذه عليهم فى التوراة وقيل انه عهد مؤكد

متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد وهذه الآية كقوله تعالى ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد وقال تعالى ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون وقال تعالى نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ وقال تعالى فمهل الكافرين أمهلهم رويدا أي قليلا وقال تعالى أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين وهكذا الماذكر حال الكفار في الدنيا وذكر أن مآلهم الى النار قال بعده لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن نصر حدثنا أبو طاهر سهل بن عبد الله أنبأنا هشام بن عمار أنبأنا سعيد أنبأنا يحيى أنبأنا عبيد الله بن الوليد الرصافي عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال انما سموا الابرار لانهم بروا الآباء والابناء كما ان لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق كذا رواه ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن حباب حدثنا عيسى بن يونس عن عبيد الله بن الوليد الرصافي عن محارب ابن دثار عن ابن عمر وقال انما سماهم الله الابرار لانهم بروا الآباء والابناء كما ان لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق وهذا أشبه والله أعلم ثم قال ابن ابي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا هشام الدستوائي عن رجل عن الحسن قال الابرار الذين لا يؤذون الذر وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا أحمد ابن سنان حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن خيثمة عن الاسود قال قال عبد الله يعني ابن مسعود ما من نفس برة ولا فاجرة الا الموت خير لها ان كان برا لقد قال الله تعالى وما عند الله خير للابرار وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري عن الاعمش به وقرأ ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا اسحق حدثنا ابن أبي جعفر عن نوح بن فضالة عن لقمان عن أبي الدرداء انه كان يقول ما من مؤمن الا والموت خير له وما من كافر الا والموت خير له ومن لم يصدقني فان الله يقول وما عند الله خير للابرار ويقول ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب

باليمين فسمى غليظا لذلك (فبما نقضهم ميثاقهم) التقدير فبنقضهم ميثاقهم لعناهم وسخطنا عليهم وفعلنا بهم ما فعلنا وما مزيدة للتوكيد والباء للسببية وقال الكسائي وهو متعلق بما قبله والمعنى فأخذتهم الصاعقة بسبب نقضهم ميثاقهم وما بعده وأنكر ذلك ابن جرير الطبري وغيره لان الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى والذين قتلوا الانبياء ورموا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برميهم بالبهتان قال المهدوي وغيره وهذا لا يلزم لانه يجوز أن يخبر عنهم والمراد آباؤهم وقال الزجاج المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم لان هذه القصة ممتدة الى قوله فبظلم من الذين هادوا حرمنا ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل المعنى فبنقضهم ميثاقهم وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم وقيل المعنى فبنقضهم لا يؤمنون الا قليلا (وكفرهم بآيات الله) أي كتبه التي حرفوها وجحودهم بآياته الدالة على صدق أنبيائه (وقتلهم الانبياء) يعني بعد قيام الحجة والدلالة على صحة نبوتهم والمراد بالانبياء يحيى وزكريا (بغير حق) أي بغير استحقاق لذلك القتل (وقولهم قلوبنا غلف) جمع أغلف وهو المغطى بالغلاف أي قلوبنا في أغطية فلا نفقه ما تقول وقيل ان غلف جمع غلاف والمعنى ان قلوبهم أوعية للعلم فلا حاجة لهم الى علم غير ما قد حوته قلوبهم وهو كقولهم قلوبنا في أكنة وغرضهم بهذا رد حجة الرسل (بل طبع الله عليها بكفرهم) هذا اضراب عن الكلام الاول أي ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفا بحسب مقصدهم الذي يريدونه بل بحسب الطبع من الله عليها والطبع الختم وقد تقدم ايضاح معناه في البقرة وهي مطبوع من الله عليها بسبب كفرهم فلا تعي وعظا أي أحدث عليها صورة مانعة عن وصول الحق اليها وقيل الباء للآلة (فلا يؤمنون الا) ايمانا أو زمانا (قليلا) أو الا قليلا منهم كعبد الله بن سلام ومن أسلم منهم معه وجرى عليه البيضاوي وغيره (وبكفرهم) هذا التكرير لافادة أنهم كفروا كفرا بعد كفر وقيل ان المراد بهذا الكفر كفرهم بالمسيح فحذف لدلالة ما بعده عليه وذلك أنهم أنكروا قدرة الله على خلق الولد من غير أب والمنكر لها كافر وهو معطوف على فبما نقضهم أو على بكفرهم الذي بعد طبع وقد أوضح الزمخشري ذلك غاية الايضاح واعترض وأجاب أحسن جواب (وقولهم على مريم بهتانا) هو الكذب المفرط الذي يتعجب منه وهو هنا

مهين (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب انهم يؤمنون بالله حق الايمان ويؤمنون بما انزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة وانهم خاشعون لله أي مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا اهودا أو نصارى وقد قال تعالى في سورة القصص الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا الآية وقد قال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به الآية وقال تعالى ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون وقال تعالى ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون وقال تعالى قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلا كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من احبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس واما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق كما قال تعالى لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى الى قوله تعالى فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها الآية فذكره وهكذا قال ههنا أولئك لهم أجرهم عند ربهم الآية وقد ثبت في الحديث ان جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما قرأ سورة كهيعص بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطارقة والقساقسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم وثبت في الصحيحين ان النجاشي لما مات نعاه النبي صلى الله عليه وسلم الى أصحابه وقال ان أخا لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه فخرج الى الصحراء فصف بهم وصلى عليه وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال لما توفي النجاشي

رميها يوسف النجار وكان من الصالحين وقال ابن عباس رموها بالزنا وانما سماه (عظيما) لانه قد ظهر عند ولادة مريم من المعجزات ما يدل على براءتها من ذلك (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم) هو من جملة جناياتهم وذنوبهم لانهم كذبوا بأنهم قتلوه وافتخروا بقتله قال أبو حيان لم نعلم كيفية القتل ولا من ألقى عليه الشبهة ولم يصح بذلك حديث (رسول الله) ذكروه بالرسالة استهزاء لانهم ينكرونها ولا يعترفون بأنه نبي أو هذا من كلامه تعالى لمدحه وتنزيهه عن مغالاتهم فيه وما ادعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته وايضاح حقيقته الانجيل وما فيه هو من تحريف النصارى أبعدهم الله فقد كذبوا وصدق الله القائل في كتابه العزيز (وما قتلوه وما صلبوه) جملة حالية (ولكن شبه لهم) أي ألقي شبه عيسى على غيره حتى قتل وصلب وقيل لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكون فيه أخرج سعيد بن منصور والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال لما أراد الله أن يرفع عيسى الى السماء خرج الى أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال ان منكم من يكفر بي اثني عشر مرة بعد ان آمن بي ثم قال أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا فقال أنت ذاك فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت الى السماء قال وجاء الطلب من يهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثني عشر مرة بعد ان آمن به وافترقوا ثلاث فرق فقالت طائفة كان الله فينا ما شاء ثم صعد الى السماء فهؤلاء اليعقوبية وقالت فرقة كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله اليه وهؤلاء النسطورية وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الاسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فانزل الله عليه فآمنت طائفة من بني اسرائيل يعني الطائفة التي آمنت في زمن عيسى وكفرت طائفة يعني التي كفرت في زمن عيسى فأيدنا الذين آمنوا في زمن عيسى باظهار محمد دينهم على دين الكافرين قال ابن كثير بعد ان ساقه بهذا اللفظ عند ابن أبي حاتم قال حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفروا لأخيكم فقال بعض الناس يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بارض الحبشة فنزلت وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله الآية ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم رواه ابن مردويه من طرق عن حميد عن أنس بن مالك نحو ما تقدم ورواه أيضا ابن جرير من حديث أبي بكر الهذلي عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن جابر قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات النجاشي ان أخاكم أصحمة قد مات فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى كما يصلى على الجنائز فكبر أربعا فقال المنافقون يصلى على علج مات بارض الحبشة فانزل الله وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله الآية وقال أبو داود حدثنا محمد بن عمرو الرازي حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحق حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت لما مات النجاشي كنا نحدث انه لا يزال يرى على قبره نور وقد روى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في مستدركه أنبأنا أبو العباس السياري بمرو حدثنا علي بن عبد الله الغزالي حدثنا علي ابن الحسين بن شقيق حدثنا ابن المبارك حدثنا مصعب بن ثابت عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال نزل بالنجاشي عدو من أرضهم فجاءه المهاجرون فقالوا انا نحب ان تخرج اليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا وتجزيك بما صنعت بنا فقال لداه بنصر الله عز وجل خير من دواء بنصرة الناس قال وفيه نزلت وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله الآية ثم قال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد وان من أهل الكتاب يعني مسلمة أهل الكتاب وقال عباد بن منصور سألت الحسن البصري عن قول الله وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله الآية قال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم فاتبعوه وعرفوا الاسلام فأعطاهم الله تعالى اجرا ثنين للذي كانوا عليه من الايمان قبل محمد صلى الله عليه وسلم واتباعهم محمدا صلى الله عليه وسلم رواه ابن أبي حاتم وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين فذكر منهم رجلا من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي وقوله تعالى لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أي لا يكتمون ما بايديهم من العلم كما فعله

فذكره وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس وصدق ابن كثير فهؤلاء كلهم من رجال الصحيح وأخرجه النسائي من حديث أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه وقد رويت قصته عليه السلام من طرق بألفاظ مختلفة وساقها عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر على صفة قريبة مما في الانجيل (وان الذين اختلفوا فيه) أي في شأن عيسى وهم النصارى فقال بعضهم قتلناه وقال من عاين رفعه الى السماء ما قتلناه وقيل ان الاختلاف بينهم هو أن النسطورية من النصارى قالوا صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته وقالت الملكانية وقع القتل والصلب على المسيح بكمال ناسوته ولاهوته ولهم من جنس هذا الاختلاف كلام طويل لا أصل له ولهذا قال الله وان الذين اختلفوا فيه (لفي شك منه) أي في تردد من قتله لا يخرج الى حيز الصحة ولا الى حيز البطلان في اعتقادهم بل هم مترددون مرتابون في شكهم يعمهون وفي جهلهم يتحيرون (ما لهم به من علم) من زائدة لتوكيد نفي العلم (الا اتباع الظن) الاستثناء منقطع وهو الصحيح الذي لم يذكر الجمهور غيره وهي لغة الحجاز أي لكنهم يتبعون الظن في قتله ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول هل هو عيسى أو غيره لان الظن واتباعه ليس من جنس العلم الذي هو اليقين اذ الظن الطرف الراجح وقيل استثناء مما قبله والاول أولى قال أبو البقاء انه متصل لان العلم والظن يجمعهما مطلق الادراك انتهى لا يقال ان اتباع الظن ينافي الشك الذي أخبر الله عنهم بأنهم فيه لان المراد هنا بالشك التردد كما قدمنا والظن نوع منه وليس المراد به هنا ترجح أحد الجانبين (وما قتلوه يقينا) أي قتلا يقينا وهذا على أن الضمير في قتلوه لعيسى وقيل انه يعود الى الظن قاله ابن عباس والمعنى ما قتلوا ظنهم يقينا قال أبو عبيدة ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقينا لقال وما قتلوه فقط وقيل ان المعنى وما قتلوا الذي شبه لهم وقيل المعنى بل رفعه الله اليه يقينا وهو خطأ لانه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها وذكر السمين فيه خمسة أوجه ولا وجه لهذه الاقوال والضمائر قبل قتلوه وبعده لعيسى وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لاشعاره بعلمهم في الجملة (بل رفعه الله اليه) أي الى موضع لا يجري فيه حكم غير الله كما في النخع وهذا الموضع هو السماء الثالثة كما في حديث الجامع الصغير وفي بعض المعارج انه في السماء الثانية ردا عليهم واثبات لما هو الصحيح وقد تقدم ذكر رفعه عليه السلام في آل عمران بما فيه كفاية (وكان الله عزيزا حكيما) في انجاء عيسى وتخليصه من

الطائفة المرذولة منهم بل يبذلون ذلك مجانا ولهذا قال تعالى أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب قال مجاهد سريع الحساب يعني سريع الاحصاء رواه ابن أبي حاتم وغيره وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا قال الحسن البصري أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الاسلام فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء حتى يموتوا مسلمين وان يصابروا الاعداء الذين يكتمون دينهم وكذلك قال غير واحد من علماء السلف واما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات وقيل انتظار الصلاة بعد (٣٤٤) الصلاة قاله ابن عباس وسهل بن حنيف ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم

وروى ابن أبي حاتم ههنا الحديث الذي رواه مسلم والنسائي من حديث مالك بن أنس عن العلاء ابن عبد الرحمن عن يعقوب مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد حدثنا موسى بن اسحق حدثنا أبو حذيفة علي بن يزيد الكوفي أنبأنا ابن أبي كريمة عن محمد بن يزيد عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن قال أقبل علي أبو هريرة يوما فقال أتدري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا قلت لا قال اما انه لم يكن في زمان النبي صلى الله عليه وسلم غزو يرابطون فيه ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها ثم يذكرون الله فيها فعليهم انزلت اصبروا أي على الصلوات الخمس وصابروا أنفسكم وهواكم ورابطوا في مساجدكم واتقوا الله فيما عليكم لعلكم تفلحون وهكذا رواه الحاكم (شهيدا) في مستدركه من طريق سعيد بن منصور عن مصعب بن ثابت عن داود بن صالح عن أبي سلمة عن أبي هريرة بنحوه وقال ابن جرير حدثني أبو السائب حدثني أبي فضيل عن عبد الله بن سعيد المقبري عن جده عن شرحبيل عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على ما يكفر الذنوب والخطايا اسباغ الوضوء على المكاره وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط وقال ابن جرير أيضا حدثني موسى بن سهل الرملي حدثنا يحيى بن واضح حدثنا محمد بن مهاجر حدثني يحيى بن يزيد عن زيد

اليهود وانتقامه منهم ورفعه اليه (وان من أهل الكتاب) أي اليهود والنصارى والمعنى وما منهم أحد (الا) والله (ليؤمنن) والضمير في (به) راجع الى عيسى وبه قال ابن عباس وأكثر المفسرين وفي (قبل موته) راجع الى ما دل عليه الكلام وهو لفظ أحد المقدر أو الكتابي المدلول عليه بأهل الكتاب وقال ابن عباس قبل موت عيسى وعنه أيضا قال قبل موت اليهودي وفيه دليل على أنه لا يموت يهودي ولا نصراني الا وقد آمن بالمسيح وقيل كلا الضميرين لعيسى والمعنى أنه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابي في عصره وقيل الضمير الاول لله وقيل الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبه قال عكرمة وهذا القول لا وجه له لانه لم يجر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر قبل هذه الآية حتى يرجع الضمير اليه وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير وبه قال جماعة من السلف وهو الظاهر لانه تقدم ذكر عيسى فكان عود الضمير اليه أولى والمراد بالايمان به حين يعاين ملك الموت فلا ينفعه ايمان قال شهر بن حوشب اليهودي اذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره ويقال يا عدو الله أتاك عيسى نبيا فكذبت به فيقول آمنت بأنه عبد الله ورسوله ويقال للنصراني أتاك عيسى نبيا فزعمت انه الله وابن الله فيقول آمنت انه عبد الله فأهل الكتاب يؤمنون به حيث لا ينفعهم ذلك الايمان أو عند نزوله في آخر الزمان كما وردت بذلك الاحاديث المتواترة قال ابن عباس سيدرك أناس من أهل الكتاب عيسى حين يبعث فيؤمنون به وعنه قال ليس يهودي يموت أبدا حتى يؤمن بعيسى قيل لابن عباس أرأيت ان خر من فوق بيت قال يتكلم به في الهوى فقيل ان ضرب عنق أحدهم قال يتلجلج بها لسانه وقد روى نحو هذا عنه من طرق وقال به جماعة من التابعين وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم الى أن المراد قبل موت عيسى كما روى عن ابن عباس قبل هذا وقيده كثير منهم بانه يؤمن به من أدركه عند نزوله الى الارض حتى تصير الملة كلها اسلامية وقال الزجاج هذا القول بعيد لعموم قوله تعالى وان من أهل الكتاب والذين يبقون يومئذ يعني عند نزوله شرذمة قليلة منهم وأجيب بان المراد بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به وصحح الطبري هذا القول وقد تواترت الاحاديث بنزول عيسى حسبما أوضح ذلك الشوكاني في مؤلف مستقل يتضمن ذكر ما ورد في المنتظر والدجال والمسيح وغيره في غيره (ويوم القيامة يكون) عيسى (عليهم) أي على أهل الكتاب

ابن أبي أنيسة عن شرحبيل عن جابر بن عبد الله قال قال رسول صلى الله عليه وسلم الا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويكفر به الذنوب قلنا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء في أماكنها وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن علي أنبأنا محمد بن عبد الله بن سلام البرنوني(١) أنبأنا محمد بن غالب الانطاكي أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن انبأنا الوازع بن نافع عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي أيوب قال وفد علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هل لكم الى ما يمحو الله به الذنوب و يعظم به الاجر قلنا نعم يا رسول الله وما هو قال اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة قال وهو قول الله يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فذلك هو الرباط في المساجد وهذا حديث غريب من هذا الوجه جدا وقال عبد الله بن المبارك عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير حدثني داود بن صالح قال قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن يا ابن اخي هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية اصبروا وصابروا ورابطوا قال قلت لا قال انه لم يكن يا ابن أخي في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو يرابط فيه ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة رواه ابن جرير وقد تقدم سياق ابن مردويه له وانه من كلام أبي هريرة رضي الله عنه والله أعلم وقيل المراد بالمرابطة ههنا مرابطة الغزو في نحو العدو وحفظ ثغور الاسلام

(شهيدا) يشهد على اليهود بالتكذيب له والطعن فيه وعلى النصارى بالغلو فيه حتى قالوا هو ابن الله وقال قتادة يكون شهيدا على ان قد بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية (فبظلم) الباء للسببية والتنكير والتنوين للتعظيم أي بسبب ظلم عظيم لا بسبب شيء آخر كما زعموا انها كانت محرمة على من قبلهم (من الذين هادوا) لعل ذكرهم بهذا العنوان للايذان بكمال ظلمهم بتذكير وقوعه بعد ما هادوا أي تابوا ورجعوا عن عبادة العجل (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) الطيبات المذكورة هي ما نصه الله سبحانه في سورة الانعام وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الآية قال الواحدي وأما وجه تحريم الطيبات عليهم كيف كان ومتى كان وعلى لسان من حرم فلم أجد فيه شيأ انتهى اليه فتركته قال الخازن ولقد أنصف الواحدي فيما قال فان هذه الآية في غاية الاشكال انتهى قلت ولهذا لم يذكر الرازي والشوكاني في تفسيرهما ما ذكره المفسرون في معنى الظلم المذكور في الآية وذكرها تفسيرا اجماليا فكانوا كلما ارتكبوا معصية من المعاصي التي اقترفوها يحرم الله عليهم نوعا من الطيبات التي كانت حلالا لهم ولمن تقدمهم من أسلافهم عقوبة لهم وكانوا مع ذلك يفترون على الله سبحانه و يقولون لسنا اول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على ابراهيم ونوح ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا فكذبهم الله تعالى في مواضع كثيرة و بكتهم بقوله كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة الآية قاله أبو السعود (و بصدهم) أنفسهم وغيرهم (عن سبيل الله) وهو اتباع محمد صلى الله عليه وسلم و بتحريفهم وقتلهم الانبياء وما صدر منهم من الذنوب المعروفة (كثيرا) أي بصدهم ناسا كثيرا أو صدا كثيرا أو زمانا كثيرا والاول أولى (وأخذهم الربا) أي معاملتهم فيما بينهم بالربا وأكلهم له وهو محرم عليهم (وقد نهوا عنه) في التوراة (وأكلهم أموال الناس بالباطل) كالرشوة والسحت الذي كانوا يأخذونه وهذه الذنوب الاربعة هي التي شدد عليهم بسببها في الدنيا والآخرة أما التشديد في الدنيا فهو ما تقدم من تحريم الطيبات وأما التشديد في الآخرة فهو المراد بقوله (وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) وانما قال منهم لان الله علم ان قوما منهم سيؤمنون فيأمنون من العذاب (لكن الراسخون في العلم منهم) استدراك من قوله تعالى وأعتدنا الآية أو من الذين هادوا و بيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلا وآجلا وذلك ان اليهود أنكروا وقالوا ان هذه الاشياء كانت حراما في الاصل وأنت تحللها فنزل لكن الراسخون والراسخ هو المبالغ في علم الكتاب الثابت فيه والرسوخ الثبون وقد تقدم الكلام عليه في آل عمران والمراد بهم عبد الله بن سلام وكعب الاحبار ونحوهما (والمؤمنون) بالله ورسوله والمراد اما من آمن من أهل الكتاب أو من المهاجرين والانصار أو من الجميع (يؤمنون بما أنزل اليك) أي القرآن (وما أنزل من قبلك) أي سائر الكتب المنزلة على الانبياء (والمقيمين الصلاة) قرأ جماعة المقيمون على العطف على ما قبله وكذا في مصحف ابن مسعود تنزيلا للتغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي ونصب مقيمين على قراءة الجمهور هو على المدح والتعظيم عند سيبويه وهو أولى الاعاريب وقال الخليل والكسائي هو معطوف

(٤٤ - فتح البيان ني)

(١) قوله البرنوني في نسخه البروني وحرر

وصيانتها عن دخول الاعداء الى حوزة بلاد المسلمين وقد وردت الاخبار بالترغيب في ذلك وذكر

في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها حديث آخر روى مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وان مات أجري عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتان حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا اسحق بن ابراهيم حدثنا ابن المبارك عن حيوة بن شريح أخبرني أبو هانئ الخولاني ان عمرو بن مالك الحبني أخبره انه سمع فضالة بن عبيد يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل ميت يختم على عمله الا الذي مات مرابطا في سبيل الله فانه ينمو له عمله الى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هانئ الخولاني وقال الترمذي حسن صحيح وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضا حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن اسحق حدثنا حسن ابن موسى وأبو سعيد وعبد الله بن يزيد كلهم عن عبد الله بن لهيعة حدثنا مشرح بن عاهان سمعت عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل ميت يختم له على عمله الا المرابط في سبيل الله يجري عليه عمله حتى يبعث ويأمن الفتان رواه الحرث ابن محمد بن أبي الهامة في مسنده عن المقبري وهو عبد الله بن يزيد الى قوله حتى يبعث دون ذكر الفتان وابن لهيعة اذا صرح بالتحديث فهو حسن ولا سيما مع ما تقدم من الشواهد حديث آخر قال ابن ماجه في سننه حدثنا يونس بن عبد الاعلى

على قوله بما أنزل اليك واستبعده الاخفش ووجهه محمد بن يزيد المبرد وعن عائشة انها سئلت عن المقيمين وعن قوله ان هذان لساحران والصابئون في المائدة فقالت يا ابن أختي الكتاب اخطؤا وروى عن عثمان بن عفان انه لما فرغ من المصحف أتي به قال أرى فيه شيأ من لحن ستقيمه العرب بألسنتها فقيل له ألا تغيره فقال دعوه فانه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا قال ابن الانباري وما روي عن عثمان لا يصح لانه غير متصل ومحال ان يؤخر عثمان شيأ فاسد ليصلحه غيره ولان القرآن منقول بالتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه وقال الزمخشري في الكشاف ولا يلتفت الى ما زعموا من وقوع لحن في خط المصحف وربما التفت اليه من لم ينظر في الكتاب يعني كتاب سيبويه ولم يعرف مذاهب العرب ومالهم في النصب على الاختصاص والمدح من الافتنان وهو باب واسع قد ذكره سيبويه على أمثلة وشواهد وربما خفي عليه ان السابقين الاولين كانوا أبعد همة في الغيرة على الاسلام وذب الطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله عز وجل ثلمة يسدها من بعدهم وخرقا يرفوه من يلحق بهم انتهى وقد رجح قول سيبويه كثير من أئمة النحو والتفسير واختاره الزجاج ورجح قول الخليل والكسائي ابن جرير الطبري والقفال (والموتون الزكاة) عطف على والمؤمنون لانه من صفتهم (والمؤمنون) يؤمنون (بالله واليوم الآخر) هم مؤمنو أهل الكتاب وصفوا أولا بالرسوخ في العلم ثم بالايمان بكتب الله وانهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالله واليوم الآخر وقيل المراد بهم المؤمنون من المهاجرين والانصار من هذه الامة كما سلف وانهم جامعون بين هذه الاوصاف (أولئك) أي الراسخون وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم في الفضل (سنؤتيهم) أي سنعطيهم على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره والسين لتأكيد الوعد (أجرا) ثوابا (عظيما) وهو الجنة والتنكير للتفخيم وهذا الاعراب أنسب بجواب طرفي الاستدراك حيث وعد الاولون بالعذاب الاليم ووعد الآخرون بالاجر العظيم (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح) هذا متصل بقوله يسألك أهل الكتاب والمعنى ان أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم كأمر من تقدمه من الانبياء فما بالكم تطلبون منه ما لم يطلبه أحد من المعاصرين للرسل والوحي اعلام في خفاء يقال وحى اليه بالكلام وحيا وأوحى يوحي ايحاء وخص نوحا لكونه أول نبي شرعت على لسانه الشرائع وأول نذير على الشرك وأول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الارض بدعائه وكان أبا البشر كآدم وأطول الانبياء عمرا وصبر على أذى قومه طول عمره وقيل غير ذلك أي ايحاء مثل ايحائنا الى نوح أو حال كونه مشبها بايحائنا الى نوح (والنبيين من بعده) كهود وصالح وشعيب وغيرهم (وأوحينا الى ابراهيم) وهو ابن تارخ واسم تارخ آزر (و) بعث بعده (اسمعيل) فمات بمكة (واسحق) أي ثم بعث أخاه اسحق فمات بالشام (ويعقوب) وهو اسرائيل بن اسحق ثم يوسف بن يعقوب ثم شعيب بن نويب ثم هود بن عبد الله ثم صالح ابن أسف ثم موسى وهرون ابني عمران ثم أيوب ثم الخضر ثم داود بن ايشا ثم سليمان بن داود ثم يونس بن متى ثم الياس ثم ذا الكفل واسمه عويديا وهو من سبط يهوذا بن يعقوب وبين

موسى بن عمران ومريم بنت عمران ألف سنة وسبعمائة سنة قال الزبير بن بكار كل نبي ذكر في القرآن فهو من ولد ابراهيم غير ادريس ونوح وهود ولوط وصالح ولم يكن من العرب الانبياء الاخمسة هود وصالح واسمعيل وشعيب ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم وانما سموا عربا لانه لم يتكلم بالعربية غيرهم ذكره القرطبي (والاسباط) هم أولاد يعقوب وكانوا اثنى عشر ومنهم يوسف نبي رسول باتفاق وفي البقية خلاف (وعيسى وأيوب ويونس) فيه ست لغات أفصحها او واو خالصة ونون مضمومة وهي لغة الحجاز (وهرون وسليمان) وخص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم في لفظ النبيين تشريفا لهم كقوله وملائكته ورسله وجبريل وقدم عيسى على أيوب ومن بعده مع كونهم في زمان قبل زمانه ردا على اليهود الذين كفروا به وأيضا قالوا وليست الا لمطلق الجمع والمعنى ان الله تعالى أوحى الى هؤلاء الانبياء المذكورين في هذه الآية وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك وما أنزل الله على أحد من هؤلاء كتابا جملة واحدة فلما لم يكن ذلك قادحا في نبوتهم فكذلك لم يكن انزال القرآن مفرقا على محمد قادحا في نبوته بل قد أنزل عليه كما أنزل عليهم (وآتينا داود زبورا) أي كتابا من زبورا يعني مكتوبا والزبور بالفتح كتاب داود قال القرطبي وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام وانما هي حكم ومواعظ انتهى قلت هو مائة وخمسون مزمورا والمزمور فصل يشتمل على كلام لداود يستغيث بالله من خصومه ويدعو الله عليهم ويستنصره وتارة يأتي بمواعظ وكان يقول ذلك في الغالب في الكنيسة ويستعمل مع تكلمه بذلك شيأ من الآلات التي لها نغمات حسنة كما هو مصرح بذلك في كثير من تلك المزمورات والزبر الكتابة والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب كالرسول والحلوب والركوب وقرأ حمزة زبورا بضم الزاي جمع زبر كفلس وفلوس والزبر بمعنى المزبور والاصل في الكلمة التوثيق يقال بئر مزبورة أي مطوية بالحجارة والكتاب سمي زبورا لقوة الوثيقة به عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود أخرجه الشيخان قال الحميدي زاد البرقاني قلت والله يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لقراءتي لحبرتها لك تحبيرا والتحبير تحسين الصوت بالقراءة وانما لم يذكر موسى في هذه الآية لان الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة (و) أرسلنا (رسلا) وقرأ أبي رسل بالرفع على تقدير ومنهم (قد قصصناهم عليك) أي سميناهم لك في القرآن وعرفناك أخبارهم والى من بعثوا من الامم وما حصل لهم من قومهم ومعنى (من قبل) انه قصهم عليه من قبل هذه السورة أو من قبل هذا اليوم (ورسلا لم نقصصهم عليك) أي لم نسمهم لك ولم نعرفك أخبارهم قيل انه لما قص الله في كتابه بعض أسماء أنبيائه ولم يذكر أسماء بعض قالت اليهود ذكر محمد الانبياء ولم يذكر موسى فنزل (وكلم الله موسى) بلا واسطة أي أزال عنه الحجاب حتى سمع كلام الله سبحانه والمعنى ان التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي خص به موسى من بينهم ولم يكن ذلك قادحا في نبوة سائر الانبياء فكيف يتوهم ان نزول التوراة جملة قادح في نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلا قرأ الجمهور برفع الاسم الشريف على أن الله

حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني الليث عن زهير بن معبد عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول صلى الله عليه وسلم قال من مات مرابطا في سبيل الله اجرى عليه عمله الصالح الذي كان يعمله واجرى عليه رزقه وأمن من الفتان وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع الاكبر طريق أخرى قال الامام أحمد حدثنا موسى أنبأنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من مات مرابطا وقي فتنة القبر وأمن من الفزع الاكبر وغدا عليه ريح برزقه من الجنة وكتب له اجر المرابط الى يوم القيامة حديث آخر قال الامام احمد حدثنا اسحق بن عيسى حدثنا اسمعيل بن عياش عن محمد بن عمرو ابن حلحلة الدؤلي عن اسحق بن عبد الله عن أم الدرداء ترفعه الحديث قال من رابط في شئ من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزأت عنه رباط سنة حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا كهمس حدثنا مصعب بن ثابت بن عبد الله ابن الزبير قال قال عثمان وهو يخطب على منبره اني محدثكم حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يمنعني ان أحدثكم به الا الظن بكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها وهكذا رواه أحمد عن روح عن كهمس عن مصعب بن ثابت عن عثمان وقد رواه ابن ماجه عن هشام ابن عمار عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير قال خطب عثمان الناس فقال أيها الناس اني سمعت

هو الذى كلم موسى وقرأ النخعى ويحيى بن وثاب بنصب الاسم الشريف على أن موسى هو الذى كلم الله سبحانه و (تكليما) مصدر مؤكد وفائدة التأكيد دفع توهم كون التكليم مجازا كما قال الفراء ان العرب تسمى ماوصل الى الانسان كلاما بأى طريق وصل مالم يؤكد بالمصدر فاذا أكد لم يكن الا حقيقة الكلام قال النحاس وأجمع النحويون على انك اذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا وفيه رد على من يقول ان الله خلق كلاما فى محل فسمع موسى ذلك الكلام أخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذى فى نوادر الاصول وابن حبان فى صحيحه والحاكم وابن عساكر عن أبى ذر قال قلت يارسول الله كم الانبياء قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قلت كم الرسل منهم قال ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير وأخرج نحوه ابن أبى حاتم عن أبى امامة مرفوعا الا انه قال والرسل ثلثمائة وخمسة عشر وأخرج أبو يعلى والحاكم بسند ضعيف عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيمن خلا من اخوانى من الانبياء ثمانية آلاف نبى ثم كان عيسى ثم كنت أنا بعده (رسلا مبشرين) لاهل الطاعات بالجنة (ومنذرين) لاهل المعاصى بالعذاب (لئلا) اللام لام كى وتتعلق بمنذرين على المختار للبصريين وبمبشرين عند الكوفيين فان المسئلة من باب التنازع والاول أولى وله فى القرآن نظائر وقيل تتعلق بمحذوف أى أرسلناهم كيلا (يكون للناس على الله حجة) أى معذرة يعتذرون بها كما فى قوله تعالى ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وسميت المعذرة حجة مع انه لم يكن لاحد من العباد على الله حجة تنبيها على ان هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلا منه ورحمة (بعد) ارسال (الرسل) وانزال الكتب وفيه دليل على انه لو لم يبعث الرسل لكان للناس عليه حجة فى ترك التوحيد والطاعة وعلى ان الله لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وفيه حجة لاهل السنة على ان معرفة الله لا تثبت الا بالسمع (وكان الله عزيزا) لا يغالبه مغالب (حكيما) فى أفعاله التى من جملتها ارسال الرسل أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين وفى لفظ لمسلم ولا شخص أحب اليه العذر من الله الحديث (لكن الله يشهد بما أنزل اليك) هذا الاستدراك من محذوف مقدر كأنهم قالوا مانشهد لك يا محمد بهذا أى الوحى والنبوة فنزل لكن الله يشهد وشهادة الله انما عرفت بسبب انه أنزل هذا القرآن البالغ فى الفصاحة والبلاغة الى حيث عجز الاولون والآخرون عن المعارضة والاتيان بمثله فكان ذلك معجزا واظهار المعجزة شهادة بكون المدعى صادقا لا جرم قال الله تعالى ذلك (أنزله بعلمه) جملة حالية أى متلبسا بعلمه الذى لا يعلمه غيره من كونك أهلا لما اصطفاك الله له من النبوة وأنزله عليك من القرآن واستعدادك لاقتباس الانوار القدسية وفيه نفى قول المعتزلة فى انكار الصفات فانه أثبت لنفسه العلم

من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم يمنعنى ان احدثكم به الا الظن بكم وبصحابتكم فليختر مختار لنفسه أو ليدع

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رابط ليلة فى سبيل الله كانت كألف ليلة قيامها وصيامها طريق أخرى عن عثمان رضى الله عنه قال الترمذى حدثنا الحسن بن على الخلال حدثنا هشام ابن عبد الملك حدثنا الليث بن سعد حدثنا ابو عقيل زهرة بن معبد عن أبى صالح مولى عثمان بن عفان قال سمعت عثمان وهو على المنبر يقول انى كتمتكم حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهية تفرقكم عنى ثم بدا لى ان أحدثكموه ليختار امرؤ لنفسه مابدا له سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه قال محمد يعنى البخارى أبو صالح مولى عثمان اسمه بركات وذكر غير الترمذى ان اسمه الحرث والله أعلم وهكذا رواه الامام أحمد من حديث الليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة وعنده زيادة فى آخره فقال يعنى عثمان فلير ابط امرؤ كيف شاء عمل بلغت قالوا نعم قال اللهم اشهد حديث آخر قال ابو عيسى الترمذى حدثنا ابن ابى عمر حدثنا سفيان حدثنا محمد بن المنكدر قال مر سلمان الفارسى بشر حبيل بن السمط وهو فى مرابطة له وقد شق عليه وعلى أصحابه فقال ألا أحدثك يا ابن السمط بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بلى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رباط يوم فى سبيل الله أفضل أو قال خير من صيام شهر وقيامه ومن مات فيه وقيل

وقيل العلم هنا بمعنى المعلوم أى بمعلومه مما يحتاج اليه الناس فى معاشهم ومعادهم (والملائكة يشهدون) بان الله أنزله عليك ويشهدون بتصديقك وانما عرفت شهادة الملائكة لان الله تعالى اذا شهد بشئ شهدت الملائكة به (وكفى بالله شهيدا) على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة وحججا ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها وان لم يشهد معه أحد وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وآله وسلم عن شهادة أهل الكتاب له وشهادة الله سبحانه هى ما نصبه من المعجزات الدالة على صحة النبوة فان وجود هذه المعجزات شهادة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بصدق ما أخبر به من هذا أو غيره عن ابن عباس قال دخل جماعة من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم انى والله أعلم انكم تعلمون انى رسول الله قالوا ما نعلم ذلك فانزل الله هذه الآية (ان الذين كفروا) بالله وبكل ما يجب الايمان به أو بهذا الامر الخاص وهو ما فى هذا المقام (وصدوا) الناس (عن سبيل الله) وهو دين الاسلام بانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبقولهم ما نجد صفته فى كتابنا وانما النبوة فى ولد هارون وداود وبقولهم ان شرع موسى لا ينسخ (قد ضلوا ضلالا بعيدا) عن الحق والصواب بما فعلوا لانهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحق فجمعوا بين الضلال والاضلال ولان المضل يكون أغرق فى الضلال وأبعد من الانقطاع منه (ان الذين كفروا) بجحدهم (وظلموا) غيرهم بصدهم عن السبيل أو ظلموا محمدا بكتمانهم نبوته أو ظلموا أنفسهم بكفرهم ويجوز الحمل على جميع هذه المعانى (لم يكن الله ليغفر لهم) اذا استمروا على كفرهم وماتوا كافرين (ولا ليهديهم طريقا) من الطرق (الا طريق جهنم) لكونهم اقترفوا ما يوجب لهم ذلك بسوء اختيارهم وفرط شقائهم وجحدوا الواضح وعاندوا البين أى يدخلهم جهنم والاستثناء متصل لانه من جنس الاول والاول عام لانه نكرة فى سياق النفى وان أريد به طريق خاص أى عمل صالح فالاستثناء منقطع قاله الكرخى (خالدين فيها) وهى حال مقدرة (أبدا) منصوب على الظرفية توكيد لخالدين وهو لدفع احتمال ان الخلود هنا يراد به المكث الطويل (وكان ذلك) أى تخليدهم فى جهنم أو ترك المغفرة لهم والهداية مع الخلود فى جهنم (على الله يسيرا) لانه سبحانه لا يصعب عليه شئ من مراداته انما أمره اذا أراد شيأ ان يقول له كن فيكون (يا أيها الناس) خطاب عام يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى وعبدة الاصنام وغيرهم وقيل هو خطاب لمشركى مكة والعبرة بمفهوم اللفظ وهو عام (قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) أى محمد صلى الله عليه وآله وسلم بدين الاسلام الذى ارتضاه الله لعباده أو بالقرآن الذى هو الحق من عند ربكم وهو تكرير للشهادة وتقرير لحقية المشهود به وتمهيد لما بعده من الامر بالايمان (فآمنوا) قال سيبويه والخليل أى اقصدوا أو آتوا (خيرا لكم) وقال الفراء فآمنوا ايمانا خيرا لكم وقال أبو عبيدة والكسائى فآمنوا يكن الايمان خيرا لكم وأقوى هذه الاقوال الثالث ثم الاول ثم الثانى على ضعف فيه (وان تكفروا) أى وان تستمروا على كفركم وتجحدوا

وقى فتنة القبر ونمى له عمله الى يوم القيامة تفرد به الترمذى من هذا الوجه وقال هذا حديث حسن وفى بعض النسخ زيادة وليس اسناده بمتصل وابن المنكدر لم يدرك سلمان (قلت) الظاهر أن محمد بن المنكدر سمعه من شرحبيل ابن السمط وقد رواه مسلم والنسائى من حديث مكحول وأبى عبيدة بن عقبة كلاهما عن شرحبيل بن السمط وله صحبة عن سلمان الفارسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وان مات جرى عليه الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان وقد تقدم سياق مسلم بمفرده حديث آخر قال ابن ماجه حدثنا محمد بن اسمعيل بن سمرة حدثنا محمد بن يعلى السلمى حدثنا عمر بن صبيح عن عبد الرحمن بن عمرو عن مكحول عن أبى ابن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرس ليلة وراء عورة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أعظم أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ورباط يوم فى سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان أفضل عند الله وأعظم أجرا أراه قال من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فان رده الله الى أهله سالما لم يكتب عليه سيئة ألف سنة وتكتب له الحسنات ويجرى عليه أجر الرباط الى يوم القيامة هذا حديث غريب من هذا الوجه بل منكر وعمر بن صبيح متهم حديث آخر قال ابن ماجه حدثنا عمر بن يونس الرملى حدثنا محمد بن شعيب بن سابور عن سعيد بن خالد ابن أبى طويل سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حرس ليلة فى سبيل الله خير من صيام رجل

وقيامه فى أهله ألف سنة السنة ثلثمائة يوم اليوم كألف سنة وهذا حديث غريب أيضا وسعيد بن خالد هذا ضعفه أبو زرعة وغير واحد من الائمة وقال العقيلى لا يتابع على حديثه وقال ابن حبان لا يجوز الاحتجاج به وقال الحاكم روى عن أنس أحاديث موضوعة حديث آخر قال ابن ماجه حدثنا محمد بن الصباح أنبأنا عبد العزيز بن محمد عن صالح بن محمد بن زائدة عن عمر ابن عبد العزيز عن عقبة بن عامر الجهنى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله حارس الحرس فيه انقطاع بين عمر بن عبد العزيز وعقبة بن عامر فانه لم يدركه والله أعلم حديث آخر قال أبو داود حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية يعنى ابن سلام حدثنى السلولى انه حدثه سهل بن الحنظلية انهم ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين حتى كانت عشية فحضرت الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل فارس فقال يا رسول الله انى انطلقت بين أيديكم حتى أطلعت جبل كذا وكذا فاذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وقال تلك غنيمة المسلمين غدا ان شاء الله ثم قال من يحرسنا الليلة قال أنس بن أبى مرثد أنا يا رسول الله قال فاركب فركب فرسا له فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه ولا تغرن من قبلك الليلة فلما أصبحنا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصلاه فركع ركعتين فقال هل أحسستم فارسكم فقال رجل يا رسول الله ما أحسسناه فثوب بالصلاة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم انا

رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتكذبوا بما جاءكم به من الحق (فان لله ما فى السموات والارض) من مخلوقاته وأنتم من جملتهم ومن كان خالقا لكم ولها فهو قادر على مجازاتكم بقبيح أفعالكم ففى هذه الجملة وعيد لهم مع ايضاح وجه البرهان واماطة الستر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول والاذعان لانهم يعترفون بان الله خالقهم ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وهو يعم ما اشتملتا عليه وما تركبتا منه (وكان الله عليما) بمن يؤمن ومن يكفر (حكيما) لا يسوى بينهما فى الجزاء (يا أهل الكتاب) قيل نزلت فى النصارى وقيل فيهم وفى اليهود (لا تغلوا فى دينكم) الغلو هو التجاوز فى الحد ومنه غلا السعر يغلو غلاء وغلا الرجل فى الامر غلوا وغلا بالجارية لحمها وعظمها اذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها والمراد بالآية النهى لهم عن الافراط تارة والتفريط أخرى فمن الافراط غلوا النصارى فى عيسى حتى جعلوه ربا ومن التفريط غلوا اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة وما أحسن قول الشاعر

ولا تغل فى شئ من الامر واقتصد * كلا طرفى قصد الامور ذميم

(ولا تقولوا على الله الا الحق) وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزير ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله وهذا الاستثناء مفرغ (انما المسيح عيسى بن مريم) الجملة تعليل للنهى وقد تقدم الكلام على المسيح فى آل عمران والمعنى ليس له نسب غير هذا وانه (رسول الله) فمن زعم غير هذا فقد أشرك وكفر (وكلمته) أى كونه بقوله كن فكان بشرا من غير أب وقيل كلمته بشارة الله مريم ورسالته اليها على لسان جبريل بقوله اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه وقيل الكلمة ههنا بمعنى الآية ومنه وصدقت بكلمات ربها وقوله ما نفدت كلمات الله (ألقاها الى مريم) أى أوصلها اليها (وروح) أى ذو روح (منه) وسمى روحا لانه حصل من الريح الحاصل من نفخ جبريل أى أرسل جبريل فنفخ فى جيب درع مريم فحملت باذن الله وهذه الاضافة للتفضيل والتشريف وان كان جميع الارواح من خلقه تعالى وقيل قد يسمى من تظهر منه الاشياء العجيبة روحا ويضاف الى الله فيقال هذا روح من الله أى من خلقه كما يقال فى النعمة انها من الله وقيل روح منه أى من خلقه كما قال تعالى وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه أى من خلقه وقيل رحمة منه وقيل برهان منه وكان عيسى برهانا وحجة على قومه والمعنى روح كائنة منه وجعلت الروح منه سبحانه وان كانت بنفخ جبريل لكونه تعالى الآمر لجبريل بالنفخ والمعنى ليس هو كما زعمتم ابن الله والها معه أو ثالث ثلاثة لان ذا الروح مركب والاله منزه عن التركيب وعن نسبة المركب اليه عن أبى موسى ان النجاشى قال لجعفر ما يقول صاحبك فى ابن مريم قال يقول فيه قول الله هو روح الله وكلمته أخرجه من البتول العذراء لم يقربها بشر فتناول عودا من الارض فرفعه فقال يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون فى ابن مريم ما يزن هذه وعن ابن مسعود باطول من هذا وأخرج البخارى عن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فانما

وهو يصلي يلتفت الى الشعب حتى اذا قضى صلاته قال ابشروا فقد جاءكم فارسكم فجعلنا ننظر فى خلال الشجر فى الشعب فاذا هو قد جاء حتى وقف على النبى صلى الله عليه وسلم فقال انى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشعب حيث أمرتنى فلما أصبحنا طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل نزلت الليلة قال لا الا مصليا أو قاضى حاجة فقال له أوجبت فلا عليك ان لا تعمل بعدها ورواه النسائى عن محمد بن يحيى بن محمد بن كثير الحرانى عن أبى توبة وهو الربيع بن نافع به

حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنا عبد الرحمن بن شريح سمعت محمد بن عمير الرعينى يقول سمعت أبا عامر الحبشى (٣) قال الامام أحمد وقال غيره زائدا أبا على الحنفى يقول سمعت أبا ريحانة يقول كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة فاتينا ذات ليلة الى شرف فبتنا عليه فاصابنا برد شديد حتى رأيت من يحفر فى الارض يدخل فيها ويلقى عليه الحفة يعنى الترس فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس نادى من يحرسنا هذه الليلة فأدعو له بدعاء يكون له فيه فضل فقال رجل من الانصار أنا يارسول قال ادن فدنى منه فقال من أنت فتسمى له الانصارى ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء فأكثر منه قال أبو ريحانة فلما سمعت ما دعا به قلت أنا رجل آخر فقال ادن فدنوت فقال من أنت

أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله وعن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من شهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله وان عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان له من العمل أخرجه الشيخان (فآمنوا بالله ورسله) أى بانه سبحانه اله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وبان رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه ولا تكذبوهم ولا تغلوا فيهم فتجعلوا بعضهم آلهة (ولا تقولوا ثلاثة) قال الزجاج أى لا تقولوا آلهتنا ثلاثة وقال الفراء وأبو عبيد أى لا تقولوا هم ثلاثة كقوله سيقولون ثلاثة وقال أبو على الفارسى لا تقولوا هو ثالث ثلاثة فحذف المبتدا والمضاف والنصارى مع تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث ويعنون بالثلاثة الثلاثة الاقانيم فيجعلونه سبحانه جوهرا واحدا وله ثلاثة أقانيم ويعنون بالاقانيم أقنوم الوجود وأقنوم الحياة وأقنوم العلم وانما يعبرون عن الاقانيم بالاب والابن وروح القدس فيعنون بالاب الوجود وبالروح الحياة وبالابن المسيح وقيل المراد بالالهة الثلاثة الله سبحانه وتعالى ومريم والمسيح وقد اختبط النصارى فى هذا اختباطا طويلا ووقفنا فى الاناجيل الاربعة التى يطلق عليها اسم الانجيل عندهم على اختلاف كثير فى عيسى فتارة يوصف بانه ابن الانسان وتارة يوصف بانه ابن الله وتارة يوصف بانه ابن الرب وهذا تناقض ظاهر وتلاعب بالدين والحق ما أخبرنا الله به فى القرآن وما خالفه فى التوراة والانجيل أو الزبور فهو من تحريف المحرفين وتلاعب المتلاعبين ومن أعجب ما رأيناه ان الاناجيل الاربعة كل واحد منها منسوب الى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام وحاصل ما فيها جميعا ان كل واحد من هؤلاء الاربعة ذكر سيرة عيسى من عند ان بعثه الله الى ان رفعه الله وذكر ما جرى له من المعجزات والمراجعات لليهود ونحوهم فاختلفت الفاظهم واتفقت معانيها وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ والضبط وذكر ما قاله عيسى وقيل له وليس فيها من كلام الله سبحانه شئ ولا انزل على عيسى من عنده كتابا بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما فى التوراة ويذكرانه لم يأت بما يخالفها وهكذا الزبور فانه من أوله الى آخره من كلام داود عليه السلام وكلام الله أصدق وكتابه أحق وقد أخبرنا ان الانجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى بن مريم وان الزبور كتابه آتاه داود وانزله عليه (انتهوا خيرا لكم) أى انتهوا عن التثليث ولا تقولوا الالهة ثلاثة وانتصاب خيرا هنا فيه الوجوه الثلاثة التى تقدمت فى قوله فآمنوا خيرا لكم (انما الله اله واحد) لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد (سبحانه) أى أسبحه تسبيحا عن (ان يكون له ولد) لان الولد جزء من الاب وهو متعال عن التجزئة وصفات الحدوث ولكن جعلوا له من عباده جزأ ان الانسان لكفور (له ما فى السموات وما فى الارض) ملكا وخلقا وعبيدا وما جعلتموه له شريكا أو ولدا هو من جملة ذلك والمملوك المخلوق لا يكون شريكا ولا ولدا (وكفى بالله وكيلا) مستقلا بتدبير خلقه بكل الخلق أمورهم اليه لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا فلا حاجة الى ولد يعينه وقيل شهيدا على ذلك (لن يستنكف) أى لا يتكبر ولا يأنف (المسيح) الذى زعمتم انه اله عن (أن

قال فقلت أنا أبو ريحانة فدعا بدعاء دون ما دعا به للانصارى ثم قال حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله وحرمت

(٣) قوله الحبشى هكذا فى الاصول هنا وفى الصحيفة التى بعد هذه عند علامة (١) وحرر

يكون عبدالله) أصل يستنكف نكف وباقي الحروف زائدة يقال نكفت من الشئ واستنكفت منه وأنكفته أي نزهته عما يستنكف منه قال الزجاج استنكف أي أنف مأخوذ من نكفت الدمع اذا نحيته باصبعك عن خديك وقيل هو من النكف وهو العيب يقال ما عليه في هذا الامر نكف ولا وكف أي عيب ومعنى الاول لن يأنف عن العبودية ولن يتنزه عنها ومعنى الثاني ان يعيب العبودية ولن ينقطع عنها (ولا الملائكة المقربون) أي ولن يستنكف حملة العرش وأفاضل الملائكة مثل جبريل وغيره عن أن يكونوا عباد الله وهذا من أحسن الاستطراد ذكر للرد على من زعم انها آلهة أو بنات الله كما رد بما قبله على النصارى الزاعمين ذلك المقصود خطابهم وقد استدل بهذا القائلون بتفضيل الملائكة على الانبياء وقرر صاحب الكشاف وجه الدلالة بما لا يسمن ولا يغني من جوع وادعى ان الذوق قاض بذلك ونعم الذوق العربي اذا خالطه محبة المذهب وشابه شوائب الجمود كان هكذا وكل من يفهم لغة العرب يعلم ان من قال لا يأنف من هذه المقالة امام ولا مأموم أولا كبير ولا صغير أولا جليل ولا حقير لم يدل هذا على ان المعطوف أعظم شأنا من المعطوف عليه وعلى كل حال فما أبرد الاشتغال بهذه المسئلة وما أقل فائدتها وما أبعدها عن ان تكون مركزا من المراكز الدينية وجسرا من الجسور الشرعية (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) أي يأنف تكبرا ويعد نفسه كبيرا عن العبادة (فسيحشرهم اليه جميعا) المستنكف وغيره فيجازي كلا بعمله لا يملكون لانفسهم شيأ وترك ذكر غير المستنكف هنا لدلالة أول الكلام عليه ولكون الحشر لكلا الطائفتين (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) أي ثواب أعمالهم من غير ان يفوتهم منها شئ (ويزيدهم من فضله) ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر أي على وجه التفصيل واحاطة العلم بها والا فسائر نعيم الجنان يخطر على قلوبنا ونسمعه من السنة لكن على وجه الاجمال وأخرج ابن المنذر وغيره بسند ضعيف عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع اليهم المعروف في الدنيا وقد ساقه ابن كثير في تفسيره ثم قال هذا اسناد لا يثبت واذا روي عن ابن مسعود موقوفا فهو جيد (واما الذين استنكفوا واستكبروا) عن عبادته (فيعذبهم) بسبب استنكافهم واستكبارهم (عذابا أليما) هو عذاب النار (ولا يجدون لهم من دون الله وليا) يواليهم (ولا نصيرا) ينصرهم (يا أيها الناس) خطاب للكافة (قد جاءكم برهان من ربكم) بما أنزله عليكم من كتبه وبمن أرسله اليكم من رسله وما نصبه لهم من المعجزات والبرهان ما يبرهن به على المطلوب قال قتادة البرهان البينة وقال مجاهد الحجة وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتقدير كائن من ربكم أو من براهين ربكم وقيل من لابتداء الغاية (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) وهو القرآن وسماه نورا لانه يهتدى به من ظلمة الضلال (فاما) أي فمنكم من آمن ومنكم من كفر فاما (الذين آمنوا بالله) أي صدقوا بوحدانيته وبما أرسل من رسول وانزل من كتاب وترك الشق الآخر اشارة الى اهمالهم لانهم في حيز الطرح (واعتصموا به)

النار على عين سهرت في سبيل الله وروى النسائي منه حرمت النار الى آخره عن عصمة بن الفضل عن زيد بن الحباب به وعن الحرث بن مسكين عن ابن وهب عن عبد الرحمن ابن شريح به وأتم وقال في الروايتين عن أبي علي الحنبي (١) حديث آخر قال الترمذي حدثنا نصر بن علي الجهضمي حدثنا بشر بن عمار وحدثنا شعيب بن رزيق أبو شيبة عن عطاء الخراساني عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله ثم قال حسن غريب لا نعرفه الا من حديث شعيب بن رزيق قال وفي الباب عن عثمان وأبي ريحانة قلت وقد تقدما ولله الحمد والمنة حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين عن زياد عن سهل بن معاذ عن أبيه معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حرس من وراء المسلمين متطوعا لا بأجرة سلطان لم ير النار بعينه الا تحلة القسم فان الله يقول وان منكم الا واردها تفرد به أحمد رحمه الله حديث آخر روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ان أعطي رضي وان لم يعط سخط تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه ان كان في الحراسة كان في الحراسة وان كان في الساقة كان في الساقة ان استأذن لم يؤذن له وان شفع لم يشفع فهذا آخر ما تيسر ايراده من

أى بالله أو بالقرآن وقيل بالنور المذكور (فسيدخلهم فى رحمة منه) يرحمهم بها قال ابن عباس الرحمة الجنة سميت باسم محلها (وفضل) يتفضل به عليهم بعد ادخالهم الجنة كالنظر الى وجهه الكريم وغيره من مواهب الجنة (ويهديهم اليه) أى الى امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه الله سبحانه وتعالى باعتبار مصيرهم الى جزائه وتفضله قال أبو على الفارسى الهاء فى اليه راجعة الى ما تقدم من اسم الله وقيل الى القرآن وقيل الى الفضل وقيل الى الرحمة والفضل لانهما بمعنى الثواب وأخر هذا مع انه سابق فى الوجود الخارجى على ما قبله تعجيلا للمسرة والفرح على حد سعد فى دارك (صراطا) اى طريقا يسلكونه اليه (مستقيما) لاعوج فيه وهو التمسك بدين الاسلام وترك غيره من الاديان (يستفتونك) ختم السورة بذكر الاموال كما انه افتتحها بذلك لتحصل المشاكلة بين المبدا والختام وجملة ما فى هذه السورة من آيات المواريث ثلاثة الاولى فى بيان ارث الاصول والفروع والثانية فى بيان ارث الزوجين والاخوة والاخوات من الام والثالثة وهى هذه فى ارث الاخوة والاخوات الاشقاء أولاب واما أولو الارحام فذكورون فى آخر الانفال والمستفتى عن الكلالة هو جابر كما سيأتى وعن قتادة ان الصحابة أهمهم شأن الكلالة فسألوا عنها النبى صلى الله عليه وآله وسلم فانزل الله هذه الآية (قل الله يفتيكم فى الكلالة) قد تقدم الكلام فى الكلالة فى أول هذه السورة واسم الكلالة يقع على الوارث وعلى الموروث فان وقع على الاول فهم من سوى الوالد والولد وان وقع على الثانى فهو من مات ولا يرثه أحد الابوين ولا أحد الاولاد قد أخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صب على فعقلت فقلت انه لا يرثنى الا كلالة فكيف الميراث فنزلت آية الفرائض وعنه عند ابن سعد وابن أبى حاتم بلفظ أنزلت فى قل الله يفتيكم فى الكلالة وعن عمر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف توارث الكلالة فانزل الله هذه الآية واخرج مالك ومسلم وابن جرير والبيهقى عن عمر قال ما سألت النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن شىء اكثر مما سألته فى الكلالة حتى طعن باصبعه فى صدرى وقال ما يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء واخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر قال ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان عهد الينا فيهن عهدا ننتهى اليه الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا وقد أوضحنا الكلام لغة وخلافا واستدلالا وترجيحا فى شأن الكلالة فى أوائل هذه السورة فلا نعيده (ان امرؤ هلك) أى ان هلك امرؤ هلك كما تقدم فى قوله وان امرأة خافت والمعنى مات وسمى الموت هلاكا لانه اعدام فى الحقيقة (ليس له ولد) اما صفة لامرؤ أو حال كما قاله صاحب الكشاف ولا وجه للمنع من كونه حالا والاول رجحه الكرخى والولد يطلق على الذكر والانثى واقتصر على عدم الولد هنا مع أن عدم الوالد معتبر فى الكلالة اتكالا على ظهور ذلك قيل والمراد بالولد هنا الابن وهو أحد معنيى المشترك لان البنت لا تسقط الاخت (وله أخت) المراد بالاخت هنا هى الاخت لابوين أو لاب لا لام فان فرضها السدس كما ذكر سابقا (فلها) أى لاخت الميت

الاحاديث المتعلقة بهذا المقام ولله الحمد على جزيل الانعام على تعاقب الاعوام والايام وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا مطرف ابن عبد الله المدينى حدثنا مالك عن زيد بن أسلم قال كتب أبو عبيدة الى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم فكتب اليه عمر أما بعد فانه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله له بعدها فرجا وانه لن يغلب عسر يسرين وان الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون وهكذا روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك من طريق محمد ابن ابراهيم بن أبى سكينة قال املى على عبد الله بن المبارك هذه الابيات بطرسوس وودعته للخروج وأنشدها معى الى الفضيل بن عياض فى سنة سبعين ومائة وفى رواية سنة سبع وسبعين ومائة

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمت انك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خده فى باطل
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
رهج السنابك والغبار الاطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا
قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى
أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا
ليس الشهيد بميت لا يكذب

(نصف ماترك) وقد ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى ان الاخوات لابوين أو لاب عصبة للبنات وان لم يكن معهن اخ وذهب ابن عباس الى ان الاخوات لايعصبن البنات واليه ذهب داود الظاهري وطائفة وقالوا انه لاميراث للاخت لابوين اولاب مع البنت واحتجوا بظاهر هذه الآية فانه جعل عدم الولد المتناول للذكر والانثى قيدا فى ميراث الاخت وهذا استدلال صحيح لو لم يرد فى السنة مايدل على ثبوت ميراث الاخت مع البنت وهو ماثبت فى الصحيح ان معاذا قضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى بنت وأخت بجعل للبنت النصف وللاخت النصف وكذا صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قضى فى بنت وبنت ابن واخت بجعل للبنت النصف ولبنت الابن السدس وللاخت الباقى فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت (وهو) أى الاخ (يرثها) أى كذلك يرث الاخت جميع ماتركت (ان لم يكن لها ولد) ذكر ان كان المراد بارثه لها احيازته لجميع ماتركته وان كان المراد ثبوت ميراثه لها فى الجملة اعم من ان يكون كلا او بعضا صح تفسير الولد بما يتناول الذكر والانثى فان كان لها ولد ذكر فلا شئ له اوانثى فله مافضل عن نصيبها ولو كانت الاخت أو الاخ من أم ففرضه السدس كما تقدم اول السورة واقتصر سبحانه فى هذه الآية على نفى الولد مع كون الاب يسقط الاخ كما يسقطه الولد الذكر لان المراد بيان سقوط الاخ مع الولد فقط هنا واما سقوطه مع الاب فقد تبين بالسنة كما ثبت فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم ألحقوا الفرائض باهلها فما بقى فلاولى رجل ذكر والاب اولى من الاخ (فان كانتا) اى فان كان من يرث بالاخوة (اثنتين) اى اختين فصاعدا لانها نزلت فى جابر وقد مات عن اخوات سبع او تسع والعطف على الشرطية السابقة والتأنيث والتثنية وكذلك الجمع فى قوله وان كانوا اخوة باعتبار الخبر (فلهما الثلثان مما ترك) الاخ ان لم يكن له ولد كما سلف وما فوق الاثنتين من الاخوات يكون لهن الثلثان بالاولى (وان كانوا) أى من يرث بالاخوة (اخوة) أى واخوات فغلب الذكور على الاناث أو فيها اكتفاء بدليل (رجالا ونساء) أى مختلطين ذكورا واناثا (فللذكر) منهم (مثل حظ الانثيين) تعصيبا (يبين الله لكم) حكم الكلالة وسائر الاحكام كراهة (ان تضلوا) هكذا حكاه القرطبي عن البصريين وبه قال فى الكشاف وتبعه القاضي ورجحه وقال الكسائي المعنى لئلا تضلوا ووافقه الفراء وغيره من الكوفيين قال أبو عبيد روينا للكسائي حديث ابن عمر لايدعو أحدكم على ولده أن يوافق من الله ساعة اجابة فاستحسنه أى لئلا يوافق (والله بكل شئ) من الاشياء التى هذه الاحكام المذكورة منها (عليم) أى كثير العلم يعلم مصالح العباد فى المبدا والمعاد وفيما كلفهم من الاحكام وهذه السورة اشتمل أولها على كمال تنزه الله وسعة قدرته وآخرها اشتمل على بيان كمال العلم وهذان الوصفان بهما تثبت الربوبية والالوهية والجلال والعزة وبهما يجب أن يكون العبد منقادا للتكاليف قاله أبو حيان روى الشيخان عن البراء انها آخر آية نزلت من الفرائض وروى عن ابن عباس آخر آية نزلت آية الربا وآخر سورة نزلت اذا جاء نصر الله والفتح وروى انه صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما نزلت

قال فلقيت الفضيل بن عياض بكابه فى المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه وقال صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى ثم قال أنت ممن يكتب الحديث قال قلت نعم قال فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبى عبد الرحمن الينا وأملى على الفضيل ابن عياض حدثنا منصور بن المعتمر عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رجلا قال يارسول الله علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله فقال هل تستطيع ان تصلى فلا تفتر وتصوم فلا تفطر فقال يارسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم فوالذى نفسى بيده لو طوقت ذلك مابلغت المجاهدين فى سبيل الله أوما علمت ان فرس المجاهد ليستن فى طوله فيكتب له بذلك الحسنات وقوله تعالى واتقوا الله أى فى جميع أموركم وأحوالكم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه الى اليمن اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن لعلكم تفلحون أى فى الدنيا والآخرة وقال ابن جرير حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا أبو صخر عن محمد بن كعب القرظى انه كان يقول فى قول الله عز وجل واتقوا الله لعلكم تفلحون يقول اتقونى فيما بينى وبينكم لعلكم تفلحون غدا اذا لقيتمونى انتهى آخر تفسير سورة آل عمران ولله الحمد والمنة نسأله الموت على الكتاب والسنة

أمين

سورة النصر عاش عاما ونزلت بعدها براءة وهي آخر سورة نزلت كاملة فعاش صلى الله عليه وآله وسلم بعدها ستة أشهر ثم نزلت في طريق حجة الوداع يستفتونك الآية فسميت آية الصيف لانها نزلت في الصيف ثم نزلت وهو واقف بعرفة اليوم

اكملت لكم دينكم فعاش بعدها أحدا وثمانين

يوما ثم نزلت آية الربا ثم نزلت واتقوا يوما

ترجعون فيه الى الله فعاش

بعدها احدى

وعشرين

يوما

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله سورة المائدة)

(قال مصححه)

ولما سطعت شمس هذا الكتاب البهيج بتونس الغراء وتضوع عرفه الاريج بساحتها الفيحاء وتبدت خوده الحسان تميس بحسنها عجبا ورآها أرق انسان مزاجا فحظيت عنده وشغفت قلبه حبا ألا وهو السيد السند من عليه فى حل المشكلات وفك المعضلات يعتمد الذكى الاديب العلامة الهمام الاريب مولانا الشيخ محمد العربى زروق التونسى أمير اللواء ورئيس المجلس البلدى وقتئذ قرظه فقال

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى كرم الانسان وفتح له أبواب البيان والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى حل من الفصاحة أعلى مكان وخصه الله تعالى بمعجزة القرآن نزل به الروح الامين على قلبه ليبين للناس مقاصده ويبلغ لهم ما أمر به من ربه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وأتباعه وحزبه ﴿أما بعد﴾ فان الله سبحانه وتعالى قد من على وله الشكر بلا نكر بأن أوصل الى التفسير الشريف الذى يبذل فيه التالد والطريف المسمى بفتح البيان فى مقاصد القرآن تأليف لسان أهل التفسير ومنطق ذوى التعبير جامع مرتبتى المعقول والمنقول حائز فضيلتى الفروع والاصول حبر العلوم النقلية وبحر الفنون العقلية بغية القصاد وبقية أهل الاجتهاد السيد الامام العلامة الاصولى المتكلم المحدث الفهامة الذى انعقد الاجماع على أنه الرئيس المقدم واذا ما رايه مجد رفعت فهو المتلقى لها باليمين وليس ثم من يتقدم صاحب الحسب الحائز لأعلى شرف فى العلم والنسب عز الاسلام واسطة عقد العلماء الاعلام ذى الفخر السنى الشريف الحسنى أبى الطيب سيدنا صديق بن حسن بن على البخارى القنوجى أبقاه الله تعالى بحرا يتقاذف موجه بالدرر وعقدا فى جيد الدهر يتلألأ بالغرر بحرمة من لولاه لم يخلق القلم ولم يتعلم الانسان ما لم يعلم فتأملت فيه وأمعنت النظر فى معانيه فلم أجد أبهج منظرا ولا أحسن مخبرا من لطافة مبانيه فلله دره من تفسير فائح فى أنوف البلغاء نشر عرفه وحصن مشيد على الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلعمرى ان هذا هو التأليف الذى يفتخر به العالمون ولمثل هذا فليعمل العاملون فيه من دقائق العلوم ولطائف الفهوم ما لم يحوه كتاب ان هذا لشئ عجاب فجزى الله مؤلفه عن المسلمين خيرا فانه أفادهم وقلدنا النعم أجيادهم وأنالهم بمحض الفضل منه مرادهم اذ ليس كل من صنف أجاد ولا كل من قال وفى بالمراد فلقد أقرت بفضله أعيان النبلاء وترنمت بالثناء عليه ألسن الفضلاء وانى مع اعترافى بالقصور عما يستحقه من الثناء ويستوجبه من المدائح المشرقة السناء أسأله الاغضاء عما يراه بتقريظى هذا من الخلل والعيب وتوجيه الهمة لنا ولا ننا بالدعاء بظهر الغيب والله تعالى يوضح بصفاء خواطره الخطيرة غوامض الحقائق ويملأ

بعوارفه ومعارفه المغارب والمشارق مالاح بارق وذر شارق آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

كتبه محمد العربي زروق التونسي
أمير اللواء ورئيس
المجلس البلدي

وكتب الشيخ العلامة السيد محمد بن صالح النيفر الشريف الحسني التونسي المدرس بجامع الزيتونة في ٢ شعبان سنة ١٢٩٦ هجرية مقرظا فقال * وصلني فتح البيان في مقاصد القرآن في مجلدات هدية من مؤلفه مولانا علامة العصر ومن مصنفاته جلت عن الحصر المحقق المدقق الهمام النحرير قدوة النحول وفحل العلماء المشاهير الشيخ السيد أبي الطيب الحسيني القنوجي أدام الله مجده وأبد في سماء السعود سعده فتلقيته بالاجلال والاعظام وحملته على كاهل المبرة والاكرام وأمعنت النظر فيه فوجدته درة تاج العرفان وياقوتة جادبها في هذا الزمان

حلف الزمان لياتين بمثله * حنثت يمينك يا زمان فكفر

والله أسأل أن يحشرنا جميعا في زمرة سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وسلم آمين

﴿وكتب في ٢٣ رمضان سنة ١٢٩٦﴾

شرفني ما تفضل به جناب هذا الربع المعمور وعلمه وصالح الملوك تشهد بذلك آثاره وقلمه السيد محمد صديق حسن خان النواب العلوي الفاطمي الحسيني من تفسير القرآن العظيم الذي أبدع في تحريره ورصفه وعجز لسان القلم وقلم اللسان عن الثناء عليه ووصفه لعمري ان العين لم ترفي بابه مثله ولم يأت فيما علمت عالم بنظيره قبله فالله يتقبل سعيه وعناه ويجعله له من العمل الذي لا ينقطع بعد لقاه ويطيل عمره في عز وتمكين ويجري على يديه مصالح الدنيا والدين هذا وحق المنصف المستنير له السالم من داء الحسد جسده وقلبه أن يكحل باثمد تحقيقات هذا التفسير أجفانه وأن يصرف في مطالعته وتدريسه عمره وزمانه والله أسأل أن يبلغ مؤلفه من خيري الدنيا والآخرة غاية المأمول وأن يعيننا على مكافأته بالمثابرة على صالح الدعاء له يرفع على أكف القبول وأرجو أن أحظى ببقية مؤلفاته وأحلى صدر خزانتي بعد مطالعتها بسائر مصنفاته ولو ساعدني القدر لطويت البلاد واستعملت الرحلة اليه وأخذت نفائس العلوم من أصلها بين يديه والله يثيب العبد على صالح أمله ومن الوارد نية المؤمن خير من عمله

الداعي محمد الطيب النيفر الشريف
الحسني خادم العلم بالديار التونسية
صانها الله من كل بلية

(وكتب الشيخ الفاضل مصطفى باشى فى شعبان سنة ١٢٩٦)

وصلنى التفسير ذو القدر الخطير المسمى فتح البيان فى مقاصد القرآن فسرحت الطرف فى رياضه وأمعنت النظر فى مقاصده واغراضه فألفيته كتابا جلا من أفكار نكاته ماهيم الالباب وأوضح بغامض رموزه ماشوهدت به جنة العوارب مفتحة الابواب فكم فيه من تحارير مباحث كانت تحير الافكار ومن اقتناص شوارد أحجمت عنها ذوو الانظار ظلت به عقول النحارير حيارى فترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولعمرى انه لمن أجل كتب التفسير فائدة وأعودها للمستفيدين عائدة مفتقة أزهاره دانية للهاصرين ثماره أبدع فى بيان مقاصد الكتاب الحكيم وأوضح بايجازه ما للمفسرين من العليل السقيم والصائب المستقيم بيد أنه الفلك الجامع والغيث الهامع النابع فهو وايم الله عنوان على فضل مؤلفه البارع ومبدعه البدر الطالع العالم الحلاحل والخائض أكبر بحر وقفت النقاد عند ذلك الساحل واسطة السلوك والبالغ فى شهامته مقام الملوك ألا وهو ذو الفخر الحقيق ومن بكل مكرمة خليق أبو عبد الله العتيق السيد محمد صديق صاحب الشان والبال الامير بحروسة بهوپال لازال ثغر سعده باسما وأيام دولته مواسما ونسأل البارئ سبحانه أن يجعل سعيه مشكورا وحظه من خيرى الدنيا والآخرة موفورا ودام له السعادة ورزق الحسنى وزيادة

من الفقير الى رب عبده
مصطفى باشى
أخذ الله بيده

۱۳/۶/۷۹ع

ص۔ف

۲۰/۶/۷۹

آخری درج شدہ تاریخ پر یہ کتاب مستعار
لی گئی تھی مقررہ مدت سے زیادہ رکھنے کی
صورت میں ایک آنہ یومیہ دیرانہ لیا جائے گا۔